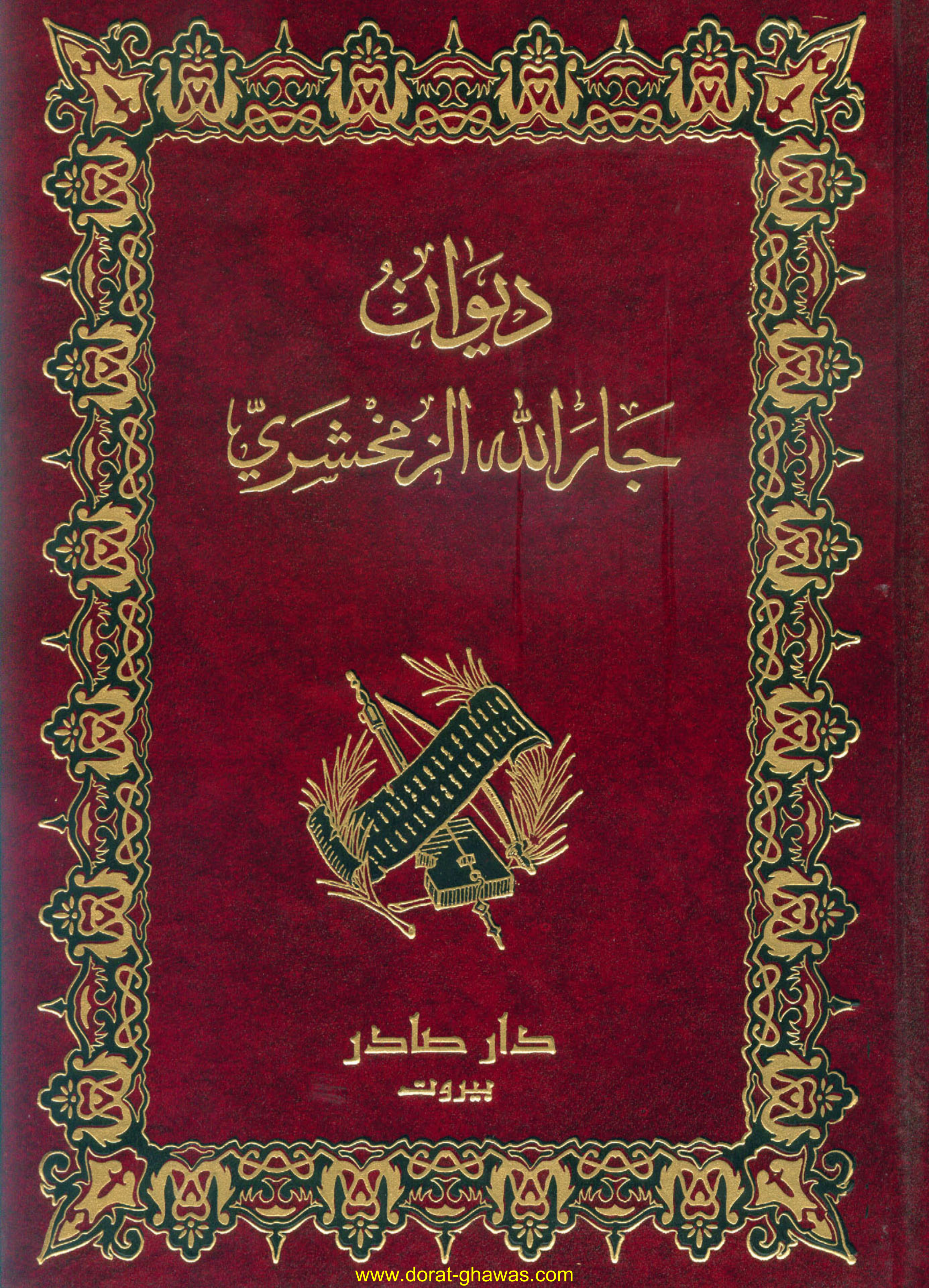
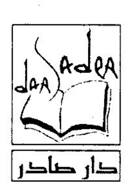

ديوان
جار الله الزمخشري
دار صادر
بيروت

دِيوَانُ
جَارِ اللهِ الزَّمَخْشَرِيِّ



الطبعة الأولى

1429هـ - 2008 م



تأسست سنة 1863

ص. ب ١٠ بيروت ، لبنان
© DAR SADER Publishers
P.O.B. 10 Beirut, Lebanon
Fax: (961) 4.910270
e-mail: dsp@darsader.com
http: www.darsader.com

Diwān Jār-Allāh al-Zamakhšarī

p. 624 - s. 17.5x25 cm
ISBN 978-9953-13-174-0



ديوان جار الله الزمخشري

شرح

فاطمة يوسف الخيمي

دار صادر
بيروت

عِشْتُ

في بديعِ نظمِكَ

ودعَوتُ

اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أنْ يغفِرَ لكَ اعتزالَكَ

وهذا

بيانُكَ منكَ وإليكَ

فاطمة يوسف الخيمي

٢٨ تموز ٢٠٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

إني أحمدُكَ يا ربِّ حمدَ الشاكرينَ ، وأدعوكَ أنْ تتقبَّلَ جِدّي ، وتجعلَني في مصافِّ الذينَ رضيتَ عنهمْ ، وبَشَّرْتَهُمْ بالفوزِ برحمتِكَ يومَ الحسابِ .

أمّا بعدُ فإنَّ أفضلَ أيامِ المرءِ وأسعدَها التي يقضيها في البحثِ العلميِّ لقولِهِ ـ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ـ : « مَنْ سَلَكَ طريقاً ، يلتمسُ فيه علماً ، سهَّلَ اللهُ لهُ طريقاً إلى الجنةِ » [سنن أبي داوود ح٤ رقم الحديث ٣٦٤١] .

وقد أنارَ اللهُ ـ جَلَّ شأنُهُ ـ طريقَهُ لي ؛ وسَهَّلَ لي سُبُلَ التفكيرِ والكتابةِ ، وعَوَّضني عنْ كلِّ ما حُرِمْتُ منهُ في طفولتي وصِباي وشيخوختي ، فتناولْتُ بابَ تحقيقِ بعضِ أمهاتِ الكتب والتأليفِ ، فأنْجَزْتُ ثلاثةَ كتبٍ في القرآنِ الكريمِ : الأولُ : (وجوهُ القرآنِ العظيمِ) لمؤلِّفِهِ إسماعيلَ بنِ أحمدَ الضريرِ الحيريِّ النَّيسابوريِّ المُتَوَفَّى بعدَ سنةِ / ٤٣٠/ هـ بيسيرٍ ، والثاني : (الوجوهُ والنظائرُ لألفاظِ كتابِ اللهِ ومعانيها) لمؤلِّفِهِ الحسينِ بنِ محمدٍ الدامغانيِّ المُتَوَفَّى سنة / ٤٧٨/ هـ ، والثالثُ : (تفسيرُ القرآنِ العظيمِ المُسَمَّى : تأويلاتِ أهلِ السنةِ) لمصنِّفِهِ محمدِ بنِ محمدِ بنِ محمودٍ الماتريديِّ السمرقنديِّ الحنفيِّ المُتَوَفَّى سنة / ٣٣٣/ هـ ، وهي بفضلِ اللهِ ـ جَلَّ ثناؤُهُ ـ وكرَمِهِ بينَ أيدي طلبةِ العلمِ .

وها هو الكتابُ الرابعُ في شرح أبياتِ ديوانِ جارِ اللهِ الزمخشريِّ البالغِ عددُها / ٥٤٠٨/ ثمانيةَ أبياتٍ وأربعَ مئةِ بيتٍ وخمسةَ آلافِ بيتٍ ، وكانَ اعتمادي ديوانَهُ الذي حققَهُ الدكتور عبد الستار محمد ضيف ، وقمتُ بتصويبِ الأخطاءِ المطبعيَّةِ التي لا تَخْفى على أحدٍ دونَ الإشارةِ إليها .

وقد دفعني إلى ذلكَ إكباري العظيمُ لغتي العربيةَ الأمَّ التي قَدَّسَها اللهُ تعالى في كتابِهِ العزيزِ بقولِهِ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر/ ٩] وإجلالي كلَّ مَنْ جَهَدَ نفسَهُ لبيانِ فضلِها على لغاتِ البشرِ .

ومَنْ يقارِنْ بينَ كتابِ (أساس البلاغة) وديوانِهِ يَجِدْ أنهُ أرادَ أنْ يستمرَّ في بيانِ عظمةِ اللغةِ العربيةِ وعرضِ معاني ألفاظِها وتراكيبِها .

لكنهُ، رحِمَهُ الله، قد غالى بتعصُّبِهِ لمذهبِ الاعتزالِ، ولم يتراجَعْ عنه إلى آخرِ عمرِهِ.

فاطمة يوسف الخيمي

مُقَدِّمَة

موجزٌ عنْ حياةِ الزمخشريِّ

هو محمودُ بنُ عمرَ أبو القاسمِ جارُ اللهِ الزمخشريُّ الخوارزميُّ الحنفيُّ[1] .

قالَ عامرُ بنُ الحسنِ السمسارُ ابنُ أختِ محمودٍ : « وُلِدَ خالي بزمخشرَ يومَ الأربعاءِ السابعَ والعشرينَ منْ شهرِ رجبٍ سنةَ سبعٍ وستينَ وأربعِ مئةٍ ، وتُوُفِّيَ بقصبةِ خوارزمَ ليلةَ عرفةَ سنةَ ثمانٍ وثلاثينَ وخمسِ مئةٍ »[2] .

كانَ والداهُ صالحَينِ ، وقد جَهَدَ أبوهُ نفسَهُ ليعيشَ أولادُهُ قانِعينَ بالكُفْيةِ ، ثم دفعَ ابنَهُ محموداً إلى خيّاطٍ ليعلِّمَهُ حرفتَهُ . ولما وجدَ محمودٌ نفسَهُ ، لا تميلُ إلى الخياطةِ ، وترغَبُ في طلبِ العلمِ ، استعطفَ والدَهُ ، وقالَ لهُ : « احمِلْني إلى البلدِ ، واتركني بهِ »[3] .

وكانَ لمحمودٍ ما أرادَ ، وكانَ رحيلُهُ الأوّلُ إلى بُخارى كعبةِ العلمِ آنذاكَ ، ثم تَنَقَّلَ إلى بيوتِ العلمِ : خوارزمَ وأصفهانَ وخراسانَ وغيرِها على الرغمِ منْ عجزِهِ بسببِ وقوعِهِ عنِ الدابةِ وكَسْرِ رجلِهِ . . . واسْتَقَى منْ أربابِ العلمِ علومَ القرآنِ الكريمِ والحديثِ الشريفِ وعلومَ اللغةِ العربيةِ وعلومَ الفقهِ وعلمَ الكلامِ .

وكانَ محمودُ بنُ جريرٍ الضَّبِّيُّ الأصفهانيُّ أبو مضرَ أبرزَ شيوخِهِ ؛ أخذَ عليهِ علومَ اللغةِ العربيةِ ، ورثاهُ غير مرّةٍ معترفاً بفضلِهِ عليهِ[4] .

---

(١) الجواهر المضية ح٣/ ٤٤٧ و٤٤٨ ـ الفوائد البهية ص٣٤٣ ـ وفيات الأعيان ح٥/ ١٧١ ـ ١٧٣ ـ الكامل في التاريخ ح٩/ ١٣٠ ـ الأنساب ح٦/ ٢٩٧ ـ إنباه الرواة ح٣/ ٢٦٥ ـ ٢٧٢ ـ تاج التراجم ص٢٩١ و٢٩٢ ـ بغية الوعاة ح٢/ ٢٧٩ ـ معجم البلدان ح٢/ ٤٥٥ ٢/ ٤٥٥ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ح١٨/ ٣٧ .

(٢) نزهة الألباء ص٣٩١ ـ ٣٩٣ .

(٣) مفتاح السعادة ح٢/ ٨٧ ـ ٨٩ .

(٤) نزهة الألباء ص٣٩١ .

ولما بلغَ الزمخشريُّ منَ العلومِ قَدْراً وافياً ، يتيحُ لهُ الحديثَ عنها ونَقْلَها ، جَلَس لطلابهِ في حَلَقاتٍ ، تَخَرَّجَ بها كثيرونَ ، وربَطَتْهُمْ بهِ عرا الصداقةِ ، وأجازَ لأكثرِهمْ تَمَكُّنَهُمْ ممّا حَفِظوا ، ورَوَوا ، وكتبوا ، وجلَسَ مكانَهُ منهمْ في حَلَقاتِهِ أبو الفضلِ محمد بنُ أبي القاسمِ الخوارزميُّ البقاليُّ[١] .

وكانَ كثيراً ما يُناقشُ طلابَهُ ، ويستنيرُ بآرائهمْ ، ويَعْتَدُّ بها ، ويُسَجِّلُها في كتبِهِ ، ولا نزالُ نقرأُ ما دارَ بينَهُ وبينَ طالبِهِ رشيدِ الدينِ الوطواطِ في كتابِهِ (رؤوس المسائلِ)[٢] .

وحظِيَ الزمخشريُّ منَ العلماءِ معاصريهِ وخلفائِهِ بالذكرِ الحسنِ والثناءِ العظيمِ ، ولم يأخذْ بعضُهُمْ عليه إلاّ مذهبَ الاعتزالِ إذْ قالَ عنهُ ابنُ حَجَرٍ : « إنهُ صالحٌ ، لكنه داعيةٌ إلى الاعتزالِ ، أجارَنا اللهُ ، فكُنْ حَذِراً منْ كشّافِهِ انتهى »[٣] .

ومدحَهُ ابنُ وهّاسٍ شريفُ مكةَ ردّاً على مدائحِهِ[٤] .

وكثرتْ أسفارُ محمودٍ الزمخشريِّ ، وحطَّ رحالَهُ في مكةَ المكرمةِ أوّلَ مرّةٍ سنةَ اثنتينِ وخمسِ مئةٍ ، وأقامَ فيها مدةً ، واتَّصَلَ بشريفِها عُلَيِّ بنِ عيسى ، وربطَتْهما صداقةٌ متينةٌ ، لكنه سَرْعانَ ما اشتَدَّ حنينُهُ إلى مسقطِ رأسِهِ ، فعادَ إليهِ ، ولبثَ مدةً ، اعتنقَ فيها مذهبَ الاعتزالِ ، ثم عاوَدَهُ الحنينُ إلى مكةَ المكرمةِ ، فرحلَ ثانيةً إليها سنةَ ثماني عشرةَ وخمسِ مئةٍ ماراً بالشامِ ، وأقامَ بمكةَ المكرمةِ مجاوراً الحرمَ الشريفَ بينَ زمزمَ ومُقامِ سيدنا إبراهيمَ ـ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ـ يكتبُ أشهرَ كتبِهِ ، ويَجلسُ لطلابهِ ، يلقي عليهم بدائعَ فكرِهِ .

ولما أحسَّ ببوادرِ الشيخوخةِ ، عادَ إلى موطنِهِ ماراً ببغدادَ ، ووافَتْهُ منيَّتهُ

---

(١) معجم الأدباء ج٧/ ٨٧ ـــ ٨٩ .

(٢) رؤوس المسائل ص٥٢ .

(٣) لسان الميزان ج٨/ ٨ .

(٤) نزهة الألباء ص٣٩٣ . إنباه الرواة ج٣/ ٢٦٨ .

بجرجانيةِ خوارزمَ ، وهي قريةٌ صغيرةٌ تابعةٌ لها سنةَ ثمانٍ وثلاثِينَ وخمسِ مئةٍ[1] .

وتركَ جارُ اللهِ تُراثاً ثرًّا ، أغنى الفكرَ الإسلاميَّ في علومِ الدينِ في تفسيرِ القرآنِ الكريمِ والحديثِ الشريفِ وعلومِ اللغةِ العربيةِ وعلومِ الفقهِ وعلمِ الكلامِ .

وذكرَ أسماءَ كتبِهِ محققُ كتابهِ (رؤوسُ المسائلِ الخلافيّةِ بينَ الشافعيةِ والحنفيةِ) عبدُ اللهِ نذير أحمدَ ، وعدَّها ، فكانَتْ أربعين كتاباً[2] هي في مصافِّ مصنفاتِ أُمّهاتِ الكتبِ العربيةِ الإسلاميّةِ إلى أبدِ الآبدينَ .

(١) الفائق في غريب الحديث ح١/ ٩ .

(٢) رؤوس المسائل ص٤٢ ـ ٤٦ .

بسم الله الرحمن الرحيم

قالَ عبدُ اللهِ الفقيرُ إليهِ محمودُ بنُ عمرَ الزمخشريُّ، رحمةُ اللهِ عليهِ: أبدأُ بحمدِ اللهِ على هدايتهِ لأقْوَمِ السبلِ، وأُثَنّي بالصلاة على خاتمِ الأنبياءِ والرسلِ. [أمّا بعدُ](١) فإنَّ الذكرَ مضمارٌ لحمدِ اللهِ، فيهِ قُدْمةُ(٢) المُجَلِّي(٣) والصلاةَ على مصطفاهُ محمدٍ، هي قُدوتُهُ(٤) المُصلِّي(٥). وأتَّخِذُهما ذريعتي(٦) إلى منْ لا أَشيمُ(٧) إلاّ مَخايلَ(٨) جودهِ، ولا أُسيمُ(٩) إلاّ في خمائلِ نُجودِهِ، ولا أَقتدحُ(١٠) إلاّ بزنادِ فضلِه التي لا تَصلَدُ(١١) ولا أصطبُ(١٢) إلاّ منْ مَزادِ كرمِهِ الذي لا يُصَرَّدُ(١٣)، ولا أستَجْدِي إلاّ مَنِ الأفقرُ إليهِ، هو الأغنى، وإلاّ مَنِ المَلَقُ(١٤) بين يديه، هو الخطرُ الأسْنى(١٥).

وإيّاهُ أسألُ تحتَ سُجوفِ(١٦) الظلامِ، وإليه أجأرُ في ساعاتِ النُّيّامِ أنْ يُقَمِّصَني شِعارَ(١٧) التوبةِ النصوحِ، ويَنفَحَ لي بطيب الجسدِ والروح، حتى إذا تَوَفّاني الملَكُ الموكَلُ بقبضِ الأَرواحِ ألفاني في ذُنابَى(١٨) قُبّةِ السَّتْرِ والصلاحِ.

وللهِ عندي أيادٍ عَمٌّ(١٩) لا تعطو(٢٠) يدُ الشاكرِ سُحوقَها(٢١)، بل لا يستطيعُ باعُ الواصفِ لُحوقَها(٢٢).

ومِمّا أجَلَّ الصنعَ فيه إناختي ... بمكةَ مَرْضِيّاً مُراداً ومَوردا
ولولا ابنُ وَهّاسٍ(٢٣) وسابغُ فضلِهِ ... رعَيتُ هشيماً، واسْتَقَيتُ مُصَرّدا(٢٤)

---

(١) ساقطة من ط. (٢) قُدمة، سَبْق. (٣) المُجَلِّي: الفرسُ السابقُ. (٤) قُدْوة: مثلثة، ما اقتديتُ به. (٥) الفرس التالي السابق، والمقصود هنا: المؤدي الصلاة. (٦) ذريعتي: وسيلتي. (٧) أشيمُ: شامَهُ يَشيمُه: نظر إليه. (٨) مخايل: مظانّ. (٩) أُسيم: أسام يُسيم: رعى. (١٠) أقتدحُ: اقتدحَ الأمر: دبّره. (١١) تصلُد: ككرُم: صَلُد الزند: صَوَّت، ولم يور. (١٢) اصطب: أراق. (١٣) يُصَرَّدُ: يُقَلّل. التصريد: التقليل، وفي السقي دون الرِّيِّ. (١٤) الملَق: الودّ. (١٥) الخطر الأسنى: الشرف الأرفع. (١٦) سُجوف: مفرده سَجْف، وهو السِّتْر. (١٧) يُقَمِّصني شِعارَ: يلبسني لباسَ. (١٨) ذُنابَى: ذَنَب والمقصود: ناحية. (١٩) عَمٌّ: كثيرة. (٢٠) تَعْطو: تتطاول لتتناول. (٢١) سحوقها: سحُق كَكَرُمَ: بَعُد. (٢٢) لحوقها: لحِق به: أدركه. (٢٣) ابن وهّاس: شريف مكة آنذاك، وهو عُلَيُّ بنُ عيسى بن حمزة بن وهاس. (٢٤) مُصَرّداً: من التصريد، وهو التقليل، وفي السقي دون الرِّيِّ، وهذان البيتان من الطويل.

وما شكري ذلك يا ذا الشرَفَينِ ويا ابنَ ذي المجدَينِ، ويا أطيبَ ذراري بيتِ النبوةِ والرسالةِ، ويا أضْوأَ دراري[25] أفُقِ المُلْكِ والإيالةِ[26]، ويا أزْخَرَ بُحورِ العلمِ لُجَجاً، ويا أزهرَ نَحاريرِهِ[27] حُجَجاً، ويا مَنْ وَسَمَ سيماءَهُ[28] شرفُ النبوةِ بسيماتِهِ[29] وقسمَ بَهاءَهُ على قَسَمَاتِهِ، ويا أفضلَ منْ يخطو في بطحاءِ مكةَ بقدمٍ، وأكرمَ منْ يَخُطُّ في صحايفِ المجدِ بقلمٍ، إلاّ كما شَكَرَتْ روضةُ الحَزْنِ[30] شكري له صَنيعةَ عارضِ المُزْنِ، تَحُثُّ عليها روائحُهُ[31] البواكي، فَعَجَّتْ[32] مُثْنِيَةً عليه روايحُها الذّواكي[33] تُضاحِكُ الشرقَ بالكوكبِ الشرقُ[34]، وتُباكي الواكفَ بالوادقِ[35] الأزيرقِ[36] متى يأتِ[37] ذوائبَها أنفاسُ الصَّبا، نشرَتْ مطارِفَ[38] نباتِها فوق الرُّبا، أو كشكرِ ضارعِ الخدِّ محارَبِ الجَدِّ[39] قد حارَدَتْ[40] سنوهُ[41] واجتيحَ[42] مالُهُ، وبنوهُ، وثَمِدَتْ[43] أعدادُ[44] نعمتِهِ، وبَكُؤَتْ أخلافُ طُعْمتِهِ[45]، ذي عيشٍ قاحلٍ في بلدٍ ماحِلٍ قَمْدٍ[46] أحاَط بهِ المَحْلُ، وأناخَتْ به كَحْلٌ[47]، لم تَضْرِبْهُ قطرةٌ حولاً قميطاً[48]، حتى آضَ[49] مَرْتاً[50] مُحْبَطاً[51]. وعَدَهُ اللهُ مع العسرِ يُسْرَينِ[52] فأنْجَزَ له العِدَةَ، وكتبَ لهُ غِبَّ الإملاقِ الجِدَةَ، وأعقبَهُ إثْرَ يُبْسِ الثرى الماءَ الغَدَقَ، وأدهقَ[53] له كأسَ النعيم، فأفْهَقَ[54]، وغُيِّبَتْ عنه نجومُ الخيبةِ أُفَّلاً، وأدركَهُ ضروعُ الغَورِ حُفَّلاً.

فهو في صفوةٍ منَ العيشِ الرَّغَدِ، وفي يومٍ يَتيهُ على الأمسِ، ويسجُدُ للغَدِ. وأنا

---

(٢٥) دراري: مفرده دُرَّة، وهي اللؤلؤة العظيمة، منسوبة: دُرِّيَّةٌ. (٢٦) الإيالة: السياسة. (٢٧) نحاريره: مفرده: نحرير، وهو الفطن البصير بكل شيء. (٢٨) وسمَ سيماءه: رسم علامته. (٢٩) بسيماته: مفرده سيمة، وهي العلامة أيضاً. (٣٠) الحَزْن: ما غلظ من الأرض. (٣١) روائحه: مفرده رائحة، وهي: مطر العشي. (٣٢) فَعَجَّتْ: فصاحَتْ. (٣٣) روايحها: مفرده رايحة، وهي النسيم، الذواكي: مفرده الذاكية، وهي السحابة الماطرة مرّةً بعد مرّةٍ. (٣٤) الشرق: الأولى الضوء الذي يدخل من شق الباب، والثانية: الشمس. (٣٥) الواكف: القطر، والوادق: المطر. (٣٦) الأزيرق: مصغر الأزرق، والمراد لون ماء المطر. (٣٧) في ط: فيأت. (٣٨) مطارف: مفرده مطرف، وهو نهايةُ كل شيء. (٣٩) مُحارب الجد. محارب الرزق والحظ. (٤٠) حارَدَتِ الإبل: قلت ألبانها. (٤١) سنوه: مفرده سنة، وهي الجدب والقحط. (٤٢) اجتيح: أُهلِك، واسْتُؤصِل. (٤٣) وثَمِدَتْ: فَنِيَت وذَهبَت. (٤٤) أعداد: مفرده عِدّ، وهو الماء الجاري. (٤٥) بَكُؤت: بكأت الناقة: قلّ لبنها، أخلاف: مفرده خِلفة، وهي حلمة ضَرْع الناقة. (٤٦) قَمْد: شديد. (٤٧) كَحْل: شدة المحل والجدب. (٤٨) قميطاً: تاماً. (٤٩) آض: صار. (٥٠) مَرْتاً: مفازة بلا نبات. (٥١) مُحبَطاً: مُبطَلاً. (٥٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝﴾ [الشرح ٥ و٦]. (٥٣) وأدهقَ: ملأ. (٥٤) أفهق: فَهِقَ الإناء كفرح فَهْقاً، ويحرّك، امتلأ.

للأصدقاءِ النُّصَّحِ أشْكَرُ منْ بَرْوقةٍ(٥٥) وللأصفياءِ الخُلّصِ أوفَى منْ مُطَوَّقةٍ.

ولولا ذاكَ، وأنا أمرُكَ موسومٌ أخْدَعايَ(٥٦) بوجوب امتِثالِهِ موضوعٌ خدَّاي لاِحتِذاءِ مثالِهِ(٥٧)، لَلَقِيتَ مني حينَ اقْتَرَحْتَ عليَّ(٥٨) جمعي نفاثاتِ قريحتي(٥٩)، وطلبتَ إليَّ الإسجاحَ(٦٠) بِمُجاجاتِ سَجيحَتي(٦١) رُكْناً عنِ الإجابةِ(٦٢) مُزَوَّراً(٦٣) وجلْداً منَ المُساعفةِ(٦٤) به مُقْشَعِرّاً، ولصادفْتَ [باباً](٦٥) رَتِجاً(٦٦)، وعالجتَ بينَ يديه قُفْلاً عَسِراً مُسْتَلْحِجاً(٦٧) لأسبابٍ أقواها الحياءُ منْ مَقاوِلِ بَني الحَسنِ، وما أوتِيتْ منْ فصلِ الخطابِ وفَضْلِ اللَّسَنِ(٦٨) في نَثْرِ كلامِها الفائتِ ببلاغتِهِ طوقَ المُطيقِ(٦٩) ونظمِهِ الفاثِّ(٧٠) في عِقْدِ المُفَوَّهِ(٧١) المِنْطيقِ(٧٢)سليقةً ورثوها [عنِ](٧٣) الأبِ الأقدمِ، وشِنْشِنَةً(٧٤) عَرَفوها منْ أَخْزَمَ(٧٥). وأنتَ من بينهم فارسُ المنثورِ والمنظومِ، وماصَغُّ(٧٦) الشيحِ والقَيصومِ يُبْطِلُ عندك فخرَ وائلٍ بسحبانَ، ولا يَعْدِلُ فَحْلا مُضَرَ بِخِنْديذِ(٧٧) قحطَانَ.

وقد لَزَّني ما يُكَرِّدُ(٧٨) عليَّ مِنْ إصغائكَ إلى الإسماحِ بطليبتِكَ وإلقاءِ البالِ إلى تجهيزِ خطيبَتِك منَ المُدَوَّنَتَينِ المُؤْتَسَى(٧٩) فيهما لِمَنْ زَفَّ النواقيَ الطنابيبَ وَسِخاتِ(٨٠) العراقيبِ إلى منْ عندَهُ النواشئُ(٨١) في المقاصيرِ(٨٢) الحوالي(٨٣) بالتقاصيرِ(٨٤).

وما هي مني إلاّ إقدامةُ مُتَهَوِّكٍ(٨٥) واقتِحامةُ مُتَفَتِّكٍ(٨٦) واغترارٌ باستجادتِك واستِنامةٌ

---

(٥٥) جاء في القاموس المحيط: البروق كَجَرْوَل: شُجيرة ضَعيفة إذا غامت السماء اخضرت، الواحدة بهاء، ومنه أشكر من بروقة. (٥٥) جاء في القاموس المحيط: البروق كَجَرْوَل: شُجيرة ضَعيفة إذا غامت السماء اخضرت، الواحدة بهاء، ومنه أشكر من بروقة. (٥٦) أخدعاي: مثنى مفرده أخدعَ وهو عرق في صفحة العنق، وثُنِّي على التغليب، واللِّيت في صفحة العنق الأخرى. (٥٧) لاحتذاء مثاله: للاقتداء به. (٥٨) من ط. (٥٩) قريحتي: طبعي. (٦٠) الإسجاح: حسن العفو. (٦١) سجيحتي: خلقي. (٦٢) من ط. (٦٣) مُزَوَّراً: الجمل الذي اعوجَّ صدرُهُ بخروجه من بطن أمه. (٦٤) المساعفة: المساعدة. (٦٥) ساقطة من ط. (٦٦) في ط: مُصَفَّقاً مرتتجاً. (٦٧) مستلحجاً: لا يُفْتح. (٦٨) اللسن: الفصاحة. (٦٩) طوق: وسع. المطيق: من الطاقة، وهي القدرة على الشيء. (٧٠) الفاثّ: المنثور. (٧١) المفوه: المنطيق. (٧٢) المنطيق: البليغ. (٧٣) ساقطة من ط. (٧٤) شنشنة: طبيعة وعادة. (٧٥) هو أخزم الطائي المعروف بطبيعته القوية. انظر مجمع الأمثال ١/ ٣٢٩. (٧٦) صَغٌّ: أكل كثير. (٧٧) خِنديذ: شاعر مجيد مفلق. (٧٨) يُكَرِّد من الكَرْد، وهو السوق. (٧٩) المؤتسى: من الأسوة، وهي القدوة. (٨٠) النواقي الطنابيب مفردهما الناقة الطنـ ـ، وهي المربوطة بحبل، في ط: الوسخات. (٨١) النواشئ: مفرده الناشئة. (٨٢) المقاصير: مفرده المقصورة، وهي الدار الواسعة المحصنة. (٨٣) الحوالي: مفرده الحالية، وهي ذاتُ الحَلْي. (٨٤) التقاصير: مفرده التِّقصارة، وهي القلادة. (٨٥) مُتَهَوِّك: مُتَحيِّر لا يهتدي لسبيله. (٨٦) مُتَفَتِّك: ماضٍ بأمره، لا يؤامر أحداً، ولا يشاور، ولا يتنصَّح.

إلى اسْتِعادتِك، وركونٌ إلى قولكَ في كثيرٍ منها: هو بكلامِ القدماءِ أشبهُ مِنَ الماءِ بالماءِ، وقضائكَ لِلنَّبَوِيَّاتِ بإصابةِ المِحَزِّ[٨٧] وإقبالِكَ على المَكِّيَّاتِ بالمَنْكِبِ المُهْتَزِّ وإلحاقِكَ العربيةَ بِحَولِيٍّ[٨٨] العربِ المُنَقَّحِ[٨٩] وتشبيهِكَ أبياتَها بالعِرابِ القُرْحِ[٩٠] وشهادتِكَ للحكيمةِ بما أمالَ منْ عِطفِها، ونفخَ في قِحْفِها[٩١]، وإعجابِكَ بأخواتٍ لهنَّ منْ مُقَصَّداتٍ ومُقَطَّعاتٍ. ولعلّكَ السببُ في ما أُريدَ بهِ من التَّشهيرِ، وأُتيحَ لها منَ التأثيرِ والتسييرِ، واللهُ المُستَعانُ.

* * *

(٨٧) المِحَزِّ: اسمَ إله: حَزَّ يحزُّ: يقطع. (٨٨) بحولي: ما أتى عليه حول. (٨٩) المنقح: الشعر المهذب. (٩٠) بالعراب: بعدم اللحن في الكلام، القرح: أول كل شيء وابتداءه. (٩١) قحفها: قدحها.

حرف الهمزة / ١٠٠ / بيتٍ

☆☆ ١ ـ قالَ جارُ اللهِ محمودُ بنُ عمرَ الزمخشريُّ على بحرِ الكاملِ في التَّأسِّي :

١ ـ لَهْفي على ظبيٍ تعَقْـ ـقَلَ في حِبالَتِنا فُجاءَهْ

يا حَسرتي على غزالٍ ، تَمَسَّكَ بِمِصْيَدتنا ، فوقعَ فيها فُجاءةً .

٢ ـ قد غَرَّهُ المِلْواحُ ، والـ ـوحشِيُّ مَغرورٌ ، فَجاءَهْ

لقد خَدَعَهُ الأسدُ ، ودعاه إليهِ ، والوحشُ ، يُغَرَّرُ بهِ ، فأتاهُ .

٣ ـ لولا بَلاهةُ قانصٍ وسلامةٌ أتَتا وراءَهْ

ولولا غفلةُ صيادٍ وسلامةٌ منَ اللهِ ، تَبِعَتا هذا الغزالَ ،

٤ ـ فأجارتاهُ ، فَمَرَّ ، لا إحدى القطا تمضي مضاءَهْ

فأنقذَتاهُ ، وخرجَ منَ المِصْيَدَةِ آمناً كالقطاةِ ، تمضي إلى سبيلِها .

٥ ـ والشيخُ أسْقطَ خَدَّهُ في كَفِّهِ مَضَضَ المساءَهْ

وأسقطَ الشيخُ خَدَّهُ في كفِّهِ مُتَفَكِّراً بِما رأى ، وسمعَ ، متألماً منَ الشرِّ وإساءاتِهِ .

☆☆ ٢ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ :

١ ـ معاليكَ والسبعُ الطِّباقُ سواءُ : معالي الورَى أرضٌ وتلكَ سماءُ

إنَّ لكَ منازلَ عاليةً ، تساوي منازلَ سبعِ السمواتِ التي ترتقي على بعضِها ، وللناسِ بيوتٌ وقصورٌ في الأرضِ ، وأنتَ سماءٌ لَها .

٢ ـ لِآبائِكَ الشُّمِّ الغَطاريفِ نَطَّقَتْ خواصِرَها للخِدْمةِ الكُبَراءُ

وكانَ عظماءُ القوم ، قد لَفُّوا خواصِرَ آبائكَ ذوي الأنَفةِ الشرفاءِ بِحُجُزاتٍ ، تَشُدُّ أُزُرَهُمْ يومَ ذهبوا لِمُلاقاةِ أعدائهمْ .

٣ ـ كواكبُ في الدُّجى البهيمِ طوالعٌ إذا مَا ادْلَهَمَّ الخَطبُ فيهِ أضاؤُوا

هم في الظلمةِ الشديدةِ كواكبُ ، وفي البأسِ العظيمِ رجالٌ ، يُضيئُونَ دربَ النصرِ والفضيلةِ .

٤ ـ وأنتَ لهمْ نعمَ النَّجيبُ ولم يَزَلْ لِمِثلِهِمُ تُسْتَنْجَبُ النُّجباءُ

وأنتَ خيرُ مختارٍ لرئاستِهِمْ، وما زالَ أمثالُهمْ، يحلُمونَ، ويتَمَنَّونَ إنجابَ خَلَفٍ مُختارٍ لَهمْ .

٥ ـ فَتىً ماجدٌ حَيلاهُ عِلْمٌ وعِفَّةٌ وزَينُهُ أُكرومةٌ وحَياءُ

إنهُ شابٌّ كريمٌ شريفٌ ، شأنُهُ علمٌ وعفَّةٌ ، وزينتُهُ فعلُ الكرمِ والحياءُ .

٦ ـ ترى الماءَ يجري في أساريرِ وجهِهِ كما مارَ في صَفْحِ المُهَنَّدِ ماءُ

ترى ماءَ الحياءِ ، يلْتَمِعُ في ملامِحِ وجهِهِ كَما يَلْتَمِعُ جَرْيُ الماءِ في السيفِ المهنَّدِ .

٧ ـ لِيَهْنَ مواليكَ الذي لم تزَلْ لهمْ قلوبٌ وأحشاءٌ إليهِ ظِماءُ

فليَهْنأْ عبيدُكَ بسيِّدٍ ، أنتَ لَهمْ قلبٌ وأحشاءٌ ظامئةٌ لا تَحْيَى ، ولا ترتوي إلاَّ بِظِلِّكَ .

٨ ـ لئنْ عاينوا ما لم يشاؤوهُ مدَّةً فقد عاينوا ما حاولوهُ ، وشاؤوا

فلئنْ تحمَّلوا منْ قسوةِ الأيامِ ما لم يخطرْ على بالِهمْ فترةً ، فقد نالوا ما كانوا يرجونَهُ ، ويَعملونَ له .

٩ ـ أيا ابنَ الأُلي سادوا اصْطَنِعْني ، وراعِني لِيَمْلأَ مني مَسْمَعَيْكَ ثناءُ

يا ابنَ الذين كانوا سادةً اجعلْني صنيعتَكَ ، ولاحِظْني ، وأحسِنْ إليَّ أكُنْ لكَ مادحاً مالئاً الدنيا بذكرِ أفضالِكَ .

١٠ ـ ثناءٌ وعَتْهُ أُذْنُ كلِّ مُفَوَّهٍ ورقَّصَ منها هاماتِها البلغاءُ

ذلك مدحي الذي أدركَتْهُ عقولُ الخطباءِ الفصحاءِ ، ورقَّصَ رؤوسَهُمْ إعجاباً بهِ .

☆☆ ٣ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ يمدحُ عُبيدَ اللهِ :

١ ـ يُمْنُ عُبيدِ الله ، لَستُ أُغِبُّها شكْراً ، وليسَ يُغِبُّني نَعْماؤها

بَرَكَةُ عُبيدِ اللهِ ، لا أنقطعُ عن ذكرِها وشكري لَها يوماً ، لأنَّ عطيَّتَهُ تأتيني كلَّ يومٍ ، فتملؤني سعادةً ورِيًّا .

٢ ـ في كلِّ يومٍ منهُ سَيبٌ فائضٌ وقصيدةٌ مني يطيبُ ثناؤها

ففي كلِّ يومٍ يبعثُ إليَّ عطيَّةً عامرةً غامرةً ، فأنشدُ قصيدةً ، تطيبُ الأسماعُ بِمَعاني الوفاءِ لهُ والثناءِ عليهِ .

٣ ـ لا زلتُ مثلَ الأرضِ أُنْبِتُ شكرَهُ ويمينُهُ تَهْمي عليَّ سماؤُها

وإني مثلُ الأرضِ الخصبةِ ، أنشرُ مدحي إياهُ ، ويَمينُهُ مثلُ السماءِ الرحيمةِ ، تصبُّ عليَّ أفضالَها .

☆☆ ٤ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في الفخرِ :

١ ـ سيارةٌ خارِزْمُ مَسْقَطُ رأسِها ولَسوفَ يُسمَعُ بالحجازِ رُغاؤها

إنَّ قَصَائِدِي قافلةٌ عظيمة ، تجوبُ البلادَ ، وتَمْلَؤُها بأخبارِ خوارزمَ مسقطِ رؤوسِ أربابِها ، ويعرفُ أهلُ الحجازِ وصولَها من صوتِ إِبلِها . (انظرْ مادةَ رزم في القاموسِ المحيطِ) .

٢ ـ أورَدْتُهـا مُتنـاهبـاً منهـا الثـرى   عَـذْنـاً قصيـراً مـاؤهـا ورِشـاؤهـا

قد استعارَ الشاعرُ جارُ اللهِ لقصائدِهِ الراحلةَ القافلةَ فقالَ : إني أرسلتُها ، فتناهبَتْها الأرضُ ، ولم يَدَعْها ماؤها وفُصلانُ إبلِها تقيمُ طويلاً في مكانٍ .

٣ ـ أسْخـى بُنَـى الأيـامِ أنبـطَ مـاءَهـا   بيـدٍ يَطُـمُّ علـى البحـارِ عطـاؤهـا

وإنَّ أكرمَ ما بنَتْهُ الأيامُ إخراجُ الماءِ الغزيرِ الذي فاضَ ، وزادَ على البحارِ .

☆☆ ٥ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في تعزيةِ أمٍّ ابنَها بوفاتِها :

١ ـ أأبـا الـوفـا وفَيـتَ أيَّ وفـاءِ   وقَضَيـتَ فـوقَ شـرائـطِ الأبنـاءِ

لقد قَضَيتَ يا أبا الوفاءِ حقَّ والديكَ عليكَ وفاءً ، يفيضُ على ما على الأبناءِ مِنْ واجباتٍ نحوَ آبائهمْ .

٢ ـ ولَبِثْـتَ شهـراً كـامـلاً مُسْتَعْبِـراً   قَـرِحَ المـآقـي خـافـقَ الأحشـاءِ

وأقمْتَ على البكاءِ شهراً حتى تجرَّحَتْ جفونُكَ ، ومَرِضَتْ أحشاؤكَ .

٣ ـ إيهـاً فقـد حَقَّقْـتَ فـيَّ جميـعَ مـا   يحكـونَ فـي صخـرٍ عـنِ الخنسـاءِ

فكُفَّ عنِ البكاءِ ، فقد حَقَّقْتَ ، وتجاوزْتَ ما حكى الناسُ عنْ حزنِ الخنساءِ وبكائِها على أخيها صخرٍ .

٤ ـ وتَعَزَّ عني ، واسْلُ سلوةَ صابرٍ   وتَخَـطَّ قـولَـكَ : لاتَ حيـنَ عَـزاءِ

وصَبِّرْ نفسَكَ ، وحاولْ أنْ تنسى نسيانَ صابرٍ ، وتجاوَزْ قولَكَ : لاتَ حينَ عزاءِ .

٥ ـ أبُنَـيَّ إنـي فـي الجنـانِ مقيمـةٌ   أختـالُ بيـنَ ظليلـةِ الأفيـاءِ

فإني يا بُنَيَّ أقيمُ في جِنانِ الخلدِ ، أختالُ في الظلالِ والأفياءِ .

٦ ـ حَرَّ الجَحيمِ رضا الرحيمِ أعاذني   منـهُ ، وأنـزلَنـي منـزلَ الصُّلَحـاءِ

وقد ألجأني اللهُ الرحيمُ برضاهُ إليهِ ، وخلَّصَني منْ نارِ جهنمَ ، ووضعَني مع الصالحينَ .

٧ ـ فـي جنـةِ الفـردوسِ فـوقَ أريكـةٍ   فـي قبـةٍ مـنْ دُرَّةٍ زهـراءِ

وها أنا جالسةٌ في أعلى مراتبِ الجنةِ على سريرٍ تحتَ قبةٍ منحوتةٍ منْ لؤلؤةٍ زهراءِ اللونِ .

٨ ـ حَفَّتْ خيامُ الحورِ حَولَي قُبَّتي   فَيَزُرْنَ عَرْصَتَها صباحَ مساءِ
وها هي الحورُ العينُ قد أقمْنَ خيامَهُنَّ حولَ قُبَّتي ، ويَقُمْنَ بزيارةِ ساحتِها كلَّ صباحٍ ومساءٍ .

٩ ـ أعْزِزْ عليَّ بأنْ أراني هكذا   وأراكَ رَهْنَ الوَجْدِ والبُرَحاءِ
ما أعظَمَ رؤيتي ورؤيتَكَ هكذا ، وأعظمْ بالنعيمِ المقيمِ الذي أنا فيه وبوضْعِ نفسِكَ بالحزنِ العميقِ والشدةِ الكبيرةِ .

١٠ ـ أعْزِزْ عليَّ بأنْ تطولَ مَسَرّتي   وتُطيلَ أنتَ تَنَفُّسَ الصُّعَداءِ
وما أشَدَّ ما أجدُ منَ الحَرَجِ حينَ أقابلُ حالي في طولِ سُروري بحالِ حزنِكَ الشديدِ وآهاتِكَ الطويلةِ .

١١ ـ كُنَّا قَسيمَي فرحةٍ ومَساءةٍ   ولقد سُرِرْتَ ، فَلِمْ أسَيتَ ورائي ؟
ألا تذكرُ كيفَ اقْتَسَمْنا الحياةَ فرحَها وحزنَها ، وكم كنتَ فَرِحاً بذلك ؟ فما الذي يُحزِنُكَ الآنَ ؟

١٢ ـ لا تَجْعَلِ السَّرَّاءَ عندي ، إنَّنا   أصلٌ وفرعٌ ، عِلَّةَ الضَّرَّاءِ
فلا تجعلِ السعادةَ في ظِلِّي والشقاءَ في بعدي، ولا تنسَ أننا مشتركانِ في أصولِنا وفروعِنا .

١٣ ـ في الضيقِ والظلماءِ تَحْسَبُني وُلًى   مُتَبَوَّأً في فُسْحةٍ وضياءِ
وُلًى : مفرده أولى وُلْيى ، وهو الجَديرُ والحَريُّ والخليقُ .
كنتَ تظنُّ أنني أجْدَرُ ملجأً لكَ في حالِ ضيقِكَ وشدَّتِكَ ، تجدُ فيه الراحةَ والاِطْمِئْنانَ .

١٤ ـ منْ كانَ في دارِ السلامِ حلُولُهُ   أنَّى يُرَى في الضيقِ والظلْماءِ ؟
فمَنْ كانَ يُؤمنُ باللهِ إيماناً عميقاً ، يصدقُهُ العملُ الصالحُ ليكونَ مصيرُهُ الجنةَ ، فكيف يدخُلُ الحزنُ والشدةُ إلى قلبه ؟

١٥ ـ فاستبدِلَنَّ بِتَرحةٍ فرحاً ، ولا   تؤْثِرْ على ضَحِكٍ طويلَ بُكاءِ
فاستبدلْ يا بُنَيَّ بِحُزنِكَ فرحاً ، ولا تُفَضِّلِ البكاءَ الطويلَ على الضحكِ .

١٦ ـ ودَعِ الثيابَ السودَ ، وادْعُ بغيرِها   بالحُلَّةِ الحمراءِ والصفراءِ
واخلَعْ عنكَ هذه الثيابَ السودَ ، واطلبْ غيرَها الحمراءَ والصفراءَ .

١٧ ـ واعلَمْ بأني قد دعوتُ اللهَ أنْ   تُعْطَى رِضاهُ ، فاستجابَ دعائي
واعلمْ بأني قد طلبتُ منَ اللهِ ـ عزَّ ، وجلَّ ـ أنْ يرضى عنكَ ، فاسْتجابَ لدعائي .

☆☆ ٦ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في الهجاءِ :

١ ـ هيهاتَ دونَ مزارِها سورٌ لهُ شُرَفٌ تناطِحُ هامةَ الجوزاءِ

ما أبعدَ بيتَها ، وما أصعبَ الوصولَ إليهِ ، إنَّ له سوراً عالياً ، فُتِحَتْ فيهِ نوافذُ ، فبدَتْ كالشِّياهِ ، تناطحُ كواكبَ السماءِ .

٢ ـ مُرْخَى الحجابِ مُغَلَّقُ الأبوابِ ، لا يَمْشي حواليهِ سوى الرُّقَباءِ

قد أُسْدِلَتْ أستارُ نوافذِهِ ، وغُلِّقَتْ أبوابُهُ ، فلا يَمْشي حواليهِ إلاّ الحرسُ .

٣ ـ منْ كلِّ أشْقَرَ إنْ طرقْتَ ، رأيتَهُ يرنو إليكَ بِمُقْلَةٍ زَرْقاءِ

فإنْ جئْتَ زائراً ، وطرقْتَ بابَها ، أطلَّ عليكَ حارسٌ أشقرُ الشعرِ أزرقُ العينَينِ .

٤ ـ مُتَشَذِّرٍ يَسْعَى إليكَ مُهَمْهِماً ويشيرُ بالسميكةِ العَجْراءِ

يَسْعى إليكَ غاضباً مُهَدِّداً بالقتلِ بكلامٍ خفيٍّ حاملاً هِراوةً سميكةً ذاتَ عُقَدٍ .

٥ ـ وعَوَتْ إليكَ كلابُهُ ، وكلامُهُ مُسْتَنْكَرٌ يُنسيكَ كلَّ عُواءِ

وهبَّتْ كلابُ القصرِ ، تعوي ، وعلا صوتُ الحارسِ عليها مُرَدِّداً كلاماً سَيِّئاً ، أنساكَ الكلابَ وعُواءَها .

٦ ـ وَعَدَتْ زيارَتَها ، ومَوعدُ مثلِها إيماضُ بَرقٍ كاذبِ اللألاءِ

وما كنتَ ذاهباً إليها هكذا دونَ وعدٍ منها ، فكان مَوعدُها كوميضِ برقٍ كاذبٍ لا يحقِّقُ لألاؤُهُ البُشْرى .

٧ ـ هلاَّ وفَيتِ لنا كأنْ لم تَعْلَمي أنَّ الوعودَ تَمامُها بِوَفاءِ ؟

لقد وَعَدْتِنا ، فلم تَفِ لنا ، وكأنكِ لا تدرينَ أنَّ واجبَ الوعدِ الوفاءُ بهِ .

٨ ـ يا طينةَ الأتراكِ إنكِ طينةٌ معجونةٌ بِنِكايةٍ وجَفاءِ

فيا بنتَ التُّرْكِ ذوي الطينةِ التي عُجِنَتْ بقَيحِ القروحِ المنكوءةِ قَيحِ الكُرْهِ والقسوةِ والغِلظةِ ،

٩ ـ لا يَرْتَجي منهمْ وفاءً عاقلٌ هل بالرِّمالِ العُفْرِ مَشْرَعُ ماءِ ؟

لا يأمَلُ امرؤٌ عاقلٌ وفاءً منَ الأتراكِ ، وهل يُنْتَظَرُ منَ الأرضِ الرمليةِ البيضاءِ طريقٌ وأملٌ بماءٍ يجري فيها ؟

١٠ ـ لا تَمْطُلي الشيءَ الذي تَعِدِينَهُ فالمَطْلُ ـ وَيْحَكِ ـ أنكَدُ الأشياءِ

فلا تُسَوِّفي وعداً ، ولا تُطيلي المدةَ بينَ الوعدِ وإنفاذِهِ ، فإن الإطالةَ والتَّسْويفَ ـ رعاكِ

اللهُ ـ مَدْعاةٌ للشقاءِ أكثرَ مِنْ غيرِه وأعْسَرَ وأشَدَّ .

١١ ـ لا شيءَ أجمعُ للقبائحِ كُلِّها   مِنْ مَوعدٍ حسنٍ بغيرِ عطاءِ

لا يجمَعُ المساوئَ والمكارِهَ أمرٌ ، أقبحُ مِنْ موعدٍ ، لا يُنَفَّذُ .

١٢ ـ ومِنَ الحوادثِ ، والحوادثُ جَمَّةٌ ،   نفسٌ مُعَلَّقَةٌ بطولِ رجاءِ

ولا أمْرَ أشدُّ قسوةً ومرارةً في مرورِ الحوادثِ الكثيرةِ مِنْ نفسٍ ، تتعلَّقُ برجاءٍ طويلِ الأمدِ ، لانِهايةَ له .

☆☆ ٧ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في المدحِ :

١ ـ قولُ الملوكِ كَمِثْلِ نَقْشٍ نُمْنِمَتْ   أسطارُهُ في الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ

إنَّ كلامَ الملوكِ ذو أثرٍ بليغٍ في النفوسِ والقلوبِ ، يدعو إلى البهجةِ والسرورِ ، ولا يزولُ أثرُهُ كما لا يزولُ النحتُ المزخرفُ في الصخرةِ القاسيةِ .

٢ ـ أنتَ الوحيدُ ، فلم يُشارِكْكَ امرؤٌ   معنًى ، وإنْ شورِكْتَ في الأسماءِ

أنتَ وحيدُ دهرِك وفريدُ عصرِكَ ، لم يستطعْ أنْ يُساوِيَكَ ، أو يُقارِبَكَ أحدٌ في أمرٍ ، ولو كانَ سَمِيَّكَ .

٣ ـ والماءُ ماءٌ حيثُ كانَ ، ولم تَزَلْ   تتقاصَرُ الأمواهُ عنْ صَدَّاءِ

وتبقى فريدَ عصرِكَ ووحيدَ دهرِكَ كالماءِ يبقى ماءً ، ولا تَستطيعُ الأمواهُ الأخرى أنْ تصلَ عذوبتُها إلى درجةِ عذوبةِ صَدَّاءَ أعذبِ عينٍ عندَ العربِ .

٤ ـ ومواكبٌ سيارةٌ ككواكبِ الـ   ـخضراءِ فوقَ مناكبِ الغبراءِ

ومواكبُ قوافلِكَ سَيَّارةٌ ، لا تلبَثُ في مكانٍ واحدٍ كالكواكبِ في السماءِ الخضراءِ ، تنيرُ رؤوسَ جبالِ الأرضِ الغبراءِ .

٥ ـ تُخْفي ، وتُخْفِتُ بَرْقَ كلِّ سحابةٍ   والرعدَ بالأضواءِ والضوضاءِ

وتُزيلُ بروقَ السحبِ ، وتُخْفِتُ أصواتَ الرعدِ بأضوائها وضَوضائِها .

☆☆ ٨ ـ وقالَ على بحرِ الرملِ في المدحِ :

١ ـ أستغيثُ اللهَ مِنْ تُرْكِ الظِّباءِ   كلُّ شرٍّ ، جاءني ، مِنْ هؤلاءِ

أدعو اللهَ ـ عزَّ ، وجلَّ ـ أنْ يُبْعِدَني عنْ هوى غِلمانِ التركِ لأنَّ كلَّ شرٍّ وسوءٍ ، قد جاءني منهمْ .

٢ ـ أدهشوا عقليَ حتى لستُ أدري   أيُّ فرقٍ بينَ أرضي وسمائي

لقد حَيَّروا عقلي حتى لم أعُدْ أهتدي إلى الفرقِ بين أرضي وسمائي .

٣ ـ رَقَّتِ الأوجهُ منهمْ غير أني لا أرى في خُلْقِهِمْ غيرَ الجفاءِ

لا شكَّ أنَّهُمْ ذوو وجوهٍ حسنةٍ رهيفةِ الملامحِ ، إلاّ أني لم أرَ في طِباعِهِمْ غيرَ القسوةِ والتباعدِ .

٤ ـ كلَّما رَجَّيتُ منهمْ أنْ يَجودوا بوَفاءٍ سَوَّدوا وجْهَ رجائي

وكم وكم مرةٍ أمَّلْتُ أنْ يَرُدُّوا وفائي ومحبتي وَوِدادي بوفاءٍ ، فلم أنَلْ ما أردْتُ ، وجعلوا رجائي أسودَ قاتِماً .

٥ ـ كيف يوفونَ بعهدي ؟ هلْ سمعتُمْ في لسانِ التُّرْكِ بِاسْمِ الوفاءِ

كيف يقضونَ عهدي ؟ وليسَ في لغةِ الأتراكِ كلمةٌ ، هي الوفاءُ .

٦ ـ أنا كالعطشانِ أدْلَى دلوَهُ جَوفَ بئرٍ ما بها قَطْرةُ ماءِ

وإني كالصَّدْيانِ الذي أرْسَلَ دلوَهُ في بئرٍ ، فلم يَفُزْ منهُ بقطرةِ ماءٍ .

٧ ـ وبلايا هذه الدنيا صنوفٌ والهوى أعظمُ أصنافِ البلاءِ

وقد أصابَتْني الدنيا بألوانٍ كثيرةٍ منَ البلايا ، فوجدْتُ الهوى أشَدَّ ألوانِها .

٨ ـ وسقيمِ الجَفْنِ إنْ صادفْتُ منهُ لحظةً كانتْ دوائي ، وهي دائي

وإنْ نظرَ إليَّ قاصرُ الطرفِ لحظةً وجدْتُ بِها دائي ودوائي . ولعلهُ يشيرُ إلى قولِ أبي نواسٍ : [الديوان ص ٢٧]

دعْ عنك لومي ، فإن اللومَ إغراءُ وداوني بالتي كانَتْ هي الداءُ

٩ ـ وكذاكَ الرَّاحُ بالرَّاحِ تُداوى فهي شَرُّ الداءِ أو خيرُ الدواءِ

فهي كالخمرةِ تصيبُ شاربَها بشرِّ الأدواءِ ، ولا يبرأُ منها إلاَّ بشُربِها .

١٠ ـ مُقْلةٌ مثْلُ سِنانٍ في مَضاءٍ وقَوامٌ كقناةٍ في استواءِ

لهُ عينٌ تلتمعُ مثلَما تبرقُ سِنانُ السيفِ ، وقدٌّ مُسْتوٍ كاستواءِ الرمحِ .

١١ ـ تَرَكَ الكثبانَ والبانَ حَيارى خجلاً لمَّا مَشَى بالخُيَلاءِ

مَرَّ بينَ التلالِ إلى البانِ مختالةً ، فتركَها في خجلٍ وحَيرةٍ لا تَهْتَدي إلى سبيلٍ .

١٢ ـ ذلك الخَصْرُ الضعيفُ ، امْتَحَنُوهُ حيثُ نالوا منهُ وَفْرَ الأقوياءِ

ولما رأى الناسُ ذلكَ القدَّ الرهيفَ والخَصْرَ الضعيفَ . اسْتَمَدُّوا منه الكثيرَ منْ قوةِ الأقوياءِ .

١٣ ـ زَيَّنَتْ غُرَّتَهُ طُرَّتُهُ إذْ جَمَّعَتْ بين صباحٍ ومساءِ

ووضعَ على رأسِهِ قلنسوةً ذاتَ طُرَّةٍ ، فكانتا زينةً بديعةً جمعَتْ جمالَ غُرَّتِهِ البيضاءِ إلى غزارةِ شعرِهِ الأسودِ ، فأظهرتْ صورةً منْ إبداعِ الخالقِ ـ عزَّ ، وجلَّ ـ في الصباحِ والمساءِ .

١٤ ـ وردةٌ يَــرْكبُهــا طَــلُّ غــداةٍ   خَــدُّهُ المُخْضَــلُّ مِــنْ مــاءِ الحيــاءِ

وعلا وجْهَهُ ماءُ الحياءِ ، فبدا مُبْتَلًّا كالوردةِ أصابَها رشُّ النَّدى في الصباحِ الباكرِ .

١٥ ـ ليتَ شعري هل أرى مُلْكَ يميني   مثلَــهُ عــنْ هِبــةٍ أو عَــنْ شــراءِ ؟

وكم أتساءَلُ ، وكم أَتَمَنَّى أن يكونَ لي حبيبٌ مثلُهُ ، يَهَبُهُ لي أحدُهُمْ ، أو أتمكَّنُ منْ دفعِ ثَمَنِهِ ، فأشتريهِ .

١٦ ـ ذاكَ سهلٌ أنْ رأى فخرُ المعالي   شــرفُ الملــكِ بَهــاءُ الأمــراءِ

وكانَ ذلكَ سَهْلًا على عُبَيدِ الله فخرِ المعالي شرفِ المُلْكِ بَهاءِ الأمراءِ ، فقدِ امتلأَ قصرُهُ منْ تلك الغواني الملاحِ هبةً أو شراءً .

١٧ ـ يــا جمــالاً لهــمْ أيَّ جمــالٍ   وبَهــاءً لَهــمْ أيَّ بَهــاءِ

إنَّ لَهمْ جمالاً ، فاقَ كلَّ جمالٍ وحُسْناً ، ما طالَهُ حسنٌ .

١٨ ـ كَثُــرَ المــادحُ والممــدوحُ لكــنْ   أيــنَ علياؤكَ ؟ أم أيــنَ ثنــائــي ؟

لقد كَثُرَ ذَوُو المناصبِ وكَثُرَ مُدَّاحُهُمْ ، لكنكَ أنتَ المفضَّلُ عليهم جميعاً ، لم يستطعْ أحدٌ مِنْ هؤلاءِ الشعراءِ أنْ ينظمَ فيك شعراً مناسباً لكَ ، أمَّا أنا فإني الوحيدُ الذي تمكَّنَ منْ ذلكَ ، فأبدعَ إبداعاً لا يُجارَى .

١٩ـ ليسَ يُقْضى عَجَبٌ منْ نظمِ شعرٍ   حَسَــنٍ مــا بيــنَ فضــلٍ وسخــاءِ

وما إبداعي في مدحِكَ بعجيبٍ ، فما هو إلاَّ نظمٌ حَسَنٌ وصفْتُ فيه فَضْلَكَ على الناسِ خُلُقاً وكرَماً .

٢٠ ـ غاظَ أعداءَكَ مَدْحي ، إنَّ مَدْحي   لــكَ لــلأعــداءِ مــن شَــرِّ الهجــاءِ

وضاقَ أعداؤُكَ ذَرْعاً بِمَدْحي إياكَ ، لأنَّهمْ أدركوا أنَّهمْ دونَ قدرِ مَدْحِكَ والثناءِ عليكَ ، فكانَ هذا الأمرُ أقسى هجاءٍ لَهُمْ .

٢١ ـ جَحَــدَ الحُسَّــادُ مــا اللهُ قضــاهُ   وأشَــدُّ الكُفْــرِ فــي جَحْــدِ القضــاءِ

لقد قضى اللهُ ـ عَزَّ ، وجلَّ ـ أنْ تكونَ بهذهِ المنزلةِ وأنْ أكونَ لكَ المادحَ الوحيدَ ، ولم يقنعِ الحُسَّادُ بذلكَ ، ولم يَدْرُوا أنَّ أعظمَ مراتبِ الكفرِ إنكارُ قضاءِ الله تعالى .

٢٢ ـ غيرَ أنْ ليسَ يُبالَى بِلِحاهُمْ   ما عسى يَفْعَلُ إخوانُ الشَّقاءِ

ولم يكترثْ أحدٌ بغيظِهم وحَسَدِهم لأنَّ فعلَ الأشقياءِ الحُسَّادِ ، لا قيمةَ له .

٢٣ ـ لن يَضُرُّوكَ بِقولٍ أو بِفعلٍ   هل يَضُرُّ البدرَ كلبٌ بِعُواءِ

وها هم ما آذَوك ، ولن يُؤذوكَ بشيءٍ كما لم يَصِلْ عُواءُ كلبٍ إلى البدرِ في السماءِ .

٢٤ ـ إنَّ عبدَ اللهِ ، واللهُ رعاهُ ،   جَلَّلَ المُلْكَ بنورٍ وضياءِ

إنَّ اللهَ تعالى حفِظَ فخْرَ المعالي عبدَ اللهِ لمَّا رآه ، كَلَّلَ المُلْكَ بتاجٍ ذي نورٍ وضياءٍ منْ لآلئِ الكرمِ والعطاءِ .

٢٥ ـ مُرْتَقٍ منْ درجِ العلياءِ مَرْقىً   عَلَّمَ الجوزاءَ ما معنى العلاءِ

صَعِدَ درجاتِ المُلْكِ درجةً درجةً إلى أنْ وصلَ إلى أعلاها ، وتعلَّمَ أهلُ الأرضِ منه معنَى الشرفِ كما تعلَّمَتْ كواكبُ السماءِ .

٢٦ ـ ما يُجاريهِ ملوكُ الأرضِ إلاَّ   خَلَّفَ السابقَ ، يكبو منْ وراءِ

وتسابقَ ملوكُ الأرضِ في اتِّباعِ سُنَنِه حتى يُجاروهُ في المجدِ ، فإذا بالسابقِ منهمْ ، يَنكبُّ على وجهِهِ ، ويتراجعُ عما هَمَّ به .

٢٧ ـ هو منهمْ، وهو في الفضلِ سِواهُمْ   وبَنانُ الكفِّ ، ليسَتْ بالسَّواءِ

ولا عجَبَ في أنهُ يَفْضُلُ على أبناءِ قومِهِ ، فأصابعُ الكفِّ ليسَتْ متساويةً .

٢٨ ـ حازمٌ ، يَعرفُ في عينِ المُداجي   ما أَجَنَّ القلبُ منْ داءٍ عَياءِ

فهو عاقلٌ حكيمٌ يضَعُ الأمرَ في مكانِهِ ، ويضبِطُ أحوالَ رعيتِهِ ، فيعرفُ الصادقَ منَ الكاذبِ والمؤمنَ الحقَّ منَ المنافقِ وما أخفى القلبُ منْ أشدِّ الأدواءِ التي لا تَبْرَأُ .

٢٩ـ غيرَ أنْ ساتَرَهُ ذلكَ حَزْماً   ولهُ الويلاتُ منْ كشفِ الغِطاءِ

وإنْ دارَى الكاذبَ والمنافقَ فإنهُ يداريهِ حَزْماً منه لا ضعفاً ، ويداريه إلى أن يحينَ الوقتُ الذي يجبُ فيه كشفُ المستورِ وظهورُ الحقيقةِ وفضيحةُ المنافقِ الكاذبِ وعقابُهُ .

٣٠ ـ ليس يكفي كلُّ سيفٍ وقناةٍ   بعضَ ما يكفي بحزمٍ ودهاءِ

لا يَتُمُّ الأمرُ بقوةِ السيفِ والرُّمحِ بل بالحكمةِ وجَودةِ الرأيِ .

٣١ ـ شَمَخَتْ رُتْبَتُهُ فوقَ الثُّرَيَّا   وهو ، لم يَشْمَخْ بأنفِ الكبرياءِ

لقد علَتْ رُتبةُ عبدِ اللهِ على كواكبِ السماءِ ، ولم يَقْبَلْ أنْ تَعْلُوَ نفسُهُ بالكبرياءِ .

٣٢ ـ وقبيحٌ بالصغيرِ الكِبْرُ لكنْ   حَسَنٌ خَفْضُ جناحِ الكُبَراءِ

فالزَّهْوُ والتيهُ منَ الحقيرِ التَّذْلِ قبيحٌ كريهٌ ، والتواضعُ منَ الشريفِ أمرٌ عظيمٌ .

٣٣ ـ ذو رُواءٍ ، يُسْتبانُ الخُلْقُ منه إنَّ حُسْنَ الخُلْقِ مِنْ حُسْنِ الرُّواءِ

ولا يخفَى ذلكَ على أحدٍ لأنَّ حُسْنَ الخُلُقِ وفضلَهُ يَراهُ ، ويدركُهُ القريبُ والبعيدُ .
وسكَّنَ الشاعرُ لامَ الخُلُقِ لضرورةِ الشعرِ .

٣٤ ـ تطرَبُ الأنفسُ مِنْ ذِكْرِ علاهُ طربَ الإبْلِ على لحنِ الحُداءِ

وإنْ ذُكِرَتْ مكرُماتُهُ فإنَّ الأرواحَ والأنفسَ ، تُسَرُّ سروراً كبيراً سرورَ الإبلِ بنغمِ سائقيها .

٣٥ ـ كلَّ عامٍ تصدرُ الأيامُ عنهُ بصدورٍ بالمَسَرَّاتِ مِلاءِ

ففي كلِّ يومٍ وفي كلِّ عامٍ يَبْدُرُ إلى خيرٍ وسعادةِ رعيَّتِهِ ، فتملأُ المَسرَّاتُ القلوبَ .

٣٦ ـ وأتاهُ مهرجانُ العامِ ، يرجو مِنْ محَيَّاهُ اكتِحالاً باللِّقاءِ

وها هو عيدُ السنةِ ، يأتي راجياً أنْ تكتحلَ عيناهُ وأعينُ أفرادِ رعيَّتِهِ بلقائِهِ .

٣٧ ـ فَقَراهُ مكرُماتٍ حارَ فيها وانْثَنى عنهُ بشكرٍ ودعاءِ

وتقدَّمَ منهُ شاعرُهُ ، وأنشدَ له ، قصيدةً في أُعطياتِهِ ، دُهِشَ لها الملكُ ، ومالَ عنه شاكراً داعياً .

٣٨ـ ربِّ أسْعِدْهُ بهذا وبألفٍ بَعْدَهُ ، وامْدُدْ لهُ طولَ البقاءِ

فيا ربِّ هَنِّئْ فخرَ المعالي بهذا العامِ وبألفِ عامٍ بعدَهُ ، واجْعَلْ له عُمراً مديداً في نعمةٍ وبَهاءٍ .

☆☆ ٩ ـ وقالَ على بحرِ السريعِ مفتخراً :

١ ـ اضطَرَّ حُسَّادي ، فباؤُوا بهِ إني مِنَ السُّؤْدُدِ في بُؤْبُؤِ

لقد اشتدَّ الحسدُ بقلوبِ أعدائي ، فلجؤوا إلى الإيذاءِ بي ، فلم يُفْلِحوا ، وعادوا به لأني في أصولِ ومنبتِ العِزِّ والمجدِ .

٢ ـ وإنني السابحُ في لُجَّةٍ تيَّارُها ، يَنشَقُّ عنْ جُؤجُؤِ

وإني الوحيدُ القادرُ على السباحةِ في موجِ البحرِ ، فأشقُّ تلكَ الأمواجَ بصدري .

٣ ـ وإنني الغائصُ في غَورِها أُخرِجُ منها فاخرَ اللؤلؤِ

وأغوصُ في أعماقِ البحرِ ، وأستخرجُ منها أجودَ أنواعِ اللؤلؤِ .

٤ ـ لذاكَ كلٌّ منهمْ صاغرٌ كصعوةٍ في مِخْلَبِ اليُؤيُؤِ

ولذلكَ كان كلٌّ منهمْ ذليلاً كعصفورٍ صغيرٍ في مِخْلَبِ الطائرِ الجارحِ .

☆☆ ١٠ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في الحكمةِ في نِهايةِ مَقامةِ التسليمِ : (مقامات الزمخشري ص٤٧) :

١ ـ رُزْءُ الفتى بِثوابهِ لعزائِهِ   يُنسي الشديدَ الصعبَ منْ أرزائِهِ

إن نوالَ المرءِ الثوابَ بصَبرِهِ ، يُنسيهِ أشدَّ وأصعبَ المصائبِ .

٢ ـ ليسَ الفتى إلاَّ فتًى إنْ نابَهُ   عَزَّاءُ دَهرٍ عَزَّ في عَزَّائِهِ

ولا يُعَدُّ الفتى ذا قيمةٍ إلاَّ إذا أصابَهُ منَ الدهرِ مصيبةٌ كبيرةٌ ، وقفَ صامداً في وجهِها ، وكان عزيزاً في شدائدِهِ .

٣ ـ والعزُّ أنْ يَلوي على الصبرِ الذي   يَمْشي ثوابُ اللهِ تحتَ لوائِهِ

والشرفُ والمجدُ ، هو في أنْ يَسْتُرَ المرءُ صَبْرَهُ الذي يسيرُ جزاءُ اللهِ تعالى تحتَ رايتِهِ .

* * *

حرف الباء / ٤٢٠ / بيتٍ

☆☆ ١ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الزهدِ :

١ ـ تَصَفَّحْتُ أولادَ الرجالِ ، فلم أكَدْ أُصادفُ مَنْ لا يَفْضَحُ الأُمَّ والأبا

قَلَّبْتُ صفحاتِ الدهرِ وأهلِهِ وأبنائِهِ ، فلم أكدْ أجدُ ولداً ، لا يذكرُ مساوئَ أمِّهِ أو أبيهِ .

٢ ـ رأيتُ أباً يَشْقَى لتربيةِ ابنِهِ ، ويَسْعى لكي يُدْعى مُكيساً ومُنْجبا

ووجَدْتُ الأبَ ، يَسْعَى جاهداً ، ويَشقى ليكونَ جابياً مالاً حلالاً ومُنْجباً أولاداً ، يُرَبِّيهِمْ أفضلَ تربيةٍ .

٣ ـ أرادَ بهِ النَّشْأَ الأعَزَّ ، فما دَرَى أيوليهِ حِجْراً ، أمْ يُعَلِّيهِ مَنْكِبا ؟

أرادَ بابنِهِ المَثَلَ العزيزَ الأعلى في تنشئتِهِ ، وما عَلِمَ : أيعملُ ما أوصاهُ به ، فيكونُ بارًّا بأبيهِ ، أم سيكونُ عاقًّا له ؟

٤ ـ أخو شِقوةٍ ما زالَ مَرْكبَ طِفْلِهِ فأصبحَ ذاكَ الطفلُ للناسِ مَرْكبا

وما زال هذا الأبُ شقيًّا مركوبَ ابنِهِ الذي حمَّلَ أباهُ مصروفَهُ ومصروفَ الناسِ .

٥ ـ لذاكَ تركْتُ النسلَ ، واخْتَرْتُ سيرةً مَسيحيَّةً ، أحْسِنْ بذلكَ مَذْهبا

لهذا كلِّهِ صرفتُ الوُلْدَ عني ، وأخذْتُ بالسيرةِ المسيحيَّةِ ، ولا تعجَبْ ، فإني رأيتُ عدمَ الإنجابِ طريقَ السعادةِ .

☆☆ ٢ ـ وقالَ على بحرِ الرملِ في النصيحةِ :

١ ـ اتَّقِ الثورَ إذا واجهتَهُ إنَّ للثورِ سلاحاً عَجَبا

احذرِ الثورَ إذا قابلتَهُ وجهاً لوجهٍ لأنَّ له سلاحاً غريباً .

٢ ـ لِمَنِ اسْتَقْبَلَهُ الويلُ إذا أشْرَعَ القرنَ ، وأرخى الغَبَبا

فمنْ يواجِهْهُ يجدِ المصيبةَ ولا سيَّما إذا رفَعَ قرنَهُ ، وأرخى اللَّبَّةَ .

٣ ـ يَتَّقيهِ الليثُ حتى إنه رهبَ منهُ ، يُولِّي هَرَبا

ويحذَرُهُ الأسدُ ، ويركضُ خائفاً فارًّا منه .

٤ ـ فَمَنِ الإنسانُ ؟ والإنسانُ ، إنْ طَنَّتِ البَقَّةُ ، يَجْبُنْ رَهَبا

فمن هو الإنسانُ ؟ وما قدرَتُهُ أمام ذلك الثورِ ؟ فهو إنْ سمعَ طَنَّةَ البقَّةِ يُوَلِّ خائفاً ،

لا يَلْوي على شيء .

☆☆ ٣ ـ وقالَ على بحرِ الوافرِ في الوصفِ :

١ ـ شتاءٌ ، تَقْلِصُ الأشداقُ منهُ وبَرْدٌ ، يجعَلُ الولدانَ شِيبا

ها قد أتى فصلُ الشتاءِ ، وأتى معه البردُ القارصُ الذي تضطربُ منهُ الشفاهُ والحُنُكُ ، ويعجبُ الناسُ منْ شِدَّتِهِ ، ويَصيرُ الولدانُ شيباً .

٢ ـ وأرضٌ ، تَزْلِقُ الأقدامُ فيها فما تَمْشي بِها إلاَّ دبيبا

ولا تستطيع الأقدامُ أنْ تثبتَ على الأرضِ ، فتمشي دَبيباً لئلا تنزلِقَ .

☆☆ ٤ ـ وقالَ على بحرِ الطويل في الشكوى :

١ ـ تقولُ سُلَيمَى : ما لِشِعْرِكَ طِيبُ ؟ وهل طابَ شِعْرٌ ، ليسَ فيهِ نسيبُ ؟

قالَتْ سُلَيمى : ما جَرَى لِشِعْرِكَ ؟ لم يبقَ فيه حُسْنٌ ؟ وما يَحْسُنُ الشعرُ إنْ لم يكنْ فيه ذكرٌ للنساءِ والتغزُّلِ بهنَّ .

٢ ـ ربيعٌ نفيتَ الوردَ عنهُ ، فَقُلْ لنا : ربيعٌ بدونِ الوردِ كيفَ يطيبُ ؟

فالغَزَلُ في الشعرِ كالوردِ في الربيعِ ، فقلْ يا زمخشريُّ : كيف يحلو الربيعُ بدونِ الوردِ ؟

٣ ـ فقلْتُ لها قولَ امْرِئٍ ، لعبَتْ بِهِ صروفُ زمانٍ جَمَّةٌ وخطوبُ :

فأجبتُها جوابَ إنسانٍ ، تلاعبَتْ به نوائبُ الزمانِ الكثيرةُ والأمورُ العظيمةُ :

٤ ـ شِكاياتُ أيامي ، مَلَكْنَ قصائدي فلم يبقَ فيها للنسيبِ نَصيبُ

صِرْتُ أشكو أيامي في كلِّ قصيدةٍ ، فلم يبقَ لذكرِ النساءِ والتَّغَزُّلِ والتَّشَبُّبِ بِهنَّ سَهْمٌ .

٥ ـ إذا قُلْتُ في شكوى الزمانِ قصيدةً وَجَدْتُ القوافِي ، تَرْعوي ، وتُجيبُ

وصِرْتُ إذا أردْتُ أنْ أشكوَ الزمانَ ، رأيتُ الألفاظَ والقوافيَ ، تَسْتَسْلِمُ ، وتتوالى عليَّ مجيبةً لي .

٦ ـ وإن قُلْتُ : مَدْحاً أو نسيباً ، وَجَدْتُها وعِصيانُها لي عندَ ذاكَ عجيبُ

وإنْ أردْتُ أنْ أنظمَ شعراً في غيرِ الشكوى في المدحِ أو النسيبِ وجَدْتُ العجبَ مِنْ عِصيانِ الألفاظِ والتراكيبِ والقوافي .

٧ ـ بغيضٌ منَ الأحداثِ ، يُرْزَقُ مَنْطقي ويُحْرَمُهُ شَخْصٌ إليَّ حَبيبُ

فقد قُدِّرَ لي أنْ أعيشَ أحداثاً شديدةً كريهةً ، يَصِفُها منطقي ، ولا يفوزُ به إنسانٌ ،

أحبُّهُ ، وأتَمَنَّى رؤيتَهُ .

٨ ـ ولا عجبٌ أنْ شَيَّبَ الهَمُّ مَفْرِقي فأدناهُ ، رأسُ الطفلِ ، منهُ يَشيبُ

وليسَ عجيباً أنْ يُسَبِّبَ الهَمُّ الشيبَ في مَفْرِقي ، فأقَلُّ الهَمِّ ، يجعلُ الشيبَ ، يعلو رأسَ الطفلِ .

٩ ـ فللهِ وقتٌ لمْ يُلِمَّ بِلِمَّتي مَشيبٌ ، وسربالُ الشبابِ قَشيبُ

فَلِلَّهِ أجرُ حادثٍ مرَّ بي يوماً ، وأنا أرتدي ثوبَ الشبابِ الجديدَ قبلَ ظهورِ الشيبِ بجانِبَي رأسي .

١٠ ـ وما غزلي إلاَّ كروضٍ يَرودُهُ غزالٌ أحمُّ المقلتَينِ ربيبُ

وما إنشادي الغزلَ إلاّ كروضةٍ ، يَمُرُّ بِها غزالٌ أحورُ العينَينِ صغيرُ السنِّ .

١١ ـ ويرتَعُ فيه منْ مَها الإنْسِ جُؤذُرٌ صَيودٌ بِسَهْمَي ناظِرَيهِ مُصيبُ

ويَنْعَمُ فيهِ مِنْ بقَرِ الإنسِ وَلَدٌ ، يَصيدُ بسهامِ عَينَيهِ ، فيصيبُ الهدفَ ، ولا يُخْطِئُهُ .

١٢ ـ ليالِيَ فَضْلي حيثُ شئْتُ مُنَزَّلٌ وشعري لهُ الشِّعْرى العَبُورُ حَبيبُ

إنَّ فضلي يُشارِكُ أسفاري ، ينتفعُ به الناسُ حيثُ أتَنَقَّلُ ، وشعري ، تحبُّهُ ، وتطربُ له الشِّعرى العبورُ أختُ الشِّعرى الغميصاءِ وسهيلٍ في برجِ الجوزاءِ .

١٣ ـ فما يتعاطى قوسَ فهمي مُفْلِقٌ ولا سيفُ قولي ينتضيهِ خطيبُ

ولا يستطيعُ أنْ يبلُغَ الشاعرُ المبدعُ مدى إحساسي وعلمي ، ولا يتمكَّنُ الخطيبُ المُفَوَّهُ منْ تفسيرِ ما أقولُ .

١٤ ـ عليَّ انْثِيالٌ للصِّلاتِ ، يُفيضُها عليَّ محبٌّ للثناءِ وَهوبُ

وتَنْصَبُّ العطايا عليَّ انْصِباباً مِمَّنْ يحبُّ المدحَ والعطاءَ .

١٥ ـ ولي خِلَعٌ شتَّى سَحَبْتُ فضولَها وكلُّ صديقٍ لي لهنَّ سَحوبُ

ولم أبخَلْ يوماً بتلكَ العطايا والمِنَحِ الكثيرةِ ، فأخزِنَها ، ولكني أقدِّمُها لكلِّ صديقٍ لي ، فيأخذُها شاكراً .

١٦ ـ ويا رُبَّ يومٍ أُهْدِيَتْ لي وَصيفةٌ منَ اليافِثِيّاتِ المِلاحِ لَعوبُ

وقد كانَ منْ بينِ الخِلَعِ التي أُهْدِيَتْ لي خادمةٌ رشيقةُ القَدِّ تُرْكِيَّةٌ ، يأخذُ حسنُها الألبابَ .

١٧ ـ تضايَقَتِ العينانِ منها ، وفيهما مَجالٌ لِسِحْرِ البابليِّ رَحيبُ

لا تَنْفَتِحُ جيِّداً جفونُ عينَيها اللتينِ فيهما غايةُ حُسْنِ بناتِ بابلَ .

١٨ ـ يلوحُ لنا بعضُ السَّوادِ بِلَحْظِها　　　وفـي ضِحْكِهـا كـلُّ السَّـوادِ يَغيـبُ

فإنْ رَمَقَتْنا بنظرةٍ ، بدا لنا شيءٌ منْ سوادِهما ، وإن ضحِكَتْ ، فإنَّ كلَّ سوادِهما ، يغيبُ .

١٩ ـ فيا طيبَ أيَّامٍ ، ويا طيبَ ذكرِها　　　ألاَ إنَّ عيشـي بَعْـدَهُـنَّ جَـديـبُ

وإني لأذكرُ أيامي التي كانتْ سعيدةً بِقُربِها ، وأرى عيشي بعدَها شديداً حزيناً .

☆☆ ٥ ـ وقالَ على بحرِ الوافرِ في مدحِ شريفِ مكةَ أبي الحسنِ عُلَيِّ بنِ عيسى :

١ ـ زجَرْتُ عنِ العُلاَ نفسي ، فَزَفَّتْ　　　كمـا سَبَقَـتْ يـدَ السـاقـي الـذَّنـوبُ

نَهَيتُ نفسي عن طَلَبِ المراتبِ العُلْيا ، فعانَدَتْني ، وأسرعَتْ إليها ، وسبَقَتْ غيرَها كما تسْبِقُ الدَّلْوُ يدَ الساقي .

٢ ـ مـواشكـةً فلـو جُنِبَـتْ إليهـا　　　لَعُيِّـبَ أنْ تُعـارِضَهـا الجَنـوبُ

وأسْرَعَتْ إلى العُلاَ ، تريد أنْ تَسبِقَها . فلو حاولَتْ ريحُ الجَنوبِ أنْ تَحُدَّ منْ سرعتِها ، وتجعلَها تسيرُ إلى جَنْبِها ، لَعَجِزَتْ عنْ ذلكَ ، وعِيبَ عليها ، وقيلَ : إنَّ ريحَ الجَنوبِ ، تُعارِضُ نفسَ الزمخشريِّ .

٣ ـ تَهُبُّ معَ العواصفِ ، ثم تبقى　　　حسيـراتٍ ، وجَـدَّ بهـا الهُبـوبُ

إنَّها تَثورُ مع العواصفِ التي تَتْعَبُ منَ الهُبوبِ ، فتهدأُ ، ثم تعودُ إلى الهُبوبِ ثانيةً .

٤ ـ فـواهـاً للتـي اجْتَنَحَـتْ عليهـا　　　ضلـوعـي إنهـا لَهِـيَ الكـذوبُ

يا حَسْرَةً على ضلوعي التي تضمُّ نفسي التي أعلمُ إنَّها لَهِيَ الكاذبةُ دائماً .

٥ ـ سَعَـتْ للمَجْـدِ خَفـاقـاً حَشـاهـا　　　تُطـاوِحُهـا الطـوارِقُ والخُطـوبُ

فهي تعملُ دائبةً لتحقيقِ المجدِ والشرفِ ، وقلبُها لا ينفَكُّ ، يخفقُ على الرغمِ منْ أنَّ المصائبَ تفجأُ الناسَ ليلاً ، والأمورَ الشديدةَ ، تتقاذَفُها .

٦ ـ وبُعْـدُ مَـدى المطـالِـبِ مُبْتغـاهـا　　　وليـسَ ، يـروقُهـا الكثيـبُ القـريـبُ

وآمالُها بعيدةٌ ، والوصولُ إليها شاقٌّ ، ولا يُعْجِبُها التلُّ القريبُ منها .

٧ ـ وخيـرُ المجـدِ أبعـدُهُ مـراداً　　　وأفضـلُ مسـرحٍ روضٌ عـزيـبُ

ذلكَ لأنَّ أفضلَ العزِّ ، مطلبُهُ عزيزٌ ، وأحسنَ مَرْعًى الكُثْبةُ البعيدةُ .

٨ ـ وما الوحشِيُّ تحتَ فروعِ ضالٍ　　　تَـوَجَّـسَ نبـأةً مِمّـا يُـريـبُ

وليسَ الوحشُ الرابضُ تحتَ أغصانِ السِّدْرِ ، نَبَّهَهُ صوتٌ خَفِيٌّ ، يُخيفُ سامعَهُ ،

٩ ـ بـأسْـرَعَ نفـرَةً منهـا إذا مـا رأَتْ نَفَـراً ، تَمُجُّهُـمُ القلـوبُ

بأسرعَ هروباً منْ نفسي إذا رأتْ مجموعةً منَ الناسِ ، لا تأنسُ بِهِمُ القلوبُ .

١٠ ـ وليـسَ لأُنْسِهـا إلاَّ نبيـلٌ بِـزَنْـدِ الفضـلِ مُقْتَـدِحٌ لبيـبُ

ولا يؤنِسُها إلاَّ ذو فضلٍ ، تَفَكَّرَ ، وتَدَبَّرَ كلَّ شيءٍ بعقلهِ السليمِ .

١١ ـ وذلكَ أنتَ وحدَكَ يا ابْنَ عيسى بِمِثْلِـكَ يـأنَـسُ الفَـرْدُ الغـريـبُ

ولم تَجِدْ أحداً ، فيه ذلكَ الأُنْسُ ، إلاَّ أنتَ يا عُلَيُّ بنَ عيسى ، فأنتَ الفردُ الوحيدُ لهُ .

١٢ ـ فيـا لـوفـدِ المُلَبِّـي والـرّذايـا مُطَلَّحَـةً تَخَـوَّنَهـا اللُّغـوبُ

وأنتَ الذي لا يرتاحُ ، ولا يطيقُ إلاَّ الجماعةَ القادمةَ لأداءِ طاعةِ اللهِ إلى مكةَ ، تحملُها نوقٌ ، أهزلَها السفرُ ، وأعياها التعبُ والسَّفَرُ .

١٣ ـ وبـالبيـتِ المُسَتَّـرِ مُسْتطـافـاً بـهِ للشُّعْـثِ ، شَفَّهُـمُ الـدُّؤوبُ

إلى الطوافِ حولَ الكعبةِ ذاتِ الأستارِ العظيمةِ للناسِ الذين يأتونَ من بلادٍ بعيدةٍ ، وقد أهزلَهمْ طولُ السفرِ .

١٤ ـ لِمنْ قُطَّـانِ مكـةَ أنـتَ صفـوي وأنـتَ إلـيَّ دونَهُـمُ الحبيـبُ

فأنت الوحيدُ منْ سكانِ مكةَ ، وجدْتُ فيكَ خيرَ الخِصالِ ، فكنتَ أخصَّ وُدِّي ، وأنتَ أحبَّهمْ إليَّ .

١٥ ـ فمـا قَيَّـدْتُ بـالبطحـاءِ عنسـي فـلا يَتَخَطَّنـي منكُـمْ نَصيـبُ

وما أوقفْتُ ، وربطْتُ ناقتي بِشِعْبٍ منْ شِعاب مكةَ ، ولا تجاوَزْتُ أمراً ، أنتَ قاطِعُهُ .

١٦ ـ ولسـتُ بِمُبْتَـغٍ إلاَّ وداداً ونُصحـاً أمْحَضَتْنيـهِ الجُيـوبُ

ولم أُرِدْ منك يوماً إلاَّ صِدْقاً ووفاءً ونصحاً وإرشاداً تُخْلِصُهُ لي منْ قلبكَ .

١٧ ـ فلا تَدَعوا التَّحَفِّي بي ، فَعُودي كعـودِكـمُ هـو النبـعُ الصَّليـبُ

فلا تتركوا إكرامي فإنَّ عظمي كعظمِكمْ ، وهو ذو أصلٍ سليمٍ كريمٍ .

١٨ ـ ومـا الفضـلاءُ إلاَّ نَسْـلُ أمٍّ وبعضُهُـمْ لبعـضٍ نَسيـبُ

وليسَ الفضلاءُ إلاَّ أبناءَ أمٍّ واحدةٍ ، وكلُّ واحدٍ منهمْ قريبٌ للآخرِ قرابَةَ فضلٍ وعزٍّ .

☆☆ ٦ ـ وقالَ على بحرِ البسيطِ في الحكمةِ :

١ ـ ليـسَ السيـادةُ أكمـامـاً مُطَـرَّزةً ولا مـراكـبَ ، يجـري فـوقَهـا ذهـبُ

ما كانتِ السيادةُ يوماً بارتداءِ اللباسِ ذي الأكمامِ الطويلةِ الواسعةِ المُرَقَّشةِ للسلطانِ فقط ولا بامتطاءِ المراكبِ التي كانَ ثَمَنُها الذهبَ الوفيرَ .

٢ ـ وإنَّما هي أفعالٌ مُهَذَّبَةٌ ومَكْرُماتٌ ، يليها العقلُ والأدبُ

وإنَّما هي أفعالٌ فاضلةٌ ، لا يأتيها الباطلُ ، وأعطياتٌ مفيدةٌ صادرةٌ عنِ العقلِ والأدبِ .

٣ ـ وما أخو المجدِ إلاَّ منْ بغَى شَرَفاً يوماً فهانَ عليهِ النفسُ والنَّشَبُ

ولا يكون صاحبُ الشرفِ إلاَّ بطلبِ العزِّ ، ففيه ومن أجلهِ تَهونُ النفسُ ، ويهونُ المالُ .

٤ ـ وأفضلُ الناسِ حُرٌّ ، لَيسَ يغلِبُهُ على الحِجَى شهوةٌ فيه ولا غضبُ

وأعظمُ الناسِ فضلاً الحُرُّ الذي لا يغلِبُ عقلَهُ حبُّ مالٍ ولا نَزوةُ عاطفةٍ ولا ثورةُ غضبٍ .

☆☆ ٧ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في مدحِ شريفِ مكة أبي الحسنِ عُلَيِّ بْنِ عيسى :

١ ـ كُتُبُ الشريفِ ، إذا وردْنَ ، كتائبُ يُغزَى بِها جيشُ الهمومِ الغالبُ

إذا أصدَرَ الشريفُ أوامرَهُ فإنَّها تشبهُ فِرَق جيشٍ ، يَبْعَثُها لتغزوَ أعظمَ جيشٍ منْ جيوشِ الهمِّ الغالبِ .

٢ ـ قَوْلي ، إذا طلعَتْ عليَّ سطورُهُ مُصْطَفَّةً : أمُكَتَّبٌ أم كاتبُ ؟

فإذا أتاني كتابٌ منْ كتبهِ ، ورأيتُ سطورَهُ منمَّقَةً ، أقولُ : تُرى هل أملاها على كاتبٍ حاذقٍ ماهرٍ أم هو الذي كتبَها بيدِهِ ؟ .

٣ ـ ملأتْ قلوبَ بلابلي ببلابلٍ أيدٍ لهنَّ إذا رشَقْنَ صوائبُ

ولما قرأتُهُ ملأتْ كلماتُهُ أعماقَ آرائي وهمومي بوسوساتٍ ذاتِ أيدٍ ، إذا رمَتْ نبالَها لا تخطِئُ أهدافَها .

٤ ـ أيدي أساورةٍ شبا نُشَّابُها كالجمرِ في كبدِ الرَّمِيَّةِ ناشبُ

أيدي مهرةٍ حُذَاقٍ ، تلمعُ نبالُها في وقتِ الرَّمِيَّةِ كالجمرِ اللازمِ الحَرْقَ .

٥ ـ عَجِبَتْ أميمةُ منْ هوى نَفَثاتِهِ قالتْ : أهنَّ عواتِكٌ وزيانِبُ

عجِبَتْ أميمةُ لمَّا سَمِعَتْ ، وقرأَتْ قصائدَهُ في النَّسيبِ ، وتساءَلَتْ : ألاَ يحبُّ شاعرُنا إلاَّ مَنْ كانَ اسمُها عاتكةَ أو زينَبَ .

٦ ـ ما في هوى الكلماتِ منْ أَرَبٍ لكمْ في ماءِ مأرِبَ للظِّماءِ مآرِبُ

ليسَتْ حاجتي في قصائدِ الهوى إليكمْ ، فحاجتي إلى ماءِ مَأْرِبَ (زمزمَ) التي تروي عَطَشَ الظماءِ .

٧ ـ شوقي إلى الحرمِ العظيمِ وأهلِهِ لِكُبَيْدَتي يا ذا المَناقِبِ ناقبُ

وإنَّ شوقي الكبيرَ إلى الحرمِ الشريفِ وأهلِهِ ، وقد أقْرَحَ قلبي يا ذا المفاخِرِ .

٨ ـ إحْفَظْ أبا الحَسَنِ العُهودَ ، فكُلُّنا لِصديقِهِ حقٌّ عليهِ واجبُ

فَصُنْ يا أبا الحسنِ عهدي فإنَّ للصديقِ حقًّا على صديقِهِ واجباً .

٩ ـ وادْأَبْ، هداكَ اللهُ، في ذكري كما أنا في مُواصَلَتي لذكرِكَ دائبُ

وجُدَّ في ذكري ، هداكَ اللهُ ، كما أُرَدِّدُ ذِكْرَكَ دائماً ، وأجُدُّ فيه .

١٠ ـ لا تَنْسَني يومَ الوقوفِ إذا بدا لكَ أشهبُ الفَودَينِ أشْعَثُ شاحبُ

فلا تنسَني يومَ الوقوفِ بعرفاتٍ ، واذْكُرْني إذا رأيتَ رجلاً قد شابَ بعضُ شعرِهِ فوقَ أذنَيهِ ، واغبَرَّ شَعرُهُ كلُّهُ ، وشَحِبَ وجهُهُ .

١١ ـ رَقِيَ السماواتِ العُلَى بدُعائِهِ دمعٌ لهُ جارٍ وقلبٌ واجبُ

وكأنَّهُ يَصْعَدُ السماواتِ السبعَ ، وهو ، يدعو ربَّهُ ، ودمعُهُ ، يجري ، وقلبُهُ ، يخفِقُ خشوعاً ورهَباً .

١٢ ـ يَحْني على الخوفِ الضلوعَ، ويَشْتكي فُرُطاتِهِ حتى تَوارى الحاجبُ

يَلْوي رأسَهُ ، ويضعُ يدَيهِ على صدرِهِ خوفاً على ضلوعِهِ ، ويشتكي أمورَهُ التي قصَّرَ فيها ، أو تجاوَزَ الحَدَّ إلى أنْ غابَ حاجبُ الشمسِ .

١٣ ـ وإذا أفَضْتَ إلى المُحَصَّبِ مِنْ مِنًى حيثُ الجماهرُ بالجِمارِ حواصِبُ

وإذا اندفعْتَ إلى موضعِ رميِ الجِمارِ في مِنًى حيثُ جماعاتُ الحجيجِ ، يرمونَ إبليسَ بالحصى .

١٤ ـ فاذكُرْ أخاً ، يرمي بجمرٍ قلبَهُ إنْ كنْتُمُ الحُضّارَ ، وهو الغائبُ

واذكرْ أخاكَ البعيدَ عنكم والذي ، يَتَحرَّقُ قلبُهُ بِجَمْرٍ ، لا يطفئُهُ إلاّ القربُ منكمْ ، إنْ كنتمْ حجاجَ هذه السنةِ ، وأنا الغائبُ عنكمْ .

١٥ ـ وإذا شَفَتْ لكَ زمزمُ لَهَثاً ، فقلْ : ليتَ الخوارزميَّ منها شاربُ

وإذا ارتويتَ منْ زَمْزَمَ ، فَشفَتْ ظمأكَ ، فقلْ : ليت أخانا الزَّمَخْشَرِيَّ الخوارزميَّ ، يشارِكُنا الشربَ منها .

١٦ ـ وإذا اسْتَلَمْتَ الرُّكْنَ في غَسَقِ الدُّجى وَلَثَمْتَ صَفْحَيهِ ، ودمْعُكَ ساكبُ

وإذا لَمَسْتَ الحجرَ الأسودَ في ظُلمةِ الليلِ ، وقبَّلْتَ جانبيهِ ، وتقاطرَ الدمعُ منْ عينيكَ .

١٧ ـ فاسْتَوهِبِ الرحمنَ أجرامي وقُلْ هبْ للفقيرِ ذنوبَهُ يا واهبُ

فادْعُ اللهَ تعالى أنْ يعفوَ عنْ ذنوبي ، وقلْ : اتْرُكْ ذنوبَ عبدِكَ جارِ اللهِ الزمخشريِّ يا غافرَ الذنوبِ ومانحَ المغفرةِ .

☆☆ ٨ ـ وقالَ على بحرِ مجزوءِ الكاملِ في مدحِ رسولِ اللهِ ، صلّى اللهُ عليه ، وسلَّمَ :

١ ـ يا حبَّذا وادي الحِمَى تلكَ الشِّعابُ وهَضْبُها

يا أحبَّ مكانٍ إلى القلوبِ ؛ إنه المكانُ الذي نحميهِ ، ونفديهِ بأرواحِنا ؛ فيهِ طرقٌ مُتَفَرِّعَةٌ وهضابٌ كثيرةٌ ،

٢ ـ وجِمامُ أبطَحِها الذي كَرُضابِ سُعْدَى عَذْبُها

وفيه مياهٌ كثيرةٌ في آبارٍ متفرقةٍ ، تُسْتخرج اسْتِخراجاً سهلاً ، عذبةٌ كعذوبةِ رُضابِ محبوبتي سُعْدى .

٣ ـ وكأنَّما حَصْباؤها دُرٌّ ومِسْكٌ تُرْبُها

وكأنَّ حصاها ، والماءُ الصافي ، يسير فوقَها ، لآلئُ ومسكٌ ، مُزجا بترابِها .

٤ ـ والهَمُّ شِعْبُ زَرْوَدَ ، لا قَحِطَتْ زَرْوَدُ وشِعبُها

تَهْفو قلوبُ الحُجَّاجِ ، لينعَموا بجمالِ طبيعةِ طريقِ زَرْوَدَ منَ الكوفةِ ، ويدعونَ اللهَ تعالى أنْ تبقى أرضُ زرودَ وفروعُها خِصْبةً ، لا يَقْرَبُها القحطُ .

٥ ـ وإذا جفا الخِصْبُ البلا دَ فلا جفاها خِصْبُها

وإنْ قَحَطَتِ البلادُ الأخرى ، فلا يبتعِدُ عنها خِصبُها ، ولا يُظَنُّ أنَّ خِصْبَها المعهودَ ، قد غَضِبَ عليها ، فتركَها .

٦ ـ يَثْني رؤوسَ الرائدِيـ ـنَ ، مُرَقَّصاتٍ عُشْبُها

فإنْ رآها رائدٌ ، يبحثُ لفرقتِهِ عن مكانٍ ، يأْوُونَ إليهِ ، فإنهُ ، يثني رأسَهُ إعجاباً بِما يراهُ ؛ والأعشابُ تتراقصُ طرباً .

٧ ـ ويَسوءُ قابسَ أهلِها غضُّ الغُصونِ ورطبُها

ويَتْعَبُ مَنْ يريدُ أنْ يوقدَ ناراً لأنَّ غصونَ أشجارِها غضةٌ رطبَةٌ .

٨ ـ وخِيـــامُ حــــيٍّ ، لَفَّهـــا   نَظْـــمُ الثُّـــريَّـــا قُـــرْبُهـــا

وتنصِبُ كلُّ جماعةٍ خيمتَها ، فتبدو تلكَ الخيامُ منظومةً نظمَ كواكبِ السماءِ المتقاربةِ تقارباً بديعاً .

٩ ـ فـــالخِيـــمُ والأطنـــابُ أجـ   ـفـــانٌ تَشـــابَـــكَ هُـــدْبُهـــا

وحبالُ الخيامِ ، تشبهُ أهدابَ الأجفانِ في تشابُكِها .

١٠ ـ ومُقـــامـــةٌ ، سُمّـــارُهـــا   بيـــضُ الـــوجـــوهِ وشَـــرْبُهـــا

وسُمّارُ المجلسِ ومجموعةُ الشاربين بيضُ الوجوهِ .

١١ ـ مِـــنْ كـــلِّ مُسْبِـــلِ حُلَّـــةٍ   يَمْشـــي ، فيسطُـــرُ هُـــدْبُهـــا

وكلُّ فردٍ قد ارتدى إزاراً ذا أهدابٍ طويلةٍ ، تتركُ سطوراً في الرملِ ملتويةً متعرجةً باختيالِه في مشيهِ .

١٢ ـ شَمْـــسُ المـــدامـــةِ   يَـــدُهُ وفـــوهُـــهُ غَـــرْبُهـــا

وحياتُهُ في اللهوِ والشرابِ ، يصبحُ وكأسُهُ في يدِهِ ، ويُمْسي ، وفَمُهُ ، يشربُ خمرَها .

١٣ ـ وأحِبَّـــةٌ لـــم يلتئـــمْ   بعـــدَ التَّصَـــدُّعِ شَعْبُهـــا

ورُفْقةٌ حبيبةٌ ، تفَرَّقَتْ ، ولم يجتمعْ شَمْلُها بعدُ .

١٤ ـ لَعِبَـــتْ بهـــمْ أيـــدي النَّـــوى   وأجَـــدُّ جِـــدٍّ لِعْبُهـــا

لَهَتْ بِهذه الرُّفْقةِ أيدي التفرقِ والبعدِ ، وما زالَتْ ، تلهو ، وتتلاعبُ بِها لأنَّ منْ طبعِها ذلكَ ، فإنْ أرادتْ أنْ تجِدَّ يكُنْ جِدُّها هزلاً .

١٥ ـ لـــم أنْسَهُـــمْ وبعيسِهِـــمْ   تُطْـــوى العُـــذَيْـــبُ وسَهْبُهـــا

ومهما أبعدَني النوى عنهمْ ، فإنني لا أنساهُمْ على الرغمِ منْ أنَّهُمْ يتمكَّنونَ منَ العودةِ إلينا سريعاً لأنَّهُمْ يملِكونَ إبلاً ، يخالطُ بياضَها شُقْرَةٌ ، تطوي الأرضَ مِنَ العُذَيبِ ذاتِ الأمواهِ العذبةِ إلى الفلاةِ دونَ جهدٍ أو تعبٍ .

١٦ ـ بـــركـــابِنـــا وبـــركبِهـــا   تلـــكَ الـــركـــابُ وركبُهـــا

وكم كانَتْ حياتُنا جميلةً عذبةً إذ نختلطُ نحنُ راكبي النوقِ ببعضِنا ، وتختلِطُ رواحِلُنا ، فلا يستطيعُ المرءُ أنْ يُمَيِّزَ واحدةً عنِ الأخرى .

١٧ ـ فيهـــم نـــوافـــرُ كـــالظِّبـــا   ءِ إذا ازْدَهـــاهـــا رُعبُهـــا

وفي الرَّكبِ نساءٌ شاباتٌ إذا صادفتْ ما يثيرُ رُعبَها ، تسرِعُ في الهروبِ كما تسرعُ الظباءُ التي انْتابَها الخوفُ في الفلاةِ .

١٨ ـ سمعتْ بنبأةِ قانصٍ سَحَراً فَرُوِّعَ سِرْبُها

إذا ما سمعَتْ صوتاً خفيًّا منْ قانصٍ ، أتى عندَ الفجرِ ، وأخافَ قَطيعَها .

١٩ ـ فيهنَّ ناعمةُ الصِّبا تَصِفُ الوصائفَ تِرْبُها

وفيهنَّ فتياتٌ رقيقاتٌ رهيفاتٌ هيفٌ ، ينعمْنَ بطيبِ شبابِهنَّ ، ويتبارَينَ بوصفِ حُسنِهِنَّ وحُسْنِ خوادمِهنَّ .

٢٠ ـ ظمأى الوِشاحِ ، وحَجْلُها أرْوَى الرِّواءَ وقُلْبُها

قَصُرَ الوِشاحُ لِطولِها ، وخَلخالُها وقُلْبُها رَوَّيا النُّظَّارَ إليهما .

٢١ ـ ما كَعبُها في ساقِها في الصَّدْرِ منها كَعبُها

ليسَ النُّتوءُ في رجلَيها ، إنما النُّتوءُ في نَهْدَيها .

٢٢ ـ والقَدُّ غُصْنُ أراكةٍ لَدْنُ المَهَزَّةِ شَطبُها

وقوامُها غَضٌّ كغُصنِ الأراكةِ ، وطولُها رَطبٌ طريٌّ لَيِّنٌ ، يختالُ في هَزَّاتِهِ .

٢٣ ـ والطَّرْفُ سيفٌ مُرْهَفٌ خَذِمُ المضاربِ عَضْبُها

والعينُ سيفٌ رقيقٌ حادُّ النظرةِ سريعُ الضربِ والقطعِ .

٢٤ ـ والخَدُّ مَجْرَحةٌ بِمُسْتَرِقِ اللِّحاظِ مُحِبُّها

والخَدُّ ذو جروحٍ كثيرةٍ بسببِ ما يَسْرِقُ كلٌّ منَ الحبيبَينِ نظراتٍ إلى حبيبِهِ .

٢٥ ـ إنْ رَقَّ خَدَّاها ، فَمَنْ أقسى الحجارةِ قَلْبُها

ويقابلُ رقةَ خدَّيها قسوةُ قلبِها قساوةً أكثرَ منْ قسوةِ الحجارةِ .

٢٦ ـ عابَتْ مَشيبي والضَّنَى ومَعيبُها هو ذنبُها

عابَتْ عليَّ شيبِي وشَكاتي المتكرِّرَةَ على الرَّغْمِ منْ أنَّها تعلَمُ أنَّها سببُ ما تعيبُهُ عليَّ .

٢٧ ـ الشَّيبُ في الفَودَينِ نارٌ في الفؤادِ يَشُبُّها

وما الشيبُ في جانبَي رأسي إلاَّ نارٌ يتأجَّجُ في الفؤادِ بِحُبِّها .

٢٨ ـ طَلَعَتْ طوالِعُ ، خالطَتْ دُهْمَ المَفارِقِ شُهْبُها

وخالطَ بياضُ الشيبِ شَعري ، فكانَ كالليالي المقمرةِ الثلاثةِ في الشهرِ القمريِّ والليالي المظلمةِ فيه .

٢٩ ـ فاسْمَعْ مواعِظَ منْ لِسا ... نِ الشَّيْبِ يعظُمُ خَطْبُها

فاستَمِعْ إلى ما أنصحُكَ به ؛ إنهُ صادرٌ عنِ امرئٍ ، مَرَّتْ بهِ حوادثُ كبيرةٌ ، كانَتْ سببَ هذا الشيبِ :

٣٠ ـ إيَّاكَ والصَّبَواتِ لا ... يَذهَبْ بِحلمِكَ حُبُّها

وابتعِدْ عن كلِّ ما يدعو إلى الفُتُوَّةِ لئلا تَفْتِنَكَ مجالِسُها وذكرُها ، فَتَفْقِدَ حِلْمَكَ وأناتَكَ .

٣١ ـ ما يَنْفَعُ النَّفْسَ اللَّبيـ ... ـبةَ إلا التَّقِيَّةُ لُبُّها

إذْ لا يفيدُ المرءَ العاقلَ إلاّ فكرُهُ وتَقواهُ .

٣٢ ـ واصدَعْ بِما أمَرَتْ بهِ الرْ ... رُسُلُ المنيرةُ كُتْبُها

واقصِدْ ، وابدأْ بِما أمرَ بهِ الرسُلُ وكتُبُها المقدسةُ التي تُنيرُ قلوبَ المؤمنينَ .

٣٣ ـ رُسُلٌ على أخطارِ خَلْـ ... ـقِ اللهِ ، أُعْلِيَ كعبُها

رُسُلُ اللهِ ـ عَزَّ ، وجلَّ ـ تُفَسِّرُ أحكامَ وأقدارَ خلقِ اللهِ الذينَ أعْلَى اللهُ تعالى كَعْبَهُمْ وقدرَهُمْ .

٣٤ ـ والمصطفى القُرَشِيُّ فَضْـ ... ـضَلَهُ عليها ربُّها

وفضَّلَ اللهُ المصطفى محمداً القُرَشيَّ عليهمْ جميعاً .

٣٥ ـ بِسوابقٍ ، غَمَرَتْ بها ... عُجْمَ البَريَّةِ عُرْبُها :

ففَضَلتِ العَرَبُ أعاجمَ الناسِ بأمورٍ كثيرةٍ ، سَبقَتْهُمْ ، وغَطَّتْهُمْ مآثرُها :

٣٦ ـ نَسَبٌ صحيحٌ عودُهُ ... صَدْقُ المعاجِمِ صُلْبُها

أوَّلُها : نسَبُهُ السليمُ الأصيلُ الصُّلْبُ العزيزُ ،

٣٧ ـ نَسَقُ الأُبُوَّةِ كالسما ... ءِ إذا تناسَقَ شُهْبُها

ثم تَتابُعُ رجالِ الأجدادِ والآباءِ دونَ حدوثِ صَدْعٍ في ذلكَ على نظامٍ بديعٍ كنظامِ نجومِ السماءِ وكواكبِها في منازِلها .

٣٨ ـ في ليلةٍ بَطَلَتْ دُجا ... ها ، واضْمَحَلَّتْ سُحْبُها

في تلكَ الليلةِ التي ذهبَتْ ظلْمتُها ، وتلاشَتْ سحبُها .

٣٩ ـ وأمانةٌ صَدَقَتْ فلم ... يَخْطُرْ ببالٍ كِذْبُها

وَوَعْدٌ ، أُوفي دونَ أنْ يَخْطُرَ بفِكرِ أحدٍ نقْضُهُ .

٤٠ ـ ما ارتابَ فيها منْ قُرَيْـ ... ـشٍ سِلْمُها أو حَرْبُها

وما شكَّ أحدٌ منْ قبيلةِ قريشٍ في خُلُقِهِ في حالِ سِلْمِها أو حالِ حَرْبِها .

٤١ ـ وثوى زمان ، وهو آثرُ قومِهِ وأحبُّها

وعاشَ بينَ قومِهِ ، وهو مُفَضَّلٌ عليهمْ جميعاً وأحبُّهمْ .

٤٢ ـ حتى إذا أوفى بأعلامِ النُّبُوَّةِ نَصْبُها

إلى أنْ أتى إليهمْ بأحكامِ النُّبُوَّةِ التي نَصَبَها اللهُ تعالى لهُ .

٤٣ ـ غُصِبَتْ على أحلامِها وأضَرُّ شيءٍ غَصْبُها

غُلِبَتْ على أمرِها على الرغمِ منْ أناتِها ، وأعظمُ شيءٍ على المرءِ قهراً غَلَبَتُهُ وانكِسارُهُ .

٤٤ ـ واشْتَطَّ في سُفهائها زَهْوُ النفوسِ وعُجْبُها

وجاوزَ الحدَّ سَفَهُ سُفهائِها وتِيهُ نفوسِها وفَخْرُها .

٤٥ ـ وحَمِيَّةٌ شَرِسَتْ أَعِنَّتُها فأَعوزَ جَذْبُها

وأنفَةٌ ، ساءَتْ ، وثارَتْ بخيولِها ، فاحتاجَ الأمرُ إلى شَدِّ أزِمَّتِها ،

٤٦ ـ وشكيمةٌ قُرَشيَّةٌ ما إنْ يُفَلَّلُ غَرْبُها

وإباءُ قبيلةِ قريشٍ ، لا يستطيعُ أحدٌ أنْ يكسرَ حِدَّةَ طَبْعِها وحِدَّةَ سلاحِها .

٤٧ ـ وعداوةٌ لم يُحْتَرَشْ بِشَبا الأسِنَّةِ ضَبُّها

وعداوةٌ ، لم يقفْ أحدٌ بوجهِها يوماً حاملاً سيفَهُ أو رمحَهُ المسنونَ .

٤٨ ـ وتِهامةُ الفيحاءُ ضاقَ على قُرَيْشٍ رحبُها

وأرضُ تِهامةَ الواسعةُ رأتْ أنَّ سَعَتَها ضيِّقةٌ عليها في هروبِها من هذا الدينِ الجديدِ .

٤٩ ـ فعدا عَليهِ ذئبُها وعَوَى إليهِ كلبُها

ولحقَ بقريشٍ وأحلافِها الإسلامُ، وصاحَ برجالِها، فكانَ الفريقانِ كالذئبِ والكلبِ .

٥٠ ـ ثَلَبَتْهُ ألسنةٌ فَحاقَ بحامِليها ثلْبُها

ولامَتْهُ ، وهَجَتْهُ ألسنةُ قريشٍ ، فعادَ مكْرُها على أهلِها .

٥١ ـ شَغَبَتْ قُريشٌ ، ثُمَّ لم يَنْفَعْ قُريشاً شَغْبُها

وهَيَّجَتْ قريشٌ الشَّرَّ عليهِ وعلى أصحابِهِ وعلى المسلمينَ ، فما نفعَها ذلكَ .

٥٢ ـ كم أوقَدَتْ بِغَوِيِّها صَخْرِ بنِ حَرْبٍ حَرْبُها

وكم أوقَدَتْ نارَ حربِها بسفيهِها صخرِ بنِ حَرْبٍ أبي سفيانَ والدِ معاويةَ .

٥٣ ـ خَطَبَتْ محاربةَ الرَّسولِ وشَرُّ خِطْبٍ خِطْبُها

أرادتْ أنْ تحاربَ الرسولَ ، فكانَ ذلكَ شَرَّ ما أرادَتْهُ في حياتِها .

٥٤ ـ حتــى اجْتَلَــتْ مَحْجــوبــةٌ رَهْــجُ السَّــلاهــبِ حُجْبُهــا

لَمّا انكشفَتْ ساحةُ الحربِ منَ الغبارِ المثارِ منْ أرجلِ الرجالِ والخيلِ .

٥٥ ـ لــم تُفْتَــرَعْ ، لكنَّمــا افْــتَــرَعَــتْ طُــلاهُــمْ قُضْبُهــا

لم تَلْقَ قريشٌ الأذى بشرفِها وعزِّها منَ المسلمينَ فقط ، إنَّما تَلَقَّتْ منهمْ ضربَ رِقابِ أسيادِها وأسرَ كبارِ رجالِها .

٥٦ ـ وَرَدَتْهُــمُ خيــلٌ ، دِمــاءُ أُلــي الضــلالَــةِ شِــرْبُهــا

وكانَ المسلمونَ قد امْتَطَوا خَيلاً ، ارْتَوَتْ بدِماء ذوي الكفرِ والضلالةِ .

٥٧ ـ عَتَبَــتْ عليهــمْ والقنــا والمَشْــرَفِيَّــةُ عَتْبُهــا

وعادَتْهُمْ قريشٌ ، وقد لامَتْهُمْ سيوفُ الشامِ وقناها لوماً عظيماً .

٥٨ ـ وسَمَــا إلــى أحــزابِ مَكْــكَــةَ يــومَ بَــدْرٍ حِــزْبُهــا

وارتفعَ فوقَ أحزابِ يومِ بدرٍ حزبُها حزبُ الإسلامِ .

٥٩ ـ فَــأُذِلَّ ثَــمَّ عــزيــزُهــا وهنــاكَ ذُلِّــلَ صَعْبُهــا

وأصبحَ العزيزُ ذليلاً والصعبُ ضعيفاً كسيفاً في ذلكَ اليومِ وذلكَ الموقعِ .

٦٠ ـ واسْتُلْحِمَــتْ بِشِفَــارِهــا شــوسُ الملــوكِ وغُلْبُهــا

وهبَّتِ الأسيادُ بسلاحِها ، وقوبلَتْ بقوةِ الإيمانِ والغُلْبِ التي ذلَّلَتْهُمْ ، فَذَلُّوا ، وكُسِرَتْ شوكةُ تَكَبُّرِهِمْ شَرَّ كسرةٍ .

٦١ ـ ومَســاعــرٌ كــالأُسْــدِ مَقْــضِــيٌّ هنــالــك نَحْبُهــا

وظَنُّوا أنَّهمْ أقوياءُ كالأسودِ ، يستطيعونَ أنْ يوقدوا نارَ الحربِ ، وينتصروا ، فرُدَّ عليهِمْ ظَنُّهُمْ ، وكانَ ميدانُ الحربِ مقبرةً لهم .

٦٢ ـ وبَنــاتُ طــارقِ النَّــوا دبُ لــم يُغِثْهــا نَــدْبُهــا

ولم تُفِدْ أناشيدُ بناتِ طارقٍ تَيَمُّناً بالنصرِ ، فقد عادَتْ أناشيدُهُنَّ نَدْباً ، ولم يَرُدَّ الندبُ عليهِنَّ قتلاهُنَّ .

٦٣ ـ طحنَــتْ جمــاجمَهــمْ رَحًــى نَصْــرُ المُهَيْمِــنِ قُطبُهــا

وكانَ نصرُ اللهِ تعالى إذْ قضَتْ رحى الحربِ على قوةِ العربِ المشركينَ قضاءً مبرماً ، وطحنَتْ رؤوسَ أكابرِهِمْ بتدبيرِ اللهِ ـ عزَّ ، وجلَّ .

☆☆ ٩ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ يمدحُ صدرَ الدينِ محمداً حفيدَ نظامِ الملكِ :

١ ـ سلا دارةَ الخَلْصاءِ كيفَ هضابُها ؟ وما صَنَعَتْ أجزاعُها وشِعابُها

يا خليليَّ اسأَلا أرضَ الخَلْصاءِ بالدهناءِ كيفَ حالُ تلالِها ؟ وماذا كانَ منْ أهلِ ودِيانِها وطُرُقِها ؟

٢ ـ وهل بديارِ العامريَّةِ عامرٌ سِوى رُفْقةٍ ، تبكي ، وترغو ركابُها

وهل بقيَ ببيوتِ بني عامرٍ أحدٌ منهمُ غيرُ جماعةٍ ، تبكي أطلالَها ، وغيرُ بعضِ إبلِها التي تشارِكُ الحزنَ بأصواتِها .

٣ ـ وقَفْنا بِها ركبَ الغرامِ ، فلم تجبْ فَلَجَّتْ دموعٌ ما يُفيقُ انسكابُها

سألْناها عن جموعِ المُحبِّينَ ، فلم تَرُدَّ الجوابَ ، فبكِينا بدموعٍ غزيرةٍ ، ما يَكُفُّ تَهطالُها .

٤ ـ وما بقيَتْ أطلالُها ورسومُها صوامتَ إلاَّ صاحَ غُرابُها

ولم يبقَ منْ دورِها وآثارِها شيءٌ ساكتاً ، بل صاحَ غُرابُ البينِ ، يبكي أصحابَها .

٥ ـ وشامَتْ سُلَيمى بالعقيقِ مَخيلةً فقالَتْ : بأحْساءِ العُذَيبِ مَصابُها

ووقفَتْ سُلَيمَى بالعقيقِ مُعْجَبةً بنفسِها ، وقالَتْ : بأحساءِ العُذَيبِ ، كانَ مصابُها .

٦ ـ فَصَدَّتْ سُلَيمى عن ملاحِ العقيقِ إذْ دَعَتْها إلى أرضِ العُذَيبِ عِذابُها

ودَعَتْها الفتياتُ الجميلاتُ إلى النزولِ بالعقيقِ أرضِ الأيامِ العذبةِ ، فأعرضَتْ ، ولم تُلَبِّ نداءَهُنَّ .

٧ ـ ملاعبُ منْ أترابِ سلمى أسوفُها فَيَنْفَحُ كالمِسْكِ السحيقِ تُرابُها

ووقفْتُ ، ثم تَجَوَّلْتُ في مرابعِ صديقاتِ سُلَيمى ولِداتِها ، أتَنَسَّمُ رائحةَ ترابِها ، فوجدْتُهُ ، ينشرُ رائحةَ المسكِ الدقيقِ جَيِّداً .

٨ ـ منازلُ أنفاسِ المحبِّ رياحُها وأجفانُهُ المُسْتَمْطِراتِ سحابُها

والمُمْتَزَجِ بأنفاسِ المُحِبِّ في كلِّ بيتٍ منها ، فكانتْ رياحاً ، وكانَتْ أجفانُهُ التي تَهمي الدموعُ منها سحاباً لها .

٩ ـ إذا دعتِ الأشواقُ عينَيهِ دعوةً فإنَّ الدموعَ الصَّيِّباتِ جوابُها

وإذا ذكرَ الحنينُ لعينيهِ مجلساً ، كانتِ الدموعُ المُنْهَمِرةُ جَواباً له .

١٠ ـ وأقسمُ لولا نَشْفُ أنفاسهِ لها لأمرعَ منها رَبْعُها وجَنابُها

وأقسمُ لولا أنَّ أنفاسَهُ الحَرَّى شوقاً ، تُجَفِّفُ دمعَهُ ، لكانَ ريًّا لمنازِلِ القومِ وللأرضِ المحيطةِ بِها .

١١ ـ وعَهدي بِسَلْمَى وهي ساكنةُ الحِمَى   تَحصَّنُ بالقُبِّ العِتاقِ قِبابُها

وإني لأعلمُ أنَّ سلمى ، تقطنُ بقصرٍ ، يصونُهُ أهلُها الكرامُ الذينَ جعلوا لبيوتِهِمْ قِباباً لتكونَ عَلَماً للناسِ .

١٢ ـ ولم يُرْضِها إلاَّ الحجابُ مُضاعَفاً   فَضوعِفَ بالنَّقْعِ المُثارِ حِجابُها

وكانتْ ، تحبُّ أنْ تعيشَ بحجابٍ مُضاعَفٍ ، فَخُصِّصَ لها فرسانٌ ، يُداوِمونَ الحراسةَ على صَهَواتِ خيولِهِمُ التي تُثيرُ الغبارَ ، فيكونُ لها حجاباً ثالثاً .

١٣ ـ تُحامي عليها عصبةٌ مازنيَّةٌ   إذا عاتَبَتْ فالمرهفاتُ عتابُها

وكانَ لها جماعةٌ من قبيلةِ مازنٍ ، تَحميها ، وتمنَعُ عنها كلَّ معتدٍ ، فإذا تَعَرَّضَتْ لِلَّومِ فإنَّ سيوفَ تلكَ العصبةِ الرقيقَةَ الحادَّةَ ، تردُّ عليهِ .

١٤ ـ أُباةٌ ، فما تُغْضي لأدْنَى ظُلامةٍ   تُقَلِّبُ أحداقَ اللُّيوثِ غِضابُها

وإنَّ هذه العصبةَ عزيزةٌ ، تأبى الضَّيمَ ، لا تقبلُ أقلَّ ظُلامةٍ ، لا تُغمِضُ أجفانَها عنِ المراقبةِ ، ولا تَفْتأُ ، تُديرُ أنظارَها حولَها ، فلا يَرى الناظرُ إليها إلاَّ عينَ الغضبِ والدفاعِ عنها .

١٥ ـ وسلمى ، وما سلمى؟ عقيلةُ رَبْرَبٍ   قَرَى ماءَهُ في وجْنَتَيها شبابُها

وإنْ سُئِلْتَ : مَنْ هي سلمى ؟ فقلْ : هي كريمةُ أسيادٍ ، في رَيعانِ شبابِها ، ذاتُ حياءٍ ، يَظهَرُ جَمْعُ مائِهِ في خَدَّيها .

١٦ ـ تُريكَ مُضيءَ البدرِ في خِفْيَةِ السُّهَى   بِغُرَّةِ وجْهٍ ، لم يُحَطَّ نِقابُها

فإنْ بَدَتْ لكَ ، تَرَ وجهاً كنجمِ السُّهى الخَفِيِّ بينَ نجومِ بناتِ نعشِ الصُّغرى ، يُضيءُ البدرَ ببياضِ جَبهَتِهِ ، لم تَضَعْ عليهِ خمارَها .

١٧ ـ وما زالَ مصبوباً على يدِها دمي   فلا يُتَوَهَّمُ غيرُ ذلكَ خِضابُها

وكانَتْ قد خَضَّبَتْ يَديها بالحناءِ ، فيظُنُّ الرائي أنَّ أحدَ حُرَّاسِها ، قد رآني قريباً منها ، فضرَبَني ، فسالَ دمي على يدِها .

١٨ ـ وإطفاءُ نارٍ ، أُلْهِبَتْ في حشايَ أنْ   أفوزَ بشخصٍ ، كانَ منهُ التِهابُها

ولا يَنْطَفِئُ نارُ قلبي إلاَّ بأنْ أحْظَى بإنسانةٍ ، كانَتْ سببَ اتِّقادِ تلكَ النارِ .

١٩ ـ وبَرْدُ فؤادي في ارتشافِ مباسمٍ على البَرَدِ المُنْهَلِّ ، يجري رضابُها

ولا تكونُ برودةُ قلبي إلاَّ بامتِصاصِ شفاهٍ ، يجري ريقُها المنصبُّ على أسنانِها البيضاءِ .

٢٠ ـ وفي لَثمِ خمسِ الصاحبِ البيضِ ، إنَّها على السبعةِ الخُضْرِ اسْتطالَ عبابُها

وبتقبيلِ أصابِعها الخمسةِ البيضِ كانَ العهدُ ، وشهِدَ عليه السمواتُ السبعُ والبحارُ السبعةُ التي عَلَتْ أمواجُها .

٢١ ـ إذا ما أثابَتْ مَنْ يَقِلُّ غناؤُهُ فمِنْ فوقِ تقديرِ الأماني ثوابُها

وإذا ما اسْتَقَلَّتْ إنشادَ أحدٍ في نسيبِها فإنَّ عطاءَها له قائمٌ ، لا تُصَدِّقُهُ الأمنياتُ .

٢٢ ـ وإنْ عاقَبَتْ منْ قد تَفاقَمَ جُرْمُهُ فليسَ سوءَ الصَّفْحِ الجميلِ عِقابُها

وإنْ أرادَتْ أنْ تُعاقِبَ منْ عَظُمَ ذنبُهُ ، فلا تجدُ أمامَها إلاَّ المسامحةَ التي تكونُ أكبَرَ رادعٍ للمذنبِ .

٢٣ ـ وما سنجرٌ إلاَّ مدينةُ دولةٍ وإنَّ النِّظامَ بنَ النِّظامَينِ بابُها

وإنَّ مَلِكَ سنجرَ صاحِبَ المدينةِ العظيمةِ والدولةِ المَهيبةِ ، هو النظامُ بنُ النظامِ بنِ النظامِ السلجوقيُّ .

٢٤ ـ أصابَتْ تدابيرُ الملوكِ ، وأخطَأَتْ وما يَرَ صدْرُ المُلْكِ ، فهو صوابُها

ولئنْ تُصِبِ الملوكُ في تدابيرِها ، أو تُخْطِئْ ، فإنَّ ما يراهُ ، ويعملُهُ صدرُ المُلْكِ ، فهو صوابُ التدابيرِ .

٢٥ ـ تَصَعَّبُ في أيدي الملوكِ ذلولُها وفي يدِ صَدْرِ المُلْكِ ذَلَّتْ صعابُها

وكانَتْ أمورُ الدولةِ في زمنِ الملوكِ الآخرينَ صعبةً عسيرةً عليهِمْ ، ولما صارَ المُلْكُ بيدِ صدرِ الدينِ ، أصبحَتْ صِعابُ الأمورِ هَيِّنَةً .

٢٦ ـ نعمْ ، لهمْ رأيٌ ، ولكنهُ كما تَرَقرَقُ منْ فَوقِ الأكامِ سرابُها

أجَلْ ، كانَ لهم رأيٌ عابرٌ ، يلتَمِعُ كالتماعِ السرابِ فوقَ التلالِ ، ليس لهُ فائدةٌ ولا دوامٌ .

٢٧ ـ أبُوَّتُهُ لو زالَ عنهمْ عُطاردٌ وإخوتُهُ لم يُغْنِ عنهم منابُها

وهو لرعيتِهِ أبٌ لهمْ كعطاردٍ ، فإنْ غابَ عنهمْ فترةً ، وتسَلَّمَ أمورَها إخوتُهُ ، لم يستطيعوا أنْ يقوموا مقامَكَ .

٢٨ ـ همُ قادةُ الدنيا وذادةُ أهلِها ولو قعدوا ، قامت إليها ذئابُها

فآلُ سلجوقَ سادةُ البشرِ في الدنيا وحامو أهلِها ، ولو تركوا هِمَّاتِهم ، هبَّ ذئابُ الناسِ وسُفَهاؤُهُمْ ، وعاثوا فساداً .

٢٩ ـ همُ وسَّعُوا ما ضاقَ منها بِسَعيِهِمْ ولـولا مساعيهِـمْ لضاقَـتْ رحابُهـا

فقد أحكموا أعمالَهمْ إحكاماً جيداً لأنَّهُمْ علِموا ما يجبُ عملُهُ ليكونَ أفرادُ الرعيةِ سعداءَ . ولولا سَعْيُهمْ لَضاقتِ الدنيا بأعينِ الناسِ ، وشَقَوا شقاءً ، ما بعدَهُ شقاءٌ .

٣٠ ـ همُ عَمَروها ، والملوكُ بعَدْلِهِمْ وجَـورِهِـمْ عُمـرانُهـا وخـرابُهـا

فآلُ سلجوقَ عُمَّارُ البلادَ بِحِكمتِهِمْ دائماً وأبداً ، والملوكُ الآخرونَ ، عَمَروها بعَدْلِهِمْ تارةً ، وخَرَبـوها بجَورِهِمْ تارةً أُخرى .

٣١ ـ وأهيَبُ بأساً منْ كتائبِ تُرْكِها وأعـلامُهُـمْ أقـلامُهُـمْ وكُتَّـابُهـا

وكانَ وقارُهُمْ أعظمَ وشِدَّتُهُمْ أكبرَ ، وعظماؤهمْ منَ الفُقهاءِ والعلماءِ والكتابِ ، ففاقوا بذلكَ ملوكَ التركِ .

٣٢ ـ يَهابُ القنا قومٌ ، وأمَّا يراعُهُمْ فَمَـنْ لا يُـرَجِّيها ؟ ومَـنْ لا يَهـابُهـا ؟

فالناسُ كلُّهمْ يخافونَ الرماحَ ، وَيُقَرِّبونَ أصحابَ الأقلامِ ، ويحسبونَ لهمْ ألفَ حسابٍ ؛ فمَنْ لا يطلُبُ وُدَّهُمْ ، ولا يخافُ سَطْوَتَهُمْ ؟

٣٣ ـ وما نفسُ صدرِ المُلْكِ دونَ نِصابِهِ وقـد تلـؤُمُ النفسُ الكـريـمَ نِصـابُهـا

وليستْ نفسُ صدرِ الملْكِ بأقلَّ منْ أصلِهِ ، وقد توافِقُ النفسُ أصلَها الكريمَ .

٣٤ ـ قد اكتَسَبَتْ منْ بعدِ ما انتَسبَتْ ، وما يـزيـنُ انتسـابَ النفـسِ إلاَّ اكتِسـابُهـا

وزادَ على أصلِهِ الكريمِ ما اكتسبَهُ منَ الحياةِ ، وفي الاكتِساب زينةٌ وحَلْيٌ ، يجعلُ المرءَ أكثرَ هيبةً ووقاراً .

٣٥ ـ ورايَتُهـا فخـريَّـةٌ رَضَـوِيَّـةٌ كـأنَّ علـى رَضـوى تُـزَرُّ ثيـابُهـا

وكانَ قد اتَّخَذَ سُنَّةَ أبيهِ فخرِ المُلْكِ ، ورفعَ علمَهُ على رَضوى جبلِ المدينةِ المنورةِ ، ولعلَّهُ وضعَ دستوراً ، يوجبُ على كلِّ مسؤولٍ في دولتِهِ أنْ يَشُدَّ ثيابَهُ الرسميةَ بأزرارِها على رَضْوَى قبل أنْ يقومَ بعملِهِ .

٣٦ ـ بغيرِ حسابٍ أخْرَجَتْ يدَهُ اللُّهَى وأخْـرِجَـةُ الـدنيـا إليهـا حسـابُهـا

تَهَبُ يَدُهُ العطايا بغيرِ حسابٍ . أمَّا عطايا الملوكِ الآخرينَ فإنَّها تخرجُ منهمْ بحسابٍ دقيقٍ ، لا كرمَ فيه .

٣٧ ـ ويَبْسِمُ عنْ غُرِّ الثنايا لوَفدِه إذا السنةُ الغبراءُ ، مَلَّحَ نابُها

وإنْ كانَ العامُ عامَ قحطٍ وقِلَّةٍ شديدةٍ ، فإنهُ لا يغيِّرُ منْ عادتِهِ شيئاً ؛ يُرَحِّبُ بضيفِهِ ، ويضحكُ لهُ ، حتى تظهرَ أسنانُهُ البيضاءُ .

٣٨ ـ مفاخِرُ أربابِ الوزارةِ كلُّها إليهِ على رغمِ الزمانِ انصبابُها

وكلُّ مفخرةٍ وكلُّ مَكْرُمةٍ ، كانَتْ مِنْ موظفي وزارتِهِ ، يعودُ فضلُها إليهِ على الرغمِ منْ أنَّ الزَّمنَ قد عانَدَهُ ، وصبَّ عليه شدائدَهُ .

٣٩ ـ إليكَ ربيبَ الملكِ أشكُرُ أنعُماً لِيُمْناكَ هطَّالاً عليَّ رَبابُها

وإني أتقدمُ بالشكر إليكَ يا أيُّها الملكُ العزيزُ لِما أولَيْتَني منْ نِعَمٍ ، لا تنقطعُ .

٤٠ ـ ودائمةٌ مني لك الدَّعْوةُ التي يجوبُ السمواتِ العُلى مُستَجابُها

وأدعو لكَ دعاءً متواصلاً راجياً منَ اللهِ ـ عزَّ ، وجلَّ ـ مِمَّنْ يملكُ السمواتِ والأرضَ الاستِجابةَ .

٤١ ـ وأشكو إلى ترشيحِكَ الفضلَ أنني بأرضٍ ، أطارَتْ حَقَّ فضلي عُقابُها

ثم أتقدَّمُ بالشكوى إليكَ لأنكَ تَعَهَّدْتَني بفضلِكَ وحسنِ صنيعِكَ ، وأنا أعيشُ بأرضٍ ، تَنْكُرُ كلَّ ما أقولُ وأفعلُ بأقوالِها وأفعالِها السَّيِّئَةِ .

٤٢ ـ ولا عيبَ في نفسي سِوى فَضْلِها ، بلى إقامتُها في أرضِ خارِزْمَ عابُها

والعيبُ في أرضِ خوارزمَ ذاتِ العيبِ بل العيوبِ الكثيرةِ ، وإقامتي بِها مَذَمَّةٌ ، تُسيءُ إلى نفسي التي تأبى غيرَ الفضلِ الأصيلِ فيها .

٤٣ ـ وترحالُها ، ليسَ اغترابَاً ، وإنَّما إقامتُها في الناقصينَ اغترابُها

ولذا فإني أرى إقامتي فيها بينَ أهلِها ذوي العيوبِ الكثيرةِ اغتراباً ، وابتِعادي عنها سَكَناً لنفسي .

٤٤ ـ إذا قلْتُ ، لم يَفْهَمْ معانِيَ مَنطقي شخُوصٌ بلا لُبٍّ ، مُحالٌ خطابُها

فإنْ أردْتُ أن أقولَ شيئاً ، فإنَّهمْ لا ولن يفهموا ما أقولُ لأنَّهمْ أخيِلةٌ ، لا عقولَ لها ، ولأنَّ مِنَ الأمورِ المستحيلةِ مخاطبَتَها .

٤٥ ـ فما لهجتي إلاَّ صفيحةُ صارمٍ تَضَمَّنَها مِن غيرِ سَلٍّ قِرابُها

وليس كلامي إلاَّ صفيحةُ سيفٍ قاطعٍ ، لا يأتيهِ الباطلُ منْ وجهٍ ، يفهمُهُ السامعُ أو القارئُ منْ غيرِ تفسيرٍ ، ويعرفُ القريبُ والبعيدُ المرادَ منه كالسيفِ البَتّارِ ، يُتَوَقَّعُ منه القطعُ

قبل إخراجِهِ منْ غِمدِه .

٤٦ ـ لقد فقَدَتْ خُطَّابَ صدقٍ، فَعَنَّسَتْ عقائلُ أشعاري ، وطالَ احتجابُها

وكانَتْ قصائدي كالفتياتِ الفاضلاتِ ، تحتجبُ عنِ الخطّابِ الذين لا يُوافِقونَها مكانةً ، فبقيتْ محتجبةً في بيوتِهنَّ إلى أنْ أصبحْنَ عانساتٍ .

٤٧ ـ فليتَ قضاءَ اللهِ أوجبَ نَهْضَتي فَنَفَّسَ عنْ نفسٍ ، براها اكتئابُها

وإني لأرجو اللهَ تعالى أنْ يُقيلَ عثرتي ، ويُخَفِّفَ شيئاً عن نفسي التي أضناها حزنُها .

☆☆ ١٠ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الحنينِ إلى مسقطِ رأسِهِ والفخرِ :

١ ـ مُطَوَّقَتَي نَعمانَ ، أصْبَيْتُما قلبي إلى أرضِ ميلادي ، وصوتُكما ، يُصبي

أيا أيتها الحمامتانِ المُطَوَّقتانِ حمامَتَي وادي نَعمانَ كثيرِ الأراكِ لقد دعوتُما قلبي إلى الشوقِ والحنينِ إلى مسقطِ رأسي بصوتِكما الذي يثيرُ الشوقَ في كلِّ قلبٍ .

٢ ـ على فَنَنَي عودِ الأراكِ نُحْتُما فما شِئْتُما منْ سكبِ دمعٍ على سَكْبِ

وقفتُما على غُصْنَي الأراكةِ ، ونُحْتُما ، وسكَبْتُما ما شِئتُما منَ الدمعِ .

٣ ـ تَحَدَّرَ ماءٌ ، لو أصابَ خميلةً لزلَّتْ بهِ عن روضَتِها خُضْرةُ العُشْبِ

وتَنَزَّلَ منْ عينيكما دمعٌ ، لو سالَ على روضةٍ ، لجعلَ أرضَ عشبِها الأخضرِ لينةً طريَّةً ، لا تثبتُ الأقدامُ عليها ، فتنزلِقُ .

٤ ـ يُسَمَّى بِماءٍ ، وهو نارٌ ، وربّما دَعَوا بينَهمْ أشياءَ بالعكسِ والقَلْبِ

لقد سُمِّيَ الدمعُ ماءً على الرغمِ منْ أنهُ نِتاجُ نارٍ وحُرْقةٍ ، وكثيراً ما سُمِّيَتْ أشياءٌ بأسماءٍ وصفاتٍ ذاتِ معانٍ مُتَضادَّةٍ .

٥ ـ وبينَ بلادي والحجازِ مسافةٌ بعيدٌ عنِ الوجناءِ والبازلِ الصَّعْبِ

وإني بأرضِ الحجازِ ، وبلادي بعيدةٌ جدًّا ، تَصْعُبُ على الناقةِ الشديدةِ أو الناقةِ الكهلةِ التي بلغَتِ السنةَ التاسعةَ منْ عمرِها ، وطلعَ نابُها .

٦ ـ تُضَيِّعُ أشواطَ الرياحِ تَنوفةٌ إلى جنْبِها أُخرى وشَهبٌ إلى شَهْبِ

هذا البعدُ بينَ بلادي وأرضِ الحجازِ ، يَمْلَؤُهُ فَلَواتٌ ، تتلاشى بِها هبّاتُ الرياحِ وجبالٌ مكسوةٌ بالثلوجِ .

٧ ـ وكلُّ مَلاً مثلُ المُلاءِ مُنَشَّراً إذا خَبَّ فيهِ الآلُ ، يَهْرَأُ بالرَّكْبِ

وكلُّ فلاةٍ ، تُشبهُ الريطَةَ ، تَتَّسِعُ كثيراً ، ويعلوها السرابُ بسرعةٍ ، فيشْتَدُّ على

المسافرينَ السيرُ فيها .

٨ ـ ولاذوا بـأظـلالِ المَطِـيِّ رواجفـاً   وردُّوا علـى الأفـواهِ أرديـةَ العَصْـبِ

ويلجؤون إلى أفياءِ دوابِّهِمْ المضطربةِ من الحرِّ أو البردِ ، ويَضَعونَ على أفواهِهِمْ عِماماتِهِمْ ، علَّها ، تخفِّفُ عنهم شِدةَ البردِ والحرِّ .

٩ ـ وكلِّ مَنيفِ الرأسِ ألقتْ رداءَها   على مِنكَبَيهِ الشمْسُ واعتَمَّ بالسُّحْبِ

وظَلَّتِ الشَّمْسُ ، تُلْقي أشعتَها الشديدَة الحارَّةَ على مَنْ كَشفَ رأسَهُ ، أو جَعَلَ السُّحبَ عِمامةً له .

١٠ ـ يخالُ الذي في حِضْنِهِ العيرَ تحتَهُ   صفوفَ صغارِ النملِ أو أسطرَ الكُتْبِ

يظنُّ المُمْتَطي جوادَهُ الواقفُ على الجبلِ الناظرُ إلى ما حولَهُ إلى منحدَرِ الجبلِ أنَّ الدوابَّ التي ترعَى تحتَهُ صغارُ النملِ أو أسطرُ الكتبِ .

١١ ـ وليسَ الذي أشتاقُهُ العيشَ لَدْنَةً   معاطفُهُ والخفضَ والأمنَ في السَّرْبِ

ولستُ أرى العيشَ لباساً ناعماً ليِّناً وسَعَةَ العيشِ والأمانَ في الطريقِ .

١٢ ـ وخَطْـرَى ذيّـالَ الإزارِ مُسَطَّـراً   بـأهـدابِـهِ ، أُبليـهِ بـالجَـرِّ والسَّحْـبِ

ومحبوبةً ، ترتدي ثوباً ذا ذيل طويلٍ ، افتنَّ صانعُهُ بأهدابٍ ، أَخْتَبِرُ متانتَهُ بالجَرِّ والسَّحْبِ .

١٣ ـ وإنـي بـأنفـاسِ الـريـاضِ مُصَبَّـحٌ   مُمَسَّـى بسهـلٍ طيِّـبٍ عَبِـقِ التُّـرْبِ

وأحبُّ أن يكونَ صباحي ومسائي مُعطَّراً بشَذَى الترابِ .

١٤ ـ يُغـازلُ أردانـي نسيـمٌ إذا هفـا   فـواهـاً لمـرآهُ علـى كَبِـدِ الصَّـبِّ

فإذا هبَّ نسيمٌ ، داعبَ أصولَ أكمامي تَغَزُّلاً ، فأثارَ في نفسي لواعجَ الشوقِ والحنينِ ، وجعلَ مَنْ يراني يقولُ : يا حسرةً على كبدِ المحبِّ .

١٥ ـ نسيمٌ كما استنكهتُ مِنْ بعدِ هجعةٍ   رَشوفاً ، تراعي الثغرَ بالإسحِلِ الرطْبِ

ذلكَ لأنَّ رائحةَ ذلكَ النسيمِ كرائحةِ ثغرِ محبوبتي بعدَ نومةٍ وقبلَ أنْ تدلُكَ أسنانَها بعودٍ منْ شجرِ الإسحِلِ الرطبِ .

١٦ ـ إذا انتكَفَـتْ منـهُ ريـاحٌ خـواطـرٌ   عليَّ ، زكَتْ مِن تَحْتِها حِيبةُ القلبِ

وإذا ما انقطعَتْ عني رياحُ ذلك النسيم التي تُحَدِّثُني ، وتثيرُ في نفسي هواجسَ كثيرةً ، نَمَتْ ، وزادَتْ رِقَّةُ قلبي .

١٧ ـ وما بيَ جَيحونُ إذا ما تلاطَمَتْ أواذِيُّـهُ ذاتُ اللَّجـاجـةِ والشَّغْـبِ

والذي بي نَهْرُ جيحونَ العظيمُ حينَ تثورُ أمواجُهُ ، وترتفعُ أصواتُها ، وتعلو على أصواتِ كلِّ شرٍّ .

١٨ ـ وتلكَ الجواري الراقصاتُ عشِيَّةً وقـد نَغَـمَ البـوصِـيُّ أغنيـةَ النَّصْـبِ

وتلكَ السفُنُ التي تتراقَصُ في المساءِ على أنغامِ المَلَّاحِ الرقيقةِ .

١٩ ـ وما يَسْتهشُّ النفسَ مسقطُ رأسِها ومـا يَطَّبيهـا مِـنْ شقيـقٍ ولا تِـرْبِ

وما يُفْرِحُ النفسَ المُحِبَّةَ مسقطُ رأسِها ، ولا يَسْتَميلُهَا شقيقٌ ولا لِدةٌ .

٢٠ ـ وقد مَرَنَتْ نفسي على غُربةِ النَّوى وعَـوَّضَهـا اللهُ السُّلُـوَّ مـنَ الكَـرْبِ

وقد عَوَّدْتُ نفسي على شِدَّة البعدِ ، وعوَّضني اللهُ ، عزَّ وجلَّ ، بِنِسْيانِ الحزنِ والكرب .

٢١ ـ وَطَأْمَنَ في بطحاءِ مكةَ جأشَها بصحبٍ ، هُمُ أوفى وأكرمُ منْ صَحْبِ

وهَدَّأَ اضطرابَ قلبي ، وأسكَنَهُ مكةَ برُفْقةٍ ، كانوا أوفى وأكرمَ منْ أيِّ رُفْقةٍ أُخرى .

٢٢ ـ أرانـي مِـنْ عَلْيـا مَعَـدٍّ مُنَطَّقـاً بفتيـانِ صـدقٍ كـالضـراغمـةِ الغُلْـبِ

حتى وجدْتُ نفسي فرداً منْ أفرادِ مَعَدٍّ ، قد شُدَّ خَصْرُهُ بِحِزامِ شبانٍ صادقينَ أقوياءَ قوةَ الأسودِ ، لم يُغْلَبوا في معركةٍ قطُّ .

٢٣ ـ بكـلِّ فتًـى ثِقْـفٍ كصـدرِ مُثَقَّـفٍ وكلِّ فتًى ضَرْبٍ ، يَهُشُّ إلى ضَرْبِ

وكلُّ شابٍّ منهمْ ذو قامةٍ شديدةٍ كالرمحِ السَّوِيِّ ، حاذقٌ في الضربِ والطعنِ ، خفيفٌ سريعٌ إلى المعركةِ .

٢٤ ـ أجنَّـةُ أحشـاءِ الـرَّدَى ظـاءَرَتْهُـمُ طوالُ القنا ، واسْتُرْضِعوا دِرَّةَ الحربِ

وكأنَّ الموتَ حملَهُمْ في أحشائِه أجنَّةً ، وكأنَّ الرماحَ ، راضَعَتْهُمْ ، فصارَ كلُّ واحدٍ منهمْ ظِئْرَ صاحبِهِ ، وكانَ طعامُهُمْ وشرابُهُمْ لبنَ الحربِ .

٢٥ ـ ينوشونَ أحواضَ الرَّدَى بِشفاهِهِمْ غـداةَ التـلاقـي نـوشـةَ البـاردِ العَـذْبِ

وكأنَّهُمْ يَرِدونَ ماءَ الوغَى منْ ساحاتِهِ صَبيحةَ التِقاء الصفَّينِ ، ويشربونهُ شِربةَ الماءِ العذبِ بِشِفاههمْ .

٢٦ ـ إذا ما شياطينُ الوغى رُجِمَتْ بِهِمْ أرتْـكَ سمـاءَ الـرَّوعِ ثـاقبـةَ الشُّهْـبِ

إذا قابَلَتْهُمْ كتائبُ الحربِ ، يرمونَها بنبالِهمْ ، ويصيبُ النَّاظرَ إلى الأُفُقِ الفزعُ ، ويرى

أنَّ هذه النبالَ قاتلةُ رجالِ الحربِ .

٢٧ ـ إذا أجهضَ الأكْفالَ أكْفالُ خيلِهِمْ   فــدونــيَ أحــلاسُ المُطهَّمــةِ القُــبِّ

وإذا ما نَحَتْ ظهورُ خيلِهِمْ ما عليها منَ الركابِ والزادِ ، فَحَسبي كساءُ فرسي الجميلِ وَوَسامتُهُ ودقةُ خصرِهِ .

٢٨ ـ يفوتونَ أرسالَ القطا في استباقِهِمْ   إلـى أخـذِهـمْ أخـذي ووطئِهِـمُ عَقْبـي

ويَتسابقونَ إلى فِعلِ ما أفعلُ ، فيتركونَ ما يَمْلكونَ منْ قطعانِ القطا بطيئةَ السيرِ ، ويُسرعونَ لِينالوا ما أنالُ ، فَيضعونَ أقدامَهُمْ في المناطقِ التي أسيرُ فيها بعدي .

٢٩ ـ يَصونونَ عرضي قبلَ أعراضِهِمْ كما   يُصـانُ سَـوادُ العيـنِ بـالجَفْـنِ والهُـدْبِ

ويحفظونَ غيبي قبلَ أنْ يحفظوا أعراضَهُمْ كما يحفظُ جَفْنا العينِ وأهدابُها حَوَرَها .

٣٠ ـ لكنَّهُ استشرى ، وجَدَّ النزاعُ بي   إلى مَعْشَرٍ ، لم يَخْلِطوا الجِدَّ باللَّعِبِ

لكنَّ نوازعَ الشوقِ والحنينِ ، قد استَبَدَّتْ بي إلى جماعةٍ ، لم يَمْزِجوا الجِدَّ بالهزلِ .

٣١ ـ همُ المَرْخُ أو أرْخى لِمُقْتَدِحِ الهُدَى   وأصلَبُ منْ نبعٍ لذي القِدْحِ والضَّبِّ

فهم لَيِّنو العريكةِ أو ألْيَنُ منْ عودِ المرخِ السريعِ الاشتعالِ ، سَلِسو المجالسةِ لتدبيرِ أمرٍ ، فيه الهُدَى ، صُلْبُ الأعوادِ ، أقوى منْ شَجرِ القِسِيِّ ، وأشَدُّ قسوةً منهُ على ذوي الغَيظِ والحِقْدِ .

٣٢ ـ تدورُ رَحَى الدينِ الحنيفيِّ منهمُ   على خيرِ قُطْبٍ ، شَدَّهُ اللهُ منْ قطبِ

تُعرَفُ أحكامُ الدينِ الإسلاميِّ الحنيفيِّ منهمْ ، وتُؤخَذُ عنهم على أفضلِ سُنَّةٍ ، بَيَّنَهُ اللهُ تعالى في قبلتِهِ .

٣٣ ـ أناسٌ بِجبريلَ اقْتَدَوا ، وعَدُوُّهُمْ   بـإبليـسَ ، فَـرْقٌ بَيِّـنٌ لـذوي اللُّـبِّ

وهمْ أناسٌ ، جعلوا جبريلَ أُسْوَتَهُمْ ، وجعلَ أعداؤُهُمْ إبليسَ معلِّمَهُم ، والفرقُ واضحٌ جليٌّ لأصحابِ العقولِ .

٣٤ ـ وعَضُّوا على البرهانِ أضراسَهُمْ   فلو يَميلوا معَ التَّقْليدِ والبَهْتِ والكِذْبِ

وتمسَّكوا بالدينِ الحنيفِ ، وأتَوا بالبراهينِ الدامغةِ ، ودافعوا عنها بأيديهمْ وأسنانِهِمْ ونواجِذِهِمْ ، ولم يَحيدوا إلى التقليدِ الأعمى والباطلِ والكذبِ .

٣٥ ـ وأولاءِ، لو طَوَّفْتُ، لم أرَ مِثْلَهُمْ   بِحـافَتَـي الـدنيـا مـنَ الشـرقِ والغـربِ

فهؤلاءِ لو قطعْتُ البلادَ منْ كلِّ ناحيةٍ ، لن أجدَ شَبيهاً لَهم في طَرفَي الدنيا شرقِها وغربِها .

٣٦ ـ وأولاءِ أُلــي مَعْشــرٍ بــولايتــي وهم أصفياءُ النفسِ في البُعْدِ والقُرْبِ

وهمْ أصحابُ صِدْقٍ بِودّي ، وهمْ خُلصاءُ النفوسِ على كلِّ حالٍ في البعدِ والقربِ .

٣٧ ـ وإنَّ أخِــلَّاءَ التُّقــى لأَحــقُّ مــنْ تُعــاطيــهِ دونَ النــاسِ تَصْفيــةَ الحُــبِّ

وإنَّ أَحقَّ الناسِ بصفاءِ الصدقِ والحبِّ أصدقاءُ الكلاءةِ والحفظِ : خالصِ الوُدِّ .

٣٨ ـ فـأقسـمُ بـالبيت المُمَسَّـح رُكْنُـهُ وركضـةِ جبـريـلَ المبـاركـةِ الشَّـرْبِ

وإني لأُقسِمُ بالبيتِ الحرامِ الذي يَتَمسَّحُ الناسُ بركنِهِ وبِضَرْبَةِ جبريلَ ـ عليهِ السلامُ ـ الأرضَ برجلهِ لِتَفْجيرِ بئرِ زمزمَ .

٣٩ ـ وَوَطْأَةِ إبراهيمَ في صخرةٍ غَدَتْ مِــنَ البَيِّنـاتِ الغُـرِّ والحُجَـجِ الشُّهْـبِ

ووَضْعِ إبراهيمَ رجلَهُ على صخرةٍ ، أصبحتْ مِنَ الحقائقِ الناصِعَةِ والبراهينِ البيضاءِ كالشُّهْبِ في السماءِ .

٤٠ ـ ومن صَبَّ في وادي المُعَرَّفِ مِنْ مِنًى وهَلَّـلَ فـي جَمْـعٍ مِـنَ العُجْـمِ والعُـرْبِ

ومَنِ انحدَرَ في الوادي في الموقفِ بعرفاتٍ القريبِ مِنْ مِنًى ، وقالَ : لَبَّيْكَ اللهمَّ لَبَّيْكَ ، لا شريكَ لكَ لَبَّيكَ ، وكانَ مِنَ الحجاجِ المجتمعينَ مِنَ العجمِ والعربِ .

٤١ ـ وما ضَرَّجَتْ أيدي الحجيجِ مُعَقَّلًا مِنَ الهَدْيِ تقريباً إلى البيتِ ذي الحُجْبِ

والبُدْنِ التي رُبطَتْ أيديها وأرجُلُها قبلَ أنْ تُذْبحَ ، فتلوَّثَتْ أيدي الحجاجِ بدمائِها ليتَقَرَّبوا إلى صاحب البيتِ العتيقِ البيتِ ذي السُّتُرِ الكثيرةِ .

٤٢ ـ لئن أبْصَرَتْ عينايَ حِزْباً ، فلم تَكِفْ مـآقيهمـا شـوقـاً إلـى ذلـكَ الحِـزْبِ

واللهِ إنْ رأَتْ عينايَ جماعةً مِنَ الحجاجِ ، فلم تُسِلْ دموعَهُما مِنْ مَحْجَرَيهما تعبيراً عنْ شوقي وحنيني إلى تلك الجماعةِ .

٤٣ ـ لأَتَّخِـذَنَّ الطَّـرْدَ للغمـضِ عنهمـا إلــى أنْ أُلَقّــى غُــرَّ أوجُهِهِــمْ دأبــي

لأُبْعِدَنَّ غَمْضَهما عنهما ، وأجعلَنَّ ذلك جِدّي إلى أن أصلَ إليهم ، وأرى وجوهَهُمُ البيضاءَ بصفاءِ الإيمانِ .

٤٤ ـ لأني عَدِمْتُ الجِدَّ في الدينِ بَعْدَهُمْ ولم أَلْقَ ما فيهمُ منَ المَعْجَمِ الصُّلْبِ

لأني فَقَدْتُ حقيقةَ الوُدِّ المَحْضِ بَعْدَما تركتُهُمْ ، ولم أَرَ في الناسِ مَنْ يتصفُ بِعِزَّةِ النفسِ والحكمةِ التي تضعُ الحقَّ في مواضعِهِ .

☆☆ ١١ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في تعظيمِ البيتِ الحرامِ وسرورِهِ العظيمِ في جوارِهِ :

١ ـ أنا الجارُ جارُ اللهِ ، مكةُ مركزي ومضـربُ أوتـادي ومَعقِـدُ أطنـابـي
أنا القريبُ منَ الكعبةِ ، أنا جارُ اللهِ ، مكةُ مُسْتَقَرّي ومُقامي وموقعُ أوتادي ومربطُ حبالِ خيمتي .

٢ ـ ومـا كـانَ إلاَّ زورةَ نَهضتـي إلـى بـلادٍ ، بِهـا أوطـانُ رهطـي وأحبـابـي
وما كانَ ذلكَ المُقامُ إلاَّ قوةً لعزيمتي وميلي إلى العيشِ في بلادٍ ، بِها عَرَفْتُ الوطنَ والقبيلةَ والعشيرةَ والأحبابَ .

٣ ـ فلمَّا قضَـتْ نفسـي ، ولله دَرُّهـا لُبـانَـةَ وارٍ ، زَنـدُهـا غيـرُ خَيَّـاب
فلّما أنْفَذَتْ نفسي التي أدعو لها بالخيرِ والسُّقْيا ما أرادتْهُ منَ المكوثِ في وطني وقضاءِ حاجتِها إلى الأهلِ والأصحابِ ، وما كانَ مُرادُها يوماً ، لا يتَحَقَّقُ ، وما خابَتْ أبداً في إشعالِ عودِها .

٤ ـ كـررْتُ إلـى بطحـاءِ مكـةَ راجعـاً كـأنـي أبـو شِبلَيـنِ ، كَـرَّ إلـى الغـابِ
رجعْتُ إلى وادي مكةَ مرةً أخرى ، وكأني أسَدٌ ، لهُ ولدان صغيرانِ بِحاجةٍ إلى رعايةِ الأبِ الحنونِ الذي عادَ إلى عَرينهِ منْ أجلهما .

٥ ـ فَمَنْ يُلْقِ في بعضِ القُرَيَّاتِ رحلَهُ فـأمُّ القُـرى مُلْقَـى رِحـالـي ومُنتـابـي
فمنْ يُرِدْ أنْ يَحُطَّ رحلَهُ في بعضِ الأماكنِ ، ويُقيمَ فيها فترةً ، فإنَّ موضِعَ إقامتي مرةً بعدَ أخرى أمُّ القُرى .

٦ ـ ومَنْ كانَ في بعضِ المحاريبِ راكعاً فَلَلْكَعْبَـةُ البيـتُ الحـرامُ محـرابـي
ومَنْ كان يُحِبُّ الصلاةَ في بعضِ المساجدِ فإني أُفَضِّلُ خيرَ مسجدٍ في هذه الدنيا ، إنه ، البيتُ الحرامُ والكعبةُ المشرفةُ .

٧ ـ إذا التصقَـتْ فـي آخِـرِ اللَّيـلِ لَبَّتي بِمُلْتَـزَمِ الأبـرارِ مـنْ أيمـنِ البـابِ
وإذا ما وقَفْتُ آخرَ الليلِ أَمامَ الركْنِ ، والتَصَقَتْ رقَبتي بالمكانِ الذي يدعو الناسُ ربَّهُمْ : المطيعونَ إياهُ والمُتَّخِذونَ موقفَهُمْ أمامَ البابِ الأيْمَنِ .

٨ ـ أوِ الْتَصَقَتْ بالمستجارِ أوِ التَقَتْ علـى الـركـنِ أجفـانـي بِسَـحٍّ وتَسْكـابِ
أو رَمقَتْ أجفاني التي تَصُبُّ دموعَها ، وتَسْكُبُها على الركنِ موقفِ الناسِ الداعينَ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ .

٩ ـ فقلْ لملوكِ الأرضِ يلهوا ويلعبوا فـذلـكَ لَهْـوي مـا حَيِيـتُ وتَلْعـابـي

فقلْ لحكامِ الأرضِ يلهوا ويلعبوا بِما يريدونَ ، فإنَّ لعبي ولَهْوي ، هو الوقوفُ أمامَ الركنِ مدةَ حياتي .

☆☆ ١٢ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الشكوى :

١ ـ وهَـمٍّ كَسَـمٍّ ، كـادَ يقطَـعُ أبْهَـري ‏ ‏ ‏ تَمَلْمَـلَ ليلـي منـه جنبـاً إلـى جَنْـبِ

لقد فاجأني أمرٌ عظيمٌ ، أوشكَ أنْ يقطَعَ شَريانَ عنقي ، سَئِمَ منه ليلي ، وتقلَّبْتُ وإياهُ منْ جنبٍ إلى جنبٍ .

٢ ـ فقمْـتُ وجُمَّـاعُ الثُّـرَيَّـا مُصَـوِّبٌ ‏ ‏ ‏ تَدَلَّى كمثلِ الغَرْبِ في جهةِ الغَرْبِ

فنهضْتُ ، ومجموعةُ كواكبَ ؛ أرادَتْ أنْ تقصِدَ جهةَ الغربِ ، فانحدَرَتْ كانحدارِ الدلْوِ في البئرِ ،

٣ ـ إلـى ذاتِ عَصْـفٍ كـالشِّمـالِ شِمِلَّـةٍ ‏ ‏ ‏ سَجيَّتُها الإسهابُ في النَّهبِ للسَّهْبِ

إلى ريحٍ عاصفةٍ سريعةٍ ، تَتَّجهُ نحوَ اليَسارِ ، طبيعتُها الطمعُ بالجري السريعِ في الفلاة .

٤ ـ ومـا هـي إلاَّ زَورقـي كلمـا طَمَـتْ ‏ ‏ ‏ بلابلُ نفسي ، فهي فَرَّاجَةُ الكَرْبِ

وما هذه الريحُ إلاَّ مركبي يحمِلني في البحرِ كلّما غَشِيَتْني همومي ، تُريحُني منها ، وتكونُ لي كَشَّافةَ الغَمِّ .

٥ ـ وكَـمْ خَـرَقَـتْ بـي فـي مسيـرةِ أشهـرٍ ‏ ‏ ‏ جيوبَ الفَلا حتى وفَدْتُ على رَبِّي

وكم وكم قطعَتْ بي هذه الريحُ الصحارَى الواسعةَ منْ مداخِلها إلى مخارجِها ما يسيرُ بي الجوادُ أشهراً إلى أنْ وصلْتُ إلى سيِّدي .

☆☆ ١٣ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الشوقِ والحنينِ :

١ ـ فراقُكَ إسماعيلُ خطبٌ ، ولم تَزَلْ ‏ ‏ ‏ يدُ الدهرِ ، ترمي جانبي بِخُطوبِ

يا اسماعيلُ إنَّ البينَ الذي أبعدَني عنكَ أمرٌ عظيمٌ منَ الأمورِ الشديدةِ التي أصابَني ، وما زالَ ، يُصيبني الدهرُ بِها .

٢ ـ فتعسـاً لأيـامٍ نـأَتْ بـكَ بعـدَمـا ‏ ‏ ‏ لَصِقَـتْ بـأكبـادٍ لنـا وقُلـوبِ

فَتبًّا لأيامٍ أبعدَتْكَ بعدَما ، جمعَتْنا أفراداً وجماعاتٍ أكباداً وقلوباً .

٣ ـ لعلَّـكَ مـنْ بعـدِ النَّـوى آيـبٌ ، فكـم ‏ ‏ ‏ يؤوبُ الفتى منْ بعدِ طولِ مغيبِ

عسى اللهُ تعالى أنْ يعيدَكَ إلينا بعدَ هذا البُعْدِ ، وكم أعادَ اللهُ ـ عزَّ ، وجلَّ ـ المرءَ بعدَ طولِ الفراقِ .

☆☆ ١٤ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في مدحِ خطيرِ الملكِ :

١ ـ أبيتَ خَطيرَ المُلكِ إلاَّ رياضةً لِمُهْرٍ مِنَ النَّجْرِ العتيقِ نجيبِ

يا خطيرَ الملكِ إنكَ لم ترْضَ أنْ تُمارسَ إلاَّ تذليلَ فرسِكَ الصغيرِ ذي الأصلِ القديمِ المُختارِ .

٢ ـ وإلاَّ ازدِرَاعاً في دماثٍ كريمةٍ جرى بذكاءٍ نَبْتُها وبطيبِ

ولم تَهْتَمَّ إلاَّ بزرعِ الأخلاقِ الكريمةِ في نفوسِ مَنْ حولكَ ليَنْتشرَ الخيرُ والسعادةُ كما تفوحُ الرائحةُ الطيبةُ مِنَ النباتِ .

٣ ـ وإنَّ اصطِفاءَ الصنعِ الحُرِّ ديدنٌ لكلِّ حصيفٍ ، وهو أنتَ ، أريبِ

وإنَّ اختيارَ العملِ العظيمِ الخالصِ لوجهِ اللهِ غايةُ كلِّ حكيمٍ عاقلٍ ، وما هو هذا الحكيمُ العاقلُ إلاَّ أنتَ .

٤ ـ وإلاَّ فإنَّ الصُّنْعَ دُرٌّ ، تنوطُهُ مُشَوَّهةٌ في لَبَّةٍ وتريبِ

وإنْ لم يكنْ ذلكَ فإنَّ العملَ كالدُّرَّةِ التي تُزيِّنُ بِها الفتاةُ القبيحةُ رقبتَها وصدرَها .

٥ ـ وبعضُ الذي أولَيْتَهُ ، أنا شاكرٌ بألفِ لسانٍ للثناءِ رطيبِ

وإنَّ شكري لكَ عن بعضِ صنيعِكَ لي ، أتقدمُ به إليك مدحاً رقيقاً نَديًّا بلغةِ ألفِ لسانٍ .

٦ ـ وكفُّ الوزيرِ السَّمْحِ منْ قُلُبِ النَّدى ولولا الرِّشا لم يُنْتَفعْ بقليبِ

ويدُ خطيرِ المُلْكِ الوزيرِ الكريم ، تَجْمَعُ بعطائِها أمواهَ الآبارِ ودلاءَها وحبالَها ، ولا فائدةَ منَ البئرِ والدلوِ إنْ لم يكنْ له حبلٌ ، يُربَطُ بالدلْوِ .

٧ ـ وأقسمُ لو أدليتَ دلْوَ عنايةٍ نَجا مِنْ أكاذيبٍ وأكلَةِ ذيبِ

وإني لأقسمُ لو أقدمْتَ على عملِ شيءٍ ، ورأى الناسُ اهتمامَكَ العظيمَ بهِ ، لقالوا : لقد نجَونا منَ الكذبِ وظلمِ الذئابِ .

☆☆ ١٥ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في مدحِ فخرِ الفريقَينِ أحمدَ الشارعيِّ :

١ ـ فخْرَ الفريقَينِ ، المناشيرُ التي وردَتْ كتأكيدٍ لأمرٍ مُوجَبِ

يا فخرَ الجماعتَينِ ، إنَّ الكتبَ التي جاءتْ كتَثبيتٍ لأمرٍ ضروريٍّ .

٢ ـ لكمُ القضاءُ بجانِبَي خارزْمَ ، إنْ كُتِبَتْ مناشيرُ ، وإنْ لم تُكْتَبِ ،

هو منصِبُ القضاءِ لِما حولَ خوارزمَ ، سواءٌ أكُتِبَتْ كُتُبٌ في تنصيبِكَ أم لم تُكْتَبْ .

٣ ـ يكفيكَ منشوراً قَضاءُ اللهِ أنْ ليسَ القضاءُ لغيرِ هذا المَنْصِبِ

فحسبُكَ كتابٌ بتنصيبكَ أحكامَ اللهِ أحكامَ الشريعةِ الإسلاميةِ إذ لا أمرَ ، يُبْرَمُ بِغَيرِ مَنْصِبِ القضاءِ .

٤ ـ تتناولونَ تُراثَهُ ، فإذا انْقَضى منكمْ أبٌ فالإبْنُ مِنْ بعدِ الأبِ

وإنَّ منصِبَ القضاءِ هذا كأنهُ إرثٌ متوارثٌ مِنْ أجدادِكَ وآبائكَ ؛ فإنْ ماتَ الأبُ خَلَفَهُ ابنُهُ .

٥ ـ قد خُطَّ في اللَّوحِ الذي ما مَسَّهُ إلاَّ يَدا مَلَكٍ هناك مُقرَّبِ

وجاءَ في كتابِ ربِّكَ اللوحِ المحفوظِ الذي لم تلمَسْه إلاَّ يَدا المَلَكِ الموكلِ إليهِ الكتابةُ :

٦ ـ إنَّ الكرامَ الشارِعِيِّينَ الأُلي لم تَلْقَ منهمْ غَيرَ كلِّ مُهَذَّبِ

قد تتابعَ على هذا المنصِبِ رجالٌ من أسرةِ الشارِعِيِّينَ لم يكنْ منهمْ أحدٌ غيرَ مؤدَّبٍ .

٧ ـ مُلاَّكُ هذا الأمرِ ملكاً خالصاً مَنْ يَزْوِ هذا الحقَّ عنهمْ يُغْصَبِ

فهمُ الوحيدونَ الذين كانوا ملوكاً جُلصاءَ لهذا المَنْصِبِ ، وإنْ حادَ أحدٌ عن إحقاقِ الحقِّ يؤخذْ منهُ قهراً .

٨ ـ إنـي بـدينِ ولائِهِـمْ مُتَشَيِّـعٌ لَهُمْ ، ولستُ بشافِعِيِّ المَذْهَبِ

وإني على مذهبِهم ووِلايَتِهِمْ قائمٌ ، ولن أميلَ يوماً إلى الشافعيَّة .

☆☆ ١٦ ـ وقالَ على بحرِ الوافرِ في الشكوى :

١ ـ أتاني بعضُ مَنْ لُقياهُ كَرْبُ وغَيبَتُهُ مُسَلِّيَةُ الكُروبِ

جاءني مَنْ إذا حلَّ حلَّ معه الغَمُّ ، وإذا غابَ كانَ غيابُهُ يُنسي الهمومَ .

٢ ـ فقالَ : متى تكونُ عزيبَ هَمٍّ ؟ فقلْتُ : متى أكونُ بلا عزيبِ ؟

فسألني : متى تكونُ بعيداً عنِ الهمِّ ؟ فقلتُ له : حينَ أكونُ قريباً من أهلي ؟

☆☆ ١٧ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ والتهنئةِ بالعيدِ :

١ ـ أيا ابنَ الكريماتِ الكريمَ الضرائبِ ومَنْ جاءَ في عاداتِهِ بالغرائبِ

يا ابنَ النساءِ الكريماتِ كريمَ الطباعِ ذا الخُلُقِ الحَسَنِ ، ويا مَنْ عاداتُهُ الجدُّ في تحقيقِ كلِّ غريبٍ منَ الأفعالِ الحسنةِ .

٢ ـ غَدَوتَ سماءً للمعالي رفيعةً وفيكَ السجايا الغُرُّ مثلُ الكواكبِ

أصبحْتَ في أعلى مرتبةٍ منَ الأمكنةِ والمناصِبِ العاليةِ ، وكنتَ ، وما زلْتَ ذا طباعٍ بيضاءَ ناصعةٍ مثلِ كواكبِ السماءِ .

٣ ـ عجائبُ في هذا الزمانِ كثيرةٌ وكونُكَ منهُ مِنْ أشدِّ العجائِبِ
وغرائبُ هذا الزمانِ كثيرةٌ ، وأغربُ شيءٍ فيها أنكَ أعظَمُ غرائبها .
٤ ـ أليسَ عجيباً بينَ أظهرِ أُمَّةٍ لئامٍ كريمُ الطبعِ جَمُّ المناقبِ ؟
أليسَ غريباً أنْ تعيشَ بينَ جماعةٍ لئامٍ ، ليس لهمْ ما يفخرونَ به ، وأنت ذو أخلاقٍ كريمةٍ كثيرُ المفاخِرِ ؟
٥ ـ صدوقٌ وما فوق البسيطةِ كلِّها لسانٌ إذا جاوزْتَهُ غيرُ كاذبِ
وأنت صادقٌ مصداقٌ ، وكلُّ مَنْ حولَكَ كَذَبَةٌ ، إذا بَيَّنْتَ لهم نقاطَ كذبِهِمْ ، لا تكونُ كاذباً .
٦ ـ أبى طبعُهُ أخلاقَ أهلِ زمانِهِ فأخلاقُهُمْ مخلوقةٌ مِنْ مثالبِ
أنِفَتْ سجيَّتُهُ أخلاقَ مُعاصريهِ لأنَّهُمْ ذوو أخلاقٍ وأعمالٍ ، يُلامون دائماً عليها .
٧ ـ لِيَهْنِكَ عيدٌ أنتَ عيدٌ كمِثْلِهِ وأنَّى لعيدٍ بعضُ تلكَ المراتبِ ؟
فَلْتَهْنَأْ بحلولِ هذا العيدِ ، وليَهْنِإِ العيدُ بكَ ، وكيفَ يكونُ عيدٌ لبعضِ تلكَ المآخذِ ؟
٨ ـ تَلَقَّاكَ في عالي المَحَلِّ ، فَحَرَّكَتْ لساعتِهِ زَهْواً فُروعُ المناكبِ
لقد قابَلَكَ ، وأنت في أعلى المناصبِ ، فَرَقَّصَتْ مِنْ فورِ مجيئكَ الجماهيرُ أكتافَها فَخْراً بكَ .
٩ ـ ولو لم يَنَلْكَ ، ارْتَدَّ مِنْ فورِهِ على عراقيبِهِ ، في رجلِهِ خُفُّ خائبِ
ولو لم يَحْظَ برؤيتكَ ، لعادَ تَوًّا مُلْتَفًّا على نفسِهِ ، وعلى كعبَيهِ مسرعاً ، كأنهُ يحتذي خُفًّا ، يُعينُهُ على الخفةِ والسرعةِ هرباً مِنْ خسارتِهِ وهزيمتِهِ .
١٠ ـ وأصبحَ أهلُ الأرضِ قد ضاعَ عيدُهُمْ فَمِنْ آيسٍ منهمْ وآخِرِ طالبِ
وصارَ الناسُ كلُّهُمْ تائهينَ لأنَّهُمْ أحسُّوا أنَّ عيدَهُمْ قد ضاعَ بغيابِكَ ، وأصبَحوا بينَ قانطٍ مِنْ عطائِكَ وآملٍ بهِ .
١١ ـ يُنادُونَ أينَ العيدُ ؟ والعيدُ ذاهبٌ وأنَّى لهمْ ردُّ العصورِ الذواهبِ ؟
يتساءلونَ : أينَ هو العيدُ ؟ وهل رحلَ العيدُ عنهمْ ؟ وكيفَ يمكِنُ أنْ تُرَدَّ الأيامُ الماضيةُ ؟

☆☆ ١٨ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الافتخارِ بنفسِهِ :

١ ـ تَمَنَّوا على اللهِ ابنَ أُنثى كهيئتي مُطِلًّا على هامِ العُلا والمَناقبِ

لقد سألوا اللهَ ـ عَزَّ ، وجَلَّ ـ رجلاً ، له حالٌ كحالي ، مشرفاً على رؤوسِ الأمجادِ والمفاخرِ .

٢ ـ فقالوا : لو أنَّ اللهَ ، يَنْثُرُ صُلْبَهُ بِفُرسانِ صِدْقٍ كالنجومِ الثواقبِ

وقالوا : لو أنَّ اللهَ تعالى ، يَجْعلُ في نسلهِ رجالاً ذوي أخلاقٍ ساميةٍ وشهرةٍ ، تَمْلأُ الآفاقَ ، كالنجوم العاليةِ على كلِّ شيءٍ .

٣ ـ لَفُزْنا بعَلاَّماتِ عصرٍ كَشَيْخِهِمْ مشاهيرَ بالتُّقَى ويُمْنِ النقائبِ

لَظَفِرْنا برجالٍ علماءَ حكماءَ كَمعلِّمِهمْ ، عُرِفوا بالوَرَعِ وبركَةِ الصفاتِ الكريمةِ : العقلِ والنفسِ والعملِ الصالحِ .

٤ ـ وبالهممِ الشُّمِّ التي النِّيقُ تحتَها حضيضٌ ، فلم تعبأْ بشُمِّ المراتبِ

وبالعزائمِ العزيزةِ المحبَّةِ المعاليَ ذاتِ الأنفةِ والكبرياءِ التي تعلو كلَّ عالٍ ، وتَجِدُ أعلى الجبالِ منخفضةً ، ولا تكترثُ بالمراتبِ العاليةِ .

٥ ـ ألاَ فأقِلُّوا مِنْ تَمَنِّيكُمُ ، فلي فريقانِ منْ نسلٍ كريما المناسِبِ

فقَلِّلوا منْ أُمنياتِكُمْ لأنَّ لي جماعتَينِ تنتسبانِ إلى فضيلتَينِ منَ القرابةِ .

٦ ـ نتيجةُ قلبي دونَ صُلبي كلاهما ويا بُعْدَ بونٍ بينَ قلبي وصالبي

الأولى منْ نسلِ قلبي والثانيةُ من نسلِ ظهري ، وشتانَ ما بينَ القلبِ والظهرِ .

٧ ـ فريقٌ ، تراهُ صامتاً ، وهو ناطقٌ بما الخَلْقُ فيهِ بينَ راوٍ وكاتبِ

والجماعةُ الأُولى ، تراها صامتةً ، لكنها تنطِقُ لغاتٍ كثيرةً ، وتعبِّرُ عما يُعانيهِ الناسُ قولاً وكتابةً .

٨ ـ وآخَرُ جَوَّابُ البلادِ ، يذيعُ في مَشارقِهِ أسرارَهُ والمغاربِ

والجماعةُ الثانيةُ ، تجولُ في البلادِ ، وتنشُرُ أسرارَها وأخبارَها في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها .

٩ ـ وحسبي تصانيفي ، وحسبي رواتُها بنينَ ، بِهِمْ سِيقَتْ إليَّ مطالبي

ويكفيني فخراً مؤلفاتي والمتحدثونَ عنها ، هم أبنائي ، لهمُ الفضلُ الكبيرُ لتحقيقِ مطالبي .

١٠ ـ إذا الأبُ ، لم يأمَنْ منِ ابنٍ عقوقَهُ ولا أنْ يَعِقَّ الإبنُ بعضَ النوائبِ

فإذا الأبُ ، لم يطمئنَّ منْ عقوقِ ولدِهِ ، والابنُ عقَّ والدَيه ، فإنَّ المصائبَ تتكاثرُ ،

وتتوالى عليهِ .

١١ ـ فـإنـي منهـم آمِـنٌ وعليهـمُ وأعقـابُهُـمْ أرجـوهُـمْ للعـواقـبِ

فإني مطمئنٌ إليهمْ ، وآمنٌ عليهمْ ، وراجٍ إياهم وأولادَهم وأحفادَهم لعواقبِ الزمانِ .

☆☆ ١٩ ـ وقالَ على بحرِ البسيطِ في المدحِ :

١ ـ خليفـةُ ابـنَ عُبَيـدِ اللهِ ، بَـرَّحَ بـي شوقي إلى النسبِ الوضَّاحِ والحَسَبِ

يا خليفةُ يا ابنَ عُبَيدِ اللهِ ، لقد عذَّبني شوقي إلى قَرَابَتِكَ الوَضيئةِ ومَفاخِرِها العظيمةِ .

٢ ـ وما هما غيرُ وَصْفَي سيِّدٍ ، عُقِدَتْ لـهُ إلـى الحَسَـبِ الـزاكـي عُـرا النَّسَبِ

وليسَتْ قرابتُكَ ومفاخِرُها إلاَّ نَعْتَ رجلٍ عظيمٍ ، رُفِعَتْ لهُ رايةُ العِزِّ العَطِرِ مربوطةً بِعُرا القرابةِ الكريمةِ .

٣ ـ وذاكَ أنتَ ـ رعاكَ اللهُ ـ منْ رجلٍ حُـرٍّ بِمُنْتَسَـبٍ حُـرٍّ بِمُكتَسَـبِ

وذاك أنتَ ـ حَفِظَكَ اللهُ ـ حسبُكَ منْ رجلٍ كريمِ المَنْسَبِ كريمِ المكسَبِ .

٤ ـ إنْ غِبْتَ عنّا ، وأنتَ الشمسُ طالعةً فَنَجْلُـكَ الكـوكـبُ الـدُرِّيُّ لـم يَغِـبِ

فإذا ذهبْتَ عنّا ، وكنتَ لنا الشمسَ طالعةً ، فإنَّ ابنَكَ الكوكبُ المتلألِئُ ، يظلُّ ، يضيءُ لنا دروبَنا .

٥ ـ كذلكَ الشمسُ ما انحطَّتْ لمغرِبها إلاَّ خـلائفُهـا لَمَّـاعـةُ الشُّهُـبِ

وهكذا الشمسُ إذا انحدرَتْ للغروبِ ، فإن الكواكبَ والنجومَ ، تَخلُفُها بنورِها وضيائها .

٦ ـ تـاللهِ إنـي لفـي شـوقـي إليـكَ كمـا يشتـاقُ روضٌ جـديـبٌ دِرَّةَ السُّحُـبِ

وإني واللهِ لَمشتاقٌ إليكَ شوقَ روضةٍ ماحلةٍ إلى مطرِ سُحُبٍ كثيرةٍ .

٧ ـ أدَرَّ دمعـيَ إدراراً فـراقُ فتًـى لو لم يَغِبْ فُزْتُ بالإدرارِ منْ كَثَبِ

وإنَّ فراقَ هذا الفتى ، جعلَ دمعي ، يسيلُ سَيَلاناً ، ولو لم يفارقْني ، لَظَفِرْتُ بعطائهِ لقربي منه .

٨ ـ اِرْجِعْ سريعاً فإنَّ الناسَ في حَرَبٍ تَجْعَـلُ أخـا حَـرَبٍ منهـم أخـا طَـرَبِ

فَعُدْ إلينا سريعاً فقد أصبحَ الناسُ بغيابكَ عنا هَلْكى أو مشرِفينَ على الهلاكِ ، يَلُفُّهُمُ الحزنُ منْ كلِّ جانبٍ ، وإنْ رجعْتَ ، يَعُدِ الحزينُ المشرفُ على الهلاكِ سعيداً مُغَنِّياً أعذبَ الألحانِ .

٩ ـ ولي مآربُ لا أُحصي لها عَدَداً   ومـا لقـاؤُكَ إلاَّ مُنْتَهـى أربـي
ولي حاجاتٌ كثيرةٌ ، لا أستطيعُ لها عدًّا ، وليسَتْ رؤيتُك إلاَّ غايةَ مطلبي .
١٠ ـ فأنتَ بينَ الأُلي خارزمُ مسكنُهُمْ   أرعـاهُـمُ لِـذِمـامِ العلـمِ والأدبِ
وأنتَ منْ سكانِ خوارزمَ ، أحفظُهُمْ لِحُرْمةِ العلمِ والأدبِ .
☆☆ ٢٠ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الافتخارِ بنفسه [أزهار الرياض ٣/ ٢٩٤] .
١ ـ إذا التَصَقَتْ بالبَحْثِ في العلمِ ركبتي   بـركبـةِ نِحـريـرٍ علـى الجِـدِّ دَابـي
إذا جلستُ لحلقةِ بحثٍ ، وتزاحَمَ الطلبةُ حولَ أستاذِهِمْ ، ولم أجدْ مكاناً لركبَتي ، فإني أضَعُها على ركبةِ جاري الفَطِنِ الساري على الاجتهادِ في طلبِ العلمِ .
٢ ـ فإنْ دامَ لي عونُ الإلهِ على الذي   أعـانيـهِ مـنْ فضـلٍ وبِـرٍّ وآدابِ
وإنْ كانَ لي دوامُ نصيبٍ منْ عَونِ ربي ـ عَزَّ ، وجلَّ ـ على ما أكابدُ في سبيلِ زيادةِ علمٍ وطاعةٍ وخُلُقٍ ،
٣ ـ وإنْ نظرَتْ عيني على الوُدِّ والصَّفا   مـع البِـرِّ والتقـوى نـواظـرَ أحبـابـي
وإنِ التقَتْ نظراتُ عينيَّ بنظراتِ أحبابي المُعبِّرةِ عنِ الوُدِّ وصفائِهِ وعنِ الإحسانِ وطلبِ رضا اللهِ .
٤ ـ فقُلْ لملوكِ الأرضِ يلهوا ويلعبوا   فـذلـكَ لهـوي مـا حَييـتُ وتَلْعـابـي
فقل لملوكِ الأرضِ وحكامِها : اُلْهوا والْعبوا ما شئتُمْ بِما شئتُمْ ، فإنَّ لَهْوي ولعبي ما حييتُ الانتظامُ في مجالسِ العلمِ والأدبِ .
☆☆ ٢١ ـ وقال على بحرِ الطويلِ في أحوالِ الدنيا : [أزهار الرياض ح٣/ ٢٨٦ ، الكشاف ح٣/ ٧٦]
١ ـ مَسَـرَّةُ أحقـابٍ تَلَقَّيـتُ بعـدَهـا   مسـاءَةَ يـومٍ أَرْيُهـا شِبْـهُ الصـابـي
لقد عشتُ فرحاً مسروراً أياماً وسنينَ طويلةً ؛ ثم أتاني يومٌ كانَ سوءاً وحزناً لي ، فأنساني بِمُرِّهِ حلاوةَ عسلِ تلك الأيامِ السعيدةِ .
٢ ـ وكيـفَ بـأنْ تلقـى مَسَـرَّةَ سـاعـةٍ   وراءَ تَقَضِّيهـا مسـاءةُ أحقـابِ
وكيفَ يكونُ العيشُ إنْ لَقيتَ سرورَ ساعةٍ تَتْبَعُهَا أحزانُ سنينَ طويلةٍ ؟
☆☆ ٢٢ ـ وقالَ على بحرِ البسيطِ في الهجاءِ :
١ ـ أشبهْتَ أصلكَ ، لم تُخطِئْ مشابَهةً   في اللُّؤْمِ ، والذَّنْبُ مشتقٌ منَ الذَّنَبِ

لقد ماثَلْتَ أصلَكَ الوضيعَ الذميمَ ، فلم تَمِلْ عنهُ ؛ مثالاً في البخلِ لأنَّ الذنْبَ مأخوذٌ منَ الذنَبِ .

☆☆ ٢٣ ـ وقالَ على بحرِ المديدِ المجزوءِ في الزهدِ :

١ ـ عرضَتْ لي في ملاعِبِها   معَ سِرْبٍ منْ صَواحِبِها

فاجأتْني في مراتِعها معَ جماعةٍ منْ صاحباتِها .

٢ ـ تركُضُ الأذيالُ رافلةً   والنواشي مِنْ جوانِبِها

تجري مختالةً ، وتختالُ أذيالُ أثوابِها ، وتَلْحَقُها الفتياتُ الصغارُ مِنْ جميعِ الجوانبِ .

٣ ـ وغبارُ المِسْكِ تُرْهِجُهُ   مُستطيراً في مَساحِبِها

وتتعالى نفحاتُ المِسْكِ منها معَ الغبارِ المثارِ ، ويتطايرُ حينَ تسحبُ أذيالَها .

٤ ـ لَدْنَةُ العِطفَينِ ، يَقْصِفُها   رِقَّةً هَزُّ مناكِبِها

فهي لَيِّنَةٌ طريَّةُ الخَصْرَينِ ، تَتَلوَّى رقَّةً ، فتحسَبُ أنَّ هزَّ أكتافِها ، قد كسَرَ خَصْرَيها .

٥ ـ كلَّما مِسْنَ بِها ، عَثَرتْ   في فُضولٍ منْ ذوائِبِها

وكلّما تمايَلْنَ ، كَبَوْنَ بزوائدِ ثيابهنَّ وشُرُكِ نِعالِهِنَّ .

٦ ـ صَدَأُ الذِّهْنِ تَبَصُّرُ ما   لاحَ منْ صَقْلِ ترائِبِها

وإنْ كَدَّ العقلُ ، فإنهُ ينجلي برؤيةِ ما يبدو مِنِ ابْيِضاضِ أجسامِ ترائِبِها التي تشبهُ السيوفَ المشحوذةَ .

٧ ـ عَيْنُها الحَيْنُ متى أرسلَتْ   نبلَها عن قوسِ حاجِبِها

فإذا رَنَتْ إليكَ ، أحسسْتَ أنَّ نِبالَها ، قد أصابَتْ قلبَكَ ، وجاءَتْكَ بالموتِ مِنْ تحتِ حاجبِها .

٨ ـ يا بني الدنيا كَفَى عِبَراً   ما تريكُمْ مِنْ عجائِبِها

يا بني الدنيا وأهلَها حَسْبُكُمْ عجائبَ وأحزاناً وبكاءً مَا ترونَ مِنْ غرائبِ أحداثِها .

٩ ـ غُسِسَتْ في حُبِّكُمْ ، ولقد   غَمَسَتْكُمْ في مصائِبِها

أُدخِلَتْ في هواكُمْ ، لكنها غَطَّتْكُمْ في نَوائبها .

١٠ ـ حسبُكُمْ أنَّ جماجِمَكُمْ   طُحِنَتْ تحتَ نوائِبِها

يكفيكُمْ أنَّ رؤوسَكُمْ قد طُحِنَتْ ، وأصبحَتْ كالدقيقِ بمصائبِها .

١١ ـ ولياليها مُطِيُّكُمْ   كلُّها ، تخدي برِكَّابِها

وأنَّ رِكابَكمُ التي تُسْرِعُ في مَشْيِها ليلاً ، تنوءُ بِحَمْلِ ركّابِها ليلاً ،

١٢ ـ نحــوَ مــورودٍ ، مــوارِدُهُ خَــرَّمَــتْ مصــدرَ شــارِبِهــا

إلى ماءٍ ، خَرَّمَتْ مصادرَهُ ومنابعَهُ على الواردينَ إليها .

١٣ ـ وأدَتْ مَــنْ وَلَــدَتْ بعــدَمــا جَــرَّعَتْــهُ مــنْ شــوائبِهــا

ودَفَنَتْ من ولَدَتْهُ حيًّا بعدَ أنْ شَرَّبَتْهُ منَ الأخلاطِ السامَّةِ التي تصنعُها .

١٤ ـ إنَّ فــي أنيــابِهــا لكــمْ كــلَّ شَــرٍّ ومَخــالِبِهــا

إنَّ هذه الدنيا كالوحشِ ، تأتي لِمَنْ تغرزُ أنيابَها ومخالبَها فيهِ بالشرِّ .

١٥ ـ تُلْبِــسُ النُّعْمــى مُقَفِّيَــةً لابِــسَ النُّعْمَــى بِســالِبِهــا

تعطي النِّعَمَ للمحتاجِ ، ثم تُتْبِعُه بأخذِها نَهْباً .

١٦ ـ رَحِــمَ اللهَ امْــرَأً فَطِنــاً مُسْتَشِفًّــا لِمَعــائِبِهــا

رَحِمَ اللهَ رجلاً فَهِماً ، ينظُرُ إلى الشيءِ ، ويدرِكُ محاسِنَهُ ومساوِئَهُ .

١٧ ـ رُفِــعَ السِّتْــرُ لَــهُ ، فلَــهُ طــولُ فِكْــرٍ فــي عــواقِبِهــا

كُشِفَ الحجابُ لهُ ، فصارَ لهُ طولُ تَفَكُّرٍ وتَدَبُّرٍ في عواقبِ الأمورِ .

١٨ ـ قــابِــلَ التَّــوبِ ، لقــد نَصَحَــتْ تــوبتــي ، فــاغفِــرْ لتــائبِهــا

يا ربَّ العالمينَ يا قابلَ التوبةِ ، لقد تُبْتُ إليكَ توبةً نَصوحاً لا عودةَ عنها ، فاغفِرْ لي يا توّابُ .

١٩ ـ وهَــبِ اللهــمَّ لــي رحمــةً عَظُمَــتْ نِعمَــةُ واهِبِهــا

وامْنَحْني يا ربِّ رحمةً ، تدلُّ على عظمةِ مُعْطيها .

٢٠ ـ لســتُ إلاَّ نِعْمَــةً سُكِبَــتْ فــوقَهــا أنعُــمُ ســاكِبِهــا

وما أنا إلاّ نعمةٌ ، صُبَّ فوقَها نِعَمٌ كثيرةٌ منْ أنعُمِ ربِّها .

٢١ ـ فمتــى أقضــي بِمَعْجِــزتــي طَــرَفــاً مــنْ شكــرِ واصبِهــا

فمتى أستطيع أنْ أُوَفِّيَ بما أُوتيتُ مِمّا أُسابقُ فيه جانباً منْ شُكْرٍ وحَمْدٍ مُديمِ تلكَ النِّعَمِ .

٢٢ ـ ربِّ أبغــي منــكَ خــاتِمَــةً حُسْنَــتْ ، فــاسْمــعْ لِطــالِبِهــا

ويا ربِّ إني أرجو منك خاتِمَةً لحياتي ، يُثْنى عليَّ فيها ، فاستجبْ لِدعاءِ طالِبِها .

٢٣ ـ ووفــاتــي فــي سبيلــكَ لــي خطبــةٌ فــاسْمَــعْ لِخــاطِبِهــا

واجعَلْ وفاتي في طريقِ مرضاتِكَ ، فاستمعْ يا ربِّ لِمطلبي هذا .

☆☆ ٢٤ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ :

١ ـ تـألَّـقَ بَـرْقٌ فـي فـروعِ سحـابِـهِ كَمُنْصَـلِ غـازٍ ، يُنْتَضـى مِـنْ قِـرابِـهِ

لقدِ التمعَ برقٌ في السماءِ بينَ السحبِ السوداءِ كسيفِ محاربٍ ، سُلَّ منْ غمدِهِ .

٢ ـ فَهَـزَّ مـنَ الـرِّوادِ خَفْـقَ وَميضِـهِ وَزُمَّـتْ ركـابُ الحـيِّ نَحـوَ مَصـابِّـهِ

وتَنَقَّلَ في كبدِ السماءِ ، واضطربَ بريقُهُ ، فربَطَ الرجالُ حاجاتِهِمْ على إبلِهِمْ ، وتوجهوا نحوَ تَوَقُّعِ نُزولِ المطرِ .

٣ ـ وسِرْبُ المها الإنسيِّ كانَ مُحَجَّباً فـأطلعَـهُ داعـي النَّـوَى مـنْ حجـابـهِ

وكانتِ النساءُ مُسْتَتِراتٍ ، فلمّا رأينَ الناسَ ، يَتَهيَّؤونَ للرحيلِ ، خرجْنَ منْ خدورِهِنَّ .

٤ ـ فكم ثَغْرِ صَبٍّ لا يني في ابتسامةٍ وكم جَفْنِ صَبٍّ لا يني في انْسكابِهِ

فكم فمِ مُحِبٍّ ، لا ينقطِعُ عنِ الابتسامِ ، وكم عينِ محبٍّ لا تنقَطعُ عن البكاءِ وسكبِ الدموعِ .

٥ ـ وداعٌ سَقَى أريَ التلاقي ذوي الهوى لَـو أنَّ التَّنـائـي لـم يَشُبْـهُ بِصـابِـهِ

وحانَتْ ساعةُ الوَداعِ ، ووقفَ المُحِبُّونَ ، يَتَذَكَّرونَ حلاوةَ عَسَلِ التلاقي ، ويقولونَ : ليتَ التباعُدَ ، لا يُخلَطُ بِمُرِّ الفراقِ .

٦ ـ ولمَّا اسْتَبَدَّ البَينُ بالحَيِّ ، وامْتَطَوا سفـائـنَ بَـرٍّ ، خُضْـنَ لُـجَّ سـرابِـهِ

ولمَّا حانَ وقْتُ الفِراقِ على أهلِ الحَيِّ ، وركبوا الإبلَ سفائنَ البَرِّ التي دَخَلَتْ أمواجَ السرابِ ،

٧ ـ بَقيتُ عَقيبَ البينِ في عَقْرِ دارِهِمْ أنيسـي نحيبـي أو نعيـبُ غُـرابِـهِ

بقيتُ بعدَ أنْ فارقوا الحيَّ وسطَ دارهِمْ ، يُؤنِسُني بكائي أو صوتُ غُرابِهِ .

٨ ـ على مَلْعَبِ الأترابِ أسقطُ مُلْصِقاً تـرائبـي الحَـرَّى بِبَـرْدِ تـرابِـهِ

ثم ذهبْتُ إلى مرتعِ لِداتي ، أتَهاوَى على الأرضِ ، وأحاولُ أنْ تَلْمَسَ أضلاعي الساخنةُ ترابَ الأرضِ ، علَّها تجدُ بعضَ البرودةِ فيه .

٩ ـ أُحَدِّثُ نفسي بالليالي التي مضَتْ لنـا ولهـمْ فـي مَنْعِـجٍ وجَنـابِـهِ

وأتذَكرُ الأيامَ والليالِيَ التي قضيناها في مجلسٍ في وادي بني أسدٍ وفي فِناءِ دارِهِمْ .

١٠ ـ ليـالٍ كمـا شـاءَ الهـوى مُطمَئِنَـةٌ تَـزَحْـزَحُ عـنْ ظُفْـرِ الـزمـانِ ونـابِـهِ

وكانَتْ تلكَ الليالي هادئةً ، تُسايرُ الهوى ، وكأنَّها ابتعدَتْ عنْ جروحِ الزمانِ بأظفارِهِ وأنيابِهِ .

١١ ـ وساجيةِ الأطرافِ ممدودةِ المَدَى أتتْني بساجي الطَّرْفِ ، قَصَّرْتُها بِهِ

وفي ليلةٍ ساكنةِ الجوانبِ بعيدَةِ الغايةِ ، جاءَتْني بذي عينٍ ونَظَرٍ لَيِّنٍ ، وصَيَّرْتُ بُعدَ الغايَةِ قريباً .

١٢ ـ يُرَشِّفُني تحتَ الظلامِ مُنَوَّراً مِنَ الأُقحوانِ المُرْتَوي بِرُضابِهِ

يَدَعُني أمتصُّ شفَتَيه المرتَوِيَتَينِ بريقِهِ المُعَطَّرِ بالأقحوانِ المُنَوِّرِ ظلامَ الليلِ .

١٣ ـ يُعاتِبُني ، والليلُ رقَّ نَسيمُهُ كأنَّ نسيمَ الليلِ بعضُ عِتابِهِ

ويُعاتِبُني ، ونسيمُ الليلِ الرقيقُ ، يُرفرفُ حولَنا ، وكأنهُ بعضُ عِتابِه .

١٤ ـ إلى أنْ أضاءَ الأُفقُ أبلجَ ساطعاً كما نَوَّرَ الإسلامُ عدلَ شِهابِهِ

وبَقِينا على تلكَ الحالِ إلى أنْ نَوَّرَ الفجْرُ أفقَ السماءِ ، فجعلَهُ أبيضَ متلألئاً كما نَوَّرَ الدينُ الحنيفُ حُكْمَ أمرِهِ المستقيمَ .

١٥ ـ مقالُ ابنِ قيسٍ في القديمِ لِمُصعبٍ شهابٌ مِنَ اللهِ القرانُ أتى بِهِ

هذا القولُ كمقالِ عُبيدِ الله بنِ قيسٍ الرُّقيَّاتِ في مدحِ مصعبِ بنِ الزبيرِ :

إنما مصعبٌ شهابٌ من اللهِ تَجَلَّتْ عنْ وجهِهِ الظلماءُ

جاءَ مُقارنَةً ومُشابَهةً له .

١٦ ـ شهابٌ لَعَمْري ثاقبُ كلِّ ماردٍ كمارجِ نارٍ خامدٍ بالتهابِهِ

إنهُ لَعَمري وحياتي نورٌ للمسلمينَ ونارٌ للكفرةِ والشياطينِ العاتيةِ كنارٍ متأججةٍ ، لا دخانَ لَها ، تُسكِنُ ، وتُخمِدُ نارَ كُلِّ مستكبرٍ جبّارٍ بالتهابِها وتَوَقُّدِها .

١٧ ـ وزارةُ صدْرِ الشَّرْقِ والغربِ رأفةٌ على الناسِ حتى المُبْتَلَى بِعقابِهِ

وكان صدرُ الشرقِ والغربِ في وزارتِهِ رؤوفاً رحيماً بالناسِ في كلِّ أحوالِهِمْ حتى الذي أجرمَ ، وحُوكمَ ، كانَ بعقابِهِ إيّاهُ رحيماً .

١٨ ـ ومَنْ حُكْمُهُ حَقٌّ ، فإنَّ عقابَهُ لِمَصْدَرِهِ عن حُجَّةٍ كثوابِهِ

ومَنْ كانَ يستنِدُ في أحكامِهِ إلى الحقِّ والحُجَّةِ والبرهانِ ، فإنهُ في المكافأةِ والعقابِ لا يميلُ عنِ الحقِّ .

١٩ ـ لقد رزقَ الرحمنُ هذا الزمانَ مِنْ وزارتِهِ ما لم يكُنْ في حِسابِهِ

لقد أكرمَ اللهُ ـ جَلَّ جلالُهُ ـ هذا الزمانَ برجلٍ، سلَّمَهُ أمرَ هذه الوزارةِ ، ما كانَ

يُفَكِّرُ لحظةً فيها أو بغيرِها .

٢٠ ـ سَيَمْلَؤُهُ بالخيرِ بعدَ خُلُوِّهِ   سَيَعْمُرُهُ بالعدلِ بعدَ خرابِهِ

وسيملأُ هذا الزمانَ بإذنِ اللهِ بالخيرِ والبركةِ بعد أنْ خَلا منهما ، وسَيَجْعَلُهُ عامراً هنيئاً بالعدلِ والحقِّ بعدَ خرابِهِ .

٢١ ـ سيُحْيِي نظامَ المُلْكِ بالسيرةِ التي   تَرُدُّ عليهِ الروحَ بعدَ ذهابِهِ

وسَيُحْيِي أمرَ المُلْكِ بالطريقةِ الحسنةِ التي تَرُدُّ عليهِ الروحَ والحياةَ والسعادةَ بعدَ ذهابِها .

٢٢ ـ وما يُشْعِرُ الدنيا بأنَّ وَزيرَها   إمامٌ ، أنامُ اللهِ طَيُّ ثيابِهِ

وما يُعْلِمُ الدنيا أنَّ وزيرَ المُلْكِ صدْرَ الشرقِ والعزبِ قائدٌ وسيِّدٌ وإمامٌ ، يَلُفُّ خَلْقَ اللهِ في حِلْمِهِ وأناتِهِ .

٢٣ ـ وما بَرِحَتْ ، ترمي بنفسٍ مَشوقةٍ   إليه ، وما زالَتْ تطوفُ ببابِهِ

وكانتْ ترجوهُ كثيراً أن يَتَسَلَّمَ هذا المنصِبَ بنفسٍ مُتَلَهِّفَةٍ ، وما زالَتْ تحومُ حولَ بابِه ، علَّها تعرفُ أنهُ صارَ إماماً لِهذِهِ الأمةِ .

٢٤ ـ وتَدعُوهُ أطواراً إلى نفسِها ، فلم   يُجبْها إلى أنْ حانَ وقتُ جوابِهِ

وكانَتْ قد طلبَتْ منه مرّاتٍ كثيرةً أن يقبَلَ دَعْوَتَها ، فلم يُلَبِّها إلى أنْ أذِنَ اللهُ بوقتِ جوابِهِ .

٢٥ ـ وللهِ في أفعالِهِ أجلٌ ، إذا   أتى ، لم يُؤَخَّرْ عنهُ حكمُ كتابِهِ

وللهِ وقتٌ في تحقيقِ أحكامِهِ وأفعالِهِ ، فإذا أتى وقتُ حكمٍ منْ أحكامِهِ ، لم يُؤَخَّرْ تنفيذُهُ عنِ الأمرِ بهِ .

٢٦ ـ وزيرُ الهُدَى ، إنْ هَمَّ ـ حاشاهُ ـ بالهوى   حَمَتْهُ نواهي الشرعِ قُبْحَ ارتِكابِهِ

وكانَ الهُدى غايةَ هذا الوزيرِ ؛ إنْ أرادَ أمراً غيرَ صالحٍ ، يُسَيِّرُهُ الهوى والطيشُ ، وهو المُنَزَّهُ عن الهوى ، صانَتْهُ موانِعُ الشَّرْعِ الإلهيِّ ، وأبعدَتْه عن قبيحِ الوقوعِ بِهِ .

٢٧ ـ جوادٌ فصيحٌ ، يزدهي السحبَ جودُهُ   كما يزدهي سَحْبانُ فصْلَ خِطابِهِ

فهو الكريمُ البليغُ ، يَتيهُ سخاؤهُ على سُحبِ الغيثِ كما يَتيهُ سحبانُ وائلٍ بفضلِ خِطابِهِ على الخُطباءِ .

٢٨ ـ هنيئاً هنيئاً للزمانِ وأهلِهِ   وزيرٌ ، نِصابُ المُلْكِ دونَ نِصابِهِ

فهنيئاً ثم هنيئاً للزمانِ وأهلِهِ بِهذا الوزيرِ ، مرجِعُ المُلْكِ وأصلُهُ أقلُّ وأدنى منْ أصلِهِ ومرجعِهِ .

٢٩ ـ وإنَّ امْـرَأً ؛ إرثُ النُّبُـوَّةِ إرثُـهُ فما المُلْكُ إلاَّ منْ فضولِ اكتسابِهِ

إنهُ رجلٌ ، وَرِثَ منَ النُّبُوَّةِ دينَهُ ، ثم اكتَسَبَ المُلْكَ بجِدِّهِ واجتهادِهِ .

٣٠ ـ قدِ ارْتَقَبَ الفَضْلُ المُعَطَّلُ موعداً مِنَ الدهرِ حتى ملَّ طولَ ارتقابِهِ

وقدِ انتظرَ العِزُّ والمَجْدُ الضائعُ وعداً منَ الزمانِ حتى سئمَ منِ انتظارِهِ .

٣١ ـ وموعِدُهُ استِوزارُ مِثْلِكَ، فاصْطَنِعْ بنيـهِ بِصُنْـعِ مثـلِ قَـدْرِكَ نـابِـهِ

وكانَ وعدُهُ وزيراً شبيهَكَ ، فَرَبِّ أولادَهُ تربيةً ، تناسِبُ منزلَتكَ ، وتُخَرِّجُهُمْ ماهرينَ حاذقينَ .

٣٢ ـ وأهبِطْهُمْ منْ حسنِ رأيكَ وادياً خَصيبَ المراعي ، يَرتَعوا في شِعابِهِ

وأنْزِلْهُمْ بفضلِ حِكْمَتِكَ روضاً كثيرَ النتاجِ ، يلعبوا في طُرُقِهِ .

٣٣ ـ ونَسِّهِـمْ جودَ البرامِكِ باسطاً لِكفٍّ ، تُنَسِّي البَحْرَ بُعْدَ عُبابِهِ

وأكرِمْهُمْ إكراماً كبيراً ، يُنَسِّيهِمْ جودَ البرامكةِ ، وابسُطْ كفَّكَ بالعطاءِ بَسْطاً ، يُنَسِّي البحرَ أمواجَهُ البعيدةَ .

٣٤ ـ فمثلُكَ لم يذهَبْ عليكَ افْتراضُهُ مُـواتـاةَ هـذا الـدهـرِ قبلَ انقلابِهِ

فشبيهُكَ لم يَفُتْهُ انتهازُ نَوبةٍ ، أتى بِها الدهرُ قبلَ زوالِها .

٣٥ ـ وطِيبُ حياةِ الحُرِّ في طِيبِ ذكرِهِ فإنْ شئْتَ ، لم تكسِبْ سوى مُسْتطابِهِ

وعظمةُ حياةِ المرءِ الشريفِ في ذِكْرِ حُسْنِ أعمالِهِ ، فإنْ أردْتَ أنْ تكونَ عزيزاً في حياتِكَ ومماتِكَ ، فلا تنالُ إلاَّ أطيبَ الذِّكْرِ .

☆☆ ٢٥ ـ وقالَ على بحرِ السريعِ في الرثاءِ :

١ ـ الـدهـرُ مثـلُ الليـثِ فـي غـابِـهِ ونحـنُ فـي مـا بيـنَ أنيـابِـهِ

الدهرُ شِبْهُ الأسدِ في عَرينِهِ ، ونحنُ بينَ فَكَّيهِ وأنيابِهِ .

٢ ـ لِكُلِّنـا يَفْتَـحُ بـابَ الـرَّدَى وكُلُّنـا يـدخُـلُ فـي بـابِـهِ

يفتحُ لكلِّ الناسِ بابَ الموتِ ، وندخُلُ كلُّنا في بابِهِ .

٣ ـ الناسُ فَوضَى ، ليسَ يَبْقى على رؤوسِـهِ الـدهـرُ وأذنـابِـهِ

وهمْ مُتساوونَ فيه ، إذْ لا يُبقي الدهرُ أحداً على حالِهِ : رئيساً على غيرِهِ أو مرؤوساً ذنَباً

مِن الأذنابِ .

٤ ـ لو كانَ يُبْقي أحداً مجدُهُ إذنْ لأبْقَى فَخْرَ كُتَّابِهِ

ولو كانَ حكمُ الموتِ ، يُبْقي أحداً لَتَرَكَ فَخْرَ كُتّابِ الدولةِ حيًّا .

٥ ـ أيُّ عزيزٍ ساءَنا فَقْدُهُ ؟ أيُّ كريمٍ قد فُجِعْنا بهِ ؟

أيُّ رجلٍ عزيزٍ عظيمٍ ، أحْزَنَنا مَوتُهُ ؟ وأيُّ سَخيٍّ ، أُوجِعْنا بِفَقْدِه ؟

٦ ـ وصَّالُ أسبابِ العُلا ماجدٌ جاءَ الرَّدى قَطَّاعُ أسبابِهِ

لقد أرادَ أن يصلَ إلى العُلا بِجدِّهِ واجتهادِهِ ، فوصَلَ شريفاً كريماً ، لكنَّ الموتَ قطاعَ أسبابِ الخيرِ والشَّرِّ ، أتاهُ ، فاخْتَرَمَهُ .

٧ ـ قد حاولَ الموتُ لهُ صحبةً فاسْتَلَّهُ مِنْ بينِ أصحابِهِ

ولقد جَرَّبَ الموتُ أن يَجعلَ نَفسَهُ صاحباً لهُ ، فانْتَزَعَهُ منْ بينِ أصحابهِ .

٨ ـ ونسبةُ الأمواتِ قد أصبحَتْ أولى بهِ مِنْ كلِّ أنسابِهِ

وصارَ صاحبَ الأمواتِ ، وصارَتْ قرابةُ الموتِ أحقَّ له منْ كلِّ قراباتِهِ .

٩ ـ لَهْفي على معسولِ أخلاقِهِ لَهْفي على مُؤَنَّقِ آدابِهِ

فيا حزني على أخلاقِهِ الطَّيِّبَةِ العسليَّةِ ، ويا أسفي على آدابِهِ المُعَجِّبَةِ غيرَها بفضلِها .

١٠ ـ لَهْفي على ذاكَ الوقارِ الذي كأنَّ رَضْوَى طَيُّ أثوابِهِ

ويا أسايَ على تلكَ الهيبةِ التي كأنَّها ثوبٌ مِن أثوابِ رَضْوَى جبلِ المدينةِ .

١١ ـ لَهْفي على الرأيِ الحَصيفِ الذي رُشِّحَ لِلْمُلْكِ وأربابِهِ

ويا حزْني على الرأيِ المُحْكَمِ الذي اخْتيرَ لِلْمُلْكِ وأسيادِهِ .

١٢ ـ النصحُ والإشفاقُ منْ دينِهِ وصائبُ التدبيرِ مِنْ دابِهِ

فالنصحُ والرأفةُ منْ مذهبِهِ ، وصحةُ التَّفَهُّمِ مِنِ اجتهادِهِ .

١٣ ـ وأكْتَبُ الكتابِ في جَنْبِهِ كالمُبْتَدي في عَهدِ كُتَّابِهِ

وأفضلُ الكتابِ في كنفِهِ كالمُتَعَلِّمِ في أيامِ تَعَلُّمِهِ .

١٤ ـ لا خَلَلٌ حَلَّ في إيجازِهِ لا خطَلٌ مَرَّ بإطْنابِهِ

فإنْ كتبَ فإنه يوجزُ القولَ أحياناً ، ويُطيلهُ ، ولا يَكونُ في إيجازِهِ ضَعْفٌ ولا في إطالتهِ فسادٌ وخطأٌ .

١٥ ـ يا حَسْرَتا مِنْ نبإٍ هائلٍ صُمَّتْ به أسماعُ أحبابِهِ

فيا لَهْفتي منْ خبرٍ مُفزعٍ ، جَعَلَ أسماعَ محبِّيهِ صَمَّاءَ ، لا تسْمَعُ .

١٦ ـ إنْ يسكبوا الدَّمعَ على مثلِهِ   فمثلُهُ أهلٌ لِتَسكابِهِ

فإنْ بكَوا ، ونَحَبوا على رجلٍ ، يُشْبِهُهُ ، فإنهُ جديرٌ بسكبِ الدمعِ الغزيرِ .

١٧ ـ بيتُ المعالي قَلْعُ أوتادِهِ   هذا ، وهذا قطعُ أطنابِهِ

كانَ مُتَبَوِّئاً بيتَ العِزِّ والمجدِ ، وكانَ قد بناهُ بِجِدِّهِ واجتِهادِهِ ، وكانَ الخيرُ والمعروفُ للناسِ أوتادَهُ وحبالَهُ .

١٨ ـ بفضْلِكَ اللهمَّ فاغْفِرْ لهُ   فإنَّ غُفرانَكَ أولَى بهِ

فيا ربِّ امحُ ذنوبَهُ بمغفرتِكَ التي أصبحَتْ حقًّا لهُ .

١٩ ـ واجعَلْ ، وإنْ ساءَ العِدا أمرَهُ   وعمرَهُ إرثاً لأعقابِهِ

واجعَلْهُ وسيرَتَهُ ، وإنْ غيظَ العِدا بِهِ ، قدوَةً للناسِ ، يَتَوارَثُها أفرادُ أسرتِهِ وأعقابُها .

☆☆ ٢٦ ـ وقالَ على بحرِ الرملِ في الرثاءِ :

١ ـ جَبَلٌ أكبَرُ مِنْ رَضْوَى وجَبْ   إذْ هوى الرأسُ الكبيرُ المُنْتَخَبْ

لقد خَرَّ ميّتاً رجلٌ عظيمٌ أعظمُ من جبلِ المدينةِ رَضْوَى ، حينَ سقَطَ رأسُ وسيِّدُ تلكَ الأسرةِ الذي كانَ قد انتُخِبَ رئيساً لها .

٢ ـ كيفَ نَصُّوهُ على أكتافِهِمْ   وهو طودٌ شامِخٌ ؟ يا لَلْعَجَبْ !

كيف رفعوهُ ، وحَمَلوهُ على أكتافِهِمْ ، وهو كالجبلِ العظيمِ العالي أنفةً وكبرياءً ؟ يا لَعجبي !

٣ ـ ذهَبَ الخيرُ جميعاً والتُّقَى   والمساعي كلُّها لَمّا ذهَبْ

ولَمَّا ماتَ ماتَ الفضلُ والحذَرُ منْ عقابِ اللهِ والجِدُّ والاجتهادُ كلُّها .

٤ ـ خَذَلَ السابِقَ في مضمارِهِ   خطوُهُ مِنْ بعدِ إحرازِ القَصَبْ

كأنهُ كانَ في سباقٍ مع الزمنِ في الوصولِ إلى هدفِهِ ، وَلَمّا رآهُ الزمنُ قد سبقَهُ ، ونالَ قصبَ نجاحِ السبقِ ، عَوَّقَهُ عن المشاركةِ في سباقٍ آخرَ .

٥ ـ نَضَبَ الوادي فما مِنْ جدولٍ   ذي خريرٍ طافحٍ إلاَّ نَضَبْ

خَلَا الوادي مِنَ الماءِ ، إذ كلُّ جدولٍ مَلِيْءٍ بالماءِ الغزيرِ ذي الخريرِ الكثيرِ ، غارَ منه الماءُ برحيلِهِ عَنّا .

٦ ـ يا لها مِنْ حَسْرةٍ واقدةٍ   أكلَتْ أكبادَ أبناءِ الأدَبْ

يا لَهذهِ اللهفةِ المُتَّقِدَةِ التي أتَتْ بنارِها على قلوبِ وأكبادِ أصحابِ الأدبِ .

٧ ـ فَقَدوهُ ، فَبَقُوا في عُصَبٍ مِنْ لئامٍ بينَ ويلٍ وحَرَبْ

عَدِموهُ ، فأصبحوا في فِرَقٍ منْ أراذِلِ الناسِ بينَ شَرٍّ وسَلْبٍ .

٨ ـ عُصَبٌ ، ما فيهِمْ مِنْ كرمٍ وعفافٍ طِرَفٌ ، بئسَ العُصَبْ

هذهِ الفِرَقُ ، إنْ جُمِعَتْ أوصافُهُمْ ، فلا تجدُ منَ الجودِ والعفةِ إلاّ قليلاً ، فبئستِ الفِرَقُ تلكَ الفرقُ .

٩ ـ مَنْ يواسيهِ بفضلَيهِ معاً ينثُرُ العلمَ عليهِمْ والذَّهَبْ

وكانَ إذا لقيَ منْ يقولُ له : واسِني ، وآسِني ، وعَزِّني ، أسَّاهُ ، وعَزَّاهُ بكرمِ خُلُقِهِ وعِفَّتِهِ ، ونَثَرَ عليه علومَهُ ومعارفَهُ والكثيرَ مِنْ مالِهِ .

١٠ ـ هُمْ لديهِ لِتَحَفِّيهِ بِهِمْ كبني صِدْقٍ لَدَى أكرمِ أبْ

هؤلاءِ همْ عندَهُ مُكرمونَ غايةَ الإكرامِ كأولادٍ ربَّاهُمْ أبوهُمْ تربيةً سليمةً خالصةً منْ كلِّ شرٍّ .

١١ ـ عندَ مَنْ يحشُرُ أفواجَهُمْ سَعَةُ الباعِ وطيبُ المُكْتَسَبْ

هُمْ عندَ منْ يجمَعُ وفودَهُمْ عطاءٌ ، يملأُ قَدْرَ مَدِّ الأبواعِ منَ الربحِ الحلالِ .

١٢ ـ وضروبٌ مِنْ إثاباتٍ لَهُ كلُّ ضَرْبٍ كانَ أَحْلَى مِنْ ضَرَبْ

وأنواعٌ مِنَ المكافآتِ ، كلُّ نوعٍ منها أحْلَى منَ العَسَلِ .

١٣ ـ ومَعانٍ مَنْ يَنَلْ مِعْشارَها يَتَناولْ كلَّ فَضْلٍ مِنْ كَثَبْ

وألوانٌ مِنَ العُلومِ، منْ يَحْفَظْ جُزْءاً منها قدرَ مِعْشارِها يَنَلْ فضلاً عظيماً مِنْ أقربِ السبلِ .

١٤ ـ مَنْ يُوَفِّي كلَّ غاشٍ حقَّهُ لا يُسَوِّي بينَ رأسٍ وذَنَبْ

منْ يُعْطِ كلَّ سفيهٍ وحقودٍ وكذابٍ ما يعتبرُهُ حقًّا له ، لا يُسَوِّ ، ويُفَرِّقْ بينَ رأسٍ وذَنَبٍ .

١٥ ـ يَرْمُقُ الصَّقْرَ بطَرْفٍ طامحٍ ويَغُضُّ الطرفَ عن كلِّ خَرَبْ

وقد كانَ يَنْظُرُ إلى الصَّقْرِ المعروفِ بحدَّةِ بصرِهِ نظرةً شديدةً ، فيها كلُّ معاني الطموحِ والجدِّ ، ويُرْخي الطَّرْفَ عنْ كلِّ جبانٍ ، يشبهُ ذَكَرَ الحَبارَى .

١٦ ـ صيرفيُّ القولِ نَقَّادٌ فما يُقْرَعُ النبعُ لديهِ بالغَرَبْ

يتلاعَبُ بالكلامِ بحذقٍ ومهارةٍ ، ويُمَيِّزُ الجيدَ منَ الرديءِ ، فما يَستطيعُ أحدٌ أنْ يضربَ غصنَ النبعِ ليعرفَ مَدَى صلابتِهِ بغُصْنِ الغَرَبِ ذي الأغصانِ الرَّخْوَةِ .

١٧ ـ أيـنَ مَـنْ سَلَّمَـتِ العُجْـمُ لـهُ   أنـهُ الأفضـلُ منهـمْ والعَـرَبْ ؟

أينَ الذي اعترفَ العَجَمُ والعربُ أنهُ أفضلُ منهم ؟

١٨ ـ أيـنَ مَـنْ بُلِّـغَ فـي عليـائِـهِ   رُتبـاً تَنْحَـطُّ عنهـنَّ الـرُّتَـبْ ؟

أينَ الذي نُصِّبَ بِعِزِّهِ ومجدِهِ مَناصبَ عاليةً ، يَنْحَدِرُ عنها كلُّ مَنْصِبٍ ؟

١٩ ـ أيـنَ نظَّـامُ كـلامٍ مُعْجِـزٍ   يُنْهَـبُ الأشعـارُ منـه والخُطَـبْ ؟

أينَ مِنظامُ الكلامِ الذي يَعْجَـزُ غيرُهُ أن يَنْظُمَ مثلَهُ ، أو يَسلُبَ القصائدَ منهُ والخُطَبَ ؟

٢٠ ـ أيـنَ مَـنْ حُجَّتُـهُ مُفْحِمَـةٌ   كـلَّ خَصْـمٍ حيثُ تَصْطَكُّ الـرُّكَـبْ ؟

أينَ مَنْ حُجَّتُهُ دامغةٌ ، تُسْكِتُ كلَّ مُخاطَبٍ خَصْمٍ ، وتجعَلُ الأرجلَ تضطربُ خوفاً وفَزَعاً منَ الحقيقةِ وخِزْياً ؟

٢١ ـ كـانَ مِـنْ بيـنِ مَـنْ يَمشي علـى   هـذهِ الغبـراءِ فَـرَّاجَ الكُـرَبْ

كانَ مِنَ الناسِ الذينَ يَدُبُّونَ على هذهِ الأرضِ كاشِفَ همومِ المحزونينَ .

٢٢ ـ كـانَ فـي كَفْـيٍ بـإحكـامِـهِ   لِعُـرا الـوِدِّ مـعَ أقـوى سَبَـبْ

كانَ ذا حِكْمةٍ بوضعِهِ كلَّ أمرٍ بِموضِعِهِ إذ يُحْكِمُ الصداقةَ بأفضلِ شرطٍ .

٢٣ ـ فبـهِ الأيـامُ أدَّتْ بعـضَ مـا   ذابَ فـي ذِمَّتِهـا لـي ، فَـوَجَـبْ

وبفضلِهِ وَفَتِ الأيامُ لي جُزءاً منْ حقٍّ ، ثَبَتَ لي عندَها .

٢٤ ـ فَمَضَـى عنـي ، فمـا لـي بعـدَهُ   في بني الدنيا ، وإن صافوا ، أَرَبْ

فغابَ عني بالموتِ ، ولم يبقَ لي بعدَهُ في الناسِ ، وإنْ صَدَقوا الوُدَّ ، حاجةٌ .

٢٥ ـ يـا كـريـمَ العفـوِ أرجـو منـكَ   أنْ تَقْبَـلَ الطـاعـاتِ منـهُ والقُـرَبْ

فيا ربُّ يا كريمُ يا صاحبَ العفوِ أدعوكَ أنْ تَقْبَلَ منه ما قامَ بِهِ منَ الطاعاتِ وما تقرَّبَ به إليكَ .

٢٦ ـ رأفـةً حتـى أرى تُـربَتَـهُ   روضـةً رفَّـافـةً بيـنَ التُّـرَبْ

وارحمني إلى أنْ أزورَ قَبْرَهُ في حديقةٍ ، تتلألأُ بينَ الحدائقِ بطيبِها .

☆☆ ٢٧ـ وقالَ على بحرِ الرملِ في المدحِ :

١ ـ مَـرْبـعُ المَجْـدِ ومُصطـافُ العُـلا   مَنْـزِلُ الشيـخِ الكـريـمِ المُنْتَجَـبْ

إنَّ بيتَ هذا الرجلِ الوقورِ الشيخِ الكريمِ الذي اختارَهُ الناسُ ليكونَ ملكاً عليهمْ مَجْمَعُ العزِّ والسُّؤْدُدِ في ربيعِ الدهرِ ومصيفُ السُّمُوِّ .

٢ ـ أعجـبَ النجـمَ ارتفـاعـاً سمْكُـهُ   وقضـى منـه السِّمـاكـانِ العَجَـبْ

رأى النجمُ في السماءِ ارتفاعَهُ ، فأعْجَبَهُ ، وكذا كانَ منَ السِّماكَينِ : الرامحِ والأعزلِ العَجَبُ العظيمُ .

٣ ـ نافذٌ للضيفِ فيه ما قَضَى خارجٌ للجارِ منهُ ما وَجَبْ

يؤدِّي للضيفِ حَقَّهُ دونَ تَرَدُّدٍ ، ويَخْرجُ للجارِ ليحمِيهِ مِمَّنْ يؤذيهِ .

٤ ـ حاطَهُ اللهُ بِعِزٍّ شامخٍ إن دعاهُ ريبُ الدهرِ لم يُجَبْ

ويحفظُهُ اللهُ ، ويرفعُهُ بعزٍّ ومجدٍ عظيمٍ ، إنْ أصابَهُ الدهرُ بنوائِبِهِ ، ولم يستطِعْ أنْ يقفَ بوجهِهِ ، أو يُجيبَهُ .

☆☆ ٢٨ ـ وقالَ على بحرِ الرملِ في النصحِ :

١ ـ ثُرْ على الثورِ الذي تَعْرِفُهُ لا يَرُعْكَ القَرْنُ منهُ والغَبَبْ

قُمْ ثائراً على الثورِ الذي تَعْلَمُهُ ، لا يُخيفَنَّكَ قرْنُهُ واللحمُ المُتَدَلِّي منْ رقبتِهِ .

٢ ـ خُلِقَ الليثُ قويًّا كي يُرِي تحتَهُ الثورَ بِوَيلٍ وحَرَبْ

وقد خلَقَ اللهُ تعالى الأسدَ قويًّا حتى يُرِيَ الناسَ أنَّ الثورَ أضعفُ منه وأنهُ بوجودِ الليثِ أمامَهُ بشرٍّ وسَلَبٍ .

٣ ـ اِقْطعِ الغَبْغَبَ ، واكْسِرْ قَرْنَهُ وازْدَجِرْهُ بالعصا عمَّا طلَبْ

وتَقَدَّمْ منهُ ، واضْرِبْهُ ، واقْطَعْ غَبْغَبَهُ ، ثم اكسِرْ قرنَهُ ، وامنَعْهُ عمّا يَهُمُّ بهِ مُستعيناً بالعصا .

٤ ـ لا تُمَكِّنْهُ بأنْ يختالَ في عملِ السلطانِ ذَيّالَ الذنَبْ

لا تجعَلْهُ يستطيعُ الاِخْتيالَ والتيهَ والتكبُّرَ على رعيةِ السلطانِ جارًّا ذَنَبَهُ في تيهِهِ .

☆☆ ٢٩ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ :

١ ـ أيا ثِقَةَ المُلْكِ الوزيرَ لقد وَجَبْ لِحَضْرَتِكَ الغَنّاءِ حَقٌّ على رَجَبْ

يا ثقة المُلْكَ يا أيُّها الوزيرُ لقد أوجبَ مَجلِسُكَ الطَّرِبُ حقًّا على رَجَبٍ الشهرِ الحرامِ لِيُهَنِّئَكَ .

٢ ـ فجاءَ لِيَقْضيهِ ، وذاكَ بشارةٌ لها في ضمانِ اللهِ منْ نَيْلِكَ الرُّتَبْ

فأتى لِيُؤَدِّيَ ذلكَ الحقَّ ، ومجيئُهُ كانَ لنا بشارةً منَ اللهِ ـ عَزَّ ، وجَلَّ ـ أنهُ سَيُعطيكَ رُتَباً جديدةً .

٣ ـ سَتَبْلُغُ في هذي الوزارةِ رُتْبَةً مُحَلِّقَةً ، منها السِّماكانِ في عَجَبْ

وأنكَ ستنالُ ، وأنتَ وزيرُ هذهِ الأمَّةِ مكانةً ، تُحَلِّقُ عالياً إلى أنْ تصلَ إلى السماكَينِ

الأعزلِ والرامحِ ؛ فتجعلَهما في دهشةٍ كبيرةٍ .

٤ ـ سَتَظفَرُ بالمُلْكِ العزيزِ مرامُهُ يداكَ ، وإنْ تَبَّتْ يدا حاسدٍ ، وتَبْ

وسَتفوزُ يَداكَ بالمُلْكِ العظيمِ مطلبُهُ ، وإنْ خَسِرَتْ يدا الحاسِدِ ، وأخْسَرها اللهُ .

٥ ـ وحُقَّ لِمَنْ يعطي العبادَ مُناهُمُ إصابَتُهُ منْ ربِّهِ كلَّ ما طَلَبْ

وصارَ حقًّا للذي يَمْنَحُ الناسَ ما يريدونَ أنْ يُعطيَهُ اللهُ تعالى كلَّ شيءٍ ، يتمنَّاهُ .

٦ ـ وهل يَمْنَعُ الرحمنُ أسبابَ طَولِهِ فتًى، في صلاحِ المسلمينَ هو السَّبَبْ

وهلْ يحرمُ اللهُ ـ عزَّ ، وجَلَّ ـ سُبُلَ فضلِهِ رجلاً ، كانَ لخيرِ المسلمينَ هو السببَ ؟

٧ ـ فاصغِ إلى بُشرى الأصمِّ مُعَظِّماً فتعظيمُ هذا الشهرِ منْ عادةِ العربْ

فاستمعْ إلى بُشرى هذا الشهرِ المُسَمَّى رَجَباً ، فإنَّ العربَ كانوا يُعَظِّمونَهُ ، ويسمُّونهُ الأصمَّ لأنَّهمْ حَرَّموا القتالَ فيه ، فلم يَسْمَعْ فيهِ أحدٌ صوتَ الأسلحةِ المُتلاحمةِ .

☆☆ ٣٠ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ :

١ ـ كساني عُبَيدُ اللهِ للحمدِ كاسباً فيا خَيرَ مَكْسُوٍّ ويا خيرَ مُكْتَسِبْ

لقد أعطاني عُبَيدُ الله كسوةً ، كانَتْ جديرةً بالمدحِ ، فيا خيرَ كاسٍ يا عُبَيدَ الله ويا خيرَ مكتَسِبٍ يا زمخشريُّ .

٢ ـ بَنو خَلَفٍ في المَكْرُماتِ خلائفُ وإني في خارِزْمِهِمْ كعبةُ الأدَبْ

وإنَّ أهلَ عُبَيدِ الله قد خَلفوا آباءَهُمْ في المَكْرُماتِ ، وإني في مدينتِهِمْ خَوارِزْمَ بيتُ الأدبِ وأصلُهُ .

٣ ـ فإنْ يُهْدِ منْ دارِ الخلافَةِ كُسْوةً إلى كعبةِ اللهِ الإمامُ ، فلا عَجَبْ

فإن يُقدِّمْ عُبيدُ اللهِ إلى كعبةِ البيتِ الحرام رِداءً ، فلا عَجَبَ في ذلكَ أبداً .

٤ ـ سِوَى أنَّ بيتَ اللهِ ليسَ بحامدٍ لِغَيرِ لسانِ الحالِ في مَوسِمِ العَرَبْ

إلاَّ أنَّ البيتَ الحرامَ ، لا يُثْني إلاَّ على مُسْتَحِقِّ الحمدِ في كلِّ موسمٍ .

٥ ـ وأنَّ لسانَي حالتي ومقالتي يقومانِ في كلِّ المواسمِ بالخُطَبْ

وأن لُغةَ حالي ولُغةَ مقالتي ، تؤدِّيان الواجبَ حينَ تُخاطبانِ الناسَ في كلِّ المَواسِمِ .

٦ ـ رَعَى اللهُ هذا الصدرَ ، فهو بقيَّةٌ منَ الخَلَفِيِّينَ الكرامِ ذوي الحَسَبْ

حفظَ اللهُ هذا القلبَ وهذا الصدرَ صدرَ عُبَيدِ اللهِ ، فإنه البقيَّةُ الباقيةُ مَنَ الخَلَفِ الصالحِ ذي الحسبِ .

حرف التاء / ١٧٨ / بيتٍ

☆☆ ١ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في الفخرِ ومدحِ ابنِ الفضل ونُصْحِهِ :

١ ـ قَرِّبْ قَلوصي لِلتَّرَحُّلِ يا فتى　　هذا القرارُ على الهَوانِ إلى مَتَى ؟

يا فتى هَيِّئْ ناقتي الشابةَ طويلةَ القوائمِ للرحيلِ والبحثِ عنْ سُبُلٍ عزيزةٍ للعيشِ ، فإني سئِمْتُ السكونَ والثباتَ على الذُّلِّ ، وأسألُ نفسي : إلى متى هذا الصبرُ على ما نحن فيه منَ الهوانِ ؟

٢ ـ لا بُدَّ مِنْ إصلاتِ سيفِ العَزْمِ ، لا　　يَفْري الطُّلَى الصمصامُ إلاَّ مُصْلَتا

وأقولُ : لا بدَّ منْ سَلِّ سيفِ العَزْمِ والإقدامِ والجِدِّ ، لأنهُ لا يقطعُ الأعناقَ السيفُ الشديدُ إلاَّ إذا سَلَّهُ منْ غمدِهِ المحاربُ الحاذقُ .

٣ ـ إنْ سِرْتُ عنْ عَرَصاتِ قومي لَم أكنْ　　لأُعيرَهُمْ مِنْ أخْدَعَيَّ تَلَفُّتا

وإنْ تَركْتُ دِيارَ قومي فَلَنْ أردَّ عليهمْ إذا حَدَّثوني ، ولن أُديرَ رقبتي لأِستمعَ إليهمْ .

٤ ـ وإليكِ بالشكوى إليكِ ، فليس مَنْ　　أصبَحْتِ شاكيةً إليهِ مُصَمِّتا

ويا نفسُ رُدِّي الشكوى إليكِ لأنَّ منْ تشكينَ إليهِ أصمُّ ، لا يسمعُ الشاكيَ إليهِ .

٥ ـ منْ يجمَعِ الأملَ المُشَتَّتَ لم يُبَلْ　　أنْ يَتْرُكَ الشملَ الجميعَ مُشَتَّتا

فَمَنْ يجعَلْ همَّهُ الدائبَ جمعَ القلوبِ المتنافرةِ لا يَنْجُ مِنْ أنْ يَمْرَضَ يوماً ، فَيُقَصِّرَ في عملِهِ ، ويبقى النَّاسُ متفرِّقينَ .

٦ ـ أنا إنْ رقَقْتُ ، رأيتِ ماءَ غمامةٍ　　فإذا قَسَوتُ ، لقيتِ صَخراً مُصْمَتا

فأنا ذو طبيعةٍ ، لها وجهانِ : إنْ كنتُ مرتاحاً راضياً بما حولي ، تجدِيني رقيقَ الحاشيةِ رِقَّةَ سحابةِ مطرٍ ، وإنْ كنتُ غاضباً ، تريني شديداً قاسياً قسوةَ صخرةٍ صمَّاءَ ، لا صَدَى لها ، ولا يمكنُ كسرُها وتفتيتُها .

٧ ـ إلاَّ أدَعْ خارزمَ خَلْفَ ذَميلِها　　لا يَدْعُني قومي الفَتَى كلَّ الفَتَى

وإنْ لم أهتمَّ بأمرِ مدينتي خوارزمَ ، وتركْتُها ، لا تتقدَّمُ في مدارجِ الحضارةِ ، ولا تَسيرُ سيراً حثيثاً نحوَ العلمِ ، فإنَّ قومي ، لا يُسَمُّونني الرجلَ كلَّ الرجلِ .

٨ ـ ليسَ العواطسُ إنْ رحَلْتُ مُبَكِّراً　　بِمُثَبِّطاتي بل أمُرُّ مُشَمِّتا

ولستُ منَ الذينَ يتطَيّرونَ منَ العطسةِ ، فيقعدون عنِ العملِ والضربِ في الأرضِ ، بل أسعَى ، مُرَدِّداً البسملةَ ، ذاكراً قولَ الرسولِ ، صلَّى الله عليه ، وسلَّم : «العُطاسُ منَ اللهِ والتَّثاؤبُ منَ الشيطانِ» [البخاري ٣٢٨٩ ـ مسلم ٢٩٩٤] .

٩ ـ لـولا مُمـاطلـةُ الـزمـانِ تَقَـدُّمـي مـا كـانَ سيـري بـالـربيـعِ مُـوَقَّتـا

ولولا بعضُ حوادثِ الزمانِ التي تؤخِّرُ التقدُّمَ لما كانَ عملي موقوفاً في فصلِ الربيعِ فقط .

١٠ ـ أبِأنْ أُمَنَّى القوتَ أقعدُ راضياً ؟ لا كـانَ مـنْ يـرضَـى بـأنْ يَتَقَـوَّتـا

أإنْ قيلَ لي : نحنُ نضمنُ لكَ سبيلَ عيشِكَ طعامِكَ وشرابِكَ وحاجاتِكَ ، أرضَ ؟ لا . إني أقولُ : لا كانَ ولا يكونُ منْ يرضى ، ويقبلُ أنْ يكونَ عيشُهُ منَ الآخرينَ .

١١ ـ تحتَ الخُمولِ دفَنْتُ شَطْرَ شبيبتي فَـلأَمْنَحَـنَّ الشَّطْـرَ صِيتـاً صَيِّتـا

وقد دفَنْتُ فُتُوَّتي وصدرَ شبابي في الفُتورِ والكسلِ والصَّمْتِ والتهاوُنِ ، وسأجعلُ الشطرَ الآخرَ مِنْ حياتي في الجِدِّ والاجتهادِ والعملِ الدَّؤوبِ حتى يكونَ لي صدًى وصِيتٌ ، يَمْلأُ الآفاقَ .

١٢ ـ ويَمـوتُ مُتَّخِـذُ الخمـولِ قـرينـةً حيًّـا ، ويَحْيـا ذو النبـاهـةِ مَيِّتـا

لأني وجدْتُ مَنْ رَضِيَ ، وعاشَ بالكسلِ ميّتاً ذكرُهُ ، وهو ما زالَ حيًّا ، وبقيَ ذكرُ مَنْ كانَ فَطِناً عاملاً ، ولو مضى ، وماتَ منذُ وقتٍ طويلٍ .

١٣ ـ وكـأنني لـي فـي العـراقِ مُخَيَّمـاً يُصْغـي النَّـدِيُّ إلـى مَقـولـي مُنْصِتـا

وستشيعُ أخباري وأقوالي في طولِ البلادِ وعرضِها ، وستُحفَظُ ، ويُرَدِّدُ قصائدي جُلساءُ النوادي في العراقِ وغيرِهِ ، وسأتَصَدَّرُ الناسَ في مُخَيَّمٍ ، أُنشِئَ لي ، ويستمعونَ إلى ما أقولُ ، وكأنَّ على رؤوسهمُ الطيرَ .

١٤ ـ فأبثُّ لابنِ الفضلِ نشرَ مدائحٍ تُنْسـي نـوافِجُـهُ نـوافِـجَ تُبَّتـا

وأبسُطُ لابنِ الفضلِ مدائحي ، وأعرِضُها عرضاً ، تُنسي روائحُهُ العذبةُ أحلى روائحِ المسكِ المنسوبِ إلى بلادِ تُبَّتَ .

١٥ ـ هذا الذي ما زالَ مذكورُ اسمِهِ فـي صـدرِ ديـوانِ الـوزارةِ مُثْبَتـا

ويقولون : هذا الذي ثبتَ اسمُهُ في رأسِ مجلسِ الوزارةِ ، وما زالَ ذكرُهُ ، يَتَرَدَّدُ في كلِّ مناسبةٍ .

١٦ ـ يـا خيـرَ تشـريـفٍ لخيـرِ مُشَـرَّفٍ كـلٌّ ، تجـاوزَ قـدرَهُ أنْ يُنْعَتـا

يا أفْضَلَ مُشرَّفٍ ، عظَّمَ مجلساً بحضورِهِ وأفراداً بإصغائهمْ إليهِ إذِ ارتفَعَ قدرُ كلِّ فردٍ باستماعِهِ إلى صفاتِ ابنِ الفضلِ .

١٧ ـ خِلَعٌ كأضواءِ الغزالةِ ، حَيَّرَتْ بَصَرَ العَدُوِّ ، فلم يُطِقْ أن يَثْبُتَا

وتناثَرَتِ الأُعطِياتُ ، وتلألأتْ كأنوارِ الشمسِ ، فَتَرَدَّدَتْ أبصارُ العدوِّ ، ولم تُطِق أنْ تركُزَ فترَةً طويلةً .

١٨ ـ ممَّا تواصَتْ حاذقاتُ الرومِ بالـ إبداعِ فيهِ ، فهو أبدعُ ما أتى

وكانتْ هذهِ الأُعطياتُ والمِنَحُ أجودَ ما صَنعَتْ عاملاتُ الرومِ الماهراتُ ، وما أبدعَتْ فيها ، كانَ إبداعُ ابنِ الفضلِ في سياسَتِهِ الناسَ أعظمَ .

١٩ ـ لو حاوَلَ الوسْمِيُّ في بعضِ الرُّبا لنباتِ روضٍ مثلِها ما أنْبَتا

ولو رامَ مطرُ الربيعِ أنْ يُنبتَ ربوةً بنباتِ روضةٍ مثلِها ما تَمَكَّنَ منْ ذلكَ أبداً .

٢٠ ـ فكأنَّها محبوكةٌ منْ نُطْقِهِ نَظْماً ونَثْراً مُفلَقاً ومُنكَّتا

وكأنها نُسِجَتْ ، وحُبِكَتْ بألفاظٍ منظومةٍ ومنثورةٍ مُبْدَعةٍ غايةَ الإبداعِ جُمَلاً وتراكيبَ .

٢١ ـ سحبانُ لو جاراهُ أو جاثاهُ في يومِ الحِجاجِ لَصَدَّ عنه مُبَكَّتا

ولو أرادَ سحبانُ المشهورُ ببلاغتِهِ أنْ يجريَ معه ، أو يُجالسَهُ يومَ المُغالبةِ بالحُجَجِ والبراهينِ لارتَدَّ عنهُ مغلوباً بالحجةِ .

٢٢ ـ لرماهُ بالكَلِمِ التي يُلْقِمْنَهُ حجراً ، أُريدَ به الجوابَ المُسْكِتا

ولضربَهُ بكلامٍ قاسٍ كالحجارةِ ، وضَعَها في فمِهِ ، فما استطاعَ له جواباً .

٢٣ ـ ولقالَ : قد أفْلَتُّ منْ سَطَوَاتِهِ لكنهُ ، نُخِصَ الذُّنابى مُفْلَتا

وقالَ في نفسِهِ : لقدِ انْفَلَتُّ منْ صولاتِهِ وقهرِهِ ، إلاَّ أنهُ ، خرجَ منَ المُحاجَّةِ كالحيوانِ مسلوخِ الذَّنَبِ .

٢٤ ـ ومُطَهَّمٌ لو كانَ أعوجَ صِنْوُهُ وهو الكريمُ ، لكانَ أكرمَ مَنْبِتا

ولو قيسَ فرسُهُ بفرسٍ منْ أفراسِ بني هلالٍ الأعوجِيَّاتِ لَفَضَلَ عليهِ أصلاً .

٢٥ ـ ذو مَيعةٍ يوفي بجيدٍ أتْلَعٍ وبعارضٍ سِبْطٍ وشِدْقٍ أهْرَتا

حينَ يُشرفُ بِعُنُقِهِ الطويلِ وصفحةِ وجهِهِ وشعرِهِ الطويلِ اللَّيِّنِ وفمِهِ الواسعِ .

٢٦ ـ ضافي المشيبِ، لوِ اكْتَسَى منْ عُرْفِهِ نُبَذاً ، كفاهُ عنِ الجِلالِ إذا شَتا

وزادَ الشيبُ ابنَ الفضلِ هيبَةً ، فلو أخذَ الشتاءُ منْ ذاكَ المشيبِ شيئاً لثلجِهِ ، لكفاهُ عنِ

الجلالِ إذا حلَّ .

٢٧ ـ نكَتَ العتاقُ الأرضَ حينَ مراحِها وهو الأبِيُّ على الوَنَى أنْ يَنْكُتَا

وإذا ما خرجتِ الخيلُ الأصيلةُ منْ حظائرِها ضربتِ الأرضَ بقوائمِها منتظرةً الأمرَ بالخروجِ إلى المعركةِ منِ ابنِ الفضل الذي جُبل على كرهِ الضعفِ والتقصيرِ وإثارةِ الشرورِ .

٢٨ ـ لو عَقَّلوهُ ، وأرسلوها ، أقبلَتْ طُلُقاً لَشَقَّ غبارَها وتَفَلَّتا

ولو ربطوا فرسَهُ ، وتركوا الأفراسَ الأخرى تخرجُ ، وجَرَتْ مسرعةً ، لأفْلَتَ منْ مَعْقَلِهِ ، ولَحِقَ بها ضارباً بأرجلهِ الأرضَ ومُثيراً غُبارَها .

٢٩ ـ في مَوكِبٍ ، تحكي رجاحةُ وزنِهِ رأيَ الوزيرِ إذا ارتأى مُتَثَبِّتا

وجاءَتْ في موكبٍ ثقيلٍ ، يُشْبِهُ ثِقَلُ وزنِهِ وعظمتُهُ عقلَ ورأيَ الوزيرِ ابنِ الفضل إذا كانَ قد اعتمدَ أمراً ، وتَثَبَّتَ منهُ .

٣٠ ـ فيهِ المثاقيلُ التي لو حُصِّلَتْ لِرجالِ مكةَ ، لم تَخَفْ أنْ تُسْنَتا

وحُمِّلَ الموكبُ ما ثَقُلَتْ ، وعظُمَتْ قيمتُهُ ، وما لو جُعِلَتْ لأهلِ مكةَ رجالِها لاطمأنُّوا لموسمٍ خَصْبٍ ، لا جَدْبَ ، ولا قَحْطَ فيه .

٣١ ـ اِنْهَضْ بِعِبْءِ عظيمةٍ ، وُلِّيْتَ ، لا يَسْتَضْعِفَنَّكَ مَنْ عرفْتَ ، فَيَشْمَتا

فقمْ يا ابنَ الفضلِ بأمورِ الوزارةِ العظيمةِ التي قُدِّمَتْ لكَ خيرَ قيامٍ بها ، ولا يَسْتَخِفَّنَّ بكَ أحدٌ مِمَّنْ يُعْرَفونَ بالحسدِ والشماتةِ .

٣٢ ـ كَفِّتْ لها ذيلَ القميصِ ، فمنْ خَطَا في مُلْتَقى الصَّفَّينِ ، ظَلَّ مُكَفِّتا

وشَمِّرْ لها ذيلَ قميصِكَ ، واسْتَعِدَّ لها ، فمنْ أرادَ أنْ يقفَ مرفوعَ الرأسِ في وجهِ الصفوفِ يبقَ مُسْتعدًّا لكلِّ شيءٍ .

٣٣ ـ أقْرِ الموالِيَ هِزَّةً وتَخَفُّفاً والحاسدينَ تَوَقُّراً وتَزَمُّتا

وأكرِمْ أصحابَكَ ومواليَكَ ، وأنتَ في نشاطٍ وارتياحٍ وخِفَّةٍ ، وأظْهِرْ لحاسدِيكَ الوقارَ والرزانةَ والشدَّةَ في أحكامِكَ .

٣٤ ـ لا تَغْتَرِرْ منْ كاذبٍ بِتَوَدُّدٍ كم قد تَوَدَّدَ كاذبٌ ، فَتَمَقَّتا

ولا يَخْدَعَنَّكَ كاذبٌ بإظهارِ المودةِ ، فكم قد تَحَبَّبَ كاذبٌ ، فدفَعَ الناسَ إلى كُرْهِهِ واحتقارِهِ .

٣٥ ـ واطْوِ السَّرائِرَ في فؤادِكَ ، لا تَقِلْ في القلبِ ، وانطِقْ في خلائِكَ مُخْفِتا

وخَبِّئْ ما تريدُ إخفاءَهُ في قلبِكَ ، ولا تُبْقِهِ طويلاً في قلبِكَ ، بلِ اذكُرْهُ في مكانٍ خلاءٍ ، ليسَ فيه أحدٌ ، مُخْفِتاً صوتَكَ .

٣٦ ـ خُذْ ما اسْتَطَعْتَ بِالاِحْتِياطِ ، فإنهُ   نِعْمَ النُّصورُ على العَدُوِّ ، وإنْ عَتا

ورُدَّ على عَدُوِّكَ بالحَزْمِ والثِّقةِ ، فإنهُ خيرُ طريقٍ للنصرِ عليهِ ، ولو كانَ جائراً متجاوِزاً حدودَ الحقِّ والعَدْلِ .

٣٧ ـ حتى إذا رامَتْ لأَثْلَتِكَ العِدا   حاشاكَ نَحْتاً ، لم تجدْ لكَ مَنْحَتا

وحتى لو أرادتِ العدا أنْ تنالَ منْ أصلِكَ وشرفِكَ عَيباً مُسْتَخِفَّةً بكَ ، ما وجَدَتْ لِرَغبتِها طريقاً .

٣٨ ـ حاوِلْ براءةَ ساحةٍ مع أنهُ   ليسَ البريءُ بِعادمٍ مُتَعَنِّتا

واحْتَلْ بِحِذْقِكَ وجَودةِ نظرِكَ أنْ تَخْلُوَ الساحةُ التي تعيشُ فيها من الشَّرِّ والظلمِ على الرغمِ منْ أنَّ السليمَ المُعافى ، لا يخلو مِنَ المرضِ ، ولو تظاهرَ بالصحةِ والعافيةِ .

٣٩ ـ وأْنَفْ منَ الزادِ الخَبيثِ، فَمَنْ رعى   مَرْعاهُ ، أذعَنَ للهوانِ ، وأخْبَتا

وأعرِضْ عن كلِّ كريهٍ خبيثٍ مِنْ طعامٍ أو شرابٍ أو ملبسٍ لأنَّ منِ اتَّخذَ الشَّرَّ والخُبْثَ طريقاً لحياتِهِ ، خَشِعَ للذُّلِّ ، وخَضَعَ له .

٤٠ ـ لا يأكلُ السُّحْتَ الكريمُ، ولم تَزَلْ   مِنْ مالِهِ الأيامُ إلاَّ مُسْحِتا

لا يَطْعَمُ الكريمُ المُؤمنُ الحرامَ ، وإنَّ منْ يقربْ منَ المالِ الحرامِ ، يُهْلِكْهُ اللهُ ، ويستأصِلْهُ .

☆☆ ٢ ـ وقالَ على بحر البسيطِ في رثاءِ الممالكِ :

١ ـ كانَتْ خوارِزْمُ للأحرارِ جامعةً   فَمَزَّقَتْ شَمْلَهُمْ أيدي النوى شَتَّى

كانَتْ خوارزمُ كعبةً للشرفاءِ الأمجادِ جامعةً إياهُمْ ، فَفَرَّقَتْ جمعَهُمْ أيدي البعدِ ، وجعلتْهُمْ مُتناثرينَ هنا وهناكَ .

٢ ـ فَعادَتِ اليومَ قاعاً صَفْصفاً ، وأبَتْ   ألاَّ تَرَى عِوَجاً مِنها ولا أَمْتا

فأصبحتِ اليومَ أرضاً منبسطةً مُسْتَوِيةً ، وكَرِهَتْ أنْ تَجِدَ فيها طريقاً مائلاً أوِ انخفاضاً وارتفاعاً .

☆☆ ٣ ـ وقالَ على بحرِ الطويل في الفخرِ :

١ ـ نكُتُّ ذوي الأضغانِ بالحِلْمِ عنهمُ   كفى لذوي الأضغانِ بالحِلْمِ ناكِتا

إننا نضربُ رؤوسَ الحاقدينَ ، ونَرُدُّهُمْ عنّا بالعقلِ والأناةِ ، لأننا وجَدْنا أنَّ خيرَ مُسْكِتٍ ورادٍّ للحاقدِ العقلُ والأناةُ .

٢ ـ أيَبْهَتُني بالسوءِ مَنْ هو أهلُهُ فلا زلْتُ مبهوتاً ، ولا زالَ باهِتا ؟

أيَمْنَعُني عنِ الحقِّ وقولِ الحقِّ منْ يَفْتَري عليَّ بالكذبِ ؟ فأُصْبِحَ مدهوشاً ضائعاً حائراً ، لا أدري ما أفعلُ ، ويبقى هو مُفْتَرِياً ؟

٣ ـ سَكَتُّ ، فَظَنُّوا أني ذو غَباوةٍ لو أني كما ظَنُّوا ، لَما كُنْتُ ساكِتا

سَكَتُّ في أوَّلِ الأمرِ ، ولم أردَّ على المُغترِّينَ أصحابِ السوءِ ، فَظَنُّوا أني غبيٌّ جاهلٌ ، ولو كنْتُ غبيًّا جاهلاً كما ادَّعَوا لَما بقيتُ ساكتاً أبداً .

☆☆ ٤ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الحكمةِ في نهايةِ مقامةِ الصمتِ (مقاماتُ الزمخشري ص٥٠) .

١ ـ ألا رُبَّ عبدٍ كَفَّ أذيالَهُ ، ولم يَكُفَّ عنِ الجارِ القريبِ أذاتَهُ

كم مِنْ وليٍّ رَفَعَ أذيالَ ثيابِهِ لِيَسْتَعِدَّ للوضوءِ ، ولم يَرْفَعْ عن جارِهِ القريبِ شَرَّهُ وأذاهُ .

٢ ـ رطيبٌ بِثَلْبِ المُسلمينَ لسانُهُ وإنْ كانَ لم يَبْلُلْ براحٍ لَهاتَهُ

ذو لسانٍ سريعِ الحركةِ والكلامِ بلَومِ الناسِ المُسلمينَ على الرغمِ منْ أنهُ لم يُرَطِّبْ لَهاتَهُ بشربِ الخمرِ خوفاً منْ عذابِ اللهِ تعالى .

٣ ـ ويرجو نجاةً منْ تَوَجُّفِهِ سَخْطَةً عليهِ وكَلاًّ ، ما أعَزَّ نجاتَهُ

ويأمُلُ خلاصاً منِ اضطرابِهِ غاضباً عليهِ أو ضَعيفاً منْ مُصيبةٍ ، حَلَّتْ به ، وما أشَدَّ وأبعدَ وأصعبَ نجاتَهُ منْ كلِّ ذلك !

☆☆ ٥ ـ وقالَ على بحرِ المُتقارِبِ في مدحِ شرفِ المُلْكِ أبي سعدٍ :

١ ـ عليكِ زكاةُ جَمالٍ ، فأدِّي إلى ابنِ السبيلِ نَصيبَ الزكاةِ

إنَّ اللهَ ـ عزَّ ، وجَلَّ ـ فرضَ الزكاةَ ، وبَيَّنَ نَصيبَها ، فعليكِ أيتها الحبيبةُ زكاةُ جَمالِكِ ، فادفعيها إلى ابنِ الطريقِ الذي قُطِعَ عليهِ الطريقُ قدرَ نَصيبِهِ منها .

٢ ـ قَوامُكِ مثلُ قناةٍ تُقِلْـ ـلُ مِنْ ناظِرَيكِ سِنانَي قناةِ

أمَّا قَدُّكِ فهو شِبْهُ الرمحِ ، يَحْمِلُ منْ عينَيكِ نَصْلَي رمحٍ .

٣ ـ ووجهُكِ والجيدُ والعينُ مِنْ ثلاثٍ ، يُسَمُّونَها بالمَهاةِ

ثم وجهُكِ وعُنُقُكِ وعينُكِ ثلاثةُ أشياءَ ؛ اسْمُ كلِّ واحدٍ منها مَهاةٌ : الشمْسُ والبَلُّورةُ

والبقرةُ الوحشيّةُ .

٤ ـ أَلَمَّ خَيالُكِ بي سَحْرَةً ونحنُ هجودٌ بِظَهْرِ الفلاةِ

أتاني خيالُكِ في المَنامِ ليلاً ، ونحنُ نُوَّمٌ بقلبِ الصحراءِ .

٥ ـ تَراغَى ركائبُنا حولَنا مخافةَ قَفْرٍ مُضِلِّ الهُداةِ

تُصوِّتُ إبلُنا مِنْ حولِنا خوفاً منَ المكانِ الخالي الذي يُضيعُ هُداةَ المسافرينَ .

٦ ـ وصَلْنا بإدلاجِنا الإدِّلا جَ حتى تَنَفَّسَ بَرْدُ الغَداةِ

ووصَلْنا بالسَّرَى في آخِرِ الليلِ إلى أنِ انبلَجَ الصبحُ ، وابْتَرَدَ نسيمُ الفجرِ .

٧ ـ نَسيرُ إلى حضرةٍ ، لم تَزَلْ مَحَطَّ الرِّحالِ ومَأوَى العُفاةِ

وظَلَلْنا نسيرُ إلى مجلسٍ ، لم يَزَلْ مَنْزِلَ المسافرينَ ومَلْجَأَ طالبي الفضلِ والمعونةِ .

٨ ـ إلى شرفِ المُلْكِ سُقْنا المَطِيْـ ـيَ نورِ المَعالي جَمالِ الكُفاةِ

إلى شرفِ المُلْكِ أبي سعدٍ سُقْنا الدوابَّ بأحمالِها إلى نورِ المعالي وعِزِّها إلى فَضْلِ كُفاةِ المُحتاجينَ .

٩ ـ جمالُ الكُفاةِ كريمٌ سَرِيٌّ نَمَتْهُ عُروقُ كِرامٍ سُراةِ

إلى فضلِ المحتاجينَ إلى الكريمِ الشريفِ الذي غَذَتْهُ ألبانُ الكرامِ الشُّرفاءِ .

١٠ ـ ومَنْ يَقْفُ إثْرَ الكرامِ السُّرا ةِ يَركَبُ منَ الغُرِّ أعلى السَّراةِ

ومَنْ يَتْبَعْ أثَرَ الشرفَاءِ العظماءِ يركَبْ أعلى ظهرٍ منْ ظهورِ الخيلِ بيضِ الجَبَهاتِ .

١١ ـ إلى المُرْتَضَى سيرةً في أُناسٍ تَجافَوا عنِ السِّيَرِ المُرْتَضاةِ

إلى الرجلِ الذي ارتضَى الناسُ سيرتَهُ ، وابتعدوا عنِ الطرقِ التي فُرِضَتْ عليهمْ لِيرتَضُوها .

١٢ ـ يُظاهِرُ بينَ ثيابِ العُلا على عِرْضِهِ بينَ قومٍ عُراةِ

يُطابقُ بينَ لباسِ العِزِّ وأهلِهِ أمامَ أناسٍ ، تَعَرَّوا مِنَ الفضيلةِ .

١٣ ـ لقد أوطَأَتْهُ المَعالي السِّماكَ فأخْمَصُهُ منهُ فوقَ الشُّماةِ

لقد رفَعَتْهُ الأمجادُ حتى جعلَتْهُ يدوسُ أحدَ السماكَينِ : (الأعزلَ أو الرامحَ) فكانَ أخمصُ قدمِهِ فوقَ رؤوسِ الذينَ يفرحونَ ببليّةِ الآخرينَ .

١٤ ـ خُضارةُ في جودِهِ قطرةٌ ورَضْوَى إلى حِلْمِهِ كالحصاةِ

إذا وُضِعَ أمامَ البحرِ يكونُ البحرُ قطرَةً منْ جودِهِ ، وإذا وُضِعَ رَضْوَى جَبَلُ المدينةِ أمامَهُ

يكونُ رَضْوَى حَصاةً منْ حِلْمِهِ .

١٥ ـ إذا حَلَّ عَقْدَ الحُبا خِفَّةٌ وطيشٌ رسا جَبَلاً في أناةِ

وإذا حُلَّ عَقْدُ العَطِيّاتِ حَلَّ خِفَّةٍ وطيشٍ ، ثَبَتَ في إحكامِ أعمالِهِ ثبوتَ الجبلِ في أناتِهِ وحِلْمِهِ وصَبْرِهِ .

١٦ ـ فلا حِقْدَ يَجْثُمُ في صدرِهِ ولا سَمْعُهُ نَهْزٌ لِلْوُشاةِ

فلا يجعَلُ الحقدَ والحَسَدَ ، يتمكَّنُ مِنْ لزومِ صدرِهِ ، ولا يتركُ لسمعِهِ فُرْصةً لِهَمْسِ الوُشاةِ النَّمَّامينَ .

١٧ ـ لِآرائِهِ كَرَّةٌ في العَدُوِّ مُغَيَّبَةٌ عنْ قِراعِ الكُماةِ

ولأفكارِهِ رجوعٌ إلى العَدُوِّ لأنهُ ، لا يَثِقُ بفتورِهِ وسكونِهِ ، وضربَةٌ عميقةٌ في جِسمِهِ ، ولو كانَ مُدَرَّعاً تامَّ السلاحِ .

١٨ ـ إذا البُصَراءُ عَيُوا بالصوابِ فلم يَتَهَدُّوا لهُ كالعُماةِ

إذا عَجزَ المُبْصِرونَ عنِ الوصولِ إلى الصوابِ ، ولم يطلُبوا الهدايَةَ ، فهمْ كالعُميانِ .

١٩ ـ تَبَيَّنَهُ مُسْتنيراً كما يرى ناظرٌ وَجْهَهُ في مِراةِ

أمّا هو فقد عَرَفَهُ وَحْدَهُ مُقْتَبِساً منْ نورِ اللهِ أعلامَهُ كما يعرِفُ كلُّ ناظرٍ إلى وجهِهِ في المِرآةِ نفسَهُ .

٢٠ ـ حَريصٌ على الخيرِ مُسْتَهْتَرٌ بِمَنْ يَتَّقي اللهَ حقَّ التُّقاةِ

وهو جاهدٌ في الخيرِ وفعلِهِ ، مولَعٌ بِمَنْ يخافُ اللهَ حقَّ الخوفِ .

٢١ ـ ففي الدينِ والمُلْكِ والمَكْرُماتِ إضاءةُ آياتِهِ كالأياةِ

يُحَقِّقُ أحكامَ الدينِ والعَدْلَ في المُلْكِ ونشرَ المكرُماتِ حتى تكونَ آياتُ اللهِ ـ عزَّ ، وجلَّ ـ مضيئةً كشعاعِ الشمسِ .

٢٢ ـ تواتَرَ فيها أحاديثُهُ فلم تَخْلُ طائفةٌ منْ رواةِ

تتابعَتْ فيها أقوالُهُ ، وكانَ في كلِّ جماعةٍ رُواةٌ لهُ كثيرونَ .

٢٣ ـ خُراسانُ رَوَّقَها عدلُهُ فلم يبقَ في كأسِها منْ قذاةِ

وقد صَفَتْ خُراسانُ بعدلِهِ حتى لم يبقَ في جانبٍ منْ جوانبِها شيءٌ منَ الأوساخِ والشرورِ .

٢٤ ـ شَذاةُ الظُّلاماتِ لو لم يُنِمْها بها بقيَتْ ، وهي يَقْظَى الشذاةِ

ولو لم يَقْتُلْ ، ويَهْلِكْ ، ويستأصِلْ كلَّ شرورِ الظلمِ ، لبقيتْ خراسانُ صريعةَ الأذى يَقْطى منَ الألمِ ، لا تَملِكُ الوقوفَ بوجهِهِ .

٢٥ ـ وكانَتْ بأيدي العِدا لُحْمةً تَخَطَّفُها كاخْتِطافِ البُزاةِ

وقد كانتْ بأيدي الأعداءِ ، تتخاطفُ أجزاءَها كما تتخاطفُ الطيورُ الجارحةُ ما يقدِّمُهُ الصيادُ إليها مِمّا يَصيدُهُ .

٢٦ ـ تُناضِلُ عنها ، وتحمي حِماها تدابيرُهُ ، وهي أحمَى الحماةِ

فَجاءَ شرفُ المُلْكِ بأحكامِهِ وعدلِهِ ، فدافعَ عنها ، وصانَ أعراضَها ، حتى صارَتْ منيعةَ الجانبِ حصينةَ الأطرافِ .

٢٧ ـ وأسمرُ كالصَّلِّ مَلْسوعُهُ يُهَرْوِلُ عنهُ جميعُ الرُّقاةِ

وشارَكهُ في ذلكَ أقلامُ الشعراءِ والخطباءِ ، فكانَتْ قصائدُهُمْ وخطبُهُمْ كَسَمِّ الأفاعي ، تقتلُ الأعداءَ بلسعاتِها ، ويَهرُبُ منها كلُّ مَنْ يَتَّخِذُ التعويذةَ حفظاً له .

٢٨ ـ وقد يَتَرَجّى السليمُ النجاةَ وما يُتَرَجّى لهُ منْ نَجاةِ

وقد يأمُلُ مَنْ لم يُصَبْ بشيءٍ الهروبَ منَ الشِّدَّةِ ، لكنه لا ينالُ الخلاصَ إذا ما وقعَ في شِباكِ خطوطِهِ .

٢٩ ـ تَخِرُّ لهُ وارداتُ القنا إذا ما انْثَنى صادراً عنْ دواةِ

وتخضَعُ له رجالاتُ الرماحِ وأسراهُمْ إذا ما عادَ سِنُّهُ مُبْتَلاً بالحِبْرِ مِنْ وِعائِهِ .

٣٠ ـ فلو قارعَ اللَّهْذَمُ السِّنَّ منهُ لارْتَدَّ عنهُ كليلَ الشَّباةِ

ولو صارعَ رأسُ رمْحٍ سَطراً منْ سطورِهِ ، لانْثَلَمَ الحدُّ مِنْ أولِ ضربةٍ ، ورجعَ حَسيراً كسيراً .

٣١ ـ يَصِرُّ ، فَيُخْفِتُ منهُ الصريرُ صليلَ المُهَنَّدةِ المُنْتَضاةِ

وإذا ما سارَ على الورقِ يُصْدِرُ صوتاً ، يسكِتُ صوتَ صليلِ السيوفِ المُهَنَّدَةِ المجردةِ مِنْ أغمادِها الضاربةِ الأعداءَ .

٣٢ ـ يطيبُ إليهِ استِماعُ المَوالي ويوجَعُ منهُ صِماخُ العُداةِ

ويَطرَبُ القلبُ إذا ما استمعَ المَوالي إلى ما خَطَّهُ منْ سطورِ مدحِهِ ، وتألَمُ الأُذُنُ مِن استِماعِ مَذَمّاتِهِ .

٣٣ ـ فلا فَقَدَتْكَ الرعايا ، فإنَّ هلاكَ الرعيَّةِ فَقْدُ الرعاةِ

فلا فُجِعَ الناسُ بِمَوتِكَ ، ولا ماتوا ، فإنَّ هلاكَ الناسِ بِمَوتِ الرؤساءِ .

☆☆ ٦ ـ وقالَ على بحرِ البسيطِ في رثاءِ المماليكِ :

١ ـ سَقَتْ بلادكُمُ القُصْوَى ، فَرَوَّضَتِ مُبَشِّراتٌ بصوبِ الغيثِ ، أومَضَتِ

لقد بَشَّرَتِ السُّحُبُ بانصِبابِ المطرِ ، ولَمَعَ البَرْقُ ، وسَقَتِ البلادَ البعيدةَ أمطارٌ غزيرةٌ ، ورَوَّتْها ، وجعلَتْ منها رِياضاً غَنَّاءَ .

٢ ـ قد قُيِّضَتْ يومَ طَنَّبْتُمْ خِيامَكُمُ سعادتي وشقائي يومَ قُوِّضَتِ

وقُدِّرَتْ سعادتي وسروري يومَ أقمتُمْ خيامَكُمْ ، وضربتُمْ في الأرض أوتادَها ، وشددْتُمْ حبالَها ، وكانَ شقائي وأحزاني يومَ هُدِّمَتْ خيامُكُمْ ، ورُفِعَتْ أوتادُها وحبالُها ، يومَ رحيلِكُمْ .

٣ ـ يا جيرتي بَلِّغوا عني فتاتَكُمُ تلكَ العهودُ أبيني هل تَنَقَّضَتِ ؟

فيا جيراني وأهلَ حَيِّي أخبروا ابنتَكُمْ : تلكَ العهودُ والمواثيقُ أينَ هي ؟ هل أُلغِيَتْ ؟ بَيِّني لنا ذلكَ .

٤ ـ ما عَرَّضَتْني بشيءٍ عندَ مَقْدَمِها بِلَى فؤادِيَ للأشجانِ عَرَّضَتِ

ما قَدَّمَتْ لي شيئاً عندَ مجيئها ، لكنها تركَتْ فؤادي يومَ رحيلِها ضعيفاً بأحزانِ الفراقِ .

٥ ـ إعراضُ سُعْدى شجاني بعدَما عَرَضَتْ ما بالُها عَرَضَتْ لي ، ثم أعْرَضتِ ؟

لقد أقبلَتْ عليَّ سُعْدَى ، فأسْعَدَتْني ، ثم ذهبَتْ عني ، فأشقاني صَدُّها ، ما حدثَ لها ؟ ما سببُ إقدامِها وصَدِّها ؟ .

٦ ـ أبَعْدَ ما ساعَفَتْ بالوصلِ آونةً وأمْحَضْتُها الهوى نفسي ، وأمْحَضَتِ ؟

أبعدَما صافَتْ ليَ الوُدَّ ، وواصلَتْني فترةً ، وأخلصْتُ لها الحبَّ ، وأخْلَصَتْني الوفاءَ ؟

٧ ـ لكنْ تُصانُ بِثَوبَيْ عفةٍ وتُقًى فما نَضَوتُ لها بُرْدي ، وما نَضَتِ

وكانَتْ تُحْفَظُ بثوبَينِ : هما العفةُ وتُقَى اللهِ ، وما كنتُ لأِخْلَعَ لَها عباءتي المخططةَ ، وما كانَتْ تخلعُ لي ثوبَها أبداً .

٨ ـ للهِ دَرُّ ليالٍ قد لَهَوْتُ بها إلى التي أنقضَتْ ظهري إذا انْقَضَتِ

فَسَقَى اللهُ تلكَ الليالي كم سَعِدْتُ بها ، وإني حينَ أذكرُها الآنَ تؤلِمُ ظهري إذْ أثقَلَتْهُ بالأحزانِ لأنَّها انقضَتْ ، وولَّتْ .

٩ ـ فَوِّضْ إلى اللهِ إنَّ النُّجحَ مُرْتَقَبٌ إذِ الأمورُ إلى ذي العرشِ فُوِّضَتِ

فَرُدَّ يا زمخشريُّ أمرَكَ إلى اللهِ ، فإنَّ الظفرَ بإذنِ اللهِ مُنْتَظرٌ ، لأنَّ كلَّ شيءٍ في هذه الدنيا مُفَوَّضٌ إلى اللهِ - عزَّ ، وجَلَّ - .

١٠ - وكُنْ على مَضَضِ الأيامِ مُصْطبِراً فإنها إنْ أمَضَّتْ مُدَّةً مَضَتِ

واصْبِرْ على آلامِ المصائبِ وأيامِها فإنَّها إنْ أوجعَتْكَ فترَةً منَ الدهرِ لا بُدَّ أنْ تَمْضِيَ ، وتزولَ أوجاعُها .

١١ - ما لِلنَّوى؟ كم عصاً شَقَّتْ! وكم طُنُبٍ ألقَتْ ! وكم مُسْتَقِرِّ الدارِ أنهضَتِ !

ما بالُ البعدِ ؟ كم عصاً شَقَّ أجزاءً ، فأضْعَفَها ! وكم حَبْلٍ فَكَّ رباطَهُ !؟ وكم رجلٍ كانَ مستقرًّا في دارِهِ ، فأنْهَضَهُ ، ورَحَّلَهُ !

١٢ - كم أضْمَرَتْ مَكرَاتٍ ، أضْرَمَتْ شُعَلاً تحتَ الحشا أَرْمضَتْ قلبي ، وأومَضَتِ

وكم أضمرَتِ الأيامُ مِنْ خديعةٍ ، أوقَدَتْ لُهَباً في الجوفِ ، أحرقَتْ قلبي ، والتَمَعَتْ فيه .

١٣ - وهَوَّنَتْ ما اقْتَضتْ منْ كلِّ نازلةٍ عليَّ يومَ فراقِ الصاحبِ اقْتَضَتِ

وهَوَّنَتْ ما أخذَتْ حقًّا منْ كلِّ مصيبةٍ ، نزلَتْ عليَّ يومَ قُدِّرَ فراقُ الأخِ الصاحبِ .

١٤ - لوِ ارْتَضَتْ بدلاً حَتْفي بِفُرْقتِهِ لاَخْتَرتُ ، لكنَّها ، واللهِ ، ما ارتَضتِ

لو أرادَ البعدُ أنْ أموتَ بدلَ فراقِ الأحبةِ لَرَضِيتُ ، لكنهُ ، واللهِ ما رَضِيَ بذلكَ .

١٥ - هَزَّتْ خوارزمُ منْ زَهْوٍ مناكِبَها أنْ قِيلَ : أوبةُ عبدِ اللهِ ، قُيِّضَتِ

وقد رجَّتْ خوارزمُ منْ تِيهٍ أكتافَها لِما قيلَ : إنَّ رجعةَ عبدِ اللهِ فُرِضَتْ .

١٦ - ورُقِّصَتْ أرؤسٌ منْ أهلِها طَرَباً وأرؤسٌ منهمُ للغيظِ أُنْغِضتِ

ورقَّصَ بعضُهُمْ رأسَهُ فرحاً وطرباً ، وحَطَّ بعضُهُمْ رأسَهُ غيظاً وحسداً .

١٧ - كانَتْ تَعَوَّضَتِ الإظلامَ بعدَكَ منْ إشراقِها ، ساءَ ما كانت تَعَوَّضَتِ

وكانَتْ قد عُوِّضَتِ الإظلامَ بعدَ رحيلِكَ منَ الإشراقِ ، لا حبَّذا ما كانَ ما عُوِّضَتْ به .

١٨ - إنْ سَوَّدَتْ مُصبَحي آثارُ غيبتِهِ فإنَّ أوبتَهُ ، مُمسايَ بَيَّضَتِ

فإنْ كانَتْ غيبتُهُ عني قد جعلَتْ مُصْبَحي أسودَ قاتماً ، فإنَّ رجعتَهُ إليَّ ، بَيَّضَتْ مُمْسايَ .

١٩ - سَمَا إلى الحضرةِ العليا ، تُحَرِّضُهُ نفسٌ قديماً على العلياءِ حَرَّضَتِ

وعلا إلى أرفعِ مكانٍ ، دَعَتْهُ إليهِ نفسُهُ العزيزةُ التي جُبِلَتْ بماءِ المجدِ والسُّؤْدُدِ .

٢٠ ـ سَمَا إليها كريماً باسطاً يدَهُ إذِ الأنامِلُ ، مِنْ لؤمٍ تَقَبَّضَتِ

صَعِدَ كريماً شريفاً ، ويدُهُ مبسوطةٌ ، تَهَبُ ، وتعطي لا كَيَدِ اللئيمِ البخيلِ الذي يقبضُ أصابعَهُ حتى تختفِيَ أناملُهُ .

٢١ ـ كأنهُ عاملٌ في دينٍ ، سُؤْدُدُهُ بسورةٍ ، أُنزلَتْ فيهِ ، وَفُرِّضَتِ

وكأنهُ صانعٌ في أمرٍ ، عَظَمَتُهُ بآيةٍ بل بسورةٍ ، أرسلَها اللهُ فريضةً .

٢٢ ـ ومنهُ آنستِ الحسادُ إذْ نَثَرَتْ نُبْلَ الأذى وقِسِيَّ الشَّرِّ أنبضتِ

وبفضلِهِ صارَ الحُسادُ كِراماً ، إذ رمَوا سِهامَ الشَّرِّ وجعلوا قِسِيَّ الأذى آلاتِ طربٍ ، يضربونَ أوتارَها .

٢٣ ـ جأشاً رَبيطاً نبا عنهُ الخِصامُ إلى قولٍ بهِ حُجَجُ الحُسَّادِ أُدحِضَتِ

وصارَ ذا قلبٍ مؤمنٍ ، ينتظرُ وقتَ الصلاةِ ، وابتعدَ عنهُ الشَّرُّ والخصومةُ ، ولَزِمَ قولَ الحقِّ الذي أبطلَ حججَ الحاسدينَ .

٢٤ ـ تَعَرَّضَتْ ، ثم لما عاينَتْ أسداً تَضَرَّعَتْ بعدَما كانتْ تعرَّضَتِ

تَصَدَّتْ قلوبُ الحاسدينَ في بادئِ الأمرِ لهُ ، فلما رأوهُ أسداً ضارياً خضعَتْ له ، وتذلَّلَتْ ، بعدَ أنْ تعرَّضَتْ له ، ووقفَتْ في وجههِ .

٢٥ ـ مَنْ لِلأرانبِ إنْ تَمْشِ إلى أسدٍ مِنْ رَوْعِهِ ضارياتُ الأُسْدِ أَغْيَضَتِ

مَنْ يعينُ الأرانبَ إن أرادَتْ أنْ تَتَقَرَّب من أسدٍ ؟ رأتْ أفواجَ الأُسْدِ تُسْرِعُ إلى غياضِها خوفاً على أرواحِها ، ودماءُ فرائِسِها ، تسيلُ على أجسامِها .

٢٦ ـ لوِ انْتَضَتْ مُرهفاتٍ، وانتضى قلماً لم يُغْنِ عما انتضاهُ كلَّ ما انْتَضَتِ

ولو جَرَّدَتِ الأعداءُ سيوفاً مرهَفَةً رقيقةً لَيِّنَةً ، وحملَ عبدُ اللهِ قلمَهُ ، لم يُغْنِها ما سلَّتْ منَ السيوفِ .

٢٧ ـ يا دولةَ التاجِ دومي الدهرَ دائلةً فأنْتِ زبدةُ أفكارٍ ، تَمَخَّضَتِ

فيا دولةَ تاجِ الملوكِ ابْقي طولَ الدهرِ غالبةً ، فأنتِ صفوةُ أفكارٍ وأحكامٍ ، رسَتْ بعدَ اضطرابٍ طويلٍ .

☆☆ ٧ ـ وقالَ على بحرِ الخفيفِ في الشوقِ والحنينِ إلى حرمِ مكةَ الشريفِ ومدحِ شريفِ مكةَ عُلَيِّ بنِ عيسى ابنِ وهَّاسٍ :

١ ـ وَقَفاتي بالقاعِ مِنْ عَرَفاتِ عُدْنَ ، أهلاً بكُنَّ مِنْ وَقَفاتِ

إنَّ وقوفي المُتكرِّرَ في أرضِ عرفاتٍ قد رجعَ ، فأهلاً بهِ ومرحباً .

٢ ـ وَقَفَاتي ذِكرى لكلِّ غرامٍ   منهُ قطرُ الجُفونِ ذو وَكَفَاتِ

فهو تاريخٌ لكلِّ حبٍّ ، كانَ منْ فراقي لهُ دمعُ العيونِ ذا قَطراتٍ .

٣ ـ حبَّذا أنْ يُقَطَّرَ الماءُ في حلـ   ـقي مِنْ زمزمٍ قُبَيلَ وفاتي

فيا نِعْمَ أنْ يُوضعَ الماءُ في حلقي منْ زمزمَ قطرةً قطرَةً ، وأنا أُحْتَضَرُ ، قبلَ خروجِ روحي إلى بارئها .

٤ ـ ووصاتي أحِبَّتي أنْ يَرُشُّوا   فضلاتٍ على مكانِ رُفاتي

وقد أوصيتُ رفاقي وأصدقائي أنْ يَنثُروا ما تركْتُ منْ كتبٍ على قبري : مكانِ جُثَّتي .

٥ ـ حبَّذا بلدةٌ بها الطائفُ العا   كِفُ جارُ البيتِ العتيقِ صَفاتي

ويا نِعْمَ أرضٌ ، بها كانَ الطائفُ العاكفُ جارُ البيتِ العتيقِ محمودُ بنُ عمرَ الزمخشريُّ ، فيها الكعبةُ المشرفةُ والحجرُ الأسودُ .

٦ ـ ومُقامي بعرصةِ الحَرَمِ الآ   مِنِ لم أخشَ مَنْ يَفِلُّ صَفاتي

وحبَّذا جلوسي بساحةِ الحرم الشريفِ الآمنِ حيثُ لم أخَفْ يوماً أحداً ينصرفُ عن صَفاتي : الحجرِ الأسودِ ، فلا يَتَبَرَّكُ بهِ .

٧ ـ بينَ ظَهْرَي أهِلَّةٍ مِنْ قُرَيشٍ   أهلِ حِلْمٍ ذوي حُباً مُحْصَفاتِ

في كَنَفِ أفرادٍ كالكواكبِ مِنْ قبيلةِ قريشٍ أهلِ حِلْمٍ وأناةٍ أصحابِ عِماماتٍ ، أَتْقَنوا لفَّها ، وأحكموا وضْعَها على رؤوسِهِمْ .

٨ ـ بَدْرُهُمْ ذو المَناقِبِ المُجْتَبَى في   بيتِ مجدٍ أَشَمَّ ذي شُرُفاتِ

قَمَرُهُمْ بل سيِّدُهُمْ ذو المحامِدِ المختارُ منْ أسرةِ مجدٍ وعزٍّ ذاتِ مفاخرَ ، تَشْرُفُ على الناسِ .

٩ ـ أكرموا مَورِدي ، وحاطوا حريمي   بسيوفٍ وأَلْسُنٍ مُرْهَفاتِ

أكرموا وِفادتي ، وصانوا نسائي بسيوفٍ وأقوالٍ رقيقةٍ قويَّةٍ .

١٠ ـ ربِّ فاجْمَعْ بيني وبينَهُمْ في   صُحْبةِ الآمنينَ في الغُرُفاتِ

فيا ربي اجْمَعني بهمْ يومَ القيامةِ في الجنةِ في الغُرُفاتِ العليا مع الأصحابِ الآمنينَ .

☆☆ ٨ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في رثاءِ أُمِّهِ :

١ ـ يا حادثاتِ الدهرِ أُمِّي بعدَما   أدركْتِ أُمِّي بالرَّدى مَنْ شِيتِ

يا مصائبَ الزمانِ اقصِدي مَنْ تريدينَ بالموتِ بعدَما أصبْتِ أُمِّي .

٢ ـ روحي وأرواحُ العشيرةِ بعدَها جَلَلٌ ، عَذَرْتُكِ أيُّهُنَّ غَشيتِ

فإنَّ نفسي ونفوس أهلي بعدَ أمي أمْرٌ عظيمٌ ، وإني لا ولن أُؤاخِذَكَ إنْ نزلْتِ بأيِّ فردٍ منَّا .

٣ ـ تاللهِ لو أحْسَسْتِ أدنى خشيَتي يومَ اسْتُقِلَّ بنعشِها لَخَشيتِ

واللهِ لو شعرتِ بأقلِّ شعورٍ وإحساسٍ مِمّا عانَيتُ يومَ حُمِلَتْ بنعشِها لانتابَكِ شيءٌ مِنَ الخَوفِ والرهبةِ والحزنِ .

٤ ـ لو كانَ يُرْشَى حادثٌ بالنفسِ أو بالمالِ أو بكليهما لَرُشِيتِ

واللهِ لو يُعطى أمرٌ عظيمٌ جُعْلًا رشوةً نفساً أو مالاً أو نفساً ومالاً معاً فداءً لَقَبِلْتِ تلكَ الرشوةَ وذلكَ الفداءَ .

☆☆ ٩ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في مدحِ شرفِ الملكِ أبي سَعْدٍ :

١ ـ بِحُزْوَى ديارِ العامريَّةِ فأتِها وقِفْ وِقفةَ العُذريِّ في عَرَصاتِها

يا صاحبي قِفْ بنجدٍ بِحُزْوَى ديارِ العامريَّةِ وِقفَةَ الشاعرِ العاشقِ العُذْرِيِّ ، في ساحاتِ بيتِها .

٢ ـ وإنْ وُصِفَتْ خَلْفَ المواطِنِ أرضُها فقُلْ للمآقي تسقِها عَبَراتِها

وإنْ سألْتَ عن موقعِ أرضِها ، وقيلَ لكَ : إنَّها خَلْفَ تلكَ المواطِنِ ، فادْعُ العيونَ تَرْوِ دموعُها روضَها .

٣ ـ وحُزْوَى إلى ذُخْرِ الشؤونِ فقيرةٌ فأنعِمْ بِسُقْيا إنْ تَقُلْ لكَ : هاتِها

لأنَّ حُزْوَى مُفْتَقِرةٌ إلى ما ادَّخَرَتْهُ مجاري دموعِ العيونِ منْ عبراتٍ ، فإذا طلبَتْ منكَ أنْ تَسْقِيَها ، فلا تَبْخَلْ عليها ، وأجبْها كريماً سَخِيّاً .

٤ ـ مَساحِبُ أذيالِ الرياحِ ، وكم مشَتْ بها ساحباتُ الذيلِ منْ خَفَراتِها

فَحُزْوى ذاتُ طبيعةٍ متميِّزةٍ ، إذ لا تخلو منْ هبوبِ الرياحِ ، وكأنَّها مَسيرُ الهواءِ في كلِّ فصلٍ ، ومَسيرُ الفتياتِ الصغيراتِ اللواتي تسحبُ أذيالَها حياءً .

٥ ـ تعادَى بها وحشُ الفلاةِ ، وربَّما تهادَتْ بها الحسناءُ بينَ لِداتِها

وهي مكانٌ تتبارَى به الوحوشُ بالعَدْو ، وتتمايلُ به الحسانُ اللِّداتُ اللواتي وُلِدْنَ في وقتٍ واحدٍ تقريباً .

٦ ـ بعيني حدوجُ الحَيِّ إذْ رقَصَتْ بها قِلاصٌ يُنَزِّيها غناءُ حُداتِها

أفدي مراكبَ نساءِ الحيِّ بعيني حينَ أرى الإبلَ القويةَ تَمْشي بها رَقْصاً ، ويغني لها سائقوها لِتُسرِعَ في مَشيِها .

٧ ـ فلم أرَ إلاَّ جَنَّةً وقطوفَها ولكنها ما ذُلِّلَتْ لِجُناتِها

فما كانَتْ حُزْوى إلاَّ جنةً بثمارِها ، لكنَّ هذهِ الثمارَ ليسَتْ لِقاطِفيها .

٨ ـ وأشقى ليالي ذي الصبابةِ ليلةٌ يقالُ : العصا مشقوقةٌ في غَداتِها

وأشَدُّ ليالي المشتاقِ ليلةٌ ، لا يرى فيها أحداً ؛ إذِ الناسُ متفرقونَ منذُ الصباحِ ، لا تستطيعُ العصا المشقوقةُ جمعَهُمْ .

٩ ـ كأنَّ فؤادي يومَ رِيعَ بِبَينِهِمْ جَناحُ قطاةٍ ، أفلتَتْ مِنْ رُماتِها

وكأنَّ قلبي يومَ شاعَ خبرُ رحيلِهِمْ جَناحُ قطاةٍ ، لم يُصِبْها صَيَّادوها .

١٠ ـ إلى اللهِ أشكو ما لَقيتُ منَ النوى وفي يدهِ نفسي ونَفْيُ شَكاتِها

وإني لأشكو إلى اللهِ ما أصابني منَ البعدِ الذي ملكَ نفسي ، وأمرَني أن أكتمَ شكوايَ .

١١ ـ وأشكو جِناياتِ الليالي على الأُلي هُمُ كالنجومِ الزُّهْرِ في ظُلُماتِها

وأشكو ظلمَ الليالي الذينَ همْ مثلُ النجومِ المتلألئةِ في ليالي الظُّلْمةِ .

١٢ ـ وناهيكَ شَجْواً أنْ تَرَى مُتَوَلِّعاً ببيضِ بَنيها كيدَ سودِ بَناتِها

وحَسْبُكَ حُزناً وأسىً أن ترى مُحِبًّا يرجو منَ الليالي أنْ تُرِيَهُ ساعاتِ سرورٍ بيضاءَ ، تَتْبَعُها أُخْرى ، تَغْمُرُهُ بالهمومِ والمصائبِ السوداءِ الكالحةِ .

١٣ ـ أما والمعالي إنَّها لَضَئيلةٌ إذا رَبَّتِ الدنيا سوى سَرَواتِها

وإني لأرى المعاليَ قليلةً إن وَلَّتِ الدنيا غيرَ أشرافِ الناسِ وساداتِهِمْ .

١٤ ـ عَفاءٌ على الدنيا طويلٌ لِرفْعِها مناسِمَها السفلى على أسْنِماتِها

لقد زهدَ الدنيا ، فتركَ زخْرُفَها ، لكنهُ لم يَنْسَ أنْ يستخدمَ حَدْبَةَ الناقةِ وخُفَّها ليصِلَ إلى مُبْتَغاهُ .

١٥ ـ قَضِيَّةُ جَورٍ قد جرَتْ بينَ أهلِها تذوبُ لها الأكبادُ مِنْ حَسَراتِها

وقالَ : كانتْ قَضيَّةُ جَورٍ ، قد حدثَتْ بين أهلِ الحيِّ ، وخلَّفَتْ حَسراتٍ ، ذابتْ لها الأكبادُ والنفوسُ .

١٦ ـ فيا ليتَ شِعري هل أرى أُنسَها كما أرى طَيرَها : الغِرْبانُ تحتَ بُزاتِها ؟

وإني لأَتساءلُ : هل أرى فيها الأُنسَ والأمانَ ، ولا أرى الوحشةَ والظلمَ إذْ يتسلَّطُ القويُّ على الضعيفِ ؟

١٧ ـ وهل للأمورِ المستقيماتِ فَيئةٌ تُسَوِّي منَ الدنيا الصَّفا في قَناتِها ؟

وهل يَعودُ العدلُ والاستقامةُ ؟ وهل يَرتفعُ الظلمُ والجَورُ والميلُ عن قناةِ الحقيقةِ ، فتصيرَ أحوالُ الناسِ صافيةً سويَّةً ؟

١٨ ـ وإنـي لأَرجـو أنْ يُقَـوِّمَ زَيغُهـا بعـدلِ مُعيـنِ الـدهـرِ أقضـى قُضـاتِها

وإني لأَدعو اللهَ تعالى أنْ يُثبِّتَ اضطرابَ أمورِ الناسِ بِسَعْيِ معينِ الدهرِ أفضلِ القضاةِ إلى العدلِ وإحقاقِ الحقِّ .

١٩ ـ هو الفَيصلُ المُمْضِي على الدهرِ حكمَهُ ومُجرِي صعابَ المُلْكِ في حَكَماتِها

فهو الفاروقُ بينَ الحقِّ والباطلِ ، القاضي على الناسِ حكمَهُ العادلَ ، ومُسَيِّرُ أمورِ الملكِ الصعبةِ في مَسارِها الصحيحِ السليمِ .

٢٠ ـ له في اسْتِواءِ الصَّعْدةِ الحكمُ تابعاً لِـرَأْيٍ مُصيـبٍ فـي قضـاءِ شَبَـاتِهـا

وهو الحاذقُ الماهرُ العارفُ كيفَ يُقَوِّمُ ، ويُقَيِّمُ الأمورَ ، ويضَعُ الأحكامَ المناسبةَ في نِصابِها ، ويجعلُ الأمنَ والأمانَ في إقامةِ الحدودِ .

٢١ ـ سفـاراتُـهُ بيـنَ الملـوكِ مَخـارِقٌ قِـوامُ الهُـدى والمُلْـكِ مـنْ ثمـراتِهـا

ولم تكنْ إصلاحاتُهُ في بلادِهِ فقط ، وإنما كانَ مُصْلِحاً بلادَ جيرانِهِ بنصحِهِ الملوكَ الآخرين إذْ جعلَ الطرقَ بينَه وبينَهُمْ آمنةً : قِوامُها الهُدى ، وثِمارُها العدلُ والخيرُ .

٢٢ ـ ملوكُ بني سُلْجوقَ أثقَبُ فطنةً وأكيـسُ أن تَخْتَـصَّ خيـرَ ثِقـاتِهـا

وإنَّ الملوكَ السلاجقةَ أبلغُ فِكراً وأسْلَمُ عقلاً لأنَّهم يَختَصُّونَ ممالكَهُمْ بخيرِ الرجالِ حكمةً وعَدْلاً .

٢٣ ـ فمـا مَـذِلَـتْ إلاَّ إليـهِ بِسِـرِّهـا ومـا أبـرَزَتْ إلاَّ لـهُ مُضْمَـراتِهـا

فما أفْضَوا بأسرارِهمْ إلاَّ إليهِ ، ولا عَرَضوا مكنوناتِهِمْ إلاَّ لهُ .

٢٤ ـ وأيَّـةُ نفـسٍ حُـرَّةٍ أشْبَهَتْـهُ فـي كِفـايتِهـا أو أمنِهـا أو تُقـاتِهـا ؟

وأيُّ إنسانٍ حُرٍّ شريفٍ ، يُماثلُهُ في ضَمانِ نفسِهِ أو سكونِها أو وَرَعِها ؟ إذ لا يَحتاجُ إلى أحدٍ ، ولا يطلبُ الأمنَ منْ أحدٍ ، ولا يتَّقي إلاَّ اللهَ ـ عَزَّ ، وجلَّ ـ .

٢٥ ـ يقولُ مَنِ اسْتَمْلَى رواياتِ مجدِهِ : أَنَشْـرُ الخُـزامَـى أم حـديـثُ رُواتِهـا ؟

يقولُ منْ طلبَ أنْ تُمْلَى عليه أحاديثُ عزِّهِ مُتَعجِّباً : أهذا الذي تُمليهِ عليَّ شَذا وطيبُ زهرِ الخُزامى أم أخبارُ الرُّواةِ الثقاتِ ؟

٢٦ ـ غرائبُ لو قامَ الزمانُ بوصفِها لأَقعدَهُ إعجازُ أدنى صفاتِها

ذلك لأنَّ ما تمليهِ عليَّ أمورٌ غريبةٌ ، لو أرادَ الدهرُ أنْ يَتَعَرَّضَ لوصفِها لما استطاعَ ذلكَ لأنَّ أقلَّ صفةٍ ، تَجْعلُهُ عاجزاً عنِ التعبيرِ عنها .

٢٧ ـ مَساعٍ تَوَدُّ النَّيِّراتُ لَوَ أنَّها تُعَدُّ بلطفِ اللهِ مِنْ حسناتِها

ولأنَّ أعمالَهُ التي يقومُ بها تريدُ كواكبُ السماءِ أنْ يكونَ لها أعمالٌ مثلُها ، يَعُدُّها العبادُ بفضلِ اللهِ ـ عَزَّ ، وجلَّ ـ منْ حسناتِها .

٢٨ ـ حريصٌ على العلياءِ لم يَرَ رُتبةً مِنَ العزِّ إلاّ طارَ في صَهَواتِها

ولأنهُ يَجْهَدُ في طلبِ العُلا ، إذ لا يسمَعُ ، ولا يَرَى مكانةً فيها المجدُ إلاّ أسرَعَ في طلبِها ، وركبَ صهواتِ الشرفِ للوصولِ إليها .

٢٩ ـ ولا سُؤدُداً إلاّ رُفِعَتْ لهُ مضاميرُهُ ، اسْتولى على قَصباتِها

ولا شرفاً وُضِعَتْ له حدودُ سباقٍ إلاّ كانَ السابقَ إليها ، وحازَ قصبَ السبقِ فيها .

٣٠ ـ لَعَمْرُ أبي سعدٍ وعَمْرُ منابتٍ نَمَتْهُ ذَكيَّاً طَيِّباً مِنْ نباتِها

وإني لأقسمُ إنَّ أبا سعدٍ ذو أصلٍ ومَنْبتٍ كريمٍ ، غذاهُ ، فكانَ ذا رائحةٍ طَيِّبةٍ وصِيتٍ حسنٍ .

٣١ ـ لقد فَغَمَتْني منه ريّا ، وبينَنا مرامٍ ، تَضِلُّ الهوجُ في جَنباتِها

لقد مَلأني بأعطياتِهِ على الرغمِ منْ بعدِ المسافاتِ بينَنا حيثُ تضيعُ الرياحُ الشديدةُ في أطرافِها .

٣٢ ـ وحُدِّثْتُ عنهُ عنْ سجايا كروضةٍ تغازلُ أنفاسُ الصَّبا نَفَحاتِها

وأخبرني الناسُ القريبونَ منه عنْ صفاتِهِ الكريمةِ الشبيهةِ روائحَ نسماتِ الصَّبا الملأى بطيبِ المسكِ .

٣٣ ـ وعنْ مَكرُماتٍ فخمةٍ برمكيَّةٍ بَناها ، فأفشى الناسُ ذكرَ بُناتِها

وعنْ أعمالٍ عظيمةٍ تشبهُ أعمالَ البرامكةِ ، أكرَمَ فيها الناسَ ، فذكروها مُعترفينَ بأفضالِها على الرغمِ منْ أنَّهُ لم يُرِدْ أن يَشيعَ ذكرُها .

٣٤ ـ وعنْ هِمَمٍ عُلْويَّةٍ وفضائلٍ فضائلُ أهلِ العصرِ منْ فَضَلاتِها

وعنْ رغَباتٍ وإراداتٍ ومُثُلٍ عُلْيا ، مَكرُماتُ الناسِ في هذا العصرِ من بَقايا ما عندَهُ من مكرُماتٍ .

٣٥ ـ حكى العربَ العرباءَ في بُعْدِ همِّها وبَسْطَـةِ أيـديهـا وحفـظِ لُغـاتِهـا

فقد شابَهَ العربَ الخُلَصاءَ في عظمةِ عَزْمِهِمْ ومَجْدِهِمْ وكرمِهِمْ وفصاحةِ ألسنتِهِمْ وبلاغةِ آدابِهِمْ .

٣٦ ـ وأُطْلِعْـتُ فـي حَـذَّاءَ طَنَّـانـةٍ لـه علـى دُرَرِ الإكليـلِ مِـنْ فِقَـراتِهـا

وأطلَعَني أحدُهُمْ على قصيدةٍ لهُ ، أبدعَ في اختيارِ ألفاظِها لِعمقِ معانيها ، فكانَ لها صدًى بعيدٌ وصيتٌ حسنٌ ، كانَتْ كلُّ فِقْرَةٍ منها دُرراً ، تزيِّنُ تاجَ الملكِ .

٣٧ ـ قـوافـي زهيـرٍ مُنْشِـآتٌ قصـائـداً مُحَبَّـرَةً ، تُثْنـي علـى مُنْشَـآتِهـا

وكأنَّ قوافيَ زهيرِ بنِ أبي سُلْمى التي نَظَمَتْ قصائدَ مُنَقَّحَةً ، أُعْجِبَتْ بقصائدِ أبي سَعْدٍ ، وأثنَتْ عليه ثناءً طيِّباً .

٣٨ ـ فَعُلِّقْـتُ قبـلَ المُلْتَقـى حسنـاتِـهِ وحَيَّـرَنـي المنشـورُ مـنْ حبـراتِهـا

فَأُغْرِمْتُ قبل أنْ أراهُ بحسناتِهِ ، وجعلَتْني آثارُهُ ، أَتِيهُ في بحرِ مَكارِمِها .

٣٩ ـ وظلَّ الهوى يهفو ، بطيرِ نوازعي ويَسْتنهِـضُ الأشـواقَ عـن جَثَمـاتِهـا

وبقيَ حبِّي له ، يطرَبُ بطيرِ حنيني وأشواقي ، ويحملُها بعيداً .

٤٠ ـ وناجيتُ أفكاري : أيُقْضى لِقاؤهُ وقـد وَاعَـدَتْـهُ ؟ لـو وَفَـتْ بِعِـداتِهـا

وهمسْتُ لأفكاري مُتسائلاً : أيَتحَقَّقُ لي لِقاؤُهُ لأنها طلبَتْ منهُ اللِّقاءَ ؟ ورجَتْ أنْ تُوفَّى الوعودُ ؟

٤١ ـ فإنْ فَعَلَتْ لم تَبْقَ في صدرِ هِمَّتي أمـانـيُّ إلاَّ أدْرَكَـتْ طَلِبـاتِهـا

فإنْ تَحَقَّقَتِ الوعودُ التي جَعَلْتُها في صدري أمنياتٍ فقد نِلْتُ ثِمارَها .

☆☆ ١٠ ـ وقالَ على بحرِ السريعِ في مدحِ الحريريِّ ومقاماتِهِ (النجوم الزاهرة ح٥/ ٢١٩) .

١ ـ أقسِـمُ بـاللهِ وآيـاتِـهِ ومَعْشَـرِ الحـجِّ ومِيقـاتِـهِ

إني لأَحلِفُ باللهِ وآياتِهِ الكريمةِ ومجمعِ الناسِ في الحجِّ ووقتِهِ .

٢ ـ إنَّ الحـريـريَّ حَـرِيٌّ بـأنْ نكتُـبَ بـالتِّبْـرِ مقـامـاتِـهِ

إن الحريريَّ ، كانَ مُبْدِعاً في مقاماتِهِ ، وإنَّها لَجديرةٌ أنْ تُكتبَ بِماءِ الذهبِ ، لِتُحفَظَ

إلى أبدِ الآبدينَ .

☆☆ ١١ ـ وقالَ على بحرِ المنسرحِ في الفخرِ :

١ ـ لو لُحْتُ منْ فَرْسخٍ لنارِ غَضًى ضَجَّتِ النارُ مِنْ حرارَتِهْ

لو بَدَوْتُ منْ مسافةِ فرسخٍ لنارِ الغَضَى ذي الحرارةِ الشديدةِ لصاحتِ النارُ خوفاً منْ حرارةِ نيراني .

٢ ـ لو طارَ مني شرارةٌ صُعُداً لاَحْتَرَقَ الناسُ مِنْ شِرارَتِهْ

ولو ارتفعَتْ منْ غضبي شرارةٌ لأَحرقتِ الناسَ كلَّهُمْ .

☆☆ ١٢ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في الفخرِ بنفسِهِ :

١ ـ عَنَتِ الرسائلُ سُجَّداً لرسالةٍ دُعِيَتْ لِكَبْتِ الحاسدينَ مُبكِّتَهْ

خَضَعَتِ الرسائلُ كلُّها ساجدةً لرسالةٍ ، بَعَثْتُها لِرَدِّ الحاسدينَ وغَلَبَتِهِمْ بالحجَّةِ الدامغةِ .

٢ ـ شِيَعُ البلاغةِ نَصَّبَتْ أذهانُها آذانَها لبيانِها مُسْتَنْصِتَهْ

فَنَبَّهَتْ أتباعُ البلاغةِ والبيانِ أذهانَها ، ورفَعَتْ آذانَها لِتَسْمَعها ، وتُنْصِتَ لِفَهمها .

٣ ـ للهِ شِقْشِقَةٌ يطيرُ لُغامُها هَدَرَتْ بِجَرْجَرَةِ الفُحولةِ مُسْكِتَهْ

للهِ دَرُّ رسالةٍ عُلْويَّةٍ ، تُشبهُ شِقْشِقَةَ الجملِ في حَلقِه ؛ تَمْتلئُ بالهواءِ الذي يهدِرُ مِن شدقِهِ إذا هاجَ مصحوباً بِزَبَدِهِ وترديدِ صوتِهِ ، كأنهُ رجلٌ ذو مقامٍ رفيعٍ ، يريدُ أنْ يُسْكِتَ مَنْ حولَهُ .

٤ ـ للهِ أنتِ رسالةً ، وشَحْتُها بقواطِعٍ مثلِ السيوفِ المُصْلَتَهْ

وللهِ درُّكِ يا رسالةُ ، زَيَّنْتُها بتراكيبَ قويَّةٍ حادَّةٍ كالسيوفِ المُجَرَّدَةِ منْ أغمادِها .

٥ ـ شُبُهاتُ أهلِ البغيِ إنْ أفلتْنَ منْ قَلْعٍ فما هي بعدَ يومِكَ مُفْلَتَهْ

التباساتُ أهلِ الظلمِ إنْ خرجَتْ فَجْأً منْ حبسِها يوماً ، فإنها لن تستطيعَ بعدَ ذلك الخروجَ ، وأنتَ مُمْسكٌ زمامَ الأمورِ .

٦ ـ ثُقِفَتْ كأمثالِ الحناظِلِ يُبَّساً نُقِفَتْ بأشباهِ الجنادِلِ مُصْمَتَهْ

أدركَ الناسُ ، وظفروا بهذه الرسالةِ ، فكانتْ لهم مثلَ حبَّاتِ الحنظلِ اليابسةِ ، إذا شُقَّتْ برأسِ حجرٍ قاسٍ ، سالَ ماؤها الأحمرُ المُرُّ .

٧ ـ أحْيَيْتُ مِنْ علمِ البيانِ معالِماً كانَتْ على مَرِّ الليالي مَيِّتَهْ

لقد بعَثْتُ معالِمَ منْ علمِ البيانِ ، كانَتْ قد ماتَتْ منذ زمنٍ بعيدٍ .

٨ ـ حتى أتاحَ اللهُ إحياءً لها إنَّ الأمورَ كما يَشاءُ مُوَقَّتَهْ

كانتْ قد ماتَتْ منذُ فترةٍ طويلةٍ ، ونَسِيَها الناسُ ، حتى أرادَ اللهُ ـ عَزَّ ، وجَلَّ ـ أنْ يُحْيِيَها ، فَسَمَحَ لها بالحياةِ ثانيةً ، وكانَ لها الإحياءُ ، وإنَّ اللهَ تعالى : يُوَقِّتُ زَمَنَ الحياةِ والموتِ .

٩ ـ برسالةٍ عَزَّتْ ، فَذَلَّ بِعِزِّها كلُّ الرسايلِ ، واستكانَتْ مُخْبِتَهْ

ويُعِزُّ أُناساً برسالَةٍ بليغةٍ نادرةٍ ، ويُذِلُّ آخرينَ برسائلَ ، فيخنَسونَ ، وتَهْمُدُ قواهُمْ .

١٠ ـ لو أُنْشِئَتْ في الأوَّلينَ لأنشؤوا بيتاً ، تَطِنُّ بهِ البلادُ مُصَوِّتَهْ

فلو كُتِبَتْ هذه الرسالةُ في أيامِ ازدهارِ أيامِ العربِ لَبَنَى الناسُ لها قصراً ، يتحدثُ الوفودُ عنها ، ويغنّونَ بأصواتٍ عذبةٍ .

١١ ـ يا غُرَّةً للدينِ يانعةً ، ويا فَتوى لأكبادِ الغُواةِ مُفَتِّتَهْ

فيا رسالةُ كنتِ جمالاً كاملاً للدينِ وثمرةً نضيجةً ، تُغَذِّي العقولَ ، ويا حُكْمُ لقلوبِ الضالينَ مُفَتِّتَةً أكبادَهمْ .

* * *

حرف الثاء / ٤٨/ بيتاً

☆☆ ١ ـ وقالَ على بحرِ الوافرِ في المدحِ :

١ ـ عُبيــدَ اللهِ ، نعــمَ المُسْتَغــاثُ سَــريــعٌ غَــوثُــهُ لا مُسْتَــراثُ

نعمَ المُسْتَغاثُ عُبيدُ اللهِ ، فهو يسرعُ في عَونِه ، ولا يُبْطِئُ فيه .

٢ ـ متـى اسْتَنْجَـدْتَـهُ اسْتَنْجَـدْتَ ليثـاً إذا صَــدَمَ الصعــابَ فــلا الْتِيــاثُ

فإذا طلبتَ النجدةَ ، وجدْتَ أسداً ، إذا تَصَدَّى للصعابِ ، كَسَرَها ، وحَطَّمها دونَ أنْ يُبْطِئَ أو يَتَأَخَّرَ .

٣ ـ إذا احْتَثُّـوا سَــواهُ علــى حفــاظٍ فمــن كَــرَمِ الطبــاعِ لــهُ احتِثــاثُ

وإذا حَضَّ الناسُ غيرَهُ ، وطلبوا منه أنْ يَحْفظَ أمراً لهمْ ، فإنَّ عبيدَ اللهِ ، يَهُمُّ بالغوثِ والإعَانةِ كَرَمَ طباعٍ منه دونَ أنْ يُلْفتَ أحدٌ نظرَهُ إلى ضرورةِ العونِ .

٤ ـ نَظيـرُ الطَّـودِ إنْ حُمِـدَ التَّـأنِّـي شبيـــهُ البـــرقِ إنْ ذُمَّ اللِّبـــاثُ

فهو كالجبلِ الشامخِ إنْ وُصِفَ الانتظارُ بالحُسْنِ ، ومثلُ البرقِ اللامعِ المتلألئِ إنْ وُصِفَ السكونُ بالقُبْحِ .

٥ ـ غِــلالَتُــهُ تُــزَرُّ علــى هِــزَبْــرٍ عِمــامَتُــهُ ، علَــى بَــدْرٍ تُــلاثُ

لباسُهُ ذو أزرارٍ وعُراً ، تُشْبَكُ على رجلٍ شديدٍ صُلْبٍ كالأسدِ ، وعِمامتُهُ ، تُلَفُّ على رأسِ قمرٍ بَدْرٍ .

٦ ـ تَبَــوَّأَ مــركــزَ العليــاءِ يجلــو نَثــاً فــي الخــافقَيــنِ لــهُ انبِثــاثُ

أقامَ في وسْطِ المجدِ ، يَنْشُرُ حُسْنَ خُلُقِهِ أحاديثُهُ في الشرقِ والغربِ .

٧ ـ وخيــمٌ فــي ســرارةِ شعـب مجـدٍ فليــس لــهُ انــزِعــاجٌ وانبِعــاثُ

كريمٌ ؛ أصلُهُ في أفضلِ نسبٍ في أعزِّ قبيلةٍ ، وخلُقُهُ عظيمٌ رزينٌ ، لا يَقْلَقُ ، ولا يُقْلِقُ أحداً ، ولا يثورُ ، ولا يُثيرُ أحداً .

٨ ـ فضــائــلُ ، نــالَ غــايتَهــا اكتســابــاً وعِــــزٌّ مــــنْ عنــاصِــرِهِ تُــراثُ

ففضائلُهُ ، نالَها تَكَسُّباً منْ جِدِّهِ واجتهادِهِ ، ومَجْدُهُ ، نالَهُ تُراثاً منْ آبائِهِ وأجدادِهِ .

٩ ـ ومــا للفضــلِ مــنْ أحــدٍ ســواهُ مُحــافظــةٌ عليــهِ ولا اكتِــراثُ

وليسَ للفضلِ أحدٌ غيرُهُ ، يستطيعُ أنْ يُحافِظَ عليهِ ، أو يهتَمَّ بهِ .

١٠ ـ هَتَفْتُ بهِ إلى نَصْري ، فَحَنَّتْ إلـيَّ خيـولُ نُصْـرَتِـهِ الحِثـاثُ

ناديتُهُ طالباً إليهِ نُصرتي ، فهبَّتْ إليَّ خيولُهُ السريعةُ التي رَوَّضَها لِغَوثِ ونُصرةِ المُسْتغيثينَ بهِ .

١١ ـ وكَفَّـتْ للغِيـاثِ الـذيـلَ حتَّـى أتـانـي بـالغِيـاثِ ، ولا غِيـاثُ

وشَمَّرَ الفرسانُ أذيالَهمُ استِعداداً للغوثِ ، وأتاني عُبيدُ اللهِ على رأسِهِمْ لإغاثتي ، ولا غوثَ لأحدٍ إلاَّ بهِ .

١٢ ـ تَشَـزَّنَ لـي تَشَـزُّنَ ذي وفـاءٍ بـهِ حَـزُنَـتْ خـلائقُـهُ الـدمـاثُ

تَشَدَّدَ لِمعونتي تَشَدُّدَ الوفيِّ الذي تَصْعُبُ أخلاقُهُ السهلةُ في ساعاتِ الوفاءِ .

١٣ ـ قـدِ اعْتَلَقَـتْ يـدايَ قِـوى زِمـامٍ مُغـارُ الفَتْـلِ ليـسَ لـهُ انتكـاثُ

وقدِ اكتسبَتْ يدايَ مهارةَ وقوةَ أزِمَّةِ الحربِ ، فأحَبَّتْهُ حبًّا ، جعلَهما أشدَّ قوةً وأصلبَ عزيمةً ، لا يَقْرَبُهما النقضُ أبداً .

١٤ ـ وهـل أنـا مُعْلِـقٌ كفِّـي سِـواهُ وإنَّ حبـالَ كُلِّهِـمُ رِثـاثُ ؟

وهل أُعَلِّقُ ، وأربُطُ يدي بيدِ غيرِهِ ، وأنا أرى كلَّ حبلٍ سِوى حبلِهِ رثًّا بالياً ، لا فائدةَ فيه ؟

١٥ ـ عَجَمْتُ الناسَ منْ صُلْبٍ ورَخْوٍ ونُقْـتُ ، وطـالَ فحـصٌ وابتِحـاثُ

خَبَرْتُ الناسَ صُلْبَهُمْ ورَخْوَهُمْ ، وطالَ رَوزي وامتحاني وبحثي فيهم ، وتَعَلَّمْتُ منهمْ حتى أصبحتُ حاذقاً ماهراً في كلِّ شيءٍ .

١٦ ـ فـأدَّى الاختِبـارُ إلـى ذكـورٍ خـلائقُهُـمْ وأنفسُهُـمْ إنـاثُ

وأوصلَني اختبارُهُمْ إلى رؤيةِ رجالٍ ذوي أخلاقٍ وأنفسٍ كأخلاقِ وأنفسِ النساءِ .

١٧ ـ إذا اسْتَمْطَـرْتُهُـمْ قـالَ اختبـاري وعِلْمِـيَ : صَـهْ ، فـإنـكَ لا تُغـاثُ !

فإذا أردْتُ أنْ أطلبَ منهمُ يوماً معونةً قالَ لي اختباري ومعرفتي بهم : اسكُتْ ، فإنهم لا يُغيثونَ أحداً حتى يُغيثوكَ .

١٨ ـ أيُثمِـرُ فـي اللئـامِ لـكَ امتِـداحٌ ؟ أيـزكـو فـي السِّبـاخِ لـكَ احتِـراثُ ؟

ألا تَعْلَمُ أنَّ لئامَ الناسِ ، لا يَعملونَ شيئاً ، يُمْتَدحونَ بهِ ، وأنَّ الأراضيَ المالحةَ ذاتَ النَّزِّ ، لا تُحرَثُ ، ولا تُزرَعُ ، ولا تُنْبِتُ ؟

☆☆ ٢ ـ وقالَ على بحرِ السريعِ في التأسِّي وتعزيةِ نفسِهِ والهجاءِ :

١ ـ لهفي على ما بينَ جَنْبَيَّ منْ مكنونِ علمٍ ، ما لَهُ باحِثُ

يا حُزْنَ نفسي على قلبي وصدري الذي يحفظُ علوماً كثيرةً ، ولا يرى عنها سائلاً .

٢ ـ لهفي على أني غداً مَيِّتٌ عَناً ، وما مني له وارِثُ

ويا أسَى روحي ، إني ، لا محالةَ ، مَيِّتٌ غداً عَناءً وقَهْراً وصَبْراً ، ولا وارثَ لي في علمي ومالي .

٣ ـ يا عُقَدَ السِّحْرِ البابِليِّ هل فيكَ فمٌ إلاَّ فمي نافِثُ ؟

فيا عُقَدَ السِّحْرِ البابِليِّ ، هل لكِ فمٌ ، يَمُجُّ ريقَهُ ، ويَتْفِلُهُ غَيرُ فمي ، يَرْقِي بكِ الساحِرُ ، ويَتْفِلُ ريقَهُ على المسحورِ ؟

٤ ـ الناسُ عنْ أسرارِهِ نُوَّمٌ ليسَ لهمْ منْ نومِهمْ باعِثُ

لقد غَفَلَ ، ونامَ الناسُ عنْ خفايا علومِهِ ومعارفِهِ ، وليسَ لهمْ مَنْ يُنَبِّهُهُمْ ، ويوقِظُهُمْ منْ نومِهمْ وغَفْلتِهِمْ .

٥ ـ يَجِدُّ في التفسيرِ نِحْريرُهُمْ لكنَّهُ في جِدِّهِ عابِثُ

يَجِدُّ ، ويجتَهِدُ في توضيحِهِ أمراً حاذِقُهُمْ ، لكنهُ يأخذُ توضيحَهُ بالهزلِ واللعبِ ، ولا يضعُ الأمورَ في مواضِعِها .

٦ ـ ذئبٌ إذا اسْتَفْسَرْتَهُ آيةً كأنهُ في ثَلَّةٍ عائِثُ

وإذا أردْتَ منهُ أنْ يُفَسِّرَ آيةً وجَدْتَهُ ذئباً ، دخَلَ في جماعةٍ منَ الغنمِ ، يُفسِدُ فيها ليفترسَ ما شاءَ منها .

٧ ـ يَفُكُّ رَصفَ النظمِ منها كما يَنْقُضُ فَتْلَ المَسَدِ الناكِثُ

ويَحُلُّ ترتيبَ وإحكامَ نظمِ الآيةِ كما يُشَعِّثُ الحبلَ المبرومَ الناقضُ .

٨ ـ لَفْظٌ مُؤَدَّاهُ مَدَى هَمِّهِ وأينَ عنهُ الغرضُ الثالثُ ؟

وإنْ أرادَ أنْ يقولَ شيئاً ، فإنَّ كلامَهُ ، لا يَتَعَدَّى حُدودَ لفظِهِ لأنه لا يدري ، ولا يريدُ أنْ يدريَ ما هو الغرضُ الثالثُ ، وأنَّ ذلكَ الغرضَ هو وضعُ الكلامِ في موضعِهِ ، وهو الحكمةُ بعينِها ؟

٩ ـ ذاكَ الذي منْ تراهُ سابقاً فإنهُ عنْ شوطِهِ رائثُ

وهو الذي إنْ تَرَهُ اليومَ في حالٍ ، فإنه لا يتغَيَّرُ ، ولا يُغَيِّرُ حالَهُ ، ثابتٌ في مكانِهِ ،

مبطئٌ ، إذا أرادَ أن يتحرَّكَ ، فلا يصلُ إلى شيءٍ .

☆☆ ٣ ـ وقالَ على بحرِ البسيطِ في الرثاءِ :

١ ـ مُحَمَّدُ بنُ أرسْلانَ الذي رُثِيَتْ معالمُ العِلْمِ والإسلامِ حينَ رُثي

لقد ذُكِرَتْ فواضِلُ العلمِ والإسلامِ حينَ قُبِضَ محمدُ بنُ أرسْلانَ ، وذُكِرَتْ مناقِبُهُ .

٢ ـ ما كنْتَ إلاَّ جميعَ الناسِ منفرداً فكيفَ حلَّ جميعُ الناسِ في جَدَثِ ؟

ولقد جَمَعْتَ في حياتِكَ يا محمدُ الفردُ صفاتِ الناسِ كلِّهِمُ ، فكيفَ وَسِعَ قبرُكَ جميعَ الناسِ حينَ وُضِعْتَ فيه ؟

٣ ـ يا طيبَها تربةً هيلَتْ على جَدَثٍ في بطنِهِ جُثَّةٌ مِنْ أطيبِ الجُثَثِ !

ما أطيبَ التربةَ التي صُبَّتْ على قبرٍ ! دُفِنَتْ فيه جُثَّةٌ مِنْ أحسنِ الجُثَثِ .

٤ ـ كأنما الأصهبُ الداريُّ طينَتُها لم تَدْرِ ما لَطْخَةُ الفحشاءِ والرَّفَثِ

كأنَّ مجبولَ هذه التربةِ وطينَتَها مِسْكُ دارينَ البَحْرانيِّ الأبيضُ الذي تُخالطهُ حمرةٌ والذي يُؤْتَى به منَ الهندِ .

٥ ـ تاللهِ ما حُثِيَ التُّرْبُ المُحَفَّرُ في خَدَّيكَ بل في خُدودِ المَكْرُماتِ حُثِي

واللهِ ما رُفِعَ الترابُ الذي حُفِرَ ، وأُلقِيَ عليكَ في قبرِكَ ، ولكنهُ رُفِعَ عنْ خدودِ الفضائلِ ، فتَركَ فيها خدوشاً كثيرةً أثناءَ ندبِها ونُواحِها إيَّاكَ .

٦ ـ عقائلُ الكُتُبِ اغْبَرَّتْ مفارِقُها وجُلِّلَتْ لِمَمُ الأقلامِ بالشَّعَثِ

فأُمَّهاتُ الكتبِ ، صارَتْ صفحاتُها مُغْبَرَّةً ، وغُطِّيَتْ رؤوسُ الأقلامِ بألوانِ الحبرِ لكثرةِ ما كُتِبَ فيكَ وعنكَ مِنْ مناقبَ ومعالمَ .

٧ ـ وصَنعةُ السِّحْرِ سِحْرِ الشعرِ باقيةٌ عُطْلاً بلا عُقَدٍ غُفْلاً بلا نَفَثِ

وأحسَنُ صنعةٍ في الدنيا صنعةُ الشِّعرِ ، فهي لا تزولُ ، باقيةٌ أبدَ الآبدينَ ، ولو دامَ حبسُها في الخزائنِ ، لا تجدُ مَنْ يُنْشِدُها .

٨ ـ قد كُنْتَ وحدَكَ إبريزاً ، فما وقَعَتْ ـ لَمَّا قُبِضْتَ ـ يَدي إلاَّ على خَبَثِ

لقد كنْتَ شاعراً فَرْداً ، ونظمُكَ ذهَباً خالصاً . فلمَّا قُبِضْتَ ، وتركْتَ الدنيا ، ما وقعَتْ عيني ولا يدي إلاَّ على أَسْوَإِ الشعرِ وأبْخَسِهِ .

٩ ـ وجَدْتُكَ الجدَّ دونَ الناسِ كُلِّهِمُ ولم أجدْ كلَّ مَنْ ألْقى سوى عَبَثِ

وأَلْفَيْتُكَ الرجُلَ العظيمَ فوقَ الناسِ كلِّهِمُ ، ولم أرَ مِنْ كلِّ مَنْ لَقيتُ مِنَ الناسِ إلاَّ الهُزْأةَ

مِنَ الرجالِ الذي يَلْعَبُ ، ويُتلاعَبُ بهِ .

١٠ - فأيُّ فَضْلٍ كبيرٍ فيكَ لم أرَهُ ؟ وأيُّ خُلْقٍ كريمٍ منكَ لم أرِثِ

وأيُّ أمرٍ عظيمٍ ، لم أرَهُ فيكَ ؟ وأيُّ خُلُقٍ حَسَنٍ لم يَبْقَ لي بعدَكَ ؟

١١ - حَبْلُ الهوى بينَنا كانَتْ مريرَتُهُ شَزْراً ، وذلكَ حَبلٌ غيرُ مُنْتَكِثِ

وقد كانَ حَبْلُ الحُبِّ والوُدِّ بينَنا ، وكانَتْ قُوَّتُهُ وطاقَتُهُ مِنْ فَتْلِهِ فتلاً عنِ اليسارِ ، حَبْلاً ، لا يُنْقَضُ بَرْمُهُ .

١٢ - إني وفيٌّ حَفِيٌّ بالصديقِ ، وإنْ طالَتْ بهِ تَحْتَ رَمْسٍ مُدَّةُ اللَّبْثِ

وإني وفيٌّ للصديقِ ، مُبالِغٌ في إكرامِهِ والمُحافظةِ عليهِ ، ولو طالَت مدةُ بقائِهِ في القبرِ .

١٣ - ما لِلَّيالي متى تَبْغِ الإساءَةَ لي تُسْرِعْ ، وإنْ تُرِدِ الإحسانَ لي تَرِثِ ؟

ما بالُ الليالي ، تعاملُني هذه المعاملةَ : إنْ رامتْ أنْ تُسِيءَ إليَّ ، تُسْرِعْ في تنفيذِ مُبْتغاها ، وإنْ أرادَتِ الإحسانَ إليَّ تتباطأْ فيهِ ؟

١٤ - ذُقْتُ الأمَرَّينِ منْ أحْداثِهِنَّ ، ولا أمَرَّ ممَّا ذُقْتُ اليومَ منْ حَدَثِ

لقد أذاقَتْني الأيامُ منْ مصائِبِها الأمَرَّينِ : الشَّرَّ والأمْرَ العظيمَ ، وتُذيقني اليومَ أشدَّ منهما بِمَوتِ محمدِ بنِ أرَسْلانَ وفراقِهِ الأليمِ .

١٥ - يا حَسْرَتا لي على حالٍ وَدِدْتُ لها حالَ الذي وسْطَ ذي لُجٍّ على رَمَثِ

يا حُزْني على حالي الذي أعاني منْ آلامِهِ ما أعاني والذي يُشبه حالَ السابحِ في البحرِ الهائجِ الراكبِ خشباً مضموماً بعضُهُ إلى بعضٍ ، يريدُ النجاةَ ، فلا يظفَرُ بها .

١٦ - بَقيتُ بعدَ وفاةٍ ، لا يَخيسُ لهمْ عهدٌ ، على نَفَرٍ غَدَّارةٍ نُكُثِ

وبَقيتُ بعدَ وفاةِ الذينَ كانوا لا يَنْكُثونَ عهداً ، ولا يَغدُرونَ بأحدٍ ، بينَ ناسٍ غَدَّارينَ أصدقاءَهُمْ ناقضينَ عهودَهُمْ .

١٧ - بَقيتُ بعدَ مَصاليتِ الرجالِ على قومٍ هُمُ نُظَراءُ النِّسْوَةِ الطُّمُثِ

وبَقيتُ بعدَ الرجالِ الشُّجعانِ الأبطالِ بينَ قومٍ ، همْ أشابِهُ النساءِ اللواتي ما زِلْنَ يَحِضْنَ ، لا يَثْبُتْنَ على حالٍ .

١٨ - لم يُعْرَفِ الطِّيبُ منهمْ، لا ولا عَرَفوا ما الطِّيْبُ ؟ تبًّا لتلكَ الأنفسِ الخُبُثِ

ولم يُعْرَفْ عنهمْ يوماً فِعْلٌ حَسَنٌ ، انتشَرَ صيتُهُ الحَسَنُ ، ولا عَرَفوا يوماً ما هو الطِّيبُ ؟ وإني لأدعو عليهم بالهلاكِ ، فأقولُ : هلاكاً لهذهِ الأنفسِ الخبيثةِ اللئيمةِ .

١٩ ـ صاغوا الحُلَى لا العُلاَ زَيناً لأنفسِهِمْ   لـولا الحَيـا قَـرَّطـوا الآذانَ بـالـرُّعُـثِ

أَحَبُّوا المالَ ، وصاغُوا الحُلَى بهِ ، وجعلوهُ زينةً لهمْ ، وكادوا يجعلونَ لآذانِهِمْ أقراطاً ، لكنَّ بَقِيَّةً مِنْ حياءٍ ، منعتْهُمْ مِنْ ذلكَ .

٢٠ ـ لم يَخْلُ مِنْ خَنَثٍ في الطبعِ أرجَلُهُمْ   وكيـفَ يَسْتَبْـرِئُ الخُنْثَى مِـنَ الخَنِـثِ ؟

وأفضلُ الرجالِ فيهمْ ، لا يخلو منَ التَكَسُّرِ والتَّثَنِّي ، وكيف يطأُ الخَنِثُ الخُنْثى ؟

٢١ ـ يَمْشي ببطنٍ ، قدِ انداحَتْ أسافِلُهُ   كـأنـهُ الكلْـبُ ، لا يَنْفَـكُّ مـنْ لَهَـثِ

وهو يَمْشي ببطنٍ ، قد تَرَهَّلَتْ عَضَلاتُ أسافِلِهِ ، ولُهاثٍ كَلُهاثِ الكلْبِ ، لا يَنْقَطِعُ .

* * *

حرف الجيم / ٢٠٢/ بيتٍ

☆☆ ١ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ :

١ ـ خـوادِرُ غُلْـبٌ مـنْ مـآسـرِهـا تَـرْجُ　　يُصَـرِّعُهـا ريـبُ المنـونِ ، فمـا تَـرْجـو

خرجَتْ تلك الأسودُ ذاتُ الأعناقِ العظيمةِ منْ أجَماتِها في جبلٍ بالحجازِ ، أشهرُها المسماةُ تَرْجُ ؛ خَرَجَتْ ، وهي تظنُّ أنها ستعودُ بفرائسَ كثيرةٍ ، فإذا بالموتِ يَطْرَحُها صَرْعى ، ولا تتمكنُ منَ الإستِتارِ أو الهروبِ منهُ .

٢ ـ لـه هجمـاتٌ مـا تقـومُ لهـا القُـوَى　　وأيُّ قـويٍّ ، مـن مبـاطِشِـه ينجـو ؟

إذْ للموتِ غاراتٌ ، لا تَصْمُدُ لها أشَدُّ القُوَى ، وأيُّ قويٍّ شديدٍ ، قد نجا منْ سطوتِهِ وجبروتِهِ ؟

٣ـ وما البرجُ منه ذو العلالي سالمٌ　　ولا استحْرَزَ اللّاؤونَ ، ضَمَّهُمُ البُرْجُ

ولم يسْلَمْ منهُ الحصنُ ذو الغُرفِ العاليةِ ولا الناسُ الذينَ تَوَقَّوا منهُ فيهِ .

٤ ـ يُقالُ : فلانٌ فالِجُ القِدْحِ ، هل لِمَنْ　　بنـاتُ الليـالـي قـد تَيـاسَـرْنَـهُ فَلْـجُ ؟

يقالُ : هذا الرجلُ شجاعٌ قويٌّ ، يَشقُّ نصلَ السهمِ ، وهو موجَّهٌ نحوَهُ ، فهل تستطيعُ مصائبُ الأيامِ أنْ تضربَهُ ، وتَكْسِرَهُ ، وتتقاسَمَ أجزاءَهُ ظافرةً بها ؟

٥ ـ وغازٍ تهاداهُ الملاحمُ ، لم يَبِتْ　　لـهُ ليلـةً إلاَّ علـى صَهْـوةِ سـرجُ

وهذا الغازي دائمُ الغزوِ ، وكأنَّ الحروبَ الشديدةَ ، تجعَلُهُ هديةً ، تُقَدِّمُهُ إلى حروبٍ أخرى ، إذْ لم تَمْضِ عليه ليلةٌ إلا وهو على صهوةِ جوادِهِ ذاهباً إلى غزوةٍ ، أو يُهَيِّئُ نفسَهُ إلى معركةٍ .

٦ ـ تَحَسَّى الدمَ المطلولَ في كلِّ غارةٍ　　وثـارَ لـهُ فـي كـلِّ نـاحيـةٍ هَـرْجُ

وكانَ يظْفَرُ في كلِّ معركةٍ ، ويَتيهُ بفوزِهِ ، وكأنهُ يَشْرَبُ منْ دمِ المقتولِ غَلَبَةً ، وتَهُبُّ لهُ فِتنَةٌ لِتُهَنِّئَهُ ، وتَعْتَزَّ بهِ .

٧ ـ تَصَلَّى بنارِ الحربِ كهلاً ويافعاً　　وفـاضَ ، كـأنَّ الجمـرَ فـي كفِّـهِ ثلـجُ

وقاسَى ما قاسَى منَ الحروبِ وشِدَّتِها شابًا وكهلاً ، وكأنَّ النارَ المُتَّقِدَةَ في كفِّهِ قطعةُ ثلجٍ يَبْتَرِدُ بها إلى أنْ أتى مَلَكُ الموتِ ، وقضَى عليه .

٨ ـ كـأنَّ شهـورَ العـامِ للحـجِّ عنـدَهُ   فَـدَيـدَنُـهُ فـي كُلِّهـا العَـجُّ والثَّـجُّ

وكانتْ شهورُ السنةِ عندَهُ حجًّا ، فلا ينقطعُ في واحدٍ منها عنِ الطَّوَافِ والسَّعْيِ والدعاءِ ، وذبْحِ الهَدْيِ .

٩ ـ ولـم تُلْـفَ إلاَّ مُمْـرَجـاتٍ خيـولُـهُ   ولكـــنَّ أرواحَ الكمـــاةِ لهـــا مَـــرْجُ

ولم تُـرَ خيولُهُ إلاَّ في مَراعٍ خَصْبَةٍ ، ولم تُدْفَنْ جُثَثُ الشهداءِ الذينَ قاتلوا في كاملِ أسلحتِهِمْ إلاَّ في أرضِ المعاركِ تَشريفاً لهمْ .

١٠ ـ مَوالئُ بالركضِ الفُروجَ لِفتكةٍ   بمهجـــةِ فَـــرَّاجٍ ، يُسَـــدُّ بـــهِ الفَـــرْجُ

وكانَ الفرسانُ مَهَرةً في امتطاءِ الجيادِ ، يملؤونَ صهواتِ الخيلِ ، ويندفعونَ للمعاركِ بقلوبٍ قويةٍ ، تريدُ كشفَ همومِ المظلومينَ وسترَ عوراتِهِمْ .

١١ ـ بشنْعـاءَ بَـرَّاضِيَّـةٍ ، حَـلَّ عنـدَهـا   برأسٍ وقلبٍ ، ما يُشَجُّ ، وما يَشْجو

وذهبَ إلى القتالِ بليلةٍ كريهةٍ ، قلَّ فيها الماءُ ، كليالي البَرَّاضِ بنِ قيسٍ الكِنانيِّ الفاتكِ برأسٍ ، لا يُدْمَغُ ، ونفسٍ لا تأسَى لأوجاعِها .

١٢ ـ فكم مِنْ صدورٍ في خُدورٍ يَشُقُّها   مـنَ العـامِـريَّـاتِ التصـارُخُ والنَّشْـجُ

فكم وكم مِنْ صدرٍ من صُدورِ العامِريَّاتِ القابعاتِ في بيوتِهِنَّ ، شَقَّها صُراخُ وبُكاءُ الثكالى والنساءِ اللواتي نَدَبْنَ رجالَهُنَّ الذينَ قُتِلوا في ساحةِ المعركةِ .

١٣ ـ وسِيءَ الأسْوَدُ الفَدْعُ منْ آلِ عامرٍ   وسُـــرَّتْ مـــوالـــي أمِّ عـــامِـــرِ العُـــرْجُ

وأُوذيَ الأسْوَدُ الذي كانَ في قدمِهِ اعْوِجاجٌ من بني عامِرٍ ، وفرحتِ الضِّباعُ أُمَّهاتُ عامرٍ العُرْجِ بكثرةِ القَتْلَى لالتِهامِها .

١٤ ـ تَخَطَّى إلى الفُتَّاكِ منْ حيثُ ، لم يَخَلْ   مُغـــافِـصُ مِقْـدارٌ ، فضـاقَ بـهِ الفَـجُّ

وأسْرَعَ ، فَتجاوزَ الشجعانَ منْ حيثُ لم يُظَنَّ أنهُ يُفاجِئُ ، ويَقْدِرُ حتى ضاقَ بهِ الطريقُ الواسِعُ .

١٥ ـ بِقارِيِّ سهمٍ تحتَ مرفَعِ تُرْسِهِ   إذا شَـكَّ ، لـم يُقْبَـلْ لـه أبـداً حَـجُّ

وهو يحملُ سهماً منسوباً إلى قبيلةِ قارةَ ، يُخْفيهِ تحت مِجَنِّهِ ، إذا أصابَ بِشَكَّتِهِ أحداً لا يبرأُ منها أبداً .

١٦ ـ ومـا المـوتُ إلاَّ حَيَّـةٌ فـاغـرٌ فمـاً   يَمُـجُّ ذُعـافـاً ، ليـسَ يَنْـزِفُـهُ العَـجُّ

وليسَ الموتُ إلاَّ ثُعْبانٌ فاتحٌ فمَهُ ، يَتْفُلُ سُمًّا قاتلاً ، لا يقطَعُهُ الزجْرُ والصياحُ والغبارُ .

١٧ ـ وكلُّ امْرِئ مُسْتَهدَفٌ لِمُجاجةٍ فما لهمْ عنه محيصٌ ، وإن ضَجُّوا

وكلُّ إنسانٍ ، لا بُدَّ أنْ تُصيبَهُ مَجَّةٌ منْ مُجاجاتِ الموتِ ، وليسَ لهُ عنْ ذلكَ مَهْرَبٌ ، وإنْ خافَ ، وصاحَ .

١٨ ـ وما العيشُ إلاَّ سَرْحَةٌ ، قيلَ تحتَها سَيُطْرَدُ عنها القائلونَ ، وإنْ لَجُّوا

وما الحياةُ إلاَّ شجرةٌ ، يُنامُ تحتَ أفياءِ أغصانِها ، ثم يُطرَدُ القائلونَ عنها ، وإنْ خاصموا مَنْ يطردُهُمْ ، ويَمْنَعُهُم عنِ النومِ .

١٩ ـ ويا رُبَّ مَعْفُوِّ الخُطا بينَ قومِهِ طريقُ نجاةٍ مُسْتَوٍ عندهمْ نَهْجُ

وقد نرى الرجلَ ، فَنَتْبَعُ خُطاهُ ، ونجعلُهُ قُدْوةً لنا ، ونَتَّخِذُ طريقهُ هَدَفاً لنا ، ومَنْجًى سهلاً إذا اشْتَدَّ الأمرُ .

٢٠ ـ ولو قرؤوا في اللَّوحِ ما خُطَّ فيهِ منْ بيانِ اعوجاجٍ في طريقتِهِ ، عَجُّوا

ولو تَسَنَّى لهمْ أنْ يَطَّلِعوا على ما سُجِّلَ في اللَّوحِ المحفوظِ منْ أمورٍ غيرِ مستقيمةٍ عنه لَثاروا ، وصاحوا مُستنكِرين ذلكَ .

٢١ ـ وكم خابِطٍ في شُبْهَةٍ ، وهو قائلٌ إلى الحقِّ بالبرهانِ أهدى وأحْتَجُّ

وكم واقعٍ في شُبْهَةٍ والتباسٍ ، يُكابِرُ ، ويقولُ : إني أدعو إلى الحقِّ ، وآتي بالبراهينِ والحججِ ، وأهدي الناسَ بها .

٢٢ ـ وكم منْ أسامٍ ، تزدَهيكَ بحسنِها وصاحبُها فوق السماءِ اسمُهُ سَمْجُ

وكم مِنْ صاحبِ اسْمٍ ، يتفاخَرُ عليكَ ، ويتعاظَمُ بجمالِهِ ، ثم تُفَاجَأُ بِقُبْحِ أفعالِهِ .

٢٣ ـ ويا رُبَّ حَجّاجٍ فداءُ صَرورةٍ وطائفةٍ قالوا : حَجَجْنا ، وما حَجُّوا

وكم منْ رجلٍ يدّعي أنهُ حجَّ ، ولبّى ، وضَحّى ، وهو لم يفكِّرْ بالحجِّ أبداً ، وكم منْ فئةٍ قالَتْ : حَجَجْنا ، وهي لم تَحِجَّ .

٢٤ ـ وكلُّ حَجيجٍ لم يشدُّوا عُراهمْ بتَقْوًى ، فما حَجُّوا ، ولكنهمْ دَجُّوا

وكلُّ حاجٍّ لم يضَعِ الأزرارَ في العُرا بِنِيَّةِ تَقْوَى اللهِ بل بِنِيَّةِ التجارةِ فقط ، فلا يُعَدُّ مِنَ الحجاجِ ، وإنما يُعَدُّ مِنَ التجارِ .

٢٥ ـ تَوَقَّحَ مَنْ زَكَّى إلى الناسِ نفسَهُ وأوقَحُ منهُ مَنْ سَليقتُهُ النَّفْجُ

وقلَّ حياءُ مَنْ مدَحَ نفسَهُ أمامَ الناس ، وأحقَرُ منهُ مَنْ طبعُهُ التَّكَبُّرُ والتَّفاخُرُ .

٢٦ ـ ومُمْتَدَحٍ بالشعرِ ، قد ساءَ سيرةً فشاعرُهُ ، يُثني ، وسيرتُه ، تَهْجُو

وكم منْ ممدوحٍ بقصائدَ كثيرةٍ ، وهو ذو طبيعةٍ سَيِّئةٍ وسِيرةٍ قبيحةٍ ذميمةٍ ، ولا يدري أنَّ صِيتَهُ ، يهجوهُ على الرغمِ مِنْ ثناءِ شاعِرِهِ عليهِ .

٢٧ ـ حشا الدُّرْجَ بالدُّرِّ الشحيحِ ، فما بكى على شُحِّـهِ مـن بعـدِهِ الـدُّرُّ والـدُّرْجُ

وقد ملأَ الوعاءَ الذي يضعُ فيهِ اللآلئَ النادرةَ ، ولما ماتَ لم يبكِهِ اللآلئُ والدُّرْجُ .

٢٨ ـ وليسَ لذي العقلِ اتِّكالٌ على أخٍ وخـالٍ وعَـمٍّ ، إنمـا عَمُّـكَ الخَـرْجُ

والعاقلُ الحكيمُ لا يعتمدُ على أخٍ أو خالٍ أو عمٍّ ، إنّما عمُّهُ ، هو اكتفاؤُهُ بنفسِهِ واعتمادُهُ عليها .

٢٩ ـ ويَحْرُنُ جِدُّ المرءِ بعدَ طِماحِهِ وبعدَ عُبابِ البحرِ ، زاخِرُهُ ، يسجو

ويقفُ اجتهادُ المرءِ إنْ رَكِبَ رأسَهُ ، ومضى على وجهِهِ ، لا يطيعُ مرشداً ، ويَضِلُّ ، فلا يَهتدي ، ويصبحُ كالسفينةِ في وسطِ البحرِ ، تتلاطمُ أمواجُهُ ، فلا تنجو منَ الغرقِ .

٣٠ ـ ومـنْ ثَبَتَـتْ دونَ المطـامعِ نعلُـهُ فـواهـاً لـهُ ، هـاتيـكَ مَـدْحضَـةٌ زَلْـجُ

ومَنْ يقفْ فلا يَتَقَدَّمْ يميناً أو يساراً ، ولا يُحَرِّكْ رجلَهُ في خطوةٍ إلى الأمامِ ، فيا حَسْرَةً عليهِ ، لأنَّ وقوفَهُ ، ليسَ أمراً حسناً أبداً ، إنَّما هو أصلُ الزَّلَلِ والزَّلَقِ والانهيارِ .

٣١ ـ ولا خيرَ في الرأيِ المُلَهْوَجِ ، إنَّما يفـيءُ بخيـرٍ حيـنَ خـالطَـهُ النُّضْـجُ

وليس في الرأيِ الذي لاَ يثبُتُ على شيءٍ ، يتغيَّرُ ، ويَتَبَدَّلُ ، خيرٌ أبداً ، إنّما ينالُ الخيرَ الكثيرَ مَنْ يستفيدُ من آراءِ الآخرينَ الذينَ خالطَتْ أفكارُهُمْ وأعمالُهُم الفضلَ .

٣٢ ـ ولـم يَنْتَفِـعْ إلاَّ بـرأيِ مُحَنَّـكٍ ويُـورثُ مغـصَ الآكـلِ الثَّمَـرُ الفِجُّ

ولم يَسْتَفِدْ إلاَّ برأيٍ حكيمٍ ، لا يأتيهِ الباطلُ منْ جهةٍ ، لأنَّ الثمرَ الفِجَّ ، يُصيبُ آكلَهُ المَغْصُ والمرضُ .

٣٣ ـ ونعمَ الحِمى والمعقِلُ العقلُ إذْ حَمَى لُقَيمـاً ، فلـم تُـزْلِـلْ لـهُ قَـدَمـاً شَـرْجُ

ونعمَ ما يحتمي المرءُ به وما يحميه ؛ العقلُ ، لأنه حفظَ لُقَيمَ بْنَ لُقمانَ ، فلم تُزْلِقْ قدمَهُ السُّنَّةُ التي نصحَهُ بها أبوهُ.

٣٤ ـ منَ الجامعِ الحبرِ العلومُ فوائضٌ مِـنَ الأخضـرِ العجـاجِ تَنْشَعِـبُ الخُلْـجُ

مِنَ العالمِ الصالحِ الجامعِ الحافظِ العلومُ الكثيرةُ ، ومنَ البحرِ الأخضرِ ذي الأَمواجِ الصـاخبةِ ، تتشكَّلُ الخُلْجانُ .

٣٥ ـ ولولا تنافي الفَضْلِ والنقْصِ لاسْتَوَتْ لِخـائِضِهـا الأوشـالُ فـي البحـرِ واللُّجِّ

ولولا وجودُ الخلافِ بينَ الزيادةِ والنقصِ لَتَساوتِ الأضدادُ ، ولتماثلَ للداخلِ في البحرِ الماءُ القليلُ على الشاطئِ والأمواجُ العاتيةُ .

٣٦ ـ وكانَ النهارُ الطَّلْقُ يُشْرِقُ ضَوؤُهُ سـواءٌ وليـلٌ جُنْـحُ ظلمـائِـهِ يـدجـو

ولَتشابَهَ ضوءُ النهارِ المشرِقُ الضاحكُ والليلُ المظلمُ بذهابِ نورِ النهارِ وإقبالِ جانبِ الظَّلامِ .

٣٧ ـ لأَمرٍ تَسَدَّى لَهْذَمُ الرمحِ رأسَهُ وأُخِّـرَ مُنْحَطًّـا إلـى الـذنَـبِ الـزُّجُّ

لأَمرٍ جَلَلٍ عظيمٍ علا ، وارْتفعَ سِنُّ الرمحِ القاطعُ ، وتأخَّرتْ هابطةً إلى الأسفلِ نصولُ السهامِ .

٣٨ ـ ولم تَزَلِ المُدَّاحُ ، تَمْدَحُ ضِلَّةً بـأبلَـجَ ، مَـدْحٌ ـ لا أبـا لـكَ ـ مُعْـوَجُّ

وما زالَ المادحونَ ، لا أبا لك مذمومٌ ، يمدحونَ الناسَ مدحَ ضلالةٍ لا مدحَ هدايةٍ ورشادٍ لأنهمْ ، يَمْدَحونَهُمْ بما ليسَ فيهمْ ، ويكونُ مَدْحُهُمْ حينئذٍ مَدْحاً مُعْوَجًّا غيرَ مستقيمٍ .

٣٩ ـ أأَقْرَنَ كانَ المرءُ أم كانَ أبلجَا ؟ سَـواسِيـةٌ : قـرنُ الأنـاسـيِّ والبُلْـجُ

أكانَ هذا الرجلُ ذا حاجبَينِ مُتقاربَينِ أم مُتباعدَينِ ؟ هما سواءٌ : الأَقْرَنُ والأَبْلَجُ ، لا فَرْقَ بينهما ، لأنَّ قيمةَ المرءِ بِخُلُقِهِ لا بِخَلْقِهِ .

٤٠ ـ ألا إنَّ حقَّ المدحِ بالبِرِّ والتُّقى هو المدحُ حقًّا ، ليسَ في صِرفِهِ مَزْجُ

وإنَّ لكلِّ أمرٍ حقًّا وحَدًّا ، فَحَدُّ المدحِ الصدقُ وطاعةُ اللهِ ، ونَقاؤُهُ منَ الشُّبُهاتِ وخَلْطِ الحقيقةِ بالكذبِ .

٤١ ـ ومِـنْ فِتَـنِ الـدنيـا عيـونُ جـآذِرٍ محـاجِـرُهـا نُعْـجٌ ، نـواظِـرُهـا دُعْـجُ

وفي الحياةِ الدنيا فتنٌ كثيرةٌ ، نُخْتَبَرُ بها ، منها عيونُ الفتياتِ التي تشبهُ عيونَ البقرِ الوحشيَّةِ ، والتي تملأُ أحضانَها باسودادِها الشديدِ وابيضاضِها الشديدِ أيضاً .

٤٢ ـ فذو اللُّبِّ منْ لم تَغْذُهُ رضْعَةُ الهوى ولـم يُصْبِـهِ دَلٌّ ، ولـم يُلْهِـهِ غَنَـجُ

فذو العقلِ هو الذي لم يَنْمُ بِغِذَى الحُبِّ وفِتْنَتِهِ ، ولم يَدْعُهُ داعي الشبابِ ، ولم يُمِلْهُ عنِ الجدِّ تَشَكُّلُ الفتاةِ .

٤٣ ـ وأُبَّهَةُ المُلْكِ العواطفُ واللُّهَى وآيينُـهُ ، لا الطبـلُ والبـوقُ والصَّنْـجُ

وعظمةُ المُلْكِ عواطفُ الحاكمِ وحبُّهُ الخالصُ شعبَهُ وأُعطياتُهُ وقوانينُهُ المُناسبةُ ، وليسَتْ في ضربِ الطبولِ ونفخِ الأبواقِ وضربِ الصَّنْجِ .

٤٤ ـ وحَرْبٌ تُعِزُّ الدينَ والمسلمينَ، لا حِرابٌ، تُزَجِّيها الدَّيالِمُ والزَّنْجُ

وحَرْبٌ شديدةٌ تُعِزُّ، وتُمَجِّدُ الإسلامَ والمسلمينَ، وليسَتْ باستعمالِ آلاتٍ تَعْرِضُها العُجْمُ والزنوجُ.

٤٥ ـ بِمَصَّةِ حجَّامٍ وغزلةِ أيِّمٍ لِديباجةِ السلطانِ، يأتلِفُ النَّسْجُ

ويقومُ، ويَكْتَمِلُ نسيجُ سلطانِ المُلْكِ بأعمالِ أفرادِ الرعيةِ الأَطِبّاءِ والصناع؛ فالطبيبُ يداوي المريضَ بالحجامةِ، والرجالُ والنِّساءُ الذين فقدوا أزواجَهُمْ، يُقدمونَ الخيوطَ اللازمةَ لذلكَ النسيجِ.

٤٦ ـ وما شئتَ منْ غَشْمٍ وهَشْمِ جماجمٍ إلى أنْ يُوَفَّى في خزائِنِهِ الخَرْجُ

وبإقامةِ الحدودِ على الظَّلَمةِ وتكسيرِ جماجِمِهِمْ حتى توضعَ الأموالُ في خزائنِ بيوتِ المالِ، وتُصرَفَ لِمصالحِ المسلمينَ.

٤٧ ـ فويلٌ لهُ مِنْ سَخْطَةِ المَلِكِ الذي لِسَخْطَتِهِ سَبْعُ السمواتِ تَرتَجُّ

فلَهُ العذابُ والعقابُ منْ عِقابِ اللهِ، عزَّ، وجلَّ، الذي لِغَضْبَتِهِ تضطرِبُ السمواتُ السبعُ العاليةُ.

٤٨ ـ وترتَجِفُ الأطوادُ خِيفةَ بَطشِهِ ويضطربُ البحرُ المحيطُ، ويَلْتَجُّ

وتهتزُّ الجبالُ خوفَ شِدَّتِهِ وسطوتِهِ، ويموجُ البحرُ المحيطُ بالبَرِّ، ويَرتفِعُ موجُهُ عليهِ.

٤٩ ـ أما يَشْعُرُ السلطانُ عِزَّةَ ربِّهِ وذِلَّتَهُ، إنْ مَسَّ أمعاءَهُ سَحْجُ؟

ألا يدري السلطانُ أفضالَ ربِّهِ وحالَهُ الذليلةَ إنْ أصابَ أمعاءَهُ ما يَقْشُرُها؟

٥٠ ـ فَمَلْمَلَهُ ظهراً لبطنٍ، فلم يُبَلْ بأنْ يَبْذُلَ الدنيا لِمَنْفَعَةٍ يرجو

ويَجْعَلُهُ يَتَقَلَّبُ ألماً ظهراً لبطنٍ، ويرجو أنْ يتخلَّصَ منْ آلامِهِ ببذلِ ما يملِكُ في دنياهُ.

٥١ ـ هو المَلِكُ الحقُّ الذي المُلْكُ ملكُهُ وما مُلْكُ عبدٍ، هَمُّهُ البطنُ والفَرْجُ

فلِلَّهِ المَلِكِ الحقِّ مُلْكُ الدنيا والآخرةِ، وليسَ لِعَبْدٍ، لا يكترثُ إلاَّ بما يَمْلأُ بطنَهُ، ويضمنُ نسلَهُ، مُلْكٌ.

☆☆ ٢ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في مدحِ الخليفةِ العباسيِّ المستظهرِ باللهِ:

١ ـ ألا أيُّها الركبُ الحجازِيُّ عَرِّجوا على ضوءِ نارٍ بالعقيقِ، تُؤَجَّجُ

ألا أيُّها المسافرونَ الآتونَ منَ الحجازِ، مَيِّلوا قافِلَتَكُمْ إلى العقيقِ، واتَّجِهوا إلى المدينةِ مُسْتَنيرينَ بالنارِ المتوقِّدةِ.

٢ ـ لقد رَفَعوها بالغَضَى غيرَ أنها بِعَرْفِ اليَلَنْجوجِ الرطيبِ تَأَرَّجُ

لقد أوقدوها بخَشَبِ نباتِ الغَضى الصُّلْبِ ذي الجمرِ الذي لا ينطفئُ سريعاً وذي الرائحةِ الطَّيِّبِةِ التي تشبهُ رائحةَ اليَلَنْجوجِ الرطيبِ المنتشرةَ هنا وهناكَ .

٣ ـ وأقسِمُ لولا طيبُ مَوقدِها لَما تَوَهَّجَ طيباً جَمْرُها المُتَوَهِّجُ

وواللهِ لولا حُسْنُ المكانِ الذي تَشْتعلُ فيه النارُ لَما نَشَرَ جَمْرُها المُتَوَقِّدُ نوافِحَ اشتِعالِها .

٤ ـ لَدَيها وجوهٌ كادَ يمحو شرارَها سَناها كما يَمحو النجومَ التَبَلُّجُ

ويرى الناظرُ إليها أشكالاً وشَراراً ، تَتداخَلُ في ثنايا أنوارِها كما يتداخَلُ إشراقُ الصبحِ في سَنى النجومِ .

٥ ـ وجوهُ بناتِ البَدْوِ كلِّ صَقيلةٍ بغيرِ صِقالٍ ، ما دَرَتْ ما التَّبَرُّجُ

وتشبهُ أشكالُها وجوهَ البَدْوِياتِ المَجْلُوَّاتِ يومَ الزفافِ بغيرِ زينةٍ لأنَّهنَّ ، لا يَعْرِفْنَ التَّزَيُّنَ .

٦ ـ لها مَبْسَمٌ عذبُ المَراشِفِ يَعْتَزي إليهِ ، فَيَزْهو الأُقْحُوانُ المُفَلَّجُ

ولكلِّ واحدةٍ منهنَّ ثَغْرٌ يدعو الناظرَ إليه لامتِصاصِهِ ، فتزدادُ كِبْراً وتيهاً زهورُ الأقحوانِ التي تفتَّحَتْ ، ونشرَتْ طِيبَها .

٧ ـ وكالخوطِ ما يجري عليهِ وِشاحُها وكالدِّعْصِ ما في حِقْوِها يَتَرَجْرَجُ

وقَدٌّ كالغُصْنِ ، يَميسُ عليه خِمارُها ، أو كرملِ التَّلِّ الصغيرِ المضطربِ فوقَ كَشْحِها اللَّيِّنِ .

٨ ـ دَعَتْني إلى الوصلِ الدُّمَى ، غيرَ أنني حَماني جوابَ الداعياتِ التَّحَرُّجُ

وقد طلبَتْ مني الوصلَ هذه النساءُ اللواتي تشبهُ الدُّمى ، فصانَني عنْ ذلكَ خوفُ الوقوعِ في الإثمِ .

٩ ـ ونفسٌ جَسيماتُ المعَالي ، يَشُقْنَها إذا غَزِلٌ ، شاقَتْهُ خُودٌ وهَودَجُ

ونفسي العزيزةُ التي تسمو إلى المعالي والأمجادِ ، وتَعِفُّ إذا أثارَتْهُ النساءُ الحسانُ ، وهنَّ في مراكِبِهنَّ .

١٠ ـ لَها همَمٌ ، لو أنهنَّ كواكبٌ لما وَسِعَتْ تلكَ الكواكبَ أبرُجُ

ولها رَغباتٌ جِسامٌ ، لو قِيسَتْ بعظمةِ الكواكِبِ لما اتَّسَعَتْ أبراجُ الكواكبِ لها .

١١ ـ وخَيَّالةٌ منْ عامرٍ ، تَرتَمي بهمْ إلى الرَّوعِ جُرْدٌ ، يَدَّعيهنَّ أعوجُ

وصاحبُ أفراسٍ منْ بني عامرٍ ، يَذهبُ إليهمْ ، ويُشارِكُهُمْ في الذهاب إلى الحربِ ، وهم يمتطونَ جياداً رقيقةَ الشعرِ قصيرَتَهُ ، تُنْسَبُ إلى فُرُسِ بني هلالِ المُسَمَّياتِ الأعْوَجياتِ .

١٢ ـ نشأْنَ على خَوضِ الغمارِ، فلم تَكُنْ لِغيـرِ اقتِحـامِ المَـأزِقِ الضَّنْـكِ تُسْـرَجُ

عاشَتْ في شِدَّةِ الحروبِ حتى إنها لم تَكُنْ لِتوضعَ عليها السروجُ لغيرِ دخولِ المَعاركِ الصَّعْبَةِ .

١٣ ـ وما صَدَمَتْ منها الشكائمُ منهلاً سوى مَنْهَلٍ ، بـالصَّيِّبِ الـوَرْدِ يُمْزَجُ

وما ذَهبَتْ إلاَّ لِمَوردٍ ، ارْتَوتْ حديداتُ لُجُمِ فُرُسِهِ بدماءِ القَتْلَى .

١٤ ـ عليها كُماةٌ ، كلُّ منْ سَنَحَتْ لهُ يقــولُ : نَعــامٌ بــالصقــورِ تَهَمْلَـجُ

وامتطَى الجيادَ فُرسانٌ شُجْعانٌ ، لبسوا أسلحتَهُمْ ؛ يقولُ كلُّ واحدٍ منهمْ لِمَنْ عَرَضَ لهُ : أهلاً بالصقورِ شديدي البأسِ والنظرِ التي سأغلِبُها ، وستصيرُ لي مُذَلَّلَةً مُنقادةً .

١٥ ـ إذا سَمِعوا صوتَ الصريخِ تهافَتوا علـى الغـوثِ منهـم حـاسرٌ ومُـدَجَّـجُ

إذا سَمِعوا صوتَ مُسْتَغيثٍ أسرعوا إليهِ ، وتتابعوا إلى إغاثتهِ ، وكانَ منهمْ مُظهِرٌ سلاحَهُ وخافٍ إيّاهُ .

١٦ ـ طلبتُ بهمْ حَقًّا ، زواهُ إلى السُّهَى عنِ الفرقَدَينِ الدهْرُ ، والدهْرُ أهوجُ

وكنتُ قد أردْتُ بذهابي بهمْ إلى المعركةِ أنْ أَرُدَّ حَقِّي الذي أبعدَهُ عني الدهرُ الأحمقُ ، وجَعَلَهُ قريباً إلى الكواكبِ منْ بناتِ نعشٍ وبعيداً عنِ الفرقَدَينِ اللَّذينِ ، يُهْتَدى بهما .

١٧ ـ وقارَعْتُ عنْ دينٍ ، حَماهُ محمدٌ ويحميـهِ مَـنْ سِـرُّ الخَـلائـفِ أبْلَـجُ

ودافَعْتُ عنِ الدينِ الذي صانَهُ محمدٌ ﷺ ويَحْفَظُهُ مَنْ هو أفضلُ الخُلفاءِ نقاوَةَ قلبٍ وطلاقةَ وجهٍ .

١٨ ـ سَمَتْ دوحةُ العباسِ منهُ بِشُعْبةٍ يَفـيءُ لهـا ظِـلٌّ علـى الخَلْـقِ سَجْسَـجُ

وارتَفعَتْ شَجَرةُ بني العباسِ منْ عِزِّهِ بطائفةٍ ، يَسْتَظِلُّ بها الناسُ ، فلا يُصيبُهُمْ فيها حرٌّ ولا بردٌ .

١٩ ـ ويجني ثماراً ، هُنَّ عَدْلٌ ورأفةٌ وبأسٌ وجودٌ ، عندَهُ البؤسُ ، يُفْرَجُ

ويقطفُ ثماراً ، وينالُ أفضالاً ؛ هُنَّ عدْلٌ ورحمةٌ وشدةٌ وكرَمٌ ، تُكْشَفُ عندَهُ كلُّ شِدَّةٍ .

٢٠ ـ إذا العارضُ المُسْتَظْهِرِيُّ تألَّقَتْ بـوارِقُـهُ اسْتَحْيَـى الغَمـامُ المُثَجَّـجُ

إذا رأى الناسُ الغيمَ المُتَّجِهَ منْ عندِ الخليفةِ المُسْتَظهِرِ باللهِ العباسيِّ ، وقدِ التَمَعَتْ بروقُهُ ، اطمأنُّوا إلى مطرِهِ الغزيرِ الذي يَخْجَلُ منهُ السحابُ المَلآنُ بماءِ المطرِ .

٢١ ـ قضيبُ رسولِ اللهِ في يدِ قائمٍ بقَبْضَتِهِ يَبْهَى القضيبُ ويَبْهُجُ

وإنَّ عصا رسولِ الله ﷺ بيدِ الخليفةِ المُستظهِرِ باللهِ قائمةٌ بقبضتِهِ ، يشيرُ بها إلى ما يريدُهُ ، فَتُسَرُّ بذلك العصا ، وتفتخِرُ لأنها بيدٍ أمينةٍ على شرعِ اللهِ وسعادةِ الرعيةِ .

٢٢ ـ ولولا تَلَظِّي بأسِهِ واضطرامُهُ لأبصَرْتَ نوراً منْ نواحيهِ يَخْرُجُ

ولولا أنَّ تَلَهُّبَ شدتِهِ واتِّقادَها وتَحَقُّقَ أوامِرِهِ ونواهيهِ لَرأيتَ ضياءَ نيرانِهِ يَخرجُ مِنْ أطرافِهِ ومَسامِّهِ .

٢٣ ـ وبُرْدُ رسولِ اللهِ كسوةُ مَنْ لَهُ بأيدي العُلا وَشْيُ الخلافةِ يُنسَجُ

وكانتْ بُرْدَةُ رسولِ اللهِ كساءَ الذي نسَجَ الخِلافةَ بأيدي الأمجادِ ، وزيَّنَها .

٢٤ ـ لهُ حُلَلٌ ؛ فالبُرْدُ أَلْصَقُها به ومِنْ فوقِهِ ثوبُ الثناءِ المُدَمَّجُ

وكانَتْ له أردِيَةٌ كثيرةٌ ، ألصقُها بجسمِهِ البُرْدُ ، وأَعلاها حُلَّةُ الثناءِ المُلْتَفِّ بها .

٢٥ ـ مناهِجُ سُبْلِ الخيرِ شَتَّى ، ولا يُرَى كمُلْكِ بني العباسِ للخيرِ مَنْهَجُ

وطُرُقُ الخيرِ كثيرةٌ ، لكنَّ طُرُقَ خُلفاءِ بني العباسِ إلى الخيرِ مختلفةٌ عنْ طرقِ المُلوكِ الآخرينَ .

٢٦ ـ قَفِيَّةُ أعمامِ النَّبيِّ أبوهُمُ فمنهُمْ ولاةُ الأمرِ للصدرِ أثلجُ

فأبوهُمْ خَلَفُ أعمامِ الرسولِ ﷺ وكانَ منهُمْ قضاةُ أمورِ المسلمينَ الذينَ سُرُّوا ، وسَعِدوا بينَ ظَهرانيهِمْ .

٢٧ ـ إذا صاحَ بالأنصارِ صاحبُ جيشِهِمْ فإنَّ جميعَ الناسِ أَوسٌ وخَزْرَجُ

فإذا ما نادى قائدُ جيشِهِمْ رجالَ الأنصارِ رَدَّ جميعُ الناسِ عليهِ ، وكانوا له أنصاراً ومهاجرينَ أَوساً وَخَزْرَجاً .

٢٨ ـ وكم دارَ في رأسِ المُتَوَّجِ نَخْوَةٌ فأمسى ، ورأسُ الرمحِ منه مُتَوَّجُ

وكم تاهَتْ في رأسِ الخليفةِ المُكَلَّلِ بتاجِ المُلْكِ زَهْوَةٌ ، فباتَ ، ورأسُ رُمْحِهِ مُزَيَّنٌ بإكليلِ النَصرِ على أعدائِهِ .

٢٩ ـ وكانَ الْتَوَى رُكْنُ الإمامةِ قبلَهُمْ فلما تَوَلَّوها استقامَ المُعَوَّجُ

وقد مَرَّ زمانٌ قبلَهُمْ ، وأصلُ إمامةِ المسلمينَ قد مالَ ، واعْوَجَّ ، فلمّا أصبحوا الولاةَ

القائمينَ عليها رَدُّوه عنِ الإعوجاجِ ، وصَيَّروهُ مُسْتَوِياً .

٣٠ ـ أقامَتْ بلا حقٍّ ثَمانينَ حِجَّةً يُعالِجُها مِنْ نسلِ مروانَ أعْلَجُ

قد حكمَ نَسْلَ مروانَ بني أُمَيَّةَ المسلمينَ العلوجُ العجمُ دونَ حقٍّ ثَمانينَ حِجَّةً .

٣١ ـ فلما استُجيبَتْ دعوةُ الحقِّ أقْبَلَتْ إلى خيرِ مَنْ خيفوا مُحِقِّينَ أو رُجُوا

ودعا الناسُ اللهَ ـ عَزَّ ، وجَلَّ ـ دعوةَ الحقِّ للخلاصِ والنجاةِ ، واستجابَ اللهُ تعالى تلك الدعوةَ ، وجاءَ إلى خِلافةِ المسلمينَ وإمامتِهِمْ وخيرِهمْ مَنْ همْ ذوو بأسٍ شديدٍ وحقٍّ ، مَرْجُوُّونَ للحَقِّ والخيرِ .

٣٢ ـ فَهَشَّتْ إليهِمْ كالتي طالَ حَمْدُها على أنَّها في قومِها تتزوَّجُ

فَسُرَّتِ الخلافةُ بهم ، ودخَلَ السرورُ قلوبَهُمْ ، وحَمِدوا اللهَ ـ عَزَّ ، وجَلَّ ـ على أنهمْ سيتَزَوَّجونَ فَتَياتِ قومِهِم ، ويُزَوِّجونَ فَتَياتِهم مِنْ أبناءِ قومِهِمْ .

٣٣ ـ إليكَ أمينَ اللهِ سافرَ منطقي فَطوبى لهُ مِنْ مُدْلِجٍ حينَ يُدْلِجُ

فإليكَ يا خليفةَ المسلمينَ ذهَبَ قولي وقصيدي في مدحِكَ ، ويا حُسْنَى لهُ منْ سائرٍ مِنْ أوَّلِ الليل أو آخِرِهِ إليكَ .

٣٤ ـ سَرَى يَخْبِطُ الظلماتِ نحوَ مواقفٍ بها قِدْحُ منْ يرجو السعادةَ ، يَفْلُجُ

وكانَ قد سارَ يضربُ الظلماتِ نحوَ مواقفَ ، بها تُضْرَبُ الأقداحُ لِيُعْلَمَ مَنْ يفوزُ بما يرجو منَ السعادةِ .

٣٥ ـ مواقفُ مِنْ أشرافِها في عُلُوِّها إلى سَمْكِها العَيُّوقُ في الدهرِ يَعْرُجُ

وكانتْ تلكَ المواقفُ منْ أفضلِ وأعظمِ المواقفِ في العلوِّ إلى أن وصلَتْ إلى أعلى برجٍ في السماءِ حيث العَيُّوقُ النجمُ الأحمرُ الذي لا يتقدمُهُ ، ولا يرتقي إليه ، نجمٌ آخرُ .

٣٦ ـ هو المَنطقُ الجَزْلُ الذي قَذَفَتْ بهِ قريحةُ فحلٍ ، بَحْرُهُ مُتَمَوِّجُ

وهو الرجلُ القويُّ ذو الرأيِ والعقلِ السليمِ واللفظِ المَتينِ المُحْكَمِ الذي أطلَقَهُ طَبْعُ إنسانٍ كاملِ الرجولةِ عالمٍ بشتَّى العلومِ التي تشبهُ أمواجَ البحرِ .

٣٧ ـ إذا استعرضَ النقادُ نَظْمَ سُموطِهِ قَضَوا أنَّ منظومَ الفُحولةِ بَهْرَجُ

وإذا قابلَ النقادُ نظمَ قصائدِهِ التي تشبهُ نظمَ قلائدِ اللؤلؤِ رأَوا ، فَحَكَموا أنَّ نظمَ فحولةِ الشعراءِ ، فيه خَلْطٌ وضعفٌ .

٣٨ ـ ولم تَطْرقِ الآذانَ مثلي غريبةٌ ولا كانَ بالأبصارِ مثلي ، يُحْدَجُ

ولم تَسْمَعِ الآذانُ ألفاظاً نادرةً مثلَ ألفاظي ، ولا رأى الناسُ رجلًا ، يُحَدِّقونَ إليه أبصارَهُمْ مثلي .

٣٩ ـ بِخَارزمَ في بعضِ القُرى لِيَ مَولِدٌ وقـولـي ، لـهُ فـي سُـرَّةِ البَـدْوِ مُنْتِـجُ

وكانَ مولدِي ومسقطُ رأسي بِخَوارزمَ في إحدى قُرى خَوارزمَ ، وكانَتْ لغتي وأقوالي قد نشأتْ في قلبِ الباديةِ ، فأبدعَتْ في نِتاجِها .

٤٠ ـ ومـا زلـتُ منسـوبـاً إلـى عَصَبِيَّـةٍ لِـزُهْـرِ بنـي العبـاسِ ، والحـقُّ أبلَـجُ

وكنتُ ، وما زلْتُ مُنْتَسِباً إلى أسرةٍ ذاتِ أصولٍ قويَّةٍ مشرقةٍ إلى بني العباسِ ، والحقُّ أبيضُ وأوضأُ .

٤١ ـ فهـل ثَمَـرٌ أجنيـهِ مـنْ أنَّ لهجتـي بِمَدحِ بني العباسِ مُذْ كنتُ تَلْهَجُ ؟

فهل هناكَ ثَمَرٌ أنالُهُ خيرٌ منْ أنَّ قلبي قد تَعَلَّقَ بحبِّ بني العباسِ مُذْ عرفْتُ أنَّهُم عصبتي ، ولساني مُثابرٌ على مدحِهِمْ والثناءِ عليهِمْ ؟

٤٢ ـ وإنْ كانَ لي في بعضِ علياءَ حاجةٌ فـإنـي إلـى العليـاءِ منهـمْ لأَحْـوَجُ

وإنْ كنتُ في حاجةٍ شديدةٍ إلى قَدْرٍ مِنْ علياءَ ، فإني إلى ذكرِ أمجادِهِمْ لأَشَدُّ حاجةً .

☆☆ ٣ ـ وقالَ على بحرِ البسيطِ في الحكمةِ (أزهار الرياض ٣/ ٢٨٦) .

١ ـ الخوضُ في دولِ الدنيا يَلِجُّ بكمْ كـأنَّهـا لُجَـجٌ خَـوَّاضُهـا لَجِـجُ

إنَّ أحوالَ الدنيا كأمواجِ البحرِ المُتلاطمةِ ، تَشتَدُّ على الداخلِ في غِمارِها ، وتجعَلُهُ ، يتردَّدُ في الكلامِ دونَ أنْ يُبَيِّنَهُ .

٢ ـ كم خَلَّصَتْ لُجَجُ البحرِ الرجالَ ، وما أَقَـلَّ مَـنْ خَلَّصَتْـهُ هـذِهِ اللُّجَـجُ

وكثيراً ما ساعَدَتْ أمواجُ البحرِ الرجالَ ، ونَجَّتْهُمْ منَ الغرقِ ، وقَلَّ ما أنقذَتِ الدنيا منَ الناسِ منْ أحوالِها ومصائبِها .

☆☆ ٤ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في النصحِ :

١ ـ أخوكَ الذي يهوي إليكَ برجلهِ هَـوًى ، هـو فـي أحشـائِـهِ مُتخـالِـجُ

أخوكَ الحقُّ ، هو الذي يُسرعُ إليكَ راجلًا مُحِبًّا صادقاً ، وفي أعماقِهِ الاِضطِرابُ لشأنِكَ والاِستِعدادُ لِغَوثِكَ .

٢ ـ وليسَ أخوكَ الدائمَ الهجرَ والنَّوَى إذا لـم تُقَـرِّبْـهُ إليـكَ الحـوائـجُ

وليسَ أخوكَ الذي دامَ هجرُهُ إياكَ وابتعادُهُ عنكَ إذا لم تكنْ به حاجةٌ إليكَ .

☆☆ ٥ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في المدحِ :

١ ـ إنَّ المَليحــةَ بَكَّـرَتْ أحــداجُهــا فــاهتــاجَ مـنْ حُـرَقِ الهـوى مُهْتـاجُهـا

إنَّ الفتاةَ الحسناءَ قد تَقَدَّمَتْ مراكِبُها ، فثارَ قلبُ مُحِبِّها ، واضطربَ مِنْ لوعاتِ الهَوَى خوفَ الرحيلِ والفراقِ .

٢ ـ فكأنَّ عيني ، وهي كالدَّم دمعُها كـأسٌ مـنَ الصهبـاءِ ، قَـلَّ مِـزاجُهـا

وانْهارَ الدمعُ منْ عيني حتى صارَ منْ حرارتِهِ دماً ، وصارَ مَحْجَرُها كأساً مَلأَى خَمْراً صِرْفاً أو قليلَ المَزْجِ .

٣ ـ قامَتْ تُوَدِّعُ ، والنِّقابُ مُضاعفٌ لِيغيــبَ تحــت نِقــابِهــا إبْهــاجُهــا

ولمّا قامَتْ تُوَدِّعُ صَوَيحباتِها كانَتْ ترتدي إزارَينِ لِتُخْفِيَ تحتَهما حسنَها

٤ ـ وكشُعْلَـةِ المِصبـاحِ غُـرَّةُ وَجْهِهـا ونِقــابُهــا مِشْكــاتُهــا وزجــاجُهــا

إذْ كانَ بياضُ وجهِها كضوءِ المِصباحِ ، وكانَ نِقابُها كَكُوَّةِ المِصباحِ ، ولألاءُ عَينَيها كنصلِ السهمِ ؛ يصونُهُ الأولُ ، ويدافعُ الثاني عنهُ .

٥ ـ قـولا لهـا : أنتـمْ علـيَّ أَشِحَّـةٌ والنفسُ قـد عَظُمَـتْ إليكـمْ حـاجُهـا

ويا صاحبيَّ قولا لها : إنكمْ تَبْخلونَ عليَّ بِوُدِّكمْ ، وقد عَظُمَتْ حاجَةُ نفسي إليكم .

٦ ـ ما رَشْحُ وُصْلَتِكُمْ بِمَرْجُوٍّ ، ولا كبـدي بِمُطْفِـئَ حَـرِّهـا ثَجّـاجُهـا

وما عطاءُ وِدادِكمْ بِمَأمولٍ ، ولا قلبي ، يُبَرِّدُ حَرَّهُ سيلُ ذلكَ الودادِ .

٧ ـ أنـا مـنْ عتـابِكِ واقـفٌ فـي ظلمـةٍ ورضــاكِ عنــي إنْ رَضيـتِ سِـراجُهـا

فأنا إنْ كانَ لومُكِ قائماً عليَّ فإني أقفُ في ظلمةٍ وحَيرةٍ . وإنْ حَلَّ رضاكِ عني فإنَّ الظلمةَ والحَيرةَ ، تصيرُ نوراً ، أهتدي بهِ ، وراحةً ، أسعدُ بها .

٨ ـ إنْ تُعْتِبي رَحُبَتْ شِعابُ الأرضِ لي وإنْ تَعْتِبــي ضــاقَـتْ علـيَّ فِجـاجُهـا

وإنْ تَقْبَلي عُذري ، وتَرْضَي عني فإنَّ طُرُقَ الأرضِ الضَّيِّقَةَ ، تصيرُ رحبةً واسعةً لي ، وإن لم ترضَي بعذري ، وتَبْقَي على لومي ، تَضِقْ عليَّ الطُّرُقُ الواسعةُ .

٩ ـ وعـلاجُ أشجـانـي إليـكِ وحـالتـي أكْفَـى الكُفـاةِ إلـى يَـديـهِ عـلاجُهـا

ومُداواةُ أحزاني ، لا تكونُ إلاَّ بكِ ، أمَّا شأني وأمري فعلى وإلى اللهِ ـ عَزَّ ، وجَلَّ ـ أكفَلِ الكُفَّلِ مُداواتُهُ .

١٠ ـ سَمّـاهُ كـلُّ النـاسِ كَعْبـةَ سُـؤْدُدٍ أهــلُ الحــوائـجِ منهـمْ حُجّــاجُهــا

وقد سَمَّى الناسُ مُنْتَجَبَ الملوكِ شَرَفَ المجدِ لأنَّهمُ يجدونَ لديهِ تحقيقَ حاجاتِهِم ، فكانوا يذهبونَ إليهِ في أوقاتٍ مُعَيَّنةٍ ، وكأنَّهمْ يُؤَدُّونَ فريضةَ الحجِّ لِينالوا أُعطياتِهِ .

١١ ـ معَجَتْ ركابُهُمْ إليهِ ، فلم تكنْ إلاَّ على الوادي الخَصيبِ مَعاجُها

وأسرعَتْ ركابُهُمْ إليهِ ، وما كانت تُسْرِعُ ، وتَميلُ إلاَّ إلى واديهِ الخَصيبِ .

١٢ ـ إنْ أدلَجَتْ في جُنْحِ ليلٍ دامسٍ فإلى نَهارٍ شامسٍ إدلاجُها

إنَّها إنْ بدأتْ سفرَها في الليلِ ذي الظلامِ الدامِسِ فإنَّها ستصلُ إلى مُبْتَغاهَا في صَباحِ اليومِ المُشمسِ التالي .

١٣ ـ تأبَى لغيرِكَ زمرةُ الرُّؤَساءِ أنْ تُدْعَى بِخَلخالٍ ، وأنتَ تاجُها

وإنَّ مجموعةَ الرُّؤَساءِ لَترفُضُ أنْ تكونَ مُلْحَقَةً بجمعِ الإناثِ اللواتي يَتزَيَّنَّ بِخَلاخِلَ في أرجُلِهِنَّ ، وتكونَ أنتَ تاجَها .

١٤ ـ ولأنتَ مُنْتَجَبُ المُلوكِ حقيقةً والواوُ عندي باطلٌ إخراجُها

فأنت في الحقيقةِ مُنْتَخَبٌ منْ بينِ المُلوكِ ، وحذفُ الواوِ منْ كلمةِ الملوكِ ، لا يَصِحُّ بحالٍ منَ الأحوالِ .

١٥ ـ وكأنما السلطانُ سِنْجرُ كعبَةٌ لِلْمُلْكِ ، مُنْتَجَبُ الملوكِ ، رِتاجُها

وكأنَّما سِنْجرُ السلطانُ شَرفٌ لِلْمُلْكِ ، وأنتَ يا مُنْتَخَبَ المُلوكِ بابُ المُلْكِ العظيمِ .

١٦ ـ إذا ما رآهُ أحقُّ سائسِ دولةٍ فإليهِ فُوِّضَ جيشُها وخَراجُها

إذا ما تَعَرَّفَ على مُنْتَجَبِ الملوكِ أفضلُ وزيرِ دولةٍ يقولُ : إنهُ خيرُ موكَلٍ إليهِ تأسيسُ جيشِ الدولةِ وأعطياتُهُ .

١٧ ـ مَجَّتْ يَراعَتُهُ المَنايا ، والمُنَى سَقْيُ الموالي والعُداةِ مُجاجُها

وَتَفَلَتْ قَصَبَتُهُ تَفْلَةً ، فكانَ المَوتُ منها ، وتَفَلَتْ مرةً ثانيةً ، فكانَ مُجاجُها رَيّا الأصحابِ والعبيدِ وموتَ الأعداءِ .

١٨ ـ شهمٌ إذا ما ألْقَحَتْ أفكارُهُ آراءَهُ كانَ الصوابَ نِتاجُها

وكانَ رجلاً ذكيَ الفؤادِ نافذَ الحكمِ ؛ إذا تلاقَتْ أفكارُهُ وآراؤُهُ كانَ نتاجُ ذلكَ التلاقي صوابَ الأمرِ وسَدادَهُ .

١٩ ـ لكنَّها تَلِدُ الصَّوابَ مُتِمَّةً ولَرُبَّ آراءٍ يسوءُ خِداجُها

فَتَلِدُ أموراً وأحكاماً صحيحةً تامَّةً ، وقد تُسقِطُ آراءً ناقصةً قبلَ تمامِ كَمالِها .

٢٠ ـ رَكِبَ السياسةَ، وهي أصعبُ مركَبٍ فتطامَنَتْ لِرُكوبهِ أثباجُها

وقد تَسَلَّمَ أمورَ سياسةِ الناسِ ، وهي مركبٌ صعبُ القيادةِ ، فاطمأنَّتْ لسياستِهِ وقيادَتِهِ الناسُ : رجالُهُمْ ونساؤهم شبابُهُمْ وشيوخُهُمْ أسيادُهُمْ وعبيدُهُمْ .

٢١ ـ ألْفَتْهُ دونَهمُ فما إلجامُها إلاَّ على يدِهِ ولا إسراجُها

وجَدَتْهُ أشَدَّ قدرةً منْ غيرِهِ ، فكانَ وضعُ اللُّجُمِ في أفواهِ الخيلِ والسُّرُجِ على ظهورِها على يَدِهِ .

٢٢ ـ ولو أنَّهُ ركبَ النجومَ لَما نَبَتْ أفرادُها عنه ولا أزواجُها

ولو أنه أرادَ أن يجعلَ نجومَ السماءِ مطايا له لأطاعتْهُ ، وما قَصَّرَتْ أفرادُها أو أزواجُها أو جماعاتُها عنْ أهدافِهِ وطاعتِهِ .

٢٣ ـ آلاؤهُ الزُّهْرُ الوِضاءُ كواكبٌ يُزْري بضوءِ المُشْتَري وَهَّاجُها

سَمَتْ نِعَمُهُ وعطاياهُ على الناسِ ، فكانتْ كالكواكبِ البيضِ المُشرقةِ ، يَعيبُ لألاؤُها ضوءَ كوكبِ المُشتري .

٢٤ ـ سِنَّا يَراعَتِهِ وعَشْرُ بَنانِهِ تلكَ الكواكبُ ، هذه أبراجُها

وكانَ رأسا قصبتِهِ التي يكتبُ بها وبَنانُهُ العَشْرُ أبراجَ السماءِ ومداراتِ الكواكبِ .

٢٥ ـ جَهْمُ المُحَيَّا لِلْعِدا ، طَلْقٌ إذا ضيفانُهُ نزلَتْ بهِ أفواجُها

يقابلُ العِدا بوجْهٍ غليظٍ غاضبٍ ، ويَسْتقبلُ أفواجَ ضيوفِهِ بوجهٍ ضاحكٍ طَلْقٍ .

٢٦ ـ يجري إليهمْ سيبُهُ بأناملٍ مثلِ البحارِ ، تلاطَمَتْ أمواجُها

يأتي عطاؤهُ إلى أفرادِ رعيتِهِ جزيلاً ، وتحملُهُ أيادي عمَّالِهِ مُتسابقةً كالبحارِ ، وقد علَتْ أمواجُها .

٢٧ ـ لن تَبْلُغَ الأنواءَ أنْمُلُهُ ، وإنْ بلغَتْ صدورَ الذائلاتِ زجاجُها

إنَّ أطرافَ أصابعِهِ لا تستطيعُ أنْ تصِلَ إلى النجوم ، وتلْمَسَها ، لكنها ضربَتْ صدورَ الدروعِ السابغاتِ الطويلاتِ نصولُ سيوفِهِ ورماحِهِ .

٢٨ ـ لولا تُقاكَ لسارَ غيرُكَ سيرةً ما سارَها في عهدِهِ حَجَّاجُها

وكنتَ أُسوةً حسنةً في سيرَتِكَ وسياسَتِكَ ، فلولا وَرَعُكَ وإيمانُكَ وأمانَتُكَ لاتَّخَذَ الناسُ طريقةَ الظلمِ والجَورِ في معاملاتِهم ما سارَها الحَجّاجُ بنُ يوسفَ الثَّقَفيُّ في ولايتِهِ وحكمِهِ العراقَ .

٢٩ ـ تبغي الحقيقةَ في أمورِكَ كلِّها إنَّ الحقيقةَ واضحٌ مِنْهاجُها

لأنكَ تريدُ الحقيقةَ في تصريفِ أمورِكَ ، والحقيقةُ طريقُها جَليٌّ بَيِّنٌ ، لا يختلفُ فيهِ اثْنانِ .

٣٠ ـ فالدينُ ما يرجو سواكَ ، وإنَّما يُرْجَى لكشفِ شدائدٍ فَرَّاجُها

والدينُ ما يأمُلُهُ غيرُكَ ، وإنَّ الذي يرجوهُ الناسُ منَ اللهِ ـ عزَّ ، وجَلَّ ـ أنْ يكشِفَ عنهمُ الشدائدَ ، ويُريحَهُمْ منْ كُرُباتِهِمْ .

٣١ ـ ما للرجالِ بغيرِ بابِكَ طائلٌ فمنْ أينَ يقصِدُ غيرَهُ مُحتاجُها ؟

والناسُ لا يطلبونَ الغِنى إلاَّ منكَ ، فلا يطرقونَ غيرَ بابِكَ ، وكيفَ يقصِدُ المحتاجُ غيرَ بابِكَ ، وهو يعلم أنه لا ينالُ منْ عطاءِ غيرِكَ شيئاً ؟

٣٢ ـ لو أنَّ عدْلَكَ شُبْتَهُ بمياهِها لارْتَدَّ كالعَذْبِ الفراتِ أُجاجُها

ولو أنَّكَ خَلَطْتَ عَدْلَكَ وإنصافَكَ الناسَ بظلمِ غيرِكَ لعادَ إليكَ عَذْباً دونَ أنْ يتأثَّرَ بجَورِ غيرِكَ .

٣٣ ـ إنَّ السعادةَ ساعَدَتْكَ ، فَخَلِّها وَعِداكَ إنْ شَغَبَتْ ، وطالَ لَجاجُها

وإنَّ الهناءَةَ قد أعانَتْكَ ، وسَرَّتْكَ . فإنْ وجَدْتَها قد مالَتْ عنكَ حينَ رأتْ أعداءَكَ قدِ ازدادَ خِصامُهُمْ ، وتَمادَوا فيهِ ، دَعْها ، ولا تَلُمْها ، وحارِبْهُمْ ، فإنّ ذلكَ مدعاةٌ إلى عودتِها إليكَ .

٣٤ ـ كَفَتِ السعادةُ مِنْصَلاً لِمُحاربٍ ويداً إذا الهيجاءُ ثارَ عَجاجُها

حَسْبُ السعادةِ والراحةِ حديدةُ السيفِ أو الرمحِ الحادَّةُ في يدِ مُحاربٍ ماهرٍ ، إذا قامتِ الحربُ ، وعلَتْ أصواتُ الجنودِ وقعقَعةُ أسلحتِهِمْ .

٣٥ ـ واعلَمْ بأنَّكَ لنْ يَضُرَّكَ حاسدٌ ليسَ الجبالُ بِمُمْكِنٍ إزعاجُها

واعلَمْ بأنكَ لنْ تتأثَّرَ بضررِ إنسانٍ ، يَحْسُدُكَ ، لأنكَ كالجبلِ العظيمِ ، لا يستطيعُ أحدٌ أنْ يُزحْزِحَكَ ، أو يُزْعِجَكَ .

٣٦ ـ ما هذِهِ بقصيدةٍ ، هي حُلَّةٌ قد حاكَها منْ مَفْخَرٍ نُسَّاجُها

وأنَّ هذه الأبياتَ ليستْ قصيدةً ، وإنَّما هي ثوبٌ ، قد نسجَهُ لكَ عمَّالُهُ منْ خيوطِ الفخرِ والعِزَّةِ .

٣٧ ـ قَلَسَتْ بِها أشعارَ أهلِ زمانِها وهي العَباءُ ، وهذه دِيباجُها

سَتَرَتْ بِها شِعارَ أهلِ زمانِها؛ فكانَتْ قَلَنْسُوَةً، وكانَتْ كِساءً، وهذهِ الألفاظُ نَقْشُها وزُخْرُفُها.

٣٨ ـ إني مِنَ القُطُفِ الخُطا، فإذا جَرَتْ خَيـلُ الكـلامِ فـإنـي هِمْـلاجُهـا

وإني بطيءُ الخُطا كالدَّوابِّ القُطُفِ ؛ إنْ هدأَ حالي ، كانَ كلامي لطيفاً رقيقاً ، وإنْ هاجَني أمرٌ خرجَتْ أقوالي سريعةً ثائرةً .

☆☆ ٦ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المَدحِ :

١ ـ إليـكَ عُبَيـدَ اللهِ حـثَّ ركـابَـهُ فَتًـى يَثْـرِبـيٌّ مـنْ ذُؤابـةِ خَـزْرَجِ

لقد حَضَّ رجلٌ شابٌّ منْ يثْربَ المَدينةِ المُنَوَّرةِ منْ سُلالةِ قبيلةِ خزرَجَ ركابَهُ للمجيءِ إليكَ يا عُبَيدَ اللهِ .

٢ ـ مُكـابـدُ أهـوالٍ ، إذا الليـلُ جَنَّـهُ تَلَمَّـسَ يَعْـرَوري قَـرا كـلِّ سَمْهَـجِ

وعانى ما عانَى ، وقاسى مِنْ مَخاوفَ ، فإذا أتى عليه الليلُ ، وسَتَرَهُ الظلامُ ، أخَذَ يَتَلَمَّسُ ظَهْرَ كُلِّ فرسٍ طويلِ الجسمِ ، ثم يركَبُهُ عُرْياً .

٣ ـ إذا ما امْتَطى رجلَيهِ خَبَّ كأنّما تَخُـبُّ بـهِ جـرْداءُ مِـنْ بنـي أعـوجِ

فإذا ما أمْسَكَ رجلَي الفرسِ ، عدا الفرسُ ناقلاً أيامنَهُ جميعاً وأياسِرَهُ جميعاً أو مُراوحاً بينَ يديهِ ورجلَيهِ ، كأنَّه فرسٌ أجْرَدُ ، ليسَ له شعرٌ ، أعوجُ منسوبٌ لِبني هلالٍ .

٤ ـ لقد طُفْتُ في نجدِ البلادِ وغَورِها فمـا كـانَ إلاَّ بـالـوزيـرِ مُعَـرَّجـي

ولقد كان سفري طَوافاً في البلادِ إذْ صَعَدْتُ نَجْدَها ، ونزَلْتُ غَورَها ، وكنتُ لا أنفَكُّ ، أذهبُ إلى الوزيرِ عُبيدِ اللهِ في كلِّ طَوافٍ وفي كلِّ سَفْرَةٍ .

٥ ـ كريمٌ ، شِعارُ الذَّمِّ ما مَسَّ جلدَهُ مُسَـرْبَـلُ أفـوافِ الثنـاءِ المُـدَبَّـجِ

لأنَّهُ كريمُ النفسِ ، لم يَمَسَّ جلْدَهُ أَشْعارُ الذَّمِّ والهَجْوِ ، بل يرتَدي لباساً فَضْفاضاً طويلاً أفضلَ وأحلى منْ أثوابِ اليمنِ ، هو ثوبُ رضا اللهِ وثناءِ الناسِ عليهِ .

٦ ـ ومـا أرتَجـي إلاَّ عطيَّـةَ كفِّـهِ وهل غيرُ هذي الكفِّ كفٌّ لِمُرْتجي ؟

وما آمُلُ إلاَّ عطاءَ كفِّهِ ، وهل هناك كفٌّ تعطي سخيةً غيرُ كفِّ عبيدِ اللهِ ؟

☆☆ ٧ ـ وقالَ على بحرِ الوافرِ في المدحِ :

١ ـ عبيـدَ اللهِ أشْـرَفَ أهـلِ بيـتٍ تَجـاوَزَ سَمْكُـهُ أعلـى البـروجِ

يا عُبَيدَ اللهِ يا أشرفَ وأَكْرَمَ أهلِ بيتٍ ، لقد سبقَ بُرْجُكَ ومكانتُكَ في السماءِ أعلى بروجِها .

٢ ـ أرى في قَدٍّ يأجوجٍ لقاءً وَمُدَّةَ فُرْقةٍ في طولِ عُوجِ

وإني لأَرى مُدَّةَ رؤيتي إياكَ قَدْرَ طُولِ يأجوجٍ ومأجوجِ القصيرةَ وطولَ زمانِ فراقكَ إيايَ كطولِ عُوجِ بنِ عُوقٍ الذي طالَ عمرُهُ .

٣ ـ فقلبي قلبُ مشعوفٍ تراءَتْ له في الآلِ باكرةُ الحُدوجِ

فقلبي قلبُ محبٍّ ، بَدا له في السرابِ هوادجُ النساءِ الراحلةُ غُدْوَةً في أولِ النهارِ .

٤ ـ تَشَبَّبَتِ الثلوجُ لِحَرِّ صدري فلا ثَلَجَتْ صدورٌ للثلوجِ

تَرَقَّقَتِ الثلوجُ ، وقالتْ شعراً في ذكرِ النساءِ لحرارةِ قلبي ، فلم يبترِدْ قلبي ، ولا ابْترَدَتِ الصدورُ بِتَقَرُّبِها منَ الثلوجِ .

٥ ـ أقولُ : أنا ابنُ قيسٍ لا براحَ إذا قالوا : ألسْتَ على الخروجِ ؟

وإذا قيلَ لي : أَلَسْتَ عازماً على الخروجِ ؟ أردُّ ، وأقولُ : أنا ابنُ قيسٍ ، لن أبرحَ مكاني هذا ، وإني مقيمٌ ههنا .

٦ ـ وكيفَ وفي مخاضاتِ الثنايا دواعٍ ، تُسْتجابُ إلى الوُلُوجِ ؟

وكيفَ أتركُ هذا المكانَ ، وفي طُرُقِ شعابِ هذا الجبلِ أسبابٌ ، تجعَلُ المرءَ ، يُلَبِّي الدعواتِ إلى الدخول فيها ؟

٧ ـ وما بي أنْ أُحَوقِلَ في وحولٍ ولستُ بآمنٍ وشْكَ الزُّلوجِ

والذي أعاني منهُ يجعَلُني أقولُ : لا حولَ ولا قوةَ إلاّ باللهِ لأَنَّني كواقفٍ في الأطيانِ ، لا أستطيعُ التحركَ ، ولستُ آمِناً على نفسي قُرْبَ الزَّلَقِ والسقوطِ فيها .

٨ ـ وقد ركبَ المُطَهَّمَ كلُّ عِلْجٍ ألا يا ليتني بعضُ العلوجِ

وقد ركبَ كلُّ أعجميٍّ فرساً تامَّ الحسنِ والقوةِ ، وكم أتَمَنَّى أنْ أكونَ أحدَ هؤلاءِ الأعاجمِ فأركبَ فرساً قويًّا ، وأمضيَ إلى حيثُ راحتي .

☆☆ ٨ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في المدحِ :

١ ـ دونَ الديارِ برامَتَينِ ، فمَنْعِجٌ بِديارِ سَلْمى والربابِ مُعَرَّجي

لقد طالَ سيري ، وابتعدَ عنِ الديارِ برامَتَينِ ، وها أنا بموضعٍ : اسْمُهُ مَنْعِجٌ في ديارِ سلمى والربابِ ، وهو مكانُ إقامتي .

٢ ـ ومَطِيَّتي لو لم أَعُجْها نَحْوَها كادَتْ تُكَلِّمُني ، وقالت لي : عُجِ

ولو لم أجعَلْ ناقتي ، تَميلُ نحوَ دارِها ، كادَتْ تُنَبِّهُني ، وتقولُ لي : مِلْ .

٣ ـ رَعَتِ الرِّياضَ بها مُدَبَّجَةً ، ولي غَفَلاتُ عيشٍ كالرياضِ مُدَبَّجِ

وكانتِ الرياضُ لها مَرْعًى خَصْباً جميلاً ، وكان لي مَسَرَّاتُ حياةٍ مُزَيَّنةٍ بألوانٍ كألوانِ أزهارِ الرياضِ .

٤ ـ وتَوَحَّدَتْ منها بأعيسَ ناعجٍ كَتَوَحُّدي فيها بأحورَ أدعَجِ

وأخذَتْ منَ الرياضِ شريكاً واحداً أبيضَ ، يخالطُ بياضَهُ شُقرةٌ ، سميناً كما اتَّخذْتُ حبيبةً واحدةً حوراءَ ، في عَيْنَيْها السوادُ الشديدُ مع شدةِ البياضِ .

٥ ـ أيامَ لم تُطِعِ الأحبةُ حاتِماً يقضي عليهمْ بالفراقِ المُزعِجِ

ونَعِمْنا بأيامٍ ، لم يكُنْ فيها غُرابٌ قاضٍ ، يحكمُ على الأحبةِ بالفراقِ الأليمِ ، فلا تطيعُهُ .

٦ ـ شِبْتَ ابنَ دَأْيَةَ مثلَ ما شَيَّبْتَني بنوى الأحبَّةِ يومَ دارةِ مَنْعِجِ

وها أنتَ قد شابَ ريشُكَ يا أيُّها الغرابُ يا بنَ دأيَةَ بِبُعْدِ الأحبةِ كما ملأْتَ شعرَ رأسي بالشيبِ بنعيبِكَ يومَ حلَّ الفراقُ يومَ دارةِ مَنْعِجٍ .

٧ ـ ما زِلْتَ تَحْجلُ حولَهُمْ حتى لقَد أولَجْتَ مَنْ في خَيمةٍ في هودَجِ

وبقيتَ تَمْشي حولَهمْ مِشْيَةَ الحِجْلى حتى دخلَتْ كلُّ النساءِ في الهَودجِ .

٨ ما فَرَّقَ الأموالَ حاتمُ حَشْرَجٍ ما فَرَّقَ الأُلاَّفَ حاتِمُ شُحَّجِ

ما كانَ تفريقُ حاتمِ بنِ عبدِ الله بنِ سعدِ بنِ حَشرَجٍ الطائيِّ الأموالَ على الناسِ مثلَ تفريقِ الغرابِ الذي أسَنَّ ، وغَلُظَ صوتُهُ ، الناسَ عنْ بعضِهِمْ .

٩ ـ رفعوا هوادجَ كالأداحي ضُمِّنَتْ بيضَ النَّعامِ على النَّعامِ الهُدَّجِ

ورفَعَ العمَّالُ الهوادجَ على ظهورِ الجمالِ ، ونَسَّقوها كما تُنَسِّقُ مفارخُ النعامِ حيثُ تدحو بيضَها ، وتَبْسُطُهُ ، وتحنو عليهِ .

١٠ ـ لم يَفْصِلِ النُّظَّارُ بينَ كواكبٍ في أبْرُجٍ وكواعبٍ في أحْدُجِ

ورأى الناسُ النساءَ الشاباتِ ذواتِ ثُديٍّ ناهدةٍ ، فلم يفرِّقوا بينَ الكواكبِ في أبراجِها وبينَ هذه الفتياتِ في هوادِجها .

١١ ـ ولربَّ ليلٍ لَفَّني ومعارضاً شَمْسَ الضُّحَى تحتَ الظلامِ المُدَّجي

وكم بتُّ لياليَ لَفَّني ظلامُها الدامسُ ولَفَّ مُشابهاً شمسَ الضحى بِبَياضِهِ .

١٢ ـ فَجَمَعْتُ ما بينَ الوُشاحِ ومِحْمَلي وشَفَعْتُ عَقْدَ تَميمتي بالدُّمْلُجِ

وعقدْتُ حبلَ سيفي ، وشَدَدْتُهُ على جنبي ، وجَعَلْتُ عَقْدَ رُقْيَتي على جانبِ فرسي .

١٣ ـ وجَنَيْتُ مُسْتَحْلًى كَأَرْيِ عواسِلٍ مِـنْ أشْنَـبٍ كـالأُقْحُـوانِ مُفَلَّـجِ

ورَشَفْتُ ريقاً حُلْواً كحلاوةِ العسلِ المُشتارِ منَ الخلايا منْ فمٍ ، بَرَدَتْ أسنانُهُ ، وتباعَدَتْ كزَهرِ الأُقحوانِ .

١٤ ـ نَـزَقـاتُ شُبَّانٍ إليها اسْتَدْرَجَتْ نَـزَغـاتُ شيطـانٍ بهـا مُسْتَـدْرِجِـي

وكانَتْ مني نَزَواتُ فِتيانٍ ، دفَعَتْني إليها وسوساتُ الشيطانِ الذي أغراني بها ، وجعلَني ، أميلُ إليها .

١٥ ـ أمَّا وقد وَخَطَ البياضُ مَفارقي فعـلامَ أعـدِلُ عـنْ سـواءِ المَنْهَـجِ ؟

أمَّا الآنَ ، وقد تَقَدَّمَتْ سِنِّي ، وعلا الشيبُ رأسي ، فَلِماذا أميلُ عن الطريقِ السَّوِيِّ ؟

١٦ ـ ما لي ، وأرديةُ الشبيبةِ أنْهَجَتْ ، أبكـي لِـرَبـعٍ كـالـرِّداءِ المُنْهَـجِ ؟

وما لي أبكي زماناً مَضَى ومَضى أهلُهُ ، وبَلِيَتْ مجالِسُهُ كما بَلِيَتْ أرديتُهُ ؟

١٧ ـ ولِباكراتِ ظعائنٍ خاضَتْ بها لُـجَّ المَـلا أيـدي المَهـارَى الـوُسَّـجِ

وأبكي زمانَ الهوادجِ فوق الإبلِ المَهْرِيَّةِ السَّريعةِ المنسوبةِ لِمَهْرَةَ بنِ حَيدانَ المُقْتَحِمَةِ قلْبَ الصحارِي بهوادجِها في الصباحِ الباكرِ .

١٨ ـ وأقَـبَّ خَـوَّارِ الفُصـوصِ تَثَنِّيـاً فـي أسـرِ محبـوكِ العظـامِ مُحَمْلَـجِ

ورُبَّ فرسٍ سريعِ الجَرْيِ ضامرِ البطنِ دقيقِ الخصرِ ، تَتَثَنى عظامُهُ المَحبوكةُ حَبْكاً مُحْكَماً ، مفتولِ العضلاتِ .

١٩ ـ لا مُرْهِجٍ أدنَى غبارٍ ، وهْوَ لا يـألـوكَ شَقَّـا للغبـارِ المُـرْهَـجِ

ليس بِمُثيرٍ أَقَلَّ غبارٍ ، وهو لا يُجْهِدُكَ بمَشقَّةِ الغبارِ المُثارِ .

٢٠ ـ وتـرى إلـى قُلَلِ الجبـالِ هُـوِيَّـهُ كَهُـوِيِّ فِهْـرٍ مِـنْ عـلٍ مُتَـدَحْـرِجِ

فإذا رأيتَه نازلاً منْ قُمَمِ الجبالِ ، تَظُنُّ أنهُ حَجَرٌ يسقُطُ منْ أعلى الجبلِ ، يَهْوِي هُوِيًّا ، ويتدحرَجُ إلى أسفلِ الجبلِ .

٢١ ـ وإذا ازدهى الخَبَبُ الجيادَ، وهاجَها قـالَ النِّجـارُ لـه المُهَـذَّبُ : هَمْلِجـي

وإذا تفاخَرَ العَدْوُ على الجيادِ ، وأثارَها ، فثارَتْ ، وعَدَتْ عَدْواً طائشاً ، قالَ لها أصلُها الرزينُ : امشي مَشياً لَيِّناً سريعاً .

٢٢ ـ في العاصفاتِ الهُوجِ نِسْبَةُ حُضْرِهِ ولـهُ المَنـاسـبُ فـي سـلالـةِ أعـوجِ

وفي هبوبِ العاصفاتِ الثائراتِ يُعْرَفُ قَدْرُ عَدْوِهِ ، وفي ذكرِ الأنسابِ لهُ نسبةُ كرامِ الخيلِ الأعوجِيَّاتِ إلى بني هلالٍ .

٢٣ ـ نَهْدٌ لِبُعْدِ سَمائِهِ مِن أرضِهِ يعطو فما يعطوهُ باعُ المُسْرِجِ

وهو حَسَنُ الخُلُقِ ، يرفَعُ رأسَهُ ويديهِ ، فيتناولُ ما يحلو له منَ الشجرِ وما يُبيحُ له إبعادُ خطوِهِ في جَرْيِهِ .

٢٤ ـ الحُسْنُ أحمرُ ، وهو أحمرُ قانئٌ يَسْبي النواظرَ بالرُّواءِ المُبْهِجِ

والحسنُ معروفٌ بحمرتِهِ ، وهذا الحصانُ أشدُّ حُمْرَةً ، يأسِرُ الأنظارَ بِمَنظرِهِ المُسِرِّ .

٢٥ ـ فإذا رأتْهُ منْ بعيدٍ قائماً بَدْويَّةٌ قالَتْ : ضِرامُ العَرْفَجِ

فإذا لَمَحَتْهُ بَدْويَّةٌ مِنْ بعيدٍ واقفاً قالَتْ : هذا نَباتُ العَرْفجِ ؛ لَهَبُهُ شديدُ الحمرةِ .

٢٦ ـ لم يُخْطِئِ التَّضْريجُ غيرَ مواردِ الـ أوضاحِ منهُ ، فذاكَ غيرُ مُضَرَّجِ

وكأنهُ صُبِغَ جسمُهُ بالحُمرةِ ، وتُرِكَتْ مواضعُ منهُ ، هي مواطنُ الجمالِ فيهِ كغرّتِهِ وقوائمِهِ ، لم تُصْبَغْ ، وبقيَتْ بيضاءَ .

٢٧ ـ خاضَ اللُّجينَ ، وبالعقيقِ تَسَرْبَلَتْ أعطافُهُ ، ومشى على فيروزَجِ

فكأنهُ سارَ بِمُذَوَّبِ الفضةِ ، وتَسَتَّرَتْ جوانبُهُ بنسيجٍ مَحُوكٍ بِخَرَزِ العَقيقِ الأحمرِ ، ومشى على أرضٍ ترابُها من فيروزَ فارسَ .

٢٨ ـ وكأنَّ فارسَهُ ابتَغى مِنْ ربِّهِ نَعْتَ البُراقِ ، فجاءَهُ بنموذجِ

وكأنَّ فارسَ هذا الحصانِ دعا ربَّهُ أنْ توصَفَ له الدابَّةُ التي ركبَها الرسولُ ـ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ـ ليلةَ الإسراءِ ، فأتاهُ بِمِثالٍ لها .

٢٩ ـ أمَدُ السباقِ بِمِثلِهِ مُتَجاوَزٌ ومَدَى المَساعي بالهُمامِ الأبلجِ

وغايةُ السباقِ بِمِثلِ هذا الفارسِ مُخَلَّفَةٌ بهِ ، ومُنْتَهى المَقاصِدِ بِهذا الشجاعِ السَّخِيِّ الأبيضِ .

٣٠ ـ للهِ مُنْتَجَبُ الملوكِ فإنهُ في المجدِ أتعبُ باكرٍ أو مُدْلِجِ

للهِ دَرُّ مُنْتَخَبِ الملوكِ ! ما أحسنَهُ ! إنهُ في العزِّ أكثرُ الرجالِ تَحَمُّلاً للتعبِ بُكْرَةً أو ليلاً .

٣١ ـ قد لَجَّ في طلبِ العُلا فِعْلاً ، ولم يَحْجُجْ ، لَعَمْرُ أبيكَ مَنْ لم يَلْجُجِ

قد جَدَّ في طلبِ العُلا قولاً وفِعْلاً ، وإني لأقسِمُ بحياةِ أبيكَ بأنَّ مَنْ لم يَجِدَّ في طلبِ

العُلاَ فعلاً فإنهُ غيرُ جادٍّ في قولِهِ : أريدُ أنْ أحُجَّ .

٣٢ ـ هو في هجانِ بني الزمانِ كأنهُ سَعْدُ العشيرةِ في ذُؤابةِ مُذْحِجِ

وهو في كرامِ بني الزمانِ كأنهُ سَعْدُ بنُ مالكٍ رأسُ قبيلةِ مذحجِ المَعروفةِ بالبرِّ والوفاءِ .

٣٣ ـ ما شايعَ الزمنَ الشحيحَ كحاتمٍ إذْ لم يشايعْ ناصحاً مِنْ حَشْرَجِ

ما والَى الدهرَ الحريصَ البخيلَ مثلُ حاتمِ الطائيِّ الذي لم يستَمِعْ إلى نصحِ أحدٍ منْ قومِهِ الذينَ لاموهُ كثيراً لِتَضْييعِ مالِهِ في سبيلِ كرمِهِ .

٣٤ ـ فَمَنِ ارْتَجَى ، فَلَنِعْمَ غيثُ المرتجي ومَنِ الْتَجا فَلَنِعْمَ غَوثُ المُلْتَجي

فَمَنْ يَرجُهُ لعطاءٍ فهو نعمَ واهبُ طالبِ العطاءِ ، ومَنْ يأتِ إليهِ مُسْتغيثاً فهو نعمَ مُغيثُ الملهوفِ .

٣٥ ـ ساوى ابنَ عَبَّادٍ بكلِّ فضيلةٍ وشَأى بفضلِ تَعَفُّفٍ وتَحَرُّجِ

ماثَلَ الصاحبَ بنَ عَبَّادٍ بكلِّ فضيلةٍ ، وسَابَقَهُ بزيادةٍ منَ العِفَّةِ والوَرَعِ والتُّقَى .

٣٦ ـ فلذاكَ ألسنةُ الأنامِ بِحَمْدِهِ أبداً تُجاهرُ ، والضمائرُ تنتجي

ولِهذِهِ المقارنةِ كانَ الناسُ ، يتحدثونَ عن محامِدِهِ ، ويُعْلِنونَ ما استَتَرَ منها ، وكانتْ ضمائرُهمْ وقلوبُهُمْ ، تذكرُها دائماً .

٣٧ ـ سِنَّا يَراعَتِهِ وعَشْرُ بَنانِهِ لِكواكبِ الحَسناتِ خَيرُ الأبْرُجِ

وكانَ رأسا قصبَتِهِ التي يكتبُ بِها وبَنانُهُ العَشْرُ خيرَ الأبراجِ والمَداراتِ لكواكبِ السماءِ المُتلألئةِ .

٣٨ ـ وكَغُرَّةِ الإصباحِ مَسْفَرُهُ متى تُظلِمْ مَسافِرُ معشرٍ يَتَبَلَّجِ

فإنْ لاحَ لكَ وجهُهُ فكأنكَ ترى وضاءةَ الصباحِ المُشرقةِ ، حينَ تكونُ وجوهُ الآخرينَ كأنّها في ظلامٍ .

٣٩ ـ لولا تَحَفِّيهِ بِشِرْذِمَةِ النُّهَى والفضلِ ضاعوا في الزمانِ الأهْوَجِ

لولا اجتهادُهُ بتكريمِ جماعةٍ منَ الناسِ قليلةٍ ذاتِ عقولٍ ناضجةٍ وأفكارٍ مُحْكَمَةٍ لضاعَتْ في هذا الزمانِ الأحمقِ الطائشِ .

٤٠ ـ خَفَضَ الجناحَ لَهمْ ، فطَأطأَ ربُّهُ عنْ أخْمَصَيهِ تاجَ كلِّ مُتَوَّجِ

ولَيَّنَ معامَلَتَهُ لرعيَّتِهِ ، فطمأنَ اللهُ ـ عَزَّ ، وجلَّ ـ قلبَهُ ، وجعلَ تاجَ كلِّ ملكٍ تحتَ طاعتِهِ .

٤١ ـ يـا خيـرَ نَقَّـادٍ وخيـرَ مُمَيِّـزٍ   بيـنَ الجيـادِ بعلمِـهِ والبَهْـرَجِ

فيا خيرَ ناظرٍ إلى الشيءِ نظرةَ حكيمٍ لِتُدْرِكَ أبعادَهُ وأحوالَهُ جَيِّداً ، ويا أفضلَ مُفَرِّقٍ وَمُميِّزٍ بينَ الأمورِ الحسنةِ والباطلةِ بتفكيرِهِ وعلمِهِ .

٤٢ ـ جاءَتْكَ مِنْ وشيِ البلاغةِ حُلَّةٌ   بـديـارِ يَعْـرُبَ ، أختُهـا لـم تُنْسَـجِ

أتَتْكَ قصيدةٌ ، هي كُسْوَةٌ مُزَيَّنَةٌ بِزُخْرُفٍ ، بَلَغَ الغايَةَ في الجمالِ ، لم يُنْسَجْ لها أخْتٌ ببيوتِ يَعْرُبَ .

٤٣ ـ ما ضَرَّني ، والشِّعرُ شعري ، أنني   لستُ الـوليـدَ ، وليسَ مَنْبِجُ مُنْتَجي

ولم يَضُرُّني أو يَسُؤْني ، والشعرُ منسوبٌ إليَّ ، أنني لم أكُنِ الوليدَ البحتريَّ الذي وُلِدَ بِمدينةِ مَنْبجَ .

٤٤ ـ اللهُ يَقْـدِرُ أنْ يفيـدَ زَمَخْشَـرا   وفصيحَهـا فضـلَ الـوليـدِ وَمنْبِـجِ

واللهُ ـ عَزَّ ، وجَلَّ ـ قادرٌ أنْ يَرْعاكَ ، ويُفيدَ بكَ زمخشرَ وكلَّ فصيحٍ فيها كما أفادَ مَنْبِجَ بِفضلِ شاعِرِها الوليدِ البحتريِّ .

☆☆ ٩ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في المَدحِ :

١ ـ أفدي عميدَ المُلْكِ كمْ منْ نِعمةٍ   لِيَـدَيـهِ ، ضَـلَّ الغيـثُ عـنْ منهـاجِهـا

إنني أقدِّمُ روحي ونفسي فداءً لِعَميدِ المُلْكِ الذي أولاني نِعماً وأعطياتٍ ، لا يتمكَّنُ المطرُ مِنِ اتباعِ طريقِها ، ويبقى تائهاً لا يدري ، لأي شِعْبٍ يَتَّجِهُ .

٢ ـ عُمِـرَتْ بِمَكْـرُمَتَيـهِ ضيعـةُ جـارِهِ   بحضـورِهِ وضمـانِ شطـرِ خَـراجِهـا

وأعيدَ بِفَضْلِ ما قَدَّمَ منَ المكارمِ بناءُ بستانِ جارِهِ بإشرافِهِ وكفالةِ جزءٍ مِنْ مصروفاتِها .

☆☆ ١٠ ـ وقالَ على بحرِ المُتقاربِ في المَدحِ :

١ ـ أبـا جَعْفـرٍ حُسْـنُ رأْيِ الـوزيـ   ـرِ بعـدَ الشـدائـدِ نعـمَ الفَـرَجْ

يا أبا جَعْفرٍ إنَّ أحسنَ وأفضلَ عملٍ بعدَ المصاعبِ رأيُ الوزيرِ السَّديدُ الذي بهِ حُسْنُ حالِ الناسِ .

٢ ـ فَشَيِّـعْ رِضـاهُ بجهـدٍ ، فـإنَّ   رِضـاهُ تُخـاضُ إليـهِ اللُّجَـجْ

فصاحِبْ رِضاهُ جاهداً ، فإنَّ موجَ البحرِ المُتلاطمَ يُقْتَحَمُ منْ أجلِ رضاهُ .

٣ ـ تَنَـلْ مـا تشـاءُ ، وتَلْـقَ المُنَـى   وتـأْخُـذْ علـى لائِميـكَ الحُجَـجْ

فإنكَ إنْ صاحَبْتَ رضاهُ ، تَجْنِ ما تريدُ ، وتَجدِ الآمالَ التي تريدُها ، وتَنْتَصِرْ على عاذِلِيكَ

بالحُجَج والبراهينِ الدامغةِ .

٤ ـ تَقَلَّــــدْ خِــــلافَتَـــــهُ إنَّهـــــا   ســـــرورٌ وَحُـــزْنٌ لِبَعْــضِ المُهَـــجْ

وتَسَلَّمْ مقاليدَ أحكامِ خلافتِهِ ووزارتِهِ إياكَ ، واعْلَمْ أنَّها سرورٌ لبعضِ الأرواحِ وحُزنٌ لبعضِها الآخرِ .

٥ ـ عَـــدُوُّكُمــــا هَلَكَــــتْ نفسُـــــهُ   وأمَّـــــا وَلِيُّكُمــــا فـــــابتَهَــــجْ

ولقد هلكَتْ نفسُ عَدُوِّكما بولايَتِهِ الحكمَ ووزارتِهِ إيَّاكَ ، وسُرَّ صاحبُكما ، وفرِحَ بذلكَ .

٦ ـ قَــدِ اخْتَلَفَــتْ درجَــاتُ العــلا   وهـــاتيــكَ أعلــى جميــعِ الــدَّرَجْ

وللعلا صَعَداتٌ مختلفةٌ ، وصَعَداتُكما أعلى وأعظَمُ منْ كلِّ صَعْدَةٍ .

٧ ـ وإنـــكَ بحـــرٌ ، وإنَّ البِحـــا   رَ مــا فــي حــديثِهَــا عنــكَ حَــرَجْ

وإنكَ البحرُ في كرمِكَ ، وإنَّ البحارَ لا تَفْتَأُ تذكُرُ جودَكَ ، وليسَ لَها مَأثمٌ في ذلكَ .

❊ ❊ ❊

حرف الحاء / ٢٣٤/ بيتٍ

☆☆ ١ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في وصفِ فصلِ الصيفِ :

١ ـ إذا رُمْتُمْ في الصيفِ رَوْحاً ، فَدَبِّروا سراديبَ في أبياتِكُمْ أو مَراوِحا

إذا أردتُمْ أنْ يكونَ لكمْ في الصيفِ نسيمَ ريحٍ ، فهيِّؤوا في بيوتِكم مداخلَ ومخارجَ يلعبُ فيها الهواءُ أو مَراوحَ ، تحركونَها بأيديكُمْ فتأتيكمْ بالنسيمِ المُريحِ .

٢ ـ فإنْ عَزَّكمْ إحداثُ هاتينِ ، فاعمَلوا مِنَ الخُوصِ أو خيشِ العراقِ مَراوِحا

فإنْ صَعُبَ عليكُمْ ذلكَ ، فاصنعوا منْ ورقِ النخلِ أو خيوطِ كَتَّانِ العراقِ مَراوحَ ، تُرَوِّحونَ بِها عن أنفسِكُمْ عندَ اشتِدادِ الحرِّ .

☆☆ ٢ ـ وقالَ على بحرِ الوافرِ في الرثاءِ :

١ ـ أَلَهْفي يومَ فارَقَني نجاحُ فَهيضَ العظمُ ، وانكسرَ الجناحُ

يا حزني : يومَ ماتَ نجاحٌ ، وفارقَني ، تَحَطَّمَ العظمُ بعدَ جُبورِهِ ، وانكسرَتِ الضلوعُ .

٢ ـ صباحٌ لم يُحِرْ فيه جواباً لداعيهِ صباحٍ ، ما صباحُ ؟

لم يَرُدَّ نجاحٌ جواباً على مناديهِ المُسَمَّى صباحاً ، وتساءَل الناسُ : ما هذا الصياحُ ؟ وما جرى لصباحٍ ؟

٣ ـ نجاحٌ بعدَ نَضْرَتِهِ هشيمٌ بِظَهْرِ البَدْوِ ، تَذْروهُ الرياحُ

ردَّ صباحٌ ، فقالَ : إنَّ نجاحاً بعدَ حُسْنِهِ أصبحَ كسيراً ، تطيرُ به الريحُ ، وتنشُرُهُ في نواحي الباديةِ .

٤ ـ بِشِقِّ الكوفةِ الغَرْبِيِّ منها قضى بِغُروبِهِ القَدَرُ المُتاحُ

وقد ماتَ ؛ وبِمَوتِهِ كانَ أمرُهُ المُقَدَّرُ لهُ والمُهَيَّأُ ، وكانَ ذلكَ بجانبِ الكوفةِ الغربِيِّ منها .

٥ ـ وما دَلَكَتْ براحُ . ثَمَّ قومٌ أخاهُمْ إنَّما دَلَكَتْ بَراحُ

وما غابتِ الشمسُ ، لكنْ كانَ هناكَ قومٌ ، غَيَّبَتِ الشمسُ أخاهُمْ .

٦ ـ وراحَ إلى الحجازِ بنا المَطايا وجَدَّ بهِ إلى الجَدَثِ الرَّواحُ

وأخذتْنا المَراكبُ إلى الحجازِ ، وسارَ بهِ العَشيُّ جادًّا إلى القبرِ .

٧ ـ ضريحٌ ؛ إنْ جَفَوناهُ فما إنْ جَفاهُ مِنْ مَزارِهِمُ الضُّراحُ

وغُيِّبَ في ضريح ، ثم صِرْنا نزورُهُ بينَ حينٍ وآخرَ ، فإنِ انقطَعْنا بعدَ ذلكَ عنْ زيارتِهِ فإنَّ البيتَ المَعمورَ ، لا يُنقطَعُ عن زيارتِهِ .

٨ ـ فيا أوقارَ حُزْنٍ حُمِّلَتْها طِلاحُ السيرِ ، يَحْمِلُهُمْ طِلاحُ

يا أحمالَ الحزنِ والأسى الثقالَ قد فُرِضَ على النوقِ التي أتعبَها ، وأهزلَها السيرُ ، أنْ تحمِلَكِ ، وعلى الرجالِ الذين غلبَهُمُ الحزنُ أنْ يحمِلوكِ .

٩ ـ كأنَّ القلبَ شَكَّتْهُ نبالٌ بأنصُلِها ، وشاكَتْهُ رماحُ

وكأنَّ القلبَ ، فيهِ ثقوبٌ منْ شَكّاتِ أنصُلِ السهامِ ، وكأنَّ الجسمَ ، قدِ ارْتَدَى الرماحَ التي دخلَتْ فيه .

١٠ ـ أحاربُ جيشَ أحزاني ، ومالي سوى دمعٍ ، أُرَقْرِقُهُ سلاحُ

وكأني أقاتلُ جيشَ أحزاني ، وليس لي في هذا القتالِ سلاحٌ غيرُ دمعٍ ، أحَرِّكُهُ بينَ أجفاني .

١١ ـ سينعاكَ الحَجيجُ غداً ، فتبكي عليكَ جبالُ مكةَ والبطاحُ

سَيُخْبِرُ بِموتِكَ الحُجّاجُ غداً ، فتبكيكَ جبالُ مكةَ ومجاري سيولِها .

١٢ ـ ولو لم تَقْفُكَ الدنيا بدمعٍ لطالَ عليكَ للدينِ المَناحُ

ولو لم يُشَيِّعْكَ ، وتتبَعْكَ الدنيا وأهلُها بالبكاءِ لطالَ عليكَ إلى يومِ الدينِ البكاءُ .

١٣ ـ لِمَنْ أدبٌ ، خُصِصْتَ بهِ ، وكَيسٌ وأخلاقٌ مُهَذَّبَةٌ سِجاحُ ؟

فَلِمَنْ تركْتَ العلمَ والأدبَ الّذَينِ خَصَّكَ اللهُ بِهما ، ومَنْ سَيَتَحلَّى بالعقلِ والأخلاقِ العظيمةِ اللَّيِّنةِ بعدَكَ ؟

١٤ ـ لِمَنْ تلكَ الرزانةُ والتَّأنِّي ؟ لِمَنْ تلكَ الأمانةُ والصلاحُ ؟

ولِمَنْ ذلكَ الوقارُ والتَّثَبُّتُ ؟ ولِمَنْ ذلكَ الصدقُ والصلاحُ ؟

١٥ ـ لِمَنْ تلكَ الفصاحةُ في مقالٍ ؟ شِعابُكَ في مضايِقِهِ فِساحُ

لمَنْ ذلكَ اللفظُ الحسنُ والبيانُ في قولِكَ ؟ إنَّ فنونَكَ في ما عَجِزَ عنهُ غيرُكَ كثيرةٌ واسعةٌ .

١٦ ـ تُقَلْقِلُ بينَ فَكَّيكَ ابنَ غِمدٍ صَليلُ غِرارِهِ الكَلِمُ الفِصاحُ

تُحرِّكُ لسانَكَ بينَ فَكَّيكَ ، فيكونُ قلمُكَ كالسيفِ ، منْ صَوتِ حَدِّهِ الكلامُ البليغُ المُبينُ .

١٧ ـ تَقَطُّ بِهِ مفاصِلَ كلِّ قولٍ نَبَتْ عنهُ المُهَنَّدَةُ الصِّفاحُ

وتقطعُ به حُجُزاتِ كلِّ قولٍ ، قَصَّرتْ عنهُ ضرباتُ السيوفِ المَشحوذَةِ في الهندِ .

١٨ ـ مَضَغْتَ الشيحَ والقيصومَ طِفلاً وحَسَّتْكَ الأفاويقَ اللِّقاحُ

نشأتَ في الباديةِ ، فكانَ طعامُكَ الشيحَ والقيصومَ ذا الرائحةِ الطيبةِ ، وشرابُكَ لبنَ النوقِ الحلوبِ المُجتمعِ في ضِرْعِها بينَ الحَلْبَتَينِ .

١٩ ـ ورَبَّكَ في بَجيلةَ أهلُ بيتٍ كتيبُهُمْ وجَفْنَتُهُمْ رَداحُ

واشتركَ في تربيتِكَ أهلُ بَجيلَةَ المَعروفون بالخُلُقِ الحسنِ والأعمالِ العظيمةِ ، وفِرَقُ جيشِهِمُ الشديدةُ وسيوفُهُمُ القاطعةُ .

٢٠ ـ تَدُكُّ جَماجمَ الأقرانِ قَدْماً كِباشُهُمُ إذا دُعِيَ النِّطاحُ

فإذا دَعا الأمرُ إلى الحربِ تتقدَّمُ الأَسيادُ ، وتَدُقُّ رؤوسَ أمثالِها ، وتكْسِرُها .

٢١ ـ وأيديهِمْ ، تَدَفَّقُ حينَ أيدي أولي المَعروفِ جامِدةٌ شِحاحُ

وأيديهمْ ليِّنةٌ ، تَصُبُّ العطاءَ صَبًّا حينَ تكونُ أيدي ذوي الأموالِ قاسيةً بَخيلةً .

٢٢ ـ فَمِنْ ثَمَّ امْتِصاصُكَ خيرَ ثَدْيٍ رضيعاكَ الحماسةُ والسَّماحُ

فمِنْ هناكَ مِنْ ذلكَ الأصلِ الطَّيِّبِ كنتَ ، فكانَ رَضاعُكَ منْ خيرِ ثديٍ ، وكانَ شريكَيكَ في الرَّضاعةِ الشَّجاعةُ وليـنُ الخُلُقِ .

٢٣ ـ فما أنسى كلامَكَ ، وهو عذبٌ يُشابُ بأَرْيِ أبكارٍ وراحُ

ولن أنسى كلامَكَ العذبَ الممزوجَ بالعسلِ المُشارِ بُكوراً وبالخمرِ الصِّرْفِ .

٢٤ ـ وفي سمعي تِلاوَتُكَ المَثاني وشِعْرُكَ والأحاديثُ المِلاحُ

وما زالَتْ تَتَرَدَّدُ في سَمْعي تلاوتُكَ آياتِ القرآنِ الكريمِ وما نَظَمْتَ منْ شعرٍ وما قُلْتَ منْ أحاديثَ حلوةٍ .

٢٥ ـ وصَوتُكَ غيرُ مَمْلولٍ لذيذٌ على الأسْماعِ همسُكَ والصِّياحُ

وإنْ أرَدْتُ أنْ أصفَ صوتَكَ فإنني أقولُ : إنهُ ذو جَرْسٍ رقيقٍ لذيذٍ ، تتقبَّلُ الأسْماعُ همسَكَ وصياحَكَ ، ولا تضيقُ به ذَرعاً .

٢٦ ـ سَوادُكَ سؤدَدٌ ، لا ريبَ فيهِ فَدَتْكَ بِحسنِها الصُّوَرُ الصِّباحُ

سَوادُ جسمِكَ مَجْدٌ وعِزَّةٌ وشرفٌ ، لا ريبَ فيهِ ، وقد فَدَتْكَ أشكالُ الجمالِ المُشْرِقةُ بحسنِها .

٢٧ ـ وما حُسْنُ الوجوهِ مُبَيِّضاً ما تُسَوِّدُهُ الأفاعيلُ القِباحُ

وليسَ حُسْنُ الوجوهِ ، يُبَيِّضُ الصحائفَ ، وإنَّما تُسَوِّدُها الأفعالُ الكريهةُ .

٢٨ ـ وفيكَ الأَلْمَعيَّةُ ، كادَ ، يُملي عليكَ الإخْتِتامَ الإفْتِتاحُ

وقد حباكَ اللهُ ذكاءً مُتَوَقِّداً ، كادَ ، يَجْعَلُكَ ، تَعْلَمُ اختِتامَ الأمورِ عندَ بدئِها .

٢٩ ـ رجيحُ العقلِ تَشْهَدُ أنَّ قوماً نَمَوكَ ، حَصَى عقولِهِمْ رَجاحُ

وأنت قويُّ العَقلِ ، تَعْلَمُ أنَّ قوماً ذكروكَ ، ورفَعوا من شأنِكَ ، وأنَّ لهم أفكاراً عظيمةً وعقولاً ، حَصاها ثقيلةٌ ، تَتَفَهَّمُ الأمورَ جيِّداً .

٣٠ ـ خُلِقْتَ منَ الحَياءِ ، ومَنْ هواهُ مَقيتاً عندَكَ الوجهُ الوقاحُ

وقد خَلَقَكَ اللهُ منْ طينةِ الحَياءِ ، ومَنْ كانَ ذا هوًى وطبعٍ كريهٍ ، فإنه ، يقابِلُكَ بوجهٍ قبيحٍ قليلِ الحَياءِ .

٣١ ـ فَعِشْتَ بماءِ وجهٍ ، لم يَغِضْهُ إلى نكراءَ مَغْدًى أو مَراحُ

عِشْتَ بماءِ وجهِكَ الذي حافظَ على لألاءِ العزِّ والشرفِ ، ولم يُقَلِّلْ منه أمرٌ مُنْكَرٌ بَشِعٌ ، أتاهُ بُكرَةً أو عَشِيًّا .

٣٢ ـ وكنتَ معَ الهُدَى طَوعاً أتِيًّا وإلاَّ فالتَّشَمُّسُ والطِّماحُ

وكنتَ تُسايرُ الهُدَى طائعاً راضياً إذا رأيتَهُ ، وإنْ لم تَرَهُ فإنكَ تعاندُ الشَّرَّ ، وتَشْتَدُّ لهُ ، وتخالفُهُ .

٣٣ ـ ولم تَشْهَدْ نَدِيَّ القومِ إلاّ أُطيلَ الجِدُّ ، واخْتُصِرَ المُزاحُ

ولم تَحْضُرْ مَجْلِسَ القومِ إلاّ كانَ الجِدُّ في أحاديثِهِمْ طويلاً والمُزاحُ مُخْتَصَراً قصيراً .

٣٤ ـ وكنتَ أنيسَ صِدْقٍ في أناسٍ لِصدرِ الحُرِّ بَعْدَهُمُ انْشِراحُ

وكانَ الناسُ يأنسونَ بك أُنسَ خيرٍ وصِدْقٍ ، ويجدُ المَرءُ الحُرُّ الشريفُ بحضورِكَ انشِراحاً لِصدرِهِ ، إنْ كانَ مهموماً مغموماً .

٣٥ ـ إذا اسْتَكْفَيتُكَ الجُلَّى كفاها أخو جِدٍّ تُعَلِّلُهُ مُزاحُ

إذا طَلَبْتُ منك أنْ تُعينَنيْ على أمورٍ عظيمةٍ أو هَيِّنةٍ حقيرةٍ ، كَفَيْتَنيها ، وكُنْتَ أخا جِدٍّ ، تُتْبِعُ الجِدَّ بالمُزاحِ لِيَسْهُلَ على الناسِ حَلُّ مُعْضِلاتِهِمْ .

٣٦ ـ وكُنْتَ إذا نُدِبْتَ إلى المساعي   هَبَبْـتَ بهـا ، ورَفَّ بـكَ المِـراحُ

وكنْتَ إذا دُعيتَ إلى أمرٍ عظيمٍ فيهِ مَشَقَّةٌ ، سَعَيتَ لهُ بما أُوتيتَ منْ نشاطٍ ، وأنْجَزْتَهُ على أحسنِ وجهٍ .

٣٧ ـ أصابَكَ فَرْدُ جُرْحٍ في عُضَيٍّ   ومنهُ بكلِّ عُضْوٍ لي جِراحُ

وأُصِبْتَ بجُرْحٍ واحدٍ في عُضْوٍ صغيرٍ لكَ ، وأحْسَسْتُ أنَّ بكلِّ عضوٍ لي في جسدي جِراحاً .

٣٨ ـ وفي الشهداءِ للمَجْنوبِ ذكْرٌ   أتَتْكَ بهِ الرواياتُ الصِّحاحُ

وقَضَيتَ بهذا الجُرْحِ شهيداً ، وقد قالَ رسولُ الله ﷺ : «المَجْنوبُ في سبيلِ اللهِ شهيدٌ» [أحمد ١/ ٤٤١] .

٣٩ ـ كأنَّكَ لم تُجِبْ في مُشْعِلاتٍ   جواباً فيهِ لِلغَلَقِ انفِتاحُ

قَضَيْتَ كأنَّكَ لم تَحْضُرْ مجالسَ عُرِضَتْ فيها أمورٌ صعبةٌ ، ولم يكنْ جوابُكَ فيها فَتْحٌ لانْغِلاقِها وسهولةٌ لِفهمِها .

٤٠ ـ كأنَّكَ لم تقلْ يا سَيِّدي لي   كأني لم أقُلْ لكَ : يا نجاحُ

قَضيتَ كأنَّكَ لم تكُنْ تلميذي وطالبَ علمٍ في حَلَقاتي ، تقولُ لي : يا سَيِّدي ، وكأني لم أردَّ عليكَ قائلاً : يا نجاحُ .

٤١ ـ تَبَدَّدَ شَمْلُنا ، ولقد رأَينا   تَناسُقَهُ كما نُظِمَ الوِشاحُ

وبقضائكَ تَفَرَّقَ جمعُنا بعدَ أنْ كانَ مُرَتَّباً مُنظَّماً كما زُيِّنَ وِشاحُ المرأةِ بأغلى الحُلِيِّ والدُرِّ .

٤٢ ـ وكم قومٍ ، تَناءَوا عنْ تَدانٍ   وكم أُممٍ ، تَرَقَّوا ، ثم طاحوا

وتلكَ حالُ الدنيا ، يَتقاربُ الناسُ فيها ، ثم يتباعدونَ ، ويَصْعَدونَ في مدارجِ الحياةِ ، ثم يَهْوُونَ في أعماقِ المَوتِ .

٤٣ ـ ومُلْكٍ قد أدالَتْهُ الليالي   فلما قَرَّ ، غافَصَهُ اجتِياحُ

وتُتيحُ الليالي للملكِ الغلبَةَ ، وما إنْ يستَقِرُّ لهُ [illegible] حتى يُفاجئَهُ الدَّمارُ والهلاكُ .

٤٤ ـ وما حَيٌّ على الحِدْثانِ باقٍ   وكُلَّ حِمًى منيعٍ مُسْتباحُ

وما دامَتْ حياةٌ لأحدٍ ، وما بقيَتْ دارٌ مصونةٌ إلاّ والهلاكُ والاستِئصالُ يقضي عليها .

☆☆ ٣ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الشيبِ :

١ ـ تجاوَدَ في فَودَيَّ لونانِ : مُفْرِحٌ يُخَفِّفُ عَنْ قلبي وآخَرُ مُقْرِحُ

تسابَقَ في جانبَي رأسي قُرْبَ أُذُنَيَّ لونانِ : أَسْوَدُ ، يُفرِحني ، ويقولُ لي : ما زلْتَ شابًّا ، وأبيضُ ، يَجْرَحُني ، فَيُقْرِحُني ، ويؤلِمُني ، ويُهَدِّدُني بقربِ موتي .

٢ ـ وبِعْتُ الصِّبا ثم الشبيبةَ بعدَهُ فيا ليتَ شعري أيُّ بَيْعَيَّ أربَحُ ؟

وبِعْتُ الشبابَ ثم الفُتُوَّةَ بعدَهُ ، وليتني أعلمُ أيُّ بيعٍ منهما ، يأتيني بالربحِ الأوفرِ ؟

٣ ـ فإنْ كانَ هذا الشيبُ عَوني على التُّقَى فيا شيبُ أفلِحْ إنِّي بكَ مُفْلِحُ

فإن كانَ شَيبي ، يُعينُني على الوَرعِ والتُّقَى ، فإني ، أطلبُ منهُ أنْ يَجِدَّ في نشرِهِ في رأسي لأنني أرى فلاحي في الحياةِ بِفلاحِهِ .

☆☆ ٤ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الزهدِ :

١ ـ يُمَوِّهُ قومي بالتَّنَصُّحِ لومَهُمْ وإنَّ عناءً لَومُهُمْ والتَّنَصُّحُ

أرادَ قومي أنْ يَلوموني ، فوجدوا في لومِهِمْ قسوةً ، فرأَوا أنْ يَتَحَدَّثوا عنِ الموضوعِ الذي يريدونَ أنْ يلوموني فيه ناصِحينَ ، فكانَ ذلكَ النُّصْحُ واللومُ تَعَباً لأنفسهمْ وإرهاقاً .

٢ ـ يلومونَني أني نأَيتُ بجانبي عنِ النسلِ ألوي عنهُ رأسي ، وأجْمَعُ

يَعْذُلونني لأني أبْعَدْتُ نفسي عنِ النسلِ ، وعَدَلْتُ عنه فكري ، وأصْرَرْتُ على الابْتِعادِ عنهُ .

٣ ـ أتَلْحونَ لَوّاماً على النسلِ أهلَهُ ؟ إذا لم يُفِدْكَ القولُ ، فالصمتُ أصلَحُ

أتلومونَ مَنْ يَعْذُلُ أهلَهُ لحُبِّهِمُ النسلَ والأولادَ ؟ فإذا لم تَسْتَفِدْ يا صديقي بحُجَّتي فصمتي أفضلُ منَ الكلامِ .

٤ ـ كأنكُمْ لم تَسمعوا أنَّ مَنْ لهُ عيالٌ شَقِيٌّ دهرَهُ ، ليسَ يُفْلِحُ

وكأنكُمْ لم تسمَعوا ، أو تَرَوا مَنْ كَثُرَتْ أفرادُ أسرتِهِ عاشَ شقِيًّا طولَ دهرِهِ ، لا يجدُ سعادَةً وخيراً كثيراً .

٥ ـ قبيحٌ بِمثلي ، والبنونَ كما أرى جنودُ فسادٍ ليسَ في الألْفِ مُصْلِحُ

وإنَّ حالَ رجلٍ مثلي كريهٌ ، إنْ كانَ لهُ أولادٌ ، أنْ يكونَ من أولادِهِ ضالٌّ غيرُ صالحٍ ، كما أرى ، وتَرَونَ أنَّ البنينَ جيشُ فسادٍ وضلالٍ ، ليسَ في أَلْفِهِمْ صالحٌ واحدٌ .

٦ ـ تَصَدٍّ لِنَسْلٍ مِثْلِهِمْ ، إنَّ فِعْلَ مَنْ يُوَلِّدُ فَعَّالَ القبائحِ أقبحُ

وأنْ يَتَعَرَّضَ لإنجابِ نسلٍ مثلِهِمْ لأنَّ عملَ مَنْ يَنْتُجُ عنهُ المكارِهُ أكثرُ كُرْهاً ومَقْتاً منَ

البقاءِ بلا نسلٍ .

٧ ـ إذا ارتكَبَ الاِبْنُ الخَليعُ فضيحةً فــذاكَ لَعَمْــرُ اللهِ لــلأبِ أفضَــحُ

فإذا قامَ الاِبْنُ الطائشُ العاقُّ بعملٍ سيِّئٍ ، فإنَّ ذلكَ ، وايمُ الله ، أضرُّ وأسوأُ على الأبِ .

٨ ـ وكلُّ صنيعٍ ، ليسَ للنفعِ جالباً وجَـرَّ وجـوهَ الضُّـرِّ ، فـالتـركُ أروَحُ

وكلُّ عملٍ لا يأتي بالفائدةِ ، ويكونُ سبباً في حدوثِ ألوانِ الشَّرِّ والضُّرِّ ، فتركُهُ قَصْداً للراحةِ والاِطْمِئنانِ أفضلُ مِنْ قَصْدِ النَّسْلِ والأولادِ .

☆☆ ٥ ـ وقالَ على بحرِ الرملِ في الشكوى :

١ ـ لِــيَ فــي الــدنيــا سهــامٌ ليــــسَ فيهــــنَّ ربيــــحُ

إنَّ لي في هذه الدنيا أنصباءَ ، لم أجِدْ في واحدٍ منها ربحاً .

٢ ـ فــأســاميهُــنَّ : وَغْــدٌ وسَفيــــــحٌ ومَنيــــــحُ

فأسماؤُها : وغْدٌ وسَفيحٌ ومَنيحٌ ، وهي أسماءُ قِداحِ المَيْسِرِ التي ليس لها إلاَّ الوهمُ الذي يَجْلُبُ الهمَّ على رامي القِداحِ .

☆☆ ٦ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المَدحِ :

١ ـ فـؤادٌ بِهُجـرانِ الحبيـبِ قـريـحُ وشِلْـوٌ بـأنيـابِ الـزمـانِ جـريـحُ

إنَّ قلبي بصرْمِ الحبيبِ أليمٌ ، وجسمي بأحداثِ الزمانِ ومصائبِهِ ملآنٌ بالكلومِ .

٢ ـ ونفـسٌ علـى مَـسِّ الهَـوانِ أَبيـةٌ وطَـرْفٌ إلـى نَيـلِ العـلا طَمـوحُ

ونفسي تَعافُ ، وتكرَهُ قربَ الذُّلِّ منها ولَمْسِهِ إياها ، ونظري وأملي بالحصولِ على الأمجادِ رفيعٌ .

٣ ـ وفضلٌ ، مَناطُ النجمِ أدنى مَحَلِّهِ ولكنــهُ تحــتَ التــرابِ طَـريــحُ

وفضلي ، أقربُ مكانٍ لهُ مَداراتُ النجومِ ، لكنه مَرميٌّ بعيداً ، كأنهُ تحتَ الترابِ ، لا يستفيدُ منه أحدٌ .

٤ ـ مَبيعٌ أراهُ فـي المَـواسـمِ خـاسـراً وكـلُّ مَبيـعٍ ، مـا خـلاهُ ، ربيـحُ

وأعرِضُهُ على الناسِ في أوقاتٍ ، همْ في أشدِّ الحاجةِ إليهِ ، فأرتَدُّ خاسراً ، وكلُّ شيءٍ يُعرَضُ للبيعِ ، ما عدَاهُ ، يُباعُ بربحٍ وفيرٍ .

٥ ـ ويا رُبَّ ربحٍ ، قد توقَّعْتُ كونَهُ فقـد صَـحَّ عنـدي أنَّ ذلـكَ ريـحُ

وكنتُ قَد توقَّعْتُ في حياتي أرباحاً كثيرةً ، لكنني وجَدْتُ ذلكَ التوقُّعَ ريحاً هوجاءَ ، لا تأتي بشيءٍ .

٦ ـ وأهلِ زمانٍ قد تَقَضَّى صَريحُهمْ فلم يبقَ في أهلِ الزمانِ صريحُ

وتوقَّعْتُ ناساً في هذا الزمانِ خُلصاءَ أصفياءَ ، فوجدْت أنَّ صافِيَهُمْ وخالصَهُمْ قدِ انْتَهى ، وكأنَّ الصفاءَ والنقاءَ ، قد امَّحى مِنَ الوجودِ .

٧ ـ فأولاءِ ؛ أمَّا المَكْرُماتُ لديهمُ فَمَرْضَى ، وأمَّا لؤمُهُمْ فصحيحُ

وكأنَّ المَكْرُماتِ فيهمْ قدِ اعْتَلَّتْ ، وسَقِمَتْ ، وبقيَ لؤمُهُمْ صحيحاً مُعافًى .

٨ ـ ومِثْلانِ : ذو نَقصٍ لديهِمُ وفاضلٌ وسِيَّانِ منهمْ مُفْحَمٌ وفَصيحُ

وعندَهُمْ : ناقصٌ وفاضلٌ شبيهانِ ، وسواءٌ : عَيِيٌّ وفصيحٌ .

٩ ـ وكائنْ تَرَى منْ ذي محاسنَ؛ وجهُهُ صبيحٌ ، ووجهُ الفعلِ منهُ قبيحُ

وكم منْ إنسانٍ ذي خِلْقةٍ جميلةٍ : ترى فيه وجهاً مُشْرِقاً إشراقةَ الصباحِ وفِعْلاً قَبيحاً قُبْحاً كريهاً .

١٠ ـ فيا ليتَ ذاكَ القبحَ كانَ بوجهِهِ ويا ليتَ وجهَ الفِعْلِ منهُ صبيحُ

فتقولُ : ليتَ قبحَ فعلِهِ ، صارَ بوجهِهِ ، وحُسْنَ وجهِهِ ، أصبحَ في فعلِهِ .

١١ ـ ويا ليتَ شعري هل لِقِدْحِيَ فوزةٌ وهل لي طيرٌ في الطيورِ سَنيحُ

وتقولُ : ليتني أرى لسهمي نجاحاً ، وأرى طيري ، قد اتَّجَهَ منَ اليسارِ إلى اليمينِ ، فأتفاءلَ به .

١٢ ـ ولا يأسَ منْ إحياءِ مَوْتَى مَطالبي فإنَّ ندى كفِّ الوزيرِ مَسيحُ

وإني لن أقْنَطَ منْ بعثِ مَطالبي وآمالي التي انْقَضَتْ لأنَّ كرمَ يدِ الوزيرِ عُبيدِ اللهِ كثيرٌ مُبارَكٌ .

١٣ ـ يقولُ الذي يَلْقَى غرائبَ جودِهِ : لقد نُفِخَتْ في البَرْمَكِيَّةِ روحُ

ويقولُ مَنْ يرى عطاءَ الوزيرِ الذي بلغَ أبعدَ الغاياتِ : إنَّ روحَ البرامكةِ الكريمَةَ التي ماتَتْ ، قد بُعِثَتْ منْ جديدٍ .

١٤ ـ فِداءُ عُبيدِ اللهِ ذي الجودِ والنَّدَى بطيءُ القِرَى جَعْدُ البنانِ شحيحُ

وإنَّ مَنْ يريدُ أن يَفْدِيَ عُبيدَ اللهِ صاحبَ الكرمِ والجودِ يجدُ نفسَهُ ، لا تُدركُ قدرَهُ ، ولا يستطيعُ أنْ يُضيفَهُ بأسرعِ وقتٍ وأنْ يبْسُطَ كفَّهُ للعطاءِ لِبُخْلِهِ وقِصَرِ أصابعِهِ .

١٥ ـ شحيحٌ بِجدواهُ، جوادٌ بعرضِهِ   سـواءٌ هجـاءٌ عنـدَهُ ومـديـحُ
وهو إنْ بَخِلَ بما وَجَبَ أنْ يصونَهُ منْ حَسَبِهِ ونفسِهِ فهو سَخِيٌّ بعطائِهِ ، يَرَى الهجاءَ والمديحَ فيهما سواءً .

١٦ ـ إذا نَـدَبـوهُ للمسـاعـي فـإنـهُ   حَـرونٌ ونحـوَ المُخْـزيـاتِ سبـوحُ
وإذا دُعِيَ إلى أمرٍ عظيمٍ فإنهُ يَثْبُتُ في مكانِهِ ، لا يَبْرَحُهُ ليقومَ بواجِبِه نحوَهُ ، وإذا لاحَ له أمرٌ حَقيرٌ ، فيهِ فضيحةٌ وعارٌ ، فإنهُ ينصرفُ عنهُ كأنهُ ، يسبحُ في الفضاءِ .

١٧ ـ إذا باتَ رَكَّابُ الفواحشِ كلِّها   غـدا ، وهـو ذَيَّـالُ القميـصِ صَـروحُ
وإذا أتَى الليلُ على مَنْ يقومُ بأعمالِ السوءِ والحرامِ كلِّها ، فإنهُ يَظهرُ للناسِ في اليومِ التالي مختالاً ، يَجُرُّ ذيلَ ثوبِهِ مُجاهراً بما قامَ به دونَ استِحياءٍ أو خَجَلٍ .

١٨ ـ ولكـنْ عُبَيـدُ اللهِ ، آيـاتُ مَجْـدِهِ   دراريُّ ، لـم يُنْكَـرْ لهـنَّ وُضـوحُ
ولِعُبَيدِ اللهِ أمجادٌ ، أعلامُها كالدُّرَرِ والجواهرِ الكبيرةِ واضحةٌ جليَّةٌ ، لا يستطيعُ أحدٌ أنْ يَنْتَقِصَ منْ قدرِها ، أو يُنْكِرَ وُجودَها .

١٩ ـ كريمٌ على الصنعِ الكريمِ مُكافِئٌ   عظيـمٌ ، عـنِ الـذنـبِ العظيـمِ صَفـوحُ
فهو جوادٌ ، يُجازي منْ يُقَدِّمُ له مَعْروفاً بأفضلَ منهُ ، عظيمٌ لأنهُ سَمُوحٌ ، صَفوحٌ ، عَفُوٌّ عنِ الذنبِ الكبيرِ .

٢٠ ـ يروحُ ، ويغدو للمحامِدِ كاسباً   ولِلَّهْـوِ يَغْـدُو غيـرُهُ ، ويـروحُ
ويُسرِعُ إلى الأمجادِ مساءً وصباحاً ، فيكسَبُ العودةَ ظافراً . أمَّا غيرُهُ فإنهُ يُسْرِعُ إلى اللهوِ واللعِبِ والعبثِ صباحاً ومساءً أيضاً .

٢١ ـ إذا ما اسْتَقَى منْ حُبِّ خَمْرٍ صَبوحُهُ   فَمِـنْ حُـبِّ خيـرٍ للـوزيـرِ صَبـوحُ
وإذا ما طَلَبَ أحدٌ شرابَ الصباحِ الطَّيِّبِ فإنه يطلُبُ حُبَّ خيرِ الوزيرِ الذي يُصَبِّحُ الناسَ بهِ .

٢٢ ـ نزا نَزْوةَ الشبانِ ، ثم تَطامَنَتْ   بـهِ تـوبَـةٌ قبـلَ المَشيـبِ نَصـوحُ
وكانَ قد صَبا صَبْوَةَ الشبابِ ، ثم هدأَتْ نفسُهُ بالتوبةِ الخالصةِ قبلَ أنْ يأتيَ وقتُ الشيبِ .

٢٣ ـ فمـا زالَ تُصبيـهِ مسـاعٍ جميلـةٌ   ولـم يُصْبِـهِ خِشْـفٌ أغَـنُّ مليـحُ
فما زالَ تَشوقُهُ مطالبُ حبيبةٌ ، ولم يُثِرْهُ غلامٌ ذو صوتٍ طروبٍ حَسَنُ الخِلْقَةِ .

٢٤ ـ يحوطُ حريمَ المُلْكِ أروعُ حازمٌ   شفيـــقٌ أميـــنٌ للملـــوكِ نَصـــوحُ

يتعاهَدُ أمورَ نساءِ المُلْكِ أخوفُ شديدٌ في تسويةِ الأمورِ رحيمٌ ذو أمانةٍ ، يُحافظُ على أسرارِ المُلوكِ ، كثيرُ النُّصْحِ لهم .

٢٥ ـ ولو ضاقَ خَطْوٌ في مدارجِ خُطَّةٍ   لكـــانَ لهـــم خَطْـــوٌ هنـــاكَ فسيـــحُ

ولو ضاقَ سَيرٌ شديدٌ في مسالكَ ومصاعدَ طريقٍ مدروسٍ كانَ لِعُبَيدِ اللهِ سَيْرٌ واسعٌ فيهِ .

٢٦ ـ ولو لم يكنْ سَعْيٌ نجيعٌ لواحدٍ   لكـــانَ لـــهُ سَعْـــيٌ هنـــاكَ نجيـــحُ

ولو لم تكُنْ مكرُمَـةٌ مفيدةٌ لرجلٍ واحدٍ لكانَتْ لهُ مَكْرُمَةٌ واحدةٌ ، يفيدُ بِها الرجالَ كلَّهُمْ .

٢٧ ـ ورأيٌ وعَزْمٌ كالشهابِ كلاهما   فِكْـــرٌ لأِعقـــابِ الأمـــورِ لَمُـــوحُ

وإنَّ لهُ نظراً وهِمَّةً كالنارِ الساطعةِ ، ونظراً عميقاً سريعاً للأمورِ وأبعادِها ونِهاياتِها .

٢٨ ـ صيامُكَ في كلِّ الصياماتِ غُرَّةٌ   مُشَهَّـــرَةٌ مـــا بينهـــنَّ تلـــوحُ

وصومُكَ وسكوتُكَ في كلِّ أوقاتِ السكوتِ والصومِ أوَّلٌ ؛ تبدو آثارُهُ ، ويَعْلَمُها الناسُ تِباعاً .

٢٩ ـ لكَ الصَّدَقاتُ البيضُ فيهِ، ودونَها   مـــوائـــدُ أشبـــاهٌ لصـــدرِكَ فسيـــحُ

وتبذُلُ صدقاتِكَ البيضاءَ في كلِّ وقتٍ ، وتقيمُ الموائدَ والولائمَ الواسعةَ التي تشبهُ صدرَكَ الفسيحَ .

٣٠ ـ فبورِكْتَ في عَشْرٍ وفِطْرٍ عَقِيبَها   وحَيَّـــاكَ عيـــدٌ للسعـــودِ مُتيـــحُ

وإني لأدعو اللهَ أنْ يبارِكَ لكَ في الأيامِ العشرَةِ قبلَ عيدِ الفطرِ وفي الفِطْرِ الذي تقيمُهُ للصائمينَ بعدَها ، ويجعلَ العيدَ تحيةَ السرورِ والهناءةِ مقدَّرةً لكَ .

٣١ ـ ونِلْتَ ثوابَ العاكفينَ ، فَسِرْ بِهِمْ   لِنُعمـــاكَ فـــي روضِ الأمـــانِ سَـــروحُ

وأن يُصيبَكَ أجرُ المُواظبينَ على الإقامةِ والتَّفَكُّرِ والصلاةِ في المسجدِ ، فكُنْ قائدَهمْ لِيَكونَ النعيمُ في رياضِ الأمنِ مُسرعاً إليكَ .

☆☆ ٧ ـ وقالَ على بحرِ المُجْتَثِّ في المَدحِ :

١ ـ   مَسَـــــــرَّةُ الأرواحِ   مـــع الـــوجـــوهِ الصِّبـــاحِ

إنَّ فرحةَ الأرواحِ والنفوسِ بالنظرِ إلى الوجوهِ المُشرقةِ في الصباحِ .

٢ ـ   هـــي الـــريـــاضُ فَـــورْدٌ   ونـــرجـــسٌ وأقـــاحِ

هي الحدائقُ الغنّاءُ ، إذ فيها أنواعُ الزهورِ كالوردِ والنرجسِ والأقحوانِ .

٣ ـ فَسِرْ إليها ، وبادِرْ وطِرْ خَفوقَ الجَناحِ

فاذهبْ إليها ، وأسرِعْ كالطيرِ خَفّاقَ الجَناحِ .

٤ ـ حتى تَنَزَّهَ فيها في غُدْوَةٍ ورَواحِ

حتى تَسْعَدَ فيها في الصباحِ الباكرِ والمساءِ المتأخِّرِ .

٥ ـ دعِ الربيعَ ، وَدَعْ فيهِ كلَّ رَوحٍ وراحِ

واترُكْ أيامَ الربيعِ واتْرُكْ فيه كلَّ نسيمٍ رقيقٍ وكلَّ أنواعِ الخمرةِ .

٦ ـ أما كفاكَ ربيعٌ بِهؤلاءِ المِلاحِ

ألَمْ تكتفِ بربيعٍ ، كانَتْ أزهارُهُ هؤلاءِ النساءَ الحسانَ .

٧ ـ الناسُ ليلٌ وأبناءُ يافثٍ كالصباحِ

فالناسُ سودٌ كالليلِ ، والتركُ أولادُ يافثَ بيضُ الجسومِ كأنوارِ الصباحِ .

٨ ـ عيونُهُمْ كم أعلَّتْ مِنَ القلوبِ الصِّحاحِ

وكم قلبٍ صحيحٍ أسقَمَتْ عيونُهُمْ ، فلم تُشْفِها .

٩ ـ إنْ كُنَّ لَسْنَ بِنُجْلٍ فَهُنَّ نُجْلُ الجراحِ

فإنْ كانَتْ عيونُهمْ ، ليسَتْ واسعةً ، فإنَّ الجِراحَ التي تُخَلِّفُها في القلوبِ واسعةٌ عميقةٌ .

١٠ ـ عيونُهُمْ، حَسْبُهُمْ لو غَزَوا بغيرِ سلاحِ

فعيونُهُمْ ، تكفيهِمْ للنصرِ إذا أرادوا غَزْوَ أمَّةٍ بغيرِ سلاحٍ .

١١ ـ إنّي أسيرُ غرامٍ بِهذِهِ الأشباحِ

وأنا حبيسُ حبِّ هذهِ الأشخاصِ .

١٢ ـ ولا أرعَوي لِنَصيحٍ ولا يلينُ جِماحي

ولا أستمعُ لِمَنْ يَنصحُني لأتوبَ عنِ الصبابةِ ، ولا تَسْهُلُ غَلَبةُ نَزْوتي .

١٣ ـ وإنْ وَشَى بيَ واشٍ وإنْ لحاني لاحي

وإنْ نَمَّ عني أحدٌ أحاديثَ وأعمالاً ، كانتْ ، أو لم تكنْ ، وإنْ لامني لائمٌ .

١٤ ـ يا معشراً خُلِقوا سالبينَ للأرواحِ

فيا جماعةً ويا رفقةً كأنَّ اللهَ ، خَلَقَكُمْ لِتَختَلِسوا الأنفسَ والقلوبَ .

١٥ ـ بـالله لا تقتلـونـي إنـي امـرؤٌ ذو صـلاحِ

فبالله أستحلِفكُمْ أنْ تُخفِّفوا عني ، ولا تُجْهِزوا عَليَّ فإني إنسانٌ ، أحبُّ الخيرَ ، وأعملُ له .

١٦ ـ وقتـلُ مثلـي حـرامٌ فـي الـديـنِ غيـرُ مُبـاحِ

وإنَّ قتلَ أحدٍ مثلي ، يُحَرِّمُهُ الدينُ ، ولا يَسْمَحُ بهِ .

١٧ ـ لقـد أُتيـحَ علـيَّ الـ ـهَـوَى بغيـرِ جُنـاحِ

وقد فُرِضَ عليَّ الحبُّ والهوى بغيرِ إثمٍ ، جَنَيْتُهُ .

١٨ ـ وهـل يُعـاقَـبُ خَلْـقٌ علـى القضـاءِ المُتـاحِ ؟

وهل في الأحكامِ عقابٌ لِناسٍ بِقَدَرٍ مفروضٍ عليهمْ ؟

١٩ ـ عِـدا الأميـرِ اقْصِـدوهـمْ بـالقتـلِ والاِجتيـاحِ

وتَحَوَّلوا عني ، واذهبوا إلى أعداءِ الأميرِ ، واقتلوهمْ ، واستأصِلوهُمْ ، ولا تُبقوا منهم أحداً .

٢٠ ـ هُـمُ أحـقُّ وأولَـى مِـنَ الـوَلـيِّ الصُّـراحِ

فهم أحقُّ بالقتلِ وأجْدَرُ مِنَ الصديقِ ذي الأصلِ الكريمِ والعملِ الخالصِ منَ الشَّرِّ والأذى .

٢١ ـ إنـي لِفَخـرِ المَعـالـي لأَمـدَحُ المُـدَّاحِ

وإني لِفَخْرِ المَعالي لأفضلُ مادحٍ ذاكرٍ محاسنَهُ .

٢٢ ـ عليـهِ كـلُّ امتِـداحـي ومنـهُ كـلُّ امتيَـاحـي

وعليهِ أطلقْتُ كلَّ معاني المَدحِ وألفاظهِ ، ومنهُ طلبتُ الفضلَ والإكرامَ .

٢٣ ـ طَلَّقْـتُ مـدحَ سـواهُ مـنْ قبـلِ عقـدِ النكـاحِ

وتركْتُ مدحَ غيرِهِ هاجراً إيَّاهُ قبلَ كتابةِ عقدِ زواجِهِ .

٢٤ ـ وكيـفَ يُثنـي كـريـمٌ علـى اللئـامِ الشِّحـاحِ ؟

وكيفَ يَمْدَحُ كريمٌ شريفٌ عزيزُ النفسِ رجالاً بُخلاءَ لئاماً ؟

٢٥ ـ لَهُـمْ أسـامٍ حسـانٌ إلـى مَعـانٍ قبـاحِ

أسماؤهُمْ جميلة ، تَذهبُ معانيها بأعمالِهِمُ السَّيِّئَةِ إلى أقبحِ وأشنعِ الصُّوَرِ .

٢٦ ـ هـمُ لـديَّ زِقـاقٌ مَمْلـوءةٌ مـنْ رِيـاحِ

وهمْ عندي أسقيَةٌ ، لا تُملأُ إلاَّ بالرِّياحِ .

٢٧ ـ لا يَصْلُحُ المَدْحُ إلاَّ لِلسَّيِّدِ المُسْتمَاحِ

إذ لا يستقيمُ المدحُ ، ولا يحسنُ إلاَّ للشريفِ الكريمِ الذي كثُرَ نفعُهُ وعطاؤهُ .

٢٨ ـ إنَّ السَّماحَ ، لبابِ الثَّناءِ كالمِفْتاحِ

وإنَّ الكَرَمَ والجودَ واللِّينَ مِفتاحُ بابِ المَدحِ .

٢٩ ـ لذي السَّعاداتِ دونَ الوَرَى مُعَلَّى القِداحِ

وسابعُ سهامِ المَيْسر لصاحبِ المَسَرَّاتِ دونَ الناسِ كلِّهِمْ .

٣٠ ـ صحيفةُ المَجْدِ ، تُقْرَا مِنْ وجهِهِ الوضَّاحِ

وأخبارُ العِزِّ والشرفِ ، تُكْتَبُ في صحيفةٍ ، يُنَوِّرُ حروفَها وجْهُهُ المشرقُ ، فتسهُلُ على الناسِ قراءتُها .

٣١ ـ بَحْرٌ خِضَمٌّ لَدَيهِ البُحورُ كالضحْضاحِ

وهو بَحْرٌ كثيرُ الأمواجِ في الكرمِ ، أمَّا غيرُهُ فهم بحورٌ قليلةُ المِياهِ والعطاءِ .

٣٢ ـ ما زالَ ، يرنو بِطَرْفٍ إلى العُلا طَمَّاحِ

وقد سما إلى المَجدِ ، وما زالَ ، ينظُرُ إلى أعلى درجاتِ المَجدِ والعِزِّ .

٣٣ ـ يجري إلى المَجْدِ جَرْيَ الـمُطَهَّمِ السَّبَّاحِ

ويسعى إلى العزِّ والشرفِ سعيَ كاملِ الجمالِ والسلاحِ السريعِ فَيَتَراءَى للناسِ كأنهُ يسبَحُ في الفضاءِ .

٣٤ ـ يَخْتالُ في غُرَرِ المَكْرُماتِ والأوضاحِ

يَمشي مُخْتالاً متكبِّراً لأنهُ السَّبَّاقُ إلى الأعمالِ العظيمةِ الواضحةِ .

٣٥ ـ لا شيءَ ، يُشْبِهُ صَدْرَ الأميرِ في الانِفساحِ

وللأميرِ صَدْرٌ فسيحٌ واسعٌ ، لا مثيلَ لهُ في السَّعَةِ .

٣٦ ـ سِوَى سُرادِقِهِ أو فِنائِهِ الفوَّاحِ

إلاَّ بيتُهُ الواسعُ أو ساحتُهُ التي تَنْتَشِرُ منها الروائحُ العَطِرَةُ الطَّيِّبةُ .

٣٧ ـ تَهْتَزُّ زَهْواً بِهِ الأرْضُ مِنْ جميعِ النواحي

تتمايلُ الأرضُ فَخْراً بعزِّهِ ومجدِهِ منْ جميعِ أطرافِها .

٣٨ ـ وليسَ ، يخطو عليها بِنَخْوَةٍ ومَراحِ

إذ لا يَمشي عليها أحدٌ غيرُهُ مُفْتَخِراً مُخْتالاً بنفسِهِ .

٣٩ ـ مِسْكٌ سحيقٌ تراها مِنْ ذكرِهِ النَّفّاحِ

ويَنْشُرُ ذكْرَاهُ العظيمُ ذو الفضائِلِ العطرةِ طِيباً كما يَنْشُرُ المِسكُ المَدقوقُ دقًّا جيّداً روائحَهُ الطَّيِّبَةَ .

٤٠ ـ أقلامُهُ ، لَعِبَتْ بالمُهَنَّداتِ الصِّفاحِ

أمَّا آدابُهُ ، فقد سَجَّلَتْها أقلامٌ ، جَعَلَتِ السيوفَ الرقيقةَ المشحوذةَ في الهِند دُمْيَتَها وأُلعوبَتَها .

٤١ ـ تصولُ ، وهي قِصارٌ على طِوالِ الرماحِ

تُطاوِلُ ، وتسطو ، وهي قصيرةٌ ، على الرماحِ الطويلةِ .

٤٢ ـ مِنْ أينَ يَخْفَى عليهِ في المُلْكِ وجْهُ الصَّلاحِ ؟

مِنْ أيِّ وجهٍ يَسْتَتِرُ عليه أمرُ صَلاحِ المُلْك ؟

٤٣ ـ ورأيُهُ في دُجَى المُشْكِلاتِ كالمِصباحِ

وتدبيرُهُ في إنارةِ ظلماتِ الأمورِ الصَّعْبَةِ مثلُ المِصباحِ المُنيرِ في الليالي المُظلمةِ .

٤٤ ـ يرتاحُ شوقاً إليكَ الرْرَبيعُ أيَّ ارتياحِ

وينتظِرُكَ الربيعُ مشتاقاً ، ويجدُ في حُلولِكَ ارتياحاً كبيراً عجيباً .

٤٥ ـ يرجو الحلولَ ، ولكنْ يَخافُ وَشْكَ البَراحِ

ويأمُلُ في بلوغِكَ السرورَ والسعادةَ ، لكنه يحسَبُ ألفَ حسابٍ مُتَخَوِّفاً قُرْبَ نِهايةِ زيارتِكَ وذهابِكَ .

٤٦ ـ فَروضُهُ في ابتسامٍ وطَيْرُهُ في مَناحِ

فحدائِقُهُ زهرُ الربيع في تَفَتُّحِهِ وآمالٌ في إقبالِهِ ، وطيورُهُ دائمةُ التغريدِ بِسَجْعٍ حَزِينٍ .

٤٧ ـ يَسوقُ نحوَكَ وَفْدَي سعادةٍ وفلاحِ

ويأتي إليكَ مصطَحِباً جماعتَينِ : الأولى : السرورُ والفرحُ ، والثانيةُ : الفوزُ والنجاةُ والبقاءُ في الخيرِ .

٤٨ ـ فاسْعَدْ ، وَصِلْ كُلَّ أُمْنِيَّةٍ بِحَبْلِ النجاحِ

فاهنَأْ يا فَخْرَ المَعالي ، واربِطْ كلَّ أُمنيَّةٍ بصلةِ النجاحِ .

٤٩ ـ وجُدْ عليَّ ، أُجِدْ في الثْثَناءِ والامتِداحِ

واسْخُ عليَّ بعطائِكَ ، أُقَدِّمْ إليكَ أفضَلَ المَديحِ والثناءِ .

٥٠ ـ فإنَّني بَحْرُ فَضْلٍ وأنتَ بَحْرُ السماحِ

وقد صِرْتُ بَحْراً في الكلامِ بفضلِكَ ، وأنت بحرٌ في الجودِ والسخاءِ ولينِ الخُلُقِ .

☆☆ ٨ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المَدحِ :

١ ـ أعينوا على بَرْحٍ أقاسيهِ بارحٍ لِسانِحِ هَمٍّ ، يعتريني وبارحِ

ساعدوني على تَحَمُّلِ شدَّةٍ ، أعاني منها ؛ أتَتْني كالطيرِ المُتَّجِهِ منَ اليمينِ إلى اليسارِ الذي يُتشاءَمُ منهُ ، وهمٍّ ، يُصيبُني ، ويُضْنيني ، وعلى إيجادِ طريقةٍ ، تشبهُ طريقةَ الطيرِ الذي أتفاءَلُ به ، والذي يتَّجهُ منَ اليسارِ إلى اليمينِ ، فيدفعُ عني ذلكَ العذابَ .

٢ ـ أعينوا على عينٍ ، أكَفْكِفُ دمعَها ويَغْلِبُني فيضُ الشؤونِ السَّوافِحِ

ساعدوا عيناً ، أمسَحُ دمعَها ، لَعلَّهُ يرتَدُّ عنِ الهُطولِ ، لكنَّ زيادَتَهُ وشِدَّةَ تَهطالِهِ ، غَلَبَتْ مَجارِيَهُ ، ومَنَعَتْها منَ الانقِباضِ لِرَدِّها .

٣ ـ أعينوا أخاً لمْ يُبْقِ منهُ الهوى سوى خيالٍ لرأيِ العينِ ، ليسَ بلائحِ

ساعدوا أخاً لكمْ ، لم يترِكِ الهوى منهُ إلاّ خيالاً ، لا تراهُ العينُ ، ولا يلوحُ لها .

٤ ـ يَحِنُّ اشتياقاً حينَ يسمَعُ ، أو يرى سنى البرقِ أو سَجْعَ الحمامِ النوائحِ

يَئِنُّ حنيناً حينَ يرى ضوءَ البرقِ ، أو يسمعُ ترديدَ أصواتِ الحمامِ الباكياتِ .

٥ ـ يَحِنُّ إلى سُعْدَى ، ودونَ مزارِها صحاصِحُ بيدٍ دونَ بيدٍ صَحاصحِ

يَشتاقُ إلى محبوبتِهِ سُعْدَى ، وبينَهُ وبينَ بيتِها فَلَواتٌ مستويةٌ واسعةٌ ، تفصِلُها فَلَواتٌ أخرى .

٦ ـ ومَنْ لأخي الجسمِ العليلِ بِقَطْعِها وأعْيَتْ على أهلِ الجسومِ الصحائحِ

ومَنْ يَتصَدَّى لمُساعدةِ صاحِبِ الجسمِ السقيمِ ، ويقطعُ هذه الصحاريَ معهُ ، وقد عجزَ عنها أصحابُ الأجسامِ الصحيحةِ ؟

٧ ـ غَمَرْتُ بِفضلي والتَّعَفُّفِ وصمةً أصابَتْ بها الأيامُ بعضَ جَوارحي

وكان لي فضلٌ وعفةٌ ، غَطَّيتُ بها أثرَ عارٍ ، أصابتِ الأيامُ بها بعضَ أضلاعي .

٨ ـ فلا تُنْكري أني أُصِبْتُ بِمِثْلِها فكم منْ فُلولٍ في شِفارِ الصَّفائحِ

فاعترفي ، ولا تُنْكِري يا جوارحي إصابتي بِمِثْلِها ، وكم منْ ثلومٍ تركَتْ في نِصالِ سلاحي المُرهفةِ الرقيقةِ .

٩ ـ لئنْ جَرَحَتْني عَضَّةٌ منْ نوائبٍ رمى اللهُ في أنيابِها بالقوادحِ

فإنْ أمسَكتْني مصائبُ الزمانِ بأسنانِها فإني أدعو الله تَعالى أن يُصيبَ أنيابَها بالدودةِ التي تجعلُها نَخِرَةً .

١٠ ـ وأصبحتُ كالمَقصوصِ ريشُ جَناحِهِ أنوءُ بركنٍ كلَّما قمتُ جانحِ

وصرتُ كالذي قُصَّ ريشُ جناحِهِ ، أنْهَضُ بجانبي المائلِ متثاقلاً باذلاً مشقةً كبيرةً .

١١ ـ فعندَ مجيرِ الدولةِ المُسْتَجارِ لي مداواةُ أدواءٍ وأَسْوُ جرائحِ

فوجدتُ عندَ مجيرِ الدولةِ الذي اسْتَجَرْتُ به طالباً منه إعانتي معالجةَ دائي وإيجادَ دواءٍ لهُ ورَمَّ جراحي .

١٢ ـ نِطاسِيُّ آمالٍ مراضٍ ، وجابرٌ لكسرِ مَهيضاتِ الخُطوبِ الفوادحُ

فهو عالمٌ بالآمالِ المريضةِ ، ورامٌّ للعظامِ المَكسورةِ بسببِ الأمورِ الصعبةِ النَّازلةِ .

١٣ ـ إذا كَشَرَتْ لأْواءُ عنْ حَدِّ نابِها فألوَتْ بألبابِ الرجالِ القوارحِ

إذا فَتَحَتْ شِدَّةٌ فَمَها ، فظهرَ حَدُّ نابِها ، فذهبَتْ بقلوبِ الرجالِ الذينَ قَسَتْ أنيابُهُمْ ، وصارَتْ جارحَةً .

١٤ ـ وَجَدْتُ إلى الكعبَينِ منهُ غِمارَها ويُغْمَرُ منها غيرُهُ في الضحاضحِ

رأيتُ منْ مجيرِ الدولةِ واقتحامِهِ الشِّدَّةَ خوضَهُ في الماءِ الكثيرِ إلى كعبَيهِ ، ولا يدخلُ غيرُهُ إلى الماءِ القليلِ ، فلا يُغْمَرُ منْ جِسْمِهِ شيءٌ .

١٥ ـ ولاذَتْ بِحَقْوَيهِ الوزارةُ لوذةً بها بَرَّدَتْ حَرَّ الجَوَى في الجوانحِ

والتَجأتِ الوزارةُ إليهِ ، وتَمَسَّكَتْ بِطَرَفَي إزارِهِ لجوءاً ، هَدَأَتْ نفسُها بهِ ، وبَرَدَتْ حرارةُ جَوْفِها وحُزْنِها التي كانتْ تُحِسُّ بِها في ضلوعِها .

١٦ ـ فسارَ بعدلٍ للأقاليمِ شاملٍ على لاحبٍ بادي المَحَجَّةِ واضحِ

وتَفَقَّدَ البلادَ ، واتَّخَذَ في طريقهِ إليها المذهبَ الواضحَ والحُجَّةَ الدامغةَ ليُحَقِّقَ العدلَ في كلِّ أطرافِها .

١٧ ـ وطافَ بأطرافِ الأمورِ ، فَضَمَّها بِحَزْمٍ ورأيٍ عن حِمَى الدينِ ناصِحِ

واستعرضَ الأمورَ أطرافَها ، فضَمَّ بعضَها إلى بعضٍ بحكمةٍ وشِدَّةٍ لحمايةِ الدينِ والدفاعِ عنهُ .

١٨ ـ وذيلٍ لِتَرْفيهِ الرعايا مُشَمَّرٍ وجَيبٍ لأربابِ الممالكِ ناصِحِ

وطَرَفِ ثوبٍ مُكَفْكَفٍ لِيُدخِلَ السرورَ إلى قلوبِ الناسِ وقلبٍ ناصحٍ لأصحابِ المُلكِ الآخرينَ .

١٩ ـ وما مُزْبَدٌ تعلو ، وتَسْفُلُ رُقَّصاً جـواريُّـهُ فـي آذيِّـهِ المُتكـافِـحِ

ولم يَكُنْ بحرٌ هائجٌ ، يعلو ماءَهُ الزَّبَدُ ، وتنتشرُ المرَاكبُ فيهِ ، تَعْلو ، وتَسْفُلُ بفعلِ أمواجِهِ المُتلاطمةِ .

٢٠ ـ خِضَمٌّ ، ترى الأمواجَ فيه كأنَّها إذا التطمَـتْ أعـرافُ خيـلٍ جَـوامـحِ

كثيرُ الأمواهِ ، تظُنُّ أمواجَهُ المتلاطمةَ رؤوسَ خيلٍ مُسْرِعةٍ .

٢١ ـ بأجودَ منهُ يومَ ، يُلقي رحالَهُ بِعَقْـوَتِـهِ فَـلُّ السنيـنَ الجـوائـحِ

بأكْرَمَ منهُ يومَ ، تعودُ قافلتُهُ ، وقد ضربتِ البَرَّ والبحرَ ، وعانَتْ منَ الشدائدِ ما عانَتْ سنينَ جديبةً ، وتُلْقي رحالَها في مَحَلَّتِها .

٢٢ ـ عطاياهُ أشباهُ السحابِ ، تَسوقُها مَـواعيـدُ صِـدْقٍ كـالـريـاحِ اللَّـواقـحِ

وهِباتُهُ أمثالُ السحابِ المُمطرِ ، تدفَعُها وعودٌ صادقةٌ وافيةٌ ، تشبهُ الرياحَ التي تأتي النباتَ في مواسمِ الإلقاحِ .

٢٣ ـ بِحُبِّ المساعي ناطَ كلَّ همومِهِ إذا هِمَّـةٌ نيطَـتْ بحـبِّ المَـلائـحِ

إذا رأى مَنْ يصرفُ طاقَتَهُ بحبِّ ذواتِ الحسنِ والجمالِ ، فإنهُ يعلِّقُ آمالَهُ ، ويصرِفُ طاقاتِهِ بحبِّ مذاهبِ الخيرِ والعطاءِ .

٢٤ ـ يَجِلُّ جلالاً في الهِضابِ، ويَجْتني تـواضـعَ نفـسٍ فـي سهـولِ الأبـاطـحِ

وإذا صَعِدَ الهِضابَ والجبالَ يزدادُ عظمةً ، وحينَ يمشي في الأراضي السهلةِ يَكْتَسِبُ التواضُعَ وليونةَ النفسِ .

٢٥ ـ وكيفَ يُرَى مقدارُهُ غيرَ صاعدٍ ؟ وكيـفَ يُـرَى ميـزانُـهُ غيـرَ راجـحِ ؟

فكيفَ يرى الناسُ مكانتَهُ في مَحَلٍّ غيرِ مرتفعٍ ؟ وكيفَ تُرى كِفَّةُ ميزانِهِ غيرَ هابطةٍ بهِ ؟

٢٦ ـ وفـي حُلَّتَيهِ عـالِـمٌ عـادلٌ سَمَـتْ بـهِ طَيِّبـاتٌ مـنْ عـروقٍ صـرائـحِ

وبينَ إزاريهِ عالِمٌ عادلٌ ، عَلَتْ به مَحاسنُ منْ أصولٍ خالصةٍ طَيِّبَةٍ .

٢٧ ـ أقامَ لأهلِ الفضلِ سوقاً ، غَلَتْ بِها مـدائحُهُـمْ ، وانْحَـطَّ سِعْـرُ المَنـابـحِ

أحدَثَ سوقاً للفضلِ وأهلِهِ ؛ كانَتِ السلَعُ فيها المَدائحَ التي ارتفعَتْ قِيمَتُها والأهاجيَ التي هبطَتْ أسعارُها .

٢٨ ـ يباعُ بِها الشعرُ القليلُ مُنادحاً كَشِعْرِيَ بالمالِ الكثيرِ المُنادحِ

ويَشتري بِهذهِ السوقِ الفضلاءُ القليلَ منَ الشعرِ بأثْمانٍ كثيرةٍ غاليةٍ كما يَشترونَ شعري بالأموالِ الكثيرةِ المُتزايدةِ .

٢٩ ـ ولولاهُ لم يَقْرَعْ مَسامعَ واحدٍ بِمَتْجَرِ أهلِ الفضلِ صَفْقَةُ رابحِ

ولولا مجيرُ الدولةِ ، لم تَدُقَّ ضَرْبَةُ بائعٍ رابحٍ آذانَ رجلٍ واحدٍ بِنَدِيِّ أهلِ الكرمِ والفضلِ .

٣٠ ـ وكم أبْرَأَتْ أيَّامُهُ منْ خَواطرٍ مراضٍ ، وكم أنْشَرْنَ موتى قرائحِ

وكم شَفَتْ أيامُهُ بعدلِهِ منْ هواجسَ مريضةٍ ، وكم بَعَثَتْ ، وأحيَتْ نفوساً ذواتِ إبداعٍ ، كانَتْ موتى أو قريبةً منَ المَوتِ .

٣١ ـ وألسنةٍ لُكْنٍ ، خَطبْنَ فضائحاً وكم ألسنٍ ، أُفْحِمْنَ قَبْلَ فضائحِ

وكم منْ لسانٍ فَصيحٍ بليغ ، أُسْكِتَ منْ قبلِ زمنِ مجيرِ الدولةِ ، وكم منْ لسانٍ ، بهِ لُكْنَةٌ أعْجميَّةٌ ، أذاعَ خطبةً ، كشفَتْ أستارَ بعضِ الناسِ .

٣٢ ـ كأني بأيَّامِ البرامكِ أقْبَلَتْ فإنِّي مُشْتَمٌّ لتلكَ الروائحِ

وكأني أحسُّ أنَّ أيامَ البرامكةِ قد عادَتْ ، وفاحَتْ نسائمُ أُعطياتِها التي أتَنَسَّمُ روائِحَها الطَّيِّبةَ .

٣٣ ـ كأني بِيَحْيَىٰ ، عادَ حيًّا رَميمُهُ وعن جَعْفَرٍ أجْلَتْ بطونُ الصفائحِ

وكأني بيَحْيَىٰ البرمكِيِّ ، قد أُصْلِحَ رميمُهُ ، وعادَ إلى الحياةِ ، ومارسَ مَهامَّ وزارتِهِ ، وبسطَ يديهِ في أعطياتِهِ ، وكأني بجعفرٍ البرمكيِّ ، قد كشَفَتْ ، رِقاقُ السيوفِ عنْ مفاخرِ أعمالِهِ ومكارمِهِ .

٣٤ ـ فَمَنْ مُبْلِغٌ عني الوزيرَ بأنني كفيلٌ بغادٍ من ثناءٍ ورائحِ ؟

فَمَنْ يُخْبِرُ الوزيرَ مُجيرَ الدولةِ عني أني ، أتولَّى إخبارَ كلِّ مديحٍ ، يَتَّجِهُ صاحبُهُ إليهِ صباحاً أو مساءً ؟

٣٥ ـ شكورٌ لِنَعمائِهِ التي لم تَفِضْ على جَنابِيَ إلاّ والزمانُ مُصالحي

وأني دائمُ الشكرِ لأُعطياتِهِ التي لا تأتيني إلاّ والزمانُ محسنٌ إليَّ مصلحٌ لحالي .

٣٦ ـ مُشَهَّرَةٌ ، تجلو غِيابةَ حُرْفتي كما يدرأُ الظلماءَ ضوءُ المَصابحِ

فأُعطياتُهُ معروفةٌ ، تكشِفُ ظُلْمةَ حِرماني كما يَرُدُّ ، ويدفعُ نورُ المَصابيحِ الظلامَ .

٣٧ ـ فليتَ رحالي ، أُلقِيتْ بِفِنائِهِ فأرتَعَ في نَعمائِهِ غيرَ نازحِ

فَلَيتَ حاجاتي وأثاثي ، وُضِعَتْ بساحةِ بيتِهِ ، فأحْيَى بنعمتِهِ وكَنَفِهِ في رَغَدٍ مِنَ العيشِ ، ولا أبتعدَ عنهُ .

٣٨ ـ ويَقْدَحَ زَنْداً وارياً مِنْ مناقبي إذا صَلَدَتْ كلُّ الزِّنادِ لِقادحِ

ويَخْتَبِرَ مَفاخري كَمَنْ يضربُ الحجرَ بالعودِ مريداً إيقادَهُ إذا صَوَّتَتِ الأعوادُ كلُّها ، ولم تَشتَعِلْ .

٣٩ ـ وفي شَرْحِ أبياتِ الكتابِ لبعضِ ما يرى في صِفاتي مُجْمَلاً أيُّ شارحِ

ويرى أيُّ قارئٍ وأيُّ شارحٍ في شرح أبياتِ كتابِ سيبويهِ المعروفِ في النحو والمُسَمَّى : الكتابَ جُملَةً مِنْ صفاتي .

٤٠ ـ وأُنْموذجاً ، أَنْفَذْتُ منهُ ، يَضُمُّهُ رجائي أرى فيهِ وجوهَ المَناهجِ

وكتابي في النحوِ الذي سَمَّيتُهُ : الأُنموذجَ والذي نِلْتُ فيه آمالي في جمعِ جوانبِ ونواحي الطرقِ الواضحةِ لفهمِ أسرارِ اللغةِ العربيةِ .

٤١ ـ أراقبُ مِنْ عينِ الوزيرِ اطِّلاعَهُ عليهِ ، وحسبي منه لمحةُ لامحِ

أرى مِنْ طَرَفِ الوزيرِ مجيرِ الدولةِ معرفتَهُ بهِ ، ويكفيني منهُ اختلاسةُ نظرٍ إليهِ ، أطمئنُّ بها على رضاهُ عني .

٤٢ ـ فلو أنَّها كَلَّتْ عنِ العيبِ ، وارتضَتْ فما ضَنَّ دهري بالكريمِ المُسامحِ

فلو أنَّ عينَهُ ، ارْتَدَّتْ عنهُ لعيوبهِ ، فلم تَقْبَلْهُ ، وتطمَئِنَّ إليه ، ثم رضِيَتْ به ، فإنني أقولُ : إنَّ زماني لم يَبْخَلْ عليَّ بِرِضا مجيرِ الدولةِ الجوادِ السَّخِيِّ .

٤٣ ـ وألقيتُ قِدْحي في قداحِ فوائزٍ وأجريتُ طَيري في طيورٍ سوانحِ

واشتركتُ في رمي القداحِ ، فألقيتُ قِدحي في مجموعِ القداحِ الفوائزِ ، ووجَّهْتُ طيري مع الطيورِ التي تطيرُ مِنَ اليسارِ إلى اليمينِ لَعَلِّي ، أنالُ ما أتَفاءلُ به .

٤٤ ـ وأُلبِسْتُ مِنْ إنعامِهِ حُلَّةً لها محاسنُ ، ردَّتْ غيرَها كالمَقابحِ

وأُعطيتُ مِنْ أياديهِ رداءً ذا صفاتٍ جميلةٍ ، صدَّتْ كلَّ رداءٍ كما تُصَدُّ الأمورُ والأشياءُ القبيحةُ .

٤٥ ـ متى ما سَرَحْتُ الطَّرْفَ فيها سَرَحْتُهُ مِنَ الوَشْيِ في روضٍ أنيقِ المَسارحِ

متى ما أطلقْتُ النظرَ إلى هذا الرداءِ رأيتُ فيه زينةَ حديقةٍ ، فيها ألوانُ الزهورِ المُحَبَّبَةِ

المُنتشرةِ في الأماكنِ البعيدةِ عنْ فسادِ الهَواءِ .

٤٦ ـ وإنـي لَجـازيهـا بـزُهْـرِ قصـائـدٍ سـوائـرَ أمثـالِ النجـوم السـوابـحِ

وإني لَمُكافِئُهُ بأفضلِ القصائدِ التي سيتناقلُها النّاسُ كما يستنيرونَ بالنجوم السارحةِ في كبدِ السماءِ .

٤٧ ـ وخيرُ لباسٍ ، شَرَّفَ المَرءَ لُبْسُهُ لبـاسُ ثنـاءٍ طيِّـبِ الـذكـرِ صـالـحِ

وأفضلُ وأحسنُ رداءٍ ، تشرَّفَ المَرءُ بارتدائِهِ رداءُ مدحٍ ذي صيتٍ حسنٍ صالحٍ أنْ يكونَ أسوةً لغيرِهِ .

٤٨ ـ جميعُ ثيابِ الدهرِ ، يَبْلى جديدُها ويبقـى علـى الأيـامِ ثـوبُ المَـدائـحِ

وجميعُ أرديةِ الناسِ ، تصبحُ باليةً ، ولو جُدِّدَتْ على مرِّ الزمانِ ، وتبقى أرديةُ المَدحِ خالدةً إلى أبدِ الآبدينَ .

☆☆ ٩ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ :

١ ـ أليلَتَنا في بطنِ تُوضِحَ أَصبِحي ومالكَ والإصباحُ في بطنِ توضحِ ؟

يا ليلَتنا التي نقضيها في قلبِ تُوضِحَ في الدهناءِ قربَ اليمامةِ كفاكِ طولاً ، دعي الظلامَ ، وأْتي بالصباحِ ، وما جرى لك يا صاحبي لا تصحو من نومكَ ، وقد ملأتِ الشمسُ وسْطَ توضحَ ؟

٢ ـ هما الهَمُّ والشَّكوى ، فلا تكُ طاءِعاً بغيـرِهمـا ، ثـم اغْـدُ إنْ شئـتَ أو رُحِ

وما لكَ إلاَّ الغمُّ الذي يغشاكَ والشكوى الذي تُرَدِّدُهُ ، فَدَعْهما ، ولا تطمَعْ بغيرِهما ، واضرِبْ في الأرضِ ساعياً صباحاً ومساءً .

٣ ـ فما الليلُ ممّا يُضْرِمُ النارَ في الحشا ولا الصبـحُ ، يُطفِـئُ حَـرَّ وَجْـدٍ مُبَـرِّحِ

فليس بالليلِ ما يوقدُ نارَ الهمِّ في الجوفِ ، وليسَ الصباحُ ، يذهبُ بحرارةِ الحزنِ الشديدِ .

٤ ـ بلى رُبَّ ليلٍ ، قد طرقْتَ خِباءَها فَبِـتَّ تُنـاغـي بعـضَ غـزلانِ أبطـحِ

فكم ليلةٍ قد أتيتَ بيتَها ، وقَضَيتَها ، تُحَدِّثُ بعضَ نساءِ سهلٍ ، فيه مسيلُ ماءٍ .

٥ ـ وباتَتْ سدولُ الليلِ تُرْخي عليكما وتحجُـبُ عيـنَ الكـاشـحِ المُتَصَفِّـحِ

واسْتمرَّتْ أستارُ ظلامِ الليلِ ، تَلُفُّكما ، وتستُرُ عينَ العدوِّ الناظرةِ إليكما .

٦ ـ فـأقـرحَ أحشـاءَ الضَّجيعَيـنِ منكمـا تَفَـرِّي الـدُّجـى عـنْ مثـلِ جبهـةِ أقـرحِ

وجَرَّحَ جسمَي الجليسَينِ تَشقُّقُ الظلامِ عنِ الصبحِ الذي يشبهُ جبهةَ الأغرِّ .

٧ ـ ألمَّ خيالٌ منْ أُمامةَ ، والسُّرَى تُميلُ طُلَى ركبٍ منَ السيرِ طُلَّحِ

لاح شخصٌ منْ أُمامةَ ، والمَشْيُ ليلاً ، يُرْخي أعناقَ المسافرينَ المُتْعَبينَ منْ عناءِ السيرِ .

٨ ـ ألمَّ بِمَعْروقِ المُحَيَّا مُهَضَّمٍ لَقىً بينَ أحناءِ القُتودِ مُلَوَّحِ

ونزلَ بأرضِ رجلٍ ذي وجهٍ ، يَعْلوهُ العَرَقُ خَجَلاً ، ضامرِ البطنِ رامِ الخيرَ جالسٍ بينَ شعابِ الجبلِ المُسَمَّى القُتودَ ، عليهِ آثارُ السفرِ التي أضْنَتْهُ .

٩ ـ سَرَى هَمُّهُ في الخافِقَينِ ، وقَلَّصَتْ ركائبُهُ عنْ كلِّ مُمْسَّى ومُصْبَحِ

جَرَى أمرُهُ شرقاً وغرباً ، وأسْرَعَتِ المَراكبُ برُكَّابِها عن وإلى كلِّ منْ أتى عليهِ المَساءُ أو الصباحُ لِتَفَقُّدِه ومساعدتِهِ .

١٠ ـ ومَنْ طلبَ العلياءَ لم يَحْوِ رحلَهُ مُقامٌ ، ولم يَطْرَحْهُ يوماً بِمَطْرحِ

ومن يُرِدِ العزَّةَ والمجدَ لم يُقِمْ متاعَهُ طويلاً ، ولم يرمِهِ بمكانٍ بعيدٍ .

١١ ـ سِوَى عَقْوَةٍ ، قد طنَّبَ المجدُ بيتَهُ بها ، وانْتَحَى علياءَها كلُّ مُنْتِحِ

ولم يَحْتَفِظْ إلاّ بِمَحَلَّةٍ أمامَ بيتِهِ ، هي كخيمةٍ ، شَدَّ المَجدُ والعزُّ أطنابَ أوتادِها ، وقصدَ بلوغَ مجدِها كلُّ مَنْ يريدُ أنْ يكونَ في عزٍّ وشرفٍ .

١٢ ـ هناكَ عبيدُ اللهِ يسمو بسؤددٍ مُحَلَّى بِعقيانِ الثناءِ مُوشَّحِ

فهناكَ يسمو عُبَيدُ اللهِ بِمَجدٍ وعِزٍّ مزيَّنٍ بِوشاحٍ ، حَلَّتْهُ زخارفُ المَفاخرِ والمدائحِ .

١٣ ـ فلا بزنادِ اللُّؤمِ أصبحَ قادحاً ولا ضارباً في المُخْزياتِ بأقْدُحِ

وما نالَ تلكَ المراتبَ بقَدْحِ أعوادِ زِنادِ اللؤمِ وسوءِ الخُلقِ والعملِ ولا بضربِ سهامِ النوايا المُخْزيةِ .

١٤ ـ قسا قَسْوَةَ الصفراءِ منْ فرطِ جِدِّهِ ورقَّتْ حواشي هزلِهِ والتَّمَلُّحِ

وكانَ إذا اجْتَهَدَ في أمرٍ ، صَلُبَ ، وقَسا قسوةَ مرضِ الصفراءِ الذي يُنْهِكُ الجسمَ ، وإذا دَنا مِنهُ الهَزْلُ ، رقَّ كلامُهُ ، ولانَتْ جوانبُهُ بالتَّفَكُّهِ ومُلَحِ الكلامِ .

١٥ ـ يؤولُ إلى خُلْقٍ سجيحٍ ومنطقٍ فصيحٍ ووجهٍ واضحِ الخَدِّ أسْجَحِ

يرتَدُّ إلى خُلُقٍ سَهْلٍ لَيِّنٍ ومنطقٍ بليغٍ ووجهٍ أبيضِ الخَدَّينِ طويلِهما .

١٦ ـ إذا بَرْقَعَ العارُ الوجوهَ بدا لَها بِسُنَّةِ وَجْهٍ منْ سنا الفجرِ أوضحِ

وإذا غطّى العارُ الوجوهَ ظهرَ عُبَيدُ اللهِ لَها بصورةِ وجهٍ أبيضَ منْ نورِ الصبحِ .

١٧ ـ إذا اسْتُكْفِيَ الحاجاتِ يوماً تَهَلَّلَتْ أسِـــرَّتُـــهُ مـــنْ حَبْـــرَةٍ وتَبَجُّـــحِ

إذا أتاهُ يوماً أحدٌ ، يطلبُ منه أنْ يكفيَهُ حاجاتِهِ ، رأيتَ أساريرَ وجهِهِ ، قد تلألأتْ منْ فرحِهِ بقيامِهِ بِهذِهِ المَكْرُمةِ ، وقد قالَ أحدُهم بِمِثْلِ هذا المعنى :

تـــراهُ إذا مـــا جئتَـــهُ مُتَهَلِّـــلاً كأنَّكَ تعطيهِ الذي أنتَ سائِلُهْ

١٨ ـ فكم مُحْرَجٍ ضَنْكِ المُقامِ أوَى به إلـــى كَنَـــفٍ رَحْـــبِ المَبـــاءَةِ أفْيَـــحِ

وكم منْ مُضَيَّقٍ عليهِ في العيشِ والمُقامِ ، لجأَ إليهِ ، فوجدَ عندهُ سِتْراً من ذُلِّ الحاجةِ واسعَ المَرْجِعِ أخصبَ العيشِ .

١٩ ـ دعـــاهُ ، فلبـــاهُ بـــرأيٍ مُـــوَفَّـــقٍ وسَعْـــيٍ إذا لـــم يُنْجِـــحِ السعـــيُ مُنْجِـــحِ

وناداهُ المَلكُ ، واستشارَهُ بأمرٍ ، فردَّ عليهِ بنظرٍ ، فيه الرَّشادُ والسَّعْيُ الشديدُ الفائزُ الذي لم يَفُزْ بهِ غيرُهُ .

٢٠ ـ صفـــوحٌ إذا مـــا أمكَنَتْـــهُ عقـــوبـــةٌ وقالَ له الجاني : مَلَكْتَ ، فأسْجِحِ

عَفُوٌّ عنِ المُذنبِ الذي يستطيعُ معاقبتَهُ ، ويقولُ له : ملكْتَ الحكمَ عليَّ ، فَلِنْ ، واعْفُ .

٢١ ـ وأدركَ غَورَ الشيبِ في عُنفوانِهِ بصـــائـــبِ تـــدبيـــرٍ وعقـــلٍ مُلَقَّـــحِ

ولحقَ أعمقَ وأبعدَ فضلِ المَشيبِ ، وهو في قوةِ شبابهِ بتدبيرِهِ السليمِ الصحيحِ وعقلِهِ الناضجِ بتجاربهِ .

٢٢ ـ وفاتَ فحولَ الفضلِ ، فاعترفوا له بســـابقـــةٍ مِـــنْ أعجمـــيٍّ ومُفْصِـــحِ

وسبقَ رجالَ الحكمةِ والمكارمِ بأعمالٍ عظيمةٍ ، تقدمَتْ على أعمالِ الأعاجمِ والعرَبِ البلغاءِ معترفينَ لهُ بذلكَ .

٢٣ ـ ولـــو طـــاولـــوهُ طـــالَهُـــمْ بِبَيـــانِـــهِ وأيـــنَ مِهـــارُ الخيـــلِ عـــن شـــأوِ قُـــرَّحِ ؟

ولو أرادوا أن يُباروهُ بفنونِ البلاغةِ والبيانِ لارتدُّوا قائلينَ : أينَ مكانُ الفرسِ الوليدِ منْ مكانِ الفرسِ الذي كَبِرَتْ سنُّهُ ، وطلَعَ نابُهُ ؟

٢٤ ـ فيا مَلِكَ الشَّرْقِ اصطَنِعْهُ ، وخُصَّهُ بِمُثْمِـــرِ حـــظٍّ ؟ لا أبـــا لـــكَ ، مُـــرْبِـــحِ

فيا ملكَ الشرقِ اجعَلْهُ مُساعدَكَ ومِنْ خواصِّكَ ، فيكونَ لهُ سهمٌ ، لا أباكَ مذمومٌ ، تُكْتَسَبُ بهِ الأرباحُ .

٢٥ ـ ونِلْهُ على مِقدارِ مَطْمَحِ همِّهِ فليسَ لهُ غيرُ الثُّريَّا بِمَطْمَحِ

وأَعْطِهِ ما يستحقُّ منْ ما سَعَى إليهِ ، فإنهُ ذو غاياتٍ عاليةٍ ، تبلغُ الثُّريَّا .

٢٦ ـ بديوانِكَ الأنوارُ منهُ تَوَضحَتْ فلو حَلَّهُ شَمْسُ الضُّحَى ، لم تَوَضَّحِ

وأصبحتِ الأحكامُ وأضواؤها جَلِيَّةً في مجلِسِكَ ، ولو طَلَعَتْ عليهِ شَمْسُ النهارِ لَما اكتَسَبَتْ ذلكَ الوضوحَ والجلاءَ .

٢٧ ـ وقد سقطَتْ أسبابُ أمرِكَ ، فاسْتَوَت على مُحْصَفِ شَزْرِ المريرةِ مُصْلِحِ

وقد وقَعَتْ أوامرُكَ في أمكنتِها المُناسبةِ ، فكانَ إبرامُها حكيماً سَوِيًّا كما يستوي فَتْلُ الحبالِ منَ اليسارِ إلى اليمينِ ، فَترِقُّ ، وتَشْتدُّ .

٢٨ ـ فَهُنِّيَتَهُ منْ ذي فضائلَ ، لم يكنْ لِيَجْمَعَهَا غيرُ الهجانِ المُصَرَّحِ

وإني لأدعو لكَ أيها المَلكُ أن تَهْنَأَ بِهذا الوزيرِ ، وتسعَدَ ؛ إذ هو ذو مكارمَ ، لم يستطِعْ أنْ يتحلَّى بها ، أو يحتَوِيَها إلاّ خيارُ الناسِ ذوو النسبِ الخالصِ .

٢٩ ـ إليكَ عُبَيدَ اللهِ ألقيتُ رِبقتي فَخُذْها ، وكنْ دونَ الأنامِ مُرَشَّحي

فإليكَ يا عُبَيدَ اللهِ رميتُ حبلَ رقبتي عُرْوَتَها ، فخذْها ، وكنْ أنتَ دونَ الناسِ سيِّدي .

٣٠ ـ لكَ اللهُ في واديكَ ، أعشبَ رائدي وباكرَ ذَودي خيرَ مَرْعًى ومَسْرَحِ

وباركَ اللهُ لكَ في مَرْبَعِكَ إذْ أنبتَ تَعَهُّدُكَ إيَّايَ ، وجَنَى حَثُّكَ إيَّايَ على فعلِ المَكْرماتِ بُكرَةً أطيبَ ثَمَرٍ وأجودَ عملٍ .

٣١ ـ وزَحْزَحْتَ عني ريبَ دَهرٍ شَكَوْتُهُ إليكَ ، ولولا أنتَ لم يَتَزَحْزَحِ

ودفَعْتَ عني مصائبَ زمنٍ ، ذكرْتُ لكَ أوجاعي منها ، ولولاكَ لبقيتُ ، أعاني منها إلى هذا الوقتِ .

٣٢ ـ ونَمْنَمْتَ في متنِ اصطناعي أسطراً منَ العُرْفِ ، ليسَتْ آخِرَ الدهرِ تَنْمَحي

وكتَبْتَ في سَهْمِ تَعَهُّدِكَ وتربيتِكَ إيَّايَ قولاً مُنَمَّقاً مُزَيَّناً بجودِكَ ، لا يمحوهُ كَرُّ الغَداةِ ولا مَرُّ العَشِيِّ .

٣٣ ـ وقائلُ هذا الشعرِ فِعلُكَ ، إنَّما يقولُ فصيحَ الشعرِ فعلُ المُمَدَّحِ

وناظمُ هذا الشعرِ صنيعتُكَ ، وإنَّما يُنْشِدُ بليغَ الشعرِ منْ يَمْدَحُ غيرَهُ بما هو فيهِ .

٣٤ ـ وتَنْضَمُّ أكمامُ الثناءِ ، فإنْ تصِبْ نَدًى منْ سماءِ المُرْتَجَى تَتَفَتَّحِ

وتبقى براعمُ المَدحِ مُجتمعةً ، فإنْ أتاها جودٌ منْ جانبِ الذي لَبَّى المَلهوفَ ، وأعطى ،

تنمُ ، وتتفَرّقْ أوراقُها .

٣٥ ـ فدونَكَ طوقاً فاخراً قد نظمتُهُ   بِجَـزْلٍ مِـنَ المَعنـى ولفـظٍ مُنَقَّـحِ

فَخُذْ مني عِقْداً جيِّداً بديعاً ، صُغْتُهُ بالمَعاني العظيمةِ القويَّةِ التي تفخَرُ بتأصُّلِها فيكَ ، وزَيَّنْتُهُ بالألفاظِ المُهذبَةِ الخالصةِ ، ليكونَ جديراً أنْ تزيِّنَ بهِ عنقَكَ إلى أبدِ الآبدينَ .

☆☆ ١٠ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الوصفِ :

١ ـ ورَوحـاءَ دهمـاءِ النبـاتِ تَبَلَّقَـتْ   ببيـضِ خَضيبـاتِ القـوائـمِ رُوَّحِ

ذهبتُ إلى الرَّوحاءِ قربَ المدينةِ الواسعةِ ، وقد اسْوَدَّ تُرابُها بالنباتِ ، ثم ابيضَّ حينَ أتتْ إليها النساءُ اللواتي لَوَّنَتْ أرجلَها بالخضابِ ، ومشَتْ فيها .

٢ ـ تواصَتْ حَواليها خُزامى بطاحِها   كـأنـي بفـأرٍ فـي البطـاحِ ذبيـحِ

وكانَتْ كالحديقةِ لأنَّ الخُزامَى ذا الأزهارِ الجميلةِ طيِّبةِ الرائحةِ قدِ اتَّصَلَ نباتُهُ ، وأحاطَ بالرَّوحاءِ ، وشعرتُ كأني أتَنَسَّمُ رائحةَ المِسْكِ المنتشرِ في الأراضي المنبسطةِ ، وأشمُّ يدَ صاحبي ، فأقولُ : كأنَّها يدُ عطَّارةٍ ، ذبحَتْ فأرةً .

٣ ـ يَعِجُّ كضَوعِ المسكِ فاغمُ نَشْرِها   إذا انْسَحَبَـتْ فيهـا ذلاذلُ ريـحِ

وانْتَشَرتْ روائحُ الخزامى الشبيهةُ بالمِسكِ ، وملأتِ الأجواءَ عطراً ، كأنَّها ريحٌ ، قد سحبَتْ أذيالَها تاركةً على الرمالِ آثارَها .

٤ ـ يقولُ لها الرشُّ السماوِيُّ ، والصَّبا   أعانَتْ على تلكَ المَقالةِ : فُوحي

فيقولُ لَها المَطرُ الخفيفُ ، وقد هَبَّتْ نسماتُ الصَّبا المُنْعِشةُ : انتشري هنا وهناكَ ، ولا تتركي مكاناً في حاجةٍ إليكِ .

٥ ـ مضـاجـعُ سَعْـدانٍ مفـارِشُ حَنْـوةٍ   منـاجـمُ قَيصـومٍ منـابِـتُ شِيـحِ

فيهِ منابتُ السَّعْدانِ والحَنْوةِ والقيصومِ والشِّيحِ .

٦ ـ تعـاوَنَ فيـه رَوحُ نجـدٍ ومـاؤهُ   وأرضٌ عَـذاةٌ فـي مهـامِـهَ فيـحِ

وقد تعاوَنَ في حسنِ هذا المكانِ وخصوبةِ أرضِهِ نسيمُ أرضِ نجدٍ المُنْعِشِ وماؤُهُ العذبُ وأرضهُ الطيِّبَةُ في المَفازاتِ الواسعةِ .

٧ ـ إذا مَلَّـحَ المُكَّـاءُ رجْـعَ صغيـرِهِ   يُجـاوِبُـهُ قُمْـرِيُّهـا بِمَليـحِ

فإذا حَسَّنَ ، وجَوَّدَ الطائرُ المُسَمَّى المُكَّاءَ تغريدَهُ ، فإنَّ الطائرَ القُمْرِيَّ الذي جعلَ تلكَ الأرضَ مَعْدِنَهُ ، يردِّدُ تغريدَهُ مجاوباً إيَّاهُ بألحانٍ حَسَنةٍ .

٨ ـ كأنَّ بَديحاً والغريضَ تطارحا   على وترٍ لِلْمَوصِليّ فَصيحِ

كأنَّهُما المُغَنِّيانِ بَديحٌ والغريضُ قد تشاركا بغناءِ لحنٍ ، وضعَهُ إسحاقُ الموصليُّ ، بديعٍ .

٩ ـ ذكرْتُ بِها في خراسانَ مأنَساً   بِحُرٍّ صريحٍ صِنْوِ كلِّ صريحِ

وخَطَرَ ببالي مجلِسٌ أنيسٌ ، شهِدْتُهُ بخراسانَ ، فذكرْتُهُ ، ووصفْتُهُ بكلامٍ يُناسبُ كلَّ ذي أصلٍ طَيِّبٍ .

١٠ ـ أبي كلِّ مجدٍ وابنِ كلِّ فضيلةٍ   وربِّ أديمٍ ، لا يُعابُ ، صحيحِ

وكلَّ والدِ وابنِ كلِّ مجدٍ وعزٍّ وَمكرُمةٍ وكلِّ مُلْكٍ ، لا يأتيهِ اللّومُ منْ أيِّ جانبٍ ، وكلِّ سليمِ الصفاتِ منْ كلِّ شُبْهةٍ .

١١ ـ فلولا اتصالٌ بالبنينَ وخُلْطةٌ   لكانَتْ لهُ روحٌ لصيقةٌ روحي

ولو لم يكنْ في الدنيا زواجٌ وولادةٌ وتربيةٌ لكانتْ روحي وروحُهُ مرتبطتَينِ ، وكأنَّهُما روحٌ واحدةٌ .

* * *

حرف الدال / ٥٨٩/ بيتٍ

☆☆ ١ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في مدحِ ابنِ وهّاسٍ :

١ ـ خليليَّ مِنْ عُليا تِهامةَ أنجِدا أخاً كانَ غَوريَّ الهوى ، ثم أنجدا

يا صاحبيَّ أقبِلا منْ نجدٍ منْ أعلى مكانٍ منْ تِهامةَ ، وأغيثا رفيقاً لكما ، كانَ يضربُ في الأرضِ المنحدرةِ غرباً عنْ تهامةَ ، وأرادَ الآنَ أنْ يسيرَ نحوَ الشرقِ ، ويصعَدَ نجداً .

٢ ـ أخالكما إنْ تُسعِدا ببكاكما أخاً لكما صَبًّا ، تفوزا ، وتَسْعَدا

وإني لأظُنُّ إنْ تُدْخِلا السرورَ إلى قلبِ أخيكما العاشقِ ، وتسعداهُ بغنائكما ، تنالا ما تريدانِ ، وتُحِسّا بسعادةٍ كبيرةٍ .

٣ ـ أخا زفرةٍ كادَتْ تُسوِّي ضلوعَهُ إذا استوكفَتْ عينيهِ أطلالُ ثَهْمَدا

فإذا مَرَّ بثهمدَ ، ووقعَ نظرُهُ على أطلالِهِ وآثارِهِ ، تستقطرُ هذه الآثارُ عينيهِ ، ويخرجُ منْ صدرِهِ زفرةٌ وآهةٌ عميقةٌ كأنها ، تَدُكُّ أضلاعَهُ ، وتجعلُه مُشرِفاً على الموتِ .

٤ ـ إذا وعدَتْ أخلافُ مُزْنٍ مخيلةٍ معاهدَها السُّقْيا فأخلَفْنَ موعدا

وإذا رأى سحاباً ، يحملُ مطراً مختالاً به ، ظنَّ أنَّ السماءَ ، تَعِدُ منازلَهُ بالسُّقْيا ، ثم يَخيبُ ظنُّه لأنَّ السحابَ ، تحوَّلَ إلى مكانٍ آخرَ .

٥ ـ أتَتْها مآقيهِ ، وهنَّ صوادفُ بأوبَلَ منْ وَطْفِ الغوادي وأجودا

عَوَّضَتْها عيناهُ ، فذرفَتْ منْ مآقيها دموعاً غزيرةً ، والنساءُ معرضةٌ عنها ، أغزرَ منْ مطرِ سُحُبِ الصباحِ وأكرمَ .

٦ ـ تَأزَّرَ مما أنْبَتَتْ عبراتُهُ محلٌّ ببرقاءِ السماوةِ وارْتَدَىٰ

وأخذَ المحلُّ من نباتِ دموعِهِ في برقاءِ السماوةِ نسيجاً ، وجعَلَهُ إزاراً ورداءً .

٧ ـ ولن تَهْمَدَ النارُ التي يومَ ثَهمدٍ ألحَتْ على الأحشاءِ منْ حُبِّ مَهْدَدا

وأحسَّ أنَّ نارَ الشوقِ والحنينِ التي توقَّدَتْ في صدرِهِ يومَ رأى أطلالَ ثهمدَ الخاليةَ منْ محبوبتِهِ مَهْدَداً ، لن تخمدَ ، ولن تنطفئَ .

٨ ـ ثَنَتْ بشتيتٍ ، أطلعَتْ ، ومُوَرَّدٍ عزائي شتيتاً والصَّدارَ مُوَرَّدا

مالَتْ بثغرٍ أفلجَ ، تباعدَتْ أسنانُهُ ، وخَدٍّ مُحْمَرٍّ كالوردِ وقناعٍ أحمرَ ، انسَدَلَ على

صدرِها ، فتركَتْ لي نَفْساً متشعِّبَةَ الأجزاءِ .

٩ ـ ولم تَرَ عيني مثلَها ، خُوطَ بانةٍ ... بـهِ يُفْتَـنُ الـرائـي إذا مـا تـأوَّدا

ولم تَقَعْ عيني على فتاةٍ ، قَدُّها غصنُ بَانةٍ ، يؤخذُ به الناظرُ إليه إذا ثَنَتْ عِطْفَها مُعْجَبَةً بنفسِها وجمالِها .

١٠ ـ ويَحْمِـلُ رمّـانـاً ووَرداً ونـرجسـاً ... ونـورَ أقـاحٍ ، بـاتَ يصقُلُـهُ النَّـدَى

ويتقَدَّمُ هذا القَدُّ بنهدَينِ مُكَعَّبَينِ كالرُّمانِ ووجهٍ مُوَرَّدٍ وعينينِ خضراوينِ ، فيهما صفرةٌ كالنرجسِ ، وجبهةٍ بيضاءَ كالأقحوانِ الذي أمسى ، وأصبحَ مَجْلُوًّا بقطراتِ النَّدَى .

١١ ـ ولا كابْنِ وهّاسٍ فتًى ، ضَمَّ بُرْدُهُ ... حُسـامـاً وضِـرْغـامـاً وأخْضَـرَ مُـزْبِـدا

ولا رَجُلَ كابنِ وهّاسٍ الفتى الذي اشْتَمَل بُرْدُهُ على جسمٍ كالسيفِ في رهافتِهِ وحدِّهِ وكالأسدِ في شجاعتِهِ وكالبحرِ المُزْبِدِ الهائجِ في جودِهِ .

١٢ ـ فتًى هو حالٍ بالمعاني بأسرها ... وقـد حَلِيَـتْ منـهُ المعـالـي بـأوحـدا

فهو فتىً تَزَيَّنَ بالأمجادِ وأوصالِها ، وقد ارْتَدتِ الأمجادُ منْ مكارِمِهِ ثوباً واحداً ، هو ثوبُ العِزِّ والفخارِ .

١٣ ـ عُـلاً حَسَنِيّـاتٌ سَنِيّـاتٌ ، ابْتَنَـتْ ... لَـهُ بيـتَ مجـدٍ فـي السمـاءِ مُشَيَّـدا

وانتَسبَتِ المعالي إليه ، فَسُمِّيَتْ حَسَنِيَّاتٍ رفيعاتٍ مُضيئاتٍ ، وبنَتْ له بيتَ عزٍّ في سماءِ اللهِ تعالى .

١٤ ـ نجيـبٌ نَمَتْـهُ مـنْ ذُؤابـةِ هـاشـمٍ ... نَقِيَّـاتُ أعـراقٍ أطـابَتْـهُ مـولـدا

فهو ذو أصلٍ كريمٍ من قبيلةِ هاشمٍ أبي عبد المطلب جدِّ النبيِّ ﷺ رفَعَتْهُ أعراقٌ صافيةٌ خالصةٌ ، جَعَلَتْ مولدَهُ أكثرَ طِيباً .

١٥ ـ ولو شاءَ لم يَعْتَدَّ مَحْتِدَ هاشمٍ ... نِصـابـاً ، كفَـاهُ بـالنُّبُـوَّةِ مَحْتِـدا

ولو أرادَ لم ينتسِبْ إلى أصلِ هاشمٍ ، ولم يَجعلْ لنفسِهِ سهماً في قرابتِهِ لهاشمِ بنِ عبدِ منافٍ أبي عبدِ المطلبِ لأنه يرى أنَّ حَسْبَهُ أصلاً وعزَّةً قرابتُهُ لصاحِبِ النُّبُوَّةِ .

١٦ ـ ومَنْ يكُنِ ابْناً للرسولِ وصِنْوَهُ ... وزهـرائِـهِ ، لـم يـألُ فخـراً وسُـؤدُدا

ومَنْ يكنْ حفيدَ رسولِ اللهِ ﷺ وشقيقَ حفيدِهِ وابناً لفاطمتِهِ الزهراءِ ، كفاهُ هذا النسبُ عزًّا ومجداً .

١٧ ـ إذا قـالَ قـولا فـالغِفـاريُّ لهجَـةً ... ولكنـه يـومَ النَّـدى طَلْحَـةُ يـدا

إذا أرادَ أنْ يقولَ شيئاً فهو أبو ذرٍّ الغِفاريُّ الصحابيُّ الجليلُ فصيحُ اللسانِ بليغُ البيانِ ، وإنْ جدَّ أمرُ الجودِ والكرم فهو طلحةُ بنُ عُبيدِ اللهِ الصحابيُّ الذي سمّاهُ رسولُ اللهِ ﷺ طلحةَ الخيرِ وطلحةَ الفياضِ و . . . في غزواتِهِ لجودِهِ بنفسهِ ومالِهِ .

١٨ ـ ولم يَتَزَيَّدْ قطُّ في قيلِهِ ، وإنْ تُذوكِرَ أقوالَ الهُداةِ تَزَيّدا

ولم يكذبْ ، أو يزدْ في كلامِهِ أبداً على ما سَمِعَ أو رأى ، وإنْ تحادَثَ مع أحدٍ ، وتذاكرا أقوالَ العلماءِ الهادينَ المرشدينَ ، أطنبَ فيها ليكونَ في ذلك فائدةٌ للمتَعلمينَ والسامعينَ .

١٩ ـ مِصَكٌّ يَلُدُّ العِيَّ كلَّ مجادلٍ وإنْ كانَ يُدعى الأَلْمَعِيَّ اليَلَنْدَدا

قويٌّ على الناسِ ، يخاصِمُ كلَّ مَنْ يُتَحَقَّقُ العجزُ والتقصيرُ فيه ، ويُجادلُهُ ، ولو كانَ يُسَمَّى الذكِيَّ الذي لا يتراجعُ عنْ رأيِهِ .

٢٠ ـ ولم يَخْطُ في بطحاءِ مكةَ خطوةً خلافَ التي تمَّتْ إلى مَفرقِ الهُدَى

ولم يمشِ في أرضِ مكةَ خطوةً واحدةً ، تُخالفُ التي كانَ فيها غايةُ الهُدى والرشادِ إلى الإسلام ورضا اللهِ ، ـ عَزَّ ، وجلَ ـ .

٢١ ـ وتقرأُ مِنْ سيماهُ في قسماتِهِ شهادةَ حقٍّ أنهُ سِبْطُ أحمدا

وتعلمُ مِنْ علاماتِهِ في أساريرِ وجهِهِ شهادةَ حقٍّ وصدقٍ أنهُ حفيدُ أحمدَ ﷺ .

٢٢ ـ وما العسلُ الماذيُّ مَمزوجةٌ به مُشَعْشَعَةٌ صهباءُ مِنْ راحِ صَرْخدا

وما الأرْيُ الأبيضُ الجيّدُ المخلوطُ بالخمرةِ البيضاءِ المتلألئةِ المستخرجةِ منْ خمرِ صرخَدَ الجَيّدِ الشَاميِّ .

٢٣ ـ ألَذَّ مساغاً مِنْ سجاحةِ خُلْقِهِ إذا ضَجَّ ذو الخُلْقِ الشحيحِ ، وعربدا

أطيبَ وأهنأ ابتلاعاً منْ ليونةِ وسهولةِ خُلُقِهِ ومزاجِهِ وطبعِهِ إذا ثارَ ذو الطبعِ القاسي ، وظهرَ سوءُ خُلُقِهِ .

٢٤ ـ إلى اللهِ ما بالي ، وإنِّي مُفَرِّطٌ أرى كلَّ يومٍ فيَّ صُنْعاً مُجَدَّدا

إلى اللهِ أمرُ حالي وما اخْتبَرَني بِهِ مِنَ النِّعَمِ ؛ فعلى الرَّغْمِ مِنْ تقصيري في جنبِ اللهِ فإني أجِدُهُ مُبْدِعاً فيَّ كلَّ يومٍ أمراً غريباً عجيباً .

٢٥ ـ وحيثُ حَطَطْتُ الرحلَ في كلِّ بلدةٍ أفاءَ عليَّ اللهُ ظِلاً مُمَدَّدا

وأشكرُ اللهَ ـ عزَّ ، وَجَلَّ ـ على نعمِهِ التي لا أستطيعُ أنْ أُحصيَها أو أفيَ حقَّ وصفِها ، فهو يُنْعِمُ عليَّ في كلِّ مكانٍ ، أذهبُ إليه بعيشٍ خصيبٍ رغيدٍ .

٢٦ ـ وبَوَّأني بينَ الأقاصي كأنهمْ أدانيَّ مفروشاً لجنبي مُوَسَّدا

فقد أنزلني مكاناً طيِّباً ذا فراشٍ ليِّنٍ ووسادةٍ ناعمةٍ في البلادِ البعيدةِ ، وكانَ الناسُ لي كأنهمْ أقربائي .

٢٧ ـ وألَّفَ ما بيني وبينَ قلوبِهمْ كما نسَّقَ اللآلُ دُرّاً مُبَدَّدا

ووضَعَ بيني وبينهمْ حبلَ المحبةِ محبةِ الإخوةِ كما رتَّبَ بائعُ اللآلئِ دُرَرَهُ المتفرقةَ بعقدٍ بديعٍ .

٢٨ ـ وممّا أجلَّ الصنعَ فيه إناختي بمكةَ مَرضيًّا مَراداً وموردا

ومنْ عظيمِ تدبيرِهِ وحكمتِهِ أنْ جعلَ إقامتي بمكةَ ، وجعلَ أهلَها يرتاحونَ لمقدِمي وعيشي بينهم .

٢٩ ـ ولولا ابنُ وهّاسٍ وسابغُ فضلِهِ رَعَيتُ هشيماً واستقيتُ مُصَرَّدا

ولولا شريفُ مكةَ أبو الحسنِ عُلَيُّ بنُ عيسى ابنِ وهّاسٍ الذي منحني رعايتَهُ الطيبةَ لعشتُ آكلاً الطعامَ اليابسَ وشارباً الماءَ القليلَ منْ يدِ كلِّ بخيلٍ شحيحٍ .

٣٠ ـ هو الحرُّ ما أصْدَى إلى بيضِ معشري فأُبصِرَهُ إلاّ نَقَعْتُ بهِ الصَّدَى

هو الرجلُ الكريمُ الشريفُ ما شعَرْتُ يوماً بالظمإ الشديدِ والحنينِ إلى أهلي وأيامِهِمُ الرَّيّا ، ورأيتُهُ ، إلاّ وضَعْتُ ذلك العطشَ وعدمَ الارتواءِ في حوضِهِ ، فيتحوّلَ شقائي إلى سعادةٍ ، لا مثيلَ لها .

٣١ ـ ولي منهُ نُصْحُ الحبيبِ والعُقدةُ التي أبَتْ أنْ يرى الراؤونَ أوثقَ معقِدا

وهو الحبيبُ الخالصُ الودِّ ، لا يبخلُ بإسداءِ نصحهِ إيّاي وشدِّ عُقْدَةِ حبلِ الودِّ بيننا التي لم يرَ الناسُ أبرَمَ مَعْقِدٍ منه .

٣٢ ـ وإنْ آتِهِ يوماً بشأني زُبْرَةً غدا فكسانيها لبوساً مُسَرَّدا

وإنْ أجئْهُ يوماً ، وحالي شديدةٌ كقطعةِ حديدٍ صلبةٍ ، أصلَحها لي إصلاحاً لا يسوءُ بعدَهُ، وجعلَ الحديدَ الصلبَ لباساً رقيقاً ، يريحني ، ودرعاً ، يدفعُ عني به غوائلَ الأعداءِ .

٣٣ ـ وما يُقتدَى في ذاكَ إلاّ بمجدهِ ومنصبِهِ ، والحُرُّ مَنْ بهما اقْتَدى

ولا يستطيعُ أحدٌ أن يُقَلِّدَهُ إلاّ بأعمالِهِ العظيمةِ ومجلسِهِ الحكيمِ ، إذِ المرءُ الشريفُ الكريمُ هو الذي يتكلَّمُ ، ويُقَلِّدُ غيرَهُ بالعملِ الصالحِ والحكمةِ الدامغةِ .

٣٤ ـ ومَنْ لَفَّ مَجْدَي نفسِهِ ونصابِهِ وذاكَ ابنُ وَهّاسٍ ، فقد بلغ المَدَى

والذي حَوَى أصلَ وعِزَّةَ ابنِ وهّاسٍ فقد نالَ غايةَ المجدِ والسؤدُدِ .

☆☆ ٢ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في المدحِ :

١ ـ رقدوا ، وراقَبَ ناظراهُ الفرقدا   قَلِقَ المضاجعِ لا يُلائمُ مَرْقَدا

نامَ الناسُ ، وظلَّتْ عيناهُ ترنوانِ إلى أحدِ الفرقدينِ ، ولم يستطعْ أنْ يستلقيَ لاضطرابهِ الشديدِ ، ولم يجدْ لجسمهِ موضعاً ، يستريحُ به ، أو يوافقُ نومَهُ .

٢ ـ شربوا صباباتِ الهَوَى ، فترنّحوا   مِيلَ الطُّلَى ثَمِلاً ، وباتَ مُسَهَّدا

عَبُّوا كؤوسَ الهَوَى ، ودارَتْ رؤوسُهُمْ ، ومالَتْ أعناقَهُمْ سُكْراً ، وغلبهمُ النعاسُ ، فناموا ، ومضى الليلُ ، وهو أرِقٌ ، لم يَنَمْ لهُ جفنٌ .

٣ ـ مالوا على شُعَبِ الرحالِ كأنما   لعبَتْ بِهامِ القومِ قهوةُ صرخدا

وجعلوا أحمالَ أكداسِ طعامِهِمْ وأثاثِهِمْ فُرُشاً ، فاضطجعوا عليها لشدةِ لَعِبِ خمرةِ صرخدَ برؤوسهِمْ .

٤ ـ مِمَّا تذاوقَهُ السقاةُ مُرَوَّقاً   لِمُتَوَّجٍ ، يسقي العدا كأسَ الرَّدَى

تلك الخَمرةُ منْ فاخرِ ما صنَعَ الخمّارُ ، وصَفّى ، وذاقَ السقاةُ ، وحكموا على جودتها ، فَقُدِّمَتْ لملكٍ ، قهرَ العدا ، وأَهْلَكَهُمْ بشربِ كأسِ الذلِّ والموتِ .

٥ ـ في رأسِ أعنقَ حيثُ شَيَّدَ باذخاً   صَرْحاً ، يُناجي المِرْزَمَينِ مُمَرَّدا

لِلْمَلِكِ ذي العنقِ الطويلِ الذي بنى قصراً عالياً ، جادَ في تشييدهِ إلى حدِّ التَّبذيرِ ، فكانَ كأنهُ ، يباهي النجمَينِ المِرْزَمَينِ بِالارْتِفاعِ واللمعانِ .

٦ ـ منْ يَبْغِ مَزْجَ عقارِهِ يَمْدُدْ إلى   حوضِ الغمامِ ليُغْرِفَ الماءَ اليدَا

ومنْ يَرُمْ خَلْطَ خمرهِ ، يَسْتَقِ منْ حَوضِ مطرِ السحابِ ، وتغْرِفْ كفُّهُ منه ما يراهُ موافقاً لذلكَ الخَلْطِ .

٧ ـ عذراءُ إنْ يَعْرِسْ بها ابنُ سَحابةٍ   يَنْثُرْ عليها الدُّرَّ مَثْنىً مَوحدا

وخمرتُهُ خالصةٌ إنْ يُرِدْ أنْ يمزجَها بماءِ المطرِ ، يجدْ فقاقيعَ مختلفةَ الأحجامِ مجتمعةً ومُنفردةً ، تشبهُ الدُّرَّ المَنثورَ .

٨ ـ يَأْبَى على أجفانه إغفاءَةً   هَمٌّ إذا انقادَ الهمومُ تَمَرَّدا

ويَغْلِبُهُ همٌّ وغمٌّ عاتٍ عظيمٌ ، لا ينزاحُ عنهُ إنْ سيقتِ الهمومُ إلى غيرهِ ، ولا يَدَعُهُ ينامُ ، أو يُغمِضُ أجفانَهُ لِغَفوةٍ .

٩ ـ ما ضافَهُ إلاّ قراهُ فؤادَهُ يقتاتُ منهُ تَصبُّراً وتَجَلُّدا

وما أتاهُ هذا الهمُّ ضيفاً إلاّ قدَّمَ لهُ قلبَهُ قِرىً ، وجعلَ طعامَهُ تَكَلُّفَ الصبرِ والقوةِ .

١٠ ـ ومُضِلَّةٍ لو أنه اسْتَهْدَى الفتى كُدْرَ القطا فيها ، تعايَتْ بالهُدَى

وربَّ أرضٍ قفراءَ ، لو أنَّ أحداً أرادَ أنْ يطلبَ منَ القطاةِ الغبراءِ أنْ تَدُلَّهُ على مكانٍ ، يرتوي بمائِهِ ، لَعَجزَتْ عنْ ذلكَ .

١١ ـ بهماءُ عَزَّ الماءُ فيها ، ثم إنْ تَظْفَرْ بماءٍ لم يكُنْ لكَ موردا

لأنَّها أرضٌ ، لا ماءَ فيها ، وإنْ عَثَرَتِ القطاةُ على الماءِ ، فهو قليلٌ ، لا يكفيهِ ، إنْ ذَهبَ إليه ليرتَوِيَ منه .

١٢ ـ نَسجَتْ عليهِ العنكبوتُ ، فكمْ بهِ منْ لُحْمةٍ للعنكبوتِ ومنْ سدَى

وحطَّتْ عليه العنكبوتُ ، ومَدَّتْ خيوطَها لُحمةً وسَدًى .

١٣ ـ ترشو أجنَّتَها المطيُّ سرابَها طمعاً بأنْ ينتاشَهُنّ منَ الصَّدَى

وكأنَّ أجنَّةَ الرِّجالِ في بطونِ أمهاتِها، تُقَدِّمُ إلى السرابِ جُعْلاً، لَعَلَّهُ يُنْقِذُهُنَّ منَ العطشِ.

١٤ ـ واليَلْمَعُ الخدّاعُ غايةُ أمرِهِ الإطـ ـماعُ لم يُنْجِزْ لنفسٍ مَوعِدا

والسرابُ الخدّاعُ الغشّاشُ، مُنْتَهى ما يفكِّرُ فيهِ العثورُ على قولٍ جيّدٍ، يَعِدُ بهِ، ولا يُنَفِّذُهُ.

١٥ ـ أدلجْتُ فيها ، وادّلَجْتُ بصحبتي يستوضحون شِهابَ عزمي مُوقدا

وسِرْتُ فيها الليلَ كلَّهُ وحدي ، وسرتُ بأصحابي آخرَ الليل ، وكانوايُقَدِّرون مَدَى هِمَّتي التي شَبَّهوها بنارِ الموقدِ .

١٦ ـ إنْ غابَ عنهمْ فرقَدُ الخضراءِ في طَخْياتِها جعلوا زِماعي فَرْقَدا

فإنْ كانتِ السماءُ غائمةً مظلمةً ، لم يظهرْ فيها أحدُ الفرقدَينِ ، اتَّخذوا همَّتي نوراً ، يستضيئونَ بها .

١٧ ـ فَأما وعَزْمَتي المُضِيئةُ إنها لأَدَلُّ منْ فَلَقِ الصباحِ إذا بدا

لأنهم وجدوا أنَّ عزمي المنيرَ أفضلُ مرشدٍ منْ إشراقِ الفجرِ ، إذا حانَ .

١٨ ـ ولقد تضاعَفَ ضوؤها أنْ صَمَّمَتْ نحوَ الوزيرِ المرتجي بحرَ النَّدَى

ولقد ازدادَ نورُ هِمَّتي حينَ فكَّرَتْ أنْ تمضيَ نحوَ الوزيرِ الذي يأملُ أنْ يكونَ بحرَ الجودِ والكرمِ .

١٩ ـ قصدَتْ ركابي بابَ صدْرِ المُلْكِ منْ بينِ الملوكِ فما أعزَّ المَقْصِدا

واتَّجَهتْ راحلتي نحو بابِ صدْرِ المُلْكِ دونَ أبوابِ الملوكِ ، فما أعظَمَ مقصِدَهُ ، وأعظِمْ بهِ .

٢٠ ـ حَمَلَتْ ثناءً لو مَدَحْتُ ببعضِهِ   قفراً لجاشَ القَفْرُ بحراً مُزْبِدا

وحملَتْ مدحاً ، لو قُلْتُ بعضَهُ عنْ مكانٍ قفرٍ لامتلأَ ماءً ، وأصبحَ بحراً هائجاً ، يتعالى زَبَدُهُ .

٢١ ـ أنا لم يَزَلْ شعري لديَّ مُذَمَّماً   حتى مدحتُ به الوزيرَ مُحَمَّدا

وكنتُ غيرَ راضٍ عن شعري ، وبقي بنظري ذا ثغراتٍ كثيرةٍ إلى أن أثْنَيتُ فيه عنْ خصالِ الوزيرِ ، فصارَ حميداً .

٢٢ ـ ابنُ النِّظامِ ابنِ النِّظامِ ، هو الذي   يروي حديثاً في الوزارةِ مُسْنَدا

فهو ابنُ النِّظامِ الوزيرِ ابنِ النِّظامِ راوي الأحاديثِ الصحيحةِ المسندةِ في الوزارةِ .

٢٣ ـ يرويهِ عن آباءِ صدقٍ لم يزلْ   مَنْشأَ الوزارةِ بينهُمْ والمولِدا

يروي الحديثَ مُتَثَبِّتاً منْ صحتِهِ ناقلاً إياهُ عنْ رواةِ صدقٍ ، فكانَ ، ولم يزلْ أساسَ الوزارةِ ومولِدَها .

٢٤ ـ مُتَناقِلينَ لها فما يمضي أبٌ   إلاّ مُقَلِّداً ابنَهُ ما قُلِّدا

وتناقَلَ أهلُ النظامِ وعشيرتُهُ أعباءَ الوزارةِ ، فكانَ كلُّ واحدٍ منهمْ أباً مُرَبِّياً ابنَهُ تربيةً حسنةً فاضلةً ، يُفَوِّضُهُ في أعمالِهِ كما فَوَّضَهُ أبوهُ منْ قبلُ .

٢٥ ـ إنْ زانَ صدْرَ المُلْكِ محتِدُهُ ففي   أدنَى علاهُ ما يزينُ المَحْتِدا

إنْ كانَ أصلُ صَدْرِ الدينِ زينةً لهُ ، ففي أقلِّ درجةٍ منْ درجاتِ مجدِهِ ما يزيدُ في زينةِ أصلِهِ ، فكأنَّ أصلَهُ ، يَزِيْنُهُ ، وكأنَّ أمجادَهُ ، تُزَيِّنُ أصلَهُ .

٢٦ ـ للهِ منصِبُهُ الذي لا يَنْتَضِي   منهُ العُلا إلاّ هُماماً أصيَدا

فللهِ دَرُّهُ ؛ فإنَّ كونَهُ وزيراً لا يُجَرِّدُهُ منَ العزِّ والرفعةِ ، وإنما يَرُدُّهُ إلى أصلِهِ سَيِّداً شجاعاً سَخِيًّا مَلِكاً رافعاً رأسَهُ فخاراً .

٢٧ ـ ما استولَتِ الوزراءُ قاطبةً على   قصباتِ استولى عليها مُفْردا

فالذي اشترَكَ الوزراءُ كلُّهم في حُكْمِ أو مُلْكِ مدنٍ أو قُرَى أو قصورٍ فقدِ استطاعَ هذا الوزيرُ أنْ يملكَها ، ويَحكُمَها وحدَهُ .

٢٨ ـ أسدٌ مكانَ الظُّفْرِ منهُ يراعةٌ   تحكي حساماً في اليمينِ مُهَنَّدا

وهو شجاعٌ قويٌّ كالأسدِ الذي جعلَ ظُفْرَهُ قصبةً ، يكتبُ بها ، فكانتْ سيفاً مهنّداً في يمينِهِ ، يُشْهِرُهُ على الأعداءِ .

٢٩ ـ قَصُرَتْ ، وما الخَطيَّةُ الطُّولَى لها كُفئاً غَداةَ الفَتِّ في عَضُدِ العِدا

وعلى الرغمِ منْ أنَّ السيوفَ المنسوبةَ إلى البحرينِ قصيرةٌ ، فهي نظيرةٌ للرماحِ الطويلةِ يومَ الحربِ يومَ تكسُّرِ أعضادِ الأعداءِ .

٣٠ ـ كلتاهما ممَّا إلى الخَطِّ انْتَمى لكنَّ معنى الخطِّ ليسَ بأوحدا

فكلا السيوفِ والرماحِ انتسبَ إلى الخطِّ الذي يسجِّلُ الأمجادَ لكنَّ المعانيَ التي تحملُ آثارَها ليستْ واحدةً .

٣١ ـ سمراءُ تُغْرِقُ في نجيعٍ أحمرٍ أُمَماً إذا مَجَّتْ لُعاباً أسودَ

فالقصباتُ السمرُ إذا ما أخْرَجَتْ ريقَها الأسودَ حثَّتِ الجنودَ على القتالِ ، فسالَتْ منه دماءٌ كثيرةٌ ، غرقَ فيها أمَمٌ كثيرةٌ صَبْراً وذُلاًّ .

٣٢ ـ سَوّى قناةَ المُلْكِ بالرأيِ الذي يَثْني القنا قبلَ الطِّعانِ مَقْصِدا

وجعلَ الوزيرُ صولجانَ المُلْكِ الذي يُحَرِّكهُ في كلِّ قضاءِ حكمٍ كالرمحِ في يدِ المحاربِ ، يُجَرِّبُ ليونتَهُ قبل ذهابِهِ إلى الحربِ .

٣٣ ـ كالشمسِ ضوءُ جَبينِهِ إذا اجْتلى كالغيمِ نَوءُ يمينِه لمنِ اجْتَدَى

وجبينُهُ المضيءُ كالشمسِ إذا طلعَ على الناسِ بإدخالِهِ السرورَ إلى قلوبهمْ وكالسحابِ الماطرِ لِمَنْ طلبَ العطاءَ .

٣٤ ـ أضواؤهُ تُعشي الملوكَ ، وظِلُّهُ فوقَ الرعايا لا يزالُ مُمَدَّدا

أنوارُهُ الساطعةُ في الليلِ ، تدعو الملوكَ إلى ولائِمِهِ ، وعدلُهُ ما يزالُ قائماً بينَ أفرادِ رعيَّتِهِ .

٣٥ ـ حَقُّ المشارقِ أنْ تجيءَ بِشَمْسِها لِتبوسَ مَوطِئَ أخمَصيهِ ، وتَسْجُدَا

فعلى أهلِ مشارِقِ الأرضِ حقٌّ ، هو أنْ يأتوا بملوكِهِمْ لِيُقَبِّلوا مكانَ أسفلِ قدمَيهِ ، ويَنْحَنوا خضوعاً ، ويَسجدوا اعترافاً به .

٣٦ ـ لو لم يُجَلِّ الجورَ في أكنافِها لارْتَدَّ وجهُ الشمسِ منه أربدا

ولو لم يكشفِ الظلمَ عنْ أرجاءِ الأرضِ لانكفأتِ الشمسُ بأضوائها مكسوفةً .

٣٧ ـ هدأتْ برأفتِهِ البلادُ ، وعدلُهُ في كلِّ صقْعٍ ثَقَّفَ المُتَأَوِّدا

سكنَتْ عواصفُ الحروبِ في البلادِ بفضلِ رحمتِهِ ، وبفضلِ عدلِهِ استقامَتْ أحوالُ الناس ، وأصبحوا سعداءَ .

٣٨ ـ في خِصْبِها عَدَلَتْ تَبالةُ بعدَما كـانَـتْ كـأطـلالٍ بِبُـرْقَـةَ ثهمـدا

وفي خِصْبِ الأرضِ أصبحَ حالُ أهلِ تَبالَةَ مستوياً بعد أنْ كانَ مضطرباً مُهَدَّماً كبقايا بيوتِ بني دارِمٍ .

☆☆ ٣ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ :

١ ـ تَصَـدَّتْ لنـا تَثْنـي أزِمَّتَنَـا سُعْـدى غداةَ انْثَوَينا عن مَغاني اللِّوى بُعْدا

تَعَرَّضَتْ لنا سُعْدى ، فعطفَتْ ألْجِمَةَ رواحِلِنا صباحَ مِلْنا مسافرينَ عنِ المنازِلِ في اللِّوى حيثُ شَهِدَتْ أيّامَنا السعيدةَ .

٢ ـ وأخْضَـلَ خَـدَّيهـا دمـوعٌ تتـابعَـتْ تتـابُـعَ دُرٍّ خـاذِلٍ سِلْكُـهُ العِقْـدا

وبَلَّلَ خَدَّيها دموعٌ تلاحقَتْ تلاحُقَ اللؤلؤِ الذي تَخَلَّفَ عنْ خيطِ عقدِهِ .

٣ ـ وجاءتْ بشكوى لو تَمُرُّ ببعضِها على شجرِ الخابورِ ما أورقَتْ وَجْدا

وتقدمَتْ بشكايةٍ لو بَثَّتْ بعضَها على شجرِ نهرِ الخابورِ توقَّفَ عنِ الإيراقِ حُزناً .

٤ ـ وقالَتْ : أعنْ نجدٍ وروحائِهِ إلى تِهـامـةَ ؟ لا حُيِّيـتَ مـنْ تـاركٍ نجـدا

فقالتْ : أترحلُ عنْ أرضِ نجدٍ ، وتذهبُ إلى تِهامَةَ ؟ لا دَرَّ دَرُّكَ منْ رجلٍ راحلٍ عنْ نجدٍ .

٥ ـ ضلالاً لرأيِ مثلِ رأيكَ ، بئسَ ما صَنَعْـتَ ، أمـا واللهِ لـم تُلْهَـمِ الـرُّشـدا

اتَّخَذْتَ رأياً فيه الضياعُ ، لا حبَّذا ما عملْتَ ، فواللهِ لم تُلَقَّ الصوابَ ، ولم تُوَفَّقْ إليهِ .

٦ ـ أعَـنْ ظِـلِّ أيـكٍ ورافٍ مُتَفَيِّـئٍ إلى حَرِّ بيداءٍ يُذيبُ الصَّفا الصَّلْدا ؟

أترحَلُ عن أرضٍ ، فيها ظلالُ الأشجارِ النَّضِيرةِ ، وتذهبُ إلى أخرى إلى الصحراءِ ذاتِ الحرارةِ الشديدةِ التي تذيبُ الحجرَ الأصمَّ القاسيَ ؟

٧ ـ أسـارٍ إلـى أرضِ القتـادِ ، فهـاجـرٌ إليهـا العَـرارُ الطَّيِّبَ النشرِ والـرَّنـدا ؟

أأنت ذاهبٌ إلى أرضِ شجرِ الشوكِ فتاركٌ شجرَ العَرارِ طيِّبَ الرائحةِ وشجرَ الرندِ ؟

٨ ـ أمُخْتـارُ ثَمْـدٍ آجِـنٍ ، مـا أَمَـرَّهُ علـى جُمَّـةٍ زرقـاءَ ، أعْـذِبْ بهـا وِرْدا

أأنتَ مُفَضِّلٌ الماءَ القليلَ مُتَغَيِّرَ اللونِ والطعمِ ، أمْرِرْ به ، على البئرِ غزيرةِ الماءِ كالبحرِ ، ما أعذبَ ماءَها رِيَّها ورَيَّاها !

٩ ـ إذا نَمْنَمَتْ في مَتْنِها نقْشَها الصَّبا   حَسِبتَ على البطحاءِ منْ مَتْنِها سَرْدا

إذا زَخْرَفَتْ صَفْحَتها بألوانٍ منْ نسائمِ الصَّبا ظَنَنْتَ أنَّ السهلَ ، قد نَسجَ لنفسِهِ رداءً مُزَيَّناً .

١٠ ـ بَرودٌ يكادُ الثغرُ يأبى ارتشافَها   كـأنـكَ ذوبَ الثلـجِ مـرتَشِـفٌ بـردا

فهذه المياهُ الباردةُ ، يوشِكُ الفمُ ألاّ يَتَقَبَّلَها لأنَّه يُحِسُّ أنَّ بشفَتَيهِ الثلجَ الذائبَ شيئاً فشيئاً ، فلا تتقبّلانِ ماءً أقلَّ برودةً منَ الثلج .

١١ ـ كعيشِ الذي بينَ الخيامِ مجاوراً   لمـنْ بـأيـادي كفِّـهِ يَبْتنـي المجـدا ؟

وهل حياتُكَ كحياةِ منْ يحيا بينَ الخيامِ مجاوراً لِمَنْ بنى ، ويبني بكفِّه وحدَهُ المفاخرَ ؟

١٢ ـ فقلْتُ لها: فَيئي إليكِ، وخَفِّضي   عليك ، ولا تَأسَي، ولا تُخْضلي خدّا

فأجَبْتُها : رجوعي إليك ، فَخفِّفي عنكِ الأحزانَ ، ولا تهتمِّي بها ، ولا تُبَلِّلي خدًّا بدمعٍ إلى أبدِ الآبدينَ .

١٣ ـ فإنِّي إلى هذا الذي قد وصفْتِهِ   قَصَدْتُ ، وما أنوي إلى غَيرِه قَصْدا

فإني إلى ذلكَ المكانِ الذي وصَفْتِهِ ذاهبٌ ، ولا أفكِّرُ أنْ أقصدَ غيرَهُ أبداً .

١٤ ـ رَحَلْـتُ إليـهِ نـاجيـاتٍ كـأنمـا   تُبـاري قطـا كُـدْرٍ ، تَقَـاذَفُهـا وَخْـدا

وسافرتُ إليهِ ممتطياً ناقةً منَ النوقِ السريعةِ التي تنجو بمنْ رَكِبَها ، وتسابِقُ القطا المُغْبَرَّةَ ، وتترامى في سيرِها السريعِ أو في سَعَةِ خَطْوِها .

١٥ ـ إذا قَصُرَتْ أنساعُها طالَ خَطْوُها   ومَـدَّتْ علـى العِـلاّتِ أضبـاعَهـا مَـدّا

وإذا كانتْ مفاصلُها بينَ الكتفَينِ والساعِدَينِ قصيرةً وسَيْرُ رحالِها العريضِ مشدوداً طالَتْ خطواتُها ، ومَدَّتْ على الرغمِ منْ قِصَرِ المفاصِلِ أو السَّيْرِ المشدودِ أعضادَها ممّا بينَ مِرْفَقَيها إلى كتِفَيها مَدًّا طويلاً .

١٦ ـ ونَطَّـتْ علـى أعجـازِهِـنَّ حقـائبـاً   مُضَمَّنَـــةً مـــدحـــاً مُطَبَّعَـــةً حمـــدا

وشدَّتْ على ظَهْرِها جهةَ الأعجازِ أحزمةً ، حُمِّلَتْ قصائدَ مدحٍ ، امتلأتْ بالحمدِ والثناءِ .

١٧ ـ فَسُرِّيَ عنها، ثم قالتْ: لئن نأتْ   رِكَابُكَ عَنْ سُعْدى لقد دانَتِ السَّعْدا

فكُشِفَ الهمُّ عنها ، ثم قالتْ : لئنِ ابتعدَتْ رواحلُكَ عن سُعْدى ، فلقد قَرُبتْ منَ السَّعْدِ والبركةِ .

١٨ ـ ونادَتْ بـ : أسْتَرْعيكَ ربِّ ركائباً   لأفضلِ منْ يمشي انْتحى ركبُها وَفْدا

ودعَتْ ربَّها قائلةً : أطلبُ منكَ أنْ تحفظَ مسافرينَ لأفضلِ منْ يَسيرُ بركبِهِ جادًّا سابقاً كلَّ منْ يُسافرُ إلى مُرادِهِ .

١٩ ـ فتًى كانتِ الأيامُ يَمْخَضْنَ دائباً   فلما تناهى المَخْضُ كانَ هو الزُّبْدا

إنَّ الأيامَ في دورانٍ مستمرٍّ ، والناسُ فيها يتقلّبونَ يوماً لهم ويوماً عليهمْ ، ويبقى في نهايةِ كلِّ جولةٍ الزُّبْدُ ، وكانَ هذا الفتى هو الزُّبْدَ الباقيَ .

٢٠ ـ وجدتُ بَني الأيام هزلاً بأسرِهمْ   وصادفْتُهُ ما بينَهُمْ وحدَهُ جِدّا

وألفيتُ الناسَ أبناءَ الزمانِ أصحابَ لَعِبٍ وهزلٍ في الضيقِ والشدةِ ، ولقيتُهُ وحدَهُ في ما بينهم صاحبَ الجِدِّ .

٢١ ـ يُوحِّدُهُ بالفضلِ والجِدِّ ربُّهُ   هنيئاً لهُ أنْ أُوتيَ الفضلَ ، والجِدّا

وقد جعلَهُ اللهُ ، عزَّ ، وجلَ ، وحيداً بالفضلِ والاجتهادِ ، فهنيئاً له بما أُعطِي : الدرجةِ الرفيعةِ والهمَّةِ العاليةِ .

٢٢ ـ أبَتْ صفتاهُ أنْ يَشُقَّ غبارَهُ   بنو زَمنٍ لم يَقْدَحوا فيهما زَنْدا

أنِفَتْ صفتاهُ : الدرجةُ الرفيعةُ والهمةُ العاليةُ أنْ يدخُلَ عالَمَهُ رجالٌ منْ بني هذا الزمان ، ويشتركوا في عملٍ جماعيٍّ .

٢٣ ـ قريحتُهُ نارٌ ، يكادُ شُواظُها   إذا استوضَحَتْهُ النارُ لم تَسْتَطِعْ وَقْدا

سَجيَّتُهُ نارٌ ، يكادُ لَهَبُها إذا أرادتِ النارُ أن تدقِّقَ النظرَ فيه ، لا تتمكَّنُ منْ زيادةِ اشتعالِها ليكونَ لها ما تريدُ .

٢٤ ـ وفاضَتْ لهُ نظماً ونثراً بَدائهٌ   كفيضِ سيولِ الواديَينِ إذا مُدّا

وسالَتْ له بدائعُ قصيداً ونثراً كسيلِ سيولِ الواديَينِ إذا جاءَهما مَدٌّ منْ سيلٍ آخرَ .

٢٥ ـ على ابنِ هلالٍ والوليدِ إذا احتبى   لِنَثْرٍ ونظمٍ أنْ يخالِفَهُ جَودا

على سيلِ عليِّ بنِ هلالٍ ابنِ البوابِ وسيلِ أبي عبادةَ الوليدِ بنِ عبيدِ اللهِ الطائيِّ البحتريِّ أنْ يُخالِفَهُ كرماً وجوداً ، إنِ اشْتَمَل بثوبِهِ ، وجَلَسَ لكتابةِ نظمٍ أو نثرٍ .

٢٦ ـ حشا غامضاتِ سيبَوَيهِ كتابَهُ   وأحْرِ بأنْ تعتاضَ تلكَ وتَشْتَدّا

وأدخلَ في كتابهِ حواشيَ تُفَسِّرُ غوامضَ كتَابِ سيبويهِ المسمَّى (الكتاب) فكانَتْ أفضلَ ممّا كتبَ سيبويهِ وأجدَرَ بأنْ تستبدِلَهُ بِها ، وتجعلَها أسساً شديدةً لعلمِ النحوِ .

٢٧ ـ إذا وقعتْ فيها الخواطرُ أُدْهشَتْ فما وَجَدَتْ منْ مَرْجعِ القَهْقَرى بُدّا

فإذا اطَّلعَتْ عليها الأفكارُ تَحَيَّرَتْ ، فما ترى محالةً منْ رجوعٍ إلى الخلفِ .

٢٨ ـ وإنْ سَرَّبَ الأفكارَ فيها اخْتَرَقْنَها فمنْ طالعٍ نَجْداً ومنْ هابطٍ وَهْداً

وإنْ أرسلَ الأفكارَ فيها ، أسرعَتْ ، فدخلَتْ فيها ، فتراها كأنها تَتَبارى في الصعودِ جبلاً والنزولِ وادياً .

٢٩ ـ يغوصُ على أخفى منَ الليلِ فهمُهُ فَيَطْلُعُ منهُ بُلْجةَ الصبحِ أو أبدَى

ويغوصُ عقلُهُ في ظلماتِ أمورٍ أشدَّ ظلمةً منَ الليلِ ، ويخرجُ بها مضيئةً واضحةً كضوءِ الصبحِ أو أوضحَ منه .

٣٠ ـ عليمٌ ترى كُلًّا منَ الناسِ عالماً لو اقتسموا العلمَ الذي حازَهُ فردا

فقد فهِمَ علوماً كثيرةً حتى صارَ عليماً ، ولو تُوُزِّعَتْ هذه العلومُ على الناسِ لاختصَّ كلُّ واحدٍ منهم بعلمٍ واحدٍ .

٣١ ـ وذو ورعٍ ، لا الكأسُ تعرفُ كَفَّهُ ولا كفُّهُ الشَّطْرنجَ تعرفُ والنَّرْدا

وذو تَقْوى ، لم ترَ كأسُ الخمرِ ولُعبتا الشطرنجِ والنَّرْدِ (الطاولةِ) يَدَهُ .

٣٢ ـ تهالكَ بُغْضاً أن يُلِمَّ بمُسكِرٍ وقد هلكَ القُطْرُبُّليُّ لهُ وُدّا

وقد كرِهَ السكرَ وشاربي الخمرِ كُرْهاً ، جعلَهُ يوشِكُ أنْ يموتَ برؤيةِ مالَهُ علاقةٌ به ، وأوشكَ تاجرُ الخمرِ القُطْرُبُّليُّ أنْ يموتَ أيضاً حسداً منَ الحبِّ الذي يُكِنُّهُ الشاعرُ لممدوحِهِ .

٣٣ ـ يغارُ عليه منْ مُوَيهٍ يمصُّهُ فَمُنْيَتُهُ لو أنهُ صائرٌ ثَمْدا

فهو يخافُ عليهِ منِ ارتشافِ الخمرِ ؛ ومطلبُهُ أنْ يصيرَ الخمرُ قليلاً كماءٍ في الشتاءِ ، يظهرُ قليلاً ، وفي الصيفِ يغورُ ، ويذهبُ .

٣٤ ـ طِلابُ العلا ألْهَى عنِ اللهوِ نفسَهُ فليسَ لها فيهِ مَراحٌ ولا مَغْدَى

وطلبُ المعالي والمفاخرِ ، جعلَهُ ينسَى اللهوَ ، فلم يكنْ لها فيه شركةٌ في المساءِ والصباحِ .

٣٥ ـ إذا نَزَّقَ اللهوُ الشيوخَ ، فأطلقوا حُباهُمْ ، وطاشوا زادَ حَبْوَتَهُ عَقْدا

إذا لعبَ اللهوُ بالشيوخِ ، وجَعلَهمْ طائشينَ ، وفكّوا أحزمةَ ثيابهمْ ، ووضعوا عِماماتِهمْ ، وانطلقوا خِفَّةً ، زادَ شدَّ حِزامَهُ وعَقْدَ ثيابِهِ .

٣٦ ـ علـى أنـهُ فـي عنفـوانِ شبـابِـهِ　　وأنـهُ عليـه مِـنْ ريـاشِ الصِّبـا بُـرْدا

على الرغمِ منْ أنهُ في أوَّلِ شبابِهِ وأنَّ اللهَ ، عَزَّ ، وجلَّ ، منحَهُ منْ زينةِ الشبابِ والفُتُوَّةِ لباساً جميلاً .

٣٧ ـ ولو شاءَ، لكنْ لنْ يشاءَ، ولم يَشأْ　　لجاوزَ فـي مـا تشتهـي الأنفـسُ الحَـدّا

ولم يُردْ ، ولن يُريدَ يوماً ، ولو أرادَ لَمَضَى في ما تشتاقُ إليه الأنفسُ ، وسبقَ غيرَهُ ، وبلَغَ غايتَهُ .

٣٨ ـ فإنَّ لهُ جاهاً عريضاً كما ترى　　وعِـزّاً بـه قـامَ الـزمـانُ لـه عبـدا

فإنَّ لهُ منزلةً وقدْراً كبيراً ومجداً ، صارَ الزمانُ به عبداً له .

٣٩ ـ لهُ قلمٌ في الشرقِ والغربِ نافذٌ　　لـهُ الحكـمُ لا يستطيـعُ خَلْـقٌ لـهُ ردّا

ولهُ قلمٌ ، يكتبُ فيه شعراً ونثراً ، عَرَفَهُ أهلُ الشرقِ والغربِ ، ونفَّذوا أحكامَهُ التي لم يستطعْ أحدٌ أن يُنْكِرَها أو يَرُدَّها .

٤٠ ـ يظَـلُّ الصمصـامُ مُـرْتَعِـداً فمـا　　يُـزايـلُ مـنْ إفـراطِ هَيبتِـهِ الغِمْـدا

ويبقى السيفُ القويُّ مضطرباً خوفاً ، فلا يتركُ غِمدَهُ منْ شدَّةِ فزعِهِ .

٤١ ـ فـلا تَغْتَـرِرْ أنْ قـد دَعَـوْهُ يـراعـةً　　فـإنَّ صـريـراً منـه ، تَسْتَهـزِمُ الجُنْـدا

فلا تَجِدَنَّ تَسْمِيَةَ الناسِ القلمَ أجمةً غريبةً فإنَّ صوتَ سيرِ القلمِ على الورقِ ، يشبهُ صوتَ الأسودِ الذي يجعلُ الجيوشَ ، تتراجعُ ، وتُولِّي منهزمةً ، لا تلوي على شيءٍ .

٤٢ ـ تَلَـقَّ بتعظيـمٍ مقـالـةَ قـاصـدٍ　　إليـكَ بِمَحْـضِ الـوُدِّ لا طـالـبٍ رِفْـدا

فخذْ مني معظِّماً قولاً قاصداً به خالصَ الودِّ لا طالباً عطاءً .

٤٣ ـ وخُـذْ كلمـةً حَـذّاءَ شـاعـرةً إذا　　رآهـا رجـالُ النقـدِ لـم يجـدوا نَقْـداً

واسْتَمِعْ مني إلى قصيدةٍ مُنَقَّحةٍ في مدحِكَ ، تسيرُ في البلادِ ، ويحفظُها الناسُ ، فلا يجدُ بها منْ يميزُ الخبيثَ منَ الطيِّبِ والغَثَّ منَ السمينِ ما يراهُ ضعفاً أو خطأً .

☆☆ ٤ ـ وقالَ على بحرِ الوافرِ في المدحِ :

١ ـ خيـالٌ طـافَ مـنْ سُعْـدى　　بـركـبٍ خَلَّفـوا نَجْـدا

لاحَ شخصُ سُعْدى لي بمسافرينَ ، تركوا منطقةَ نَجْدٍ .

٢ ـ بـركـبٍ كلّمـا سـاروا　　أسـالـوا دَمْعَهُـمْ وَجْـدَا

وكلما قطعوا مسافةً في سيرِهِمْ بَكَوا دموعاً غزيرةً حُزْناً .

٣ ـ سَقَوا بمياهِ أعينِهِمْ هناكَ الضالَّ والرَّنْدا

ورَوَوا بدموعِهِمْ نباتَ الضالِّ الذي يسقيهِ المطرُ ونباتَ الرندِ ذا الرائحةِ الطَّيِّبَةِ .

٤ ـ يُباري الغيمَ كلُّهُمُ بأجفانٍ لهُ تَنَدّى

وكلُّ راكبٍ ، كانَ يُسابقُ السحابَ : هذا يسابقُ بالدموعِ منَ أجفانِهِ ، وذاكَ يُسابقُ بالمطرِ من ثناياهُ .

٥ ـ وأنفاسٍ كبرقٍ في أنينٍ يشبهُ الرَّعدا

فأنفاسُ الراكبِ مثلُ البرقِ ، لها أنينٌ متقطِّعٌ ، والبرقُ كأنفاسِ الراكبِ ، يَتْبَعُهُ الرعدُ .

٦ ـ إذا ما الروضُ عَنَّ رأوا مشابِهَ فيه مِنْ سُعْدَى

وإذا ما اعترضَهُمُ الروضُ رأوا فيه أموراً كثيرةً ، تشبهُ ما في سُعْدى منْ محاسِنَ .

٧ ـ حكَتْ بالثَّغْرِ والخَدِّ الـ أقاحي منه والوَرْدا

وشابهَ الأقحوانُ والوردُ ثَغْرَها وخَدَّيها في الإبيضاضِ والحمرةِ .

٨ ـ وتحكي بانَهُ لَدْناً إذا ما هَزَّتِ القَدّا

وتُشْبِهُ شجرَهُ في اللُّيونةِ إذا ما حركَتْ قَوامَها .

٩ ـ أسُعْدَى أطلعي يوماً علينا كوكباً سَعْدا

فيا أيَّتُها الحبيبةُ سُعْدى كوني لنا يوماً منَ الأيامِ نجماً ، يَجْلُبُ لنا السعادةَ والهناءةَ .

١٠ ـ ومُنِّي باقترابٍ منكِ يهزمُ بيننَا البُعْدا

وتكرَّمي علينا بدنوِ منكِ ، يَغْلِبُ ما بينَنا مِنَ النَّوَى .

١١ ـ لوَ أنَّكِ تَبْسِطِينَ لنا بَنانَكِ ذلكَ الجَعْدا

ولو أنَّكِ تَمُدِّينَ لنا أصابعَ كفِّكِ ، وتتركينَ ذلك البخلَ .

١٢ ـ وجُدْتِ بما نُؤَمِّلُهُ لَعِشْنا عيشةً رغْدا

وسَخَوْتِ بما نرجوهُ ، لكانَتْ حياتُنا سعيدةً .

١٣ ـ وهيهاتَ الذي يرجو كِ طالبُ حاجةٍ أكْدى

وما أبعدَ ما يأملُ المرءُ حاجةً منكِ لأنهُ لا يظفرُ قطُّ منكِ بشيءٍ .

١٤ ـ عَقَدْتِ الكفَّ بالتِّسعيـ ـنَ بعدَ ثلاثةٍ عقْدا

وكأنكِ قد رَبَطْتِ بنانَ كفِّكِ بثلاثٍ وتسعينَ عُقْدةً حتى لا تَنْبَسِطَ ، وتعطيَ أحداً شيئاً .

١٥ ـ هلمّي للأميرِ تَرَيْ إفاضةَ كَفِّهِ الرِّفْدا

وهيّا بنا إلى الأميرِ تَجدي زيادةَ عطاءٍ منْ كفِّهِ المبسوطةِ .

١٦ ـ لعــــلَّ سخـــــاءَهُ يُعْـــــدِ يـــ ـــــكِ يــا سُعْــدى ، فكــم أعْــدَى ؟

لعلَّ كرَمَهُ ، ينتقِلُ إليكِ يا سُعْدَى ، فكثيراً ما انتقلَ كرمُهُ إلى أناسٍ ، فقلَّدوهُ في العطاءِ حتى صاروا كُرماءَ مثلَهُ .

١٧ ـ أَلَــــمْ تَــــكُ قَبْلَـــهُ خـــارزْ ـــمُ صخـــــراً يـــا بســـاً صَلْـــدا ؟

ألمْ تكنْ خوارزمُ قبلَ أن يَتَسَلَّمَ الحكمَ أرضاً صخريةً يابسةً صلبةً ، لا فائدة فيها ؟

١٨ ـ فَصَيَّـــــرَ أهلَهـــا سُحُبـــــاً وصَيَّـــــــرَ أرضَهـــــــا وِرْدا

فَجَعَلَ أهلَها سُحُباً في الكرمِ والعطاءِ وأرضَها رياضاً في الخصبِ والجمالِ .

١٩ ـ بحمــــــدِ اللهِ عَبْــــدُ اللَّـــ ـــهِ حَــوَّلَ جَــزْرَهــا مَــدّا

وبفضلِ اللهِ جعل عبدُ اللهِ انحِسارَ الماءِ عن أرضِها فَيضاً .

٢٠ ـ سَقَتْهـــــا أنمُــــلٌ أنْبَتْـــ ـــنَ فيهـــا الشكـــرَ والحَمْـــدا

رَوَتْها أصابعُ ، زرعَتْ فيها شكرَ اللهِ ، عزَّ ، وجلَّ ، وحمدَهُ .

٢١ ـ وطَـــوَّقهـــا حُلِـــيَّ عُلًـــى غَــدَتْ فـــي جيـــدِهـــا عِقـــدا

وزَيَّنَ ما حولَها بأزهارٍ ذاتِ ألوانٍ مختلفةٍ ، فكانَتْ كعقدٍ ذي حُلِيٍّ ثمينةٍ فِي رقبتَها .

٢٢ ـ وشَمَّـــرَ ســـالكـــاً بـــالعـــدْ ـــلِ فيهــــا مسلكـــــاً قَصْـــدا

وجَدَّ بأمرِ الرعيةِ ذاهباً مذهبَ العدلِ قاصداً رحمةَ اللهِ ، عزَّ ، وجَلَّ .

٢٣ ـ فـــأهبـــطَ مَعْشـــراً سِفْـــلاً ورقَّـــــى مَعْشــــراً صُعْـــــدا

فأنزلَ فريقاً رديئاً ، لا أملَ في تَحَسُّنِهِ ، ورفعَ فريقاً ، يريدُ أنْ يَسْمُوَ في درجاتِ العُلا .

٢٤ ـ وزمَّ أنـــــوفَ طـــــائفـــــةٍ فخيلــــوا أيْنُقـــــاً تُحـــــدَى

ورفعَ رؤوسَ طائفةٍ بأنوفِها ، فَظُنّوا جماعةَ إناثِ الجمالِ ، يُغَنَّى لها لِتُسرِعَ في سيرِها .

٢٥ ـ فـــأصبـــحَ عبـــدُهُـــمْ حـــرّاً وأصبــــحَ حُـــــرُّهُــــمْ عَبْــــدا

وأصبحَ كلُّ واحدٍ بمكانتِهِ التي تليقُ به ، وتناسِبُهُ ، فالعبدُ ، صارَ حرّاً ، والسَّيِّدُ ، صارَ عبداً .

٢٦ ـ هــو الأسدُ الشديــدُ قُــوَى السّـ ـــــواعـــدِ يفــرِسُ الأُسْــــدا

هو الأسدُ الشديدُ بقوةِ سواعِدِهِ ، تمكِّنُهُ من أنْ يغلبَ مجموعةَ الأسودِ .

٢٧ ـ هــو السيــفُ الــذي مــنْ كُلْـ ـــــلِ نـــاحيـــةٍ يُـــرى جَـــدّا

وهو السيفُ الذي إنْ أتيتَهُ منْ كلِّ جهةٍ وفي أيِّ وقتٍ وجَدْتَهُ عظيماً .

٢٨ ـ ولكـــنْ نفسُـــهُ اتَّخَـــذَتْ لـــهُ مـــنْ حِلْمِـــهِ غِمْـــدا

وجعلَتْ نفسُهُ أناتَهُ وعقلَهُ بيتاً لها ، يحفظُها منْ كلِّ شرٍّ كالغمدِ للسيفِ .

٢٩ ـ حليـــمٌ ثـــأرُهُ فيـــهِ كنـــارٍ أُودِعَـــتْ زَنْـــدا

وهو حليمٌ ، يُدْرِكُ قاتلَهُ ، فيقتُلُهُ ، كالنارِ تأكُلُ ما وُضِعَ لها منَ الزِّنادِ التي تُقْدَحُ بها النارُ .

٣٠ ـ فـــإنْ قَـــدَحَتْـــهُ قـــادحـــةٌ رأيـــتَ لنـــارِهِ وَقْـــدا

فإنْ أوْرَتْهُ حَجَرَةُ النارِ رأيتَ نارَهُ سريعة الاتِّقادِ .

٣١ ـ لَـــزومٌ للمكـــارِمِ ، لا يَـــرَى منهـــا لـــهُ بُـــدّا

موجِبٌ على نَفسِهِ اتِّباعَ المكارِمِ والمفاخرِ ، ولا يَرى له محالةً عن ذلك أبداً .

٣٢ ـ فَمَـــنْ طَلَـــبَ المـــراتِـــبَ فَلْـ ـيُشَيِّـــدْ هكـــذا المَجْـــدا

فمن رامَ المنازلَ العليا فَلْيَبْنِها كما بَنَى عبدُ اللهِ هذا العِزَّ .

٣٣ ـ إليـــكَ العيـــدُ ركّـــاضٌ يقـــودُ سُعـــودَهُ وفَـــدا

فها هو العيدُ رَكوضٌ إليكَ قائداً سَعْدَهُ جاعلاً إياهُ قادماً لإسعادِكَ .

٣٤ ـ وأنـــتَ كمثلـــهِ عيـــدٌ فـــأهـــدِ لـــهُ كمـــا أهْـــدَى

وأنتَ شبيهٌ بالعيدِ ، فأكْرِمِ الناسَ بما يُسْعِدُهُمْ كما أكرمَكَ .

٣٥ ـ وأسْـــدِ الخيـــرَ فيـــهِ فَـــإنْـ ـنَ خيـــرَ الخَيـــرِ مـــا يُسْـــدَى

وقَدِّمِ الخيرَ في العيدِ فإنَّ أفضلَ الفضلِ ما يَكفي ، ويُغْني .

☆☆ ٥ ـ وقال على بحرِ الكاملِ في الرثاءِ :

١ ـ ذو التـاجِ ، يجمـعُ عُـدَّةً وعـديـدا والمـوتُ ، يبطِـشُ بـالألـوفِ وحيـدا

صاحبُ المُلْكِ ، يفكِّرُ ، ويدبِّرُ ، ويضعُ أسساً وأعمدةً ، ويختارُ حاشيةً ، ويُدَرِّبُ جُنْداً ، ويجعلُ ذلك كلَّهُ عُدَّةً للدهرِ واستعداداً له ، والموتُ ، يأتي فُجاءةً ، ويأخذُ الألوفَ بالعنفِ والشدةِ وحدَهُ .

٢ ـ يسطو على المَلِكِ العظيمِ الشأنِ، لا يَخْشـى جُنـوداً حـولَـهُ وبُنـودا

يأتي على المَلِكِ العظيمِ القدرِ بعنفٍ وشدةٍ ، لا يخاف حاشيتَهُ وجنودَه ، ولا يحسبُ حساباً لِحِيَلِهِ ودواهيهِ .

٣ ـ فاعْقِدْ على التقوى فؤادَكَ ، واطْوِهِ   لا تَنْشُـــرَنَّ لـــواءَكَ المعقـــودا

فارْبِطْ قلبَكَ على تَقْوَى اللهِ ، واحفظْهُ منْ وساوِسِ الشيطانِ ، ولا تُطْلِعْ أحداً على أسرارِ مُلْكِكَ الذي أقَمْتَهُ ، وربطْتَهُ برباطِ التَّقْوَى .

٤ ـ واحْرِصْ على قَودِ الطباعِ إلى الهدى   قَسْـــراً ، ولا تَقُـــدِ الجيـــادَ القُـــودا

وإنْ أردْتَ أنْ ترأسَ أحداً ، فيَتْبَعَكَ للرشادَ ، فاجْهَدْ أنْ تضَعَ خطةً ، تناسبُ مختلفَ السجايا لتُطاعَ ، وأنت مُهابُ الجانبِ ، ولا تَقُدِ الأفراسَ الشديدةَ وطويلةَ الأعناقِ .

٥ ـ أطِعِ الذي خَلَقَ الملوكَ الصِّيدَ ، لا   تَقْصِـــدْ بطـــاعتِـــكَ الملـــوكَ الصِّيـــدا

اجْعَلْ طاعتَكَ للذي خَلَقَ الملوكَ المُتكبِّرينَ ، ولا تَتَوَجَّهْ بطاعتِكَ إلى الملوكِ الذينَ لا يُلْقونَ بالاً لرعيتِهِمْ زهْواً وتيهاً .

٦ ـ تَعْســـاً لِهِمَّـــةِ مَـــنْ تـــراهُ عـــابـــداً   بعـــضَ العبيـــدِ ، ويتـــركُ المعبـــودا

أهلَكَ اللهُ قوةَ وشدةَ منْ يجعلُ أوغادَ الناسِ آلهتَهُ ، ويَتْرُكُ عبادةَ اللهِ ـ عزَّ ، وجلَّ ـ الجديرِ بالعبادةِ .

٧ ـ لـكَ ألـفُ معبـودٍ مطـاعٌ أمـرُهُـمْ   دونَ الإلـــهِ تَـــدَّعـــي التـــوحيـــدا ؟

تعددَتْ آلهتُكَ ، فأصبحوا ألفاً ، يأمرونَ ، فَيُطاعونَ ، دونَ اللهِ الواحدِ الأحدِ ، وتَدَّعي أنكَ تعبُدُ إلهاً واحداً ؟ تلكَ دعوى باطلةٌ .

٨ ـ واطلُبْ منَ اللهِ السعادةَ في التي   تـرجـو ، وخـلِّ الكـوكـبَ المسعـودا

واطلُبْ منَ اللهِ وحدَهُ السعادةَ التي تأمُلُها ، واترُكِ اعتِمادَكَ على غيرِ اللهِ الكواكبِ التي تَظُنُّ أنها تجلبُ لكَ السعادةَ بأدائكَ بعضَ الطقوسِ ، فإنَّ ذلك كفْرٌ وشِرْكٌ .

٩ ـ إنَّ الكواكبَ فوقَ عجزِكَ عَجْزُها   فَمِـنْ أيـنَ تَمْنَـحُ غيـرَهُـنَّ جـدودا ؟

ألا تَعْلَمُ أنَّ الكواكبَ أعْجَزُ منكَ ؟ فمنَ أينَ تأتي بالحَظِّ والحُظوَةِ والرزقِ لتعطِيَهُ غيرَها ؟

١٠ ـ أعَلِمْـتَ أنَّ قضـاءَ ربِّـكَ غـالـبٌ   يمضـــي ، وليـــسَ بحيلـــةٍ مـــردودا ؟

أما علمْتَ أنَّ حُكْمَ ربِّكَ ـ عزَّ ، وجَلَّ ـ قاهرٌ كلَّ حُكْمٍ ، ماضٍ ، لا مَفَرَّ منه ، ولا يَرُدُّهُ أحدٌ ولو أتى بكلِّ حيلةٍ ، تعلَّمها ؟

١١ ـ هذا سراجُ الدولةِ الأسدُ الذي   تـــركَ الأســـودَ الضـــاريـــاتِ قـــروداً

وهذا سراجُ الدولةِ الشجاعُ الذي جعلَ الأسودَ التي تفتِكُ بفرائِسها ، يتلاعبُ بها الناسُ

كما يتلاعبونَ بالقرودِ .

١٢ ـ ليثٌ مُدِلٌّ بالمهابةِ جاعلٌ ليثَ الكتيبةِ في الخِطامِ مَقودا

فهو أسدٌ فخورٌ برزانتِهِ ووقارِهِ وخوفِ الناسِ منهُ ، يجعلُ الأَسَدَ الذي يرأسُ جماعةَ الأسودِ كالحملِ الذي يُربطُ بحبلٍ أنفُهُ ليُساقَ تابعاً لهُ ، يقودُهُ متى وكيفَ شاءَ .

١٣ ـ كم غَمْرَةٍ قد خاضَها ، كم صعبةٍ قد راضَها بجنودِهِ وفريداً

كم معركةٍ مرهوبةٍ قدِ اقْتَحَمَها ، وخرجَ منها منتصراً ، وكم مشكلةٍ شائكةٍ قد حلَّها وحدَهُ وبمرافقةِ جنودِهِ .

١٤ ـ شهِدَ الوغَى ، طلبَ الشهادةَ جاهداً فنجا ، وماتَ على الفراشِ شهيدا

ولم يَخُضْ حرباً إلاّ كانَ قاصداً أنْ ينالَ الشهادةَ ، ونجا منها ، ولم يَمُتْ إلاّ على فراشِهِ راغباً الشهادةَ .

١٥ ـ بِيَدَي أذَلِّ الناسِ ، سبحانَ الذي يُرْدي على أيدي الظِّباءِ أسودا

بِيَدَي رجلٍ ، هو أحقَرُ الناسِ ؛ فسبحانَ اللهِ ، جَلَّ جلالُهُ ، الذي يُميتُ أحياناً الأسودَ على أيدي الظِّباءِ أضعفِ الحيواناتِ .

١٦ ـ ذهبَ الذي اسْتَوفى شجاعةَ خالدٍ سيفِ الإلهِ بنِ الوليدِ وليدا

وها قد ماتَ سراجُ الدولةِ مصوِّراً شجاعةَ وبطولَةَ خالدِ بنِ الوليدِ في الإسلامِ الذي لم يكُنْ له ما يريدُ في نهايةِ حياتِهِ .

١٧ ـ لو خَلَّدَتْ أحداً شجاعةُ قلبِهِ لأصابَ خالدٌ الشجاعُ خلودا

ولم تكنِ الشجاعةُ والبطولةُ يوماً لِتُخْلِدَ أحداً ، فَتُبْقِيَهُ حيّاً إلى أبدِ الآبدينَ ، ولو كانَتْ مُخَلِّدَةً أحداً لظلَّ خالدٌ حيّاً إلى الآنَ وإلى أبدِ الدهرِ .

١٨ ـ أثرُ المصائبِ في الفؤادِ وفي الحشا وهي التي قد شَقَّتِ الجلمودا

وللنوائبِ آثارٌ في القلبِ وفي حنايا الضلوعِ وفي الصخرِ الأصَمِّ الذي يَتَصَدَّعُ ، وينتشرُ هنا وهناكَ .

١٩ ـ بلَغَتْ بِشِدَّتِها مَدىً لم تُبْقِ في كلِّ الشدائدِ ما يُعَدُّ شديدا

وَوَصَلَتْ مصيبتُنا بموتِ سراجِ الدولةِ غايةً ، لم تتركْ بعدَها حساباً لأيَّةِ شدةٍ .

٢٠ ـ ذهبَتْ بتوريدِ الخدودِ ، وصَيَّرَتْ للغانياتِ منَ البَهارِ خدودا

وأخذَتْ حمرةَ خدودِ الفتياتِ اللواتي غَنِينَ بحسنهنَّ ، فصارَتْ خدودُهُنَّ صفراءَ صُفْرَةَ البَهارِ .

٢١ ـ فإذا الدموعُ جَرَتْ عليها ضَرَّجَتْ وجنـاتِهـا فـأعـادتِ التـوريـدا

وإذا بَكَينَ ، وسالَتْ دموعُهُنَ ، تَلَوَّنتِ الخدودُ ، وارْتَدَّ لها لونُ الحمرةِ .

٢٢ ـ ما زالَ محسوداً على الفرحِ الفتى فـاليـومَ صـارَ علـى الأسـى محسـودا

لقد كانَ الفتى محسوداً لسعادتِهِ بظلِّ سراجِ الدولةِ ، وصارَ اليومَ أيضاً محسوداً لأنه أظهرَ وفاءَهُ له برثائه إياهُ .

٢٣ ـ ما زالَ يُحْمَدُ في المصائبِ صبرُهُ فـاليـومَ عـادَ بكـاؤهُ محمـودا

وكان يُثْنَى عليه ، إنْ أصابهُ مكروهٌ ، لِتَحَلِّيهِ بالصبرِ ، فصارَ اليومَ ، يبكي ، ويُثْنَى عليه ببكائه .

٢٤ ـ لو كانَ يُحْيِي الميتَ عَولَةُ مُعْوِلٍ وبكـاءُ بـاكيـةٍ يَـرُدُّ فقيـدا

فلو كانَتْ صيحةُ نائحٍ ودمعُ باكيةٍ ، يَبْعثُ المَيتَ ، ويَرُدُّ مفقوداً ، لظلَّ المرءُ يُعْوِلُ ، وينوحُ ، ويبكي إلى أبدِ الآبدينَ .

☆☆ ٦ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الحنينِ إلى وطنِهِ :

١ ـ أحـبُّ بـلادِ اللهِ شـرقـاً ومَغْـرِبـاً إلـيَّ التـي فيهـا غُـذِيـتُ وليـدا

لقد جُلْتُ في بلادِ اللهِ الواسعةِ ، ورأيتُ جمالَها شرقاً وغَرْباً وشمالاً وجنوباً ، فما رأيتُ أحْلَى وأجْمَلَ منْ بلادي منْ مسقطِ راسي حيث وُلدتُ ، ونَمَوتُ ، وتَرَعْرَعْتُ .

٢ ـ ولكـنْ تُـواسـي بـالكـرامـةِ غيـرَهـا وهـذي أرى فيهـا الهـوانَ عَتيـدا

فهي تَلأَمُ جروحَ أبنائها وجروحَ غيرِهِمْ ، وتصونُ أعراضَهمْ ، أمّا هذه البلادُ التي أعيشُ فيها الآنَ ، فلم أجدْ فيها سوى الذُّلِّ قائماً ، لا يزولُ .

٣ ـ ومـا مَنْـزِلُ الأرذالِ للحُـرِّ منـزلاً وإنْ كـانَ عيـشُ الحـرِّ فيـه رغيـدا

ولا ولن ينالَ الحرُّ الكريمُ الشريفُ العِزَّ والسعادةَ في بيوتِ الخَسيسينَ ، ولو كانَ فيها الخِصْبُ ورفاغةُ العيشِ .

٤ ـ سأرحلُ عنها ، ثم لستُ براجعٍ وأضْـرِبُ مَـرْمًـى فـي البـلادِ بعيـدا

ولم أعدْ أستطيعُ العيشَ فيها ، ولن أعودَ إليها ، وسأُيَمِّمُ بلداً آخرَ ، أجِدُ فيه ما آمُلُهُ منَ العِزِّ ، ولو كانَ نائياً .

٥ ـ فلا كنتُ ، إنْ خَيَّمْتُ فيها ، ابنَ حُرَّةٍ ولا عشْـتُ بيـنَ الصـالحيـنَ حميـدا

ولسْتُ كريماً ابنَ كريمٍ ، ولا كان لي مكانٌ محمودٌ بينَ الكرامِ إنْ بقيتُ قائماً فيها .

☆☆ ٧ ـ وقالَ على بحرِ البسيطِ في التصوفِ والزهدِ :

١ ـ كلُّ النفوسِ إلى المقدارِ مطرودَهْ شـريعـةٌ لجميـعِ الخلـقِ مـورودَهْ

لكلِّ نفسٍ من النفوسِ نهايةٌ مُقَدَّرَةٌ لهُ ، يُؤْخَذُ إليها ، وهي سُنَّةُ اللهِ في خَلْقِهِ ، تأتي على كلِّ فردٍ منهُ .

٢ ـ منْ أينَ يُنْفِقُ في ما ليسَ يَنْفَعُهُ ساعاتِهِ ، المرءُ والأنفاسُ معدودَهْ ؟

كيفَ يقضي المرءُ أوقاتَهُ في ما لا ينتفعُ بهِ ، ووقتُ عمرِهِ قصيرٌ ، ويومُ الحسابِ قريبٌ ؟

٣ ـ ما بـالُ مـنْ يبتني قصـراً ليسكُنَـهُ عَـدُوُّهُ ، وهـو فـي غبـراءَ ملحـودَهْ ؟

وما خاطرُ الذي يبني قصراً ، فيموتُ ، ويكون قبرُهُ في أرضٍ قَفْرةٍ ، ويسكنُهُ من بعدِهِ عَدوُّهُ ؟

٤ ـ كـدودةِ القَـزِّ تكسـو غيـرَها حُلَـلاً بهيجـةً ، وأحـاطَ الهُلْـكُ بـالـدودَهْ

فهو كدودِ القَزِّ التي يُصنَعُ منْ شرانقِها الحريريةِ أكسيةٌ حُلْوةٌ ؛ يحيطُ بها الموتُ ، ويَتباهَى صاحبُ البردِ بنسيجِها .

٥ ـ طرقُ السدادِ على إفراطِ فُسْحتِها كـأنمـا هـي دونَ المـرءِ مسـدودَهْ

ودروبُ الاستقامةِ والرشادِ كثيرةٌ وواسعةٌ ، وقد تكونُ أحياناً وَعِرَةً ومُغْلَقَةً في وجهِ المرءِ .

٦ ـ يجري إلى الشَّرِّ كالهملاجِ في طَلَقٍ ورجلُـهُ عـن مسـاعـي الخيـرِ مصفـودَهْ

يسعى في طريقِ الشرِّ راكباً دابَّةً ثقيلةَ السيرِ حُرًّا طليقاً ، ولا يفكِّرُ في الخيرِ وعملِهِ ، وكأنَّ رجلَهُ مقيَّدةٌ بالأصفادِ ، لا تَتمكَّنُ من السيرِ في طريقِ الخيرِ .

٧ ـ يُـوحِّـدُ ربَّـهُ فـي زعمِـهِ ، وتـرى أهـواءَهُ دونَ وجـهِ اللهِ معبـودَهْ

وتراهُ يسبِّحُ ربَّهُ ، ويذكُرُ آلاءَهُ ، وترقبُ أعمالَهُ ، فإذا هي مُسَيَّرةٌ بأهوائِهِ المنحرفةِ العابدةِ غيرَ وجهِ اللهِ .

٨ ـ يرعى حقوقَ أناسٍ ، فهو معترفٌ بحفظِهـا ، وحقـوقُ اللهِ مجحـودَهْ

يصونُ حقوقَ بعضِ الناسِ معترفاً بها ، وينكرُ حقوقَ اللهِ ، فلا يَتْبَعُها .

٩ ـ دنيـاكَ غـاليـةٌ فـي جـاهِليَّتِهـا فـالإبْـنُ والبنـتُ مـوؤودٌ ومـوؤودَهْ

وكأنَّكَ تعيشُ في أيامِ الجاهليةِ التي عتا الناسُ فيها ، فوَأدوا أبناءَهُمْ .

١٠ ـ خَصُّوا بناتِهِمْ ، وهي التي وأدَتْ بجَهْـدِهـا كُـلَّ مـولـودٍ ومـولـودَهْ

وجعلوا الوَأْدَ للبناتِ على زعْمِهِمْ أنها هي التي كانَتْ تُنْجِبُ الذكورَ والإناثَ .

☆☆ ٨ ـ وقالَ على بحرِ البسيطِ في المدحِ :

١ ـ تـاجُ الملـوكِ بمـا يـأتيـهِ منفـردٌ لَـمْ يَـرْمِ منهـمْ إلـى أغـراضِـهِ أحـدُ

إنَّ تاجَ الملوكِ صاحبَ دمشقَ فريدُ دهرِهِ ووحيدُ عصرِهِ في سياستِهِ وحكمِهِ ، لم يَجْرُؤْ أحَدٌ منَ الملوكِ أنْ يفكِّرَ في اتِّخاذِ مذهبٍ منْ مذاهبِ سياستِهِ .

٢ ـ عَـزمٌ كمثـلِ غِـرارِ السيـفِ يَقْـدُمُـهُ رأيٌ كمثـلِ كعـوبِ الـرمـحِ مُطَّـرِدُ

فهو ذو جِدٍّ كَحَدِّ السيفِ ، يسبقُهُ فكرٌ سديدٌ سليمٌ صائبٌ مستقيمٌ كالرمحِ في استقامتهِ وليونتِهِ .

٣ ـ وهيبـــةٌ بعثَتْهـــا همَّـــةٌ قَـــذُفٌ منهـا فـرائـصُ أهـلِ الأرضِ تـرتعـدُ

وهو ذو وقارٍ ورزانةٍ أرسلَتْها همَّتُهُ العاليةُ البعيدةُ المدى والتي يسمعُ عنها أهلُ الأرضِ ، فَتَضْطَرِبُ ضلوعُهُمْ خوفاً منه .

٤ ـ تطوي الملوكُ على الأضغانِ أفئدةً كـــأنَّ فـــي طيِّهـــا النيـــرانَ تَتَّقِـــدُ

ويُخَبِّئُ الملوكُ أحقادَهُمْ في قلوبِهِمْ ، فتراهُمْ في اضطرابِهِمْ كأنَّ نيرانَ الحقدِ والحسدِ تلتهبُ في أضلاعِهِمْ وأحشائِهِمْ .

٥ ـ حتـــى إذا آنســـوا لألاءَ غُـــرَّتِـــهِ والذُّعْرُ أنساهمُ أضغانَهَمْ ، سجدوا

فإذا ما لاحَ لهمْ بياضُ جبهتِهِ ، وهدأتْ نفوسُهُمْ ، وفارقَها الخوفُ والحقدُ ، خَرُّوا لهُ خاضعينَ .

٦ ـ صَيدُ الرجالِ بِحَدِّ السيفِ إنْ شَردوا مِـنْ دأبِـهِ وبَـرْدُ العُـرْفِ إنْ شَهِـدوا

وإذا ما نفَرَ الرجالُ عنه هرباً منْ جِدِّهِ الشديدِ هبَّ إليهمْ بِحَدِّ سيفه ، وأتى بهمْ واحداً واحداً ، وكأنهُ ، يصطادُ العصافيرَ ، وإذا عَلِموا مرامَهُ ، وأطاعوهُ فإنهُ ، يُقَدِّمُ لهمْ ما يجعلُ لهمُ العيشَ ناعماً رغيداً .

٧ ـ لـم يَنْفَلِـتْ منهـمْ عـنْ صيـدِهِ أحـدٌ فـي الحـالتيـنِ تـدانَـوا منـه أو بَعُـدوا

وما استطاعَ أحدٌ أنْ يُفكِّرَ بالهروبِ منهُ في وقتِ الحربِ والشدةِ وفي وقتِ السلمِ لأنه علمَ أنهُ مردودٌ إلى كَنَفِهِ ، إن كانَ قريباً منه أو بعيداً .

٨ ـ كـأنمـا هـمْ سبـاعُ القَفْـرِ مُعْـرِضَـةً يصطـادُهـا منـهُ أنّـى يشتهـي أسـدُ

فهم في حوزتِهِ دائماً ؛ وإذا ما مشى بعضُهُمْ يوماً عنهُ ، وابتعدوا في الفلواتِ فإنهُ يلتقطُهُمْ واحداً واحداً ، مُتَلَذِّذاً بذلك كتَلَذُّذِ الأسدِ بفرائِسِهِ .

٩ ـ يُخْشى ، ويُرْجَى ، فَتُخْشى للعقابِ يدٌ منهُ ، وتُرْجى لإسدادِ الثوابِ يدُ

وهو مُهابٌ مأمولٌ ، تُهابُ يَدُهُ الباطشةُ في عقابِهِ ، وتُؤمَلُ يدُهُ الكريمةُ في إعطاءِ المكافأةِ .

☆☆ ٩ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ :

١ ـ أقيموا فعيشي في جوارِكُمْ رَغْدُ وكوكبُ أيامي بكمْ كوكبٌ سَعْدُ

اِبْقَوا ، ولا ترحَلُوا ، فإنَّ حياتي بقربِكُمْ سعيدةٌ ، وأملي بكوكبكم وبما يأتي بهِ منَ السعادةِ والعِزِّ كبيرٌ ، أتفاءَلُ به .

٢ ـ أقيموا بنجدٍ إنكمْ لو فَعَلْتمْ لقيلَ : جنانُ الخُلْدِ أطيبُ أم نَجْدُ ؟

اُمْكُثوا بأرضِ نجدٍ ؛ فلو لَبِثْتُمْ بنجدٍ لقالَ الناسُ مُتسائلينَ : أجَنّاتُ عَدْنٍ أحلى وأطيبُ أم أرضُ نجدٍ ؟

٣ ـ ظعَنْتُمْ ، فلم يَمْتُعْ شميمُ عرارةٍ بنجدٍ ، ولم يأرَجْ خُزامى ولا رَنْدُ

رحلْتُمْ ، فلم تبلُغْ رائحةُ العرارةِ والخُزامى والرَّنْدِ التي تفوحُ منْ أرضِ نجدٍ بَعْدَكُمُ الغايةَ التي كانتْ تصلُ إليها بوجودكمْ فيها .

٤ ـ ولا ذاقَ ظمآنُ الثرى فيه قطرةً ولا مَسَّ أنفاسَ الهواءِ بهِ بَرْدُ

رحلتُمْ ، فلم يدْخُلْ قلبَ الأرضِ الصَّدِيَ قطرةُ مطرٍ ، ولا هبَّتْ نسمةٌ باردةٌ ، خفَّفَتْ منْ شدةِ حرِّ الجَوِّ المهيمنِ عليها .

٥ ـ فلو أُبْتُمْ رَوّى الغَمامُ بِيُمْنِكُمْ صَدَى الأرضِ حتى يورقَ الحَجَرُ الصَّلْدُ

فلو فَكَّرْتُمْ بالرجوعِ ، لَسَقَى السحابُ ببركتِكمُ الأرضَ ، ورَوَّى عطشَها ، وعادَتْ تزهرُ ، وتثمرُ ، ويورقُ معها الحجرُ الصوانُ ، ويزهرُ ، ويثمرُ .

٦ ـ وما زلْتُ أبغي مثلَ أيامِكُمْ ، فما ظَفِرْتُ بأيّامٍ مثلِ أيّامِكُمْ بعْدُ

وما فَتِئْتُ أرجو ، وأطلبُ أياماً مثلَ أيامِكُمْ ، ولمّا أنَلْ منْ ذلكَ الرجاءِ والطلبِ شيئاً .

٧ ـ أأَفقِدُ ريعانَ الشبيبةِ راغماً ؟ وأفقدُ أحبابي ؟ لقد عَظُمَ الفَقْدُ

أأُعْدَمُ أحلَى وأطيبُ أيامِ الحياةِ ، وأُذَلُّ ، ويُفارقُني أحبابي ؟ لقد عظُمَ عليَّ ذلكَ الحرمانُ .

٨ ـ وكم ضَمَّ شملي الدهرُ ، ثم بدا له   فَفَـرَّقَـهُ ، والـدهـرُ ليـسَ لـهُ عَهْـدُ

وكم تلاعبَ بي الدهرُ إذ لَمَّني وأهلي تارةً ، ثم خَطَرَ له أنْ يُبْعِدَني عنهمْ ، ولم يكنْ للدهرِ عَهْدٌ ولا ذمَّةٌ ولا ميثاقٌ .

٩ ـ كأنَّ سيوفَ الدهرِ بينَ جوانحي   إذا ذُكِـرَتْ سُعْـدى وجـارتُهـا هنـدُ

وإذا ما أتى ذِكرُ محبوبتي سُعْدى وجارتِها هندٍ أحسُّ بآلامٍ ، تقطِّعُ أضلاعي وأطرافي تقطيعَ سيوفِ الزمانِ .

١٠ ـ أيا جيرتي الأدنَينَ ، ألقوا عصاكُمُ   فقـد فَتَّـتَ الأكبـادَ بعـدَكُـمُ الـوجـدُ

فيا جيراني الأقرباءَ ، حُطّوا رِحالَكُمْ ، وأقيموا ، ولا ترحلوا ، فقد كسَّرَ ، ودَقَّ الشوقُ والحزنُ أكبادَنا بعدَ رحيلكُم .

١١ ـ ورُدُّوا ليـاليَ التـي انتظمـتْ بهـا   تفـاريـقُ أهـوائـي كمـا انتظـمَ العِقـدُ

وأَرجِعوا إليَّ اللياليَ التي قضيتُها بقربِكمْ والتي كانتْ مزدانةً بأنواعِ الفرحِ والسرورِ كالعقدِ الثمينِ الذي زادَهُ جمالاً ترتيبُ حبّاتِ لآلئِهِ .

١٢ ـ إذِ العيشُ غَضٌّ ، والزمانُ بغفلةٍ   وإذْ قُـرْبُ سُعْـدَى ، لا يُعـارِضُـهُ بُعْـدُ

فقد كانَ العيشُ آنذاكَ نعيماً ، وكأنَّ الزمانَ ، قد نسِيَنا ، فلم يُصِبْنا بنكبةٍ منْ نكباتِهِ ، وكانَتْ سُعدَى قريبةً منا ، لم يُبْعِدْها عنا ما يُفَرِّقُ الناسَ عنْ بعضِهِمْ .

١٣ ـ وإذْ نحنُ فتيانٌ خِفافٌ حلومُهُمْ   علـى عِطْـفِ كـلٍّ منهـمْ للصِّبـا بُـرْدُ

وكنّا شباباً ، لم نُقِمْ للحياةِ وزناً ، لا رأيَ لنا ، ولا حكمةَ ، نرتدي البُرْدَ الغاليةَ بُرْدَ الشبابِ إذ يضعُ كلُّ واحدٍ منا بردَتَهُ على طرفِ كتفِهِ ، ويمشي بها مختالاً .

١٤ ـ ليـاليَ سُعْـدَى مـا تَفَلَّـكَ ثـديُهـا   وعُشّـاقُهـا خضـرٌ شـواربُهُـمْ مُـرْدُ

وكانتْ سُعْدَى صغيرةً ما تَكَعَّبَ ثديُها ، ولا استدارَ ، وكانَ عشاقُها في رَيعانِ الشبابِ ، لم يَنْمُ شَعرُ لِحاهمْ .

١٥ ـ وبالجِزْعِ منْ بطنِ الحِمَى مُتَفَرَّخٌ   نـروحُ إليـه للتـلاعُـبِ أو نغـدو

وكنا نذهبُ صباحاً أو مساءً إلى قلبِ الوادي الذي خرجَ منْ فروعِ أشجارِهِ أغصانٌ امْتَدَّتْ على وجهِ الأرض ، ونتمدَّدُ عليها مغنِّينَ فرحينَ .

١٦ ـ يُرينـا خـدودَ الغـانيـاتِ وثَغْـرَهـا   هنـالـكَ نُـوّارُ الأقـاحـيِّ والـوَرْدُ

فنرى بلألاءِ أشعةِ الشمسِ وجْناتِ الفتياتِ اللواتي غَنِينَ بحسنِهِنَّ عنِ الزينةِ وثغورَها

مُلَوَّنَةً بألوانِ زهرِ الأقاحي والورودِ .

١٧ ـ وبالسفحِ منْ أعراضِ نجدٍ حديقةٌ حمائِمُها مثلُ القيانِ بما تشدو

وبسفحِ جبلٍ وبساحةٍ منْ ساحاتِ ذلك السفحِ كانتْ حديقةٌ ، تقفُ على أشجارِها الحمائمُ ، فتغنّي مجتمعةً كما تغنّي المغنياتُ المحترفاتُ .

١٨ ـ تُغَنّي بألحانٍ ملاحٍ ، سَماعُها يَرُدُّ حُبَا النُّسَّاكِ ، ليس لها عَقْدُ

اللواتي يُبْدِعْنَ أنغاماً عذبةً ، إنْ سمعَها العُبّادُ في أمكنةِ عبادتِهم يَلُفّوا أطرافَ أرديتِهمُ التي لا عَقْدَ لها جيّداً .

١٩ ـ يحرِّكُهُمْ ذاكَ الغِناءُ كأنهُ ثناؤكَ عبدَ اللهِ يُنْشِدُهُ العبدُ

ويُثيرُهُمْ هذا الغِناءُ لأنهمْ يرونَ فيهِ حَمْدَكَ يا عبدَ اللهِ ، يردِّدُهُ فردٌ منْ أفرادِ رعيتِكَ .

٢٠ ـ يُزَيِّنُ أشعاري ثناؤكَ مثلَ ما يَزينُ متونَ المشرفيّاتِ إفرنْدُ

وإنَّ قصائدي في مَدْحِكَ ، يُجَمِّلُها رِضاكَ عنها كما يُحَلّي الجوهرُ واللؤلؤُ قبضاتِ السيوفِ المصنوعةِ في مشارفِ الشامِ .

٢١ ـ وقائلةٍ لمّا أتَتْها قصائدي وفي طيِّها شكري لنعماكَ والحمْدُ

وربَّ قائلةٍ لمّا وصلَتْ إليها قصائدي التي ذكرتُ في ثناياها شكري وحمدي لأُعطياتِكَ :

٢٢ ـ لئن كانَ محمودٌ فريداً بفضلِهِ فممدوحُهُ أيضاً بأفضالِهِ فردُ

لئن كانَ هذا الشاعرُ محمودٌ الزمخشريُّ فردَ عصرهِ بنظم قصائدَ ، تبلغُ الغايةَ في المدحِ ، فإنَّ منْ مدحَهُ ، قد بلغَ غايةَ الغاياتِ في السخاءِ ، فكانَ فرداً في الجودِ والكرمِ .

٢٣ ـ لِفَخْرِ المعالي في المعالي مصاعدُ يُقَصِّرُ عنها الصاعدونَ ، وإنْ جَدّوا

فلفخرِ المعالي في الأمجادِ سلالمُ ، لا يتمكَّنُ الجادّونَ في الصعودِ إليها منَ الوصولِ إلى ما وصل إليه مهما أُوتوا منْ همَّةٍ وقوةٍ .

٢٤ ـ نسيبٌ ، وفي بعضِ المناسبِ مَغْمَزٌ إذا ما انْتَمَى لم يُخْزِهِ الأبُ والجَدُّ

إذا كان في مجلسٍ ، يَسْتَنْسِبُ الناسُ فيهِ ، ويذكرُ كلُّ واحِدٍ منهم مفاخرَ قومِهِ ، وظهرَ طعنٌ في نسبِ أحدِهِمْ ، وجاءَ دورُ فخرِ المعالي ، وقالَ : هذا أبي وهذا جدي وهذا وهذا ، لم يَفْتَضِحْ أمرُ أحدٍ ممنْ ذكَرَهُمْ ، ولم يَرُدَّهُ أحدٌ عنْ مفاخرِهِ .

٢٥ ـ حليمٌ يواري الثأرَ في طيِّ حِلْمِهِ كما قد يُواري النارَ في جوفِهِ الزندُ

وهو ذو عقلٍ حكيمٍ ، يخفي الغضبَ ، ويَرُدُّ المظلمةَ في ثنايا صبرِهِ كما يُخفي العودُ النارَ في قلبِه .

٢٦ ـ ولو سقطَتْ منهُ أقلُّ شرارةٍ   لطالَ شُواظُ النارِ ، واتَّسَعَ الوقْدَ

ولو فَلَتَتْ منهُ شرارةٌ صغيرةٌ ، لَعلا لَهَبُ النارِ ، وكَبُرَتْ ساحةُ الاشتِعالِ .

٢٧ ـ جزيلُ اللُّهى سَبْطُ البنانِ، وبعضُهُمْ   سِباطُ اللِّحَى ، لكنْ بنانُهُمْ جَعْدُ

وهو كثيرُ الأعطياتِ ، لا يقبِضُ أصابِعَهُ ، وغيرُهُ ، يرسلُ لحيتَهُ ، ويقبِضُ أصابِعَهُ ، وكأنَّ فيها مرضاً ، لا يجعلُها تنبسِطُ للعطاءِ .

٢٨ ـ إذا وَعَدوا ، أو أوعَدوا كذبوا ، فما   يَتِمُّ لهمْ يوماً وعيدٌ ولا وعدُ

وإذا خَطَرَ ببالِهِمْ خَيرٌ ، وأرادوا أن ينشروهُ ، ويُحَقِّقوهُ بعهدٍ وميثاقٍ ، أو أرادوا أن يَتَهَدَّدوا أحداً ، أو يعاقبوهُ ، لا يُنَفِّذونَ منْ ذا أو ذلكَ شيئاً ، فهم ، يقولونَ ، ولا يَفْعَلونَ .

٢٩ ـ تُزوحِمَ حتى ضاقَ رحبُ فِنائِهِ   كذا يَزْحَمُ الوُرّادُ إنْ عَذُبَ الوِرْدُ

وترى الناسَ يتوافدون عليه إلى غايةِ الزحامِ على الرغمِ مِن اتِّساعِ فِناءِ مجلسِهِ كما يتوافدونَ على منبعِ الماءِ العذبِ .

٣٠ ـ ترى الوَرْدَ في ديباجَتَيهِ طلاقةً   وبشراً ، وفي ديباجِهِ الأسدُ الوَرْدُ

وحينَ تلقاهُ تجدُ خَدَّيهِ ، يتلألآنِ كالزهرِ سماحةً وأمناً ، وقلبُهُ قويًّا قوةَ الأسدِ الأحمرِ .

٣١ ـ بتدبيرِ تاجِ الدولةِ الدولةُ استوَتْ   فمَشْهدُها عدلٌ ، ومسلكُها قَصْدُ

وقامَتْ أسسُ الدولةِ بفضلِ تدبيرِ حاكمِها تاجِ الدولةِ ، وصارَ كلُّ فردٍ مطمئنّاً لعدلِهِ بينَ الناسِ وحكمتِهِ في سياستِهِ .

٣٢ ـ ويحمي حِماها رأيُهُ ؛ إنَّ رأيَهُ   وَدَعْ سَدَّ ذي القرنينِ من دونِها سَدُّ

ويصونُ تدبيرُهُ أمورَ دولتِهِ كما صانَ ذو القرنَينِ مملكةَ مأربِ بالسَّدِّ الذي أقامَهُ ؛ فاعلمْ أنَّ رأيَهُ وحكمتَهُ غايةُ كلِّ تدبيرِ ، واجعلْ سَدَّ ذي القرنينِ مثلَ العلمِ والفضلِ في التدبيرِ .

٣٣ ـ وخيَّمَ منها فوقَ نجدٍ وتَلْعةٍ   وللناسِ منها مدرجُ السيلِ والوَهْدِ

وأقامَ أحكامَهُ وقوانينَهُ في كلِّ ناحيةٍ منْ نواحي مملكتِهِ ، وجعلَ لرعيَّتِهِ ما تَغُلُّهُ الأرضُ في مهابطِ السيولِ والسهولِ والوديانِ .

٣٤ ـ لهُ كلَّ عامٍ في مصالحها سُرًى   وسَيرٌ تَبارَى فيها الركضُ والوَخْدُ

وخَصَّصَ في كلِّ سنةٍ قوافلَ ، تسيرُ ليلاً لتَتَفَقَّدَ أحوالَ رعيّتِهِ ، وجَعَلَ لِتسابُقها في السيرِ ركضاً أو جرياً كجري النعامِ مكافأةً .

٣٥ ـ يقاسي منَ الأهوالِ ما شهدَتْ به عتاقُ المطايا والمُطَّهمةُ الجُرْدُ

وكانَ ، وما يزالُ ، يُكابدُ منَ الشدائدِ ما رأتهُ الإبلُ الكريمةُ والجيادُ الجميلةُ التي خَفَّ شعرُها ، أو أَصْبَحَتْ حليقةً منْ كثرةِ الركوبِ وشدتِهِ .

٣٦ ـ ترقَّى إلى العلياءِ، بالجَهدِ، والذي تَرقَّى إلى العلياءِ سُلَّمُهُ الجُهْدُ

لقد صَعِدَ إلى المجدِ بِجدِّهِ واجتهادِهِ ، إذ ليسَ للمجدِ والرفعةِ دَرَجٌ سوى الجِدِّ والعملِ المتواصلِ العظيمِ .

٣٧ ـ وما الطاعمُ الكاسي بكاسبِ سؤدُدٍ طريقُ اكتسابِ السؤدُدِ السعيُ والكَدُّ

وليس المطعومُ المَكْسُوُّ بنائلٍ مجداً وعزًّا ، فإنَّ طريقَ الفوزِ بالسيادةِ هو العملُ والجِدُّ .

٣٨ ـ وأرغمَ للأعداءِ شُمَّ مَعاطسٍ وأَحْمَى ضلوعاً ، حَشْوُها الغِلُّ والحِقْدُ

وأذَلَّ الأعداءَ الذينَ كانوا يتكبَّرونَ ، ويرفعونَ أنوفَهُمْ ، وكأنهمْ يتهَيَّؤونَ للعطاسِ ، وأحرقَ حنايا ، مَلأَهَا الحقدُ والحَسَدُ .

٣٩ ـ وناهضَهُمْ بالجَدِّ والجِدِّ قبلَهُ وقلَّ غناءُ الجَدِّ إنْ لم يكنْ جِدُّ

وفاخرَهُمْ بالنسبِ العظيمِ الشريفِ والعملِ المثمرِ ثمرَ العزِّ والمجدِ لأنهمْ لا يساوونَهُ نسباً وجِدًّا ، ولأنَّ النسبَ ، لا قيمةَ له إذا لم يرافقْهُ الجِدُّ والاجتهادُ .

٤٠ ـ وليس اعترافُ الحاسدين بفضلِهِ لشيءٍ سوى أنْ ليسَ يُمكِنُهمْ جَحْدُ

وكانَ حاسدوهُ ، يريدونَ أنْ ينكِروا عظمتَهُ وتَفَوُّقَهُ عليهمْ ، فلم يستطيعوا أنْ ينالوا ما أرادوا منْ ذلك شيئاً .

٤١ ـ بدا كعمودِ الصبحِ ، ما فيه شُبهةٌ فهل لهم منْ أنْ يُقِرّوا به بدٌّ ؟

وطَلعَ على الرعيّةِ بقامةٍ قويّةٍ ووجهٍ وضّاءٍ كانبلاجِ الصبحِ ، ليس فيه عيبٌ ، فلم يكنْ لهمْ بديلٌ منَ الاعترافِ بقَدْرِهِ وحكمِهِ .

٤٢ ـ ولمّا قَضَتْ منه خراسانُ حاجةً دعتْهُ ، فلبّاها سريعاً سمرقَنْدُ

واتَّسَعَ قُطْرُ البلادِ التي اسْتَوَى على حُكمها ، فضَمَّ خراسانَ إليهِ حينَ رأتْ حاجتَها في سيادتِهِ ، وأسرعَ إلى إغاثةِ سمرقندَ حينَ طلبَتْ منهُ أنْ يكونَ حاكمَها .

٤٣ ـ فَكَرَّ إليها يُسْرِعُ السيرَ نحوَها وما رَدَّ عَنْهُ في مرابضِها الأُسْدُ

وعادَ إليها مُسْرِعاً ، وما خافَ يوماً مِن اقتحامِ أجماتِ الأسودِ .

٤٤ ـ ولو فزعَ المُشتارُ منْ أنْ ينالَهُ   منَ النحلِ لسعٌ لم يكن رزقَهُ الشَّهْدُ

فلو خافَ جاني العسلِ منْ لدغاتِ النحلِ لما كانَ قوتُهُ وربحُهُ العَسلَ .

٤٥ ـ ولو أبرقَ الأعداءُ ، ثَمَّ وأرعدوا   لما فَلَّ للعزمِ الذي سلَّهُ حدُّ

ولو رأى منَ الأعداءِ تهديداً أو وعيداً لماارتَدَّ عنْ عزمِهِ على الهجومِ ، وما وجدَ تكسُّراً في حدِّ سيفهِ الذي انتضاهُ خوفاً ورهبةً .

٤٦ ـ وكانَ كمثلِ الريحِ يحدو السحابَ، لا   يُثَبِّطُها عن حَدْوِها البرقُ والرعدُ

وكان يسوقُ الجندَ للحربِ كما يسوقُ الريحُ السحابَ ، فلا يردُّها عن عزمِها على إرسالِ المطرِ برقٌ أو رعدٌ .

٤٧ ـ وزَادَ على فعلِ الصوارمِ والقنا   وماأُلقِحَتْ حربٌ، ولا استُعرِضَ الجندُ

ويستمرُّ في تدريبِ الجندِ على استعمالِ السيوفِ والرماحِ في أوقاتِ السلمِ التي لم تُعْلَنْ فيها حربٌ ، ولم تُستعرضِ الجندُ استعداداً للحربِ .

٤٨ ـ بعزمٍ كصدرِ الرمحِ عند اهتزازِهِ   ورأيٍ كنصلِ السيفِ أبرزَهُ الغِمدُ

مُتَسَلِّحاً ببأسٍ وشدةٍ وإقدامٍ مثلِ مُقدِّمةِ الرمحِ ، يخافُ منهُ العدوُّ إذا رآهُ ، يهتَزُّ منْ بعيدٍ ، وفِكرٍ ، يتلألأُ سداداً وصواباً مثلَ صفحةِ السيفِ حينَ يُسَلُّ منْ غمدِهِ .

☆☆ ١٠ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في الرثاءِ :

١ ـ دولُ الزمانِ مناحسٌ وسعودُ   عودٌ ذوى فيه وأورقَ عودُ

إنَّ للزمانِ حياةً كحياةِ الإنسانِ ؛ يولدُ ، وينمو ، ويموتُ ، ويَسعدُ ، ويشقى ، وكحياةِ النباتِ ؛ يُزرَعُ ، فينبُتُ ، وتورقُ أغصانُهُ ، وتثمرُ ، وتذبلُ ، فتموتُ .

٢ ـ لا تَجْزَعَنَّ لكوكبٍ متهافتٍ   فلقد أضاءَ الكوكبُ المسعودُ

فلا تَحْزنْ حينَ ترى نجماً ، يتساقطُ منَ السماءِ ، واذكُرْ أنه كانَ متلألئاً سعيداً بلمعانِهِ وبإدخالِهِ السرورَ إلى قلبِ كلِّ امرئٍ ، يتطلَّعُ إليهِ .

٣ ـ خَلَفٌ بحمدِ اللهِ كم منْ والدٍ   يمضي ، وليس وراءهُ مولودُ

وكنتَ بحمدِ اللهِ وفضلِهِ ولداً صالحاً لأبيكَ ، وقد ماتَ آباءٌ كثيرونَ ، ولم يتركوا وراءَهُمْ أولاداً ، تَبِعوا آباءَهُمْ بصلاحِهِمْ .

٤ ـ إنَّ الإمامةَ قُيِّدَتْ في بيتِها   قَصُرَتْ خطاها أنْ تريمَ قيودُ

إنَّ السُّنَّةَ وُضِعَتْ في مكانِها ، فلم تبرَحْهُ ، ولو أرادَ أحدٌ أن يُزَحْزِحَها ، أو يُخْرِجَها إخراجاً بطيئاً لما أمكنَهُ أنْ يَفُكَّ قيداً واحداً منها .

٥ ـ تـالله لا يَتَقـوَّضُ البيـتُ الـذي أمسـى لـه الإسـلامُ ، وهـو عمـودُ

واللهِ لا يَتَهَدَّمُ البيتُ الذي أُقيمَ على الدينِ الحنيفِ ، فكانَ عموداً منْ أعمدةِ الإسلامِ ، يصونُهُ ، ويحافظُ عليه .

٦ ـ كلّا ، وليسَ مُزَعْزَعاً بيتٌ ، لهُ طُنُـبٌ إلـى وتـدِ الهُـدَى مشـدودُ

لا ، ولنْ يَتَحَرَّكَ بيتٌ شُدَّتْ حبالُهُ إلى عمودِ الرشادِ .

٧ ـ بيـتٌ كغـابِ الليـثِ ليـسَ يَحُلُّـهُ إلاّ رجـالٌ فـي العلـومِ أسـودُ

فهو بيتٌ كأجمةِ الأسدِ ، لا يدخُلُهُ إلاّ الرجالُ الراسخونَ في العلمِ الشديدونَ في البأسِ .

٨ ـ أُسْـدٌ ، أظـافـرُهـا شبـاً مُصْفَـرَّةٌ هـي عنـد تبييـضِ الفتـاوى سـودُ

فالراسخونَ في العلم ، قُوَّتُهمْ في أسنانِ أقلامِهِمُ الصفراءِ التي تُحوِّلُ بياضَ الكراريسِ إلى اسودادٍ لإثباتِ فتاواهم فيها .

٩ ـ أمراءُ في دينِ الإلهِ ، غَزَتْ لهم فِـرَقَ الضـلالِ ، جحـافـلٌ وجنـودُ

فكانوا أسياداً في فهمِ دينِ اللهِ ونشرِهِ ، فخرجَ على أيديهمْ رجالٌ عظماءُ في الدينِ وعلومِهِ وأسيادٌ كرامٌ وجيوشٌ جرّارةٌ ، حاربوا الضلالَ ، وردُّوهُ على أدبارِهِ ،

١٠ ـ يغزونَ بالحججِ القواطعِ أينما وُجِّهْـنَ ضَـمَّ الملحـديـنَ لُحـودُ

وسلاحُهُمْ في قصدِهُمُ العَدُوَّ البراهينُ الدامغةُ التي إنْ أصابَتِ الجاحدينَ الدينَ الحنيفَ والحقَّ اليقينَ ، تَهَيَّأَتْ لهمُ القبورُ .

١١ ـ يحكي الجَلادَ جدالُهمْ منْ غيرِ أنْ خفقَـتْ لهـمْ فـوقَ الـرؤوسِ بنـودُ

تُشبهُ مخاصَمَتُهُمْ ضربَ السياطِ التي ليس لها أعلامٌ ، تتحرَّكُ إذا سُلِّطَتْ فوقَ رؤوسِ الأعداءِ .

١٢ ـ لهجـاتُهُـمْ كمنـاصـلٍ ، لكنّهـا تفـري الـرقـابَ ، وكلُّهـا مغمـودُ

لهمْ ألسنةٌ كأسنَّةِ السيوفِ ، تقطعُ الأعناقَ ، وهي ما زالتْ في أجفانِها .

١٣ ـ جَهَدوا خواطرَهُمْ وليسَ يُرَوِّحُ الـ ـعلمـاءَ إلاّ الخـاطـرُ المجهـودُ

كَدّوا أفكارَهُمْ مُسْتَروحِينَ طيبَ العلمِ ، فإنَّ العلماءَ ، لا يُريحُهمْ ، ولا يُسعِدُهمْ إلاّ

التفكيرُ الطويلُ في خَلْقِ اللهِ .

١٤ ـ أحْيَوا لياليَهُمْ ، فما اجْتَمَعَتْ لهمْ   تحـتَ الظـلامِ وسـائـدٌ وخُـدودُ

وأمضَوا لياليَهُمْ في التفكيرِ واستقصاءِ أحكامِ آياتِ اللهِ وقوانينِ العلومِ ، وما أسندوا رؤوسَهُمْ إلى وسائدَ ، وما ناموا .

١٥ ـ وزَوَوا عنِ الدنيا نفوسَهُمْ ، فما   تـدعـو هـواهُـمْ أوجُـهٌ وقـدودُ

وأبعَدُوا نفوسَهُمْ عنِ الدنيا ، فما استطاعَتْ وجوهُ الغانياتِ وقدودُها أنْ تَجْلُبَهُمْ إلى حبِّها ، أو تَصْرِفَهُمْ عن عباداتِهِمْ والتَّبَحُّرِ في أمورِ الدينِ والهدايةِ إليهِ .

١٦ ـ لم يَفْطَنوا : هل في الشفاهِ لِميً؟ ولا   هـلْ فـي ثُـدِيِّ الغـانيـاتِ نهـودُ

ولم يتساءلوا ليعلموا ما اللَّمى في الشفاهِ ؟ وما الكعوبُ في أثداءِ الفتياتِ اللواتي غَنِينَ بحسنِهِنَّ ؟

١٧ ـ أكلتْ لحومَهُمُ العبادةُ ، فانْثَنَوا   لـمْ يبـقَ إلاّ أعظُـمٌ وجلـودُ

وكَفَتْهُمُ العبادةُ والبحثُ والهدايةُ عنِ الطعامِ والشرابِ ، فهُزِلَتْ أجسامُهمْ ، وذهبَتْ لحومُها ، فلم يبقَ فيها إلاّ العظمُ والجلدُ .

١٨ ـ وحَنَى ظهورَهُمُ ، ولَمّا يَبْلُغوا   هَـرَمـاً ، ركـوعٌ دائـمٌ وسجـودُ

وأمالَ الركوعُ والسجودُ الدائمانِ ظهورَهمُ قبلَ مجيءِ سِنِّ الهرمِ .

١٩ ـ فترى لـذاكَ صفـاتِهِـمْ مـوجـودةً   حيـثُ الْتَفَـتَّ وشَخْصُهُـمْ مفقـودُ

وعلى الرغمِ منْ ذلك كلِّهِ فإنكَ تجدُ ، وتلمسُ أعمالَهُمْ وصفاتِهِمْ بآثارِهُمُ التي خَلَّفوها بعلومِهِمْ وكتبِهِمْ والرجالِ الذينَ اقْتَدَوا بهمْ على بُعْدِ الزَّمنِ والمسافةِ بيننا وبينَهَمْ .

٢٠ ـ هيهـاتَ لـم تُفْقَـدْ أئِمَّـةُ أمـةٍ   وحـديثُهُـمْ مـن بعـدِهـمْ مـوجـودُ

وبَعْدَ موتَ أمَّةٍ بموتِ أئِمَّتِها ، وأقوالُهُمْ وكتبُهُمْ ما زالَ الناسُ يردِّدونَها .

٢١ ـ فَحْلٌ مضى مُتَشاوسٌ لخصومةٍ   عـنْ بيضـةِ الإسـلامِ كـانَ يـذودُ

فقد كانَ رجلاً عظيماً ، يتكَبَّرُ على أعدائِهِ ، ويخاصِمُهُمْ ، رَهَنَ نفسَهُ وروحَهُ فداءً للإسلامِ .

٢٢ ـ تُلْقـي إليـكَ مصنفـاتُ فنـونـهِ   كَلِمـاً ، قـلائـدُ كلُّهـا وعقـودُ

تنقُلُ إليكَ موضوعاتُ كتبِهِ وألوانُ فنونِهِ كلاماً ، يزيِّنُ القلائدَ والعقودَ بِدُرَرِهِ .

٢٣ ـ انظـرْ إلـى آثـارِهِ ، فكـأنهـا   وحْـيٌ ، تَضَمَّـنَ نقشَـهُ الجلمـودُ

ولو اطَّلَعْتَ على ما تركَ منْ كتبٍ ومفاخرَ لوجدتَ قولاً كالإلهامِ ، يؤثِّرُ في الحجرِ الصلدِ ، لا يزولُ إلى أبدِ الآبدينَ .

٢٤ ـ تُحْيِيهِ ذكراهُ كأنَّ عظامَهُ قامَتْ وفيها روحُها مردودُ

ويَتَرَدَّدُ ذكرُهُ فيها ، وكأنَّ روحَهُ ، قد بُعِثَتْ إلى عظامِها ، وعادَ حيًّا .

٢٥ ـ شرفَ الأئمةِ نَزّلوكَ بمنزلٍ عالٍ ، تفوقُ بِعِزِّهِ ، وتسودُ

فيا شَرَفَ الأئمةِ والمؤمنينَ لقد وضعكَ الناسُ بِمَنْزِلةٍ عاليةٍ ، ترتفعُ على منازلِ الآخرينَ مجداً وسُؤْدُداً .

٢٦ ـ فاحفظْهُ مجتهداً عليكَ، فأنتَ في كلِّ الأنامِ لأجلِهِ مَحْسودُ

فصُنْ نفسَكَ ، وحافظْ على منزلتِكَ جاهداً ، لا تُقَصِّرْ في ذلك أبداً لأنَّ حسدَ الناسِ يلاحقُكَ دائماً .

٢٧ ـ كم قامَ بحرٌ في مقامِكَ زاخرٌ لعلومِهِ في الخافِقَينِ مَدودُ

وكم نَبَغَ في كنفكَ منْ عالمٍ ، كانَ بحراً غنيًّا بألوانِ علومِهِ وفنونِهِ ومَدَداً لعلومِ الآخرينَ في الشرقِ والغربِ .

٢٨ ـ اطوِ المهادَ فما لِمنْ هو حاملٌ هذي الأمانةَ مَضْجَعٌ ممهودُ

فإنْ كنتَ تريدُ أنْ تكونَ يوماً مثلَهُ فَلُفَّ فراشَكَ ، فإنَّ منْ رامَ حملَ أمانةِ اللهِ ـ عزَّ ، وجلَّ ـ في توحيدِهِ وطاعتِهِ ، لا يُعِدُّ لجسمِهِ سريراً مُريحاً ، ينامُ فيهِ .

٢٩ ـ اهجُرْ هجودَكَ للتَّهَجُّدِ لا يَبِتْ لكَ بعدَ هذا في الجفونِ هجودُ

واجْعَلْ نومَكَ لِلتَّهَجُّدِ عبادةً ، فلا يكنْ لجسمِكَ بل لأجفانِكَ بعدَ ذلك غَمْضُ .

٣٠ ـ واجعَلْ دفاتِرَكَ الرياضَ تدورُ في حافاتِها مُتَنَزِّهاً ، وترودُ

وافتحْ كتبَكَ وكراريسَكَ ، وتنقَّلْ في رياضِها ، ودُرْ في ساحاتِها ونواحيها ، يَكُنْ لكَ فيها أحلى وأطيبُ مُتَنَزَّهٍ ، تطلبُهُ لسعادتِكَ .

٣١ ـ واخْتَرْ على الخيلِ المنابرَ إنها خيرُ الخيولِ تَسوسُها ، وتقودُ

واجعلِ المنابرَ صهواتِ جيادِكَ فإنها خيرٌ منَ الخيولِ التي تُربِّيها ، وتُؤَدِّبُها ، وتقودُها .

٣٢ ـ وابذُلْ لأهلِ الفضلِ منكَ مودَّةً فابنُ الفضائلِ لابنِهِنَّ وَدودُ

واسْخُ لذوي الفضلِ بحبِّكَ تَكُنْ خيرَ ابنٍ للفضائلِ والمفاخِرِ محبٍّ لكلِّ منْ يلوذُ بالفضلِ وأهلِهِ .

٣٣ ـ ومتى بـذلْـتَ لهـم وداداً فليكـنْ مُتَخَصِّصـــاً بـــزيـــارةٍ محمـــودُ
ومتى جُدْتَ في السخاءِ لهم حُبًّا وعطاءً تكُنْ جديراً بمدحٍ منْ محمودٍ الزمخشريِّ ، يَتيهُ على مدحِ غيرِكَ .
☆☆ ١١ ـ وقالَ على بحرِ البسيطِ في المدحِ :
١ ـ لـــهُ مهنَّـــدُ لحـــظٍ مـــا يُجَـــرِّدُهُ إلاّ هـــوى عـــنْ يـــدِ الغـــازي مُهَنَّـــدُهُ
له طَرْفٌ ، كأنهُ سيفٌ ، شحذَتْهُ يدا هنديٍّ ماهرٍ ، ما سَلَّهُ صاحبُهُ منْ غِمدِهِ لِردِّ الغازي عنه إلاّ تراجَعَ عنْ هجومِهِ عليه ، وسقَطَ سيفُهُ من يدِهِ رهبةً وخوفاً منه .
٢ ـ رأى مَنِيَّتَـــهُ فـــي سيـــفِ مُقْلَتِـــهِ فمـــا دَرَى كيـــفَ خَلَّـــتْ سيفَـــهُ يَـــدُهُ ؟
ووجَدَ موتَهُ في نظرةٍ منْ عينِهِ ، وما عَلِمَ كيفَ تركَتْ يدُهُ سيفَهُ ؟
٣ ـ ومـــا تكلَّـــفَ صَـــبٌّ عنـــدَهُ جَلَـــداً إلاّ انْثَنـــى ضـــائعـــاً عنـــهُ تَجَلُّـــدُهُ
وما تصَنَّعَ محبٌّ صَبْراً إلاّ تراجَعَ عنْ ذلك ، وتاهَ عنهُ تصبُّرُهُ .
٤ ـ ظَبْيٌ منَ الإنسِ خَدْلُ الساقِ في هَيَفٍ في العينِ والجيدِ ظبيُ الوحشِ يَحْسدُهُ
فقد لاحَ لهُ غزالٌ منَ الإنسِ ذو حَوَرٍ في العينِ ورَهَفٍ في العنقِ وساقٍ ممتلئةٍ وقدٍّ ضامرِ البطنِ رقيقِ الخَصْرَينِ ، فَتَمَنَّى غزالُ الوحشِ أن يرى ذلكَ ، ولا يراهُ الإنسيُّ .
٥ ـ بعَينِـــهِ عَينُـــهُ الكحـــلاءُ هـــازئـــةٌ وجيـــدُهُ ســـاحـــرٌ منـــهُ مُقَلَّـــدُهُ
وسَخِرَتْ عينُ غزالِ الإنسِ بعينِ المحبِّ الكحيلةِ ، وهَزِئَ عنقُهُ بالعقدِ الذي زيَّنَ المُحِبُّ بهِ عنقَهُ .
٦ ـ تضـايقَـتْ عينُـهُ ، لكـنْ جِـراحَتُهـا نجـلاءُ ، فـي قَلْبِـيَ الـذاكـي تَـوَقُّـدُهُ
ولم تكُنْ عيناهُ واسعتَينِ ، ولكنَّ طَرْفَهما كانَ لهُ أثرٌ كبيرٌ كالجرحِ الواسعِ في قلبي الذي التهبَ حبّاً وحنيناً .
٧ ـ يَسُلُّ باللحظِ سيفاً باتكاً ، فإذا أرادَ ضِحْكـــاً فـــإنَّ الضِّحْـــكَ يُغْمِـــدُهُ
وإذا رَشَقَ ببصرِهِ أحداً كانَ كالسيفِ الباتِكِ ، يقطَعُ عليهِ سرورَهُ وكلَّ خاطرٍ ، يفرحُ بهِ ، وإذا رامَ فرحاً وضحكاً ، حَوَّلَ نظرَهُ عنهُ ، وكأنهُ محاربٌ ، ردَّ سيفَهُ إلى غمدِهِ .
٨ ـ لكنـهُ ســاعــةَ الإغمــادِ فــي كبــدي والقلـــبِ أعمـــلُ منـــهُ إذْ يُجَـــرِّدُهُ
لكنَّ أثرَ ذلكَ الطَّرْفِ ، يبقى في كبدي وقلبي بعدَ تَحَوُّلِهِ عني أشَدَّ منْ وقتِ ، كانَ قاصداً إيايَ .

٩ ـ لو أَنْصفَتْ دولةُ الحسنِ التي ظَلَمَتْ لقامَ كلُّ مِلاحِ الأرضِ تَعْبُدُهُ

لو كانَ للجمالِ دولةٌ ومَلِكٌ عادلٌ ، لا يظلمُ رعيتَهُ ، لرأيتَ كلَّ جميلٍ على وجهِ الأرضِ يَتَوَجَّهُ إليهِ بالعبادةِ اعترافاً لهُ بجدارتِهِ بالمُلْكِ .

١٠ ـ إذا تَمَدَّدَ فوقَ المتْنِ فاحمُهُ ردَّ العزاءَ إلى قصرٍ تَمَدُّدُهُ

فإذا اعتَلَى ظهرَ فرسِهِ ليلاً ، ولمَحَ الناسُ شخصَهُ الأسودَ اطْمَأَنُّوا ، وارتَدَّ عنهمْ صبرُهُمُ الذي عانوا منهُ كثيراً .

١١ ـ وليس لي غيرَ طولِ الصبرِ مُسْتَنَدٌ كالمُلْكِ ليس له إلاّ مُؤَيِّدُهُ

وليس لي شيءٌ أستريحُ به إلاّ الصبرُ ، وأنا كالمُلْكِ الذي لا يبقى إلاّ بمَنْ يُقَوِّيهِ ، وينصُرُهُ .

١٢ ـ مؤيَّدُ المُلْكِ صَدْرٌ ما جرى قَدَرٌ إلاّ بأنْ يَغْمُرَ الساداتِ سُؤْدَدُهُ

كَمُؤَيِّدِ المُلْكِ الذي كانَ صدراً حانياً ، يعطِفُ على الرجالِ العظامِ بعزِّهِ ومجدِهِ كلما تقلَّبَتْ على الناسِ الأقدارُ .

١٣ ـ يُزْهى بِمَحتِدِهِ يومَ الفخارِ كما يَزْهى بنفسِ عُبَيدِ اللهِ محتِدُهُ

يَفْخَرُ يومَ يقومُ الناسُ للتفاخرِ المُلْكُ بأصلِهِ كما يَفْخَرُ الأصلُ بعُبَيدِ اللهِ نفسِهِ .

١٤ ـ إذا تَجَمَّعَ في الديوانِ سادَتُهُ وحاولوا الفَخْرَ قالوا : نحنُ أعبدُهُ

إذا أقامَ الرجالُ الكرامُ في مجلسِهِمْ ، وأرادوا أنْ يَعْتَزُّوا بما يفخرونَ بهِ ، رَدَّدُوا : نحنُ عبيدُهُ وصُنّاعُهُ .

١٥ ـ حَفُّوا به كبني بكرٍ وإخوَتِها بماءِ صَدَّاءَ لمّا طابَ موردُهُ

والتفُّوا حولَهُ التفافَ بني بكرٍ وجيرانهمْ بعينِ صَدّاءَ حينَ وجدوا ماءَها أعذبَ الأمواهِ وأطيَبَها .

١٦ ـ يهدي عزائمَهُ رأيٌ تَقَدَّمَها مثلُ السنانِ كعوبُ الرمحِ تَطردُهُ

تتقدَّمُ آراؤهُ السديدةُ الرشيدةُ هِمَمَهُ ، فتسوقُ إرادتَهُ القويةَ الشديدةَ مثلما تَتَقَدَّمُ أسنةُ الرماحِ قواعِدَها ، وكأنها تطرُدها حينَ تدفَعُها للقتالِ .

١٧ ـ جَمُّ المحامدِ في بَدْوٍ وفي حَضَرٍ فلا رعيَّةَ إلاّ وهي تَحْمَدُهُ

كثيرُ الأعمالِ التي يُحْمَدُ عليها في الفَلَواتِ والمدنِ فلا ترى جَمْعاً إلاّ ويردِّدُ ذِكرَهُ حامداً إياهُ .

١٨ ـ في سيرةِ العدلِ لا يَعدو مذاهبَها أنّـى تَـوَجَّـهَ بـالإنصـافِ مقصِـدُهُ

ويسوسُ الناسَ مُتَّبِعاً سيرَةَ العدلِ ، لا يميلُ عنْ طرقِها ، فأنّى تَوَجَّهَ ، وسارَ ، فالعدْلُ والإنصافُ مُرادُهُ .

١٩ ـ فَسَلْ خُراسانَ عنهُ : كيف سيرتُهُ فيهـا ؟ وهـل حَسَّـنَ الآثـارَ مَشْهَـدُهُ ؟

فاسألْ أهلَ خراسانَ عنه وعنْ سياستِهِ فيها ؛ كيف كانَتْ معاملتُهُ إياكُمْ ؟ وهل تركَ في بلادِكُمْ آثاراً ، كانَتْ مُحَسِّنةً لمعاشِكُمْ وأحوالِكُمْ ؟

٢٠ ـ فكـم لـهُ نظـراتٌ مـا يُـرَدِّدُهـا إلاّ لِتُصْلِـحَ مـا الأيـامُ تُفْسِـدُهُ

وكم كانَ له آراءٌ ، ما ألحَّ عليهمْ فيها إلاّ لتزيلَ فسادَ الأيامِ الفائتةِ .

٢١ ـ أسعِدْ بِخـارزمَ أنْ ألقَتْ ميامنُـهُ علـى منـاكِبهـا ضـوءاً وأسعُـدُهُ

ما أسْعَدَ خوارزمَ وأهلَها حينَ وضَعَتْ أحكامُهُ الميمونةُ على أجوائها نوراً ، فكانَتْ سعداً وسعادةً .

٢٢ ـ تَعَقَّبَ الفتنةَ الكبرى ، فَشَرَّدَها كـالليـلِ ، يعقبُـهُ صُبْـحٌ ، يُشَـرِّدُهُ

ولاحقَ رجالَ الفتنةِ الكبرى ، وشتَّتَها كما يلاحقُ ضوءُ الصبحِ ظلمةَ الليلِ إلى أنْ تتلاشى .

٢٣ ـ لرأيِهِ في حشا الجُلّى إذا وقَعَتْ تـأثيـرُ رمـحٍ ، يَـدُ الغـازي ، تُسَـدِّدُهُ

وإذا ما حدثَتْ أمورٌ شديدةٌ ، تقَدَّمَ برأيٍ صوابٍ ، يضربُها ضربةً قاضيةً كضربةِ الرمحِ حين يُصَوِّبها الغازي الماهرُ في قلبِ عدوِّهِ .

٢٤ ـ مؤيِّدَ المُلْكِ لا زالَتْ همومُكَ في بنيـانِ عـزٍّ وعليـاءٍ تُشَيِّـدُهُ

فيا مؤيِّدَ المُلْكِ لا تبتَئِسْ بالهمومِ فإنكَ تقومُ ببناءِ مجدٍ وعزٍّ ، يحتاجُ إلى معاناةٍ وصبرٍ .

٢٥ ـ إليكَ سُقْتُ ركابي قبلَ عامِكَ في صيفٍ يـذيـبُ دمـاغَ الضَّبِّ صَيْخَـدُهُ

وإني أتيتُ إليكَ براحلتي قبلَ أنْ ينقضيَ العامُ في صيفٍ ، يكادُ حَرُّهُ الشديدُ ، يذيبُ مخَّ الضَّبِّ .

٢٦ ـ قَطَعْتُ خَرْقاً ، كأنَّ الآلَ ، يهزأُ بي ضُحًى إذا ما زَها الأشخاصَ فَدْفَدُهُ

وقَطَعْتُ في سيري فلاةً ، وكأني بالسرابِ ، يَسْخَرُ مني في أوّلِ النهارِ إذْ تتفاخَرُ الفَلَواتُ على الناسِ بما ترمي على سطوحِها منَ السرابِ .

٢٧ ـ حتى خَدَمْتُكَ بالمدحِ الذي خَفَقَتْ بـهِ الـريـاحُ ، وقـامَ الـدهـرُ يُنْشِـدُهُ

حتى وصلْتُ إليكَ ، وتقدمْتُ إليكَ بمدحٍ ، تراقصتْ بهِ الرياحُ ، وهَبَّ الدهرُ ، يُرَدِّدُهُ .

٢٨ ـ مِنَ الكلامِ الذي ما في زمانِكَ مَنْ يَحُلُّ بعضَ معانيهِ ويعقِدُهُ

ونظمتُهُ منَ الحروفِ والتراكيبِ التي ليسَ في عصركَ منْ يفُكُّ ، ويفهَمُ معانيَهُ ، ويَجْعَلُهَا عقوداً ، يَتَزَيَّنُ بها على مَدَى الدهرِ .

٢٩ ـ في مجلسٍ رُتَبُ الساداتِ قاطبةً فيه ، وكانَتْ وفودُ الشرق ، تَشْهَدُهُ

وأنْشَدْتُهُ في مجلسكَ الذي ضَمَّ عظماءَ الناسِ كلَّهُمْ والوفودَ التي أتَتْ منْ بلادِ الشرقِ لِتَسْمَعَهُ .

٣٠ ـ وكانَ عقدُ رجائي أنْ أفوزَ بما ينالُ مِثْلِيَ عندَ الحُرِّ يقصِدُهُ

وكانَ مركزُ أملي أنْ أظفرَ بعطاءٍ ، ينالُهُ نِدِّي مِنْ رجلٍ شريفٍ ، يذهبُ إليه لِيَمْدَحَهُ .

٣١ ـ لكنْ أبَى ذاكَ جِدٌّ لا انتعاشَ لهُ ولم تَزَلْ دُوَلُ الدنيا تُنَكِّدُهُ

لكنْ تدخَّلَ حظِّي الذي لا ينهضُ منْ عَثْرتِهِ والذي لا تنفَكُّ دوائرُ الدنيا ، تُنَغِّصُهُ ، ورفضَ أن يكونَ لي ما أردْتُ .

٣٢ ـ فإنْ تَشَأْ ، ولكَ الدنيا مساعِدَةٌ نَعَشْتَ جِدّي بإنعامٍ تُجَدِّدُهُ

فإنْ أردْتَ أنْ تكونَ لكَ الدنيا ساعداً وسعداً ، جَبَرْتَ حَظِّي بعطاءٍ ، يَجْعَلُهُ جديداً ناهضاً بعدَ انكِسارٍ .

☆☆ ١٢ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ والاستعطافِ :

١ ـ صَفِيَّ الملوكِ ، اللهُ يعلمُ أنَّ في جوانِحنا ناراً بطيئاً خُمودُها

يا أيها الرجلُ العظيمُ يا صفيَّ الملوكِ ، لا يعلمُ ما في ضلوعِنا من النارِ التي يَبْطُؤُ خمودُها إلاّ اللهُ ـ عزَّ ، وجَلَّ ـ .

٢ ـ لِبَلْوى نجيبِ الدولةِ الصعبةِ التي لوِ اسْتَحْمَلَتْ رَضْوَى لكادَتْ ، تؤودُها

لأجلِ مصيبةِ نجيبِ الدولةِ الصعبةِ التي لو حُمِّلَتْ جبالُ المدينةِ المنورةِ رَضْوَى لَناءَتْ بِحَمْلِها .

٣ ـ وما زالَ مَرْمِيًّا بأمثالِها ، وكم تمادَتْ بهِ حُمْرُ المنايا وسودُها

والتي تتابَعَتْ عليه أمثالُها ، ورمَتْهُ بمصائبَ ، أرَتْهُ أشَدَّ أنواعِ أسبابِ الموتِ وألوانَها .

٤ ـ كأنْ لم تَلِدْهُ الأمُّ إلاّ فريسةً لأنيابِ دهرٍ ، لا يُنادَى وليدُها

وكأنَّ قضاءَ اللهِ جعلَ مجيئَهُ إلى الدنيا ليرى أهوالَها ، فولَدَتْهُ أمُّهُ ليكونَ طعامَ الدهرِ ، فلا يستطيعُ أنْ يكونَ يوماً غوثَ الملهوفينَ .

٥ ـ وليسَ لها إلاّ مساعٍ كريمةٌ وعندَكَ دونَ العالمينَ وجودُها

ولم يكُنْ لأمِّهِ رَغْبَةٌ إلاّ في عَمَلِ الخيرِ الذي لا يُحَقِّقُهُ إلاّ أنتَ يا صفيَّ الملوكِ .

٦ ـ فعطفاً على تلكَ الشبيبةِ إنها على غُصَصِ الأيامِ ، يبلَى جديدُها

فارفِقْ بشبابٍ ، يلْقى منْ شدةِ الأيامِ ما يلْقَى ، ويحتملُ منها ما يَفُلُّ منْ عزيمتِهِ وقوتِهِ .

٧ ـ وضَنًّا بنفسٍ ليسَ يجحَدُ فضلَها عِداها فإنَّ الناسَ طُرًّا شهودُها

واحرِصْ على نفسٍ، لا ينكرُ عدوُّها جميلَها، وشهدَ الناسَ كلُّهُمْ عِزَّتَها ورباطةَ جأشِها.

٨ ـ تطوَّلْ بها أُكرومةً صَفْويَّةً يطولُ الكرامَ ربُّها ، ويسودُها

وتَفَضَّلْ بمفخرةٍ ، تُنْسَبُ إلى أسرتِكَ الصَّفْويَّةِ التي علا صاحبُها على كلِّ العظماءِ ، فصارَ سيِّدَهُمْ .

٩ ـ وقَلِّدْ بها خارِزْمَ أطواقَ نعمةٍ تَقَلَّدَها أحرارُها وعبيدُها

وزيِّنْ بها خوارِزمَ ، واجعَلْها أطواقَ فضلٍ ، يتيهُ بها أسيادُها وعبيدُها .

☆☆ ١٣ ـ وقالَ على بحرِ البسيط في رثاءِ المماليكِ :

١ ـ زينَ الأئِمَّةِ بعضَ الحزنِ والكمدِ فإنما خُلِقَ الإنسانُ في كَبَدِ

حاوِلْ يا زيْنَ الأئمةِ يا أيُّها القاضي يا قاضيَ القضاةِ يا أيها الفقيهُ الحنفيُّ أنْ تخفِّفَ منْ حزنِكَ وهمِّكَ ، وتذكَّرْ أنَّ اللهَ ، عَزَّ ، وجَلَّ ، خَلَقَ الإنسانَ ليبتَلِيَهُ ، ويخْتَبِرَ قوةَ إيمانِهِ وصبرِهِ .

٢ ـ وهذه أنفسٌ أنفاسُها عَدَدٌ منها الرزايا أمامَ الموتِ بالرَّصَدِ

وانظرْ إلى الناسِ ، واعلمْ أنَّ أنفاسَهُمْ ذاتُ عَدَدٍ ، ترقُبُها المصائبُ والموتُ .

٣ ـ ولم تَزَلْ دولُ الأيامِ راجمةً بكلِّ طارقةٍ ، لا تُتَّقَى بيدِ

ولم تزلِ الأيامُ ، تتوالى عليها ، وتضربُها بأنواعِ أسلحةِ الهلاكِ التي لا يستطيعُ المرءُ أنْ يدفعَها بيدِهِ .

٤ ـ كمْ فتنةٍ حَطَمَتْ دوساً بحافِرِها منْ ساكني بلدٍ ، عَزُّوا ، ومِنْ بَلَدِ

فكم منْ بَلِيَّةٍ ، غَزَتْ بلداً ، وداسَتْ بحوافِرِ خيولِها أعزّاءَ أهلِها ، وكم منْ بلدٍ وقفتْ بوجهِ الفتنِ والبلايا .

٥ ـ كَلِبْدَةِ الأسدِ المُدْمي براثنَهُ كسباً لأشبالِهِ أو بلدةِ الأسدِ

فصارتِ البلدُ الأولى كالأسدِ الجريح الذي يُري أبناءَهُ آثارَ شدةِ الموقعةِ التي اقتَحَمَها على شَعرِ رقبتِهِ ومخالبهِ لِيكْسَبَ احترامَهُمْ إياهُ ، وأصبحتِ الثانية منتصرةً ، يردِّدُ أخبارَ مجدِها منازلُ القمرِ .

٦ ـ راحوا ، وراحَتْ مغانيهمْ بلا سَنَدِ كدارمَيَّةَ بالعلياءِ فالسندِ

ذهبوا كلُّهُمْ ، ودَرَسَتْ بيوتُهُمْ ، ولم يبقَ منهم ومنها أثرٌ كما زالَتْ آثارُ ديارِ ميَّةَ حبيبةِ النابغةِ الذبياني التي يقولُ فيها في مستهلِّ معلقتِهِ :

يا دارَمَيَّةَ بالعلياءِ فالسندِ أقْوَت وطالَ عليها سالفُ الأقدِ

٧ ـ أخْنَى على لُبْدِ رَيْبُ المَنونِ ، ولم تُبْقِ الليالي على الرئبالِ ذي اللُّبَدِ

أهلكَ الموتُ لُبَدَ آخِرَ نسورِ لقمانَ الذي أرسلَتْهُ عادٌ إلى الحرمِ الشريف ، يستسقي لها ، ولم يُبْقِ الزمانُ الأسدَ الرِّئبالَ أقوى الوحوشِ ذا اللِّبدةِ .

٨ ـ أما سمعتَ بما دارَ الزمانُ به على العراقِ معانِ الخيرِ والرشَدِ ؟

ألمْ يصلْكَ خبرُ المنزلِ في العراقِ المُسَمَّى معانَ الخيرِ والرَّشَدِ الذي أصابهُ الزمانُ بمصائبه وويلاتِهِ في دوراتِهِ ؟

٩ ـ لم تَتْرُكِ العاصفاتُ الهوجُ منْ طُنُبِ فيهِ لضاربِ فُسطاطٍ ولا وَتَدِ

لم تَدَعِ الرياحُ الشديدةُ الثائرةُ حبْلاً ، يُشَدُّ ، ولا عصاً ، تُغْرَسُ لإقامةِ بيتٍ منْ شَعَرٍ .

١٠ ـ تَخَبَّطَتْ سنواتٍ كُلَّ ناحيةٍ منهُ وكلَّ عروضٍ جَمَّةِ العددِ

واسْتَمَرَّتْ أعواماً ، تضربُ كلَّ ناحيةٍ منْ نواحي مَعانٍ ذلكَ المكانَ ذا الخيرِ والرشدِ ، ولم تنسَ أنْ تُحطِّمَ كلَّ جانبٍ ، فيه عددٌ كثيرٌ منَ البشرِ والدوابِّ .

١١ ـ توارثَتْهُ بناتُ الشَّرِّ إذْ عَقُمَتْ في أرضِهِ أمهاتُ الخيرِ لم تَلِدِ

وكأنَّ الأذى والشَّرَّ قد ورِثَ هذا المكانَ ، فولدَتْ نساؤُهُ الشَّرَّ ، ولم يكنْ لأمهاتِ الخيرِ نصيبٌ في ولادةِ الخيرِ .

١٢ ـ أصارتِ الفتنةُ الصماءُ شاغرةً بلادُهُ في أهالٍ ضُيِّعٍ شُرَّدِ ؟

فهل أصبَحَتْ ألوانُ الشَّرِّ ، لا تلينُ ، ولا تتراجعُ عنْ غَيِّها على الرغم منْ أنَّ البلادَ ، أصبحتْ فارغةً منْ أهليها الذين صاروا تائهينَ مشرَّدينَ ؟

١٣ ـ حتى إذا انجابَ عنهُ ما تَجَلَّلَهُ وتَمَّ ذاكَ بإذنِ الواحدِ الصَّمَدِ

حتى إذا انزاحَ عنهُ ما غَشِيَهُ ، وكَمُلَ ذلكَ الكشفُ بإذنِ الواحدِ الأحدِ الذي لا يُقْصَدُ غيرُهُ .

١٤ ـ فاليومَ صحنُ العراقِ الروضُ باكرَهُ   صوبُ الغمامِ وصوتُ الطائرِ الغَرِدِ

صارَ وسطُ العراقِ روضاً بمطرِ السحابِ الذي أتاه مُبكِّراً وبأنغامِ الطيرِ عذبِ الصوتِ .

١٥ ـ مَنْ كانَ يرتاعُ منْ ضُرٍّ ، يُمَسُّ به   تراهُ يرتعُ بينَ الأمنِ والرَّغَدِ

فمنْ كانَ يتخوفُ منْ شرٍّ ، يقرُبُ منه ، ويَمَسُّهُ ، أصبحَ اليومَ ، يَنْعَمُ بالأمنِ والطمأنينةِ وسعةِ العيشِ .

١٦ ـ واللهُ ، إنْ يقْضِ بعضَ العسرِ أتبعَهُ   قضاءَ يُسْرَينِ لولا ذاكَ لم يَعِدِ

وإنَّ اللهَ ـ عَزَّ ، وجَلَّ ـ إنْ يحكُمْ ببعضِ الشدةِ ، فإنهُ بكرمِهِ وفضلِهِ ، يُتْبِعُهُ بيسرَينِ ، ولولا رحمتُهُ التي وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ ، لم يقُلْ في سورةِ الشرحِ : ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (٥) و (٦) .

١٧ ـ وكم تَرَى غَمَراتِ البؤسِ يرسلُها   في السبتِ ثم يُجَلِّيهِنَّ في الأحدِ ؟

فكم مَرّةً فاجَأَتْكَ مصائبُ شديدةٌ ، بعثَها اللهُ إليكَ لِيَخْتَبِرَ عمقَ إيمانِكَ اليومَ ، ثم كشفَها عنكَ في اليومِ التالي ؟

١٨ ـ فَهَبْ خوارِزْمَ، تَلْقى اليومَ بارِحَها   لسوفَ تزجُرُ طيرَ اليُمْنِ صُبْحَ غَدِ

وافْتَرِضْ أنَّ خوارِزْمَ أصابَها اليومَ شيءٌ منَ الشدةِ ؛ فسوفَ ترى نفسَكَ ، تلجأُ إلى إرسالِ طيرِ البركةِ والسعادةِ في صباحِ اليوم التالي تَيَمُّناً وتفاؤلاً .

١٩ ـ نعم ، وسوفَ تراها غِبَّ ليلتِها   رَفِلَةَ المشي في أدراعِها الجُدَدِ

أجلْ ، ولسوفَ تَلْقى أهلَها قدِ ارْتَدَوا في اليومِ الذي يليهِ ثيابَهُمُ الجديدةَ ، ومَشَوا يختالونَ فرحينَ مسرورينَ .

٢٠ ـ كأنها في لبوسِ الأمنِ تَسْحَبُهُ   أبو دُجانةَ في الفضفاضِ منْ زَرَدِ

وكأنها ، وهي تسحَبُ أذيالَها آمنةً ، أبو دجانَةَ سماكُ بنُ خَرَشَةَ الصحابيُّ الذي شارَكَ في قتالِ المرتدِّينَ ومسيلمةِ الكذّابِ مرتدياً درْعَهُ الواسعَ المنسوجَ منْ حَلَقِ الحديدِ .

٢١ ـ هذا وإنَّ أحقَّ البائقاتِ بأنْ   تُبيتَ أهلَ النُّهى مُسْتَشعري الكَمَدِ

وإنَّ عَهْدَنا بالشَّرِّ وما يأتي بهِ منَ المفاسدِ أنهُ ، يُلاحقُ أصحابَ العقولِ ، ويَنْفُثُ في نفوسِهِمْ ، ولا يتركُهُمْ إلاّ بهمٍّ وحُزْنٍ وكمدٍ .

٢٢ ـ مآثمٌ رُكِبَتْ حتى استُحِقَّ بها ما حلَّ بالناسِ منْ شُؤْمٍ ومنْ نَكَدِ

بِذُنوبٍ ، ارْتكبوها ، فاستحقُّوا بها ما حلَّ بهم منْ أحزانٍ على ما اكتسبَتْ أيديهمْ ومنْ تشاؤمٍ ، لا يستطيعون الانفلاتَ منه .

٢٣ ـ وإنهمْ خائضونَ اليومَ لُجَّتَها جيّاشةَ الموجِ ، ترمي الشطَّ بالزبَدِ

وما زالوا تتقاذَفُهُمْ أمواجُ البحرِ العاليةُ التي تلقي رَغوةَ تلاطُمِها على الشاطئِ .

٢٤ ـ لا يَنْتَهُونَ، ولا يُلقي لما اجْتَرحوا بالاً أخو فطنةٍ ماشٍ على جَدَدِ

لا يرتدعونَ عنْ غيِّهِمْ ، ولا يهتمُّ العالمُ الذي يحتملُ المشقاتِ بما يأثمونَ .

٢٥ ـ أيُّ العقوباتِ لم يَكشِفْنَ عنْ أَمَمٍ فلم يعودوا لإصرارٍ ، فلم تَعُدِ

فإنْ أُجرِيَتْ عقوباتٌ ، لم يُبَيِّنْ فيها السَّبَبُ الداعي إليها ، ولم يَعْزِم الناسُ المذنبونَ على التراجعِ عنْ ذنوبِهِمْ ، وبَقُوا متمسِّكينَ بها ، فلا فائدةَ منَ العقوبةِ إنْ تَكَرَّرَتْ .

٢٦ ـ بادَ العبادُ إذنْ بَيدودةً عجباً إذ لم يسيروا على المنهاجِ ذي السَّدَدِ

وسيهلِكُ الناسُ، لا محالةَ، هلاكاً عجيباً غريباً لأنهمْ لم يَتّبعوا الطريقَ الصحيحَ الرشيدَ .

٢٧ ـ وكلُّ تَهْلكَةٍ إلاّ الإثامَ شَوًى منْ لم يَبِدْ في غِمارِ الإثمِ لم يَبِدِ

وكلُّ موتٍ ، يكونُ بسببِ أمرٍ هيِّنٍ أو ضعفِ أحدِ الأعضاءِ إلاّ موتَ العقابِ ؛ فمنْ لم يفْنَ في شِدَّةِ العقابِ ؛ فلا ولن يُفْنِيَهُ شيءٌ .

٢٨ ـ ما شئتَ من أَوَدٍ لا يستقيمُ إذا عَضُّ الثِّقافِ يُصَلّي مَتْنَ ذي أَوَدِ

لا يستقيمُ اعوجاجُ شيءٍ إلاّ بما يُقَوِّمُهُ كما لا يُقَوِّمُ اعوجاجَ الرمحِ إلاّ الآلةُ التي تُسَوِّيهِ .

٢٩ ـ شُحٌّ، مَطاعُ هَوًى، في الدينِ مُتَّبَعٌ فِسْقٌ صُراحٌ قلوبُ الغِلِّ والحَسَدِ

همْ حريصونَ على مخالفةِ الحقِّ ، مطيعونَ هَوَى أنفسِهِمْ في الدينِ ، خارجونَ عن الدينِ خروجاً صريحاً واضحاً ، وقلوبُهُمْ ملأى بالحقدِ والحسدِ .

٣٠ ـ لا خَصْلَةَ منْ خصالِ البرِّ واحدةٌ لا هِمَّةَ ، لا تُقًى ، لا خيرَ في أحدِ

ليس فيهم صفةٌ واحدةٌ منْ صفاتِ الإحسانِ والطاعةِ ، لا عزمَ لهم على الخيرِ ، لا يَخافونَ ربَّهُمْ ، ولا تجدُ رائحةَ الخيرِ في واحدٍ منهم .

٣١ ـ ما فيهمُ منْ سجايا الأوَّلينَ ، ولا حكايةٌ عنهمْ أو حُسْنُ مُعْتَقَدِ

وليس فيهمْ منْ طباعِ السَّلَفِ ، ولا حكى الناسُ عنها شيئاً منْ فضلٍ وسلامةِ فكرٍ أو مذهبٍ .

٣٢ ـ قَومٌ من الخير عُقْمٌ، لا خلاقَ لهمْ وبعضُهُـــمْ إنْ يلِــدْ أكـــرومـــةً يَئِــدِ

هِمْ قومٌ عديمو الخيرِ ، فاقدوهُ ، لا يُفَكِّرونَ ، ولا يُقَدِّرونَ ، ولا يُدَبِّرونَ ، وإنْ بَدَرَ منهم بادرةُ خيرٍ ، فإنهمْ يُسْرِعونَ بِقَتْلِها .

٣٣ ـ ما كانَ منْ سُوْدَدٍ في الناسِ أدركَهُ مَسْخٌ شنيعٌ ، فأضحى غيرَ ذي سُؤدُدِ

منْ كانَ يظُنُّ أنه في عزٍّ ومجدٍ في الناسِ لَحِقَهُ القبحُ الكريهُ ، وصارَ لا يملكُ منَ المجدِ شيئاً .

٣٤ ـ يا ربِّ عَجِّلْ إلى بطحاءِ مكةَ لي عَـوداً علـى ظهـرِ عَـودٍ مُشـرفِ الكَتَـدِ

فيا رَبِّ اجعلْ لي عودةً سريعةً على ظهرِ ناقةٍ شديدةِ العنقِ إلى أرضِ مكةَ .

٣٥ ـ ومُرْ لِجارِكَ، يخْلُصْ منْ جوارِهِمُ يـــا ربِّ قَـــدْنـــي ممـــا أقمْـــتُ قَـــدِ

واقضِ قضاءً وحُكماً ، يُنَجِّي جارَك محموداً الزمخشريَّ من قُربِهِمْ ، ويا ربِّ يكفيني ما أصابني منهم ، وحسبي ذلك .

☆☆ ١٤ ـ وقالَ على بحرِ البسيطِ في الشكوى والحنينِ إلى البيتِ الحرامِ :

١ ـ أفضَتْ إليكَ شَكاةُ الواجدِ الكَمِدِ فأشْكِ يا ربِّ صنعِ الواحدِ الصَّمَدِ

لقد صَعِدَتْ إليكَ يا ربِّ شكوى الحزينِ المهمومِ فأزلْها برحمتِك يا ذا عملِ الواحدِ الأحدِ الذي لا يُقْصَدُ غيرُهُ .

٢ ـ أشكو إليكَ حزازاتٍ ، أُحِطْتُ بها فاعطِفْ بسلوانِكَ الشافي على كبدي

وإني أردِّدُ شكاتي منْ جراحاتٍ ، عَلِمْتَها ، فارفقْ بي ، واجعلْني أنسى آلامي التي كادَتْ تقضي على كبدي بشفائكَ إيّايَ .

٣ ـ حُبُّ الدُّنُوِّ منَ البيتِ الحرامِ رمى بالجمرِ فيها وحُبُّ البعدِ عنْ بَلَدي

وهناكَ حبّانِ أضنياني ، وأوقدا الجَمْرَ في قلبي : حُبُّ القربِ من بيتِكَ الحرامِ وحُبُّ البعد عنْ بلدي .

٤ ـ هَمَّـانِ إنْ تكْفنـي يـا ربِّ خطبَهُمـا شكرْتُ ما دامَ يجري الروحُ في جسدي

فهذان الحبَّانِ أمرانِ عظيمانِ ، فإنْ تُساعدْني في احتِمالي إياهما كانَ شكري لكَ إلى أنْ تخْرُجَ روحي منْ جسدي .

☆☆ ١٥ ـ وقالَ على بحرِ الرملِ في المدحِ :

١ ـ إنَّ شبـلَ الـدولـةِ الليـثُ الـذي عنــدَهُ الضِّــرغـــامُ بعـــضُ النَّقَــدِ

لقد اجتمعَ في مجلسِ شبلِ الدولةِ أبي الهيجاءِ مقبلِ بنِ عطيّةَ البكريِّ كبارُ الرجالِ يُحِفّونَهُ بِالاحتِرامِ والتعظيمِ كما تَحُفُّ مجلسَ الأسدِ في عرينِهِ وفودُ الحيواناتِ كبارُها وصغارُها بهِ .

٢ ـ حَلَّ في عِرّيسَةٍ مِنْ شرفٍ   لم تكُنْ عرّيسَةً للأسدِ

ويحُلُّ في مجلسِ شبلِ الدولةِ العِزُّ والشرفُ الذي لا ولن يرقى إليهِ مجلسُ الأسدِ نفسُهُ .

٣ ـ نَجَلَتْهُ مِنْ قُرَيشٍ سادةٌ   قادةٌ صِيدٌ طِوالُ العَمَدِ

وقد كان ابناً لأسيادِ قريشٍ الذين قادوا العالمَ بحلومِهِمْ والذينَ اشتُهِروا بقاماتِهِمُ الطويلةِ وبرؤوسِهِمُ التي يرفعونَها كِبْراً .

٤ ـ رابطَ الجأشِ فصيحاً يزدهي   كلَّ فَحْلٍ بقوافٍ شُرَّدِ

ويبدو للناسِ دائماً قويَّ القلبِ شجاعاً ، تهابُهُ الشدائدُ فصيحاً بليغاً ؛ إنْ تفاخَرَ أمامَهُ أحدٌ فَخَرَهُ بقصائدَ ، تَسْري في البلادِ .

٥ ـ إنْ يُبارزْ مِصْقَعاً ذا نجدةٍ   غَضَّ منهُ بلسانٍ ويَدِ

وإنْ يُبارِ أديباً بليغاً أو خطيباً مُفَوَّهاً ، يستَقْطِبُ الناسَ بما يلقِيهِ عليهمْ ناصحاً ، يُنْقِصْ من قدرِهِ بما يُبدعُهُ لسانُهُ ويدُهُ في خُطَبِهِ وقصيدِهِ ونثرِهِ .

٦ ـ هو كالبحرِ إذا آذيُّهُ   ضَرَبَ الشَّطَّ بِرابي الزبَدِ

وهو كالبحرِ الذي إذا ضربَتْ أمواجُهُ الشاطئَ برغوتِهِ العاليةِ .

٧ ـ بثناءٍ غاثَ شِعبي شِعرُهُ   فاعتَلَى فيهِ نباتُ الحسدِ

كان لمدحي إياهُ أثرٌ عجيبٌ حينَ ردَّ عليَّ بقصيدةٍ ، نظمَها ، فكانَتْ نجدةً ونوراً لطريقي وحسداً وحقداً ، ينبتُ ، ويعلو في قلوبِ أعدائي .

٨ ـ كيفَ لا يستأسِدُ النبتُ الذي   باتَ مَسْقِيًّا بنَوءِ الأسدِ ؟

فكيفَ لا يتحولُ النباتُ ، فيصيرَ مثمراً قويًّا إذا سُقِيَ بمطرِ مُناخِ ونجمِ الأسدِ ؟

☆☆ ١٦ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ والتهنئةِ :

١ ـ إذا اصطفَّ في الديوانِ ساداتُهُ ، فهمْ   عبيدٌ إذا اصطَفُّوا لأروعِ سَيِّدِ

إذا وقفَ ساداتُ القومِ في مجلسٍ مصطفّينَ فإنهمْ يقفونَ عبيداً احتراماً لأفضلِ سيِّدٍ بينَهمْ .

٢ ـ لِمَنْ هو ما لم يأتِ يُدْعَونَ سادةً فإنْ يحضُرِ الديوانَ يُدْعَوا بأعبُدِ
فإنْ لم يحضُرِ المجلسَ يُسَمَّوا أسياداً، وإنْ فوجئوا بحضورِهِ إلى المجلِسِ يُسَمَّوا عبيداً.

٣ ـ لمنْ هو نعمَ المستشارُ إذا انْتَجَوا وإلاّ فمنْ يأتي برأيٍ مسدَّدٍ ؟
فهمْ أتباعُهُ ، يرجعونَ إليهِ في كلِّ معضلةٍ ؛ يقفونَ أمامَها مكتوفي الأيدي بعد جدالٍ طويلٍ في ما بينَهُمْ ، وإنْ لم يرجعوا إليهِ ، ويأخذوا رأيَهُ ، يَبْقَوا في حيرةٍ منْ أمرِهِمْ ، لا يهتدونَ لرأيٍ رشيدٍ حكيمٍ .

٤ ـ بهِ يُقتَدى في الرأيِ ، فَهْوَ إمامُهُمْ ومن يَقْتدي إثْرَ الأئمةِ يهتدِ
وبهِ يُؤْتَسَى إنِ اتَّخَذَ رأياً أو طريقاً ، وهو قائدُهُمْ في كلِّ أمورِهِمْ ، ومنْ يَتَّبِعْ طريقَ الأئمَّةِ يلْقَ الهدايةَ منَ اللهِ تعالىٰ .

٥ ـ وإنْ لم يُسَوَّدْ فهو قد سادَ كُلَّهُمُ وخَلَّفَهُمْ مجداً ، وإنْ لم يُمَجَّدِ
وإنْ لم يعترفوا بسيادتِهِ عليهِمْ ، فهو سَيِّدُهُمْ حيًّا وميّتاً لأنه سَيُوَرِّثُهُمْ عِزًّا ومجداً ، وإنْ لم يُعَظِّموهُ حيًّا .

٦ ـ ومنْ سادَ بالتسويدِ ليسَ أجَلَّهُمْ أجَلُّهُمْ منْ سادَ غيرَ مُسَوَّدِ
ومنْ فَرضَ على الناسِ أنْ يَجعلوهُ سَيِّداً ، فلَنْ يكونَ أفضلَهُمْ . إنما أفضلُ الناسِ وأعظمُهُمْ منْ يطلبُ الناسُ منه أنْ يكونَ سيِّدَهُمْ .

٧ ـ فكيفَ وفي كَفَّيهِ تصريفُ مُلْكِهِمْ ؟ وما أضيعَ المُلْكَ الذي لم يُقَلَّدِ
فكيفَ لا يدعونَهُ سيِّدَهُمْ ، وهو يملكُ زمامَ أمورِهِمْ ، ويُدبِّرُها جيداً ؟ وما أشدَّ هلاكَ مُلْكٍ أو بلدٍ أو أهلِ بلدٍ إذا لم يُصَنْ أو يُكَرَّمْ .

٨ ـ يُنيخُ الذي يَسري إليهِ ركابَهُ إلى حضرةٍ ، حُفَّتْ بمجدٍ وسؤدُدِ
يقيمُ الذي يقصِدُهُ ، ويُبرِكُ راحلتَهُ ، فيرى مجلسَهُ ، أُحيطَ بعزٍّ وعظمةٍ .

٩ ـ بهذا الفِناءِ الرَّحْبِ ، يُلْقي رحالَهُ وينزِلُ في هذا الرِّواقِ المُمَدَّدِ
ويرمي حِمْلَهُ في صحنِ الدارِ الواسعةِ ، ثم يَتَرَجَّلُ عنْ فرسِهِ في مُقَدِّمةِ دارِهِ الذي مُدَّتْ فيه البُسْطُ والفُرُشُ .

١٠ ـ أعِنَّةُ أهلِ الفضلِ تُعطَفُ نحوَهُ لأنهمُ ألفَوهُ أعذبَ مَوردِ
وتُلَفُّ سُيورُ ألجمةِ خيولِ أهلِ الكرمِ والجودِ نحوَهُ لأنهمْ وجَدوا في كَنَفِهِ أطيبَ طعامٍ وأعذبَ شرابٍ .

١١ ـ يجيءُ على الإظماءِ واردُ عِدِّهِ فَيُسْقَى رُواءُ الجودِ غيرَ مُصَرَّدِ

ويأتي إليهِ طالبُ الماءِ العطشانُ ، فيستقي منْ مائِهِ الذي لا ينقطعُ عنْ أحدٍ حتى الارْتِواءِ ، ولا يبْخَلُ على أحدٍ ، فيكونَ شربُهُ دونَ الارْتِواءِ .

١٢ ـ ألم تَرني لا أرتجي غيرَهُ متى تَرَصَّدَني دهرٌ بصماءَ مُؤْيِدِ ؟

ألم تَجِدْني يا صاحبي ، لا أقصِدُ غيرَهُ حينَ يترقَّبُني الدهرُ لِيُصيبَني بنائبةٍ ، لا تَسْمَعُ شكوى ، أو أمرٍ عظيم ، يقتحِمُني ؟

١٣ ـ يَري عندَهُ زَنْدي ، فتسطَعُ نارُهُ ويَصْلِدُ زَنْدي عندَ كلِّ مزَنَّدِ

ويطمئنُّ قلبي بقربِهِ ، فيَتَّقِدُ عودي ، وتلمعُ نارُهُ ، وأضيقُ ذرعاً عندَ البخيلِ ، فلا يُخْرِجُ عودي صوتاً إذا ضربْتُهُ .

١٤ ـ وكيفَ أُرجّي خيرَ مَنْ إنْ أتيتُهُ لأُنشِدَ ، لم يَفْهمْ مَقولي ومُنْشَدي

فكيف آمُلُ خيراً ممَّنْ إنْ جئتُهُ لألقيَ قصيدةً في مدحِه لا يفهمْ ما أقولُ وما أنْشدُ ؟

١٥ ـ وأنتَ الذي إنْ يُنْشَدِ الشعرُ، يستعِدْ ويَنْقُدْ بِفهمٍ ثاقبٍ ثُمَّ يَنْقُدِ

أمّا أنتَ فإنكَ إنْ أتاكَ شاعرٌ ، ينشِدُكَ منْ شعرِهِ مادحاً ، تتأهَّبْ لسماعِهِ ، وتبيِّنْ عيوبَهُ مدركاً محاسِنَ الشعرِ ومساوِئَهُ ، ثم تقدمُ لهُ ما يستحقُّ منَ الأُعطيةِ .

١٦ ـ لذاكَ أصوغُ المدحَ فيكَ مُجَوَّداً وما عذرُ منْ يطريكَ لو لم يُجَوِّدِ

لذلكَ كلِّهِ أنظمُ المدحَ فيكَ، وأجعَلُهُ جيّداً مَبْنًى ومَعْنًى . فلا يبقى لمنْ يثني عليك ، ولا يُحْسِنُ الثناءَ عُذْرٌ ، يُخَلِّصُهُ .

١٧ ـ تَهَنَّ بيومِ المِهرَجانِ ، وهَنِّهِ وأَسْعِدْهُ باللُّقْيا الكريمةِ واسْعَدِ

فاهنأْ بهذا اليومِ يومِ العيدِ ، وهَنِّئْهُ برضاكَ ، وأسْعِدْهُ بحلولِهِ الكريمِ عليكَ ، واسْعَدْ بهِ راضياً مرضِيًّا .

١٨ ـ وعظَّمَهُ من آلِ ساسانَ صِيدُهُمْ فَعَظِّمْهُ أنتَ اليومَ يا كُلَّ أصيَدِ

وقد عظَّمَ عظماءُ آلِ ساسانَ هذا العيدَ ، فَعَظِّمْهُ أنتَ هذا اليومَ يا سَيِّدَ كلِّ سيِّدٍ ، يفخرُ بمجدِهِ ، ويرفعُ رأسَهُ بهِ .

١٩ ـ وزَيِّنْهُ باللهوِ المُطَرِّبِ واللُّهى وما شئْتَ منْ قصفٍ وشَدْوٍ مُغَرِّدِ

وحَلِّهِ باللعبِ المُسَلِّي والأعطياتِ وما تريدُ منْ عَزفِ عودٍ وغناءٍ عذبٍ .

٢٠ ـ وداعِبْ ، ولاعِبْ ما أظُنُّكَ عاملاً بقولِ رسولِ اللهِ : « ما أنا منْ دَدِ »

والعبْ ، ولاعِبْ ، والْهُ ، وألْهِ دونَ أنْ تخالفَ قولَ رسولَ اللهِ ، صلّى اللهُ تعالى عليهِ ، وسلّم : « لستُ بالدَّدِ ولا الدَّدُ مني بشيءٍ » [البخاري في الأدب المفرد رقمه ٧٨٥ أو البيهقي عن أنس] .

٢١ ـ وعِشْ بعدَهُ عمرَ الكواكبِ واطئاً   علــى هــامِ أعــداءٍ وأعنــاقِ صُيَّــدِ

وإني لأدعو لكَ أن تعيشَ عمراً طويلاً قريباً منْ حياةِ كواكبِ السماءِ ، غالباً أعداءكَ الذينَ يرفعونَ رؤوسَهُمْ كِبْراً وتيهاً ، تدوسُ رؤوسَهُمْ .

٢٢ ـ فإنكَ مَن يُزْهَى بهِ كلَّ بُكرَةٍ   وكــلَّ أصيــلٍ إذْ يــروحُ ويغتــدي

فإنكَ مَنْ يُفْخَرُ بهِ كلَّ صباحٍ وكلَّ مساءٍ ؛ يذهبُ ، ويصبحُ .

☆☆ ١٧ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في التصوفِ :

١ ـ أهِمَّتِي ارْقَي بي مراقيَ سودَدٍ   يُنــاطِــحُ أدنــاهــنَّ هــامــةَ فــرقَــدِ

يا عزمي اصْعَدْ بي مصاعدَ المجدِ والعزِّ ، فأصِلَ إلى أقربِ رأسٍ منْ رأسَي الفرقدَينِ .

٢ ـ ألاَ فاسْهَرِي حتى إذا ما بَصُرْتِ بي   حَطَطْتُ وراءَ الفرقدِ الرحلَ فارْقُدي

وابْقَ يَقِظاً ، ولا تنمْ ، حتى إذا ما رأيتَني وضعْتُ رحالي خلفَ الفرقدِ ، فاستسْلِمْ إلى النومِ .

٣ ـ وما السوددُ الضخمُ الذي أنا طالبٌ   ســوَى نظــرِ المعبــودِ لِلْمُتَعبِّــدِ

وما المجدُ العظيمُ الذي آمُلُهُ إلاّ نظرَ الإلهِ ، عَزَّ ، وجلَّ ، إلى عابدِهِ .

٤ ـ وقــوةُ تــأميلــي تَخَيُّــلُ أننــي   بنــاصيــةِ المــأمــولِ آخــذةٌ يــدي

وغايةُ أملي إحساسي وشعوري أنَّ يدي قد توصلَتْ إلى خيرِ ما اختارَهُ اللهُ تعالى ، وتمسَّكَتْ به .

٥ ـ فيــا ربِّ إنْ أدركْتُــهُ ، وانْثَنَــتْ بــه   يــدي فَقَــدي إدراكُــهُ ، وكــأنْ قــدِ

فيا ربِّ حَقِّقْ لي ما آمُلُهُ ، فإني إنْ وصلْتُ إليهِ ، وأمسكْتُهُ بمشاعري يكفِني ما نلْتُهُ وما أحسُّ به بأني قد قطعْتُ شوطاً في سبيلِ رضاكَ عني .

☆☆ ١٨ ـ وقالَ على بحرِ السريعِ في الشكوى :

١ ـ أَسْلَفْتُ حكمَ الدهرِ صَبْراً على   إســاءةِ اليــومِ لِبِــرِّ الغــدِ

لقد أقرضْتُ الدهرَ مصائبَهُ صابراً وآملاً أنهُ ، يوماً سَيُتْبِعُ الإساءةَ بالإحسانِ .

٢ ـ علــى الليــالــي يَتَحَمَّلْــنَ لــي   وضــعَ المُنَــى أيــديَهــا فــي يــدي

ويأمرُ أيّامَهُ ولياليَهُ أنْ يقُمْنَ بِجَلْبِ آمالي ووضعِها في يدي .

☆☆ ١٩ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ :

١ ـ أيا راعيَ المُلْكِ الذي طارَ صيتُهُ بسـابقـةِ العليـاءِ والفخـرِ والمَجْـدِ

يا صاحبَ المُلْكِ الذي صارَ ، يتسابَقُ إلى ذكرِهِ العِزُّ والفخرُ والمجدُ .

٢ ـ على فُضلاءِ العصرِ أنْ يشكروا الذي أَفَضْتَ على الشيخِ الإمامِ أبي سَعْدِ

وإني لأرى أنَّ على عظماءِ الأرضِ في هذا الوقتِ أنْ يتقدموا بالشكرِ لما قَدَّمْتَهُ منْ فضلٍ عظيمٍ إلى الشيخِ الإمامِ أبي سعدٍ .

٣ ـ أَفَضْـتَ عليـه ديمـةً بعـدَ وابـلٍ مـنَ الـرِّفْـدِ ، يـاللهِ ذلـكَ مـنْ رِفْـدِ

فقد خَصَّصْتَ له عطيَّةً دائمةً ، لا ينقطِعُ جَرْيُها عليهِ ، وجعَلْتَها صلةً بعدَ عطاءٍ كبيرٍ ، يُثيبُكَ اللهُ بفضلِهِ على هذه الصلةِ .

٤ ـ وصَيَّـرْتَـهُ بعـدَ الخفـاءِ مُشَهَّـراً كما يُشْهَرُ السيفُ الحسامُ منَ الغمدِ

وجعلْتَهُ بعدَ الضياعِ معروفاً كما يظهرُ السيفُ القاطعُ المجَرَّدُ منْ غمدِهِ لأعينِ الناسِ .

٥ ـ وما رامَ قربَ الفاضلينَ امرؤٌ سِوَى أخي هِمَّةٍ ، أوفَتْ على غايةِ البعدِ

وما يريدُ امرؤٌ ذو عزمٍ وقوةٍ إلاّ أنْ يكونَ قريباً مُقَرَّباً منَ الفضلاءِ ، ولو كانتِ المسافةُ بعيدةً جدًّا بينَهُ وبينهَم .

٦ ـ وحُقَّ لهُ أضعافُ ما أنتَ فاعلٌ فليـسَ لـهُ فـي سـاحـةِ الأرضِ مـنْ نِـدِّ

ووجَبَ لهُ أمثالُ ما أنتَ صانعٌ لأنهُ لا يملِكُ المكانةَ الخليقةَ بالتَّفَوُّقِ ولا المثيلَ الذي قد يُنافِسُهُ .

٧ ـ تَبَحَّـرَ فـي الأصنـافِ فهـو وغيـرُهُ منَ المُدَّعينَ الفضلَ كالجَزْرِ والمَدِّ

وما زالَ وغيرُهُ منَ الزاعمينَ أنهمْ ذوو المجدِ والعزِّ والفضلِ كمَدِّ البحر وجزرِهِ على الرغمِ منْ أنهمُ ، ما زالوا ، يقتحمونَ غِمارَ أصنافِ العلومِ والفنونِ وتجاربِ الحياةِ .

٨ ـ وكـلُّ صنيـعٍ لا يُصـادِفُ مَصْنَعـاً فـذاك صنيـعٌ فـائـتُ الأجْـرِ والحَمْـدِ

وكلُّ عملٍ ، لا ينتهي بثمرٍ مفيدٍ فهو باطلٌ لا يستحقُّ الثوابَ جُعْلاً أو حمداً .

٩ ـ فـواظِـبْ علـى هـذا الفَعـالِ فـإنـهُ طريقٌ إلى ما شئْتَ منْ صاعِدِ الجدِّ

وداوِمْ على فعلِ الخيرِ فإنهُ سبيلٌ إلى ما تريدُ منْ دربِ منْ يرومُ الرزقَ والنجاحَ والفلاحَ والفوزَ بالجنةِ .

☆☆ ٢٠ ـ وقالَ على بحرِ الرجزِ في الحنينِ إلى مكةَ :

١ ـ عليكِ يا مكةُ طالَ وَجْدي لو أنَّ طولَ الوجدِ مِمّا يُجْدي

إني لأشكو طولَ شوقي وحنيني إليكِ يا مكةُ ، وأنا أعلمُ أنَّ الشوقَ والحنينَ قد يفيدُ المشتاقَ والحانَّ في يومٍ منَ الأيامِ .

٢ ـ يومَ دفَعْنا العيسَ صوبَ نجدِ هَدَمْتُ رُكْني شرَفي ومجدي

وأذكرُ يومَ سُقْنا الابلَ البيضاءَ التي تخالِطُها شُقْرَةٌ نحو بلادِ نجدٍ ، كسَّرْتُ جانِبَي منزلي القائمِ على العزِّ والمجدِ فرحاً بسفري إليكِ يا مكةُ .

☆☆ ٢١ ـ وقالَ على بحرِ الطويل في الشوقِ والحنين :

١ ـ خليليَّ منْ سَعْدٍ أردْتُ استفاقةً فقالَ الهوى : شاورْ خليلَيكَ منْ سَعْدِ

ناديتُ صديقَيَّ منْ بني سعدٍ ، فقلتُ لهما : أريدُ أنْ أستريحَ منْ شدةِ ما أجدُ منَ الحبِّ ، فردَّ عليَّ الهوى قائلاً : خُذْ برأيِ صديقَيكَ منْ بني سَعْدٍ اللذينَ شكوتَ لهما ، ولا تُخالِفْهما .

٢ ـ فرأيكُما هل أستفيقُ أم الهوى أحقُّ بِعُذريِّ الصبابةِ والوجدِ ؟

فسألتُهما قائلاً : هل أستريحُ أم للهوى حَقٌّ بحالَي الشوقِ والحزنِ ؟

٣ ـ فُتِنْتُ ، وبيتِ اللهِ ، هل لِمُتيَّمٍ خيارٌ على الأنفاسِ والأدمُعِ اللُّدِّ

لَقيتُ منَ العذابِ ما لَقيتُ ، وأستحلِفُكُمْ ببيتِ اللهِ الحرامِ : هل يتمكَّنُ محبٌّ أنْ يتخلَّصَ ، وينجوَ منْ شقاوتِهِ ودُموعِهِ المنهَمرةِ ، فَيَجِدَ سعةً في صدرِهِ وفسحةً في أمرِهِ ؟

٤ ـ أحِنُّ إلى نجدٍ وشوقي إليكمُ بني عامرٍ مَعْنَى حَنيني إلى نجدِ

أشعُر بالحنينِ إلى نجدٍ ، وما شوقي إليكمْ يا بني عامرٍ إلاّ تعبيرٌ ووصفٌ لحنيني إلى أرضِ نجدٍ .

٥ ـ فأوَّهْ لقلبٍ رُعْتُمْ بفراقِكُمْ ولو أنهُ في صدرِ ضِرْغامةٍ وَرْدِ

فشكوايَ لقلبٍ ، جعلتموهُ في حَيرةٍ بسببِ مفارقتِكُمْ إياهُ ، ولو كانَ في صدرِ أسدٍ شجاعٍ قويٍّ .

☆☆ ٢٢ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في المدحِ :

١ ـ قلْ للوزيرِ إذا رجعْتَ مُظَفَّراً منصورَ راياتٍ برغمِ الحاسدِ

بَلِّغِ الوزيرَ قولي : إذا عُدْتَ غالباً منتصراً حاملاً راياتِ الانتصارِ على الرغمِ منَ

الحاسدينِ وتَوَقُّعاتِهِمُ الباطلةِ .

٢ ـ وأَصَبْتَ أغراضاً ، نَهَضْتَ لأجلِها بـأَتَـمِّ إقبـالٍ وجِـدٍّ صـاعـدِ

ونِلْتَ آمالاً ، قُمْتَ بها ، وأقبلْتَ عليها إقبالاً كاملاً وجِدًّا سامياً إلى غايةِ الغاياتِ .

٣ ـ ووطِئْتَ أعناقَ العِدا ، وركبْتَهُـمْ ذُلُـلاً ، وسُقْتَهُـمْ بسـوطٍ واحـدِ

ودُسْتَ رقابَ الأعداءِ ، وجعلتَهُمْ أذلاّءَ ، تركبُهُمْ متى تشاءُ ، وقُدْتَهُمْ بنظامٍ واحدٍ .

٤ ـ فاشكرْ مَوَالِيَكَ الذينَ دعاؤُهُمْ جُنْـدٌ يقـاتـلُ عنـكَ كـلَّ معـانِـدِ

فقدِّمْ شكرَكَ إلى رجالكَ الذينَ صَدَقوكَ قولاً وفِعلاً ، فأصبحوا بدعائهمُ اللهَ ، عزَّ ، وجَلَّ ، جنوداً أقوياءَ ، يقاتلونَ عنكَ كلَّ منْ يخالفُكَ ، ويخاصِمُكَ ، ويُعانِدُكَ .

٥ ـ أجفانُ عينكَ في المنامِ ، وكُلُّهُمْ لـكَ قـائـمٌ داعٍ بجفـنٍ سـاهـدِ

وصارَتْ أجفانُهُمْ ، لا تنطَبِقُ لنومٍ لتسكُنَ أجفانُكَ للنومِ ، فتراهُمْ كلَّهمْ قائمينَ داعينَ لكَ بالنصرِ والسؤددِ .

٦ ـ واللهُ فَعّـالٌ بـدعـوةِ واحـدٍ مـا ليـسَ يفعَلُـهُ بـألـفِ مجاهـدِ

واللهُ ، عَزَّ ، وجَلَّ ، عظيمٌ ، يجيبُ دعوةَ فردٍ ، وينصُرُهُ نصراً ، لا يُحَقِّقُهُ بألفِ مقاتلٍ .

☆☆ ٢٣ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في الرثاءِ والتعزيةِ :

١ ـ المـرءُ فـي دنيـاهُ ليـسَ بخـالـدِ فعـلامَ يطلبُهـا بجهـدٍ جـاهـدٍ ؟

إنَّ الإنسانَ ، لا يخْلُدُ في عيشهِ في الدنيا ، فعلى أيِّ شيءٍ ؟ ولماذا يسعى لها بِجِدٍّ شديدٍ ؟

٢ ـ هو طالبُ الدنيا ، وطالبُهُ الرَّدَى والطـالـبُ الفلكـيُ أسـرَعُ واجـدِ

فهو ساعٍ إلى الدنيا ، ويسعى إليه الموتُ الذي هو من أقدارِ اللهِ تعالى ، يأتي به المَلَكُ المُخَصَّصُ لهُ ، ومَلَكُ الموتِ أسْرَعُ واصلٍ وواجدٍ منْ كلِّ ساعٍ .

٣ ـ ليسـت مصيبـاتُ الـزمـانِ نظـائـراً كـلُّ المصـائـبِ دونَ فقـدِ الـوالـدِ

وليسَتْ نوائبُ الزمانِ متشابهةً ، ولو وُضِعَتْ لها مراتبُ ، فكلُّها أقلُّ درجةً منْ موتِ الوالدِ .

٤ ـ فـأبـوكَ ظهـرُكَ ، والأقـاربُ غيـرُهُ كَمَنـاكـبٍ وُصِلَـتْ بـهِ وسـواعـدِ

فالأبُ ظهرُ المرءِ ومتنُهُ ، وأقاربُهُ كتفاهُ وساعداهُ ، وُصِلَتْ به .

٥ ـ تاللهِ ما الأصلُ الذي رسخَتْ له أعـراقُ صِـدْقٍ مثـلُ فـرعٍ زائـدِ

والله ما أصلُ الإنسانِ الذي ثَبَتَتْ بهِ أصولُ مجدٍ وعزٍّ مثلُ غصنٍ في نباتٍ زائدٍ ، يمكنُ قطعُهُ دونَ أن يَتْلَفَ أو يموتَ .

٦ ـ للمـرءِ عـزٌّ طـارقٌ فـي نفسـهِ تـالٍ لعـزٍّ فـي أبيـهِ تـالـدِ

فللمرءِ مجدٌ جديدٌ في نفسِهِ تابعٌ لِعزٍّ ومجدِ أبيهِ العظيمِ .

٧ ـ فـإذا أبـوهُ مضـى تماسَـكَ أمـرُهُ مـنْ بعـدِ عِـزَّيـهِ بعـزٍّ واحـدِ

فإذا ما ماتَ أبوه بقيَ لهُ عزٌّ ومجدٌ واحدٌ ، هو عِزُّهُ بنفسِهِ ، بعدَ أنْ كانَ لهُ عِزَّانِ : عِزٌّ بأبيهِ وعزٌّ بنفسِهِ ، يحرِصُ عليه ، وَيَتَمَسَّكُ بهِ .

٨ ـ زيـنَ الكـرامِ رُزِئْـتَ حُـرًّا مـاجـداً فـاصبـرْ عليـهِ صبـرَ حُـرٍّ مـاجـدِ

فيا أجودَ الأجوادِ لقد أُصِبْتَ بأبيكَ الشريفِ العظيمِ ، فاصبرْ على مُصابِكَ ، وتَجَلَّدْ تَجَلُّدَ امرئٍ حليمٍ حكيمٍ .

٩ ـ فَسَجِيَّـةُ الحكمـاءِ أنْ يَتَصَبَّـروا ولأَنـتَ منهـمْ فـي المحـلِّ الصـاعِـدِ

فطبيعةُ الكِرامِ العقلاءِ التَّصَبُّرُ والتَّجَلُّدُ ، وإنكَ لَمِنْهُمْ في المكانِ الصاعِدِ في سلَّمِ العِزِّ والمجدِ .

☆☆ ٢٤ ـ وقالَ على بحرِ البسيطِ في المدحِ :

١ ـ أهـلاً بنـازلـةِ النَّعْفَيـنِ فـالـوادي ومـرحبـاً بـالأنيـسِ الحـاضـرِ البـادي

أهلاً وسَهْلاً بمَنْ نزلَ بهذينِ المكانينِ المرتفعَينِ والوادي ومرحباً بمَنْ آنسَنا في البلدِ والباديةِ .

٢ ـ هـمْ تـارةً أهـلُ حيطـانٍ مُشَيَّـدةٍ وتـارةً أهـلُ أطنـابٍ وأوتـادِ

فهمْ حيناً يملكونَ قصوراً مبنيّةً بالحجارةِ وحيناً يسكنونَ خِيَماً ، شُدَّتْ حبالُها على أوتادِها .

٣ ـ يـا حبَّـذا دارُ أحبـابـي وسـاكنُهـا وسـاحـةُ الـدارِ والسُّمّـارُ والنـادي

ما أحبَّ دارَ مَنْ أحبُّهُمْ ومَنْ يسكنُها وما أحبَّ عرصَتَها والذين يرتادونَ ناديَها .

٤ ـ وحَبَّـذا زمَـنٌ ، سـاعـاتُـهُ فُـرَصٌ وكـلُّ أيّـامِـهِ أيّـامُ أعيـادِ

وما أطيبَ زمناً ، أوقاتُهُ كالنوباتِ ، تأتي ، ولا تتكرَّرُ ، وأيامُهُ كلُّها ، فيها الفرحُ والسرورُ كأيام الأعيادِ .

٥ ـ وحَرَّكَتْ ساكنَ الأشجانِ باكرةً ظعائنُ الحيِّ يحدو خَلْفَها الحادي

لقد أثارَتِ الإبلُ ، والهوادجُ فوقَ ظهورِها ، بِهَديرِها وبصوتِ حاديها الذي يغني خَلْفَها قلوبَ ساكني الحيِّ .

٦ ـ يا جيرتي خَيِّموا إني أُعيذُكُمُ أن تصبحوا طوعَ إتهامٍ وإنجادِ

فقلتُ : يا جيراني أقيموا خيامَكُمْ ، وابقَوا بينَنا ، لا تَدَعونا ؛ فإني أخافُ عليكمْ أنْ يُصيبَكمْ أذىً إنِ اتَّجَهْتُمْ في سفرِكمْ نحوَ تهامةَ أو نحوَ نجدٍ .

٧ ـ ففي إقامتِكُمْ رَوحٌ لأفئدةٍ وفي رحيلكُمْ صَدْعٌ لأكبادِ

ففي بقائكمْ في حَيِّنا حياةٌ لقلوبٍ ، وفي بعدِكمْ شَقٌّ لأكبادٍ .

٨ ـ ما ضَرَّ سُعْدَى، ورُوحُ الصَّبِّ في يدِها لو أسْعَدَتْهُ بوصلٍ بعد إسعادِ ؟

فما الذي يجعلُ سُعْدَى في شدةٍ وأذىً لو أدخلتِ السرورَ إلى قلبِ عاشقِها الذي في يدِها ، وأسْعَدَتْهُ بالودِّ المستمِرِّ ؟

٩ ـ ما ضَرَّها لو سَقَتْهُ منْ مراشِفها حتى تَبلَّ غليلَ الهائمِ الصادي ؟

وما الذي يؤذيها لو دعَتْهُ ، يمتَصُّ منْ شفتَيها رحيقَها حتى يَبْرأَ قلبُهُ المُحِبُّ العطشانُ ؟

١٠ ـ خيالُها رائحٌ غادٍ إلى وطني نفسي فداءٌ لذاكَ الرائحِ الغادي

وكيفَ أسْلوها ، وشخصُها يروحُ ، ويغدو إلى ومنْ موطني ؟ إنَّ روحي ، أقدِّمُها فِدًى لذاك الشخصِ الرائحِ الغادي .

١١ ـ يُرْجَى فداءُ رجالٍ بعدَ أسْرِهمُ غيري ، وهل لأسيرِ الحبِّ منْ فادي ؟

وإنهُ يُؤمَلُ فداءُ رجالٍ أُسِروا في الحربِ ، ويُفْرَجُ عنهمْ إلاّ أنا فمازلْتُ أعاني منَ الأسرِ ، فيُقالُ لي : هل لأسيرِ الهَوَى مِنْ فادٍ يفديهِ ، فيصيرَ طليقاً ؟

١٢ ـ هيهاتَ إنَّ أسيرَ الحبِّ ليسَ له فادٍ وما لقتيلِ الحبِّ منْ وادي

إنَّ هذا الأمرَ لَبعيدٌ بل مستحيلٌ لأنَّ أسيرَ الحبِّ ، لا يُفْدَى ، ولا فاديَ لهُ ، وقتيلَ الحبِّ لا يُودَى ، ولا واديَ لهُ .

١٣ ـ بلِ الوزيرُ المُفَدَّى رقَّ لي ، ففَدى صُنْعٌ غريبٌ غيرُ معتادِ

لكنَّ الوزيرَ الذي فداهُ الناسُ بأرواحِهِمْ ، رقَّ قلبُهُ لي ، فَأَطْلَقَني بفديةٍ ، وكانَ فعلُهُ فعلاً غريباً منهُ ، لم يَتَعَوَّدْ عليه الناسُ .

١٤ ـ يا ذا السعاداتِ كم أسديتَ عارفةً إليَّ ، مهلاً فقد أكْثَرْتَ حُسَّادي

فيا صاحبَ المسرّاتِ لقد قَدَّمْتَ إليَّ عطاءً ، أَكْثَرتَ فيه حُسّادي وأعدائي ، فلا تُعَجِّلْ بأعطياتِكَ لئلا يأتيَكَ ويأتيَني الأذى منهمْ .

١٥ ـ أروحُ منكَ على برٍّ وتَكْرِمَةٍ   وأغتدي بينَ إرفاقٍ وإرفادِ

ذلكَ لأني لا آتيكَ ، ولا أخرجُ منْ مجلِسِكَ إلاّ على إحسانٍ ومكرمةٍ ومنفعةٍ وإعانةٍ .

١٦ ـ أنجَزْتَ وعدي ، وأهديتَ الوصيفةَ لي   والحرُّ ليسَ لهُ خُلْفٌ لميعادِ

وَوَعَدْتَني ، فوفَيْتَ وَعْدَكَ ، وأهديتَني جاريةً موصوفةً بالجمالِ والأدبِ ، لأنكَ رجلٌ شريفٌ حُرٌّ ، والحُرُّ ، لا يُخْلِفُ وعْدَهُ ، ولا ينقُضُ عهدَهُ .

١٧ ـ وصيفةٌ منْ بناتِ التركِ واصفةٌ   ظباءَ وَجْرةَ بالعينينِ والهادي

وكانَ جمالُ تلكَ الوصيفةِ جمالَ التُّركيّاتِ ، إلاّ أنها تشبهُ فتياتِ وَجْرَةَ (بينَ مكةَ والبصرةِ) بالعينَينِ والعنقِ .

١٨ ـ تَسُلُّ باللحظِ سيفاً باتكاً ، فإذا   هَمَّتْ بِضِحْكٍ تَوَلَّتْهُ بإغمادِ

تُسَدِّدُ بطَرْفِها سيفاً قاطعاً ، وإذا أرادَتْ أنْ تبتسمَ ، وتَضْحَكَ ، تُخَفِّفُ شدتَهُ ، وكأنها تعيدُ السيفَ إلى غِمدِهِ .

١٩ ـ رُمّانتا صدرِها ، لم يَبْدُ حجمُهما   بلى بدا لهما حجمٌ كلا بادي

أمّا ثدياها ، فما زالا صغيرين ، لم يَظْهَرْ لهما كعبٌ ، وكأنهما لم ينمُوا بعدُ .

٢٠ ـ أزهى بهما ، فأهُزُّ المنكبَينِ كما   تُزهَى بقدٍّ كَخُوطِ البانِ مَيّادِ

وكم أُعجبْتُ بهما ، وحَرَّكْتُ كتِفَيّ تيهاً كما تتحرَّكُ أغصانُ البانِ ، وتتمايلُ كِبْراً .

٢١ ـ نُعماكَ روضٌ ، وهذي ظبيةٌ سَرَحَتْ   فيهِ ، فيا حُسْنَ مرتادٍ ومرتادِ

فأنعِمْ بروضٍ ، تسيرُ به ظبيةٌ ، وما أجملَ هذا الروضَ المُتَنَزَّهَ ، وما أحلى هذه الظبيةَ التي تتنقَّلُ في أرجائِهِ .

٢٢ ـ الآنَ أجعلُ تشبيبي بما ملكَتْ   يدي وأقعدُ منْ لهوٍ بمرصادِ

فالآنَ حُقَّ لي أنْ أَتغزَّلَ بما أملِكُهُ ، وأترُكَ ما كُنْتُ ، أتَرَقَّبُ منْ لهوٍ غيرِ حلالٍ .

٢٣ ـ هَدَيتَ قوماً غَوَوا عنْ كلِّ مكرُمةٍ   وكلُّ قومٍ لهمُ عنْ غَيِّهمْ هادي

وقد رشَدْتَ جماعةً ، كانوا ضالّينَ عن الخيرِ ، ولكلِّ أناسٍ ضالّينَ هيَّأَ اللهُ تعالى لهم راشداً وواعظاً .

٢٤ ـ عَلِمْتَ كيفَ اصطناعي مُرْشِداً لهمُ   لو كانَ يَنْفَعُ فيهمْ حسنُ إرشادِ

وكنتَ خيرَ مُعَلِّمٍ في إرشادكِ إيّايَ ، فتعلَّمْتُ منك صنعَ الرشادِ وفعلَهُ ، وأرجو أنْ يكونَ إرشادي إيّاهم حسناً ومفيداً .

٢٥ ـ يا آلَ برمَكَ عبدُ اللهِ شاركَكُمْ   فلستمُ في مساعيكمْ بآحادِ

فيا آلَ برمكَ إنَّ عبدَ اللهِ قد شارككُمْ في أعمالِكُمُ الفاضلةِ ، فَلَسْتُمُ الوحيدينَ في ما تصنعونَ .

٢٦ ـ لمّا انتهَتْ سِيَرُ الأجوادِ جاوَزَها   إلى غرائبَ لم تُعْهَدْ لأجوادِ

ولما دالَ الزمانُ ، وذهبَتْ دولَةُ آلِ برمكَ بكرمِهِمْ سبقَ عبدُ اللهِ مسيرَةَ آلِ برمكَ بمكرُماتٍ ، كانَتْ غريبةً على الناسِ ، لم يعرفْها أحدٌ قبلَهُ .

٢٧ ـ كم للمؤمَّلِ عبدِ اللهِ منْ نِعَمٍ   تَنَظَّمَتْ ، فهي أطواقٌ لأجيادِ

وكم منْ يدٍ كانَتْ للمُرَجّى عبدِ اللهِ ، كانَتْ عقوداً لرقابِ الناسِ .

٢٨ ـ كم روضةٍ وغديرٍ منْ شمائلِهِ   ومِنْ نداهُ لرُوّادٍ ووُرّادِ

وكم منْ حديقةٍ وكم منْ سيفٍ وكم منْ فضلٍ وكم مِنْ بِدعةٍ ، كانَتْ مِنْ سجاياهُ وأعمالِهِ ؛ مالَ إليها الناسُ طالبينَ معروفاً أو سُقيا .

٢٩ ـ إلى مُوَاليهِ يمضي بَرْدُ موعِدِهِ   ودونَهُ للأعادي حَرُّ إيعادِ

فإلى منْ يُصاحِبُهُ ، ويُصادِقُهُ ، يذهبُ خيرُ موعِدِهِ ، ويكونُ برداً وسلاماً عليهِ ، وإلى مَنْ يُعاديهِ يكونُ تهديدُهُ إياهُ شَرًّا وعذاباً شديداً عليه .

٣٠ ـ كذلكَ المُزْنَةُ المرجُوُّ وابِلُها   هَطّالَةٌ بينَ إبراقٍ وإرعادِ

فهو كالسحابةِ التي دعا الناسُ اللهَ تعالى لِيَسقِيَهُمْ بمطرِها الكثيرِ ، فَتُبَشِّرُهُمْ ببرقِها ورعدِها ، وتزيلُ صداهُمْ فترةً بعدَ أُخْرَى .

٣١ ـ لمّا سما بالمخاريقِ الرجالُ سما   بفضلِ نفسٍ وآباءٍ وأجدادِ

لما ظفِرَ الرجالُ بألعابهمْ كانَ ظفَرُ عبدِ اللهِ بكرمِ نفسِهِ وأمجادِ آبائِهِ وأجدادِهِ .

٣٢ ـ ألقى التواضعُ في أحشائِهِ مِقَةً   فصدَّ عن كبرياءِ النفسِ والصادِ

ورَمَى في جوانِحِهِ التواضعَ حُبّاً بهِ ، وأعرضَ عنِ التكبُّرِ والتيهِ .

٣٣ ـ واختصَّ بالصادِ عُجْمٌ لا خلاقَ لهم   في المكرماتِ اختصاصَ العُرْبِ بالضادِ

ولأنَّ الأعاجمَ الذينَ لا ليونةَ في طباعِهِمْ ، قد اختصّوا بالتَّكَبُّرِ القبيحِ ، وليسَ لهمُ اختصاصٌ بالمكرُماتِ التي اختصَّ بها العربُ أصحابُ لغةِ الضادِ .

٣٤ ـ هو الإمامُ الذي صَحَّتْ روايتُهُ   يَـرَى أحـاديـثَ مجـدٍ ذاتَ إسنـادِ

وهو إمامٌ في روايةِ الأحاديثِ الشريفةِ صحيحةِ الإسنادِ العظيمةِ الحاملةِ معانيَ العِزِّ والفخارِ .

٣٥ ـ سوقُ الأفاضِلِ في أيامِهِ نَفَقَتْ   كـأنمـا هـي أيـامُ ابـنِ عبّـادِ

وراجَتْ سوقُ العلمِ والأدبِ ورجالِها في أيامِ عبدِ اللهِ ، وكأنّها في عصرِ المعتمدِ بنِ عبادٍ وزيرِ بني بويهِ الذي ازدهرَ العلمُ والأدبُ في زمانِهِ .

٣٦ ـ كافي الكفاةِ الذي كانتْ صنائعُهُ   للمكـرُمـاتِ كـأرواحٍ لأجسـادِ

والذي كان يُلقَّبُ بكافي الكفاةِ لأنَّ أعمالَهُ العظيمةَ ، كانَتْ أرواحاً لأجسادِ الناسِ .

٣٧ ـ مضى وآثـارُهُ في الأرضِ بـاقيةٌ   كـأنهـا فـي بقـاءٍ صُـمُّ أطـوادِ

ماتَ منذُ مدةٍ طويلةٍ ، ومازالَتْ آثارُهُ الأدبيةُ باقيةً بقاءَ الجبالِ شديدةِ الصخورِ ، يَقرؤُها كلُّ منْ يريدُ أن يَطَّلِعَ عليها .

٣٨ ـ مـنْ مُبْلِـغٌ عنـيَ الإخـوانَ مـألُكَـةً   بـأنَّ زَنـدي وَرَى مـنْ بعـدِ إصـلادِ ؟

منْ يوصِلُ عني الأصحابَ رسالةً ، تقولُ : إنَّ عودي ، التهبَ بعدَ أنْ كانَ صعبَ الاشتعالِ وبعيدَهُ ؟

٣٩ ـ وأنَّ حالي بتاجِ الدولةِ انتعشَتْ   والتَـفَّ ، واخْضَـرَّ أوراقـي وأعـوادي

وإنَّ أمري بكنَفِ تاجِ الدولةِ قد تحسَّنَ ، وإنَّ نباتي قدِ انتعشَ ، وطالَتْ فروعُهُ ، واخْضَرَّتْ أوراقُهُ ، والْتَفَّتْ أغصانُهُ .

٤٠ ـ ما كنتُ آملُ أنْ أسْعى إلى أمدٍ   فـاليـومَ لا يبلـغُ السـاعـونَ آمـادي

ولم أكنْ أرجو أنْ أجدَّ ، فأصِلَ إلى غايةٍ ، فإذا بي اليومَ أمْلِكُ غاياتٍ كثيرةً ، لا يستطيعُ المُجِدّونَ القاصدونَ أنْ يصلوا إلى غاياتي ومجدي .

٤١ ـ وقد همَمْتُ بترحالٍ ، فَقَيَّدَني   إنعـامُـهُ ، والأيـادي خيـرُ أقيـادِ

وقد عزمْتُ على السفرِ ، فَأَوْقَفَني عن ذلك كرمُهُ ، والإكرامُ أفضلُ ما يمنعُ المرءَ عنِ الإقدامِ على عملٍ .

٤٢ ـ إليـكَ مُثْقَلـةً بـالشكـرِ سـائـرةً   مـنْ صَيْـرفـيِّ عيـونِ الشعـرِ نَقّـادِ

وإنكَ لَتَرَى أعطياتِكَ الكثيرةَ قد عادَتْ إليكَ بالشكرِ العظيمِ الذي سارَتْ قصائدُهُ في البلادِ من شاعرٍ نِحْريرٍ في فنونِ الشعرِ وتمييزِ الغَثِّ منَ السمينِ منه .

٤٣ ـ كرُّ الجديدينِ ، لا يُلوي بِجِدَّتِها ولا يُمِلُّكَ منها طولُ إنشادِ

تلك القصائدُ الخالدةُ لا يُقَلِّلُ منْ جودَتها والإبداعِ فيها مَرُّ الزمانِ بلياليهِ وأنهُرِهِ ، ولا تَشْعُرُ بأدنى ضيقٍ إذا طالَ أو أُعيدَ إنشادُهُ .

☆☆ ٢٥ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في مدحِ عُبَيدِ اللهِ فخرِ المعالي :

١ ـ اليومُ يومُ سُلُوٍّ كُلِّ فؤادِ اليومُ بردُ حرارةِ الأكبادِ

إنَّ هذا اليومَ هو يومُ نسيانِ كلِّ هَمٍّ وحزنٍ وقعَ في كلِّ قلبٍ ، ويومُ برودةِ حرارةِ الأكبادِ التي أضناها الحزنُ والشقاءُ .

٢ ـ فهلمَّ لِلَذّاتِ نأخذُ حَظَّنا منها برَغْمِ مَعاطسِ الحسادِ

فهيا بنا نَغْتَنِمْ نَصيبَنا منْ مَسراتٍ على كُرْهٍ منَ الحسادِ والعدا الذين تَطَيَّروا منها كما يتطيّرونَ منَ العُطاسِ .

٣ ـ ضربَتْ سعادُ بحاجرٍ أوتادَها يا ربِّ بارِكْ في جوارِ سعادِ

فها هي سعادُ ، قد ركزَتْ أوتادَ خيمتِها في الحاجرِ القريبِ منْ مكةَ ، فدعَوْتُ اللهَ تعالى أنْ يُباركَ لها في هذا الجِوارِ جوارِ البيتِ الحرامِ .

٤ ـ بيضاءُ لا تخطو بأرضٍ خطوةً إلاّ سقاها اللهُ صوبَ غوادِ

وهي ذاتُ قلبٍ أبيضَ صافٍ ، رضيَ اللهُ عنهُ ، حتى إنها لا تطأُ أرضاً ، ولا تنقلُ رجلَها بخطوةٍ إلاّ ويرزقُها اللهُ رزقاً طيّباً مِنْ مطرٍ ، ينزلُ في الصباحِ ، فيروي الزرعَ جيّداً .

٥ ـ مَرّتْ بوادي الأيكتَينِ حُدوجُها فاخْضَرَّ فيه يابسُ الأعوادِ

فلمّا عَبَرَتْ هوادجُ صويحباتِها الواديَ ذا الأيكتَينِ ذاتَي الأشجارِ الكثيفةِ على جانبَي الطريقِ انتعشَ الزرعُ ، وصارَ يابسُ العودِ منهُ أخضرَ لكثرةِ رَيِّهِ .

٦ ـ والأقحوانُ بدا بِضاحِكِ نَورِهِ والخيزرانُ بخُوطِهِ المَيّادِ

وبدا زهرُ الأقحوانِ بِبياضِ لألائِهِ ، ولاحَ الخيزرانُ بفرعِهِ الميّاسِ .

٧ ـ وحمامةٌ كادَتْ تَفُكُّ لجيدِها أطواقَها طرباً عنِ الأجيادِ

وقد وصلَ طربُ حمامةٍ إلى غايةٍ ، أوشكَتْ فيها أنْ تستغنيَ عنْ طوقِها الذي خُلِقَتْ بهِ ، فتستبدِلَهُ بطوقٍ آخرَ ، تُزيِّنُ بهِ جيدَها .

٨ ـ وتأرَّجَ الوادي كأنَّ لطيمةً نهبَتْ هناكَ مغيرةُ الأكرادِ

وتَوَهَّجَ الوادي بروائحِ الأزهارِ العطرةِ كالمسكِ إذا ما حلَّ بمكانٍ ، ملأهُ عطراً كجماعةِ

الأكرادِ الذين إذا أتوا مكاناً ، مَلَؤُوهُ ضجيجاً .

٩ ـ أُمْنِيَّــــةُ الجيــــرانِ إلاّ أنّهـــــا كحـــديقـــةٍ عَـــزَّتْ علـــى الـــرُّوَّادِ

وهي رجاءُ جيرانِها في أنْ يَرَوها دائماً لكنها كروضةٍ يمنَعُ صاحبُها الناسَ منْ زيارتِها .

١٠ ـ حـامَـى عليهـا معشـرٌ صُبُـرٌ إذا دُعِيَــتْ جِــلادَ القــوم يــومَ جِــلادِ

وقد دافعَ عنها فئةٌ قويةٌ شديدةٌ إذا نودِيَتْ إلى المقاومةِ والمجالدةِ هبَّتْ إلى النجدةِ والحمايةِ .

١١ ـ شوسٌ إذا حَمِيَ الوطيسُ حسبتَهُمْ فــي مــأزِقِ الهيجــاءِ أراقــمَ وادي

فكانَتْ جريئةً في اقتحامِ المعركةِ حتى إنكَ لَتَظُنُّها في قلبِ المعركةِ أشدَّ أنواعِ الأفاعي في وديانِها .

١٢ ـ قــومٌ إذا رامــوا عِتَــابَ قبيلــةٍ لَجَــأوا إلــى بيــضِ المتــونِ حِــدادِ

وهي منْ قومٍ ، عِتابُهُمْ في الاِندِفاعِ إلى المعركةِ ، وهم مجرِّدونَ سيوفَهُمُ البيضَ شديدةَ الحَدَدِ .

١٣ ـ كعـزائِـمٍ شحـذَ الأميـرُ شِفـارَهـا فخــرُ المعــالــي مــاجِــدُ الأمجــادِ

وهم ذوو هِمّاتٍ درَّبَهُمُ الأميرُ فخرُ المعالي عُبَيدُ اللهِ سيدُ الأسيادِ على خوضِ المعارِكِ واستعمالِ الأسلحةِ ذاتِ الرؤوسِ المسنونةِ جيِّداً .

١٤ ـ طَـلاّبُ آمـادِ الفخـارِ مجـاوِزٌ فــي المكــرمــاتِ أقــاصــيَ الآمــادِ

يطمحونَ إلى أقصَى غاياتِ العِزِّ وراءَ أميرِهُمُ الذي سابقَ المفاخِرَ إلى أبعدِ الغاياتِ .

١٥ ـ بَعُدَتْ مبالغُ شأوهِ ، فمتى جرى أفْتَــى لَــهُ بــالسبــقِ كــلُّ جــوادِ

التي خطَّ طريقَها البعيدَ ؛ فإذا ما مشى فيهِ حكَمَ لهُ بالنجاحِ كلُّ عاقلٍ حكيمٍ .

١٦ ـ سيلٌ طَماني في جودِهِ ، لكنهُ فــي حِلْمِــهِ طَــوْدٌ مــنَ الأطــوادِ

فهو كالسيلِ الذي رواني ، ورَوَى أهلَ الأرضِ بسخائِهِ ، وكجبلٍ منَ الجبالِ العاليةِ في أناتِهِ وصبرِهِ .

١٧ ـ كسَبَ العلاءَ بنفسِهِ ، لم يَقْتَنِعْ بمكـــاســـبِ الآبـــاءِ والأجـــدادِ

وسَعَى إلى المجدِ وحدَهُ ، فنالَهُ دونَ أنْ يكتَفِيَ بأمجادِ آبائِهِ وأجدادِهِ .

١٨ ـ قد أتعبَ الجَسَدَ المُرَفَّهَ عالماً أنَّ العُـــلا لمتـــاعـــبِ الأجســـادِ

وقد نَهَكَ جِسْمَهُ المعتادَ على رَغَدِ العيشِ لأنهُ يعلَمُ أنَّ المرءَ ، لا ينالُ المجدَ إلاّ بعدَ

التعبِ والجهدِ .

١٩ ـ حتى تَرَقَّى في مصاعِدِ رتبةٍ بَعُدَتْ مراقيها على الصُّعّادِ

وما زالَ يصعَدُ في مدارجِ المجدِ التي عَزَّ على المجدِّينَ الوصولُ إلى أعلى درجاتِهِ .

٢٠ ـ والعزُّ في استعلاءِ سرجِ طِمِرَّةٍ لا في اتّكاءِ المرءِ فوقَ وِسادِ

والمجدُ في ركوبِ فرسٍ طويلةٍ قوائمُها لا في استنادِ المرءِ إلى الأرائكِ .

٢١ ـ هي دولةٌ ليستْ تَهُبُّ رياحُها إلاّ بعائدِ سَعْيِهِ والبادي

ودولةُ العزِّ ، لا يَتَنَسَّمُ شذاها إلاّ منْ ظَهَرَ : جِدُّهُ في إيابِهِ منتصِراً .

٢٢ ـ ثبتَتْ على آرائِهِ وظنونِهِ والبيتُ بالأطنابِ والأوتادِ

وقد قامَتْ دولةُ عُبيدِ اللهِ فخرِ المعالي ، وثبتَتْ أركانُها بفضلِ أفكارِهِ وتدابيرِهِ السديدةِ الرشيدةِ كثباتِ بناءِ البيتِ بشدِّ حبالِهِ على الأوتادِ جيِّداً .

٢٣ ـ وَعَدَ الإلهُ على الأعادي نصرَهُ واللهُ ليسَ بِمُخْلِفِ الميعادِ

وقد وَعَدَ اللهُ تعالى أولياءَهُ بالنصرِ على أعدائهمْ ، وهو ، لا ولنْ يُخلِفَ ميعاداً .

٢٤ ـ عِزٌّ ، يُفَلِّقُ صَخْرَ تدمرَ شِدَّةً أنّى يُؤثِّرُ فيه كيدُ أعادِ ؟

فكانَ لهُ النصرُ والمجدُ الذي يُصَدِّعُ صخورَ مدينةِ تدمرَ الصلبةَ ، فكيف يتمكَّنُ الأعداءُ مِنْ محاربتِهِ وكيدِهِمْ إيّاهُ ؟

٢٥ ـ عادَوا ألَدَّ كأنَّ غربَ لسانِهِ يومَ الخِصامِ صفيحةُ المِقدادِ

وقد فكَّرَ الأعداءُ أنْ يُعادوهُ ، فرأَوهُ خَصْماً عنيداً في الحربِ والسِّلْمِ ، ووجدوا كلامَهُ ذا حدٍّ شديدٍ كحدِّ سيفِ المقدادِ بنِ عمرٍو صاحبِ رسولِ اللهِ ، عليهِ الصلاةُ والسلامُ ، أحدِ السابقينَ إلى الإسلامِ وإلى غزوةِ بدرٍ وغيرِها .

٢٦ ـ فتطايروا عنْ جانبَيهِ كأنهُ نكباءُ ، مَرَّتْ بينَ رِجْلِ جَرادِ

فتباعَدوا عنه عنْ جانبَيهِ كما تتدافعُ الرياحُ حين تأتي إليها ريحُ الصَّبا والجنوبِ ، فلا تدري كيفَ تتخلَّصُ منها كما تتخلَّصُ فئةٌ منَ الجرادِ منْ هذا النوعِ منَ الرياحِ ؟

٢٧ ـ ظنّوهُ وِرْداً مُرْوِياً ، فَتَوَرَّدوا ولَرُبَّ وردٍ مُعْطِشِ الوُرّادِ

وَوَهِموا في رؤيتِهِ أنهُ نَبعٌ ، يستطيعونَ الإِرْتواءَ بهِ ، فتدافعوا إليهِ ، وفوجئوا بأنهُ ، لا يَرويهمْ ، فعلموا أنَّ بعضَ الأنهارِ أو كثيراً منَ الينابيعِ ، لا تَروي أحداً ، بل تردُّ كلَّ مَنْ يريدُ الإِرْتواءَ منها أكثرَ عطشاً .

٢٨ ـ حَسِبوا اصطيادَ الليثِ أمراً هيِّناً ومِنَ العويصِ تَقَنُّصُ الآسادِ

وظنوا نوالَ الأسدِ حَيًّا أو ميّتاً أمراً سَهْلاً ، فوجدوا أنَّ اصطيادَ الأسودِ أمرٌ في غايةِ الصعوبةِ .

٢٩ ـ عادَتْ إليَّ النفسُ بعدَ ذهابِها إذ عُدْتَ عبدَ اللهِ خيرَ معادِ

ورجَعَتْ إليَّ نفسي بعدَ أنِ اضطربَتْ بذهابِكَ يا فخرَ المعالي إلى تلك المعركةِ وعودتِكَ ظافراً ، وذلك خيرُ ذهابٍ وأفضلُ إيابٍ .

٣٠ ـ محفوفَ راياتٍ بنصرٍ ظافراً بتمامِ كلِّ مشيئةٍ ومُرادِ

عدتَ محاطاً بأعلامِ النصرِ غانماً بكمالِ كلِّ رغبةٍ ومطلبٍ .

٣١ ـ فَتَقَ السُّهادُ جُفونَ عيني منذُ لا ألقاكَ حتى خِطْتُها برُقادِ

وقد كانَ الأرقُ ، قد شَقَّ جفونَ عينيَّ منذُ لم أركَ ، فلما لَقيتُكَ استطعْتُ أنْ أخيطَ تلكَ الشقوقَ بنومٍ هنيءٍ .

٣٢ ـ أصبحْتُ في جَذَلٍ، وأصبحَ حاسدي يطوي الضلوعَ على حشاً وقّادِ

وصِرْتُ في فَرَحٍ ، وصارَ عدُوّي ، يلُفُّ ضلوعَهُ على أحشائِهِ التي تتحرَّقُ حَسَداً وغِلًّا .

٣٣ ـ إنْ يكْبُ زَنديَ أمسِ فانظُرْ كيفَ قد زَهَرَتْ بإذنِ اللهِ نارُ زِنادي

فإنْ لم يحتَرِقْ عودي البارحةَ فانظُرْ كيفَ تأجَّجَتْ بفضلِ اللهِ هذا اليومَ أعوادي .

٣٤ ـ مثلي يكونُ بِفقدِ مثلِكَ ضائعاً فَقْدُ المناضِلِ ضيعةُ الأغمادِ

ورجلٌ شبيهي ، يصيرُ بحرمانِهِ شبيهَكَ تائهاً لأنَّ انعدامَ المقاتِلِ ، يُسَبِّبُ ضياعَ السيوفِ في أغمادِها .

٣٥ ـ تاللهِ لولا يُمْنُ حضرَتِكَ التي هي روضةٌ غنّاءُ للمرتادِ

فواللهِ لولا بركةُ وجودِكَ التي هي حديقةٌ مطربةٌ للنازلِ بها .

٣٦ ـ لَتَرَكْتُ جُرْجانِيَّتي خلفَ السُّرَى وطرَدْتُ عن جَيحونِها أذوادي

لَخَلَّفْتُ مدينتي الجرجانيَّةَ وراءَ سيري في الليلِ ، وتركْتُ كارِهاً إبلي حولَ شواطِئِ نهرِ جَيحونَ .

٣٧ ـ شَبَّهتُ مُدّاحَ الوزيرِ بزمرةٍ عَرَضوا دنانيراً على نَقّادِ

ورأيتُ مادحي الوزيرِ عُبيدِ اللهِ ، يشبهونَ فئةً ، أَرَتْ بضاعتَها تاجراً ، يُحسنُ تمييزَ الغَثِّ منَ السمينِ .

٣٨ ـ هو فاضلُ الفضلاءِ والبحرُ الذي   فـي لُجَّتَيـهِ فضـائـلُ وأيـادِ
ذلكَ الرجلُ ، هو أفضلُ منْ كلِّ فاضلٍ ، وهو البحرُ الذي منحَ كلَّ واقفٍ ببابِهِ أعطياتٍ وأنعُماً كثيرةً .
٣٩ ـ مُلْقٍ إلى نغمِ الثناءِ السمعَ لم   يـؤثـرْ على الإنشادِ نغمةَ شادِ
يستمعُ إلى لحنِ المديحِ ، فلا يُفَضِّلُ صوتَ المادحِ على معانيهِ .
٤٠ ـ ما صادفَتْ منهُ حُمَيّا قهوةٍ   كـالأريحيَّـةِ ساعـةَ الإنشادِ
ما رأتْ منهُ شِدَّةُ الخمرِ وسُوارُها زلَّةً ، بل كانَ وما زالَ واسعَ الخُلُقِ ، يرتاحُ للعطاءِ بعدَ سماعِهِ شاعراً ، يمدحُهُ .
٤١ ـ حُلَلُ الثناءِ الحرِّ أوفَرُ زينةً   للحـرِّ مـنْ مَـوْشِيَّـةِ الأبـرادِ
وإنَّ أرديةَ المديحِ الخالصِ منْ كلِّ شكٍّ وريبةٍ أفضلُ زينةً للمرءِ الحرِّ منَ الْبُرْدِ التي زُيِّنَتْ بألوانٍ شَتّى .
☆☆ ٢٦ ـ وقالَ على بحرِ البسيطِ في مدح تاجِ الملكِ أبي الغنائم :
١ ـ ليالِيَ اللهوِ في سِقْطِ اللِّوى عودي   عـودي وغُصْـنُ شبابـي أخضـرُ العـودِ
يا أمسياتِ السرورِ وليالِيَ اللهوِ والطربِ في مُلتوَى الرملِ ، ارجِعي إلينا ، ارجعي قبلَ أنْ يَذْوِيَ شبابي الذي ما زالَ أخضرَ يانعاً .
٢ ـ غَبْـنٌ علـيَّ بَطـالاتـي إذا فُقِـدَتْ   فـي عُنْفُـوانِ شبـابٍ غيـرِ مفقـودِ
والذي ما زالَ ، يُنسيني مَهازلي حتى إذا عُدِمَتْ في مَيعةِ الشبابِ ، لا تُعَدُّ مَفقودةً .
٣ ـ مـاءُ الشبيبـةِ ، لا تصفـو مـواردُهُ   إلاّ بِشُـرْبٍ مِـنَ اللَّـذّاتِ مـورودِ
وحياةُ الفُتُوَّةِ ، لا تحلو منابعُهُ وأمواهُهُ إلاّ إذا صَحِبَتْها المَسَرّاتُ والأفراحُ .
٤ ـ يـومٌ يَمُـرُّ بـلا لهـوٍ ولا لعـبٍ   مـا ذلـكَ اليـومُ مـنْ عمـري بمعـدودِ
واليومُ الذي يأتي ، ويمضي دونَ لهوٍ ولعبٍ ، لا أعدُّهُ منْ عمري .
٥ ـ ما أنسَ لا أنسَ أياماً ، تُصانِعُني   بكـلِّ مُضْطَمِـرِ الكشحَيـنِ مقـدودِ
وإنْ كنْتُ قد سلوتُ شيئاً ، فإنني ، ما زلتُ ، أذكرُ أياماً ، كانتْ ، تُسِرُّني بمجالسةِ كلِّ ضامرِ الخصرينِ ذي القدِّ المَيّاسِ .
٦ ـ كمِ ارتَشَفْتُ رُضاباً كالعُقارِ ، وكم   ألصقْـتُ خَـدّي بخدِّ الكـاعـبِ الرُّودِ
وكم مَصَصْتُ ريقاً طَيِّباً كالخمرِ ، وكم لامسْتُ خَدّي بخدِّ الفَتاةِ ذاتِ الثديِ الناهدِ

والقامةِ اللّيّنَةِ الرَّخْصَةِ .

٧ ـ يداايَ ، لا دَرَّ دَرِّي ، كم جعلْتُها   وِشـاحَ مِثـل قضيـبِ البـانِ أُملـودِ

وهذي يدايَ ، لا كَثُرَ الخيرُ عليَّ ، كم وضعتُها على قدٍّ ناعمٍ لَيِّنٍ ، يُشبهُ غصنَ شجرِ البانِ الغَضِّ ، فكانتا كالرّداءِ الساترِ لهُ .

٨ ـ طافَتْ خيالاتُ سُعْدى، فقلتُ لها :   هـلّا بـآخـرَ ذي قلـبٍ ومجلـودِ

ولما لاحَتْ شخوصُ سُعْدى قلتُ لها : هلَّا سَعَيتِ لي بقلبٍ آخَرَ غيرِ قلبي ، يحتَمِلُ ما أُحِسُّ بهِ .

٩ ـ لم يتركِ الدهرُ لي قلباً ، أُحِسَّ بهِ   بغـضَ البغيـضِ ولا وُدًّا لِمَـودودِ

لأنَّ الدهرَ أفنى قلبي بكُرْهِ الحاسدِ وهجرِ المحبوبِ .

١٠ ـ طافَتْ بِمُمْتَحَنٍ ، ضاقَ النطاقُ به   نِضْـوٍ بطـارِقـةِ الأيـامِ مَكـدودِ

وحامَتْ حولَ مُبْتَلٍ ، سئمَ الحزامُ منه ، هزيلٍ بمصائبِ الأيامِ مجهودٍ باحتِمالِها .

١١ ـ ولستُ أنكِرُ أنَّ الجدَّ ، يعثُرُ بي   كـذاكَ كـلُّ أديـبٍ غيـرُ مَجْـدودِ

ولا أجحدُ أنَّ الاجتهادَ قد كبا بي كما يكبو كلُّ أديبٍ ، لاحَظَّ لهُ .

١٢ ـ يا سُعْدَ، لا تحزني ؛ طَيري يُواعِدني   خيـراً ، وديـدَنُـهُ إنجـازُ مَـوعـودي

فيا سُعْدَى ، لا تُدخلي الحزنَ إلى قلبكِ منْ أجلي لأنني متفائلٌ بطيري الذي أراهُ يتَّجهُ يميناً كأنهُ يُخبرُني أنَّ الخيرَ في طريقِهِ إليَّ ، وما أخبرَني بشيءٍ ، لم يتحقَّقْ لي .

١٣ ـ وأنْكَرَتْني، وقالتْ، وهي عاكفةٌ:   على وِسادي : أهذا وجهُ محمودِ ؟

ولمّا رأتْني سألَتْني ، وكأنها لم تعرِفْني ؛ قالَتْ ، وهي مقبلةٌ على مُسْتَنَدي : أهذا وجهُ محمودٍ الزمخشريِّ ؟

١٤ ـ لو أقبلَ الموكبُ التاجِيُّ لانْبَعَثَتْ   حـالـي ، فـذاكَ مـأوى كـلِّ مَنْجـودِ

ولو أتى تاجُ الملكِ أبو الغنائم بموكبِهِ نحوي لانتَعَشْتُ ، وصلَحَ شأني ، وعلمَ الناسُ أنَّ مَجيئَهُ غوثٌ لكلِّ هالكٍ .

١٥ ـ ليسَ الكواكبُ في الظلماءِ أحسنَ منْ   نَعمـائِـهِ البيـضِ فـي آمـالِـيَ السـودِ

ولو قورنَتْ كواكبُ السماءِ في ظلمةِ الليلِ بمَكْرُماتِهِ البيضاءِ التي خَلَّصَتْني منْ رجائي الذي يئسْتُ منْ تحقيقِهِ لَما كانَتْ أفضلَ منها .

١٦ ـ ما زالَ مُرْتَدياً بالحمدِ مؤتَزِراً   والنـاسُ مـنْ بيـنِ مـذمـومٍ ومحمـودِ

ولقد أحبَّ كساءَ الحمدِ ، فتمسَّكَ بما يُكسِبُهُ إياهُ ، وجعلَهُ رداءً وإزاراً ، يَلْتَفُّ به مختالاً ، والناسُ منْ حولِهِ بينَ مهجُوٍّ ومحمودٍ .

١٧ ـ فـأيُّ لطـفٍ إلهـيٍّ وزارَتُـهُ ؟ وأيُّ ظـلٍّ علـى الإسـلامِ ممـدودِ ؟

وكانَ اللطفُ الإلهيُّ في غايتِهِ حينَ اختارَهُ السلطانُ ليكونَ وزيراً ، فأيُّ لطفٍ إلهيٍّ هو ؟ وأيَّ حكمٍ منْ أحكامِ اللهِ ، كانَ حينَ جعلَ الإسلامَ ممدوداً ظلُّهُ ومُحَقَّقَةً أحكامُهُ ؟

١٨ ـ لـولا وزارتُـهُ لـم يـأوِ ملكُهُـمْ إلـى لـواءٍ بكـفِّ العـزِّ معقـودِ

ولو لم يُمْسِكْ مقاليدَ الحكمِ في وزارتِهِ لم يَسْتَقِرَّ ملكُهُمْ تحتَ عَلَمٍ ، رَفَعَهُ العزُّ ، وعقدَ لهُ ميثاقَ الأمنِ والأمانِ .

١٩ ـ تُبْقـي أمـانَتُـهُ مـا فـي خـزائِنِهـمْ ومحـضُ مخـزونِـهِ يَفنيـهِ بـالجـودِ

وتحرِصُ أمانَتُهُ وصدقُهُ على ما وضعوا في خزائِنِهمْ ، ويجودُ بخالصِ مخزونِهِ ، فلا يُبْقي منه شيئاً .

٢٠ ـ للهِ سَيرُكَ منْ سَيرٍ ، تركْتَ بهِ عصفَ الشمالِ ، يضاهي رسْفَ مَصْفودِ

وإني لأدعو اللهَ تعالى أنْ يجعلَ سُنَّتَكَ سُنَّةَ خيرٍ وبركةٍ لأنكَ جَهَدْتَ ، فأعطَيْتَ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ حتى تركْتَ ريحَ الشمالِ تشاكلُ قيدَ مُقَيَّدٍ .

٢١ ـ أطِرْتَ ، أم سِرْتَ ، أم عزمٌ ، نهضْتَ به أمضـى مـنَ الخيـلِ والمَهْـريَّـةِ القـودِ ؟

فهلِ اتَّخَذْتَ جناحَي طيرٍ ، طِرْتَ بهما ؟ أم كانَ ذهابُكَ سيراً على قَدَمَيكَ ؟ لا هذا ولا ذاك ، بل إنها همّةٌ ، قمتَ بها ، كانَتْ أقوى منْ قوةِ الخيلِ المنسوبةِ إلى مَهْرَةَ بنِ حمدانَ اليمنيِّ ذاتِ الظهورِ والأعناقِ الطويلةِ .

٢٢ ـ حكيتَ داوودَ في الأراءِ ، تَسْرُدُها أهـلاً بـرأيِ كمثـلِ الـدرعِ مسـرودِ

شابَهْتَ النبيَّ داوودَ في أرائكَ وأحكامِكَ ، فكانَتْ تَصْدُرُ عنكَ كحَلَقِ الدرعِ المُلْتَئمةِ ، فأهلاً ومرحباً برأيِ ، هو رأيُك ، وحكمٍ ، هو حكمُك .

٢٣ ـ وقد ركبْتَ بِسَيرٍ ، كانَ معجزةً أعنـاقَ ريـحِ سليمـانَ بـنِ داوودِ

وكأنَّكَ ركبتَ الريحَ الذي كان معجزةَ النبيِّ سليمانَ الذي سَخَّرَ اللهُ له الريحَ التي كانَتْ تجري بأمرِهِ .

٢٤ ـ تحاسَدَتْكَ البرايا في عُلاكَ ، فلا بَرِحْتَ ، تـرفُـلُ فـي أثـوابِ محسـودِ

وتمنَّى الناسُ كلُّهُمْ أنْ تَتَحَوَّلَ نِعَمُ السلطانِ عنكَ ، وتأتيَ إليهِمْ ، فلم يكنْ لهم ذلكَ ، وبقيتَ في مكانتِكَ العاليةِ ، تختالُ في أرديةِ المجدِ التي تُحْسَدُ عليها .

٢٥ ـ قضى لكَ اللهُ بالعلياءِ دونَهُمُ   وإنَّ ذاكَ قضاءٌ غيرُ مردودِ

خَصَّكَ اللهُ بالمجدِ دونَ الناسِ كلِّهِمُ ، وإنَّ أمرَ اللهِ ، عزَّ وجلَّ ، لا يُرَدُّ .

٢٦ ـ إليكَ ترنو عيونُ الخلقِ شاخصةً   في مَحْفَلٍ منْ ملوكِ الأرضِ مشهودِ

وإذا كنتَ في مجلسٍ ، يجمَعُ ملوكَ الأرض ، فإنَّ عيونَ الناسِ ، لا تَتَّجهُ إلاّ إليكَ ، ولا تنحازُ عنك ، ويَشْهَدُ الناسُ كلُّهُمْ عزَّكَ ومجدَكَ .

٢٧ ـ بفضلِكَ اعْتَرَفَ الأملاكُ ، ماجَحَدوا   والشمسُ ، ليس تَجَلِّيها بمجحودِ

وبعطائِكَ وفضلِكَ أقَرَّ الملوكُ ، وما نكروا ، والشمسُ ، لا يستطيعُ أحدٌ أنْ ينْكِرَ أو يتجاهلَ أشعَّتَها .

٢٨ ـ أنتَ ابنُ إنسٍ ، ولكنْ لسْتَ مثلَهُمُ   إنَّ العُقارَ تُسَمَّى بنتَ عنقودِ

أنتَ إنسانٌ وابنُ إنسانٍ ، لكنكَ لسْتَ كالناسِ ؛ أنتَ كالخمرِ التي تُستخرجُ منْ عناقيدِ العنبِ ، ولا تكونُ الخمورُ بنفسِ الطعمِ والجَودةِ والأثرِ .

٢٩ ـ خَلَّدْتُ فيكَ ثناءً ، لا امّحاءَ لهُ   كأنني ناقشٌ في متنِ جلمودِ

وقد نظمْتُ في مدحِكَ قصائدَ ، لا مثيلَ لها ، ولا يمحوها الزمنُ ؛ كأنها محفورةٌ في صفحةِ صخرٍ أصمَّ .

☆☆ ٢٧ ـ وقالَ على بحرِ السريعِ في مدحِ عُبيدِ اللهِ :

١ ـ هَيَّجَ أشجاني بتغريدِهِ   قُمْرِيُّ بانٍ فوقَ أُملودِهِ

لقد أثارَ أحزاني بأغانيهِ حَمامٌ واقفٌ على غصنٍ منْ أغصانِ بانةٍ .

٢ ـ مُرَدِّدٌ في الخَلْقِ أغنيةً   يا عجباً منْ حسنِ ترديدِهِ

مُكَرِّرٌ تلك الأغنيةَ حتى يسمعَهَا الناسُ ، ويُغنُّوا معه ، فيا عَجَبي كيفَ يُحْسِنُ التغريدَ بألحانٍ ، يكرِّرُها ، فلا يكون فيها ضعفٌ .

٣ ـ ليسَ يُغَنِّيكَ بألحانِهِ   عاقدُ أوتارٍ على عودِهِ

فهو ليسَ كمغنٍّ ألحاناً ، وضَعَها لهُ عازفٌ على أوتارِ عودِهِ .

٤ ـ سلا منَ الوَجْدِ ، ولكنهُ   أشبهَ نَوحاً رَجْعُ تغريدِهِ

يصوغُ أنغامَهُ لينسَى قليلاً منْ شوقِهِ وحنينِهِ ، فيأتي صداها المتلاحقُ شبيهاً بصوتِ البكاءِ العالي .

٥ ـ إنْ كانَ ذا نَوحاً فَلِمْ كَفُّهُ   مخضوبةٌ ، والطوقُ في جيدِهِ ؟

فإنْ كانَتْ تلك الأنغامُ تعبيراً عنْ حزنِه العميقِ وبكائِهِ الشديدِ ، فلماذا خَضَّبَ كفَّيهِ ، ووضعَ في رقبتهِ طَوقاً ؟

٦ ـ ذكَّرَني عصراً ، شربتُ الهوى فـي بيضِـهِ صِـرفـاً وفـي سـودِهِ

وذكَّرَني ذلك الحالُ بحالي حينَ كنتُ أشربُ خمرةَ الحبِّ صَافياً في أيّامِهِ البيضِ أيامِ الودِّ والوصالِ وفي أيّامِهِ السودِ أيامِ الفراقِ .

٧ ـ خيـرُ ليـاليـهِ وأيّـامـهِ لا يهتـدي مُحْصٍ لتعـديـدِهِ

وكانَتْ أيّامُهُ ولياليهِ غايةً في الخيرِ والسعادةِ ، لا يستطيعُ منْ يجيدُ الإحصاءَ أنْ يحيطَ بعدَدِها وتصنيفِها .

٨ ـ حينَ الجَنَى حُلْوٌ ، وغصنُ الصِّبا ريّانُ ، يجـري المـاءُ فـي عـودِهِ

وكانَ قطافُ الهوى حُلْواً وفَرْعُ الشباب ريّانَ ، يجري ماءُ الحياةِ في أوصالِهِ .

٩ ـ وأنـتَ فـي سِـرْبٍ ، يُعـاطيكَ مـا تَقْتَـرِحُ الآنِـسُ مـنْ غيـدِهِ

وكنتَ في جماعةٍ ، تُناوِلُكَ ما تراهُ ، وتختارُهُ ذاتُ النفسِ الطَّيِّبةِ منَ النساءِ اللواتي غَنِينَ بحسنهِنَّ عنِ الزينةِ .

١٠ ـ مُسْـدِلُ فَـرْعٍ كـالعنـاقيـدِ فـي سمـكٍ فسيـحِ الظِّـلِّ ممـدودِهِ

وقد أرخيتَ شعرَكَ الذي زَيَّنْتَهُ بأشكالٍ كعناقيدِ العنبِ على صفحةِ وجهِكَ ، فكانَ لهُ ظلٌّ واسِعٌ طويلٌ .

١١ ـ يُحْـدِثُ سُكـرَيـنِ إذا مـا سقـى خَمْـرَيـنِ مـنْ فِيـهِ ونـاجـودِهِ

وإذا ما قَدَّمَ لكَ الشرابَ كانَ سكرُهُ مِنْ خَمْرَينِ ، الأولُ منْ رُضابِهِ ، والثاني مِن كأسِهِ .

١٢ ـ كـأنمـا ريقتُـهُ خَمْـرَةٌ قـد عصـروهـا مـنْ عنـاقيـدِهِ

وكأنَّ خمرَ رضابهِ سُلافاً قبلَ عصيرِ عناقيدِ العنبِ بل خَلَفاً بعدَ عصيرِها .

١٣ ـ الغصـنُ مـنْ حُسّـادِ تَمْيِيلـهِ والـوردُ مـنْ أعـداءِ تـوريـدِهِ

فأصبحَ الغصنُ ، يميلُ يَمْنَةً ويَسْرَةً حَسَداً مِنْ لُيونةِ قدِّهِ ، والوَرْدُ أكثرَ حُمْرَةً غِيرةً منْ لونِ خَدَّيهِ .

١٤ ـ ليسَ لـه فـي الحسـنِ مِثْلٌ ولا مثـلَ عُبَيـدِ اللهِ فـي جـودِهِ

فهو في الحسنِ والجمالِ فردٌ ، لا شبيهَ لهُ كما لا شبيهَ لِعُبيدِ اللهِ في السخاءِ والكرمِ .

١٥ ـ مـا سَرَعـانُ الـريـحِ فـي عصفِـهِ أسـرعَ مِـنْ إنجـازِ مـوعـودِهِ

وليستْ سُرْعةُ الريحِ في هبوبِهِ الشديدِ بأسرعَ منْ تحقيقِ وعودِهِ .

١٦ ـ يُبَدِّدُ المالَ سَماحاً بِهِ فَيَنْظِمُ المجدَ بتبديدِهِ

يُفَرِّقُ المالَ سخاءً منهُ ، فَينشِدُ الشعراءُ قصائدَهُمْ في مدحِهِ وتصويرِ أمجادِهِ في توزيعِ أموالِهِ .

١٧ ـ مستقصياً جُهْداً ، ومَجْدُ الفتى أحقُّ باستِقصاءِ مجهودِهِ

التي يبالغُ في جِدِّهِ للوصولِ إلى أبعدِ الغاياتِ لأنَّ المرءَ الكريمَ أجدَرُ بنيلِ المكافأةِ على ما بذلَ منْ جِدٍّ وتَعَبٍ .

١٨ ـ لذاكَ لا تَلْقَى امرأً ماجداً إلاّ سريعاً نحوَ تمجيدِهِ

لذلكَ كلِّهِ لا تَجِدُ فتىً شريفاً إلا أسْرعَ الناسُ ، وتتابعوا إلى تعظيمِهِ .

١٩ ـ يُثني عليهِ الطيرُ في جَوِّهِ مُدَوِّماً والوحشُ في بيدِهِ

يَحْمَدُهُ الطيرُ ، وهو مُحَلِّقٌ في الهواءِ . ويذكرُهُ الوحشُ في فيافيهِ .

٢٠ ـ مَنْ سادَ بالتسويدِ فهو الذي سُودَدُهُ مِنْ قبلِ تسويدِهُ

فالسَيِّدُ الشريفُ ، هو الذي كان شريفاً قبلَ أنْ يدعُوَ الناسُ بعضهَمْ ليَكونَ سَيِّداً لهمْ .

٢١ ـ وِزارةٌ ناطوا بهِ أمرَها عهدٌ هو الأهلُ لتجديدِهِ

وقد أولَوهُ تصريفَ أمرِ الوزارةِ بَعْهدٍ ، هو جديرٌ بأنْ يُجَدِّدوهُ لهُ .

٢٢ ـ لَمّا رَأَوا كلَّ أخي سُؤدُدٍ سواهُ لم يصلُحْ لتقليدِهِ

وكلَّما صادفوا رجلاً ذا مجدٍ وعِزَّةٍ وجدوهُ بعدَ فترةٍ وجيزةٍ ، ليسَ أهلاً لمشابَهتِهِ لأنهُ لا يقومُ بأعمالِهِ التي خُصَّ بها .

٢٣ ـ وكانَ أولاهمْ بِتدبيرِهِ رَمَوا إليهِ بمقاليدِهِ

وكانَ أفضلَ الناسِ بحسنِ إدارتِهِ وسياستِهِ ، فتجَرَّؤوا عليهِ ، وألقَوا على عاتِقِهِ أمورَ الدولةِ ليَسوسَها .

٢٤ ـ تَطَلَّبوا تَشْييدَ بنيانِهِ ولَنْ يَنالوا مثلَ تَشييدِهِ

وراموا أنْ يَجْعَلَ إمارَتَهُ عامرةً بالبناءِ القويِّ وبالزينةِ الجميلةِ وبالعزِّ والشرفِ لأنهم علموا حقَّ العلمِ أنهمْ ، لم ولن ينالوا عزًّا ومَجْداً مثلَ عِزِّهِ وشرفِهِ .

٢٥ ـ مُحَنَّكٌ ليسَ لمحلولِهِ عقدٌ ولا حَلٌّ لمعقودِهِ

فهو مجرِّبٌ ومُجَرَّبٌ إذْ لا رادَّ لأمرٍ ، وجدَهُ حلاًّ لِمُعْضِلةٍ ولا ناقِضَ لِميثاقٍ وعهدٍ ،

وضَعَهُ بينَ طرفَينِ مُتصالحَينِ .

٢٦ ـ أيَّدَهُ اللهُ ، وأعلاهُمُ   مَنْ خَصَّهُ اللهُ بتأييدِهِ

وقد قوّاهُ اللهُ تعالى ، وجَعَلَ مكانتَهُ ، هي العليا ، وإنَّ أشرفَ الرجالِ مَنْ فَضَّلَهُ اللهُ تعالى على الناسِ بقوتِهِ وحكمتِهِ .

٢٧ ـ فهو عريضُ الجاهِ ، يحتالُ في   إعانَةِ الحقِّ وتسديدِهِ

فهو عظيمٌ بقدرِهِ ومنزلتِهِ ، يُقَلِّبُ أفكارَهُ لمُساعدَةِ الحقِّ والعدلِ وأصحابِهِ وتصويبِهِ .

٢٨ ـ شَهِدْتُ مِنْ أهلِ خُراسانَ ما   ليسَ يوازي بعضَ مشهودِهِ

ولقد رأيتُ منْ أهلِ خراسانَ أموراً ، لا تساوي قَدْراً مما قد رآهُ ، وعاناهُ وقامَ بهِ .

٢٩ ـ طودُهُمُ أخفضُ مِنْ تلِّهِ   وتَلُّهُمْ في خفضِ أخدودِهِ

وبحكمتِهِ وحِلْمِهِ استطاعَ أنْ يُمْسِكَ زمامَ أمورِهِمْ ، ويُرِيَهُمْ أنَّ قوَّتَهُمُ التي طاولَتِ الجبلَ العظيمَ أضعفُ منْ كثيبِهِ ، وكثيبَهُمُ الذي يرونَهُ عالياً في عمقِ خَنْدَقِهِ .

٣٠ ـ مُنَقِّحٌ إنْ نَقَدَ الشعرَ ، لم   يَهْتَدِ نَقّادٌ لمنقودِهِ

وهو ذو طبيعةٌ ، تُمَيِّزُ الغَثَّ منَ السمينِ ؛ إنْ سَمِعَ شعراً ، فيهِ ضَعْفٌ ، يُشَذِّبْهُ قبلَ أن يهتَدِيَ أحدٌ إلى ضعفِهِ أو إلى إصلاحِهِ .

٣١ ~~٣٢~~ ـ ناظمُ شعرٍ يتباهى بهِ   تباهيَ السَّرْدِ بداوودِهِ

وإنْ أرادَ أنْ ينظمَ شعراً كانَ شعرُهُ، يتفاخَرُ بهِ تفاخُرَ الدرعِ بساردِهِ داوودَ، عليهِ السلامُ.

٣٢ ~~٣٣~~ ـ وكلُّ ذي فضلٍ لهُ عندَهُ   عطفُ أبٍ بَرٍّ بمولودِهِ

وما بلغَ أحدٌ غايةً في جانبٍ منْ جوانبِ الحياةِ إلاّ كانَ معترِفاً بعطفِ وفضلِ عُبيدِ اللهِ الذي يعتبرُهُ ربًّا رؤوفاً بهِ مرشداً إياهُ .

☆☆ ٢٨ ـ وقالَ على بحرِ الرجزِ في المدحِ :

١ ـ إنَّ أبا الفضلِ اكتسى   بفضلِهِ ومجدِهِ

لقد لبسَ أبو الفضلِ بعزِّهِ ومكارمِهِ .

٢ ـ مَلْبَسَ فَخْرٍ سابغاً   يَسْحَبُ فَضْلَ بُرْدِهِ

لباسَ الافتخارِ العظيمِ والبُرْدَ الواسعَ الطويلَ الذي يجرُّ ذيلَهُ على الأرضِ فخراً بما نالَ منْ مكانةٍ عزيزةٍ .

٣ ـ فتًى سعيدٌ يَسْتفيدُ   المُشتري مِنْ سعدِهِ

فكانَتْ سعادتُهُ حديثَ أهلِ الأرضِ والسماءِ لأنه ، أشركَهُمْ وهنَّأهُمْ بسعادتِهِ وأعطياتِهِ ، وها هو المشتري أحدُ سياراتِ السماءِ ، يَشيدُ بما استفادَ منهُ .

٤ ـ مُـــوَفَّـــقٌ فـــي الخيـــر بَـ ـــــــذّالٌ لأقصـــــى جُهْـــــدِهِ

وقد وفَّقَهُ اللهُ إلى عملِ الخيرِ لأنهُ ، يجودُ بعطائِهِ إلى أبعدِ غايةِ الجودِ .

٥ ـ ليـــسَ بثـــانـــي جيـــدِهِ مُصَعِّـــــــرٍ لِخَـــــــدِّهِ

ولم يَتكَبَّرْ على أحدٍ يوماً ، فيُميلَ رقبتَهُ أو يرفَعَ خَدَّهُ تيهاً .

٦ ـ كـــلُّ كـــريـــمٍ فـــاضـــلٍ مُقْتَـــدِحٌ بِـــزَنْـــدِهِ

وكلُّ رجلٍ شريفٍ عزيزٍ ماجدٍ نِتاجُ تعليمِهِ وتدريبِهِ .

٧ ـ يـــا ربِّ وفِّقْنـــي لِبَعْـ ـــضِ شُكْـــرِهِ وحمـــدِهِ

وكنتُ واحداً منْ صُنّاعِهِ ، وإني أدعوكَ يا ربِّ أنْ تُلْهِمَني جزءاً منْ شكرِهِ وحمدِهِ اللائقِ بهِ .

☆☆ ٢٩ ـ وقالَ على بحرِ الرملِ في المدحِ والتهنئةِ بحلولِ عيدِ الفطرِ :

١ ـ ثقـــةُ الملـــكِ لِـــرُكْـــنِ الـــدْ ديـــنِ والـــدنيـــا مُـــؤَيَّـــدْ

لقد قَوّى اللهُ ، عزَّ ، وجلَّ ، ثقةَ الملكِ ليقومَ بالعباداتِ التي نَصَّ عليها الدينُ وبأعباءِ الرعيةِ ، فَيُثيبَهُ اللهُ تعالى أحسنَ الثوابِ .

٢ ـ ســـادَ بعـــضُ النـــاسِ بعضـــاً وهـــــو للســـــادةِ سَيِّـــــدْ

وعلا الناسُ بعضُهُمْ على بعضٍ ، أمّا هو ، فقد علا الأسيادَ كلَّهُمْ .

٣ ـ سَيِّـــدٌ شَيَّـــدَ بُنْيـــا نَ العُـــلاَ ، فهـــو مُشَيِّـــدْ

وكانَ سَيِّداً بَنَى أصولَ العزِّ ، فَسُمِّي البَنّاءَ .

٤ ـ مـــا تعـــاطـــى القَصَـــبَ الأضْـ ـعَـــفَ إلاّ وهـــو أيِّـــدْ

ما اتَّخذَ القضيبَ الأضعفَ ، وهو القلمُ ، إلاّ وهو القويُّ منَ الرجالِ العلماءِ أو الأدباءِ .

٥ ـ مُمْتَطـــي خمـــسٍ لِشُـــرّا دِ المعـــانـــي مُتَصَيِّـــدْ

فحينَ يُمْسِكُ قلمَهُ بأصابعِهِ الخمسةِ يستطيعُ أنْ ينظمَ قصائدَ بعيدةَ المعاني بديعةَ الألفاظِ ، تنتشرُ في البلادِ ، فيردِّدُها القاصي والداني إعجاباً بها .

٦ ـ مُطْلِـــقٌ لليَـــدِ بـــالإحسـ ـــانِ للـــرِّجْـــلِ مُقَيِّـــدْ

فإذا أعطى فإنه يَبْسُطُ يدَهُ مُحْسناً ، وإذا أمسَكَ فإنهُ ، يجعَلُ أرجلَ الناسِ ثابتةً ، كأنها مربوطةٌ بالقيودِ .

٧ ـ أنــــا فــــي قــــولــــيَ هــــذا قــــاصــــدٌ لا مُتَــــزَيِّــــدْ

وإني في مدحي إياكَ بهذا الكلامِ ملتزِمٌ بما يَليقُ بقدرِكَ غيرُ متجاوزٍ حَدَّ المدحِ الجديرِ بكَ لئلا يكونَ فيه مَنْقَصَةٌ .

٨ ـ ثقــــةَ الملــــكِ أتــــاكَ الــ ـعيــــدُ مَسْعــــوداً فَعَيِّــــدْ

فيا ثقةَ الملكِ لقد حلَّ عيدُ الفطرِ مُهَنَّأً بكَ ، فاسْعَدْ بهِ ، واقْبَلْ تهنئةَ أفرادِ الرعيةِ بحلولِهِ عليكَ ، وأنتَ في غايةِ السعادةِ .

٩ ـ أَجْــــوَدُ الأشيــــاءِ هــــذا الصْــ ــصَــــومُ والإفطــــارُ جَيِّــــدْ

وإنَّ أحْسنَ الأمورِ التي مَرَّتْ بنا صومُنا ثم إفطارُنا بعدَهُ .

* * *

حرف الذال / ٥/ أبياتٍ

☆☆ ١ ـ وقالَ على بحرِ المتقاربِ في النصحِ :

١ ـ أيا ملكاً نافذاً حكمُهُ لِحُكْمِ الليالي تَوَقَّعْ نفاذا

يا أيُّها الملكُ الذي ترى حُكمَكَ نافِذاً ومُحَقَّقاً في رعيتِكَ تَرَبَّصْ حكمَ الدهرِ الذي سَيَنفُذُ ، لا محالةَ ، بكَ .

٢ ـ فكمْ منْ جماهيرَ صِيدِ ملوكٍ طاروا فُضاضاً ، وصاروا جُذاذا

فكم منْ ملوكٍ مُتكَبِّرينَ ، تحوَّلَ سلطانُ الزمانِ عنهمْ ، ودالَ عليهمْ ، وتلاشَى حكمُهُمْ ، وأصبحوا أجزاءً متفرقةً ؛ لا حولَ لها ، ولا قوةَ .

٣ ـ وهَبْكَ اسْتَوَيتَ على الخافقَينِ وأحرزْتَ هذا وهذا فماذا ؟

واحسُبْ نفسَكَ قد حكمْتَ الأرضَ كلَّها شرقَها وغربَها ، ونِلْتَ ملكَ هذا وذاكَ فماذا تريدُ بعدَ ذلكَ كلِّهِ ؟

☆☆ ٢ ـ وقالَ على بحرِ السريعِ في المدحِ :

١ ـ أفاضلُ الدنيا وإنْ أَفْلَقُوا لم يبلُغوا غايةَ أُستاذِها

إنَّ أعلامَ الناسِ ، وإنْ أبدعوا في مآثِرِهِمْ ، فإنهم لم يصلوا إلى نهايةِ ما وصلَ إليهِ أستاذُهمْ ومُعَلِّمُهُمْ .

٢ ـ أما ترى أمصارَها جَمَّةً ولا تَرى مصراً كبَغْدادِها ؟

ألا ترى بلادَ الدنيا كثيرةً ، ولا تجدُ بلداً كمدينةِ السلامِ بغداذِها ؟

حرف الراء / ٩٠٨/ بيتٍ

☆☆ ١ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ :

١ ـ جَفَتْ عَذبَةَ الأمواهِ طَيِّبَةَ الثرى ... بِطَيْبَةَ يومَ اسْتَخْبَرَتْ أهلَ خَيْبَرا

تركَتْ تلكَ الغادةُ المدينةَ المُنَوَّرةَ الأرضَ ذاتَ الينابيعِ العذبةِ بعدَ نضوبِها والترابَ الخِصْبَ بعدَ جَفافِهِ بعدَ أنْ سألَتْ أهلَ خيبرَ عنِ المكانِ الذي يكثُرُ فيه نزولُ المطرِ ، فيرتوي بهِ البشرُ والأرضُ والحيوانُ .

٢ ـ فَخَبَّرها رُوّادُهُمْ بمساقطٍ ... منَ الغيثِ حُوٍّ أزَّرَتْ وادي القُرَى

وأجابَها الذينَ يعلَمونَ أمكنةَ الماءِ ومساقطَ المطرِ المشهورةَ بنباتِها الأخضرِ والأحمرِ المشوبِ بالسوادِ التي غَطَّاها ، وأحاطَ بهِ ماءُ مطرِ القُرى الممتدَّةِ بينَ المدينةِ المنورةِ وأرضِ الشامِ .

٣ ـ فقالَتْ لحادٍ أحْوَذيٍّ : أهِبْ بها ... تُلاعبُ حوذاناً هناكَ وإذْخِرا

فقالَتْ لسائقِ إبلٍ حاذقٍ : ازْجُرْ جِمالكَ سوقاً ، تُداعبُ به الأزهارَ الجميلةَ والنباتَ طَيِّبَ الرائحةِ .

٤ ـ وتَيَمَّمَها مِنْ حِصْنِ تَيماءَ منزلٌ ... حبيبٌ إلى النُّزَّالِ يا لكَ مَعْمَرا

وكان قد تعلَّقَ قلبُها بحبيبٍ في منزلٍ بِحِصْنِ تَيماءَ ، يَتَرَدَّدُ عليهِ المسافرونَ ، ويَدْعُونَ له بالعمرانِ .

٥ ـ إلى شَطِّ بابِ الشامِ يَشْخَصُ طرفُها ... لِتَسْرَحَ فَيناناً منَ العيشِ أخضرَا

وظَلَّ بَصَرُها ، يَتَّجِهُ إلى جانبِ بابِ الشامِ ، وهي تأمُلُ أنْ تمتطيَ جواداً حسناً ذا شعرٍ طويلٍ وأنْ تَحْيَا حياةً سعيدةً .

٦ ـ شَآميَّةٌ ما المصطفى غيرُ شامِها ... مَعاناً لِحَيِّها ولا مُتَدَيَّرا

فهي شآميَّةُ الهوى ، لا تختارُ منزلاً لأهلِها ولا داراً إلاّ بأرضِ الشامِ .

٧ ـ ولا ترتضي غيرَ العَقيقِ وحاجرٍ ... لإظعانِها مَبْدًى ولا مُتَحَضَّرا

ولا يُرْضيها السفرُ والإبتِعادُ عن دارِها والإتِّجاهُ نحوَ الباديةِ أو المدينةِ إلاّ إذا كانَ إلى العقيقِ والحاجرِ بينَ مكةَ المكرمةِ والمدينةِ المنورةِ .

٨ ـ إذا خَفَقَتْ منْ نحوِ بُصرى لها الصَّبا   بـأذكـى مـنَ الـداريِّ ريحـاً وأعطـرا

فإذا اهتزَّ هواءُ الصَّبا ، واتَّجَهَ نحوَ بُصرى حاملاً معهُ روائحَ مسكِ دارينَ المحمولِ مِنَ الهندِ إلى البحرينِ المنعشةَ .

٩ ـ تنشَّتْهُ ، فـاقْلَـولَـتْ على تُكَّـاتِهـا   مُصَفِّقَـةً بـالـراحتَيـنِ تَبَشُّـرا

تَنَفَّسَتْهُ المَرَّةَ بعدَ المَرَّةِ ، وتَقَلَّبَتْ على وِساداتِها ، وصفَّقَتْ براحتَيها مستبشِرَةً فرحةً .

١٠ ـ وقالَتْ لِتِرْبَيها : الترابُ بفيكما   لئـنْ لـم تَشيمـا بـرقَ بُصـرى وتـدمُرا

وقالَتْ لصاحِبَتَيْها اللتينِ في سِنِّها : أماتَكما اللهُ ، ودُفِنْتُما ، أوصارَ طعامُكما الترابَ ، إنْ لم توجِّها نظرَيكُما نحو بُصرى وتدمرَ .

١١ ـ ولـم تُـزْهِـرا نـارَ الصبـابـةِ كلَّمـا   بـدا قبـسٌ بـالقُـدْسِ يُـزْهِـرُ نَيِّـرا

ولم تَطْرَبا بنارِ الشوقِ والحنينِ كلما ظهرَتْ شُعْلَةٌ منْ نارِ القدسِ الشريفِ ، تتلألأُ بِنورِها وتضيءُ ما حولَها .

١٢ ـ تنـورُ ، تَمـاهُ مـنْ مسيـرةِ أربـعٍ   لِكُـدْرِ القطـا يـا بعـدَهُ مُتَنَـوِّرا

تُضيءُ ، بل يَشِعُّ ضوؤُها منْ مسافةِ أربعِ ليالٍ ، فَيَسْتَنيرُ طيرُ القطا بنورِهِ على بعدِهِ عنها .

١٣ ـ وما ذاكَ ناراً ، ذاكَ نورٌ منَ الهدى   وَرَى زَنْـدُهُ حتـى استضـاءَ بـه الـوَرَى

وليسَ ما رأتْهُ الغيدُ والقطا ضوءَ نارٍ ، وإنما هو نورٌ منَ الإيمانِ ، أضاءَ ما حولَهُ حتى اطمأنَّتْ به قلوبُ الناسِ ، وآمنوا باللهِ تعالى .

١٤ ـ فيـا بقعـةً فيـاضـةً بـركـاتُهـا   علـى كـلِّ مـاشٍ مُنْجِـداً أو مُغَـوِّرا

فما أحلى وأعذبَ هذه الأرضَ التي تتزايَدُ بَرَكاتُها على كلِّ سائرٍ فيها ، يريدُ الذهابَ إلى نجدٍ أو غارٍ .

١٥ ـ كِفـاتُ هُـداةِ اللهِ بـاشَـرَ حيَّهُـمْ   ومَيْتُهُـمْ ذاكَ التـرابَ المُطَهَّـرا

والتي تجمَعُ عبادَ اللهِ المؤمنينَ الذينَ عاشوا على أرضِها ، وماتوا ، فدُفِنوا تحتَ ترابِها الطاهِرِ منْ كل دنَسٍ .

١٦ ـ مبـاركـةٌ خُطَّـتْ مضـاجِعُهُـمْ بهـا   فيـا حبَّـذا تلـك المضـاجـعُ والثَّـرَى !

وإنها لأرضٌ ، باركَها اللهُ تعالى ، فكانَتْ خيرَ أرضٍ لراحةِ أجسادِهِمْ قياماً وقعوداً ونوماً ، فما أحسنَ تلكَ الأماكنَ وذاكَ الترابَ !

١٧ ـ أيا منبتَ الزيتونِ لا زلْتَ مُخْصَباً   ولا زالَ كـالـدُّرِّيِّ زيتُـكَ أزهـرا

فيا أرضَ ثمرِ الزيتونِ أدعو اللهَ تعالى أنْ يديمَ خصبَكِ ، فيأكلَهُ الناسُ أديماً ، ويستنيرَ بضوءِ زيتِكِ المتلألئِ تلألؤَ النجومِ في السماءِ .

١٨ ـ ﴿يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞ﴾ كأنهُ   حيـاءُ كـريـمٍ فـي أسِـرَّتِـهِ جـرى

[النور/ ٣٥] يُنَوِّرُ المكانَ الذي يوضعُ فيه دونَ أنْ تَقْرَبَهُ نارٌ أو تمسَّهُ ، وكأنهُ ماءُ وجهِ رجلٍ شريفٍ ، رأى شيئاً غريباً مَعيباً ، أخجلَهُ .

١٩ ـ حياءُ كـريـمِ العنصـرَيـنِ سُميـدَعٍ   وهـاتيـكَ أوصـافُ الظهيـرِ كمـا تَـرَى

فحياؤُهُ حياءُ رجلٍ كريمِ النسبِ والفعلِ ، وتلكَ نُعوتُ الفتى الذي رأيتَهُ .

٢٠ ـ إلى شَرَفِ الدينِ المعالي تَنَسَّبَتْ   فَنَصَّـتْ مِـنَ الأنسـابِ مـا ليـسَ أبتـرا

وجعلَتِ الأمجادُ ، تربُطُ أنسابَها بشرفِ الدينِ ، وأسنَدَتْ إليها منَ الأنسابِ ما ليسَ مقطوعاً .

٢١ ـ ولو لم يكنْ ذاكَ التَّنَسُّبُ لم يَجدْ   لهـا نـاسـبٌ حتـى القيـامـةِ عُنْصـرا

ولو لم يكُنْ لتلكَ الأمجادِ صلةٌ ، تربُطُ نسبَها بهِ ، لبقيَتْ إلى يومِ القيامةِ دونَ أصلٍ وحَسَبٍ .

٢٢ ـ مِنَ النَّفَرِ الشُّمِّ الأُلي وَطِئوا بمنْ   تَحَفَّـوا بـه دَسْتـاً رفيعـاً ومِنْبَـرا

فهو منَ الجماعةِ الكرامِ الذينَ يأنفونَ منَ الشَّرِّ والسوءِ والذينَ فخروا بأصلِهِمْ ، ومشَوا طائفينَ بهِ ، ثم أقاموا لهم مكاناً عالياً ، يعيشون به ، ومِنْبَراً ، يخطبونَ منْ فوقِهِ .

٢٣ ـ ومَـنْ قـد تَخَطَّتْـهُ حفـاوَتُهُـمْ بـهِ   تَبَـرَّضَ مثمـوداً مـنَ العيـشِ أكـدرا

وأمّا الذي تجاوَزَهُ إكرامُهُمْ فقد كانَ لهُ مِنَ العيشِ الهنيءِ نصيبٌ قليلٌ ، يَتَبَلَّغُ بهِ ، ومنَ الشقاءِ قَدْرٌ كبيرٌ .

٢٤ ـ ظُبَى البيضِ فيهمْ أوشبا السُّمْرِ لم تَزَلْ   تخِـرُّ لِمُسْـوَدِّ الخيـاشيـمِ أصفـرا

وما زالَتْ أسِنَّةُ السيوفِ والرماحِ ، تسقطُ صاغرةً للقلَمِ الأصفرِ الذي اسوَدَّتْ مجاريهِ بلونِ الحبرِ الأسودِ .

٢٥ ـ إلى الخَطِّ يُعْزَى لا إلى الخَطِّ يَعْتَلي   علـى قِصَـرٍ سِبْـطَ الأنـابيـبِ أسمـرا

والذي ينتسِبُ إلى الكتابِ لا إلى مرفإِ البحرَينِ حيثُ تُباعُ الرماحُ والمسكُ ، ويستطيعُ على طولِهِ القصيرِ أنْ يَغْلِبَ الرمحَ الطويلَ ذا النصلِ الأسمرِ .

٢٦ ـ تـرى كـلَّ بسّـامٍ تَطَلَّـقَ وجهُـهُ يُـريـكَ رفيـفَ الأُقحـوانِ مُنَـوِّرا

وتُبصِرُ بِخَطِّهِ كلَّ ممدوحٍ ، قد بَرَقَتْ أساريرُ وجْهِهِ ، ويدعوكَ لترى جمالَ خفقِ أزهارِ الأقحوانِ .

٢٧ ـ ويَعْبَـثُ بـالأرواحِ صِـلُّ بَنـانِـهِ فَيُنْسـي الشتيـمَ ابـنَ اللقـاءِ الغَضَنْفَـرا

ويلهو صوتُ رأسِهِ بالنفوسِ والأرواحِ ، فيَسْلُو بما خَطَّهُ مِنْ بديعِ الكلامِ مَنْ تَجَرَّحَ بمسبّاتِ عَدُوِّهِ الذي يشبهُ الأسدَ القويَّ في ساحةِ الحربِ .

٢٨ ـ وتَرْعَدُ منهُ، وهو في الدَّسْتِ مُحْتَبٍ فـرائِـصُ مِقـدامٍ عـنِ السـاقِ شَمَّـرا

وتضطرِبُ مه جوانبُ شجاعٍ ، اشْتَمَلَ بثوبِهِ ، وشَمَّرَ عنْ ساقَيهِ استعداداً لمواجهةِ العدوِّ .

٢٩ ـ ثـلاثـونَ ألفـاً سُجَّـدٌ لثـلاثـةٍ إذا ركَعَـتْ فـي الـرِّقِّ تَمْشُـقُ أسْطُـرا

وتَخْضَعُ ثلاثونَ ألفاً منَ الجنودِ أو أكثَرُ ، وتَسْجُدُ لثلاثةِ أصابعَ : الوُسْطى والشاهدةِ والإبهامِ ، إذا اتَّجَهَتْ نحو الصحيفةِ لتملأَ أسطرَها .

٣٠ ـ كـانَ عَلِيَّـا ذا الفقـارِ بكفِّـهِ عُلَيَّـا إذا سَـلَّ اليـراعَ مُسَطِّـرا

وكانَ شرفُ الدينِ بقوةِ عَلِيِّ بنِ أبي طالبٍ صاحبِ السيفِ المُسَمَّى ذا الفقارِ وببلاغةِ عُلَيِّ بنِ عيسى ابنِ وهّاسٍ شريفِ مكةَ إذا أمسكَ القلمَ ، يريدُ أنْ يُسَجِّلَ شيئاً منْ أفكارِهِ .

٣١ ـ فلـو أنَّ بعضـاً منـهُ قيسَ بِكُلِّهِـمْ لكـانَ بحكـمِ اللهِ كُـلاًّ مُـوَفَّـرا

ولو أنَّ جزءاً منهُ ، قُورنَ بهم كلِّهمْ ، لكان جامعاً إياهُمْ جمعاً كثيراً واسعاً .

٣٢ ـ مَفارِقُهُمْ لو مَسَّها مِشْطُ رجلِهِ لَـرَجَّلَهـا الكَـفُّ الخضيـبُ وبـالحَـرَى

ولو أنَّ مَفارِقَ شعرِ رؤوسِهِمْ لَمَسَها مِشْطُ قدمِهِ لأَمرَهُ النجمُ المسمَّى الكفَّ الخضيبَ أنْ يكونَ سَرَّاحاً لِشُعورِهِمْ ، بل لكانَ هو الأجدرَ بأنْ يكونَ آمراً .

٣٣ ـ لَمـا رَضِيَـتْ إلاّ الغمـامَ عمـائمـاً وجـاوَزَتِ الجـوزاءَ عِـزًّا ومَفْخَـرا

ولَما قَبِلَتْ عمائمَ لها إلاّ السحابَ ، وسابقتِ الجوزاءَ في بُرْجِها في السماءِ ، فسبَقَتْها ، ولَما كانَ لها ذلكَ العِزُّ وذلك السلطانُ الذي تفخرُ فيهِ .

٣٤ ـ نَهَى شأوُهُ الكُتّابَ أنْ يلحقوا به ومـا بـالُ خُلجـانٍ تُـزاخِـرُ أبحُـرا ؟

وبَلَغَتْ مكانَتُهُ أنْ يتناهَى الكتّابُ عن إدراكِهِمْ غايتَهُ لأنهُ ، لا يَحِقُّ للأنهارِ أنْ تفاخرَ البحورَ بكثرةِ مياهِها وأمواجِها .

٣٥ ـ وهل لِسُكَيتٍ أنْ يجاريَ سابقاً ؟ وهل لابْنِ هندٍ أن يُساجلَ حَيدَرا ؟

وهل يجوزُ أنْ يُسابقَ آخرُ جيادِ السباقِ أنْ يتقدَّمَ لمسابقةِ الفرسِ الأوَّلِ ؟ وهل يستطيعُ معاويةُ بنُ أبي سفيانَ بنُ هندٍ أنْ يُفاخر حيدَرَةَ عليَّ بنَ أبي طالبٍ ؟

٣٦ ـ وما نَهسَةُ السِّنَّورِ فَرْسَةَ ضيغَمٍ يُمَـزِّقُ فـوقَ الـدارِعَيـنِ السِّنَّـورا

وما نهشَةُ الهِرِّ صَيدَةَ أسدٍ ، يستطيعُ أنْ يُقَطِّعَ درعَينِ منْ أشَدِّ الدروعِ .

٣٧ ـ وما أكتَبُ الكتَّابِ مثلَ كُوَيتِبٍ ولا الفحلُ منْ فرسانِ شِعْرٍ شُوَيعِرا

وليسَ الكُويتِبُ مثلَ الكاتبِ المُبْدِعِ ، ولا الرجلُ الذي يَكُدُّ نفسَهُ لنظمِ بعضِ الأبياتِ يُسمى شُوَيعِراً .

٣٨ ـ وما مُتَعاطو الشِّعْرِ إلاّ جماهرٌ وقـد شَـذَّ فيهـمْ مـنْ أجـادَ ، وحَبَّـرا

وليس المهتمونَ بالشِّعْرِ ونظمِهِ إلاّ جماعاتٍ قليلةً ، وقد كانَ المجيدونَ في نظمِهِ وتحسينهِ أفراداً .

٣٩ ـ وليسَ لِجنِّيٍّ ، وفي الجنِّ كثرةٌ أعَـاجيـبُ مـا يـأتيـهِ جِنَّـةُ عَبْقَـرا

ولم يأتِ جِنِّيٌّ واحدٌ منَ الجنِّ كثيري العددِ بأمرٍ غريبٍ ، ولو تقاطرَ عليهِ أهلُ عَبْقَرَ لمساعدتِهِ في ما يريدهُ منَ الإبداعِ .

٤٠ ـ ترى المُدّعينَ الفضلَ جَمًّا عديدُهمْ ومـا زالَ كبـريتـاً أخـو الفضـلِ أحمـرَا

وإنك لَـتَـرَى ، وتَسمَعُ أنَّ مُدَّعي الخيرِ كثيرو العددِ ، وتعلمُ حقَّ العلمِ أنَّ الكبريتَ ذا اللونِ الأحمرِ كلونِ الياقوتِ الأحمرِ أو الذهَبِ .

٤١ ـ وعالِمُ أسرارِ الصناعةِ أوحدُ الـ ـبَـريَّـةِ والصُّنّـاعُ فـي عَـدَدِ البَـرَى

وتعلَمُ أنَّ الخبيرَ بصنعةِ أيِّ شيءٍ فريدٌ في الناسِ وأنَّ عمّالَها كثيرٌ عددُهم كَعَدَدِ ذراتِ التراب .

٤٢ ـ وزُفَّـتْ إلـيَّ ومـا كُنْـتُ كُفْـأهـا هَـدِيٌّ تُبـاهـي بنـتَ كسـرى وقَيصـرا

وأُهدِيَتْ إليَّ عَروسٌ ، ما كُنْتُ جديراً بها لأنها ، تفاخِرُ بناتِ ملوكِ الفرسِ والرومِ بحسنِها وجمالِها .

٤٣ ـ خريدةُ شِعْرٍ جاءَها الدهرُ جاعلاً مِنَصَّتهـا الشِّعْـرى ، وكـانَ مُقَصِّـراً

فهي لؤلؤةٌ ، لم تُثْقَبْ ، تحتاجُ إلى شعرٍ بديعٍ ، يصفُها ، وقد جعلَ الدهرُ مكانتَها في برجِ الجوزاءِ مع الكواكبِ الثلاثةِ : الشِّعْرى العبورِ والشِّعرى الغُمَيصاءِ وسهيلٍ .

٤٤ ـ تَحَيَّرْتُ في حَذّاءَ لو قرعوا بها صِماخَ امرئِ القيسِ بنِ حُجْرٍ تَحَيَّرا

فأردْتُ أنْ أنظمَ قصيدةً مُنَقَّحَةً سَيّارةً تليقُ بهاديها وبها ، وتوقَّفْتُ برهةً تَخَوُّفاً منْ ألاّ أفوزَ بمُرادي حتى هداني اللهُ تعالى إلى نظمِ هذه الأبياتِ التي أرجو ألاّ يعيبَها شيءٌ ، ولو سَمِعَها امرؤ القيسِ بنُ حُجْرٍ ، لعجزَ عنِ الإتيانِ بمثلِها .

٤٥ ـ أبوها ظهيرُ الملكِ أقبلَ صاهراً قلوبَ عِدا فضلي عَشِيَّةَ أصهرا

فأبو هذهِ العروسِ ظهيرُ المُلْكِ الذي أذابَ قلوبَ أعداءِ قَدْري يومَ جعلني صِهراً ونسيباً إليه .

٤٦ ـ فَبابنِ أرَسْلانَ اقْتَدَى وبِصِنْوِهِ عُلِيٍّ بنِ عيسى إذا جلا وأكبرا

وقد جعلَ أسوَتَهُ ابنَ أرْسَلانَ وأخاهُ عُلَيَّ بنَ عيسى حينَ زَفَّ ابنَتَهُ عروساً ، وقَدَّرَ قيمةَ صهرِهِ ، وبَجَّلَهُ .

٤٧ ـ وأنشأَ فيَّ المُصْعَبانِ كلاهما شواردَ مِنْ غُرِّ القوافي ، وسَيَّرا

وعلَّمَني المُصْعبانِ : مُصْعبُ بنُ الزبيرِ وأخوهُ عبدُ اللهِ بنُ الزبير كلاهما فنونَ الشعرِ والإبداعَ فيها وطرقَ انتشارِها في البلادِ ، ودَرَّباني على ذلكَ حتى صارتْ قصائدي معروفةً في أقاصي أقطارِ الدنيا .

٤٨ ـ فَبَجَّلَ جارَ اللهِ تبجيلَ مثلِهِ وحجَّلَ بالأرضاحِ منهُ ، وغَرَّرا

فعظَّمَ ظهيرُ الملكِ جارَ اللهِ الزمخشريَّ تعظيمَ شبيهِهِ ، وأقامَ لهُ قبةً مَبْنِيَّةً منْ أحسَنِ الحجارةِ ، حتى يَسيرَ تحتَها مُختالاً .

٤٩ ـ وَحَلَّى بيعسوبٍ منَ المجدِ وجهَهُ بهِ صارَ يَعْسوباً ، وكانَ مُؤَخَّراً

وزَيَّنَ وجهَهُ بِغُصْنٍ منْ سَعَفِ النخلِ تمجيداً له ، فصارَ بهِ رئيساً ، وكانَ قبلَ ذلكَ بعيداً عنْ مكانةِ الرئاسةِ .

٥٠ ـ وعلَّمَ أنشاءَ الزمانِ نصيحةً لهمْ كيفَ توقيرُ الشيوخِ مُوقَّرا ؟

وقدمَ لأبناءِ الزمانِ نصيحةً ، تبيِّنُ لهمْ كيفَ تبْجيلُ كبارِ السنِّ وتوقيرُهُمْ ؟

٥١ ـ وهَزَّ بِبِكْرٍ عَطَّفْتَني بسؤدُدٍ زَمَخْتُ بأنفي منهُ عِطْفَي زمخشرا

ومدحتُهُ بقصيدةٍ جديدةِ المعاني جديدةِ الألفاظِ ، لم تُقْتَبَسْ منْ غيرِها ، جعلَتْهُ ، يَهُزُّ كَتِفَيهِ طرباً وتيهاً ، ويُقَرِّبُني منهُ بعزٍّ ، طاوَلْتُ بهِ جانِبَي زمخشرا العظيمَينِ .

٥٢ ـ فها هي، والتَّحْزيبُ طافَ بأرضِها فَصَيَّرها تيهاً تَتِيهُ على القُرى

فإليكَ هي ، فاقرأْها ، وانظرْ ما حَولَكَ ، تَرَ الناسَ صاروا طوائفَ في إظهارِ ما أبْدَعْتُ في نظمِها ، وتَرَ زَمَخْشرَ ، تفاخرُ البلادَ بأني وليدُها .

٥٣ ـ أُصَعِّدُ أنفاسي ، أقولُ لأَعْصُرٍ مَضَتْ قبلَ هذا العصرِ : أَفديكِ أعْصُرا

وأتَنَفَّسُ الصُّعداءُ ، ثم أقولُ لأزمانٍ مضَتْ قبلَ عصرِنا هذا : أفديكِ يا أعصرُ بنفسي .

٥٤ ـ فهل أنتِ يا خيرَ العصورِ رَواجِعٌ لِتَـرْجِـعَ رِمَّـاتُ المكـارِمِ نُشَّـرا ؟

هل سترجِعُ أيامُكِ يا أفضَلَ العصورِ ، فَتُبْعَثَ العظَامُ الباليةُ ، فَتَحْيا ، وتنتَشِرَ في الأرضِ ؟

٥٥ ـ كَسَوتِ رجالَ الفضلِ أثوابَ سُنْدُسٍ وإسْتَبْـرَقٍ ، يمشـونَ فيهـا تَبَخْتُـرا

لقد مَنَحْتِ رجالَ الفضلِ والعزِّ أكسيةً رقيقةً مُزَيَّنَةً بأحلَى النقوشِ ، مَشَوا فيها مختالينَ تفاخراً .

٥٦ ـ وسَوَّغْتِهِمْ عُذْبَ المَناهِلِ أزارِقاً وسَـوَّمْتِهِـمْ وَحْـفَ المـذانـبِ مُـزْهِـرا

ودرَّبْتِهِمْ فترةً طويلةً حتى لانَتْ سَجِيَّتُهُمْ ، ورقَّتْ ألفاظُهمْ ، وطابَتْ مواردُهمْ ومجالسُهمْ حتى شابَهَتْ زرقةَ السماء ، وكلَّفْتِهِمْ بزراعة نباتاتٍ حول مسايلِ الماءِ حتى يكونَ المكانُ ريّانَ مُزْهِراً .

٥٧ ـ ورَوَّقْتِ للأشياخِ منهمْ سلافةً بِـلا عَكَـرٍ ممـا تُصفّيـهِ عِكْبِـرا

وصَفَّيتِ لكبارِ السنِّ ما تَحَلَّبَ مِنَ العنبِ حتى صَارَ كَعِكْبِرِ النحلِ .

٥٨ ـ مُشَعْشَعَـةً تكسـو وجـوهَ سُقـاتِهـا شُعـاعـاً بـإشـراقِ القلـوبِ مُبَشِّـراً

وَوَزَّعْتِهِ على السُّقاةِ ، فَعَلَتْ وجوهَهُمْ لألأةٌ ، تُبَشِّرُ القلوبَ بحلولِ السعادةِ .

٥٩ ـ ودَيدَنُ هذا العصرِ رفعُ مناسمٍ مُـوَقَّعَـةٍ فـوق الكـواهـلِ والـذُّرا

وعادةُ هذا الزمانِ إعلاءُ أخفافِ البعيرِ المُتْعَبَةِ بالسيرِ فوق الحجارةِ القاسيةِ وفي أعالي الجبالِ .

٦٠ ـ فذو النقصِ لَعَّاقٌ منَ الأرْيِ مُعْقَداً وذو الفضلِ مضَّاغٌ منَ الشَّرْيِ مُمْقِرا

فذو العيوبِ والنقائصِ إذا رأى العَسَلَ الغليظَ يُقْبِلُ عليهِ ، ويَلْحَسُهُ لَحسةً بعدَ لَحْسةً أو يَشْرَبُهُ بالمِلْعَقَةِ لَعْقَةً وراءَ لَعْقةٍ ، وذو الشرفِ والكرمِ يلوكُ الحنظَلَ المُرَّ صابراً .

٦١ ـ أما و رسيمُ الضامراتِ رواقصاً تُـوافـي بِـوَفْـدِ اللهِ مكـةَ ضُمَّـرا

وها قد عادتِ النوقُ هضيمةَ البطونِ بِوَفْدِ اللهِ إلى مكةَ بعدَ أنْ أدَّوا فريضةَ الحجِّ ضامري

الخواصرِ منَ التعبِ ؛ عادتْ هذه النوقُ فرحةً بمَنْ تحملُ متراقصةً ، فتركتْ آثارَ مشيِها المتراقصِ على الرمالِ .

٦٢ ـ مهازيلُ أشباحُ المهازيلِ فوقَها كما تُرْكِبُ النَّبلَ الحَنِيَّ المُوَتَّرا

كانتِ النوقُ دقيقةَ الأجسامِ ، تحملُ فوق ظهورِها أناساً كالأشباحِ لِدِقَّةِ خُصورِهِمْ كما توضَعُ النَّبْلُ فوقَ الأقواسِ المشدودةِ جيّداً بأوتارِها .

٦٣ ـ تَحِنُّ إذا ما صرَّ فوقَ ظهورِها محامِلُ فيها كلُّ أشعثَ أغبرا

تَطْرَبُ بأصواتِ راكبيها ، وقد تَلَبَّدَتْ شعورُهُمْ ، واغْبَرَّتْ ملابسُهُمْ .

٦٤ ـ وما صَليِتْ منْ وَقْدَةِ الحرِّ والصَّدَى وما لَقِيَتْ من وَقْدةِ السَّيْرِ والسُّرَى

وكانَ أفرادُ هذا الوفدِ يَئِنّونَ منْ شدةِ تعبِهِمْ وعنائِهِمْ مِنْ طولِ السيرِ ليلاً ونهاراً ومنْ لَهَبِ الحَرِّ والعطشِ .

٦٥ ـ وبالهَدْيِ يُحْلَى كالهَدِيِّ مُقَلَّداً يقودونَهُ نحوَ المَشاعِرِ مُشْعَرا

وبالأضحيةِ يَبْلُغُ الحاجُّ غايةَ حلاوةِ حجِّهِ كالبَدَنَةِ التي يوضَعُ عليها علامةٌ ، يُعرفُ بها أنها سَتُذْبَحُ أُضحيةً ، وتُساقُ يومَ الذبحِ نحوَ المكانِ المخصَّصِ المعروفِ للذبحِ .

٦٦ ـ لو انَّ نذيراً صكَّ سَمعي بأنني أرى ما أرى إذْ كنتُ طفلاً مُغَمَّرا

لو أنَّ أحداً ، نَبَّهَني ، وطرقَ سمعي ، وأنا صغيرُ السنِّ جاهلٌ ، لم تَعْرِكْني الحياةُ بتجارِبها .

٦٧ ـ لطالَ دعائي أنْ أموتَ مُغَمَّراً وطالَ عِياذي أن أعيشَ مُعَمَّرا

لدَعْوتُ اللهَ طويلاً أنْ أموتَ صغيراً غيرَ ملاقٍ تجاربَ الحياةِ وويلاتِها ، وأكثرْتُ منْ طلبي منه ، عَزَّ ، وجَلَّ ، ألاّ تطولَ بي الحياةُ ، فأرى منْ مصائِبِها وويلاتِها ما أراهُ اليومَ .

٦٨ ـ ولكن شقاءٌ سامَنِيهِ ، وساقني إليهِ قضاءٌ ، كانَ حَتْماً مُقَدَّرا

وإنه لشقاءٌ ، أراد اللهُ تعالى أن يَمْتَحِنَني بهِ ، وساقَ قضاءَهُ المحتومَ المُقَدَّرَ إليَّ ، وكانَ ما كانَ .

٦٩ ـ فيا ربِّ حَوِّلْ نحوَ مكةَ أرحُلي ليدعُوَ جارُ اللهِ ثَمَّ ، ويَجْأرا

فيا ربَّ العالمينَ حَوِّلْ رواحلي تجاهَ مكةَ المكرمةَ ، فأصلَ إليها . فأدعُوَكَ ، وأنا المُسَمَّى جارَ اللهِ ، في رحابِ البيتِ الحرامِ ، وأتَضَرَّعَ إليكَ أنْ تُحَقِّقَ رَجائي ومطلبي .

٧٠ ـ لعلَّكَ ربَّ العَرشِ أنْ ترأبَ الثأيَ وتَشْعَبَ يا جَبّارَ صدعي ، وتجبُرا

وعساكَ يا ربَّ العرشِ العظيمِ أنْ تُصْلِحَ الفسادَ منْ حولي ، وتجمَعَ يا شافيَ كلِّ مريضٍ أشلاءَ كِياني المُتكَسِّرَةَ المُتَفَرِّقَةَ هنا وهناكَ .

٧١ ـ جواري لَدَى عَدْلٍ مُجيرٍ عبادَهُ أحقُّ وأَولى منْ جِواري مُجَوَّرا

وإنَّ قُرْبي منْ بيتِ ربٍّ عادلٍ منقذٍ عبادَهُ منْ كلِّ ظلمٍ أحقُّ لي وأولى منْ قربي منْ أيِّ مُظَلَّمٍ .

☆☆ ٢ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في المدحِ :

١ ـ صَعِدَتْ منابِرَها النجومُ تَكَبُّراً نجمَ الأئِمَّةِ إذْ صَعِدْتَ المِنْبَرا

لَمّا ولاّكَ شرفُ الأئمة منصِبَ الخَطابةِ ، ارتَقَيتَ يا نجمَ الأئمةِ مِنبرَ الخَطابةِ ، وأسرعتِ النجومُ إلى ارتقاءِ مَنابرِها احتفاءً بكِ وتيهاً .

٢ ـ وهَزَزْتَ أعطافَ الخَطابةِ فانْثَنَتْ خُيلاءَ إذْ قُلِّدْتَها وتَبَخْتُرا

ورقَّصْتَ أطرافَ الخَطابةِ ، فخفضَتِ الخَطابةُ رأسَها تواضعاً واعتزازاً لأنها وجدَتْكَ أجدَرَ بها منْ غيرِكَ .

٣ ـ ولاّكَ فيها عهدَهُ ومنابَهُ شرفُ الأئمةِ خيرُ منْ يَطَأُ الثرى

وجعلَكَ حينَ أسندَ إليكَ شرفَ الخَطابةِ نائباً عنه لأنهُ عرفَ حقَّ المعرفةِ أنكَّ خيرُ إنسانٍ يدُبُّ على الأرضِ .

٤ ـ فافْخَرْ بها ، ولْتَفْخَرَنَّ بأنها لكَ بعدَهُ ، وكفى بذلكَ مَفْخَرا

فاسعدْ بها ، وافخرْ بنفسك لأنك ستتولّى الولايةَ ولايةَ المسلمين بَعْدَهُ ، وسبحانَ اللهِ الذي يقلِّبُ الأحوالَ ، فيجعلُ الناسَ في دائرةِ الدولِ .

☆☆ ٣ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الرثاءِ :

١ ـ أيا طالبَ الدنيا ويا تاركَ الأُخْرى ستعلَمُ بعدَ الموتِ أيُّهما أحْرَى

يا محبَّ الحياةِ وطالبَ زُخْرُفِ الدنيا ، ويا أيُّها المنصرِفُ عنِ التفكيرِ بيومِ القيامةِ والحساب ، ستعلَمُ بعدَ ما ترى الناسَ الذينَ يموتونَ أمامَكَ مَنِ الجديرُ بالتفكُّرِ والاهتمامِ : الدنيا أمِ الآخرةُ ؟

٢ ـ ألم يَقْرَعوا بالحقِّ سمعَكَ ؟ قلْ بَلَى وذُكِّرْتَ بالآياتِ لو تنفعُ الذِّكْرَى ؟

ألم تسمَعْ منهمْ قولَ الحقِّ كثيراً ؟ قل بَلَى . أوَلَمْ تُذَكَّرْ بمعجزاتِ اللهِ تعالى ؟ فلم تَنْفَعْكَ الذكرى .

٣ ـ أمَا وقَرَ الطيشَ الذي فيكَ واعظٌ   كـأنَّـكَ فـي أُذُنيـكَ وَقْـرٌ ، ولا وَقْـرَا

أما أسكنَ الدهرُ وأحداثُهُ طيشَكَ ، أمَا بَدّلَ وعظُ الناسِ إيّاكَ الخِفَّةَ التي تسيطرُ عليكَ رزانةً ؟ أم تبدو ، كأنك أصمُّ ، على الرغم منْ أنَّ أذنيكَ سليمتانِ .

٤ ـ أمِـنْ حَجَـرٍ صَلْـدٍ فـؤادُكَ قسـوةً   أمِ اللهُ لـم يُـودِعْـهُ لبًّـا ولا حجْـرا

فهل كانَ قلبُكَ حجراً قاسياً ، لا يتأثَّرُ بشيءٍ ، أمْ إنَّ اللهَ تعالى ، لم يضعْ فيه شيئاً منَ العقل والفِكْرِ .

٥ ـ خَلَعْتَ حِذاراً في مُتابعةِ الهوى   كـأنَّـكَ قـد مهَّـدْتَ فـي خَلْعِـهِ عُـذْرا

لقد نزعْتَ الخوفَ منْ بينِ أضلعِكَ ، وأنت تسامِرُ الهوى ، وكأنَّ مُسايَرَتَكَ الهوى ، كانَتْ سبيلاً في نزعِكَ الخوفَ وتَخَلُّصِكَ منْ تَبِعَةِ انغمارِكَ في آثامِ أهوائكَ .

٦ ـ ولا بدَّ للإنسانِ مِنْ سكرةِ الرَّدَى   ومِنْ ساعةٍ ، لا صحوَ فيها ، ولا سُكْرا

وليس للإنسانِ مُحالٌ منْ هدأةِ الموتِ ومنْ لحظةِ قبضِ روحهِ إذْ لا يجدُ فيها يقظةً تامةً ولا نُعاساً ، يدري بها هولَ عاقبةِ ما قَدَّمَتْ يداهُ ، ويريدُ أنْ يستغفرَ ربَّهُ ، علَّهُ يَتَخَلَّصُ منَ العذابِ الذي فيه والذي ينتظرُهُ .

٧ ـ فذو اللبِّ لم يطعَمِ النومَ جَفنُهُ   ولم يغتمِضْ خوفَ التَّلَقِّي بلا بُشْرى

فصاحبُ العقل ، لا يذوقُ جفنُهُ طعمَ النومِ ، ولا يُطبِقُهُ خوفَ ساعةِ استلامِ كتابِهِ دونَ أنْ يُبَشِّرَهُ أحدٌ بما فيه .

٨ ـ وأيقَنَ أنَّ الموتَ في كلِّ ساعةٍ   طلائعُهُ ، تَسْري ، فقد أخَذَ الحِذْرا

وأدركَ أنَّ الموتَ ، سيأتيهِ في كلِّ لحظةٍ ، سَيُحِسُّ بملامحهِ ، فيفزعُ منهُ ، وَيَتيقَّظُ لهُ ، ويتأهَّبُ قبلَ لقائِهِ بالتوبةِ النصوحِ .

٩ ـ ومـا الـذي يُغني عـنِ المـرءِ عِـزُّهُ   ولـو ملـكَ الـدنيـا إذا دخـلَ القبـرا

وأنهُ لنْ يَفْدِيَهُ مجدُهُ وملكُهُ الواسعُ الدنيا عنْ ضيقِ القبرِ وحسابِ اللهِ فيه وفي الآخرةِ .

١٠ ـ إذا عصمَ الفقرُ الفتى منْ ركوبِهِ   معـاصـيَ مـولاهُ فمـا أحسـنَ الفقـرا

فإذا كانَ الفقرُ ، يمنعُ المرءَ منِ ارْتِكابِهِ معاصيَ اللهِ تعالى فما أفضلَ الفقرَ ، وأفضلْ بهِ .

١١ ـ وإنَّ بنـاتِ الـدهـرِ أعـداءُ أهلِـهِ   فأجهلُ أهلِ الدهرِ مَنْ يأمنُ الدهرا

ولم تكنْ مصائبُ الزمانِ حبيبةَ الناسِ ، بل هي عدُوَّتُهُمْ ، وأبعَدُ الناسِ عنْ علمِ الزمانِ ومصائِبِهِ منْ يَتَّخِذُ الدهرَ صديقاً ، ويعطيهِ عهدَهُ وميثاقَهُ .

١٢ ـ وما هو إلاّ كاشحٌ عمَّ كيدُهُ فلم يَخْتَصِصْ بالكيدِ زيداً ولا عَمْرا

ويكونُ في نهاية أمرِهِ امرأً ، قدِ امتلأَ كيانُهُ عداوةً لكلِّ الناسِ ، لا يخُصُّ بها فلاناً دونَ آخرَ .

١٣ ـ أيا عامرَ القصرِ المُشَيَّدِ رافعاً علالِيَهُ قلْ لي : فمنْ يعمرُ العُمْرا ؟

فيا بانِيَ القصرِ المُعَمَّرَةُ بالبلاطِ و بالجِصِّ المحروقِ حيطانُهُ العاليةُ أجِبْني : مَنِ الذي يَهَبُ الحياةَ ؟ ومَنِ الذي يُطيلُ العُمْرَ ؟

١٤ ـ لقد رفَعَ الإيوانَ كسرى، فهل حَمَى أوانَ أتاهُ الموتُ إيوانُهُ كِسْرَى ؟

واذْكُرْ كسرى وإعلاءَهُ قصرَهُ ، واسأَلْهُ : هل تَمَكَّنَ قصرُكَ منْ صَونِكَ مِنَ الموتِ حينَ أتاكَ ؟

١٥ ـ وكم ربِّ قصرٍ باتَ يؤنسُ أهلَهُ وفي غدِهِ قد أوحشَ الأهلَ وَالقصرا

وكمْ صاحِبِ قصرٍ كانَ أنيسَ أهلِهِ ، فلما أتى عليهِ الصباحُ وافَتْهُ المنيةُ ، وأصبحَ ذا وحشةٍ للقصرِ وأهلِهِ .

١٦ ـ وما زالَ موتُ المرءِ يُخْرِبُ دارَهُ وموتُ فريدِ العصرِ قد خَرَّبَ العَصْرا

وكانَ ، وما زالَ الموتُ يَهْدِمُ دارَ مَنْ يموتُ ، وها هو دارُ فريدِ العصرِ أستاذي قد تَهَدَّمَ ، وَتَهَدَّمَتْ دورُ مَنْ كانوا على صلةٍ بهِ .

١٧ ـ أغارُ إذا ما أعرضَ البحرُ طامياً ولم أرَ إلاّ ناضباً ذلك البحرا

وإنَّ حالي قد تحوَّلَتْ ، فصارَتْ غَضْبى مَلأى بالحزنِ والحسدِ لأنَّ أستاذي فريدَ العصرِ البحرَ في علمِهِ ، قد جعلَهُ الموتُ يُعْرِضُ عني ، ولأني أرى صاحبَ العلمَ وبحرَهُ ، يسْقَمُ ، ثم يموتُ .

١٨ ـ وتَسْخَنُ عيني أنْ أرى البدرَ طالعاً وأنَّ الليالي غَيَّبَتْ ذلك البدْرا

وصارتْ عيني ، تضطربُ ، وتبكي دموعاً حارَّة كلّما رأتْ بدرَ السماءِ ساطعاً ، وتذكَّرَتْ أنَّ الأيامَ ولياليَها ، قد أزالَتْ بدرَ العلمِ والمعرفةِ منَ الوجودِ .

١٩ ـ وتَشْخَصُ بي زُهْرُ الكَواكبِ غيرَةً إذا ذَكَرَتْ نفسي مناقبَهُ الزُّهرا

وتضيقُ بي كواكبُ السماءِ المضيئةُ حسداً مني كلّما حَدَّثَتْ نفسي عنْ مآثرِهِ وأياديهِ الكريمةِ .

٢٠ ـ فإنْ لاحَ لي بدرٌ وبحرٌ وكوكبٌ تعامَيْتُ ، أو أولَيْتُها نظراً شَزْرا

فإنْ بدا ليَ البدرُ والبحرُ والكواكبُ حَوَّلْتُ نظري عنها ، أو نظرْتُ إليها نظرةً جانبيَّةً ، فيها الإعراضُ والغضبُ .

٢١ ـ وما كانَ حقِّي أنْ أُشَبِّهَهُ بها   فقد كان أعلى من ثلاثتِها قَدْرا

وقد أخطأتُ حينَ جَعَلْتُه شبيهاً بها لأنهُ ، كانَ ذا قدْرٍ ومكانةٍ أعلى منها كلِّها .

٢٢ ـ عَجِبْتُ منَ الأشجارِ تورِقُ بعدَهُ   ولا تَحْرِقُ الأشجارُ أغصانَهَا الخُضْرا

وإني لأعجبُ منَ الأشجارِ التي ما زالَتْ ، تُنبِتُ الأوراقَ ، ولا تحرِقُ أغصانَها الخضراءَ بعد موتِ أستاذي فريدِ العصرِ .

٢٣ ـ أما أُخْبِرَتْ ، أم أُخبِرَتْ ، فَتَصَبَّرَتْ؟   فتبّاً لها ، لا أُلْبِسَتْ ورقاً نَضْرا

ألم تعلَمْ بموتِهِ أم أتى أحدٌ ، ونصحَها بوجوبِ التَّجَلُّدِ والصبرِ ، فَتَجلَّدَتْ ؟ فهلاكاً لهذهِ الأشجارِ التي ما زالتْ ، تُنبِتُ الورقَ الأخضرَ .

٢٤ ـ وقلْتُ لساري المَنِّ : هلاّ بَكيتَهُ ؟   وأنتَ الذي آخى أناملَهُ العَشْرا

وقُلْتُ للقَلَمِ بمدادِهِ : هلاَّ سَطَرْتَ كلاماً شعراً أو نثراً في رثائِهِ ؟ أما كانَ أخاكَ وصديقَكَ في أصابعِهِ العشرةِ طولَ حياتِهِ ؟

٢٥ ـ فقالَ : وهلْ أبقَتْ ليَ اللَّوعةُ التي   تُنَشِّفُ ماءَ البحرِ نيرانُها قَطْرا ؟

فأجابَني : وهلْ تركَتْ ليَ الحَسْرَةُ الحارّةُ التي تُجَفِّفُ بحرارتِها ماءَ البحرِ قطرَةً ، أكتبُ بها ما يملأُ قلبي حزناً وأسًى لموتِ أستاذِكَ فريدِ العصرِ ؟

٢٦ ـ هو الثُّكْلُ لا فقدُ العشيرةِ كلِّهَا   فقد كانَ خيراً وحدَهُ مِنْهُمُ طُرّا

وفقدانُهُ أشدُّ منْ فقدانِ الأُمِّ لولدِها ومنْ فِقدانِ الأهلِ والأصحابِ كلِّهِمْ لأنه ، كانَ وحدَهُ سبيلَ الخيرِ بلِ الخيرَ كلَّهُ لهمْ جميعاً .

٢٧ ـ إذا سُمِّيَتْ تلكَ الحقوقُ ، وعُدِّدَتْ   فأيسَرُها يُلْغي القرابةَ والصِّهْرا

وإذا رُتِّبَت حقوقُ الناسِ على بعضِهِمْ وواجباتُهُمْ ، فأقربُ حَقٍّ علينا حقُّهُ مُعَلِّماً ، ينمَحي أمامَهُ حقُّ قرابةِ الأهلِ والنسبِ .

٢٨ ـ وصَكَّ بمثلِ الصخرِ سمعي نَعِيُّهُ   فَشُبِّهْتُ بالخنساءِ إذ فَقَدَتْ صخرا

وضَرَبَ خبرُ وفاتِهِ سمعي ضرباً شديداً ، يشبهُ ضربَ الصخرِ ، وَرَثَيْتُهُ بقصائدَ ، تشبهُ قصائدَ الخنساءِ حين فَقَدَتْ أخاها صخراً .

٢٩ ـ ولو أنَّ قلبي همَّ بالصبرِ عندَهُ   لقالَ لهُ : ﴿ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾

ولو أن قلبي ، عَزَمَ على الصبرِ عندَ سماعِ خبرِ النَّعي لقالَ لهُ الصبرُ قولَ الخَضِرِ لرسولِ اللهِ موسى ، عليهِ الصلاةُ والسلامُ : ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف/ ٧٢] .

٣٠ ـ منَ الكبدِ الحَرَّى أريدُ استراحةً   فما فَزَعي إلاّ إلى المُقْلَةِ العَبْرَى

وإني لِشدةِ حُزْني لأُحِسُّ أنَّ كبدي قد تَفَتَّتَتْ أجزاءً تَلَهُّباً ، وأرومُ لها ارتياحاً قليلاً ، وأخافُ ألاّ تُسايِرَني عيني ، ولا تبكيَ ، فتخَفِّفَ عني شيئاً ممّا أجدُ .

٣١ ـ كفى محنةً أنْ يستريحَ طَريحُها   إلى المُقْلَةِ العَبْرَى منَ الكبدِ الحَرَّى

حسبُ المصيبةِ الكبرى أنْ يجدَ صاحبُها في عينِهِ الباكيةِ بعضَ الراحةِ لكبدِهِ التي تَتَّقِدُ حزناً وأسًى .

٣٢ ـ ونَهْنَهْتُ عيني أنْ تَضِنَّ بِدُرِّها   على رجلٍ ، ما زالَ يمنَحُني الدُّرّا

ونَهيتُ عيني زاجراً إياها بِبُخْلِها يوماً بدمعِها الغالي الشبيهِ بالدُّرِّ على رجلٍ ، ما زالَ ، يَهَبُني منْ بحرِ خُلُقِهِ وعلمِهِ وأُعطياتِهِ ما هو أغلى منَ الدُّرِّ .

٣٣ ـ وصَفَّرَ خدِّي ، ثُمَّ بَيَّضَ مَفْرِقي   رزيَّةُ مَنْ لم يمنعِ البيضَ والصُّفْرا

فقد بلغَ كرمُهُ حدّاً ، لم يَبْخَلْ فيه بفضةٍ ولا ذهبٍ ، فكانَ فقدي إياهُ سبباً في سَقَمي وصُفْرةِ وجهي وبياضِ شعرِ مَفْرِقي .

٣٤ ـ وقلتُ لطبعي : هاتِ كلَّ ذخيرةٍ   فمنْ أجلِهِ ما زلْتُ أَدَّخِرُ الذُّخرا

وقلتُ لسجيَّتي : أعْطيني ما عندكِ ممّا اخْتَرْتِ ، وخَبَّأتِ منْ أحاسيسَ وأفكارٍ وعباراتٍ مُعَبِّرةٍ عنِ الإجلالِ والإكرامِ لأني ، ما زلْتُ ، أبذُلُ ما أملِكُ منَ الثمينِ فداءً لهُ .

٣٥ ـ وأبرزْ كريماتِ القوافي وغُرَّها   فمنْهُ اسْتَفَدْنا العلمَ والنظمَ والنثرا

وانظِمي أحسنَ القصائدِ وأجودَها اعترافاً بأفضالِهِ علينا منَ العلمِ والأدبِ نظماً ونثراً .

٣٦ ـ ولو كانتِ الشِّعْرى مقالةَ قائلٍ   لأصبحْتُ أرثيهِ بها فَدَعِ الشِّعرا

فلو كانتِ الشِّعْرى العَبورُ في السماءِ وبرجُها تعبيراً عن قولِ أحدٍ لصرتُ ، أذكرُ مناقبَهُ ما حَييتُ بلغتِها ، فاتركي الشعرَ ، وابكي فريدَ العصرِ بلغةِ الشِّعرى .

٣٧ ـ مضى الحبرُ والبحرُ الذي لم تُصِبْ لهُ   على الغوصِ والتَّطوافِ شطًّا ولا قَعْرا

قضى الرجلُ الصالحُ الكريمُ الذي لم تجدْ لهُ في مَدَى صلاحِهِ وكرمِهِ وجوانبِ خُلُقِهِ الفاضلةِ حدًّا ولا نهايةً .

٣٨ ـ لقد ملأَ الساعينَ مَسْعاهُ حَسْرَةً   وخَلَّفَتِ الجارينَ غاياتُهُ حَسْرَى

وتركَ في قلوبِ طلابِهِ ومريديهِ لوعةً ، وجَعَلَتْ آمالُهُ الكبيرةُ جيرانَهُ وأقرباءَهُ أعياءً حَيارى .

٣٩ ـ فَلَهْفي على ذاكَ اللسانِ وحَرِّهِ مفاصلَ أعيا حَزُّها القُضُبَ البُتْرا

فيا حزني على لسانِ أستاذي فريدِ العصرِ وآثارِهِ العظيمةِ التي ذهبَتْ ، وخلَّفتِ الأقلامَ مكسورةً عاجزةً عنْ إكمالِ رسالتِهِ .

٤٠ ـ وَلَهْفي على ألفاظِهِ العذبةِ التي كأنَّ زلالَ المُزْنِ قد مازجَ الخمرا

ويا حزني على أقوالِهِ الحلوةِ التي تُشبهُ مطَرَ السحابِ الصافيَ الممزوجَ بأفضلِ الخمرِ .

٤١ ـ وَلَهْفي على تلكَ المعاني كأنّها منافِثُ سحرٍ تَسْحَرُ الفَطِنَ الحبرا

ويا حزني على معاني أقوالِهِ التي تشبهُ أقوالَ ساحرٍ ، يأخذُ لُبَّ الرجلِ النَّبيهِ الصالحِ .

٤٢ ـ تَلَقَّفَ ثعبانُ المنيَّةِ سِحْرَهُ ولم يُبْقِ ربَّ السحرِ إذا أبطلَ السِّحْرا

وأسْرَعَ ثعبانُ الموتِ ، وتناولَ إبداعَهُ ، وهو يعلمُ حقَّ العلمِ أنهُ إنْ قضى على صاحبِ الإبداعِ والسحرِ ، يَقْضِ على كلِّ سحرٍ وإبداعٍ .

٤٣ ـ وتلكَ مقاماتُ الملوكِ بذكرِهِ مُعَطَّرَةٌ ، لكنْ معطلةٌ قَفْرا

وها هي مجالسُ الملوكِ ، تُشيدُ بذكرِهِ لتمتلئَ قلوبُ الحاضرينَ رَوحاً وريحاناً ، على الرغمِ منْ أنها خاليةٌ منْ وجودِ صاحِبِهِ .

٤٤ ـ وكانَ ربيعاً للملوكِ نِدامُهُ وآدابُهُ روضاً ، وأسمارُهُ زَهْرا

وكانَ إذا أرادَ الملوكُ أنْ يَتَجالَسوا كحلولِ فصلِ الربيعِ ، وكانَتْ آثارُهُ كرياضِ الربيعِ ، وأحاديثُهُ كألوانِ زهرِهِ .

٤٥ ـ ولو كانَ هذا الموتُ ، يمكنُ دفعُهُ إذنْ لأقاموا دونَهُ الأَسَلَ السُّمْرا

ولو كانَ موتُهُ ، يستطيعُ الناسُ أنْ يمنعوهُ لَرَدُّوهُ بالرماحِ السُّمْرِ .

٤٦ ـ وبيضاً إذا الأغمادُ عنها تَحَسَّرَتْ أهلَّ عطاشُ الركبِ تَحْسَبُها غُدْرا

وإذا رفَع راكبو الخيلِ العطاشُ إلى الحربِ أصواتَهُمْ بقولِ : لا إلهَ إلاّ اللّهُ ، وهم، يحملونَ سيوفَهُمُ البيضَ المجردةَ منْ أغمادِها ، حَسِبْتَ تلك السيوفَ أنهُراً ، يتلألأُ ماؤها .

٤٧ ـ بأيدي كماةٍ ساوروا العِزَّ ، وابْتَنَوا بِضربِ الطُّلَى والطعنِ في الثُّغُرِ الفَخْرا

ولقد كانَتْ تلكَ الأسلحةُ : السيوفُ والرماحُ بأيدي الجنودِ الشجعانِ الذينَ ناهَدوا المجدَ ، وبَنَوا لأنفسهمُ الفخرَ بضربِ الأعناقِ وطَعْنِ النُّحورِ .

٤٨ ـ فما عَرَفوا غَيْرَ العجاجةِ لَيلةً وغيرَ ضياءِ المَشْرَفيِّ لهُ فَجْرا

ولم يَروا في ليلِهِمْ إلاّ الغبارَ المُثارَ منْ سنابكِ الخيلِ والتماعَ السيوفِ المنسوبةِ إلى الشامِ أو اليمنِ كالتماع ضوءِ الفجرِ .

٤٩ ـ على ضُمَّرٍ لو أنهمْ سلكوا بها ضمائرَ أقوامٍ لأنْفَذْنَها ضُمْرا

ولا يُرَونَ إلاّ وهم مُمْتَطُونَ ظهورَ خيولِهمُ النحيلةَ ، ولو أنهمْ ، جعلوا هذه الخيُولَ أسلاكاً ، وأدخلوها في قلوبِ أقوامٍ كثيرةٍ ، لخرجَتْ منها تاركةً إيّاها منْهَكَةً ، لا قدرةَ لها على شيءٍ .

٥٠ ـ إذا جالتِ الفرسانُ في صَهَواتِها أفاضَ على هاماتِها الصَّمَدُ النصرا

فإذا طافتِ الفرسانُ حولَ معاقلِ العدوِّ على ظهورِ خيولِهمْ قاصدينَ رضا اللهِ تعالى زادَهمْ ربُّهُمْ نصراً وعزَّةً .

٥١ ـ جَمَعْنَ شِياتِ الخيلِ، لكنْ تَخَضَّبَتْ نجيعاً ، فعادَتْ كلُّ ألوانها شُقْرا

ولما انتهتِ المعركةُ جمعَ الفرسانُ حاجاتِ الخيلِ التي تَبَلَّلَتْ بالدمِ ، ثم ساقتِ الجيادَ الملوثةَ بدماءِ الأعداءِ التي تحوَّلَتْ ألوانُها إلى الشُّقْرةِ .

٥٢ ـ تَرى كلَّ مُهْرٍ كالنعامةِ سابحاً بكلِّ غلامٍ باسلٍ يُشْبِهُ الصخرا

وتنظُرُ إلى كلِّ فرسٍ صغيرٍ ، فتراهُ ، يركضُ خفيفاً كالنعامةِ المسرعةِ التي يُظَنُّ أنها تسبحُ في الفضاءِ ، وعلى ظهرِهِ الفتى الشجاعُ الذي يحملُ على العدوِّ .

٥٣ ـ أسِنَّتُهُمْ زُرْقٌ ، وزُرْقٌ عيونُهُمْ فإنْ يغضَبوا ، أو يطعنوا انقلبَتْ حُمْرا

وترى رؤوسَ أسلحتِهِمْ وعيونَهُمْ ذواتِ لونٍ أزرقَ ، فإذا غضبوا ، أو ثاروا ، تحوَّلَ لونُها إلى الحمرةِ .

٥٤ ـ يُحَرِّضُهُمْ منْ آلِ ضَبَّةَ فتيةٌ سَمَوا غيرَ أغمارٍ ليَقْتَحِموا الغَمْرا

يَحُثُّهُمْ على خوضِ غمارِ الحربِ شبابٌ منْ قبيلةِ ضَبَّةَ ، صَعِدوا سلَّمَ المجدِ بِجِدِّهِمْ لا بجهلهمْ لِيَتَمَكَّنوا منَ الدخولِ والثباتِ في أرضِ المعركةِ .

٥٥ ـ ويبتذلوا الأرواحَ دونَ أتَمِّهِمْ فخاراً وأزكاهُمْ إذا نُسِبوا نَجْرا

ويجعلوا الأرواحَ رخيصةً في سبيلِ أكْمَلِهِمْ فخراً وعِزَّةً وأطيَبِهِمْ حينَ تُذْكَرُ الأنسابُ أصلاً .

٥٦ ـ وأعلاهُمُ كعباً وأبسَطِهِمْ يداً وأقربِهِمْ خيراً وأبعدِهِمْ ذِكْراً

وأرفعِهِمْ شأناً وأكرمِهِمْ يداً وأدناهمْ إلى الخير وأطولِهِمْ مَدًى إلى الذِّكْرِ الحسنِ والثناءِ الطَّيِّبِ .

٥٧ ـ لِيَبْكِ الندى والعلمُ والحِجا أبا مُضَرٍ ، ولْتَبْكِهِ الهِمَّةُ الكُبْرَى

فَلْيَبْكِ فريدَ العصرِ أبا مضرٍ أستاذي ومعلمي الكرمُ والعلمُ والعقلُ والعزيمةُ الكبرى .

٥٨ ـ فَهِمَّتُهُ لو أنَّ أكبرَ شاهقٍ أُضيفَ إليها خِيلَ كالجمرةِ الصُّغْرَى

فعزيمتُهُ لو أنَّ أعلى وأعظمَ جبلٍ ، وُضِعَ أمامَها ، ظُنَّ أنهُ وقْدَةٌ صغيرةٌ .

٥٩ ـ فَمَنْ لاصطناعِ الفاضلينَ ، ومَنْ لهمْ إذا رهبوا ناباً منَ الدهرِ أو ظُفْرا ؟

فمَنْ هو جديرٌ لصنعِ الكرامِ بعدَهُ ؟ ومَنْ يُساعِدُهُم إذا خافوا حادثةً منْ حوادثِ الدهرِ ومصائِبِها بعدَ موتِهِ ؟

٦٠ ـ بَقُوا ضُيَّعاً ، إنْ كَرَّروا الطَّرْفَ لم يَرَوا منَ الناسِ صدراً بَعْدَهُ يُثْلِجُ الصَّدْرا

وعاشوا مُشَتَّتينَ تائهينَ لأنهمْ لو أعادوا النظرَ إلى أمورِهِمْ إعادةً جادّةً ، لم يَرَوا منْ يُعينُهمْ على نوائبِ الدهرِ ، ويجدوا قلوباً ، فيها الحُنُوُّ والعطفُ ، ويرتاحوا في العيشِ في كنَفِها .

٦١ ـ فذاكَ فريدُ العصرِ حقًّا ، فلَنْ ترى عيونُهُمْ منْ بعدِهِ مثلَهُ حُرّا

وذاك فريدُ العصرِ أبو مُضَرَ الرجلُ الحقُّ الذي لن ترى عيونُ الناسِ بعدَ موتِهِ رجلاً حُرّاً شريفاً عزيزاً مثلَهُ .

☆☆ ٤ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الحنينِ إلى مكةَ :

١ ـ هو النَّفَسُ الصَّعّادُ عنْ كبدٍ حَرَّى إلى أنْ أرى أُمَّ القرى مرةً أُخرى

إنني أعاني منَ التَّنَفُّسِ العميقِ الذي يَصْعَدُ جاهداً عنْ كبدي المشتاقِ ، ولا أُحِسُّ بالراحةِ إلاّ إذا رأيتُ مكةَ أمَّ القرى مرةً أُخرى .

٢ ـ سَرَيْتُ بشخصي لا بقلبي همّتي وهيهاتَ ما للأخْشَبَينِ ولِلْمَسْرَى

ومَشيتُ ليلاً وحدي ، ولم يمشِ قلبي وعزيمتي ، على الرغمِ منْ بعدِ ما بيني وبينَ جَبَلَي مكةَ : أبي قُبيسٍ والأحمرِ ومكانِ الطوافِ والسعيِ .

٣ ـ مُنيخانِ بالبطحاءِ ، ما ذَرَّ شارقٌ مقيمانِ عندَ البيتِ ما ذَكَتِ الشِّعْرى

هذانِ الجبلانِ : أبو قُبَيسٍ والأحمرُ قائمانِ في أرضِ مكةَ ما دامتِ الشمسُ تَنْشُرُ أشعتَها على الكرةِ الأرضيةِ ، وما دامتْ كواكبُ السماءِ في أبراجِها كالشِّعرى ، تلتمِعُ في السماءِ .

٤ ـ عكوفُهما في عاكفي البيتِ واصبٌ طـوافُهمـا فـي الطـائفيـنَ بـه يَتْـرَى

ويشاركانِ الناسَ في أدائِهمْ عبادَتَهمْ ، فهما يُواظبانِ معهم على العبادةِ في البيتِ الحرامِ دائماً ، ويطوفانِ بهِ طوافاً مُتواتراً .

٥ ـ وما جاوزَتْ بي بطنَ نخلةَ أينُقي وقد لجَّ بي جَهْدُ الصبابةِ ، واسْتَشْرَى

وشاركَتْني في أدائي مناسكَ الحجِّ وفي أسفاري ناقاتي ، فلم تبرَحْ بطنَ نخلةَ ، وهو موضعٌ بينَ مكةَ والطائفِ ، على الرغمِ ممّا أُحِسُّ بهِ منَ الجُهْدِ والتعبِ الشديدِ ، وأنا في ميعةِ الشبابِ .

٦ ـ فكيـفَ إذا خلّـى الحجـازَ وراءَنـا وجيفُ المطايا ؟ يا لها كبداً حَرّى !

فكيفَ يصيرُ حالي إذا تَركَ السَّفْرُ أرضَ الحجازِ ، فصارَتْ وراءَنا ؟ فيا لهفي على كبدي التي تَتَحَرَّقُ شوقاً إلى العودةِ إليها !

٧ ـ لياليَّ في بطحاءِ مكةَ ، صافحي يميني تُصِـبْ نفسي غنيمتَهـا الكبـرى

فيا أيتُها الليالي التي أقمتُها في مكةَ مُدِّي يَدَكِ ، وضَعيها في يميني لِتَثْبيتِ العهدِ بينَنا ، فإنْ تصافَحتا تَنَلْ نفسي ، إنْ شاءَ اللهُ ، الجزاءَ الأكبرَ .

٨ ـ فإنْ حَدَّثَتْني بعدُ بالسيرِ مُعْرِقاً فـلا رُزِقَـتْ يُسْـراً ، ولا لُقِّيَـتْ بُشْـرا

وإنْ أرادَتْ نفسي بعدَ اليومِ أنْ تسيرَ نحوَ العراقِ ، فإني أدعو عليها ألاّ تَلْقى السهولةَ أو البُشْرَى في أمرٍ منْ أمورها .

٩ ـ أأبتـاعُ بـالفـوزِ الشقـاوةَ خـاسـراً وأستبـدِلُ الـدنيـا الـدَّنيَّةَ بـالأُخـرى ؟

أأشتري الشقاءَ والعذابَ بالفوزِ والفلاحِ ، وأخسَرَ ؟ وهل أجعلُ الدنيا الحقيرَةَ بديلةً للأُخرى الغاليةِ الثمينةِ ؟

١٠ ـ إذا خَطَرَتْ بالبالِ ذكرى إناختي علـى حـرمِ اللهِ اسْتَفَـزَّتْنِـيَ الـذِّكْـرى

وإذا بدا هاجسٌ في الفكْرِ ، يُذَكِّرُني بوقوفي وناقتي عندَ حرمِ اللهِ الشريفِ ، تَهيجُ بيَ الذِّكْرَى .

١١ ـ أكـابـدُ ليـلاً كـالليـالـي وحسـرةً ودمعاً غزيرَ المُسْتَقَى غائرَ المَجْرَى

وأقاسي عذاباً أسودَ كسوادِ الليالي ، وأذرفُ دموعاً غزيرةً منْ أعماقِ عينيَّ وقلبي .

١٢ ـ وأدعو إلى السلوانِ قلباً ، جوابُهُ لـداعيـهِ مُهـراقٌ مـنَ المقلـةِ العَبْـرَى

وأطلبُ منْ قلبي أنْ ينسى ، فلا يذكرَ شيئاً ، فأجدُ جوابي منْ عينيَ الدموعَ المُنْهَلَّةَ .

١٣ ـ وما عُذْرُ مطروحٍ بمكةَ رحلُهُ على غير بؤسٍ ، لا يجوعُ ، ولا يَعْرَى

وليس لِمَنْ رمى بمكةَ رحلَهُ عُذْرٌ ، وهو في غنًى ، لا في شِدَّةٍ منَ الفقرِ والعُرْيِ ، لا يريدُ الرحيلَ عنها .

١٤ ـ فسافَرَ ، يبتغي بدلاً بها وربِّكَ لا عُذْرَى ، وربِّكَ لا عُذْرَى

ثمَّ سافَرَ ابتغاءَ بديلٍ بها ، فهو وربِّكَ ليسَ لهُ عذرٌ ، ليسَ لهُ عُذْرٌ في السفرِ والابتعادِ عنْ مكةَ .

☆☆ ٥ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الحنينِ إلى مكةَ أيضاً :

١ ـ وممّا شَجاني أنْ دعَتْ ساقَ حُرِّها تُطارِحُهُ في الأيكِ سَجْعاً مُكَرَّرا

وممّا أطربني أنْ نادَتْ قُمْرِيَّةٌ حبيبَها : ذَكَرَها ساقَ حُرِّها ، تريدُ أنْ تحادثَهُ ، وهما يقفانِ على الأشجارِ ، ويردِّدانِ أنغاماً عذبةً .

٢ ـ فُصَيِّحَةُ التصويتِ ، تؤنِسُ مَسْمَعاً مُلَيِّحَةُ التصويرِ ، تُؤنِقُ مَنْظَرا

وكانَتْ ذاتَ أصواتٍ فصيحةٍ بليغةٍ ، تؤنِسُ سامعَها ، وتُطرِبُهُ ، وتُصَوِّرُ رسوماً جميلةً ، تُعْجِبُ الناظرَ إليها .

٣ ـ تُبَكّي عيونَ السامعينَ خطيبةً إذا اتَّخَذَتْ فَرْعَ الأراكةِ مِنْبَرا

وإذا أرادتْ أنْ تقفَ على مِنبَرِها : شجرةِ الأراكةِ ، وتُلْقيَ خطبةً ، تُبْدِعُ في حديثها ، فتَنْهَمِرُ الدموعُ منْ عيون السامعينَ .

٤ ـ فَرَقَّ لهُ قلبي وَرَقْرَقَ أدمعي ونَفَّرَ طيراً لي أبَى أنْ يُنَفَّرا

فَلاَنَ لقولِها قلبي ، وأراقَ دموعي ، وجَعَلَ قلبي ، يَنْفُرُ منْ بينِ أضلعي خوفَ الهلاكِ ، وهو الذي لا يرتضي أنْ يصْرِفَهُ أحدٌ عني .

٥ ـ وهاجَ إلى بطحاءِ مكةَ هائجٌ منَ الشوقِ يَنْهَى النفسَ أنْ تتَصَبّرا

وثارَ في نفسي ثائرٌ منَ الشوقِ والحنينِ إلى أرضِ مكةَ ، لا يريدُ أنْ يمتَنِعَ عن التَّصَبُّرِ والتَّجَلُّدِ .

٦ ـ فؤادي ، إذا أُمُّ القرى مَرَّ ذكرُها يَرِفُّ رفيفَ الأُقحوانِ مُنَوَّرا

ذلك لأنَّ قلبي ، إذا ذُكِرَتْ مكةُ أمُّ القرى يضطربُ اضطِرابَ وُرَيقاتِ زهرِ الأقحوانِ ذي الألوانِ الكثيرةِ .

٧ ـ ويصبحُ وجهي شاحباً ، فإذا جَرَى تَبَلَّجَ وجهي كالصباحِ ، وأَسْفَرا

ويَتَغَيَّرُ لونُ وجهي ، ويصيرُ أصفرَ ، وإذا طَلَعَ الصَباحُ ، وأضاءَ بنورِهِ ، انكشَفَتْ صفرتُهُ وشحوبُهُ ، وعادَتْ إليه إشراقَتُهُ .

٨ ـ أيا حَبَّذا سَوقي الرِّكابَ مُلَبِّياً إلى عَرفاتِ أشعثَ الرأسِ أغْبَرا

فما أحبَّ تَسْييرَ رحلي إلى عرفاتٍ مُرَدِّداً : لَبَّيكَ اللهمَّ لَبَّيكَ ، وأنا أشعثُ الشَّعْرِ أغْبَرُ الجسمِ والثيابِ .

٩ ـ وليلةُ جَمْعٍ ، والبكورُ إلى مِنًى وعنْ مسجدِ الخَيفِ انْحِداري مُجَمِّرا

وما أحلى ليلةَ نَفَرْنا إلى المزدلفةِ : جَمْعٍ ، وما أطيبَ الصباحَ والذَّهابَ إلى مِنًى بُكوراً بعدَ أنْ صلَّينا في مسجدِ الخَيفِ ، ومِلْنا إلى رميِ الجِمارِ فيها .

١٠ ـ وَوَطْؤُ بساطِ الرحمةِ المُبْتَغى وأنْ أُهَرْوِلَ فيهِ حالقاً ومُقَصِّراً

وما ألَذَّ السيرَ والهَرْوَلَةَ على المَطافِ والمَسْعَى الذي يرومُهُ كلُّ حاجٍّ ، وأنا حالقٌ شعرَ رأسي ومُقَصِّرٌ شعرَ وجهي .

١١ ـ تذكَّرْتُها ، فارفَضَّ صبري وقُوَّتي ولابُدَّ للمشتاقِ أن يتذَكَّرا

ومَرَّتْ بخاطري تلك الأيامُ وأحداثُها ، فَعِيلَ صبري وقُوَّتي ، ولا محالةَ للمشتاقِ أنْ يتذكَّرَ ما مَرَّ بهِ .

☆☆ ٦ ـ وقالَ على بحرِ السريعِ في الغزلِ :

١ ـ لو مَرَّ بالليلِ على حائرٍ قرارُهُ ، أنبَتَ نَيلوفَرا

لو مَرَّ هذا الإنسانُ ليلاً على بركةِ ماءٍ منْ مطرٍ ، لا يدري أحدٌ كيفَ يَتَحرَّكُ الماءُ فيها ، وقد عامَ على سطحِهِ نباتُ النيلوفرِ .

٢ ـ لأَطْلَعَ النّيلوفَرُ النَّورَ إذْ يَحسَبُ شمساً وجهَهُ النَّيِّرا

لأسرعَ هذا النيلوفرُ ، وأظهرَ زَهرَهُ لأنهُ ظَنَّ وجهَ هذا الإنسانِ الشمسَ المنيرةَ التي يَزْدَهِرُ النباتُ بضوئِها .

☆☆ ٧ ـ وقالَ على بحرِ المتقاربِ في الهجاءِ :

١ ـ ألا أَفْقَرَ اللهُ عبداً ، أبَتْ عليهِ الدناءَةُ أن يُفْقِرا ؟

ألا يجعلُ اللهُ هذا الرجلَ فقيراً ، رفَضَتْ حقارةُ نفسِهِ أنْ يعيرَ صاحبَهُ دابتَهُ ؟

٢ ـ ومَنْ لا يُعيرُ قَرا مركبٍ فقُلْ : كيفَ تَعْقِرُهُ للقِرَى ؟

ومَنْ لا يُعِرْ ظَهْرَ دابتِهِ ، فَقُلْ لهُ : كيفَ تقتُلُ دابتَكَ جَرْحاً في قائمتِها ، ثم تذبحُها ،

وتطبُخُها ، وتقدِّمُها مَأدُبةً لزائريكَ ؟

☆☆ ٨ ـ وقالَ على بحرِ البسيطِ في الرثاءِ والتعزيةِ :

١ ـ يا كوكباً في سماءِ المجدِ ، قد غارا ويـا هـلالاً ، مضـى ، لـم يلْـقَ إبـدارا

يا أيُّها الرجلُ العظيمُ الشبيهُ بكوكبٍ منْ كواكبِ السماءِ قد غِبْتَ عنا ، فلم تَعدْ إلى الظهورِ ، والشبيهُ بالهلالِ قد كُسِفْتَ بالموتِ الذي لم يتركْكَ تصيرُ بدراً .

٢ ـ قد أَعْجَلَتْكَ الليالي أنْ تُرَى قمراً تَمَّـا سـوى أنـكَ استكمَلْـتَ أنـوارا

قد أسرعَتْ إليكَ الليالي قبلَ أنْ يراكَ الناسُ قمراً كاملاً ، لكنكَ حملْتَ معكَ أفضالَ المجدِ وأنوارَهُ تامَّةً .

٣ ـ كذاك أبناءُ أهلِ المجدِ إنْ طلعوا أهلَّـةً حُسِبـوا فـي النـورِ أقمـارا

وكنتَ مثلَ أولادِ أهلِ العزِّ ، إنْ شَبّوا ظنَّ الناسُ أنهمْ بكمالِهِم أقماراً وبدوراً .

٤ ـ يا غصنُ أورقْتَ ، لكنَّ الليالي لم تُنْظِـرْ ، فَتَجْنِـيَ منـكَ النـاسُ أثمـارا

يا فرعُ ، قد نبتَتْ أوراقُكَ لكنَّ الدهرَ لم يُمْهِلْكَ إلى أن تُثْمِرَ ، ويَجْنِيَ الناسُ منكَ أطيبَ الثمَرِ .

٥ ـ إنْ كُنْتَ مثلَ ابنِ مُزْنٍ في طهارتِهِ فقـد يُضـاهـي أبـوكَ المُـزْنَ مِـدْرارا

فإنْ كنتَ مثلَ المطرِ ابنِ السحابِ في صفائِهِ وطهارتِهِ ، فإنْ أباكَ ، يُشاكلُ السحابَ في كرمِهِ .

٦ ـ هل يطمعُ الناسُ لولا المزنُ في مطرٍ والمُـزْنُ لغـوٌ إذا لـم يَسْـقِ أمطـارا ؟

وهل يطمعُ الناسُ في مطرٍ ، يَظَلُّ سحابُهُ سابحاً في كبدِ السماءِ ، ولا يُرْسِلُ أمطارَهُ ؟

٧ ـ فـي عِقْـدِ دُرٍّ بنيـهِ كنْـتَ واسطـةً وقـد نُظِمْتُـمْ لجيـدِ الفخـرِ تِقصـارا

وقد كنْتَ الدُّرَّةَ الوسطى في عِقْدِ أبيكَ ، جعلكُمُ اللهُ ـ عَزَّ ، وجلَّ ـ أفضلَ أبناءٍ لعنقِ المجدِ والعزَّةِ .

ولعلّ الزمخشريَّ قد ذكرَ قولَ ابنِ الروميِّ في رثاءِ ابنِه الأوسطِ :

تـوخَّى حمـامُ المـوتِ أوسـطَ صِبْيَتي فللّـه كيـفَ اختـارَ واسطـةَ العقـدِ

٨ ـ وكيفَ كنتُمْ ، فأخيارٌ ، ولا عَجَبٌ مِـنْ أنْ يكـونَ بنـو الأخيـارِ أخيـارا

وفي أَيَّةِ حالٍ كنْتُمْ ، كنْتُمْ خيرَ الناسِ ، وليسَ في ذلكَ عَجَبٌ لأنَّ الأخيارَ يَلِدون أخياراً .

٩ ـ كـأنَّ عصـرَكَ عـافَتْهُ طِبـاعُـكَ إذ   وجَـدْتَ أكثَـرَ أهـلِ العصـرِ أشـرارا

وكأنَّ سجاياكَ ، قد كَرِهَتْ أحوالَ عصرِكَ حينَ رأيتَ أكثرَ أهلِ عصرِكَ أشراراً .

١٠ ـ فما رضيتَ جواراً بينَ أظْهُرِهِمْ   فـاخْتَـرْتَ ربَّـكَ إذْ لـم تـرضَـهُـمْ جـارا

فما قَبِلْتَ أنْ تعيشَ جاراً بينَهمْ ، وفَضَّلْتَ جِوارَ ربِّكَ والقربَ منهُ على جوارِهِمْ والقربِ منهم .

١١ ـ صَبْراً جميلاً عُبَيدَ اللهِ عنه ، فلم   تَـزَلْ علـى حَـدَثـانِ الـدهـرِ صَبّـارا

فاصْبِرْ يا عُبَيدَ اللهِ على مُصابِكَ بابنِكَ الصبرَ الجميلَ الذي يأتيكَ منَ اللهِ بالثوابِ ، فإنكَ معروفٌ بصبرِكَ على نوائبِ الدهرِ .

١٢ ـ إنَّ السُّلُـوَّ إليـهِ كـلُّ ذي أسـفٍ   يُضْطَـرُّ غيـرَ حميـدٍ ، فـاسْـلُ مُختـارا

لأنَّ السُّلْوانَ أمرٌ، يَلْجَأُ إليهِ كلُّ غضبانَ ساخطٍ، ويبقى غيرَ راضٍ عنْ نفسِهِ ، ولا يحمَدُهُ الناسُ ، فاخترِ الصبرَ الجميلَ بقضاءِ اللهِ تعالى ، يملأْ قلبَكَ بالراحةِ والاطْمِئْنانِ .

١٣ ـ تَكَلُّفُ الصبرِ مِنْ خِيَمِ الكريمِ، وإنْ   بـاتَ الأسـى مُـوقِـداً فـي صـدرِهِ نـارا

وتَجَشُّمُ الصبرِ منْ طِبَاعِ الإنسانِ الكريمِ ، ولو باتَ ، وأصبحَ الحزنُ والأسى ، يُوقِدانِ النارَ في صدره .

١٤ ـ لا يَكتبُ الأجرَ إلاّ كلُّ مُصْطبرٍ   لم يكتُبْ بيدِهِ الدمعُ في خَدَّيهِ أسْطارا

والصابرُ هو الذي يكتبُ في صحيفتِهِ أجرَهُ باصطبارِهِ وبِمَنْعِ دمعِهِ منَ الهطولِ على خدَّيهِ ، فلا يترُكُ آثاراً كالسطورِ عليها .

١٥ ـ والدمعُ في الخدِّ منْ زيِّ النساءِ، ومَنْ   يَحْـكِ النسـاءَ يُبَـرْقِـعْ وجهَـهُ عـارا

والدمعُ على الخدودِ منْ طبعِ النساءِ ، ومَنْ يُشابِهِ النساءَ يَضَعْ على وجهِهِ سماتِ العارِ .

١٦ ـ هَوِّنْ عليكَ ، فما نفسٌ بباقيةٍ   وهـذه الـدارُ ليسَـتْ لِامـرِئٍ دارا

فَسَهِّلْ عليكَ أمرَ الثُّكلِ ، فلا دوامَ لامرئٍ في هذهِ الدنيا ، ولا دارَ لهُ فيها .

١٧ ـ والموتُ كالحيَّةِ الصَّمّاءِ فاغرةٌ   فـاهـا لِتَلْقُـمَ آجـالاً وأعمَـارا

والموتُ مثلُ الأفعى التي لا تَسْمَعُ شيئاً ، تفتَحُ فَمَها ، لِتَزْدَرِدَ الناسَ بآجالِهِمْ وأعمارِهِمْ .

١٨ ـ بينا ترى الناسَ سُمّاراً تخطَّفُهُمْ   صَرْفُ الرّدى ، فَغَدوا في الناسِ أسمارا

ويكونُ الناسُ مجتمعينَ ، يتبادلونَ الأحاديثَ ليلاً ، فَتَفْجَؤُهُمْ يَدُ الموتِ ، فلا يستطيعُ

أحدٌ أنْ يَرُدَّها ، ويصبحونَ حديثاً للناسِ الأحياءِ بعدَهُمْ .

١٩ ـ وأسعدُ الناسِ ناسٌ قطُّ ما وَلَدوا   ولا غَـدَوا لخـرابِ الأرضِ عُمّـارا

والسعادةُ الكبرى في عدمِ الزواجِ وعدمِ البُنُوَّةِ لأنها ، تخلو منَ الخرابِ بعدَ الإعمارِ .

٢٠ ـ فلم يذوقوا بأولادٍ إذا انْقَرضوا   ثُكْـلًا ولا راعَهُـمْ بيـتٌ إذا انهـارا

ولا يذوقُ أحدٌ منهمْ بِموتِ ولدٍ لهُ آلامَ المصيبةِ ، ولا يَخافُ على بيتِ ابنِهِ إذا تَهَدَّمَ عليه .

٢١ ـ منْ طَيِّبِ الزادِ والوشْيِ النفيسِ رَضُوا   بـأنْ ينـالـوا بهـا قـوتـاً وأطمـارا

ورضِيَ بأنْ يكتفيَ منَ الدنيا بالقوتِ القليلِ والثوبِ البالي ، مُفَضِّلًا ذلكَ على الطعامِ الطَّيِّبِ والثوبِ المطرَّزِ الغالي .

٢٢ ـ ما استَتْعَبَدَتْ شهوةُ الدنيا نفوسَهُمُ   حتى طـوتْهُـمْ يميـنُ المـوتِ أحـرارا

وما استطاعَتْ شهواتُ الدنيا أنْ تجعلَ نفوسَهُمْ عبيداً لها ، حتى أتاهُمُ الموتُ ، وطواهُمُ الزمانُ ، وهم أحرارٌ شرفاءُ .

☆☆ ٩ ـ وقالَ على بحرِ الخفيفِ في الحنينِ إلى الأماكنِ المقدسةِ :

١ ـ حَبَّـذا نَهْضتـي إلـى عـرفـاتٍ   مـنْ مِنًـى أزجُـرُ المطيَّـةَ ابتكـارا

ما أحبَّ قومتي صباحاً إلى عرفاتٍ وعودَتي منْ مِنًى مانعاً دابتي منَ التَّمَهُّلِ والإبطاءِ في سيرِها .

٢ ـ حيـثُ للـوافـديـنَ مـنْ كـلِّ فَـجٍّ   زَجَـلٌ طَبَّقُـوا بـهِ الأقطـارا

إلى حيثُ يكونُ للآتينَ منْ كلِّ مكانٍ أصواتٌ ، تَعُمُّ الآفاقَ ، وتصلُ إلى كلِّ البلدانِ .

٣ ـ حيثمـا مـالـتِ المسـامـعُ منهـا   تَسْمَـعُ الأُدعيـاتِ والأذكـارا

إلى حيثُ الآذانُ ؛ تسمَعُ أُدعياتِ الحجاجِ وأذكارَهمْ ، وترَدِّدُها بعدَهمْ .

٤ ـ وَغُـدُوِّي ، وأهـلُ مكَّـةَ حَـوْلـي   ونُلَبِّـي بـذي طُـوًى عُمّـارا

وكانَ ذهابي وأهلَ مكةَ في الصباحِ إلى الكعبةِ المُشَرَّفةِ مُرَدِّدينَ دعاءَ التَّلبِيَةِ : لَبَّيكَ اللهمَّ لبَّيكَ من ذي طُوًى (قربِ مكةَ) معتمرينَ طالبي الزيارةِ .

٥ ـ وقيـامـي فـي القـائمينَ بليـلٍ   وصيـامـي فـي الصـائميـنَ نهـارا

وكانَ التزامي بالعبادةِ بصحبةِ أهلِ مكةَ قويًّا ، إذْ كنتُ أصلّي قيامَ الليلِ معهمْ ، وأصومُ في النهارِ معهمْ .

٦ ـ ورَفيفُ الرِّكابِ أَمُّهُ قبرُ الـ ـمصطفى تحتَ أرحُلي مُزْدارا

وكانَتْ سرعةُ الإبلِ ، وقصدُ الرَّكْبِ زيارةَ قبرِ المصطفى ، صلّى اللهُ تعالى عليهِ ، وسلَّمِ ، تجعَلُ رَحْلِي ، يضطربُ على دابتي اضطراباً شديداً .

٧ ـ طلباتٌ أصَبْتُها ، ثمَّ ضَيَّعْـ ـتُ كخرقاءَ حَصّلَتْ أوثارا

وكان لي مطالبُ كثيرةٌ ، تمكَّنْتُ منَ الحصولِ عليها ، ولكني قَصَّرْتُ في صونِها ، فضاعَتْ مني كما ضَيَّعَتِ الريحُ الشديدةُ فُرُشاً وطيئةً مريحةً .

٨ ـ يالَها فوزَةً ، تَنالُ قداحي لو لَقيتُ الحِمامَ للهِ جارا

فيالَحُسنَ نجاحي في اتِّجاهِ سهامي نحوي ، وإنْ أتاني الموتُ وكُنْتُ جاراً للهِ ـ عَزَّ ، وجلَّ ـ .

☆☆ ١٠ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في التأمُّلِ في الكونِ :

١ ـ باتَتْ تُقَلِّبُني الهمومُ مُقَلَّباً في الفطرةِ العُلْوِيَّةِ أفكاراً

كانت ليلتي ليلةً ليلاءَ أقَضَّتْ مضجعي ، فلم يهدأْ لي جانبٌ ، وتكاثرتْ عليَّ الهمومُ ، فحاولتُ أنْ أهربَ منها بالتَّفَكُّرِ بقدرةِ اللهِ العلويَّةِ وخَلْقِهِ العظيمِ .

٢ ـ فلكٌ يدورُ على الأنامِ ، وإنهُ سيدورُ أحقاباً ، وكم قد دارا

فوجدتُ مدارَ الزمانِ ، يدورُ على الناسِ ، وسيدورُ دهوراً ، وتساءَلْتُ : كم دورةً كانَتْ لهُ ، وستكونُ ؟

٣ ـ شُهُبٌ سوائرُ ، وهي في تَسْيارِها تَقِصُ القِوَى ، وتُقَضِّبُ الأعمارا

ورأيتُ نجومَ السماءِ سيّارةً ، تراقبُ في سيرِها قِوَى الناسِ ، فتَكسِرُها ، وأعمارَهُمْ ، فتُقَطِّعُها .

☆☆ ١١ ـ وقالَ على بحرِ السريعِ في الرثاءِ والتعزيةِ :

١ ـ تجارةُ الدنيا ، هي الخاسرهْ طُوبَى لمنْ يعملُ للآخرهْ

من يكنْ همُّهُ الدنيا وزينَتها فإنهُ خاسرٌ ، لا محالةَ ، وطابَتْ حياةُ الذي يضعُ الآخرةَ نِصبَ عينيهِ ، وحَسُنَتْ أحوالُهُ .

٢ ـ إنَّ لباسَيكَ ، لباسُ التُّقى خيرُهما لا الحُلَّةُ الفاخِرهْ

وأمامَكَ أيّها الإنسانُ رداءانِ ، رداءُ التُّقَى البسيطُ ورداءُ الآخرةِ غالي الثمنِ ، فارتَدِ خيرَهما .

٣ ـ يا مُبْغِضَ الفقرِ ، لعلَّ الغنى شَرٌّ إذا ما جاءَتِ الفاقِرهْ

فيا أخي إنكَ تكرَهُ الفقرَ ، وتحبُّ الغنى الذي قد يكونُ لكَ فيه بؤسٌ وشقاءٌ إذا حَلَّتِ المصيبةُ كاسرةُ الظهر ومحطِّمَةُ النفسِ .

٤ ـ تَتْبَعُ أمرَ النفسِ ، والحينُ أنْ تَتْبَعَ ما النفسُ بهِ آمِرهْ

وتُطيعُ أوامرَ نفسِكَ ، والهلاكُ في إطاعةِ أوامِرها ، فاذكُرْ قولَ يوسفَ ـ عليه الصلاةُ والسلامُ في القرآنِ الكريم : ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف/ ٥٣] .

٥ ـ تُؤمِنُ بالبعثِ وما هكذا يُعْبَدُ مُحْيي الأعظُمِ الناخِرهْ

وتظُنُّ أنكَ تؤمِنُ بيوم القيامةِ والحسابِ ، وغابَ عنكَ أنَّ الإيمانَ الحقَّ ، هو إدراكُ أنَّ اللهَ ـ عزَّ ، وجلَّ ـ سيبعثُ الحياةَ في ذلكَ اليومِ في العِظامِ الباليةِ ، ويُنْشِزُها لحماً ، لِتشْهدَ على ما صنعَ الإنسانُ في دنياهُ .

٦ ـ فعلُكَ يحكي فِعْلَ منْ قالَ : ﴿ أإنّـ ـنا لَمَرْدودونَ في الحافرهْ ﴾ ؟

وفعلُكَ اليومَ يشبهُ فِعْلَ الشاكِّ بأمرِ البعثِ القائلِ : ﴿ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ﴾ ؟ [النازعات/ ١٠] .

٧ ـ تُوَفِّرُ السعيَ على القَصْرِ والـ قبرُ مساعيكَ لهُ قاصِرهْ

تَبْذُلَ جهدَكَ ومالكَ في سبيلِ بناءِ قصرٍ ، تنعَمُ فيه في حياتِكَ الدنيا ، ولا تَمُدُّ بصرَكَ ، وتُجْهِدُ نفسَكَ لبناءِ ما ينتظرُكَ في القبرِ وفي الآخرةِ .

٨ ـ الدارُ لا تُغْني وآلاتُها عنكَ إذا دارَتْ بكَ الدائِرهْ

فدارُكَ وأثاثُها ، لا تفديكَ إذا دارَتْ ، وانقلبَتْ بكَ الأيامُ .

٩ ـ تُوحِشُني الدارُ التي أصبحَتْ ساحاتُها مأهولةً عامِرهْ

وأُحسُّ بِغربةٍ شديدةٍ حينَ يضمُّني القبرُ ، وأتركُ دارَ الدنيا الملأى بالناسِ ، وأعلمُ أنه ، لا رجعةَ لي إليها .

١٠ ـ دارٌ ، غداً تُقْفِرُ منْ أهلِها في حُكْمِ أُخْرى قَفْرَةٍ غامِرهْ

أو ستصيرُ خاليةً مِنَ السكانِ ، وتَتَحَوَّلُ إلى أطلالٍ خَرِبَةٍ .

١١ ـ ما أشبهَ الدنيا بآلٍ جَرَى وأهلَها بالظُّعُنِ الباكِرَهْ

فما أشبَهَ الدنيا وزوالَها بِسَرابٍ ، سارَ حاملاً نساءَهُ في الهوادجِ في أوقاتِ الغداةِ .

١٢ ـ أحْرقَتِ اليومَ قلوبَ العُلا ظعينةٌ نحوَ الرَّدَى سائِرَهْ

فاليومَ سارَتْ سَيِّدةٌ في هودجِ الموتِ ، فتركَتْ حُرقَةً في قلوبِ الناسِ والمجدِ .

١٣ ـ أودَعها سِجْفَ الثَّرى حتْفُها بعد سُجوفِ العِفَّةِ الساتِرَهْ

وقَدَّمَ لها الموتُ سِتْراً منَ الترابِ غيرَ أستارِ العِفَّةِ والعِزَّةِ التي كانَتْ ترتديها في الحياةِ .

١٤ ـ مَضَتْ عنِ السِّتْرِ إلى السِّتْرِ لم تَصِلْ إليها أعينٌ ناظِرَهْ

وانْتَقَلَتْ مِنْ سِتْرٍ إلى سِتْرٍ دونَ أنْ تراها أعينُ الناسِ .

١٥ ـ كأنها قالَتْ : إذا الأرضُ لم تكُنْ حجابي فأنا الظاهِرهْ

وكأنها كانَتْ تقولُ لِمَنْ حولَها : إذا لم يَكنْ باطنُ الأرضِ سِتْراً لي فأنا ظاهرةٌ للعِيانِ .

١٦ ـ لم تَرَها شَمْسٌ سوى شَمْسِها شمسِ المعالي الطَّلْقَةِ الزاهِرَهْ

لم يَنْظُرْ إليها أحدٌ ، ولو كانَ ذا مكانةٍ عظيمةٍ ، غيرُ شمسِ المكرُماتِ التي أشرقَتْ في قلوبِ الناسِ الأصفياءِ .

١٧ ـ طاهرةٌ لم تَكُ في جَنْبِها قطرَةُ ماءِ المزنِ بالطاهِرَهْ

وطهارَتُها ، يعرفُها الناسُ كلُّهُمْ ، حتى إنهمْ ، يَشهدونَ أنَّ ماءَ المطرِ ، لم يُصِبْها منه قطرةٌ طاهرةٌ واحدةٌ منهُ لِتُطَهِّرَها .

١٨ ـ أبْغَضَتِ الغَدْرَ ، فلم تَرْضَ أنْ تَسْكُنَ داراً لم تزلْ غادِرَهْ

وكرِهَتِ الغدرَ والمكرَ ، ولم تقبَلْ أنْ تَقْرَبَ مكاناً كانَ ، وما يزالُ فيهِ شيءٌ منَ الشَّرِّ والغَدْرِ .

١٩ ـ فاسْرَعَتْ في بيعِها ، واشترَتْ جناتِ عدنٍ ، نِعْمَتِ التاجِرَهْ

وأسْرَعَتْ ، فباعَتْ كلَّ ما يشوبُ الدنيا منَ الغشِّ والخداعِ والشَّرِّ ، واشترَتْ به أعمالاً ، تُسْكِنُها بإذنِ اللهِ تعالى جناتٍ ، تقيمُ بِها إلى أبدِ الآبدينَ ، فَنعمتِ التاجرةُ هي .

٢٠ ـ اصبرْ ، ولا تَخْرَعْ ، فأنتَ الذي في كلِّ خَطْبٍ نفسُهُ صابِرَهْ

فَتَحَلَّ بالصَّبْرِ ، ولا تَضْعُفْ ، فإنكَ أنتَ الذي كنْتَ في كلِّ أمرٍ عظيمٍ ذا نفسٍ صابرةٍ .

٢١ ـ فَأَنْتَ ، رعاكَ اللهُ ، منْ معشرٍ كانوا ليوثَ الغَيضةِ الخادِرَهْ

ولو أنتَ ، حفِظكَ اللهُ ، منْ فئةٍ ، كانَ رجالُها أسودَ أجمةٍ ، تَهُبُّ لنصرةِ المظلومينَ منْ خدورِها .

٢٢ ـ والليثُ إنْ ماتَتْ لهُ لبوةٌ لم تَجْرِ منْ أجفانِهِ بادرهْ

والأسدُ إذا أصيبَ بموتِ لَبْوتِهِ لا ترى في أجفانِهِ دمعةٌ ، تعبِّرُ عنْ ضعفِهِ .

٢٣ ـ واسْلُ بـأشبـالِـكَ عنهـا ، فهـمْ أغصـانُ تلـكَ الـدوحـةِ النـاضِـرَهْ

وانظرْ إلى أولادِكَ ، يَخِفَّ حزْنُكَ ، فهمْ أجزاءُ تلكَ الشجرةِ الكبيرةِ التي كانَتْ غنيَّةً بحُسْنِها ونضارتِها .

٢٤ ـ وخُـذْ مقـالاً إنْ تَـزُرْ مـأتمـاً فهـو لعمـري عُـرُسٌ حـاضِـرَهْ

واجعَلْ قصيدتي ، إنْ أردْتَ أن تذهبَ إلى مجلس حُزْنٍ وعزاءٍ ، فَرَحَ عُرُسٍ ، تُلْقَى فيه أجودُ القصائدِ ، وتُقدَّمُ فيه أطايبُ الأطعمةِ .

٢٥ ـ نـادرةً فـي الشعـرِ ، لكنهـا مـنْ فهـمِ مثلـي ليـسَ بـالنـادِرَهْ

عجباً ، فهي منْ نوادِرِ الشعرِ وعجائبِه ، خارجةٌ عمّا تَعَوَّدَ الناسُ عليهِ ، ونتاجُ إدراكِ عقلٍ ، قد يكونُ لهُ شبيهٌ منْ غيري .

☆☆ ١٢ ـ وقالَ على بحرِ المتقاربِ في الشكوى :

١ ـ ألا مـا أقـلَّ سـروري بمـا أصَبْـتُ ، وهمّـي مـا اكثَـرَهْ

لقد صارَتْ مدةُ فرحي قصيرةً جدًّا ، وصارَ غَمّي عظيماً ، فبَلَغا غايةَ العَجَبِ التي ليسَ بعدَها عَجَبٌ .

٢ ـ شَقيـتُ بمـا هـو سَعْـدُ السعـودِ فللـهِ جِـدِّي مـا أعْثَـرَهْ

وقاسَيتُ منَ الشقاءِ ما قاسَيتُ بما يَحْمِلُ حلولُ سَعْدِ السعودِ منْ جمالِ الطبيعةِ على الرغمِ من جِدِّي واجتهادي الذي لا يَفْتَأُ ، يكبو ، ويَتَعَثَّرُ .

☆☆ ١٣ ـ وقالَ على بحرِ السريعِ في النصحِ :

١ ـ قـولا لشيـخ ، هَـزَّ مـنْ عِطْفِـهِ أنْ نَعَشَتْـهُ دولـةٌ زاهـرهْ :

يا صاحِبيَّ قولاً لمنْ كَبِرَتْ سِنُّهُ ، وحَرَّكَ كَتِفَهُ تيهاً حينَ سَرَّتْهُ ، وأفْرَحَتْهُ أيامٌ قليلةٌ جميلةٌ :

٢ ـ لا تَغْتَـرِرْ فـالمـرءُ يُـرْمَـى بـهِ فـي النَّعْشِ بعـدَ النعشـةِ الآخِـرهْ

لا تَنْخَدِعْ ، و لا تَطْمَعْ بدوامِ هذهِ الأيامِ ، فما هي إلاّ الأيامُ التي تسَمَّى بصحوةِ الموتِ والتي يجعلُها اللهُ تعالى للإنسانِ تذكِرَةً لِما قدَّمَتْ يداهُ ، لعلَّهُ يحاسِبُ نفسَهُ قبلَ فواتِ الأوانِ قبلَ عدمِ قبولِ التوبةِ .

☆☆ ١٤ ـ وقال على بحرِ الرجزِ في النصحِ أيضاً :

١ ـ وتَـرْكُ نَتْـفِ اللِّحْيـةِ الكبيـرهْ كبيـرةٌ عنـدَ ذوي البَصيـرهْ

إنَّ عدمَ الاعتناءِ بتهذيبِ اللِّحْيةِ الكَثَّةِ أمرٌ كريهٌ ، يقربُ منَ الكبائرِ التي يحاسَبُ عليها الإنسانُ حساباً عظيماً عندَ أهلِ العلمِ والفقهِ .

☆☆ ١٥ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في الحنينِ إلى مكةَ :

١ ـ قامَتْ لِتَمْنَعَني المسيرَ تُماضِرُ   أنَّى لها ، وغِرارُ عَزْمي باتِرُ ؟

لقد هَمَمْتُ بالسفرِ ، فَهَبَّتْ تُماضِرُ ، تريدُ أنْ تَرُدَّني عنه ، فقلتُ في نفسي : كيفَ تستطيعُ منعي ، وشِدَّةُ هِمَّتي قاطعةٌ كلَّ مَنْ يقفُ بوجْهِها ؟

٢ ـ شامَتْ عقيقةَ عزمتي ، فحنينُها   رعدٌ ، وعيناها السحابُ الماطرُ

ثم تَطَلَّعَتْ إلى السماءِ ، فرأتْ برقةً مستطيلةً فيها ، فعرفَتْ أنها هِمَّتي وأنَّ صوتَها رعدٌ وأنَّ عينَيها السحابُ الذي يأتي بالمطرِ .

٣ ـ حِنِّي رويداً ، لنْ يَرِقَّ لِظَبْيَةٍ   وبُغامِها ليثُ العرينِ الزامرُ

فقلْتُ لها : يا تماضِرُ قلِّلي منْ شدةِ اهتمامِكِ بي وبمنعي منَ المسيرِ ، فإني كالأسدِ الجالسِ بُرهةً ، لا يَرِقُّ قلبُهُ لغزالةٍ ، ولو سمعَ صوتَ أنينِها .

٤ ـ أرخي قِناعَكِ يا تُماضِرُ ، وامسحي   عينَيكِ صابرةً ، فإني صابرُ

فارفعي خِمارَكِ يا تُماضِرُ ، وامسحي دموعَكِ ، وتَصَبَّري فإني ملتزمٌ الصبرَ .

٥ ـ لو أشْبَهَتْ عَبَراتُ عينِكِ لُجَّةً   وتَعَرَّضَتْ دوني ، فإني عابرُ

فلو صارَتْ دموعُ عينيكِ موجةَ بحرٍ شديدةً ، ووقفَتْ في وجهي لِتمنَعَني منَ المسيرِ ، فإنها ، لا تتمكَّنُ منْ ذلكَ ، وأتابعُ سيري .

٦ ـ إنـي لَذو جِدٍّ كما جَرَّبْتِني   صُلْبٌ ، وبعضُ الناسِ رِخْوٌ فاتِرُ

وإني لَصاحبُ عزمٍ واجتهادٍ وقوةٍ كما عَرَفْتِني ، وغيري منْ الناسِ لَيِّنٌ هَشٌّ ضعيفٌ ، لا حولَ له ولا قوةَ .

٧ ـ إنْ عَنَّ لي أمرٌ فلي عنْ رفضِهِ   ناهٍ ، وبالإطنابِ فيه آمرُ

إذا لاحَ لي أمرٌ ، واعْتَرَضَني ، فراقَني ، فإنني أتعلَّقُ به ، ولا أنتهي عنْ ردِّهِ ، وأزيدُ في وصفِ مدحِهِ ، وآمُرُ بالتَّمسكِ به .

٨ ـ فإذا عزَمْتُ على تَخاذُلِ نَهْضتي   أمضى العزيمةَ جِدّي المُتناصِرُ

وإذا أردْتُ أنْ أثبِّطَ هِمَّتي ، وأُضعِفَها ، فإنَّ طبعي : جِدّي واجتهادي الدافعَ إلى العِزِّ والمجدِ والناصرَ له ، يُجدِّدُ عزمي ، ويُقَوِّيهِ .

٩ ـ والجِدُّ شيمةُ مَن لهُ عِرقٌ إذا عُدَّتْ عروقٌ في الحرائرِ طاهرُ
والاجتهادُ صفةُ منْ ، أصلُهُ طاهرٌ حينَ تُصَنَّفُ الأُصولُ .
١٠ ـ ما فَضَّلَ المَهْرِيَّ إلاّ أنهُ بالجِدِّ في طَيِّ المراحلِ ماهرُ
ما فَضَّلَ الجملَ المنسوبَ إلى مَهْرةَ بنِ حَيدانَ اليمنيِّ على غيرِهِ إلاّ مُواظبتُهُ على الجري ومَهارَتُهُ في صعودِ الجبالِ ونزولِهِ منها ، وكأنَّ الأرضَ تحتَ حوافرِهِ بساطٌ ، يطويهِ في كلِّ مرحلةٍ .
١١ ـ سيري تُماضِرُ حيثُ شِئتِ، وحَدِّثي إنــي إلــى بطحــاءِ مكــةَ ســائــرُ
فاذهبي يا تماضِرُ إلى حيثُ تُريدينَ ، وأخبري مَنْ تَرينَ أني ذاهبٌ إلى مكةَ وما يحيطُ بها منَ الشِّعابِ .
١٢ ـ حتى أُنيخَ ، وبينَ أطماري فتىً لِلْكَعْبةِ البيتِ الحرامِ مجاوِرُ
وهناكَ أُبركُ ناقتي ، وبينَ أثوابي الباليةِ شابٌّ ، يريدُ أنْ يكونَ جاراً للكعبةِ المشرَّفَةِ .
١٣ ـ مُتَعَوِّذٌ بالرُّكنِ يدعو ربَّهُ يشكو جرائرَ بَعْدَهُنَّ جرائرُ
مُلْتَجئاً إلى الركْنِ المُقَدَّسِ بالحِجْرِ المبارَكِ ، يطلُبُ منْ ربِّهِ الخلاصَ منْ آثامٍ كثيرةٍ متراكبةٍ .
١٤ ـ يشكو جرائرَ ، لا يُدانيها الثَّرى عدداً ، ولا مَوجُ البحارِ الزاخرُ
ويَتَذَمَّرُ منْ أجرامٍ كثيرةٍ ، لا تساوي ذرّاتِ الترابِ في عددِها ولا أمواجَ البحرِ العاليةَ .
١٥ ـ يشكو جرائرَ، لا يكاثرُها الحَصَى لكنّها مثلُ الجبالِ كبائرُ
ويَتَمَلْمَلُ منْ ذنوبٍ كثيرةٍ ، لا يَبْلُغُ عددُ الحَصَى كثرتَها ، لكنها ، تشبهُ الجبالَ في ثِقَلِها ، وتُسَمَّى كبائرَ .
١٦ ـ واللهُ أكبَرُ رَحْمةً ، واللهُ أكـ ـثَرُ نعمةً ، وهو الكريمُ القادرُ
ويعلَمُ حقَّ العلمِ أنَّ اللهَ ذو رحمةٍ ورأفةٍ أوسعَ ، وذو نعمٍ أكثرَ ممّا ذكرَ وأنهُ ، هو الوحيدُ في الكرمِ والقدرةِ .
١٧ ـ وأحقُّ ما يشكو ابنُ آدمَ ذنبُهُ وأحقُّ مَنْ يشكو إليهِ الغافرُ
وأشَدُّ شيءٍ ، يَضيقُ به الإنسانُ ، هو ذنبُهُ ، وأحقُّ مَنْ يدعوهُ المرءُ ، ويلجأُ إليهِ ، هو اللهُ ماحي الذنوبِ .
١٨ ـ فعسى المليكُ بفضلِهِ وبِطَولِهِ يكسو لباسَ البَرِّ من هو فاجرُ

فلعلَّ اللهَ ، عَزَّ ، وجلَّ ، بكرمِهِ وقدرتِهِ يعطي العاصيَ العاتيَ ثوبَ الخيرِ والطاعةِ ، فيتوبَ بارتدائِهِ .

١٩ ـ يا مَنْ يسافرُ في البلادِ مُنَقِّباً إنـي إلـى البلـدِ الحـرامِ مسـافـرُ

يا أيُّهذا المسافرُ باحثاً عن رزقِكَ إني مسافرُ أيضاً ، وإنَّ سفري إلى البيتِ الحرامِ .

٢٠ ـ إنْ هاجرَ الإنسانُ عن أوطانِهِ فـاللهُ أَوْلَـى مَـنْ إليـهِ يُهـاجـرُ

وإنْ أرادَ المرءُ أنْ يرحلَ عن وطنِهِ فأفضلُ رحلةٍ لهُ ، هي الهجرةُ إلى بيتِهِ ـ عَزَّ ، وجلَّ ـ .

٢١ ـ وتجارةُ الأبرارِ تلكَ ، ومَنْ يَبِعْ بـالـديـنِ دنيـاهُ ، فنعـمَ التـاجـرُ

وإنَّ التجارةَ الفُضْلى هي تجارةُ الصالحينَ الذينَ يجعلونَ مصدرَ عيشِهِمْ في مكةَ والمدينةِ لأنَّ منْ يجعلْ تجارَتَهُ للآخرةِ يكنِ اللهُ راضياً عنهُ ، ويكنِ الناسُ مُثْنينَ عليهِ .

٢٢ ـ تاللهِ ما البيعُ الربيحُ سوى الذي عَقَـدَ التَّقِـيُّ ، وكـلُّ بيـعٍ خَـاسِـرُ

وإني لأقسمُ أنَّ البيعَ المربحَ ، هو الذي يكونُ التُّقَى غايتَهُ ، وأنَّ كلَّ بيعٍ ، لا يقومُ بِتَقْوَى اللهِ ـ عَزَّ ، وجلَّ ـ خاسرٌ ، لا محالَةَ .

٢٣ ـ خَـرَّبْـتُ هـذا العمـرَ غيـرَ بَقِيَّـةٍ فَلَعَلَّنـي لـكِ يـا بَقِيَّـةُ عـامـرُ

وقد قضيتُ عمري في أعمالِ الشَّرِّ ، فَهَدَمْتُهُ إلاّ قليلاً منهُ ، وعساني أنْ أستطيعَ أيتها البقيَّةُ الباقيةُ منْ عمري أنْ أعملَ لِعُمْرانِكِ بالخيرِ .

٢٤ ـ وعَهِـدْتِ بـي فـي كـلِّ شـرٍّ أوَّلاً فَلَعَلَّنـي فـي بعـضِ خيـرٍ آخـرُ

فإنكِ قد عَرَفْتِني منذُ فترةٍ طويلةٍ شريكَ كلِّ شَرٍّ ، فعساني أنْ يَتَغَيَّرَ أمري ، ويَنْصَلِحَ بعضُ حالي ، فيَصيرَ في آخرِ عمري خيراً كلُّهُ .

٢٥ ـ في طاعةِ الجَبّارِ أبذُلُ طاقتي فيهـا لِكَسْـرِيَ جـابـرُ

وإني أُجْهِدُ نفسي بكلِّ ما أوتيتُ منْ قوةٍ لطاعةِ اللهِ العظيمِ الذي يَرُمُّ كسرَ عظامي .

٢٦ ـ سـأروحُ بيـنَ وفـودِ مكـةَ وافـداً حتـى إذا صـدروا ، فمـا أنـا صـادرُ

وسأكونُ أحدَ القادمينَ إلى مكةَ حاجًّا ، ولكنني لَنْ أعودَ إلى موطني مِثْلَهمْ إذا حانَ موعدُ الرجوعِ .

٢٧ ـ بِفنـاءِ بيـتِ اللهِ أضـربُ قُبَّتـي حتـى يَحُـلَّ بـيَ الضـريـحَ القـابـرُ

وسأجعلُ بساحةِ بيتِ اللهِ الحرامِ قُبَّةً ؛ أقيمُ فيها حتى يحينَ موتي ، ويصيرَ مُقامي في قبري .

٢٨ ـ أُلْقي العصا بينَ الخَطيمِ وزمزمٍ   لا يَطَّبينـــي إخـــوةٌ وعشـــائـــرُ

وأجعلُ تَنَقُّلي بينَ الخَطيمِ وزمزمٍ لأني غَدَوتُ ، لا يُعجِبني ، ولا يُريحُني ، ولا يروقُني أخٌ ولا قريبٌ ، فيكونَ صديقاً لي .

٢٩ ـ ضيفاً لِمولًى ، لا يُخِلُّ بضَيفِهِ   ويُـزِلُّ أقصـى مـا تَمَنَّـى الـزائـرُ

وأبقى ضيفاً لربٍّ ؛ لا يتركُ ، ولا يدعُ واجباً من واجباتِ الضيافةِ دونَ أنْ يُقَدِّمَهُ لهُ ، ويُهَيِّئُ لهُ أكثرَ ما يتمناهُ الضيفُ منْ صاحبِ الدارِ منْ إكرامٍ .

٣٠ ـ حسبي جوارُ اللهِ حسبي وحدَهُ   عـنْ كـلِّ مفخـرةٍ يَعُـدُّ الفـاخـرُ

وأغُضُّ طرفي عنِ المفاخِرِ التي تُنْكَرُ لكلِّ مُفْتَخِرٍ ، وأقولُ : كفاني جوارُ اللهِ فخراً .

٣١ ـ سأقيمُ ثَمَّ ، وثَمَّ تُدْفَنُ أعظُمي   ولسـوف يبعثُنـي هنـاكَ الحـاشـرُ

وسأقيمُ في هذا المكانِ بقيةَ عمري ، وسَيُدْفَنُ جَدَثي هناكَ ، ومنْ هناكَ سيبعَثُني اللهُ تعالى يومَ الحشرِ .

٣٢ ـ يا ليتَ شعري ، والحوادثُ جمَّةٌ   والغيـبُ فيـه للحكيـمِ سـرائـرُ

وليتني ، أعلمُ ، وحوادثُ الدهرِ كثيرةٌ ، وعلمُ اللهِ الحكيمِ سِرٌّ ، يغيبُ عنِ الناسِ .

٣٣ ـ والعبدُ يحرصُ أنْ يُنَفِّذَ عزمَهُ   ووراءَ عـزمِ العبـدِ حكـمٌ قـاهـرُ

والعبدُ حريصٌ كلَّ الحرصِ على تحقيقِ آمالِهِ ، وحكمُ اللهِ القادرِ القاهرِ فوقَ هِمَّةِ العبدِ .

٣٤ ـ هـل فـي قضـاءِ اللهِ أنـي قـادمٌ   أمَّ القـرى ، فـإلـى البَنِيَّـةِ نـاظـرُ ؟

هل قضى اللهُ ، وأرادَ أنْ أقدِمَ إلى مكةَ ، وانظُرَ إلى الكعبةِ المشرَّفةِ ؟

٣٥ ـ فَمُقَبِّلُ الحَجَرِ المُمَسَّحِ مُلْصِقاً   خَـدّي بـهِ ، وعليـه دمعـي قـاطـرُ

فألْثُمَ الحَجَرَ المقدسَ الذي يَتَمَسَّحُ بهِ الناسُ ، وألْصقَ خَدِّي بهِ ، ودمعي يَنْهَلُّ منْ عَينيَّ ، ويقطِرُ عليهِ .

٣٦ ـ فبـذلـكَ البيـتِ المُسَتَّـرِ طـائـفٌ   فـي ثـوبَـي الإحـرامِ أشعـثُ حـاسـرُ

وأطوفَ حولَ البيتِ الحرامِ المُغَطَّى بثوبهِ الجليلِ ، وأنا لافٌّ ثوبَ الإحرامِ الأولَ حولَ خصري ، ورامٍ الثوبَ الآخرَ على كتفي الأيسرِ ، حاسرُ الرأسِ أشعثُ الشعرِ .

٣٧ ـ فمبـادرٌ للسَّعْـيِ مـا بيـنَ الصفـا   والمـروةِ ، العبـدُ المُجِـدُّ مُبـادِرُ

وأعجَلَ للسَّعْيِ بينَ الصَّفا والمروةِ ، وأكونَ منْ عبادِ اللهِ المجدِّينَ المسرعينَ لتلبيةِ أوامرِ اللهِ ـ عزَّ ، وجلَّ .

٣٨ ـ فَمُراقبٌ نَفَرَ الحجيج إلى مِنىً فـإلـى مِنًـى قِبَـلَ المُعَـرَّفِ نـافِـرُ

وأنظرَ إلى جماعاتِ الحجّاجِ المُتَّجهينَ إلى مِنًى ، ثم أنْفُرَ إلى مِنًى معهم ، وعيناي لا تبرحانِ النظرَ إلى جبلِ الرحمةِ في عرفاتٍ .

٣٩ ـ فإلى المُعَرَّفِ نافرٌ حيثُ التقَتْ مِـنْ كـلِّ أقطـارِ البـلادِ جمـاهـرُ

واتجهَ إلى عرفاتٍ حيثُ اجتمعَتْ وفودُ الحجّاجِ منْ أقطارِ الأرضِ .

٤٠ ـ بهِـمْ يُبـاهـي اللهُ فـي ملكـوتِـهِ أهـلَ السمـواتِ العُـلاَ ، ويُفـاخِـرُ

وبهذهِ الوفودِ التي لا يُحْصى عددُها يُفاخرُ اللهُ ـ جلَّ شأنُهُ ـ في مجلسِهِ على عرشِهِ ملائكةَ السمواتِ العاليةِ .

٤١ ـ حتى إذا دلكَتْ بـراحُ ، فطـارقٌ جُمْعـاً ، فمنـهُ إلـى المُحَصَّـبِ بـاكـرُ

وحينَ تبدأُ الشمسُ بالغروبِ أذهبُ إلى جَمْعٍ إلى المزدلفةِ ، فأصلُ إليها ليلاً ، ثم أتوجَّهُ منها إلى المحَصَّبِ : مكانِ رمي الجمارِ ، وأتَهَيَّأُ إليهِ في الصباحِ الباكرِ .

٤٢ ـ فَمُجَمِّـرٌ فَمُقَصِّـرٌ أو حـالِـقٌ نَحْـرَ النهـارِ ، فلِلنَّسيكَـةِ نـاحِـرُ

وأرميَ الجمارَ ، ثم أتحلَّلَ منَ الإحرامِ ، فأُقصِّرَ شعري ، أو أحلقَهُ ، وأنحرَ ما قَلَّدْتُهُ في بدءِ النهارِ .

٤٣ ـ ومتى تَضُمُّ قُتودُ رحلي ضامراً يهفـو بـهِ نحـوَ المـدينـةِ ضـامـرُ

وحينَ تُهيَّأُ خشباتُ رحلي ، وتُشَدُّ على دابتي ، يسرعُ الزمخشَرِيُّ إلى جواده النحيلِ للركوبِ والذهابِ إلى المدينةِ المنورةِ مدينةِ الرسولِ ـ صلّى اللهُ تعالى عليهِ ، وسلَّمَ ـ .

٤٤ ـ ماضٍ على الظلماءِ ، يخبِطُها إلى بلـدٍ أضـاءَ بـهِ السـراجُ الـزاهـرُ

ويمضي إلى بُغْيَتِهِ في الظلام على غيرِ هُدًى ، إلى البلدِ الذي أنارَهُ رسولُ اللهِ ـ صلى اللهُ تعالى عليه وسلَّمَ ـ .

٤٥ ـ يهـوي إلـى قبـرِ النَّبـيِّ محمـدٍ خَبَبـاً كمـا زَفَّ الظليـمُ النـافـرُ

ويَنْحَدِرُ جَوادُهُ مُسْرِعاً نحوَ قبرِ النبيِّ المصطفى محمدٍ بخطواتِ الخَبَبِ كما يُسْرِعُ الظبيُ الخائفُ .

٤٦ ـ للهِ مَيْـتٌ بـالمـدينـةِ قبـرُهُ قصـرٌ مشيـدٌ ، والقصـورُ مقـابـرُ

رحِمَ اللهُ تعالى مَيْتاً ، مكانُ قبرِهِ في المدينةِ المنورةِ أعظمُ منْ أيِّ قصرٍ مبنيٍّ بالحجارةِ المكسوةِ بالجِصِّ المَشْوِيِّ ، ومقابرُ الآخرينَ قصورٌ عظيمةٌ .

٤٧ ـ للهِ مَيْتٌ كـلُّ حـيٍّ لـم يكُـنْ بهـداهُ حيًّـا ، فهـو عظـمٌ نـاخـرُ
وأعانَ اللهُ مَيْتاً ، لم يكنْ بحياتِهِ مهتدياً بِهُدَى اللهِ ، وعاشَ كالمَيْتِ الذي بَلِيَتْ عِظامُهُ ، لا قيمةَ لهُ .

٤٨ ـ إنْ لم أنَلْهُ ، ولم يكنْ مِنِّي لهُ بِسنـانِ رُمْحـي أو لسـانـي نـاصِـرُ
فإنْ لم أحْظَ بلقائِهِ حيًّا ، ولم يكنْ مني لهُ سيفٌ قاطعٌ أو رمحٌ طاعنٌ أو لسانٌ بليغٌ أهدي بهِ ، وأنصرُ .

٤٩ ـ فـأنـا النَّصـورُ لِـوَحْيِـهِ بـدلائـلٍ وجـهُ اليقيـنِ بهـنَّ أبلـجُ زاهـرُ
فإنني أنا الذي أستطيعُ أنْ أنصرَ وحيَ اللهِ تعالى بحججٍ وبراهينَ دامغةٍ ، تبيِّنُ وحدانيَّةَ اللهِ ، عَزَّ ، وجلَّ ، وأسماءَهُ الحسنَى ويومَ المعادِ بياناً أبيضَ ناصعاً .

٥٠ ـ مَـنْ يَلْقَهُـنَّ بِفَهْمِـهِ فكـأنمـا فـي مسمَعَيـهِ الـوحـيُ غَـضٌّ نـاضِـرُ
فمنْ يأخُذْ تعاليمَ هذا الدينِ الحنيفِ مأخذَ الإدراكِ فكأنَّ القرآنَ الكريمَ أوجَدَ في أذنيهِ طريقاً سهلاً حسناً .

٥١ ـ ويَهُزُّ منْ عِطْفي إذا جَنَحَ الدُّجى أملـي كمـا هـزَّ الجنـاحَ الطـائـرُ
وإذا حَلَّ الظلامُ يُحِسُّ أنَّ رجاءَهُ برضا اللهِ ـ عَزَّ ، وجلَّ ـ قد تَحَقَّقَ ، فيحرِّكُ كَتِفَهُ فرحاً كما يحرِّكُ الطائرُ جناحَيهِ .

٥٢ ـ واللهُ أكـرمُ أنْ يَـرى مُتَجَـرِّداً مِـنْ حُلَّتَـي نُعمـاهُ عبـدٌ شـاكـرُ
واللهُ يُكْرِمُ حينَ يرى عبدَهُ مُتَجَرِّداً منْ أرديةِ الدنيا وزُخْرُفِها شاكراً إيّاهُ على نعمةِ الإيمانِ بهِ .

٥٣ ـ يا ربِّ إني أسْتَخيرُكَ في الذي نِطْـتُ الـرجـاءَ بـهِ ، وأنـتَ الخـائـرُ
فيا ربِّ إني أطلبُ منك أنْ تُحقِّقَ لي ما عَلَّقْتُ به أملي ، وأنتَ صاحبُ الخيرِ والمعروفِ .

٥٤ ـ وإليكَ أرغَبُ في النهوضِ بِهِمَّتي حتـى أفـي بجميـعِ مـا أنـا نـادرُ
وإني أريدُ أنْ أقوم بطاعتي إليكَ إلى أنْ أقضيَ جميعَ ما أنا خارجٌ وذاهبٌ إليه .

☆☆ ١٦ ـ وقالَ على بحرِ المنسرِح في الحكمةِ : (إنْباه الرواة ٣/ ٢٧٠)

١ ـ لابـدَّ مـنْ غفلـةٍ يعيـشُ بهـا الـ ـمـرءُ ، وإلاّ فعيشُـهُ كَـدِرُ
إنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ للإنسانِ في حياتِهِ أوقاتاً ، ينسَى بها أحزانَهُ ، ولو لم يكنْ للمرءِ

النِّسيانُ ، فإنهُ يرى عيشَهُ كلَّهُ حُزْناً وشقاءً .

٢ ـ أما رأيتَ الصحيحَ يُؤلِمُهُ ما لا يبالي بمثلِهِ الخَدِرُ

أمَا وجدْتَ أيُّها الإنسانُ أنكَ ، وأنتَ صحيحُ الجسم ، تُوجَعُ بمثلِ وَجَعِ المريضِ وامذِلالِ بعضِ أطرافِهِ ، وهو لا يَعلَمُ ، ولا يكترثُ ، بما تحِسُّ بهِ حينَ تراهُ .

☆☆ ١٧ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في الحكمةِ أيضاً :

١ ـ وإذا سفيهٌ عضَّني في مجلسٍ وهناكَ مِنْ غُرَرِ المعاشرِ مَعْشَرُ

وإذا تَعَرَّضَ لي جاهلٌ ، وآذاني بكلامٍ قاسٍ في مجلسٍ ، كانَ به كبارُ الرجالِ علماً ومكانةً .

٢ ـ فهمُ الأُلي عَضُّوا إذا ما هم رَضُوا وهمُ الأُلي مكروا إذا لم يُنْكِروا

ولم يَسْتَقْبِحوا ما بَدَرَ منه ، ولم يَرُدُّوهُ عن فِعْلَتِهِ ، فهمُ الذينَ بيَّتوا لهذا الموقفِ ، وآذَوني بهِ ، والذينَ عَضُّوا أناملَهُمْ حَسَداً وندماً .

☆☆ ١٨ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ :

١ ـ أفخرَ الفريقَينِ الذي أمرُهُ الأمْرُ هنيئاً لكَ النَّيْروزُ والعيدُ والفطْرُ

يا مَنْ يَفْخَرُ بكَ فريقا الشرقِ والغربِ يا صاحبَ الأمرِ في أهلِ الفريقَينِ هَنَّأَكَ اللهُ ، وأسعدَكَ بعيدِ الربيعِ عيدِ النَّيروزِ وعيدِ تولِّيكَ أمرَ قضاءِ خوارزمَ وعيدِ الفطرِ .

٢ ـ تَهانيكَ شَتَّى ، دُمْتَ فيهنَّ واحداً ودُمْنَ أُلوفاً مُسْتَداماً لكَ العُمْرُ

وإنَّ التَّهْنِئاتِ المُقَدَّماتِ إليكَ كثيرةٌ ، وأنتَ الواحدُ لها ، وإني لأدعو لها أنْ تكونَ دائمةً لكَ ألوفاً وأُلوفاً منَ السنينَ طولَ عُمْرِكَ .

٣ ـ وجَدْنا إساءاتِ الزمانِ كثيرةً ولكنْ بِحُسناهُ قدِ اعْتَذَرَ الدهرُ

وقد وجَدْنا ، أفرادَ الرَّعِيَّةِ ، مصائبَ الزمانِ قد تكاثَرَتْ علينا ، ثم لمّا تولَّى فخرُ الفريقَينِ منصبَهُ ، ونصرَ المظلومينَ ، كأنَّ الدهرَ ، قد اعتذَرَ منّا عمّا بَدَرَ منه .

٤ ـ فإنْ عَظُمَتْ منهُ الذنوبُ فإنها مقابَلَةٌ بالعفوِ إذْ عَظُمَ العُذْرُ

فإنْ كَبُرَتْ منْ أحدٍ ذنوبُهُ ، وتقدَّمَ هذا المذنبُ بأعذارٍ كثيرةٍ دالَّةٍ على ندمِهِ وتوبتِهِ ، فإنَّ اللهَ ـ عزَّ ، وجلَّ ـ يُقابلُها بالعَفْوِ ، وهو التّوّابُ الرحيمُ .

٥ ـ إذا شُكِرَتْ نُعْمَى فإنَّ قضاءَهُ لأَوَّلِ نَعماءٍ بها يجبُ الشُّكْرُ

وإذا اعْتَرَفَ المرءُ بنعمةِ اللهِ ، وأثنى الثناءَ الجميلَ عليها ، فإنَّ حُكْمَ اللهِ تعالى بواجبِ

الاعترافِ والثناءِ عليه قائمٌ بأوّلِ بادرةٍ منْ بوادرِ تلكَ النّعْمةِ .

٦ ـ قضاءٌ يليهِ العقلُ والعدلُ والتُّقى ويصحَبُهُ العونُ الإلهيُّ والنصرُ

وكانَ قضاؤكَ يا فخرَ الفريقَينِ حكماً ، قامَ بالعقلِ والعدلِ وخوفِ اللهِ تعالى ، فَصَحِبَهُ عَونُ اللهِ ـ عَزَّ ، وجلَّ ـ ونصرُهُ .

٧ ـ شرائطُ منشورِ ابْنِ قيسٍ ، كأنها أُتيحَ لها في طيِّ أحكامِهِ النَّشرُ

وكأنكَ اتَّخَذْتَ أحكامَكَ منْ فصولِ منشورِ عبدِ اللهِ بنِ قيسٍ أبي موسى الأشْعَرِيِّ ـ رضي اللهُ عنهُ [وهي رسالةُ القضاءِ التي كتبهَا إليه عمرُ بنُ الخطابِ ـ رضي الله عنه ـ البيان والتبيين ٢/ ٤٨ و٤٩] التي قدَّرَ اللهُ تعالى أنْ تَنْشُرَها ، وتُحقِّقَ بُنودَها .

٨ ـ بأسلافِهِ للناسِ فخرٌ ، وإنما لأسلافِهِ والناسِ طُرًّا بهِ الفخرُ

وكانَ ذلكَ المنشورُ لأهلِ ابنِ قيسٍ وأقربائِهِ فخراً لِمَنْ سبقوا فخرَ الفريقين بل كانَ الخطباءُ والناسُ كلُّهُمْ يفخرونَ به .

٩ ـ إذا أوحشَتْنا منْ أُناسٍ خَلائقٌ وعاداتُ سوءٍ عندها يُغْلَبُ الصَّبْرُ

فإذا أصابَتْنا منْ بعضِ الناسِ مخافةٌ منْ فِعالِ وعاداتِ سجاياهُمُ السَّيِّئةِ ، وغَلَبَنا الصبْرُ ، فلم نستطِعْ تجاوُزَهُ .

١٠ ـ بَدَرْنا إليهِ راكضينَ ، فآنَسَتْ خلائقُهُ الحُسْنى وأفعالُهُ الزُّهْرُ

أسرَعْنا إليهِ راكضينَ شاكينَ ذلك الظلمَ ، فاسْتَقْبَلَتْنا طبائِعُهُ الفُضْلى وأفعالُهُ العظامُ التي تشبهُ الكواكبَ الزهرَ في السماءِ .

١١ ـ كأنهمُ ليلٌ بهيمٌ تراكَمَتْ دُجاهُ ، وبَدْرُ الدينِ بينَهُمُ بدرُ

وكأنَّ هؤلاءِ الناسَ الظالمينَ ليلٌ شديدُ الظلمةِ ، تكاثَرَتْ ظُلَماتُهُ ، وكأنَّ فخرَ الفريقَينِ وقضاءَهُ بَدْرَ الدينِ ، ينيرُ أجواءَ المظلومينَ ، وينتصِرُ لهمْ .

١٢ ـ أقاسي غليلَ الصدرِ عندَ لقائِهِمْ فإنْ ألْقَ هذا الصدْرَ يَثْلُجْ بهِ الصَّدْرُ

وإني أعاني منْ ضيقِ الصدرِ عندَ رؤيةِ الظالمينَ ، وإنْ أرَ صاحبَ هذا الصدرِ الرَّحْبِ أشْعُرْ براحةٍ وسرورٍ ، يملأُ صدري .

١٣ ـ وما في خوارزمَ حالٌ تَسُرُّني كما تقتضيهِ هِمَّةُ النفسِ والقَدْرُ

ولا أرى في مدينةِ خوارزمَ أمرٌ ، يُسْعِدني سعادةً ، تُناسبُ عزيمةَ النفسِ ومكانَتَها .

١٤ ـ سوى أنني أعْتَدُّ منكَ لِضَيْقَتي بِذُخْرٍ ، وحسبي أنَّ مثلَكَ لي ذُخْرُ

إلاّ أنني ألجأُ إليكَ ، وأعوذُ بكَ وقتَ شِدّتي لأنكَ الوحيدُ المختارُ لأوقاتِ الشدةِ ، ويكفيني سروراً أنْ يَكونَ لي مثلُكَ إنساناً جديراً بالإغاثةِ والإعانةِ .

☆☆ ١٩ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في مدحِ ناظمِ قصيدةٍ ، أعجبَتْهُ :

١ ـ أبُرودُ صنعاءَ الأنيقُ نسيجُها   أم حُلَّةٌ ممّا نَمَتْهُ مَعافرُ ؟

أهي بُرْدَةٌ منْ بُرودِ صنعاءِ اليمنِ ذاتِ النسيجِ الجَيِّدِ ؟ أم هي كُسْوةٌ منَ الأكسيَةِ المصنوعةِ في مَعافِرِ اليمنِ ؟

٢ ـ أم روضةٌ في الحَزْنِ طيِّبَةُ الثرى   غَنّاءُ ، دبَّجهَا الغمامُ الماطرُ ؟

أم هي حديقةٌ في مرتَفَعٍ غليظٍ منَ الأرضِ ذاتِ الترابِ الحسنِ غَنيَّةٌ بزهورِها وورودِها وثمارِها اليانعةِ التي زَيَّنَها السحابُ المَاطرُ ؟

٣ ـ لاحَتْ بها زُهْرُ النجومِ كأنها   زُهْرُ النجومِ لو أنهنَّ عواطِرُ

أظهرَتْ بياضَها أنوارُ النجومِ ، فبدتْ لنَا كالنجومِ الزُّهْرِ في السماءِ ، لو كانَ للنجومِ عطرٌ .

٤ ـ أَمْ مِنْ جواهِرَ طُوِّقَتْ بِسُموطِها   نُجْلُ العيونِ كأنهنَّ جآذرُ ؟

أم هي منظومةٌ منْ دُرَرٍ ، جُعِلَتْ عقوداً لذواتِ العيونِ الواسعةِ كعيونِ البقرِ الوحشيِّ ؟

٥ ـ أم منْ نتائجِ فكرِ حُرٍّ ماجدٍ   لَقِحَتْ بهِ منه نُهًى وخواطرُ

أم هي ممّا أبدع عقلُ حُرٍّ عظيمٍ ، فَحَمَلَتْ به منه عقولٌ وأفكارٌ ؟

٦ ـ كعقودِ مُحْصَنِ السِّحْرِ إلاّ أنهُ   سحرٌ ، بهِ وَفَّى الذنوبَ الساحرُ

كقلائدِ صانعِ السِّحْرِ الماهرِ وحافِظِهِ ، لكنَّهُ سحرٌ قامَ الساحرُ بالآثامِ كلِّها ، فلم يُبْقِ منها شيئاً .

٧ ـ وأجَلُّ شعرٍ شِعرُ مَنْ يُثْني على   عليائِهِ في كلِّ أرضٍ شاعرُ

وأعظمُ شعرٍ وأحلاهُ شعرُ ناظمٍ ، يُطريهِ مِنْ برجِهِ العاجيِّ شاعرٌ عظيمٌ .

٨ ـ أمّا النِّزاعُ فإنهُ مُتَنازِحٌ   أقطارُهُ ، والشوقُ شيءٌ باهرُ

أمّا الشوقُ والحنينُ فإنَّ أوطانَهُ متباعِدَةٌ ، والهوى شيءٌ ، يَقْطَعُ الأنفاسَ .

٩ ـ اللهُ يعلمُ أنَّ حشوَ جوانحي   نارٌ لها الشوقُ المُبَرِّحُ ساعرُ

واللهُ تعالى ، يعلَمُ أنَّ بينَ أضلعي نارٌ ، يُلْهِبُها الشوقُ الشديدُ .

١٠ ـ أنا خادمٌ، فمتى هجَرْتُ، ولم يكنْ   بحثٌ منَ المخدومِ ، فهو الهاجرُ

وأنا عميلُكَ، فإنْ تركتُكَ، وانصرَفْتُ عنكَ، ولم تُفتِّشْ عني، فلسْتُ أنا الراحلُ عنكَ، وإنما أنتَ الراحلُ والهاجرُ؛ وكأنهُ، يعبِّرُ عما يكُنُّهُ قلبُ المتنبي حينَ رحلَ عن سيفِ الدولةِ:

إذا تَرَحَّلْتَ عن قومٍ، وقد قَدروا ألاّ تُفارِقَهُمْ، فالراحلونَ هُمُ

١١ ـ وَهَوَاجري إمّا وصلْتَ أصائلٌ وأصائلي إمّا هَجَرْتَ هواجرُ

وإني أرى أوقاتَ الهاجرةِ أوقاتَ شدةِ الحَرِّ، إنْ أتيتَني زائراً، عَشيَّةً، وأجدُ بأوقاتِ الأصيلِ غروبِ الشمسِ ورقَّةِ النسيمِ حرارةً شديدةً وضيقاً عظيماً حين تهجُرُني، وتَصْرِمُ حبلَ وِدّي.

☆☆ ٢٠ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في الرثاءِ:

١ ـ إنْ زالَ ذاكَ الشخصُ، وهو صغيرُ إنَّ المصابَ بهِ الغداةَ كبيرُ

إنْ غابَ عنا ذلكَ الإنسانُ، وهو صغيرُ السنِّ، فإنَّ مُصيبَتَنا بهِ اليومَ كبيرةٌ جدًّا.

٢ ـ ما قَطْعُ غُصنٍ للأراكةِ ذابلٍ نظيرُ قطعِ الغُصنِ، وهو نضيرُ

وليسَ قَطُّ فَرْعٍ منْ فروعِ شجرِ الأراكِ، وهو ذابلٌ، مثلَ قَطِّ فَرْعٍ أخضرَ طريٍّ.

٣ ـ كانَتْ سِنوهُ قليلةً أعدادُها لكنّما الآمالُ فيهِ كثيرُ

فإنْ كانَتْ سِنو عُمُرِهِ قليلةً، فقد كنّا، نأمُلُ، ونرجو فيه الكثيرَ منَ الأملِ والرجاءِ.

٤ ـ قَصُرَتْ مسافةُ عُمْرِهِ لصلاحِهِ وكذاكَ عُمْرُ الصالحينَ قصيرُ

وكانَتْ مسافَةُ عُمُرِهِ على قَدْرِ صلاحِهِ قصيرةً مثلَ عُمُرِ الصالحينَ القَصيرِ.

٥ ـ عَمِيَ الزمانُ عنِ اللئامِ، وإنهُ أبداً بإهلاكِ الكرامِ بصيرُ

وكأنَّ الدهرَ حينَ يغُضُّ بَصَرَهُ عنِ الأشرارِ، فلا يُهْلِكُهُمْ، يُظَنَّ أنَّهُ أعمى، لم يَرَهُمْ، وأنهُ ناظرٌ دائماً إلى كرامِ الناسِ تابعٌ إياهمْ بمصائبِهِ وبإهلاكِهِمْ.

٦ ـ تحتَ الثرى كثُرَ النظيرُ له، ولم يُعْهَدْ لهُ فوقَ الترابِ نَظيرُ

وإننا، لَنرى كثيراً منَ الأمواتِ المُشابهينَ لهُ في العُمُرِ، ولا نرى له شبيهاً بينَ الأحياءِ.

٧ ـ طابَ الترابُ لِقَبرِهِ، وكأنهُ مِسْكٌ تَضَوَّعَ تحتَهُ وعَبيرُ

وصارَ الترابُ لوجودِهِ فيه طيِّباً كطيبِ المِسْكِ المنتشرِ شذاهُ في الأرضِ والفضاءِ.

٨ ـ أأبا المكارمِ كيفَ كنتَ أباً لها ولأنتَ طفلٌ، لم تَشِبَّ، غريرُ؟

فيا أبا المكارمِ كيف صِرْتَ أباً للمكارمِ والأمجادِ، وما زلْتَ طفلاً، لم تُصْبِحْ شابًّا، ولم تَمُرَّ بتجارِبَ كثيرةٍ؟

٩ ـ أمَّ المكارم ، زَوَّجوكِ قُبيلَ أنْ يُقْضى لِسُنَّةِ وجهِكَ التَّصويرُ

ويا أمَّ المكارمِ لقد جعلوكِ زوجاً لأبي المكارمِ ، وأنتِ صغيرةٌ ، لم تَكْتَمِلْ صورةُ أنُوثتِكِ بعدُ .

١٠ ـ فَوُلِدْتَ ، والأبناءُ حولَكَ أنجمٌ زُهْرٌ ، ووجهُكَ كالهلالِ مُنيرُ

وكنْتَ وليداً ، وكانَ الأولادُ حولكَ ، همْ كنجومِ السماءِ الزُّهْرِ ، وكانَ وجهُكَ كالهلالِ في أولِ أيامِ نورِهِ .

١١ ـ ثم ارْتَحَلْتَ مُبادِراً ، وتركتَهُمْ ولهمْ وراءَكَ رنَّةٌ وزَفيرُ

وارْتَحَلْتَ عنهم سريعاً ، وشَيّعوكَ بصرخاتٍ حَرَّى وآهاتٍ جَرْحَى .

١٢ ـ وكفى بوالِدِكَ السَّمَيدَعِ جابراً لِلْمَكْرُماتِ جناحُهُنَّ كسيرُ

وحَسْبُ المكرُماتِ الكسيرةِ أجنحتِها الضعيفةِ أنْ يكونَ أبوكَ السَّيِّدُ الشريفُ رامًّا لها رؤوفاً بها .

١٣ ـ ما زالَ أيتامُ المكارمِ دونَها مِنْ راحَتَيهِ كافلٌ ونصيرُ

ولم يكنْ أبوكَ راعيَ أبنائِهِ فقط ، وإنما كانَ ، وما زالَ أباً للأيتامِ الذين أُصيبوا بآبائِهِمْ ، وضامناً لحياتهمْ ونصيراً لهم دونَ الأعداءِ .

١٤ ـ أنتَ الجديرُ بحُزنِهِ وبكائِهِ لكنَّهُ بالصبرِ عنكَ جَديرُ

فأنتَ يا أبا المكارمِ الأَوْلى بالحزنِ عليه ، بل هو الأَوْلَى بالحزنِ عليكَ ، وإنهُ الخليقُ بالصبرِ الجميلِ عنكَ .

١٥ ـ صُلْبُ القِوَى ، عَصْفُ الشدائدِ حولَهُ وكأنما هو في الثباتِ ثَبيرُ

فهو ذو قِوًى صُلْبَةٍ قاسيةٍ على الرغمِ منَ الشدائدِ العاصفةِ بهِ منْ كلِّ جانبٍ ، وكأنهُ جَبلُ مكةَ المُسَمّى ثَبيراً والثابتُ إلى أبدِ الآبدينَ .

☆☆ ٢١ ـ وقالَ على بحرِ الوافرِ في الغزلِ :

١ ـ فتاةٌ كاعبٌ في مُقْلَتَيها وخَدَّيها احمرارٌ واحوِرارُ

إنها شابةٌ في مُقْتَبَلِ عُمرِها ، احْمَرَّ خَدَّاها ، واحْوَرَّتْ عيناها .

٢ ـ وما زالَ المشيبُ إذا رأتْهُ نساءُ الحيِّ ، يَعْروها نِفارُ

وما شَخَصَ المشيبُ لها ولأترابِها ، وما عَرَفْنَهُ ، فإذا ما لاحَ لهنَّ خِفْنَ منهُ ، وهَرَبْنَ .

☆☆ ٢٢ ـ وقالَ على بحرِ الوافرِ في الشكوى :

١ ـ أتاني من هَنِيٍّ ذَرْوُ قولٍ تَبَسَّطَ منهُ في كبدي أُوارُ

جاءني منْ هَنِيٍّ طَرَفٌ منْ قولِهِ ، انتشرَ منهُ في كبدي لهيبُ نارٍ .

٢ ـ وجَدَّ بي الطِّماحُ ، فما لنومي وسيفي في مَقيلِهما قرارُ

فثارَتْ بي عِزَّتي ، وهاجَتْ كرامتي ، وهَجَرَ السكونُ نومي وسيفي ، فلم يتركْهُما ، يَهْدَآنِ في وقتِ المَقيلِ وقتِ نصفِ النهارِ .

٣ ـ فما في جفنِ بَرْقايَ غِرارٌ ولا في جَفْنِ بارقتي غِرارُ

ولم يَبْقَ لأجفانِ عَينيَّ قوةٌ على الإغماضِ والنومِ ولا لِحَدِّ سيفي غِمْدٌ ، يوضَعُ فيه .

☆☆ ٢٣ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في الرثاءِ والتعزيَةِ :

١ ـ حَيِّ الديارَ ، فإنهنَّ قِفارُ كم أَقْفَرَتْ بعدَ الأنيسِ دِيارُ

قِفْ على أطلالِ الديارِ ، وأرسِلْ تحيَّتَكَ إلى أهلِها أينما أضْحَوا ، فإنها خِلْوٌ منْ سُكانِها ، واذْكُرْ ، كم خَلَتْ ديارٌ منْ أهلِها الذينَ كانَتْ تأنَسُ بهم .

٢ ـ ومَنازلُ الدنيا مَنازلُ رحلةٍ والناسُ فيها كُلُّهُمْ سُفّارُ

وما بيوتُ هذهِ الدنيا إلاّ بيوتُ سَفْرَةٍ ، أقامَ بها أصحابُها فترةً ، ثم تركوها سُفّاراً أو مَوتَى .

٣ ـ إني لَتوحِشُني الديارُ ، وأهلُها جَمٌّ ، وفي ناديهِمُ السُّمّارُ

وإني أحسُّ بوحشةٍ كبيرةٍ في بيوتٍ ، ساكنوها كثيرونَ ، ويملأُ مجالِسَهُمْ زُوّارُها ليلاً .

٤ ـ دارٌ يكونُ رحيلُ ساكِنها غَدًا في حُكْمِ دارٍ ما بها دَيّارُ

هي دارٌ أصبَحتْ بَعدَ سَفَرِ قاطنِيها مثلَ دارٍ ، لا يسْكُنُها أحدٌ .

٥ ـ وَصَفوا نُوارَ ، وشَبَّبوا بِبُثَيْنَةٍ قل لي : فأينَ بُثَيْنَةٌ ونُوارُ ؟

وكانَ منْ بينِ ساكنيها فتاتانِ : نُوارُ وبُثَينةُ ، وَصَفَهما الشعراءُ ، ونظموا قصائدَ في التشبيبِ بهما ، فقلْ لي يا صاحبي : أينَ بُثَينةُ الآنَ ونُوارُ ؟

٦ ـ تلك المعاصِمُ والأساورُ ، هل يُرى منهنَّ ، ويحكَ ، مِعصَمٌ وسِوارُ ؟

وهذهِ القلائدُ والأساورُ هل يَرَى ، رَحِمَكَ اللهُ ، أحدٌ لها الآنَ جيدٌ أو يَدٌ ، يُزَيِّنُها قلادةٌ أو سوارٌ ؟

٧ ـ لم تَبْقَ منْ آثارِهنَّ بقيَّةٌ إلاّ الذي نطقَتْ بهِ الأشعارُ

وما بقيَ منْ آثارِ تلك الديارِ وقاطنيها إلاّ ما تحدثَتْ به الأشعارُ .

٨ ـ ولو أنَّ أنفاسَ الزمانِ تَطاولَتْ   لم تَبْقَ أيضاً هذهِ الآثارُ

ولوِ امتَدَّ الزمانُ ، وامْتَدَّتْ أوقاتُهُ ، لم نكُنْ لِنَرى هذهِ الآثارَ .

٩ ـ وكذا الزمانُ ، لَيَهْلِكَنَّ ، كأنهُ   ما كانَ للفلكِ المُدارِ مَدارُ

وسينتهي أيضاً هذا الزمانُ واللهِ لَيَذْهَبَنَّ ، وكأنهُ لم يكُنْ هو ، وما كانَ للفلكِ الذي ينتظِمُ فيه دورانُ الأرضِ والكواكبِ مَدارٌ .

١٠ ـ أينَ الوجوهُ كأنها الأقمارُ في   لألائها أودونَها الأقمارُ ؟

أينَ وجوهُ تلك الحسانِ التي تشبهُ البُدورَ ، أو تشبِهُها البدورُ ؟

١١ ـ كمُلَتْ كما كَمُلَ البدورُ ، ومالَها   بعدَ الكمالِ مِنَ الزمانِ سِرارُ

كَمُلَتْ جمالاً كما كَمُلَتِ البدورُ إلا أنَّها لم يَنْتَقِصْ شكلُها وحالُها كما تَنْتَقِصُ البدورُ ، فتصيرُ مَحاقاتٍ في أواخِرِ الشهورِ وأهِلَّةً في أوائلِها .

١٢ ـ للهِ نفسُ دفينةٍ تحتَ الثرى   طابَتْ ، فطابَ بذكرِها الإخبارُ

رحمَ اللهُ نفساً ، دُفِنَت في الترابِ طَيِّبَةً ؛ طابَ بالحديثِ عنها الإخبارُ .

١٣ ـ كانَتْ كمثلِ وديعةٍ مجحودةٍ   للمودَعينَ فما بها إقرارُ

كانَتْ تُشبهُ وديعةً لدى الذين أُودِعَتْ عندَهم ، فما قَدَروها حَقَّ قدرِها ، فما تركوها في عُهْدَتِهِمْ قريرةَ العينِ فترةً طويلةً .

١٤ ـ بستارةٍ مِنْ دونِها مضروبةٍ   كالقلبِ تُطْوَى حَشْوَهُ الأسرارُ

وَأَخْفَوها بغطاءٍ سميكٍ كغطاءِ القلبِ الذي يخفي داخِلَهُ الأسرارَ عنِ الناسِ .

١٥ ـ لكنَّ إظهارَ السريرةِ ربَّما   تُخْشَى ، ولا يُخْشَى لها إظهارُ

لِكلِّ امرئٍ أسرارٌ ، يخافُ عليها منَ الظهورِ ، فلا يُريدُ أنْ يَعْلَمَ أحدٌ عنها شيئاً .

١٦ ـ كضميرِ فعلٍ يستكِنُّ ضميرُهُ   فيه ، ويَلْزَمُ مثلَهُ الإضمارُ

فهو كضميرِ فعلٍ ، يستَتِرُ فيه حيناً ، ويَلْزَمُ الإضمارُ مثلَهُ .

١٧ ـ لم تَدْرِ ما زَهْرُ الرياضِ تَسَتُّراً   كلّا ، ولا كيفَ تَنَوَّرُ الأشجارُ

وإنكَ لا تَعْلَمُ أيُّها الإنسانُ عددَ زهرِ الرياضِ ولا ألوانَها قبلَ أنْ تظهرَ للعِيانِ ، لا ، ولا تدرِكُ كيفَ تُزهِرُ الأشجارُ ، وتحلو بألوانِ أزهارِها .

١٨ ـ ومنَ العجائبِ أنها اكتَنَّتْ كما   يكْتَنُّ في أكمامِهِ النُّوّارُ

ومنْ عجائبِ الزمنِ أنها كانَتْ مُسْتَتِرَةً عنْ أعينِ الناسِ كما يستَتِرُ النُّوّارُ في براعِمِهِ .

١٩ ـ لم تَجْتَزِئْ بالسِّتْرِ حتى ضَمَّها مِنْ جنسِ أطباقِ الثَّرى أستارُ

لم تَكْتفِ بالسِّترِ حتى لَفَّتْها أستارٌ منْ نوعٍ آخرَ ، هو أطباقُ الترابِ .

٢٠ ـ لم تَرْضَ أصهاراً إلى أنْ أصبحَتْ ولها المنايا دونهمْ أصهارُ

لم تقبلْ أحداً صِهْراً لأهلِها في حياتِها إلى أنْ صارَتْ لها الأمواتُ أصهاراً .

٢١ ـ كَرِهَتْ مجاورَةَ اللئامِ ، فجاوَرَتْ ربًّا كريماً ، وهو نِعْمَ الجارُ

مَقَتَتْ أنْ تُجاورَ الناسَ الأشرارَ في حياتِها ، فنالَتْ في مماتِها مُجاورةَ الربِّ الكريمِ الرحيمِ ، وهو نِعْمَ الجارُ .

٢٢ ـ وكذاكَ آلُ الشارعِيِّ حرائرٌ نِسوانُهُمْ ورجالُهُمْ أحرارُ

ولم تكنْ وحدَها بهذهِ الفكرةِ ، وإنما كانَتْ أُسْرَةُ الشارعيِّ رجالُها ونساؤُها أحراراً أشرافاً أعزّاءَ .

٢٣ ـ الناسُ ليلٌ دامسٌ في جَنْبِهِمْ وهمُ كما صَدَعَ الظلامَ نهارُ

فإنِ اقْتَرَبْتَ منْ غيرهمْ منَ الناسِ تجدْهُمْ في ظلمِهِمْ كالليلِ شديدِ الظلمةِ كالظلامِ الذي ينشُرُ سوادَهُ على الدنيا عندما يَحُلُّ الليلُ ، وتَرَ آلَ الشارعيِّ كالنهارِ ، يُفَتِّتونَ قسوةَ الظلمِ .

٢٤ ـ مَنْ سَوَّدوهُ عاشَ مُفْتَخِراً ، ومَنْ سادوهُ ، لم يَلْحَقْهُ منْهم عَارُ

ومنِ اختاروهُ ، وجعلوهُ أميراً لهمْ ، عاشَ فخوراً بنفسِهِ ، ومَنْ غالبوهُ ، فغلبوهُ ، فلا يَلْحَقُهُ منْ سُلْطَتِهِمْ عارٌ أو عيبٌ .

٢٥ ـ مُستَمطَرونَ ، كفاكَ جودُ بنانِهِمْ مطراً إذا ما عَزَّتِ الأمطارُ

وحَسْبُكَ كرمُ أيديهمْ ، إنْ قَلَّتْ أمطارُ البلادِ ، وكانوا مُنْعمينَ بفضلِ اللهِ ، يَبْذلونَ العطاءَ للناسِ .

٢٦ ـ شجراتُ مجدٍ ، نِلْنَ أكرمَ مَنْبَتٍ حتى فَرَعْنَ ، وطَابتِ الأثمارُ

وهم كشجراتِ عزٍّ ، نالَتْ أفضلَ مَنْبَتٍ ، فلما كَبِرَتْ ، أثْمَرَتْ أفضلَ الأبناءِ .

٢٧ ـ وأبو سعيدٍ خيرُ مَنْ يطأُ الثرى بدرٌ ، أضاءَ خِصالَهُ أنوارُ

وخيرُهُمْ أبو سعيدٍ ، وهو أفضلُ مَنْ دَبَّ على الأرضِ منهمْ ، وهو بدرٌ ، أضاءَتْ أنوارُهُ سجاياهُ ومَنْ حولَهُ .

٢٨ ـ في مجدِهِ في دينِهِ في علمِهِ في عقلِهِ تتحَيَّرُ الأفكارُ

فهل نجدُ فضلَهُ في عزِّهِ أم في تَمَسُّكِهِ بتعاليمِ الدينِ الإسلاميِّ أم في عملِهِ أم في عقلِهِ ؟

إن ذلك يجعلُ المرءَ ، يضيعُ في تصنيفِ سجاياهُ وأعمالِهِ .

٢٩ ـ بهرَ الكبارَ بنفسِهِ وبأصلِهِ وكذاكَ أبناءُ الكبارِ كبارُ

وقد أعجبَ الناسَ العظامَ نفسُهُ وأصلُهُ إعجاباً كبيراً ، وهذا هو حالُ أبناءِ الناسِ العظامِ .

٣٠ ـ مُتَفَرِّدٌ بالسبقِ حينَ يضُمُّهُ ويَضُمُّ كلَّ مُسابقٍ مضمارُ

وكانَ إنْ دُعِيَ إلى السباقِ الحاذقونَ في كلِّ فنٍّ وعلمٍ ، فإنهُ السابقُ الوحيدُ في كلِّ مجالٍ ، تَفْخَرُ بهِ العلومُ والفنونُ .

٣١ ـ تَرَكَ الجدودَ وراءَهُ ، ولرُبَّما شَقَّتْ غُبارَ القُرَّحِ الأمهارُ

وكأنهُ تركَ آباءَهُ وجدودَهُ وراءَهُ في سبقِهِ إياهمْ ، وليسَ ذلك غريباً لأننا نرى غالباً أنَّ صغارَ الفروسِ ، تُثيرُ غبارَ الأرضِ أكثرَ منْ كِبارِها التي مَسَّتْها القروحُ .

٣٢ ـ أوفى بهِ خَطَرٌ على أخطارِهم عالٍ ، وإنْ جَلَّتْ لهم أخطارُ

وكانَتِ الأمورُ التي واجهَتْهُ عظيمةً أعظمَ منْ أمورِ أجدادِهِ ، وتَمَكَّنَ أنْ يَقْتَحِمَها ، ويُعطيَها حَقَّها .

٣٣ ـ كانوا سحائبَ ماطراتٍ ، وهو منْ تلكَ السحائبِ ديمةٌ مدرارُ

وقد كانَ أجدادُهُ كراماً كالسُّحبِ كثيرةِ المطرِ ، وهو منْ نسلهمْ ، سحابَةٌ لا تنقطِعُ عنِ الإمطارِ .

٣٤ ـ فخرَ الفريقَينِ الذي ما دونَهُ لِذَوي المفاخِرِ في الأنامِ فَخارُ

فيا فخرَ الفريقينِ الذي لم يكُنْ لهُ مثِيلٌ ولا قريبٌ ، لهُ في المكارِمِ ذكرٌ ، يَفْخَرُ به .

٣٥ ـ هذي المصيبةُ ، وهي أيُّ مصيبةٍ نارٌ لها بينَ الضلوعِ شَرارُ

مصيبتُك في فقيدتِك أكبرُ مصيبةٍ ، تركَتْ في جوانِحِنا ناراً، تتَلَهَّبُ ، ويَصْدُرُ عنها شَرارٌ كثيرٌ .

٣٦ ـ فاصْبِرْ ، فمثلُكَ يابنَ أكرمِ معشرٍ فيها وفي أمثالِها صَبّارُ

فَتَحلَّ بالصَّبْرِ الذي تَعَوَّدْتَهُ في المصائِبِ التي نابَتْكَ منْ قبلُ يا ابنَ الكرامِ .

☆☆ ٢٤ ـ وقالَ على بحرِ البسيطِ في المدحِ :

١ ـ أرى مخايلَ خيرٍ غيرَ مُخْلِفةٍ لاحَتْ كما لاحَ للصبحِ التباشيرُ

إني لأرى في السماءِ سحباً ، تَحمِلُ بإذنِ اللهِ مطراً ، لا تُخلِفُ بوعدِها كما تبدو أنوارُ

الفجرِ مُبَشِّرَةً بمجيءِ الصباحِ .

٢ ـ وَيْلُـمِّ خُطَّـةِ حُسّـادٍ يُقـالُ لهـم : خُطَّـتْ لفخـرِ الفـريقَيـنِ المنـاشيـرُ

فَوَيلٌ لِحُسّادٍ ، وهلاكٌ لهمْ ، إذْ بَيَّتوا أمراً ، يؤذي فخرَ الفريقينِ ، وقولٌ لهم : إنَّ اللهَ تعالى قد قَدَّرَ لهُ أمراً وأموراً ، سينتشرُ خيرُها له عمّا قريبٍ ، وتنصُرُه عليهم .

٣ ـ يا ليتَ شعري ، وقد حَزَّتْ ظهورَهُمْ هـذي منـاشيـرُ أم هـذي منـاشيـرُ

ويا ليتني أعلمُ ما الذي قطعَ ظهورَهُمْ ، وكسَرَها ؟ أهذهِ المناشيرُ المبشِّرَةُ لهُ بالخيرِ ؟ أم هذهِ المناشيرُ التي ستقطعُ ظهورَهُمْ ، وتكسِرُها ؟

☆☆ ٢٥ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ أيضاً :

١ ـ لِحُـبِّ سعـادٍ فـي فـؤاديَ أسطـرُ أرى كـلَّ خـطٍّ غيـرِهـا يَتَغَيَّـرُ

لقد كتَبَ حبُّ سعادَ على صفحةِ قلبي أسطراً ، تختَلِف عنْ سطورٍ غيرِها ؛ فهي ثابتةٌ لا تَمَّحي ، وغيرُها مُتَغَيِّرٌ ، يمحوهُ الزمانُ .

٢ ـ يـزيـدُ علـى كَـرِّ الجـديـدَيـنِ جِـدَّةً وكـلُّ جـديـدٍ دارسٌ مُتَنَكِّـرُ

لأنَّ حُبَّ سعادَ في تزايُدٍ مُسْتَمِرٍّ ، وكأنهُ ، يَتَجَدَّدُ في كُرورِ الليلِ والنهارِ ، وكلُّ جديدٍ ، يأتي ، يمحو ما قبلَهُ ، أو يُغَيِّرُهُ .

٣ ـ وقد طَمِعَتْ في مَحْوِها يَدُ سَلْوةٍ فخابَتْ ، وكم منْ طامعٍ ، ليسَ يَظْفَرُ

وقد حاوَلَتْ بعضُ الأيادي الحاسدةِ أنْ أنساها ، فعادَتْ أدراجَها خائبةً كما عادَ غيرُها بالخِذْلانِ .

٤ ـ لَذَذْتُ بها حيناً ، فلم تَبْقَ لَذَّتي وقـد بَقِيَـتْ لـي حَسْـرَةٌ وتَـذَكُّـرُ

وإني لا أُنكِرُ أني سَعَدْتُ بها وقتاً ، ولم يبقَ لي منْ سروري وسعادتي إلاّ التَّلَهُّفُ والتذكُّرُ .

٥ ـ لقد نظرَتْ سُعْدَى إليَّ ، فأنكَرَتْ أمـوراً ، سـواهـا بـالنكيـرِ أجـدَرُ

ومَرَّتِ الأيامُ ، فصادَفَتْني سُعْدى ، فرأَتْ حالي قد تغيَّرَ كثيراً ، فلم تَتَقَبَّلْ ما رأتْ ، ووجَدَتْ أنَّ ذِكْرَ حالي في ساقِ رجلي أولى بالسؤالِ عنه منْ ذكرِ الهوى ومُخَلَّفاتِهِ .

٦ ـ فلا تَسْخَري منْ ساقِ رجلي وغَمْزِها ففي ساقِ حالي موقعُ الغَمْزِ أظهَرُ

فقلْتُ لها : لا تَهْزَئي بِعُروجِ رجلي بِقطعِها ، ففي شأني أمرُ الطعْنِ أوضَحُ وأبينُ .

٧ ـ ولا تضحكي منْ بَغْلَتي وقطوفِها فـأقطَـفُ منهـا جِـدِّيَ المُتَعَثِّـرُ

ولا تَسْخَري مِنْ بغلتي التي ضاقَتْ خُطُواتُ مشيها ، فأعجَبُ منْ ضيقِ مَشْيِها حَظّي التَّعِسُ الكابي .

٨ ـ وإنـي وإنْ رَثَّـتْ بعينَيـكِ بـزَّتـي لَمَـنْ تَحتَهـا بَحْـرٌ ، جَـرَتْ منـهُ أبحـرُ

وإني إنْ رأيتِ ثوبي بالياً فإني ، ولله الحمدُ ، ذو غنًى وكرمٍ كبحرٍ ، تَفَرَّعَتْ ، وتَغذَّتْ منهُ أبحرٌ كثيرةٌ .

٩ ـ مناقبُ لو كانَتْ نجوماً لما دَرَتْ لِكَثْـرَتِهـا فـي جَـوِّهـا أيـنَ تُـزْهِـرُ ؟

ولي مآثـرُ كثيرةٌ منتشرةٌ بينَ الناسِ ، لو شُبِّهَتْ بنجومِ السماءِ لما عَرَفَتْ هذهِ النجومُ العديدةُ أينَ تَجدُ ؟ أو كيفَ تَجدُ مكاناً في السماءِ ، تضيئُهُ ؟

١٠ ـ حصـافَـةُ لُبِّـي حَنَّكَتْنـي كـأننـي ، ولـم أنـضُ سـربـالَ الشبـاب مُعَمَّـرُ

فحكمةُ عقلي ، جعلَتْني مُجَرِّباً ، أستفيدُ ممّا أَرَى ، وأسمعُ ، وكأنني لم أخلَعْ ثيابَ الشبابِ بعدُ ، ولم تَكْبَرْ سِنّي كثيراً .

١١ ـ عرفْتُ طباعَ الناسِ قَبْلَ اختِبَارِهِمْ فمـا زادَ عِـرفـانـي بهـم حيـنَ أُخْبَـرُ

وإني لأعلمُ سجايا الناسِ قبلَ أنْ أمتَحِنَهُمْ ، وحينَ يُخْبِرُني أحدٌ عن زيدٍ أو عمْرٍو منهمْ لا يزيدُني خبرُهُ معرفةً .

١٢ ـ وعيـدانُ أبنـاءِ الـزمـانِ عَجَمْتُهـا فلـم تُلْـفَ مَـرْضِـيٌّ ولا مُتَخَيَّـرُ

وجَرَّبْتُ معاشرةَ أبناءِ الزمانِ ، فلم تَفُتْني تجربةُ أحدٍ منهمْ ، سواءٌ أكان مَرضِيًّا عنهُ وَسَطاً مِنَ الناسِ أم مُنْتَقًى خيرَ الناسِ .

١٣ ـ فَخَيَّمْتُ في بعضِ الزوايا ، يُعيننـي علـى الأُنْـس مُسْـوَدُّ القـوائـمِ أصفـرُ

ونَصَبْتُ خيمتي في إحدى الزوايا ، وكانَ يراعي ذو اللونِ الأصفرِ والرأسِ الأسودِ بسببِ مدادِهِ ، يُساعِدُني على الاطْمئْنانِ ، قدِ اتَّخَذْتُهُ أنيساً وصديقاً في غُرْبتي .

١٤ ـ جهـولٌ لِمـا أَظْهَـرْتُـهُ ، غيـرَ أنـهُ يُتَـرْجِـمُ عمـا فـي فـؤادي مُضْمَـرُ

فكانَ إذا ما كَشَفْتُ له سِرّي ، يكتُمُهُ ، وكأنهُ لم يَعْرِفْ شيئاً عنهُ ، ويُفَسِّرُ ما تراكمَ في صدري ، وعَوِضَ تفسيرُهُ عليَّ ، مُخَفِّفاً عني ما أجدُ منَ الأَسَى .

١٥ ـ ومَلأى منَ الدُّرِّ الذي لم يَغُصْ علـى فـرائِـدِهِ إلاّ النُّهَـى والتَّفَكُّـرُ

كانَتْ خيمتي مَلأى بالدُّرِّ الذي لم يَغُصْ في بحورِ العلومِ والفنونِ ليفوزَ بنوادِرِهِ إلاّ ذو العقلِ الرزينِ والتَّفْكيرِ السليمِ .

١٦ ـ مُمَسَّحَةُ الأطرافِ بالمرهفِ الظُّبَى مُحَبَّـرَةُ الأوسـاطِ تُطـوى ، وتُنْشَـرُ

وكانَتْ أطرافُها مُمَلَّسَةً بسنانِ السيوفِ الرقيقةِ ، وأوساطُها مزيَّنَةً باللَّونينِ الأبيضِ والأسودِ ، وكانَ طيُّ هذه الخيمةِ ونَشْرُها سهلَينِ جدًّا .

١٧ ـ تُثَبِّطُني عنْ موقفِ الذُّلِّ هِمَّةٌ إلـى جنْبِهـا خَـدُّ السِّمـاكِ مُعَفَّـرُ

وقد وهَبني اللهُ تعالى عزيمةً ، ترفَعُني عنْ مواقفِ الذُّلِّ والهوانِ إلى مكانةٍ ، تصلُ إلى أحدِ السِّماكَينِ : الرامحِ أوِ الأعزلِ ، فترى جانبَهُ أبيضَ مشوباً بالحمرةِ .

١٨ ـ وعزَّةُ نفسٍ ، تركبُ السيفَ مرهفاً وتسمَـعُ حِسًّـا مِـنْ هـوانٍ ، فتَنْفِـرُ

وأعطاني اللهُ ـ عزَّ ، وجلَّ ـ أيضاً عِزَّةَ نفسٍ ، تعلو على السيفِ الرقيقِ القاطعِ ، وحِسًّا رقيقاً ، يدركُ كلَّ مكنونٍ ، ويسمَعُ أدنى هوانٍ ، فيهرُبُ منه .

١٩ ـ وأَوْرَثَنـي ثـوبَـي حَيـاءٍ وعِفَّـةٍ جُدُودٌ كِرامٌ ، والمـواريثُ ، تُـذْخَرُ

وَوَرِثْتُ عن جدودي وآبائي الأمجادِ لباسَينِ : هما الحياءُ والعِفَّةُ ، وإني أحافظُ عليهما لأنَّ الإرثَ الفاضلَ ، يُخَبَّأُ ، ويُصانُ .

٢٠ ـ ولا خيرَ في وجهٍ ، يَقِلُّ حَياؤُهُ ولا فـي قضيـبٍ ، لَيطُـهُ مُتَقَشِّـرُ

لأنهُ لا خيرَ في إنسانٍ ، لا يعلو وجهَهُ ماءُ الحَياءِ ، ولا فضلَ في عصاً ، انْتُزِعَ قِشرُها .

٢١ ـ ولسـتُ بِـزَوّارِ الـرِّجـالِ تَمَلُّقـاً ورُكنـي عـنْ تلـكَ الـدنـاءةِ أزورُ

ولستُ منَ الذينَ يذهبونَ إلى الناسِ مُتَلَطِّفينَ متودِّدينَ لأني أعُدُّ ذلكَ منَ الحقارةِ ، ونفسي تميلُ عنها ، ولا تقبلُها .

٢٢ ـ وممّا شجاني جَرْيُ أمري خِلافَ ما أُقَيِّضُـهُ مِـنْ كَـونِـهِ ، وأُقَـدِّرُ

ومنَ الأمورِ التي أحْزَنَتْني سيرُها ضِدَّ ما خَطَّطْتُ لها ، وحسَبْتُ .

٢٣ ـ ولو قُلْتُ : يا سُعْدَى اهْجُريني ، لواصلَتْ ولكنَّمـا قـولـي : صِلِينـي ، فَتَهْجُـرُ

فلو طلبْتُ منْ سُعْدَى أن تَبْتَعِدَ عني ، وتتركَني ، لاسْتَمَرَّتْ في وَصْلي ، ولو قلْتُ لها : داومي على مُواصلتي ، لَقطَعَتْني ، وهَجَرَتْني .

٢٤ ـ على الشكرِ والشكوى أرى طولَ ليلتي ومـا فيهمـا طـولَ النهـارِ أُقَصِّـرُ

وإني أقضي الليلَ الطويلَ بشكرِ اللهِ تعالى والشكوى إليهِ ، وإذا ما طلعَ الصباحُ ، وطالَ النهارُ ، فإنني لا ألتزمُ بذكرِهما جيداً ، وأفرِّطُ بهِ .

٢٥ ـ فما صنَعَتْ سُعْدَى إلى اللهِ أشتكي وصنـعُ أبـي سَعْـدٍ إلـى اللهِ أشكُـرُ

وإني أذكُرُ ما تعامِلُني به سُعْدَى إلى اللهِ تعالى مُتَأَلِّما ، وأُثني على ما يقومُ به أبو سعدٍ محمدُ بنُ منصورٍ شرفُ الملكِ نَحوي شاكراً اللهَ - عَزَّ ، وجلَّ - .

٢٦ - لـهُ فـي انتظـامِ الخيـرِ كـامنُ نِيَّـةٍ وقـد ظَهَـرَتْ آيـاتُهـا ، وسَتَظْهَـرُ

فلأبي سَعْدٍ مَقاصِدُ خيرٍ كثيرةٌ ، يُرَتِّبُها في نفسِهِ ، ويكشِفُ عنها ، ويُحَقِّقُها متتابعةً ، وينتظِرُ الناسُ حينَها واثقينَ .

٢٧ - جـوادٌ يُحَلِّـي جـودَهُ بتـواضـعٍ وشَـرُّ البـرايـا البـاخـلُ المُتكَبِّـرُ

فهو كريمٌ ، يُجَمِّلُ كرمَهُ بتواضعِهِ ، وإنَّ أسوأَ الناسِ مَنْ هو الحريصُ الشحيحُ الذي يتفاخَرُ على غيرِهِ ، وليسَ له منَ الفخرِ شيءٌ .

٢٨ - أقـامَـتْ قنـاةَ الملـكِ منـهُ كفـايـةٌ وجَـدْوَى علـى أهـلِ الكفـايـةِ تُمْطِـرُ

واستطاعَتْ قدرتُهُ أنْ تَجعَلَ عصا الملكِ قائمةً قويّةً ، واسْتَمَرَّتْ أُعطياتُهُ ، تَنْهَلُّ على أهلِ الحاجةِ كافيةً إياهمْ .

٢٩ - ولَلْمُنْعِمُ الكافي الوزيرُ حقيقةً وكـلُّ وزيـرٍ مـا عـداهُ مُـزَوَّرُ

وكانَ في الحقيقةِ الوزيرَ الكافيَ الجديرَ بلقبِ المُنْعِمِ ، وكانَ كلُّ وزيرٍ غيرُهُ ، تخرُجُ أعمالُهُ عنه عَنْ تَصَنُّعٍ وتَكَلُّفٍ لا عنْ فطرةٍ .

٣٠ - تَصَـدَّرَ بـاستحقـاقِـهِ كـلَّ رُتبـةٍ وليـسَ بِصَـدْرٍ كـلُّ مـنْ يتصـدَّرُ

وقد كانَ صدراً للوزارةِ بعدَ أنْ تولَّى الرُّتَبَ دونَها ، ونجحَ في سياستِها ، ولا يكونُ كلُّ امرئٍ ، يريدُ أنْ يكونَ وزيراً جديراً بِتولِّي مَنْصِبَ الوزارةِ .

٣١ - نصـابُـكَ عبـدَ اللهِ أكـرمُ نَبْعـةٍ ولسْـتَ مـنَ النبـعِ الـذي ليسَ يُثْمِـرُ

وأصلُكَ يا عبدَ اللهِ أفضلُ أصلٍ ، ولستَ منَ الأصلِ الذي لا يفيدُ ، ولا يَنْفَعُ .

٣٢ - أَتَـتْ بثمـارٍ حُلْـوَةٍ غيـرَ أنهـا علـى حَنَـكِ العـادي تَمُـرُّ ، وتَمْقَـرُ

ولقد قُمْتَ بوزارتِكَ خيرَ قيامٍ ، وجنى الناسُ منها خيرَ قِطافٍ ، لكنَّ الحُسَّادَ الظَّلَمَةَ ، جعلُوها كالثمارِ المُرَّةِ ، تَمُجُّها النفوسُ ، ولا تستطيعُ بَلْعَها لِمرارتِها وحموضَتِها الفاسدةِ .

٣٣ - مجالسُ أربابِ الوزارةِ لم تَزَلْ مـواسـمَ فيهـا لـلأفـاضـلِ مَتْجَـرُ

وكانَتْ ، وما زالتْ مجالسُ أصحابِ الوزاراتِ ، تُعْقَدُ في أوقاتٍ معيَّنَةٌ ، يأتي إليها الناسُ الكرامُ ، فيعرضونَ نِتاجَهُمُ الأدبيَّ كما تُعرضُ السِّلَعُ في الأسواقِ .

٣٤ - بضاعَتُهُمْ في بعضِ أردانِ قُمْصِهِمْ وأثمـانُهـا منهـا الـركـائـبُ تـوقَـرُ

وكانَتْ سِلَعُهُمْ مكتوبةً في صُحُفٍ ، يلُفّونها ، ويضعونَها في أكمامِهِمْ ، أمّا أثمانُها المرتفعةُ ، فهي ، تَثْقُلُ على الدوابِّ في حَمْلِها .

٣٥ ـ فكَمْ لفظةٍ بيعَتْ هناكَ بِبَدْرَةٍ ولم يَلْحَقِ المُبْتاعَ غُبنٌ ومَخْسَرُ

فكم كلمةٍ ، كانَ ثمنُها مبلغاً كبيراً منَ المالِ ؛ يدفعُهُ المشتري عنْ طِيبِ خاطرٍ دونَ أنْ يُحِسَّ بشيءٍ منَ الظلمِ والخسارةِ .

٣٦ ـ أتاكَ أبا سَعْدٍ كلامٌ مُنَقَّحٌ كما يَقْتَضي علمُ البيانِ مُحَبَّرُ

ولقد نظمْتُ في مدحِكَ يا أبا سَعْدٍ قصيدةً مُهَذَّبةً بما يلزمُ علمُ البيانِ منَ الألفاظِ الفصيحةِ والتراكيبِ المتينةِ والمعاني العميقةِ .

٣٧ ـ إذا بَذَّ فَحْلَي طَيِّئٍ حُرُّ منطقي فما غَضَّ مني أنَّ بيتيَ زمخشَرُ

إذا غَلَبَ فَضْلُ قولي نَظْمَ فَحْلَي طَيِّئٍ أبي تمامٍ والبُحْتُرِيِّ فما أنقصَ مِنْ قَدْري أنَّ مسقطَ رأسي زَمَخْشَرُ .

☆☆ ٢٦ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في المدحِ :

١ ـ سُعْدَى المليحةُ ، أينَ عنكَ مزارُها شَطَّتْ برغمِ الوامقينَ ديارُها

لقد ابتَعَدَ عنكَ يا زمخشريُّ مزارُ سُعْدَى المليحةِ ، وبعدَتْ عنكَ مساكِنُها على الرغمِ منْ حُبِّ الناسِ لها ورغبتِهِمْ في قربِها .

٢ ـ مَرَّتْ هوادِجُها بوادي مَنْبِجٍ فأطابَ واديَ مَنْبِجٍ آثارُها

ولمّا عَبرَتْ هوادجُها واديَ منبِجَ فاحَتْ أطيابُ آثارِها ، فطابَ وادي منبِجَ عطراً كلُّهُ .

٣ ـ مَرَّتْ عليهِ ، فَعَطَّرَتْهُ ، كأنما فَتَقَتْ صُوارَ المِسْكِ فيه صُوارُها

مَرَّتْ على الوادي ، فَجَعَلَتْهُ عَطِراً كأنهُ صُرَّةُ مسكٍ ، شُقَّتْ ، ففاحَ المسكُ : طيبُ سُعْدَى المُخَصَّصُ لها .

٤ ـ لو كانَ أقمارُ السماءِ وجوهَها لأضاءَ فوقَ شموسِها أقمارُها

لوِ اتَّخَذَتْ كواكبُ السماءِ أنوارَها منْ سُعْدَى لَنَوَّرَتْ هذه الكواكبُ شمسَ السماءِ بل شموسَها إنْ كانَ للسماءِ أكثرُ منْ شمسٍ .

٥ ـ منْ كلِّ مُشْرِقةِ الجبينِ كأنما بالشمسِ طالعةً يُلاثُ خِمارُها

فَمِنْ كلِّ طَلْقَةِ المُحَيّا اتَّخَذَتْ أشعةُ الشمسِ الطالعةُ في الصباحِ خِماراً ، جعَلَتْهُ عُصْبةً ، شَدَّتْها على رأسِها .

٦ ـ بوشاحِها عطشٌ لِدِقَّةِ خصرِها   لكنْ بِساعِدِها يَغَصُّ سِوارُها

وبِوِشاحِها عطشٌ لرؤيةِ خصرِها النَّحِيلِ ومَسِّهِ ، وبساعِدِها تُخْنٌ على سوارِها ، ضاقَ به .

٧ ـ سَفَرَتْ عِشاءً ، فالبسيطةُ أشرقَتْ   حتى تساوَى لَيلُها ونهارُها

ولما غابَتِ الشمسُ ، وأظلمَ الجوُّ ، كَشَفَتْ عنْ وجهِها ، فأضاءَتِ الأرضَ بنورِ وجهِها ، فتساوى عندئذٍ ليلُ الأرضِ بإشراقِ وجهِها ونهارُ الأرضِ بشمسِها .

٨ ـ تَرِبَتْ يدا حادٍ حدا أظعانَها   أُصُلاً ، فَقَطَّرَ مَدمعي قِطارُها

خَسِرَتْ يدا سائقٍ ، ساقَ هوادِجَها أوقاتَ الأصيل ، فأحْزَنني الفراقُ ، وأسالَ دمعي قطاراً .

٩ ـ شَبَّهْتُها بالطَّلْحِ إلاّ أنها   طَلْحٌ منايا العاشقينَ ثِمارُها

ورأيتُها ، تُشبهُ شجَرَ الطَّلْحِ الذي ترعى شوكَهُ الإبلُ ، لكنهُ شجرٌ ، ثِمارُهُ قوتُ المحبِّينَ ، إذْ فيه هلاكُهُمْ .

١٠ ـ فسقى الإلهُ لياليَ الوصلِ التي   وَصَلَتْ بطيبِ أصائلٍ أسحارُها

وما أطيبَ تلكَ اللياليَ لياليَ الوصلِ ، وإني لأدعو لها بالسُّقْيا والارتِواءِ وطيبِ الذكرى لأنها ، خَلَطَتْ شَذَى أوقاتِ الأصيلِ بروائحِ أوقاتِ السحرِ .

١١ ـ قد بِتُّها في غفلةٍ ، فكأنني   ذو نشوةٍ ، قد أثملَتْهُ عُقارُها

وقد قضيتُ تلكَ اللياليَ في سَلْوةٍ عنِ الهمومِ ، وكأنني في سَكْرةٍ ، غَشَّتْني خَمْرَتُها .

١٢ ـ لا عيشَ إلاّ عيشُ مَنْ هو نازلٌ   في بلدةٍ ، فخرُ المعالي جارُها

لا يهنأُ العيشُ إلاّ لِمنْ حلَّ في مدينةٍ ، كانَ فخرُ المعالي جارَها .

١٣ ـ نامَتْ به خارزمُ مِلْءَ جُفونِها   إذْ لا يُرَنِّقُ في العيونِ غِرارُها

سَكَنَتْ بحكمِ فخرِ المعالي حالُ أهلِ خوارزمَ ، فناموا قريري العيونِ ، لا يُكَدِّرُ صفوَ نومِهِمْ شيءٌ منْ خوفٍ أو بردٍ أو جوعٍ .

١٤ ـ نَزَعَتْ يداهُ الخوفَ عنْ أحشائِها   حتى ثناها ، والأمانُ شِعارُها

وأبعَدَتْ يداهُ عن أهلِ خوارزمَ الخوفَ منَ الأعداءِ ، ولَفَّتاهُمْ ضَامَّةً إيّاهم ، فكانَ الأمانُ لباسَهُمْ .

١٥ ـ قَرَّتْ على أمنٍ ، وكم منْ بلدةٍ   فوقَ البسيطةِ ، لا يَقَرُّ قرارُها

وهَدَأَ بالُ أهلِ خوارزمَ لِشعورِهِمْ بالأمنِ على حينِ أننا ، نَرَى بلاداً كثيرةً على الكرةِ الأرضيةِ ، يعيشُ أهلُها مضطربينَ خوفاً .

١٦ ـ كم ناضلَ الأحداثَ دونَ حريمِها   لــولاهُ لاعْتَلَقَـتْ بـهِ أظفـارُهـا

وكم منْ حربٍ ، خاضَها ، يُدافعُ عنْ نسائها ، ولولا ذَودُهُ عنها ، لَتَعَلَّقَتْ أظفارُ تلكَ النساءِ برقبتِهِ إلى أبدِ الآبدينَ .

١٧ ـ ولقد نوى عنها النَّوى ، فلو أنهُ   وقـتَ الـربيـعِ ذَوَتْ بـهِ أشجـارُهـا

ولقد أبعدَ عنها القَحْطَ ؛ ولو أنَّ الربيعَ ، قد حلَّ ، وكانَتْ أشجارُ رياضِهِ ، قد ذَبَلَتْ لأبْعَدَ عنها شدةَ الجَدْبِ ، وجَعَلَها ناضرةً ، تُجْنَى قطوفُها .

١٨ ـ ولَجَـفَّ نُـوّارُ الـريـاضِ كـآبـةً   وتَنـاثَـرَتْ مـنْ وجْـدِهـا أزهـارُهـا

ولولاهُ ، لَنَشَفَ زهرُ الرياضِ حُزْناً ، وتَفَرَّقَتْ أوراقُ أزهارِهِ منْ شِدّةِ هَمِّها وكَمَدِها .

١٩ ـ ولغادَرَتْ تغريدَها في صبحِها   ومســائِهـا لِفِــراقِــهِ أطيــارُهــا

ولَعافَتْ أطيارُ الرياضِ تغاريدَها التي تردِّدُها صباحاً ومساءً بسببِ فراقِهِ إيّاها .

٢٠ ـ يا غُصَّةً ليسَتْ تُساغُ ، ولوعةً   قـد أُضْمِـرَتْ فـي كـلِّ قلـبٍ نـارُهـا

فيا أيتُها البَلِيَّةُ التي تشبهُ الغُصَّةَ في حلقي ، فلا أستطيعُ ابتلاعَ ريقي أو لقمتي ، ويا أيتُها الحسرةُ قد أوقَدْتِ في كلِّ القلوبِ نيرانَكِ .

٢١ ـ يَبِسَ الثرى ، والسحبُ مُمْسِكَةٌ فَحَا   حـادَتْ بِحُسْـوَةِ طـائـرٍ أمطـارُهـا

فلقد جَفَّ الترابُ ، وصارتِ السحبُ ، كأنها ، قد شَرِبَتْ ماءَ توابلَ حارَّةٍ ، فألهبَتْ جوفَها ، ومالَتْ عنها أمطارُها ، وبَخِلت عليها بشربةِ طائرٍ .

٢٢ ـ أنّى تجودُ ، وفي حشاها حاجمٌ   غـاضَـتْ بِحَـرِّ لَهيبِـهِ أمطـارُهـا ؟

وكيف تجودُ هذه السحبُ ، وتُرسِلُ أمطارَها ، وفي جوفِها حرٌّ شديدٌ ، ذهبَ بمائها ؟

٢٣ ـ سلكَ الوزيرُ إلى العلاءِ مناهجاً   رُفِعَـتْ لـهُ دونَ الأنـامِ مَنـارُهـا

وقد ساسَ هذا الوزيرُ رعيتَهُ مُتَّخِذاً عدَّةَ سبلٍ ، فارتفَعَ بها إلى ذُروةِ المجدِ مُستنيراً وحدَهُ بنورِ اللهِ ـ عَزَّ ، وجلَّ .

٢٤ ـ مـا هَمَّـهُ إلاّ العـلاءُ ، وهكـذا   هِمَـمُ الـرجـالِ ، تفـاوتَـتْ أطـوارُهـا

وما شَغَلَهُ في حياتِهِ إلاّ حُبُّ العِزِّ الذي يَتَعَلَّقُ بِهِ الرجالُ الكرامُ على اختلافِ أحوالِهِمْ وأزمانِهِمْ .

٢٥ ـ نَعِمَتْ لِئامُ الأرضِ بالعيشِ الذي عـاشَـتْ بـهِ فـي شَقْـوةٍ أحـرارُهـا

ويَسْعَدُ الناسُ اللئامُ بالعيشِ ، ويَشقَى الأحرارُ في حياتِهِمْ .

٢٦ ـ تُبْغَى المثوبـةُ فـي وزارتـهِ علـى أنَّ الـــوزارةَ جَمَّـــةٌ أوزارُهـــا

ويأمُلُ كلُّ امرئٍ أنْ يُنَصَّبَ وزيراً حتى يفوزَ بالثوابِ الذي فازَ بهِ فخرُ المعالي على الرغمِ منَ الأحمالِ الكثيرةِ التي حَمَلَها على عاتقهِ .

٢٧ ـ مَلِـكٌ يَشُـقُّ غُبـارَ كـلِّ مُسابـقٍ ولــه ســوابـقُ ، لا يُشَــقُّ غُبـارُهـا

ففخرُ المعالي ملكُ الوَزارةِ ، يُسابقُ كلَّ مَنْ تولّى منصبَ وَزارةٍ ، ويَسْبِقُهُ ، لأنهُ يملِكُ صفاتٍ عظيمةً ، لا يملِكُها أحدٌ .

٢٨ ـ إنَّ الكـرامَ إذا تَجـارَوا فـي العُـلا مثـلُ العِتـاقِ ، يَضُمُّهـا مِضْمـارُهـا

إنَّ الرجالَ العظامَ إذا تبارَوا في الأمجادِ ، يُشْبِهون كرامَ الإبلِ حينَ تُصَفُّ في مكانِ سباقِها .

٢٩ ـ لا غَـرْوَ أنْ قَهَـرَ الأعـاجـمَ عَنْـوَةً ولَــوَتْ نــواصِيَهــا إليــه كبـارُهـا

فلا عَجَبَ أنهُ غَلَبَ الأعاجمَ ، وقَهَرَهُمْ إذْ أسَرَهُمْ ، ولوى كبارُهُمْ أعناقَهُمْ خضوعاً لهُ .

٣٠ ـ لو كانَ في العُرْبِ الكبارِ تَصاغَرَتْ فــي جنبِــهِ عــدنــانُهــا ونــزارُهـا

ولو كانَ ، يعاصِرُهُ منْ كبارِ العربِ رجالٌ عظماءُ مثلُ عدنانَ ونزارٍ لَبَدَوا صِغاراً أمامَهُ .

٣١ ـ يـا أيُّهـا المَلِـكُ الـذي أفضـالُـهُ لفضــائلــي قُطْــبٌ عليــهِ مَـدارُهـا

فيا أيُّها المَلِكُ إنْ كانَ لي مكارِمُ فإنَّ مكارِمَكَ رأسُ كلِّ مكرُمَةٍ ، يدورُ بها فلكُ مكرُماتي .

٣٢ ـ إنْ حُطْتَ لي بعضَ الذِّمارِ تكرُّماً فَمَــواطِــنُ الآدابِ حيــطَ ذِمـارُهـا

فإنْ صُنْتَ لي بعضَ ما أنا بحاجةٍ لحمايتهِ فَضلاً منكَ ، فقد كنتَ حافظاً لأمكنةِ الآدابِ وحامياً لها .

٣٣ ـ وإليـكَ ذاتُ متـانـةٍ وسـلاسـةٍ كـالعيـنِ خـالَـطَ مـاءَهـا أحجـارُهـا

وإني أتقدَّمُ لكَ بهذهِ القصيدةِ ذاتِ المعاني العظيمةِ التي تعبِّرُ عنْ ثنائي الكبيرِ عليكَ والتراكيبِ والألفاظِ الرقيقةِ التي تشبهُ العينَ بمائها الرقيقِ الذي يَتَرَقْرَقَ في جوانبِها القويَّةِ .

٣٤ ـ عُمِّرْتَ ما عَمِرَتْ قصائدي التي هــي فيـكَ ، فهـي طـويلـةٌ أعمـارُهـا

وإني لأدعو لك بالعمرِ الطويلِ ما دامَتْ فيه قصائدي في مدحِكَ عامرةً ، فهي ذاتُ أعمارٍ طويلةٍ مُخَلَّدَةٍ إلى أبدِ الآبدينَ .

☆☆ ٢٧ ـ وقالَ على بحرِ الرجزِ في المدحِ :

١ ـ أيُّ غـــرامٍ كـــامِـــنٍ يُثيـــرُهُ بلحـــظِ عينيـــهِ إذا يـــديـــرُهُ ؟

أيُّ حُبٍّ ، يَدخُلُ القلبَ ، فيعلَقُ طَرْفُ عينيهِ إذا وَجَّهَهُ نحوَ منْ يريدُ أنْ يراهُ ؟

٢ ـ يُكِـــلُّ عمـــداً لَحْظَـــهُ ، وإنمـــا كليلُـــهُ يَقْتُـــلُ لا طـــريـــرُهُ

ويُضْعِفُ لَحْظُهُ قاصداً قتلَ الناظرَ إليهِ ، وإنَّ النَّظَرَ الضعيفَ ، هو القاتلُ ، لا الشديدُ .

٣ ـ مـا بـالُ سُقْـمِ جَفنِـهِ ؟ يضيـرُنـي وليـــسَ سُقْـــمُ جفنِـــهِ يضيـــرُهُ ؟

ما حالُ مَرَضِ جفنَيهِ ؟ يُوجِعُني ، ولا يوجِعُهُ ، ويؤلِمني ، ولا يؤلِمُهُ ؟

٤ ـ هَلْهَـلَ قِـرطـاسـي دراكُ رَشْقِـهِ ولـــم يُـــزايـــلْ نَبْلَـــهُ جفيـــرُهُ

وتوقَّفَ قلمي عنْ صحيفتي حينَ تَبِعَهُ نظرُ عينيهِ ، ولم تكُنْ لِتفارِقَ مِحْفظَتُهُ سِهامَها .

٥ ـ كيفَ انتِصاري منهُ غِبَّ ظُلْمِهِ ؟ وإنَّ قلبـــي أبـــداً نصيـــرُهُ

كيفَ أتَمَكَّنُ مِنَ الانتصارِ عليهِ وغَلَبَتِهِ بعدَ طولِ ظلمِهِ إيايَ على الرغمِ منْ أنَّ قلبي ، كانَ ، وما يزالُ ناصِرَهُ ؟

٦ ـ طَـرْفـي فـي جَنَّـةِ وجهِـهِ رَعَـى فبـــاتَ قلبـــي يَلْتظـــي سَعيـــرُهُ

وإنَّ نظري لم يَتَحَوَّلْ عن حُسْنِ وجهِهِ الذي يشبهُ الجَنَّةَ ، وإنَّ قلبي أمسى يَلْتَهِبُ بشدةِ نارِهِ .

٧ ـ نظيـرُ لـونِ الـوردِ لـونُ خَـدِّهِ لـــذاكَ قـــد شَـــوَّقنـــي نَضيـــرُهُ

فلونُ خدِّه شِبْهُ لونِ الوردِ ، ولهذا الشَّبَهِ ، أشتاقُ ، وأحِنُّ لرؤيةِ وضاحةِ وجهِهِ .

٨ ـ لا تَحْسَبَـــنَّ الظَّبْـــيَ بَعْـــدَ جيـــدِهِ ومُقْلَتَيـــــهِ أنـــــهُ نظيـــــرُهُ

فإنْ رأيتَ حُسْنَ جيدَ الظَّبْيِ وعَينَيهِ ، فلا تُشَبِّهْهُ بالظَّبْيِ ، ولا تَظُنَّنَّ أنهُ مثلُهُ .

٩ ـ هـــذا لبـــابُ البُـــرِّ شـــرُّ زادِهِ وذاكَ خيـــرُ زادِهِ بَـــريـــرُهُ

فهذا الرجلُ العظيمُ ، أسْوأُ طعامِهِ دقيقُ القمحِ دونَ قشرِهِ ، وذاكَ الظَّبْيُ أفضلُ طعامِهِ رؤوسُ أغصانِ الأراكِ وأوَّلُ ثمارِهِ .

١٠ ـ كـــلُّ أسيـــرٍ مُطْلَـــقٌ إذا افْتُـــدي فمـــالَـــهُ لا يُفْتَـــدَى أسيـــرُهُ ؟

منَ المعروفِ أنَّ الأسيرَ ، يُطْلَقُ إنِ افْتُدِيَ ، أمّا هذا المرءُ ، فلا يدري أحدٌ ما الذي جرى لهُ ، لا يقْبَلُ افتداءَ مِمَّنْ يأسُرُهُ ؟

١١ ـ يـا ليتَـهُ اسْتَخْـدَمنـي ، وليتنـي بنظـــرةٍ فـــي سَنَـــةٍ أجيـــرُهُ

وكم أتمنَّى أنْ يجعلَني عاملاً عندَهُ أو أنْ أكونَ صانعاً بينَ يديهِ سنةً كاملةً ، ويكونَ أجري نظرةً واحدةً منه .

١٢ ـ تـــاللهِ لا تعـــرفُ لـــو لَمَسْتَـــهُ مَلْمَسُـــهُ أليَـــنُ أم حـــريـــرُهُ ؟

وإني لأقسمُ لكَ إنكَ لو لامَسَتْ كفُّكَ جِسْمَهُ لتساءَلْتَ : هل هذا مَلْمَسُ جسمِهِ اللَّيِّنِ اللَّدِنِ أم مَلْمَسُ الحرير ؟

١٣ ـ زيَّـــنَ هـــذا الشِّعْـــرَ تَشبيبـــي بـــهِ كـــالمُلْـــكِ قـــد زَيَّنَـــهُ ظهيـــرُهُ

ولقد زيَّنَ شِعري ذكرُ حبي إيّاهُ كما يُزيِّنُ المُلْكَ مساعدةُ الوزيرِ .

١٤ ـ مـا أعظـمَ النعمـةَ لـو تَحَقَّقَـتْ علـــى أميـــرٍ ، مثلُـــهُ وزيـــرُهُ

فما أجلَّ النعمةَ ، وما أحلى العطاءَ إذا كانَ من أميرٍ ، يُشْبِهُهُ وزيرُهُ .

١٥ ـ ركَّـــبَ فـــي قنـاتِـهِ سِنـانَهـا وسَـــنَّ نصـــلَ سيفِـــهِ تـــدبيـــرُهُ

فقد ركَزَ في رمحه سِنَّها الحادَّ ، وكانَ تدبيرُهُ هو الذي سَنَّ جانبَ سيفِهِ ورأسَهُ .

١٦ ـ لـم يَطـوِ عنـهُ نصحَـهُ ، كـأنـهُ جُـــذَيمـــةٌ ، وأنَّـــهُ قصيـــرُهُ

ولم يكنْ كَجُذَيمةَ الأبرشِ الذي لم يرضَ بنصحِ وزيرِهِ وتابِعِهِ قصيرِ بنِ سعدٍ ، فنالَ شَرَّ ما نالَ من الزَّبّاءِ لأنه ، ما سمعَ نصحَ قصيرٍ تابِعِهِ .

١٧ ـ يَخْدِمُهُ الصوابُ في جميعِ ما يُسْـــديـــهِ بـــالتـــدبيـــرِ ، أو يُنيـــرُهُ

ويَظَلُّ الرشادُ خادماً إيّاهُ في جميعِ ما يُقَدِّمُهُ له منَ التدبيرِ والإيضاحِ .

١٨ ـ وقلـــمٌ علـــى الحُســامِ سَطْــوُهُ ومُخْفِـــتٌ صليلَـــهُ صـــريـــرُهُ

ويقومُ على خدمتِهِ أيضاً قلمٌ ، لهُ جبروتٌ وبطشٌ على السيفِ القاطعِ ، وصوتٌ ، يُخَفِّفُ ، ويَخْفي صوتَ السيوفِ في أكبرِ معركةٍ .

١٩ ـ يُسْقِـطُ صمصـامـةَ عمـرٍو دونَـهُ وأيـــنَ عـــن تـــأثيـــرِهِ تـــأثيـــرُهُ ؟

ويستطيعُ أنْ يَلْوِيَ سيفَ عمرِو بنِ مَعد يكربَ المُسَمَّى صمصامةَ عمرٍو ، ويُسقِطَهُ ، ويصبحُ في حيرةٍ منْ أمرِهِ ، فلا يدري ، أينَ الطريقُ في نجاتِهِ منْ هجائِهِ الشديدِ ؟

٢٠ ـ يصْـدُرُ عـن رأيِ فتًـى ، لكنـهُ تجـــاربُ الشيـــوخِ تَسْتَشيـــرُهُ

ويَطْلُعُ على الناسِ برأيِ شابٍ عَلَّمَتْهُ الحياةُ أموراً ، ويأتيهِ الشيوخُ ليأخذوا مشورَتَهُ فيها .

٢١ ـ كـأنمـا هـو ابْـنُ تِسعيـنَ ، وفـي مَفْـــرِقِـــهِ لمّـــا يَلُـــحْ قتيـــرُهُ

وكأنهُ في وَقارِهِ ابْنُ تسعينَ سنةً ، ولمّا يَبْدُ في مِفْرَقِهِ شعرةٌ بيضاءُ .

٢٢ ـ يُسامِرُ الضميرَ كلَّ ليلةٍ وذو الحِجَى ضميرُهُ سميرُهُ

ولا يجدُ في ليلِهِ سميراً إلاّ ضميرَهُ الحَيَّ الصادقَ لأنهُ ، يعلَمُ حقَّ العلمِ أنَّ الضميرَ صديقُ صاحبِ العقلِ السليمِ .

٢٣ ـ يُدَبِّرُ الأمرَ الذي منْ قبلِهِ لم يُدْرَ مِنْ قَبِيلِهِ دبيرُهُ

وينظُرُ إلى الأمرِ متأمِّلاً عاقِبَتَهُ التي لم يَعْرِفْ أحدٌ قبلَهُ شيئاً عنها .

٢٤ ـ رأيٌ وتدبيرٌ نشا عليهما حتى استَمَرَّ فيهما مريرُهُ

ولم يكنْ رأيُهُ أو تَصَرُّفُهُ في الأمورِ جديداً عليهِ ، بل كانَ ، يعْهَدُهُ مِمَّنْ نشأَ في ظَهْرانيهِمْ ، ومضى به ، وأحْكَمَهُ بعزيمتِهِ إحكاماً جيِّداً .

٢٥ ـ يبني على أُسٍّ ، وليس يبني مِنْ فوقِ جُرُفٍ هائرٍ شفيرُهُ

وهاهو ، يُقيمُ أمورَ الناسِ على أُسُسٍ قويةٍ بعيدةٍ عنْ كلِّ ما يَهْدِمُها منْ شُرورٍ ، تشبهُ السيولَ والأنهارَ .

٢٦ ـ صُبَّتْ عليهِ خِلْعةٌ مِنْ وَشْيِها وشْيُ الرياضِ ، الحسنُ يُسْتَعيرُهُ

وقُدِّمَتْ إليهِ كسوةٌ ذاتُ وشيٍ جميلٍ ، تمَنَّى الرياضُ أنْ يَستَعيرَها ليتزَيَّنَ بها .

٢٧ ـ حُفَّتْ بِهِ ، فأشْرَقَتْ بنورِهِ والشمسُ ما يَحُفُّها تنيرُهُ

وأحاطَتْ بهِ رعيَّتُهُ ، فضاءَتْ بنورِهِ ، فكانَ كالشمسِ ، تضيءُ ما يُحيطُها منَ الكواكبِ والنجومِ .

٢٨ ـ تاللهِ ما زانَ الوزيرَ لُبْسُها كفاهُ زَيْناً مجدُهُ وخِيرُهُ

ولم يُجَمِّلْ هذا الوزيرَ لباسُ الوزارةِ لأنه كانَ مُكْتَفياً بما أعطاهُ اللهُ منْ أصلٍ وعزٍّ فضلاً وجمالاً وزينةً .

٢٩ ـ كفاهُ تَشريفاً كمالُ فضلِهِ والعلمُ زَيْنُ الحَبْرِ لا حَبيرُهُ

وحَسْبُهُ عظمةً تمامُ عِلْمِهِ ؛ فالعلمُ زينةُ الرجلِ الصالحِ لا لباسُهُ الغالي ثمنُهُ .

٣٠ ـ يحتقرُ الدَّهرَ علوُّ همَّةٍ ليسَ خطيراً عندَهُ خطيرُ

وذو العزيمةِ القويةِ لا يبالي بما يأتي به الدهرُ ، ولا يرى أحداً ذا قَدْرٍ رفيعٍ إذا لم يَخْتَبِرْ قدرَهُ .

٣١ ـ لو لم يُناسِبِ السحابَ كَفُّهُ ما غدا مُسْتَعْذَباً نميرُهُ

فلو لم يوافِقْ كرمُ يدِهِ عطاءَ السحابِ لما صارَ ماءُ المطرِ غزيراً نافعاً .

٣٢ ـ يُطيِّبُ الأرضَ مُقامُهُ كما يُذْهِبُ عنها طِيبَها مسيرُهُ

فإذا حَلَّ بمكانٍ ، وأقامَ فيهِ ، جَعلَهُ وأهلَهُ نافعينَ كالطِّيبِ ذي الروائِح العطرةِ ، وإذا تركَ المكانَ ذهبَ بذهابِهِ النَّفعُ عنه كما يتلاشى شذى العطرِ بمرورِ الوقتِ .

٣٣ ـ فكلُّ دارٍ حلَّها كأنهُ خَورَنَقُ النعمانِ أو سديرُهُ

وكانَتْ كلُّ دارٍ ، نزلَ بها ، تُشْبهُ قصْرَيِ النعمانِ : الخورنقَ والسديرَ اللَّذينِ ذهبا مثلاً في العظمةِ .

٣٤ ـ تِسْعةُ أعشارٍ منَ الفخرِ لهُ وللكرامِ كلِّهمْ عشيرُهُ

فإذا قُسِّمَ الفخرُ على الناسِ كانَ لهذا الوزيرِ تسعةُ أعشارٍ وللرجالِ العظامِ عِشْرٌ واحدٌ .

٣٥ ـ هاكَ مِنَ الزمخشريِّ مِدحةً قلادةً ، ناظمُها ضميرُهُ

فإليك أيُّها الوزيرُ منَ الزمخشريِّ قصيدةً في مدحِكَ تَكُنْ لكَ قلادةً ، تتزيَّنُ بها إلى أبدِ الآبدينَ لأنها صادرةٌ عن قلبِ محبٍّ صادقٍ .

٣٦ ـ لولا يداكَ ، والزمانُ كاسرٌ جناحيهِ لم يَنْجَبِرْ كسيرُهُ

فلولا حسنُ رعايَتِكَ إياهُ بعد كسرِ رجلِهِ ، لم يَنْصَلِحْ حالُهُ أبداً .

☆☆ ٢٨ ـ وقالَ على بحرِ المُتقاربِ في المدحِ :

١ ـ إلى اللهِ أشكوكَ يا ساقَ حُرٍّ قَدَحْتَ بنوحِكَ في ساقِ حُرِّ

إني أذكُرُ آلامي إلى اللهِ تعالى يا ذَكَرَ القَماري لأنكَ ، ألهبْتَ ببكائكَ ناراً في غصنِ وساقِ الشجرةِ .

٢ ـ وحَرَّكْتَ مِنْ شَجْوِهِ باكياً فهو هو قَلِقُ المُسْتَقَرِّ

وأثرْتَ منْ حزنِهِ فؤاداً باكياً لا يَجدُ سَكناً ولا هدوًّا لاضطرابِهِ الدائم .

٣ ـ تقولُ حشاهُ لِحُرِّ الحِجا زِ : إنكَ بَرْدٌ إلى جَنْبِ حَرِّ

فتقولُ ضلوعُهُ وما فيها لِعُلَيِّ بنِ عيسى ابْنِ وهّاسٍ شريفِ مكةَ عظيمِ الحجازِ : إنكَ بَرْدٌ وسلامٌ في جنبٍ أليمٍ .

٤ ـ يُراوحُ منْ ذكرِ أوطانِهِ ومنْ صبرِهِ بينَ حُلْوٍ ومُرِّ

تتَنَقَّلُ أحاسيسُهُ حينَ يذكُرُ ما عاناهُ في بلادِهِ منْ أفراحٍ ، سُرَّ بها ، ومآسٍ ، صَبرَ عليها ، بينَ الحلاوةِ والمرارةِ .

٥ ـ يَحِـــنُّ ، وكـــم دونَ أُلأَفِـــهِ لأذيـــالِ عـــاصفـــةٍ مـــنْ مَجَـــرِّ

ويشتاقُ إليها ، ويَعُدُّ الأحداثَ القاسيةَ التي مَرَّتْ به ، والتي جَعَلَتْ بينَهُ وبينَ مَنْ صادقَهُمْ بعضَ الشِّقاقِ الذي جرَّ عليهِمْ بقايا الخِلافِ .

٦ ـ وبيـــداءَ يُطـــرِقُ فـــي طُـــرْقِهـــا أدِلاّؤهـــا لِخفـــاءِ المَمَـــرِّ

ويَعُدُّ كمْ منْ صحراءَ ، سَكَتَ مُرشدو دروبِها ، وأرخَوا أنظارَهُمْ إلى الأرضِ لأنهمْ ، حاروا ، ولم يهتدوا إلى الطريقِ الصحيحِ .

٧ ـ وكـــم دونَ خـــارزْمَ مـــنْ غـــائـــطٍ بطيـــنٍ ومـــنْ جبـــلٍ مُشْمَخِـــرِّ

وكم منْ أرضٍ ، قطعَها بَعد أنْ خرجَ منْ خوارزمَ ، كانَ منها الغيرانُ العميقةُ والجبالُ العاليةُ .

٨ ـ أمـــالَ إلـــى النجـــمِ يـــافـــوخَـــهُ كَمُصْـــغٍ لِيُفْضـــي إليـــهِ بِســـرِّ

وأرخى رأسَهُ إلى الأرضِ ، كأنهُ ، يستَمِعُ إلى سِرِّ النجمِ : النباتِ ذي السوقِ القصيرةِ .

٩ ـ وكـــم دونَهـــا مـــنْ أشـــابـــاتِ قـــومٍ جفـــاةٍ لخيـــرٍ كفـــاةٍ لِشَـــرِّ

وكم صادفَ في طريقة منْ أخلاطِ قومٍ ، منهمْ غلاظٌ أقوياءُ ، ومنهم مُحِبّونَ للخيرِ ، ومنهمْ أشداءُ ، يبتعدونَ عنِ الشرِّ ، أو يُبْعِدُونَه عنهمْ .

١٠ ـ متـــى تَفْتَـــحِ العيـــنَ لـــم تَنْفَتِـــحْ علـــى أوجـــهٍ كـــالمصـــابيـــحِ غـــرِّ

وإنكَ حينَ تستيقظُ ، وتفتحُ عينيكَ لا ترى أمامكَ إلاّ وجوهاً بيضاءَ ، كأنَّ المصابيحَ ، قد أرسلَتْ أنوارَها إليها .

١١ ـ تـــرى كـــلَّ مُعْلِـــنِ وعـــظٍ ونُصْـــحِ مُسِـــرَّ الخطـــايـــا عليهـــا مُصِـــرِّ

وتُفاجَأُ حينَ تصادِقُ رجلاً ، يُقدِّمُ موعظاتِهِ ونصائحَهُ ، ويُخفي عنكَ آثامَهُ لأنه يزاوِلُها مَحَبَّةً بها .

١٢ ـ تَطَلَّـــتْ بشهـــدٍ أقـــاويلُـــهُ ولـــم يَطَّـــلِ الفعـــلُ إلاّ بمُـــرِّ

وادَّهنَتْ بحلاوةِ العسلِ أقاويلُهُ ، ولم يَدَّهِنْ فِعْلُهُ إلاّ بألوانِ المرارةِ والضُّرِّ .

١٣ ـ ولم أرَ في النـاسِ قومـاً كقومـي أكَـــفَّ وأكْفَـــى لبـــؤسٍ وضُـــرِّ

ولم أجدُ في الناسِ رجالاً كرجالِ قومي أغنياءَ عنِ الناسِ وأمْنَعَ لِشِدَّةٍ وشَرٍّ .

١٤ ـ وَأَقْعَـــدَ عـــنْ فَجْـــرَةٍ تُتَّقَـــى وَأَسْـــرَعَ خطـــواً إلـــى كـــلِّ بِـــرِّ

وَأَبْعَدَ عنْ مَعْصِيةٍ ، تُحْذَرُ ، وأخَفَّ سيراً إلى كلِّ خيرٍ .

١٥ ـ وإنَّ المُـوَفَّـقَ مِـنْ بينهِـمْ لأَجمَـعُ للبِـرِّ مِـنْ كـلِّ بَـرِّ

والموفّقُ واحدٌ منْ قومي جامعٌ للخيرِ أكثرُ منْ كلِّ مخلوقٍ .

١٦ ـ إذا سَمِـعَ البِـرَّ أهـوى إلـى مسـاقِطِـهِ كـالجـوادِ المُبِـرِّ

إذا سمعَ خبراً ، فيهِ الصلاحُ ، أسرعَ إلى أركانِهِ ، وكانَ كالفرسِ المطيعِ لصاحِبِهِ .

١٧ ـ لـه بحـرُ علـمٍ تَـرَى كـلَّ بحـرٍ مقيـسٍ إليـهِ شبيهـاً بِبَـرِّ

فهو بحرٌ في علمِهِ ، تَرَى كلَّ عالمٍ ، يريدُ أنْ يُقابِلَهُ بِنِدٍّ لهُ مماثلاً بحراً بِبَرٍّ .

١٨ ـ وذلـكَ بحـرٌ عجيـبُ الصِّفـا تِ عـذبُ المـواردِ قَـذّافُ دُرِّ

وهو بحرٌ في المكرماتِ ، يَعجبُ المرءُ منْ رفيعِ صفاتِهِ ؛ من أيَّةِ جهةٍ تأتيهِ ، تنالُ أحلى وأعظمَ الأعطياتِ التي تشبهُ اللآلئَ إذْ يُوَزِّعُها على الناسِ .

١٩ ـ يُـراعـي المُـوَحِّـدَ والمُلْحِـدَ إصـابـةَ منـهُ بِنَفْـعٍ وضَـرِّ

يُسايرُ المؤمنَ التَّقِيَّ الوَرِعَ والكافرَ المشرِكَ إذا رأى منه ما يَنْفَعُ ، ويضُرُّ .

٢٠ ـ يُـزحـزِحُ ذاكَ إلـى شَطِّـهِ وهـذا يُـزَحْـزِحُـهُ فـي المَقَـرِّ

يُباعِدُ ذاك المؤمنَ التَّقِيَّ الورعَ عنِ الشَّرِّ ، ويُقَرِّبُهُ منْ شاطئِ الأمانِ ، ويَجْذُبُ هذا الكافرَ المشركَ إلى الإيمانِ ، ويجعلُهُ مُسْتَقِرًّا فيه .

٢١ ـ صـدوقُ اللسـانِ لـو أنَّ القطـا مَـرَرْنَ بـهِ صِـرْنَ أبـا ذَرِّ

وهو ذو منطِقٍ صادقٍ حُرٍّ ، لو مرَّ سِربُ القطا المعروفِ بصدقِهِ به ، لزادَ صدقاً ، وصارَ أبا ذرٍّ الغِفاريَّ الصادقَ .

٢٢ ـ لسـانٌ كـذي شُطَـبٍ ، صفحتـاهُ منقـوشتـانِ بـآثـارِ ذَرِّ

وذو لسانٍ كسيفٍ ، ظهرَتْ في صَفْحَتَيهِ خطوطٌ ونقوشٌ مأخوذةٌ منْ جماعاتِ النَّمْلِ .

٢٣ ـ علـى فـارسِ الشُّـرَّدِ السـائـراتِ يَكُـرُّ ، فَيُعْقِصُـهُ فـي المَكَـرِّ

يهجُمُ على فارسٍ منْ فرسانِ الشعرِ ذي القصائدِ المشهورةِ السائرةِ بينَ الناسِ مراراً هاجياً إياهُ حتى يوقِعَهُ في إحدى رجعاتِهِ عنه عاجزاً عنِ الرَّدِّ عليه .

٢٤ ـ فَيُـزري بِغُـرَّةِ شِعْـرِ المُبَكّـي بِسِقْـطِ اللِّـوَى وبسقـطِ المَعَـرِّي

ويعيبُ عظمةَ شعرِ امْرِئِ القيسِ صاحبِ : سِقْطِ اللِّوَى

قِفا نبكِ منْ ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بِسِقْطِ اللِّوَى بينَ الدَّخولِ فَحوملِ

ومكانةَ أبي العلاءِ المعري فيلسوفِ الشعراءِ وشاعرِ الفلاسفةِ صاحبِ كتاب (سقط الزند) .

٢٥ ـ هنيئاً لـه علمُـهُ والتُّقَـى   مـع الشـرفِ القـائـمِ المُسْتَمِـرِّ
فَلْيَهْنَإِ الموفَّقُ بعلمِهِ وَوَرَعِهِ وعِزِّهِ القائمِ المداومِ على التَّقَدُّمِ .

☆☆ ٢٩ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الرثاءِ :

١ ـ أيا بحرَ علمٍ قد أُصِبْنا بِجَزْرِهِ   ولابُدَّ بعدَ المَدِّ للبحرِ مِنْ جَزْرِ
يا أيُّها الرجلُ العظيمُ البحرُ في علمِهِ ، قد أُصِبْنا ، ورُزِئْنا بفقدِكَ ، ونحن نعلمُ حقَّ العلمِ بأنَّ لكلِّ شيءٍ نهايةً ، وأنه ، لابدَّ من الجَزْرِ بعدَ المَدِّ للبحرِ .

٢ ـ فقامَ يصيحُ الفضلُ : قد ذهبَ الذي   ثمانينَ عاماً قد شَدَدْتُ به أزري
وهبَّ الفضلُ باكياً : لقد رحَلَ عني مَنْ كانَ ، يُعينني ، ويُقَوِّيني ثمانينَ عاماً دونَ رجعةٍ .

☆☆ ٣٠ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الحنينِ إلى مكةَ :

١ ـ ولي نفسٌ شِبهُ اللهيبِ ، تَصَعَّدَتْ   به زفرةٌ كالنارِ ذاكيةَ الجمرِ
لقد خَلَقَني ربُّ العالمينَ ذا نفسٍ رفيعةٍ كلهيبِ نارٍ ، تتعالى ، فَتُسْمَعُ زفراتُها ، وتَتَوَقَّدُ جمراتُها .

٢ ـ يُذيبُ مضامينَ الشؤونِ بِحَرِّهِ   فتجري شآبيبُ الحميمِ على نحري
وتَنْصَهِرُ غددُ الدموعِ ومجاريها بلهيبِ الحزنِ ، فتتساقطُ كدفعاتِ المطرِ دموعي الحارَّةُ على عنقي .

٣ ـ بُكاءً على أيامِ مكةَ ؛ إنَّ بي   إليها حنينَ النابِ فاقِدَةَ البكرِ
وأبكي بُكاءً شديداً على الأيام التي قضيتُها بمكَّةَ ، وأحِنُّ لها حنينَ الناقةِ المُتَقَدِّمَةِ في السنِّ التي فقدَتْ ابنَها البكرَ .

٤ ـ تذكَّرْتُ أيّامي بها ، فكأنني   قد اختلفَتْ زُرْقُ الأسنّةِ في صدري
وأذكُرُ تلكَ الأيامَ ، فأُحِسُّ كأنَّ رؤوسَ الرماحِ الحادّةَ التي تَلْتَمِعُ بنورِ الشمسِ ، قدِ اخْتَرَقَتْ صدري .

٥ ـ أبيتُ على الصخرِ المباركِ باكياً   كما كانتِ الخنساءُ تبكي على صَخْرِ
ويأتي عليّ الليلُ باكياً ، أتَلَمَّسُ الصخرَ المباركَ كما كانَتْ ، تفعَلُ الخنساءُ في بكائِها أخاها صخراً .

٦ ـ وحينَ تَخَطَّينا المناقبَ ، وارْتَمَتْ   بنا العيسُ تهوي في مسالِكها الغُبْرِ
وأذكرُ حينَ تجاوَزْنا دروبَ مكةَ ، وحطَّتْ بنا الإبلُ في شعابِ الصحراءِ الغبراءِ .

٧ ـ وشَطَّ بأصحابي على الأبطحِ السُّرَى　　ولَطَّ الجبالَ المُشْمَخِرّاتِ بالسِّتْرِ

وباعدَ سيرُنا ليلاً على رمالِ الصحراءِ بيني وبينَ أصحابي ، وسَتَرَ الجبالَ الشاهقةَ بسترِ ظلامِ الليلِ .

٨ ـ وقلْتُ : ألا أينَ الخطيمُ وزمزمٌ ؟　　ومالي محجوراً عنِ الركنِ والحِجْرِ ؟

فقلْت : أينَ أنا منْ حِجْرِ الكعبةِ المشرفةِ ومنْ زمزمٍ ؟ وما حالي مُبْعَداً عنْ رُكْنِ الكعبةِ المُشَرَّفةِ وموضعِ إبراهيمَ الخليلِ ؟

٩ ـ صَفَرْتُ وراءَ الفوزِ صَفْرَةَ مُفْلِسٍ　　رأى يَدَهُ صِفْراً منَ البيضِ والصُّفْرِ

وأطْلقْتُ منْ فمي صفرةَ حزنٍ لخَيبَتي ، وأحسَسْتُ أني قريبٌ منَ الهلاكِ ، وأنَّ جسمي قد فَرَغَ منَ الحياةِ فراغَ الرجلِ الذي خَسِرَ مالَهُ ، فَرَأى يَدَهُ خاليةً منَ الفضةِ والذهبِ .

١٠ ـ وقلْتُ لقلبي : قد مَلَكْتُكَ مَرَّةً　　فما أنتَ إلاّ طائرٌ طارَ عن وكْرِ

وقلْتُ لقلبي : قد كنْتُ مالكاً إياكَ مُدَّةً منَ الزمنِ ، وصِرْتُ اليومَ ، لا أملِكُ كبْحَ جماحِكَ لأنكَ ، أصبحْتَ كطائرٍ ، طارَ ، وابتعدَ عن عشِّهِ .

☆☆ ٣١ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في المدحِ :

١ ـ يا ربَّةَ الوشيِ المُحَبَّرِ جَرِّري　　ذيلَ القميصِ رِفلَّةً ، وتَبَخْتَري

يا صاحبةَ الثوبِ المُزَيَّنِ بالألوانِ المختلفةِ اسحبي ذيلَكِ مختالةً ، وامشي مِشيَةَ الفَخْرِ .

٢ ـ إنَّ الملائحَ كيفَ كُنَّ ملائحٌ　　فتواضعي ، إنْ شئتِ ، أو فتَكَبَّري

إنَّ اللواتي خُلِقْنَ حُسْنَياتٍ ، يَبْقَيْنَ حُسْنَياتٍ ، لا يُغَيِّرُ منْ حسنِهِنَّ شيءٌ ، فاصنعي ما شئتِ منَ التواضعِ أوِ التكبُّرِ .

٣ ـ يَصْفَرُّ منْ فرطِ الحياءِ إذا انْثَنى　　مَتْناكِ خوطُ الخَيزُرانِ الأخضرِ

فإذا رأى عودُ الخيزرانِ الأخضرُ جَنْبَيك ، ينعطفانِ ، يَسْتَحْيي منهما ، وتعلوهُ صُفْرَةٌ منْ شِدَّةِ الخجلِ .

٤ ـ وكذاكَ ينهالُ الكثيبُ تَشَوُّراً　　إنْ تنهضي ، فارتَجَّ ما في المِئْزرِ

وإنْ يَرَكِ تلُّ الرملِ ، تقومينَ ، وتَهْتَزُّ عضلاتُكِ ، ويهتَزُّ معها أطرافُ ثوبُكَ ، يَتَهاوَ ، ويَسْقُطْ حياءً وخجلاً .

٥ ـ لو أنَّ عودَ الأقحوانِ بَدَتْ لهُ　　منكِ المضاحِكُ ، لم يكُنْ بِمُنَوِّرِ

ولو رأى غصنُ نباتِ الأقحوانِ إشراقةَ وجهِكِ وبياضَ أسنانِكِ ، وأنتِ تضحكين ، أو تبتسمينَ لوجَدَ أنوارَ زهرِهِ غيرَ ضروريَّةٍ ، واختفى بها عنِ الأنظارِ .

٦ ـ وشقائقُ النعمانِ أحسَبُها رأتْ خَدَّيكِ ، فالْتَبَسَتْ بلونٍ أحمرِ

وأظنُّ أنَّ زهرَ شقائقِ النعمانِ لم يكُنْ أحمرَ ، فلمّا رأى وَجْنَتَيْكِ ، تَعَلَّقَ ، ولَحِقَ بكِ ، ثم شابَهَكِ بكلِّ شيءٍ حتى جعلَ زهرَهُ أحمرَ مثلَ لونِ خدَّيكِ .

٧ ـ ما كانَ حمرَةُ خدِّها طبعاً لها بل تلكَ حُمْرَةُ خَجْلَةٍ وَتَشَوُّرِ

والحقُّ أنَّ حُمْرَةَ خَدِّ هذهِ المليحةِ لم تكنْ خِلْقةً ، وإنما هي بسبب حيائِها وخَجَلِها .

٨ ـ أبْصَرْتُ سُعْدَى عندَ حطِّ نِقابِها فعلمْتُ أنَّ البدرَ ليسَ بِنَيِّرِ

ولمّا رفَعَتْ سُعْدَى خِمارَهَا أدركْتُ أنَّ البدرَ في خسوفٍ ، ليسَ يُنيرُ .

٩ ـ وشَمَمْتُ منْ أردانِ سُعْدَى نفحةً فعلِمْتُ أنَّ المسكَ ليسَ بأذفرِ

وتَنَفَّسْتُ منْ أكمامِ سُعْدَى رَوحةً ، فأدركْتُ أيضاً أنَّ المسكَ في هذا اليومِ ، ليسَ شديدَ الرائحةِ مثلَها .

١٠ ـ لو جازَ بلدَتَنا خيالُكِ مَرَّةً لَتَضَوَّعَتْ أبداً بريحِ العنبرِ

ولو مَرَّ خيالُكِ يوماً ببلدتِنا لامتَلأَتْ بشذا عِطرِكِ عطرِ العنبرِ إلى أبدِ الآبدينَ .

١١ ـ ولقد تَذَكَّرْتُ الصِّبا متناهياً أسفي ، ولكنْ قَلَّ نفعُ تَذَكُّري

وخطرَتْ ببالي أيامُ الشبابِ ، ونَهَيتُ نفسي عنِ الأسى والحزنِ ، فما أفادَني ذلكَ النهيُ .

١٢ ـ وهَرَقْتُ ماءَ مدامعي مُسْتَعْبراً لو كانَ يجدي عَبْرَةُ المُسْتَعبرِ

وبكيتُ ، فأجْرَيْتُ دموعي راغباً في اتِّخاذِ العِبرةِ منْ هذا الموقفِ ، إنْ كانَ طالبُ العِبرةِ يستفيدُ منْ دمعةِ الباكي .

١٣ ـ ما جازَ مرحلةَ الثلاثينَ الفتى إلاّ تَعَجَّمَ في الطريقِ الأعورِ

ما صارَ عمرُ هذا الفتى ثلاثينَ سنةً حتى صار سيرُهُ سهلاً في الطريقِ شديدِ الصلابةِ كثيرِ الوهادِ والمُرْتفعاتِ .

١٤ ـ لم يَجْرِ في عودِ الفتى ماءٌ إذا نادى لِحاءُ شبابِهِ بِتَقَشُّرِ

ولا يَشْتَدُّ عمادُ الشابِّ إذا لم تتوالَ عليهِ الصعابُ ، وتُحَنِّكُهُ التجاربُ ، وتُجَدِّدْهُ الأيامُ ، فيكونَ كغصْنِ شجرةٍ ، يتَقَشَّرُ لحاؤها بكرِّ الليلِ والنهارِ .

١٥ ـ اللهُ أكبرُ ليتَ عمري كلَّهُ وقفٌ على مدحِ الوزيرِ الأكبرِ

اللهُ أكبرُ ! كم أتمنى أنْ أقضيَ عمري كلَّهُ في نظمِ القصائدِ في مدحِ هذا الوزيرِ الأعظمِ .

١٦ ـ خَطَبَتْ وزارتُهُ بأفصحِ لهجةٍ بينَ الممالكِ فوقَ أرفعِ مِنْبرِ

وكم وقفَ هذا الوزيرُ فَوقَ المِنبرِ ، يتحدّثُ باسمِ الملكِ بأفصحِ لغةٍ ، تُنْشَدُ فوق أعلى المنابرِ في الممالكِ .

١٧ ـ ثانيهِ في كلِّ الجوانبِ ، لا تَقُلْ : في جانِبَي خارزمَ لم يُسْتَوزَرِ

فالملكُ هو الواحدُ ، ووزيرُهُ الثاني في جوانبِ المملكةِ ، فلا تَقُلْ أيُّها الرجلُ : لم يتَّخِذِ المَلِكُ في خوارزمَ وزيراً .

١٨ ـ خارِزْمُ تحكي جنَّةً ، وكأنهُ رَضوانُها ، ويمينُهُ كالكوثرِ

وصارَتْ خوارزمُ في هذه الحكومةِ ، تشبهُ الجنةَ ، وكأنَّ ملكَها رضوانُها خازِنُها ، وعطاءَهُ الكثيرَ كنهرِ الكوثرِ فيها .

١٩ ـ لم يَحْمِ بَيضَتَها سِوى آرائهِ والرأيُ أحمَى مِنْ سِنانِ السَّمْهَري

لم يصُنْ أرضَها إلاّ أفكارُهُ ، والفكرُ أعظمُ حُدودةً منْ رأسِ الرمحِ الصلبِ .

٢٠ ـ حتى تحامَتْها الملوكُ ، كأنها وحشٌ ، تحامَتْ غابَ ليثٍ مُخْدِرِ

حتى تجنَّبَتْ هذهِ الأرضَ ملوكُ الكرةِ الأرضيةِ ، وكأنها ، صارَتْ وحشَ غابةٍ كبيرةٍ ، اتَّخذها الليثُ عَريناً له

٢١ ـ ملكٌ تنَزَّلَ في سَرارةِ عِزِّهِ كالعينِ حَلَّتْ في سَوادِ المَحْجَرِ

وكأنَّ هذا الملكَ ، قد جَعلَ اللهُ عِزَّهُ ومجدَهُ في قلبِ نفسِهِ كما جَعَلَ موضعَ عينَيْهِ في قلبِ مَحْجَرَيهما .

٢٢ ـ ملكٌ فسيحُ مصادرِ التدبيرِ إنْ يُوردْ ، وكم منْ موردٍ لم يُصْدِرِ

فهو ، يملكُ جَوانبَ واسعةً ، يؤسسُ فيها أحكامَهُ ، ويرسِلُها تامَّةً ، تَنْتَفعُ بها الرعيَّةُ ، وكم منْ مالِكِ حاجةٍ ، لم يستطعْ أنْ يجعلَها نافعةً له أو لغيرِهِ .

٢٣ ـ فإذا دجا خطبٌ كليلٌ أدهمُ غَشّاهُ رأياً كالصباحِ الأشقرِ

فإذا حَلَّ أمرٌ عظيمٌ أسودُ ، كشفَهُ برأيٍ سَديدٍ رشيدٍ حتى صارَ أبيضَ مُشرَباً بالشُّقْرَةِ سهلَ المنالِ عظيمَ الفائدةِ .

٢٤ ـ نائي المطامحِ ، لا يُغِبُّ وفادةً هي كلَّ عامٍ عيدُ حضرةِ سَنْجرِ

وعلى الرغمِ منْ أنَّ آمالَهُ وطموحاتِهِ عظيمةٌ قويَّةٌ بعيدةُ المنالِ فهو لا يَنقَطعُ عنِ التفكيرِ فيها وعن تحقيقِها ، وإنما يواصِلُ السيرَ فيها حتى تكونَ كلَّ عامٍ عيداً لسنجرَ السلطانِ السلجوقيِّ ورعيَّتِهِ .

٢٥ ـ يرمي إليها ظهرَ كلِّ تنوفةٍ بركائبٍ ذُلُلٍ وخيلٍ ضُمَّرِ

ويقطعُ ، تلكَ البراريَ على ظهورِ إبلٍ مُرَوَّضةٍ مطيعةٍ وخيولٍ خفيفةٍ نحيلةِ الخواصرِ .

٢٦ ـ يَتَجَشَّمُ الأهوالَ راكبُ ليلةٍ غبراءَ مُظْلِمَةٍ ويومٍ أغبرِ

ويَتَحمَّلُ المخاوفَ في سيرِهِ في الليالي المظلمةِ التي يزيدُ منْ ظلمتِها الرياحُ الشديدةُ الحاملةُ الرمالَ وفي الأيامِ شديدةِ الغبارِ أيضاً .

٢٧ ـ ويَهُدُّ ركْنَ المالِ ، يعلَمُ أنهُ ما لم يَهُدَّ ، فمجدُهُ لم يَعْمُرِ

ويكسرُ الموضعَ الذي يُخَبِّئُ فيهِ المالَ ، ويتصرفُ به على مشاريعِهِ ، وهو يعلَمُ حقَّ العلمِ أنه إنْ لم يقمْ بهذا العملِ فإنَّ عزَّهُ ، لا يعيش طويلاً .

٢٨ ـ حَسِبَ اللئامُ العِزَّ سهلَ المُرْتَقَى هيهاتَ طرقُ العزِّ ذاتُ تَوَعُّرِ

وظَنَّ الناسُ الأشرارُ المجدَ سهلَ الصعودِ إليهِ ، ولم يَعلَموا أنَّ طُرُقَ المجدِ غيرُ سهلةٍ .

٢٩ ـ لا لَذَّةٌ إلا دُوَيْنَ منالِها غُصَصٌ ولا صَفْوٌ بغيرِ تَكَدُّرِ

لا يَشْعُرُ المرءُ بالسرورِ كاملاً لأنَّ الحياةَ فيها البلايا ، والهمومُ تَغْشَى السُّرورَ والأفراحَ .

٣٠ ـ ما شئتَ منْ تمرٍ بِخَيْبَرَ دونَهُ ما لم تَشأْ منْ حَرِّ حُمَّى خَيْبَرِ

وإنكَ لَتنالُ في خَيْبَرَ أطيبَ وألَذَّ أنواعِ التمرِ ، وتَلْقَى أشدَّ الحرِّ فيها .

٣١ ـ جَبَّارُ كَسْرِ المُجْتَدينَ، وليس جَبْـ ـباراً يُعارِضُهُمْ بِخَدٍّ أصعرِ

وهو مُحْسِنٌ ، يُكرِمُ منْ أتعبَهُ الفقرُ ، وطلبَ المساعدةَ منه ، وليسَ قاسياً ، يَرُدُّ طُلاّبَ العفوِ مُتكَبِّراً عليهِمْ .

٣٢ ـ راعَ الملوكَ مَقالُهُ ولقاؤُهُ وهما الشفاءُ لِسامِعٍ ولِمُبْصِرِ

وكانَ منْ لقائِهِ وكلامِهِ إلى وفودِ الملوكِ إليهِ أثرٌ كبيرٌ ؟ أخافَهُمْ ، وجعلَهُمْ يَتَهَيَّبونَهُ ، وينتظرون منهُ كلَّ خيرٍ ؛ وعلموا أنَّهما السلامةُ لمنْ يسمَعُهُ أو يراهُ .

٣٣ ـ عكَفَتْ عليهِ عيونُهُمْ وقلوبُهُمْ منْ حسنِ منظرِهِ وطيبِ المَخْبَرِ

وأقبلَ الناسُ إليهِ ، وأحاطَتْ به عيونُهُمْ وقلوبُهُمْ لجمالِ منظرِهِ وحسنِ أخبارِهِ وأفعالِهِ .

٣٤ ـ لمّا اعْتَلَى شرفاً توالى سيبُهُ والمُزْنُ ما لم يرتَفِعْ لم يُمْطِرِ

لمّا ارتفَعَتْ مكانتُهُ ، وصارَ وزيراً تتابعَتْ أُعطياتُهُ ، فكانَ كالسحابِ الحاملِ الماءَ ، لا تهطُلُ أمطارُهُ إلاّ إذا علا في الجوِّ .

٣٥ ـ خُلُقٌ كَرَوضِ الحَزْنِ زَيَّنَهُ النَّدَى والماءُ يَحْسُنُ بينَ روضٍ مُزْهِرِ

وهو ذو خُلُقٍ حَسَنٍ كبستانٍ بربوةٍ ، يُرَوِّيهِ الطَّلُّ ، لأنَّ النَّباتَ ، لا يَنْضُرُ إلاّ بالماءِ .

٣٦ ـ فَضْلٌ وأفضالٌ ورأيٌ عُلِّقَتْ بغنىً وفرطِ كِفايةٍ وتَشَمُّرِ

وذو كرمٍ ، زادَ على ما اعتادَ الناسُ ، وأُعطياتٍ وأفكارٍ ، أغْنَتْ رَعِيَّتَهُ ، وكَفَتْهُم حاجةً وافتخاراً .

٣٧ ـ لم يستحقَّ اسمَ الوزارةِ غيرُهُ تلكَ الصفاتُ لغيرِهِ لم تُذْكَرِ

لم يكُنْ غيرُهُ أولى بالوزارةِ واسْمِها ، وصفاتُهُ ، لم يُنْعَتْ بها غيرُهُ .

٣٨ ـ يشقى لديهمْ كلُّ جِدٍّ مُقْبِلٍ ولديهِ يَسْعَدُ كُلُّ جِدٍّ مُدْبِرِ

ويلْقَى الحظُّ المقبلُ عليهمْ عذاباً شديداً ، ويَسْعَدُ كلُّ حظٍّ في وزارتِهِ وسياستِهِ مقبلاً ومُدْبِراً .

٣٩ ـ إنَّ الكَهامَ مع الشجاعِ أجَدُّ منْ عَضْبٍ يكونُ مع الجبانِ مُذَكَّرِ

إنَّ السيفَ الكليلَ غيرَ الحادِّ في يدِ الرجلِ الشجاعِ أفضلُ منَ السيفِ القاطعِ في يدِ الرجلِ الرعديدِ غيرِ الجديرِ بكونهِ ذَكَراً .

٤٠ ـ يومُ الأضاحي مُقْبِلٌ فَتَهَنَّهُ عيداً ، وَصَلِّ بهِ لِرَبِّكَ ، وانْحَرِ

وإنَّ عيد الأضحى آتٍ ، فَاهْنأْ بهِ عيداً ، وكَبِّرْ ربَّكَ ، وصَلِّ إليهِ ، واذبحْ أُضْحِيَتَكَ .

٤١ ـ وتَمَلَّ عُمْرَ مدائحي لكَ إنّها تبقَى ، ويَفْنَى عُمْرُ كلِّ مُعَمَّرِ

وتَمَتَّعْ بِعِزِّ قصائدي في مدحِكَ فإنها سَيّارَةٌ خالدةٌ إلى أبدِ الآبدينِ ، وكلُّ حَيٍّ سواها فانٍ لا محالَةَ .

☆☆ ٣٢ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ :

١ ـ ألا يا أراعيلَ الرياحِ تَحَمَّلي سَلامي إلى بحبوحةِ المجدِ والفخرِ

يا أيتُها الرياحُ الأوائلُ أرجو أنْ تحمِلي مني سلامي إلى خيرِ الناسِ صاحبِ العزِّ والفخرِ .

٢ ـ إلى مُحْتَبٍ في المُنْتَدَى بِنجادِهِ حَفافَيهِ بيضٌ إخوةُ الأنْجُمِ الزُّهرِ

إلى الذي يجمعُ صدرَهُ وساقَيهِ بِحمائِلِ سيفِهِ في المجلسِ المختَصِّ به ، ويجلِسُ حولَهُ رجالٌ ، ابْيَضَّتْ وجوهُهُمْ بشرفِ أفعالِهِمْ ، فكانوا إخوةَ أنجمِ السماءِ الزاهرةِ .

٣ ـ مِنَ الطالبِيِّينَ الكرامِ يَهُزُّهُمْ إليهِ تَحَفِّيهِ بهمْ كالأبِ البَرِّ

وهو منْ كِرامِ الطالبِيِّينَ ، يدفَعُهُمْ إليهِ إكرامُهُ إياهُمْ إكرامَ الأبِ الرحيمِ الحنونِ لأبنائه .

٤ ـ يَرِفُّ رفيفَ الأُقحوانِ عليهِمُ إذا مُسِحَتْ أعطافُهُ بِنَدى القَطْرِ

ويسيرُ إليهِمْ لِتَفَقُّدِ أحوالِهِمْ سيراً رفيقاً كخفقِ وريقاتِ زهرِ الأقحُوانِ إذا نَزَلَتْ عليها قَطراتُ الطَّ

٥ ـ يَمُدُّ إليهِمْ باعَيِ الفَضْلِ والنَّدى فهمْ في رياضٍ منهُ تَفْتَرُّ عنْ عُذْرِ

يمدُّ إليهمْ يديهِ على قدرِ طولِهما دون أنْ يَثْنِيَ كوعَيهِ ، حاملةً ما يملِكُ منَ الخُلُقِ الحسنِ والمالِ ، فيحسَونَ ، كأنهمْ في بستانٍ ، سَعَدَ بنزولِ المطرِ ، وابتسَمَ له .

٦ ـ إذا رَمْزَةٌ منه اشْرَأَبُّوا لها انْتَضَى لساناً كأمضى الهِنْدُوانِيَّةِ البُتْرِ

إذا صَدَرَتْ منهُ إشارةٌ ، ومَدُّوا إليهِ أعناقَهُمْ ليعلموا ما يريدُ ، جَرَّدَ لسانَهُ الذي يشبهُ السيفَ القاطعَ المنسوبَ إلى الهندِ .

٧ ـ فَقَطَّ بهِ لِلْمُنْصِتينَ مُبادِهاً مفاصلَ قولٍ أينَ عنها بنو الفِكْرِ

وخطبَ بهِ للسامعينَ إليه خطبةً ، فاجأهُمْ بها ، قطعَتْ عنْ كلِّ قولٍ غيرِهِ صلتَهُ بالتفكيرِ السليمِ والبيانِ والبديعِ .

٨ ـ فكم فيه منْ أفوافِ وَشْيٍ مُحَبَّرٍ إذا نسجَتْ أفكارُهُ حُلَّةَ النَّشْرِ

وكم منْ مَرَّةٍ خرجَ على الناسِ مرتدياً ثوباً ثميناً مُطَرَّزاً بألوانٍ مُختلفةٍ منْ أثوابِ اليمنِ مُصْدِراً أحكاماً ، يريدُ أنْ يخبرَ بها رعيَّتَهُ .

٩ ـ وكم منْ حُجولٍ وُضَّحٍ في رصيفِهِ ومنْ غُرَرٍ زُيِّنَتْ بها نُقْبَةُ الشِّعْرِ

وكم منْ أرجلٍ بيضاءَ منْ أرجلِ الفُرُسِ صُفَّتْ في طريقِهِ ، وكم مِنْ قصيدةٍ أنشدَتْ في مدحِهِ ، زُيِّنَتْ بها مَفْخَرَةُ الشعرِ .

١٠ ـ ويَبْطِشُ في العلمِ السماويِّ بطشةً أواذِيُّها تسطو على ثَبَجِ البحرِ

ويغوصُ في العلمِ الإلهيِّ غوصةً ، تَغلِبُ أعلامُها أمواجَ البحرِ .

١١ ـ أخي ما أخي لولا ركونٌ إلى الهوى وصحبةُ ظلّامٍ ، وما ذاكَ منْ دهري

وهو أخي ، وماهو بأخي لأنه ، يَميلُ إلى أهواءِ نَفسِهِ ومصاحبةِ الظالمينَ ، وماذاكَ منْ طبعي .

١٢ ـ ربأتُ بناري أنْ تناظِرَنارَهم وأبْغَضْتُهُمْ بغضَ الحسينِ بني صخرِ

وإني لا أرضى أنْ يكونَ نوري وضوئي نظيراً ومثيلاً لنورِ الظالمينَ ، ولقد كَرِهْتُهُمْ كُرْهَ الحسينِ بنِ عليِّ بنِ أبي طالب ، رضيَ اللهُ عنهُ ، أبناءَ صخرٍ أبي سفيانَ جَدِّ يزيدِ بنِ معاويةَ .

☆☆ ٣٣ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ :

١ ـ جوارُ فريدِ الدهرِ خيرُ جِوارِ ودارُ فريدِ العصرِ أكرمُ دارِ

إنَّ قربَ رجلٍ ؛ يدعى فريدَ الدهرِ أفضلُ قُرْبٍ لأنهُ صاحبُ دارٍ ؛ هي أجودُ ديارِ هذا العصرِ .

٢ ـ ونارُ قِراهُ ما أدَلَّ وقودُها على رُدُحِ الشِّيزَى لأشعثَ ساري

وإنَّ نارَهُ التي جَعَلَها دائمةَ الاشتعالِ لَتَدُلُّ دلالةً عظيمةً على دعوتِهِ الناسَ الشُّعُثَ المسافرينَ إلى مأدُبَتِهِ الحافلةِ بأجودِ الأطعمةِ في أحسنِ القِصاع .

٣ ـ إذا انتابهَا ضَيفٌ تَلَقَّاهُ عبدُهُ بِكَوسِ عقيرٍ قبلَ كأسِ عُقارِ

فإذا أتى هذهِ المأدُبةَ ضيفٌ استقبَلَهُ أحدُ عبيدِهِ بصبِّ كأسِ دمِ جملٍ معقورٍ قبلَ أنْ يُقدِّمَ لهُ كاسَ الخمرِ احتِفاءً به .

٤ ـ جَريريَّةٌ ضَبِّيَّةٌ ، ما شَرارُها بأضوأَ منهُ في السماءِ دراري

وتلكَ عادة أبي فريد العصرِ جريرٍ منْ بني ضَبَّةَ ، عرفها الناسُ ، وكانَتْ عَلَماً ، يُضيءُ نورُهُ كما تُضيءُ النجومُ في السماءِ ظلمةَ الليلِ .

٥ ـ فللهِ منْ جارٍ حَمِدْنا جوارَهُ وللهِ منْ دارٍ ومُوقِدِ نارِ

وإني لأدعو اللهَ تعالى أنْ يُثيبَهُ أفضلَ الثوابِ على حسنِ جوارِهِ وعلى إكرامِهِ الضَّيفَ خيرَ إكرامٍ .

☆☆ ٣٤ ـ وقالَ على بحرِ البسيطِ في المدحِ :

١ ـ يُزَيِّنُ المجدَ بالجودِ الغزيرِ كما زانَ الفِرِنْدُ مُتونَ الصارمِ الذَّكَرِ

إنَّ العزَّ ، يَتَجَمَّلُ بكرمِهِ السَّخِيِّ كما يَتَحَلّى السيفُ القاطعُ بوشْيِ غمدِهِ .

٢ ـ والحرُّ مَنْ مجدُهُ بالجودِ مُقْتَرِنٌ ما المَجْدُ مُجْدٍ بلا جودٍ على البشرِ

والرجلُ الحرُّ الشريفُ ، ومن يقْتَرِنُ كرمُهُ بعزتِهِ لأنَّ العِزَّ ، لا يفيدُ أحداً ، ولا يكونُ عزًّا ، إذا لم يَسْخُ على أحدٍ .

٣ ـ ما يَنْفَعُ النصلُ لولا النَّصْلُ يَصْحَبُهُ أو حِـدَّةُ الظُّفْـرِ لـولا جِـدَّةُ الظَّفَـرِ

فلا يكونُ السيفُ نافعاً إذ لم يكنْ نصلُهُ حادًّا ، ولا يكونُ الظُّفْرُ ذا فائدةٍ إذا لم يكُنْ ذا حَدٍّ وصلابةٍ ؛ إذ لا يكونُ النفعُ إلاّ بحدوثِ النصرِ .

☆☆ ٣٥ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الفخر :

١ ـ عـراقيـةٌ سـارَتْ بنـا ، وكـأنني بهـا بعـدَ أيـامٍ حجـازيَّـةُ السيـرِ

إنَّ المسافرةَ مُتَّجِهَةٌ بنا اليومَ إلى العراقِ ، وكأنَّ سيرَها بعدَ أيامٍ، سيكونُ نحوَ الحجازِ .

٢ ـ ويا رُبَّما حَنَّتْ إلى القُدْسِ حَنَّةً فـراحَـتْ بنـا شـاميَّـةً روحـةَ الطيـرِ

ولعلَّها ، تَحِنُّ يوماً إلى بيتِ المقدسِ اشْتياقةً ، فَتَتَّخِذَ طريقاً ، تقطَعُ بها بلادَ الشامِ كما هو طريقُ الطيرِ في روحاتِهِ .

٣ ـ ومـا ضَـرْبـيَ البلـدانَ أبغـي تجـارةً بلـى إننـي أبغـي التجـارةَ فـي الخيـرِ

وما رغبتي في السَّفَرِ المتواصِلِ في بيعٍ وشراءِ السِّلَعِ ، وإنما هي في تبادلِ الأفكارِ التي فيها الخيرُ للناسِ .

٤ ـ أُجَهِّـزُ نفسـي لابتغـاءِ عُلُـوِّهـا ومـا مثـلُ مـا أبغـي يقـومُ بـه غيـري

وأهيِّئُ نفسي لتحقيقِ أعلى درجاتِ هذه التجارةِ التي لا يفكِّرُ غيري بإقامةِ مثلِها في عمرِهِ .

☆☆ ٣٦ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في المدحِ :

١ ـ قَـرُبُـوا مـنَ النـارِ المُضَـرَّمـةِ التـي لابُـدَّ أنْ تـرميهـمُ بشَـرارِ

لقد أوقَدوا لكَ نارَ العداوةِ ، وكادَ لهيبُها ، يصلُ إليكَ ، وهم لا يعلمونَ ، ولا يدرونَ أنَّ شَرارَها ، سَيُصيبُهُمْ دونَكَ .

٢ ـ خاضوا إلى البحر العظيم كأنما أمِنـوا عُبـابَ الـزاخـرِ المِسْـوارِ

واقْتَحَموا البحرَ المحيطَ راغبينَ في سوقِكَ إليهِ ، وكأنهمُ اطْمَأَنُّوا إلى أمواجِهِ العظيمةِ التي تأخذُ برؤوسِ منْ يُهاجِمُها .

٣ ـ كادوا النجومَ بِسَلْبِ فَضْلِ ضِيائِها فَخَبَـتْ مَكَـائِـدُهُـمْ ، وهُـنَّ دراري

ومَكروا ، واحتالوا على النجومِ ، وقدحوا زِنادَهُمْ ظَنًّا منهمْ أنهمْ يُطْفِئون قوةَ ضيائِها ، فباؤوا بالخُسْرانِ إذْ أطفأ اللهُ تعالى نيرانَ أحقادِهِمْ ، وأبقى أضواءَ الكواكبِ والنجومِ .

٤ ـ هَمُّـوا بسَتْـرِ الشمـسِ إلاّ أنهـا هَتّـاكَـةُ الحُجّـابِ والأسْتـارِ

وعَزموا على حَجْبِ الشمسِ ، فلم يَتَمَكَّنوا لأنها ، تُمَزِّقُ كلَّ حجابٍ وكلَّ سِتْرٍ .

٥ ـ طلبوا لُزومَ العارِ مَنْ هو طائرٌ عن مثلِهِ ، فَتَلَطَّخوا بالعارِ

أرادوا أنْ يلحقَ العارُ ، ويُغْرَمَ بمَنْ هو بعيدٌ عنْ شبيهِهِ ، فَلَحِقَهُمْ ، وتَلَوَّثوا بِهِ .

☆☆ ٣٧ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في الزهدِ :

١ ـ ومَروعةٍ بمشيبِ رأسي ، أقبلَتْ تبكي ، فقلْتُ لها ، ودمعيَ جاري :

لقد أقبلَتْ إليَّ باكيةً حينَ أفزَعها الشيبُ ، يَخُطُّ شعرَ رأسي ، فقلْتُ لها ، ودمعي يسيلُ :

٢ ـ هذا المشيبُ لهيبُ نارٍ ، أُوقِدَتْ في القلبِ ، موقِدُها حِذارُ النارِ

إنَّ هذا المشيبَ ، هو لونُ نارٍ ، أُضرِمَتْ مواقِدُها في القلبِ تحذيراً منْ نارِ يومِ القيامةِ .

☆☆ ٣٨ ـ وقالَ على بحرِ السريع في العتاب :

١ ـ يا مُحْدِثاً في لومِهِ بدعةً تُبَرْقِعُ الأوجُهَ بالعارِ

يا لائمي ؛ إنكَ تجعَلُ في عتابِكَ أمراً جديداً ، يَلُفُّ الوجوهَ بالدنَسِ والعارِ .

٢ ـ هل أمسكوا بازاً بلا لحمةٍ ؟ أو فاضِلاً مِنْ غيرِ إدرارِ ؟

هلِ اصطادَ أحدٌ طيراً جارحاً كالبازِ ، ليسَ في مِنْسَرِهِ قطعةٌ منَ اللحمِ ؟ أو رأى عظيماً ، لا يجودُ على أحدٍ منْ فضلِهِ ؟

☆☆ ٣٩ ـ وقالَ على بحرِ الوافرِ في الغزلِ :

١ ـ ألا للهِ راميةَ الجمارِ بمخضوبٍ كعُنّابٍ صِغارِ

رعى اللهُ تعالى راميةَ الحصى برؤوسِ أصابعَ مصبوغةٍ بلونٍ كثمرِ العنّابِ الأحمرِ الصَّغيرِ .

٢ ـ إذا رَمَتِ الجمارَ ازدادَ حَرِّي كأنَّ جمارَها مِنْ حَرِّ نارِ

وكلما أمسكَتْ حَصاةً منْ حَصَى جِمارِها اشْتَدَّ لهيبُ قلبي ، وكأنَّ حَصَاها من نارِ جهنمَ لشدةِ حرارتِها .

٣ ـ وذابَتْ عَبْرَتي حتى أسالَتْ شِعابَ مِنًى بأنواءٍ غِزارِ

وانْصَهَرَتْ دمعتي ، وجرَتْ على خدي ، فصارَتْ كسيلٍ ، مَلأَ جوانبَ مِنًى بأمطارٍ كثيرةٍ .

٤ ـ وكيفَ جمودُ دَمْعي بَعْدَ حَرِّ الـ ـحجازِ وحَرِّ أنفاسٍ حِرارِ ؟

وكيف الوصولُ إلى حَبْسِ دمعي ، وحرارةُ جَوِّ أرضِ الحجازِ وحرارةُ أنفاسي الشديدةُ قائمتانِ ، لا تبرحانِ ؟

٥ ـ رمَتْ سَبْعاً ، وفي سَبعينَ ألفاً   رَمَتْ نارَ الصبابةِ بالشَّرارِ

رمَتْ في المُحَصَّبِ سَبْعاً منَ الحَصَى ، ورمَتْ في قلبِ سبعينَ ألفاً منَ الرجالِ شَرارَ نارِ الحبِّ والهوَى .

٦ ـ فَقَرُّوا في مواضِعِهِمْ حَيَارى   بأفئدةٍ ، أُزِلْنَ عنِ القَرارِ

فسكنوا في أماكِنِهِمْ مضطربينَ هائمينَ ، وكأنَّ قلوبَهُمْ ، زُحْزِحَتْ عنْ أمكنتِها .

٧ ـ لقد شَغَلَتْهُمُ عنْ كلِّ نُسْكٍ   غداةَ الخَيفِ راميةُ الجِمارِ

لقد مَنَعَهُمْ حُبُّ راميةِ الحَصَى عنْ أداءِ كلِّ عبادةٍ كصلاةِ الصبحِ في مسجدِ الخَيفِ في مِنًى .

٨ ـ غَدَوا نحوَ المُحَصَّبِ في وَقارٍ   وراحوا نافرينَ بلا وقارِ

وكانوا قدِ اتَّجهوا في الصباحِ نحوَ المُحَصَّبِ في اتِّزانٍ ، وعادوا بعد أنْ رأوا راميةَ الجمارِ فزِعينَ مضطربينَ نازعينَ رداءَ الوَقارِ عنهمْ .

٩ ـ وإنهمْ ، وإنْ خلعوا عِذاراً ،   لمعذورونَ في خَلْعِ العذارِ

فهم ، حينَ نزعوا عنهمْ ثوبَ الحَياءِ لهمُ العُذْرُ في رفعِ الحَياءِ .

١٠ ـ ووافَوا كي يُضَحُّوا ، ثم أضْحَوا   وكلُّهُمُ ضحايا للنَّوَارِ

وذهبوا صباحاً ليؤدّوا ما بقيَ عليهمْ منَ النُّسُكِ ، ليذبحوا البُدُنَ ، وعادوا في الضُّحى ذِباحَ النَّوارِ راميةِ الجِمارِ .

١١ ـ نَوارُ لأَنتِ يومَ النحرِ شَرٌّ   على زُوّارِ مكةَ منْ بَوارِ

يا نَوارُ إنكَ في عيدِ النحرِ ويومِهِ لأَمرٌ شديدٌ ، ليسَ فيه خيرٌ على حُجاجِ مكةَ الخائفينَ منْ هلاكِهِمْ وفسادِ حَجِّهِمْ بسببِكِ .

١٢ ـ بأشفارِ العيونِ سَفَكْتِ منهمْ   دماً لم يَسْفِكوهُ بالشِّفارِ

ولقد أرقْتِ دمعاً حَلالاً حينَ صَوَّبْتِ إليهمْ سهامَكِ منْ أجفانِكِ ، لم يكنْ مفروضاً عليهم أنْ يذبحوا لهُ بُدُناً بالسكاكينِ الحادَّةِ .

١٣ ـ كأنَّ لِمُقْلَتَي عَينَيكِ لمّا   قَدَرْتِ عليهمْ ألْفَي قُدارِ

كأنَّ لِنَظْرَتَي عَينَيكِ حينَ استطعْتِ أنْ تَتَغَلَّبي عليهم بهما أَلْفَيْ جزّارٍ ، قاما بما أردْتِ .

١٤ ـ فكائنْ من دمٍ لهم جُبارٌ وكائنْ من دمٍ فيهم جُبارُ

فكم منْ دمٍ سُفِكَ منهم ، يُلْزِمُ القاتلَ بالدِّيَةِ ، وكم منْ دمٍ سُفِكَ فيهم ، ليسَ لهُ ديَةٌ ، وهو سفكُ الدمِ في الحروبِ .

١٥ ـ فويحَكِ لا تَحُجِّي بعد هذا فلِلْحُجَّاجِ مثلِكِ شرُّ جارِ

فيا رحمةً لكِ يا راميةَ الجمار انصحُكِ بألاّ تَحُجِّي بعدَ هذا العامِ ، لأنَّ جِوارَكِ لِحُجاجِ أمثالِكِ شَرٌّ وضَرَرٌ لهم .

١٦ ـ ذريهمْ عنكِ مرحمةً عليهمْ فذلكَ خيرُ حجٍّ واعتمارِ

فاتركيهمْ ، ودعي عنكِ تعرُّضَكِ لهمْ رحمةً بهمْ ، ففي ذلكَ أفضلُ حجٍّ واعتمارٍ وثوابٍ لكِ .

☆☆ ٤٠ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في النصحِ :

١ ـ وإذا رأيتَ صعوبةً في مطلبٍ فاحمِلْ صعوبتَهُ على الدينارِ

فإذا رُمْتَ أمراً ، ووجَدْتَ فيه شِدَّةً ووعورَةً ، فاطرحْ دونَهُ دينارَكَ ومالَكَ .

٢ ـ يَرْدُدْهُ كالظَّهْرِ الذَّلولِ فإنه حَجَرٌ يُلَيِّنُ قسوةَ الأحجارِ

يُعِدْهُ إليكَ طائعاً ذليلاً ؛ فإنَّ الدينارَ كالحجرِ ، ومنَ الأحجارِ القاسيةِ أحجارٌ ، تُلَيِّنُ أقسى منها .

☆☆ ٤١ ـ وقالَ على بحرِ الوافرِ في المدحِ :

١ ـ وطابَ نِجارُهُ ، والنفسُ أيضاً وَطيبُ النفسِ منْ طيبِ النِّجارِ

وطابَ أصلُهُ ، وطابَتْ نفسُهُ أيضاً ، والمعلومُ أنَّ طيبَ النفسِ نابعٌ منْ طيبِ الأصلِ .

٢ ـ وما كلُّ الرجالِ بأهلِ مجدٍ وما كلُّ الكواكبِ بالدَّراري

وليسَ كلُّ الرجالِ ذوي عزٍّ ورِفْعَةٍ ، وليستِ الكواكبُ في السماءِ سواسِيةً ؛ فمنها ما هو مُضاءٌ بغيرِه ، ومنها ما هو ثاقبٌ حارقٌ .

٣ ـ على عرقِ الفتى الأخلاقُ منهُ أدلُّ منَ الصباحِ على النهارِ

فإنَّ أخلاقَ المرءِ خيرُ دليلٍ على صفاءِ أصلِهِ كطلوعِ الفجرِ الذي يُبَشِّرُ بِمَجيءِ النهارِ .

٤ ـ وقومٌ ، منهمُ فخرُ المعالي همُ أمُّ المعالي والفخارِ

وهمْ قومٌ ، وَلَدوا فخرَ المعالي ، فهم أصلُ الأمجادِ والمفاخِرِ .

٥ ـ ولو لم يُثْمِروهُ لم يَطيبوا وما الأشجارُ إلاّ بالثمارِ

ولو لم يكُنْ ثمرَتَهُمْ لما حَسُنَ صيتُهُمْ ؛ فليسَ للأشجارِ قيمةٌ إذا لم يكُنْ لها ثمارُ .

٦ ـ قليلُهُمْ إذا ما الناسُ عَدُّوا أماثِلَهُمْ على عَددِ القِطارِ

وإذا أرادَ الناسُ أنْ يُصَنِّفوا الرجالَ ، فإنهمْ ، يجدونَ خيارَهم قليلينَ أمامَ البَقِيَّةِ التي هي بعددِ قطراتِ المطرِ .

٧ ـ مَعَدٌّ لا تكاثِرُهُمْ مَعَدًّا وَنَزْرٌ عندَهُمْ عُلْيا نِزارِ

وإذا أرادوا أنْ يقابلوا قبيلةَ مَعَدِّ بنِ عدنانَ وما تَفَرَّعَ منْ نسلِ نِزارِ بن مَعَدِّ بن عدنانَ بِقِلَّتِهِمْ لرأوا أنّ ما وُلِدَ منْ مَعَدٍّ عَدَداً كثيراً وما نَبَغَ منْ نزارٍ قِلَّةً ، لا تساوي هذا الوزيرَ نسلَ فخرِ المعالي عَدَداً ومجداً .

٨ ـ كبيرٌ قد تَوالَدَهُ كبارٌ وهل يَلِدُ الكبيرُ سِوى الكبارِ

فهو عظيمٌ ابنُ عظيمٍ ، ولا يلدُ العظيمُ إلاّ عظيماً .

٩ ـ تَخَلَّفَ عنه أميالاً أناسٌ سَعَوا في إثرِهِ يومَ التَّجاري

وقد أرادَ مُباراتَهُ يومَ التباري أناسٌ ، جَدُّوا باتِّباعِهِ جِدًّا كبيراً وزمناً طويلاً ، فلم يتمكنوا منْ مجاراتِهِ ، وبقوا مُتَخَلِّفين عنه .

١٠ ـ وليسَ القَذْفُ بالدُّرَرِ العذارى بديعاً منهُ إبّانَ الحِوارِ

ولم يكُنْ رميُهُ اللآلئَ إلى الإناثِ حديثاً حينَ المحادثةِ .

١١ ـ وذاكَ لأنهُ بحرٌ ، وأنّى خروجُ الدُّرِّ منْ غيرِ البحارِ ؟

لأنه بحرٌ في جودِهِ ، وكيفَ تُنالُ اللآلئُ منْ غيرِ البحارِ ؟

١٢ ـ وكم مُتَطَلِّبٍ منهُ عِثاراً أزلَّ بِغالَهُ طَلَبُ العِثارِ

وكم منِ امرئٍ ، أرادَ كَبْوَتَهُ ، وبَذَلَ جَهْداً كبيراً لإنهاكِ عزيمتِهِ وإضعافِ دابتِهِ ، فعَجزَ عنْ إدراكِ ما أرادَ .

١٣ ـ ومُحْتَفِرٍ لهُ بالكَيْدِ بئراً هوى في البئرِ قبلَ الإحْتِفارِ

وكمْ منْ رجلٍ احتالَ عليه ، أو نَصَبَ لهُ فخًا ، هوى في جوفِ مكرِهِ قبل أنْ يبدأ بتنفيذِهِ .

١٤ ـ وما غَضَبُ ابنِ أحمدَ غيرُ نارٍ ترامَتْ بالشَّرارِ على الشِّرارِ

وماكانَتْ ثورةُ فخرِ المعالي : ابنِ أحمدَ إلاّ ناراً، كانَ شرارُها، يَتناثَرُ على أشرارِ الناسِ .

١٥ ـ رأى بطرَ الصِّغارِ لمّا أصابوا فَقَدْ رَدَّ الصِّغارَ إلى الصَّغارِ

وقد وَجَدَ في الناسِ : صِغارِ النفوسِ حينَ نالوا شيئاً منَ النعمةِ طُغْياناً وعُتُوًّا في غَيِّهِمْ ، فأسْرَعَ إلى وَضْعِ حَدٍّ لهمْ في بيانِ حقيقةِ أعمالِهِمْ النابعةِ مِنْ حَقارةِ نُفوسِهِمْ .

١٦ ـ ورُبَّـةَ لَـذَّةٍ جَلَبَـتْ عـذابـاً وإنَّ الخمْـرَ جـالِبَـةُ الخِمـارِ

وكم منْ لَذَّةٍ قصيرةٍ أو طويلةٍ رَدَّتْ على صاحِبها شرًّا ، وكلُّنا ، يَعْلَمُ أنَّ الخمرَ ، يُسَبِّبُ لشارِبِهِ الصُّداعَ والخَرابَ .

١٧ ـ ويَقْـدِرُ أنْ يُعـاقِـبَ ، ثـم يَعْفـو وإنَّ العفـوَ عنـدَ الإقْتِـدارِ

ويستطيعُ فخرُ المعالي أنْ يعاقِبَ منْ يُخْطِئُ ، ويَقْتَصَّ منه ، فيَعْفو ، والعفوُ خيرُ الأحكامِ عندَ الاسْتِطاعَةِ .

١٨ ـ وإنَّ الحُـرَّ إنْ يَظْفَـرْ بِحُـرٍّ هفـا ، لـم يَشْتَعِـلْ بـالانْتِصـارِ

وإنَّ الرجلَ الكريمَ الشريفَ إذا قُدِّرَ لهُ أنْ يفوزَ بغريمِهِ الذي زلَّ ، أسرعَ إليهِ ، وعفا عنهُ ، ولم يُورِ قلبَهُ بلَهَبِ الانْتِصارِ .

١٩ ـ بنـى للـديـنِ والـدنيـا عليهـا مَبـانِـيَ كـالنجـومِ فـي الإشْتِهـارِ

وعَمَّرَ بيوتاً كبيرةً إرضاءً للهِ في دينِهِ ودنياهُ ، فكانَتْ بِشُهْرَتِها كنجومِ السماءِ .

٢٠ ـ مساجدَ عالياتِ السَّمْكِ ، نُصَّتْ سَـواريهـا علـى الشُّهْـبِ السَّـواري

وكانَتْ تلكَ المباني مساجدَ ذاتَ سقوفٍ عاليةٍ ، رُفِعَتْ جُدرانُها ، فطاوَلَتْ كواكبَ السماءِ الساريةَ .

٢١ ـ وشمسُ الملْكِ فوقَ الأرضِ أبهى مـنَ القمـريـنِ فـي الفلـكِ المُـدارِ

وكانَ المَلِكُ شمسُ المُلْكِ في الأرضِ أفضلَ منْ قَمَرَيِ السماءِ : الشمسِ والقمرِ اللَّذَينِ يدورانِ في مِحورِ الفَضاءِ .

٢٢ ـ وأمّـا المَكْـرُمـاتِ ، فتلكَ أولـى بتجـديـدِ البنـاءِ مـنَ الـدِّيـارِ

وأمَّا أفعالُ فخرِ المعالي العظيمةُ ، فهي أجدرُ بالذكرِ لأنها سبيلٌ في تجديدِ إيمانِهِ وإيمانِ الرعيَّةِ باللهِ ـ عزَّ ، وجلَّ ـ وأفضلُ منْ تجديدِ بناءِ الدِّيارِ .

٢٣ ـ فمـا زالَـتْ مُشَيَّـدَةَ المبـانـي بيُمنـاهُ مُعَـلاّةَ المنـارِ

وما زالَتْ هذهِ المَباني المُعَمَّرَةُ بِجَهْدِهِ ذاتَ مآذِنَ عاليةٍ ومناراتٍ مضيئةٍ .

٢٤ ـ وذو الهِمَمِ الطِّوالِ بَنَى المعالي ويبنـي القصـرَ ذو الهمـمِ القِصـارِ

فصاحبُ العزائمِ العاليةِ فخرُ المعالي ، قد بَنَى الأمجادَ لدينِهِ ، وصاحبُ العزائمِ

القصيرةِ يبني القصورَ لنفسِهِ .

٢٥ ـ يُشَيِّدُ قصـرَهُ ، والمجدُ يحكـي   شَفـا جُـرُفٍ بشـطِّ الـوادِ هـارِ

يبني قصرَهُ ، ويُبَيِّضُهُ بالجِصِّ المشويِّ ، فيكونُ شبيهاً بجدارٍ قربَ سيلٍ جارفٍ هادمٍ كلَّ شيءٍ .

٢٦ ـ وإنَّ بنـاءَ مَكْـرُمـةٍ وفضـلٍ   لأجـدَرُ مـنْ بنـائِـكَ للجِـدارِ

وإنَّ إقامةَ الخيرِ والسخاءَ به لأولَى بالثوابِ والبقاءِ منْ إقامةِ الجدارِ والقصرِ .

☆☆ ٤٢ ـ وقالَ على بحرِ الخفيفِ في المدحِ والتهنئةِ :

١ ـ مَنْ عَذيري منْ صُدْغِهِ المستدير   لاعِبـاً فـوق خَـدِّهِ المُسْتَنيـرِ ؟

منْ منكُمْ أيُّها الناسُ ، يرفَعُ اللومَ عني لِحبي هذا الفتى ذي الصُّدْغِ الجميلِ باستدارَتِهِ وبانسِدالِ شعرِهِ فوقَهُ وبمُلاعبةِ شعرِهِ خَدَّهُ المُضيءَ .

٢ ـ صولجانٌ في مسكةٍ ، لَعِبَ الحُسْـ   ـنُ بـهِ فـي مجـالِ وَرْدٍ نَضيـرِ

فإنْ تَرَ عَصَا المُلْكِ في يدِهِ تَجدِ الحُسْنَ والجمالَ ، يَتَباهى بنضارتِهِ على الروضِ وورده الأخضرِ .

٣ ـ إنَّ فـي وجْنَتِـهِ جَنَّـةَ عـدنٍ   أوقَـدَتْ فـي حشـايَ نـارَ السعيـرِ

وإني ، حينَ أرى صفحَتَي وجهِهِ أقولُ : إنهما قطعةٌ منْ جنةِ الخلدِ ، ألْهبَتْ في حشايَ نارَ جهنمَ .

٤ ـ شَبَّهـوا خَـدَّهُ وعينـيَ لمّـا   عـارَضَتْـهُ بـروضـةٍ وغـديـرِ

ورآني الناسُ حينَ واجَهْتُهُ ، فقالوا : إنَّ جمالَ وجهِهِ مثلُ روضةٍ حسناءَ ودموعَ عينيكَ مثلُ نهرٍ ، تَدَفَّقَتْ مياهُهُ .

٥ ـ فَتَـرَتْ مُقلتـاهُ ، والبطـشُ والقُـوْ   وَةُ منـي فـداءُ ذاكَ الفُتـورِ

لمّا سكنَتْ نظرةُ عينيهِ عليَّ جعلْتُ قوتي وسطوتي وبأسي فداءَ تلكَ النظرةِ .

٦ ـ أيُّ كـأسٍ يـديـرُهـا اللحـظُ منـهُ   عجبـاً مـنْ مـداراةٍ ومـديـرِ ؟

تُرى ، ما كُنْهُ طرفِهِ ؟ وما حقيقةُ كأسِهِ ؟ يدورُ حيثُ يريدُ صاحبُهُ ؟ ففيهِ العجبُ : النشوةُ تارةً والبطشُ أخرى .

٧ ـ هـي كـأسٌ تغـادرُ الخَلْـقَ سَكْـرَى   أيـنَ مـنْ فعلِهـا كـؤوسُ الخمـورِ ؟

فهي كأسٌ ، يُقَدِّمُها إلى الخَلْقِ ، ويتركُهُمْ سُكارى حَيارَى لأنهمْ لم يَعْهَدوا قبلَها نَشْوَةً مثلَها .

٨ ـ يـا أميـرَ المـلاحِ أنـتَ أميـرٌ   جـائـرٌ للعبـادِ غيـرُ مُجيـرِ

فيا أيُّها الجميلُ يا سَيِّدَ الحِسانِ ، إنكَ ملكٌ ظالمٌ رعيَّتَكَ بحسنِكَ ، ولستَ عادلاً إذْ لا تُنْقِذُهُمْ منْ هواكَ .

٩ ـ لِـرعـايـا العشـاقِ فـي كـلِّ يـوم   مُسْتَغـاثٌ ، مَـنْ مثـلُ هـذا الأميـرِ ؟

ولكلِّ محبوبٍ رعيَّةٌ جماعةٌ ، يهيمونَ بهواهُ ، ويَسْتَغيثونَ به ، وأنتَ الأميرُ على الهَوَى ، ليسَ لكَ شبيهٌ ، يُسْتَغاثُ بهِ .

١٠ ـ ساءَهُمْ قُبْحُ جَورِهِ مثلَ ما قد   سَـرَّ خـارزمَ حسـنُ عـدلِ الأميـرِ

ضاقَ ذرعُ أهلِ خوارزم بظلمِهِ المكروهِ في الهَوَى ، لكنهمْ فرحوا ، وسَعَدوا بحُسْنِ معاملتِهِ إيَّاهُمْ لأنه ، أقامَ العدلَ فيهم .

١١ ـ سائسُ المُلْكِ أثقبُ الناسِ رأياً   حيـنَ تَخْفَـى مـواقـعُ التـدبيـرِ

والقائمُ على أمورِ الرعيَّةِ أحكَمُهُمْ فكراً حينَ يَسْتَتِرُ عليهمُ الصوابُ والرشادُ .

١٢ ـ وأحـقُّ الأنـامِ بـالسُّـؤدُدِ الضْـ   ـضَخْـمُ وبـالـدَّسْـتِ عـاليـاً والسـريـرِ

وأجدرُ الناسِ بالسيادةِ والحكمِ والمجلسِ المرتفعِ والعرشِ العظيمِ الرجلُ الفاضلُ .

١٣ ـ شاهرٌ منْ صريمةِ العزمِ سيفاً   فيـه فضـلٌ علـى الحسـامِ الشَّهيـرِ

وهو مجرِّدٌ منْ قوةِ الهمَّةِ يراعاً ؛ فيه خيرٌ على السلاحِ العظيمِ .

١٤ ـ وصليلُ السيوفِ هَمْسٌ ، وأخْفى   حيـن تخطـو أقـلامُـهُ بـالصـريـرِ

ولضربِ السيوفِ صوتٌ هامسٌ ، أسكتَهُ صريرُ اقلامِهِ ، وهي تسيرُ على صفحاتِ أوراقِهِ .

١٥ ـ بالوزيرِ الميمونِ خارِزْمُ ضاهَتْ   حِصْـنَ تَيمَـاءَ ، وهْـيَ بَعْـضُ الثغـورِ

فبالوزيرِ المباركِ بارَتْ خوارزمُ حصنَ تيماءَ ، لكنها ، لم تَتَمَكَّنْ منْ مساواةِ الوزيرِ بالحصنِ على الرغمِ من أنَّ ذلكَ الحصنَ ، هو أحدُ مداخلِ البلادِ الحصينةِ .

١٦ ـ إنَّ آثـارَ يُمْنِـهِ ظَهَـرَتْ فـي   كـلِّ أحـوالِهـا وكـلِّ الأمـورِ

وقد ظهرتْ آثارُ بركةِ هذا الوزيرِ في كلِّ أحوالِ خوارزمَ السياسيَّةِ وكلِّ أمورِ أفرادِ الرعيَّةِ .

١٧ ـ بـركـاتٌ لهـا ؛ وِزارتُـهُ الأصْـ   ـلُ الـذي منـه نَـشْءُ خَيـرٍ كثيـرِ

وكانَ هذا الوزيرُ بركاتٍ لخوارزمَ ؛ إذْ هو أصلٌ لها ، ومنْ هذا الأصلِ كانَ الخيرُ الكثيرُ .

١٨ ـ عَمَّتِ الناسَ بالسرورِ ، وخَصَّتْ   فَكَنَوهـا لـذاكَ أمَّ السـرورِ

وشَمِلَتِ الرعيَّةَ بالأمنِ والسرورِ ، وخَصَّتْهُمْ بها ، فتجرَّأوا على تكْنِيَتِها ، فقالوا : خوارزمُ هي أُمُّ السرورِ والسعادةِ .

١٩ ـ ضَيَّـعَ اللهُ بلـدةً ليـس فيهـا   مثلُـهُ مـن مُـدَبِّـرٍ ومشيـرِ

أهلكَ اللهُ بلدةً ، ليس فيها رجلٌ مثلُهُ ، يُدَبِّرُ أمورَ هذه البلادِ ، ويَستشيرُهُ رجالُها .

٢٠ ـ عَمِيَ الناسُ عن طريقِ المساعي   وهـو بـالسَّعْـي فيـه عيـنُ البصيـرِ

وكأنَّ الناسَ ، كانوا عُمْياً ، لم يهتدوا إلى طريقِ الخيرِ الذي رآهُ هذا الوزيرُ رؤيةَ المبصرِ .

٢١ ـ غـايـةٌ نـالَهـا ببـاعٍ طـويـلٍ   هـل ينـالـونَهـا ببـاعٍ قصيـرِ ؟

وكانتِ الوزارةُ أملَ هذا الرجلِ ، فَحَصَلَ عليها بعلمٍ ودِرايةٍ وحكمةٍ وصبرٍ طويلٍ ، فهل يفوزُ بها الناسُ بجهدٍ قصيرٍ ؟

٢٢ ـ إنَّ تقصيـرَهُ لأبلَـغُ مـنْ أنْ   يبلـغَ النـاسُ غـايـةَ التـوفيـرِ

وإنَّ لُجوءَهُ أحياناً إلى التَّقْليلِ ، هو غايةُ التدبير ، إذْ فيهِ زيادةُ وقتٍ وجهدٍ ومالٍ ، تعودُ بالخيرِ الوفيرِ ، وهذه الزيادةُ ، لا يدركُها الناسُ ، لو فكروا أنْ يبلغوا غايةَ التوفيرِ .

٢٣ ـ وهـو أعلـى عيناً مِنْ أنْ يَنْسُبـوهُ   فـي اكتسـابِ العُـلاَ إلـى التقصيـرِ

فهو ذو مكانةٍ أعلى منْ كلِّ منزلةٍ ، تُنالُ في طلبِ المجدِ ، ولا يُنْسَبُ إليهِ الإهمالُ أو التقصيرُ أبداً .

٢٤ ـ إنَّ فصلَ الربيعِ خيرُ فصولِ الـ   ـعـامِ وافـاكَ بيـنَ خيـرِ الشهـورِ

فيا أيها الوزيرُ إنَّ فصلَ الربيعِ ، هو خيرُ فصولِ السنةِ ، قد حلَّ عليكَ وعلينا .

٢٥ ـ يُمْـنُ صـومٍ يـزينُـهُ حُسْـن نيـرو   زٍ مُحَلَّـى بيـومِ عيـدٍ منيـرِ

وكانَ فيه بركةُ صومٍ ، زادَ في حسنِهِ يومُ نيروزَ يومُ الربيعِ المنيرِ .

٢٦ ـ فَتَهَنَّـأْ ثـلاثـةً ، قـد تـوالَـتْ   وفْـدُ : يُمْـنٍ وبهجـةٍ وسـرورِ

فاهنأْ بثلاثةٍ ، تتابَعَتْ علينا : هي البركةُ والبهجةُ والسرورُ .

☆☆ ٤٣ ـ وقالَ على بحرِ الوافرِ في الحنينِ إلى وادي حُنينٍ :

١ ـ وجَـدَّ بنـا الحنيـنُ إلـى حُنيـنٍ   وحَنَّـتْ تحـتَ أرحُلِنـا المَهـاري

واشْتَدَّ بنا الشوقُ إلى حُنَينٍ الوادي بينَ مكةَ والطائفِ . واشتاقَتْ تحتَ أحمالِنا خيرُ الإبلِ المنسوبةُ إلى مَهْرَةَ بنِ حيدانَ اليَمَنِيِّ .

٢ - لنـــا ولهـــنَّ أكبـــادٌ حِـــرارٌ إلـــى تلـــكَ الأبـــارِقِ والحِـــرارِ

ولنا ولهذهِ الإبلِ قلوبٌ عطاشٌ إلى رؤيةِ تلك الأراضي ذاتِ الحجارةِ الغليظةِ والرمالِ والطينِ التي اشتدتْ حرارتُها بِحَرِّ الشمس .

٣ - أنَخْنا في رياضِ الحَزْنِ ، نبكي دمــاً حُــزْنــاً علــى تلــكَ القِفــارِ

أبْرَكْنا إبلَنا في بستانٍ عالٍ ، نبكي دماً حُزْناً على تلكَ البلادِ التي تَرَكَها أهلُها ، فأصبحتْ أطلالاً خاليةً منَ الإنسِ .

٤ - ومحضٍ شيبَ بـالعسلِ المُصَفَّى فِــداءُ القَعْــبِ مــن ذاك السَّمــارِ

وعلى لَبَنٍ خالصٍ ، خُلِطَ بالعسلِ المُصَفَّى ؛ صارَ بديلُهُ لبناً كثيرَ الماءِ في قدحٍ غليظٍ .

٥ - ودارٍ قـد بَسَـأْتُ بهـا ، فكـانَـتْ ومـــا هـــي خيـــرَ دارٍ ، خَيـــرَ دار

وعلى دارٍ قد أَنِسْتُ بها دهراً ، فكانَتْ لي أفضلَ دارٍ عرفتُها ، وأَلِفْتُها ، وما هي في الحقيقةِ أحسنَ دارٍ على الأرضِ .

☆☆ ٤٤ - وقالَ على بحرِ الكاملِ في الغزلِ :

١ - مـا وصفُ ذاتِ الطوقِ إلاّ غـايـةٌ تَثْنـي عِنـانَ الـواصـفِ المُتَمَهِّـرِ

ليسَ وصفُ المليحةِ ذاتِ القِلادةِ إلاّ نهايةَ إعجابٍ وتَفَكُّرٍ بخلْقِ اللهِ تعالى ، حادَثَتْ به حسَّ الأديبِ الحاذقِ .

٢ - تـاللهِ لـولا السحـرُ فـي ألحـاظِهـا شَبَّهْـــتُ عينَيهـــا بعينَـــي جـــؤذُرِ

واللهِ لولا سحرُ نظراتِها لقُلْتُ : إنَّ عينَيها مثلُ عينَي بقرةٍ وحشيةٍ صغيرةٍ .

٣ - تـاللهِ لـولا فـرطُ حمـرةِ خَـدِّهـا شَبَّهْـــتُ خَـــدَّيهـــا بـــوردٍ أحمـــرِ

وواللهِ لولا شدةُ حمرةِ خَدَّيها لَقُلْتُ : إنهما مثلُ الوردِ الأحمرِ .

٤ - تـــاللهِ لـــولا مُستنيـــرُ بيـــاضِهـــا شَبَّهْـــتُ قـــامتَهـــا بغصـــنٍ أخضـــرِ

وواللهِ لولا بياضُ جسمِها الشديدِ لَقُلْتُ : إنَّ قدَّها مثلُ الغصنِ الأخضرِ النضيرِ .

٥ - تـــاللهِ لـــولا نعمـــةٌ ونضـــاضـــةٌ لَحَسِبْـتُ دَعْصـاً فـي مُـلاثِ المئـزرِ

وواللهِ لولا سكونٌ وحركةٌ يتواليانِ منها لَظَنَنْتُ أنها كثيبُ رملٍ التَفَّ بالمُلاءةِ .

٦ - تـــاللهِ لـــولا بـــرقُ مَبْسَمِهـــا لمـــا شَبَّهْتُـــــــهُ إلاّ ببـــــــدرٍ أزهـــــــرِ

ووالله لولا التِماعُ أسنانِها لما جَعَلْتُها نظيرةً إلاّ بقمرٍ مُنَوَّرٍ .

٧ ـ وبحقِّها لولا ملاحةُ وجهِها ... شَبَّهْتُهُ بالمُسْتَهِلِّ الأنورِ

وأقسِمُ بمَنْ وضَعَ حبَّها في قلبي لولا جمالُ وجهِها لقلْتُ : إنهُ مثلُ القمرِ المضيءِ في أولِ ظهورِهِ هلالاً .

٨ ـ يا قلبَ ذاتِ الطوقِ ويحَكَ، رِقَّ لي ... أم أنتَ أقسى منْ حجارةِ تدمرِ ؟

يا قلبَ ذاتِ القلادةِ ما أعجبَ أمرَكَ ! أما ترأَفُ بي ؟ وترحمُني ؟ أمْ إنَّ شِدَّتَكَ أقسى منْ صخرِ مدينةِ تدمرَ ؟

٩ ـ لَتَرَكْتَ قلبي وَهْيَ مثلَ زجاجةٍ ... فَضَضاً بصدمتِكَ التي لم تُقْدَرِ

إنكَ لم ترأفْ بي ، وتَرِقَّ لحالي حتى صارَ قلبي ضعيفاً هَشًّا مُتَكَسِّراً كزجاجةٍ ، انتشرتْ أجزاؤها التي لم تُرَدَّ بضربتِكَ .

١٠ ـ لم تُبْقِ لي صبراً ، فَرُمْتُ تَصَبُّراً ... فتركتَني صَبًّا بغيرِ تَصَبُّرِ

وإنك لم تتركْ لي شيئاً منَ الجلَدِ ، ومِلْتُ إلى التَّجَلُّدِ ، فجعَلْتَني محبًّا بلا تَجَلُّدٍ .

١١ ـ فاليومَ أخرجُ صاغراً عنْ قِشْرَتي ... وأحُطُّ عَنْ عِطفي رداءَ تَسَتُّري

وها أنا اليوم أخرجُ ذليلاً كاشفاً أمرَ صَبْوَتي ، وأخلَعُ عن كاهلي ثوبَ التَّخفّي .

١٢ ـ وأهيمُ في بَرِّيَّةٍ مُسْتأنِساً ... بالمُشَبَّهاتِ لها : الظِّباءِ النُّفَّرِ

وأسيرُ حائراً في أرضٍ ، أعتاضُ بأُنْسِ منْ يشبِهُها : بالغِزلانِ الفَزِعةِ الهاربةِ .

١٣ ـ لا مَوتَ إلاّ هجرَ ذاتِ الطَّوْقِ لي ... ما ماتَ صَبٌّ عاشقٌ لم يُهْجَرِ

ولنْ يكونَ موتي إلاّ بصَرْمِ ذاتِ القلادةِ حبلَ ودادي إذ لا يموتُ مُحِبٌّ مُغْرَمٌ بمحبوبِهِ إذا كانَ سعيداً بقربِهِ .

١٤ ـ يا ليتَ ذاتَ الطوقِ تَقْتُلُني ، ولم ... تَهْجُرْ ، لو اختارَتْ رضاً بالأيْسَرِ

فليتَ ذاتَ القلادةِ ، تقضي على حياتي ، ولا تلْجَأُ لصرمي ، إنْ وجَدَتْ أمْرَ القتلِ أهوَنَ عليها مُرْضِياً إياها .

١٥ ـ أختارُ أهوَنَ خِطَّةٍ لكنها ... خصمي ، فتختارُ الذي لم أخْتَرِ

أمّا أنا ، فإني ، أختارُ أسهلَ طريقةٍ ، وأمّا هي ، فإنها ، تُفَضِّلُ أصعبَ طريقةٍ لأنها ، تعتبِرُني عدوًّا لها ، فتفضِّلُ غيرَ ما أريدُ .

☆☆ ٤٥ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في المدحِ :

١ ـ ذاكَ الحبيبُ ؛ قِفِ الغداةَ بدارِهِ   واحلُلْ عقودَ الدمعِ في آثارِهِ

إنهُ الحبيبُ الغالي ، فَقِفْ أيها الصاحبُ صباحاً أمامَ بيتهِ ، وفُكَّ رُبُطَ دموعِكَ المحبوسةِ بعدَ رحيلِهِ .

٢ ـ وابْثُثْ بها أسرارَ وَجْدٍ مُضْمَرٍ   تتَلَهَّبُ الأحشاءُ من أضمارِهِ

وانشُرْ بدموعِكَ أسرارَ حبٍّ مَسْتورٍ ، تَتَوَقَّدُ الحنايا وما فيها منْ خفاياهُ .

٣ ـ فلعلَّ بَثَّكَ والبكاءَ كلاهما   يُطفي لهذا القلبِ بعضَ أُوارِهِ

فعسَى حديثُكَ عن مشاعِرِكَ ونحيبُكَ ، يُخَفِّفانِ شيئاً من لهيبِ هذا القلبِ المقهورِ .

٤ ـ ماأنسَ لا أنسَ الحبيبَ ، وحين قد   أَنْحَى علينا البينُ حَدَّ غِرارِهِ

وإنْ سَلَوتُ الماضيَ فإنني لا أسْلُو الحبيبَ ، ولا تَذْهبُ عنْ بالي ساعةُ ، ضَرَبَنا الفراقُ بِحَدِّ سلاحِهِ .

٥ ـ وحدا الظعائنَ حادياهُ بُكرةً   وبَقِيتُ مُلْتَصِقاً بتربةِ دارِهِ

وساقَ الهوادجَ سائقاهُ غداةً ، والتصقْتُ طويلاً بأرضِ بيتِهِ .

٦ ـ أبكي ، فتبكي ظِباءُ الجِزْعِ منْ   جَزَعٍ ، وترحمُني قلوبُ صِرارِهِ

وأنوحُ ، وتنوحُ معي شوادِنُ الوادي خوفاً ، وتَرِقُّ لي أفئدةُ أهلِ مرتفعاتِ ذلكَ الوادي .

٧ ـ أحبِبْ إلى قلبي بوادي توضحٍ   وبنفحةِ النُّوّارِ في أشجارِهِ

فما أحبَّ هذا الواديَ واديَ توضحَ وشذا أزهارِهِ على أشجارِهِ إلى قلبي .

٨ ـ كم قد عَهِدْنا في أصائلِهِ وفي   غَدَواتِهِ طيباً وفي أسحارِهِ

كم من مرّةٍ ذكَرْنا ميثاقَنا الطيِّبَ في أواخرِ النهارِ وأوائلِ الليلِ وعندَ الفجرِ .

٩ ـ وادٍ إذا صَفَقَتْ مذانِبَهُ الصَّبا   فَغَمَتْكَ ريحُ المسكِ منْ أقطارِهِ

فإذا حركَتْ ريحُ الشمالِ سطوحَ مسايلِ أمواهِ الوادي أحدثَتْ صوتاً رفيقاً ، وفاحَتْ روائحُ أزهارِهِ ، فملأتْ خياشيمَكَ طيباً .

١٠ ـ النبتُ مَيّالٌ على زَمَلاتِهِ   والماءُ سَيّالٌ على أحجارِهِ

وترى أغصانَ النباتِ ، تميلُ على بعضِها ، وانحدارَ سيلِ الماءِ على حَجَرِهِ .

١١ ـ وإذا الحمامُ غدا ، يُكَرِّرُ سَجْعَهُ   تعتادُكَ الطَّرَباتُ في تكرارِهِ

وإذا رَدَّدَ الحمامُ تغاريدَهُ في الصباحِ ، يجعلُكَ بعدَ زمنٍ ، تألَفُ هذا اللونَ منَ

الألحانِ ، وتَطْرَبُ لها على الرغمِ منْ ترديدِ اللحنِ على وتيرةٍ واحدةٍ .

١٢ ـ فكأنَّهُ راوٍ قصيدةَ شاعرٍ أطرى عُبَيدَ اللهِ في أشعارِهِ

وتحسَبُ هذا الحمامَ حافظاً قصيدةَ أحدِ الشعراءِ ، مَدَحَ بها عُبَيدَ اللهِ ، يرويها لمن يريدُ سماعَها .

١٣ ـ ما منطِقٌ أشهى وأطيبُ مسمعاً منْ مَنْطِقٍ ، يُطْوَى على تذكارِهِ

ما سمعْتُ ، ولن أسمعَ أحلى وأطربَ قولاً ، أرسلَهُ صاحبُهُ ، فصارَ بعدَ زمنٍ ذكراً على كلِّ لسانٍ .

١٤ ـ يهوي ، ويَبْدُرُ كلُّ سَمْعٍ نحوَهُ كَهَوِيِّهِ نحو العُلاَ وبدارِهِ

وينتشرُ هذا القولُ ، ويسابقُ غيرَهُ إلى أذنِ كلِّ ذي سَمْعٍ وذوقٍ سليمٍ كما ينتشرُ نحوَ العزِّ خَبَرُ السابقِ منْ أعمالِ الخيرِ .

١٥ ـ اللهُ حَبَّبَهُ ، وحُقَّ لَه ، إلى أهلِ الزمانِ : هِجانِهِ وخِيارِهِ

وقد ألقى اللهُ تعالى حُبَّ عُبَيدِ اللهِ في قلوبِ الناسِ ، وجعلَهُ لازماً عليهِمْ كلِّهِمْ : خُلَّصِهِمْ ودُخَلائِهِمْ .

١٦ ـ وأنالَهُ منْ كلِّ فضلٍ محضَهُ إذْ ليسَ عندَ الناسِ غيرُ سُمّارِهِ

وأعطاهُ منْ كلِّ أمرٍ عظيمٍ خالصَهُ ، فتَرَى الناسَ ، يَسعَونَ إليه منْ كلِّ حَدَبٍ وصوبٍ ليكونوا شركاءَ في سَمَرِهِ .

١٧ ـ أدبٌ ، يَخوضُ الناسُ في ضَحْضاحِهِ بالجَهْدِ ، وهو يعومُ في تَيّارِهِ

وهو البحرُ في الأدبِ : شعرِهِ ونثرِهِ ، يَرِدُهُ الناسُ راغبينَ شيئاً منْ لألائهِ جاهدينَ أنفسَهُمْ ، فيرَونَهُ سابحاً لاعباً في ألوانِهِ .

١٨ ـ فَدَعِ البلاغةَ ، فَهْيَ فضلُ بيانِهِ فالشعرَ ، فهو العفوُ منْ أفكارِهِ

فاترُكْ أيُّها الرجلِ أمرَ الفصاحةِ والبلاغةِ لعُبيدِ اللهِ لأنهما نبذةٌ منْ مواهبِهِ ، واترُكِ الشعرَ لهُ أيضاً لأنهُ خيرُ العطاءِ منْ أفكارِهِ .

١٩ ـ ما قالَ في هَرِمٍ زهيرٌ مِدْحَةً زهراءَ مثلَ الزُّهْرِ منْ أبكارِهِ

ما أنشدَ زهيرُ بنُ أبي سُلْمى قصيدةً في مدحِ هَرِمِ بنِ سنانٍ إلاّ كانَتْ بدعةً منْ بدائعِهِ التي هي كالنجومِ الزُّهْرِ في سماءِ اللهِ تعالى .

٢٠ ـ كلاّ ، ولا لابنِ المقفَّعِ خُطبةٌ أخذَتْ رُواةَ خِطابِهِ وحِوارِهِ

ولم يكنْ لابنِ المقفعِ رسالةٌ أو خطبةٌ إلاّ اتَّخَذَتْ من كلامِهِ وحديثِهِ شيئاً منْ عُمْقِ معانيهِ وألفاظِهِ الجَزْلَةِ .

٢١ ـ رَهَقَ الغُبارُ وجوهَ قومٍ حاولوا　　مــع قِلَّـــةِ المسعـــاةِ شَـــقَّ غُبـــارِهِ

ولقد أتعبَ النَّقْعُ والجَهْدُ قوماً ، وهم يَجِدّونَ للوصولِ إلى المعالي ، فَجَرَّبوا اتِّخاذَ طريقتِهِ وجَهْدِهِ القليلِ وما بقِيَ لديهِ منها .

٢٢ ـ صَلِيَتْ بنـارِ بَينِهـا أحشـاءُ مَـنْ　　حَسَـــدوهُ إذْ لا يصطلـــونَ بنـــارِهِ

واحترقَتْ أحشاءُ حاسدِيه بنارِ بُعْدِهِمْ عنه وعدمِ وصولِهِمْ إليه لإيذائهِ حينَ لم يحترقوا بنارِ حَرْبِهِ إياهم .

٢٣ ـ مـا لـم يُمـارِسْ كلُّهُـمْ بيمينِـهِ　　أمســى يُمـــارِسُ ضَعْفَـــهُ بيســـارِهِ

وحاوَلَ كلُّ عَدُوٍّ منهمْ أكثرَ منْ طريقةٍ لإيذائِهِ ، فزاولَ الأذى بيمينِهِ ، فإنْ لم يستطعْ ذلكَ زوالَهُ بيسارِهِ .

٢٤ ـ آيـاتُ مجـدٍ كـالإيـاةِ منيـرةٌ　　شهـــدَتْ بِطيـــبِ أرومـــهِ ونِجـــارِهِ

وكانَ لهُ علاماتُ عزٍّ كأشعةِ الشمسِ مشرقةٌ ، تُبيِّنُ طيبَ أصلِهِ ونسبِه .

٢٥ ـ ولقد عَثَرْتُ على طريقِ صِفاتِهِ　　عـــذراءَ ، واطئُهـــا رهيـــنُ عِثـــارِهِ

ولقدِ اطَّلَعْتُ على أسرارِ صفاتِهِ ، فوجدتُها بكراً جديدةً ، وعلمْتُ أنَّ منْ يُرِدْ أنْ يَتشبَّهَ بها تَكُنْ نهايتُهُ السقوطَ والزوالَ .

٢٦ ـ وجميعُ ما اشتملَتْ عليهِ قصيدتي　　أُنمـــوذَجٌ يـــأتيـــكَ مـــن أخبـــارِهِ

وكلُّ ما حَوَتْ قصيدتي ، هو جُزءٌ من أنباءِ أفضالِهِ .

٢٧ ـ رمضـانُ أصبـحَ نـاكِصـاً وهـلالُـهُ　　هـــذا أوانُ مُحـــاقِـــهِ وسَـــرارِهِ

وإنكَ تَعْلَمُ منهُ آخرَ شهرِ رمضانَ وأولَهُ ، فتقولُ : هذا وقتُ أَوَّلِ الشهرِ ، وهذا مُحاقُ قمرِهِ .

٢٨ ـ فـالصـومُ مـأسـورُ اليـدَيـنِ مُقَيَّـدٌ　　والفِطْـــرُ مُطلِـــقُ قَيـــدِهِ وإســـارِهِ

وفي أيامِ صومِهِ لا يأمُرُ بعقابِ أحدٍ ، وفي فطرِهِ يأمُرُ بإقامةِ الحدودِ على المخالفينَ ؛ كأنهُ ، قد وضعَ يديهِ في الأسرِ ، ثم أطلقَهما .

٢٩ ـ فـاسْعَـدْ بـه وبنيـلِ جـدٍّ مقبـلٍ　　تحظـــى بصحبتِـــهِ وطـــولِ جـــوارِهِ

فاهنأْ بكونهِ وزيراً ، واقْبَلْ أخذَ رزقٍ آتٍ منه ، تَفُزْ برفقتِهِ وجوارِهِ الطويلِ .

☆☆ ٤٦ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ :

١ ـ أيا عارضاً تهمي شآبيبُ قطرِهِ وأيدي الصَّبا تَمْري أفاويقَ دَرِّهِ

يا أيُّها السحابُ الواقفُ في السماءِ الذي تلامِسُ أصابعُ ريحِ الشمالِ ما تَجَمَّعَ فيكَ منْ دفعاتِ مطرِكَ ، فتنصبُّ قطراتُها .

٢ ـ تَمَخَّضَ في قُطْرِ الجَنوبِ نَشاصُهُ فسالَتْ شعابُ الرَّقْمتَينِ بغمرِهِ

تَحَرَّكَ في جهةِ الجَنوبِ سحابُهُ ، والْتَقى الريحانِ : الصَّبا والدَّبورُ ، فهطَلَتْ منهما أمطارٌ غزيرةٌ ، جَرَتْ في طُرُقِ الرَّقْمتَينِ : قربَ البصرةِ ونجدٍ .

٣ ـ مُسِفٌّ إذا أَلْقَى بوادٍ بَعاعَهُ فما نُجْعَةُ الرُّوّادِ إلاّ بِقطرِهِ

فإذا اقتربَ هذا السحابُ من الأرضِ رَقى بمائِهِ الذي أصبحَ ثقيلاً إلى الوادي ، وصارَ أرْوَى ماءً لطالبي الرُّواءِ .

٤ ـ تَباصَرَهُ رُعْيانُهُمْ ، فتباشروا بِرِسْلٍ ، يغوصُ الحيُّ في بعضِ غزرِهِ

ونَظَرَ الرعيانُ بعضُهُمْ إلى بعضٍ ، فاسْتَبْشروا ، وبَشّروا بعضَهُمْ بمطرٍ غزيرٍ ، يجعلُ أرجلَ أهلِ الوادي ، تغوصُ في غُمْرِهِ .

٥ ـ ومرتَجِزٌ رعداً كإرزامِ فارقٍ وقد هَمْهَمَ الحادي عليها بِزَجْرِهِ

ويسوقُ الريحُ رعداً ، يتتابَعُ صوتُهُ كتتابُعِ صوتِ الناقةِ ، أخَذَها المخاضُ ، فخافَتْ على ولدِها ، وحَنَّتْ عليه ، فأخرجَتْ صوتَها منْ حَلْقِها دونَ أنْ تفتحَ فاها ، وقد رَدَّدَ سائقُها صوتَهُ عليها لِتُسرعَ في سيرِها .

٦ ـ كأنَّ بروقاً لُمَّعاً ، في فروعِهِ يدا صَيقَلٍ ، يجلو مناصِلَ بُتْرِهِ

وبدَتْ بروقُ السماءِ لامعةً كسيوفٍ بأيدي المَهَرَةِ منْ جالي سِنانِ السيوفِ والرماحِ القاطعةِ .

٧ ـ نماهُ سِماكِيٌّ منَ النَّوءِ صادقٌ يكادُ ، يَمُرُّ القحطُ قبلَ مَمَرِّهِ

وأرسلَ هذا البرقَ نجمٌ منَ الفضاءِ صادقٌ بمطرِهِ ، كادَ ، يأتي الجدبُ على الوادي قبلَ مجيئِهِ .

٨ ـ بهِ السَّنَةُ الحمراءُ تَنْفُضُ لونَها وتأخذُ منْ عامِ الحَيا لونَ خُضْرِهِ

وبفضلِ هذا البرقِ زالَ عنِ الوادي لونُ الجَدْبِ ، وأخذَ منْ حلولِ عامِ المطرِ والخيرِ لونَ النباتِ وخُضرتِهِ .

٩ ـ ألا فاعْتَمِدْ مَغْنَى أخيكَ محمدٍ أخي كلِّ دَفّاقِ العَزالي بقطرِهِ

فاحرصْ أيها الصديقُ على منزلِ أخيكَ محمدِ بنِ أرَسْلانَ صاحبِ كثيرِ الكرمِ بأعطياتِهِ .

١٠ ـ على ابنِ أرَسْلانٍ ، فأرسِلْ غديقةً تُشَبِّـهُ فـي السقيـا بفـائـضِ بِـرِّهِ

فأرسِلْ أيُّها السحابُ على محمدِ بنِ أرَسلانَ قطعةً منكَ مَلأى بماءٍ ، يُشْبِهُ بإروائِهِ كثرةَ عطائِهِ .

١١ ـ ومـنْ نَفَحـاتِ البِـرِّ منـهُ مُعَنْـوَنٌ إلــيَّ شفــانــي نَشْــرُهُ قبــلَ نَشْــرِهِ

وكم أرسلَ إليَّ منْ أطايبِ الخيرِ التي خَصَّها بي ، فكانَتْ أخبارُها تَشفيني مما أُعاني قبلَ وصولِها إليَّ .

١٢ ـ كأنَّ المسيحَ احْتَلَّ بينَ سطورِهِ فـأبـرأنـي بـالفحـصِ عـنْ مُسْتَسَـرِّهِ

كأنَّ عيسى المسيحَ ـ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ـ أدخَلَ كفَّهُ ، ومسحَ سطورَ كِتابِ عطائِهِ إليَّ ، فأشفاني بَحْثُهُ عني قبل أنْ يَجِدَ ما خَفِيَ عنهُ .

١٣ ـ أَبَلَّ بـهِ مـنْ دائِـهِ سـاقِـطُ القِـوَى تبــالــغُ فيــه الجــالبــاتُ لِضُــرِّهِ

ونجا بفضلِهِ من مرضِهِ ضعيفُ القِوَى ، بعد أنِ اجتهدَتِ الساعياتُ لإيذائِهِ .

١٤ ـ بِهِ النَّهْكَةُ العظمى ، وناهيكَ ناهكاً نــزاعٌ مــزيــلٌ قلبَــهُ عــنْ مَقَــرِّهِ

فبسببِهِ تكونُ الغَلَبَةُ العُظْمى ، وهي الموتُ ، ويكفيكَ عذاباً ساعةٌ ، يُرْفَعُ فيها قلبُ امرئٍ منْ مكانِهِ .

١٥ ـ إلى واحدِ الدنيا الذي بَذَّ أهلَها بــذلــكَ أفتــاهُــمْ أئمــةُ العصــرِ

فاذهَبْ يا زَمَخشريُّ إلى هذا الفريدِ في الدنيا الذي فاقَ أهلَها بالجودِ والعِزِّ ، وقد نَصَحَ رجالُ هذا الزمانِ باللجوءِ إليهِ .

١٦ ـ وسيّـارةٍ مـا وَشْـيُ صنعـاءَ كلُّـهُ إليــهِ بشــيءٍ والحَبيــرُ بــأســرِهِ

وتَقَدَّمْ إليهِ بقصيدةٍ مُنَقَّحَةٍ ، يَنْتَشِرُ صيتُها في أرجاءِ الأرضِ لأنها ذاتُ معانٍ جليلةٍ وألفاظٍ بديعةٍ ، قَصَّرَتْ عنها ما نَمْنَمَتْ أيدي صنعاءَ منْ زخرفةِ الأثوابِ والأبْرادِ كلِّها .

١٧ ـ تَعَطَّـفَ جـارُ اللهِ منهـا بِحُلَّـةٍ مُعَطَّلَــةٍ أَسْــرَى سَــرابيــلِ فخــرِهِ

فأهداهُ محمدُ بنُ أرَسلانَ بُرْدَةً ، فارتَداها الزمخشريُّ ، واختالَ بها ، إذ كانَتْ ذاتَ وَشْيٍ ، أفقدَ كلَّ حُسْنٍ وَشْيٍ غيرَها ، وعَلَا بها إلى أعلى مكانةٍ في ارتدائِهِ شيئاً منْ عزِّهِ .

١٨ ـ صَفِـيُّ الملـوكِ الأكبـرُ الـذي أبَـرُّ علـى كُبْـرِ الفخـارِ وكُثْـرِهِ

فمحمدُ بنُ أَرَسْلانَ خيرُ الملوكِ ؛ أَجْدَرُهُمْ فَخْراً وقْتَ الفخارِ بمكرماتِهِ العظيمةِ الكثيرةِ .

١٩ ـ علا يومُهُ الأيامَ قدراً كما علَتْ جميعَ ليـالـي العـامِ ليلـةُ قـدرِهِ

ارتفعَ يومُهُ على أيامِ الأسبوعِ والسنةِ منزلةً كما ارتَفَعَتْ ليلةُ القدرِ على جميعِ ليالي السنةِ .

٢٠ ـ لـهُ حسنـاتٌ يَقْسِـمُ الـدهـرُ دُرَّهـا فيجعـلُ أدنـاهُ وشـاحـاً لخَصْـره

لهُ مَكْرُماتٌ ، يُوَزِّعُ الزمَنُ لآلِئَها ؛ فيُزَيِّنُ منْ أقلّها قيمةً غطاءً ، يَسْتُرُ به رأسَهُ وخصرَهُ .

٢١ ـ وأوسُطُـهُ يـرضـاهُ للنَّحـرِ زينـةً فمنظـومـةٌ منـهُ قـلائـدُ نحـرِهِ

ويجعلُ ما يناسبُ الجيدَ الدُّرَّ الوسطَ ، ليكونَ عقوداً لرقبتِهِ .

٢٢ ـ ويختـارُ أسنـاهُ لإكليـلِ رأسِـهِ فـأيـنَ الثُـرَيّـا مـنْ نـاظـمِ دُرِّهِ ؟

ويصطفي أفضَلَها لتكونَ مُوَزَّعَةً على أجزاءِ تاجِ رأسِهِ ، فتصيرَ نجومُ السماءِ أقلَّ جمالاً منها .

٢٣ ـ لـه مَنْطِـقٌ سَمْـحٌ متيـنٌ ، كـأنمـا تـراكيبُـهُ مِـنْ مـاءِ قُـدْسٍ وصخـرِهِ

له كلامٌ رقيقٌ قَوِيٌّ ، كأنَّ ألفاظَهُ وتراكيبَهُ صيغَتْ ، وجُبِلَتْ بماءِ مدينةِ القدسِ العذبِ وترابِ جبلِها العظيمِ .

٢٤ ـ عـلا كـلَّ ذي نظـمٍ ونَثْـرٍ بِنَظْمِـهِ إذا مـا تَحَـدَّى المُفلِقِيـنَ ونَثْـرِهِ

وسما بشعرِهِ ونثرِهِ على كلِّ شاعرٍ وناثرٍ إذا ما تعَمَّدَ مباراةَ المبدعينَ .

٢٥ ـ وفـي كـلِّ فضـلٍ بَحْـرُهُ مُتَغَمِّـطٌ تحـارُ بحـارُ العلـمِ فـي لُـجِّ بحـرِهِ

وفي كلِّ أمرٍ عظيمٍ علمُهُ واسعٌ عميقٌ ، تضيعُ العلومُ وبحورُها في أمواجِ بحرِ علمِهِ .

٢٦ ـ فلـم يلحَـقِ العـوّامُ نـازحَ شطِّـهِ ولـم يُـدْرِكِ الغـوّاصُ غـامـضَ قَعْـرِهِ

فلم يستطعْ السّبّاحُ الماهرُ أنْ يدركَ محمدَ بْنَ أَرْسْلانَ حينَ ابتَعَدَ ، وغاصَ في بحرِ علمِهِ ، ولم يَصِلِ الغَوّاصُ إلى أظلمِ مكانٍ في قعرِهِ .

٢٧ ـ وما بلغَ الوصّافُ مِعْشارَ وَصْفِهِ ومـا قَـدَروهُ فـي العُـلا حَـقَّ قـدرِهِ

وما أدركَ مَهَرَةُ فنِّ الوصفِ عُشْرَ إبداعِهِ في ذلكَ الفَنِّ ، وما أعطَوهُ حَقَّهُ في المجدِ وقَدْرَهُ الذي يَستَحِقُّ .

٢٨ ـ وقـورٌ يَغُـرُّ الصمـتُ منـهُ عَـدُوَّهُ إذا مـا تَغـابـى عـن خنـاهُ ومكـرِهِ

وهو ذو رزانةٍ وَوَقارٍ ، يُطْمِعُ صمتُهُ عَدُوَّهُ إذا ما تظاهرَ بالغفلةِ في خداعِهِ وغِشِّهِ .

٢٩ ـ وتحـتَ تغـابيـهِ لـهُ ألمعيَّـةٌ تُخَبِّـرُهُ بـالأمـرِ مـنْ قبـلِ خُبْـرِهِ

ووراء تظاهرِه بالغفلةِ ذكاءٌ فريدٌ ، يُنَبِّئُهُ بالأمرِ قبلَ وقوعِهِ وقبلَ علمِ الناسِ به .

٣٠ ـ وأعضلَ منْ عُقْمِ الخطوبِ سما لَهُ وقد بَعِلَتْ شوسُ الملوكِ بِفَسْرِهِ

وصَعِدَ إلى أشَدِّ وأضيقِ الأمورِ الجليلةِ التي لا يتمكَّنُ أحدٌ أن يَعْلُوَها ، وقد حَيَّرَتْ ، وضَيَّعَتْ كبارَ وعظماءَ الملوكِ دونَ تفسيرِها .

٣١ ـ فقامَ يُقيمُ الدَّرْءَ منه برأيِهِ ويَقْتَدِحُ الزَّنْدَ الصَّلودَ بِحَجْرِهِ

وانتصَبَ يُسَوِّي المُعْوَجَّ منَ الأمرِ برأيِهِ ، ويُشعِلُ العودَ القاسيَ في بيتِهِ ، ويُرَبِّي ولدَهُ في حِضْنِهِ وعقلِهِ .

٣٢ ـ وذو اللُّبِّ لا يَقْرِي الطوارقَ سَهْوُهُ ولكنهُ يُذكي طلائعَ فكرِهِ

وهو صاحبُ العقلِ ، لا يَقْبَلُ الأمورَ العظيمةَ والمصائبَ ضيوفاً سَهْواً أو نسياناً ، ولكنهُ يُجْهِدُ عقلَهُ ليُقَدِّمَ لها طلائعَ نُضْجِ فكرِهِ .

٣٣ ـ إلى أنْ يَصُكَّ الرأيُ صَكَّةً وأنْ تَسْتَشِفَّ السِّرَّ من خَلْفِ سِتْرِهِ

وإلى أنْ يَرُدَّ الحُجَّةَ الضعيفةَ بالحُجَّةِ الدامغةِ ، ويكشِفَ المكتومَ منْ خَفْيِهِ .

٣٤ ـ وعوراءَ جَلَّى ليلَها ببيانِهِ إلى أنْ تَفَرّى عن تباشيرِ فجرِهِ

وكم منْ مسألةٍ غامضةٍ كشَفَ سِرَّ صُعوبَتِها بتفكيرِهِ السليمِ ولغتِهِ الفصيحةِ ، ثم قدَّمَها إلى الناسِ في أوائلِ طلوعِ أشعةِ الشمسِ .

٣٥ ـ ومُسْتَبْصِرٌ في دينِهِ ، فكأنما تَوَسَّطَ نورُ اللهِ أحناءَ صدرِهِ

وهو مُتَفَهِّمٌ أمورَ دينِهِ ، وكأنما أودعَ اللهُ تعالى رحمَتَهُ في جوانبِ قلبِهِ وصدرِهِ .

٣٦ ـ وعاقدُ صِهْرٍ بينَ علمٍ وعفَّةٍ وجاعلُ حسنِ الخُلْقِ غاليَ مهرِهِ

ولا يقبَلُ لقريباتِهِ أزواجاً إلاّ إذا كانوا علماءَ ذوي مروءةٍ ، ولا يطلبُ منهم مُهوراً إلاّ حُسْنَ الخُلْقِ والشِّيَمِ .

٣٧ ـ وما زالَ نَهّاضاً بأعباءِ طاعةٍ منَ الباهظاتِ المُنْقِضَاتِ لِظهرِهِ

وهو باقٍ على إقامةِ أحمالِ طاعةِ اللهِ تعالى ، ولو كانَتْ تُكَلِّفُهُ الأثمانَ الغاليةَ ، وتكسِرُ ظهرَهُ .

٣٨ ـ فَرَدَّتْهُ ضاوياً ، وما الطِّرْفُ سابقاً إلى غايةِ المضمارِ إلاّ بِضُمْرِهِ

ويعودُ منْ كلِّ أداءِ طاعةٍ طاويَ البطنِ جوعاً ، وفرسُهُ الكريمُ السابقُ ، لا يسبقُ إلى نهايةِ مكانِ السباقِ إلا بفضلِ نُحولةِ جسمِهِ .

٣٩ ـ إذا امتعضَ الصُّوّامُ منْ شهرِ ناجرٍ فشهوتُهُ في صومِهِ دونَ فِطْرِهِ

إذا اشتَدَّ الصومُ على الناسِ في شهرِ صَفرٍ شديدِ الحَرِّ فإنَّ رغبةَ محمدِ بْنِ أَرَسْلانَ في صومِ هذا الشهرِ لا في فِطرِهِ .

٤٠ ـ وما المرءُ في دنياهُ إلاّ كعابرٍ وما صالحُ الأعمالِ إلاّ كَجِسْرِهِ

وليستِ الدنيا إلاّ طريقاً طويلاً وَعِراً ، يمرُّ به المرءُ مرَّةً واحدةً ، ويسهُلُ على ذي الأعمالِ الصالحةِ ، فيكونُ كالجسرِ الخالي منَ الصعوبةِ .

٤١ ـ وما هذه الأيامُ إلاّ صحائفُ فما خُطَّ فيها يَتْلُهُ يومَ حشرِهِ

وليسَتْ أيامُ الدنيا إلاّ صُحُفَ كتابٍ ، ما كُتِبَ ، وقُرِئَ منهُ في أولِهِ ، يَتْبَعْهُ ما يُنْبِئُ بيومِ القيامةِ يومِ الحشرِ .

٤٢ ـ أرى الدهرَ وثاباً على الناسِ غادراً فلا يأمنِ الإنسانُ هاجمَ غَدْرِهِ

وإني لأرى الزمانَ ظفّاراً على الناسِ غَلاّباً إياهُمْ غَدّاراً بهمْ ، فعلى المرءِ ألاّ يطمئنَّ لسكونِهِ وفترتِهِ لأنهُ سَرْعانَ ما يباغِتُهُ ، ويَغْدُرُ به .

٤٣ ـ وبَطْشُ بناتِ الدهرِ ، بالحُرِّ دأبُها كما أنَّ زَيْدَ النحوِ ضاربُ عَمْرِهِ

وسَطْوُ مصائبِ الدهرِ على المرءِ عزيزِ النفسِ ، عادَتُها مِثْلُ إتيانِ عالمِ النحوِ : ضَرَبَ زيدٌ عَمْراً ، مثلاً .

٤٤ ـ على الحُرِّ يُنْحي ظالماً بعقوقِهِ وما الحُرُّ إلاّ بِكْرُ أبناءِ دهرِهِ

ويُقْبِلُ على الكريمِ الشريفِ ظالماً إياهُ بِعِصيانِهِ أمرَ ربِّهِ ، وهو يعلَمُ حقَّ العلمِ أنهُ أوّلُ وأفضلُ أبناءِ عصرِهِ .

٤٥ ـ ولا دولةٌ إلاّ سَتُبْلَى بجولةٍ ولا مدَّ إلاّ سوفَ يُتْلَى بِجَزْرِهِ

وما قامَتْ حكومةٌ ، ونَوَّرَ عِزُّها الآفاقَ إلاَّ أُصيبَتْ بنكسةٍ ، هَدّتْ كيانَها ، ولا أرسلَ بَحْرٌ مَدَّهُ إلاّ أتبعَهُ بِجَزْرِهِ .

٤٦ ـ ولِلْيُسْرِ أيامٌ ، وللعُسْرِ مثلُها ولا بُدَّ من يُسْرِ الفتى مَعْ عُسْرِهِ

فللسهولةِ أيامُها ، وللصعوبةِ شِبْهُها ، وليسَ يتلو بعدَ عُسْرِ أمرِ المرءِ إلاّ سهولَتُهُ .

٤٧ ـ إذا كانَ فقرُ المرءِ للمرءِ عاصماً فأصلَحُ منْ حالِ الغِنَى حالُ فَقْرِهِ

وإذا كانَتْ قلةُ المالِ في يدِ المرءِ مانعةً إياهُ منَ الشَّرِّ وأهوائِهِ ، فأحسَنُ حالٍ لهُ ، هو حالُ الفقرِ لا حالُ الغِنَى .

٤٨ ـ وذو التاجِ أبهى منهُ في عبقريَّةٍ يتيهُ بها الصُّعْلوكُ لابسَ طِمْرِهِ

والملكُ صاحبُ إكليلِ الملكِ أعلى وأَفْضَلُ في كمالِ عقلِهِ منَ الفقيرِ الذي يتكبَّرُ ، وهو مرتدٍ رداءَهُ الباليَ .

٤٩ ـ وما خُسْرُوانِيٌّ ، يُجَرِّرُ ذيلَهُ أخو الفِسْقِ إلاّ بعضُ أسبابِ خُسْرِهِ

وما ارتداءُ لباسِ الفُرْسِ الأكاسِرَةِ ، يَسحَبُ ذيلَهُ رفيقُ الضلالةِ والعصيانِ ، إلاَّ لونٌ منْ ألوانِ ضلالِهِ .

٥٠ ـ وَلَلدَّولةُ الشَّمّاءُ والبؤسُ واحدٌ إذا كانَ موتُ المرءِ آخرَ أمرِهِ

وإنَّ أمرَ الحكومةِ ذاتِ العزِّ والمجدِ وذاتِ الشِّدَّةِ والفقرِ سواءٌ إذا كانَتْ نهايةُ أمرِ الإنسانِ هي الموتَ والحسابَ يومَ القيامةِ .

٥١ ـ لَعَمْرُكَ ما يجدي على المرءِ جَدُّهُ إذا قومُهُ جَلَّوهُ في قعرِ قبرِهِ

وإني ، وأنا أدعو لكَ بالعُمرِ الطويل ، لقائلٌ : لا يفيدُ المرءَ جَدُّهُ إذا جاءَ أجلُهُ ، وغُيِّبَ في أسفلِ لحدِهِ .

٥٢ ـ وتَنْفُضُ أيدٍ قد حَوَيْنَ تُرابَهُ وغادَرْنَهُ فيها رهيناً بِوِزْرِهِ

ورَمَتِ الأيدي ما عَلِقَ بها منْ ترابِ قبرِهِ ، ثم تَرَكَتْهُ أفرادُ أسرتِهِ وحدَهُ مُقَيَّداً بإثمِهِ .

٥٣ ـ وما زِلْتُ جأّاراً إلى اللهِ داعياً لهُ ، أبتغي منه إطالةَ عُمْرِهِ

وإني مداوِمٌ على الابتِهالِ والتَّضَرُّعِ إلى اللهِ طالباً منهُ أنْ يطيلَ عمرَ محمدِ بنِ أرَسْلانَ .

٥٤ ـ ولم تَخْلُ خارِزْمي، ولم تَخْلُ مَكَّتي وغَوري ونجدي منْ إطابةِ ذكرِهِ

وألاّ تَفْرَغَ مدينتيَ : خوارزمي ومكّتي ، ووادِيَّ وجبلي منْ أطايبِ عزِّهِ وذكرِهِ وأُعطياتِهِ .

٥٥ ـ وإني ، وما بالناقِ منْ عَضِّ قيدِها وبالقلبِ من لَفْحِ النِّزاعِ وحرِّهِ

وإني، وحالُ نِياقي الأليمِ منْ أثرِ حبالِها وحالُ قلبي الجريحِ من شدةِ الاشتياقِ وحرارتِهِ .

٥٦ ـ كالنازعِ المقصورِ يشجو بمدِّهِ حنيناً إلى إلفٍ ، ويَشْجو بقصرِهِ

لشَبيهٌ بالمُشتاقِ المحبوسِ ، يَحْزَنُ كلما طالَ وقتُ بعدِهِ عن محبوبِهِ ، ويَحِنُّ إلى صديقٍ ، ويطرَبُ إذا وجدَ وقتَ الحبسِ ، صارَ قصيراً .

٥٧ ـ إذا مَدَّ شَجْواً في أواخِرِ ليلِهِ فقد سَجَرَ الحزنُ القلوبَ بسَجْرِهِ

وإذا اشْتَدَّ الحزنُ في آخرِ الليلِ يكونُ شقاؤهُ ، قد مَلأَ القلوبَ بوقودِ المنعِ والحبسِ وقِلَّةِ الصبرِ .

٥٨ ـ وإنَّ لِحُبَّيـهِ مساقِـطَ فـي الحشـا مُحَصَّنــــةً أنْ تُسْتبــــاحَ بِهَجْـــرِهِ

وإنَّ لِلَوني حُبِّه : حُبِّه صديقاً وحُبِّهِ وزيراً أماكنَ في قلبي محفوظةً منَ السيطرةِ عليها بالهجرِ .

٥٩ ـ رعى في محاني أضلُعي روضةً لهُ حَمـاهـا سِـوى سُـودِ الأنـامِ وحُمْـرِهِ

وقد حَفِظَ هذا الحبُّ بستاناً لهُ في قلبي ، وصانَهُ دونَ ظُلْمَةِ أيامِ الناسِ وشدَّتِها .

٦٠ ـ إذا مـا تَنَـوَّرْتُ الصِّـلاءَ بـأرضِـهِ هفـا قَلْـبُ مِهْيـامٍ مُصـابٍ بصبـرِهِ

وإذا ما رأيتُ النارَ ، تَلْتَهِبُ بأرضِهِ ، اضطربَ قلبي ، وحارَ في أمرِهِ ، وكأنَّهُ مُصابٌ بداءٍ عُضالٍ ، أعْيَى صبرَهُ بتحمُّلِهِ .

٦١ ـ تَجَهَّزْ ـ هداكَ اللهُ ـ للحجِّ ، وانْتَدِبْ لِقَـدْحِ فَـرِشْـهِ لِلـرِّمـايـةِ وابْـرِهِ

فتهيَّأْ ـ رعاكَ اللهُ ـ للذهابِ إلى الحجِّ ، واتخَذْ للرِّمايةِ سهماً ، والصُقْ عليه ريشاً ، ثم انْحَتْهُ نَحْتاً جيداً .

٦٢ ـ فما أحَدٌ يُغْني غِناءَكَ في الذي يُنَجّيـكَ ، فـافْقَـهْ مـا أوصيـكَ ، وادْرِهِ

فما يستطيعُ أحدٌ أنْ يُنَجِّيَكَ ، أو يَرُدَّ عنكَ ما يَتعاقَبُ عليكَ ، فافْهَمْ ما أعْهَدُ بهِ إليكَ ، وأدرِكْهُ .

٦٣ ـ فللـهِ عبـدٌ حـلَّ ميقـاتَ ربِّـهِ فلمـا قضـى فيـهِ شـرائـطَ ربِّـهِ

رَحِـمَ اللهُ عبداً مطيعـاً ربَّهُ طاعةَ عبدٍ ، خَرَجَ منْ إحرامِهِ لمّا قامَ بمناسكِ الحجِّ خيرَ قيامٍ .

٦٤ ـ تَمَضَّى حراماً ، كلما انحَطَّ ، أو طَفا علـى النَّشْـزِ لبّـى مـا استطـاعَ بجهـرِهِ

وتَخَلَّصَ منْ كلِّ إثمٍ وحرامٍ لمّا علا الصفا والمروةَ ، أو نزلَ عنهما ملبِّياً قدرَ ما استطاعَ جاهراً بصوتِهِ .

٦٥ ـ أتى عَرَفاتٍ جامعاً بينَ ظُهرِهِ وبيـنَ صـلاةِ العصـرِ فـي وقـتِ ظُهْـرِهِ

فلما وصلَ إلى عَرفاتٍ صلّى الظهرَ والعصرَ جَمْعاً وقتَ صلاةِ الظهرِ .

٦٦ ـ ويَمْثُلُ يدعو اللهَ منْ وقتِ ظهرِهِ إلـى أنْ يغيـبَ القُـرْصُ فـي مُسْتَقَـرِّهِ

وظلَّ مُنْتَصِباً ، يدعو اللهَ تعالى منْ وقتِ صلاةِ ظهرِهِ إلى أنْ غابَ قرصُ الشمسِ في مكانِهِ .

٦٧ ـ ويمضي إلى جَمْعٍ ، فَيَجْمَعُ خاشعاً عشـاءَيـهِ فـي شُعْـثِ الحجيـجِ وغُبْـرِهِ

وذهبَ إلى جَمْعٍ إلى المزدلفةِ ، وصلّى المغربَ والعِشاءَ جَمْعاً أيضاً خاشعَ القلبِ برفقةِ الحجاجِ الذين صاروا شُعْثَ الشُّعورِ غُبْرَ الوجوهِ .

٦٨ - وبطنَ مِنًى يرمي الجِمارَ كأنهُ　　على كبدِ الشيطانِ يرمي بجمرِهِ

وألقى الحَصَى في المُحَصَّبِ في وَسَطِ مِنًى ، وكأنهُ يلقي في كبدِ الشيطانِ جَمْرَهُ الملتهبَ .

٦٩ - ويَحْلِقُ فيهِ ، أو يُقَصِّرُ بعد أنْ　　يُقَدِّمَ نحرَ الهَدْيِ في يومِ نَحْرِهِ

ثم يَحْلِقُ شعرَهُ ، أو يُقَصِّرُهُ بعد أنْ يذبحَ البُدُنَ هَدْياً في اليومِ المُخَصَّصِ للنحرِ .

٧٠ - ويَطّافُ بالبيتِ العتيقِ زيارةً　　بأركانِهِ المستعظَماتِ وحِجْرِهِ

ويذهبُ إلى مكةَ زيارةً ، فيطوفُ حولَ الكعبةِ المشرَّفَةِ : حولَ أركانِ البيتِ العتيقِ وموضعِ إبراهيمَ ، عليه الصلاةُ والسلامُ .

٧١ - ويرجعُ يَدعو ربَّهُ شاكراً على　　قضاءِ تمامِ النُّسْكِ في يومِ نَفْرِهِ

ويعودُ إلى مِنًى داعياً ربَّهُ شاكراً إياهُ على نِعَمِهِ في تَمَكُّنِهِ منْ قضاءِ تمامِ مناسِكِ الحجِّ منْ يومِ وقوفِهِ ونَفْرِهِ .

٧٢ - وللهِ في جَفْنَيكَ في كلِّ فتحةٍ　　وإطباقةٍ ما لا يُقامُ بشكرِهِ

وللهِ نِعَمٌ لا تُعَدُّ ، ولا تُحْصى في كلِّ فتحةِ عينٍ وإطباقتِها ، ولا يُستطاعُ تأديةُ شُكْرِهِ .

٧٣ - ويَزدارُ قبرَ المُصْطَفى مُتَبَرِّكاً　　بِمَضْجَعِ مَنْ آلَى الإلَهُ بِعُمْرِهِ

ويذهبُ لزيارةِ قبرِ النَّبِيِّ المختارِ طالباً البركةَ منْ مُقامِ الذي أقسمَ اللهُ تعالى بحياتِهِ ومماتِهِ .

٧٤ - بِمَضْجَعِ منْ قامَ المليكُ ورُوحُهُ　　ومَنْ يسكُنُ السَّبْعَ الطوالَ بِنَصْرِهِ

بِمُقامِ مَنْ قامَ ربُّ العالمينَ وجبريلُ روحُ القدسِ والملائكةُ الذينَ يَقْطُنُونَ السمواتِ السبعَ الطوالَ بنصرِهِ .

٧٥ - تَرَى كلَّ ذي قصرٍ مَشيدٍ تَحُفُّهُ　　حَدائقُ غُلْبٌ ، يَفْتَديهِ بِقَصْرِهِ

تجدُ كلَّ صاحبِ قصرٍ مبنيٍّ بحجارةٍ بيضاءَ مشويَّةٍ ، تحوطُهُ حدائقُ كثيفةُ الأشجارِ المتنوعةِ المثمرةِ ، يُقَدِّمُ قَصْرَهُ فِداءً للمصطفى .

٧٦ - فَهَبْ يا إلهي نُسْكَهُ لِمُحَمَّدٍ　　وأسْهِمْ لهُ يا ربِّ في حُسْنِ أجرِهِ

فيا ربي امْنَحْ عبادةَ محمدِ بنِ أرَسْلانَ أجراً ، واجْعَلْ لهُ حظًّا في طيبِ ثوابِهِ .

٧٧ - وسَيِّرْهُ في منهاجِ مكةَ ناظراً　　إلى قُلُصٍ ترمي إليكَ بِسَفْرِهِ

ودَعْهُ يسيرُ في طريقِ مكةَ مُتأمِّلاً نوقاً ، يلقي أصحابُها إليكَ أحمالَهُمْ طالبينَ العفوَ والمغفرةَ .

٧٨ ـ إلى الحرمِ المَيمونِ ترفُدُهُ على الـ ـجَحاجحةِ الـزُّهْـرِ الكـرامِ وغُـرِّهِ

وأوصلْهُ يا ربِّ إلى حرمكَ الشريفِ الذي باركْتَهُ ، وسخَّرتَ له رجالاً ، سادُوا الناسَ بدينِهِمُ الحنيفِ ومحاسنِ أخلاقِهِمْ ومكارمِ أعمالِهِم .

٧٩ ـ وأشرفِ أهليهِ ابْنِ وهّاسٍ الذي أضـاؤوا بـهِ شمـسَ الحجـازِ وبَـدْرِهِ

إلى أعظمِ أهلِ الحرمِ المباركِ عُلَيِّ بنِ عيسى ابنِ وَهّاسٍ شريفِ مكةَ الذي استنارَتْ به أرضُ الحجازِ وشمسُها وقمرُها .

٨٠ ـ عُلَيِّ بنِ عيسى المُقْتفي إثْرَ جَدِّهِ وأشـرفِ خَلْـقِ اللهِ مقتـافِ إثْـرِهِ

إلى عُلَيِّ بنِ عيسى ابنِ وهّاسٍ التابعِ سُنَّةَ جَدِّهِ الحَسَنِ بنِ عليٍّ ـ رضيَ اللهُ عنهم ـ إذْ إنَّ أفضلَ خَلْقِ اللهِ مُتَتَبَّعٌ طريقُهُ .

☆☆ ٤٧ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في المدحِ :

١ ـ مـا جَمْـرَةٌ إلاّ تُنـافِـسُ جَمْـرَةً يَسْتَـوقِـدُ الضَّبِّـيُّ نـارَ فخـارِهـا

إنَّ أصحابَ الجَمَراتِ الثلاثِ بني ضَبَّةَ وبني الحارثِ بنِ كعبٍ وبني نُمَيرِ بنِ عامرٍ ظَلُّوا يتبارَونَ ، وها هو أستاذي أبو مضرَ محمودُ بنُ جريرٍ الضَّبِّيُّ ، يُلْهِبُ نارَ فخارِ قبيلتِهِ .

٢ ـ يسمـو إليهـا نِسبـةً ، فيـزيـدُهـا خطـراً ، يُنيـفُ علـى مَـدى أخطـارِهـا

ويعلو مُنْتَسِباً إلى قبيلتِهِ ، فيُضيفُ إليها شرَفاً ، يطولُ على غايةِ أشرافِها .

٣ ـ فمتـى تَصَـدَّعُ جمـرةٌ ، أو تنطَفِـي فَلِمـا تـرى مـن فخـرِ تلـكَ وعـارِهـا

وحينَ تتكَسَّرُ ، وتتفرَّقُ جَمْرَةٌ ملتهبةٌ ، أو تَخْمُدُ ، فلأمرٍ حَصَلَ لها مِنْ زُهُوِّ جَمْرَةٍ عليها وكشفِ عيوبِها .

٤ ـ ومُنَى الجميعِ مَنالُ وطأةِ أخمصَ منـه لِيـرفـعَ ذاكَ مـنْ مِقـدارِهـا

وتصيرُ رغبةُ الناسِ كلِّهِمْ النزوحَ والنزولَ بأرضٍ صغيرةٍ قَدْرِ دَوسةِ امرئٍ جائعٍ ، علَّهِمْ يجدونَ في ذلكَ شيئاً ، يرفَعُ منْ قيمتِهِمْ .

٥ ـ وبأنْ أصابَتْ جَمْرَةُ النارِ المُنى زُهِيَـتْ علـى جَمـراتِهـا وجِمـارِهـا

وبسببِ نوالِ جمرةِ الحربِ المطالبَ كلَّها تاهَتْ بنفسِها على الجمراتِ الأخرياتِ وعلى مواقعِ غَزَواتِها .

٦ ـ وأذاتُها كانَتْ لِتَجْمِيشِ هَوًى ومحبَّةً ليستْ لأجلِ ضِرارِها

ولم يَكُنِ المكروهُ اليسيرُ منها إلاّ رغبةً في المغازلةِ والتَّحَبُّبِ وإرضاءً لِهَوَى أنفسِهِمْ ، ولم يكنْ لإلحاقِ الضررِ بها .

☆☆ ٤٨ ـ وقالَ على بحرِ الرَّجَزِ في النصحِ [مقاماتُ الزمخشري : نهايةُ مقامةِ اجتنابِ الظَّلَمةِ ص ١٣٦ و١٣٧] :

١ ـ أثْنِ على ربِّ البشرْ على الذي أعطى الشَّبَرْ

اشْكُرِ اللهَ تعالى ربَّ الناسِ كلِّهِم الذي أعطى عبيدَهُ نِعَماً كثيرةً .

٢ ـ أعطى الذي عيَّ الوَرَى بِحَصْرِهِ ، ولا حَصَرْ

والذي لم يَحْبِسْها عنهم ، فعجِزوا عنْ عَدِّها وعنِ التعبيرِ عنْ وَصْفِها وعنْ أداءِ حمدِهِمْ إياهُ .

٣ ـ حَسْبُك ما أولئكَ منْ قَلْبٍ وَسَمْعٍ وبَصَرْ

دَعْكَ منَ التفكيرِ بهمْ ، فما هم من ذوي القلوبِ والأسماعِ والأبصارِ السليمةِ .

٤ ـ ومنْ لسانٍ مُطْلَقٍ للذِّكْرِ كالسيفِ الذَّكَرْ

ومنْ ذوي الألسنَةِ الحادةِ دائمةِ الذكرِ مثلِ السيفِ القاطعِ .

٥ ـ آياتُ صدقٍ وعِبَرْ وهنَّ آلاتُ العِبَرْ

وهي علاماتُ صدقٍ ومُثُلٍ ، بل هي أدواتُ تلكَ المُثُلِ .

☆☆ ٤٩ ـ وقالَ على بحرِ الوافرِ في المدحِ :

١ ـ ألا صَلَّى المليكُ صلاةَ صدقٍ على عَمْرِو بنِ عثمانَ بنِ قَنْبَرْ

ألا صلى اللهُ ـ عَزَّ ، وجَلَّ ـ مالكُ الملكِ صلاةً صادقةً كاملةً على سيبَوَيهِ عَمْرِو بنِ عثمانَ بنِ قَنْبَرٍ .

٢ ـ فإنَّ كتابَهُ لم يُغْنِ عنه بنو قلمٍ ولا أبناءُ مِنْبَرْ

فإنَّ كتابَهُ (الكتابَ) لم تكُنْ كُتُبُ العلماءِ أصحابِ الأقلامِ والخطباءِ أصحابِ المنابرِ مُجْزِيةً عنهُ .

☆☆ ٥٠ ـ وقالَ على بحرِ الرجزِ في الغزلِ :

١ ـ لم يَتَعَلَّقْ بِبَصَرْ أملَحُ منهُ في البشرْ

ما تَعَلَّقَ بصرُ أحدٍ بأحلى منهُ في بني البشرِ .

٢ ـ قُمْرِيُّ بانٍ إنْ شدا وإنْ بدا بانَ القمرْ

فهو كالطائرِ كالقُمْرِيِّ الذي يقفُ على أغصانِ البانِ ، ويُغَرِّدُ ، فتحسَبُهُ ، إنْ ظهرَ لكَ ، القمرَ .

٣ ـ ليلةَ قد تَمَّتْ لهُ ثنتانِ واثْنَتا عشَرْ

وفي الليلةِ التي صارَ بها عمرُهُ أربعَ عشرةَ سنةً .

٤ ـ كأنما وجدي به نارٌ ، وأنفاسي شَرَرْ

أَحْسَسْتُ بحبي لهُ كالنارِ ، تتصاعَدُ أنفاسي منها كالشَّرَرِ .

٥ ـ قلبي زجاجةٌ ، وقد صُكَّ بأقسى منْ حَجرْ

وصارَ قلبي زجاجةً رقيقةً شفافةً ، وضَعْتُهُ بداخِلها ، وأَغْلَقْتُها بسَدّادةٍ أصلبَ منَ الحجرِ خوفاً عليهِ .

٦ ـ ما ضَرَّهُ لو لم يُصِبْ مثلي ببؤسٍ وَضَرَرْ ؟

ما ساءَهُ لو لم يرمِ غيري بشدَّةٍ وعذابٍ ؟

٧ ـ هَلّا لأقوى قوّةٍ منّي أُنْبِضَ الوَتَرْ ؟

ألا يَتَفَضَّلُ امرؤٌ أكثرُ منّي قوةً ، يُحَرِّكُ وَتَرَ آلةٍ ، ويُخَفِّفُ عني ما أعاني ؟

٨ ـ يا نظراً قد ساقني إليهِ سائقُ القَدَرْ

ويغني قائلاً : يا طَرْفاً قد أخذَني القَدَرُ إليهِ .

٩ ـ كلُّ بلاءٍ حلَّ بي فأصلُهُ ذاكَ النَّظَرْ

وكانَ كلُّ ضُرٍّ آلمني ، سَبَبُهُ ذلكَ الطَّرْفُ .

١٠ ـ بياضُ صبحي ليلةٌ ليلاءُ إذْ نوى السَّفَرْ

وإذا أرادَ السَّفَرَ ، صارَ إشراقُ صباحي ليلاً أسودَ مُدْلَهِمّاً .

١١ ـ كما سوادُ ليلتي بياضُ صبحٍ إنْ حَضَرْ

وإذا أتاني ليلاً ، صارَ سَوادُ الليلِ أبيضَ مشرقاً كالصباحِ .

١٢ ـ أُفكِّرُ في شيءٍ إذا خَلَوتُ لو تُغْنِي الفِكَرْ

وأُقَلِّبُ فكري لأقَعَ على شيءٍ ، يُريحني إذا جلَسْتُ وحدي ، فأرى أنَّ كلَّ فكرةٍ ، لا تغني قلبي عمّا يَجِدُ .

١٣ ـ كيفَ تكونُ حالتي إنْ دارَ لي فيه البصرْ ؟

وأسألُ نفسي : كيف يكونُ شأني إذا جالَسْتُهُ ، وتَنَقَّلَ نظري في محاسنِهِ ؟

١٤ ـ تلكَ لَعمري حالةٌ   منها على الروحِ الحَذَرْ

وإني لأقسِمُ أنِّي أخافُ على روحي إنْ كانَ لي منهُ ذاكَ النظرُ .

١٥ ـ والروحُ عندي هيِّنٌ   ما الشَّأْنُ إلاّ في الظَّفَرْ

وإنَّ روحي وحالَها أمرٌ سَهلٌ لديَّ إذا كانَ فوزي بهِ حاصلاً بعضَ الزمنِ .

١٦ ـ مَنْ راكبٌ يحملُ عنْ   قتيلِ حُبِّهِ الخَبَرْ ؟

هل مِنْ مسافرٍ ، يَنْعَى قتيلَ حُبِّهِ ، ويُخْبِرُهُ بموتهِ ؟

١٧ ـ لَعَلَّهُ إنْ زارَهُ   زَورَةَ إلمامٍ ، ومَرْ

فعسى إنْ ذهبَ إلى قبرِهِ ، ووقَفَ أمامَهُ وِقفةً قصيرةً ، أو مَرَّ بهِ مروراً سريعاً .

١٨ ـ أتَتْهُ رَيّاهُ ، ولو   بعدَ زمانٍ ، فَنَشَرْ

جاءَتْهُ ريحُهُ الطَّيِّبةُ ، فكانَتْ ريحانَةً حانيةً ، يَتَنَعَّمُ بها ، ولو كانَ مرورُهُ أو زيارتُهُ بعدَ وقتٍ طويلٍ منْ مكوثِهِ في قبرِهِ .

☆☆ ٥١ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في النصحِ [مقامات الزمخشري : نهاية مقامة المراقبة ص ١٦٣ و١٦٤] :

١ ـ إذا كنتَ فرداً لا بِمَرْأَى ومَسْمَعٍ   منَ الناسِ فاحذَرْ مُنْشِئَ السمعِ والبَصَرْ

إذا كنت أيُّها المرءُ وحيداً ، لا يراكَ ، ولا يسمَعُكَ أحدٌ منَ الناسِ ، فاخشَ اللهَ تعالى خالقَ السمعِ والبصرِ .

٢ ـ ولا ترتكِبْ ما لو دراهُ ابنُ آدمَ   لبَرْقَعَ خَدَّيكَ التَّشَوُّرُ والخَفَرْ

ولا تقمْ بعملٍ إذا علِمَ بهِ ابنُ جَدِّنا الأوّلِ آدمَ لوضَع على وجهِك غطاءً ، يسترُ خدَّيكَ ، فلا يُرى فيهما الخجلُ والحياءُ منكَ .

٣ ـ مساويكَ تُخْفيها حِذاراً منَ الوَرَى   أليسَ إلٰهُ الخَلْقِ أخْلَقَ بالحَذَرْ ؟

وإنكَ تَسْتُرُ أخطاءَكَ خوفاً منَ الناسِ ، ألا تعلمُ أنَّ خالقَ الخَلْقِ أحْرَى بخوفِ الناسِ منه ؟

٤ ـ بلى ، فَتَصَوَّنْ في خلائكَ فوقَ ما   تَصَوَّنْتَ قِدْماً بينَ ظَهْرَانَي البشَرْ

أجلْ ، وكُنْ في وجودِكَ وحيداً مُتَحَفِّظاً أكثرَ منْ تَحفُّظِكَ وأنتَ بينَ ظَهْرانَي الناسِ .

٥ ـ وكُنْ رجلاً ما سَرَّ ما هو مُعْلَنٌ   منَ الخيرِ إلاّ دونَ ما سَرَّ ما أسَرْ

وكُنْ رجلاً عاقلاً ؛ لا تُخفي أمراً معروفاً منَ الخَيرِ ، لا يُعَدُّ سِرًّا منَ الأسرارِ .

٦ ـ فما قَصَباتُ المخلصينَ محوزَةٌ بمثْلِ خَفِيَّاتٍ يُصَغِّرْنَ ما صَغَرْ

فليسَتْ ممتلكاتُ الشرفاءِ المخلصينَ مُنالةً ومُقابَلةً بما يُشبهِ صَغيرَاتٍ ومستوراتٍ منَ الأمورِ ، تُقَلِّلُ قيمةَ ما صغُرَ منَ الأشياءِ والأمورِ .

☆☆ ٥٢ ـ وقالَ على بحرِ الطويل في المدحِ والتهنئةِ :

١ ـ ألا قُلْ لِسُعْدَى: ما لنا فيكِ منْ وَطَرْ وما يَطَّبينا النُّجْلُ منْ أعينِ البقَرْ

ألا أخْبِرْ سُعْدَى : ليسَ لنا فيها منْ حاجةٍ ، ولا نميلُ إلى أعينِ البقرِ الواسعةِ .

٢ ـ وإنا اقْتَصَرْنا بالذينَ تَضايقَتْ عيونُهُمْ ، واللهُ يُجزي منِ اقْتَصَرْ

واجْتَزَأْنا بذوي العيونِ الضَّيِّقَةِ ، واللهُ تعالى ، يُثيبُ مَنْ ظهرتْ منهُ الكفايةُ .

٣ ـ فإنَّ العيونَ الضَّيِّقاتِ وأهلَها بهمْ علِقَتْ منّا الضمائرُ والفِكَرْ

إنَّ العيونَ الضَّيِّقَةَ وأصحابَها عَلِقَتْ بها قلوبُنا وأفكارُنا ، وأحبَّتْها .

٤ ـ إذا نظروا لم يبدُ إلاّ احْورارُها وإنْ ضحكوا ضمّوا الجفونَ على الحَوَرْ

إذا افتحوا أعينَهُمْ لِيَرَوا شيئاً لم يظهرْ منها إلاّ أحداقُها ، وإذا ضحكوا أغمضوا جفونَهُمْ على الأحداقِ .

٥ ـ وإنَّ وجوهَ التركِ ، واللهُ جارُها بدورٌ إلى أثمانِها تُصْرَفُ البِدَرْ

وإنَّ للتركِ وجوهاً ، حَفِظها اللهُ ، أقمارٌ ، تُدْفَعُ البِدَرُ التي تُوضَعُ في كلِّ واحدةٍ منها عشرةُ آلافِ درهمٍ أو سبعةُ آلافِ دينارٍ .

٦ ـ وفي صُوَرِ التُّرْكِ العجائبُ ، فلْتكنْ عيونُكمُ صُوراً إلى هذهِ الصُّوَرْ

وفي خِلْقَةِ التركِ وصُوَرِها العجائبُ والغرائبُ ، فلتنظُرْ عيونُكمْ صُوَراً جميلةً ، تُضيفُها إلى هذه الصورِ .

٧ ـ دقائقُ خَلْقِ اللهِ أبلغُ فيهم وفي ذاكَ للألبابِ ذكرى ومُعْتَبَرْ

أدقُّ خَلْقِ الله تعالى واضحٌ فيهمْ ، وفي التفَكُّرِ في ذلكِ عبادةٌ واعتبارٌ بوحدانيةِ اللهِ ـ عَزَّ ، وجَلَّ ـ .

٨ ـ أعاجِمُ أشباهُ الوحوشِ أوابدٌ إذا جرحوا كانَتْ جراحُهُمْ ، هَدَرْ

وهم ليسوا عرباً ، وهم أمثالُ الوحوشِ الضاريةِ التي لا تموتُ حتفَ أُنوفِها ، وإذا

جَرَحوا أحداً ، كانَتْ جراحُهُمْ باطلةً ساقطةً ، وإذا كانَتْ مُميتَةً ، فلا دياتِ لها .

٩ ـ بنفسي قَويٌّ لحظُهُ ، وهو فاترٌ كذا اللحظُ أقوَى ما يكونُ إذا فَتَرْ

وإني لأفدي بنفسي منْ هو ، طَرْفُهُ قويٌّ ، وهو ساكنٌ ، وكذا حالُ الطَّرْفِ ؛ يكونُ في سكونِهِ في أقوى أحوالِهِ .

١٠ ـ تضايَقَتِ العينانِ منهُ ، وإنهُ يُوَسِّعُ في القلبِ الجِراحَ إذا نظرْ

وتضامَّتْ عيناهُ ، وإنهما في هذا التَّضامِّ ، تُوَسِّعانِ جروحَ القلبِ إذا صَوَّبَتَا الطَّرْفَ إلى أحدٍ .

١١ ـ ويَقْتُلُ بالجفنِ الضعيفِ ، ولم أزَلْ أعوذُ بربي منْ ضعيفٍ إذا قَدَرْ

ويقضي على الإنسانِ بالجفنِ الكسيرِ ، ولم أزلْ ، أطلبُ منْ ربي العونَ منْ عاجزٍ إذا قَدَرَ .

١٢ ـ مليحٌ ، ولكنْ عندَهُ كلُّ جَفْوةٍ ولم أرَ في الدنيا صفاءً بلا كَدَرْ

فهو جميلٌ حَسَنٌ ، لكنهُ ذو مساءةٍ وغِلظةٍ في هجرِهِ ، وإني لأعلَمُ أنَّ الدنيا ، ليس فيها صفاءٌ كاملٌ بدونِ كَدَرٍ .

١٣ ـ تقاصَرَ ساقاهُ ، ولكنَّ مَتْنَهُ طويلٌ ، فما في القَدِّ طولٌ ولا قِصَرْ

وهو ذو ساقَينِ قصيرَتَينِ وقدٍّ طويلٍ بالنسبةِ إليهما ، فهو في قوامِهِ مُعْتَدِلٌ لا طويلٌ ولا قَصيرٌ .

١٤ ـ وقد جُمِعَ الضِّدّانِ فيه ، فَرِدْفُهُ على غايةِ الإطنابِ ، والخصرُ مُخْتَصَرُ

وقد اجتمعَ فيه المتخالِفانِ ؛ فكِفْلُهِ عظيمٌ بَيِّنُ الكفولةِ لِضخامتِهِ ، وخصرُهُ نحيلٌ ضامرٌ .

١٥ ـ متى يَتَجَرَّدْ مِنْ شِعارٍ ، وأُرْخِيَتْ غدائرُهُ ، يَلْبَسْ شِعاراً منَ الشَّعَرْ

ومتى يَخْلَعْ كلَّ أرديتِهِ ، فلا تراهُ عارياً لأنَّ ضفائرَهُ الغزيرةَ الطويلةَ المُسْبَلَةَ ، تُعَوِّضُهُ عنِ اللباسِ .

١٦ ـ ولم أنسَ إذْ غازَلْتُهُ قُرْبَ روضةٍ إلى جَنْبِ حوضٍ فيهِ للماءِ مُنْحَدَرْ

وإنْ أنسَ لا أنسَ حينَ طارَحْتُهُ الحبَّ قربَ بستانٍ جانبَ بركةٍ ، يسيلُ إليها الماءُ .

١٧ ـ وقلتُ لهُ : جِئْني بوردٍ ، وإنما أردْتُ به وَرْدَ الخدودِ ، وما شَعَرْ

وقلتُ لهُ : ائْتِني بوردٍ ، وكنتُ قاصداً لَمْسَ خدَّيهِ أو تقبيلَهما ، فلم يدرِ ما نَوَيْتُ .

١٨ ـ فقالَ : انْتَظِرْني رجْعَ طرفٍ أَجِئْ به فقلْتُ : هيهاتَ ، مالي مُنْتَظَرْ

فأجابَني : أمْهِلْني رفَّةَ عينٍ أعُدْ إليكَ بهِ ، فقلْتُ : لا ، لا ليس لي صبْرٌ على ذلكَ أبداً .

١٩ ـ فقالَ: فلا وَرْدٌ سوى الخَدِّ حاضرٌ فقلْـتُ لـهُ : إنـي قَنِعْـتُ بمـا حَضَـرْ

فردَّ قائلاً : إذنْ لا وَرْدَ غيرُ الخدِّ جاهزٌ ، فقلْتُ : إني لراضٍ بما تهيَّأَ ، وحضرَ .

٢٠ ـ أيـا حبَّـذا تقبيـلُ فيـهِ ورشْفُـهُ وبَـرْدُ ثنـايـاهُ إذا بَـرَدَ السَّحَـرْ

فما أحلى لَثْمَ فَمِهِ وامتصاصَهُ وبرودةَ أسنانِهِ حينَ يطلُعُ الفجرُ .

٢١ ـ أيـا حبَّـذا وقْـتٌ أرانـي معـانقـاً لِقَـدٍّ كخُـوطِ الخيـزرانِ إذا خَطَـرْ

وما أجملَ وقتاً أجدُ نفسي ضامًّا جسماً كغصنِ الخيزُرانِ إذا مالَ ، وما اعتَدَلَ .

٢٢ ـ ويـا حَبَّـذا بـابُ الـوزيـرِ فـإنـهُ هـو الـوَزَرُ الحـامـي ، وإلاّ فـلا وَزَرْ

وما أرحَبَ بابَ الوزيرِ ، فهو الملجَأُ المُنْقِذُ ، وإنْ لم يكُنْ فلا مُنْجِيَ ، ولا مُخَلِّصَ .

٢٣ ـ لقـد تـرَكَ السُّمّـارُ مـا سَمَـروا بـه ودامَ بـأشعـاري وأفعـالِـهِ السَّمَـرْ

ولقد وَدَعَ الأصدقاءُ الخُلَصاءُ ما كانوا يَسْمُرونَ به ليلاً ، وصاروا يتحادثونَ الليلَ عنْ قصائدي وأعمالِ الوزيرِ .

٢٤ ـ وقد أخبروا أنَّ الوزيرَ أجازَني بِتَـزكيـةٍ كـالبـدرِ ، لـو صَـدَقَ الخَبَـرْ

وأنْبَؤوني أنَّ الوزيرَ قد أرادَ مكافأتي بأُعطيةٍ ، هي جاريةٌ ، وأتمنى لو يكونُ هذا النبأُ صحيحاً .

٢٥ ـ تَمَنَّيْتُ ذا، والناسُ قالوا بأسْرِهم: ظَفِـرْتَ ، بيـنَ الأَمـانـيِّ والظَّفَـرْ

وَرُمْتُ أنْ يَتَحَقَّقَ هذا الخبرُ ، فقالَ الحاضرونَ كلُّهمْ : لقد فُزْتَ بأمنيَتِكَ ، والناسُ يعلمونَ الفرقَ الكبيرَ بينَ الآمالِ والفوزِ بها .

٢٦ ـ ومـا أنـا إلاّ مثـلُ أرضٍ كـريمـةٍ وأنـتَ سمـاءٌ لا يَغِـبُّ لهـا مَطَـرُ

ولستُ إلاّ كأرضٍ سخيةٍ ، وأنتَ سماؤُها ، ترسِلُ بسحابكَ المطرَ إليها ، ولا تقطعُها عنها .

٢٧ ـ فقد رُوِيَتْ أرجاؤُها ، ثم أنْبَتَتْ منَ الروضِ ما يَحْظَى بهِ السمعُ لا البَصَرْ

وها هي قد ارتَوَتْ جَنَباتُها ، وأنبتَتْ أنواعاً منَ الثمارِ ما رآها البصرُ ، وما جنَتْها اليَدُ ، وما أتى بها السمعُ .

٢٨ ـ لِيَهْنِكَ مولودٌ كريمٌ ، سَمَتْ بهِ منـابـتُ أصـلٍ طيِّـبِ الفَـرْعِ والثَّمَـرْ

فَلْيُسْعِدْكَ اللهُ بمولودِكَ الذي حباكَ اللهُ بهِ ، فَعَلَتْ بِوِلادتِهِ أصولٌ ؛ كَثُرَتْ فروعُها ، وغَزُرَتْ خيراتُها .

٢٩ ـ أيا دوحةَ العلياءِ طابَ لكِ الثِّمَرْ فأنتِ ، سقاكِ اللهُ ، منْ أطيبِ الثَّمَرْ

ويا أيتُها الشجرةُ العظيمةُ ، يا شجرةَ المجدِ والعِزِّ ، لقد لَذَّ لكِ الثَّمَرُ ، فأنتِ ، حفظكِ اللهُ ، ورعاكِ ، ذاتُ أفضلِ الثمرِ .

٣٠ ـ أَلا يا سماءَ المجدِ، لا غَرْوَ أنْ يُرى طلـوعٌ وسيـرٌ فـي بـروجِـكِ لِلْقَمـرْ

ويا سماءَ العزِّ لا شَكَّ أنْ يُلْحَظَ صعودٌ وانتقالٌ في منازِلِكِ إلى أعالي المجدِ إلى منازِلِ القمرِ .

٣١ ـ أيـا بحـرَ إنعـامٍ قَـذَفْـتَ بـدُرِّهِ ولا عَجَـبٌ أنْ يَقْـذِفَ البحـرُ بـالـدُّرَرْ

ويا بحرَ العطاءِ ، لقد سَخَوتَ بأُعْطِياتِكَ ، وليسَ غريباً أنْ يرميَ البحرُ بلآلئِهِ .

٣٢ ـ ويا ليثَ بأسٍ، جئْتَ بالليثِ باسلاً فقُلْ لجماعاتِ العِدا : الحَذَرَ الحَذَرْ

ويا أسدَ الشدَّةِ والقوةِ ؛ لقد وَلَدْتَ أسداً شجاعاً ، فقلْ لأنفارِ الأعداءِ : الخَوفَ الخَوفَ .

٣٣ ـ فَرَسْتُكُمُ وحدي، فما ظَنُّكُمْ، وقد قُـرِنْـتُ بِشِبْـلٍ ، يَفْـرِسُ الهـامَ والقَصَـرْ

لقدِ استطعْتُ أنْ أُصيبَكُمْ وحدي ، وأغْلِبَكُمْ قبْلاً ، فما بالُكُمُ الآنَ ، وقد جُمِعْتُ بولدٍ ، يقطَعُ الرؤوسَ وأصولَ الأعناقِ .

٣٤ ـ كـلانـا شـديـدٌ سـاعـداهُ وبطشُـهُ كلانا هِزَبْرٌ ، ليسَ يُبْقي ، ولا يَذَرْ

فأنا وابني شديدانِ ؛ يدا الوزيرِ وبأسُهُ ، وكلٌّ مِنّا أسدٌ صُلْبٌ ، يقضي على كلِّ عدوٍّ ، ولا يَتْرُكُ أحداً من أتباعِهِ حيًّا ، ولا يَدَعُ أثراً منْ آثارِهِمْ باقياً .

٣٥ ـ وما يعرفُ الحسادُ ما اللهُ صانعٌ لقد نامتِ الحسادُ ، واستيقَظَ القَدَرْ

ولا يعلمُ الأعداءُ الحاسدونَ ما يريدُ أنْ يعملَ اللهُ ، فقد غَفَتْ عيونُهُمْ ، وغَفَلَتْ عقولُهُمْ ، وصَحا القضاءُ عليهِمْ .

٣٦ ـ ومنْ خيرِ ما قَدْ خَوَّلَ اللهُ عَبْدَهُ فـلا تنـسَ شكـرَ اللهِ ، الـوَلَـدُ الـذكَـرْ

ومنْ أفضلِ أُعطياتِ اللهِ عَبْدَهُ الولَدُ الذكَرُ ، فَلا تسلُ أنْ تشكرَ اللهَ ، وتحمَدَهُ على ما أعطاكَ ، ووهبَكَ .

٣٧ ـ ولو لم يكُنْ شأنُ الذكورِ مُقَدَّماً لَمـا خُلِقَـتْ حَـوّاءُ بعـدَ أبـي البشـرْ

ولو لم يكنْ أمرُ الرجالِ مُقَدَّماً على النساءِ لما جعَلَ حوّاءَ منْ نفسِ آدمَ أبي البشرِ .

٣٨ ـ وبالجدِّ أعناقُ الرجالِ تطوَّقَتْ كـذاكَ رَوَى أهـلُ الأسـانيـدِ عـن عُمَـرْ

وقد تزَيَّنَتْ أعناقُ الرجالِ بقلاداتِ العظمةِ والمجدِ ، وهذا ما نَقَلَهُ الرواةُ بأخبارِهِمُ المُعْتَمَدَةِ عن عمرَ ، رضيَ اللهُ عنهُ .

٣٩ ـ هو الفارسُ الميمونُ، بوركَ فيهِ منْ سـلالـةِ مجـدٍ ، عنـدَهُ الخيـرُ والخِيَـرْ

وهو الفارسُ المبارَكُ ، أسْعَدَكَ اللهُ به ، وسَعَدَتْ بكَ ذُرِّيَّتُكَ التي انطلَقَتْ منْ عِزٍّ ؛ فيه الفضلُ والأفضالُ .

٤٠ ـ لهُ جانبٌ منْ آلِ يافِثَ خاملٌ وآخـرُ مـنْ أبنـاءِ فـارسَ مُشْتَهَـرْ

وقد حملَ منْ ذُرِّيَّةِ نوحٍ ، عليهِ السلامُ ، قَدْراً ضعيفاً خَفِيّاً ، لا فِطْنَةَ إليهِ ، ومنْ ذُرِّيَّةِ آلِ فارسَ قَدْراً معروفاً من النباهةِ والعلمِ .

٤١ ـ وليسَ خُمولٌ قد ذكَرْتُ نقيصةً أردْتُ استتاراً في الحِجالِ وفي السُّتُرْ

ولم يكنِ الإخفاءُ الذي ذكَرْتُ مَذَمَّةً ، وإنما رُمْتُ بهِ وبالخيامِ الحَجْبَ لئلاّ يُفْطَنَ لوجودِ النساءِ أو لئلاّ يراهُنَّ أحدٌ .

٤٢ ـ تُبَشِّـرُنـا بـالخيـرِ منـهُ مخـايـلٌ وكـلُّ بنـي أيـامِنـا مُنْـذِرٌ بَشَـرْ

تُخَبِّرُنا بالعطاءِ منه علاماتٌ قبلَ وقوعِها، وكلُّ منْ يعيشُ بينَنا يُنْبِئُنا بِخَيرِه ويُبَشِّرُنا به .

٤٣ ـ أرى عـاديـاً منهـمْ وآخـرَ رائغـاً فذئبُ الغضى هذا ، وذاكَ ثعلبُ الخَمَرْ

وأجدُ الظالمَ منهم والماكرَ المخادعَ ، فهذا ذئبٌ عدوٌّ صريحُ العداوةِ ، يهجمُ عليكَ حينَ يَراكَ ، وذلكَ ثعلبٌ ، يسترُ عداوتَهُ بضعفِهِ ، ثم يفاجئُكَ ، ويَنْقَضُّ عليكَ .

٤٤ ـ لئـنْ كـانَ أولادُ النسـاءِ كمثلِهِـمْ فـلا يَـكُ لـلأحـرارِ فـي وَلَـدٍ وطَـرْ

ولئنْ كانَ أبناءُ الجواري أشباهاً لأبناءِ فارسَ ، فلا يكونُ ، ولن يكونَ للرجالِ الأعزاءِ رَغبةٌ في ولدٍ شَبَهٍ لهمْ .

٤٥ ـ ولِلـدُّرِّ واليـاقـوتِ فضـلٌ وقيمـةٌ وإنْ أُحصِيَ النوعانِ في جُمْلَةِ الحَجَرْ

ولكلٍّ منَ الدُّرِّ والياقوتِ جمالٌ وثمنٌ ، ولو عُدَّ كلاهما منْ جنسِ الحجرِ .

٤٦ ـ فَهَيِّئْ سريرَ المُلْكِ والدَّسْتَ يَتَّكِئْ عليـه ، وهـذا هكـذا جـاءَ فـي السِّيَـرْ

فَجَهِّزْ للملِكِ عرشاً وِوسادةٍ ، يعتلي على الأولِ ، ويستندُ على الثانيةِ ، وقد عَرَفْنا ذلك من كتبِ تاريخِ سِيَرِ الملوكِ .

٤٧ ـ ودأبُ بني الأملاكِ أنْ يَتَرفّعوا   على سُرُرٍ منْ قبلِ أنْ تُقْطَعَ السُّرَرْ

وعادةُ الملوكِ أنْ يُهَيِّئوا الأولادِهمْ مجالسَ عاليةً قبلَ أنْ يحينَ موعدُ ولادتِهِمْ وقطعِ سُرَرِهِمْ .

٤٨ ـ بَنوكَ حُجولٌ ليس يَخْفَى مكانُها   وقد جُمِّعَ اليومَ الحجولُ مع الغُرَرْ

وسيكونُ أولادُكَ حجولاً وغُرراً ، وليسَ يَخْفى على الناسِ أنَّ الحِجْلَ هو بياضٌ في قوائمِ الفرسِ ، والغُرَّةَ هي بياضٌ في الجبهةِ .

٤٩ ـ همُ السابقونَ الأوّلونَ بِسِنِّهِمْ   ولكنَّهُ شقُّ الغبارِ على الصِّغَرْ

وسيكونونَ السابقينَ الأولينَ على صِغَرِ سِنِّهِمْ ، وإنما يثورُ الترابُ لِصِغَرِ ذرّاتِهِ وخِفَّتِها .

٥٠ ـ وما سُورةُ الإخلاصِ إلاّ كبيرةٌ   رفيعةُ قَدْرٍ ، وهي من أخلصِ السُّوَرْ

وما آياتُ سُورةِ الإخلاصِ ذاتِ الآياتِ القليلةِ إلاّ كبيرةٌ في معانيها ساميةٌ في مكانتِها ، وهي معدودةٌ منْ أفضلِ سُوَرِ القرآنِ الكريمِ .

٥١ ـ مَعاليكَ تحكي الرّوضَ حُسْناً ونَضْرَةً   وأبناؤُكَ الزُّهْرُ الكرامُ هي الزَّهَرْ

وأمجادُكَ ، تشبهُ البستانَ جمالاً وخُضْرَةً ، وأولادُكَ ذَوُو الوجوهِ المشرقةِ الشرفاءُ ، همْ ألوانُ نباتِ البستانِ أبيضُها وأحمرُها وأصفرُها .

٥٢ ـ تَمَلَّهُمْ أبناءَ صدقٍ ، وعِشْ لهمْ   إلى أنْ ترى أسباطَهُمْ بالِغي الكِبَرْ

فَتَمَتَّعْ بهم ، واسْعَدْ بأنهمْ أنجالُ تربةٍ وتربيةٍ صادقةٍ خالصةٍ من الشَّرِّ ، واحْيَ لتأديبِهِمْ وتعليمِهِمْ حتى تنعَمَ برؤيةِ أولادِهِمْ وأولادِ أولادِهِمْ ، وهم بالِغو العزِّ والمجدِ .

☆☆ ٥٣ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ والتهنئة :

١ ـ ترامَى بيَ الفِكْرُ الطويلُ إلى السَّهَرْ   وإنَّ لذي الإسلامِ والدينِ مُدَّكَرْ

حملَتْني الخواطرُ ، ولَفَّتْ بي ، وجاء الليلُ ، وطالَ السَّهَرُ ؛ ولم أعجبْ لذلكَ لأنَّ المسلمَ يطولُ تفكُّرُهُ ، ويبتعدُ به تذكُّرُهُ ، ويَعلو تسبيحُهُ .

٢ ـ وقُلْتُ : ألاَ طوبى لأشعثَ أغبرٍ   رضا ربِّهِ ، يرمي به شُقَّةَ السفَرْ

وقلتُ لنفسي : ألاَ مرحى لامرئٍ ، شَعِثَ شعرُهُ ، وغَبَرَ جسمُهُ منْ طولِ وشدةِ سيرِهِ وسعيِهِ في سبيلِ رضا اللهِ تعالى

٣ ـ نَوى عقدَ إحرامٍ ، فَتَمَّمَ طُهْرَهُ   له ، وتَرَدَّى بالغَسيلَينِ ، وائتَزَرْ

قَصَدَ الدخولَ في الإحرامِ ، فاغتَسَلَ لِتكْمُلَ طهارتُهُ ، ولبسَ لباسَ التَّقْوى ولباسَ سَتْرِ العورةِ ، ثم رمى على كتفِهِ المِلْحفةَ .

٤ ـ وسارَ يُلبِّي كلمّا حلَّ وادياً ولاحَ له ركبٌ ، ويدعو مع السَّحَرْ

ومشى يُردِّدُ قولَهُ : لبيكَ اللهمَّ لبيكَ كلما نزلَ وادياً ، ورأى جماعةً منَ الحجاجِ ، ويدعو ربَّهُ في السَّحَرينِ : الفجرِ الكاذبِ والفجرِ الصادقِ .

٥ ـ وحَرَّمَ مسَّ الطِّيبِ مَفْرِقَهُ وأنْ يُقَلِّمَ أظفاراً وأنْ يحذفَ الشَّعَرْ

ومَنَعَ مَفْرِقَهُ وَضْعَ الطِّيبِ عليه أو مسَّهُ وقَصَّ أظافرِهِ وحلقَ شعرِ رأسِهِ .

٦ ـ وإنْ عَنَّ صَيْدٌ لم يَهِجْهُ ، ولم يَسُمْ أذاهُ ، ولم يدلُلْ عليهِ ، ولم يُشِرْ

وإنْ خَطَرَ ببابهِ الصيدُ لم يَقُمْ إليه ، ولم يتكَلَّفْ عذابَ صَيدِهِ ، ولم يذكُرْهُ لأحدٍ ، ولم يأمُرْ أحداً به .

٧ ـ ولما أتى البيتَ العتيقَ مُهَلِّلاً تَلَقَّاهُ بالتسليمِ ، واستلَمَ الحجَرْ

ولما وصلَ إلى الكعبةِ المُشَرَّفَةِ مُرَدِّداً : لا إلهَ إلا الله ، محمدٌ رسولُ اللهِ ، لبَّيكَ ، اللهمَّ لبّيكَ ألْقَى عليها السلامَ ، ولَمَسَ الحجرَ كأنهُ ، يعانقُه ، ويُقَبِّلُهُ .

٨ ـ وطافَ طوافاً للقدومِ ، وبعدَهُ طوافَ مزارٍ ثم آخرَ للصَّدَرْ

وطافَ ثلاثَ مراتٍ أو غيرَ مرّةٍ : طوافَ التَّحيّةِ والسلامِ وطوافَ الإفاضةِ وطوافَ الوداعِ .

٩ ـ وبينَ الصفا والمروة امتدَّ ساعياً لهُ مَصْعَدٌ في المَشْعَرينِ ومنحَدَرْ

وراحَ يسعَى بينَ الصفا والمروةِ ، ويَصْعَدُ إليهما ، وينزلُ عنهما ؛ والسعيُ والصعودُ والنزولُ منْ مناسِكِ الحجِّ .

١٠ ـ وعرَّفَ ، ثم انتابَ جَمْعاً إفاضةً فحينَ استنارَ الصبحُ للناظِرِ ابتكَرْ

ووقفَ بعرفاتٍ مُهلِّلاً ، ثم التزَمَ بصلاةِ الظهرِ والعصرِ صلاةَ جَمْعٍ ، وسارَ إلى المزدلفةِ ، ولما طلع الصبحُ بضوئهِ أسرعَ إلى المُحَصَّبِ لِرَمْي الجمارِ ونَحْرِ الهَدْيِ .

١١ ـ فَمَرَّ لِتجميرٍ ونحرٍ إلى مِنًى فتجميرُهُ قضَى ، وتشعيرُهُ نَحَرْ

فلما وصلَ إلى المُحَصَّبِ رَمَى الحصى ، ولما انتهى إلى مِنًى ذبحَ هَدْيَهُ ، وقالَ في نفسِهِ : ها إني قمتُ بمناسِكِ الحجِّ ، ووصَلْتُ إلى قضاءِ أمْرِ الجمرِ وأمْرِ الذبحِ .

١٢ ـ ولما قضى تلكَ المناسكَ كلَّها وحانَ إلى أُمِّ القُرى نَفْرُهُ نَفَرْ

ولما انتهى منْ إقامةِ المناسِكِ جميعِها ، وحَلَّ الذَّهابُ إلى مكَّةَ ذهبَ إليها .

١٣ ـ أرادَ ثوابَ اللهِ أو فضلَ عفوِهِ فلم يُبْقِ جَهْداً في رضاهُ ، ولم يَذَرْ

وأرادَ بذلكَ كلِّهِ مكافأةَ ربِّ العالمينَ إياهُ ونوالَ غفرانِهِ ، فلم يدَعْ جَهْداً ، ولم يترُكْهُ في سبيلِ رضاهُ .

١٤ ـ جزَى الشارِعيَّ اللهُ ضِعْفَ ثوابِهِ وما هو جازٍ كلَّ مَنْ حجَّ ، واعتَمَرْ

وإني لأدعو اللهَ تعالى أنْ يكافئَ الشارعيَّ مكافأةً مضاعفةً على أعمالِهِ مضافاً إليها مكافأةُ كلِّ منْ أدّى مناسكَ الحجِّ والعمرةِ .

١٥ ـ لو أنَّ العلا كانتْ كتاباً مُنَزَّلاً لكانَتْ معالي مثلِهِ أعظَمَ السُّوَرْ

لو كانَ للأمجادِ كتابٌ مُنَزَّلٌ منْ عندِ اللهِ لكانَتْ أمجادُهُ وأمجادُ مثلِهِ أكبرَ آياتِهِ .

١٦ ـ سجاياهُ حَيَّرْنَ البصيرةَ روعةً وبهجةُ لقياهُ مُحَيِّرَةُ البَصَرْ

فطباعُهُ ، أدهشَتِ القَلْبَ بِسُمُوِّها ، وفرحةُ لقائِهِ ، لا ينالُها البصرُ .

١٧ ـ سجايا يُبَرْقِعْنَ الدراريَّ خَجْلَةً ووجهٌ منيرٌ ، يَنْسَخُ الشمسَ والقمرْ

وإنَّ طباعَهُ ، تتغطّى نجومُ السماء خجلاً منها ، ووجْهُهُ المضيءُ ، بهِ يُكْسَفُ نورُ الشمسِ ، ويُخْسَفُ ضوءُ القمرِ .

١٨ ـ إذا زادَ في خفضِ الجناحِ بنانةً تزايَدَ باعاً في الوجاهةِ والخَطَرْ

وإذا زادَ في التواضُعِ قيدَ أنمُلَةٍ تزايَدَ قدْرَ مدِّ اليَدَينِ في الذِّمَّةِ والمهابَةِ والشأنِ .

١٩ ـ وما الخيرُ إلاّ في امرئٍ مُتَواضعٍ وإنَّ مُسِفَّ المُزْنِ أخْلَقُ بالمطرْ

ولا يأتي الخيرُ والفضلُ إلاّ منْ إنسانٍ متخاشعٍ إلى اللهِ ، عزَّ ، وجَلَّ ، واضعٍ الكبرياءَ عنهُ ، وإنَّ أقربَ السحابِ منَ الأرضِ هو أجمعُ للمطرِ وأولى بهِ .

٢٠ ـ هو البحرُ ، لكن في مواردِ مائهِ دُنُوٌّ ، ويَعدوهُ الملوحةُ والكَدَرْ

هو البحرُ في غزارةِ عطائِهِ وقربهِ منَ المُعْتَفينَ ، ويَتجاوزُ عنه البُخْلُ وقسوةُ الطبعِ .

٢١ ـ يغوصُ على درِّ المكارمِ جارُهُ وفي كلِّ بحرٍ لا يُغاصُ على الدُّرَرْ

ويَتَقَرَّبُ منه جارُهُ لِيَطَّلِعَ على فضلِ مكارمِ أخلاقِهِ ، وكأنهُ يغوصُ في بحرٍ ، وليسَ في غوصِ البحرِ دائما الحصولُ على اللآلئِ . . .

٢٢ ـ فنعمَ الفتى قاضي القضاةِ إذا قضى مَضَى فَيصلاً في الحكمِ كالصارمِ الذَّكَرْ

فأعظِمْ بالشابِ قاضي القضاةِ الذي إذا أرسلَ حُكْماً كانَ عادلاً في حكمِهِ مِثْلَ ضربِ السيفِ القاطعِ الذي لا يُخْطِئُ ، ولا يَثْلُمُ .

٢٣ ـ كأفعى هَدَى المُثْلَى ربيعةَ إذْ هدى إياداً وأنماراً وصِنْوَهما مُضَرْ

فهو مثْلُ سَيِّدٍ عظيمٍ أرشدَ الناسَ إلى الاستقامةِ والحقِّ كإرشادِ ربيعةَ قبيلةَ إيادٍ وأنمارٍ وأخيهما مُضَرَ .

٢٤ ـ يُراعي بعَدْلٍ في قضاياهُ ما اقْتَضَى كتابُ أبي موسى الذي جاءَ عن عُمَرْ

يلاحظُ أمورَ رعيَّتِهِ ، وينظُرُ إليها نظرةَ إمعانٍ حتى يبلغَ غايةَ ما كتبَ عمرُ بنُ الخطابِ إلى عبدِ اللهِ بنِ قيسٍ أبي موسى الأشعريِّ في رسالتِهِ حينَ ولاَّهُ منصبَ القضاءِ . [انظر البيتَ السابعَ من القصيدةِ ذاتِ الرقمِ ١٨ من هذا الرويِّ] .

٢٥ ـ مَفاخِرُ خارزْمَ انْقَرَضْنَ فما لَها بشيءٍ سِوَى أيامِ أحمدَ مُفْتَخَرْ

ولقدِ انتَهَتْ مكارمُ مدينةِ خوارزمَ ، ولم يبقَ لها شيءٌ ، تفتخِرُ به ، وتذكرُهُ ، غيرَ أيامِ القاضي أحمدَ الشارعيِّ .

٢٦ ـ يُرَى مثلَ نصلِ السيفِ فَرْداً، ومثلُهُ كَفَى وحدَهُ عمَّنْ تَقَضَّى ، ومنْ غَبَرْ

فهو إنْ رأيتَهُ ، تجدْهُ ، يشبهُ حَدَّ السيفِ مسنوناً جيّداً . وحسبُهُ أنهُ ، تُوُفِّيَ ، وبقيَ صيتُهُ صيتُ الخيرِ والمجدِ في العالمِ منتشراً ، وماتَ غيرُهُ ، وذهبَ ذكرُهُ .

٢٧ ـ بقيَّةُ قومٍ لم يَرَ اللؤمُ عندَهُمْ قبولاً ، فلم ينهضْ إليهمْ ، ولم يَسِرْ

وهو من بقيَّةِ قومٍ ، لم يجدِ اللؤمُ والشَّرُّ عندَهُمْ مكاناً ولا رضاً ، فعدلَ عنِ النهوضِ إليهم والسيرِ نحوَهمْ .

٢٨ ـ وجاوَرَ قوماً عانقوهُ ، وحافظوا عليهِ حِفاظَ الماجدينَ على السِّيَرْ

وكانَ لهُ حظٌّ حينَ أصبحَ جارَ قومٍ ، استَقْبلوهُ مُرَحِّبينَ بهِ ، وصانوهُ صيانةَ العظماءِ المحافظينَ على مذاهبِ العزِّ والشرفِ .

٢٩ ـ أيا شجراتِ الشارِعِيِّينِ ، لم يَطِبْ كطيبِكِ في شَرْقٍ ولا مَغْربٍ شَجَرْ

أيا نَبْتاتِ آلِ الشارِعِيِّينِ ما حَسُنَ ، وما أثمرَ ثمراً يانعاً مثلَ شجرِكِ ، شجرٌ .

٣٠ ـ ثمارُكِ إنعامٌ وعَدْلٌ ورأفةٌ وتلكَ ، سقاكِ اللهُ ، منْ أكرمِ الثَّمَرْ

وثِمارُكِ ثِمارُ مجدٍ وعزٍّ : عطاءٌ وعدلٌ ورفقٌ ، وهي ، رعاكِ اللهُ ، منْ أعظمِ الثمرِ .

٣١ ـ أتى العيدُ كي يلقاهُ أروعُ ماجدٌ فإنْ يلقَهُ قاضي القضاةِ قضى الوطرْ

وها قد أتى العيدُ ، وها قد تهيَّأَ لاستقبالِهِ أفضلُ رجلٍ ، يثيرُ الإعجابَ ، وإنْ رحَّبَ به قاضي القضاةِ أحمدُ الشارعيُّ ، فإنهُ ، ينالُ كلَّ الآمالِ .

٣٢ ـ ويحملُ منْ طوقِ السعودِ فرائداً فإنْ يَلْقَهُ يَنْثُرْ عليهِ ، وقد نَثَرْ

وَيَتَقَلَّدُ منْ أُعطياتِ الشارِعِيِّ قلادةً ، اخْتيرَتْ لآلِئُهُ منْ خيرِ الدُّرِّ ، فإنِ اعْتَرَضَ العيدُ الشارِعِيَّ ، نَثَرَ عليه الشارعيُّ اللؤلؤَ كما نَثَرَهُ عليهِ منْ قبلُ .

* * *

حرف السين/ ١٦٨/ بيتٍ

☆☆ ١ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الشكوى :

١ ـ نِفاسٌ عرا كلَّ الرجالِ ، وإنما قضى اللهُ في بعضِ النساءِ نِفاسا

لقد هبَّ كلُّ الرجالِ يتبارَونَ ، ويتسابقونَ ، وكأنَّ داءَ المُنافسةِ قد أصابَهُمْ ، كما قضى اللهُ النِّفاسَ على بعضِ النساءِ بعدَ ولادتهنَّ .

٢ ـ فما خلصَتْ أذنابُهُمْ منْ مُنافسٍ فكيف بِمَنْ في الفضلِ أصبحَ راسا ؟

فما خَلَتْ أسافِلُهُمْ منَ التسابقِ على الحسدِ ، فكيف حالُ منْ يعيشُ في كنفِ غيرِهِ ، ويَدَّعي الفضلَ على أقرانِهِ ، ويمشي مُتَبَخْتراً بينهم ؟

☆☆ ٢ ـ وقالَ على بحرِ البسيط في الفخرِ بنفسِهِ :

١ ـ أيا بنينَ اسْتَوَوا شباباً واستوفَوُا العقلَ والكِياسَهْ

يا أيُّها الناسُ إنَّ كتبي ومؤلَّفاتي ، بلغَتْ غايةَ النُّضْجِ ، وأوفَتِ الفِطْنَةُ والظُّرْفُ حقَّها .

٢ ـ قَرُّوا بعينَيكَ حينَ قَرُّوا في ذروةِ العزِّ والرِّياسَهْ

سعدَتْ بفضلِ عينَيكَ ، واطمأنَّتْ نفسُكَ بها حينَ تَنَصَّبَتْ هامةَ المجدِ وأعلى درجاتِ السيادةِ .

٣ ـ بُنَيَّ فاعلَمْ : بناتُ فكري حصانُهُمْ أُمَّةُ الدراسَهْ

فاعلم يا بُنَيَّ أنَّ بناتِ عقلي ، تُحافظُ عليها ، وتصونُها سُنَّةُ القراءةِ والتَّعلُّمِ .

٤ ـ أبناءُ صِدْقٍ ، لهم نفوسٌ وُصِفْنَ بالفضلِ والنَّفاسَهْ

وموضوعاتُها موضعُ صوابٍ ورشادٍ ، كأنها نساءٌ ، عُرِفْنَ بغايةِ العفَّةِ والفضلِ .

٥ ـ حُماةُ عِرْضي ، مُحَصِّنوهُ في كنفِ الصدقِ والحراسَهْ

وقد مَنَعَتْ عن حالي كلَّ شَرٍّ ، وحافظتْ عليه في ظِلِّ الوفاءِ والمراقبةِ .

٦ ـ بِرٌّ صريحٌ بلا عُقوقٍ خُلْقٌ سجيحٌ بلا شَكاسَهْ

وهي نتاجُ طاعةٍ خالصةٍ لربِّها ، لا يشوبُها العصيانُ ، وطباعٍ سَمْحةٍ ، لا تَقْرَبُها المعاكسةُ .

٧ ـ ما نَسْلُ قلبي كنَسْلِ صلبي مَنْ قاسَ ردَّ النُّهى قياسَهْ

ولم يكُنْ نتاجُ قلبي مثلَ نتاجِ ظهري الذي قَدَّرَ صَرْفُ العقولِ تقديرَها .

٨ ـ كم بَينَ ذي مسلكٍ طَهورٍ وسالكٍ مَسْلَكَ النجاسَهْ ؟

وما أوسعَ الفَرْقَ بينَ ماشٍ في طريقِ الصفاءِ والطُّهْرِ وبينَ سائرٍ في طريقِ الفحشِ والخباثةِ ؟

٩ ـ مَنْ ساسَ أبناءَهُ فإنّا لهؤلاءِ البنينَ ساسَهْ

من ربّى أولادَهُ تربيةً صالحةً ، وأدَّبَهُمْ بالأمرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عنِ المنكرِ ، فنحن لهؤلاءِ الأولادِ رَعايا .

☆☆ ٣ ـ وقالَ على بحرِ المتقاربِ في وداعِ كَرْدَسَ [انظر أساس البلاغة : مادة : ق ر ش] :

١ ـ شجاني وداعُكَ يا كَرْدَسُ فما يَسْتَقِرُّ بيَ المجلسُ

لقد أحزنَني ، وأبكاني تَرْكُكَ إيايَ يا كَرْدَسُ ، فما يسكُنُ ، ولا يهدأُ بي مقامٌ بعدَ رحيلِكَ .

٢ ـ لقد كنتَ لي في الدُّجَى مِقْبَساً فَبِتُّ ، وفي كبدي مِقْبَسُ

لقد كنتَ نوراً ، تَصْحَبني في ظلمةِ الليلِ ، وتُرشِدُني إلى طريقي ، فصارَ في قلبي شعلَةٌ ، تَتَلَهَّبُ .

٣ ـ أَرَى لي ، وأنتَ معي ، مَعْطِساً أشَمَّ ، فلم يبقَ لي مَعْطِسُ

فلما كنْتَ قريباً مني ، رأيتُ فيكَ الرجلَ الأبيَّ العظيمَ ، ولم يَبْقَ لي برحيلِكَ مَنْ يُعينني ، ويدفعُ عني الأذى .

٤ ـ تَلَقَّمُني حوتُ بحرِ النَّوى كأنِّيَ في بطنِهِ يونُسُ

وجَعَلَني حوتُ بحرِ الفراقِ لقمةً واحدةً لهُ ، فصرتُ في بطنِهِ كالنبيِّ ، يونسَ ، عليه السلامُ .

٥ ـ أيا مؤنِسي أنا في أُمَّةٍ منَ الناسِ ما فيهمُ مُؤْنِسُ

فيا مَنْ كنْتَ رفيقي ، تردُّ عني الوحشةَ ، أصبحتُ أعيشُ في جماعةٍ منَ الناسِ ، لا أرى فيهمْ منْ يؤنِسُني ، ويطردُ عني ألمَ الفراقِ والوحشةِ .

٦ ـ فتذهبُ عني ، فأبقى لُقًى لحزنٍ ، تذوبُ لهُ الأنفسُ

ورَحَلْتَ عني ، وبقيتُ عِياناً لأسىً ، تَنْصَهِرُ به القلوبُ .

٧ ـ أَتَـذْكِـرَتـي مـن سعـودِ البطـاحِ ستـذكُـرُنـي بعـدَكَ الأنحُـسُ
وقد كنتَ تجعلُني ذكرى في أيامِ سعدِ السعودِ منَ السنةِ إذْ تَنْتَعِشُ الأراضي بما ارتوتْ من مياهِ الأمطارِ ، وصارتْ تذكُرُني بعدَكَ أيامُ النحوسِ .
٨ ـ ولـم أرَ قبـلَ نـوى كَـرْدَسٍ عنـانـي لطـارقـةٍ يَسْلُـسُ
ولم أصادفْ قبلَ ابتعادِ كرْدَسَ عني غيرَهُ ، يُشارِكُني ، أو يعينُني في مصيبةٍ ، تأتيني ليلًا ، فتصيرُ هيِّنةً عليَّ .
٩ ـ وقلبـيَ فـي وَقَعـاتِ الـزَّمـا نِ مـنْ قلْـبِ عنتـرةَ أحْمَـسُ
وصارَ قلبي بأحداثِ الزمانِ أشَدَّ صلابةً منْ قلبِ عنترةَ بنِ شَدَّادٍ العبسيِّ .
١٠ ـ وإذا مـا تَبَلَّـدَ بـي مُعْضِـلٌ أخـو نجـدةٍ ، فـأنـا الكَيِّـسُ
وإذا ما تَحَيَّرَ بأمرٍ رجلٌ داهيةٌ ذو شجاعةٍ ومروءةٍ فأنا العاقلُ الغالبُ كلَّ أمرٍ شديدٍ .
١١ ـ ولـم تُبْـقِ صَبْـراً ولا قُـوَّةً غـداةَ وداعِـكَ يـا كَـرْدَسُ
ولم تتركْ لي صَبْراً ولا بأساً صبيحةَ رحيلِكَ يا كَرْدَسُ .
☆☆ ٤ ـ وقال على بحرِ الطويلِ في الفخرِ :
١ ـ أيا عَرصَاتِ الحَيِّ أينَ الأوانِسُ ؟ رحَلْـنَ ، وَحَلَّتْكِ الظباءُ الكوانسُ ؟
أيا أبنيةَ الديارِ ، أينَ الفتياتُ المؤنساتُ ؟ هل رحلَتْ عنكِ ، وجاءَتْكِ الغزلانُ ، فَجَعَلَتْكِ منازلَ لها ؟
٢ ـ أعـامـرةٌ ، بـالأمـسِ ، تهتَزُّ نَضْـرَةً مغـانيـكِ ، وهـي اليـومَ قفـرٌ بَسـابِسُ
ويا بيوتاً كنتِ منازلَ الفرحِ والسرورِ ، تتراقصُ بالحياةِ طرباً وغبطةً ، فأصبحتِ اليومَ قاحلةً خاليةً من كلِّ ما ، هو حيٌّ .
٣ ـ بُليـتِ بشـيءٍ لـم أزلْ مُبْتلـىً بـه فَـرَسْمُـكِ منـه مثـلُ رسمـي دارسُ
وأُصِبْتِ بأمرٍ ، أُصِبْتُ بهِ ، وما زلْتُ أقاسي منهُ ، وها هي أثارُ البينِ ظاهرةٌ عليكِ بالبواقي التي تشبهُ آثارَهُ عليَّ بنحولي .
٤ ـ جَفَتْكِ ، وكانَتْ منْ مَها الإنسِ رَبْرَباً نـواشـئُ فـي بُـرْدِ الشبـابِ مـوائِـسُ
ورَحَلَتْ عنكِ ، وقد تَرَبَّتْ في حجرِكِ ، وكانَتْ مثلَ جماعةِ البقرِ الوحشيِّ إنساً وتَدَلُّلاً عليكِ ، تميسُ في أثوابِ الشبابِ .
٥ ـ مَها لِفُتاتِ المسكِ في كلِّ ملعبٍ بتجـريـرِ أذيـالِ المـراطِ كِـوانـسُ

وكانَتْ حينَ تنزلُ كلَّ مرتعٍ ككسراتِ المسكِ ، تَنْفُحُ طيباً ، وتسحبُ ذيولَ أُزُرِها التي تمسحُ الأرضَ لِطولِها .

٦ ـ فَعُوِّضْتِ من تلكَ الكوانسِ غيرَها　　كـوانـسُ مـا دالـت لهـنَّ مـلابـسُ

وقد أُبْدِلْتِ منْ تلكَ الفتياتِ أُخْرياتٍ ، هي ظباءٌ ، ليس لها أثوابٌ .

٧ ـ وما أركسَ القلبَ المُعَذَّبَ بعدمَا　　سـلا سلـوةً إلاّ العُـذَيـبُ وراكـسُ

وما رَدَّ العذابَ إلى القلبِ المُعَنَّى بعدَ ما خَفَّتْ سَورَةُ النَّوى قليلاً إلاّ رؤيةُ ماءِ العُذَيبِ وواديهِ .

٨ ـ محـلاّنِ للحـيِّ الجميـعِ كـلاهمـا　　مَحيـقٌ كمـا يمحـو الصحيفـةَ طـامسُ

وهما موضعانِ لأهلِ المكانِ ، وكلُّ واحدٍ منهما ماسحٌ ما كانَ ، ومزيلٌ إيَّاهُ كما يمسحُ الكاتبُ كلامَ صحيفتِهِ ، ويزيلُهُ .

٩ ـ تـوالـى بكـاءً فيهمـا وتَنَفُّسـاً　　رواجـسُ ، يُخْضِلْـنَ الـرُّبا وروامِـسُ

وتتابَعَ منهُما البكاءُ والحسرةُ كما تتتابعُ أصواتُ الرعودِ وأمطارُ السحابِ التي تملأُ الربواتِ ، وتزيلُ آثارَ كلِّ شيءٍ .

١٠ ـ لِبذلِهِمُ ما هبَّتِ الشَّمْأَلُ القِرَى　　وسقيِهِـمُ الصهبـاءَ والمـاءُ قـارسُ

منْ أجلِ سخائِهِمْ بتقديمِ المآدبِ للضيوفِ كلما نَشِطَتْ رياحُ الشمالِ ومن أجلِ طوافِ السقاةِ بأفضلِ أنواعِ الخمورِ على الضيوفِ معَ الماءِ شديدِ البرودةِ .

١١ ـ لِعهدي بهمْ، والدهرُ مغضٍ جفونَهُ　　وصَرْفُ النوى عن صَدْعةِ الشملِ آيسُ

وإكراماً للودِّ الذي كانَ يربطُنا وإغضاءِ جفونِ الزمانِ عنّا وبُعدِ الفراقِ عنْ ضربِ شملِنا قانطاً .

١٢ ـ تنـافِسُهُـمْ فـي العـزِّ كـلُّ قبيلـةٍ　　ويـأبـى عليهـمْ عِـزُّهُـمْ أنْ يُنـافَسـوا

منْ أجلِ ذلكَ كلِّهِ كانتْ كلُّ قبيلةٍ ، تُباريهِمْ في المجدِ ، ويرفضُ المجدُ أنْ يرضى بمباراتهِمْ إياهُ .

١٣ ـ إذا جلسوا حولَ الرياضِ بهيجةً　　فـأبهـجُ مـنْ تلـكَ الـريـاضِ المجالـسُ

فهمْ إذا تَحلَّقوا في بستانٍ كانوا بهجةً وسروراً لهُ ، إذ بهمْ تكونُ الأنديةُ أحلى وأجملَ منْ تلكَ البساتينِ .

١٤ ـ منَ العَرَبِ الصيدِ الأُلي أحرزوا العُلا　　وطـابَـتْ لهـمْ أعـراقُهُـمْ والمغـارسُ

فهمْ منْ قبائلِ العربِ الكرامِ الذينَ نالوا أعلى درجاتِ العزِّ ، وكَرُمَتْ منْ أجلِهِمْ أصولُهم : آباؤهُمْ وأجدادُهُمْ وأبناؤُهُمْ .

١٥ ـ غَطارفةٌ شُمٌّ ، تَربَّوا أعزَّةً فما شَمَّ ريحَ الذلِّ منهم مَعاطسُ

فهم أسيادٌ ، يأنفونَ منْ كلِّ أذًى ، ربّاهُمْ أهلُهمْ على عِزَّةِ النفسِ ، فما تَنَسَّمَ ريحَ الهوانِ أنفٌ منْ أنوفِهم .

١٦ ـ ولَلْعَربُ العرباءُ أصلبُ نَبْعةً وهل يستطيعُ الحَزَّ في النبعِ ضارسُ ؟

وإنَّ العربَ الخُلَّصَ لأقوى الناسِ سهاماً وقِسِيًّا ، وهل يتمكَّنُ صاحبُ الأنيابِ القويّةِ أنْ يَتْرُكَ أثراً في عودِ شجرِ النبعِ ؟

١٧ ـ فيا أمَّةً لو يشعرُ الصخرُ بالذي تمارِسُ ، ضَجَّ الصخرُ ممّا تُمارسُ

فيا أمَّةَ العربِ لو يحسُّ الحجرُ الصَّلْدُ بالذي تُعانِينَ ، لهبَّ الحجرُ ثائِراً وحزيناً مما تُعانِينَ .

١٨ ـ إباءٌ إباءُ الخيلِ ، وهي شوامسٌ وصبرٌ كصبرِ الهيمِ ، وهي خوامِسُ

لهم شموخٌ مثلُ شموخِ الخيلِ ، وهي ثائرةٌ غيرُ تاركةٍ أحداً ، يركبُها ، وصبرٌ كاصطبارِ الإبلِ العطشى التي مضى على شربِها خمسةُ أيّامٍ .

١٩ ـ وما زالَ لهمْ في الهزاهزِ كلِّها فوارسُ هيجا أو ليوثٌ فوارسُ

وما يذهبُ عنهمْ في ثورانِ الفتنِ كلِّها رجالُ حربٍ ، هم كالأسودِ ممتطينَ أفراسَهُمْ .

٢٠ ـ مُساعرُ، ما يُحْمَى الوطيسُ بمثلِهِمْ إذا فَرَّ عَنْ حَرِّ القِراعِ المُغامِسُ

وهم موقدو الحروبِ ، ما يَشتَدُّ الحربُ بأشباهِهِمْ إذا ما هَرَبَ عنْ بأسِ وشدةِ أصواتِ السيوفِ والرماحِ الشجاعُ الذي يقتحمُ الشدائدَ .

٢١ ـ فكم طعنةٍ بكْرٍ يطيرُ رَشاشُها لِفِتْيانِهِمْ ، والحربُ شمطاءُ عانسُ

وكم منْ طعنةِ رمحٍ قويّةٍ قاتلةٍ ، انتثَرتْ قطراتُ دمِ القتيلِ منها في حربٍ شديدةٍ طويلةِ الأمدِ .

٢٢ ـ ويكفيكَ منْ أيّامِهِمْ وحروبِهِمْ بما جَرَّتِ الغبراءُ ، أوجَرَّ داحسُ

وحسبُكَ منْ أيامِهِمُ التي سمِّيَتْ بأسماءِ حروبِهِمْ وأسبابِ تلكَ الحروب كسباقِ الفرسَينِ داحسٍ والغبراءِ والأحداثِ التي تلتْهُ .

٢٣ ـ وهمْ فَرَسوا أبناءَ فارسَ كُلَّهُمْ بأنيابِهِمْ ، وهي الرماحُ المَداعِسُ

وهمُ الذينَ قتلوا أولادَ فارسَ كلَّهمْ برؤوسِ رماحِهمُ الطاعنةِ قلوبَهُمْ .

٢٤ ـ ومُصْلَتَةٍ ، ما زالَ يُطْلَى بياضُها بمـاءِ الطُّلَـى مـا فـارقَتْهـا المـداوسُ

وها هي رماحُهُمْ مُجَرَّدَةٌ منْ أغمادِها ، تلتمعُ سنانُها بدماءِ أعناقِ القتلى التي لم تَنْقَطِعْ بعدُ .

٢٥ ـ وهمْ سَلَبوا التيجانَ عامَ ملوكِهِمْ ولـم يَقْفُلـوا عنهـم ، وفـارسُ فـارسُ

وهمُ الذينَ أسرعوا في رفعِ أكاليلِ كلِّ ملوكِهِم ، ولم يرجعوا عن غزوهمْ ، وفي بلادِ فارسَ رجلٌ ، يركبُ فَرَسَهُ .

٢٦ ـ وأيُّ سخـاءٍ يُـدَّعـى كسخـائِهِـمْ بمـا ملكـوا ، والجـوُّ أغبـرُ عـابـسُ ؟

وأيُّ كرمٍ ، يُسَمَّى كرماً مثلَ كرمِهِمْ بما حَوَوا ، وسماؤهُمْ غبراءُ مظلمةٌ بسببِ شدةِ حروبِهِمْ ؟

٢٧ ـ بأسيافِهِمْ يَمْرونَ سُوقَ عِشارِهِمْ إذا نـزلَ الأضيـافُ ، والضَّـرْعُ يـابـسُ

وبسيوفِهِمُ التي يَعْقِرونَ بها أرجلَ نوقِهِمْ ، على الرغمِ من أنها حاملةٌ في أشهرِها العشرةِ أوِ الثمانيةِ ، إذا ما جاءَتْهُمُ الأضيافُ ، وضروعُ النوقِ خاليةٌ منْ ألبانِها .

٢٨ ـ وإنْ تَسْتَعِـذْ منهـمْ بـأعظـمِ مَيِّـتٍ فـذلـك حصـنٌ مـانـعٌ لـكَ حـارسُ

وإنْ تَخَفْ منهمْ بسببِ قتلِكَ أفضلَ رجلٍ منهمْ ، وتلجأْ إلى واحدٍ منهمْ ، فلجوؤُكَ إليهِ حِرزٌ لكَ رادٌّ عنكَ القتلَ ، وحافظٌ لكَ عهدَ اللجوءِ .

٢٩ ـ إذا اعتلقَـتْ كفّـاكَ منهـمْ بـذمَّـةٍ فخصمُـكَ فَـلٌّ نـاكـصٌ عنـكَ نـاكِـسُ

وإذا تَضَرَّجَتْ يداكَ بدمِ قتيلٍ لهمْ آخذاً بثأْرِكَ أو حقِّكَ منهمْ ، فإنَّ غريمَكَ ثَلْمٌ حدُّ سيفِهِ أو رُمحِهِ ، مُحْجِمٌ عَنْ قتالِكَ ، مرتدٌّ عن مهاجمتِكَ .

٣٠ ـ وأعراضُهُمْ أعراقُهُمْ ، وُكِلَتْ بها مُهَيمِنَــةً حتــى اتَّقَتْهــا الفــوارسُ

وأمّا محارِمُهُمْ ، فهي آباؤهُمْ وأجدادُهُمُ الذين كَفَلوهُمْ ، وحافظوا عليهِمْ حتى ابْتَعَدَتْ عنهم مَظانُّ السوءِ خوفاً وحَذَراً .

٣١ ـ وعن صهرِ كسرى صَدَّ نُعمانَ باءَهُ فَخَنَّقَــهُ فــي خــانقِيــنَ الفــوارسُ

ورَدَّتْ عِزَّةُ نفسِ عَبيدِ بنِ الأبرصِ النعمانَ بنَ المنذرِ أحدَ ملوكِ الحيرةِ حينَ طلبَ مصاهرَتَهُ كسرى ملكَ الفرسِ ، ولم يرضَ عبيدٌ بتلكَ المصاهرةِ ، فنفاهُ النعمانُ إلى خانقينَ على يدِ جماعةٍ منَ الفرسانِ . حتى ماتَ .

٣٢ ـ وهانَ عليهِ يومُهُ قبلَ ساعةٍ يُكابدُ فيها صهرَ من لا يُجانِسُ

وكان ذلكَ الأمرُ في يوم بؤسِ النعمانِ ، فَسَهُلَ عليه قبلَ انتهاءِ ذلكَ اليومِ الحكمُ بنفيِ عَبيدٍ ، وعانى ما عانى هذا الأخيرُ منْ أمرِ صهرِ مَنْ لا يوافِقُهُ .

٣٣ ـ وقُلْ : هل فشا في الأرضِ غيرَ لسانهمْ لسانٌ فُشُوَّ الضوءِ ، واليومُ شامسُ؟

وقُلْ : هلِ انتشَرَتْ في الأرضِ لغةٌ غيرُ لغتِهمْ كما ينتشرُ الضوءُ في النهارِ المشمسِ ؟

٣٤ ـ بهِ عجَّ في أمصارِها كلُّ مِنْبَرٍ وطَنَّتْ بهِ في الخافقَينِ المدارسُ

وبفضلِ هذا اللسانِ وقرآنِهِ ارتفعَتْ أصواتُ الخطباءِ على منابرِ بلادِ الإسلامِ ، وعلَتْ منْ أجلِهِ أصواتُ الطلبةِ في مدارِسِهمْ في الشرقِ والغربِ .

٣٥ ـ على ظهرِها لم يَخْلُقِ اللهُ أمَّةً تناسبُهُمْ في خَصْلَةٍ أو تلابسُ

ولم يخْلُقِ اللهُ تعالى على ظهرِ الأرضِ أمَّةً لائقةً بهمْ موافقةً لهمْ في صفةٍ أو مشابهةً إيّاهم .

٣٦ ـ يُقايسُ بينَ الناسِ حتى إذا انتهى إلى العَرَبِ القياسُ طاحَ المقايسُ

يقارنُ المرءُ بينَ الناسِ حتى إذا وصلَ بالمُقارنةِ إلى العربِ معَ غيرِهِمْ سقطَتْ منَ المُقارنِ أدواتُ المقارنةِ .

٣٧ ـ وواحدةٌ تكفيكَ ، هاتيكَ حُجَّةٌ بساطِعِها تَنْشَقُّ عنكَ الحنادِسُ

ومقارنَةٌ واحدةٌ ، تُجْزئُكَ ، فَخُذْها حُجَّةً ، تَنْصَدِعُ عنكَ الظلماتُ بأنوارِها .

٣٨ ـ أجَلُّ رسولٍ منهمْ وبِلِسْنِهِمْ أجلُّ كتابٍ ، فاعتَبِرْ يا مُنافِسُ

فأعظمُ رسولٍ منهمْ ، وبلغتِهِمْ أفضلُ كتابٍ ، أرسلَهُ اللهُ تعالى منَ السماءِ ، فاتَّعِظْ يا مريداً التباريَ .

٣٩ ـ وقُلْ للشعوبيِّينَ : إنَّ حديثَكُمْ أضاليلُ منْ شيطانِكُمْ ووساوسُ

وقلْ لأصحابِ مذهبِ الشعوبيةِ الذينَ يقلِّلونَ منْ قيمةِ العربِ : إنَّ أحاديثَكُمْ وأقوالَكُمْ ما هي إلاّ أباطيلُ ، لا أساسَ لها منَ الصحةِ ، وأوهامٌ ، أتَتْكُمْ منَ الشياطينِ .

٤٠ ـ لكمْ مَذْهَبٌ فَلٌّ ، يُغَرُّ بمثلِهِ أشائبُ حَمْقى لا الرجالُ الأكايِسُ

وإنَّ مذهَبَكُمْ ضعيفٌ ، يُوهَمُ بمثلِهِ أخلاطُ الناسِ وعوامُّهُمْ ضِعافُ العقولِ لا الرجالُ ذوو العقولِ الناضجةِ والأفكارِ والبراهينِ الدامغةِ .

☆☆ ٥ ـ وقال على بحرِ الكاملِ في المدحِ :

١ ـ لعلـيٍّ الشيـخِ الكـريـمِ عُـلاً   لـم تجتَمِـعْ مـنْ قبـلُ فـي نفـسِ

لقد اتَّصَفَ عليٌّ الشَيخُ الشريفُ بأخلاقٍ كريمةٍ ، لم تجتمعْ في إنسانٍ آخرَ قبلَهُ .

٢ ـ ضـاهـى عَلِيًّا فـي اسمِـهِ ، فـأبـى   ألاّ يُـرَى بـالسيـفِ والتُّـرْسِ

شاكلَ عليَّ بنَ أبي طالبٍ باسمِهِ ، وأرادَ أنْ يشابِهَهُ أيضاً في ساحةِ الحربِ حاملاً السيفَ والمجَنَّ .

٣ ـ فحسـامُـهُ كـالبـرقِ يَصْحَبُـهُ   تُـرسٌ يُشـابِـهُ دارةَ الشمـسِ

وإنهُ لَيصاحبُ في كلِّ آونةٍ سيفَهُ الذي يلتمعُ كالبرقِ ومِجَنَّهُ المستديرَ الذي يشبهُ هالةَ الشمسِ .

☆☆ ٦ ـ وقالَ على بحرِ السريع في التصوفِ [مقامات الزمخشري : نهاية مقامة العُزلة ص ٨٥] :

١ ـ الإنسـُ مُشْتَـقٌّ مـنَ الأُنـسِ   والأُنـسُ أنْ تنـاى عـنِ الإنـسِ

إنَّ الإنسانَ واحدٌ منَ البشرِ المختلفِ عنِ الحيوانِ الذي يجلُبُ الوحشةَ لِمَنْ حولَهُ ، فهو نسلٌ منَ اللِّينِ والسهولةِ ، وأعجبُ العجبِ أنَّ الأمنَ والطمأنينةَ في الابتعادِ عنِ البشرِ .

٢ ـ ثيـابُهُـمْ مُلْـسٌ ، ولكنّهـا   علـى ذئـابٍ منهُـمُ طُلْـسِ

لأنَّ بعضَهُمْ ، يبدونَ غايةً في اللطافةِ والرقَّةِ ، وسرعانَ ما يرتدونَ جلودَ الذئابِ الوسخةَ المُغْبَرَّةَ .

٣ ـ نفسَـكَ ، فـاغْنَمْهـا ، وشَـرِّدْ بهـا   عنهـمْ ، وقـلْ : أفْلَـتِّ يـا نفسـي

فَصُنْ نفسَكَ ، وفُزْ بها ، واذكُرْ لها عيوبَ الناسِ لِتَنْفِرَ منهمْ ، ثم ناجِها ، قائلاً لها : لقد نجوتِ يا نفسي .

٤ ـ إنْ لـم تُشـرِّدْهـا تَجِـدْهـا لَقًـى   لِلْفَـرْسِ بيـنَ الظُّفْـرِ والضِّـرْسِ

فإنْ لم تَبْتَعِدْ بها عنِ الناسِ تَرَها تِلقاءَ القتلِ بالمِخْلَبِ والنابِ .

☆☆ ٧ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في المدحِ : [مقدمة كتاب (أعجب العجب في شرح لاميَةِ العرب) : ص ٣١] :

١ ـ بالسَّعْدِ أضحى المجدُ محروسَ العُلا   فحمـى الـرئـاسـةَ منـه طـودٌ راسـي

لقد أصبحَ العِزُّ بفضلِ نجمِ السعدِ والسرورِ مسروقةً أمجادُهُ ، وصانَ جبلٌ شامخٌ ثابتٌ سيادَتُهُ .

٢ ـ يَهْوَى المعالي مُوْلَعاً بِوِصالِها   وأفـاضَ غـامِـرَ بـذلِـهِ فـي النـاسِ

فهو مُحِبٌّ المراتبَ العالية ، مُغْرَمٌ بالتَّقرُّبِ منها وَوِدادِها ، فكانَ عطاؤهُ سَخِيًّا كثيراً ، يغطي حاجاتِ الناسِ .

٣ ـ راضَ الخطوبَ الصُمَّ بعدَ جِماحِها   وألانَ مِنْ قلبِ الزمانِ القاسي

ذلَّلَ الصعابَ الشديدةَ الوَعِرَةَ ، وجَعَلَ جانباً منَ الزمانِ الجافي سهلاً هيناً .

٤ ـ وأعادَ نورَ الحقِّ في مشكاتِهِ   وأقامَ وَزْنَ العدلِ بالقِسْطاسِ

وردَّ ضوءَ الحقِّ إلى مكانِهِ ، وأحْكَمَ العَدْلَ بالميزانِ الصحيحِ الدقيقِ .

☆☆ ٨ ـ وقالَ على بحرِ البسيطِ في المدحِ والمعاتبةِ :

١ ـ قولا لأختِ بني لأيِ بنِ شَمّاسٍ   متى يَرِقُّ علينا قلبُكِ القاسي ؟

قولا لعَمَّةِ أولادِ عشيرةِ بغيضِ بنِ عامرٍ : متى يَحِنُّ علينا قلبُكِ الجافي ؟

٢ ـ نَسّاءَةٌ لِمَواثيقي سعادُ على   أني لميثاقِ سُعْدَى لستُ بالناسي

وقد سَلَتْ ، وغَفَلَتْ سعادُ عهودي لها على الرغمِ منْ أني لستُ بسالٍ ولا غافلٍ عهودَ سُعْدَى .

٣ ـ إنَّ الشِّماسَ وإنَّ اللأيَ دَيْدَنُها   كذاك أخْتُ بني لأيِ بنِ شَمّاسِ

فإنَّ عادةَ سعادَ في معاملةِ الناسِ ، هي العداوةُ والبأسُ الشديدُ ؛ هي عادةُ عَمَّةِ بني لأيِ ابنِ شَمّاسٍ .

٤ ـ تحكي مواعيدَ عُرقوبٍ مَواعِدُها   حتى تُمَتِّعَ بعدَ المطلِ باليأسِ

ومواعيدُها ، تشبهُ مواعيدَ عُرقوبٍ ؛ إذ فيها التسويفُ الذي تُطْمِعُ ، وتُلَذِّذُ به مُواعِدَها ، ثم ترميهِ بالقنوطِ الأليمِ .

٥ ـ لكنْ على ذاكَ نهواها ، ونَعْشَقُها   وما على أحدٍ في العشقِ منْ باسِ

وعلى الرغمِ منْ ذلكَ كلِّهِ فنحن نُحِبُّها الحبَّ الشديدَ ، ونحاوِلُ ألاّ نَفْطَنَ إلى عُيوبِها ، ولا يَلُومُنا أحدٌ على ذلك لأنَّ الناسَ قدِ اعتادوا على التسامحِ في أمورِ الحُبِّ والهوى .

٦ ـ ما بينَ جَنْبَيَّ داءٌ مِنْ هَوًى عجبٍ   وما لدائي إلاّ وصلَها آسي

وفي حنايا جسمي مرضٌ منْ حُبٍّ غريبٍ ، ليس له دواءٌ ، يَشفيهِ ، إلاّ ودادُها .

٧ ـ قد وَسْوَسَ الحَلْيُ في لَبّاتِها أُصُلاً   فهاجَ وَسواسُ ذاكَ الحَلْيِ وِسواسِي

وتُرَدِّدُ قلاداتُها في رقبتِها همساتِها في أوقات العَشِيّ ، فتثيرُ هذه الهَمْساتُ في نفسي هواجسَ كثيرةً .

٨ ـ وقد رَشَفْتُ سُحَيراً خَمْرَ ريقتِها فافْتَرَّ مَبْسَمُها عن ضوءِ مقباسِ

وقد نِلْتُ منْ ثَغْرِها طيبَ رُضابِها ، فضَحِكَتْ ، فأظهرَ فمُها أسنانَها التي تتلألأُ تلألؤَ شُعْلَةِ النارِ .

٩ ـ قالَتْ : أترشفُ منْ ريقي سُلافَتَهُ وأنتَ ذو وَرَعٍ عَفٌّ عنِ الكاسِ ؟

فقالَتْ : أتأخذُ منْ رضابي أوّلَهُ ، وأنتَ التَقِيُّ تاركُ شربِ الخمرةِ ؟

١٠ ـ فقلْتُ : ويحَكِ إني لستُ راشِفَها إلاّ وقد طَبَخَتْها نارُ أنفاسي

فأجبْتُها : رُوَيدَكِ إني ، لم أتَذَوَّقْ منهُ شيئاً إلاّ بعدَ أنْ أنْضَجَتْهُ حرارةُ أنفاسي .

١١ ـ أشكو إلى اللهِ أني لا أرى رجلاً سوى غنيٍّ طويلِ الذَّيلِ مَيّاسِ

وإني أبثُّ ما أحسُّ بهِ منَ الحزنِ إلى اللهِ ، وما أرى منَ الرجالِ الأغنياءِ الذين يرتدونَ الثيابَ ذاتَ الذيولِ الطويلةِ ، ويرسلونَ أموالَهُمْ في البلادِ ، ويَجْتَهِدُون في تكثيرِها .

١٢ ـ ولو رأى هبةُ اللهِ الذي كَثُرَتْ هِباتُهُ عَدَّني في جملةِ الناسِ

ولو نظرَ إليَّ هبةُ اللهِ الذي أغناهُ اللهُ ، وهو يَمْنَحُ الناسَ أُعطياتِهِ ، لَخَصَّني بشيءٍ منها .

١٣ ـ لو قد وَفى بالمواعيدِ التي قَدُمَتْ فَهَلْهَلَتْ بسهامِ المَطْلِ قرطاسي

ولو قد أدَّى حقَّ المواثيقِ التي مَرَّ عليها وقتٌ طويلٌ ، فَبَلِيَتْ بتأخيرِ المواعيدِ أوراقي .

١٤ ـ يا مَنْ مكارِمُهُ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ كأنَّها في اشْتِهارٍ بُلْقُ أفراسي

يا أيُّها الذي كانتْ ، وما زالَتْ أمجادُهُ كالجيادِ بيضِ الجباهِ والأقدامِ المصفوفةِ في عرضِ السوادِ والبياضِ .

١٥ ـ الراسُ أنتَ ، فلا تَسْتَنْكِرَنَّ إذا صُدِّعْتَ ، هل يُنْكَرُ التصديعُ للراسِ ؟

وإنكَ أنتَ السَّيِّدُ ، فلا تَعْجَبَنَّ إذا أطالَ عَدُوُّكَ ضَرْبَ رأسِكَ ، وآلَمَكَ ، فهل يكونُ ضربُ الرأسِ منْ غيرِ إيلامٍ ؟

١٦ ـ ماذا التثاقُلُ منْ بِرّي وتكْرِمتي وأنْتَ منْ نَفَرٍ في البِرِّ أكياسِ

ما سببُ تأخُّرِ عطائِكَ إيّايَ واحتِفائكَ بي ، وأنت منْ جماعةٍ ذاتِ كرمٍ وفطنةٍ .

١٧ ـ أوحَشْتَني بمطالٍ ، طالَ مُدَّتُهُ وكانَ يمكنُ بالتعجيلِ إيناسي

ولقد أذقْتَني عذابَ التسويفِ الذي طالَتْ مُدَّتُهُ ، وكنْتَ تستطيعُ أنْ تُسَرِّعَ مَجيءَ السرورِ إليَّ وإسعادي به .

١٨ ـ أنطِقْ لساني بإحسانٍ أقومُ به خطيبَ شكرٍ فقد طوَّلْتَ إخراسي

فَقَدِّمْ لي عطاءً ، أردُّهُ بمدحٍ ، أكونُ فيه خطيباً شاكراً ، فقد طَوَّلْتَ مدةَ انعقادِ لساني عنْ مدحِكَ .

١٩ ـ إنْ رُمْتَ سيفاً على الأعداءِ مُنْصَلِتاً فَرِشْ نِبالي ، وصِلْ بالعُرْفِ أمراسي

فإنِ احْتَجْتَ إلى سيفٍ ، ترفعُهُ بوجهِ الأعداءِ ، فَضَعْ لِسهامي ريشاً ، واربِطْ بالعطاءِ حبالي .

٢٠ ـ تَجِدْ لساني عليهم صارماً ذكرَاً كأنهُ سيفُ عباسِ بنِ مِرْداسِ

تَلْقَ لساني قاطعاً شديداً ، يشبهُ سيفَ ابنِ الشاعرةِ الخنساءِ عباسِ بنِ مرداسٍ الذي أدركَ الإسلامَ ، وكان منْ شهداءِ القادسيَّةِ .

٢١ ـ أرميهمُ بالقوافي النافذاتِ كما ترمي الرُّماةُ بِنَبْلٍ غيرِ أنكاسِ

أقذفُ عليهمْ قصائدَ ذاتَ معانٍ وألفاظٍ ، تنفُذُ إلى أعماقِ قلوبهمْ كما تخترقُ نبالُ الرماةِ أهدافَها ، ولا تُخْطِئُها .

٢٢ ـ أولى بمثلِكَ ترشيحي وتربيتي لو قِسْتَ ذلكَ من عقلٍ بمقياسِ

وإنكَ لأفضلُ الناسِ بتربيتي وتعليمي لو قَدَّرْتَ ذلكَ الاهتمامَ بي بمقدارِ العقلِ والحكمةِ ، واذكُرْ قولَ الحُطَيئةِ :

منْ يَفْعَلِ الخيرَ لا يَعْدَمْ جوازِيَهُ لا يذهبُ العُرْفُ بينَ اللهِ والناسِ

من يَقُمْ بأعمالِ البرِّ والإحسانِ لا تَفُتْهُ مُكافآتُها ، فإنَّ العملَ الصالحَ والعطاءَ الخالصَ منَ التعالي والتفاخُرِ ، لا يُضَيِّعُهُ اللهُ ، ولا ينساهُ الناسُ [الديوان ص ٥١] .

☆☆ ٩ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ :

١ ـ مساعي فريدِ الدهرِ ، مُسْتَغْرَباتُها مُعَطَّلَةٌ ، إنْ قُويِسَتْ كلَّ مِقياسِ

إنَّ لفريدِ الدهرِ مقاصدَ كثيرةً ، وأعجبُها ما لم يَسْتَطِعْ تحقيقَهُ ، إنْ أُريدَ أنْ تُوزَنَ بموازينِ الحكمةِ .

٢ ـ كواكبُ إشراقاً وبُعْداً ونَوبةً لقومٍ بإسعادٍ وقومٍ بإتعاسِ

ومقاصِدُهُ تشبهُ كواكبَ السماءِ في الضياءِ والبعدِ وفرصةِ السلطانِ ، وتكونُ إسعاداً وسروراً لقومٍ وإتعاساً وحزناً لقومٍ آخرينَ .

٣ ـ جريرٌ مِنَ السِّيدِ ، ابْنُ ضَبَّةَ في الذُّرا وضَبَّةُ بْنُ أُدِّ بْنِ إلياسَ في الراسِ

فأبوهُ جريرٌ من سلالةِ الأَسدِ ابْنِ مالكٍ ، ابنُ ضَبَّةَ في هاماتِ المجدِ ، وضَبَّةُ ، هو بْنُ أُدِّ

ابْنِ إلياسَ في قمةِ العربِ .

٤ ـ وفي مضرَ الحمراءِ إلياسُ غُرَّةٌ   وإنَّ نزاراً في مَعَدٍّ كإلياسِ

وفي قبيلةِ مضرَ ذاتِ الراياتِ الحمرِ جَدُّهُ إلياسُ ذو الجبهةِ البيضاءِ شرفاً ، وإنْ قيسَ إلياسُ بنزارِ بنِ مَعَدٍّ ، كانَ مثلَهُ في العِزَّةِ والمجدِ .

٥ ـ كأنَّ بني قحطانَ أزرارُ هضبةٍ   وكلُّ بني عدنانَ كالجبلِ الراسي

كأنَّ أولادَ قحطانَ أزرارٌ ، تُمْسِكُ جَنَباتِ قبيلةِ عدنانَ بِعُراها الشديدةِ ، وكلُّ بني عدنانَ أقوياءُ كالجبلِ الثابتِ .

٦ ـ همُ دِيَمٌ مُنْهَلَّةٌ ساعةَ النَدَى   وهمْ شُهُبٌ مُنْقَضَّةٌ ساعةَ الياسِ

فهم أمطارٌ هادئةٌ ، تهطُلُ على الناسِ وقْتَ حاجاتِهِمْ ، وهمْ نيرانٌ واقعةٌ على الأعداءِ ساعةَ الحربِ والشدةِ .

٧ ـ وإنَّ امرأً ، أفعالُهُ الغُرُّ هذه   ومَنْصِبُهُ هذا لَمِنْ أفضلِ الناسِ

وإنْ رأيتَ رجلاً ، هذِهِ أفعالُهُ ومكارمُهُ ومكانتُهُ ، فقلْ : إنهُ لَمِنْ خيارِ الناسِ .

☆☆ ١٠ ـ وقال على بحرِ الكاملِ في المدحِ والتهنئةِ :

١ ـ رشأٌ كخوطِ البانةِ الميَّاسِ   ما يرتَضي غَيرَ الحشا بِكِناسِ

إنَّ هذا الظَّبْيَ الصغيرَ ذا القامةِ التي تشبهُ غصْنَ شجرةِ البانةِ اللَّيِّنَ ، لا يقبَلُ سَكَناً له إلاّ القلبَ .

٢ ـ الظَّبْيُ يرعى في الرياضِ ، فمالَهُ   لم يَرْعَ إلاّ في قلوبِ الناسِ ؟

والظَّبْيُ مرتَعُهُ البساتينُ ، فما الذي جَعَلَهُ لا يلعَبُ إلاّ في قلوبِ الناسِ ؟

٣ ـ في وجْنَتَيهِ ضوءُ مِقْباسٍ ، وفي   صَدْرِ المُتَيَّمِ حرقَةُ المقباسِ

في خَدَّيهِ نورُ شُعْلةِ نارٍ ، وفي قلبِ مُحِبِّهِ حرارةُ الشُّعْلَةِ .

٤ ـ يُبْقي الذي يَرمي إليه بنظرةٍ   مثلَ الذي يغدو صريعَ الكاسِ

فإنْ رمى أحداً بنظرةٍ منهُ يَصِرْ كالذي أصبحَ مضطربَ الأعضاءِ منْ شربِ الخمرِ .

٥ ـ إنَّ السهامَ خواطئٌ وصوائبٌ   وسهامُ طرفِكَ هَلْهَلَتْ قرطاسي

إنَّ النبالَ ، قد تُخْطِئُ ، وقد تُصيبُ أهدافَها ، ونبالُ نَظَرِكَ هدّافَةٌ ، لا تُخْطِئُ سَدادَها ؛ أصابَتْني ، فأضْعَفَتْ ما أملِكُ حتى أوراقي .

٦ ـ يا ليتَ شعري ، هل يَحُلُّ بعاشقٍ   في أرضِ عُذْرَةَ ما يَحُلُّ براسي ؟

فيا ليتني أعلمُ ما يجري لمحبٍّ منْ أرضِ عُذْرَةَ ؟ هل يُحِسُّ بآلامٍ في رأسِهِ كما أحسُّ ؟

٧ ـ العُشْبُ يَنْبُتُ في مساقطِ أدمعي لو لم يُحَرِّقْهُ لظى أنفاسي

فإنَّ العشبَ، ينبتُ في صَفْحَتَي وجهي، ويرتوي بدموعي ، إنْ لم يَتَعَرَّضْ لِحَرِّ أنفاسي .

٨ ـ قد رقَّ لي ممّا أقاسي كلُّ ذي قلبٍ ، وقلبُكَ لي كصخرٍ قاسي

وقد حَنَّ لي ، وأشْفَقَ ، ممّا أعاني كلُّ صاحبِ قلبٍ رقيقٍ إلاّ قلبَكَ الشبيهَ بالحجرِ الصُّلْبِ .

٩ ـ لِمَ لا تُواسي منْ يُواسي الناسَ في معروفِهِ ؟ إنَّ الكريمَ مُواسي

لماذا لا تشارِكُ منْ يشارِكُ الناسَ في عطائِهِ ؟ فإنَّ كريمَ النفسِ ، يُحِبُّ المشاركةَ .

١٠ ـ لِمَ لا تُصافي فاضلاً ، ممدوحُهُ ملكٌ ، يُصافيهِ بنو العباسِ

لماذا لا تُخْلِصُ ودَّكَ لرجلٍ ذي درجةٍ عاليةٍ عندَ ممدوحِهِ الملكِ الذي يُخْلِصُ لهُ الودَّ بنو العباسِ كلُّهُمْ ؟

١١ ـ قد لَقَّبوهُ صَفِيَّهُمْ ، وكَسَوهُ منْ حُلَلِ المعالي البيضِ خيرَ لباسِ

قد جَعَلَهُ بنو العباسِ خليلَهُمْ ، وألبسوهُ منْ ثيابِ الدرجاتِ العاليةِ البيضاءِ أفضلَ لباسٍ .

١٢ ـ فرأَوهُ للعلياءِ ألطفَ كاسبٍ ورآهُ للنعماءِ أشرفُ كاسِ

ووجدوهُ للمجدِ أرقَّ رابحٍ ، ووجدَهُ الملكُ أفضلَ مَكْسُوٍّ بأُعطياتِهِ .

١٣ ـ ملكٌ ، يُحَرِّكُهُ السخاءُ كأنهُ غصنٌ ، وعندَ الحِلْمِ طَودٌ راسِ

هو مَلِكٌ ، ومالكٌ طباعاً رفيعةً ؛ تراهُ في الكرمِ غُصْناً لَيِّناً وفي الأناةِ والعقلِ جبلاً ثابتاً .

١٤ ـ مُتَشاوسُ اللحظاتِ نحوَ عدُوِّهِ لَبِقٌ على الندماءِ والجُلاّسِ

وفي أوقاتِ الشدَّةِ والبأسِ مُتكبِّراً على عدوِّهِ وفي جَلساتِ العلمِ والأدبِ حاذقاً ظريفاً ، يُسِرُّ جلساءَهُ ونُدَماءَه .

١٥ ـ مُتَثاقلٌ عندَ المساوئِ ، وهو في غُرِّ المساعي أكيسُ الأكياسِ

وعندَ الشرورِ والأذى رزيناً هادئاً ، وفي المقاصدِ الفاضلةِ أفطنَ وأظْرَفَ الظُّرَفاءِ .

١٦ ـ مُلْكٌ ، يُصَرِّفُهُ سُوىً ؛ تدبيرُهُ تَشييدُ بنيانٍ بغيرِ أساسِ

وإنهُ لذو مُلْكٍ عَدْلٍ عظيمٍ ؛ أقامَ أحكامَهُ فيه بعدَ أنْ رفعَ بناءَهُ الذي لم يكنْ لهُ قواعدُ .

١٧ ـ أنشوطَةٌ ، رأيُ الملوكِ ورأيُهُ   شَزْرُ المرائرِ مُحْكَمُ الأمراسِ

واتَّخَذَ سُنَّةً في حكمِهِ ، كانَتْ كالحبلِ ، فيه عُقَدٌ منْ تجاربِ الملوكِ وتجاربِهِ مفتولَةٌ جيداً ، تَحْتَمِلُ صروفَ الدهرِ .

١٨ ـ فكأنَّ وحْياً فِكْرُهُ ، وكأنما   أفكارُهُمْ ضربٌ منَ الوسواسِ

فكأنَّ اللهَ ، جَلَّ جلالُهُ ، يُلْهِمُهُ الأفكارَ السديدةَ الرشيدةَ ، وكأنَّ آراءَهُمْ نوعٌ منَ الأوهامِ الباطلةِ .

١٩ ـ تجري الأمورُ على القياسِ، وأمرُهُ   بينَ الأمورِ على خلافِ قياسِ

فتسيرُ أمورُ الملوكِ الآخرينَ على مذهبٍ مدروسٍ ، ويأتي أمرُهُ سَوِيًّا على غيرِ قِياسٍ .

٢٠ ـ يَثْني وجوهَ الخيلِ عابسةً إذا   أقلامُهُ ، ضحِكَتْ على القِرْطاسِ

ويصرفُ مقاصِدَ الكبرياءِ عنْ شِدَّتها حين تكتبُ أقلامُهُ على سطورِ أوراقِهِ ما يثيرُ في النفوسِ السرورَ والانبساطَ .

٢١ ـ يكفيهِ إنْ عاثَتْ ذئابُ عِداتِهِ   قَلَمٌ كَظُفْرِ الضَّيغَمِ الفَرّاسِ

فإنْ رأى رجالَ أعدائِهِ اللئامَ ، يُفْسِدونَ ما يُقيمُهُ ، فإنَّ قَلَمَهُ الشبيهَ بِمِخْلَبِ الأسدِ القَتّالِ ، يُجْزِئُهُ في رَدِّهِمْ وتوبتِهِمْ عنِ العودةِ إلى أذاهُ .

٢٢ ـ توقيعُهُ، يُغْني عنِ الوقعاتِ، والـ   أقلامُ نائبةٌ عنِ الإفراسِ

فما يكتُبُ منْ أحكامٍ ، تُجْزِئُ عنِ الحروبِ ، وإنَّ الأقلامَ بديلةٌ عنِ القتالِ في ساحةِ الحربِ .

٢٣ ـ فكأنهُ في دَسْتِهِ مُتَرَبِّعاً   عَمْرُو بنُ مَعْدي كَرْبَ يوم الباسِ

وإنكَ إنْ تَرَهُ في مجلسِهِ مُلْتَفّاً على نفسِهِ تَقلْ : إنهُ عمرُو بْنُ مَعْدي كَربٍ مُتَهَيّئاً ليومِ حربٍ وشِدَّةٍ .

٢٤ ـ مَنْ يَمْتَدِحْكَ بكلِّ ما مُدِحَتْ به   صِيدُ الملوكِ ، فما بهِ منْ باسِ

فمَنْ يُثْنِ عليكَ بما أُثْنِيَ على عظماءِ الملوكِ كلِّهِمْ ، فلا تنالُهُ شِدَّةٌ أبداً .

٢٥ ـ يا مُبْدِئَ النعماءِ إني للذي   أسْدَيْتَ لا ناسٍ ولا متناسي

فيا بادئاً بالعطاءِ قبلَ غيرِكَ ومُعيدَهُ إني لِما قَدَّمْتَ إليَّ منَ المعروفِ ، لستُ بناسِيهِ ولا جاعلاً نفسي متناسيةً إيّاهُ .

٢٦ ـ قَصَّرْتَ آمادَ المَواعدِ لي إذا   مَدَّ اللئيمُ المَطْلَ حتى الياسِ

وجعلْتَ الأوقاتَ الفاصلةَ بينَ الوعودِ قصيرةً لي على حينِ أطالَ اللئيمُ تلكَ الأوقاتَ ، وسَوَّفَها غايةَ التسويفِ حتى أُصبتُ بالقنوطِ منْ عطائِهِ .

٢٧ ـ وهَزَمْتَ فَقري بالغِنَى ، فَطَرَدْتَهُ فَغَدَوْتُ أنْعَرُ في قفا إفلاسي

وكأنكَ ، كنتَ ، تُحاربُ فقري ، فتَمَكَّنْتَ منْ غَلَبَتِهِ في أعطياتِكَ ، وطَرَدْتَهُ إلى غيرِ رجعةٍ إليّ ، فأصبحْتُ أصيحُ صياحاً شديداً وراءَ فقري .

٢٨ ـ وغَرَسْتَني، وأصبْتَ حينَ غَرَسْتَني إنَّ الأفاضلَ أفضلُ الأغراسِ

وربَّيْتَني ، وفُزْتَ في تربيتي ، إنَّ الرجالَ الأمجادَ ، يُنْشئونَ أحسنَ الأولادِ .

٢٩ ـ أغْرِسْ بها إنسيَّةً وحشيَّةً عنْ وحْشَةٍ ، تُثْني إلى استئناسِ

وأَنْبِتْ بقصيدتي هذهِ نَخْلَةً ، تُوائِمُ الناسَ والوحوشَ ، وتميلُ بكَ عنِ الشِّدَّةِ إلى الإيناسِ .

٣٠ ـ لو أُنْشِدَتْ في مأتمٍ لحسِبْتَهُ طرباً لها عُرْساً منَ الأعراسِ

فلو قُرِئَتْ في مُجْتَمَعِ حُزْنٍ ، لَظَنَنْتَهُ مجتمَعَ فَرَحٍ وعُرْسٍ منَ الأعراسِ سُروراً بها .

٣١ ـ وتَهَنَّأَ العيدُ المُطِلُّ ، ولا تَزَلْ عيداً على الأحقابِ والأحراسِ

وقد سعَدَ العيدُ المُقْبِلُ علينا بكَ داعياً أنْ تكونَ سَعْداً على الأزمانِ والدهورِ .

☆☆ ١١ ـ وقال على بَحرِ البسيطِ في الرثاءِ والتعزيةِ :

١ ـ عينُ الزمانِ أصابَتْ أكرمَ الناسِ فَهاجَ ذلكَ أشجاني ووسواسي

لمّا أصابَتْ عينُ الزمانِ أسْخَى الناسِ أثارَ ذلكَ الحَدَثُ أحزاني وهواجسي .

٢ ـ قد أنبتَ العشبَ دَمعي، إذْ تَدَفَّقَ منْ جفني ، وصَوَّحَ ذاكَ العشبَ أنفاسي

وحينَ تَصَبَّبَ دمعي منْ جَفْنَيَّ أنبتَ العشبَ ، ثم جَفَّفَتْ أنفاسي الحَرَّى ذلكَ العشبَ .

٣ ـ وكنتُ أطمعُ أنْ ألقاهُ مُمْتَدِحاً فَمَتَّعَتْني صروفُ الدهرِ باليأسِ

وكنتُ أرجو أنْ أُصادفَهُ مُثْنِياً عليهِ بقصيدةٍ ، فَسَوَّفَتْ نوائبُ الدهرِ مواعيدَهُ ، وحَوَّلَتْها إلى القنوطِ .

٤ ـ ما كانَ عندي أنّي قبلَ مِدْحتِهِ أرثيهِ ، والأمرُ لا يجري بمقياسِ

ما كُنْتُ ، أدري أنّي قبلَ أنْ أُنشِدَهُ قصيدتي في مدحِهِ ، أبكيهِ ، وأذكرُ مناقبَهُ ، وهذا هو حالُ الدنيا ، يسيرُ في طريقٍ غيرِ طريقِنا الذي نرسمُهُ جيّداً .

٥ ـ وقلْتُ : لو زُرْتُهُ يوماً لآنسني فصارَ يوحِشُني منْ قبلِ إيناسي

وناجَيتُ نفسي قائلاً : لو ذهبتُ إليهِ لوجدْتُ الأُنسَ عندَهُ ، ففاجأَتْني جفوتُهُ الأبديَّةُ قبلَ أنْ أسعدَ بِأُنسِهِ .

٦ ـ لا دَرَّ دَرُّ بناتِ الدهر ما صَنَعَتْ بـالطَّـودِ مـنْ عـزِّ ذاكَ السَّيِّـدِ الـراسـي

لا سَقَى اللهُ ، ولا أدرَّ ضُروعَ مصائبِ الدهرِ عقاباً لها على ما فَعَلَتْ بالجبلِ الشامخِ مِنْ زلزلةِ وهَدْمِ ذاكَ الرجلِ العظيمِ قَدْراً .

٧ ـ هَـدَّتْـهُ والـدَّهـرُ مـا زالَـتْ معـاوِلُـهُ يَعْمَلْنَ في الصَّلْدِ منْ صُمِّ الصَّفا القاسي

نعمْ لقد هَدَّمَتْ بناتُ الدهرِ ذلكَ الجبلَ الشامخَ ، وما زالَتْ مطارقُها ، تضربُ الصُّلْبَ منْ حجارةِ الصَّفَا .

٨ ـ يَصُدُّ عنْ رميِ أنكاسِ الرجالِ، وكم يـرمـي الكـرامَ بِنَبْـلٍ غيـرِ أنكـاسِ

ويَمْتَنِعُ الدهرُ عنْ ضربِ ضعافِ الرجالِ ، لكنهُ يصُبُّ كيدَهُ على الرجالِ الكرامِ بسهامٍ ، تصيبُهُمْ ، ولا تُخْطِئُهُمْ .

٩ ـ لهفي على كرمٍ ، أودى الزمانُ به مُسْتَغْـرَبٍ خـارجٍ عـنْ عـادةِ النـاسِ

فيا حزني على سخاءٍ ، أخذَهُ الموتُ ؛ كانَ عجَباً خارجاً عمّا اعتادَهُ الناسُ .

١٠ ـ لهفي على سَيِّدٍ لم يَحْوِ سودَدَهُ كهـؤلاءِ بـلا جـودٍ ولا بـاسِ

ويا حزني على رجلٍ شريفٍ ، لم يمتلِكْ هؤلاءِ الذينَ تَرونَهُمُ الآنَ ، ولا يتَّصفونَ بشيءٍ مِنَ الكرمِ والعزةِ ، شيئاً مِنْ مَجْدِهِ وسيادتِهِ .

١١ ـ ما زالَ مَنْ طَلَبَ العلياءَ في نَصَبٍ دونَ الـرجـالِ وكـلٌّ طـاعـمٌ كـاسِ

ما زالَ مَنْ رامَ العُلاَ مُتْعَباً فوقَ غيرِهِ من الرجالِ، وكلُّ مَنْ هو تحتَهُ مرتبةً مُطْعَمٌ مَكْسُوٌّ.

١٢ ـ سبطِ الأناملِ مخْفوضِ الجناحِ، متى سـألتَـهُ ، قـالَ : بـالعينيـنِ والـرأسِ

وكانَ يبسُطُ أصابعَهُ على مداها مُتَكرِّماً ، ولا يقبِضُها ، ويَضُمُّ جناحَيهِ رحمةً وتواضعاً، متى تسألْهُ حاجةً يقُلْ: سمعاً وطاعةً وقبولاً بعينَينِ مُحِبَّتَينِ ورأسٍ مطأْطِئٍ.

١٣ ـ صبراً جميلاً وتسليماً ، فما أحدٌ يُـرْجَـى لـه مَخْلَـصٌ مـنْ هـذهِ الكـاسِ

فاصبرِ الصبرَ الجميلَ ، وسَلِّمْ أمرَكَ إلى اللهِ الكريمِ ، فما واحدٌ في هذه الحياةِ الدنيا ، لهُ منجاةٌ منْ شربِ كأسِ الموتِ .

١٤ ـ عالجْ أساكَ بحسنِ الصبرِ، تُشْفَ بهِ ما للأسى غيرُ حسنِ الصبرِ منْ آسي

وداوِ حزنَكَ بجميلِ الصبرِ، تَبَرأْ منهُ، فما للحزنِ طبيبٌ مُداوٍ إلاّ الصَّبْرُ الجميلُ الشافي.

١٥ ـ والمرءُ، بينَ شريجَي فرحةٍ وأسىً   وواقــفٍ بيـــنَ أرزاءٍ وأعــراسِ

والمرءُ يحيا بينَ شَرٍّ وخيرٍ بينَ فَلْقَتَي حبةِ نباتٍ بينَ مصائبَ وأعراسٍ .

☆☆ ١٢ ـ وقالَ على بحرِ الطويل ، يرثي محمدَ بنَ أَرَسْلانَ ، وينعيهِ إلى الشريفِ ابنِ وهّاسٍ :

١ ـ ألا فـاحمـلا عني إلـى بطـنِ مكـةَ   مُغَلْغَلَةً ، تأتي الشريفَ ابْنَ وهّاسِ

يا صاحبَيَّ خُذا لي هذه الرسالةَ إلى شريفِ مكةَ ابْنِ وهّاسٍ .

٢ ـ بـأنَّ جنـاحَ الصبـرِ منّـي مُقَصَّـصٌ   لِرُزْءٍ يذوبُ الصخرُ منْ حَرِّهِ القاسي

وقولا له : إنَّني أشبِّهُ صبري بطيرٍ ، قَطَّعَتْ مصيبتي جناحَيهِ ، وصهرَتِ الصخْرَ منْ حرارةِ آلامِهِ وقسوتِها .

٣ ـ مضى رجلٌ، لولا ابْنُ عيسى بنِ حمزةَ   لمـا شَـكَّ خَلْـقٌ أنـهُ أفضـلُ النـاسِ

لقد ماتَ رجلٌ ، هو محمدُ بنُ أَرَسْلانَ ، لولا وجودُ عَلِيِّ بْنِ عيسى بنِ حمزةَ وشهادَتُهُ به لما تَمَكَّنَ أَحَدٌ أنْ ينكُرَ أنَّ ذلكَ المتوفّى ، كانَ أحسنَ الناسِ .

٤ ـ هو ابنُ أَرَسْلانَ الذي كانَ حِلْمُهُ   إذا طاشتِ الأحلامُ كالجبَلِ الراسي

إنهُ محمدُ بنُ أَرَسْلانَ الذي لَمَسَ الناسُ أناتَه ورزانتَهُ التي تَزِنُ الجبالَ حِكْمةً إذا خَفَّتْ عقولُ الناسِ .

٥ ـ منَ العلمِ والتقوى تكاملَ قِسْطُهُ   فَحَـلَّ مـنَ العليـاءِ فـي قُلَّـةِ الـرأسِ

وهو في العلمِ والوَرَعِ ذو حظٍّ قريبٍ منَ الكمالِ ، وفي المجدِ رجلٌ شديدٌ في أعلى مراتبِهِ .

٦ ـ لقد كانَ رحّالاً إلى المجدِ، لم يكنْ   كمـا ذكـرَ العبسـيُّ بـالطـاعـمِ الكـاسـي

وكانَ في سبيلِ العزِّ والمجدِ دائمَ الرحلةِ ، ولم يُتِحْ لنفسِهِ أنْ يكونَ كما وصفَ الحطيئةُ الزبرقانَ بنَ بدرٍ هاجياً إياهُ :

دعِ المكـــارمَ ، لا تـــرحـــلْ لِبُغْيَتِهـــا   واقْعُـدْ فـإنـكَ أنـتَ الطـاعـمُ الكـاسـي

٧ ـ وصـادفَ مـا بيـنَ الشـريـفِ وبينَـهُ   تـآخيهمـا فـي الـديـنِ والجـودِ والبـاسِ

وكانَ وَسَطاً بينَ أمرِ الشريفِ ابنِ وهّاسٍ وحالِهِ : في حبِّ الأُخُوَّةِ وفي التَّمَسُّكِ بأصولِ الدينِ والكرمِ والشجاعةِ .

٨ ـ وفي حسناتٍ ، ما ادُّعِينَ لثالثٍ   أبـى ذاكَ فضـلٌ ، لا يُقـاسُ بمقيـاسِ

وفي مكارمَ أُخْرى ، لم تُنْسَبْ لرجلٍ غيرِهما ، لأنَّ المجدَ ذو طبعٍ لم يُرِدْ أنْ يشاركَهُ أحدٌ في فضلِهِ الذي لا يُساويهِ وزنٌ ومقياسٌ .

٩ ـ تَوَلَّى التصافي مَزْجَ روحَيهما معاً   كما شابَ صافي المزنِ صافيةَ الكاسِ

وجَعَلَ المصادقةَ خَلْطَ روحَيهما كما يختلِطُ ماءُ المطرِ الصافيةِ بخمرِ الكأسِ .

١٠ ـ وما فاوَتَتْ فُرسِيَّةٌ قُرَشيَّةً   وليسَ مع التقوى تفاوُتُ أجناسِ

ما تباعَدَتْ بمذهبِهِ فارسيَّةٌ عنْ قُرَيشيَّةٍ لأنَّ الدينَ وتقوى اللهِ ، لا يُفَرِّقُ بينَ الأجناسِ وأنواعِ الناسِ .

١١ ـ ألا فإليهِ ، فانعياهُ ، وَوَصِّيا   بتصويبِ دمعٍ بينَ تَصْعيدِ أنفاسِ

فيا صاحِبَيَّ اذهبا إليهِ ، وخَبِّراهُ بموتِ محمدِ بنِ أرْسَلانَ ، وأشيرا عليه أنْ يجعلَ بكاءَهُ فاصلاً بينَ أنفاسِهِ المتصاعدةِ حزناً وألماً .

١٢ ـ سَراةُ بني السِّبْطَينِ فهو الذي وَشَى   بدائعَ فيهمْ ، فَوَفَّتْ كلَّ قرطاسِ

فهو سَيِّدٌ شريفٌ منْ سلالةِ أبناءِ ابنةِ النبيِّ ﷺ وهو الذي زَيَّنَ تاريخَهُمْ ، وبَيَّنَ محاسِنَ أعمالِهِمُ التي ملأتِ الأوراقَ كلَّها .

١٣ ـ وما زالَ كهفُ الطالبيَّةِ ، يحتمي   بذي ظُفُرٍ للناصبيَّةِ فَرّاسِ

وكانَ ، وما زالَ أهلُ بيتِ بني عليِّ بنِ أبي طالبٍ ، يَلْجؤونَ إلى القويِّ الذي يَصُدُّ الأعداءَ ، ويقضي عليهم .

١٤ ـ يُقَلْقِلُ أحشاءَ الوحوشِ بُروزُهُ   بزأرةِ قَصَّافٍ ووطأةِ هَمَّاسِ

إلى مَنْ تَضْطَرِبُ أحشاءُ الوحوشِ عندما يَظْهَرُ لهم بصيحةٍ قويَّةٍ ودوسَةٍ كسّارةٍ عظامَ فريستِهِ .

١٥ ـ مُحَدْرَجِ فَتْلِ الساعدَينِ غَضَنْفَرٍ   أبيٍّ أبي شبلَينِ أغلبَ هِرماسِ

إلى ذي العضلاتِ الشديدةِ إلى أسدٍ ، يكرهُ الدَّنِيَّةَ إلى ذي ولدَينِ إلى قاهرِ الأعداءِ .

١٦ ـ كنارَينِ في غارَينِ تحت حِجَاجِهِ   إذا ناظِرا عينَيهِ همّا بإيناسِ

ويهُبُّ ولداهُ كلهيبِ نارَينِ منْ عَرينهما القريبِ منهُ إذا لَمَحَا منْ أبيهما نظرةَ دعوةٍ إليهِ .

☆☆ ١٣ ـ وقالَ على بحرِ السريعِ في الرثاءِ :

١ ـ كانَ أبو نصرٍ لواءً ، به   يُنصَرُ أصحابُ ابنِ إدريسِ

لقد كانَ أبو نصرٍ عَلَماً ، ينتصرُ بجاهِهِ أصحابُ المذهبِ الشافعيِّ الذي وضعَ أُسُسَهُ

محمدُ بنُ إدريسٍ .

٢ ـ سيفاً إذا استُفْتِيَ في حادثٍ ليثَ جدالٍ بحرَ تدريسِ

كانَ سيفاً مُصْلَتاً على أعداءِ دينِ اللهِ ، عزَّ ، وجَلَّ ، وأسداً قويًّا في الرَّدِّ على الناسِ في أمرٍ منْ أمورِ الدينِ ، وبحراً محيطاً في علمِهِ وتعليمِهِ .

٣ ـ في طاعةِ اللهِ انقضى عُمْرُهُ والناسُ في طاعةِ إبليسِ

وقد قضى عمرَهُ في طاعةِ اللهِ وتعليمِ دينِهِ ، وقضى الناسُ أعمارَهُمْ في طاعةِ الشيطانِ إبليسَ .

٤ ـ قَدَّسَهُ اللهُ بغُفرانِهِ فلم يزلْ منْ أهلِ تقديسِ

طَهَّرَهُ اللهُ بمغفرتِهِ ذنوبَهُ ، وبقيَ منَ الناسِ الذينَ طُهِّرُوا ، ولم ينقُضوا توبتَهمْ .

* * *

حرف الشين/ ٤٧/ بيتاً

☆☆ ١ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الرثاءِ :

١ ـ أيا ربِّ شَأْ ما شِئْتَ فالحقُّ ما تَشا وإنْ كانَ حَزّازَ الجوانحِ والحشا

أيا ربَّ العِزَّةِ لكَ ما شئتَ أن يكونَ ، فما تشاءُ ، هو الصوابُ ، وهو الحكمةُ ، ولو كانَ جارحاً جوانبَ النفسِ وما تحوي الحشايا .

٢ ـ وأفرِغْ علينا الصبرَ في ما صَبَبْتَهُ وهبْ لِقِوَى قومٍ تساقَطْنَ مَنْعَشا

وصُبَّ علينا الصَّبْرَ في ما أَصَبْتَنَا به ، وامنَحْ ذكراً جميلاً طيِّباً قوماً ، ضَعُفَ بأسُهمْ وشدَّتُهُمْ بنوائِبِ الدهرِ .

٣ ـ تَخَطَّفَتِ الأيامُ عيسى بنَ حمزةٍ وأيدي الليالي ما تَخَطَّتْ خُتَيرِشا

لقد تلاعبتِ الأيامُ بعيسى بنِ حمزةَ ، حتى أتت يدُ الموتِ ، وسلبَتْهُ منا ، وما تركَتْ خُتَيرِشا .

٤ ـ كلا الفَتيَينِ الأزهرَينِ مُضَمَّنٌ وكانا مَعانَ الأُنسِ ، أغبرَ موحِشا

فالفتيانِ عيسى بنُ حمزةَ وخُتَيرِشُ الأبيضانِ النَّضِرانِ ، صارَا طَيَّ قبرَينِ موحِشَينِ بعد أنْ كانَ منزلُهما منزلَ الأُنسِ والسرورِ .

٥ ـ فيا حَسْرَتا لي ، ثم يا حسْرَتا على شريفَينِ هَدّا ركنَ أشرفِ مَنْ مشى

فيا حُزْني على نفسي ، ثم يا حزني على رجلَينِ شريفَينِ كريمينِ ، هَدَمَا ، وقضَيا على حِصْنِ أقوى رجلٍ مشى على الأرضِ .

٦ ـ وأطْهَرِ مولودٍ لأشهرِ والدٍ نَشَا في حجورِ المُلْكِ أكبرِ مَنْ نشا

يا حزني على أطهرِ ولدٍ لأفضلِ والدٍ ، تربَّى في بيوتِ المُلْكِ ، فكانَ أكبرَ وأعظمَ منْ نشأ في تلكَ البيوتِ .

٧ ـ عُلَيِّ بْنِ ذي المَجْدَينِ أعرقِ ناسبٍ تَمَضَّرَ في أنسابِهِ ، وَتَقَرَّشا

فَعُلَيُّ بنُ صاحبِ المجدَينِ : عيسى أفضلِ رجلٍ ، انتسبَ إليه كرامُ الرجالِ ؛ إذْ إنه ، ينتسِبُ إلى مُضَرَ حفيدِ عدنانَ الجدِّ الأعلى لرسولِ اللهِ وقبائِلِ العربِ وإلى قريشٍ إحدى قبائلِ مضرَ .

٨ ـ نَمَتْهُ عرانينُ منَ النَّضْرِ شُمَّخٌ مُساميةٌ أعلى الصَّفيحِ المُعَرَّشا

عَزَّزَتْهُ أسيادٌ منْ سلالةِ النَّضْرِ بنِ كنانةَ أبي قريشٍ أُباةٌ ، بارَتْ أعالي السماءِ المرفوعةِ .

٩ ـ وكانا معاً كالحِلْيَتَينِ ، وشاهما له في طرازِ اللهِ أبدعُ مَنْ وَشَى

وكانا رفيقَينِ كالقرطَينِ ، زَيَّنَهما اللهُ على نَمَطِهِ ، فكانا أبدَعَ زينةً مما زيَّنَ اللهُ تعالى .

١٠ ـ وكانا كَصِنْوَي نَخْلةٍ ، يَكْنُفانِها ويَحْسُنُ جَبَّارُ النخيلِ معَ الأَشا

وكانا كفرعي نخلةٍ ، يأويانِ إليها ، وتَجْمُلُ فروعُ النخيلِ العاليةُ الكبيرةُ وصِغارُها تحتَها .

١١ ـ وكانا أعزَّ الواردينَ مَورداً وأعذبَهُمْ ماءً وأقْصَرَهمْ رِشا

وكانا أشرفَ الذينَ يأتونَ إلى مصادرِ المياهِ ، ويسقونَ الناسَ أعذبَ الماءِ والشرابِ ، وأسرعَ الواردينَ إلى الماءِ لأنَّ حبالَ دِلاهمْ قصيرةٌ وآبارَهمْ ، ليستْ عميقةً .

١٢ ـ وأنْصَعَ خُلْصانَينِ نُصحاً ، ولم أجِدْ مقالاً منَ النُّصَّاحِ إلاّ مُشَوَّشا

وكانا صديقَينِ يُقَدِّمانِ النصحَ مَحْضاً صافياً على خلافِ الأصدقاءِ الذينَ لم تَخْلُ نصائِحهُمْ مِنَ التخليطِ .

١٣ ـ وأملكَ ناموسَينِ للسِّرِّ لو فَشا منَ الصخرةِ الصَّمَّاءِ سِرٌّ لمّا فَشا

وأحفظَ مُطَّلِعَينِ على السِّرِّ الذي لوِ انبثقَ منَ الحجرِ الأصمِّ القاسي خبرٌ سِرٌّ ، وسمعاهُ ، لا يجد مُخْبِراً منهما .

١٤ ـ وغَشَّتْنِيَ الأيامُ في ابْنَي كريمةٍ ولم تَزَلِ الأيامُ للناسِ غُشَّشا

ولم تعامِلْني الأيامُ معاملةَ صِدْقٍ في ابْنَي سيدةٍ عظيمةٍ ، وما زالتْ ، تعاملُ الناسَ معاملةَ غِشٍّ وكَذِبٍ .

١٥ ـ ونوقِشْتُ في استصفاءِ كلِّ نفيسةٍ ومنْ يَتَعَقَّبْهُ الجديدانِ نوقِشا

وجادَلَني بعضُهُمْ في البحثِ عنْ كلِّ شيءٍ غالٍ ، وقد وجدْتُ أنَّ منْ تتوالَ عليه أحداثُ الليلِ والنهارِ ، ويُجادَلْ ، يُسْأَلْ ، وَيُحاسَبْ لقولِهِ ، عليه الصلاةُ والسلامُ : « منْ نوقِشَ الحسابَ عُذِّبَ » [البخاري : ٦٥٣٦] .

١٦ ـ ولنْ يَمْحُوَ الإنسانُ ما خُطَّ حكمُهُ وبالقلمِ المَشَّاقِ في اللوحِ رُقِّشا

ولا يستطيعُ المرءُ أنْ يزيلَ ما خَطَّهُ اللهُ بحكمِهِ ، فقد كتبَ الملائكةُ في اللوحِ المحفوظِ قَدَرَهُ بأقلامِهِمُ المربوطةِ والمُزَيَّنَةِ به .

١٧ ـ وما زالتِ الضرّاءُ تَنْهَسُني ، وكم تعرَّقَ عظمي نابُها ، وتَمَشَّشا

وما زالتْ مساوِئُ الدنيا ، تأكلُ لحمي بأنيابِها ، وكم قضَتْ على عظمي ، فلم تتركْ بهِ شيئاً منْ لحمٍ ، واستخرجَتْ ما فيه منْ مخٍّ .

١٨ ـ رَمَتْنِيَ بنتُ الدهرِ بالمكرِ فيهما كما رَمَتِ الزَّبـاءُ بـالكيـدِ أبـرَشـا

وقد أَوْقَعَتْنِي مصيبةُ الدهرِ بحبائلِ خِداعِها كما أوقعتِ الزَّباءُ جُذَيْمَةَ الأبرشَ في مصيدةٍ منْ مصائدِ غِلِّها .

١٩ ـ وكِدْتُ لِفَرْطِ الغَمِّ أسقطُ في يدي لأجْـذَمِهـا أحكـي بـذاكَ المُـرَقَّشـا

وأوشكْتُ أنْ أَهُمَّ بيدي ، فأقطعَها لِشدَّةِ حُزْني وهَمِّي كما قطعَ المرقَّشُ الأصغرُ إبهامَهُ بأسنانِهِ لشدةِ حبِّهِ فاطمةَ بنتَ المنذرِ .

٢٠ ـ وكانَ لعيسى في فؤادي روضةٌ وكنتُ إلى عيسى منَ الهيمِ أعطشا

وكانَ حبُّ عيسى بستاناً في قلبي ، وكنتُ أحوجَ إليهِ من الإبلِ العطاشِ إلى الماءِ .

٢١ ـ وعهدي بها مُسْتَحْلَسَ النُّسْكِ والتُّقى ومـوقِـظَ جفنَيـهِ ، إذا الليـلُ أغطشـا

وكأني أَلْزَمْتُ نفسي بقربي منه وطاعتِهِ والخوفِ عليهِ نهاراً وإيقاظي إيّاهُ إذا غلبَهُ النومُ ليلاً .

٢٢ ـ وإنَّ لَصيقَ الروحِ مني أخو التُّقى ولا أقـربُ القـاذورةَ المُتَفَحِّشـا

وإني أرى الصاحبَ الحقَّ لزيمَ الروحِ ، لا ينصرفُ عنها مهما كانَ الأمرُ ، ولا أدنو منَ المرءِ ذي الدنسِ والفواحشِ .

٢٣ ـ فقـد بلغَـتْ مني حـزازاتُ فقـدِهِ مبـالـغَ مـا خَلَّيْـنَ منـي مُتَعَيَّشـا

وقد تركَ موتُهُ في قلبي جراحاً كثيرةً حتى لم يبقَ فيه جزءٌ صغيرٌ أعيشُ به .

٢٤ ـ فيـا ليتَنـي قبـلَ استمـاعِ نَعِيِّـهِ تَحَوَّلْتُ مَسْلوبَ الصِّماخَينِ أَطْرَشا

وكم تَمَنَّيتُ أنْ أصيرَ مخروقَ طَبلَتَي الأذنَينِ مختلَسَ السمعِ ، فلا أسمعَ شيئاً .

٢٥ ـ وما أنسَ لا أنسَ الشريفَ خُتَيرشا ولُقيـاهُ مـا بـاضَ الحمـامُ ، وعَشَّشـا

فإنْ أنسَ فلا أنسى الرجلَ الشريفَ خُتَيرِشا ومجالسَتَهُ ما دامَ الحمامُ ، يبني أعشاشَهُ ، ويضعُ بيوضَهُ فيها .

٢٦ ـ هو الفَكِهُ البَسّامُ ، لم تَبْلُ عابساً ولا قَطِبـاً منـهُ الغَـداةَ والعِشـا

فقد كانَ طَيِّبَ النفسِ مبتسماً دائماً ، لا يراهُ أحدٌ كالحَ الوجهِ زاوياً ما بينَ حاجبَيهِ في أيِّ وقتٍ صباحاً أو مساءً .

٢٧ ـ أخو مُلَحٍ تِلعابَةٌ مع صحبِهِ ضحوكٌ إذا المِقدامَةُ الذِّمْرُ أجْهَشا

لا يَنفَكُّ ، يطرحُ جميلَ الكلامِ على أصحابهِ مُلاعباً إيّاهم ضاحكاً مستبشراً إذا أُصيبَ بأمرٍ عظيمٍ مُفْزِعٍ ، مُبْكٍ .

٢٨ ـ ويعرفُ مولاهُ رباطةَ جأشِهِ إذا أُرعِدَتْ منهُ الفريصُ وأُرعِشا

ويعرفُ صاحبُهُ قوةَ قلبِهِ ؛ إذا فوجئَ بشيءٍ ، تضطربُ منهُ العضلاتُ بينَ الجنبِ والكتفِ خوفاً وفزعاً .

٢٩ ـ فما كانَ راشاً منْ قناً مُتَقَصِّفٍ ولا كانَ قِدْحاً باللُّغابِ مُرَيَّشا

فما كانَ رجلاً ضعيفاً كريشِ رماحٍ مُتكَسِّرٍ ، ولا كانَ غِرًّا ، لا تَجْرِبَةَ لهُ كالسهمِ الفاسدِ الذي لم يَلْتَصِقْ به ريشُهُ جيِّداً .

٣٠ ـ ولكنْ دَريراً بالطِّعانِ مدَرَّباً وحشراً على شَقِّ الخصورِ مُحَرَّشا

ولكنهُ كانَ سريعَ العَدْوِ ، تَدَرَّبَ طويلاً على الطعنِ وشَقِّ الخصورِ الدقيقةِ والحصولِ على العدوِّ والإيقاعِ به مهما اتَّخَذَ الحيطةَ والحذرَ .

٣١ ـ ويُؤنَسُ منه الجدُّ ساعةَ أُلقِيَتْ إليهِ عُرًى مصدوقَةٌ ، فتَكَمَّشا

ويَجدُ فيه الأمرُ العظيمُ حينَ تَحْتَدِمُ المعركةُ رجلاً شديدَ العَضَلِ ذا عزمٍ متينٍ متأهِّباً لأَقْوَى عَدُوٍّ .

٣٢ ـ وكَفَّتَ عنْ ساقَيهِ رَفْرَفَ دِرْعِهِ إذا صارخٌ ذَرْواً منَ القولِ ، وطَشا

وتراهُ إذا ما سَمِعَ صَرْخَةً عاليةً منَ القولِ أو دَبَّةً شديدةً على الأرضِ ، يَرْفَعُ أطرافَ دِرْعِهِ عن ساقيهِ ، ويركبُ فرسَهُ ، ويسرعُ إلى المعركةِ .

٣٣ ـ وإنْ وقَعَتْ منهُ على القِرْنِ خَدْشَةٌ فقد سَلَّ منهُ روحَهُ حينَ خَدَّشا

وإنْ أصابَ عَدُوَّهُ بضربَةٍ صغيرةٍ ، يَقْضِ عليه بها ، ويَنْتَزِعْ منهُ روحَهُ في تلكَ الخَدْشَةِ .

٣٤ ـ وإنْ أسمعَ الحَشْوِيَّ رجعَ زئيرِهِ أَبَرَّ على وَحْشِيِّ قاعٍ تَوَحَّشا

وإنْ صاحَ ، فسمعَ رجلٌ رَذْلٌ صَدَى صوتِهِ ، فَرَّ هارباً ، واتَّخَذَ الجانبَ البعيدَ عنِ الناسِ مأوًى لهُ .

٣٥ ـ نِفاراً وذُعراً منْ براثِنِ ضَيغَمٍ إذا بطشَتْ كفّاهُ ، لم يُبْقِ مَبْطَشا

فَزَعاً وخوفاً منْ مخالبِ أسدٍ ، إذا أصابَتْهُ ضربةٌ منْ كَفِّهِ ، لم تَتْرُكْ لهُ مَخْلَصاً دونَ القضاءِ عليهِ .

٣٦ ـ ولا أنسَ تلكَ الأريحيَّةَ للنَّدى كما ثَمِلَ المعلولُ بالراحِ وانْتَشى

وإنْ أنسَ لا أنسَ سِعةَ صَدْرِهِ وحُسْنَ خُلُقِهِ وسرورَهُ في أقدامِهِ على الجودِ ، وأُشَبِّهُ حالَهُ بحالِ المريضِ الذي يُحِسُّ بسرورٍ عظيمٍ حينَ يَشْرَبُ الخمرةَ التي تُنسيهِ بعضَ آلامِهِ .

٣٧ ـ يُرى باسطَ الديباجتَيْنِ لضيفِهِ سَماحاً إذا وجْهُ اللئيمِ تَكَرَّشا

وإنه دائمُ الاستعدادِ لاستقبالِ ضيفِهِ مُتكَرِّماً بسماحةِ وجهِهِ ، على حينِ وجهُ اللئيمِ البخيلِ مُتَقَبِّضٌ كالحٌ .

٣٨ ـ فلم يرضَ إلاّ حُلَّةَ الحمدِ ملبساً ولم يَرْضَ إلاّ صهوةَ العِزِّ مَفْرَشا

ولم يقبلْ لباساً ، يرتديهِ إلاّ لباسَ الحمدِ ، وأبى أنْ يكونَ لهُ مكانٌ ، يجلسُ فيه غيرَ ظهرِ المجدِ .

٣٩ ـ ولا أنسَ منْ أشرافِ عدنانَ مجلساً كنظمِ الثريّا ، نظمُهُ قد تَنَعْنَشا

وإنْ أنسَ لا أنسَ أفضلَ مجلسٍ ، ضَمَّ أبناءَ عدنانَ الذينَ يبدونَ في مواقِعِهِمْ مثلَ كواكبِ السماءِ المتلألئةِ في أبراجِها : بناتِ نعشٍ الكبرى والصغرى .

٤٠ ـ كأيدي سَبَا ، ارْفَضُّوا شَعاعاً ، فشُبِّهوا وكانوا جبالَ المجدِ ، عِهْناً مُنَفَّشا

فحينَ ينتهي مجلسُهُمْ يَتَفَرَّقونَ تَفَرُّقَ أيدي سَبإٍ ، فيشبهونَ الصوفَ المنفوشَ في الخِفَّةِ بعدَ أنْ كانوا في مجتمعِهِمْ كالجبالِ جبالِ العزِّ الراسياتِ .

٤١ ـ وكانَ بهم ناديهِمُ مُتَغَصِّصاً كما اكْتَنَزَ الرُّمّانُ بالحَبِّ ، واحْتَشَى

وإذا ما اجتمعوا بِمَجْلِسِهِمْ فإنهُ يمتلئُ بهمْ ، ويبدونَ فيه مُرْتَصِّينَ منتظمينَ انتظامَ حبِّ الرمّانِ الذي يُشكِّلُ الحَشْوَ فيه .

٤٢ ـ رجالٌ يَوَدُّ العُشْيُ لو بَصَروا بهمْ وكم منْ أُناسٍ وَدَّ رائيهِمُ العَشا

فهمْ رجالٌ كرامٌ ؛ إنْ سَمِعَ بوجودِهِمْ ضعافُ البصرِ ، تَمَنَّوا أَنْ يغدوا مُبْصِرينَ جيِّداً ، فَيَرَوا الكرامَ ، وكم منْ رجالٍ بُصَراءَ ، يَتَمَنَّونَ أنْ يصيروا ضِعافَ البصرِ ، فلا يَرَوا لئامَ الناسِ .

٤٣ ـ هُمُ سُرُجُ النادي إذا ما تقابلَتْ وجوهُهُمُ حولَ المقامِ تَبَشْبَشا

وهمْ أنوارُ النادي ؛ إذا ما التقَتْ وجوهُهُمْ في المجلسِ ازدادَتْ طلاقةُ وجوهِهِمْ ، وزادتِ الناديَ إضاءةً وسروراً .

٤٤ ـ مساميحُ ذَوّادونَ عنْ بيضةِ العُلا وليسوا يصونونَ الحطامَ المُقَمَّشا

فهم ذوو خُلُقٍ حَسَنٍ سَمْحٍ ، يعفونَ عندَ المقدرةِ ؛ يدافعونَ عنْ هامةِ المجدِ ، أباةٌ ، ولا يَقْبلونَ الأمرَ الضعيفَ الفاسدَ .

٤٥ ـ تدافَعَ في بطحائهمْ سيلُ سودَدٍ إليـهِ سيـولُ الأرض قطـرٌ تـرَشَّشـا

تسابقَ في أرضِهِمْ رِجالٌ ، يَسْعَونَ إلى المجد كالسيلِ ، وانضمَّ إليهمْ رجالٌ آخرونَ ، كأنهمْ أمطارٌ ، تَناثرَتْ قطراتُها مِنْ كلِّ الجهاتِ .

٤٦ ـ فيا نظراً شَزْراً رماهُمْ به الرَّدَى كتَحـديـقِ ثُعْبـانٍ تَمَطَّـى لِيَنْهَشـا

فيا رؤيَةً صادرةً عنْ حسدٍ ، أصبْتِ بها هؤلاءِ الرجالَ ، وقضيتِ عليهمْ بالموتِ ؛ كنتِ كنظرةِ ثعبانٍ ، تَمَدَّدَ ليطالَهُمْ بعضَّةٍ منهُ .

٤٧ ـ وإنَّ ابنَ وَهّاسٍ لَسَبّاقُ شأوِهِمْ وذلـكَ فضـلُ اللهِ ، يـؤتيـهِ مَـنْ يَشـا

وقد كانَ ابنُ وهّاسٍ أعلى هؤلاءِ الرجالِ همَّةً ، تلكَ الهِمَّةُ هي فضلٌ منَ اللهِ ، يعْطيهِ مَنْ يشاءُ منْ عبادِهِ .

❊ ❊ ❊

حرف الصاد/ ٦٢/ بيتاً

☆☆ ١ ـ وقالَ على بحرِ السريعِ في الفخرِ :

١ ـ ومُطْعَمِ النَّجْدَةِ لو ناصا غَضَنْفَراً ذا لِبدةٍ ناصا

وكم منْ رجلٍ ذي عزمٍ ، يحبُّ أنْ يُخَلِّصَ مَنْ يَقَعُ في ورطةٍ ، فيقتَحِمُ المكانَ الذي يتقاتَلُ فيه فريقانِ : أحدُهما قويٌّ كالأسدِ ذي الغَبْغَبِ ، فما إنْ يرى صاحِبَ العزمِ والنجدةِ حتى يولِّيَ هارباً منه .

٢ ـ صَكَكْتُهُ عني فانحاصا كَصَكَّةِ الصِّدّيقِ فِنْحاصا

ذلك أنا الذي كثيراً ما ضربتُهُ ، ورَدَدْتُهُ عني ، فارتَدَّ ، وذهبَ بعيداً عني كما ضربَ أبو بكرٍ الصِّدّيقُ ـ رضيَ اللهُ عنهُ ـ رأسَ اليهودِ فنحاصاً .

☆☆ ٢ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في مدحِ الرسولِ ، عليهِ الصلاةُ والسلامُ :

١ ـ أفي أَثَرِ الأظعانِ طرفُكَ شاخصُ وقد شَمَّرَتْ بالظاعنينَ القلائصُ ؟

أخَلْفَ المسافرينَ تُوَجِّهُ بصرَكَ ، وقد أسرعَتْ بهمُ النوقُ طويلةُ الأرجلِ ؟

٢ ـ وقلبُكَ في ما شاءَ منْ رقصاتِهِ وهوجُ المطايا بالحُدوجِ رواقصُ ؟

وقلبُكَ ، يخفِقُ شديداً كأنه ، يرقصُ بِتَراقُصِ النوقِ المسرِعةِ المثقلةِ بأحمالِها ؟

٣ ـ ودمعُكَ رشٌّ في التَّراقي كأنهُ يتيماتُ دُرٍّ ، يصطفيهِنَّ غائصُ ؟

ودمْعُكَ الغزيرُ المتساقطُ على جانِبَي كتفَيكَ كاللآلئِ الفريدةِ التي يختارُها الغائصُ في أعماقِ البحرِ ؟

٤ ـ تَسُبُّ غرابَ البينِ ، وهو مُصَلصِلٌ بما ارْتَعَدَتْ للصَّبِّ منهُ الفرائصُ

وتَشْتُمُ الغرابَ الذي يتوعَّدُكَ بالفراقِ الذي تضطربُ منهُ عضلاتُ صدرِ المُحِبِّ .

٥ ـ تقولانِ : صَكَّ اللهُ وجهَكَ بالنَّوى ولا رَدَّ كفًّا عن فراخِكَ قانصُ

تقولُ أنتَ وقلبُكَ : صَفَعَ اللهُ وجهَكَ أيُّها الغرابُ ، ولا مَنَعَ يداً ، تريدُ أنْ تسلُبَ فراخَكَ .

٦ ـ ولا يومَ إلاّ يومُ واقصةَ الذي تداعَوا بهِ للبَينِ ، والبَينُ واقصُ

ولم يَمُرَّ يومٌ بي مثلُ اليومِ الذي كانَ فاصلاً بينَ المحبِّينَ حينَ تَفَرَّقوا ، والنَّوى محطِّمٌ

كلَّ شيءٍ وراءَهُ .

٧ ـ وباحَ بأسرارِ الخدورِ كأنما   تُري حَدَقَ الصِّيرانِ منها الوصاوِصُ

ومبيحٌ بخفايا النساءِ وراءَ أستارِهنَّ ، إذْ ترى أَعْيُنَهُنَّ ، تلتمعُ في ثقوبِ تلكَ الأستارِ .

٨ ـ عشيةَ غنّى الحاديانِ ، وعُطِّلَتْ   بأمرِ النوى منْ أهلِهنَّ الأداعصُ

ولا أنسى ذاكَ الأصيلَ الذي ردَّدَ به سائقا ناقتي أغنيتَهما ، حينَ رأيا المكانَ الذي كانَ غَنيًّا بأهلِهِ ، قد أصبحَ خالياً منهمُ .

٩ ـ وأجْهَضَهُمْ غادينَ عنْ عَرَصَاتهمْ   تَبَوُّجُ برقٍ بالستارَينِ عارِضُ

فقدِ الْتمعَ البرقُ في تلكَ العشيّةِ التِماعاً شديداً منْ جهةِ وادِيَينِ لِبني ربيعةَ ، فأسرعَ المسافرونَ ، وتركوا ذلكَ المكانَ .

١٠ ـ ولم يبقَ إلاّ للنعامِ والقَطا   أداحِيُّ في وادي الغضى ومَفاحصُ

وأصبحَ وادي الغضى مكاناً للنعام والقطا التي تَحفرُ الأرضَ لتضعَ بيوضَها فيها .

١١ ـ وماءٌ بأعلى التَّلْعَتَينِ أطابَهُ   كرورُ النُّعامَى فوقَهُ والحَصاحصُ

وبأعلى ذلكَ الوادي ينبثِقُ ماءٌ ، يخرجُ منْ مكَانَينِ فيه ، جعلَهُ لذيذاً هبوبُ ريحِ الجَنوبِ المتكرِّرُ عليهِ والمسرِعُ عنه .

١٢ ـ فضالاتُ ما أسأرتْهُ عقائلٌ   عِذابُ الثنايا بالأراكِ شوائصُ

وتَناثَرتْ بقايا ما تركَتْهُ النساءُ ذواتُ الأسنانِ الطَّيِّبةِ منْ أعوادِ الأراكِ التي سَوَّكَتْ أسنانَها بها .

١٣ ـ عقائلُ أرواحُ الذينَ سَبَيْنَهُمْ   غوالٍ ، ولكن عندهنَّ رَخائصُ

وقد مَلَكَتْ هذهِ النساءُ أرواحَ الرجالِ الغاليةَ ، فصارَتْ تلكَ الأرواحُ رخيصةً بملكهنَّ إياها .

١٤ ـ وذو الصبرِ ما يمتاحُ جَمَّةَ صبرِهِ   فينزِفُها إلاّ الفراقُ المُغافصُ

وصاحبُ الصبرِ ، لا يَنْتَزِعُ قُمَّةَ ما يملكُهُ منَ الصبرِ ، ولا يقضي عليها إلاّ البينُ المفاجئُ الذي يقضي على الصبرِ كلِّهِ .

١٥ ـ ووصلُ الغواني ظِلُّ أفنانِ سرحةٍ   تَقَيَّلَ فيها الرَّكْبُ ، والظلُّ قالصُ

وبلوغُ ودِّ الجميلاتِ ودوامُهُ كَفَيْءِ أغصانِ شجرةٍ كبيرةٍ ، اتَّخَذَهُ المسافرونَ قيلولةً ، والفَيْءُ متراجعٌ .

١٦ ـ وعَهْدُ الغواني الآلُ والغَوْلُ، والتي عليهـا نفـوسُ العـالميـنَ حـرائـصُ

ومِيثاقُ تلكَ النساءِ كالسرابِ والمفازةِ البعيدةِ ، لا تُطَمْئِنُ النفوسَ ، وتبقى الغواني رغمَ ذلـك على مُهَـجِ الناسِ عزيزةً .

١٧ ـ وَتَمْنِيـةُ الـدنيـا بَنيهـا كـزُخْـرُفٍ مـنَ القـولِ مِمّـا نَمْنَمَتْـهُ الخـوارِصُ

وآمالُ بني الدنيا ، تشبهُ زخارفَ القولِ المصوغةَ منَ الأكاذيبِ .

١٨ ـ وللزهدِ فيها معشرٌ قد تصاعدوا مـراقِـصَ عِـزٍّ تحتهـنَّ المـراهِـصُ

ويرغَبُ عنِ الدنيا جماعةٌ ، قدِ ارْتَقَتْ منازلَ المجدِ ، واسْتَوَتْ على مراتِبها .

١٩ ـ علَتْ أهلَها أقدامُهُمْ ، وتَنَعَّلَتْ بهـامِ الملـوكِ الصيـدِ تلـكَ الأخـامِصُ

ووطئَتْ أرجُلُهمْ أهلَ الدنيا ، وجعلَتْ رؤوسَ ملوكِها المتكبِّرينَ نِعالاً لأخامصِ أقدامِهمْ .

٢٠ ـ بظـاهـرِهـا بُلْـهٌ ، ولكـنَّ ذهنَهـمْ إذا ذيـقَ عـنْ سـرِّ الحقـائـقِ فـاحـصُ

وهمْ ببادئِ كلِّ أمرٍ ذوو غفلةٍ وحمقٍ ، ولكنهمْ إذا ما كانَ ذلكَ الأمرُ جَلَلًا ، يفتشونَ ، ويبحثونَ عنْ حقيقتِهِ وأسرارِها .

٢١ ـ قلـوبُهُـمْ شَبْعـى رُواءٌ مـنَ التُّقـى تكـادُ تَفَقَّـا ، والبطـونُ خـوامـصُ

وذوو أفئدةٍ ، امْتلأتْ بالعفةِ ، وسُقِيَتْ بالورعِ ؛ توشكُ أنْ تتثقَّبَ بطونُهُمْ جوعاً .

٢٢ ـ ومنْ باتَ مَطْوِيَّ الضلوعِ منَ الهُدى علـى شِبَـعٍ هـانَـتْ عليـه المخـامِـصُ

فمَنْ أتى عليه الليلُ ، وهو طاوٍ جوعاً ، مُمْتَلِئٌ هُدىً وتُقىً ، سَهُلَتْ عليه آلامُ المخمصةِ وخلاءِ البطنِ .

٢٣ ـ قدِ ٱرْتَكزوا في مواطنِ الحقِّ ثُبَّتاً وأكثـرُهُـمْ عـن مـركـزِ الحـقِّ حـائِـصُ

وقد لَزِموا مكانَ الحقِّ ، وثبتوا فيهِ ، وأغلبُ الناسِ ، همُ عن قلبِ الحقِّ مائلٌ .

٢٤ ـ ترى سابحاً منهمْ قَفَا شهواتِهِ كما عادَ مُهْرٌ ، يطلبُ الخيلَ قامِصُ

تجدُ الرجلَ منهمْ ، يجري سريعاً ، وكأنهُ سابحٌ وراءَ رغباتِهِ وأهوائِهِ كما يُسرِعُ الجوادُ النشيطُ خلفَ جماعةِ الخيلِ .

٢٥ ـ تَمَهَّـدَ فـي مُسْتَطْـرَدِ الغَـيِّ سـابقـاً ولكنـهُ عـن حَلْبـةِ الـرشـدِ نـاكِـصُ

وكانَ قد جَعَلَ الضلالَ مَهْداً سابقاً لهُ ، وأحجمَ عن مكانِ الصوابِ والسَّدادِ .

٢٦ ـ حِراصٌ على الدنيا، سِراعٌ وراءَها ومـا الحِـرْصُ إلاّ للـديـانـةِ حـارِصُ

وهم مُتَمَسِّكونَ بحبِّ الدنيا ولذائذِها ، وليسَ الحبُّ والحفاظُ إلاّ على دينِ اللهِ .

٢٧ ـ وما الرِّزْقُ إلاّ قسمةٌ بينَ أهلِها فقابِضُ ما يملا يديهِ وقابِصُ

وكانَ الرزقُ أجزاءً مُوَزَّعةً بينَ أهلِ الدنيا ؛ ومنهمْ مَنْ حظُّهُ ما يملأُ قَبْضَةَ يديهِ ، ومنهمْ مَنْ حظُّهُ امتلاكُ ما يأخذُ بأطرافِ أصابعهِ .

٢٨ ـ فأخلِصْ لربِّ العزَّةِ الدينَ ، واعتصِمْ بهِ ، فلربِّ العِزَّةِ الدينُ خالِصُ

وصافِ ربَّ الجلالةِ دينَهُ ، وتمسَّكْ بهِ ، فإنَّ الدينَ الصافيَ منْ كلِّ شَرٍّ هو دينُ اللهِ ، عَزَّ ، وجلَّ .

٢٩ ـ ولا تَسْتَنِنْ إلاّ بسُنَّةِ مُرْسَلٍ لهُ دونَ كلِّ المرسلِينَ الخَصائصُ

ولا تَتَّخِذْ طريقاً إلاّ طريقَ نَبِيٍّ ذي كتابٍ ، خَصَّهُ اللهُ بصفاتٍ ومعجزاتٍ لهُ فوقَ الأنبياءِ والرسلِ الآخرينَ .

٣٠ ـ وما كانَ إلاّ سابقاً ، وهو سائقٌ وما كان إلاّ بائصاً ، وهو نائصُ

وما كانَ هذا النبيُّ المُرْسَلُ إلاّ مُعَلِّماً ، يُبَيِّنُ للناسِ أحكامَ الدينِ ، ويسبِقُهُمْ إلى أدائِها ، ثم يسوقُهُمْ إلى أعمالِها ، ويراقِبُهُمْ ، ولا يتأخَّرُ عن تنبيهِهِمْ .

٣١ ـ لهُ البيِّناتُ النَّيِّراتُ ، وأَمُّها حياةٌ ونورٌ ما دجا الليلُ وابصُ

تأتيهُ الحُجَجُ والبراهينُ المضيئةُ ، وفي قَصدِها حياةٌ وضياءٌ ، تتلألأُ بنورِهِ ظلمةُ الليلِ .

٣٢ ـ مُتَمَّمَةٌ أَلْقاً ، كأنَّ سُطوعَها سنا البرقِ ، تَزْهاهُ الغمامُ النواشِصُ

وهي كاملةٌ حُسْناً ونوراً ، وكأنَّ شُعاعَها وصدقَها لَمعانُ البرقِ ، ترفَعُهُ طبقاتُ السُّحُبِ المرتفعةُ عنِ الأرضِ .

٣٣ ـ أشافٍ لقلبِ المهتدي ، غيرَ أنّها أشافٍ بقلبِ المُعْتدي ومشاقِصُ

وهي أدويةٌ مُبَرِّئةٌ فؤادَ المُرْشَدَ لدينِ اللهِ ـ عزَّ ، وجلَّ ـ لكنها ثاقبةٌ وجارحةٌ وقاضيةٌ على قَلبِ العدوِّ الظالمِ المهاجمِ بسلاحِهِ العريضِ المسنونِ .

٣٤ ـ كم اصْطَكَّ في تكذيبِهِ رُكَبُ العِدا فَضَجَّ لطولِ الاصْطِكاكِ الدواغِصُ

كم منْ مَرَّةٍ اضطربَتْ رُكَبُ الأعداءِ خوفاً حينَ عوقبوا بتكذيبِ دينِهِ ، وعلا صياحُ عظامِ الرُّكَبِ [صَوَابِينُ الرُّكَبِ] بدوامِ الاضطرابِ والخوفِ .

٣٥ ـ وكم نطَحَتْهُ منْ قُرَيشٍ نواطحُ وكم قَرَصَتْهُ منْ قُريشٍ قوارصُ

وكم منْ مرَّةٍ أصابَتْهُ أسيادُ قريشٍ بضرباتِها ، وكم منْ مرَّةٍ آلَمَتْهُ قوارِصُ ولواذعُ كلامِها .

٣٦ ـ وكم حاولوا أنْ يُزْدَرَى بنقيصةٍ وهيهاتَ أنْ تَغْشى النَّبيَّ النقائِصُ

وكم مِنْ مَرَّةٍ جَرَّبوا أنْ يُعابَ بِمَذَمَّةٍ ، وقد بَعُدَ على النَّبيِّ أنْ يُغَطَّى ، ويُوصَمَ بعيبٍ .

٣٧ ـ ومَنْ يَبْغِ في شمسِ النهارِ غَميصةً فذلكَ مُغْموصٌ ، وما هو غامِصُ

ومَنْ يُرِدْ أَنْ يَجِدَ في شمسِ النهارِ عيباً ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك/ ٤] وذلكَ أملٌ حقيرٌ ، والنَّبيُّ ليسَ بكاذبٍ .

٣٨ ـ ولا نَفْصَ إلاّ روحُ قُدْسٍ كريمةٌ ومنصبُ صِدْقٍ في نزارٍ مُصامِصُ

ولا عَذْبٌ وطَيِّبٌ إلاّ القرآنُ الكريمُ وحاملُهُ جبريلُ ، عليهِ السلامُ ، ولا مركبُ صِدْقٍ إلاّ ظهرُ فرسٍ شديدٍ ، يَتَنَقَّلُ بينَ أفرادِ قبيلةِ نزارٍ .

٣٩ ـ ومِنْ إرْثِ إبراهيمَ حِلْمٌ ونائلٌ خِضَمٌّ وبأسٌ للجماجمِ واهصُ

وكان له مِنْ إرْثِ أبي الأنبياءِ إبراهيمَ أناةٌ وحظٌّ عظيمٌ وشدةٌ كاسرةٌ جماجمَ الكفارِ .

٤٠ ـ إذا كفُّهُ جادَتْ لِقرنٍ بِخَدْشَةٍ فما هي إلاّ طَعْنُ حَرّانَ قاعصُ

وإذا أصابَتْ يَدُهُ خَصْمَهُ بِحَزَّةٍ خفيفةٍ منْ سيفِهِ أو رمحِهِ كانَ أثرُها كطعنةِ رمحٍ شديدةٍ منْ يدِ رجلٍ ، اشْتَدَّ حَرُّ غضبِهِ ، فَقَضَى على عدوِّهِ ، وهو في مكانِهِ .

٤١ ـ ولا تَنْسَ يومَ الفتحِ يومَ تَطَلَّعَتْ نفوسُ قريشٍ ، والعيونُ شواخصُ

ولا يذهَبْ عنْ فكرِكَ يومُ فتحِ مكةَ إذ ظهرتْ أكابرُ قريشٍ ، وعيونُها متجهةٌ نحوَ النَّبيِّ محمدٍ ﷺ .

٤٢ ـ وقالوا : السيوفُ الخزرجيَّةُ وُقَّعٌ وشدَّتْ على أهلِ البطاحِ المُخالِصُ

وقالَتْ قريشٌ : إنَّ السيوفَ التي نراها بأيدي المسلمينَ سيوفُ بني خزرجٍ الشديدةُ ، تُصيبُ أهدافَها ، وتَسُدُّ على أهلِ مكَّةَ المفاوزَ التي ينجو بها المرءُ المحاربُ .

٤٣ ـ فوافاهمُ الحرُّ الخفيضُ جناحُهُ ، فَرَقَّ لهمْ لا الأشوسُ المُتخاوِصُ

فأشرفَ عليهمْ محمدٌ ﷺ الكريمُ المتواضِعُ ، وأشفَقَ عليهم قلبُهُ ، ولا يحنُّ قلبُ المتكبِّرِ الذي يختلِسُ النظراتِ ، ولو كانَ يوجِّهُ وجهَهُ نَحْواً آخرَ .

٤٤ ـ وآثَرَهُمْ بالفَيءِ فَيءِ هوازنٍ على زُمرِ الأنصارِ ، وهي الخوالِصُ

وفَضَّلَهُمْ بالغنيمةِ غنيمةِ قبائلِ هوازنٍ يومَ حنينٍ على جماعاتِ الأنصارِ التي أخْلَصَتْ لهُ الدينَ والوفاءَ .

٤٥ ـ ودَلّى أبو سفيانَ خَلْفَ قذالِهِ عقيصةَ غَدْرٍ ، أينَ عنها العقائِصُ

وأرخَى أبو سفيانَ خصلةَ شعرٍ منْ رأسهِ ملتويةً مُحَمَّلَةً بالمكرِ والغَدْرِ خلفَ رأسِهِ ، لم يكنْ لها شبيهٌ بينَ الضفائرِ .

٤٦ ـ لقد عَقَصَتْها هندُ ، ثم بُنَيُّها مع ابنِ أبيهِ ، وهو صِنْوٌ مُخالصُ

وكانَتْ قد لَوَتْها له زوجُهُ هندُ بنتُ عُتْبَةَ ، ثم ابنُها معاويةُ ثم زيادُ ابنُ أبيهِ الذي كانَ أخاً وفيًّا خالصاً منَ الغدرِ .

٤٧ ـ وناسَتْ على أقفاءِ ذُرِّيَّةٍ ، طَمَتْ بآلِ رسولِ اللهِ منها العوائصُ

وتمايلَتْ هذه الضفيرةُ يميناً ويساراً مشرفةً على أعناقِ سلالةٍ ، علَتْ منها على آلِ رسولِ اللهِ ، عليهِ الصلاةُ والسلامُ ، الشدائدُ .

٤٨ ـ وما لَقِيَ السِّبطانُ منهم كُفًى به مُصاباً ، لهُ صَدْعٌ إلى الشُّمِّ خالِصُ

والذي احتَمَلَهُ ابنا بنتِهِ الحسنُ والحسينُ منهمْ ، حَسْبُهُمْ حُزناً وشدةً ، كانَ منها قَطْعٌ كاملٌ لكرامِ الناسِ .

٤٩ ـ وباضَتْ مراراً فتنةٌ جاهليَّةٌ فكانَ لها في آلِ مروانَ فاقِصُ

ووضَعَتْ هذهِ السلالةُ غيرَ مَرَّةٍ بذورَ الفِتَنِ الجاهليةِ ، كان لأهلِ مروانَ للدولةِ الأمويَّةِ حَظٌّ كبيرٌ منها .

٥٠ ـ مُضَرِّي فراخَ البَغْي مُلْحِمُ صَقْرِها مُقَرْنِصُ بازيها لعينيهِ حائصُ

دَرَّبَ بناتِ الظلم على العُدْوانِ ، فكانَ كَمَنْ يُرَبّي الصقْرَ حتى يصيرَ آكلًا اللحومَ ، ويشتري البازيَ ليصبحَ خبيراً بالصيدِ ؛ يُضَيِّقُ عينيهِ ليُصيبَ الهدفَ .

٥١ ـ أيا ربِّ لي عَضْبٌ منَ الحقِّ مُصْلَتٌ ولي منْ دروعِ العدلِ زَغفٌ دُلامِصُ

فيا ربي لي سيفٌ قاطعٌ مصنوعٌ منْ مَعْدِنِ الحقِّ مرفوعٌ فوقَ الظلمِ ، ولي درعٌ واسعةٌ طويلةٌ منْ دروعِ العَدْلِ ، يتلألأُ ، ويلتمعُ في الظلماتِ .

٥٢ ـ ومُعْتَقَدي اللهمَّ أبلجُ ناظرٌ بعينِ يقينٍ ما لها الشَّكُّ باخصُ

ويا ربي إنّ ديني واضحٌ جليٌّ ، يرى الأمورَ بعينِ الحقِّ ، لا يتسرَّبُ إليهِ الشَّكُّ ، ولا يستطيعُ أحدٌ أنْ يتناولَهُ بسوءٍ .

٥٣ ـ تراثٌ منَ الآباءِ ، وهو لأسرتي تراثٌ إذا رُصَّتْ عليَّ الرصائصُ

وقد وَرِثْتُهُ عنْ آبائي ، وسأُوَرِّثُهُ لأفرادِ أسرتي مهما اشْتَدَّتْ عليَّ الأمورُ .

٥٤ ـ فهلْ تَتَلَقّاني شفاعةُ أحمدَ وعَفْوُ كريمٍ للإساءةِ ماحصُ ؟

فهلْ تَتولاّني شفاعةُ النَّبيِّ أحمدَ وغفرانُ ربِّ العالمينَ الذي يُلْغي كلَّ شَرٍّ وخطإٍ ؟

٥٥ ـ وهل يكشفُ الكشّافُ والفائقُ العَمَى إذا تُلِيَـتْ يـومَ القضـاءِ القصـائـصُ ؟

وهل يستطيعُ كتاباي (الكشّافُ عنْ حقائقِ غوامضِ التنزيلِ وعيونِ الأقاويلِ في وجوهِ التأويلِ) و(الفائقُ في غريبِ الحديثِ) بيانَ حقيقةِ أمري ، ويُزيلانِ الضلالَ عنْ قلوبِ الناسِ يومَ ، يقْرأُ كلُّ فردٍ كتابَهُ ؟

٥٦ ـ يُمِدُّ الكتابُ النورَ والسنةُ السنا متى لُخِّصَتْ في الجامعَينِ اللَّخائصُ

ففي ذلكَ اليومِ سوفَ يرفُدُ القرآنُ الكريمُ والحديثُ الشريفُ الناسَ بالإعانةِ إذا ما بُيِّنَتْ حقائقُ أعمالِهِمُ وما يستحقّونَ عليها منْ ثوابٍ أو عقابٍ .

٥٧ ـ وعوصاءَ منْ شمسِ القوافي اعْتَرَضْتُها أراوِغُهـا عـنْ نفسِهـا ، وأُلاوِصُ

ونظمْتُ قصيدةً جَزْلَةَ الألفاظِ عميقةَ المعاني ذاتَ رويٍّ وقافيةٍ صَعبتَينِ ، بِتُّ أياماً ، أتناولُ منْ أنوارِ القصائدِ وعيونِ القوافي ما أحتالُ عليها فيه ، وأخادِعُها .

٥٨ ـ فـأعطَـتْ بـإذنِ اللهِ مَخْطِـمَ أنفِهـا وذَلَّـتْ بحمـدِ اللهِ منهـا المعـاوصُ

حتى قَدَّمْتُ بفضلِ اللهِ أفضلَها ، وهوّنْتُ بكرمِ اللهِ صعابَها .

٥٩ ـ ومـدحُ رسـولِ اللهِ أخضـرُ مـزيـدٌ بِغـاصَّتِـهِ يَشْتَـطُّ فيـهِ المُغـاوِصُ

ومدحُ رسولِ اللهِ ﷺ أمرٌ ، يَقْبَلُهُ اللهُ تعالى ، ويزيدُ صاحبَهُ بركةً منْ عندِهِ إذا زادَهُ تَبْجيلاً وتكريماً .

٦٠ ـ ومَـنْ فـي كتـابِ اللهِ أكمـلُ مـدحِـهِ فكـلُّ مـديـحٍ ، مـا خـلا ذاكَ ، نـاقـصُ

وقد جَعَلَ اللهُ تعالى في كتابِهِ الكريمِ تمامَ مدحِهِ في غيرِ آيةٍ ؛ فكلُّ مدحٍ لأحدٍ ، لا يُتَوَّجُ بمدحِهِ ، عليه الصلاةُ والسلامُ ، هو ناقصٌ ، لا يؤدِّيهِ حقَّهُ .

❊ ❊ ❊

حرف الضاد/ ٥٥/ بيتاً

☆☆ ١ ـ وقال على بحرِ الطويلِ في المدحِ :

١ ـ كساني أجلُّ الشارعيِّينَ مَلْبَساً كمثلِ سجاياهُ وعرضي أبيضا

لقد أعطاني أفضلُ رجلٍ منْ آلِ الشارعيِّينَ رداءً ، يشبهُ طباعَهُ ، فصارَ حالي به حَسَناً ، وذكرُ الناسِ إيّايَ أبيضَ ناصعاً .

٢ ـ وقالَ : أرى سيفَ البلاغةِ عاطلاً فَصَيَّرني ، لا فُضَّ فوهُ ، مُفَضَّضا

وقالَ لي : ما لي أراكَ يا صاحبَ البلاغةِ وسيفَها ، لا تنظُمُ الشعرَ في هذه الأيام ؟ فَتَنَبَّهَتْ مشاعري بقولِهِ هذا ، واسْتَعَدْتُ القدرةَ على قرضِ الشعرِ ، ودعوتُ اللهَ ـ عَزَّ ، وجلَّ ـ أنْ يديمَ عليهِ فَضْلَهُ بسلامةِ أسنانِهِ لِحُسْنِ كلامِهِ .

٣ ـ فلا زلتُ في أسنى أياديهِ مُغْمَدا ودُمْتُ على أشنى أعاديهِ مُنْتَضَى

وإني لَدائمُ الشكرِ لأفضلِ أعطياتِهِ التي أعيشُ بها ، ودائمُ العداوةِ لأعدى أعدائِهِ ، مصلِتٌ سيفي عليهِمْ .

☆☆ ٢ ـ وقالَ على بحرِ الوافرِ في الوصفِ :

١ ـ أقولُ لنازلِ البستانِ : طوبى لعيشِكَ ، ثم يُسْكِتُني البعوضُ

أقولُ لمنْ يأتي هذا البستانَ الجميلَ : طابَ عيشُكَ ، ولذَّ ، فيسرعُ البعوضُ إليَّ بلسعاتِهِ ، ولا يدعني ، أُتِمُّ حديثي .

٢ ـ يُمَلْمِلُهُ ، فليسَ بهِ قرارٌ ويُثْخِنُهُ ، فليسَ بهِ نهوضُ

يُضْجِرُ منْ يَحُطُّ عليهِ ، فلا يدعُ له هدوءاً ، ويَجْرَحُهُ ، فلا يتركُهُ ، يقومُ ، وينجو منهُ .

٣ ـ حَماهُ قرصُهُ وطنينُهُ أنْ يَبيتَ ، وعينُهُ فيها غموضُ

وكأنَّ المرءَ ، رجاهُ أنْ يُبْقِيَهُ صاحياً ، فصانَهُ منَ النومِ بفضلِ لسعاتِهِ وصوتِهِ المُتَكَرِّرِ .

٤ ـ كأنَّكَ حينَ يهذي بالأغاني تُكَرِّرُ في مسامِعِكَ العروضُ

وكأنَّكَ حينَ يَطِنُّ ، ويُرَدِّدُ أصواتَهُ على وَتيرةٍ واحدةٍ ، تَسْمَعُ أوزانَ بحورِ الشعرِ ، تُكَرَّرُ مراراً .

☆☆ ٣ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الحنينِ إلى مكةَ المكرمةِ والرثاءِ :

١ ـ خليليَّ بالمَعْلاةِ ، هل تَذْكُرانني إذا لاحَ مِنْ نحوِ العراقِ وميضُ ؟

يا صاحبيَّ المقيمَينِ قربَ مكةَ بالحَجونِ ، هل تذكرانِ الزمخشريَّ إذا رأيتُما التماعَ البرقِ منْ جهةِ العراقِ ؟

٢ ـ وهل بكما ما بي ، فإني لِوَمْضَةٍ تألَّقُ منْ نحوِ الحجازِ مريضُ ؟

وهل تُحِسّانِ بما أحسُّ ، فإني لبرقةٍ ، تَلْتَمِعُ في الحجازِ ، مشوقٌ ؟

٣ ـ يطيرُ إلى المَعْلاةِ لي قلبٌ شَيِّقٌ ولكنْ جناحٌ ، لا ينوءُ ، مَهيضُ

وإنَّ قلبيَ المُتَعَلِّقَ بحبِّ ساكني المَعْلاةِ دائمُ الطيرانِ إليهم ، وأجرِّبُ اليومَ أنْ أحقِّقَ الطيرانَ بجناحَيَّ ، فلا أتَمَكَّنُ منْ ذلكَ بسببِ كسرٍ فيهما .

٤ ـ أضِجُّ كما ضَجَّتْ منَ الوجدِ والهٌ على نحرِها ماءُ الشؤونِ يَفيضُ

واصيحُ صياحَ أمٍّ ، تبكي حزناً على ولدِها ، وتسيلُ دموعُها الفيّاضةُ على صدرِها .

٥ ـ غزا مع أبناءِ المقارعةِ ابنُها كميشٌ بما لا يُستطاعُ نهوضُ

وكانَ ابنُها ، قد ذهبَ لقتالِ جماعةِ المُغالبينَ ، وأبلى بلاءً حسناً ، وخَبَرَ الناسُ شدةَ عزمِهِ وصبرَهُ على المكارهِ التي لا يتمكَّنُ غيرُهُ تَحَمُّلَها والانصرافَ عنها .

٦ ـ أخو غَزَواتٍ ، لم يزلْ في غِمارِها يخوضُ على عِلاّتِهِ ، ويخوضُ

وكانَ قد اعتادَ الوقائعَ حتى كُنِّيَ أخا الحروبِ ، وما زالَ يَقْتَحِمُ صعابَها على الرَّغْمِ مما لَقِيَ منها .

٧ ـ أُتيحَ لَهُ كالصقرِ أردعُ باسلٌ يَخُبُّ بهِ رِخْوُ العِنانِ مَروضُ

وكانَ لهُ منْ نعمِ اللهِ فرسٌ حسنٌ قويٌّ ، يشبهُ الصقرَ ، عوَّدَهُ على أنْ يُسْرِعَ بهِ حيناً ، وهو راخي اللِّجامِ ، ويقفَ حيناً ، وهو شادٌّ لِجامَهُ .

٨ ـ فَيَمَّمَهُ منْ تحتِ مَرْفَعِ تُرْسِهِ بسمراءَ فيها كالشِّهابِ وميضُ

ووجَّهَهُ بحركةٍ منْ رمحِهِ ، مَرَّتْ من تحتِ قائمِ مِجَنِّهِ ، فكانَ لها لَمَعانٌ مثلُ لَمَعانِ نَجْمٍ منْ نجومِ السماءِ .

٩ ـ كَميٌّ أصابَتْهُ منَ الحربِ عضَّةٌ وما الحربُ إلا للكماةِ عَضوضُ

وأصابَتْهُ الحربُ بضربةٍ شديدةٍ ، تشبهُ عضَّةَ حيوانٍ مفترسٍ على الرغمِ منْ أنهُ كانَ شاكيَ السلاحِ ، وكانتِ الحربُ وما زالتْ جارحةَ الرجالِ كاملي السلاحِ .

١٠ ـ نَعَوهُ إليها ، فهي طائرةُ الحِجى لأضلاعِها ممّا تَجِنُّ نقيضُ

وأرسلَ رفاقُهُ خبرَ موتِهِ إلى أمِّهِ ، فطارَ عقلُها ، وتَكَسَّرَتْ ضلوعُها ممّا أصابَها حناناً وحزناً .

☆☆ ٤ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في المدحِ :

١ ـ شمسَ الأئمَّةِ لي إليكَ لُبانةٌ   عَظُمَتْ ، ومثلُكَ ، بالعظيمةِ يَنْهضُ

يا شمسَ الأئمَّةِ لي عندكَ حاجةٌ عظيمةٌ ، لا يقومُ بها إلاّ رجلٌ عظيمٌ ، يُشْبِهُكَ .

٢ ـ رَمَتِ الحوادثُ خُطَّةً بي صعبةً   والحُرُّ للخُطَطِ الصعابِ مُعَرَّضُ

لقد رَسَمَتْ لي مصائبُ الزمانِ طريقةً شديدةً ، والإنسانُ الكريمُ الشريفُ ، تَتَربَّصُ بهِ الأمورُ العَسِرَةُ حتى توصلَهُ إلى الأرزاءِ ثم إلى الموتِ .

٣ ـ شاهَدْتُ نَدْوَةَ مَحْفِلٍ مُتضايقٍ   كلٌّ هنالكَ مُرْهَقٌ مُتَقَبِّضُ

حَضَرْتُ جلسةَ مجتَمَعٍ ، كانَ أفرادُها متألِّمينَ ، كُلُّ واحدٍ منهمْ ، يشكو ظلماً ، يختلفُ عنْ ظلمِ الآخرِ .

٤ ـ ما فيهمْ مَنْ ليسَ يُنْكِرُني ، فلا   رأسٌ ، يُهَزُّ ، ولا جناحٌ ، يُخْفَضُ

ولم يُنْكِرْ معرفتي أحدٌ منهمْ ، فإذا ما سُئلوا عني ، كانَ الواحدُ منهم ، يُحَرِّكُ راسَهُ إيجاباً ، ولم يَكُنْ على أحدٍ شِدَّةٌ ، تُجْبِرُهُ على تغييرِ أقوالِهِ .

٥ ـ وأشَدُّ خطبٍ خطبُ أروعَ فاضلٍ   للمنكرينَ مكانَهُ يَتَعَرَّضُ

وأصعبُ مصيبةٍ مصيبةُ رجلٍ شجاعٍ عظيمٍ ، قَلَّلَ منْ مكانتِهِ مَنْ لا قيمةَ لهُ في كلِّ معشرٍ منْ معاشرِ الرجالِ غيرِ المعترفينَ به وبفضلِهِ .

٦ ـ وإذا أخوكَ الحُرُّ ثَمَّ كأنهُ   في سُدْفَةِ الليلِ الصباحُ الأبيضُ

وإذا لَمَسْتَ منْ أخيكَ ورفيقِكَ الشريفِ بادرةَ مساعدةٍ ، وأنتَ في ظلمةِ الليلِ ، كانتْ لكَ بإشراقِها الصباحَ المُنَوَّرَ .

٧ ـ فارتاحَ لي بكرامةٍ ، صَيَّرْتُها   عندي أجَلَّ يدٍ إليَّ تُفَوِّضُ

فاطمأنَّ لي بفضلِ طيبِ نفسٍ ، جعَلْتُها أحْسنَ عطيَّةٍ ، وُهِبْتُها ، فأحسنْتُ التصرُّفَ بها .

٨ ـ وضَرَبْتُها فوقي سُرادِقَ نعمةٍ   غَرَّاءَ ، بالكفرانِ ليسَ يُقَوَّضُ

ورفَعْتُ مكانتَها بقصيدةٍ حَمَلَتْ أسْنَى معاني المدحِ ، إذ إنّ الأُعطيةَ البيضاءَ ، لا تُقابَلُ بالإنكارِ والتجاهلِ .

٩ ـ فَلُبانتي تَبليغُ شكري سمعَهُ ومع الثناءِ له الودادُ الأمحضُ
وحاجتي إليكَ ومطلبي أنْ توصلَ مدحي وشكري إلى سمعِهِ ، وتُرْفِقَهُ بحسنِ الحمدِ والحبِّ الخالصِ .

☆☆ ٥ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ :

١ ـ سلا دارةَ الخَلْصاءِ : كيفَ رِياضُها؟ وما صَنَعَتْ غُدرانُها وحِياضُها ؟
يا صاحبيَّ اسألا محلةَ الصداقةِ المحضةِ : كيفَ حالُ بساتينِها ؟ وماذا عَمِلَتْ سيولُها ومُجَمَّعاتُ مياهِها ؟

٢ ـ أذادَ صروفَ الدهرِ عنهنَّ ذائدٌ وللدهرِ أنيابٌ شديدٌ عضوضُها ؟
أدفعَ أحدٌ مصائبَ الدهرِ عن تلكَ الرياضِ ، وقد كشَّرَتْ عن أنيابِها ذاتِ العضَّاتِ الشديدةِ؟

٣ ـ أمِ اعْتاضَتِ الخَلْصاءُ منْ حالِها التي عَهِدْتُ بِها حالاً ، فساءَ اعتياضُها ؟
أمِ اسْتَبْدَلَتْ أصدقاءَها الخُلَّصَ لِيَحْسُنَ حالُها الذي عرفْتُهُ بآخرينَ ، فكانَ استبدالُها شَرًّا وسوءاً ؟

٤ ـ عَهِدْتُ بها أيّامَ صِدْقٍ ، سَرَرْنَني وساءَ ، كما شاءَ الزمانُ انقراضُها
كانتْ لي بها أيّامُ حُبٍّ وَوُدٍّ خالصٍ ، أسْعَدَتْني ، ثم شاءَ الدهرُ أنْ يكونَ شديداً عليها ، فذهبَ السرورُ ، وانتهتِ السعادةُ .

٥ ـ فما القلبُ إلاّ وَقْدَةٌ واضْطِرامُها ، وما العينُ إلاّ عَبرةٌ وارفضاضُها
فما الفؤادُ إلاّ شعلَةٌ والتهابُها ، وما العينُ إلاّ دمعةٌ واندفاعُها .

٦ ـ كأنْ لم يَضُمَّ الحيُّ فيها التفافَهُمْ كما ضمَّ أجفانَ العيونِ اغتماضُها
كأنَّ الحبَّ الذي كانَ رابطاً بينَهمْ ، لم يَلُفَّ أبناءَ الحيِّ كلَّهُمْ كما يضمُّ الاغتماضُ أجفانَ العيونِ .

٧ ـ كأنْ لم يُعاطِ الشَّرْبُ فيها الرحيقَ مِنْ عَبيدِهِمُ ، بيضُ الوجوهِ عِراضُها
كأنَّ الشاربينَ في تلكَ المجالسِ ، لم يطلبوا منَ السقاةِ الذينَ كانوا ذوي وجوهٍ عريضةٍ بيضاءَ أن يخلطوا الشرابَ برضابِهِمْ .

٨ ـ كأنَّ بياضَ الصبحِ فيها وعرضَهُ وأحسنُ شيءٍ عرضُها وبياضُها
وكأنَّ الصبحَ وبياضَهُ وإشراقَهُ في مجالسِ هذه الدارةِ ، وأجملُ حالٍ للشيءِ هو بياضُهُ وامتدادُهُ .

٩ ـ مراضُ عيونٍ ، يقتلُ الصَّبَّ لحظُها وأقتلُ ألحاظِ العيونِ مِراضُها

وعلى الرغمِ من أنَّ العيونَ كانَتْ ، تبدو كأنَّها مريضةٌ ، فإنّها قَضَتْ بِطَرْفِها على المُحِبِّينَ ، وأمضى قَتْلٍ ، هو توجيهُ النظرِ منَ العيونِ المريضةِ .

١٠ ـ فيا عجباً منْ نبلِها! كيفَ قرطَسَتْ ولم تَخْلُ وقتَ الرمي عنها وِفاضُها ؟

فما أعجبَ سِهامَها ! كيفَ تصيبُ أهدافَها ، وفي جعبتِها الكثيرُ منها ؟

١١ ـ كأقلامِ عبدِ اللهِ في دَوسِها العِدا ولم يكُ إلاّ في الكتابِ ارتكاضُها

وهي في إصابتِها الأعداءَ ، تشبهُ كلامَ عبدِ اللهِ الذي يُخيفُهُمْ قبلَ وصولِهِ إليهم .

١٢ ـ فتًى أسدُ الهيجاءِ طوعٌ لسطوِهِ بأقلامِهِ والمُتْرَعاتُ غِياضُها

وهو شابٌ شجاعٌ ، يأتمرُ أسدُ الحربِ بأمرِهِ الشديدِ ، وأجماتُ الأسودِ الغاصّةُ ، تنتظرُ أوامرَهُ .

١٣ ـ له لمحةٌ تكفي الجوابَ قصيرةٌ إذا ألسنُ الديوانِ ، طالَ اعتراضُها

وهو ذو نظرةٍ سريعةٍ ، تُجزئُ أطولَ جوابٍ إذا أطنَبَتْ ألسنُ مَنْ بديوانِ الملكِ في عرضِ أفكارِها .

١٤ ـ تَذِلُّ المعاني الرَّيِّضاتِ لفهمِهِ إذا عَزَّ أفهامَ الرجالِ ارتياضُها

وإذا صَعُبَ التعبيرُ عنْ بعضِ المعاني على أذهانِ الرجالِ فإنها تأتي ضعيفةً ذليلةً سهلةً على عقلِهِ .

١٥ ـ وكم خُطَّةٍ كالبحرِ كادَتْ لِهَولِها يطيرُ منَ الأكبادِ فيها فُضاضُها

وكم منْ طريقةٍ قويّةٍ محكمةٍ كموجِ البحرِ ، أوشكتْ قلوبُ وأكبادُ العدا أنْ تتناثرَ أجزاؤها خوفاً وهَلَعاً منها .

١٦ ـ تَوَرَّدَها ثَبْتَ الجنانِ بمهجةٍ منَ العارِ لا خوفَ البوارِ امتعاضُها

اقْتَحَمَها عبدُ اللهِ رابطَ الجأشِ والنفسِ غضباً منَ الجبنِ والذَّمِ ورَدًّا له لا خوفاً وفزعاً منَ الهلاكِ .

١٧ ـ فلم تبلغِ الكَعْبَيْنِ منهُ غِمارُها وأغْرَقَ هاماتِ الطِّوالِ مَخاضُها

ولم يتأثَّرْ كعباهُ في شِدَّتِها ، وتَمَكَّنَ منْ إهلاكِ رؤوسِ الرجالِ العظماءِ وإغراقِها في تلاطمِ أمواجِها .

١٨ ـ كأنَّ أمورَ الملكِ لولا اهتمامُهُ عظامٌ ، يروعُ الجابرينَ انهياضُها

فكأنَّ أعباءَ الملكِ الجسامِ ، لولا تدبيرُهُ ، عظامٌ ضعيفَةٌ ، يخافُ الأطباءُ النُّطُسُ الحُذّاقُ عليها منْ أنْ يعودَ إليها كسرُها .

١٩ ـ فللهِ نفسٌ حُرَّةٌ، ما ارتفاعُها لِكِبْرٍ ولا لِلْهَونِ كانَ انخفاضُها

وإني لأدعو اللهَ ـ عَزَّ ، وجَلَّ ـ أنْ يُغَشِّيَ برحمتِهِ هذه الروحَ الطيبةَ العزيزةَ التي لم تكُنْ أنفتُها لِتيهٍ وزَهْوٍ ، ولم يكنْ تواضُعُها لِذُلٍّ وهوانٍ .

٢٠ ـ إلى خيرِ ما سَرَّ الملوكَ انبساطُها وعنْ شَرِّ ما ساءَ الرعايا انقباضُها

ولم تَمُدَّ يدَها إلاّ إلى سعادةِ ما يفرحُ الملوكَ ورعاياها ، ولم تَقْبِضْها إلاّ لردِّ شَرٍّ أو شدةٍ ، تُؤذي الناسَ .

٢١ ـ له هَزَّةٌ ، تُلْقي إليكَ النَّدَى ، ولم يساقِطْ جَنَى الأشجارِ إلاّ انتقاضُها

لهُ حركةٌ ، تدلُّ على سرورِهِ ، تسخو عليكَ بالعطاءِ ؛ ولا تترامى ثمراتُ الأشجارِ إلاّ باضطراب أغصانِها .

٢٢ ـ هَوَتْ نحوَهُ الآمالُ ، تطلبُ عندَهُ تجارةَ إنعامٍ إليها انفضاضُها

تدافَعَتْ إليهِ آمالُ الناسِ طالبةً منه رؤوسَ أموالٍ لإقامةِ تجارةٍ ، يُنْعِمُ عليها اللهُ بالربحِ الحلالِ حينَ يتفرقُ الناسُ بعد البيعِ والشراءِ .

٢٣ ـ شَدَدْتُ إلى أقصى البلادِ عزائمي فكانَ بألطافِ الوزيرِ انتقاضُها

وكنتُ أريدُ السفرَ إلى البلادِ البعيدةِ طالباً الرزقَ ، وهَيَّأْتُ نفسي لذلكَ ، فتقدمَ الوزيرُ بمكرُماتِهِ ، فَرَدَّني عنْ ذلكَ وآواني إلى كنفِهِ .

٢٤ ـ وحيث ترامَتْ بي ركابي فإنها طيورٌ على بابِ الوزيرِ انقضاضُها

وإذا ما سارَتْ بيَ الرواحلُ فإنها طيورٌ ، تحطُّ ببابِ الوزيرِ .

٢٥ ـ وكم منْ قلوبٍ قد بَرَدْتُ بأوبتي إليها ، ولولا أنتَ طالَ ارتماضُها

وكم منْ قلوبٍ مُتَحَرِّقةٍ مشوقةٍ إلى تطييبِ خاطرِها ، كانَ لها ما أرادَتْ بعودتي إليها ، ولولاكَ أيها الوزيرُ ، ولولا أعطياتُكَ إيايَ لبقيَتْ تتوجَّعُ منْ تَحَرُّقِها .

٢٦ ـ ستشكُرُ هذا كلَّ وقتٍ بِجَهْدِها كما شكَرَتْ نُعْمَى السحابِ رياضُها

وستذكُرُ ما صَنَعْتَ لها كلما تذكَّرَتْ ما عانَتْ كما تشكُرُ البساتينُ نعمةَ السحابِ وأمطارَها .

٢٧ ـ زَفَفْتُ إلى كُفْءٍ كريمٍ كريمةً بغيرِ كريمٍ لا يَحِلُّ افتضاضُها

وأسرعْتُ بنظمِ قصيدةٍ جليلةٍ ، قدمتُها إلى رجلٍ عَدْلٍ عظيمٍ ، لا تُنْظَمُ ، ولا تُقْرَأُ إذا لم تكنْ إلا لكَ أيها الرجلُ الكريمُ .

☆☆ ٦ ـ وقالَ على بحرِ المنسرحِ في عزَّةِ نفسِهِ :

١ ـ قد أصبَحتْ جارتي تُجَهِّلُني غداةَ أصبحْتُ بائعاً أرضي

لقد صارَتْ جارتي تصفني بالجهلِ حينَ علمَتْ أني عازمٌ على بيع أرضي .

٢ ـ فقلتُ : ما صَفْقَتِي بخاسرةٍ أبيعُ أرضي ، وأشتري عرضي

فردَدْتُ عليها قائلاً : ما هذهِ البيعةُ ، وما هذا الشراءُ خسارةٌ لي ، بل هي ربحٌ عظيمٌ ، فيه صونُ حالي .

* * *

حرف الطاء/ ٢٢/ بيتاً

☆☆ ١ ـ وقالَ على بحرِ البسيطِ في المدحِ :

١ ـ قِيدَتْ إليكَ فريدَ العصرِ مُقْرَبَةٌ　　فاعملْ بقولِهِمُ : استُكْرِمْتَ فارتبطِ

يا فريدَ العصرِ لقد قُدِّمَتْ إليكَ هديَّةٌ ، هي قصيدةٌ كَفَرَسٍ مِطْواعٍ ، فتمسَّكْ بقولِ أهلِ الأمثالِ : لقد أعطاكَ فلانٌ هبةً ، فاحْفَظْها ، ولا تُفَرِّطْ بها .

٢ ـ خَلَّى الفحولةَ كالخُصْيانِ قائدُها　　وغـادرَ العـربَ العَـرْبـاءَ كـالنَّبَـطِ

قامَ مُرَوِّضُها على تدريبِها جيِّداً حتى جعلَ عظماءَ الرجالِ كالعبيدِ الخُصْيانِ ، وتركَ العَرَبَ الصُّرَحاءَ كأقوامِ العجمِ أخلاطِ النسبِ .

٣ ـ طـائيـةٌ غـاضَـتِ الطـائـيَّ إذ رقِيَـتْ　　صُعْـداً ، وخَلَّـتْ قـوافيـهِ بِمُنْهَبِـطِ

وكانَتْ على نَسَقِ قصائدِ أبي تمامٍ الطائيِّ حينَ صَعِدَتْ مدارجَ مدحِكَ ، فلما تَمَّ لها ذلكَ تركَتْ قوافيَ أبي تمامٍ دونَها نظماً ومكانةً .

٤ ـ يقولُ، وهو يَعَضُّ الكَفَّ منْ حَرَدٍ:　　وَيْلُمِّهـا خُطَّـةً مـنْ أصعـبِ الخُطَـطِ

ويقولُ أبو تمامٍ عاضًّا أصابعَ كفيَّهِ بل كَفَّيهِ غضباً : إني لأدعو على قصائدي ونهجِها بالويلِ والثبورِ لأنها جَرَّتْ إليَّ أسوأَ الطرقِ .

٥ ـ تَحَضَّرَتْ، وتَبَدَّتْ، فهي وسْطَهُما　　ولم يَزَلْ مَجْثَمُ الخيراتِ في الوَسَطِ

وكانَتْ قصيدتي حَضَرِيَّةً بَدْوِيَّةً وَسَطاً بينَ الحضَرِ والبَدْوِ ، ومنَ المعروفِ لدى الناسِ : مكانُ الخيرِ في الوَسَطِ على ما جاءَ في الخبرِ : [(خيرُ الأمورِ أوساطُها) المصنف ٧/ ١٧٩] .

٦ ـ تَبَرَّجَتْ بكلا الوصفَينِ ، فاعْتَدَلَتْ　　لفظـاً ومَعْنًـى بـلا وكـسٍ ولا شَطَـطِ

وتَزَيَّنتْ بزينتَيِ البداوةِ والحضارةِ ، فجاءَتْ معتدلَةً في معانيها وألفاظِها ، لا نقصَ ، يعيبُها ، ولا زيادةَ ، تُضَيِّعُها .

٧ ـ بَرْدَ الرِّضا وجَدَتْ مني، وإنْ نَزَلَتْ　　بي غيرُها تَصْلَ عندي جمرةَ السَّخَطِ

ولمّا أنْشَدْتُها لَقِيَتْ مني راحةَ الرِّضا وبرودةَ القبولِ ، ولو أُنْشِدَتْ لي قصيدةٌ أُخْرَى لأثارَتْ ثائرتي ، وألهبَتْ جمراتِ غضبي .

٨ ـ لأنني ماقِتٌ شعراً ، يُلَفِّقُهُ بنو الزمانِ بِعِلْمٍ غيرِ مُنْبَسِطِ
ذلك لأني كارهٌ قولاً ، شعراً أو نثراً ، يُزَخْرِفُهُ أهلُ الزمانِ بعلمٍ غيرِ ذي قواعدَ وأصولٍ .
٩ ـ يَروعُ أفصحُهُ وقتَ النشيدِ ، فإنْ فَتَّشْتَ تَعْثُرْ على الأبعارِ والنُّقَطِ
يُعْجِبُ السامعَ فصاحةُ لسانِ المنشدِ وبلاغةُ القولِ ، فإنْ أمعنْتَ في النظرِ إليه وجَدْتَ المثالبَ ونقاطَ الضعفِ متناثرةً فيه .
١٠ ـ هذا الكلامُ ، هو الإبريزُ ، ثم إذا جاوزْتَ لم ترَ قولاً غيرَ مختلِطِ
أمّا كلامي هذا ، فهو مثلُ الذهبِ الخالصِ ، وإذا وقعْتَ على غيرِهِ فلا يخلو منَ الخلطِ والمزجِ والتهجينِ .
١١ ـ كأنما لهجةُ الدنيا ، به غَلِطَتْ يا حبذا مثلُ هذا اللحنِ والغَلَطِ
وكأنَّ الدنيا حين اختلطَتْ لغتُها بشعري ، ظنَّتْ أنَّ الخطأَ والغلطَ ، قد تبادَرَ إليها ، وما دَرَى أهلُها أنَّ ذلكَ اللّحنَ والخطأَ والغلطَ هو أحسنُ ما صَنَعَ فيه .
١٢ ـ لا أقبلَ الشعرَ، إنَّ الشعرَ ذو شُعَبٍ، إلاّ على ذلكَ الأسلوبِ والنَّمَطِ
ولهذا الأمرِ لا أقصدُ نظمَ الشعرِ إلاّ إذا كانَ على الطريقةِ السليمةِ القديمةِ .
١٣ ـ ما زلْتُ مشترِطاً في الشعرِ جودَتَهُ فما تَلَقَّيتُ إلاّ فيه مُشْتَرَطي
وما زلْتُ متمسّكاً بجودةِ الشعرِ وتنقيحِهِ شرطاً ، ولا أقبلُ فيهِ إلاّ رأيي ومذهبي .
١٤ ـ مُنَقَّحاتُ زهيرٍ منْ تَسَقُّطِها منْ ناقدِ الشعرِ لم يُعْثَرْ على سَقَطِ
فَمِمّا أراهُ أفضلَ الشِّعْرِ قصائدُ زهيرِ بنِ أبي سُلمى المُهَذَّبةُ الحوليةُ التي لا يجدُ ناقدُ الشعرِ فيها خطيئةً واحدةً ، تُقَلِّلُ منْ قيمتِهِ .
١٥ ـ كم فيه مِنْ وشيِ صنعاءَ ، يتيهُ به كاسٍ ، وكم فيهِ منْ دُرٍّ لِمُلْتَقِطِ
والتي زَيَّنَها بأغلى زينةِ صنعاءِ اليمنِ التي يفخَرُ فيها خَيّاطُ أبرادِها ، واللآلئِ النادرةِ التي جَهَدَ الغواصُ في الحصولِ عليها .
١٦ ـ شابَتْ سلاسَتُهُ الصوغَ المتينَ، فلا مُرٌّ ، فَيُعْفَى ، ولا حُلْوٌ لِمُسْتَرِطِ
امتزجَتْ تلك المعاني العظيمةُ بتراكيبِهِ وألفاظِهِ المختارةِ ، فجاءَتْ لَيِّنَةً ، لا مرارةَ فيها ، فَتُتْرَكَ ، ولا حلاوةٌ شديدةٌ ، تتسارَعُ في الذهنِ دونَ التَّلَذُّذِ بها .
١٧ ـ لقد أحلَّ عُبيدَ اللهِ خالقُهُ منْ كلِّ مأْثُرَةٍ في أوسعِ الخُطَطِ
وقد وضعَ اللهُ ـ عَزَّ ، وجَلَّ ـ في طينةِ عُبيدِ اللهِ جزءاً منْ كلِّ فضيلةٍ ، فكانَ نتاجاً في

أحسنِ الخُلُقِ .

١٨ ـ فالنثْرُ منْ لؤلؤٍ ، لم تَفْتَرِعْهُ يدٌ   والنظمُ منْ لؤلؤٍ في السلكِ مُنْخَرِطِ

فالنثْرُ والشعرُ في مدحِهِ منْ لآلئَ إنْ لم تُسْتَخرَجْ منْ أصدافِها كانَتْ نثراً ، وإنِ اسْتُخْرِجَتْ منَ الأصدافِ ، وثُقِبَتْ ، ثم وُضِعَتْ في أسلاكٍ ، كانَتْ شعراً منظوماً .

١٩ ـ كم قُلْتُ حينَ ركابي في مباءَتها   وحيـنَ سيـفُ زِمـاعـي غيـرُ مُخْتَـرِطِ

وكم منْ قصيدةٍ ، قُلْتُ في منزلةِ عُبيدِ اللهِ كلما عَزَمْتُ على الرحيلِ إليهِ ، وسلَلْتُ سيفَ الشعرِ في مدحِهِ .

٢٠ ـ إنْ ساعَفَتْني إذالاتُ الزمانِ بهِ   فـإننـي سـاحـبٌ أذيـالَ مُغْتَبِـطِ

فإنْ ساعَدَتْني غلباتُ الدهرِ بهِ ، فإنني أجُرُّ أطرافَ ثوبي مَسَرَّةً بما أنا فيهِ منَ العِزِّ .

٢١ ـ فساعَفَتْني ، وزادَتْ في مُساعفتي   فليتنـي منـهُ بَعـضُ الجيـرةِ الخُلُـطِ

ولا أنكِرُ أنهُ ساعَدَني ، وزادَ في مُساعَدَتي ، وأتمنَّى أنْ أكونَ منْ جيرانِهِ الذينَ يُعاشِرُهُمْ .

٢٢ ـ وليتنـي لاثـمٌ فـي كـلِّ شـارقـةٍ   بسـاطَـهُ ، فهـو عنـدي أشـرفُ البُسُـطِ

وأتمنى لو يُتيحُ الزمانُ لي أنْ أقبِّلَ في كلِّ إشراقةِ الشمسِ أرضَهُ لأني أرى أنَّ الأرضَ التي يَطَؤُها ، هي خيرُ أرضٍ .

* * *

حرف العين/ ٢٧٩/ بيتٍ

☆☆ ١ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الشكوى :

١ ـ يُراشقُني أهلُ الزمانِ بأعينٍ ... لو أني صَفاةٌ خِفتُ أنْ أتَصدَّعا

يرميني أهلُ هذا الزمانِ بنظراتٍ حادَّةٍ ، يريدونَ أنْ يَحسُدوني بها ، ولو أني حَجَرٌ صَمٌّ صَلْدٌ خَشيتُ أنْ أتَكسَّرَ .

٢ ـ وذنبي أني كنتُ آدبَ منهمُ ... وأبرَعَ منهمْ في الفنونِ وأبدَعا

ولو سألْتَ عنْ حالي لديهمْ ، لقيلَ لكَ إني ذو خُلُقٍ أفضلَ منْ أخلاقِهِمْ وذو علمٍ أوسعَ من علمهمْ وذو إبداعٍ في فنونِ البلاغةِ ، لا يستطيعونَ تناولَهُ .

☆☆ ٢ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ :

١ ـ أُوَدِّعُ مَرْوَ الشاهجانِ ، وحَسرتي ... على واحدٍ فيهِ الأنامُ جميعا

إنني أتركُ مدينةَ مروَ الشاهجانِ ، وقلبي في حرقةٍ على فِراقِ أحدِ سكانِها الذي أرى مكانتَهُ ، تساوي مكانةَ الناسِ كلِّهمْ .

٢ ـ وذاكَ عَلِيٌّ ذو العُلا السَّيِّدُ الذي ... منَ الظلمِ أنْ يُدعى سواهُ قريعا

فهو عَلِيٌّ صاحبُ الأمجادِ الرجلُ الشريفُ الذي إنْ سُمِّيَ أحدٌ غيرُهُ قريناً في المغالبةِ ، تَكُنْ تلك التسميةُ ظلماً .

٣ ـ لئن لم يُفْجِعْني الغداةَ وداعُهُ ... فلا زِلْتُ بالغُرِّ الكرامِ فجيعا

وإنْ لم يؤلمْني وداعُهُ في هذا الصباحِ ، فإني مازلتُ ، أتَوَجَّعُ من ألمِ فراقِ الكرامِ المَيامينَ .

٤ ـ فيالكَ منْ حُرٍّ متى ما لقيتُهُ ... رَدَدْتُ بلقياهُ الشتاءَ ربيعا

فما أعظمكَ حُرًّا شريفاً ، أرى فيه كلما صادفتُهُ مجيءَ الربيعِ بعدَ الشتاءِ .

٥ ـ فكائنْ بهِ فَرَّجْتُ أشجانَ غربتي ... ولُقِّيتُ روضَ الأنسِ عليهِ مُريعا

فإنْ كانتِ الأحزانُ ، تَلُفُّني بغُرْبتِها ، ولمحْتُهُ يأتي المجلسَ الذي أكونُ فيهِ ، أجدْهُ ، يَنْتَزِعُ الحزنَ ، ويجعلُهُ بُستانَ أنسٍ خالياً منَ الحزنِ والخوفِ .

٦ ـ وكنتُ إذا ما بَرَّحَتْ بي وحشةٌ ... ركضْتُ على فوري إليه سريعا

وكنتُ إذا ما آلَمَتْني بفرقتِهِ وحشةٌ جَرَيتُ تَوًّا نحوَهُ مُسرعاً .

٧ ـ فَصَكَّتْ عصا أُنسي بهِ رأسَ وَحْشتي فَخَرَّتْ لِفيها واليَدَينِ صريعا

وأخذَتْ عصا أنسي رأسَ وحشتي ، وضربَتْها ضرباً شديداً حتى وقعَتْ على وجهِها : فمِها ويَدَيها وأجزاءِ بَدنِها صَرْعى ، لا حِراكَ فيها .

٨ ـ ويضْحكُ سني أنْ أفارقَ غيرَهُ ولكنني أبكي عليه نجيعا

ويبتسِمُ فمي ، وتظهرُ أسناني حينَ أودِّعُ غيرَهُ ، ولكنني حينَ أفارقُهُ أبكي لفراقِهِ دماً لا دمعاً .

٩ ـ وأمحَضُ وُدِّ وُدُّ مَنْ لم تراعِهِ بعينٍ ، ولم تُزْلِلْ إليهِ صنيعا

وأخْلَصُ حُبِّ حبُّ مَنْ لم تسايِرْهُ ، وتحافظْ عليهِ ، ولم تَبْذُلْ لهُ يدَكَ مالاً ومساعدةً .

☆☆ ٣ ـ وقالَ على بحرِ الخفيف في المدحِ :

١ ـ غوطةَ الشامِ ، ويكِ ؛ لا تصفي لي ما كساكِ الربيعُ منْ كلِّ بِدْعَهْ

يا غوطةَ الشامِ ، ويحَكِ ؛ لا تَنْعَتي لي ما وهبَكِ الربيعُ منْ أرديةِ الحسنِ والجمالِ .

٢ ـ إنَّ أبهى ممّا كُسيتِ مراراً ما كساني مِنْ خِلْعَةٍ بعدَ خِلْعَهْ

فإن أحلى ممّا أُعطِيتِ كسوةً مرّاتٍ كثيرةً ما أعطاني منْ كسوةٍ ، يَنْزَعُها عنهُ ، ويُلْقيها عليَّ ، بعدَ كِسوةٍ .

٣ ـ ذو السعاداتِ زادَهُ اللهُ عِزًّا بعدَ عِزٍّ ورِفْعَةً بعدَ رِفْعَهْ

صاحبُ السعاداتِ والمسراتِ الذي أدعو اللهَ تعالى أنْ يزيدَ في مجدِهِ مجداً بعد مجدٍ ومكانةً فوقَ مكانةٍ .

☆☆ ٤ ـ وقالَ على بحرِ البسيط في رثاءِ والدِهِ :

١ ـ هل للذي أخذَ الأيامُ مُرْتجَعُ ؟ أم هل لمرعًى ، رعاهُ الدهرُ مُنْتَجَعُ ؟

هل سبيلٌ إلى رَدِّ ما أخذتِ الأيامُ ؟ أم هل طريقٌ إلى جَعْلِ المكانِ الذي أصابَهُ الموتُ والجَدْبُ يانعاً بالزرعِ والخضرةِ ؟

٢ ـ لا يُعْجبنَّ التئامُ الشَّعْبِ ذا ثقةٍ بدهرِهِ ، عنْ قليلٍ سوفَ يَنْصَدِعُ

لا يَطْمَئِنُّ ذو معرفةٍ وصاحبُ تجربةٍ إلى تَجَمُّعِ أفرادِ الأسرةِ ودوامِهِ لأنهُ يعلَمُ حقَّ العلمِ أنَّ الدهرَ ، عما قريبٍ سوفَ يضربُهُ ، ثم يُفرِّقُهُ .

٣ ـ مضروبةٌ لِتَقَضِّي عُمْرِنا مَثَلاً أنَّ السحابةَ تَحْبو ريثَ تَنْقَشِعُ

وقد ذهبَتْ إبطاءةُ أجزاءِ السحابِ ، وهي تدنو إلى بعضِها ، ثم تتلاشى ، مثلاً لانتهاءِ أعمارِنا .

٤ ـ شريعةُ الموتِ وِردٌ ، مالهُ صَدَرٌ　　والناسُ في حَسْوِ أنفاسِ الرَّدَى شَرَعُ

وسنّةُ الموتِ ذهابٌ إليهِ ، ما فيهِ رجعةٌ ، والناسُ في ترديدِ أنفاسِ الموتِ القصيرةِ الباقيةِ سواءٌ .

٥ ـ كُلٌّ لـهُ نُفْـرَةٌ منهـا ، ويـركُضُـهُ　　مثـلَ القطـاةِ إلـى تَلْقـائهـا سِـرَعُ

وكلُّ حيٍّ ، لابدَّ لهُ منْ قضاءٍ ، يجري إليه سريعاً كما تسرعُ القطاةُ إلى عشِّها .

٦ ـ ما أجمعَ المرءَ للدنيا ! وأجشعَهُ　　لـو كـانَ يُجْـدي عليـهِ الأزلـمُ الجـذَعُ

ما أحبَّ المرءَ الحياةَ الدنيا ! وما أطمَعَهُ على الرغمِ منْ أنَّ ذلكَ الحبَّ وذلكَ الطمعَ ، لا يفيدُهُ لأنَّ الدهرَ ، لا يكبُرُ ، ولا يشيخُ ، يبقى مستعدًّا لأخذِ ما يراهُ أمامَهُ ، ولا يعطي شيئاً .

٧ ـ لا يدفَعُ الموتَ رعديدٌ ولا بطلٌ　　لابُدَّ منهُ ، أكاعَ الناسُ ، أم شَجُعوا ؟

وإنْ جاءَ الموتُ لا يستطعْ جبانٌ أو بطلٌ أنْ يردَّهُ ، فهو أمرٌ ، لابدَّ منهُ ، سواءٌ أعْوَجَّتْ أكواعُ الناسِ ، وصاروا عُجَّزاً أم كانوا أقوياءَ أشداءَ .

٨ ـ فمـا يُقَـدِّمُـهُ مُسْتَقْـدِمٌ نَجِـدٌ　　ولا يُـؤَخِّـرُهُ مُسْتَـأخِـرٌ وَرِعُ

وما يجعَلُ الرجلُ الشجاعُ القويُّ الموتَ سابقاً متقدِّماً ، ولا يؤخِّرُهُ الجبانُ الضعيفُ الذي يحبُّ أنْ تكونَ الأمورُ مستأخِرةً .

٩ ـ لو كانَ يُدْفَعُ أنجى عنهُ مهجَتَهُ　　في قُلَّةٍ ، لا تُرامُ ، الأعصَمُ الصَّدِعُ

فلو كانَ الموتُ ، يُرَدُّ ، لتمكَّنَ الرجلُ القويُّ منْ أنْ يخلِّصَ نفسَهُ منهُ ، وهو في ذروةِ جبلٍ ، لا يُوصَلُ إليها .

١٠ ـ أو طائرٌ في قُدامى ريشِهِ طَرَقٌ　　مُحَلِّـقٌ فـي سُكـاكِ الجـوِّ مـرتفِـعُ

ولو كانَ الطائرُ ذو الريشِ الكثيفِ محلِّقاً في أعالي الجوِّ لما استطاعَ دفعَ الموتِ عنه .

١١ ـ ولو فَدَتْ نفسُ حيٍّ مثلَها لَفَدَتْ　　نفسـي أبـي البـرَّ والمـالَ الـذي أَسَـعُ

ولو قَدَّمَتْ نفسٌ مقدارَ ما تملكُ لردِّ الموتِ ، وقُبلَ ذلكَ منها ، لَقَدَّمْتُ نفسي وطاعتي ومالي الذي أملكُهُ ثمناً لحياةِ أبي .

١٢ ـ يـا ليتهـا اخْتَطَفَتْنـي قبـلَ ميتتِـهِ　　أظفـارُ تَهْلُكَـةٍ دونَـهُ تقـعُ

وكم تَمَنَّيْتُ ، وأتمنى ، لو أخَذَتْني مخالبُ هلاكٍ أخْذَ خِفيةٍ قبلَ أنْ توقعَ الموتَ فيه .

١٣ ـ أو كنتُ نازعْتُهُ كأساً ، تَجَرَّعَها　　ولا كجُـرْعـةِ مَسْقِـيِّ الـرَّدَى جُـرَعُ

وليتني ، تناوَلْتُ كأسَ الموتِ التي كانَ يَرْتَشِفُ منها ، فلا يصيرَ شرابُها كشرابِ الموتِ المُحَتَّمِ شربُهُ .

١٤ ـ وليتَ نعمتَهُ البيضاءَ ، ما انْتُزِعَتْ عني ، وسوداءُ قلبي عنهُ ، يُنْتَزَعُ

وكم تَمَنَّيتُ ، وأتمنّى ، لو بَقيتْ حياتُهُ الصافيةُ ماثلةً أمامي ، لم يأخذْها الموتُ مني ، واقْتُلِعَتْ حَبَّةُ قلبي دونَهُ .

١٥ ـ لقد مضى والدي في إثْرِ والدِهِ فليتَ مُولَدَهُ في إثْرِهِ تَبَعُ

وقد ماتَ والدي بعدَ موتِ جدّي وليتَ موتي كانَ تالياً موتَ والدي .

١٦ ـ فقدْتُ نُصْحاً وإشبالاً ورَفْرَفَةً منْ مُنْعِمٍ كانَ ، يرعاني ، ويصطَنِعُ

وعدِمْتُ بموتِ والدي إرشاداً وإعانةً وحناناً منْ مُكْرِمٍ ، كانَ ، يصونُني ، ويقومُ على تربيتي خيرَ قيامٍ .

١٧ ـ فقدتُهُ فاضلاً فاضَتْ مآثِرُهُ العلمُ والأدبُ المأثورُ والوَرَعُ

عدِمْتُهُ أباً ورجلاً عظيماً ، كَثُرَتْ مكارمُهُ ، فمنها علمُهُ وأدبُهُ الذي كانَ أسوةً وأثراً ، لا ينمحي ، وتُقاهُ .

١٨ ـ أخا طباعٍ مُصَفّاهٍ مناسبةٍ ماءَ السحابةِ ، ما في بعضِها طَبَعُ

وكانَ صاحبَ سجايا صافيةٍ ، تشبهُ المطرَ الذي لا يقربُهُ عيبٌ .

١٩ ـ وذا حقائقَ ، لا في لحظهِ طلبٌ لغيرِ رشدٍ ، ولا في لفظهِ قَذَعُ

وصاحبَ حقٍّ، لا ترى في نَظَرِهِ ميلٌ إلى الغَيِّ، ولا تسمعُ منه كلمةً، فيها سوءٌ أو شرٌّ.

٢٠ ـ لم يألُ ماعاشَ جِدّاً في تُقاهُ، يَرَى أنَّ الحريصَ على دنياهُ مُنْخَدِعُ

لم يُقَصِّرْ في اجتهادِهِ في صونِ دينِهِ ودنياهُ ، وكانَ ، يعتقِدُ أنَّ محبَّ الدنيا ، يميلُ إلى المكرِ والخديعةِ .

٢١ ـ صامَ النهارِ، وقامَ الليلَ، وهو شَجٍ منْ خشيةِ اللهِ كابي اللون مُمْتَقِعُ

كان يقضي نهارَهُ صائماً ، ويصلي ليلَهُ حزيناً خائفاً منَ اللهِ ، وقد علا وجهَهُ الغبارُ حتى تغيَّرَ لونُ وجهِهِ ، فأصبحَ ترابياً .

٢٢ ـ منَ المروءةِ في علياءَ مُتَّسِعٌ صدراً ، وإنْ لم يكُنْ في المالِ مُتَّسَعُ

ويبدو ذا صدرٍ رحبٍ واسعٍ وأخلاقٍ رفيعةٍ حسنةٍ ؛ وتظُنُّهُ ذا مالٍ وفيرٍ ، وهو في الحقيقةِ ، لا يملكُ سعةً منَ المالِ .

٢٣ ـ قريبُ عهدٍ بوخطِ الشيبِ عارضُهُ إثـرَ الشبـابِ ، ووَحْـفُ الشعـرِ مُتَّبَـعُ

وقد بدأَ الشيبُ ، يضعُ بعضَ البياضِ في شعرِ رأسِهِ الأسودِ بعدَ حينٍ قصيرٍ منْ ساعاتِ عصرِ الشبابِ الذي يملأُ الرأسَ أسوداداً بالشعرِ .

٢٤ ـ يـزينُـهُ بلَـجٌ فـي حـاجبَيـهِ كمـا يـزينُـهُ فـي حَفـافـي رأسِـهِ نَـزَعُ

وكانَ ، يزيدُهُ جمالاً وزينةً تَباعُدُ ما بينَ حاجِبَيهِ ، وانحسارُ شعرِهِ الأسودِ عنْ جانِبَي جبهتِهِ .

٢٥ ـ أيَّ امرئٍ فُوفٍ مقرورِ القِرَى رفعوا؟ وأيَّ حَزْمٍ وحِلْمٍ في الثرى وَضَعوا ؟

أيُّ رجلٍ ، علا قومَهُ في كلِّ شيءٍ ؛ يُهَيِّءُ الطعامَ لِضيفانِهِ ، فَيَبْرُدُ أحياناً ، حملوهُ في نعشِهِ ؟ وأيُّ شِدَّةٍ وأناةٍ في الترابِ دفنوها ؟

٢٦ ـ لو حَلَّ ما حلَّ بي منْ فادحٍ جَلَلٍ بـركْـنِ طـودٍ ، لكـانَ الطـودُ ، يَتَّضِـعُ

ولو أصابَ ما أصابني منْ خطبٍ عظيمٍ جانبَ جبلٍ شامِخٍ ، لتكَسَّرَ .

٢٧ ـ بـاتَـتْ على كبـدي نـارٌ مُضَـرَّمـةٌ علـى فـؤاديَ والأحشـاءِ تَطَّلِـعُ

بِتُّ أتحرَّقُ بنارٍ تُلْهِبُ كبدي ، وتُشْرِف على قلبي وأحشائي .

٢٨ ـ ولا مجالَ لداعي الصبرِ في جَلَدي وقـد تَبَسَّـطَ فـي أرجـائِـهِ الجَـزَعُ

ولم أجدْ مَحَلّاً للصبرِ في جسمي لأنَّ الخوفَ منَ الهلاكِ والفناءِ ، قدِ امْتَدَّ في أطرافِهِ .

٢٩ ـ أبيتُ مُرْتَفِقاً ، والوجْدُ يَشْمَلُني كـأنَّنـي بلهيـبِ النـارِ مُلْتَفِـعُ

أقضي ليلي مُتَّكِئاً على مِرْفقي ، والحزنُ ، يَلُفُّني ، وكأنني مُشْتَمِلٌ بلهبِ النارِ .

٣٠ ـ ينبو بيَ المضجعُ الممهودُ جانبُهُ كـأنني فـوقَ حـدِّ السيـفِ مضطجِـعُ

يضيقُ بيَ السريرُ المُهَيَّأُ ، فيردُّني عنهُ ، كأني أستلقي فوق سنانِ السيوفِ والرماحِ .

٣١ ـ وإنَّ ممّـا قـرانـي حسـرةً وأسًـى وضـافـني الكربُ مـنْ جَـرّاهُ والـوَجَـعُ

وكأنني في ضيافةِ الهمِّ والكربِ الذي قَدَّمَ لي التَّأَوُّهَ والحزنَ والآلامَ مأدبةً .

٣٢ ـ أنْ عاقني شَحْطُ دارٍ عنْ تَفَقُّدِهِ حتى مضى ، وهو منْ ذكرايَ مُلْتَدِعُ

ومَنَعَني عنِ السؤالِ عنهُ بُعْدُ الدارِ ، وجاءَهُ الموتُ ، وهو يتألَّمُ منْ تذكرِهِ إيّايَ .

٣٣ ـ يـا حَسْـرَتـا أنني لـم أروِ غُلَّتَـهُ وغُلَّتـي بـزمـانٍ ، فيـه نجتمـعُ

فيا حزني ويا أسايَ فإنني ، لم أستطعْ أنْ أُبَرِّدَ حُرْقَتَهُ وحُرْقتي باجتماعٍ ، يضُمُّنا نحنُ الاِثنَينِ .

٣٤ ـ قد كنتُ أشكو فراقاً قبلُ منقطِعاً   حتى أتيحَ فراقٌ ، ليسَ يَنْقَطِعُ

وكم منْ مرةٍ شكوتُ الفراقَ الذي كانَ ، يفصِلُ بينَنا ، وينقطعُ إلى أنْ حلَّ فراقٌ أبديٌّ ، لا يقطعُهُ الوصالُ .

٣٥ ـ أأرتجي بعدَهُ بالعيشِ مُنْتَفعاً ؟   وأينَ لي بعدَهُ بالعيشِ مُنْتَفَعُ ؟

فهلْ آملُ بعدَ موتِهِ نَفْعاً منَ العيشِ ؟ وأينَ يوجدُ نفعٌ بالعيشِ بعد رحيلِهِ ؟

٣٦ ـ قد كنتُ أطمعُ في أشياءَ أُدرِكُها   فاليومَ لم يبقَ لي في بعضِها طمعُ

وقد كنتُ ، أرجو أنْ أقومَ بأمورٍ ، وأنالُها ، فصرْتُ ، لا أرى أمراً ، أستطيعُ أنْ أحصلَ على بعضِهِ .

☆☆ ٥ ـ وقالَ على بحرِ الوافرِ في الحنينِ إلى مكةَ ومدحِ عُلَيِّ بنِ عيسى :

١ ـ بهِ وبِنِضْوِهِ ، لجَّ النزاعُ   إلى وادٍ ، يُقالُ لهُ : تِضاعُ

لقد ثارَ الشوقُ بالزمخشريِّ وبراحِلَتِهِ إلى الوادي المُسَمَّى : تِضاعُ .

٢ ـ إلى وادٍ ؛ رِباعُ هُذَيلٍ فيه   ألا حبذا تلكَ الرِّباعُ !

إلى الوادي الذي انتشَرَتْ فيه دورُ هُذَيلٍ ؛ وما أحلى وأعذبَ تلكَ الديارَ !

٣ ـ تَصَبَّتْهُ الرِّباعُ وساكنوها   وشاقَتْ نِضْوَهُ فيها الرِّباعُ

وفَتَنَتْهُ تلكَ الديارُ وساكِنوها ، وجعلَتْ فرسَهُ ، تشتاقُ ، وتحنُّ إليها .

٤ ـ يُرَجِّعُ في شبيهِ الخوطِ صوتاً   بإرزامٍ كما حنَّ اليَراعُ

فتراهُ ، يَنفُخُ في عودِ غصنِ الخوطِ ، لتخرجَ منه أنغامٌ ، تُعَبِّرُ عن حنينهِ ، كأنغامِ القلمِ على القِرْطاسِ .

٥ ـ عَشيَّةَ وَدَّعَتْ عيني تِضاعاً   تَعَيَّثَ في مآقيها الوَداعُ

وإنْ أنسَ لا أنسَ ليلةَ ، تركَتْ عيني تِضاعاً مُوَدِّعَةً إياها ، وضاقَتْ ثَنِيَّةُ الوَداعِ بحبسِ الدموعِ ، فَخَلَّتْها ، تَنْهَلُّ مشاركةَ المودِّعينَ .

٦ ـ فأَقْرَحَها بدمعٍ إثْرَ دمعٍ   تتابَعَ ، ما لِواكِفِهِ انقطاعُ

وتتابعَتْ دموعي حتى تَجَرَّحَتْ عينايَ كما تَتَوالَى مياهُ سيلِ الجبلِ التي لا تنقطعُ .

٧ ـ ولاحَ إلى اليفاعِ بعينِ وجٍّ   تناديني ، فلا أقْوَى اليَفاعُ

وألْقى على تلِّ اليَفاعِ نظرةً سريعةً ، ورَدَّتْ عليهِ بنظرةٍ مثلِها ، ثم دعا اللهَ تعالى ألاَّ تَخْلُوَ أرضُ اليَفاعِ منْ سكانِها .

٨ ـ وغنَّى الحاديانِ بِظُعْنِ قيسٍ وجَدَّ إلى مِنًى بهمُ الزِّماعُ

وأطلقَ سائقا هودجِ قيسٍ أغنيةَ الرحيلِ ، واشتَدَّ بالرَّحْلِ العزمُ إلى مِنًى .

٩ ـ وهبَّ البرقُ في أعراضِ نَجْدٍ يجولُ كأنَّهُ سِرٌّ مُذاعُ

والتمعَ البرقُ في أعالي نجدٍ ، يَتَنَقَّلُ منْ مكانٍ لِآخرَ ، وكأنهُ ، ينشُرُ سِرًّا ، أباحَ له صاحبُهُ أنْ يقومَ بإعلامِهِ الناسَ .

١٠ ـ فيالكَ منْ نزاعٍ يزدهيني له غَلَسَ الظلامِ معي نِزاعُ

فيا أيُّها الشوقُ الذي تتفاخَرُ عليَّ ، أشكوكَ إلى اللهِ تعالى ، لأنكَ ، لا تفتأُ ، تخاصِمُني في ظلمةِ الليلِ .

١١ ـ فما عظمي بهِ إلاّ رُضاضٌ وما لحمي بهِ إلاّ قُطاعُ

وصارَ عظمي مُتكسِّراً ولحمي مُتَقَطِّعاً بشدةِ اشتياقي وحنيني .

١٢ ـ كأنَّ خفوقَهُ مشْقٌ بِيُمْنَى رصينِ الخَطِّ ، أنمُلُهُ سِراعُ

وكأنَّ اضطرابَ البرقِ ضربةٌ صادرةٌ عنْ رجلٍ ، يُصدرُ أقوالَهُ ، ويكتبُها بأطرافِ أصابعهِ اليُمْنَى ، فتخرجُ عميقةَ المعاني رقيقةَ الألفاظِ جميلةَ الخطِّ سريعةَ النَّفاذِ .

١٣ ـ زفَفْتَ إليَّ بكراً بنتَ فكرٍ لها منْ فضلِ مَيْسَمِها قِناعُ

وأرسلْتَ إليَّ أُعطيةً جديدةً نتاجَ تفكيرٍ عظيمٍ ، لها غطاءٌ مِنْ حُسْنِ جمالِها .

١٤ ـ أُحِلَّتْ من فؤادي وسْطَ خِدْرٍ تُراعى كيفَ شئتَ ، ولا تُراعُ

وجعلْتُ لها منْ قلبي مكاناً مستوراً ، أحافظُ عليهِ ، وأصونُهُ خوفَ الأعادي ، ولا تخافُ فيه منهم .

١٥ ـ وإنكَ في سماءِ المجدِ شمسٌ وفضلُكَ في مطالِعِها شُعاعُ

وإنكَ شمسٌ في سماءِ العزِّ ، وكرمُكَ في مطالِعِ الكواكبِ نورٌ .

١٦ ـ إليكَ أجلُّ ذي نظمٍ ونثرٍ قطوفُ الخطوِ ، خَلْفَهُ الوَساعُ

وإني أتقدَّمُ إليكَ بأعظمِ قصيدةٍ ، فيها فنونُ الأدبِ نظمِهِ ونثرِهِ ، تأتي إليكَ على جوادٍ واسعِ الخُطا ، تم تترجَّلُ ، وتمشي إليكَ بخطاً قصيرةٍ إجلالاً وتعظيماً لك .

١٧ ـ وما أبهى البدائعِ منكَ بدعاً وخيرُ العشبِ تنبِتُهُ القِلاعُ

وليسَتْ فنونُ الناسِ بأحسنَ مما أحدثْتَهُ منْ بدائعَ ، وأطيبُ العشبِ ، تُنْميهِ أمطارُ السحابِ .

١٨ ـ وما هـاروتُ سحـرُ الشعـرِ إلاّ لـــهُ فيــهِ ابتــداعٌ واختــراعُ

وما كانَ الملكانِ هاروتُ وماروتُ ، هما اللذانِ أحدثا فنَّ الشعرِ وسحرَهُ ، وإنما أخذاهُ بعد أنْ وضعَ أصولَهُ شريفُ مكةَ عُلَيُّ بنُ عيسى [البقرة الآية ١٠٢ ـ الكشاف ١/ ٨٥] .

١٩ ـ إخـاءُ الفضـلِ ، غيـرُكَ يَـدَّعيـهِ ولا نَسَــبٌ هنــاكَ ، ولا رَضــاعُ

وإنكَ أنتَ أخو الفضل أمًا وأباً ، والناسُ ، يحاولونَ أنْ ينتموا إليهِ ، وليسَ لهمْ به قرابةٌ ولا رَضاعٌ .

٢٠ ـ ملكْـتَ رِقـابَـهُ مـنْ غيـرِ شِـرْكٍ فــلا مقســومَ ثَــمَّ ، ولا مُشــاعُ

وكانَتْ لكَ أصولُ الفضلِ كلُّها ، فلم تكنْ أجزاؤُها موزَّعَةً على غيرِكَ أو متروكةً للناسِ ، يَتَّخِذُ منها منْ يشاءُ ما يشاءُ .

٢١ ـ كلامُ الأقدمينَ الجَزْلُ ، ما لي بــه فــي غيــرِ منطقِــكَ استمــاعُ

وكلامُ العربِ القدماءِ القويُّ ، لم يَنطِقْ به غيرُكَ ، ولم يَسْمَعْهُ أحدٌ منْ غيرِكَ .

٢٢ ـ فــإنْ جــاوَزْتُــهُ لُقِّيــتُ قــولاً ركيكــاً منــه أَصْمِخَتــي وِجــاعُ

وتَعَوَّدْتُ على استماعِ كلامِكَ ، فإنِ انصرَفْتُ إلى كلامِ غيرِكَ وقعْتُ على قولٍ ضعيفٍ ، يؤلمُ أذُنيَ .

٢٣ ـ ولـولا أنـتَ ، والهمـمُ اللـواتـي أقَــلُّ نعــوتِهِــنَّ الارتفــاعُ

ولولاكَ ولولا عزائمُ الناسِ التي يتصفُ بعضُها أو أقلُّها بحبِّ التَّقَدُّمِ والسُّمُوِّ .

٢٤ ـ لمَـا تُلِيَـتْ أنـاجيـلُ المعـالـي وعُطِّلَــتِ الــروايــةُ والسَّمــاعُ

لَما قُرِئَتْ كتُبٌ ، تتحدَّثُ عنِ الأمجادِ ، وتوقَّفَتْ ذكرى البطولاتِ ، وانصرفَتْ أسماعُ الناسِ عنها .

٢٥ ـ ومـا أنســى ليـالِيَنـا بِمَـرْوٍ وأيّــامــاً أطــاوِلُهُــنَّ ســاعُ

وإنْ أنسَ لا أنسَ اللياليَ والأيامَ في مروٍ ، كانَ أطولُها ساعاتٍ قليلةً .

٢٦ ـ وروضَ مُجـالسـاتٍ نحـنُ فيهـا كمــا احتكَمَــتْ مشيئَتُنــا رِتــاعُ

ولا أنسَ حسنَ مجالساتٍ ، كانَتْ لنا طوعَ إرادتِنا في المُتْعةِ والسعادةِ .

٢٧ ـ ومَنْ يرتادُ ، لامنكَ المساعي ودونَ النــاسِ أنــتَ لهــا جِمــاعُ

ولم تكنْ تدعو الناسَ إلى مجلسِكَ ، وإنما كانَ الناسُ ، يردونَ إليكَ تِباعاً .

٢٨ ـ كمـنْ طلبَ السقـايـةَ فـي رحـالٍ وفــي رحـلِ ابـنِ راحيـلَ الصُّـواعُ

مثلَ الذي طلبَ الميرةَ والاِرْتِواءَ لِرحالِهِ ، وفي حِمْلِ بنيامينَ أخي يوسفَ ، وهما ابنا راحيلَ ، إناءُ الملكِ .

٢٩ ـ وأنتَ جوابُ (أيٌّ) منْ زيادٍ كماءِ المزنِ صَفَّتْهُ النِّقاعُ

وكُنْتَ ، ومازلْتَ جوابَ كلمةِ (أيٌّ) ؟ التي أطلَقها زيادُ بنُ معاويةَ أبو أُمامةَ النابغةُ الذبيانيُّ في قولِهِ :

فَلَسْتَ بمستبقٍ أخاً لا تَلُمُّهُ على شعثٍ ، أيُّ الرجالِ المهذبُ ؟

[الديوان : ٧٨] ، فكانَتْ مثلَ ماءِ المطرِ الذي ، رَوّقَتْهُ الأرضُ الحرّةُ .

٣٠ ـ فما بكَ غيرُ عصرِكَ منْ مَعابٍ وذلكَ لا يُرَدُّ بهِ المتاعُ

وليسَ لكَ في زمانِكَ ما تُلامُ ، أو تُعابُ فيه ، إذ ليسَ في البحثِ عنْ نقيصةٍ لكَ فائدةٌ لأحدٍ .

٣١ ـ رُزِقْتَ بني زمانٍ لم يَمُصُّوا ثُدِيًّا للكرامِ بها ارتضاعُ

وابتُليتَ بأهلِ زمانِكَ الذينَ لم يجدوا ثَدْياً ، يرتضعونَ منهُ الكرَمَ والعزةَ .

٣٢ ـ سَقَطْتَ على نُويسٍ صَغَّرَتْهُمْ طباعُ أرذالٍ بئسَ الطباعُ

وكانَ نصيبُكَ أنْ تقعَ على أُناسٍ صغارِ النفوسِ ذوي سجايا حقيرةٍ رَذْلَةٍ ، بئْسَتِ السجايا سجاياهمْ .

٣٣ ـ فلا بسطوا إلى المعروفِ كفًّا ولا طالَتْ لهمْ في الخيرِ باعُ

ولم يمدّوا إلى الخيرِ يداً ، ولم تستطعْ أبواعُهُمْ أنْ تصلَ إلى الخيرِ .

٣٤ ـ نُوَيسٌ ، فيهمُ النَّكدُ المُكَنّى أبا الحرمانِ والشُّحُّ المُطاعُ

إنهمْ صِغارُ الناسِ ؛ صفاتُهُمْ : البؤسُ المسمّى أبا القطعِ ، والبُخْلُ الشديدُ المُرادُ أنْ يتحقّقَ و . .

٣٥ ـ نُوَيسٌ وضعُهُمْ شرفٌ وطيدٌ وما تشريفُهُمْ إلاّ اتِّضاعُ

هم صغارٌ لأنَّ المجْدَ الأصيلَ ، قد حَطَّهُمْ عنهُ ، وما محاولتُهُمْ أنْ يصعدوا سُلَّمَ العزِّ إلاّ زيادةً في الانتقاصِ منْ قيمتِهِمْ .

٣٦ ـ ترى ملكاً أشَمَّ ، ولا افتقادٌ لأهلِ الفضلِ منهُ ، ولا اصطناعُ

فإن قيلَ : إنَّ لهمْ ملكاً شريفاً ، قد ماتَ ، لا تجدْ في حرمانِهِمْ إياهُ منْ يحسُّ بفقدِهِ ، أو يذكُرُ لهُ فضلاً عليه .

٣٧ ـ تـرى الصَّنّـاجَ ، تنفعُـهُ يـداهُ وليـسَ لعـالـمٍ بهمـا انتفـاعُ

وإنكَ ، لترى صاحبَ الصَّنْج ، تفيدُهُ يداهُ لِضرب صَنْجَتَيه ، فيطرَبُ لإيقاعِهِما ، ويطرَبُ غيرُهُ لها ، أكثرَ ممّا يستفيدُ بهما صانِعُها .

٣٨ ـ هـمُ شَـرُّ السبـاعِ ، فـلا ذئـابٌ مُكَلَّحَـةُ الـوجـوهِ ، ولا ضِبـاعُ

وهمْ أسوأُ الذئابِ ، فليسوا ذئاباً ، كَشَّروا عن أنيابهمْ ، ولا أخبَثَ منَ السباعِ ، بل همْ ذوو نفوسٍ وطباعٍ . أدنى منْ نفوسِ الذئابِ والضِّباعِ .

٣٩ ـ هـمُ ضَـرَرٌ ، أنـاخَ بغيـرِ نَفْـعٍ عليـكَ ، وربمـا نفـعَ السِّبـاعُ

وهمْ شَرٌّ وسوءٌ ، حطَّ دونَ أدنى فائدةٍ لكَ ، وقد يكونُ السَّبْعُ أحياناً ذا فائدةٍ .

٤٠ ـ مُعَلِّمُهـا ، يحـوشُ عليـكَ صيـداً ونفسُـكَ بينهُـمْ صيـدٌ شَعـاعُ

ومدرِّبُ السباعِ ، يعينُك على صيدِهِ ، وأنتَ بينَهمْ قيدُ افتراسٍ لهمْ وخوفٍ منهمْ .

٤١ ـ فيـا نَهْسـاً بـأنيـابٍ وفَـرْسـاً تُحَكَّـمُ عنـدَهُ الغُبْـسُ الجيـاعُ

تتناوَلُكَ أنيابُهُمْ بِنَهْشِ لحمِكَ ، وأيديهمْ بتكسيرِ عنقِكَ ، وتَتَصَرَّفُ الذئابُ ذاتُ الجلودِ الغَبْرَةِ الجائعةُ بمَنْ حولَها كما تشاءُ .

٤٢ ـ أُتيـحَ ببطـنِ مكـةَ لـي نصيحـاً فيـالـكَ ربَّ نُصـحٍ لـو يُطـاعُ

وهَيَّأَ اللهُ ـ عَزَّ ، وجلَّ ـ لي بوسطِ مكةَ نصيحاً مُرشداً ، وأدعو اللهَ تعالى لكَ بدوامِ قدرتِكَ على الإرشادِ والتزامِ رعيَّتِكَ بطاعتِكَ .

٤٣ ـ وأَنْـذَرَنـي أراقـمَ مـنْ عُجَيـمٍ رُقَـى مَنْهـوشِهـا ، لا تُستطـاعُ

وحَذَّرني اللهُ تعالى منْ أُناسٍ أعاجمَ ذوي شَرٍّ وأذًى ، يشبهُ أذَى أخبثِ الحيّاتِ التي لا تَنْفَعُ تعويذاتُ منْ لَدَغَتْهُ في صرفِ آلامِهِ أو موتِهِ .

٤٤ ـ نُفـاثـاتُ الأذى مـنْ كـلِّ طـاغٍ سمـومٌ ، بـاتَ يَنْفُثُهـا الشجـاعُ

وإنَّ نفخاتِ الشَّرِّ والأذى منْ كلِّ ظالمٍ ، هي سمومٌ ، تشبهُ سمومَ الحيَّةِ الذَّكَرِ .

٤٥ ـ وقـالَ : سَيُبْتَلـى بِـرَعـاعِ قـومٍ كبيـرٌ ، حقُّـهُ فيهـم مُضـاعُ

وأخبرني اللهُ تعالى أنهُ ، سَيَخْتَبِرُ نصيحَ مكةَ وشريفَها بقومٍ أوغادٍ ، يتلاشى حقُّهُ بينَهُمْ ، فلا يظهرُ فيهمْ أبداً .

٤٦ ـ ومـا فـوقَ الثـرى شَجَـنٌ مهـمٌّ كَحُـرٍّ ، حـولَـهُ قـومٌ رَعـاعُ

وليسَ فوقَ الترابِ حزنٌ ذو شأنٍ مثلُ حزنِ كريمٍ ، يعيشُ بينَ أرذالِ الناسِ .

٤٧ ـ ومِصْرُكَ حينَ لا يُنجيكَ عِزًّا فإنكَ فيهِ نَقْعٌ ، وهْوَ قاعُ

وإنَّ موطِنَكَ حينَ لا يُخَلِّصُكَ منَ الذُّلِّ ، هو مكانُ الذُّلِّ ، وأنتَ فيهِ موردُ الهوانِ والمُنْكَرِ .

٤٨ ـ وكم كَرَّرْتُ للعرجيِّ قولاً : (أضاعوني ، وأيَّ فتًى أضاعوا) ؟

وكم منْ مرةٍ ، رَدَّدْتُ قولَ الشاعرِ العرجيِّ الذي اتُّهِمَ بقتلِ مولىً ، وسُجِنَ ، وماتَ في سِجنهِ سنة ١٣٠ هـ ، وكانَ منْ أقوالِهِ :

كأني لم أكُنْ فيهم وسيطاً ولم تَكُ نِسبتي في آلِ عَمْرِو
أضاعوني ، وأيَّ فتى أضاعوا ليومِ كريهةٍ وسدادِ ثغرِ ؟

[الديوان ص ٣٤ و٣٥]

٤٩ ـ أيا طيرَ الأباطحِ خَبِّريني : أما ترتَدُّني تلكَ البِقاعُ ؟

فيا طيورَ مسايلِ الماءِ أجيبيني : أما تريدُ أنْ تَبْتَعِدَ عني تلكَ الخلائقُ الأشرارُ الدَّواهي ؟

٥٠ ـ ألا قولي لِمكةَ : تَرْتَجِعْني فإنْ فعلَتْ ، فدامَ الارْتِجاعُ

وقولي لمكةَ وأهلِها : أعيديهِ إليكِ ، وإنْ رَدَدْتِهِ ، فقد خَلَّصْتِهِ منَ العذابِ ، وحَسُنَ الإرجاعُ .

٥١ ـ أيا طيرَ الأباطحِ بَشِّريني أيُقْضَى لي معَ العربِ اجْتِماعُ ؟

ويا طيورَ مسايِلِ الماءِ زُفِّي إليَّ البُشْرى : أيأتي يومٌ ، فيكونَ لي مع العربِ اجْتِماعٌ وعيشٌ في وُدٍّ ووئام ؟

٥٢ ـ معَ الزُّهرِ الكرامِ بني لُؤَيٍّ همُ للأرضِ مجدُهُمْ طِلاعُ

مع ذوي الوجوهِ البيضِ ، مع الكرامِ بني لؤيِّ بنِ غالبِ بنِ فهرٍ أحدِ أجدادِ النبيِّ ﷺ الذينَ خَلَّفوا عزًّا ومجداً ، ما زالَ ، وما زالوا مُشْرِفينَ على الأرضِ وأهلِها به .

٥٣ ـ صلابُ النَّبْعِ ، ما نصبوا لمكرٍ حبائلَهُمْ ، ولا فيهمْ خِداعُ

فهم ذوو أصلٍ متينٍ ، لم يُقيموا شِرْكاً لخديعةٍ قطُّ ، وليس فيهمْ منْ يَغْدُرُ ، أو يَمْكُرُ .

٥٤ ـ مقاوِلُهُمْ ، وإنْ فَصُحوا مقالا مناصِلُهُمْ إذا حضرَ الوِقاعُ

وذوو أقوالٍ نافذةٍ ، لا يَرُدُّها أحدٌ لأنها ذاتُ فصاحةٍ وبلاغةٍ ، تشبهُ سنانَ الأسلحةِ القاطعة ؛ تضربُ الأعداءَ ، وتقضي عليهم عندَ اشتدادِ الحربِ .

٥٥ ـ وحِصْنُهُمُ المُطَهَّمةُ المَذاكي حصونُهُمُ المنيعةُ لا القِلاعُ
وتصونُهُمْ خيولُهُمْ ضامرةُ الخصورِ كاملةُ الجمالِ ، وتمنَعُ عنهمْ أذى الأعداءِ ، وليستِ الأبْنِيةُ في الجبالِ ، هي التي تحميهمْ .
٥٦ ـ إذا ما شِحْتَ طفلاً منْ شظاهُمْ فقد جاءَ التَّنَمُّرُ والمَصاعُ
إذا ما أبعَدْتَ طفلاً عنْ أتباعِهِمْ والدخلاءِ عليهمْ ، فقد أخبرْتَ أنْ حلَّ الغضبُ ، وحلَّ معهُ القتالُ .
٥٧ ـ وإنْ ألقيتَ سُوطاً في حِماهمْ فَثَمَّ الاِعْتِصامُ والاِمْتِناعُ
وإنْ رميتَ قضيباً في أرضِهمْ ، فذاكَ إنذارٌ دعاءٌ إلى الوقايةِ منكَ والكفِّ عنكَ .
٥٨ ـ سَيُرْمَى بالحصا عنك المُناوي ويحمي دونَ بَيضتِكَ الدفاعُ
سَيُضْرَبُ بالحجارةِ الصغيرةِ مُعاديكَ ، ويصونُ المدافعُ عنكَ ما تحتَ قلنسُوَتِكَ الحديديةِ .
٥٩ ـ وفي سرعاتِهِمْ ، ما لو دعاهُمْ هَلُمَّوا إلى مبارزتي ، لِكاعُ
ولو ناداهُمْ ، وهم على ظنهمْ سَرْعَى إلى القتالِ : تعالوا إلى قتالي ، لما اتَّجهوا نحوَهُ .
٦٠ ـ أبو الحسنِ بْنُ ذي المجدَينِ عيسى عُلَيٌّ ذلكَ البطلُ الشجاعُ
فهو أبو الحسنِ بنُ عيسى صاحبُ الشرفَينِ : شرفِ النسبِ وشرفِ الرئاسةِ رئاسةِ أهلِ مكةَ ، هو عُلَيٌّ ذلكَ البطلُ الشجاعُ .
٦١ ـ قناةُ الدينِ رُكِّبَ منهُ فيها سِنانٌ ، يَسْتَحِرُّ بهِ القِراعُ
ورمحُ الدينِ ، وسلاحُهُ ، وُضِعَ منْ عُلَيٍّ ، له سِنٌّ حادَّةٌ ، يَشْتَدُّ بها القتالُ .
٦٢ ـ وذلكَ وحدَهُ كافٍ وَلِيًّا حَمَى الأنفَ ، ما مَعَهُ ضَياعٌ
وهو وحدَهُ مُجْزِئٌ في القتالِ راعٍ ، يَصونُ السَّيِّدَ ، فلا يضيعُ بصحبتِهِ أحدٌ .
☆☆ ٦ ـ وقالَ على بحرِ الخفيفِ في المدحِ :
١ ـ لي ربيعٌ ، وللأنامِ ربيعٌ وردُ خَدَّيكَ لي ربيعٌ مُريعُ
أنا والناسُ سواءٌ : لي ربيعٌ ، ولهمْ ربيعٌ ؛ أمَّا ربيعي فهو خدّاكَ الورديّانِ المشرقانِ بنورِ الشبابِ .
٢ ـ وردُ خَدَّيكَ ، ليسَ يمضي ، ويمضي كلُّ وردٍ إذا تقضّى الربيعُ
ولا يذهبُ وردُ خدَّيكَ بانتهاءِ فصلِ الربيعِ ، أمّا ربيعُ الناسِ فهو منقضٍ بانقضاءِ فصلِ الربيعِ .

٣ ـ أنتَ لي روضةٌ ، متى قيلَ : بِعْها بِـريـاضِ الـرُّبـا أُقـلْ : لا أبيـعُ
وأنت حديقتي ؛ إن قالَ لي أحدٌ : أتبيعُها ، بِعْها ، وبكم تبيعُها ؟ أردُّ عليه : لا ، ولن أبيعَ .

٤ ـ مُـرْ بمـا يُشتكَـى أطيعُـكَ فيـه إنـنـي للحبيـبِ عبـدٌ مطيـعُ
افرضْ عليَّ ما تريدُ ، ولو كانَ ما يشتكي منه الآخرونَ شديداً ، ألتزِمْ بتنفيذِهِ ، لأني أرى أنَّ منْ يحبُّ يكنْ عبداً لحبيبِهِ .

٥ ـ أنا إنْ تَدْعُني على ضعفِ جسمي مثـلُ رَجْـعِ الصَّـدَى إليـكَ سـريـعُ
وأنا بفضلِ اللهِ ذو خِفَّةٍ ، تشبهُ رَجْعَ الصوتِ ، إنْ ناديتَني ، تَرني أمامَك مسرعاً .

٦ ـ لَقَّبـوا مُسْلِمـاً صـريـعَ الغـوانـي ثـمَّ إنـي لمُقلتَيـكَ صـريـعُ
لَقَّبَ الناسُ مُسْلِمَ بنَ الوليدِ بنِ عبدِ الملكِ صريعَ الغواني [الأعلام ج ٧/ ٢٢٣] ، وأُلَقِّبُ نفسي صريعَ عينيكَ .

٧ ـ لسـتُ أسطيـعُ كـلَّ هجـرِكَ هـذا كلِّـفِ المتسهـامَ مـا يستطيـعُ
وليسَ لي قدرةٌ على هذا الهجرِ منكَ ، وليتكَ ، تعاملُ منْ أحبَّكَ مُعامَلةً ، يَقْدِرُ عليها .

٨ ـ دمعُ عيني ، كفى شفيعاً ، فهل تَقْـ ـبَـلُ أم ليـسَ لـي إليـكَ شفيـعُ ؟
وها هي دموعي دليلُ شقائي ، فهل تُجْزِئُ لتكونَ سبيلاً لرضاكَ عني ، أم إنكَ لا تريدُ وسيطاً بيني وبينكَ ؟

٩ ـ أنـا ذو عفـةٍ ونُسْـكٍ ، ولكـنْ شـاطـرٌ فـي هـوى المـلاحِ خليـعُ
وإنني صاحبُ عزَّةِ نفسٍ وتُقًى ، وإنْ صَبَوتُ ، فإنني في حبِّ الحسانِ أضعُ عني ثوبَ الحياءِ ، وأبدو ذا أقسامٍ متفرقةٍ .

١٠ ـ صنعوا بي صنيعَ فخرِ المعالي بِعِـداهُ ، وهـو الصنيـعُ الشنيـعُ
وقد عاملني الناسُ معاملةَ فخرِ المعالي بأعدائِهِ وخصومِهِ ، وعاملَني منْ أهوى معاملةً كريهةً قبيحةً .

١١ ـ هو بئسَ الصنيعُ فيهمْ ، ولكنْ هـو لـلأوليـاءِ نعـمَ الصنيـعُ
وهو بنظرِ الأعداءِ شرُّ الرجالِ ، وبرأيِ الأصدقاءِ خيرُ الناسِ .

١٢ ـ هـو لـلأوليـاءِ أرْيٌ مَشـورٌ وهـو للحـاسـديـنَ سُـمٌّ نقيـعُ
وهو للأصحابِ عَسَلٌ مُصَفًّى ، وللأعداءِ الحاسدينَ سُمٌّ قاتلٌ .

١٣ ـ إنَّ مثلَ الأميرِ فخرِ المعالي شرفِ الملكِ في الملوكِ بديعُ

إنَّ التفكيرَ بِشبيهِ الأميرِ فخرِ المعالي شرفِ الملكِ في الملوكِ أمرٌ مُسْتحدَثٌ جديدٌ عليهمْ .

١٤ ـ واحدٌ ليسَ من جميعِ المعاني فيهمُ واحدٌ ، وفيهِ الجميعُ

وقد جمعَ صفاتِ المجدِ في الملوكِ ، وكانَ واحداً في أعمالِهِ .

١٥ ـ مذهبٌ مُرْتَضًى لسانٌ ذليقٌ راحةٌ سمحةٌ فؤادٌ شجيعُ

فطريقُهُ مقبولٌ ، ولسانهُ فصيحٌ طَلْقٌ ، ويَدُهُ كريمةٌ ، وقلبُهُ قويٌّ عندَ الشدةِ .

١٦ ـ هذهِ أربعُ الخِصالِ اللواتي كلُّ مجدٍ ، منها لهُ التفريعُ

هذه الصفاتُ الأربعُ ؛ كلُّ صفةٍ منها ، لها أجزاءٌ ، ولكلِّ جزءٍ منها عزٌّ رفيعٌ .

١٧ ـ سيبُهُ واصلٌ بغيرِ سؤالٍ أهوَنُ السَّقْيِ عندَهُ التشريعُ

فعطاؤهُ ، لا ينقطعُ دونَ أن يُسألَ ، وأسهلُ الوِرْدِ : إدراكُهُ دونَ شدّةٍ أو مشقَّةٍ .

١٨ ـ وكأنَّ العطاءَ منهُ المُثَنّى بيتُ شعرٍ ، يزينُهُ التصريعُ

وكأنَّ عطاءَهُ ، لا يَتِمُّ إلاّ إذا كانَ لهُ ثانٍ أو ثالثٌ ، وهو مثلُ بيتِ شعرٍ ، يُجَمِّلُهُ مجيءُ عروضِهِ كضربهِ لَفْظاً وَوَزْناً .

١٩ ـ يَتَّقي الكبرياءَ عِلْماً بأنْ لم يؤثرِ الكبرياءَ إلاّ الوضيعُ

يَحذَرُ الزَّهْوَ والتيهَ عِلْماً منهُ أنَّ مَنْ يُفَضِّلُ التيهَ ، هو الحقيرُ الدنيءُ .

٢٠ ـ إنَّ أولى الرجالِ بالمجدِ حُرٌّ خافضٌ للجناحِ ، وهو رفيعُ

إنَّ أحقَّ الرجالِ بالشرفِ رجلٌ ، عزيزُ النفسِ ، متواضعٌ ، ذو مكانةٍ عاليةٍ .

٢١ ـ رَشَّحَ المُلْكُ مَعْشَراً غيرَ أنْ لم يُشْبِهوهُ ، وهو الأعزُّ القريعُ

وكأنَّ المُلْكَ قد ربَّى جماعةً ، وأهَّلَهُمْ ليكونَ منهمُ المَلِكُ ، فكانَ فخرُ المعالي مُختاراً منهمْ ، ولم يُشْبِهوهُ بصفةٍ منْ صفاتِهِ .

٢٢ ـ وإذا ما التلاعُ أنْبَتْنَ مَرْعًى لم يضارعْ سَعْدانَهُنَّ الضريعُ

وإذا ما رأيتَ أراضيَ ، قدِ امتدّ عليها نباتُ العشبِ الأخضرِ ، فلا تشبهُ خُضْرَتُهُ الغَضَّةُ النَّضْرةُ خُضْرةَ نباتِ الضريعِ المائلِ إلى السوادِ الذي لا تقربُهُ الدوابُّ لخبثِهِ .

٢٣ ـ ذا السعاداتِ أنتَ شاهقُ عزٍّ شامخٌ ، يفرَعُ الجبالَ منيعُ

فيا صاحبَ الخيراتِ والمسراتِ ، أنتَ رجلٌ ، ذو مجدٍ عالٍ ، أبيٌّ ، تعلو الجبالَ ،

لا يستطيعُ أحدٌ أنْ يُطاوِلَ عِزَّكَ .

٢٤ ـ صِنْوُكَ الغَيثُ طبَّقَ الأرضَ خِصْباً   فاكتَسَى الوهدُ وَشْيَهُ والربيعُ

فأخوكَ ، بل شقيقُكَ المطرُ الذي ملأَ الأرضَ خُصوبةً ، وارْتَدَى الوادي والربيعُ به لباساً مُزَيَّناً .

٢٥ ـ تركَ العشبُ فاحماً كلَّ تلٍّ   شَيَّبَ الثلجُ رأسَهُ والصقيعُ

ولما حلَّ الصيفُ ، صارَ العشبُ في كلِّ ربوةٍ أسودَ شديدَ السوادِ ، ولما جاءَ الشتاءُ بَيَّضَ الثلجُ وشدةُ البردِ رؤوسَ الرُّبا .

٢٦ ـ خَفِيَتْ مُدَّةً سرائرُ قلبٍ   للأرضِ حتى أذاعَهُنَّ مذيعُ

واسْتَتَرَتْ زمناً أسرارُ الأرضِ ، فلم تبُحْ بأسرارِها حتى حلَّ الربيعُ ، فنشَرَ أسرارَها .

٢٧ ـ رجَّعَ الطيرُ في الغناءِ فهزَّ الـ   أغْصُنَ ذاكَ الغناءُ والترجيعُ

وردَّدَتِ الطيورُ أغانيَها ، فحَرَّكَ الغناءُ وترديدُهُ أغصانَ الشجرِ .

٢٨ ـ وغدا العندليبُ يدعو إلى النُّزْ   هةِ ، والعندليبُ داعٍ سميعُ

ودعا العندليبُ الناسَ في الصباحِ داعياً الطبيعةَ والخَلْقَ إلى التَنَزُّهِ ، وكانَ العندليبُ ، وما زالَ منادياً ، يُسمِعُ منْ حولَهُ النداءَ ، ويُطاعُ .

٢٩ ـ فارضَعِ الدَّرَّ مِنْ ثُدِيِّ الأماني   وثرى الأرضِ للغمامِ رضيعُ

فاشرَبِ اللبَنَ الغزيرَ منْ أثداءِ أمنياتِكِ ، وارتَوِ بها ، كما تشربُ الأرضُ منَ السحبِ الماءَ الغزيرَ .

٣٠ ـ لا تُضِعْ جِدَّةَ الزمانِ وفضلاً   عندَهُ سائرُ الفضولِ تضيعُ

ولا تَتْرُكْ أحداثَ الزمانِ الجديدةَ وخيراتِهِ ، فإنْ أضَعْتَ شيئاً منها ، فإنَّ كلَّ الخيراتِ ، تضيعُ منكَ .

٣١ ـ واملأِ الدسْتَ منْ جمالكَ ، وانْشُرْ   بالأيادي حديثَ مجدٍ ، يَشيعُ

واجمعْ في بيتِكَ ومجلسِكَ مكارمَ مِنْ أخلاقِكَ ، وفَرِّقْ أعطياتِكَ ، تَكُنْ حديثَ عزٍّ منتشراً في البلادِ وأهلِها .

٣٢ ـ جادَ شعري لأنَّ كفَّكَ جادَتْ   لي ، والشعرُ للعطاءِ تبيعُ

ولقد حَسُنَ قصيدي بمدحِكَ لأنَّ يَدَكَ سَخَتْ عليَّ ، وإنَّ الشعرَ تابعٌ واصفٌ العطاءَ .

٣٣ ـ رَصَّعَ اللهُ للحمامةِ طوقاً   فلهذا غناؤها ترصيعُ

ولقد خَلَقَ اللهُ للحمامةِ طوقاً زينةً لها ، ولهذا الأمرِ كانَ ترديدُ غنائِها ألحاناً عذبةً .

٣٤ ـ أنـا مَـنْ وقَّـعَ الأميـرُ بـأمنـي   مـنْ زمـانـي ، وحسبـيَ التـوقيـعُ

وأنا مَنْ أمرَ الأميرُ فخرُ المعالي بأعطياتٍ لي ، فكانَتْ أمناً وسكناً لي في حياتي ، وكانَ أمرُهُ كفايةً لي .

☆☆ ٧ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في الرثاءِ :

١ ـ الشمـسُ قـد سُـدَّتْ مطـالِعُهـا   والشهـبُ قـد خفيَـتْ لـوامِعُهـا

كأنَّ الشمسَ ، قد غُطِّيَتْ ، فلم نَرَ أشِعَّتَها ، وكأنَّ الكواكبَ والنجومَ ، قد سُتِرَتْ ، فلم تظهرْ لنا بوارِقُها .

٢ ـ لفجيعـةٍ نُسِيَـتْ لِشـدَّتِهـا   فـي كـلِّ نـاحيـةٍ فجـائعُهـا

لِمأساةٍ لِقَسْوَتِها سَلاَ الناسُ في كل مصرٍ آلامَهُمْ .

٣ ـ قد غابَ مجدُ الملكِ ، فافترَقَتْ   فِـرَقُ العـلا إذ غـابَ جـامعُهـا

قد رحلَ مجدُ الملكِ ، وتَفَرَّقَتْ جماعاتُ العزِّ والمجدِ لأنَّ منْ دعاها إلى التَّجَمُّعِ ، قد ذهبَ عنها .

٤ ـ خلَّـى ربـاعَ الملـكِ خـاليـةً   قفـراً مُشَيَّـدُهـا ورافعُهـا

وتركَ منازلَ الملكِ فارغةً ، ليسَ فيها ديّارٌ بانٍ ومُقيمٌ .

٥ ـ قـد أقفَـرَتْ منـهُ مصـايِفُهـا   وتعطَّلَـتْ منـهُ مـرابِعُهـا

فإنْ حلَّ الصيفُ ، فلا تجدُهُ فيها ، وإنْ أتى فصلُ الربيعِ ، فلا ترى فيها شيئاً منْ زينتِهِ .

٦ ـ يـا دوحـةً للمجـدِ بـاسقـةً   فـرعـاءَ ، رَيـبُ الـدهـرِ قـاطِعُهـا

فيا شجرةَ المجدِ والعزِّ الطويلةَ ذاتَ الفروعِ الكثيرةِ ، لقد أتى إليها الموتُ ، فقطعَها .

٧ ـ يـا سـرحـةً خَضَـدَتْ ذوائبَهـا   كـفُّ الـرَّدَى ، شُلَّـتْ أصـابعُهـا

ويا أيتها الشجرةُ الطويلةُ ليِّنَةَ الأغصانِ غَضّةَ الأوراقِ لقد فاجأكِ الموتُ ، فَلَوى فروعَكِ بأصابعِ كَفِّهِ ، وإني لأدعو اللهَ تعالى أنْ يُصيبَها بالشللِ .

٨ ـ يـا حسـرَتـا لشبيبـةٍ طُـوِيَـتْ   مـنْ بعـدِ مـا نُشِـرَتْ بـدائِعُهـا

ويا لوعتي على شبابٍ ذهبَ ، وذهبَ معهُ ذكراهُ ، وما مضى على تَفَتُّحِ رَيعانِهِ وقتٌ طويلٌ .

٩ ـ كـانَـتْ كـأبهـجِ روضـةٍ ، كُسِيَـتْ   زهـراً يَـروعُ الطـرفَ رائعُهـا

وكان جمالُ ذلكَ الشبابِ مثلَ أحلى حديقةٍ ، أُلبِسَتْ رداءً زهراً ، يجعلُ خالقُها العينَ

تُسَبِّحُ اللهَ ، ـ عزَّ ، وجلَّ ـ .

١٠ ـ جـاءَ النَّعِـيُّ ، فلـم يُصِـبْ أُذُنـاً   إلاّ ، وقـد صُمَّـت مسـامعُهـا

وأتى مَنْ ينقلُ خبرَ موت مجدِ الملكِ إلى الناسِ ، فاصابَ أُذُنَ كلِّ سامعٍ بالصَّمَمِ لشدةِ وقعِ الخبرِ عليه .

١١ ـ ووجدْتُ في قلبي وفي كبـدي   حُـرَقـاً كمثـلِ النـارِ سـاطِعُهـا

وأحسسْتُ في قلبي وكبدي آلاماً مُبَرِّحةً كآلامِ حروقِ النارِ التي ارتفعَ لهيبُها .

١٢ ـ والعيـنُ تبكـي للفـراقِ ، ومـا   رَضِيَـتْ بغيـرِ دم مـدامعُهـا

وبدأتِ العينانِ ، تبكيانِ فراقَ مجدِ الملكِ ظانَّةً أنها ، تُهَدِّئُ من حُزْنِها ، فما قبِلَتْ مجاري غُدَدِ دمعِها ماءً دمعاً ، وإنما اشترطَتْ أن يكونَ الدمعُ دماً .

١٣ ـ ذهبَـتْ بقيَّـةُ أسـرةٍ ، خُلِقَـتْ   حَبْسـاً علـى كـرمٍ طبـائِعُهـا

وهامَتْ نفوسُ بقيّةِ أفرادِ أسرتِهِ على وجوهها لأنها ، خُلِقَتْ ، وعاشتْ رَهْنَ جودِ سجايا مجدِ الملكِ .

١٤ ـ يُـزري بعقـلِ الشيـخِ نـاشِئُهـا   ويَـرُدُّ رأيَ الكهـلِ يـافِعُهـا

وصارتْ ، يَعيبُ صغيرُ الأسرةِ فكرَ كبيرِها ، ويدفعُ غلامُها اعتقادَ كهلِها .

١٥ ـ كـم مـنْ معـاشِـرَ فـي ظـلالِهِـمْ   وسَمَـتْ رقـابَهُـمْ صنـائعُهـا

كم منْ جماعاتٍ ، وضَعَتْ أسيادُها علاماتٍ على رِقابِها دليلاً على أنها ، تعيشُ في كَنَفِها .

١٦ ـ تُـرْدي مَضَـرَّتُهـا العُـداةَ كمـا   تُحيـي مَـواليَهـا منـافِعُهـا

تُهلِكُ شِدَّتُها الأعداءَ مثلَ ما تردُّ فوائدُها أصحابَها إلى الحياةِ .

١٧ ـ صرعَ الـرَّدَى منهـا أسـودَ شَرًى   مـرهـوبـةً ، سُقِيَـتْ مصـارِعُهـا

وأصابَ الموتُ منْ هذهِ الأسرةِ رجالاً أشداءَ مثلَ أسودِ وادي نجدِ المخوفِ المَرْوِيَّةِ جوانبُهُ .

١٨ ـ إنَّ المنـايـا مثـلُ سـائمـةٍ   أرواحُنـا أبَـداً مـراتِعُهـا

إنَّ أيديَ الموتِ ، تشبهُ إبلاً ، ترعى أرواحَنا ، وكأنها ، تتَغَذَّى بها .

١٩ ـ مـا تَقْتَضينـا غيـرَ أنفسِنـا   فكـأنَّ أنفسَنـا ودائِعُهـا

فما تُطالِبُنا إلاّ بأنفسِنا ، وكأنَّ أنفسَنا وأرواحَنا ودائعُ لها ، تستردُّها متى تشاءُ .

٢٠ ـ ترقى إلى ذي التاجِ في جبلٍ عــالٍ ، فمــا ذو التــاجِ مــانِعُهــا

تصعَدُ إلى الملكِ صاحبِ التاجِ ، وهو في برجِهِ العالي ، فلا يستطيعُ الملكُ أنْ يمنَعَها منَ الصعودِ أو منَ التصرُّفِ في شيءٍ .

٢١ ـ كلّا ، ولا الجيشُ الذي خفقَتْ رايـــاتُـــهُ للحـــربِ دافِعُهـــا

لا ، ولا يستطيعُ الجيشُ الخارجُ إلى الحرب ، خفّاقَةً راياتُهُ أن يدفَعَ أيديَ الموتِ .

٢٢ ـ المـرءُ ، يـرقـدُ تحـتَ غفلتِـهِ ووفـــاتُـــهُ ، تَســري طــلائعُهــا

والإنسانُ ، ينامُ في جَهالَتِهِ ، ولا يدري أنّ بوادِرَ الموتِ ، تسيرُ إليهِ .

٢٣ ـ قــوسُ الــرَّدى أبــداً مُــوَتَّــرةٌ نحــوَ الــوَرَى ، والــدهــرُ نــازِعُهــا

وقوسُ الموتِ مشدودٌ وتَرُها ومهيّأٌ نحو الناسِ دائماً والدهرُ ، هو الذي يقضي بقَطعِها .

٢٤ ـ دنيـاكَ ، لـم يـربَـحْ بهـا أحـدٌ إلاّ فتـــى بـــالـــدينِ بـــائِعُهـــا

وإنَّ الحياةَ الدنيا ، لا يكسَبُ بها امرؤٌ إلاّ إذا كانَ ، يَتَّقي اللهَ في تجارتِها .

٢٥ ـ قـد نـالَ بعـضَ الملـكِ مـالكُهـا وأصـــابَ كـــلَّ الملـــكِ قـــانِعُهـــا

وقد حصلَ مالكٌ على بعضِ متاعِها ، وحَصلَ الراضي بما قَسَمَهُ اللهُ لهُ على كلِّ ما رامَهُ .

٢٦ ـ وأجــلُّ مــا يمشــي علــى قــدمٍ فــي الأرضِ ســاجِــدُهــا وراكِعُهــا

وأعظمُ إنسانٍ ، يسيرُ على الأرضِ منْ يَتَمَسَّكُ بدينِهِ ، فهو دائمُ الركوعِ والسجودِ للهِ ـ عَزَّ ، وجلَّ ـ .

٢٧ ـ والـــديـــنُ حُلّتُـــهُ إذا حُـــرِقَـــتْ فـــالخـــاشـــعُ التَّـــوّابُ راقِعُهـــا

ويجعَلُ رداءَهُ الدينَ إذا تَمَزَّقَتْ ثيابُهُ ، لأنَّ أخا الدينِ المتواضعُ الذي يرضى برقعِ أثوابِهِ .

☆☆ ٨ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ :

١ ـ أيا أكْتَبَ الفُرْسِ، الكتـابـةُ رتبـةٌ رفيعــةُ مقــدارٍ ، ومنــكَ ارتفــاعُهــا

أيا أحذَقَ كاتبٍ منْ كُتّابِ بني الفُرْسِ ، إنَّ فَنَّ الكتابةِ ذو مكانةٍ عاليةِ الشأنِ ، وأنتَ الذي جعلْتَ لها هذه القيمةَ .

٢ ـ وإنــكَ والكُتّــابَ شمــسٌ وأنجــمٌ وللشمسِ أنْ يُخْفِيَ النجومُ شعُاعُها

وإنكَ شمسٌ ، والكتّابَ نجومٌ ، تدورُ حولَكَ ، وللشمسِ حُظْوَةٌ ، انفردَتْ بها ، وهي

أنْ تَسْتُرَ أشعتُها النجومَ .

٣ ـ وما كُتُبُ السلطانِ إلاّ كتائبٌ فلا يَتَوَلاّهُنَّ إلاّ شجاعُها

وما أوامرُ الملكِ إلاّ مجموعةُ جيوشٍ ، ولا يَتَسَلَّمُ قيادتَها إلاّ أقوى رجالِها .

٤ ـ يُراعُ الشجاعُ الرابطُ الجأشِ كلما تَقَلَّبَ في يُمْنَى شجاعٍ يراعُها

يَخافُ البطلُ قويُّ القلبِ كلما رأى تَحَرُّكَ القلمِ في يدِ ذلكَ الرجلِ العظيمِ منْ إصدارِ حكمٍ عليهِ .

٥ ـ لكِ اللهُ منْ كفٍّ تقومُ رِقَاعُها مقامَ قنا قومٍ ، يدوم قِراعُها

حَفِظَكِ اللهُ أيتها الكفُّ التي تنوبُ صُحُفُها عنْ رماحٍ ، يطولُ تصويبُها نحوَ الأعداءِ .

☆☆ ٩ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في الغزلِ [الطبقات السنيّة في تراجم الحنفيّة ح٤/١٣٧] :

١ ـ كُفِّي الملامَ فقد ملأتِ مسامعي ما زُخْرُفُ الأقوالِ ويحكِ رادعي

توقَّفي عنْ لَومي ، فقد أكثَرْتِ منه حتى لم تبقَ لأذنيَ قدرةٌ أو مكانٌ لتلقّي شيءٍ منهُ ، وليسَ الكلامُ الحَسَنُ المُزَيَّنُ ، أيتُها الجاهلةُ ، برادِّي عمّا أنا عليهِ .

٢ ـ شَمَّرْتِ في عذلي ، فلا تتجشّمي فالعذلُ في العشاقِ ليسَ بنافعِ

تَهَيَّأتِ لِلَومي ، فلا تُكَلِّفي نفسَكِ أمري ، فاللومُ في شأنِ المحبينَ ، لا يفيدُ أبداً .

٣ ـ إني اشتريتُ هوى الملاحِ ضلالةً بالدينِ والدنيا ، ولستُ ببائعِ

ولقدِ اتَّخَذْتُ سبيلَ الضياعِ والشقاءِ بشراءِ حبِّ الحسانِ وَوُدِّهِنَّ ، ودفعتُ الثمنَ غالياً ديناً ودنيا ، ولن أستبدلَ هذا الشراءَ ببيعٍ آخرَ .

٤ ـ لا ذنبَ لي في ما أظُنُّ ، فإنني بُنِيَتْ على غيرِ الرشادِ طبائعي

ولم أقترفْ ذنباً في ما أراهُ ، فإنني جُبِلَتْ على الغَيِّ سجاياي .

٥ ـ إنَّ الشبابَ بغيرِ لهوٍ ضائعٌ والشّيبُ في اللذاتِ أضيعُ ضائعِ

فالشبابُ ، لا قيمةَ لهُ ، إنْ كانَ بدونِ لعبٍ وعبثٍ ، واتباعُ طريقِ اللذاتِ في الشيخوخةِ أشقى سبيلٍ لأنَّ فيه الضياعَ كلَّهُ .

☆☆ ١٠ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في المدحِ :

١ ـ متواضعٌ ، وهو الرفيعُ مكانُهُ ووضيعُ قومٍ ، ليسَ بالمتواضعِ

إنهُ رأى أنْ يَتَخِذَ طريقَ الخشوعِ ، وهو ذو منزلةٍ عاليةٍ في الدينِ والعلمِ والخُلقِ ، لكنَّ

خسيسَ القومِ لا يدركُ الخشوعَ .

٢ ـ حَسِبَ الوضيعُ الكِبْرَ ، يرفَعُ قدرَهُ هَيهاتَ ؛ إنَّ الكِبْرَ ليسَ برافعِ

ولقد ظنَّ رديءُ النفسِ أنَّ الزَّهْوَ ، يرفَعُ قيمتَهُ ، فما عَلِمَ أنهُ بعيدٌ كلَّ البعدِ عنِ العِزِّ ، وأنَّ التيهَ لا يرفعُ منزلةً أبداً .

٣ ـ ما غَضَّ منهُ الحاسدونَ بقولِهمْ هلْ غَضَّ منْ بحرٍ نقيقُ ضفادعِ ؟

وما نَقَصَ منْ مكانتِهِ قولُ الحاسدينَ عنهُ ، فهل نقصَ ماءَ البحرِ أصواتُ الضفادعِ ؟

٤ ـ جَدَعَ الأنوفَ من الأعادي ملكُهُ حسبُ الأعادي ملكُهُ منْ جادعِ

لقد قطعَ ملكُهُ أنوفَ أعدائِهِ إذلالاً لهمْ ، وكفى الأعداءَ مَلِكٌ قاطعٌ الأنوفَ خِزْياً وخِذلاناً وخُسراناً .

٥ ـ وإذا مكارمُهُ العظامُ تُذوكِرَتْ سَتَرَ الكرامُ وجوهَهُمْ ببراقعِ

وإذا تناقَلَ الناسُ أمجادَهُ الكبيرةَ ، وتحدثوا بها ، أخفى أشرافُ الرجالِ وجوهَهُمْ بِستائِرِ وجوهِ النساءِ احتراماً له .

٦ ـ فَعَلَ الذي فَعَلَ الكرامُ بأسرِهِ ثم انثنى ، فأتاهمُ ببدائعِ

لقد قامَ بأعمالِ عظماءِ الرجالِ كلِّها ، ثم عادَ عليهمْ مُحْدِثاً لهمْ أموراً جديدةً ، لم تخطرْ على بالِ أحدٍ منهمْ .

٧ ـ حتى أقرُّوا أنَّ أكرمَهُمْ إذا قاسوهُ ألأَمُ لئيمٍ راضعِ

حتى اعترفوا أنَّ أفضلَهُمْ ، إذا قارنوهُ بهِ ، هو أخَسُّ وأحقَرُ رجلٍ لأنهُ ، يرضعُ شاتَهُ لئلا يسمعَ أحدٌ صوتَ حَلْبِها .

٨ ـ فإليهِ أيديهِمْ إذا ما قيلَ : مَنْ خيرُ الملوكِ ؟ مُشيرةٌ بأصابِعِ

فإذا ما سألَ امرؤٌ : منْ أفضلُ الملوكِ ؟ امتدَّتْ أيدي الناسِ وأصابعُهُمْ نَحْوَهُ دالَّةً أنهُ أفضلُهُمْ .

٩ ـ لو لم يُقِرَّ الجاحدونَ بفضلِهِ طوعاً ، فكم حججٍ هناكَ قوامعُ

ولو أرادَ ناكرو أفضالِهِ عليهمْ تَمَرُّداً ، لَرَدَّتْ عليهمْ براهينُ كثيرةٌ دامغةٌ مُخْزيةً إياهُمْ .

١٠ ـ ولَرُبَّ منقادٍ بأنفٍ راغمٍ قهراً إذا لم يُعْطِ ذلَّةَ طائعِ

وكم منْ إنسانٍ مُنْساقٍ بأنفٍ مُكْرَهٍ غَلَبَةً إذا لم يُظْهِرْ للحقِّ هوانَ طاعةٍ ورضاً .

☆☆ ١١ ـ وقالَ على بحرِ الخفيفِ في المدحِ :

١ ـ يَسِّراها بالكورِ والأنساعِ   ما رباعُ الهوانِ لي بِرِباعِ

يا صاحبيَّ سَهِّلا الرحلةَ بحاجاتِها ووضْعِها على ظهورِ الجمالِ وشَدِّها بالحبالِ ، فما دارُ الذُّلِّ والهوانِ بدارٍ لنا .

٢ ـ إنَّ سَيري في السَّهْبِ والقاعِ خيرٌ   مِنْ قعودي شبيهَ نقْعٍ بقاعِ

وإنَّ سَيري في الفلاةِ والأرضِ الوَهْدةِ بينَ الجبالِ أفضلُ مِنْ إقامتي مثلَ تَجَمُّعِ ماءٍ بوادٍ .

٣ ـ رَعْيُ روضِ المُنَى على الحرِّ عارٌ   إنَّ روضَ المُنَى وخيمُ المراعي

وإنَّ انتظارَ مجيءِ الآمالِ عيبٌ على المرءِ الكريمِ ؛ فإنهُ عارٌ ، وسَيِّءُ السُّمْعةِ .

٤ ـ ليسَ يأوي إلى القناعةِ إلاّ   عاجزٌ ، لا يُطيقُ كشفَ القناعِ

ليسَ يرضى بِقِسْمةِ اللهِ وقَدَرِهِ إلاّ ضعيفَ النفسِ ، لا يستطيعُ كشفَ الحقيقةِ حقيقةِ الذُّلِّ والهوانِ .

٥ ـ ولو أنَّ الظِّباءَ خُيِّرْنَ ما اخترْ   نَ سِوَى أنْ يكُنَّ بعضَ السِّباعِ

ولو أنَّ جموعَ الغِزلانِ سُئِلْنَ : هل تُرِدْنَ أنْ تبقَينَ على حالِكُنَّ هذا ؟ لأجابَتْ قائلةً : إننا نريدُ أنْ نكونَ مِنَ الحيواناتِ القويةِ التي تغلِبُ ما دونَها .

٦ ـ اسْعَ تُدْرِكْ بقدرِ سعيكَ مجداً   إنَّ مجدَ الفتى بقدرِ المساعي

وجِدَّ ، واجْتَهِدْ ، تَنَلْ جزاءَ جِدِّكَ خيراً وعِزًّا ، فإنَّ عظمةَ المرءِ بما عَمِلَ ، وفعلَ .

٧ ـ حازَ خَصْلَ العلاءِ كلُّ قذوفٍ   في شعوبٍ شتّى بنفسٍ شَعاعِ

وقد نالَ فضلَ المجدِ كلُّ رامٍ وساعٍ في جهاتٍ كثيرةٍ بنفسٍ وروحٍ ذاتِ عزيمةٍ قويّةٍ .

٨ ـ والذي لاذَ بالتَّحَفُّرِ عجزاً   جاثمٌ بينَ ذِلَّةٍ واتِّضاعِ

والذي استتَرَ بالحُفَرِ ضَعْفاً باقٍ بينَ هوانٍ وخِذْلانٍ .

٩ ـ لا يُقاسُ الهيدانُ بالأروعِ الشَّهْـ   ـمِ وليسَ القَطوفُ مثلَ الوَساعِ

ولا يوضَعُ الجبانُ بصفِّ الشجاعِ أبيِّ النفسِ ، وليسَ ذو الخُطا القصيرةِ مثلَ واسِعِها .

١٠ ـ فيمَ حلَّ الشريفُ أسفلَ وادٍ   وحلولُ الوضيعِ أعلى بِقاعِ ؟

فَبِأيِّ شيءٍ كانَ العزيزُ في أعمقِ مكانٍ ، والذليلُ في هامِ الأمكنةِ ؟

١١ ـ أتِلاعُ الرجالِ تحتَ وهادٍ   وَوِهادُ الرجالِ فوقَ تِلاعِ ؟

أعِظامُ الرجالِ في المنخفضاتِ مِنَ الأرضِ ، وأذِلاّءُ الرجالِ في أعلى الجبالِ ؟

١٢ ـ ليسَ تحتَ السماءِ شيءٌ مُضاعٌ   كَسَرِيٍّ أُضيعَ بينَ الرِّعاعِ

ومنْ فَضْلِ اللهِ تعالى ألاّ يَضيعَ شيءٌ مثلَ ضياعِ سَيِّدٍ شريفٍ بينَ سَفَلَةِ الناسِ .

١٣ ـ خَيَّمَ العِزُّ حيثُ لم يَنَمِ الضِّرْ   غامُ إلاّ بِجَفْنَي المُرتاعِ

أقامَ المجدُ في مكانٍ ، لا ينامُ فيه البطلُ الشجاعُ إلاّ بعينَي خائفٍ هائبٍ .

١٤ ـ عَلَمُ المُلْكِ ليسَ يخفِقُ إلاّ   حيثُ ذكرُ السيوفِ والأنطاعِ

ولا ترتفعُ رايةُ المُلْكِ ، ولا تهتزُّ فخراً إلاّ في ساحةِ القتالِ حيثُ تعلو السيوفُ والرماحُ ، وتُبْسَطُ الجلودُ لإقامةِ الحَدِّ على المذنبِ .

١٥ ـ وقفةٌ بالهوانِ طَرْفَةَ عينٍ   كَمَبيتٍ على بيوتِ الأفاعي

وإنَّ وقفَةً واحدةً بالذُّلِّ مقدارَ رفَّةِ جَفْنٍ ، تساوي قضاءَ ليلةٍ فوقَ أوكارِ الثعابينِ .

١٦ ـ شدَّ ما أقبلَتْ هَوادي الدَّواهي   فعليكَ اختراطُ نصلِ الزِّماعِ

وإنْ جاءَتْ أوائلُ الشدائدِ يكنْ مجيئُها عظيماً شديداً ، فمن واجبِكَ أن تتأهَّبَ لها بِسَلِّ سِنِّ الهِمَّةِ والعزيمةِ .

١٧ ـ ما لِمَنْ بارزَ الخطوبَ كِفاحاً   كغِرارِ الصريمةِ القَطّاعِ

وليسَ للذي واجَهَ الشدائدَ مُواجهةً شديدةً ضربٌ مثلُ ضربِ العزيمةِ التي ليسَ لحَدِّها مثيلٌ .

١٨ ـ أقسمَ الرزقُ أنهُ ليسَ إلاّ   في ضمانِ المُقَتِّلاتِ السِّراعِ

وقد حَلَفَ الحظُّ والرزقُ أنهُ ، لا يأتي لأحدٍ إلاّ إذا كُفِلَ لهُ دوابُّ مُذَلّلاتٌ على الجِدِّ والقتالِ السريعِ .

١٩ ـ كَثُرَتْ هذهِ الرّواحِلُ كالنا   سِ ومأْكَلُهُنَّ بالهِلْواعِ

وصارتْ هذهِ الدوابُّ تشبهُ الناسَ كثرةً ، وصارَ أسلوبُ تناوُلِها الطعامَ كسرعةِ جَرْيِ النعامِ .

٢٠ ـ والأَمونُ الرُّواعُ شرطي ، ولا طائلٌ   عندَ الأَمونِ غيرِ الرُّواعِ

ولا أقبلُ صديقاً أو صاحباً إلاّ إذا كانَ عزيزاً شريفاً مُعْجباً الناسَ بأعمالِهِ ، إذْ لا فائدةَ ولا راحةَ لدى الأمنِ إلاّ بامتزاجِهِ بالعزَّةِ والشرفِ .

٢١ ـ أَخذتْ في مضايقِ الأرضِ تهوي   كمُذاعِ الأسرارِ في الأسماعِ

وانتشرَتْ أخبارُ مكارمِ أبي المكارمِ ذي الرئاستَينِ في الأرضِ رحابِها ومضائِقها كما تنتشرُ أسرارُ الناسِ في أسماعِهِمْ .

٢٢ ـ وإذا ما القِلاصُ غَضَّ ادِّراعُ اللْـ ـلَيلِ منهنَّ أُدلجَتْ في اندراعِ
وإذا ما سَتَرَتْ ظلمةُ الليلِ الإبلَ . اسْتَمَرَّ أبو المكارمِ ، يَتَقَدَّمُ بها لأنهُ خبيرٌ بالطرقِ في ظلمةِ الليلِ .

٢٣ ـ تترامى بها الفيافي عُوجٌ خُلِقَتْ للذَّميلِ والإيضاعِ
وتَنْبَسِطُ تلكَ الفَلواتُ لِسَيرِ هذه الإبلِ ضَامرةِ الخواصرِ المُتَعَوِّدةِ على السيرِ اللَّيِّنِ والسريعِ ، فتبدو للناظرِ أنها تتباعَدُ عنها ، أو تلقي جنباتِها عن طريقِها .

٢٤ ـ بَينَ شَرْخَي قُتُودِها أريحيٌّ مستطيلُ الذراعِ رَحْبُ الباعِ
ويجلِسُ بينَ قطعتَي الخشبِ المركبتَينِ على ظهرِ الجملِ أبو المكارمِ ذو الخُلُقِ العظيمِ ممسكاً رَسَنَ بعيرِهِ مُتَحَكِّماً به معتمداً على حركةِ ذراعِهِ الطويلِ أو باعِهِ الواسعِ .

٢٥ ـ دائمُ الحملِ بينَ جنبَيهِ قلباً واسعاً كالفضاءِ في الاتِّساعِ
ويحملُ في ضلوعِهِ قلباً رَحْباً مثلَ الفضاءِ في سَعَتِهِ .

٢٦ ـ وله همَّةٌ ، إلى النجمِ تَرْنو مِنْ فَعالٍ بعيدةِ الارْتِفاعِ
وهو ذو عزيمةٍ ، تتَطَلَّعُ إلى نجومِ السماءِ ، وتنظُرُ منها مِنَ الأعالي البعيدةِ إلى الرعيّةِ بعينِ العدلِ والرحمةِ .

٢٧ ـ جامحُ النفسِ إنْ أُريدَتْ على الضَّيـ ـرِ تأبَّتْ بعِزَّةٍ وامتناعِ
وهو عزيزُ النفسِ ، إنْ أرادَ أحدٌ بهِ شرًّا لم يرضَ به لعزَّتِهِ وعدمِ قبولِهِ به .

٢٨ ـ لا يُراعي حقَّ الأفاضِلِ إلاّ فاضلٌ في مكاسبِ الحمدِ ساعِ
لا يحفظُ واجبَ الكرامِ وحقَّهُمْ إلاّ عزيزٌ كريمٌ شريفٌ ، نالَ مرابحَ الحمدِ ، وسعى إليهِ .

٢٩ ـ وإذا ما أبو المكارمِ لم يَرْ عَ حقوقي فما لها مِنْ مُراعِ
وإذا لم يحفظْ أبو المكارمِ حقوقي ، فليسَ لي غيرُهُ حافظاً لها .

٣٠ ـ فعلى ذي الرئاستينِ ثنائي وإلى ذي الرئاستَينِ انقطاعي
وإني أوجِّهُ حمدي ومدحي إلى أبي المكارمِ ذي الرئاستَينِ ، وبهِ ألتزمُ ، وأنقطِعُ عن كلِّ الناسِ .

٣١ ـ ضاعَ عندَ اللئامِ حُرُّ ثَنائي وثنائي لديهِ غيرُ مُضاعِ
وقد ذهبَ خالصُ مدحي عندَ أرذالِ الناس سُدًى ، وما زالَ محضُ ثنائي محفوظاً لَدَى

أبي المكارمِ ذي الرئاستَينِ .

٣٢ ـ كـم أيـادٍ ، أصبتُهـا مـنْ يَـدَيـهِ   واختصــاصٍ ، رأيتُــهُ واصطنــاعِ

كم نِعَمٍ نِلْتُها منهُ ودالَّةٍ منهُ وتقريبٍ إليهِ ، كانَ منهُ .

٣٣ ـ بـرمكـيُّ الطبـاعِ ، طلْـقُ المُحَيّـا   مستفيـضُ النـدى ، بَسْـطُ الـذراعِ

وهو ذو سجايا بَرْمكيَّةٍ حَسَنةٍ : وجهٍ حسنٍ مشرقٍ وسخاءٍ وعَونٍ .

٣٤ ـ وعلى اللؤمِ أجْمَعَ الناسُ عَنْ آ   خِـرِهِـمْ ، وهــو خـارقُ الإجمـاعِ

واتَّفَقَ الناسُ على وجودِ الشرِّ فيهم ، وانفردَ أبو المكارمِ عن هذا الاتِّفاقِ بخيرِ سجاياهُ .

٣٥ ـ نفسُ ذي عَفَّـةٍ ، ونطـقُ خطيبٍ   ويـــدا مُنْعِــمٍ ، وقلــبُ شجــاعِ

فهو ذو نفسٍ عزيزةٍ أبيّةٍ ولسانٍ فصيحٍ بليغٍ ويَدَي كريمٍ وقلبٍ قويٍّ .

٣٦ ـ يُحسِنُ العفوَ عنْ ذنوبِ الموالي   ويجــازي العُـداةَ صــاعــاً بِصــاعِ

ويعفو عن ذنوبِ الموالي : ساداتِ الناسِ وعبيدِهِمْ عندَ قُدْرَتِهِ عليهِمْ ، ويعامِلُ أعداءَهُ معاملةَ النِّدِّ لِنِدِّهِ مُلْتَزماً بقولِ اللهِ ـ عَزَّ ، وجلَّ ـ ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ [المائدة/ ٤٥] .

٣٧ ـ يا عذولَ الوزيرِ ، في الجودِ دَعْهُ   عُتُـقُ الخيـلِ ، جَـرْيُهـا بـالطبـاعِ

فيا عَدُوَّ الوزيرِ أبي المكارمِ ، اتْرُكْهُ يؤدِّي كرَمَهُ إلى مَنْ يُريدُ ، فإنَّ خيرَ الخَيلِ ، يكونُ جَرْيُها السريعُ مِنْ سجاياها .

٣٨ ـ لا تُكَلِّفْـهُ غيـرَ مـا هـو طبْـعٌ   ليـسَ قلْـبُ الطبـاعِ بـالمستطـاعِ

لا تُحَمِّلْهُ شيئاً ، لم يكنْ من طبْعِهِ ، فإنَّ تحويلَ السجايا وقَلْبَها ، ليسَ مِنَ الممكنِ حصولُهُ .

٣٩ ـ وذوو السَّرْوِ بالسُّرَى أدركوا المجـ   ـدَ ، ومــا أدركــوهُ بــالاِضْطِجــاعِ

وذوو الفضلِ ، بالسَّعْيِ والجدِّ نالوا مراتبَ العزِّ لا بالكسلِ والإهمالِ .

٤٠ ـ طالبُ العِزِّ هكذا ، ليسَ يخلو   شَخْصُــهُ مــنْ تــلاؤُمٍ وانصِــداعِ

وإنَّ طالبَ المجدِ ، هذا حالُهُ ؛ لا ينتهي أمرُهُ منْ جُبارٍ وتَكسُّرٍ .

٤١ ـ كيفَ يَلْقَى عصا اجتماعِ المعالي   تــاركٌ شقَّــهُ عصــا الاِجْتِمــاعِ ؟

وكيفَ ينالُ قضيبَ المكارمِ كلِّها مُهْمِلٌ أمورَ العزِّ كاسرٌ قضيبَ الطاعةِ والالتزامِ بأمرِ الجماعة ؟

٤٢ ـ أنتَ كالشمسِ ، فَابْقَ ما بقيتْ في رفعـــةِ الجـــاهِ وانتشـــارِ الشعـــاعِ

وأنتَ مثلُ شمسٍ ، فدُمْ ما دامتِ الشمسُ في عُلُوِّ العِزِّ والسلطانِ .

٤٣ ـ وكمثـلِ الغمـام فَـابْـقَ مُسِفًّـا راكـــداً ، لا تُـــراعُ بـــالانْقِشـــاعِ

ومثلَ السحابِ حاولْ أنْ تكونَ دانياً منَ الأرضِ ثابتاً ساكناً ، لا يُخِيفَنَّكَ منْ يريدُ زَوالَكَ .

☆☆ ١٢ ـ وقالَ على بحرِ البسيطِ في الرثاءِ :

١ ـ ماتَ الإمامُ ابنُ سمعانٍ، فلا نظرَتْ عيـــنُ البصيـــرِ إذا ضَنَّـــتْ بـــأدمُعِهـــا

تُوُفِّيَ الإمامُ ابنُ سمعانَ ، فبكتْهُ العيونُ ، ودعَتِ اللهَ تعالى أنْ يُصيبَ كلَّ عينٍ باصرةٍ بالعَمى إذا لم تَجُدْ بدمعِها .

٢ ـ وأيُّ حوباءَ، ماصُمَّتْ، وماعَمِيَتْ فـــلا استفـــادَتْ بمـــرآهـــا ومَسْمَعِهـــا

وطلَبْتُ منَ اللهِ ـ عزَّ ، وجلَّ ـ ألاّ يجعلَ لأيَّةِ نفسٍ فائدةً لأُذنَيْها وعَيْنَيْها إذا لم يُصِبْها بالصَّمَمِ والعَمَى .

٣ ـ ذابَـتْ صخـورُ خـراسـانٍ لحـرقتِهـا فـالنـارُ سـاطعـةٌ مـنْ تحـتِ مَنْبَعهـا

ولشدَّةِ حزنِ صخورِ خراسانَ مدينتِهِ ذابَتْ ، وكأنَّ ناراً ، تتلَهَّبُ في أعماقِها .

٤ ـ وزُلْزِلَتْ مَرْوُ عنْ أرسَىٰ قواعِدِها فـأُبصِـرَتْ قَلَقـاً فـي غيـرِ مـوضِعهـا

وكأنَّ مدينةَ مَرْوٍ ، قد أصيبَتْ بهزةٍ ، رَجَّتْ أصولَ جبالِها ، وأثارَتْ خوفاً وقَلَقاً قلوبَ الناسِ البعيدينَ عن موضعِها .

٥ ـ قَامَتْ قيامَتُها ؛ كم عَولةٍ وبُكىً كـــم شهقَـــةٍ وزفيـــرٍ بيـــنَ أرْبُعِهـــا

وكأنَّ يومَ القيامةِ ، قد حلَّ فيها ، فَتَرَدَّدَتِ العولاتُ والصَّرْخاتُ والبكاءُ مصحوبةً بالشهيقِ والزفيرِ في كلِّ بُقْعَةٍ منْ بقاعِها .

٦ ـ وكـلُّ مـرتضـعٍ للثـدي مُطَّـرَحٍ وكـلُّ مـرضعـةٍ تـرمـي بِمُـرْضِعِهـا

وألقِيَ كلُّ رضيعٍ عنْ ثديِ أمِّهِ ، وألقَتْ كلُّ مرضعةٍ منْ تَكَفَّلَتْ بإرضاعِهِ .

٧ ـ أينَ الذي لو شَربناهُ لما أُخِذَتْ ببعضِـهِ هـذه الـدنيـا بـأجمعِهـا ؟

أينَ كرمُ الإمامِ ؟ أينَ ماؤهُ الذي لو ظلَّ حيًّا لما ذهبَتْ كلُّ خيراتِ الدنيا ببعضِ أعطياتِهِ ؟

٨ ـ أينَ الذي الفقهُ والآدابُ إنْ ذُكِرَتْ فهو ابنُ إدريسهِ ، وهو ابنُ أصمَعِها ؟

أين الفقهُ والأدبُ ؟ بلِ مَنْ للفقهِ والأدبِ بعدَ رحيلِهِ ؟ فهو ابنُ وتلميذُ محمدِ بنِ إدريسَ الشافعيِّ ، وهو ابنُ وتلميذُ عبدِ الملكِ بنِ قريبٍ الأصمعيِّ .

٩ ـ مَنْ للإمامةِ ضاعَتْ بعدَ قَيِّمها ؟ مَنْ للخطابةِ ، عَيَّتْ بعد مِصْقَعِها ؟

ومنْ يَتَسَلَّمُ مِنْبَرَ الإمامةِ والخطابةِ بعدَ رحيلِ سَيِّدها وبليغِها ؟ فقد أصبحتِ الإمامةُ والخطابةُ عاجزةً عن أداءِ واجباتها بعدَ مصيبتها بابنِ سمعانَ .

١٠ ـ منْ للمواعظِ ، يُثني كلَّ ذي طَرَبٍ؟ كأنهُ الفاقدُ الثَّكْلَى بِمَوجَعِها

منِ الذي يقومُ للنصائحِ ، يُحَوِّلُ ذا الحزنِ أو الفرحِ عن حزنِهِ أو فرحِهِ ؟ بل أينَ هو الأسوةُ الحسنةُ الذي يُشْبِهُ فاقدةً ولدَها الصابرةَ الصبرَ الجميلَ ؟

١١ ـ منْ للأحاديثِ يُمْليها ، ويُسْمِعُها بعدَ ابنِ سمعانَ مُمْليها ومُسْمِعِها ؟

منْ بقيَ لطرحِ الأحاديثِ ؟ يُمليها على كتبتِهِ ، ويُسْمِعُها جُلاّسَهُ بعد موتِ ابنِ سمعانَ المُمْلي والمُسْمِعُ ؟

١٢ ـ سَرْدُ الأسانيدِ ، كانَتْ فيه لهجَتُهُ كَكَفِّ داوُودَ في تسريدِ أدرُعِها

سَوقُ الأحاديثِ مرتبطةً بأصولِها ورُواتِها ، كانَتْ لغتَهُ وسجيَّتَهُ مثلَ كفِّ النبيِّ داوُودَ الحاذقةِ في نسجِ الدروعِ .

١٣ ـ خلَّى الأئمَّةَ حَيْرى فقْدُ أعْلَمِها على اتِّفاقٍ وأزكاها وأورَعِها

تركَ كبارَ العلماءِ والفقهاءِ تائهينَ ، لا قرارَ لهمْ ، موتُ أعلَمِهِمْ وأفقَهِهِم ابنِ سمعانَ ، وكانوا ، قد أجمعوا على أنهُ أطيَبُهُمْ نفساً وأتقاهُمْ ديناً .

١٤ ـ ذُقْنا مصائبَ للأيامِ فاجعةً حتى رُمينا بأدهاها وأفجَعِها

ولقد أذاقَتْنا الأيامُ شرورَها المؤلمةَ حتى صَبَّتْ علينا أفظعَها شِدَّةً وآلَمَها عَذاباً .

١٥ ـ يا مَنْ وجَدْناهُ دونَ الناسِ كلِّهِمُ تومي إلى سَبْقِهِ الدنيا بإصبَعِها

يا ابنَ سمعانَ ، يا أيُّها الرجلُ الذي ألفيناهُ فوقَ الرجالِ جميعِهِمْ ، تشيرُ بإصبَعِها الدنيا إليه أنهُ السابقُ الناسَ في كلِّ شيءٍ .

١٦ ـ زمخشَريُّكَ هذا حاملٌ كَبِداً لم يبقَ للناسِ شَكٌّ في تَصَدُّعِها

صنيعتُكَ زمخْشَرِيُّكَ جارُ اللهِ محمودٌ حاملٌ قلباً وكبداً ، لا يَشُكُّ أحدٌ أنهُ ، قد تَصَدَّعَ ، وتناثَرَتْ أجزاؤهُ هنا وهناكَ ألماً وتوجُّعاً .

١٧ ـ قد أُودِعَتْ مِقةً أحشاؤهُ لكَ ، لم تَسْمَعْ لغيرِكَ في الدنيا بِمَودَعِها

قد حُمِّلَتْ حناياهُ محبَّةً لكَ ، لم يكنْ لغيرِكَ في الدنيا مكانٌ غيرُها .

١٨ ـ إذْ كنْتَ أبدَعَها فضلاً ، ولا عجبٌ إضمارُ أبدعِها حبًّا لأبدعِها

ذلك لأنكَ كنتَ اصطنَعْتَها بفضلِكَ ، ولا عجبَ في ذلكَ ، لأنَّ كتمانَ سِرِّ الحبِّ موكولٌ بالمُحِبِّ .

١٩ ـ فسوفَ أرثيكَ ما ناحتْ مطوَّقةٌ مراثياً ، وقَعَتْ في خيرِ موقِعها

ولسوفَ أذكرُ مناقبَكَ ما رَدَّدَتِ الحمامةُ المطوَّقَةُ أنغامَ بكائها حُزْناً ، وكانَ لها أشجى الأثرِ في الأسماعِ والقلوبِ .

٢٠ ـ أبكي عليكَ كخنساءَ التي ندبَتْ صخراً سنيناً ، وماتَتْ في تَوَجُّعِها

وسأبكي ، وأنوحُ عليكَ كما ناحتِ الخنساءُ التي رثتْ أخاها صخراً سنينَ طويلةً ، وماتَتْ في آلامِها .

☆☆ ١٣ـ وقالَ على بحرِ المتقاربِ في التَّوَجُّعِ والتأسِّي :

١ ـ أبَتْ فَزَعاً أنْ تُصيخَ المجامِعْ إلى نبإٍ ، قد أصمَّ المسامِعْ

لم تقبَلِ المجالسُ أن تَستمِعَ إلى ذلكَ الخبرِ الذي سَدَّ مسامِعَ الناسِ .

٢ ـ أتاني عنْ كُردسٍ أنهُ بكورةِ مروَ مُقَضُّ المضاجِعْ

وعلمْتُ أنَّ كردسَ في ناحيةٍ منْ مَرْوَ مريضٌ ، يتقلَّبُ في فراشِهِ ألماً .

٣ ـ طويلُ الهمومِ ، بطيءُ السُّلُوِّ قليلُ الهجوعِ كثيرُ الفجائعْ

تَجْتاحُهُ الهمومُ ، ويُقَصِّرُ السلوانُ عنهُ ، ويَقْصُرُ نومُهُ ليلاً ، وتكثُرُ أوجاعُهُ .

٤ ـ هما خُطّتانِ : اغترابٌ وسُقْمٌ يُرى فيهما أصبرُ القومِ جازِعْ

هما سببانِ اثنانِ ، يشكوهما : غُرْبَةٌ ومرضٌ ، يحتمِلُهما ، فلا يُظهِرُ ما يُحِسُّ بهِ منَ الهمومِ والأحزانِ ؛ لأنهُ أجْلَدُ الناسِ على النوائبِ .

٥ ـ ففاجأني منهُ ما هدَّني وأقرَحَ مني الحشا والمدامِعْ

ولما ذهبْتُ إليه ، فوجئتُ بحالِهِ الشديدةِ ، وتحطَّمَ جسمي لرؤيتِهِ ، وتَجَرَّحَتْ مجاري دموعي وحنايا قلبي حزناً عليهِ .

٦ ـ ومَلْمَلَ مني على مضجَعٍ أخا زفراتٍ ، تقيمُ الأضالِعْ

وصِرْتُ ، أتَقَلَّبُ على مجلسي حزناً على صاحبِ آهاتٍ ، تَنْزِعُ ما بينَ الضلوعِ .

٧ ـ وعَـزَّ علـى كبـدي أنْ رمـى فُلَيـذَتَهـا ريـبُ دهـرٍ بِفـاجِـعْ

وعَظُمَ على قلبي أنْ أرى قطعةً منهُ ، قد أصابَها الزمنُ بالوجعِ الذي قد يؤدّي به إلى الموتِ .

٨ ـ أُرَجِّـعُ مثـلَ حنيـنِ النَّـزوعِ إلـى إلْفِهـا بيـنَ هِيـمٍ نَـوازِعْ

وصِرْتُ أردِّدُ آهاتٍ كآهاتِ ناقةٍ مشتاقةٍ إلى صديقٍ بينَ إبلٍ عطاشٍ ،تبحثُ عنِ الماءِ لترتَوِيَ منهُ .

٩ ـ فَمَنْ يَـرَهـا ، وهـي حـدبـاءُ ممـا تقـاسـي النـزاعَ يَقُـلْ : قـوسُ نـازِعْ

فمن يُشاهدْها هزيلةً ، قد ظهرَتْ عظامُ وُرْكَيها ، تعاني صراعَ شوقِها ، يَقُلْ : إنها قوسٌ مشتاقةٌ إلى وَتَرِها الذي أُبْعِدَ عنها .

١٠ ـ وينتـابُ صـدري دواعـي الهمـومِ لحـوقَ الـزوائـدِ صـدرَ المضـارِعْ

وتجثُمُ على صدري أسبابُ الهمومِ مثلما توضَعُ الزوائدُ في مؤخَّرِ الرحلِ ، كأنها تلحقُ به .

١١ ـ ولـم يَبْـقَ منـي غَـداةَ الـوداعِ سـوى رمَـقٍ ، دارَ فـي نفسِ نـازِعْ

ولما حلَّ وقتُ الوداعِ صبيحةَ ذلكَ اليومِ ، لم يتركْ لي إلاّ بَقِيّةَ حياةٍ ، تجولُ في نفسِ المشتاقِ إلى حَبيبهِ .

١٢ ـ فقـد أصبـحَ اليـومَ بـاقـي الحيـاةِ لمـا أخَـذَتْـهُ يـدُ البيـنِ تـابـعْ

وصارَ في ذلكَ اليومِ ما تَبَقّى منْ حياتِهِ تابعاً لِما أخذَتْهُ يدُ الموتِ .

١٣ ـ ومـا زالَ مـن هَبَـواتِ الـرَّدى ردائـيَ ، والـدهـرُ جَـمُّ الـوقـائـعْ

وما انمحَتْ غُبُراتُ الموتِ عن ثوبي ، لأنَّ الدهرَ كثيرُ الشدائدِ .

١٤ ـ أبـا غـانـمٍ كـادَنـي الـدهـرُ فيـكَ بهـذا الفـراقِ ، فهـلْ أنـتَ راجِـعْ ؟

فيا أبا غانمٍ لقد عاداني الدهرُ بفراقِكَ ، فهل لكَ يوماً رجعةٌ إليَّ ؟

١٥ ـ إلـى ذي وفـاءٍ شَفيـقٍ ، إلـى أبٍ نـاصـحِ الجيـبِ والـودِّ نـاصِـعْ

إلى صاحبِ الصِّدْقِ والوفاءِ إلى الوالدِ الرحيمِ ذي القلبِ الناصحِ والحبِّ الخالصِ ؟

١٦ ـ إلـى ظِـلِّ فينـانـةٍ جَثْلَـةٍ لهـا ثمـرٌ قـانـئُ اللـونِ يـانِـعْ

إلى فيءِ شجرةٍ عظيمةٍ ذاتِ فروعٍ كثيرةٍ وثمرٍ ذي حمرةٍ شديدةِ اللونِ آنٍ قِطافُهُ .

١٧ ـ وحَجْـرُ الأبِ البَـرِّ أوفـى وأولـى بـذي الحِجْـرِ مـنْ واسعِ البَـرِّ شـاسِـعْ

وحضنُ الأبِ الرحيمِ أصدقُ وأجدَرُ بصاحبِ العقلِ منْ صاحبِ الأرضِ الواسعةِ سِعَةً بعيدةً .

١٨ ـ ومَجلِسُ علمٍ وعُمّارُهُ أحقُّ بهِ منْ بلادٍ بلاقِعْ

ومُنْتَدَى علمٍ وعلماؤهُ الذينَ يعملونَ على ازدهارِ العلمِ أولى بكردسَ منْ بلادٍ قفرةٍ خاليةٍ .

١٩ ـ ولم أرَ مثلَ تِجارِ العلومِ أحضرَ ريحاً وأغلى بضائعْ

ولم أجدْ شيئاً ، يُشبهُ مَنْ يُصادقونَ العِلمَ ، ويَتَّجِرُونَ به في حُسْنِ وجودِهِ وارتفاعِ قدرِهِ الذي لا يساويهِ ثمنٌ .

٢٠ ـ إذا ضاقَ رزقُ الفتى ، ثم لم تَضِقْ ساحةُ الصبرِ ، فالرزقُ واسعْ

فإذا ما قَلَّ مالُ المرءِ ، ولم يَقِلَّ حجمُ صبرِهِ ، فَعِلْمُ اللهِ تعالى ، هو مصدرُ رزقِهِ ذو الرُّحْبِ والسَّعَةِ .

٢١ ـ ومَنْ طَلَبَ المُلْكَ فوقَ الملوكِ أَلْقَى على عِطْفِهِ ثوبَ قانِعْ

ومَنْ رامَ مرتبةً أعلى منْ مراتبِ ملوكِ الأرضِ ، فقد طرحَ عَنْ كتفيهِ ثوبَ الرضا بالقليلِ .

٢٢ ـ وما حِرْصُ مَنْ لم يُقَدَّمْ لهُ منَ اللهِ تقديرُ ربحٍ بنافِعْ

وما تَمَسُّكُ امرئٍ ، لم يَحْظَ منَ اللهِ تعالى بقدرٍ وافرٍ من النِّعَم ، بأُمنياتٍ يُفيدُه بحالٍ منَ الأحوالِ .

٢٣ ـ وإنّي لأَسْتَودعُ اللهَ فيكَ يابنَ مُزَينَةَ أَسْنَى الودائعْ

وإني يابْنَ الهلالِ بل يابْنَ المطرِ لَتارِكُكَ إلى اللهِ تعالى أفضلَ وديعةٍ عندَهُ .

* * *

حرف الغين/ ٨/ أبياتٍ

☆☆ ١ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ :

١ ـ ألا أبلِغا عني المُوَفَّقَ ، وُفِّقَتْ ركابُكما للسيرِ حتى تُبْلِغا

يا صاحبيَّ ، أوصِلا إلى المُلَقَّبِ بالمُوَفَّقِ هذه الرسالةَ ، أَدْعُ لكما اللهَ تعالى أنْ يُصَوِّبَ طريقَكُما ، أوصِلا .

٢ ـ سلاماً مشوباً بالهوى ، تُفْرِغاهُ في صِماخَي فتًى في قالبِ الفضلِ أُفْرِغا

تحيَّةً وسلاماً ممزوجاً بالحبِّ ، تضعانِهِ في داخلِ أُذُنَي رجلٍ ، وُضِعَ في وعاءِ الخيرِ .

٣ ـ بليغٌ ، قَضَى مَنْ ينطِقُ الضادَ أنهُ برغمٍ منَ الصّادينَ صودِفَ أبْلَغا

فهو فتى ذو فصاحةٍ وبلاغةٍ ، شَهِدَ كلُّ عَربيٍّ أصيلٍ ، يتكلَّمُ بحرفِ الضادِ أنهُ برغمِ المعترِضينَ ، قد وَجَدَهُ ذا بلاغةٍ أكثرَ منهُ .

٤ ـ لهُ قلمٌ يُنسيكَ في السلمِ فعلُهُ أفاعيلَ بيضِ الهندِ في حَومةِ الوَغَى

لهُ كتابَةٌ ذاتُ أثرٍ عظيمٍ ، تَسْلُو بهِ في زمنِ الأمنِ ما جرى في ساحةِ الحربِ منْ أعمالِ البُطولاتِ بفضلِ سيوفِ الهندِ .

٥ ـ لَو أنَّ إياداً ، شاهدوهُ وفَخْرَهُمْ بِقُسٍّ لقالوا : إنهُ كانَ ألثغا

ولو أنَّ قبيلةَ إيادٍ التي تفخرُ بخطيبِها قُسِّ بنِ ساعدةَ الأمثلِ ببلاغتِهِ ، سَمِعَتْ أقوالَهُ ، وقرأَتْ آدابَهُ لقالَ رجالُها : إنَّ قُسًّا كانَ ألثغَ ، لا تَتِمُّ مخارجُ حروفِهِ .

٦ ـ أبو الفضلِ موصوفٌ بما يُكْتَنى به لهُ سُلَّمُ الفضلِ المُبينُ ، وسُوِّغا

وما كُنِّيَ بأبي الفضلِ إلاّ باتِّصافِهِ به ، فكانَ ، وما زالَ ، يرتقي سُلَّمَهُ الواضحَ الذي سُهِّلَ لهُ .

٧ ـ وما أنسَ لا أنسَ اعتصامي بحبلِهِ وتثقيفَهُ زيغي وتقويمَهُ الصَّغا

وإنْ أسلُ لا أسلُ تمسُّكي بِسُنَّتِهِ ومراقبتَهُ إيّايَ وتسويَةَ ميلي وانحِرافي وتَعديلَهُ كلَّ ميلٍ وزيغٍ لي .

٨ ـ سأُكمِلُ تقريظي ، وأُسْبِغُ مِدْحتي كما أكملَ النُّعْمَى عليَّ ، وأسبغا

وسأُتِمُّ مدحي لهُ ، وأُطيلُ قصائدَ مديحي فيهِ كما أتَمَّ أُعطياتِهِ إيايَ ، فأطالَها ، ولم يَقْطَعْها .

حرف الفاء/ ٢٩٥/ بيتٍ

☆☆ ١ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الفخرِ :

١ ـ سقى اللهُ بطنَ الأيكِ أوطَفَ واكِفا يُجَلِّلُ بطنَ الأيكِ أزرقَ وارِفا

أدعو اللهَ ـ عَزَّ ، وجلَّ ـ أنْ يرويَ أرضَ الشجرِ الكثيفِ الذي تنوعَتْ ثمارُهُ بقطرِ سحابٍ غَزيرِ المياهِ متواصلٍ ، فَيُغَطِّيَ سطحَ تلكَ الأرضِ بماءٍ ، يميلُ لونُهُ إلى الزرقة بظلِّ الأشجارِ .

٢ ـ أزاهيرُ تُزْهي الرُّبا برفيفِها كأنَّ الرُّبا ، يَسْحَبْنَ منهُ رفارفا

وتباهي أزاهيرُ وورودٌ ذاتُ ألوانٍ مختلفةٍ التلالَ بحسنِها ، وتدعو تلك التلالَ أنْ تأخذَ منها فُرُشاً ، تبسطُها هنا وهناك .

٣ ـ بواكٍ أقاحي الجوِّ ، وهي ضواحِكٌ إذا صرخَ الرجازُ في الجوِّ قاصِفا

ويتراءى للناظرِ أنَّ زهرَ الأقحوانِ ، يبكي فرحاً بقطراتِ المطرِ ، حينَ يطلقُ الرعدُ أصواتَهُ الشديدةَ .

٤ ـ كأنَّ عشاراً فُرَّقاً في ربابِهِ طُوينَ على طرقِ الفحولِ شوارفا

التي تشبهُ أصواتَ الناقةِ التي مضى على حَمْلِها عشرةُ أشهرٍ ، وأخذَها المخاضُ ، فانفردَتْ ، تحرُسُها سحبٌ بيضاءُ ، وأُبعِدَتْ عنْ دربِ ذكورِها المسنةِ .

٥ ـ فإنَّ ببطنِ الأيكِ للحيِّ مالكٍ مَرابطَ أفراسٍ لهمْ ومَواقفا

وفي وسطِ تلكَ الأشجارِ أشجارِ مالكِ الأرضِ أمكنةٌ ، تُرْبَطُ فيها الخيلُ ، وتوقَفُ .

٦ ـ وأهلَ إغاراتٍ يُرَوِّعْنَ آمناً وأهلَ إجاراتٍ يُطامنَّ خائِفا

ورجالٌ أشداءُ ، يُخيفونَ كلَّ منْ أمِنَ ، وآخرونَ يَحرسونَ أهلَ تلك الأرضِ ، ويُنقِذونَ كلَّ مَنِ استجارَ بهمْ فَزِعاً منْ عَدُوِّهِ .

٧ ـ وهضبةَ عزٍّ ، ما يَنالُ مُقاذفٌ بأبعدَ كيدٍ فرعَها المُتَقاذِفا

وتَلَّةُ مجدٍ ، لا يستطيعُ عدوٌّ أنْ يَعْتَلِيَها بأقوى سلاحٍ منَ الحقدِ ، وأنْ ينالَ جانباً منْ جوانبِ أرضِها البعيدةِ .

٨ ـ وأفنيةً فيحاً مطارحَ أرحلٍ لِشُعْثٍ إليها يَعْسفونَ التنائفا

ومساحاتٌ واسعةٌ ، جُعِلَتْ أمكنةً لحاجاتِ الدّوابِّ ، يقومُ على ترتيبِها ورمي ما يَلِيَ منها رجالٌ مُغْبَرُّو الرؤوسِ .

٩ ـ وإنَّ لهـمْ فيهـا مَبـارِكَ جِلَّـةٍ بشحـمِ ذُراهـا يـرفعـونَ المضـايفـا

ولهمْ أمكنةٌ أخرى ، تُنَوِّخُ الإبلُ المُسِنَّةُ فيها ، تنتظرُ النحرَ وتقديمَ شحومِ أسنِمَتِها مآدبَ للضيوفِ .

١٠ ـ متى ما أتاهمْ طارقونَ بسُدْفةٍ قَـرَوهُـمْ بتكليـلِ الجفـانِ سـدائفـا

متى ما ينزلْ بهمْ أضيافٌ ليلاً يُسرِعوا بتقديمِ القَصَعاتِ الملأى بأطيبِ الطعامِ المُجَلَّلِ بشحومِ أسنِمَتِها .

١١ ـ وأنـديـةً فيهـا أهلّـةُ أوجُـهٍ وضـاءٍ تُـريـكَ النَّيِّـراتِ كـواسفـا

ولهم مجالسُ ، يطوفُ على أفرادِها شبابٌ ذوو وجوهٍ بيضاءَ منيرةٍ ، تَجدُ بها الكواكبَ المضيئاتِ ، قدِ احتُجِبَتْ أنوارُها .

١٢ ـ أُولَى سَحَناتٍ، شَفَّ عنْ حسناتِها تَهَلُّلُهـا ، والسيـبُ ، ينهـلُّ واكِفـا

وأوّلُ ظاهرةٍ رقيقةٍ ، تكشِفُ ، وتُري شيئاً منْ صفاتِها الكريمةِ ، تلألُؤُ وجوهِ أصحابِها فرحاً بالضيفانِ ، والكرمُ كالمطرِ ، ينصبُّ عطاءً .

١٣ ـ إذا أخلَفَتْ أخلافُ مُزْنٍ، كفى بهمْ عـنِ المُعْصِـراتِ الصَّيِّبـاتِ خـلائفـا

إذا تغيَّرَتْ أوقاتُ السحبِ ، وتأخَّرَ الزَّرعُ عن نموِّهِ ونضجِهِ ، أجْزَأَهُمُ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ عنِ السحبِ الحاملةِ المطرَ الغزيرَ بامتلاءِ ضروعِ الأيْنُقِ لبناً غزيراً .

١٤ ـ همُ الراعفونَ السابقونَ إلى العُلا إذا زعْـزَعـوا يـومَ اللقـاءِ الـرَّواعِفـا

فهمْ مريقو دمِ الأعداءِ حاملوا الأسلحةِ ، المتقدِّمونَ إلى المجدِ إذا حرّكوا يومَ الحربِ الشديدَ سيوفَهُمُ التي تَقطِرُ بدمِ الأعداءِ .

١٥ ـ فما عـرفـوا إلاّ الـدروعَ غـلائِـلا ولا عَـرَفـوا إلاّ السيـوفَ مَعـاطِفـا

فما وجَدوا إلاّ الدروعَ أرديةً ، ولا اتَّخذوا إلاّ السيوفَ مآزرَ .

١٦ ـ ترى الجارَ فيهمْ أينما مَدَّ طرفَهُ رأى رامحـاً منهـم وآخـرَ سـائِفـا

وإنْ أردْتَ أنْ تعلمَ حالَ الجوارِ فيهم تَجدِ الجارَ آمناً ، لا يُصْدِرُ نَظَرَهُ إلى ناحيةٍ إلاّ سبقَهُ إليها جارُهُ حاملاً رمحَهُ أو سيفَهُ حامياً إيّاهُ إذا نابَهُ أمرٌ جلَلٌ .

١٧ ـ إلى ظِلِّهِمْ يأوي الكرامُ كما أوى إلـى حَـرَمِ اللهِ الحَمـامُ ، أو ألِفـا

يأوي إلى كنَفِهِمُ الرجالُ الأسيادُ كما يأوي الحَمامُ إلى حَرَمِ اللهِ الشريفِ ، ويلتزمُ ببقائِهِ فيه .

١٨ ـ وإنَّ ببطنِ الأيكِ مِنْ ساكناتِهِ رعابيبَ ، يصْطَدْنَ القلوبَ شواغفا

وبداخلِ تلكَ الأرضِ منْ قاطناتِهِ فتياتٌ بيضٌ طويلةٌ حسناواتٌ ، يَفْتِنَّ القلوبَ ، ويُصِبْنَ أغلِفَتَها .

١٩ ـ نَشَأْنَ شبيهاتٍ ببيضِ نعامِهِ نواعمَ بيضاً بالفلاةِ ألائفا

نَمَونَ كصغارِ طيرِ النعامِ بعدَ خروجِها منَ البيضِ رقيقةً ، وانتشَرْنَ بالأرضِ الخاليةِ التي اعتادَتْ على العيشِ بها .

٢٠ ـ وأسْبَلْنَ خدوداً ، واحْوَرَرْنَ نواظراً وطُلْنَ قدوداً ، وابيضَضْنَ سوالفا

وكأنهنَّ قد تَحَكَّمْنَ بما أردْنَ منَ الحسنِ والجمالِ ، فكانتْ خدودُهُنَّ كإرخاءِ الإزارِ رِقَّةً ، وعيونُهُنَّ حوراً ، وقاماتُهنَّ طويلةً ، وصفحاتُ أعناقِهنَّ بيضاً ناعمةً .

٢١ ـ وأشْبَهْنَ أفواهاً أفاويهُ طيبِها فطِبْنَ أحاديثاً ، وطِبْنَ مَراشِفا

وماثَلْنَ في روائِحِهِنَّ نَوافحَ الطِّيبِ ، فَحَسُنَتْ أحاديثُهنَّ ، ولَذَّ رِضابُهنَّ .

٢٢ ـ ترى كلَّ جيداءٍ ، تُنَصِّبُ جيدَها كما رُعْتَ ظَبْياً بالصريمةِ حاقفاً

وتجدُ كلَّ فتاةٍ ذاتِ عُنُقٍ طويلٍ ، ترفعُ رأسها ، وتمُدُّ رقبتَها كما يَمُدُّ الغزالُ رقبتَهُ بقطعةِ الأرضِ الرمليةِ إذا انتابَهُ الخوفُ .

٢٣ ـ يُلِمُّ بجارِ اللهِ طائفُ جَنَّةٍ إذا ما خيالٌ ، زارَ منهنَّ طائِفا

وإذا ما طافَ حولَ الكعبةِ شخصٌ ، فمرَّ بالزمخشريِّ جارِ اللهِ محمودٍ ، يُحِسُّ هذا الأخيرُ كأنَّ زائراً منَ الجَنَّةِ ، قد أتاهُ .

٢٤ ـ يكادُ لِزيغاتِ الصِّبا ، يَسْتَفِزُّهُ ويدعو إليهِ ذاهبُ اللهوِ هاتِفا

وتوشكُ أهواءُ الشبابِ أَنْ تَسْتَخِفُّ بهِ ، ويَسوقُهُ إليهِ طريقُ اللهوِ مُغْرِياً إياهُ بهِ .

٢٥ ـ وهيهاتَ هل يصبو ابْنُ سبعينَ حِجَّةً وقد راحَ للموتِ الذريعِ مُشارفا

وكم كانَ لهوُ الشبابِ بعيداً عمنْ صارَ عمرُهُ سبعينَ سنةً ،واقْتَرَبَ منَ الرَّدَى السريعِ الذي لابدَّ منهُ .

٢٦ ـ كفاني مشيبي والمروءةُ والتُّقَى صوارفَ عنْ غيرِ الجميلِ صوادِفا

وقد أجزأني بياضُ شعرِ رأسي وكمالُ رجولتي وخوفي منَ اللهِ تعالى عنِ الانغماسِ في

الفتنةِ والشَّرِّ ، وجعلني مُعْرِضاً عنهما .

٢٧ ـ ومنْ زلَّ عنْ ظهرِ الشبيبةِ يَنْقَلِبْ   إلى اللهوِ داعيهِ عنِ اللهوِ صارِفا

ومنِ ابتعدَ عن طريقِ الفتوةِ واللهوِ يَنْصَلِحْ حالُهُ ، ويَسُقْهُ طريقُ الهُدى إلى الخيرِ ، ويُبْعِدْهُ عنِ الضلالِ .

٢٨ ـ وإنـي لأسْتَحِيـي مـنَ اللهِ كلّما   ذكَـرْتُ مـع التفـريـطِ العـواطِفـا

وأمتلئُ حياءً وخجلاً منَ اللهِ تعالى كلَّما وجدْتُ نفسي ، تتحدَّثُ عنِ العواطفِ ، وهي مُقَصِّرَةٌ في واجباتِها .

٢٩ ـ وكـم أنعُـمٍ للهِ عنـدي ، قَبَضْنَنـي   بعجزٍ ، فلم أبسُطْ لها القولَ واصِفا

وكم منْ أيادٍ للهِ تعالى ، تناولَتْني ، وخَلَّصَتْني منَ الضعفِ الذي انتابَني ، ولم أشْكُرْ لها صنيعَها فيَّ بقصيدةٍ ، تَصِفُ تلكَ الفواضلَ .

٣٠ ـ يُضاعِفُها لي كلَّ تكريرِ لمحةٍ   غنـيٌّ كـريـمٌ ، لا يـزالُ مُضـاعِفـا

وأرى اللهَ تعالى ذا الوَفْرِ والجودِ ، يزيدُ تلكَ النعمَ في كلِّ إعادةِ نظرةٍ ، ويَسْتَمِرُّ في تلك الزيادةِ ، لا يَقطعُها .

٣١ ـ نمـانـيَ مِـنْ آبـاءِ صـدقٍ أعفَّـةٍ   ومـنْ أُمَّهـاتٍ ، قـد عُـرِفْـنَ عفـائِفـا

وجعلَني من نَسْلِ أجدادٍ وأبٍ ، كُفُّوا عمّا لا يَحِلُّ ، وأُمَّهاتٍ وأُمٍّ ، قد شَهِدَ الناسُ كلُّهم برفضِهِنَّ الشَّرَ والذُّلَّ .

٣٢ ـ وأسنُدُ ديني واعتقادي ومذهبي   إلـى حُنَفـا ، أختـارُهُـمْ وحنـائِفـا

واعتمدُ في تعاليمِ ديني وإسلامي وطريقي على رجالٍ ، أصطفيهمْ لأنهمُ استقامَتْ أخلاقُهُمْ ومذاهِبُهُمْ .

٣٣ ـ حنيفيَّـةٌ أنسـابُهُـمْ ، حنفيـةٌ   مـذاهبُهُـمْ لا يَبْتغـونَ الـزعـانِفـا

وديانَتُهُمْ سليمةٌ ، مستقيمةٌ مِنَ العِوَجِ ، وطرقُهُمْ في فهمِ الشريعةِ والعبادِ ، ترجعُ إلى أبي حنيفَةَ النعمانِ إمامِ المذهبِ المعروفِ في الفقهِ ، لا يحبونَ ، ولا يقربونَ الطائفيةَ ومُدّعي الفقهِ والعلمِ .

٣٤ ـ همُ حَنَّكوني بالرشادِ ، فلم أزلْ   بتمييـزٍ بيـنَ الغَـيِّ والـرُّشْـدِ عـارفـاً

همُ الذينَ فَهَّموني الصوابَ حتى صِرْتُ ، أفرِّقُ بينَ الضلالِ والسَّدادِ .

٣٥ ـ وألْقَوا على عِطْفَيَّ مِنْ حُلَلِ التُّقى   طيـالـسَ ، صـانـونـي بهـا ، ومطـارفـا

ولما اكتملْتُ علماً ، رمَوا على كَتِفيَ أكسيةً وأُزُراً ، يَلْبَسُها الأتقياءُ ، تُمَيِّزُني عنِ الجُهّالِ .

٣٦ ـ وأخْرجَني علاّمةٌ ، مِلْءُ بردِهِ مناقِبُ ، يُحْيينَ القرونَ السوالِفا

وأجازني عالمٌ علاّمةٌ ، يملِكُ مكارمَ ، تبعَثُ السنينَ السابقةَ بأمجادِها .

٣٧ ـ يُضِئْنَ وجوهَ المنصفينَ تَهَلُّلا ويُرْغِمْنَ منْ أهلِ العنادِ مراعِفا

تُنيرُ وجوهَ العادلينَ في احكامِهِمْ ثناءً وسنىً ، وتضرِبَ أنوفَ مخالفي الحقِّ .

٣٨ ـ إذا تُلِيَتْ صَدَّ المناوونَ شُمَّخاً وقامَ إليها المنصِفونَ مناصِفا

إذا ما قُرِئتْ أقوالُ الحقِّ صاحَ المعادونَ تَكَبُّراً عليها وتسفيهاً لها ، وهبَّ العادلونَ الأتقياءُ دفاعاً عنها وإنصافاً لها بإعطائها حقَّها منَ الثناءِ والعدلِ .

٣٩ ـ تراني في علمِ المُنَزَّلِ عالماً وما أنا في علمِ الأحاديثِ راسِفاً

وإذا ما لَقيتَني تَجِدُني في علومِ القرآنِ الكريمِ مُتَمَكِّناً في فهمِهِ وفي علوم الأحاديثِ الشريفةِ ثابتاً .

٤٠ ـ فَلِلسُّنَّةِ البيضاءِ فيَّ مناجِحٌ ويبغي كتابُ اللهِ مِني المعارِفا

وتَلْقى السُّنَّةُ المنيرةُ بي سُبُلَ الفوزِ في فهمِها ، ويريدُ كتابُ اللهِ تعالى مني تفسيرَ آياتِهِ .

٤١ ـ وما أنا منْ علمِ الدياناتِ عاطِلاً بأحسنِ حَلْيٍ ، لم يزلْ شائِفا

ولم أكن بعلمِ الدياناتِ الأخرى جاهلاً ، بل كنتُ مُزَيَّناً بمعرفةِ آفاقِها بأفضلِ شاهدٍ لها .

٤٢ ـ فكم قد وَحَتْ يُمنايَ منهُ دفاتراً وكم وَعَتْ أُذنايَ منهُ وظائِفا

فكم منْ كتابٍ ، وضعَتْهُ يميني ودفترٍ ، وكم منْ قولٍ ، أدركَتْهُ أُذُنايَ .

٤٣ ـ وما للغاتِ العُرْبِ مثلي مُقَوِّمٌ أبى كلُّ نَدْبٍ متقنٍ أنْ يُخالِفا

ولم يكُنْ لِسَقطاتِ علماءِ العربِ أحدٌ مثلي مُصَوِّبٌ لها ، إذْ إنَّ كلَّ مطلوبٍ حاذقٍ في علوم اللغةِ العربيةِ ، لا يَجْرُؤُ أنْ يُغَيِّرَ شيئاً مما قرأَهُ ، أو سمعَهُ عنْ علمائِها ؟ .

٤٤ ـ وليسَ لِتثقيفِ الرماحِ كَسَمْهَرٍ ولستُ كَعَمْرٍو في الرمايةِ ثاقِفا

وقد قالَ رسولُ اللهِ ﷺ ، « كلٌّ مُسَيَّرٌ لِما خُلِقَ » [البخاري ٤٩٤٩ ـ مسلم ٢٦٤٩] فليسَ لتقويم الرماحِ رجلٌ مثلُ سَمْهَرٍ وزوجتِهِ رُدَينةَ ، وليسَ لإصابةِ الهَدَفِ رجلٌ مثلُ عمرِو بنِ تِقْنٍ الذي ضربَ العربُ المثلَ بإصابةِ رَمْيِهِ ، فقالوا : (أرمَى مِنِ ابنِ تِقْنٍ) [مقامات الزمخشري ـ حاشية مقامة العمل ص ٧] .

٤٥ ـ أُقَيِّدُ عندي سِرَّها وصميمَها وأنفي أشاباتٍ سُدًى ولفائِفا

وأُبيِّنُ في ما أكتبُ أصلَ اللغةِ العربيةِ وخالِصَها ، وأمسحُ ما زادَ عليها ، واختلطَ بها ، لأنَّ ذلكَ ، يُنَقِّيها منَ الخطإِ والزللِ الذي أصَابَها .

٤٦ ـ وبي يستعيذُ النحوُ منْ أنْ يسوسَهُ نُهًى ، لم يَجِدْها الذائقونَ حصائفا

وإليَّ يلجأُ علمُ نحوِ اللغةِ العربيةِ إذا ما وقفَتْ عليهِ عقولٌ ، لم يَرَها خُبَراؤهُ حكيمةً ، فأضعُ الأمورَ في نِصابها وموقِعها .

٤٧ ـ فقلْ : أينَ خلَّى سيبويهِ كتابَهُ يَقُلْ : حِجْرُ جارِ اللهِ مأوايَ حالِفا

وإنْ سألْتَ الناسَ عن كتابِ سيبويهِ في النحوِ المُسَمَّى (الكتابُ) يُجبْكَ (الكتابُ) نفسُهُ : إني في عقلِ الزمخشريِّ جارِ الله محمودِ بنِ عمرَ ، فهو منزلي وصديقي .

٤٨ ـ وما في رواةِ الكُتْبِ راويَةٌ لهُ سوى واحدٍ ، فانظرْ ، فلستَ مصادفا

إذ ليسَ في حَفَظَةِ الكتابِ حافظٌ لكتابِ (الكتابِ) إلاّ واحدٌ هو الزَّمخشريُّ ، فتفكَّرْ أيها الرجلُ بما أقولُ ، فلستَ مقابلاً في بحثِكَ غيرَهُ .

٤٩ ـ ولو لم تكُنْ لي غيرَ هذي فضيلةٌ لَبَرَّزْتُ سباقَ الأضاميمِ راعفا

فإنْ لم تكُنْ لي ميزةٌ غيرَ حفظي هذا (الكتابَ) فإني أستطيعُ أنْ أصفَ تَقَدُّمَ جماعاتِ العلماءِ في الحديثِ عنه .

٥٠ ـ وعِلْما المعاني والبيانِ كلاهما أزُفُّ إلى الخُطَّابِ منه وصائفا

وإني خبيرٌ بِعِلْمَي المعاني والبيانِ ، أُسْرِعُ إلى خُطّابِ المنابرِ ، وأُبيِّنُ لهمْ مايَتَوَجَّبُ عليهمْ إنْ أرادوا أنْ يتخذوا الخطابةَ صنعةً .

٥١ ـ وصائفُ زَيناتٌ ، يُتَيِّمْنَ ذا الحِجَى وإنْ كانَ عِزْهاةً عنِ اللهوِ عازفا

وللغةِ العربيةِ نعوتٌ وصفاتٌ ، تقومُ على تعظيمها ، وتأخُذُ بلبِّ صاحبِ العقلِ والفكرِ ، ولو كانَ زاهداً بالنساءِ ، لا يميلُ إليهنَّ ، ولا يُشَبِّبُ بهنَّ .

٥٢ ـ إذا ما اجْتلاهُنَّ الحليمُ ، ازدَهَينَهُ فرقَّصَ فودَيهِ ، وهَزَّ المعاطفا

وإذا ما قامَ العاقلُ الحكيم بمناظرةِ تلكَ النعوتِ نعوتِ علوم اللغةِ العربيةِ اسْتَخْفَفْنَ بهِ ، وجعَلْنَهُ أقربَ إلى الرجلِ الجاهلِ الذي يَهُزُّ شعرَ جانِبَي راسِهِ وأرديتَهُ طرباً .

٥٣ ـ بناتٌ ليَ ، اسْتَولَدَتْهُنَّ قريحتي فجئنَ هشاميّاتِ صدقٍ شرائفا

ولي مؤلفاتٌ في اللغةِ العربيةِ كثيرةٌ ، أنتجَتْهُنَّ سَجيَّتي ، فكانتْ أصيلةً منسوبةً إلى

هشامِ بنِ عبدِ منافٍ أحدِ أجدادِ الرسولِ ﷺ ذاتَ عزٍّ ومكانةٍ عظيمةٍ .

٥٤ ـ نجائبُ قد نازَعْنَ نسبةَ مُقْرِمٍ نجيبٍ لأنجابٍ ، وعِفْنَ المَقارِفا

فهي كالأبناءِ الكرامِ ، فاخَرَتْهُمْ مفاخرةَ ذي أصلٍ شريفٍ بانتِسابها إليَّ وكرِهِها الاختلاطَ بالأجانبِ .

٥٥ ـ وعلمُ القوافي والأعاريضِ شاهدٌ بفسحةِ خطوي فيه ، إذ كنتُ زاحفا

وها هو علمُ العروضِ والقوافي ، يشهدُ لي ، ويعترفُ بسعَةِ خطواتي في النظمِ على أكثرِ البحورِ مذْ كنتُ في بدءِ نظمي الشعرَ كالطفلِ الذي يحبو على الأرضِ .

٥٦ ـ أقَرَّتْ بيَ الآدابُ أصلاً لها ، ومَنْ رأى مَشْرَفيّاتٍ ، جَحَدْنَ المشارفا ؟

واعترفَتْ فنونُ الأدبِ بي أساساً لها ، ومنْ هو الذي رأى سيوفَ الشامِ ناكرةً أصولَها ؟ .

٥٧ ـ وديوانُ منظومي ، يريكَ بدائعاً وديوانُ منثوري ، يريكَ طرائفا

وديوانُ شعري ، ترى فيه قصائدَ ذاتَ معانٍ ، لم تَسْمَعْ بمثلِها ، وكتبي التي جمعَتْ نَثْري ، تجدُ فيها ألواناً عجيبةً من عيونِ الأدب .

٥٨ ـ هما روضتا حَزْنٍ تدلّى عليهما حَيِيُّ ربيعٍ أرسلَ الدمعَ ذارفا

فما كتبْتُ منْ شعرٍ ونثرٍ حديقتا عناءٍ وشِدَّةٍ ، دنا منهما سحابٌ قريبٌ منَ الأرضِ في فصلِ الربيعِ ، ثم أرسلَ عليهما مطراً غزيراً كدمعِ العينِ الغزيرِ من شِدَّةِ الحُزْنِ .

٥٩ ـ فواهاً له منْ وارفٍ إثْرَ ذارفٍ تخايلَ وَحْفاً بينَ أهضامِ واحفا

فيا حُزْناً عليهِ منْ ظِلٍّ واسعٍ ممتدٍّ ، يتتابعُ نزولُ المطرِ عليه إذ تفاخَرَ على الطيرِ ذي الجناحَينِ اللذينَ غَزُرَ ريشُهما ، وهطلَ عليه المطرُ وابلاً ، دائمِ الطيرانِ في بطونِ الأودية .

٦٠ ـ ونشَّرَ منْ أفوافِ كُتْبٍ ، وَشَيْتُها بأيدي النُّهى في الخافقَينِ زخارفا

وأرسلْتُ منْ موضوعاتِ كتُبٍ ، زَيَّنْتُها بأقلامِ العقولِ المضيئةِ ، شرقاً وغرباً ، كانَتْ ألواناً منْ محاسنِ القولِ .

٦١ ـ تَطِنُّ بها الآفاقُ حتى كأنما أهبَّ بها اللهُ الرياحَ العواصفا

تتذاكرُ بها نواحي البلادِ ، وكأنَّ اللهَ ، أثارَ بها الرياحَ الشديدةَ ليطَّلِعَ عليها كلُّ إنسانٍ على وجهِ البسيطةِ .

٦٢ ـ غرستُ بها دوحاً مِنَ العلمِ مائلاً يَدَي كلِّ جانٍ ، وهو دانٍ مقاطفا

وزرعتُ بها أشجاراً عظيمةً مِنَ العلمِ ، وملأتُ يَدَي كلِّ مُتَعَلِّمٍ ما يريدُ أنْ يقطفَ منها ما هو بحاجةٍ إليهِ .

٦٣ ـ كأنَّ ثُباتِ الآخذينَ علومَها جُناةُ نخيلٍ ، يقطفونَ المخارفا

فَتَرى جماعاتِ المُتَعَلِّمينَ كأنهمْ قُطّافُ ثمرِ النخيلِ منَ البساتينِ .

٦٤ ـ تُلَقِّيكَ حِلْما ، أو تفيدُكَ حكمةً إذا طالَعَتْ عيناكَ تلكَ الصحائفا

تُقَدِّمُ لكَ أناةً وعقلاً ، أو تنفَعُكَ في إصدارِ نصٍّ منْ أحكامِكَ ، إذا قرأتْ عيناكَ تلكَ الكتبَ والكراريسَ .

٦٥ ـ كأنكَ ، إنْ ألقَيتَ ذهناً ، مُجالسٌ أكاثمَ عقّادي الحِبا وأحانفا

فَتَتَحَوَّلُ في مجلسِكَ ؛ إذا نطقْتَ قولاً تَرَى رجالاً ، يشدُّونَ أرجلَهُمْ إلى أضلاعِهِمْ ، ويَسْخَونَ بأقوالِهِمْ وأفعالِهِمْ ، وتصيرُ كأكْثَمِ بْنِ صَيفيٍّ التميميِّ حكيمِ العربِ في الجاهليةِ والأحنفِ بنِ قيسٍ حكيمِهِمْ في الجاهليةِ والإسلامِ .

٦٦ ـ وناهيكَ بالكشّافِ كنزاً ، نضارُهُ يُعَلِّمُ تمييزَ الجيادِ الصيارفا

ويكفيكَ كتابي (الكشّافُ عنْ حقائق غوامضِ التنزيلِ وعيونِ الأقاويلِ في وجوهِ التأويلِ) ذُخراً لفهمِ القرآنِ وعلومِهِ ، فإنَّ محاسنَهُ ، تُبَيِّنُ الفرقَ بينَ أقوالِ المصيبينَ الحَذَقةِ وأقوالِ غيرِهمْ .

٦٧ ـ وتَخْفِقُ أوراقُ المصاحفِ هِزَّةً لِزُهْرِ معانٍ ، يزدهينَ المصاحفا

فَتَهْتَزُّ لها أوراقُ القرآنِ سروراً لجودةِ المعاني التي أتى بها تفسيراً لِآياتِهِ والتي تباهي معانيَ غيرِهِ منَ المفسرينَ .

٦٨ ـ فما في بلادِ الشرقِ والغربِ ناقدٌ يُقَلِّبُها دهراً ، فَيُخْرِجُ زائفاً

ولا تجدُ في بلادِ الخافقَينِ أحدٌ ، ينظُرُ في أوراقِ (الكشّافِ . . .) زمناً طويلاً ، فيقَعُ فيها على شيءٍ رديءٍ .

٦٩ ـ وليتَهُمْ بالغوصِ بعدَ إطالةٍ لِفِكْرِهِمُ يدرونَ تلكَ اللطائفا

وأتمنّى لو أنهمْ إذا أَمْعَنوا النظرَ ، وأطالوا تفكيرَهمْ به ، أدركوا حسنَ تراكيبِهِ .

٧٠ ـ أبى صاحبُ (الكشافِ . . .) إلاّ إصابةً لِما ارتدَّ عنه صائبُ النبلِ صائفا

ولم يقبلِ الزمخشريُّ صاحبُ (الكشاف . . .) عدولاً عنِ الصوابِ في اللفظِ المناسبِ المعنى لِما جاءَهُ منْ ناقضٍ شيئاً ، لم يُوَفَّقْ بإيرادِ رأيهِ .

٧١ ـ وسُمِّيتُ بينَ العُرْبِ والعُجْمِ رُحْلَةً إلــيّ يَــزْجُّــونَ المَطِــيَّ عــواسفــا

وجَعَلَني الناسُ عُرْبُهُمْ وأعاجمُهُمْ غايةَ رِحلاتِهِمْ في طلبِ العلمِ ، فهمْ يضربونَ دوابَّهُمْ لتسرعَ ليلاً ونهاراً في سيرِها .

٧٢ ـ يَؤُمُّونَ قَذّافاً بأشياءَ ، لم تكنْ بــأمثــالِهــا خُضْــرُ البحــورِ قــواذفــا

يأتونَ مُطْلِقاً أحكاماً وآراءً وألفاظاً ، لم ترمِ بأشباهِها البحورُ المحيطاتُ .

٧٣ ـ تُزانُ حواشي الكتْبِ منها بِزُخْرُفٍ تــراهُ ، فتنسَــى الــرائــعَ المتنــاصفــا

وتوضَعُ للكتبِ حواشٍ مأخوذةٌ منْ كتبي ، فتكونُ زينةً لها ومدعاةً لنسيانِ وإهمالِ ما جاءَ فيها منْ حسنٍ واكتمالٍ .

٧٤ ـ أمــالٍ كــآمــالٍ أتَتْــكَ فُجــاءةً فأصبحتَ مغبوطاً ، وقد بتَّ لاهفا

وكانَتْ أقوالُكَ التي كنتَ تأمُرُ يا زمخشريُّ طُلّابكَ بكتابتِها ، تُشبهُ أمنياتِكَ التي تريدُ أنْ تَتَحَقَّقُ سريعاً ، وتقضي ليلكَ بانتظارِ ما رجوتَهُ ، وغدوتَ سعيداً بما نِلْتَهُ منْ فوزٍ :

٧٥ ـ ألم تَرَ أني ـ حيثما كنتُ ـ كَعبَةً يَحفّــونَ بــي كــالطــائفيــن طــوائفــا

ألم تجدْني أيُّها الحاسدُ في أيِّ مكانٍ ، أنزِلُهُ ، مَوئِلاً للعلماءِ ، يَلْتَفّونَ حولي التفافَ الطائفينَ بالكعبةِ المشرفةِ جماعاتٍ جماعاتٍ .

٧٦ ـ فَشَرْقِيُّهُمْ ، يهوي إلى النورِ قابساً وغربِيُّهُمْ ، يَسْعَى إلى البحرِ غارفاً

فَمَنْ يَأْتِ إليَّ منْ ناحيةِ الشرقِ ، يَتَّخِذْ شُعْلَةً منْ نارٍ ، يهتدي بها إليَّ ، ومَنْ يَأْتِ إليَّ منْ ناحيةِ الغربِ ، يَجْعَلِ النجومَ في إبحارِهِ هاديةً إياهُ إليَّ .

٧٧ ـ وأصبحتُ ممدوحاً بكلِّ مُمَدَّحٍ تَـرَى مجلسَ الأمجـادِ لـي متـواصفـا

وصارَ الناسُ ، يُثْنونَ عليَّ بكلِّ ما هو جديرٌ بالثناءِ ، وصارَ منتدى الأشرافِ مركزاً لتباريهم في وصفي عالماً فقيهاً شاعراً أديباً .

٧٨ ـ ودونَكَ ديوانَ المدائحِ ، فاطَّلِعْ تَجِــدْ نــاظمــاً فــي الثنــاءِ وراصفــا

وهاك ديوانَ المدائحِ ، فاقرأْهُ ، تَلْقَ فيهِ ممّا نُظِمَ فيه منَ القصائدِ المُرَتَّبَةِ في الثناءِ عليَّ العَجَبَ .

٧٩ ـ وأيّدَ مِنْ عزمي على أنني ، أرى قِــوايَ رثــاثــاً والعظــامَ رواجفــا

وقَوّى مِنْ هِمَّتي ما وجَدْتُ منْ قوتي ضَعْفاً ومنْ عظامي اضطراباً .

٨٠ ـ فما زِلْتُ أطوي شُقَّةً بعد شُقَّةٍ سَبــاسِــبَ ، تغتــالُ السُّرَى ونفــائفــا

وداومتُ على السفرِ ، أقطعُ مسافةً بعدَ مسافةٍ ، وأجتازُ الفلواتِ والأراضيَ البعيدةَ التي تُهلِكُ منْ أطالَ المشيَ فيها ليلاً .

٨١ ـ لأُلقِيَ في بطحاءِ مكةَ أرحلي أُمَحِّصُ قلباً للذنوبِ مُقارفا

لأرميَ في أرضِ مكةَ ما أحمِلُهُ منْ حاجاتٍ وأثاثٍ ، وأُخَلِّصُ قلبي مِنَ الذنوبِ التي ارتكبْتُها .

٨٢ ـ فجاوَرْتُ ربي ، وهو خيرُ مُجاوِرٍ لدى بيتِهِ البيتِ المُحَرَّمِ عاكفا

وجعلْتُ مسكني في بيتِ ربي البيتِ الحرامِ ، وكنتُ مجاوِرَهُ ، وهو أفضلُ مُجاوِرٍ ، وصرتُ مُقْبلاً عليه مُواظباً على الصلاةِ والجلوسِ فيهِ في أغلب الأوقاتِ .

٨٣ ـ أقمتُ بإذنِ اللهِ خمساً كواملاً وصادفْتُ سبعاً بالمُعَرَّفِ واقفا

وكنتُ مقيماً بفضلِ اللهِ خمسَ سنواتٍ كاملةٍ بجوارِ ربي ـ عَزَّ ، وجلَّ ـ وقابلْتُ الموقفَ بعرَفاتٍ سبعَ مَرّاتٍ ، وكنتُ واقفاً بهِ مع الواقفينَ .

٨٤ ـ ظَلِلْتُ معَ العُمّارِ مُعْتَمِراً لهُ وبتُّ مع الطُّوّافِ بالبيتِ طائفا

وكنتُ مُواظباً على الزيارةِ مع الزُّوّارِ زائراً ، ومُداوماً على الطوافِ معَ الطائفينَ بالبيتِ العتيقِ طائفاً .

٨٥ ـ وتَمَّ ليَ (الكشافُ . . .) ثَمَّ بِبَلْدَةٍ بها هَبَطَ التنزيلُ للحقِّ كاشفاً

وكتبْتُ في مكةَ حيثُ نزلَ بها القرآنُ الكريمُ الكاشفُ المظهرُ الحقَّ ، وكانَ فضلُ اللهِ عليَّ عظيماً بإكمالِهِ .

٨٦ ـ وَزُرْتُ ابنَ عباسٍ بِوَجٍّ ، ونَمْنَمَتْ يدي عندَ رأسِ الحَبْرِ منهُ طرائفا

وذهبتُ إلى الطائفِ إلى الوجِّ واديها ، فزرْتُ قبرَ ابنِ عمِّ رسولِ اللهِ ﷺ عبدِ اللهِ بنِ العباسِ ، وكتبْتُ بيدي عندَ رأسِهِ العالمِ الصالحِ أموراً جديدةً معجبَةً .

٨٧ ـ بمكةَ آخيتُ الشريفَ وفِتيةً حواليهِ منْ آلِ النَّبيِّ خطارفا

وفي مكةَ المكرمةِ كانَتْ مؤاخاتي شريفَ مكةَ عُلَيَّ بنَ عيسى ابنَ وهّاسٍ وجماعةَ شبانٍ منْ أهلِ النبيِّ ـ صلواتُ اللهِ عليهِ ، وسلَّمَ ـ الشرفاءِ الكرام .

٨٨ ـ وكنتُ عليهمْ منْ أعزِّ نفوسِهِمْ أعزَّ ، وكلٌّ كانَ صِنْواً مُلاطِفا

وكنتُ حبيباً إليهمْ أحبَّ مِنْ أحبِّ الناسِ إليهمْ ؛ وكانَ كلُّ فردٍ منهمْ أخاً وابناً وعمًّا لي بارًّا بي .

٨٩ ـ لِكلِّ مُوَالٍ لي وَليًّا مُناصحاً لكلِّ مُعَادٍ لي عَدُوًّا مكاشفا

وكنتُ لكلِّ صديقٍ لي صديقاً مؤدِّياً لهُ النصيحةَ الصافيةَ ، ولكلِّ عدوٍّ لي عَدُوًّا مخاصماً مظهراً لهُ أسبابَ وأنواعَ العداوةِ .

٩٠ ـ يُتابعُ إنْ نوظِرْتُ دَرْءاً لشاغبٍ ويَنْهضُ إنْ نوكِرْتُ ردءاً مكانفا

وكانَ الشريفُ ابنُ وهّاسٍ ، يُناصِرُني إنْ قامَتْ بيني وبينَ أحدٍ مناظرةٌ دفعاً لِشَرٍّ مثيرٍ منهُ ، ويهبُّ ثائراً إنْ تجاهلَني فردٌ ناصراً إيّاي مُحافظاً عليَّ .

٩١ ـ متى أقبَلَ العلّامةُ انتَفَضوا لهُ وحَيَّوهُ ، حَيَّى اللهُ تلكَ المعارفا

وكانَ الناسُ حينَ أُقبلُ عليهمْ ، يقولونُ : أقبلَ العلّامةُ ، ويهبّونَ إليَّ مُسَلِّمينَ عليَّ ، فأدعو اللهَ ـ عَزَّ ، وجلَّ ـ أنْ يُسَلِّمَ عليهمْ يومَ القيامةِ ، ويُثيبَهُمْ عنْ هذه المكارمِ بأفضلَ منها .

٩٢ ـ وهَشُّوا إليهِ باسطينَ أسِرَّةً بماءِ الحياءِ الهاشِميِّ نواطفا

ويندفعونَ نحوي فرحينَ ؛ وقد تلألأتْ محاسنُ وجوهِهِمْ بماءِ الحياءِ والكرمِ المعروفِ عنْ بَني هاشمٍ أجدادِ النبيِّ ـ عليه الصلاةُ والسلامُ ـ .

٩٣ ـ كركبِ عطاشٍ بعدَ يأسٍ، تباشَروا بأنْ أبصروا ذا هَيدَبٍ متكاثفا

وكانوا مثلَ جماعةٍ ، طالَ سَفَرُها ، واشْتَدَّ عطشُها ، وقَنِطَتْ منْ وجودِ الماءِ ، فاسْتَبْشَرَتْ برؤيةِ سحابةٍ حاملةٍ المطرَ الغزيرَ .

٩٤ ـ وكانَ ابنُ وهّاسٍ لجنبيَ فارشاً كما تَفْعَلُ الأمُّ الحفيَّةُ لاحفا

وكانَ عُلَيُّ بنُ عيسى ابنُ وهّاسٍ ، يُهَيِّئُ لي مَهْداً ، يريحُ جنبي ، وغطاءً ، يحفظُني ، كما تُهَيِّئُ الأمُّ المبالغةُ في حبِّ ولدِها وصيانتِهِ ممّا يؤذيهِ .

٩٥ ـ رأيتُ معَ الإجلالِ منهُ تَكَرُّماً كما صابَ رِبْعِيُّ الحيا مترادفا

وقد شاهدتُ منه إجلالاً مصحوباً بإكرامٍ كما تأتي السماءُ بالمطرِ مصحوباً أو تالياً مجيءَ فصلِ الربيعِ .

٩٦ ـ على بابِ أجيادٍ بَنَى منزلاً كركْنِ شَمامٍ بالصفا متراصفا

وأمرَ ببناءِ دارٍ لي في منطقةِ بابِ أجيادٍ ، كانَ مجانِبَ جبلِ شَمامٍ مُتابعٍ لرصفِ جبلِ الصفا .

٩٧ ـ وأنفقَ في إتمامِهِ منْ تِلادِهِ ثقيلاتِ وزنٍ في البلادِ خفائفا

ودفعَ تكلفةَ بنائِهِ بالتمامِ والكمالِ منْ مالِهِ الخاصِّ دنانيرَ غاليةَ الثمنِ في مكةَ خفيفاتِ الحملِ خارجَها .

٩٨ ـ إراغـةَ أن أبقـى حِجـازيَّ خِطَّـةٍ وأزْوَرَّ عـن ذكـرِ العـراقَيـنِ حـانفـا

رغبةً منهُ في أنْ أكونَ أوّلَ نازلٍ في تلكَ المنطقةِ وساكنٍ فيها منْ أهلِ الحجازِ ، وأعْدِلَ عنْ ذكرِ العراقَينِ مسقطِ رأسي راغباً عنه .

٩٩ ـ وكيفَ بذي همٍّ شَعاعٍ ، ركابُهُ تَقَلْقَـلُ فـي غَـورٍ ونجـدٍ خَـوانفـا ؟

وكيفَ بصاحبِ همٍّ مُتَفَرِّقٍ هنا وهناكَ ، تطولُ أسفارُهُ في الوديانِ والجبالِ على دابةٍ ، تُميلُ رأسَها نحو راكِبِها ، وهي تعدو عَدْواً شديداً ، فلا ترى ما أمامَها ؟

١٠٠ ـ يُريكَ المغاني آهلاتٍ ، وينثني فيتـرُكُهـا قيعـانَ قَفْـرٍ صَفـاصِفـا

يجعَلُكَ ترى المنازلَ عامرةً بأهلِها ، ويميلُ عنها تاركاً إيَّاها كأنها أراضٍ مطمئنَّةٌ ، ليسَ فيها ديّارٌ .

١٠١ ـ فبينـا تـراهُ ملقيـاً لـرحـالِـهِ إذا هـو نـاوٍ لِلتَّـرَحُّـلِ آزفـاً

فما تراهُ رامياً أثاثَهُ وحاجاتِهِ عنْ دابّتِهِ حتى تجدَهُ عازماً على الرحيلِ في وقتٍ قريبٍ .

١٠٢ ـ ومـا ربْطُ نـزّاعٍ ، يَجُـذُّ حِبالَـهُ ويثنـي قَـويّـاتِ الأواخـي ضعـائفـا

وما عَقْدُ مشتاقٍ إلى أَهلِهِ شادًّا حِبالَهُ وجاعلاً إيّاها في حلقاتٍ قويةٍ دائماً .

١٠٣ ـ تـألَّـقَ بـرقٌ شـاقَـهُ فـي بـلادِهِ فنحـوَ مشـامِ البـرقِ أجفـلَ واجفـا

فقدِ التمعَ برقٌ ، أثارَ حنينَهُ إلى بلادِهِ ، فَجعلَ دابتَهُ ، تسرعُ في جَرْيِها بخُطاً ذاتِ إيقاعٍ متميِّزٍ لتصلَ إلى مصدرِ البرقِ .

١٠٤ ـ يكادُ وميضُ البرقِ، يخطَفُ قلبَهُ فمـرَّ إلـى الأُلاّفِ كـالبـرقِ خـاطفـا

يوشكُ التماعُ البرقِ أنْ يَستَلِبَ قَلْبَهُ ، فذهبَ مسرعاً إلى الأصدقاءِ المحبّينَ ، يُوَدِّعُهُمْ .

١٠٥ ـ تـذكَّـرَ أوطـانـاً لهـا ومسـارحـاً تـراعـتْ حِقـافـاً بينَهـا ومَخـالفـا

واسْتَعْرَضَ بخيالِهِ منازِلَ وملاعبَ ، تواجِهُ شِعاباً رمليّةً وأمكنةً ، يكثُرُ فيها شجرُ الخِلافِ .

١٠٦ ـ وركَّـبَ فـي مـا بيـنَ دَفَّـيَ هِمَّـةً وعِـزَّةَ نفـسٍ ، تُبغِضـانِ السَّفـاسفـا

وقد وضعَ اللهُ ـ عزَّ ، وجلَّ ـ بينَ جَنْبَيَّ عزيمةً وإباءَ نفسٍ ، تكرهانِ الأمورَ القبيحةَ .

١٠٧ ـ ولكـنْ عَلِيّـاتُ الأمـورِ وشُمُّهـا وإنْ كنـتُ خـوّاضـاً إليهـا المخـاوفـا

وترغبانِ في اقتحامِ الأمورِ العظيمةِ الشامخةِ ، ولو كانَ الوصولُ إليها ، تنتابُهُ المخاوفُ .

١٠٨ ـ وسَخَّى بنفسي عن طريفٍ وتالدٍ إبـاءُ كـريـمٍ منهـلَ اللَّـوم عـائفـا

وجَوَّدَ بنفسي ما أستطيعُ أنْ آخُذَهُ منْ إرثٍ عن آبائي وأجدادي ، وأُحْدِثُهُ ، رَفْضُ ماجدٍ طريقَ اللَّومِ والذَّمِّ وكُرْهُهُ إياهُ .

١٠٩ ـ وقاني شُحَّ النفسِ ربِّي ، فأفلَحَتْ بـأنْ لـم تُلِـقْ كفِّـي تليـدا وطـارفـا

وصانني ربُّ العالمينَ حِرْصَ النفسِ وجَشَعَها على الدنيا ، ففازَتْ بألاّ تحتفِظَ كفي بمالٍ مَوروثٍ أو مُحْدَثٍ .

١١٠ ـ فما هي إلاّ مَعْبَرٌ ، ليس ماكثًا بهـا المـالُ إلاّ ريثمـا كـانَ تـالفـا

وليستِ الحياةُ الدنيا إلاّ مَمَرًّا ، لا يدومُ بها المالُ إلاّ إلى حينِ يهلِكُ .

١١١ ـ فكم قيلَ لي : مابالكَ الآن مُدْقِعاً وقـد كُنْـتَ أغنـى أهـلِ بيتِـكَ آنفـاً ؟

وكم من مرةٍ سئِلْتُ : ما الذي جرى لكَ الآنَ ، فصرتَ شديدَ الفقرِ وكنتَ أغنى أهلِ بيتِكَ قبلاً ؟

١١٢ ـ سأبذلُ معروفي ، ومنْ كانَ عارفا سماجَةَ مَنْعِ العُرْفِ أَسْدَى العوارفا

سأجودُ بعطائي ، والذي كانَ ، يعلَمُ قبحَ مَنْعِ العطاءِ ، قد قَدَّمَ إليَّ خِدمةً ، لا أنساها لأنهُ ، جعلَني ، أُفَتِّشُ عمَّنْ لم يبلُغْهُ معروفي .

١١٣ ـ ووفَّقَني حتى وقَفْتُ نفائسي وأعلاقَ أسفاري ، فأبرحْتُ واقفا

وأرشَدَني اللهُ إلى طريقِ الحقِّ حتى جعلْتُ ما أملِكُ منْ مالٍ وحاجاتٍ ، تَعَلَّقْتُ بها في أسفاري ، فَضْلَةً ، أجودُ بها على الناسِ عَفْواً منْ غيرِ مسألةٍ منهمْ .

١١٤ ـ على مَشْهَدِ النُّعمانِ ، نُوِّرَ قبرُهُ كمـا نـوَّرَ الإسـلامَ بـالَـكَ سـالفـاً

على رؤوسِ الأشهادِ عندَ قَبْرِ أبي حنيفةَ النُّعمانِ بنِ ثابتٍ ، ودَعَوْتُ اللهَ تعالى أنْ يَمْلأَ قَبْرَهُ نوراً كما بَـيَّضَ قبلَ اليومِ الإسلامُ وجهَكَ : جبهتَكَ وجانِبَي وجهِكَ .

١١٥ ـ تنافِسُ بابُ الطاقِ بغدادَ كلّما رعَـى أهلُـهُ تلـكَ الـريـاضَ الأوانفـا

تُباري مَنْطِقَةُ بابِ الطاقِ حيثُ دُفِنَ النُّعمانُ بغدادَ كلَّها بكثرةِ زُوَّارِ ضريحِ الإمامِ النُّعمانِ كلّما ذكَرَ قطّانُ بابِ الطاقِ وبغدادَ الأحداثَ الماضيةَ .

١١٦ ـ وينتابُ أفواجُ العراقِ جِمامَها وليـسَ علـى طـولِ العِـراكِ نـوازفـا

وتَتَرَدَّدُ جماعاتُ أهلِ العراقِ إلى آبارِها الغزيرةِ التي لا تنقطعُ مياهُها على زِحامِ الناسِ الذي لا ينتهي .

١١٧ ـ وما زلْتُ وصّالاً لأرحامِ أُسْرَتي ... بِبِـرٍّ حَفِيًّـا بـالأداني مُسـاعِفـا

وكُنْتُ ، وما زلْتُ ، أَوَدُّ قرابتي ، وأصِلُ أفرادَ أسرتي بحبٍّ وعطاءٍ مبالغاً في إكرامي أقربَ الأقرباءِ منْ أهلي مُساعداً إيّاهمْ .

١١٨ ـ مِجَنًّا لهمْ أحمي الحقيقةَ رامياً ... وراءَهـمْ بـالنبلِ عنهـم مقـاذِفـا

وتُرْساً وسَدًّا ، أصونُ الحقيقةَ حقوقَ القرابةِ رامياً سهامي وراءَهم ضارباً كلَّ مَنْ يأتيهمْ بأذًى مِنْ أيّةِ جهةٍ .

١١٩ ـ وإنْ تأتِني منهمْ شَذاةٌ ، عركْتُها ... بجنبـي ، ولـم أقعـدْ لهـمْ مُتجـانِفـا

وإنْ أصابَتْني منهمْ أذيّةٌ احْتَمَلْتُها ، ولم أتَرَبَّصْ بهمْ ، ولمْ أُجانِبْهُمْ ، أو أَبتعدْ عنهمْ ، أو أُجافِهِمْ .

١٢٠ ـ وما جَرَّبَ ابْنُ العمِّ والأخُ كذبةً ... علـيَّ ، ومـا شـوهِـدْتُ للغَـدْرِ قـائفـا

ولم أسمَعْ ، وللهِ الحمدُ ، منِ ابْنِ عمٍّ أو أخٍ خبراً كاذباً عني أو عليَّ ، ولم يَرَني أحدٌ ، أَسْعَى غادراً بفردٍ منَ الأفرادِ .

١٢١ ـ وما زالَ صدقُ القولِ والجِدُّ شيمتي ... لَـدُنْ شَـبَّ أقـرانـي وكهـلاً ودالِفـا

وكنتُ ، وما زِلْتُ صادقاً في قولي وفعلي لأنَّ ذلكَ طبعي ، فُطِرْتُ عليهِ ، ونشأْتُ ، فصاحَبَني في صِبايَ وفُتُوّتي وفُتُوَّةِ أصحابي وكهولتي وثِقَلِ مشيتي .

١٢٢ ـ ومـا كنْـتُ عَيّـابـاً ولا مُتَعَبِّثـاً ... بـأعـراضِ أقـوامٍ ولا مُتَهـانِفـا

وما كُنْتُ يوماً ذاكراً وَصْمَةً عن أحدٍ مُحِبًّا اللهوَ بمحارمِ الناسِ ناطقاً بألفاظِ الخطإِ الفاسدِ والخَنا .

١٢٣ ـ ولم أرَ أطرافَ العذارى خَضيبةً ... فـأُتْبِـعَ عينـيَّ العيـونَ الطـوارفـا

ولم أشاهدْ يوماً جانباً منْ جوانبِ الفتياتِ الأبكارِ اللواتي لَوَّنَّ أَكُفَّهُنَّ واقدامَهُنَّ بالخِضابِ ، ولم أجعَلْ عينَيَّ ، تُوالي نظراتِها في ثقوبِ الخِباءِ أو أطرافِهِ لأرَى ما بداخلِهِ .

١٢٤ ـ وفيَّ على العزاءِ صبرُ ابْنِ حُرَّةٍ ... إذا اسْتَجْزَعَ الخطبُ النفوسَ العوارفا

وقد وهبَني اللهُ تعالى صبرَ ابْنِ كريمةٍ على الشدَّةِ إذا جعلَ الأمرُ الجلَلُ النفوسَ الصابرةَ حزينةً بِما أُصيبَتْ بِهِ .

١٢٥ ـ وظَنِّي أني بعضُ قافةٍ مُدْلجٍ   وما أنا لولا صِدْقِ حَدْسي قائفا

ولي فكرٌ قريبٌ منَ الاعتِقادِ أنني أعلمُ بالأمورِ بِتَتَبُّعِ آثارِها ، وهو علمُ بعضِ قبيلةِ مُدْلِجٍ ، ولستُ قائلاً بسببِ صِدْقِ ظنّي وتوهُّمي غالباً : إني قائفٌ من القافةِ الذينَ يعلمونَ الأمورَ بتتبُّعِ آثارِها .

١٢٦ ـ وبي رُكْنُ الصدقِ الإياسيِّ، كلَّما   نَكَأْتُ بظُفْري القرحَ أدمَيتُ قارفا

وبي تَفَرُّسُ صِدْقِ إياسِ بنِ معاويةَ المُزَنيِّ الشهيرِ بتحقُّقِ فِراستِهِ وظنِّهِ ، وكلّما قشرْتُ بظفري البَثْرَ أزَلْتُ ما في داخلِهِ منْ دمٍ فاسدٍ كما أفصِلُ المذنبَ عنِ البريءِ .

١٢٧ ـ ولم أرَ كالإنصافِ خِلاًّ لعاقلٍ   وما كان لي إلاّ صَفِيًّا مُخالفا

ولم أجدْ كالعدْلِ صديقاً للعاقلِ ، ولم يكنْ لي غيرُ العدلِ صديقاً خالصَ الصدقِ موافقاً معاهداً خالصَ العَهْدِ .

١٢٨ ـ وإني لَطَوعٌ في يديهِ ، كأنما   يقودُ جُمَيلاً هيِّنَ القَودِ آنفا

وإني رهنُ إشارتِهِ وطوعُ أمرِهِ، كأنهُ، يسوقُ جملاً صغيراً سهلَ القيادِ، بهِ وَجَعٌ في أنفِهِ .

١٢٩ ـ ألا إنَّ وضْعَ الخدِّ للحقِّ عزَّةٌ   ولا ذُلَّ إلاّ نيلُكَ العزَّ حائفا

وإنَّ خفضَ الخدِّ إقراراً بالحقِّ فضلٌ ومجدٌ ، ولا يكونُ الذُّلُّ إلاّ بالفوزِ ظنًّا بالعزِّ ظالماً .

١٣٠ ـ وإني لَعَرَّافٌ لذي الفضلِ فَضْلَهُ   ولستُ أحبُّ الجاهلَ المتعارفا

وإني لدائمُ الإقرارِ بفضلِ صاحبِ الفضلِ عليَّ ، وما كنتُ محبًّا ، ولن أُحبَّ يوماً الجاهلَ المتظاهرَ بالمعرفةِ والعلمِ .

١٣١ ـ وممّا يَهُدُّ الصدرَ ناسٌ، تَصَدَّروا   وليسوا بأهلٍ أنْ يُعَدُّوا رَوادفا

وممّا يُهَدِّمُ ، ويُكَسِّرُ ضلوعَ الصدرِ ، أفرادٌ ، وَضَعوا أنفسَهُمْ في صدرِ المجالسِ ، ولم يكونوا أهلاً أنْ يُعَدُّوا ، ويُحْسَبوا مساعدينَ ، فكيفَ يكونونَ رؤساءَ المجالسِ ؟

١٣٢ ـ فليتَ بلادَ اللهِ كانَتْ قُبَيلَ أنْ   يسودَ تُحوتُ السودِ فيها خواسفا

وكم أتمنّى لو أنَّ بلادَ اللهِ ، قد هُدِّمَتْ ، وأصابَها الخَسْفُ ، قبلَ أنْ يصيرَ الأرذالُ والسَّفَلَةُ أسياداً .

١٣٣ ـ وما تلكَ إلاّ أنعُمٌ ، قد تتابَعَتْ   سوالفُ أتلاهُنَّ ربّي أوانفا

وإني لأرى أنَّ تلكَ الحوادثَ كانَتْ نِعَماً وأفضالاً ، توالَتْ ، فكانَتْ دروساً ، مَضَتْ ؛

جَعَلَها اللهُ تعالى متقدمةً على أيامِنا التي نعيشُها .

١٣٤ ـ فيا ربِّ تَمِّمْها تَتِمَّةَ ماجدٍ بما يؤمنُ العبدُ الضعيفُ المُتالفا

فيا ربِّ أكملْ حياتَنا إكمالَ ذي عزٍّ وشَرَفٍ بما يوافقُ ، ويقدرُ عليهِ العبدُ الضعيفُ المؤمنُ الذي يُهلِكُ نفسَهُ ، ويُهْلِكُ معها ما يرافقُهُ في حياتِهِ ، في سبيلِ الحقِّ .

١٣٥ ـ ومالم أجدْ تلكَ التَّتِمَّةَ لم أجدْ مُهَنَّأةً تلكَ العطايا السوالفا

وإنْ لم أرَ ذلك الكمالَ لا أرَ الأُعطياتِ السابقةَ والنعمَ المتقدمةَ سعيدةً هانئةً بأصحابِها .

١٣٦ ـ فيا ربِّ هنِّئْها بعُقْبَى حميدةٍ فما زلْتَ وهّاباً على الخَلْقِ عاطِفا

ويا ربِّ أسْعِدْها بعاقبةٍ ، تُحْمَدُ ، وتذكَرُ ذكراً حسناً ، فقد كنتَ ، وما زلْتَ مانحاً خَلْقَكَ أفضالَكَ مُشْفِقاً عليهمْ .

١٣٧ ـ وإلاّ فما كانَتْ غُيوثاً هَوَاطلاً عطاياكَ لي لكنْ سيولاً جواحِفا

ولو لم تكنْ عطاياكَ وأفضالُكَ أمطاراً ، تُرْسِلُها ، وتجعَلُها عَوناً ورَيًّا لعبادِكَ ، لكانَتْ سيولاً جارِفةً كلَّ شيءٍ .

١٣٨ ـ أتيتُ بها حَذّاءَ ، تقفو وراءها وقد سبقَتْ حُذُّ القوافي قواطفا

وإني نظمْتُ بعطاياكَ يا ربِّ قصيدةً مُنَقَّحَةً سَيَّارةً في البلادِ ، يَقْرَؤُها ، ويَسمَعُها كلُّ مَنْ بقلبِهِ ميلٌ إلى الشعرِ وفنونِهِ ، ويَرَى كلَّ قصيدةٍ ، تليها في شكرِ اللهِ تعالى سريعةَ أو قصيرةَ الخطوِ في السباقِ ، لا تُساويها ، ولا تَفْضُلُها .

١٣٩ ـ مُوَلَّدَةٌ ، بَذَّ القديماتِ شَأْوُها بها أنفٌ منْ أنْ تقاسَ إلى (قفا)

وعلى الرغمِ من أنها متأخِّرَةٌ عنْ قصائدِ فحولِ الشعراءِ في الجاهليةِ وصدرِ الإسلامِ ، فإنها غلبَتْها في المفاخرةِ والإباءِ بأنْ توضعَ مقابلَ قصيدةِ معلقةِ امْرئِ القيسِ التي مطلعُها [الديوان ص ٨] :

قفا نبكِ منْ ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بِسِقْطِ اللِّوَى بينَ الدَّخولِ فحوملِ

☆☆ ٢ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في النصحِ :

١ ـ ولَرُبَّ رقّاءٍ إلى قُلَلِ العُلا حتى أنافَ ، وجَدَّعَ الآنافا

وكم منْ صَعّادٍ إلى قِمَمِ العُلا ؛ علا ، ثم علا ، وقطَّعَ في طريقِ صعودِهِ أنوفَ الحاسدينَ .

٢ ـ فاخْفِقْ بمثلِ جَناحِهِ ، تَلْحَقْ به ما طالبٌ ذو هِمَّةٍ وقّافا

فَحَرِّكْ يا صاحبي جناحَيك مثلَ تحريكِ ذلكَ الصَّعّادِ جناحَيه ، تُدْرِكْهُ ، واعلمْ أنَّ طالبَ العِزِّ صاحبَ العزيمةِ ، لا يتوقَّفُ مهما كانتِ المثبِّطاتُ شديدةً وقويةً .

☆☆ ٣ ـ وقالَ على بحرِ الخفيفِ في المدحِ :

١ ـ ثِقَــةُ الــدولــةِ الكــريــمُ خليفَــهْ هــو فــي أُمَّــةِ الكــرام خَليفَــهْ

إنَّ الرجلَ الملقَّبَ ثقةَ الدولةِ الجوادَ ، صارَ خليفةً ، وهو الجديرُ في فئةٍ منَ الناسِ الأجوادِ أنْ يكونَ خليفةً ورئيساً .

٢ ـ نسـبٌ ثـاقـبٌ ، وفضـلٌ متيـنٌ ويـدٌ سَمْحَـةٌ ، ونفـسٌ عفيفَـهْ

فهو ذو أصلٍ نافذٍ واصلٍ إلى أجدادٍ كرامٍ ، وذو خُلُقٍ صُلْبٍ ، وذو يدٍ سَخِيَّةٍ ، وذو نفسٍ أبيّةٍ .

٣ ـ ولـهُ همَّـةٌ أنـافَـتْ ، فقـالَـتْ : مـا لِشُـمِّ الجبـالِ ، ليسَـتْ مُنيفَـهْ ؟

وذو عزيمةٍ قويَّةٍ ، فاقَتِ العزائمَ ، وقالَتْ : ما الذي حدثَ للجبالِ الشاهقةِ ، لم تَصِرْ عاليةً ؟

٤ ـ كـاتـبٌ ؛ كُتْبُـهُ لِطـافٌ خِفـافٌ وعلـى الحـاسـديـنَ ليسَـتْ خفيفَـهْ

وهو كاتبٌ ماهرٌ ؛ إنِ اطَّلَعْتَ على كتبهِ تَجِدْها ، تتحدَّثُ عنْ أمورٍ ، أرادَ أنْ يكشِفَ الخفايا فيها ، ويوصلَ منافِعَها إلى الناسِ بأسلوبٍ سهلٍ ، يَتَقَبَّلُها الصديقُ العاقلُ ، ويراها الحاسدُ العدوُّ ثقيلةً ، لا يَحْتَمِلُها .

٥ ـ شِبْـهُ أخـلاقـهِ اللطيفـةِ مـا قـد أودَعَ الكُتْـبَ مِـنْ معـانٍ لطيفَـهْ

وتُعْرَفُ أكثرُ صفاتِهِ الحسنةِ منَ المعاني الدقيقةِ التي كشفَتْ ما يَكُنُّهُ في صدرِهِ في ما كتبَ .

٦ ـ كُتُـبٌ فـي جـزالـةِ اللفـظِ تحكـي خُطَـبَ القـائميـنَ يـومَ السَّقيفَـهْ

وكانَتْ كتابتُهُ ، تُشابِهُ خُطَبَ المهاجرينَ والأنصارِ في سقيفةِ بني ساعدةَ في تراكيبِها المتينةِ وألفاظِها القويَّةِ المختارةِ يومَ انتقلَ الرسولُ محمدٌ ـ عليه الصلاةُ والسلامُ ـ إلى الرفيقِ الأعلى .

٧ ـ بـالـغٌ فـي شهـامـةِ الـرأيِ حَـدًّا يَسْتَـزِلُّ العقـولَ فيـهِ الحَصيفَـهْ

وقد بَلَغَ فكرُهُ المُتَوَقِّدُ غايةً ، تَجْعَلُ أفكارَ الناسِ الصائبةَ ، تتساقَطُ الواحدةُ تِلْوَ الأُخرى .

٨ ـ كم ينادي خوارزَمْشاهُ إذا ما قالَ قولاً : للهِ دَرُّ الخليفَهْ

كم منْ مَرَّةٍ صاحَ أهلُ خوارزمَ مُعْجَبينَ حينَ يَخْطُبُ فيهم ، أو يسمعونَ عنهُ قولاً : أثابَ اللهُ تعالى الخليفةَ ثواباً عظيماً على كلِّ ما يقولُ ، ويفعلُ .

☆☆ ٤ ـ وقالَ على بحر الكاملِ في الفخرِ بكتابِهِ (الكشاف . .) وهجوِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ :

١ ـ لَجماعةٌ سَمَّوا هواهُمْ سُنَّةً لَجماعةٌ حُمْرٌ لَعَمْري موكَفَهْ

إنَّ الذينَ غلبَهُمْ غرورُهُمْ بأنفُسِهِمْ ، فادّعوا أنهمْ أهلُ السنةِ والجماعةِ ، همْ فئةٌ منسوبةٌ إلى الحميرِ ، وهي لَعَمْري ما زَالَتْ جاهلةً ، لا تَفْقَهُ شيئاً كالحميرِ التي وُضِعَتْ على ظهورِها الأحلاسُ ، ولم يوضعْ لها بَرْذَعاتٌ لِتُركَبَ .

٢ ـ قد شَبَّهوهُ بخَلْقِهِ ، فَتَخَوَّفوا شُنْعَ الورَى ، فَتَسَتَّروا بالبَلْكَفَهْ

وقد جعلوا اللهَ تعالى شبيهاً بمَنْ خَلَقَهُمْ مُتَخَوِّفينَ منْ قبحِ تفكيرِ الناسِ ، فتذرَّعوا بِحجَجٍ ضعيفةٍ مثلِ أنَّ اللهَ تعالى يُرى بـ : لا كيفَ .

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ ﴾ [الأعراف الآية/ ١٤٣] (الكشاف . . ح٢/ ٥٠٦ ، تأويلات أهل السنة للماتريدي ح٢/ ٢٨١ ، أزهار الرياض ح٣/ ٢٩٨) .

☆☆ ٥ ـ وقالَ على بحرِ المديدِ في المدحِ :

١ ـ لِعُبَيدِ اللهِ خالصةٌ كَرَمٌ ، يعضُدُهُ شرفُ

لقد حبا اللهُ ـ عَزَّ ، وجَلَّ ـ عُبَيدَ اللهِ فضلاً ، خَصَّهُ به ؛ هو سخاءٌ ، يُسانِدُهُ عِزٌّ .

٢ ـ ماجدٌ بالاتِّفاقِ ، وفي غيرِهِ الأقوالُ تَخْتَلِفُ

وقد اتَّفَقَ الناسُ بوصفِهِ ماجداً ، واختلفَتْ أقوالُهُمْ في صفاتِ غيرِهِ .

٣ ـ أشبَهَ الفردوسَ منزِلُهُ غُرَفٌ منْ فوقِها غُرَفُ

ولقد قَدَّرَ اللهُ منزلتَهُ في الآخرةِ ، فَجعَلَها ، تُشْبِهُ أعلى درجةٍ منْ درجاتِ الجنةِ ، وهي الفردوسُ ذاتُ الغرفِ العاليةِ التي يَعْلو بعضُها بعضا .

٤ ـ كلُّ دارٍ دونَ ما وُصِفَتْ وهي دارٌ فوقَ ما تَصِفُ

وكلُّ دارٍ في الجنةِ ، هي فوقَ ما وصفَها الواصفونَ لأنها ذاتُ صفاتٍ أبعدَ مِمَّا يدركُها البشرُ على قولِ رسولِ اللهِ ﷺ : « ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، ولا خطَرَ على قَلْبِ

بشرٍ » : [البخاري ٣٢٤٤ ـ مسلم ٢٨٢٤] .

٥ ـ شَرَفُ الساكنِ ، زَيَّنَها فوقَ ما زَيَّنَها الشَّرَفُ

فَعُلُوُّ مسكنِهِ في الجنةِ زادَها زينةً ، فاقَتْ زينةَ المجدِ والعزِّ .

☆☆ ٦ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في الحنينِ إلى مكّةَ ومدحِ عُلَيٍّ بنِ عيسى ابنِ وهّاسٍ :

١ ـ عصفَتْ بلبِّكَ يومَ مَكةَ عاصفُ وشجاكَ همٌّ ، ما لذلكَ واصفُ

ثارَتْ بقلبِكَ يا زمخشريُّ يا جارَ اللهِ ريحٌ عاصفةٌ منَ الشوقِ والحنينِ إلى مكةَ ، وأحْزَنَكَ همٌّ ، لا يستطيعُ أحدٌ أنْ يُؤَدِّيَ حقَّهُ منَ الوصفِ .

٢ ـ شَهِدَتْ عليكَ ، وحسبُكَ شاهداً عينٌ مؤرَّقَةٌ ودمعٌ واكِفُ

وقد وقَفَتْ على حالِكَ التي تعانيها عينُك الساهرةُ التي لا تعرفُ النومَ ليلاً ونهاراً ودمعُكَ الذي لا يتوقّفُ عنِ السَّيَلانِ ، وهما خيرُ شاهدٍ على حزنِكَ الشديدِ .

٣ ـ يا يومَ مَكَّةَ ، حلَّ منكَ بساحتي خطبٌ كما حكمَ الزمانُ العاسفُ

فيا يومَ مَكَّةَ يومَ الوقوفِ بعرفةَ ، لقد أتاني منك أمرٌ جَلَلٌ ، حَكَمَ عليَّ حُكْمَ الزمانِ الظالمِ .

٤ ـ أعباءُ وجدي ، لو أُقِلَّ أقَلُّها لمشى الرِّكابُ الهوجُ ، وهي زواحفُ

وإني لأحملُ أثقالَ حزنٍ ، لو حُمِلَ أقلُّها على إبلٍ مسرعةٍ لبدَتْ ، كأنها ، تمشي على بطنِها لِثِقَلِ حِمْلِها .

٥ ـ وكأنني يومَ اسْتُقِلَّ حُمولتي عنْ بَطْنِ مَكّةَ للحناظِلِ ناقفُ

وكأنني يوم حُمِّلَتْ راحلتي ، وحانَ وقتُ الرحيلِ عنْ بَطْنِ مَكّةَ ، لِغَزارةِ دمعي أشُقُّ حبَّ نباتِ الحنظلِ المُرِّ الذي يُدمِعُ العينِ بِشِدَّةِ وحِدَّةِ رائحتِهِ . ولعلَّ الزمخشريَّ أشارَ بقولِهِ هذا إلى قولِ امرئِ القيسِ في معلقتهِ [الديوان ص ٩] :

كأني غداةَ البينِ يومَ تَحمّلوا لَدَى سَمُراتِ الحيِّ ناقفُ حَنْظَلِ

٦ ـ أبكي على البيتِ الحرامِ ، وأشتكي زمناً ، بهِ يَتَشَتَّتُ المُتآلفُ

وإني لأبكي لفراقي البيتَ الحرامَ ، وأشكو زمناً ، يَتَفَرَّقُ فيه الأصحابُ المُتحابّونَ الذينَ اعتادوا على العيشِ معا .

٧ ـ كم رَفَّعَتْ أيدي التواصُلِ مَعْلَماً فطَمَى عليهِ منهُ سيلٌ جارفُ

وكم منْ مَرَّةٍ قامَتْ أيدي الودادِ والمحبةِ لِرفعِ رايتِها عالياً ، فأتى سيلٌ عظيمٌ منَ العداوةِ ، فغطّاها ، وحَمَلَها إلى أراضٍ نائيةٍ .

٨ ـ يـا حَبّـذا يـا حَبّـذا البلـدُ الـذي أنـا جـارُ بيـتِ اللهِ فيـهِ عـاكـفُ

وما أحلى الإقامةَ في البلدِ الذي كنْتُ فيه جارَ بيتِ اللهِ الحرامِ مقبلاً عليهِ دائماً مواظباً على الصلاةِ والجلوسِ فيه .

٩ ـ مُتَعَـوِّدٌ بـالـرُكْـنِ : إمّـا راكـعٌ أو سـاجـدٌ أو قـائـمٌ أو طـائـفُ

فلا أُرَى إلاّ لاجئاً مُتَمَسِّكاً بجانبِ الحجرِ الأسودِ أو راكعاً أو ساجداً أو قائماً في الصلاةِ أو طائفاً حولَ الكعبةِ المشَرَّفةِ .

١٠ ـ غـادٍ إلـى التنعيـمِ كـلَّ صبيحـةٍ فـي كـلِّ عـامٍ بـالمُعَـرَّفِ واقـفُ

أو ذاهباً في كلِّ صباحٍ إلى موضعِ التنعيمِ لأقومَ منهُ بطوافِ العمرةِ أو حاجًّا كلَّ سنةٍ واقفاً بعرفاتٍ مع الواقفينَ والحاجّينَ .

١١ ـ وادٍ بـلا زرعٍ ، ولكـنْ ثَـمَّ مِـنْ شِيَـمِ الشـريـفِ حـدائـقُ ومخـارفُ

ومنَ المعروفِ أنَّ مكةَ أرضٌ قفرةٌ ، ولمّا تولى عُلَيُّ بنُ عيسى وِلايَتَها جَعَلَ هَمَّهُ العظيمَ إقامةَ الحدائقِ وزرعَ شجرِ النخيلِ على طَرَفَي طُرُقِها .

١٢ ـ أدنـى شمـائِلـهِ الحَنـانُ ، كـأنمـا نُشِـرَتْ علـى البطحـاءِ منـهُ زخـارفُ

فأقربُ سجاياهُ الرحمةُ ، وكأنهُ مَلأَ أرضَ مكةَ منْ تلكَ الرحمةِ ألواناً منَ الرزْقِ والبركةِ والوقارِ ليُسْعِدَ أهلَها بها ، فكانَتْ زينةً لكُلِّ شيءٍ فيها .

١٣ ـ جـالَسْـتُ فـي عـامَـيَّ منـهُ سَيِّـداً ســاداتُ عتـرتِـهِ إليـهِ زعـانِـفُ

وسَعَدْتُ بمُجالسةِ الشريفِ عُلَيِّ بنِ عيسى الشريفِ عامَينِ اثْنَينِ ، وشَقِيتُ بمُراعاةِ أهلِهِ وعشيرتِهِ الذين كانوا يُنَصِّبونَ أنفسَهُمْ أسياداً ، وهمْ في الحقيقةِ أرذالٌ .

١٤ ـ نَفَضَتْ له عدنانُ عَيبةَ مَجْدِها فلَـهُ التليـدُ مـنَ العُـلاَ والطـارفُ

وكأنَّ قبيلةَ عدنانَ ، قد أعطَتْهُ كلَّ ما تملِكُ منْ عزٍّ حينَ حَرَّكَتْ وِعاءَها الذي تحفظُ فيه ما تخزِنُهُ منَ المكارمِ ، فكانَ لهُ العزُّ والمجدُ إرثاً قديماً عنْ أجدادِهِ ومُسْتَحْدَثاً ، صنَعَهُ بيديه .

١٥ ـ ما زِلْتُ أَخْبُرُهُ وأَعجُمُ عودَهُ فـأرى لطـائـفَ بعْـدَهُـنَّ لطَـائِـفُ

وكنتُ ، وما زلْتُ ، أَمْتَحِنُهُ ، وأجَرِّبُ صلابةَ قدِّهِ، فأجدُ محاسِنَ جديدةً في خِلْقَتِهِ وخُلُقِهِ ، تتابَعُ ، وتتزايَدُ يوماً بعدَ يومٍ .

١٦ ـ أستأنفُ النظراتِ في حَسَناتِهِ ... فأرى غرائبَ كلّما أستأنفُ

وأعودُ إليهِ ، فأراقبُهُ ، وأقارنُ بينَ نظرةِ الأمسِ واليومِ ، فأرى عجائبَ جديدةً في خِلْقَتِهِ وخُلُقِهِ ، واضيفُ إلى ثنائي على حسناتِهِ ثناءً .

١٧ ـ إنـي ووجـدانـي أنيـقَ جـوارِهِ ... كمهجِّـرٍ ، يَلْقـاهُ ظِـلٌّ وارفُ

وإني وما لَقِيتُهُ في حُسْنِ جوارِهِ أُشبهُ مَنْ يسيرُ في منتصَفِ نهارِ صيفٍ حارٍّ ، يُصادِفُ ظِلّاً واسعاً لأشجارٍ كثيفةٍ ، فيستريحُ به .

١٨ ـ وإذا الجوارُ منَ الشريفِ ، فَقَدْتُهُ ... فكمـا تَحِـنُّ إلـى الحُـوارِ الشـارفُ

وإذا ما حُرِمْتُ جِوارُ الشريفِ عُلَيِّ بنِ عيسى أغدو مثلَ ناقةٍ مُسِنَّةٍ ، تشتاقُ إلى وليدِها ساعةَ وضعِها إيّاهُ .

١٩ ـ فبـهِ أعـوذُ وبـاستنـارةِ فضلِـهِ ... لا يَعْـرِفَـنْ نسيـانَـهُ عـارفُ

فبالشريفِ عُلَيِّ بْنِ عيسى ألوذُ ، وبأضواءِ عطائِهِ أستنيرُ ، فلا يَعْلَمَنَّ نسيانَ معروفِهِ وعطائِهِ مُقِرٌّ بإحسانِهِ .

٢٠ ـ فمحاسِنُ الحَرَمِ ، اسْتُلِبَتْ جَمَالَها ... إلاّ سُطَيْـراتٍ ، بهِـنَّ تُـلاطِـفُ

وقد أتى اللصوصُ والناهبونَ ، فسَرَقوا مُقَوِّماتِ محاسِنِ الحرمِ الشريفِ ولم يتركوا منها إلاّ أشياءَ قليلةً ، تحدثَتْ عنها سطورٌ قليلةٌ ، تزهو بها ، وتُباهي بها محاسنَ الدنيا .

٢١ ـ فَبِحَقِّ جِدِّكَ فـي مـلاطفتي بهـا ... لا يَصْـرِفَنَّـكَ عـن وفـائـكَ صـارفُ

وأستَحْلِفُكَ باهتمامِكَ الكبيرِ بي وإكرامِكَ المتواصلِ إيّايَ ألاّ تجعَلَ أحداً ، يَشي بي ، فَيُحوِّلُ وجهَكَ عني ، وتجفوني .

☆☆ ٧ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الفخرِ : (أزهار الرياض ح٣/ ٢٨٦)

١ ـ مبـالاةُ مثلـي بـالـرزايـا غضـاضـةٌ ... أبـاهـا وثيـقُ العُقْـدَتَيـنِ حصيـفُ

اكتراثُ واهتمامُ رجلٍ مثلي بالمصائبِ مَذَلَّةٌ ، لم يَقْبَلْ بها منِ ائْتُمِنَ على عهدٍ وحِلْفٍ حكيمٌ ، يضعُ الأمورَ في مواضعِها .

٢ ـ إذا أقْبَلَـتْ يـومـاً علـيَّ صـروفُهـا ... لأنيـابِهـا فـي مَسْمَعَـيَّ صـريـفُ

وإذا ما توجَّهَتْ نحوي مصائبُ الدنيا يوماً ، وكانَ لأنيابِها في أذُنيَّ صوتٌ ، يُنْذِرُني بأهوالِها .

٣ ـ عتـابٌ لهـا حتـى أشُـقَّ نُحـورَهـا ... أسِنَّـةُ عـزْمٍ ، حَـدُّهُـنَّ رهيـفُ

فلها مني لومٌ شديدٌ ، ثم قِتالٌ برماحٍ وسيوفٍ ذاتِ حدٍّ رقيقٍ قاطعٍ ، صَنَعَتْها هِمَّةٌ عاليةٌ ، لا تهدأُ حتى تَنْحَرَ رِقابَها .

٤ ـ يُمَسِّحْنَ أركاني ، وهنَّ قوافلٌ صفاً صادراتُ النبلِ عنهُ مُصيفُ

وتأتي إليَّ سِهامُ مصائبِ الدنيا جماعاتٍ جماعاتٍ مُحاولةً أنْ تنالَ مني ، فَيَرُدُّها عني عَزْمي الشديدُ الذي يشبهُ الصخرَ الأصمَّ ، وتَتَمَسَّحُ بي منْ كلِّ جهةٍ تَبَرُّكاً بي واعترافاً بِتَفَوُّقي عليها .

☆☆ ٨ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في الفخر بكتابِهِ (الكشاف عنْ حقائقِ غوامضِ التنزيل وعيونِ الأقاويلِ في وجوهِ التأويل) :

١ ـ أمعارفَ الطَّلَلَينِ بالأشرافِ أنسيتَ يومَ تَفَرُّقِ الأُلاّفِ ؟

يا أيُّها المكانُ المُسَمَّى معارفَ الطَّلَلَينِ ياذا الأمكنةِ العاليةِ ألا تذكُرُ يومَ تباعَدَ الصحابُ ، وذهبَ كلٌّ منهمْ إلى ناحيةٍ ؟

٢ ـ مِنْ ظاعنٍ نحوَ الشَّمالِ وظاعِنٍ نحوَ الجنوبِ ، يَحُلُّ بالمِخْلافِ

وانطلَقَ بعضُ الراكبينَ نحوَ الشَّمالِ ، وبعضُهُمْ نحو الجَنوبِ ليحُطَّ رحالَهُ في أحدِ مخاليفِ اليمنِ التي يَتَرَدَّدُ إليها الناسُ في أسفارِهِمْ .

٣ ـ عهدي بأهلِكَ منْ رباعِكَ نُزَّلاً في المَرْبَعِ المأنوسِ والمصطافِ

وقد عرفْتُ أهلَكَ وعشيرتَكَ منْ منازلِهِمُ التي يقيمونَ فيها ، ويعيشونَ جماعاتٍ في فصلِ الربيعِ ذي الأُنسِ وفصلِ الصيفِ .

٤ ـ عهدي بهمْ ، وجفانُهُمْ ، يُغْدَى بها وتُراحُ مُتْرَعةً على الأضيافِ

عرفتُهُمْ منذُ زمنٍ طويلٍ ، يُقَدِّمونَ لأضيافِهِمُ الطعامَ بصحافٍ ملأَى صباحاً ومساءً .

٥ ـ في جاملٍ دَثْرٍ وقُودٍ شُزَّبٍ ومُبَوَّإٍ رَحْبٍ وعيشٍ ضافِ

فكانَ الرجلُ منهمْ مختصًّا بِرعايةِ قطيعٍ منَ الإبلِ معَ أربابِهِ وعددٍ منَ الخيلِ التي طالتْ أعناقُها ، وضَمَرَتْ خصورُها ، ومبيتٍ واسعٍ ورزقٍ وفيرٍ .

٦ ـ ناسٌ أعاريبٌ ، ارْتَدَوا بسيوفِهِمْ فهي المعاطِفُ دونَ كلِّ عطافِ

فهمُ الأعرابُ الأعاريبُ الذينَ يسكنونَ البواديَ ، ويجعلونَ سيوفَهُمْ أرديَةً لهمْ ، فتكونُ لهمْ أُزُراً بدلَ كلِّ إزارٍ .

٧ ـ أيديهمُ أيدي رجالِ الغَزْوِ ، لم يَعْرِفْنَ إلاّ المَشَّ بالأعرافِ

ولهمْ أيدٍ قويّةٌ ، تَحْتَمِلُ شدةَ الحربِ ، ولم تَعْرِفْ منْ رقَّةِ العيشِ إلاَّ مسحَها بشيءٍ لتنظيفِها ومسحَ شعرِ أعناقِ خيولِها .

٨ ـ يا أرسُمَ الرَّبْعِ المُحيلِ عوافيا فقدُ العوافي أنْ أراكِ عوافيا

فيا أطلالَ الدارِ المُتَغيِّرِ البالي إنَّ فقدَ الصحةِ والسلامةِ برؤيةِ آثارِكِ الباليةِ .

٩ ـ أينَ الأُلى حَلُّوا عِراصَكِ ، وابْتَنَوا خِيَماً ، تَحَصَّنُ بالقنا الرُّعّافِ ؟

أينَ الذينَ حطُّوا رحالَهُمْ في ساحاتِكِ ، وأقامُوا خِياماً ، تحرُسُها الرماحُ التي لا ينقطعُ سيلانُ الدماءِ دماءِ الأعداءِ عنها ؟

١٠ ـ بخضيبةٍ أطرافُها مطرورةٌ يَحمُونَ كلَّ خَضيبَةِ الأطرافِ

والتي زُيِّنَتْ قُضْبانُها بألوانِ الخِضابِ لِيَصونوا كلَّ فتاةٍ ، صَبَغَتْ كفَّيها وقَدَمَيها بالخِضابِ .

١١ ـ خوطيّةُ الأعطافِ يَنْهَزُ مِرْطَها مَرَحُ الصِّبا نَقَويَّةُ الأردافِ

وكانتْ كلُّ شابَّةٍ ذاتَ أعطافٍ ليِّنةٍ ، يُحَرِّكُ ثوبَها خِفَّةُ الصِّبا وإلْيَتاها البارزتانِ .

١٢ ـ سَحّارةُ العينَينِ ، بابلُ سحرِها مأوى هَواريتٍ بها آلافِ

وذاتَ عينينِ سَحّارَتَينِ ، اتَّخَذَتا السِّحْرَ منْ مصدرِهِ بابلَ مكانِ السَّحَرَةِ الذينَ يبلغُ عددُهُمْ آلافاً والذينَ تعلَّموا السِّحْرَ منَ المَلَكَينِ [﴿ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ﴾ البقرة الآية : ١٠٢] .

١٣ ـ ضربوا حجابَ النقعِ دونَ حِجابِها وهي التي احْتَجَبَتْ بِسَتْرِ عَفافِ

وجعلوا للِنِّساءِ سِتْراً منَ الغبارِ في دفاعِهِمْ عنها ، وهي التي اسْتَتَرَتْ قَبْلاً بحجابِ الكفِّ عنِ الحرامِ والفُحْشِ .

١٤ ـ وتفوحُ ريحُ المسكِ منْ أردانِها فَوحاً وراءَ ستورِها الأضعافِ

وينتشِرُ شذا الطِّيبِ منْ أكمامِها على بعدِ حُجُبِها الكثيرةِ .

١٥ ـ يا ظبيةَ الإنسِ المُمَنَّعِ صَيْدُها أدنى مَصاداً منكِ وحشُ فيافِ

فيا غزالةَ البَشرِ التي مُنِعَ صَيدُكِ والتي كانَ صيدُ وحشِ الفَلَواتِ أسهلَ .

١٦ ـ بيني وبينَكِ منْ صُدودِكِ نَفْنَفٌ خافي الصُّوى مُتنازحُ الأكنافِ

ولي منْ إعراضِكِ وانصرافِكِ عني بُعْدٌ كبيرٌ مثلُ الفلاةِ التي خَلَتْ منْ أحجارِ دلائلِ الطريقِ والتي تباعدَتْ أطرافُها وشِعابُها .

١٧ ـ أوضَعْتُ أو أوجَفْتُ فيهِ ركابي لم يُغْنِ إيضاعي ولا إيجافي

فإنْ جَعَلْتُ ركابي ، تُخَفِّفُ منْ سرعتِها ، أو تزيدُ سرعتَها ، فلا يفيدُني بُطْءُ السيرِ أو سرعَتُهُ شيئاً .

١٨ ـ وأمَـدَّ مـنْ يـومِ النَّـوَى هَـزّاءَةً بـالـرَّكْـبِ خفقَـةُ آلـهِ الـرَّجّـافِ

وزادَ في طولِ يومِ البُعْدِ اضطرابُ سرابِهِ المُتَلألئِ كثيرِ الهُزْءِ الشديدِ بالمسافرينَ .

١٩ ـ جـاوَزْتُـهُ ، والنـارُ فـي رَمْضـائِـهِ بِبَعيـرِ مـا بيـنَ الخُطـا زَيّـافِ

وأمضَيتُ النهارَ ، والحَرُّ في شِدَّتِهِ على ظهرِ دابةٍ مسرعةٍ ، تتمايلُ في مشْيِها .

٢٠ ـ أرمـي إلـى البلـدِ الحـرامِ بـزَورةٍ لأزورَ منـزلَ آلِ عبـدِ مَنـافِ

أرومُ الذهابَ إلى مكةَ البلدِ الحرامِ مُعْتَمِراً وإلى مسكنِ آلِ عبدِ مَنافٍ لأقيمَ بينَهُمْ زائراً .

٢١ ـ أهلِ السِّقايةِ والرِّفادةِ واللِّوَى والبيـتِ ذي الحُجُبـاتِ والإيـلافِ

فهمُ الذينَ يقومونَ على سِقايةِ وإطعامِ الحجاجِ في موسمِ الحجِّ ، وهمْ سكانُ الباديةِ والبيتِ الحرامِ الكعبةِ المشرَّفةِ ذاتِ الستورِ والعهودِ .

٢٢ ـ حيثُ الْتَقَى أهلُ البسالةِ والتُّقى واسْتُخْلِصـوا بغـرائـبِ الألطـافِ

حيثُ اجتمعَ أهلُ الشجاعةِ بأهلِ الورعِ ، فكانوا المختارينَ للقيامِ بأفضلِ المكارمِ المُعْجِبَةِ .

٢٣ ـ أُلقي إلى البلدِ العتيقِ الرَّحْلَ في مُتَقَلَّـبِ العُمّـارِ والطُّـوّافِ

وأرمي في البلدِ العتيقِ الحرامِ ما أحمِلُ منْ طعامٍ وأثاثٍ في الأرضِ التي يَتوارَدُ إليها الناسُ الذينَ يقومونَ بالعُمْرَةِ والزيارةِ والطوافِ حولَ الكعبةِ المشرفةِ بِصُحْبَةِ المُعْتمرينَ والطُّوّافِ وزائري ضريحِ محمدٍ ـ عليه الصلاةُ والسلامُ ـ .

٢٤ ـ ثم انْجَلَى غَسَقُ الضَّلالِ عنِ الهُدَى بِمُنَـزَّلٍ ، هـو مُعْجِـزُ الـوُصّـافِ

ثم انكشفَ ظلامُ الغَيِّ عنِ الرشادِ بالقرآنِ المُنَزَّلِ منْ عندِ اللهِ ـ عَزَّ ، وجلَّ ـ الذي وقفَ كبارُ الواصفينَ عاجزينَ عنِ الإحاطةِ بنعتِهِ .

٢٥ ـ وَقَعَ التَّحَدِّي ، فالذينَ تَفَرَّعوا خُطبـاً وشِعْـراً كـلَّ عـاقـدٍ قـافِ

وحدثتِ المنازعاتُ والمبارياتُ بينَ المسلمينَ والكافرينَ ، فالذينَ غلبوا منَ الفريقينِ كانَ منهم خُطَباءُ وشعراءُ ، كُلٌّ منهمْ ، يتيهُ بما أبدعَ بطريقةٍ ، تختلِفُ عن طريقةِ غيرِهِ ، كأنْ يعقدَ شعرَهُ فوقَ رقبتِهِ على شكلِ قافٍ .

٢٦ ـ لَمّا رأَوا أسيافَ نُطْقِهِمْ ، نَبَتْ لجـأوا لعجـزِهـمْ إلـى الأسيـافِ

ولما رأى الكفارُ أنَّ بلاغةَ أقوالِهِمْ في بيانِ حُججهمْ ، قد سقَطَتْ في مُسْتَنْقَعِ البيانِ ، اتَّجَهوا إلى الرماحِ والسيوفِ ، يقاتلونَ المسلمينَ ، لَعَلَّهُمْ ، يغلبونَهُمْ .

٢٧ ـ كانتْ لهمْ دُرٌّ وأصدافٌ ، فقد رجَعــوا بــلا دُرٍّ ولا أصــدافِ

وكانوا ، يملكونَ اللآلئَ المكنونةَ بأصدافِها ، فعادوا منْ حروبِهمُ المسلمينَ ، لا يملكونَ شيئاً مِنَ اللآلِئِ وأصدافِها .

٢٨ ـ ثم استوى الكشّافُ ثَمَّ على يَدَي مُتَفَحِّــصٍ عـــنْ سِــرِّهِ كشّــافِ

ثم تَمَتْ كتابةُ كتابِ (الكشّاف عن حقائقِ غوامضِ التنزيلِ وعيونِ الأقاويلِ عن وجوهِ التأويل) على يَدَيْ عالمٍ باحثٍ عنْ أسرارِ القرآنِ الكريمِ مُبْدِعٍ في إظهارِ الحقيقةِ وإيضاحِ الغموضِ وعرضِ أقوالِ العلماءِ في وجوهِ التفسيرِ والتأويلِ .

٢٩ ـ حسنِ الإبانةِ عن حقائقِ نظمِهِ بفصــوصِــهِ وعيــونِــهِ عَــرّافِ

جَيِّدِ التوضيحِ عنْ حقائِقِ تراكيبِهِ وألفاظِهِ المختارةِ وعظيمِ آياتِهِ واسعِ المعرفةِ باللغةِ العربيةِ ووجوهِ إعجازِها .

٣٠ ـ فَيحــانَ مَضّــاءٍ علــى أسلــوبِــهِ لا طــائــشٍ عنــهُ ولا وقّــافِ

ذي همَّةٍ ، تفيضُ إقداماً وإنهاءَ طريقتَهُ ، لا يبدو منهُ خِفَّةٌ ، ولا يتوقَّفُ عنْ مواصَلَةِ عملِهِ مهما كانتِ الظروفِ .

٣١ ـ منْ كلِّ غَمْرٍ منْ غِمارِ علومِهِ حــاسٍ بــأوســعِ جَفنــةٍ غَــرّافِ

واسْتَقَى من كلِّ بحرٍ منْ بحارِ علومِهِ ملءَ قَصْعَةٍ ، غَرَفَها ، وأنزلَها في كتابِهِ (الكشاف . .) في المكانِ المناسبِ لها مَبْنًى ومَعْنًى .

٣٢ ـ عِلْما المعاني والبيانِ ، كلاهما طــامــي العُبــابِ كَلُجَّــةِ الــرَّجّــافِ

ويبدو عِلْما المعاني والبيانِ واضحَينِ في عرضِ أفكارِهِ في تفسيرِ القرآنِ كالبحرِ الذي علَتْ أمواجُهُ الثائرةُ فَضْلاً وخيراً .

٣٣ ـ وهو الفتى العَوّامُ فيهِ بِجُؤْجُؤٍ عَبْــلٍ كصــدرِ الأريَحــيِّ الحــافــي

وهو الفتى الوحيدُ الذي يستطيعُ العومَ فيهِ دونَ خوفٍ منَ الغَرَقِ بفضلِ صَدْرٍ ضخمٍ كصدرِ الكريمِ السَّخِيِّ في عطائِهِ .

٣٤ ـ هو صَيْرَفيُّ القولِ فيصلُ حكمِهِ مَيّــازُ بيــنَ الجــزْلِ والسَّفْســافِ

فهو الماهرُ في اختيارِ الألفاظِ للمعاني ووضعِها في تراكيبَ متينةٍ ، صائبُ التمييزِ بينَ الجَيِّدِ والرَّديءِ .

٣٥ ـ وجَدَ القِرانُ قِرانَهُ ، فتوافقا طَبَقاً إلى شَنٍّ بغيرِ خِلافِ

وعَثَرَ الصاحبُ على صاحِبِه ، وتحالفا ، فكانا خيرَ مثالٍ لما يُقالُ : (وافقَ شَنٌّ طَبَقَةَ) [مجمع الأمثال ح٢/ ٣٥٩] دونَ اعتراضِ أحدٍ على ذلكَ .

٣٦ ـ قد أُتْبِعَ (الكشّافُ) إثْرَ دليلِهِ فأتى كَسَعْيِ جاءَ بعدَ طَوافِ

وكانَ كتابُ (الكشاف . . .) تابعاً لِمُرْشِدِهِ ومُصَنِّفِهِ الزمخشريِّ جارِ اللهِ ، فأتى كالسَّعْيِ بينَ الصفا والمروةِ بعدَ الطوافِ في العُمْرَةِ والحجِّ .

٣٧ ـ تاللهِ ما (الكشاف . . .) إلا واحدٌ في فَنِّهِ ، أنّى لهُ بمُكافِ ؟

وإني لأقسِمُ باللهِ تعالى أنَّ كتابَ (الكشاف . . .) فَرْدٌ في فَنِّ تفسيرِ وتأويلِ آيِ القرآنِ الكريمِ ، فمِنْ أينَ يُؤْتَى لهُ بِمُناظِرٍ أو مُماثِلٍ ؟

٣٨ ـ أوصافُهُ في كلِّ قطرٍ شاسعٍ طارتْ بأيِّ قوادِمٍ وخوافِ

وعَرَفَ ميزاتِهِ كلُّ إنسانٍ في البلادِ البعيدةِ ، وكأنها طائرٌ ذو ريشاتٍ قويَّةٍ ظاهرةٍ في مُقَدِّمةِ الجناحِ وخَفيَّةٍ في مؤخرتهِ ، بَلَغَتْ غايةً عجيبةً في متانتِها وقوتِها .

٣٩ ـ ألقَتْ عليهِ النورَ مكةُ ، واكْتَسى مِنْ وشْيِ يُمْنةِ يُمْنِها الأفوافِ

أطلقَ عليهِ علماءُ وفقهاءُ مكةَ إجازةً كانَتْ إقراراً منهمْ أنهُ التفسيرُ الذي فاق كلَّ تفسيرٍ ، ونوراً للقارئِ ، يضيءُ لهُ دربَ تَفَهُّمِهِ ورداءً ، يكْتَسيهِ ؛ نَسجَتْهُ أيدي أهلِ اليَمَنِ الصَّناعُ ، وخاطَتْهُ ، وطَرَّزَتْهُ بزينةٍ بديعةٍ .

٤٠ ـ فبِمثْلِهِ تُسْتَنْزَلُ البركاتُ مِنْ حوضِ الغمامِ وغَيثِهِ الوكّافِ

فَبِسببِ تصنيفِ كتابِ مثلِهِ ، يُدْعَى اللهُ ـ عَزَّ ، وجَلَّ ـ أنْ يُرسِلَ نِعَمَهُ على صاحبِهِ وقارئِهِ مِنْ علياءِ سماواتِهِ الكريمةِ .

٤١ ـ ويُضاحكُ الشمسَ النجومُ بأنْ بكَتْ عينُ السماءِ بِدَمعِها الذَّرّافِ

وتقومُ النجومُ بإرسالِ الأضواءِ في الليلِ البهيمِ بعدَ أنْ تغيبَ حياةُ نفسٍ ، وتبكيهِ السماءُ بدموعِها الغزيرةِ .

٤٢ ـ تاللهِ ما (الكشّافُ) إلاّ آخذٌ صِفَةَ الجَلِيِّ بهِ الدقيقُ الخافي

واللهِ إنَّ كتابَ (الكشافِ) حائزٌ على صفةِ الواضحِ الذي يُنيرُ كلَّ أمرٍ بعيدٍ مستورٍ .

٤٣ ـ نُكَتٌ إلى نُكتٍ تَرَصَّفَ نظمُها بِمُنَكَّتٍ لِحُلَتِها رَصّافِ

أمورٌ دقيقةٌ ، تَلِيها أمورٌ ، تَرَتَّبَ عَرْضُها بيدِ ناظمِ دُرَرِها الماهرِ .

٤٤ ـ لو كانَ في أُولى الزمانِ مُصَنَّفاً ما كانَ إلاّ عمدةَ الأسلافِ

فلو كان هذا الكتابُ قد صُنِّفَ منذُ أمدٍ بعيدٍ كانَ مرجِعَ الناسِ القدماءِ .

٤٥ ـ فبهِ أشافٍ للذي يبغي الهُدَى فيهِ لأكبادِ البُغاةِ أشافِ

فيه أدويةٌ ، تُبْرِئُ الضالَّ الذي يرومُ الرشادَ ، وفيهِ مخارزُ ، تثقُبُ قلوبَ الظالمينَ ، فتقضي عليهم .

٤٦ ـ لو أنصفوهُ تَعَلَّقوهُ تميمةً لكنْ أَبَوا مِنْ قِلّةِ الإنصافِ

فلو كانَ الناسُ على قدرٍ منَ العلمِ والفقهِ والعدلِ لجعلُوهُ مرجعاً ورُقْيَةً ، تُخَلِّصُهُمْ منَ الزَّللِ ، ولكنهمْ رفضوا ذلكَ لأنهم لا يحبونَ العدلَ .

٤٧ ـ وطَوَوا على حسدٍ قلوباً ، رَيْنُها للدينِ والحقِّ المنيرِ مُنافِ

ووضعوا في قلوبهمْ خُبْثاً ودَنَساً حاسدينَ جاهلينَ الدينَ والحقَّ المُضيءَ مخالفينَ .

٤٨ ـ حَمِيَتْ أثافي الشَّرِّ بينَ صدورِهِمْ فكأنها تحتَ القدورِ أثافِ

اشتدَّ في صدورِهِمْ حَرُّ نُصُبِ الشَّرِّ والضلالِ ، وكأنها الحجارةُ الثلاثةُ التي توضَعُ تحتَ القِدْرِ .

٤٩ ـ والحقُّ طودٌ ، لا يُحَلْحَلُ رُكْنُهُ ومكابَراتُ المُبطلينَ سَوافِ

وإنَّ الحقَّ والصوابَ جبلٌ راسخٌ ، لا يَسْتطيعُ فردٌ ولا جماعةٌ أنْ يُزَحْزِحوا جانبَهُ ، ومعانداتُ المُخْطئينَ والمُضِلِّينَ خفيفةٌ ، تَذروها الرياحُ ، فتتلاشى في الفضاءِ .

٥٠ ـ وإذا الأكابرُ عظَّموكَ ، فلا تُبَلْ بمطاعِنِ الأوزاعِ والأخيافِ

وإذا نِلْتَ التَّقديرَ والتعظيمَ منَ الناسِ الكرامِ ، فلا تكترِثْ بِوَخزاتِ الحُسّادِ والمخالفينَ .

٥١ ـ فأخو الحِجَى والحِجْرِ راسٍ راسخٌ لا يُزْدَهَى بدَمادِمِ الأجلافِ

فصاحبُ الفطنةِ والعقلِ قائمٌ ثابتٌ ، لا تَسْتَخِفُّهُ صغارُ الأمورِ والحَمْقَى .

٥٢ ـ لم يُزْرِ بالأعراضِ مطعنُ مثلِهِمْ كالرَّمي ليسَ بمؤلمِ الأهدافِ

لم يَعِبْ سمعةَ وعِرْضَ أحدٍ عيبٌ ، يشابِهُ عيوبَهُمْ ، لأنَّ هذا الحالَ مثلُ حالِ الضربِ والرميِ في المعركةِ ، لا تُؤلِمُ إصابتُهُ المصابَ .

٥٣ ـ وكفى بِمُنْتَجَبِ الملوكِ مُعَظَّماً وبذي المناقبِ أشرفِ الأشرافِ

وحسبي محمدُ بْنُ أرْسَلانَ سليلُ الملوكِ العظامِ وصاحبُ المكارمِ عُلَيَّ بْنُ عيسى شريفُ

مكةَ أكرمُ الكرامِ مُكَرِّمَيْنِ إيّايَ فَخْراً ومَجْداً .

٥٤ ـ هذانِ فحلا العُرْبِ والعُجْمِ، انْتَهى   لهمـا الكمـالُ بـأكمـلِ الأوصـافِ

هذانِ عظيما العربِ والأعاجمِ ، فقد بَلَغَتْ أوصافُهما الكاملةُ الكمالَ .

٥٥ ـ وبكـلِّ أروعَ ذي نصـابٍ طيِّـبٍ   وبكـلِّ أروعَ ذي اعتقـادٍ صـافِ

وحسبي أشجعُ رجلٍ مُعْجِبٍ صاحبِ حظٍّ جَيِّدٍ وأفضلُ رجلٍ صاحبِ إيمانٍ باللهِ تعالى نقيٍّ من الزَّيغِ والميلِ .

٥٦ ـ وَمُقَـدَّمَـيْ قَحْطانَ مِـنْ سَرَواتِها   ومُطِيَّتَـي عـدنـانَ والأحْـلافِ

وحسبي أيضاً مَنْ تَقَدَّمني مِنْ نسلِ قَحْطانَ مِنْ عظامِ الرجالِ عربُ اليمنِ عربُ الجنوبِ وصديقايَ نسلُ عَدنانَ عربُ الشمالِ ونسَلُ أصحابِ العهودِ .

٥٧ ـ وأُولي الوَجاهةِ والنباهةِ والنُّهى   مِمَّـنْ تُحيـطُ بهـمْ جـوانـبُ قـافِ

وأصحابُ العزَّةِ والسيادةِ والفِطْنَةِ والعقلِ الذين لَفَّتْهُمْ أطرافُ جبلِ قافٍ المحيطِ بالكرة الأرضيةِ .

٥٨ ـ أهلُ الأطانيبِ الحُلولِ بِبَدْوِهِمْ   والنـازلـي الأريـافِ والأسيـافِ

وأهلُ الخيامِ الذينَ يشدُّونَ حبالَهُمْ على أوتادِهِمْ ، ويُقيمونَ خيامَهُمْ في الباديةِ ، ويسكنونَ بها ، والذينَ يَحُلّونَ بالأراضي الزراعيةِ وبسواحلِ البحرِ .

٥٩ ـ مـا فـي أولئكَ للفضيلةِ جاحـدٌ   مـا فـي أولئـكَ للمـزيَّـةِ نـافـي

وليسَ في هؤلاء الذين ذكرْتُهُمْ ناكرٌ أيَّةَ مَكْرُمةٍ ، وما في أحدٍ منهمْ لصفةٍ ممدوحةٍ مُنَحِّياً ومُبْعِداً .

٦٠ ـ إلاّ نُـوَيسـاً كـالحميرِ تنـاهَقَـتْ   ومِـنَ العنـاءِ الفكـرُ فـي الكَـرّافِ

إلا جماعةً ؛ صغارُ النفوسِ ، يشبهونَ الحميرَ ، تتحادَثُ بكلامٍ كالنَّهيقِ ، ولا يكونُ لهمْ في فرحِهِمْ وحزنِهِمْ إلاّ النظرُ إلى مصدرِ أبوالِ أُتُنِها لِشمِّ أبوالِها ، ورفعُ رؤوسِهِمْ ، ثم تقليبُ جَحْفلاتِها (شفاهِها) .

٦١ ـ وكفى أولئكَ ناصرينَ وقَبْلَهُمْ   اللهُ ـ عَـزَّ ، وجَـلَّ ـ كـافٍ كـافـي

وحسبُ هؤلاءِ مَنْصورينَ اللهُ تعالى ، يَدْفَعُ عنهم كيدَ الأعداءِ وشَرَّهُمْ، ويَجْزيهِمْ خيرَ الجزاءِ .

☆☆ ٩ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في المدحِ :

١ ـ أنا مجمَعُ الكبراءِ والأشرافِ ومُبَوَّأُ النُّدمَاءِ والأضيافِ
إني أجمعُ العظماءَ الكرامَ ، وأُنْزِلُ جُلَساءَ الشرابِ والضِّيفانَ بأحسنِ الأمكنةِ عِزًّا وقِرًى .
٢ ـ يَرْقَى إليَّ الأكرمونَ ، وكُلُّهُمْ يَلْقَى صنوفَ البِرِّ والألطافِ
ويأتيني أشرافُ الناسِ ، وكأنهمْ يصعَدونَ جبلًا ، فيجدُ كلُّهُمْ أنواعَ الإكرامِ والإحسانِ .
٣ ـ مَنْ حلَّ فيَّ أصابَ عند حلولِهِ ما شاءَ في المَشْتَى وفي المصطافِ
فمنْ نزلَ بداري نالَ فيها ما أرادَ منَ الآمالِ في الشتاءِ وفي الصيفِ .
٤ ـ تُمْسي ، وتصبحُ عَرْصَتي مفروشةً بمطاعمٍ ومشاربٍ أصنافِ
وتبقى ساحةُ بيتي مُزَوَّدةً بأنواعِ الطعامِ والشرابِ ليلًا ونهاراً .
٥ ـ سَوَّى عُبَيدُ اللهِ بُنْياني على كرمٍ ، وحَفَّ بسؤدُدٍ أكنافي
وكانَ لِعُبيدِ اللهِ الفضلُ الكبيرُ في استقامةِ كياني عِزًّا وشَرَفاً وعلماً وإحاطةِ أحوالي بالجلالةِ والمهابةِ .
٦ ـ ولقد بناني مُشْرِفاً عمداً لكي يدعو الضيوفَ إلى القِرى إشرافي
فقد أشرفَ في تعليمي على كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ منْ أعمالي قاصداً أنْ يكونَ قيامي على إكرامي الضيوفَ خيرَ قيامٍ .
٧ ـ ما صاحبي إلاَّ كريمٌ واحدٌ يختالُ بينَ مكارمٍ آلافِ
ولم يكن لي صديقٌ إلاّ واحدٌ ، يتيهُ مفتخراً بنفسه على آلافِ الرجالِ الكرامِ .
٨ ـ يرعى حقوقَ المكرُماتِ إذا صحا وإذا تمايلَ لَيِّنُ الأعطافِ
يحفَظُ ما عليهِ منْ واجباتِ المكرُماتِ إذا استيقظَ من نومِهِ ، ويختالُ بأطرافِهِ اللَّيِّنةِ على أقرانِهِ .
٩ ـ لا زالَ يظفَرُ بالأماني كلِّها وينالُ ما يرجوهُ بالأضعافِ
وكانَ اللهُ تعالى ، وما زالَ يُثيبُهُ على أعمالِهِ ، فيعطيهِ ما طَلَبَهُ منهُ ؛ ويأخذُ ما كانَ يأمُلُهُ منَ اللهِ ـ عَزَّ ، وجلَّ ـ أضعافاً مضاعفةً .
☆☆ ١٠ ـ وقالَ على بحرِ البسيط في الفخرِ في كتابِهِ (الكشاف) [أزهار الرياض ج٣/ ٢٩٦ وبغية الوعاة السيوطي ج ٢/ ٢٧٠ و٢٧١ وإشارة التعيين ص ٣٤٦] .
١ ـ إنَّ التفاسيرَ في الدنيا بلا عَدَدٍ وليسَ فيها لَعَمري مثلُ كشّافي

لقد أقبلَ العلماءُ والفقهاءُ على القرآنِ الكريمِ ، وفَسَّروا معانيَهُ ، وبَلَغوا في تفاسيرِهِمْ غايةَ الجَهْدِ ، إلاّ أنها ، وايمُ اللهِ ، لم تَكُنْ شبيهةً بكتابي : الكشّافِ .

٢ ـ إنْ كُنْتَ تبغي الهدى ، فالزمْ قراءَتَهُ فالجهلُ كالداءِ والكشّافُ كالشافي

فإنْ كنْتَ أيُّها الإنسانُ تريدُ الرَّشادَ ، فواظِبْ على قراءتِهِ ، ولا تُفارِقْهُ ، فإنَّ عدمَ العلمِ ، يُشْبهُ المرضَ الذي لا يُبْرِئُهُ إلاّ كشّافي .

☆☆ ١١ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الهجاءِ :

١ ـ لَعمرُكَ ما عبدُ العزيزِ بكافلٍ رَضِيَّ مَساعيهِ ، وما هو بالكافي

وإني لأحلِفُ بقَدْرِ عُمُرِكَ يا صاحبي أنَّ عبدَ العزيزِ غيرُ مُسْتَعِدٍّ لعملٍ ، يَضْمَنُ القيامَ بهِ ، غيرُ مقبولةٍ أعمالُهُ ، وليسَ بضامنٍ أحداً حتى نفسَهُ .

٢ ـ وإنكَ واستِسْعاءَ مثلِكَ مثلَهُ كما استُظْهِرَ الدُّلْفينُ بالسمكِ الطافي

وإنكَ وتكليفَكَ إيّاهُ عملاً ، تُشْبِهُ مَنْ يَستعينُ بالدابَّةِ البحريّةِ الضخمةِ المسماةِ الدُّلفينَ التي تُنَجّي الغريقَ ، فيضعُ السمكَ المَيِّتَ على ظهرِها .

☆☆ ١٢ ـ وقالَ على بحرِ الرجزِ في المدحِ :

١ ـ هل ليَ مِنْ جَوْرِ الملاحِ مُنْتَصَفْ ؟ قلبي لِنُشّابِ عيونِهِمْ هَدَفْ

هل أجدُ مِنْ ظُلْمِ الحسانِ منْ يستوفي لي حَقّي منه ؟ فإنَّ قلبي كانَ لِسهامِ أعيُنِهِنَّ عَلَماً منصوباً للإيقاعِ به .

٢ ـ فكيفَ لا تنفُذُ فيَّ أسهمٌ تَنْفُذُ في الزَّغْفِ الدِّلاصِ والحَجَفْ ؟

وإني لأعجبُ كيفَ لا تُصيبُني نبالٌ ، تدخُلُ في نسيجِ دُروعٍ منَ الحديدِ وفي تروسٍ منَ الجلدِ المتينةِ ؟

٣ ـ ما بينَ جَنْبَيَّ ، فؤادٌ لم يزلْ بينَ الضلوعِ الساحراتِ يُخْتَطَفْ

وفي ضلوعي المُتَقِدَةِ كانَ ، وما زالَ ، قلبٌ مُعَرَّضٌ للسلْبِ .

٤ ـ كم صِحْتُ منْ كيدِهِمْ ومكرِهِمْ ؟ يا أسفا ، لو كانَ ينفعُ الأسَفْ

كم منْ صيحةٍ ، صَدَرَتْ عني من حِيَلِهِنَّ وخُبْثِهِنَّ ، فيا حزناهُ على نفسي ، ما كانَ يفيدُ الحزنُ أحداً بشيءٍ حتى يُفيدَني .

٥ ـ وظالمٍ ، أسْرَفْتُ في ودادِهِ ؟ وأيُّ شيءٍ فيه ، يُحْمَدُ السَّرَفْ ؟

وكم منْ جائرٍ ، بالغْتُ في وصلِهِ ؟ وأيُّ شيءٍ في الظالِمِ ، يُقْبَلُ ؟

٦ ـ تَلِفْتُ إذْ كَلِفْتُ ، والفتى متى   يَكْلَفْ يَقِفْ بالنفسِ موقعَ التَّلَفْ

هَلَكْتُ حينَ عَشِقْتُ ، والمرءُ إنْ يعشَقْ يجعَلْ نفسَهُ موضِعَ الهلاكِ .

٧ ـ كَلِفْتُ بالبديعِ في جمالِهِ   إنَّ البديعَ بالبديعِ ذو كَلَفْ

فلقد أُغْرِمتُ بالمليحِ وحُسْنِهِ ، وإني وجدْتُ أنَّ المحبوبَ ، تعلو وجهَهُ حمرةٌ حياءً إذا نظرَ العاشقُ إليهِ .

٨ ـ إنْ أطنَبَ البليغُ في صفاتِهِ   فإنهُ في الحسنِ فوقَ ما وصَفْ

فإنْ أطالَ الأديبُ الحاذقُ في عرضِ صفاتِهِ فإنهُ يبقَى مُقَصِّراً عنِ الإحاطةِ في ذكرِها كلِّها .

٩ ـ كأنَّ حبَّةَ قلبي كُرَةٌ   لِصَولجانِ صُدْغِهِ إذا انعطَفْ

وكأنَّ سُوَيداءَ قلبي كُرَةٌ ، يلعبُ بها سحرُ صُدْغِهِ إذا مالَ بهِ .

١٠ ـ يُقطَفُ الوردُ أوانَ يَنْعِهِ   ما بالُ وردِ خَدِّهِ ، لا يُقْتَطَفْ ؟

وإنَّ الوردَ ، يُقْطَعُ وقْتَ إزهارِهِ ، وما سَبُبُ عَدَمِ جَنْيِ وردِ خَدِّ المحبوبِ وقَطْعِهِ ؟

١١ ـ صِلْني يَصِلْكَ فاضلٌ ؛ مقالُهُ   في النظمِ والنثرِ بأسرِهِ نُتَفْ

وُدَّني ، فإنْ وَدَدْتَني تَجِدْني خيرَ وُدٍّ ؛ كَلامُهُ في الشعرِ والنثرِ ، كلُّهُ مختارٌ منْ أرقِّ اللفظِ وأجودِ المعنى .

١٢ ـ ولا يَرُعْكَ الكسرُ في جناحِهِ   فزينةُ السيفِ الفلولُ في الطَّرَفْ

ولا يُفزِعْكَ ، أو يُحْزِنْكَ كسرٌ أو بَتْرٌ في رجلِهِ ، فإنَّ حِلْيَةَ السيفِ ثُلْمَةٌ في ناحيةٍ منهُ .

١٣ ـ تَمَثَّلوا الأحنفَ في الحِلْمِ ، وما   غَضَّ مِنَ الأحنفِ عارضُ الحَنَفْ

تَشَبَّهَ الناسُ بالأحنفِ بنِ قيسٍ لِعقلِهِ وأناتِهِ ، وجَعَلُوهُ مثلاً ، فقالوا : (أحْلَمُ منَ الأحنفِ) [مجمع الأمثال ح١/ ٢١٩] ولم يُنْقِصْ منْ قَدْرِهِ وجودُ مَيلٍ في قدمِهِ .

١٤ ـ يا أملَحَ الناسِ ، تدارَكْ رمقي   بنظرةٍ ، فإني على شَرَفْ

فيا أجملَ الناسِ الْحَقْ بي في آخرِ مرحلةٍ منْ مراحلِ عمري ، ولم يبقَ لديَّ إلاّ بَقيَّةٌ منْ حياةٍ ، وأغِثْني بنظرةٍ ، فإنني على شَفا الهلاكِ .

١٥ ـ يا عجبا أني أريدُ نظرةً   منْ مثلِها جاءَ الغرامُ والشَّغَفْ

ويا عجبي منْ حالي : أطلُبُ منْ حِبِّي نظرَةً ؛ كانَ مثلُها سَبَبَ حُبّي إيّاهُ وتَوَلُّعي به ، وكأنَّ الزمخشريَّ ، يشيرُ إلى قولِ أبي نواسٍ .

دعْ عنكَ لومي فإنَّ اللومَ إغراءُ   وداوِني بالتي كانَتْ هيَ الداءُ
[الديوان ص٣٥]

١٦ ـ طوبى لمنْ صادَفَ منكَ شَمَّةً   وضَمَّةً ، ورَفَّ فاكَ ، وارتَشَفْ

ويا سَعْدَ منْ لَقِيَ منك نَسْمةً وعِناقاً ، وقَبَّلَ أطرافَ شَفَتَيكِ ، ونالَ منها ما بَرَقَ من رُضابِكَ .

١٧ ـ وقَبَّلَ الكُمَّ البهائيَّ الذي   تَطْلُعُ ، أو تَغْرُبُ فيه خيرُ كَفْ

ولَثَمَ الرُّدْنَ الحَسَنَ الجميلَ الذي تظهرُ ، أو تختفي منه ، أفضلُ يدٍ .

١٨ ـ كَفٌّ كأنَّ الخَمْسَ منْ بنانِها   منهنَّ أرزاقُ العبادِ تُغْتَرَفْ

فرؤوسُ أصابعِ كفِّهِ الخمسةُ كالقصعةِ ، جعلَها اللهُ تعالى وعاءَ أرزاقِ العبادِ ، يأخذُ كلُّ واحدٍ منهمْ ما يستَحِقُّ بيدِهِ .

١٩ ـ كأنما الغمامُ منها يَسْتَقي   فلو نَهاهُ مرةً لما وَكَفْ

وكأنَّ السحابَ ، يأخذُ منْ هذهِ الكفِّ مياهَهُ ، ولو مَنَعَ هذا الكفُّ السحابَ عنِ الاستِسقاءِ منهُ لما استطاعَ أنْ يرسِلَ مطراً قَطُّ .

٢٠ ـ تاللهِ لولا شرفُ المُلْكِ لَمَا   كانَ لهذا المُلْكِ قَدْرٌ وشَرَفْ

واللهِ لو لم يَتَوَلَّ شرفُ الملكِ أعباءَ هذهِ الدولةِ لما كانَ لها قيمةٌ ومكانةٌ .

٢١ ـ تاللهِ ما قيمتُهُ إلاّ بهِ   كأنهُ اللؤلؤُ ، والمُلْكُ صَدَفْ

وواللهِ ما كانَ لهذا المُلْكِ قَدْرٌ إلاّ بهِ ، فهو كالدُّرِّ ، وغِشاؤها المُلْكُ .

٢٢ ـ ما أعظمَ امتِنانَ ذي العرشِ على   خارِزْ مَشاهٍ بالوزيرِ لو عَرَفْ

فما أجَلَّ عطاءَ اللهِ ـ عَزَّ ، وجَلَّ ـ صاحبِ العرشِ إلى مَلِكِ خوارزمَ وزيراً عظيماً ، هو شرفُ المُلْكِ محمدُ بنُ منصورٍ أبو سعدٍ ، لو أقَرَّ بجزيلِ ذلكَ العطاءِ .

٢٣ ـ شَيَّدَ للدولةِ منْ عليائِهِ   بيتاً مُنيفاً غُرَفاً على غُرَفْ

فقد بنَى للدولةِ مِنْ سماواتِهِ العُلْيا قصراً عالياً ذا طوابقَ غُرَفاً فوقَ غُرَفٍ .

٢٤ ـ بيتاً ، رسا على السِّماكِ أصلُهُ   فلا تَسَلْ عنِ الفروعِ والشُّرَفْ

وجعلَ ركيزتَهُ على كوكبَي السِّماكِ : الرامحِ والأعزلِ ، فليسَ لكَ بعد ذلكَ أنْ تسألَ عنْ أجزائِهِ ونوافذِهِ .

٢٥ ـ ما زالَ بالسَّعْيِ النَّجيحِ ناظماً   مُفْتَرِقاتِ أمرِهِ حتى ائْتَلَفْ

ما انْفَكَّ يقومُ بالعملِ الضامنِ الفوزَ مُرَتِّباً أمورَ دولتِهِ المتناثرةَ إلى أنِ اتَّسَقَتْ .

٢٦ ـ آمَنَ خارِزْمَ ، فلو سَرَى بها في مَجْهَلِ البيداءِ ، سارَ ، لَمْ يَخَفْ

فعاشَ أهلُ خوارزمَ آمنينَ ، ولو أرادَ أنْ يسيرَ أحدٌ ليلاً في الفلاةِ التي لم يَسِرْ بها أحدٌ قبلَهُ لَما اعتراهُ الخوفُ أبداً .

٢٧ ـ وَشَرَّدَ العَدُوَّ عَنْ حريمِها لولاهُ كانَتْ للعدوِّ معتكَفْ

وأبعدَ رجالَ العَدُوِّ عنْ أهلِهِمْ ، ولولا ذاك لكانتْ أرضُ خوارزمَ مَوئلاً وهَدَفاً لهم .

٢٨ ـ يُجَشِّمُ الأسفارَ نَفْساً ، لم تَزَلْ مِنْ طلبِ العِزِّ البعيدِ في كُلَفْ

يُكَلِّفُ نفسَهُ عناءَ الأسفارِ لأنها تعلَمُ أنَّ المجدَ العظيمَ ، ثمنُهُ مَشَقّاتٌ جسيمةٌ .

٢٩ ـ أمرٌ، أضافوهُ إليهِ، لم يَضِعْ وضائعٌ أمرٌ إليهِ لم يُضَفْ

وإنْ وَكَلَ الناسُ إليهِ أمراً يَقُمْ لهمْ بهِ ، ويُنْجِزْهُ دونَ أنْ يَذْهبَ منه شيءٌ سُدًى ، وإنْ لم يَكِلوا ذلكَ الأمرَ إليه ضاعَ ، وتلاشَى ، وفُقِدَ .

٣٠ ـ تبارَكَ اللهُ ، لقد أتى بهِ في كلِّ معنًى سَلَفاً لِمَنْ خَلَفْ

تَقَدَّسَ اللهُ ، وتَنَزَّهَ عنْ كلِّ ذمٍّ إذْ جعلَهُ لهذِهِ الأُمَّةِ إماماً صالحاً مُقَدَّماً على مَنْ سيأتي بعدَهُ .

٣١ ـ ما نَصبَ المجدُ لهُ من غايةٍ إلاّ أغَذَّ نَحْوَها ، وما وقَفْ

ما هَيَّأَ العِزُّ لَهُ منْ أمرٍ إلاّ أسْرَعَ إلى إنجازِهِ ، ولم يتوقَّفْ لحظةً عنِ القيامِ به .

٣٢ ـ فلم يُبَقِّ منكِراً لمجدِهِ مِنَ العدا إلاّ أقَرَّ ، واعتَرَفْ

فلم يَتْرُكْ لأحدٍ منَ الأعداءِ غيرِ معترفٍ بِعِزِّهِ فرصةً ، لا يُقِرُّ فيها بقَدْرِهِ .

٣٣ ـ اثنانِ لم يَخْتَلِفا في فضلِهِ وبَعدَهُ في كلِّ شيءٍ يَخْتَلِفْ

اتَّفَقَ الناسُ كلُّهُمْ في فضلِهِ ، واختلَفوا في غيرِهِ في كلِّ شيءٍ .

٣٤ ـ الحمدُ للهِ على أيّامِهِ مُظَفَّراً مِنَ الإلهِ في كنَفْ

وإنا لَنَحْمَدُ اللهَ تعالى على السعادةِ التي نعيشُها في تدبيرِهِ فائزاً برضا اللهِ ـ عَزَّ ، وجلَّ ـ رابِعاً في رحمتِهِ .

٣٥ ـ والعلَمُ الخافِقُ فوقَ رأسِهِ والعِزُّ غَضٌّ ، والعلاءُ مُؤْتَنِفْ

ورايةُ حُكْمِهِ خفّاقةٌ فوقَ مجلسِهِ ، والمجدُ ريّانٌ ، والسُّمُوُّ مستقبلُهُ .

☆☆ ١٣ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في الرثاءِ :

١ ـ أزكى مُصابُكَ فيَّ يا يوسُفْ وَجْداً لَوَقْدِ النارِ ، لا يُوصَفْ

لقد أنْمَتْ فجيعتي بكَ يا يوسفُ آلامي ، فصارَتْ كلهيبِ النارِ ، لا يمكنُ وَصْفُها .

٢ ـ كم قُلْتُ قولاً ، قالَهُ وَلِهاً يعقوبُ : ﴿ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾

وكم منْ مرةٍ رَدَّدْتُ قولاً ، قالَهُ قبلي يعقوبُ حزيناً أشدَّ الحُزْنِ على ابنهِ : يا حُزني على يوسفَ [سورة يوسف الآية : ٨٤] .

٣ ـ كنتَ التَّقِيَّ ، وكنتَ خَيرَ أخٍ في اللهِ في تَقْوَاكَ ، لا يُوقَفْ

كنتَ الرجلَ المُتَمَسِّكَ بدينِهِ ، وكنتَ أفضلَ أخٍ في دينِ اللهِ تعالى ، لا يستطيعُ أحدٌ أنْ يَجْعَلَ لِوَرَعِكَ وحماسِكَ في دينِكَ حدًّا ، يَقِفُ عندَهُ .

٤ ـ الآلِفَ المألوفَ كُنْتَ معاً وسِواكَ ، لم يَألَفْ ، ولم يُؤلَفْ

وكنتَ المُحِبَّ المحبوبَ في وقتٍ واحدٍ ، ولم يكُنْ غيرُكَ يوماً محبًّا ومحبوباً .

☆☆ ١٤ ـ وقال على بحرِ المنسرحِ في الحكمةِ :

١ ـ كذا رَأَينا مفاخرَ السلَفْ صالِحُ مُنساقِهِ إلى الخَلَفْ

هكذا وجَدْنا ما كانَ يَفْخَرُ بهِ الآباءُ والأجدادُ الكرامُ مُسَيَّراً إلينا نحنُ الخلفَ الكرامَ بإذنِ اللهِ تعالى .

❊ ❊ ❊

حرف القاف/ ٣٨٠/ بيتٍ

☆☆ ١ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ :

١ ـ سلامٌ عليكُمْ ، أدمعي ، قلّما ترْقا إذا شِمْتُ مِنْ لِقاءِ إرضِكُمْ بَرْقا

أحيِّكُمْ أيها الركبُ ، وأقولُ : السلامُ عليكمْ ، وأشكو حالي قائلاً : إنَّ دموعي تنسَكِبُ غالباً كلّما رأيتُ البرقَ ، يَلْتَمِعُ في سماءِ أرضِكُمْ .

٢ ـ ومِنْ عجبٍ أني إذا لاحَ بارقٌ بأرضِكُمُ استَمْطَرْتُ أجفانيَ الوَدْقا

وأعجبُ منْ ذا أني إذا التمعَ البرقُ في أرضِكُمْ طلبْتُ منْ أجفاني أنْ تُرْسِلَ دموعَها ، وَتشارِكَ السحابَ في مطرِهِ .

٣ ـ وما خِلْتُ هذا البرقَ إلاّ ابتسامةً لِسُعْدَى ، أضاءتْ عندَ إيماضِها الأُفْقا

وما أظُنُّ هذا البرقَ إلا أنَّ سُعادَ ، قدِ ابتسمَتْ ، فَنَوَّرَتْ بالتماعِ ابتسامتِها السماءَ .

٤ ـ أأَومضَ برقٌ أم سعادُ ، تَبَسَّمَتْ ؟ فما تعرفُ العينانِ بينَهما فَرْقا

وأسألُ نفسي : هلِ الْتَمَعَ البرقُ ، أمِ ابتسامةُ سُعْدَى ، قد أضاءَتِ الكونَ ؟ فإنَّ عينيَّ ما عادَتا ، تُمايزانِ بينَ ضوءِ البرقِ ولمعانِ أسنانِ سعادَ ، وهي ، تبتسمُ .

٥ ـ فلو ضاحكَتْ جُنْحَ الظلامِ لَنَوَّرَتْ بتلكَ الثناياالوُضَّحِ الغَرْبَ والشَّرْقا

فلو ضَحِكَتْ سعادُ ، فأضحكَتْ إقبالَ الظلامِ ظلامِ الليلِ ، لعادَ الليلُ أدراجَهُ ، ولم ينشُرْ أستارَهُ السوداءَ ، وأضاءَتْ ثنايا أسنانِها البيضِ شرقَ الأرضِ وغَرْبَها .

٦ ـ تمنيتُ لو يُغْني التمنّي لِقاءَها وَوَقْعُ رماحِ الخَطِّ مِنْ دونِ أنْ يُلْقَى

وتمنَّيْتُ أنْ أرَى سعادَ ، وما كانَ التَّمَنِّي مُتَحَقِّقاً يوماً ، وما سُمِعَ صوتُ وقوعِ الرماحِ على الأرضِ في مرفإِ الخَطِّ البحرانيِّ منْ دونِ أن تُطْرَحَ للبيعِ ، وتُهَيَّأَ لمعركةٍ .

٧ ـ وبيضٍ كأنَّ المِلْحَ فوقَ متونِها يمانيَّةٌ تَفْلُقْنَ هامَ العدا فَلْقا

وقد كانتْ تلكَ الحسانُ بيضاً كالسيوفِ اليمانيَةِ التي ذُرَّ على صحائِفها الملحُ ، فإذا ضربَتْ رؤوسَ الأعداءِ ، صَدَعَتْها شَقًّا ، وكانَتْ آلامُها شديدةً .

٨ ـ وطائفةٌ زرقٌ تحاكي عيونُها إذا نَظَرَتْ شزراً أسِنَّتَها الزُّرْقا

وكانَ منْ تلكَ الحسانِ جماعةٌ ذواتُ عيونٍ زُرْقٍ ؛ إذا رشَقَتْ أحداً بنظرةٍ جانبيَّةٍ ، رأيتَ

شَبَهاً بينَها وبينَ نِصالِ سيوفِها ورماحِها الزُّرْقِ .

٩ ـ إذا وَرَدَتْ ماءً ، وفي الماءِ قِلَّةٌ تَفَرَّقَ عنه سائرُ الناسِ أو تُسْقَى

وإذ ذهبَتْ إلى موردِ ماءٍ قليلٍ ماؤهُ ، انتظَر الناسُ بعيداً عنهُ إلى أنْ تنتهيَ منْ أخذِ حاجتِها منهُ .

١٠ ـ خليليَّ ! هل أيّامُنا بسُوَيقةٍ رواجعُ أم طارَتْ بأيّامِنا العَنْقا ؟

فيا صاحبيَّ ! هل تعودُ أيّامُنا التي قَضَيناها سُعداءَ بِسُوَيقَةَ ، أم ذهبَتِ العنقاءُ التي لم يَرَها أحدٌ بأيّامِنا دونَ أنْ تَرُدَّها يوماً لنا ؟

١١ ـ مَقيلُ شبابٍ ، قد تَقَلَّصَ ظِلُّهُ ومَشْرَعُ لهوٍ ، آضَ أزْرُقُهُ رَنْقا

كانَتْ سُوَيقَةُ مأوَى الشبابِ وقتَ القَيلولةِ ذاتَ ظِلٍّ فَسيحٍ ، فَصَغُرَ ذلك الظِّلُّ ، ومكانَ لهوٍ ولعبٍ ومورداً عذباً صافياً أزرقَ ، فصارَ كَدِراً .

١٢ ـ وسِمْطُ نَعيمٍ ، قد تَشَظّى نَظيمُهُ تَشَظِّيَ درٍّ بعدَ ما نُسِقَتْ نَسْقا

وكانتْ كقلادةٍ طويلةٍ ، انتظَمَ في سلكِها خيرُ اللآلِئِ ، فانقطعَ الخيطُ ، وتفرَّقَتِ اللآلئُ بعدَ أنْ كانَتْ مُرَتَّبَةً ترتيباً بديعاً جميلاً .

١٣ ـ فيا عيشةً خضراءَ ، لو بَقِيَتْ لنا ولا خيرَ في ما لا يدومُ ، ولا يبقَى

فما أحْلَى الحياةَ الناعمةَ ، ليتَها ، دَامَتْ لنا ، فإنهُ ، لا فضلَ في أمرٍ ، لا يَبْقَى ، ولا يَسْتَمِرُّ .

١٤ ـ ولهفي على عصرٍ ، تَقَضَّى ، مُناسِبٍ سجايا فريدِ الدهرِ أو وجْهَهُ الطَّلْقا

ويا أسفي على زمنٍ مَضَى ، كانَ مُقارباً ومُشاكلاً شيخي أبا مُضَرَ فريدَ العصرِ بطبيعتِهِ السَّمْحةِ وإشراقةِ وجْهِهِ .

١٥ ـ هو المرتَضَى وجهاً وخُلْقاً ، وإنني لأَشتاقُ ذاكَ الوجهَ بل ذلكَ الخُلْقا

فهو الرجلُ المُسِرُّ : وجهُهُ وخُلُقُهُ ، وإني تَعَلَّقْتُ به كثيراً ، ولم أعُدْ أستطيعُ فراقَ رؤيةِ وجهِهِ وحِرْماني الاستمتاعَ بطيبةِ خُلُقِهِ .

١٦ ـ إذا الريحُ منْ شَرْقيِّ مَرْوٍ تَنَفَّسَتْ فيا بَرْدَ صدري حينَ أنْشُقُها نَشْقاً

وإذا جاءَتْني ريحٌ منْ جهةِ شرقِ مروٍ حيثُ تعيشُ سعادُ أُحِسُّ ببرودةٍ ، تُخَفِّفُ حرارةَ صدري ، فأشُمُّهُ ، وأُدخِلُهُ في أنفي .

١٧ ـ وما يطَّبيني الأيكُ إلاّ لأنني أساعدُ في الشَّجْوِ الحمامَ بِهِ الوُرْقا

وما يُطْرِبُني ، ويَسْتهْويني الشجرُ الكثيفُ إلاّ لأنني أُرَدِّدُ معَ الحمامِ تغريدَهُ الحزينَ ، وكأني أشارِكُهُ ، ويُشارِكُني في التعبيرِ عما نَكُنُّهُ في صدورِنا .

١٨ ـ وإنْ عَصَفَتْ ريحُ الشَّمالِ ذكَرْتُهُ   وإسراعَهُ نحوَ المكارِمِ والسَّبْقا

وإذا هبَّتِ الريحُ منْ جهةِ الشَّمالِ طافَ بخيالي أبو مُضَرَ فريدُ العصيرِ ومبادَرَتُهُ السريعةُ إلى المكارمِ قبلَ غيرِهِ ومُسابَقَتُهُ .

١٩ ـ ويَبْعَثُ أشجاني الفضاءُ لأنهُ   حكى صدرَهُ رُحْباً وهِمَّتَهُ سُحْقاً

ويثيرُ الفضاءُ أفراحي وأحزاني لأنهُ ، يُشابِهُ صدرَ أبي مُضَرَ في سَعَتِهِ وعَزْمَهُ البعيدَ في شأوِهِ .

٢٠ ـ وتَمري مآقِيَّ الغوادي لأنها   تضاهي يديهِ كلّما دفَقَتْ دَفْقا

وتطلُبُ عينايَ منَ السحبِ الحاملةِ أمطاراً في البكورِ أنْ ترسلَ المطرَ غَدَقاً لأنها ، تشبهُ يديهِ الكريمتَينِ في سخائِهما وعطائهما الذي يَنْصَبُّ مَرَّةً بعدَ مَرَّةٍ .

٢١ ـ وإنْ مَدَّ جَيحونٌ تَذَكَّرْتُ فَيضَهُ   بما يَعْمُرُ الأذهانَ والألْسُنَ الذُّلْقا

وإنْ رأيتُ ازديادَ ماءِ نهرِ جَيحونَ خَطَرَ في بالي كثرَةُ عطاءِ فريدِ العصرِ الذي يَمْلأُ العقولَ أفكاراً سديدةً والألْسُنَ فصاحةً وبلاغةً .

٢٢ ـ وليسَ بسيطُ البحرِ إنْ قِسْتَهُ به   بسيطاً ولا في جنبِهِ عمقُهُ عُمْقا

وإنْ أردْتَ أنْ تمايزَ بينَ البحرِ وفريدِ العصرِ وجَدْتَ البحرَ ليسَ واسعاً ولا عميقاً أمامَ سَعَةِ صدرِ فريدِ العصرِ وعمقِ تفكيرِهِ .

٢٣ ـ تصامَمْتُ أنْ قالوا : كَسَيفٍ لسانُهُ   ولستُ بِمنْ يُصْغي إلى خَطَلِ الحَمْقى

وجَعَلْتُ نفسي أصَمَّ حينَ قالوا : إنَّ لسانَ فريدِ العصرِ حادٌّ كالسيفِ لأني لستُ مِمَّنْ يُبالونَ بأقوالِ البُلهاءِ الذينَ لا تمييزَ لهمْ .

٢٤ ـ هَبوا أنَّ حدَّ السيفِ غَرْبُ لسانِهِ   فَمَنْ لصليلِ السيفِ أنْ يُشْبِهَ النُّطْقا ؟

فافْتَرِضوا كلامَ فريدِ العصرِ كالسيفِ الحادِّ ، بَلَغَ النهايةَ في شدةِ قسوتِهِ ، ألم تَجدوا لصوتِ قراعِ السيوفِ صفةً ، تُمَثِّلُ الكلامَ البليغَ .

٢٥ ـ وأكمَلَ دونَ العالَمِ اللهُ رزقَهُ   منَ العلمِ ، إنَّ العلمَ أحسبَهُ رِزْقا

وجعلَ اللهُ ـ عَزَّ ، وجلَّ ـ تمامَ علمِ فريدِ العصرِ حَظَّهُ منَ الرزقِ ، وإني لأوقِنُ أنَّ العلمَ ، هو الرزقُ عينُهُ .

٢٦ ـ محيطٌ بأطرافِ الأفانينِ مُدَّعٍ ببيِّنَةٍ فيها التَّمَهُّرَ والحَذْقا

فأحاطَ بجوانبِ العلوم وفنونِها ، وعَرَضَ آراءَهُ في البحثِ فيها بإيرادِ الحججِ والبراهينِ السديدةِ القاطعةِ عرضَ العالمِ المُتَفَهِّمِ .

٢٧ ـ تَرَدَّدَ فيه ثُمَّ في الخَلْقِ ناظري فأكبرَ ، ثم انثنى يُصْغِرُ الخَلْقا

وتَوَجَّهَ بَصَري إليهِ ثم إلى الناسِ مَرَّةً بعدَ مَرَّةٍ ، ومايَزَ بينَهما ، فعادَ قائلاً : اللهُ أكبرُ ، ثُمَّ انعطفَ مُقَلِّلاً قَدْرَ الناسِ أمامَ قَدْرِه .

٢٨ ـ ولستُ بناسٍ صدقَهُ ووفاءَهُ متى لم أجِدْ فيهمْ وفاءً ولا صِدْقاً

وإني كلَّما أفتقِدُ الوفاءَ والصدقَ في الناسِ أذكُرُ صدقَهُ ووفاءَهُ ذكرَ مُقِرٍّ بفضلِهِ غيرَ ساهٍ وغافلٍ عنهُ .

٢٩ ـ فشا فيهمُ نطقُ الفواختِ باطلاً وما مِنْ قطاةٍ منهمُ ، تَنطِقُ الحَقّا

وانتشرَ فيهمْ قولُ الأكاذيبِ التي تشبهُ أقوالَ الحمام المُطوَّقِ التي يُضْرَبُ المثلُ بكذبِها وبُطلانِها ، ولم يكنْ منْ أقوالِهمْ ما يشبهُ أقوالَ طَيرِ القَطَا التي ضُرِبَ المثلُ بصدقِ أصواتِها [(أكذبُ منْ فاختةٍ : مجمع الأمْثال : ح ٢/ ١٦٧) (أصدقُ من قَطاةٍ) : مجمع الأمثال : ح١/ ٤١٢)] .

٣٠ ـ على الزُّورِ والقولِ المُزَخْرَفِ أجمعوا وقد خَرَقَ الأستاذُ إجماعَهُمْ خَرْقا

وكأنَّ الناسَ ، قد اتَّفَقوا على قولِ الكذبِ والمُزَيَّنِ بالباطلِ ، فمَزَّقَ فريدُ العصرِ أبو مُضَرَ العالمُ الماهرُ اتِّفاقَهمْ أشَدَّ تمزيقاً .

٣١ ـ لقد سَلَّمَتْ أعياضُ ضَبَّةَ مجدَها لأبسقِها فرعاً وأرسخِها عِرْقاً

ولقد أعطَى خِيارُ أولادِ بني ضَبَّةَ أهلُ فريدِ العصرِ أمرَ عزِّهمْ فريدَ العصرِ راضينَ ، لأنهُ أعلى مكانةً وأثبتُ أصلاً .

٣٢ ـ وأطولِها باعاً وأبسطِها يداً وأكرَمِها نَجْراً وأشهرِها عِتْقا

وأطولُ ساعداً وأسخَى يداً وأشْرَفُ طبْعاً ومَنْبتاً وأظهرُ كرماً وجمالاً .

٣٣ ـ وأعْمَرِها مِنْ كلِّ فخرٍ منازلاً وأوطئِها في كلِّ سابقةٍ طُرْقا

وأفضلُ أهلاً وفخراً ومنزلاً وأثبتُ دَوْسَةً في المسارعةِ إلى المكارمِ وأعلمُ بالسُّبلِ إليها .

٣٤ ـ جَرَى ، وجَرَوا نحوَ المَدى ، فتقاصَروا وراءَ غبارٍ ، شَقَّ أولَهُ شَقّا

أسْرَعَ أبو مضَر فريدُ العصرِ الضَّبِّيُّ ، وأسرعَ كلُّ فردٍ منْ أبناءِ ضَبَّةَ إلى غايتِه ، لكنهُمْ

وقفوا وراءَ النَّقْعِ المُثارِ الذي هَيَّجَهُ قبلَهُمْ أبو مضرَ ، وكأنَّهُ صَدَعَ الأرضَ شَقًّا .

٣٥ ـ وما المجدُ في أبناءِ ضَبَّةَ عارضاً ولكنــهُ فِعْــلٌ مــنَ المصــدرِ اشْتُقّــا

وليسَ العزُّ والشرفُ في بني ضَبَّةَ أمراً حَديثاً ، لم يُعْرَفْ عنهمْ قبلاً ، بل هو معروفٌ عنهمْ منذُ الأزلِ كاتِّخاذِ الفعلِ منْ مصدرِهِ .

٣٦ ـ إلى اللهِ أشكو أنني بعدَ رِدْيَتي بِبُــرْدٍ قشيــبٍ أرتــدي بُــرْدَةً سَحْقــاً

وإني لأشكو إلى اللهِ حالي إذْ كنْتُ في مكانةٍ عاليةٍ أرتدي الملابِسَ الجديدةِ ، فَصِرْتُ ألبَسُ الإزارَ الباليَ .

٣٧ ـ بَقيتُ ، ولم تُمْسِكْ بأوهنَ عُرْوَةٍ يدي بعدَما اسْتَمْسَكْتُ بالعروةِ الوُثْقَى

وظَلَلْتُ على هذا الحالِ ، لم أقربْ منَ المواقفِ الضعيفةِ ، ولم تلْمَسْ يدي شيئاً ، لا قيمةَ لهُ منذُ أنِ اتَّبَعْتُ السُّنَّةَ القويَّةَ .

٣٨ ـ أهـمُّ بـأمـرٍ حـازمٍ ، لـو أُطيقُـهُ ومنْ أينَ للمكتُوفِ أن يَخْلَعَ الرِّبْقا ؟

أجِدُّ بالأمرِ الشديدِ إنْ وجَدْتُ أني أتمكَّنُ منْ تحقيقهِ لأني ، أعلمُ أنَّ المُصابَ بآلامٍ في كتفِهِ ، لا يستطيعُ أنْ يَفُكَّ الأزرارَ منْ عُراها .

٣٩ ـ وما أحسَبُ العزمَ القويَّ بِنافعي على حينِ لم تُبْقِ الطوارقُ لي طِرْقا

ولا أشُكُّ بأنَّ الهِمَّةَ القويَّةَ العظيمةَ ، تفيدُني في وقتٍ ، لم تَتْرُكِ المصائبُ لي قُوَّةً ، أعتَمِدُها .

٤٠ ـ إذا لم يكُنْ في كَرَّةِ الطعنِ صادقاً أخو الحربِ لم يَحْمَدْ مُثَقَّفُهُ الصَّدْقا

فإذا لم يكنِ المرءُ شجاعاً ماهراً في الضربِ والطعنِ جادًّا في إقدامِهِ ، لا يَقْبَلُ إلاّ سلاحاً جيّداً : رمحاً مُقَوَّماً حادَّ النَّصْلِ أو سيفاً حادًّا صَقيلاً مُهَذَّباً .

٤١ ـ فراقَ فريدِ العصرِ رِفْقاً بِزُمرةٍ ضِعافٍ ، أما تَرْثي لِضَعْفِهِم ؟ رِفْقا

فيا أيها النُّؤَى نُؤَى فريدِ العصرِ عنا لُطفاً بفئةٍ ضعيفةٍ ، أما تبكي ، وتتوجَّعُ لِضَعفِهِمْ ؟ فلُطْفاً بهمْ لُطْفاً .

٤٢ ـ تركْتَهُمْ ، والدهرُ في كلِّ ساعةٍ يجـاريهـمُ شَـوطـاً ، ويـرميهِـمُ شَـوطـا

إنكَ تركْتَهُمْ كريشةٍ في مهبِّ الريحِ ، تتقاذَفُهمْ أيدي الدهرِ في كلِّ ساعةٍ إذ يَسيرُ معهمْ مرّةً ، ويُلْقيهِمْ مَرَّةً .

٤٣ ـ فأرواحُهُمْ ، خوفاً تَحَدَّرُ تارةً وأُخـرى إلـى أعلـى تـراقيهـمُ تَـرْقَـى

ويُحِسّونَ كأنَّ أرواحَهُمْ ، تحطُّ بهم خوفاً فَجْأً طَوراً ، وتَصْعَدُ طَوراً فوقَ صدورِهِمْ إلى مُقَدِّماتِ حلوقِهِمْ حيثُ تنتهي بها أنفاسُهُمْ .

٤٤ ـ ويرجونَ ما دابوا مخافةَ غَيرِهِ وكائنٍ أصابَ الرَّتْقَ مُسْتَوسِعٌ فَتْقا

ويأمُلونَ ثباتَ حالِهِمْ خوفاً منْ مصائبِ الدهرِ ومنْ حالٍ كحالِ منْ أرادَ إصلاحاً ، فوجدَ أنَّ الشَّقَّ واسعٌ ، لا يمكِنُ إصلاحُهُ كما جاءَ في المثلِ : (اتَّسَعَ الخرقُ على الراقعِ) [جمهرة الأمثال ح١/ ١٦٠] .

٤٥ ـ وخازنُ دارِ الكتبِ أخفَقُهُمْ حشاً وأضيقُهُمْ صدراً وأنداهُمُ مأقَى

والقائمُ على مخازنِ الكتبِ أكثَرُ الرجالِ اضطرابَ قلبٍ وأقَلُّهُمْ صبراً وأبكاهُمْ دمعاً .

٤٦ ـ تمادَى به الشوقُ المُبَرِّحُ والأسى وقد نالَ منه الوجدُ أضعافَ ما أبْقَى

وازدادَ حنينُهُ شِدَّةً وإيلاماً وحُزناً ، وأخذَ منهُ الحُبُّ قَدْراً أكبَر ممّا تركَهُ لهُ .

☆☆ ٢ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ :

١ ـ تَغَنَّتْ على فرعِ الأراكِ مُطَوَّقَهْ فَرَدَّتْ خَليّاتُ القلوبِ مُشَوَّقَهْ

وقفَتْ حمامةٌ ذاتُ طوقٍ على غصنِ شجرةِ أراكٍ ، وشَرَعَتْ ، تُغَرِّدُ أحزانَها ، فَرَدَّدَتْ تغريدَها حماماتُ أُخَرُ ، فَرَغَ بالُها منَ الهمومِ إلاّ همَّ حنينِها إلى مَنْ حُبُّها إياهُ ، مَلَكَ كِيانَها .

٢ ـ وأشوَقُ منها صوتُ حادٍ مُبَكِّرٍ حَدا بِحُدوجِ المالكيَّةِ أينُقَهْ

وكانَ صوتُ سائقِ الناقاتِ ، وهو يدعوها إلى السيرِ في الصباحِ ، أحنَّ منْ صوتِ الحماماتِ المُطَوَّقةِ الحاملاتِ هوادجَ محبوبتِهِ المالكيَّةِ .

٣ ـ تَمادَى بهِ حبُّ الفراقِ فما أرى جموعَ الهَوَى إلاّ بهِ مُتَفَرِّقَهْ

وقد تطاوَلَ بالزمخشريِّ جارِ اللهِ شِدَّةُ الفراقِ الذي شَتَّتَ الناسَ بعدَ أنْ لَمَّهُمُ الحبُّ .

٤ ـ ألا عَقَرَ اللهُ الأيانِقَ كُلَّها ورَدَّ عِصِيَّ السائقينَ مُشَقَّقَهْ

وإني لأدعو اللهَ تعالى أنْ يُصيبَ النوقَ كلَّها بأرجلِها ، فلا تستطيعُ أنْ تسيرَ وأنْ يجعَلَ كلَّ عصاً ذاتَ شقوقٍ ، فلا يكونُ للسائقِ عصاً قويَّةٌ ، يسوقُ بها ناقتَهُ .

٥ ـ ووفَّقَ أحبابي لوصلي ، فإنني خُلِقْتُ بنفسٍ للوصالِ مُوَفَّقَهْ

وأنْ يُرشِدَ مَنْ أُحبُّ إلى وُدّي لأني ذو نفسٍ ، تُحِبُّ الودادَ ، وتتوقُ إلى وجودِهِ في كلِّ مجلسٍ .

٦ ـ لَشتّـانَ مـا بينـي وبيـنَ أحبَّتـي فلي عندَهُمْ مَقْتٌ ، وعندي لهمْ مِقَهْ

وما أبعدَ ما بيني وبينَ أحبائي ! فإنَّهمْ يحملونَ في قلوبِهمْ بُغْضَهُمْ إيّايَ ، وأحملُ أنا لهمْ حبًّا عظيماً .

٧ ـ أيـا أمْلَـحَ الأحبـابِ جِيـداً ومُقْلَـةً وأرشَقَهُـمْ لـي بـالسهـامِ المُفَـوَّقَـهْ

فيا أحلى الأحبَّةِ عُنقاً وعينَينِ وأسرعَهُمْ في تسديدِ نبالِهِمُ المُصَوَّبَةِ .

٨ ـ رأتْ وجهَكِ الشمسُ المنيرةُ بالضُّحَى فآلَتْ ، وقالَتْ : إني لستُ مُشْرقَهْ

لمّا رأتِ الشمسُ المضيئةُ وقتَ الضُّحَى وجْهَكِ ، غابَتْ ، وقالَتْ : ليسَ لي أنْ أظهرَ .

٩ ـ ومِنْطَقَـــةُ الجـــوزاءِ مُنْيَتُهـــا إذا تَنَطَّقْـتَ لـو كـانَـتْ لِخَصْـرِكَ مِنْطَقَـهْ

فإذا كانَ يا زمخشريُّ لكَ حزامٌ ، تَشُدُّ بهِ خصرَكَ فإنَّ الحُجْرَةَ التي تحيطُ ببرجِ الجوزاءِ ، تُبَيِّنُ ما ترجوهُ قائلةً :

١٠ ـ نَقَضْتَ عهوداً ، وُثِّقَتْ بينَنا ، فِلمْ عَمِلْتَ على نَقْضِ العهـودِ المـوثَقَـهْ

تَحَلَّلْتَ منَ المواثيقِ التي ربطْناها معاً ، فلماذا أجْهَدْتَ نفسكَ في فكِّ الوصايا المُثْبَتَةِ بالأقسامِ .

١١ ـ ولا عجبٌ أنْ يُنْقِضُ العهدَ شادنٌ غَريرٌ ، فمنْ ذا قالَ قولاً ، فَحَقَّقَهْ ؟

وليسَ غريباً أنْ يَفُكَّ الفتى الصغيرُ عهداً ، فمنْ هو الذي يَعِدُ ، فيوفي بوعدِهِ مُحَقِّقاً إياهُ دائماً ؟

١٢ ـ وجَدْتُ بني الأيامِ ، ماتَ وفاؤهُمْ وطـارَتْ بـهِ عنقـاءُ جـوٍّ مُحَلِّقَـهْ

ورأيتُ الناسُ قد ماتَ الوفاءُ والوِدادُ في قلوبهِمْ ، فحملَتْ روحَ الحبِّ العنقاءُ التي لا يعرفُها أحدٌ ، وطارتْ به .

١٣ ـ تولّى ثقاتُ الناسِ ، لم يبقَ واحدٌ بلـى ثقـةُ الملـكِ الكـريـمُ ، هـو الثِّقَـهْ

فهل ماتَ رجالُ العهودِ كلُّهمْ ؟ لا بل قد بقيَ منْهمْ واحدٌ هو ثقةُ المُلْكِ الشريفُ لأنهُ ، هو ذو العهدِ الفريدُ بينَهم .

١٤ ـ عليهِ اطمأنَّ المُلْكُ في مُسْتَقَرِّهِ وكـانَـتْ لـه أيـدي النـوائـبِ مُقْلِقَـهْ

وبفضْلِهِ هَدَأَ المُلْكُ ، وسكنَتْ أوصالُهُ ، على الرغمِ منْ مخالبِ مصائبِ الأيامِ التي زعْزَعَتْ أركانَهُ مُدَّةً طويلةً .

١٥ ـ وغابَ مَغيبَ الطفلِ عن حِجْرِ أمهِ فعـادَ إلـى أُمٍّ علـى الطفـلِ مُشْفِقَـهْ

وشَبَّ هذا المُلْكُ ، فابتعدَ كما يبتَعِدُ الطفلُ عنْ كَنَفِ أمِّهِ ، ثم لجأَ إلى ثقةِ الملكِ الذي كانَ لهُ أُمًّا خائفةً عليهِ .

١٦ ـ صدوقٌ، وليسَ الصدقُ في الناسِ عادةً فمـا أكـذبَ اليـومَ الـرجـالَ وأصـدقَـهْ

وهو مصداقٌ ، والصدقُ في المرءِ خَلَّةٌ ، وليسَ عادَةً ؛ ينصرفُ عنهُ ، ويعودُ ، وإنْ قُورنَ ثقةُ المُلْكِ بالرجالِ يُرَ أنهُ أصْدَقُهُمْ وأوثقُهُمْ عهداً ، وأنَّ الرجالَ دونَهُ كاذبونَ .

١٧ ـ وجدْنا خِصالَ الخيرِ في الناسِ، فُرِّقَتْ وقـد جُمِعَـتْ فيـهِ الخِصـالُ المُفَـرَّقَـهْ

وقد رأينا خلالَ الفضلِ في الناسِ مُوَزَّعةً ، وفيه قدِ اجتمعَتْ كلُّها .

١٨ ـ إذا ما جرى في مَحْفَلٍ طيبُ ذِكْرِهِ حَسِبْـتَ بـهِ فـاراتِ مِسْـكٍ مُفَتَّقَـهْ

فإذا ما تَحَدَّثَ الناسُ في مجلسٍ عن حُسْنِ مكارِمِهِ ، شَبَّهْتُها بوعاءِ طيبٍ ، انتشَرَتْ روائحُهُ .

١٩ ـ فقد أصبَحَتْ في كلِّ غربٍ ومَشْرِقٍ مُغَـرِّبَـةً أوصـافُـهُ ومُشَـرِّقَـهْ

وصارَتْ أخبارُهُ ، يتناقَلُها الناسُ في أرجاءِ الكرةِ الأرضيَّةِ ، ويَسْتَملحون مكارِمَهُ .

٢٠ ـ وأرقدَ عينَ المُلْكِ بعدَ سُهادِها ووكَّـلَ بـالتـدبيـرِ عينـاً مُـؤَرَّقَـهْ

وأراحَ ثقةُ المُلْكِ الوزيرُ قلبَ المُلْكِ وعينَهُ بعد اضطرابِهِ الشديدِ وحرمانِهِ النومَ ، فنامَ قريرَ العينِ ، وتكلَّفَ بالوزارةِ بالحكمةِ لسعادةِ رعيَّةٍ مضطربةٍ .

٢١ ـ مُفَتَّحَـةٌ أبـوابُـهُ لِـوُفـودِهِ وأنكَـدُ أبـوابِ الـوفـودِ المُغَلَّقَـهْ

وأمرَ بإبقاءِ أبوابِ المُلْكِ مفتوحةً للزائرِ والشاكي ، وكانَتْ ، وما زالتْ أبوابُ غيرِهِ مُغَلَّقَةً تعيسَةً ، لا يهنأُ عيشُ مَنْ فيها ومَنْ حولَها .

٢٢ ـ لهُ قلمٌ ، يَسْطو على الدهرِ سِنُّهُ ويُـرجِـعُ هـامـاتِ الخطـوبِ مُفَلَّقَـهْ

وهو أديبٌ ، يَغْلِبُ الدهرَ برأسِ قلمِهِ ، ويُعيدُ رؤوسَ المصائبِ منَ المعاركِ مشقوقةً مُصَدَّعةً .

٢٣ ـ بأدنى صريرٍ منهُ ، يملأُ هَيبةً جـوانـحَ خِـرْصـانِ الـرمـاحِ المُـذَلَّقَـهْ

ويملأُ بأقلِّ صوتِ سيرٍ منه على الورقِ جوانبَ وأسنَّةَ الرماحِ المُحَدَّدَةَ رهبَةً .

٢٤ ـ لَعَهدي بسوقِ الفضلِ أكسدُ كاسدٍ فعـادَتْ بـإنعـامِ الـوزيـرِ مُنَفَّقَـهْ

ولقد وجدْتُ العزَّ والمكارمَ ، لا يروجُ بسوقِها وتجارةِ بضائِعِها المتاعُ الذي لا يرى

مشترياً لهُ ، ويَعودُ منَ المَعْرِضِ كاسفَ البالِ ، فيصادفُهُ عطاءُ الوزيرِ ثقةِ المُلْكِ ، ويجعلُهُ رائجاً ذا ربحٍ وفيرٍ .

٢٥ ـ سأترُكُ مدحَ الناسِ إلاّ مديحَهُ وإلاّ فأمُّ الشِّعْرِ مني مُطَلَّقَهْ

ولنْ أخُصَّ أحداً بعدَ اليومِ بقصيدةِ مدحٍ إلاّ ثقةَ المُلْكِ ، وإنْ لم أَبَرَّ هذا العهدَ فجديرٌ بي أنْ أُطَلِّقَ ، وأنا أبو الشِّعْرِ ، زوجتي أمَّ الشعرِ .

٢٦ ـ فما أملي إلاّ إليهِ مُوَجَّهٌ وما هِمَّتي إلاّ بهِ مُتَعَلِّقَهْ

فلا ولن أقصِدَ إلاّ سبيلَهُ ، ولن أجعلَ رجائي مُرْسَلاً إلاّ إليهِ ، ولن يكونَ عزمي إلاّ لأمرِهِ مُحَقِّقاً .

٢٧ ـ وكم نعمةٍ منهُ تفيضُ سِجالُها عليَّ كفيضِ الديمةِ المُتَدَفِّقَهْ

وكم منْ أُعطيةٍ ، قَدَّمَها لي ، فكانَتْ نعمةً ، زادَتْ على حاجتي كما تزدادُ عُذوبةُ مطرِ السحابِ المتتابعِ على حاجةِ العطشانِ .

٢٨ ـ وكنتُ متى خُوِّفْتُ سُبْلَ مطالبي فلي منْ مساعيهِ خضرٌ وبَذْرقَهْ

وكنتُ إذا هَيَّبني الناسُ منْ عَرْضِ حالي عليه أرى منه جهوداً ، تحميني مِن فُجاءةِ الشَّرِّ ، وجماعةً ، تدفَعُ عني الأذَى .

٢٩ ـ فكيفَ ، وقد أدركْتُ أيامَ مُلْكِهِ وجاءَتْ ظنوني ، وهي مُصَدَّقَهْ ؟

فكيفَ حالي اليومَ ، وقد عشْتُ في ظلِّ حكمِهِ ، ورأيتُ ظنوني فيهِ حقيقةً صادقةً ؟

٣٠ ـ سأشكُرُ نعماءَ ، ولستُ ببالغٍ مَدَاها ، وإنْ نازَعْتُ سحبانَ مَنْطِقَهْ

فسأنظمُ فيه قصائدَ مدحٍ شاكراً أُعطياتِهِ ، وأنا ، أعلمُ أني ، لنْ أدركَ غايةَ منزلتِها ، وإنْ باريتُ فيها سحبانَ الشهيرَ بحسنِ منطقِهِ وبلاغةِ تراكيبِهِ .

☆☆ ٣ ـ وقالَ على بحرِ الوافرِ في المدحِ :

١ ـ عُبَيدَ اللهِ أنتَ على الحقيقَهْ تَلُمُّ الصَّدْعَ ، أو تحمي الحقيقَهْ

إنكَ يا عُبَيدَ اللهِ ، على سُنَّةِ الحقيقةِ والصوابِ ، لأنكَ ، تجمعَ الناسَ المُتَفَرِّقينَ ، وتحفظُ عَهْدَ اللهِ وميثاقَهُ في الإيمانِ به .

٢ ـ بِعَزْمٍ نافذٍ كَسِنانِ رمحٍ ورأْيٍ فَيصلٍ مثلِ العقيقَهْ

وتَسَلَّحُ بِهِمَّةٍ راشدةٍ مصيبةٍ ، أهدافُها كَصَوْبِ رمحٍ ، راميهِ ، لا يُخْطِئُ ضَربُهُ ، وفكرٍ حكيمٍ ، يضَعُ الأمورَ في مواضِعها ، فترجِعُ مُرضِيَةً كلَّ منْ شاهدَها .

٣ ـ بـوجْهِـكَ أظهـرَ البشـرُ اللـواتـي دُعيـنَ شقـائقـاً لابـنِ الشقيقَـهْ

وبوجْهِكَ الطَّلْقِ جَعَلَ الجودُ والسماحةُ الأزهارَ الحمرَ أخواتٍ للنُّعمانِ بنِ المنذرِ ، فَسُمِّيَتْ منذُ ذلكَ الوقتِ شقائقَ النُّعمانِ .

٤ ـ خـلائقُـكَ التـي راقَـتْ ، ورقَّـتْ كـوصـفِ الـراحِ رائقـةً رقيقَـهْ

وسجاياكَ التي صَفَتْ ، ورهفَتْ ، كانَتْ صفاتُها ، تشبهُ الخمرَ صافيةً شَفَّافَةً .

٥ ـ وكـم أسمعْـتَ مـنْ لفـظٍ جميـلٍ أفَـدْتَ معـانيـاً فيـه دقيقَـهْ

وكم منْ لفظٍ حسنٍ ، نطقْتَ به ، أردْتَ به معانيَ كبيرةً ، لا تُدرَكُ لدِقَّتِها الإحاطةُ بها .

٦ ـ بَقيـتَ مُسَلَّمـاً قَـدَمـاً وقَـرْنـاً فـلا خَـدَراً تُحِـسُّ ولا شقيقَـهْ

وبقيتَ سليماً مُعافًى منْ رأسِكَ إلى أخمصِ قدمِكَ ، فلا تشعُرُ بشيءٍ منَ الفُتورِ في أحدِ أعضائكَ ، فلا تستطيعُ أنْ تُحَرِّكَهُ ولا بوجعٍ شديدٍ بجانبِ رأسِكَ .

☆☆ ٤ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في مدحِ عُلَيِّ بنِ عيسى ابنِ وَهّاسٍ :

١ ـ مـا فـي سمـاءِ المجـدِ إلاّ هـاشـمٌ زانَ الإلَـهُ بِـزَهْـرِهِـمْ آفـاقَهـا

ما كانَ ، ولم يكُنْ في سماءِ العِزِّ إلاّ أنوارُ هاشمِ جَدِّ جَدِّ رسولِ اللهِ ﷺ وبَنيهِ ، وقد حَلَّى ربُّ العالمينَ بِشَرَفِهِمْ أعاليَها .

٢ ـ ومِنِ ابْنِ ذي المَجْدَينِ فيها كوكبٌ يعلـو سنـا إشـراقِـهِ إشـراقَهـا

ومنْ نسلِ ذي المَجْدَينِ محمدٍ ـ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ـ رجلٌ كالكوكبِ ، يسمو نورُهُ على نورِهِمْ في الشرفِ والمجدِ .

٣ ـ أنـتَ الـذي عُلْيـا قُصَـيٍّ قَصَّبَـتْ يـومَ الفخـارِ ، فَفُتَّهـا سَبّـاقَهـا

وأنتَ يا عُلَيُّ بنَ عيسى يا ابْنَ عُظْمَى سلالةِ قُصَيٍّ جَدِّ رسولِ اللهِ ـ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ـ التي نالَتْ مرتبةَ السَّبْقِ يومَ الفخارِ ، وكنتَ السابقَ الأوّلَ ، وذهبْتَ عنهُ رافعاً لواءَ العزِّ والفخرِ .

٤ ـ كنْتَ السُّكَيْتَ زمانُهُ ، لكنْ لهمْ هَبَـواتُ سَبْـقٍ ، لـم تَـزَلْ شَقّـاقَهـا

ولو كنتَ أنتَ آخرَ جوادٍ منْ جيادِ بني هاشمٍ ، فإنكَ ، ما تزالُ صَدّاعَ العِدا في سباقِهِمْ إلى الحربِ وإثارةِ الغبارِ في انْدفاعِكَ نحوَهمْ .

٥ ـ شَـرَّفْـتَ آلَ مَـنِ النُّبُـوَّةُ ، شُـرِّفَـتْ منـهُ بخيـرِ مُقَلَّـدٍ أطـواقَهـا

فكَرَّمْتَ أهلاً منْ بيتِ النبوةِ التي كرَّمها اللهُ بفضلِ نَبيِّهِ الذي زيَّنَ الدنيا بأطواقِ دينِ

الإسلامِ الحنيفِ .

٦ ـ أمـا وربِّ الـراقصـاتِ إلـى مِنًـى متــواهقـــاتٍ نُصَّبـاً أعنـــاقَهـــا

وإني لأقسمُ بخالقِ النوقِ التي تتمايلُ في سيرِها السريعِ فرحةً بمشاركتِها الحجاجَ إلى مِنًى ، وتَمُدُّ أعناقَها ظنًّا منها أنها هي السباقةُ إلى تأديةِ بقيّةِ مناسكِ الحجِّ .

٧ ـ والمُشْعَراتِ ، تساقُ منْ ميقاتِها ميـلَ الـذُّرا ذُلُـلاً ومَـنْ قـد سـاقَها

وخالقِ البُدْنِ التي وُضِعَ لها علاماتٌ كشقِّ الجِلدِ وطَعْنِ الأَسِنّةِ ، تَدلُّ أنها الهَدْيُ ، والتي يأتي بها الحُداةُ منْ أمكنةٍ عاليةٍ بعيدةٍ طوعاً .

٨ ـ لَهُداكَ أوضَحُ مِنْ مَحَجَّةِ شارعٍ تَهْـدي مُقَطَّـرةٌ إليـكَ رفـاقَهـا

إنَّ إرشادَكَ وتَعليمَكَ الناسَ أضْوَءُ منْ كلِّ دليلٍ ، يُسَيِّرُ الإبلَ بعضَها وراءَ بعضٍ .

٩ ـ تـرى ، وتَسْمَـعَ سُنَّتَيـنِ ، وضيَّـةً ورضِيَّـةً ، وتعـدَّ ذاكَ خَـلاقَهـا

لِترى الناسَ مبتهجينَ ، وتَسْمَعَهمْ ، يتحدثونَ عنكَ وعنِ الطريقَتَينِ اللتينِ اتَّبَعْتَهما : طريقةٍ مُنيرةٍ واضحةٍ ، يثني عليكَ بها الناسُ ، وطريقةٍ ، يَتَقَبَّلُها اللهُ ـ عَزَّ ، وجلَّ ـ القبولَ الحسنَ ، وكلا الطريقَتَينِ موسومةٌ بالحظِّ الوفيرِ .

١٠ ـ وكَفى خَلاقاً منكَ أدنَى لحظةٍ مسـروقـاً ، كحَلَـتْ بهـا آمـاقَهـا

وحسبُ الناسِ منكَ أقلُّ نظرةٍ سريعةٍ ، كأنها مسلوبةٌ منكَ ، يُكَحِّلونَ بها عيونَهُمْ .

١١ ـ وتَنَعَّمَتْهـا نعمـةً أرضَـتْ بمـا نهضَـتْ بـه مـنْ شكـرِهـا خَـلَّاقَهـا

وعَدُّوا هذه النظرةَ دليلاً على اليدِ الكريمةِ التي قدَّمها إلى الرعيَّةِ عُلَيُّ بنُ عيسى وعلى شكرِهِ اللهَ تعالى خالقَ كلِّ شيءٍ .

☆☆ ٥ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الرثاءِ :

١ ـ كـذلـكَ تَنْهَـدُّ الجبـالُ الشـواهـقُ وتُـرْزَأُ بـالبيـضِ الكـرامِ الخـلائـقُ

هكذا شأنُ الحياةِ الدنيا ؛ تأتي الناسَ بمصائبِها ، وتنهارُ بها الجبالُ العاليةُ ، وتختارُ الرجالَ الأشرافَ الأسخياءَ بالموتِ ، ويَتَوَجَّعُ أهلُهُمْ وأصحابُهمْ بفراقِهِمْ .

٢ ـ لقـد فقـدَتْ شمسَ القضـاةِ ديـارُهُ كمـا فقـدَتْ شمـسَ النهـارِ المشـارقُ

لقد حُرِمَتْ ديارُ القضاءِ منْ رئيسِها كما حُرِمَتْ أرضُ الشرقِ منْ نورِ نهارِها .

٣ ـ تُوُفِّيَ، فالأرضُ المضيئةُ، أظلمَتْ كـأنَّ الضحـى قِطْعٌ مِـنَ الليـلِ غـاسـقُ

وماتَ ، وبموتِهِ صارتِ الأرضُ المنيرةُ مظلمةً ، وكأنَّ وقتَ الضحوةِ ، صارَ قسماً منَ

الليلِ شديدَ الظلمةِ .

٤ ـ وأَلْـوَى بصبـرِ الملسميـنَ نَعِيُّـهُ　　وكـلُّ صبـورٍ زافـرٌ منـهُ شـاهـقُ

وذهبَ بصبرِ المسلمينَ خبرُ موتِهِ ، وصار كلُّ مَنْ عُرِفَ بالصبرِ ، يَتَأَوَّهُ حُزْناً ، فيُسْمَعُ شهيقُهُ وزفيرُهُ منْ مكانٍ بعيدٍ .

٥ ـ ولا جفْـنَ إلاّ ، وهـو مـلآنُ دافـقُ　　ولا قلـبَ إلاّ ، وهـو حَـرّانُ خـافِـقُ

ولا ترى عيناً إلاّ ، وهي مَلأى بالدمعِ فياضَةٌ بِهِ مرسلةٌ إياهُ غزيراً ، ولا تسمَعُ شاكياً قلبَهُ إلاّ ، وهو مُتَقَلِّبُ منْ حرارةِ الحزنِ ، مضطربٌ منْ شدَّةِ الأسى .

٦ ـ وأصبحَ بعضٌ ناطقا ، وهو مفحَمٌ　　وأصبـحَ بعـضٌ مُفْحَمـاً ، وهـو نـاطِـقُ

وانقلبَ حالُ بعضِ الناسِ ، فصارَ بعضُهُم المُجْبَرُ على السكوتِ مِنْطيقاً بليغاً ، والبعضُ الآخرُ مُجْبراً على السكوتِ بعدَ أنْ كانَ ذا منطقٍ بليغ .

٧ ـ بـهِ فُجِـعَ الفـرسـانُ فـوقَ خيـولِهِـمْ　　كمـا فُجِعَـتْ تحـتَ الستـورِ العـوائِـقُ

وقد أُصيبَ بهِ الخَيّالةُ فوقَ جيادِهِمْ كما أُصيبتِ النساءُ المُحْتَجِباتُ بخدورهِنَّ وستورِهِنَّ قبلَ أنْ تُدْرِكَ سِنَّ الرشْدِ .

٨ ـ تَساقَطُ منْ أيديهمُ البيضُ حَيرَةً　　وزُعْـزِعَ مـنْ أجيـادِهـنَّ المخـانِـقُ

وتساقَطَتْ سيوفُهُمُ البيضاءُ منْ أيديهمْ بِشِدَّةِ حزنِهِمْ ، وتحرَّكَتْ قِلاداتُ الأعناقِ حتى تَقَطَّعَتْ أسلاكُها ، وتناثَرَتْ حبّاتُها .

٩ ـ وناحَ الحمامُ الوُرْقُ شجواً، وتحتَها　　منَ الوجدِ جفَّ الأيكُ ، والأيكُ وارقُ

وبكى الحمامُ الوُرْقُ حزناً على شجرِ الأيكِ الذي ذَهَبَ ماؤُهُ ، ونَشَفَ ، وسقطَتْ أوراقُهُ منْ شدةِ الأسَى .

١٠ ـ وأنْحَـتْ علـى أذنـابِهـا لِتَجُـذَّهـا　　عشيَّـةَ فـاتَتْـهُ العِتـاقُ السـوابـقُ

وأقبلَتْ خِيارُ الجيادِ على أذيالِها ، تريدُ أنْ تقطعَها معاقبةً إيّاها لأنّها ، تركَتْهُ مساءً ، ولمْ تقفْ على قبرِهِ ، ترثيهِ .

١١ ـ وبُحَّتْ على طولِ الصهيلِ حلوقُها　　وسالَتْ بصوبِ الدمعِ منها النواهِقُ

وأصيبَتْ حُلوقُ الجيادِ بِخُدوشٍ منْ تكرارِ الصهيلِ ، جعلَتْ أصوتَها مبحوحةً ، وسالَتْ دموعُها الغزيرةُ في مجاريها .

١٢ ـ ألا إنَّ موتَ الشارِعِيِّ ، فأيقِنوا　　بخـارِزْمَ فَتْـقٌ ، مـالَـهُ الـدهـرَ راتِـقُ

ألا إنَّ فقَد القاضي أحمدَ الشارعِيِّ شديدٌ ، أصابَ أهلَ خوارزمَ بصَدْعٍ عميقٍ ، فاعْلَموا أيُّها الناسُ أنَّ هذا الصَدْعَ ، لا يستطيعُ الزمنُ أنْ يَسُدَّهُ .

١٣ ـ تَعَطَّلَ منْ حَلْيِ العُلا جيدُها، فلن يعـودَ إليهـا الحَلْـيُ مـا ذَرَّ شـارِقُ

وفَرَغَتْ مدينةُ خوارزمَ منْ كلِّ ما يُزَيِّنُ عُنُقَها منْ حَلْيِ المجدِ ، ولنْ ترجعَ إليها زينةُ الحَلْيِ ما دامتِ الشمسُ تُرسِلُ أشِعَّتَها .

١٤ ـ تناثَـرَ ذلـكَ الحَلْـيُ يـومَ وفـاتِـهِ وعهـدي بـه منظـومُـهُ متنـاسِـقُ

تَفَرَّقَتْ أجزاءُ ذلكَ الحَلْيِ وحَبّاتُهُ يومَ موتِهِ ، وعلمي به أنهُ ، كانَ مجموعاً مُرَتَّباً .

١٥ ـ وكـانَ اسْـمُ خـارِزْمٍ بـهِ مُتَـرَقِّيـاً إلى النجمِ ، فهو اليومَ بالتُّرْبِ لاصِقُ

وكانَ اسْمُ مدينةِ خوارزمَ مُتسامياً به إلى كواكبِ السماءِ ، فصارَ اليومَ مصاحباً الترابَ في قبرِهِ .

١٦ ـ أتاني نَعِيُّ الشارعيِّ ، فخانَني عـزائِـيَ ، وانْسَـدَّتْ علـيَّ الطـرائـقُ

وجاءني خبرُ موتِ الشارعيِّ ، فلم يُسْعِفْني صبري ، ولم أجدْ طريقاً ، أنسَى فيه حزني .

١٧ ـ أحِنُّ إلى تلكَ الخلائقِ مُفْرِطاً حنيني ، ولكنْ أينَ تلكَ الخلائقُ ؟

وأشتاقُ إلى هؤلاءِ الجماعاتِ اشتياقاً شديداً متسائلاً : أينَ هي الآنَ ؟

١٨ ـ أحِـنُّ إلـى تلـكَ البشـاشـةِ كلَّمـا تَـأَوَّبَـهُ ضيـفٌ مـعَ الليـلِ طـارِقُ

واشتاقُ إلى طلاقةِ وجهِهِ كلَّمَا أتاهُ ضَيفٌ ، يطرُقُ بابَهُ ليلاً .

١٩ ـ كـأنَّ علـى ديبـاجَتَيـهِ شقـائقـاً أوِ اشْتُـقَّ مـنْ ديبـاجتَيـهِ الشَّقـائـقُ

وكأنَّ على خَدَّيهِ شقائقَ النُّعمانِ أو كأنَّ شقائقَ النُّعمانِ ، قدِ اتَّخَذَتْ لونَها من خَدَّيهِ .

٢٠ ـ إذا طلعَتْ شمسُ النهارِ تَشوقُني وشِبْـهُ حبيـبِ النفـسِ للنفـسِ شـائِـقُ

ويهُزُّني طلوعُ شمسِ النهارِ شوقاً وحنيناً لأنَّ مِثْلَ الحبيبِ إلى النفسِ الحبيبُ مشدودٌ إليهِ .

٢١ ـ مَضَى ، وهو سَبّاقٌ إلى كلِّ غايةٍ وكـلُّ جـوادٍ قـاصـرُ الشـأوِ لاحِـقُ

قَضَى عمرَهُ ساعياً إلى كلِّ خيرٍ سَبّاقاً غيرَهُ ، وكلُّ فَرَسٍ مُقصِّرٌ عنْ نهايةِ السِّباقِ لاحقٌ بالسابقِ .

٢٢ ـ مَضَى باسقُ الأغصانِ والأصلِ باسقاً وكيفَ اتِّضاعُ الفرعِ ، والأصلُ باسقُ ؟

عاشَ كالشجرةِ ذاتِ الأغصانِ الطويلةِ ، وأنجبَ أبناءً ، ربّاهُمْ أفضلَ تربيةٍ ، وتركَ لهمْ

أصلاً سحيقاً في المجدِ ، فكيفَ يَقِلُّ أمرُ الابنِ ، وأصلُهُ رَفيعٌ ؟

٢٣ ـ أرى الموتَ، يختارُ الكرامَ، كأنهُ لأهــلِ المعــالــي والمكــارمِ عــاشِــقُ

وإني لأجدُ الموتَ ، يصطفي كرامَ الناس وأشرافَهُمْ ، وكأنهُ محبٌّ أهلَ العلا والعزِّ ، فيأخذُهُمْ إليهِ .

٢٤ ـ فقد عَمِرَتْ دورُ اللئامِ ، ودورُهُمْ قِفــارٌ ، غــرابُ البيــنِ فيهــنَّ نــاعــقُ

وتبقى ديارُ لئامِ الناسِ مسكونةً ، وعلى الرغمِ منْ فراغِها منَ الفضلِ ، يظلُّ غرابُ الفراقِ ، يصيحُ في أرجائِها .

☆☆ ٦ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ والحنينِ إلى مكةَ :

١ ـ أمِنْ ذاتِ عِرْقٍ ومْضَةُ البرقِ تَخْفِقُ كنبضــةِ عِــرْقٍ ، فــالفــؤادُ مُشَــوَّقُ ؟

هلِ التماعُ البرقِ الذي أراهُ منْ جهةِ تِهامةَ مكةَ المُكَرَّمةِ ، يضطربُ كاضطرابِ عِرقِ الإنسانِ ، فإنَّ قلبي مُهتاجٌ بالشوقِ والحنينِ ؟

٢ ـ ولو لم تكنْ ميقاتَ أهلِ العراقِ لم أشِــمْ بَــرْقــةً مــنْ ذاتِ عِــرْقٍ تــألَّــقُ

ولو لم يَكُنِ المكانُ في أرضِ ميقاتِ العراقيِّينَ لِحَجِّهمْ ، ما نظرتُ ولا راقبْتُ سيرَ البرقِ ، وهو ينوِّرُ تلكَ المنطقةَ .

٣ ـ تُسِفُّ إلى صوبِ العراقِ عزائمي وتــزجُــرُهــا أمُّ القُــرى ، فَتُحَلِّــقُ

وتَتَّجِهُ همتي نحوَ العراقِ ، وتَمْنَعُها مكةُ المكرَّمةُ منَ النزولِ فيه ، فتطيرُ ثانيةً لِتَحُطَّ في أمِّ القُرى .

٤ ـ ولي بَدَنٌ صُفْرٌ منَ القلبِ طارحٌ بأرضِ الحجازِ الرَّحْلَ ، والقلْبُ مُعْرِقُ

ولي جسمٌ ، خلا منَ القلبِ الذي رَمَى حاجاتِ سفرِهِ بأرضِ الحجازِ ، وبَقِيَ متَعَلِّقاً بالعراقِ .

٥ ـ هــوايَ عــراقــيٌّ ، وأهــواءُ صحبتــي حجــازيَّــةٌ يــا شَــدَّ مــا نَتَفَــرَّقُ !

فمسكَنُ مَنْ أُحِبُّ العراقُ ، ومسكنُ أصدقائي الحجازُ ، وما أصعبَ الابتعادَ والتَّفرُّقَ بينهما !

٦ ـ تبيــتُ بَنــاتُ الهــمِّ ، تَغلِبُنــي علــى قــوايَ ، فــذرْعي يــا ابنــةَ القــومِ ضَيِّــقُ

وتتكاثرُ الهمومُ عليَّ ، وتصارعُ قوتي ، فتفوزُ عليها ، فيَقِلُّ صبري ، ويصيرُ ضيِّقاً .

٧ ـ ويَخذُلني صبري إذا أقبلَ الدُّجَى وينصــرُنــي دمــعٌ وجفــنٌ مــؤرَّقُ

ثم يتركُني صبري ليلاً ، ولا أجدُ عوناً وناصراً سوى دمعي وجفوني المُسَهَّدَةِ .

٨ ـ ولم أتَطَوَّقْ نعمةً مثلَ نعمةٍ مُطَوِّقُها قُمْريُّ نَجدٍ مُطَوَّقُ

ولم أنَلْ معروفاً مثلَ معروفٍ ، كانَ منْ سُكانِ وأهلِ نجدٍ ، أنعمَ اللهُ عليهِ بطوقِ رحمتِهِ .

٩ ـ خطيبٌ منَ الطيرِ الأراكيِّ أورَقُ لهُ مِنْبَرٌ منْ ناضرِ الأيكِ مورِقُ

وهو خطيبٌ بليغٌ ذو كلامٍ ؛ أحسنُ وأرقُّ منْ تغريدِ طيرِ شجرِ الأراكِ ، وذو مِنْبَرٍ عالٍ ، صُنِعَ منْ أغصانِ شجرِ الأيكِ الغَضَّةِ المورقةِ .

١٠ ـ يساعدُني نَوحاً ، ولكنَّ عينَهُ جَمودٌ ، وعيني ، دمعُها مُتَرَقْرِقُ

ينوحُ معي مساعداً إيّايَ ، لكنَّ عينَهُ ، لا تُريقُ الدمعَ ، ودمعُ عيني دائمُ الجَرَيانِ .

١١ ـ وإنَّ ابْنَ وَهّاسٍ ونعمتَهُ التي يُطَوِّقُنيها بالإشادةِ أخْلَقُ

وإني لأرى أنَّ عُلَيَّ بنَ عيسى ابنَ وَهّاسٍ وأياديَهُ التي يُزيِّنُني بها ، فتكونُ لي أطواقاً عظيمةً أجدَرُ بالمدحِ والثناءِ عليهِ .

١٢ ـ وقَلَّدَني أطواقَ شعرٍ ، كأنها سَموطٌ ، بأيدي الكِسْرَوِيّاتِ تُنْسَقُ

وَزَيَّنَني بقصائدَ مدحٍ ، كانتْ مثلَ قلاداتٍ طويلةٍ ، رُتِّبَتْ لآلِئُها أحسنَ ترتيبٍ ، تعبثُ بها بناتُ كسرى الفارسيّاتُ .

١٣ ـ لها رَونقانِ اثنانِ : رَونَقُ طبعِهِ ومِنْ شرفِ العرقِ المنَافيِّ رَونَقُ

وكانَ لتلكَ القصائدِ نوعانِ منَ الحسنِ والبهاءِ : حسنُ سَجاياهُ وحسنُ نسبِهِ الشريفِ إلى عبدِ مَنافٍ أحدِ جدودِ النبيِّ ـ صلّى اللهُ تعالى عليهِ ، وسلَّمَ ـ .

١٤ ـ زلالٌ وصخرٌ رِقَّةً ومتانَةً وأحسنُ ما قيلَ المتينُ المُرَقَّقُ

وكانَتْ كالماءِ البارِدِ العذبِ الصافي السَّلِسِ رِقَّةً وكالصخْرِ القاسي صلابةً ، وأفضلُ القولِ الشديدُ الرقيقُ .

١٥ ـ كأنَّ جريراً ، صبَّ فيها نَسيبَهُ وَرَصَّفَ فيها الافتخارَ الفرزدقُ

وكأنَّ الشاعرَ جريراً ، قد وضعَ فيها معانِيَهُ في الغزلِ ، والشاعرَ الفرزدقَ ، نَسَّقَ فيها فَنَّ الفخرِ وتراكيبَهُ .

١٦ ـ وقافيةٍ قافِيَّةٍ قد سما لها فلم يَبْقَ فيها للفحولةِ منطِقُ

وذات قوافٍ مناسبةٍ لمعانيةِ عاليةٍ عُلُوَّ جبلِ قافٍ المحيطِ بالأرضِ ، ولم يبقَ لِفحولِ

الشعراءِ بعدَها ذِكْرٌ .

١٧ ـ تَوَقَّفَ تحتَ القافِ كلُّهُمْ ، وهل على ظهرِ قافٍ لامرئٍ مُتَسلَّقُ ؟

وتَسَمَّرَ تحتَ جبلِ قافِ الشعراءُ كلُّهُمْ حائرينَ متسائِلينَ : هل يستطيعُ أحدٌ أنْ يصعَدَ إلى شعابِ هذا الجبلِ ، ويصلَ إلى قِمَّتِهِ ؟

١٨ ـ عُلَيُّ بنُ عيسى ذو المناقبِ ماجدٌ جيادُ معاليهِ قوارحُ سُبَّقُ

أمّا عُلَيُّ بنُ عيسى ، فهو صاحبُ المكارمِ عظيمٌ ، ومحاسنُ مكارِمِهِ مُتَجَدِّدةٌ .

١٩ ـ منَ الحسنيّاتِ اللواتي مِهارُها على قِمَّةِ الشِّعْرَى تَخُبُّ ، وتُعْنِقُ

وقد ورثَ تلكَ المكارمَ منْ جَدِّهِ الحسنِ بنِ عليٍّ ـ رضيَ اللهُ عنهُ ـ حملَتْها إليهِ أولادُ أفراسِهامن ذُروةِ برجِ الجوزاءِ الذي تسعى فيهِ الكواكبُ الثلاثةُ : الشِّعْرَى العَبورُ والشِّعْرى الغميضاءُ وسُهَيلٌ سَعْياً بطيئاً وسريعاً .

٢٠ ـ ترى شُمَّخَ الأطوادِ مِنْ شُمِّ خِنْدِفٍ ذُراهُنَّ في ضَحْضاحِ بَحْرِكَ تَغْرَقُ

حيثُ تَجِدُ الأصولَ العربيةَ ذاتَ الرواسي القويَّةِ العاليةِ منْ أولادِ خِنْدِفٍ إحدى جدّاتِ الرسولِ ـ صلّى اللهُ تعالى عليهِ ، وسلَّمَ ـ الذين همْ أسيادُ العربِ ، وفي قِمَمِ المجدِ يَتَخَوَّفونَ السباحةَ والغرقَ في بحرٍ قليلِ الماءِ منْ بحارِكَ .

٢١ ـ بنى لكَ وهّاسٌ وآباؤُهُ عُلاً بَواسقَ ، في وجهِ الغزالةِ تَبْسُقُ

وقد عَمَّرَ لكَ يا عُلَيُّ جَدُّكَ وهّاسٌ وآباؤُهُ أمجاداً عاليةً ، تسمو ، وتقفُ في وجهِ الشمسِ .

٢٢ ـ عليكَ ـ فما تُخْفي، علاكَ ـ سكينةٌ بأنكَ ، منْ أشرافِ عدنانَ تَنْطِقُ

وألقى اللهُ تعالى عليكَ طُمأنينَةً ، دونَ أنْ تَسْتُرَ عظمتَكَ ، تدلُّ أنكَ منْ سُلالةِ عدنانَ جَدِّ العربِ جَدِّ الرسولِ ـ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ـ العظماءِ .

٢٣ ـ وقبلَكَ ما كانَ التَّعَمُّقُ مذهبي وقد جَدَّ مني في هواكَ التَّعَمُّقُ

ولم أكُنْ أعلمُ شيئاً منَ التَّفَكُّرِ الشديدِ حتى أتَّخِذَهُ مذهباً ، ولما حضرْتُ مجالسَكَ تَعَلَّمْتُ منكَ التَّفَكُّرَ الطويلَ والغَوصَ في المعاني .

٢٤ ـ بكَ اعْتُلِقَتْ أيدي الأمالي، وراعني بِحَبْلِ جوارِ اللهِ لي مُتَعَلَّقُ

وبفضلِكَ رُبِطَتْ سُبُلُ الآمالِ بحَبْلِ المَوَدَّةِ ، وحَفِظَني حبلُ جوارِ اللهِ ، فكانَ لي خيرَ شيءٍ ، أتعلَّقُ بهِ .

٢٥ ـ فمؤنِسيَ البيتُ العتيقُ ، ومؤنِقي لقــاؤكَ ، إنَّ الحــرَّ للحــرَّ مــونــقُ

فالبيتُ العتيقُ أكبرُ أنيسٍ لي ، وأحبُّ أمرٍ إليَّ لقاؤُكَ ، وإنَّ المرءَ الكريمَ الشريفَ آلَفُ لِمِثْلِهِ الشريفِ الكريم .

٢٦ ـ ولولاكَ ، والبيتُ العتيقُ لَطَيَّرَتْ رحــالــي عــنْ بطحــاءِ مكــةَ أيْنُــقُ

ولولاكَ يا عُلَيُّ بنَ عيسى ، ولولا البيتُ العتيقُ ، لَفَرَّقَتِ النوقُ كُتبي وحاجاتي وأمتعتي ، أو أبعدَتْها عنْ أرضِ مكةَ .

٢٧ ـ رَمِيّـاتُ أسفـارٍ ، يُصَبْـنَ بنبلِهـا فَتَنْشَـبُ فـي أجـرامِهِـنَّ ، وتَمْـرُقُ

وتلكَ هي حالُ الدنيا ، رَمِيّاتُ أسفارٍ ، تُصيبُ بسهامِها مَنْ يقفُ بوجهِها ، فتدخُلُ في أجسادِ ومَتاعِ المسافرينَ ، أو تسيرُ أمامَها سريعاً دونَ أنْ تَمَسَّها .

٢٨ ـ يقولُ لها الرائي : مَجادلُ وُقَّفاً وهُـنَّ ، مسـوقـاتٍ ، أجـادلُ تَخْفِـقُ

ويقولُ مشاهِدُها : هذهِ قصورٌ كبيرةٌ ، بناها فلانٌ ، ووَرِثَها فلانٌ ، حَبيسَةٌ مُسَيَّرَةٌ منْ فردٍ إلى آخَرَ ، وهذه صقورٌ ، تَخْفِقُ بأجنحتِها .

٢٩ ـ تَبارى السُّرَى والسيرُ في بَرْيِ نَحْضِها وإسـلامِهـا عظمـاً ، وفيهـنَّ مَصْـدَقُ

تسابقَ سيرُ الليلِ والنهارِ في نَحْتِ لحمِ أجسادِها المُكْتَنِزِ وإخلاصِها من لحمِها ، فبقيَ منها العظمُ ، فنَرَى فيها صِحَّةَ ذلكَ كلِّهِ .

٣٠ ـ ولولاكما لم أعصِ قولَ مُراسلي : أَطِعْنـي ، فـإنـي نـاصـحٌ لـكَ مُشْفِـقُ

ولولاكما يا أيُّها البيتُ العتيقُ ويا عُلَيُّ لأطعْتُ أمرَ مُكاتبي حينَ قالَ لي : اعمَلْ ما آمُرُكَ بهِ ، فإني مُبيِّنٌ لكَ ما يُفيدُكَ لأني مُحِبٌّ لكَ خائفٌ عليكَ .

٣١ ـ ولا صَدَرَتْ عني رسالاتُ مَعْشَري ومــرجــوعُهــا تَلْميـظُ وَعْـدٍ مُنَمَّـقُ

ولا كتبْتُ كُتُباً إلى أهلي وأصدقائي وأجوبةً لرسائِلِهِمْ ، فيها ثرثرةُ كلامٍ وترديدُ وَعْدٍ مُزَيَّنٍ .

٣٢ ـ وكم راوَدَني عنْ : نَعَمْ ، فأبَيْتُها إبـاءَ العَيـوفِ الـوِرْدَ ، وهـو مُـرَنَّـقُ

وكم منْ مَرَّةٍ طلبَ مني ألاّ أقولَ : نعم ، فلم أقبَلْ ، ورفَضْتُ ذلكَ رفضَ كارهِ الماءِ الكَدِرِ .

٣٣ ـ ومـا نِعَـمٌ حُمْـرٌ تسـاقُ إليهـمُ كقـولـي : نَعَـمْ ، لـو أنّهـا تَتَحَقَّـقُ

وليستِ النَّعَمُ الإبلُ الحُمْرُ غاليةُ الثمنِ التي يتساوقونَها كلفظةِ : نَعَمْ إنْ قُلْتُها تَصِرْ حَقًّا مَقْضِيًّا .

٣٤ ـ وقد شاقَني قومي ، وذلكَ بعدَما شَقَقْنا العصا ، غَرَّبْتُ عنهمْ ، وشَرَّقوا

وقد حَنَنْتُ إلى أهلي بعدَما صَدَعْنا عصا المحبةِ والطاعةِ ، وذهبتُ عنهمْ إلى الغربِ ، وتوجَّهوا نحوَ الشرقِ .

٣٥ ـ وَهَيَّجْتُماني ، والنَّوَى مطمئنَّةٌ تباريحَ شوقٍ ، أنتما لي أشْوَقُ

وأثَرْتُما في نفسي أيُّها البيتُ العتيقُ ويا عُلَيُّ أشواقاً شديدةً ، والفراقُ مُطْمَئِنٌّ ساكنٌ ، لا يكترِثُ بي ، وأنتما أحَنُّ لي وأشْوَقُ منْ كلِّ ما أجدُ .

٣٦ ـ فإنْ رُزِقَتْ نفسي السعادةَ وُفِّقَتْ لِقُرْبِكُما ، إنَّ السعيدَ المُوَفَّقُ

فإنْ واتَتْنِي السعادةُ أرشَدَني اللهُ تعالى إلى سبيلٍ ، يُقَرِّبُني منكما ، فإنَّ السعيدَ هو الذي يهديهِ اللهُ ـ عزَّ ، وجلَّ ـ إلى الصوابِ .

☆☆ ٧ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الرثاءِ :

١ ـ أتَخْضَرُّ أشجارُ الربيعِ ، وتُورِقُ وَرُزْءُ عُبَيدِ اللهِ نارٌ ، تُحَرِّقُ ؟

أيأتي الربيعُ ، فيرتوي النباتُ ، وتَخْضَرُّ أشجارُهُ ، وتكثُرُ أوراقُهُ ، ومصيبتُنا بِعُبيدِ اللهِ نارٌ ، تُلْهِبُ أجسادَنا وقلوبَنا ؟

٢ ـ لقد كَثُرَ الباكونَ حولَ ضِرامِها لِتُطْفِئَها مسفوحةٌ ، تَتَرَقْرَقُ

وقد كَثُرَ الحُزّانُ ، وانسَفَحَتْ دموعُهمْ متلألئةً ، عَلَّها ، تُخَفِّفُ منْ شدةِ اشتعالِها ، فَتُطْفِئُها .

٣ ـ ولم يَبْقَ فوقَ الأرضِ غادٍ ورائحٌ سِوَى نائحٍ حتى الحمامُ المُطَوَّقُ

وما بقيَ على وجهِ الأرضِ أحدٌ ، يَغْتَدي ، ويروحُ إلاّ باكياً مع حمامٍ مُطَوَّقٍ .

٤ ـ له فوقَ قُضْبانِ الأراكِ تَناوُحٌ تكادُ بهِ قُضْبُ الأراكِ ، تَشَقَّقُ

يقفُ الحمامُ على أغصانِ شجرِ الأراكِ ، وتُرَدِّدُ كلُّ واحدةٍ منها نوحَها ، فَتَرُدُّ الأخرى عليها باكيةً ، وتوشِكُ أغصانُ الأراكِ أنْ تَتَصَدَّعَ حُزْناً وأسىً .

٥ ـ ينوحُ على رحبٍ مُطارحُ نفسِهُ وإنْ ضَمَّهُ لحدٌ منَ الأرضِ ضَيِّقُ

يبكي ، ويَنوحُ على منْ كانَ يُصادقُهُ ، ويشارِكُهُ مالئاً الأرضَ حُزْناً ، ولو صارَ في قبرٍ صغيرٍ في الأرضِ .

٦ ـ ينوحُ على حُرِّ المناسبِ واضحٌ صفيحةُ وجهٍ دونَهُ الشمسُ تُشْرِقُ

ينوحُ على شريفِ الأصلِ والقرابةِ نَسَبُهُ الكريمُ الذي يُضيءُ الشمسَ جانبُ وجهِهِ .

٧ ـ أخي مأثُراتٍ ، ما اجتَمَعْنَ لواحدٍ ولا بعضُهـا فـي مَعْشَـرٍ تتَفَـرَّقُ

كانَ ذا مكارمَ كثيرةٍ ، ما اجتَمَعَتْ كُلُّها أو بعضُها في فئةٍ إلاّ تفَرَّقَتْ بينَهمْ .

٨ ـ فتًى بـوقـارِ الشيبِ شِيبَ شبـابُـهُ كمـا شيـبَ بـالمـاءِ الـرحيـقُ المُعَتَّـقُ

وكانَ في ميعةِ الشبابِ ، امتزجَتْ فورةُ شبابِهِ برزانةِ الكهولِ ، كما تُمْزَجُ الخمرُ القديمةُ بالماءِ .

٩ ـ فتًى نَشْؤُهُ في حِجْرِ مُلْكٍ ودولةٍ ومَنبِتُـهُ بيـتُ العـلاءِ المُسَـرْدَقُ

شَبَّ في حِضْنِ مُلْكٍ وأُمَّةٍ مُنَظَّمَةٍ ، وهو ذو أصلٍ ، هو العِزُّ المُغَطَّى بسقفِ المجدِ .

١٠ ـ وما المُلْكُ، عنْ نيلِ المناقبِ صَدَّهُ ولا عـاقَـهُ عـنْ حَـوزِهِـنَّ مُعَـوِّقُ

وما مَنَعَهُ المُلْكُ عنِ الفوزِ بالمكارمِ ، ولا وقفَ في وجهِ تلكَ المكارمِ شيءٌ ، ردَّهُ عنِ امتلاكِها .

١١ ـ إلى أنْ رمَى في العلمِ أبعدَ غايةٍ وبَـرَّزَ حتـى لـم يكُـنْ ، فيـه يُلْحَـقُ

إلى أنْ وصلَ إلى أعلى مراتبِ العلمِ ، وفاقَ أقرانَهُ حتى لم يستطعْ أحدٌ أنْ يدرِكَهُ .

١٢ ـ تَقَيَّلَ في ما اختارَ آباءَهُ ، ومَنْ تَقَيَّلَهُـمْ فهـو السعيـدُ المُـوَفَّـقُ

وأشبَهَ آباءَهُ لمّا رآهُمْ خيرَ الرجالِ ، ومن أشْبَهَهُمْ فهو الفائزُ الرشيدُ السعيدُ .

١٣ ـ فَخَلَّـفَ أبنـاءَ الـزمـانِ بشـأوِهِ ومُهْـرُ عِتـاقِ الخيـلِ أجْـرَى وأسبَـقُ

وجَهَدَ كلَّ الجَهْدِ في تعليمِ أولادِ زمانِهِ ليكونوا خيرَ خَلَفٍ لِخَيرِ سَلَفٍ ، فإن خِيارَ الخيلِ الصغيرةِ أسرَعُ وأسبقُ مِنْ غيرِها .

١٤ ـ تَخطَّفَهُ ريبُ المنونِ ، ولم يَزَلْ مخـالبُـهُ فـي أعْتَـقِ الطيـرِ تَعْلَـقُ

وفَجَأَهُ الموتُ ، وسَلَبَهُ منّا ، وهو فتًى كالطيرِ الكريمِ ذي المخالبِ الطَّرِيَّةِ الذي يتمسَّكُ بأمِّهِ .

١٥ ـ فباتَتْ مآقي المجدِ، تَذْري دموعَها وأفئـدةُ الآدابِ والعلـمِ ، تَخْفُـقُ

وظَلَّتْ عيونُ الشرفِ ، تُرْسِلُ دموعَها ، وقلوبُ الآدابِ وفنونِها والعلمِ وأنواعِهِ ، تَضْطَرِبُ حُزْناً عليهِ .

١٦ ـ وتَنْتَحِبُ السُّمْرُ الكواتِبُ لوعةً وبـالعَبـرةِ البيـضُ البـواتِـكُ تَشْـرَقُ

وتبكي الأقلامُ ذاتَ الأسنانِ السُّمْرِ ألفاظَ حُزْنٍ ، وتَغَصُّ السيوفُ القاطعةُ بدموعِها لشدةِ أساها .

١٧ ـ فَعَبْرَةُ هذي حالكٌ مُتَسَلْسِلٌ وعَبْرَةُ هذي قانِئٌ مُتَدَفِّقُ

ودمعةُ الأقلامِ سوداءُ مُتَّصِلَةٌ ، ودمعةُ السيوفِ قطرةُ دمٍ شديدِ الحُمْرةِ مُنْصَبَّةٌ .

١٨ ـ ولو أنصفَتْ ، ماتَتْ جميعاً بموتِهِ فما بعدَهُ فيها بهاءٌ ورَونَقُ

ولو عَدَلَتِ الدنيا ، ماتَ كلُّ حيٍّ بموتِ هذا الرجلِ ، فإني لم أجدْ بعدَهُ شيئاً ، فيه الحُسْنُ والجمالُ .

١٩ ـ سَرَى نبأٌ بَرْحٌ ، وقد رَنَّقَ الكَرَى فطارَ عنِ العينِ النعاسُ المُرَنِّقُ

وانْتَشَرَ خبرٌ شديدٌ ، وغَلَبَ النَّومَ ، فذهبَ عنِ العينِ الوسَنُ الجميلُ الذي يُغَطِّيها .

٢٠ ـ أراقَ لنا دمعاً ، وأرَّقَ أعْيُناً فكُلٌّ مُراقٌ دمعُهُ ومُؤرَّقُ

وصَبَّ مِنّا دمعاً ، وسَهَّدَ عيوناً ، فصارَ كلُّ واحدٍ مِنّا أحدَ فريقَينِ مصبوباً دمعُهُ ومحروماً منَ النومِ .

٢١ ـ وصَدَّ يدَ الساقي عنِ الكأسِ ، فانْثَنَتْ وعَوَّضَ لطمَ الخدِّ كفًّا ، تُصَفِّقُ

ودفَعَ يدَ الساقي لئلاّ تَصُبَّ في الكؤوسِ شيئاً ، فمالَتْ ، وأمرَ أنْ تُضْرَبَ الكفوفُ تعويضاً عن ضربِ الخُدودِ .

٢٢ ـ ومَنْ كانَ أرخَى للمِراحِ إزارَهُ ثناهُ ، وجَيبَ البُرْدِ منهُ يُشقِّقُ

ومَنْ أرادَ أنْ يختالَ ، وأسبَلَ رداءَهُ ، عادَ ، فرفعَهُ ، ولواهُ ، وبَدَأَ ، يُمَزِّقُ جوانبَ إزارِهِ .

٢٣ ـ وقد كنْتُ أرجو مدحَهُ بقصائدٍ كأني عقودَ الدُّرِّ فيه أنْسُقُ

وكنْتُ آمُلُ أنْ أمدحَهُ ، وأُثنيَ عليهِ بقصائدَ ، تشبهُ قلاداتِ اللآلئِ التي تُرَتَّبُ ترتيباً حسناً .

٢٤ ـ وما كنتُ أخْشَى أنَّ مرثِيَتي لهُ لأَوَّلِ منطوقٍ بهِ ، فيهِ أنطِقُ

والذي كنتُ أخافُهُ نظمُ قصائدَ في رثائِهِ قبلَ مدحِهِ ، ويكونُ ذكرُ مناقِبهِ بعدَ موتِهِ أوَّلَ ما أنطقُهُ فيه .

٢٥ ـ وقُلْتُ : كأني بالوزيرِ وعينِهِ وإنسانِها في جَمَّةِ الدمعِ نَغْرَقُ

وقُلْتُ : كأني بصحبةِ الوزيرِ وعينِهِ وإنسانِها في بئرٍ ، مِلْؤُها الدمعُ ، نَغْرَقُ .

٢٦ ـ يُكَلِّفُهُ منهُ التَّسَلِّيَ صابرٌ ويحمِلُهُ منهُ على الحزنِ مُشْفِقُ

ويَنْصَحُهُ صابرٌ بالنسيانِ ، ويقودُهُ خائفٌ عليه منَ الحزنِ إلى الحزنِ .

٢٧ ـ ولَلصبرُ في الأرزاءِ خيرٌ مغبَّةً   وأولى بأخلاقِ الكرامِ وأخلَقُ

وإنَّ الصبرَ في المصائبِ لَخيرٌ في عاقبتِهِ ، وهو أحَقُّ بصفاتِ الرجالِ العظامِ وأجدَرُ .

٢٨ ـ به يأخذُ الصّبّارُ أوّلَ وهلةٍ   وللجازعِ المُضْنَى به المُتَعَلَّقُ

ويأخذُ الصبرُ بيدِ شديدِ الصبرِ ، ويكونُ ذلك الأخذُ أوّلَ عملٍ ، يقومُ به ، ويتركُ الخائفَ المُضْطَرِبَ مُتَعَلِّقاً بالمصيبةِ التي أصابَتْهُ بالمرضِ الذي لا بُرْءَ منهُ .

☆☆ ٨ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في المدحِ :

١ ـ الآنَ للإسلامِ مُدَّ رِواقُ   والآنَ عادَ لشمسِهِ إشراقُ

الآنَ وبِتَوَلِّي محمدٍ خوارزمشاهَ مَنْصِبَ المُلْكِ أُقيمَ سقفٌ طويلٌ ، يُظَلِّلُ أهلَ الإسلامِ ، والآنَ رَجَعَ لشمسِ الإسلامِ نورٌ ، يملأُ الدنيا .

٢ ـ الآنَ وجْهُ المُلْكِ ، زادَ بهاؤهُ   فتزايَدَتْ نوراً بهِ الآفاقُ

والآنَ زادَ حسنُ وجهِ المُلْكِ ، فتضاعَفَتْ أنوارُ الآفاقِ بهِ .

٣ ـ الآنَ شُدَّ لِنَصْرِ دينِ محمدٍ   بمحمدٍ خارزْ مشاهَ نِطاقُ

والآنَ شُدَّ حزامُ مُلْكِ خوارزمَ بملكِها محمدٍ لِنُصرةِ دينِ محمدٍ ـ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ـ .

٤ ـ والدولةُ اكْتَسَتِ الأمانَ وثوبَها   لولا عمادُ الدولةِ الإشفاقُ

وحلَّ بأرجاءِ الدولةِ الطمأنينةُ ، وسكَنَتْ قلوبُ أهلِها ، وارتدى أفرادُ الرعيةِ لباسَ الأمنِ منَ اللهِ تعالى بفضلِ عمادِ الدولةِ محمدٍ .

٥ ـ حَقَنَتْ دماءَ المسلمينَ يدٌ ، بها   وُجِدَتْ دماءُ المشركينَ تُراقُ

حَبَسَتْ يدُ محمدٍ المَلِكِ دماءَ المسلمينَ ، وحَفِظَتْها مِنَ الضياعِ على حينِ رأى الناسُ دماءَ المشركينَ الكفارِ مهدورةً .

٦ ـ وعَنَتْ وجوهُ الكافرينَ ، وفيهمُ   مِنْ قَبْلُ عِزَّةٌ وشِقاقُ

وخضعَتْ رؤوسُ الكافرينَ بعدَ أنْ كانَتْ عزيزةَ الجانبِ ، تُخالفُ ، وتخاصمُ المسلمينَ .

٧ ـ دَلَفوا إلى خارِزْمَ ، يَحْدُوهُمْ إلى   أكنافِهِ طمعٌ لهمْ سَوّاقُ

وكانوا قد تَقَدَّموا إلى خوارزمَ ، يسوقُهُمْ إلى بيوتِها طمعٌ وحَسَدٌ سَوقاً شديداً .

٨ ـ بكتائبٍ مثلِ الغمامِ السودِ في   حافاتِها الإرعادُ والإبراقُ

وقد قصدوا خوارزمَ جماعاتٍ ، تشبهُ السُّحُبَ السوداءَ التي يَصْدُرُ عنْ جوانِبِها الرعودُ والبروقُ .

٩ ـ فرماهُمُ المَلِكُ الأعَزُّ بعسكَرٍ لَجِبٍ كَرَعْنِ الطَّودِ ، ليسَ يُطاقُ

فردَّهُمُ المَلِكُ محمدٌ الماجدُ بجيشٍ كثيرٍ جُنْدُهُ كهامةِ الجبلِ ، لا يستطيعُ المرءُ الصعودَ إليها .

١٠ ـ جَنَباتُهُ بمَهابةٍ وجلالةٍ محفوفةٌ ، ولواؤهُ خَفَّاقُ

وأطرافُ مُلْكِهِ مُلَفَّعَةٌ بمخافةٍ وعَظَمَةٍ ، ورايتُهُ عاليةٌ ، تختالُ بِمَلِكِها .

١١ ـ والخَلْقُ بالدعواتِ في آثارِهِ وأمامَهُ بالنُّصرةِ الخلّاقُ

وإنْ سارَ موكبُهُ فأفرادُ الرعيةِ ، يسيرونَ خَلْفَهُ داعينَ لهُ ، واللهُ ـ عزَّ ، وجلَّ ـ بملائكتِهِ يَتَقَدَّمُهُ واهباً لهُ الفوزَ على أعدائِهِ .

١٢ ـ فيهِ الكماةُ المُعْلَمونَ ، تَقَلْقَلَتْ بسلاحِهِمْ لُحُقُ البطونِ عتاقُ

وكانَ جنودُهُ ، يرتدونَ كلَّ اسلحتِهِمْ ، فيُعْرَفُ كلُّ واحدٍ منهمْ بسلاحِهِ ، ويمتطونَ خيولَهُمُ النجيبةَ التي ضَمَرَتْ بطونُها .

١٣ ـ منْ كلِّ ذَوّاقِ الرَّدَى حتى غدا ما يستمِرُّ لهُ بفيهِ مَذاقُ

ويَقْتَحِمونَ المعارِكَ الشديدةَ ، فذاقَ كلُّ جنديٍّ طعمَ الموتِ حتى صارَتْ مرارةُ الموتِ ، لا تفارقُ فَمَهُ .

١٤ ـ يهوي إلى القرنِ الكَمِيِّ بطعنةٍ نجلاءَ ، منها تَقْلِصُ الأشداقُ

يَنْقَضُّ على عَدُوِّهِ كاملِ السلاح مثلِهِ ، وكأنهُ يسقطُ منْ علٍ ، فلا يُخطِئُهُ ، ويصيبُهُ بطعنةٍ واسعةٍ ، إذا رآها أحدٌ تنكَمِشُ عضلاتُ وجهِهِ ، وتظهرُ أسنانُهُ عجباً وخوفاً .

١٥ ـ مُسْتَمطِرونَ بكلِّ أبيضَ صارمٍ في صَفْحَتيهِ ماؤُهُ رقراقُ

ويضربونَ أعداءَهُمْ بسيوفِهِمُ البيضِ البتّارةِ التي تتلألأُ صفحاتُها بدماءِ العِدا .

١٦ ـ وقنا تمايَلُ كالنشاوَى بَينَها كأسٌ ، تُدارُ منَ المَنونِ دِهاقُ

وترى رماحَهُمْ ، تختالُ كالسُّكارى ، تُدارُ بينَها كاسُ الموتِ الملأى بالمرارةِ .

١٧ ـ وطوائفُ الكفارِ لمّا آنسوا نارَ الوَغَى لِشرارها إحراقُ

ولمّا أبصرَتْ جماعاتُ الكفارِ شدةَ الحربِ أدركَتْ أنَّ نارَ الحربِ ، ستقضي على شِرارِهِمْ بالحرقِ بالنارِ .

١٨ ـ ولقد رَأَوها شَمَّرَتْ عنْ ساقِها مُلْتَفَّــةً بــالســاقِ فيهــا الســاقُ

ورَأَوها رفَعَتْ رداءَها ، فظهَرَت ساقُها مُلْتَفَّةً بساقِها الأخرى لشدةِ هولِ ذلك اليوم يومِ فراقِ المرءِ الدنيا ويوم الحسابِ الذي لا شكَّ فيهِ .

١٩ ـ جَعَلوا الدُّجُنَّةَ جُنَّةً ، وتطايروا هَــرَبــاً ، فــلا خَبَــبٌ ولا إعنــاقُ

واسْتَتَروا بظلمةِ الليلِ ، وجَعَلوها تُروساً ، تحميهمْ منْ ضربِ العدوِّ المسْلِمِ هرباً منهُ ، فلم يَتْبَعُوا في ركوبهمْ خيولَهُمْ فنونَ السيرِ كالخَبَبِ والإعناقِ .

٢٠ ـ والخيفـةُ الحمـراءُ فـي أرواحِهِـمْ عــاثَــتْ ، ففـي أبـدانِهِـمْ أرمــاقُ

وكانَ سببَ خوفِهِمُ الشديدِ رؤيَتُهُمُ الدماءَ الحُمْرَ ، تَسْتَلُّ أرواحَهُمْ ، وكأنها تتلاعبُ بها ، وفي أجسادِهِمْ بقايا الحياةِ .

٢١ ـ واللهُ أتعسَ جدَّهمْ ، فإذا رَمَوا بِصَــوارِدٍ لــم يَعْــدُهــا الإخفــاقُ

وجَعَلَ اللهُ حَظَّهُمْ مُتَعَثِّراً ؛ إذا صَوَّبَ أحدُهُمْ سهماً نافذاً صَيَّرَهُ اللهُ غيرَ نافذٍ .

٢٢ ـ وتَقَلَّبَـتْ فـإلـى الرمـاةِ نصـالُهـا وإلــى الــذيــنَ رُمُــوا بهــا الأفــواقُ

وتنقلِبُ الأحوالُ ، فترتَدُّ نصالُ الأسلحةِ إلى رُماتِها ، وتُقَصِّرُ عنِ الذينَ صُوِّبَتْ إليهِمْ ، فلا تُصيبُهُمْ .

٢٣ ـ ولَوَ أنهمْ صبروا إذنْ لَتلاعَبَتْ بــرؤوسِهِــمْ بيــضُ المُتــونِ رِقــاقُ

ولو ثبتوا في ساحةِ المعركةِ لصارتْ رُؤوسُهُمْ لعبةً بيدِ السيوفِ البيضِ الرقيقةِ المُرْهَفةِ .

٢٤ ـ فطوى المراحلَ شطرَ عُقْرِ ديارِهِمْ مــا عــاقَــهُ عــنْ طَيِّهــا عَــوّاقُ

وسارَ المِلكُ بجيشِهِ إليهِمْ ، وقطعَ المسافاتِ نحوَ قلبِ ديارِهِمْ ، لم يَمْنَعْهُ عنْ قطعِها شيءٌ .

٢٥ ـ مئتانِ منْ طولِ الفراسخِ ، سارَها فــي السبْــعِ ، ليــس لجفنــهِ إطبــاقُ

وقطعَ تلكَ المسافاتِ التي بَلَغَتْ مئتي فرسخٍ طويلٍ في سبعةِ أيامٍ بلياليها ، لم يَغْتَمِضْ له جفْنٌ ، فينامَ .

٢٦ ـ معهُ الفوارسُ ؛ كلُّ أروَعَ باسلٍ يعــدو بــه ذو ميعــةٍ سَبّــاقُ

وكانَ معهُ رجالٌ أشداءُ ، يَمْتَطونَ أفراسَهُمْ ، كلُّ واحدٍ منهمْ في أوّلِ شبابِهِ ، يُعْجِبُكَ حسنُهُ وشجاعتُهُ ومهارتُهُ في ركوبِهِ جوادَهُ وسَبْقُهُ أقرانَهُ .

٢٧ ـ حتـى إذا مـا بَيَّنـوا عَـرَصـاتِهـا وأُتيــحَ عــنْ فَــورٍ بهــنَّ لَحــاقُ

حتى إذا ما ظَهَرَتْ ساحاتُ بيوتِ العدوِّ ، وتَهَيَّأَ لهمْ إدراكُهَا سريعاً قبلَ أنْ تهدأَ نفوسُهُمْ ، وتسكُنَ .

٢٨ ـ شَنُّوا عليهـا غـارةً مـا بينَهـا   قُطِعَـتْ فـروعُ الشـركِ والأعـراقُ

صَبُّوا على تلكَ العرصاتِ وأهلِها حرباً شديدةً ، قطعَتْ شِعابَ الكفرِ وأُصولَها .

٢٩ ـ كـم مُشْـرِكٍ لَعِبَـتْ سُمْـرُ القنـا   فشفَـى الغليـلَ نَجيعُـهُ المُهْـراقُ

وكم مُشْرِكٍ كافرٍ ، هَزِئَتْ بِهِ الرماحُ السمرُ ، فقتلَتْهُ ، فَبَرِئَ الإسلامُ منْ غضبِهِ بدمِ ذلكَ الكافرِ المُنصَبِّ وقَتْلِهِ .

٣٠ ـ منْ كلِّ مَنْ قطعَ الحياةَ ، ومالَهُ   فيهـا سِـوَى الـزادِ الخبيـثِ خَـلاقُ

وتَخَلَّصَ منْ كلِّ مَنْ عاشَ حياتَهُ ، وليسَ لهُ في الدنيا نصيبٌ غيرُ القوتِ الحرامِ .

٣١ ـ لم يَغْشَ منهُ الأنفَ والفمَ مَرَّةً   فـي اللهِ مَضْمَضَـةٌ ولا اسْتِنشـاقُ

ولم يَقْرَبْ مَرَّةً الوضوءَ ليؤدِّيَ صلاةً ، فَتَمَضْمَضَ ، ونَظَّفَ أسنانَهُ ، أوِ اسْتَنْشَقَ الماءَ ، ونظَّفَ أنفَهُ .

٣٢ ـ وكواعبٍ تحكي البدورَ وجوهُها   لكنَّـهُ يعـرو البـدورَ مَحـاقُ

وكم منْ جاريةٍ ذاتِ ثَدْيَينِ ناهِدَينِ ، يُشبهُ وجْهُها البدرَ ، ويُصيبُ البدرَ منه استتارُ .

٣٣ ـ خُطِبَتْ بأطرافِ الرماحِ ، ومالَها   غيـرَ المُهَنَّـدَةِ الـرِّقـاقِ صَـداقُ

يأتي إلى أهلِها رجالٌ أشرافٌ كأسنانِ الرماحِ ، يطلبونَ الزواجَ منها ، وهم يعلمونَ أنَّ مهورَها السيوفُ المُهَنَّدَةُ الرقيقةُ المُرهَفَةُ .

٣٤ ـ وحليلـةٍ حَلَّـتْ لمـنْ يبني بهـا   وحليلُهـا مـا كـانَ منـهُ طـلاقُ

وكم منِ امرأةٍ ، كانَتْ زوجةً حلالاً لمنْ أرادَ أنْ يبنِيَ بزواجِهِ منها بيتاً صالحاً ، فكان زوجاً حلالاً عَدْلاً ، لا يميلُ عنِ الحقِّ ، فيقعَ منه طلاقُ .

٣٥ ـ ولَرُبَّ أسرَى ، لم يكُنْ يُرْجَى لهمْ   لـولا غـزاةُ محمـدٍ إطـلاقُ

وكم منْ أسيرٍ ، قُطِعَ الأمَلُ في الإفراجِ عنهُ ، وكانَ بِغَزْوِ الملكِ محمدٍ فضلٌ في تحريرِهِ منْ عبوديَّةِ الأسرِ .

٣٦ ـ فَكَّتْ أساراهُمْ يداهُ ، وشَدَّ في   أيـدي أسـارى المشـركيـنَ وَثـاقُ

وحَلَّتْ يداهُ حبالَ أسرِهِمْ ، وشَدَّ وثاقَ أسارى المشركينَ .

٣٧ ـ للهِ فتـحٌ مـنْ حُلِـيِّ كمـالِـهِ   نُظِمَـتْ لأجيـادِ العُـلا أطـواقُ

بارِكَ اللهُ في نَصْرِ وفتحِ محمدٍ الذي بلغَ الغايةَ في الكمالِ ، فَنُظِمَتْ فيها قصائدُ شتّى ، تمدَحُ ذلكَ الفتحَ ، وتُزَيِّنُ تاريخَهُ بأطواقٍ عظيمةٍ منْ لآلئِ الفخرِ إلى أبدِ الآبدينَ .

٣٨ ـ واهتَـزَّتِ الأعطـافُ مـنْ فـرحٍ بـهِ للمسلميـــنَ ، وطـــالـــتِ الأعنـــاقُ

وتراقَصَتْ أكتافُ المسلمينَ فرحاً بنصرهِ ، وامتدَّتِ الأعناق فخراً .

٣٩ ـ خارِزْمَشاهُ ، رعى الإلهُ حياتَهُ وسقــاهُ عـــارضُ ديمـــةٍ دفّـــاقُ

بملكِ خوارزمَ محمدٍ ، حَفِظَ اللهُ ـ عَزَّ ، وجلَّ ـ حياتَهُ ، ورَوّاهُ مطرُ سحابةٍ دائمُ الهطولِ .

٤٠ ـ فلـكٌ أحـاطَ بـهِ سُـرادقُ هيبـةٍ وسمـــا عليـــهِ مـــنَ الجـــلالِ رِواقُ

وجعلَ قصرَهُ موئلاً وأُسْوةً لملوكِ المسلمينَ ورعاياهُمْ ، فأحيطَ بسقفٍ منَ الوقارِ ، علاهُ سَقْفٌ آخرُ منَ العظمةِ .

٤١ ـ سُـمٌّ العِـدا والكفـرِ ، إلاّ أنـهُ لـــلأوليـــاءِ والهُـــدَى تـــريـــاقُ

فكانَ سُمًّا قاتلاً الأعداءَ والكفارَ ودواءً شافياً هادياً للأصحابِ .

☆☆ ٩ ـ وقال على بحرِ المتقاربِ في الرثاءِ :

١ ـ فـراقَ النجيبـيِّ أنـتَ الفـراقُ دمـي قبـلَ دمعـي عليـكَ مُـراقُ

يا موتَ النَّجيبيِّ ، أنتَ الموتُ عينُهُ ، وإنَّ دمي مصبوبٌ حزناً عليكَ قبلَ دمعي .

٢ ـ أُذيـــقَ مـــرارةَ كـــأسِ الـــرَّدى وفـــوقَ مَـــرارَتِهـــا مـــا أُذاقُ

وإنَّ النَّجيبِيَّ قد قُدِّمَ لهُ كأسُ الموتِ المُرِّ ، فَشَرِبَهُ ، وتُقَدَّمُ لي مصائبُ الدنيا ذاتُ المرارةِ التي تفوقُ مرارةَ كاسِ الموتِ ، فأشربُها : الواحدةَ تِلْوَ الأُخرى .

٣ ـ يُســاقُ إلـيَّ مـنَ الكـربِ مـا أَوَدُّ لـــهُ أنَّ روحـــي تُســـاقُ

ويأتيني منَ الهمِّ والغمِّ ما أحبُّ ، وأريدُ أنْ تُساقَ روحي إلى الموتِ ، فأنجوَ منَ العذابِ .

٤ ـ أتـانـي النَّعِـيُّ ، فمـا شئـتَ مـنْ تبـاريـحَ ، ضـاقَ بهـنَّ النطـاقُ

جاءني خبرُ موتِهِ ، فكانَ لهُ وقعٌ شديدٌ في صدري حتى ضاقَ حزامي به ، وكادَ يَتَقَطَّعُ .

٥ ـ كـــأنـــيَ مِـــنْ بعـــدِهِ رازحٌ مـــنَ الأزْمِ مـــا بِيَـــدَيـــهِ انطـــلاقُ

وصرْتُ منْ بعدهِ كأنني رجلٌ ساقطٌ منَ الشِّدَّةِ ، ليس لديهِ قوةٌ لينطلِقَ ، وينجُوَ .

٦ ـ يُقَلِّـبُ عينيـهِ حُـزنـاً علـى ألائِفِـــهِ ، واسْتَقَـــلَّ الـــرفـــاقُ

يديرُ نظرَهُ حُزناً على مَنْ كانَ يُصاحِبُهُمْ وتفتيشاً عن رفاقٍ جُدُدٍ ، يَعتاضُ بهم عنِ التَّجيبيِّ ، فلا يعثُرُ على من يُناسِبُهُ إذْ صارَ الرفاقُ قليلينَ .

٧ ـ أرى كلَّ خطبٍ مُطاقاً ، ولكنْ فراقُ الأحبَّةِ ما لا يُطاقُ

وصرتُ أرى كلَّ أمرٍ خطيرٍ ، أستطيعُ أنْ أتجاوَزَهُ إلاّ النَّوَى عنِ الأحبةِ ، لا أتمكَّنُ منْ تَحَمُّلِهِ .

٨ ـ بنفسي مشاهدُهُ المؤنساتُ وأخلاقُهُ الطَّيِّباتُ الرقاقُ

وكم كنتُ أرجو أنْ أفديَ مجالِسَهُ الأنيسةَ وأخلاقَهُ الكريمةَ اللطيفةَ بنفسي .

٩ ـ فلو مُجَّ في الماءِ منْ طيبها لأصبحَ مثلَ الفراتِ الزُّعاقُ

ولو رُمِيَ شيءٌ منْ حُسْنِ أخلاقِهِ وأُنسِ مجالسِهِ في الماءِ الشديدِ المرارةِ لأصبحَ عَذْباً مثلَ ماءِ نهرِ الفراتِ .

١٠ ـ ضحوكٌ لعوبٌ مليحُ الحديثِ وللدِّينِ والجِدِّ فيه خَلاقُ

فقد كانَ ، يحبُّ الضحكَ والمرحَ ، حُلْوَ الحديثِ ، وفي نفسِهِ نصيبٌ كبيرٌ منْ تَفَكُّرِهِ في الدينِ والاجتهادِ في سبيل رضا اللهِ تعالى .

١١ ـ وذو أدَبٍ ، ما تَخَطّاهُ جَزْلٌ منَ اللفظِ ، فيه معانٍ دقاقُ

وصاحبَ أدبٍ رفيعٍ ؛ كلُّ ما كَتَبَهُ منَ اللفظِ قويٌّ أصيلٌ ذو معانٍ كثيرةٍ دقيقةٍ عميقةٍ ، لا تخفى على ذي البصيرةِ .

١٢ ـ وخطٌّ رشيقٌ كَوَشْيِ الحَبيرِ تقاصرَ عنهُ الخطوطُ الرِّشاقُ

ولهُ خَطٌّ رقيقٌ على الورقِ جميلٌ ، يشبهُ زخرفةَ البُرْدِ الثمينِ ، لم تدرِكْهُ خطوطُ النُّساخِ المهرةِ .

١٣ ـ وصوتٌ رخيمٌ إلى صوبهِ لأَصْمِخَةِ السامعينَ اشتياقُ

وذو صوتٍ طروبٍ ، تشتاقُ آذانُ السامعينَ إليه ، ويذهبُ الناسُ إلى حيثُ ، يتحَدَّثُ ، أو يغنّي .

١٤ ـ تحاكي القُماريُّ مخفوضَهْ ومرفوعَةُ المُقْرَباتُ العِتاقُ

ويُغني الحمامُ القُماريُّ بألحانٍ منخفضةٍ وعاليةٍ لِتصفَ أماكنَ خَيلِ التَّجيبيِّ ، وتذكرَ مناقبَهُ .

١٥ ـ إذا ثقةٌ خيفَ منهُ الخلافُ فمنهُ الصفاءُ ، ومنهُ الوِفاقُ

وإذا ما خافَ الناسُ منْ أحدِ العلماء الفقهاءِ في عرضِ رأيٍ مخالفٍ لرأيهِ ، فإنَّ في نفسِ النَّجيبيِّ سماحةٌ ، تقبلُ النقاشَ والجدالَ ، ولا تثورُ ، ليَصِلَ إلى إثباتِ الصوابِ في عقولِ سامعيهِ .

١٦ ـ وأكثــرُ أبنــاءِ هــذا الــزمــانِ　　صــــداقتُـــــهُ كَـــذِبٌ أو نفــــاقُ

وإنكَ يا صاحبي لَترى أكثرَ أولادِ هذا العصرِ إنْ صادقوا أحداً كذبوا عليه ، أو أظهروا الولاءَ ، وكتموا الخلافَ .

١٧ ـ فــذكــراهُ فــي كبــدي حُــرْقــةٌ　　ونسيــانُــهُ ، فــي فــؤادي انشقــاقُ

فذكرى النَّجيبيِّ ، تثيرُ في قلبي ناراً ، وسلوانُهُ ، لا سبيلَ لهُ لأنهُ ، تركَ في قلبي صَدْعاً ، لا يَلْتَئِمُ .

☆☆ ١٠ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الحنينِ :

١ ـ أرقْتَ دمي لمّا ظعنْتَ ، ولم يَزَلْ　　دمـــي بفـــراقِ الظـــاعنيـــنَ يُـــراقُ

قد أسلْتَ دمي حينَ سافَرْتَ ، وفارقْتَني ، وما زالَ دمي ، يسيلُ بسببِ فراقِ المسافرينَ .

٢ ـ وإنَّ سياقَ الروحِ في الساعةِ التي　　أرى إبـلَ الأحبـابِ ، وهْـيَ ، تُسـاقُ

وإنَّ وَقْتَ نَزْعِ روحي منْ جسدي مرهونٌ برؤيةِ جِمالِ الأحبةِ حاملةً إيّاهُمْ ومُساقةً إلى بلدٍ بعيدٍ .

☆☆ ١١ ـ وقالَ على بحرِ الوافرِ في الشكوى [كنوز الأجداد ص٢٩٣] :

١ ـ زمــانٌ كُــلُّ حِــبٍّ فيــه خِــبٌّ　　وطعـــمُ الخِـــلِّ خَـــلٌّ لـــو يـــذاقُ

إني أرى في زماني هذا كلَّ شيءٍ ، قد تَغَيَّرَ حالُهُ ؛ فالحبيبُ ، صارَ ، يُضْمِرُ لمنْ يُحِبُّهُ الغدرَ والكرهَ ، وصارَ طعمُ الصداقةِ والإخاءِ خَلّاً ، إنْ طابَ مذاقُهُ .

٢ ـ لهــمْ ســوقٌ ، بضــاعتُــهُ نفــاقٌ　　فنــافِــقْ ، فــالنِّفــاقُ ، لــهُ نِفــاقُ

وصارَ للناسِ سوقٌ ، تقومُ تجارتُهُ على إظهارِ البضاعةِ وتَثْيِيمِها على سعرٍ ، يُخالفُ الحقيقةَ ، وإني لأرى أنَّ هذا الأمرَ ، يدعونا إلى معاملةِ الناسِ بما يعاملونَنا ، ويأمُرُنا بالنِّفاقِ .

☆☆ ١٢ ـ وقالَ على بحرِ الخفيفِ في الحنينِ إلى مكةَ والبيتِ الحرامِ :

١ ـ حــرمَ اللهِ لــي إليــكَ اشتيــاقُ　　دونَ أدنـــــاهُ تُقْـــرَحُ الآمــــاقُ

يا حَرَمَ اللهِ الشريفَ إنَّ بي حنيناً إلى رؤيتِكَ ، يدعو عينيَ إلى إراقةِ دموعِها التي تجرحُ محاجرَها ومجاريَها بحرارتِها .

٢ ـ نَفَسٌ واقدٌ متى يتصاعَدْ　　يَنْحَدِرْ دمعُ عينيَ المُهْراقُ

وتَرَدُّدُ أنفاسي مصحوبٌ بنارٍ ، كلَّما خرجَ واحدٌ منها ، يسيلُ منْ عينيَ دمعٌ غزيرٌ .

٣ ـ ما ذكَرْتُ السُّكْنى بمكةَ إلاّ　　قَدَحَتْ في فؤاديَ الأشواقُ

وإني كلّما تذكَّرْتُ سَكَني بمكةَ وجواري الحرمَ الشريفَ أحْسَسْتُ أنَّ حنيني ، قد أشعَلَ النارَ في قلبي وضلوعي .

٤ ـ مَعْ بُؤْسِ الحجازِ أصبو إليهِ　　لم يَرُقْني معَ النعيمِ العراقُ

وعلى الرغم ممّا قاسيتُ منْ شدةِ الحالِ في الحجازِ لم تَصْفُ لي الحياةُ الناعمةُ في العراقِ .

٥ ـ ثَمَّ بيتُ اللهِ العتيقُ ، إليهِ　　تترامى بأهلِها الآفاقُ

هناكَ بيتُ اللهِ العتيقُ وحَرَمُهُ الشريفُ ، يتسارَعُ إليهِ أهلُ الأرضِ حُبًّا وكرامةً .

٦ ـ حولَهُ أهلُ خَشيةٍ ، تخشَعُ الأبـ　　ـصارُ منهمْ ، وتخضَعُ الأعناقُ

وترى الناسَ الطائفينَ بهِ خاشعينَ للهِ ـ عزَّ ، وجَلَّ ـ فتخْضَعُ الأبصارُ إجلالاً للهِ تعالى ، وتَذِلُّ الأعناقُ إكباراً لهذا الموقفِ العظيمِ .

٧ ـ منهمْ طائفٌ ، وقائمُ ليلٍ　　قانتٌ ، تَسْتَغيثُ منهُ الساقُ

فمنهمْ طائفٌ حولَ الكعبةِ ، ومنهمْ قائمٌ يصلي ليلاً ، ويطيلُ الوقوفَ ، فلا يَسْمَعُ استغاثةَ ساقَيهِ منْ طولِ وقوفِهِ .

٨ ـ أيُّ قومٍ ، فارقْتُ في أيِّ أرضٍ ؟　　أيَّ يومٍ ، بهِ دهاني الفراقُ ؟

وإني لأعجبُ منْ نفسي ، وأقولُ : كيفَ تَرَكْتُ هذا القومَ ؟ وكيفَ خرجْتُ منْ تلكَ الأرضِ ؟ وما هذا اليومُ الذي أصابني منهُ ذلكَ الأمرُ العظيمُ ؛ هو الفراقُ .؟

☆☆ ١٣ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في وصفِ القبرِ ووحشتِهِ :

١ ـ قالُوا : أمالكَ في عميقِ غَورِها　　مِنْ غامضاتِ العلمِ فِكْرُ مُحَقِّقِ ؟

قالَ لي الناسُ : أليسَ عندكَ نتاجُ تفكيرٍ حقيقيٍّ منْ علومِ غيبِ اللهِ تعالى في أرضٍ ، عُمْقُها سحيقٌ ؟

٢ ـ شَغَلَتْ بناتِ الفكرِ مني فكرةٌ　　في وحشةِ القبرِ العميقِ الضَّيِّقِ

قلتُ : بلى قد سيطَرَتْ على عقلي نظرةٌ في حالِ المرءِ في قبرِهِ العميقِ الضَّيِّقِ ووحشتِهِ فيه .

☆☆ ١٤ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في مدحِ مُؤَيَّدِ الملكِ :

١ ـ لاذَتْ بِحَقْوي يومَ زَمِّ الأيْنُقِ وجرَتْ سوابقُ دمعِها المُتَرقرِقِ

تَعَلَّقَتْ بإزاري يومَ شُدَّتِ الرحالُ على النوقِ ، وتسابقَ دمعُها المتلألئُ .

٢ ـ وتصاعدَتْ أنفاسُها مذعورةً مِنْ أنْ تداعَى شمْلُنا بتَفَرُّقِ

وتَرَدَّدَتْ أنفاسُها متصاعِدَةً خائفةً منْ أنْ يَتَهَدَّمَ جمعُنا ، ويَتَفرَّقَ .

٣ ـ قالَتْ ، وقد مَلأَ الفراقُ فؤادَها وَجْداً ، فَهَمَّ شِغافُهُ بِتَشَقُّقِ :

ثم قالَتْ ، وقلبُها ملآنُ حزناً حتى كادَ غشاؤُهُ ، يَتَمَزَّقُ .

٤ ـ هلاّ أقمْتَ ضَجيعَ لهوٍ ، تَنْثَني نشوانَ تحتَ ظلالِ عيشٍ غيدَقِ ؟

ألا ترافقُ صاحبَ لهوٍ في نهارِهِ وليلِهِ ، فتتمايلَ سكرانَ في أفياءِ حياةٍ مُتْرَفةٍ .

٥ ـ في أيكةٍ حجبَ التفافُ غصونِها شمسَ الضُّحى ، فكأنها ، لم تَشْرُقِ

في مجموعةِ أشجارٍ كثيفةٍ ، سترَتْ غصونُها المُلْتَفَّةُ أنوارَ شمسِ الضُّحَى حتى يُخَيَّلَ للمرءِ أنَّ الشمسَ ، لم تَشْرُقْ بعدُ ؟

٦ ـ وكأنما غاظَ الحمائمَ نَورُها فمتى تضاحكَ ناحَ كلُّ مُطَوَّقِ

وكأنَّ زهرَ الرياضِ ، قد أغضبَ الحمامَ ؛ فكلَّما تَفَتَّحَ بَكَتْ كلُّ حمامةٍ ، وناحَتْ .

٧ ـ غَزِلَ الأصيلُ مع الأحِبَّةِ والضُّحى مع كلِّ مغنوجٍ رخيمِ المنطِقِ

غابَتِ الشمسُ وقتَ العَشِيِّ ، وغابَ معها الأحبابُ ، ولم تطلُعْ شمسُ الضُّحَى بِغيابِ كلِّ ذي حُسْنٍ ودلالٍ ولفظٍ فصيحٍ وصوتٍ طروبٍ .

٨ ـ مُتَألِّقِ الخَدَّينِ ، يهتِفُ وجهُهُ بالشمسِ فيَ غِنَى ، فلا تتألَّقي

وذي خَدَّينِ مُتَلألِئَينِ ، يصيحُ وجهُهُ بالشمسِ : إنني في غِنًى عنكِ ، ولستُ بحاجةٍ إلى نورِكِ ، فلا ترفعي رأسَكِ مُتَفاخِرةً عليَّ .

٩ ـ عذبٍ مراشفُهُ ، كأنَّ رُضابَهُ نُطَفُ الحَيا ممزوجةٌ بِمُرَوَّقِ

وذي شفاهٍ عذبةٍ ، كأنَّ ريقَهُ قطراتُ المطرِ الممزوجَةُ بالخمرةِ الصافيةِ .

١٠ ـ بسلافةٍ عُتِّقَتْ ، فَشَبَّ شبابُها ليسَتْ تَشِبُّ الراحُ مالم تَعْتُقِ

التي أُخِذَتْ ممّا تَحَلَّبَ منَ العنبِ منْ غيرِ عصرٍ ، ثم خُبِّئَتْ حتى تَقْدُمَ . وتَعلُوَ

فواقِعُها ؛ إذ إنَّ الخمرَةَ ، لا يكونُ لها شبابٌ وفواقعُ إلاّ بِقِدَمِ العهدِ .

١١ ـ كادَتْ تُحَدِّثُ عنْ أوائلِ بابلٍ   لو أنها حُبِيَتْ بفضلِ المنطِقِ

ولو أنَّ اللهَ تعالى ، قد جعلَها ذاتَ لسانٍ ، أو شكَتْ لِقِدَمِها أنْ تتحدَّثَ عنْ تاريخِ بابلَ وأوائلِ ملوكِها .

١٢ ـ فَيئي إليكِ ، فلستُ أوَّلَ مُصبحٍ   يَهْوي بأرحُلِهِ رسيمُ الأيْنُقِ

ورجعَتي إليكِ ، فإنني ، لستُ أوَّلَ من يُلْقي تحيةَ الصباحِ مُوَدِّعاً ، ويعودُ مسرعاً قبلَ أنْ تزولَ آثارُ أخفافِ الإبلِ .

١٣ ـ ما زالَ أهلُ الفضلِ مَرْمِيًّا بهمْ   شُقَقَ الفَلا في غَرْبِها والمشرِقِ

وكانَ ، وما زالَ أهلُ المكارمِ ، يُرْسَلونَ في مُهِمَّاتٍ صَعْبةٍ شديدةٍ في قلبِ الفلواتِ وشَرْقِها وغَرْبِها .

١٤ ـ ساروا كذِكْرِ مُؤَيِّدِ المُلْكِ الذي   يطوي البلادَ بسيرِهِ المُتَدَفِّقِ

واتَّبَعَ الناسُ سُنَّةَ ملكِهِمْ مُؤيِّدِ المُلْكِ الذي دَبَّرَ أمورَ بلادِهِ ، وكأنهُ ، يطوي الأرضَ بمشيِهِ المتتابِعِ السريعِ .

١٥ ـ صيتٌ يُجاري الريحَ، بل لو حاوَلَتْ   ريحٌ لُحوقَ غبارِهِ لم تَلْحَقِ

لَهُ ذِكْرٌ ، يُسابقُ الريحَ ، بل لو جَرَّبَتْ ريحٌ أنْ تُدْرِكَ نَقْعَهُ ، لم تَسْتَطِعْ .

١٦ ـ سارتْ بهِ الركبانُ في آفاقِها   منْ مُشْئِمٍ رَطْبِ اللسانِ ومُعْرِقِ

وقد سارَ بأخبارِهِ السَّفْرُ في أرجاءِ الأرضِ ، وتحدَّثَ عنهُ كلُّ مَنْ ذهبَ إلى بلادِ الشامِ أو بلادِ العراقِ بلغةٍ طيِّبةٍ ، تَمْدَحُهُ ، وتذكُرُ أمجادَهُ .

١٧ ـ ملأَ المسامعَ مونِقاتُ صفاتِهِ   لا يملأُ الأسماعَ ما لم يونِقِ

فملأَتْ مكارمُهُ وصفاتُهُ المعجبةُ مسامعَ الناسِ ؛ إذْ لا يملأُ الأنظارَ والأسماعَ إلاّ العجَبُ .

١٨ ـ وقريرةٌ عينٌ ، تراهُ لأنَّها اكْـ   ـتَحَلَتْ بِغُرَّةِ ضاحكٍ مُتَطَلِّقِ

والعينُ التي يقعُ نظرُها عليهِ ، تنامُ مِلْءَ جفونِها لأنها ، جعَلَتْ كُحْلَها رؤيةَ وجهٍ ضاحكٍ ذي جَبْهةٍ بيضاءَ ونفسٍ مُنْشَرِحةٍ .

١٩ ـ والبِشْرُ عنْ كَرَمِ الفِعالِ مُتَرْجِمٌ   والسيفُ ، يُعرَفُ فضلُهُ بالرَّوْنَقِ

والسرورُ ، يصفُ الفعلَ الكريمَ بالتماعِ أساريرِ الوجوهِ ، وتُعْرَفُ جَودةُ السيفِ بسرعةِ قطعِهِ .

٢٠ ـ بعضُ التَّجَهُّمِ مِنْ دَناءةِ مَنْقَبٍ والبِشْرُ مِنْ ثمراتِ مجدٍ مُعْرِقِ

وإنَّ شيئاً منْ تَقَلُّصِ عضلاتِ الوجهِ ناتجٌ عنْ حقارةِ النفسِ ، والسرورُ يَبْسُطُها منْ حلاوةِ ثمراتِ العزِّ الأصيلِ .

٢١ ـ بمُؤَيِّدِ المُلْكِ الْتَقَتْ فِرَقُ العُلا لولا تأيُّدُها بهِ لم تَلْتَقِ

وبفضلِ مؤيِّدِ المُلْكِ اجتمعَتْ فئاتُ المجدِ ، ولو لم يَعْمَلْ مؤيِّدُ الملكِ على ضمِّ شملِها وتقويتِهِ ، لم تجتَمِعْ .

٢٢ ـ لا ضَيَّعَ اللهُ أمراً ، تأييدُهُ لِلْمُلْكِ ، يجمعُ منهُ كلَّ مُفَرَّقِ

ولم يُذهِبِ اللهُ عملَ امرئٍ سُدًى ، كانَ هَمُّهُ تقويةَ دينِ وملْكِ اللهِ تعالى ، وإنما يجمعُ ، ويَلُمُّ به كلَّ ما تَفَرَّقَ منْ أمورِ الناسِ .

٢٣ ـ فالمُلْكُ ، يرفُلُ حينَ يَرْفُلُ ساحباً ثوبَي مُعانٍ في الخطوبِ مُوَفَّقِ

فالمُلْكُ ، يُرْخي ذيلَ الفخارِ ، ويَجُرُّهُ ساحباً معهُ رداءَينِ لكلِّ منْ أرادَ مساعدَتَهُ في الأمورِ العظيمةِ وإرشادَهُ .

٢٤ ـ مُسْتَحْكِمُ التدبيرِ ، في تدبيرِهِ للخطبِ تفريجُ المُقامِ الضَّيِّقِ

وهو ذو حكمةٍ بالغةٍ ، يَضَعُ كلَّ أمرٍ في موضِعِهِ ، ويُوَسِّعُ المُقامَ الضَّيِّقَ على المُضَيَّقِ عليهِ .

٢٥ ـ يُغْني غِناءَ السيفِ صائبُ رأيِهِ والرمحِ في وقتِ التِحامِ المأزقِ

فإذا ما اشْتَدَّ الضربُ والطعنُ في المعركةِ ، وضاقَ الأمرُ على المتحاربينَ ، يَفْصِلُ رأيُ مؤيَّدِ المُلْكِ الراشدُ بينَ الفريقَينِ ، ويُغني عنْ قوةِ السيفِ والرمحِ .

٢٦ ـ وينوبُ عنْ قوسٍ مُوَتَّرَةٍ وعنْ سهمٍ ، إذا دُعِيَ النضالُ ، مُفَوَّقِ

ويقومَ مقامَ القوسِ التي شُدَّ وَتَرُها ، وهُيِّئَتِ النبلَةُ ، وَوُضِعَتْ فوقَ الوترِ لإطلاقِها ، إذا أُعْلِنَتِ الحربُ .

٢٧ ـ ما في كُفاةِ المُلْكِ إلاّ واطِئٌ عَقِبَيهِ في تَهْوينِ أمرٍ مُرْهِقِ

ولا يكفي أحدٌ مُلْكَهُ إلاّ إذا سارَ مقتدياً بمَنْ يُسَهِّلُ الأمرَ المتعِبَ .

٢٨ ـ مِنْ نارِهِ الزهراءِ كلُّ قابسٌ مِنْ بَحْرِهِ الجَيّاشِ كُلُّ مُسْتَقي

ويأخذُ كلُّ مسافرٍ في الليلِ منْ نارِهِ المتأجِّجَةِ جَمرةً ، تُنيرُ طريقَهُ ، ويَشرَبُ كلُّ عطشانَ مِنْ بحرِهِ السَّخِيِّ العَذبِ ، ويرتوي بهِ .

٢٩ ـ ديوانُهُمْ رأدُ الضحى بجلوسِهِ وإذا يقومُ فَجُنْحُ ليلٍ مُطْبِقِ

ويفتَحُ عُمّالُهُ صُحُفَهُمْ بجلوسِهِ ، وهو وقتُ ارتفاعِ الشمسِ ، ولا يقومونَ إلاّ عندمَا يقومُ حينَ يغطي الليلُ الدنيا بجناحِهِ المظلِمِ .

٣٠ ـ كم كوكبٍ مُتَلألِئٍ والشَّمسُ ما لم تُشْرِقِ الدنيا بها لم تُشْرِقِ

وكم من كوكبٍ مُلْتَمعٍ في السماء ، إذا لم تُشْرِقِ الشمسُ ، وتُنِرِ الدنيا ، لم يلتمِعْ .

٣١ ـ نظّامُ شملِ الأولياءِ ، مُمَزِّقٌ لطوابقِ الأعداءِ كلَّ مُمَزَّقِ

فمؤيِّدُ الملكِ ، هو مرتِّبُ جمعِ الأصحابِ ، ومُصَدِّعُ بيوتِ الأعداءِ كلَّ مُصَدَّعٍ .

٣٢ ـ بأصَمَّ يَقْري السُّمَّ التِّرْياقَ في نابَيهِ فعلَ الأُفْعُوانِ المُطْرِقِ

بفضلِ قَلمِهِ الذي يجمَعُ السُّمَّ القاتلَ والدواءَ الشافيَ في رأسَيهِ كما يجمعُ ذكرُ الأفعى في ضربتِهِ فريستَهُ .

٣٣ ـ مُتَقَلِّبٍ في أنملٍ مبسوطةٍ فكأنَّها لِسوى النَّدَى لم تُخْلَقِ

والذي تُحَرِّكُهُ رؤوسُ أصابعَ ممدودةٍ ، كأنها ، لم تُخْلَقْ إلاّ للخيرِ والكرمِ .

٣٤ ـ هذي اليَراعةُ ما أشَدَّ عزيمَها ليسَ الذي فعلَتْ بفعلِ الأخْرَقِ

هذا هو القلمُ ، ما أعظمَ هِمَّتَهُ ، إذْ لا يُقارَنُ عملُهُ بعملِ الأحمقِ .

٣٥ ـ عنْ بعضِ حافاتِ البطائحِ سافَرَتْ فَتَخَيَّمَتْ في سِيفِ بحرٍ مُغْرِقِ

وقد تَنَقَّلَ في جوانبِ السهولِ ، وسافرَ إلى مناطقَ بعيدةٍ ، وجعلَ مَبيتَهُ في ساحلِ المَحْبَرَةِ التي تُغْرِقُ ، وتهلِكُ منْ يريدُ إهلاكَهُ .

٣٦ ـ الْبَسْ ـ رعاكَ اللهُ ـ وشيَ قصيدةٍ قد فَوَّفَتْهُ رَوِيَّةٌ مِنْ مُفْلِقِ

وهاكَ قصيدةً مُزَيَّنَةً بأجملِ الألفاظِ وأحلى المعاني ، قد جَوَّدَتْها بصيرةُ شاعرٍ مبدعٍ .

٣٧ ـ أدنى فضائِلِهِ القريضُ ، وشوطُهُ فيهِ كأشواطِ العِتاقِ السُّبَّقِ

أقربُ مكرمةٍ منهُ إلى الناسِ شعرُهُ الذي يشبهُ بسرعةِ سيرِهِ في أسماعِ الناسِ جريَ كرامِ الخيولِ في السباقِ .

☆☆ ١٥ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ :

١ ـ فَدَيتُ الإمامَ المَغْرِبيَ الذي التَقَتْ لهُ حسناتٌ ، قد تَفَرَّقْنَ في الخَلْقِ

بَذَلْتُ نفسي لِمَنجاةِ الإمامِ المَغْربيِّ الذي اجتمعَتْ فيه صفاتٌ حسنَةٌ ، قد تَفَرَّقَتْ في الناسِ كلِّهِمْ .

٢ ـ لـه أدبٌ جَـزْلٌ وفِقْـهٌ مُحَقَّـقٌ وفَهْـمٌ سـريـعٌ دونَـهُ خطفَـةُ البـرقِ

فهو أديبٌ ذو ألفاظٍ قويَّةٍ وفكْرٍ راشدٍ، يمثِّلُ الحقَّ، وفَهْمٍ سريعٍ، أسْرَعُ منْ سرعةِ البرقِ.

٣ ـ لقد رَزَقَتْ مني المغاربةَ الهوى مَـوَدَّةُ شيـخٍ واحـدِ الغـربِ والشـرقِ

قد نَفَعَتْ مَوَدَّةُ هذا الشيخِ المغربيِّ إيّايَ أهلَ المغربَ كلَّهُمْ إذْ وصلَتْ هذه المحبةُ ما بينَ الشرقِ والغربِ لأنَّ هذا الأمامَ، هو فريدُ العصرِ في الغربِ والشرقِ.

☆☆ ١٦ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في الرثاءِ:

١ ـ مـالـي بِمَـرْوَ الشـاهجـانِ مَسَـرَّةٌ بعـدَ الصـديـقِ المُخْلِـصِ الصِّـدِّيـقِ

لم يبقَ لي بمروَ الشاهجانِ سعادةٌ بعدَ رحيلِ الصديقِ خالصِ الصداقةِ.

٢ ـ يـا ليـتَ إنَّ الحـادثـاتِ، تَـرَكْنَـهُ لـي وحـدَهُ، وطَـوَيـنَ كـلَّ صـديـقِ

وإني قد تمنَّيتُ أنْ تَدَعَ مصائبُ الزمانِ صديقي وحدَهُ، وتُهلِكَ كلَّ الأصدقاءِ.

☆☆ ١٧ ـ وقالَ على بحرِ البسيطِ في الرثاءِ:

١ ـ قضـاءُ ربِّـكَ حـدٌّ غيـرُ مسبـوقِ بـابٌ، يُسـاقُ إليـهِ كـلُّ مخلـوقِ

إنَّ حُكْمَ ربِّكَ في الموتِ قائمٌ، لا يستطيعُ أنْ يقفَ دونَهُ أحدٌ، أو يسبِقَهُ، وهو بابٌ، يُخْرَجُ منه كلُّ مخلوقٍ إلى الآخرةِ.

٢ ـ سِيّانِ: مَنْ ليسَ مرموقَ المَحَلِّ وذو جـاهٍ بـأبصـارِ كـلِّ الخَلْـقِ مـرمـوقِ

فالصغيرُ في أعينِ الناسِ وذو الذِّمَّةِ والحُرْمةِ في قلوب الناسِ وعقولِهِمْ سَواءٌ.

٣ ـ وربُّ تـاجٍ وديبـاجٍ، يُجَـرِّرُهُ كـذي كسـاءٍ رقيـعِ الجيـبِ مفتـوقِ

وصاحبُ تاجٍ ولباسٍ ثمينٍ، يَسْحَبُهُ، مثلُ صاحبِ رداءٍ بالٍ مُمَزَّقٍ مُرَقَّعِ الصدرِ مشقوقٍ.

٤ ـ حُجْبُ الملوكِ، يَدُ المقدارِ، تَخْرِقُها كم منْ حجابٍ بِكَفِّ الدهرِ مَخْروقِ

وإنَّ أستارَ الملوكِ، يدُ اللهِ ـ عَزَّ، وجَلَّ ـ تُمَزِّقُها، وكم من سِتْرٍ، شُقَّ بيدِ الدهرِ.

٥ ـ ولا تَرُدُّ الرَّدَى بيضُ السيوفَ، ولا سُمْـرُ الـرمـاحِ ولا زُرْقُ المـزاريـقِ

ولا تدفَعُ الموتَ السيوفُ البيضُ المُرْهَفَةُ البتّارةُ ولا نُصُلُ الرماحِ السمرُ الطويلةُ ولا الرماحُ القصيرةُ.

٦ ـ ولا قِـلاعٌ مُنيفـاتٌ مُحَصَّنَـةٌ بِـذادةٍ ورُمـاةٍ بـالمجـانيـقِ

ولا الحصونُ العاليةُ المنيعةُ برجالٍ أقوياءَ مدافعينَ ومَهَرةٍ بتصويبِ السيوفِ والرماحِ والمجانيقِ.

٧ ـ والمرءُ يُؤتى منَ الشَّقِّ الذي بَعُدَتْ عنــه مخيلَــةُ ذي حــدسٍ وتحقيــقِ

ويَأتي القدرُ إلى الإنسانِ منْ مَنْفَذٍ ، لا يَخْطُرُ على بالِ صاحبِ ظنٍّ وفكرٍ صحيحٍ .

٨ ـ أَلمْ تَرَ الشَّهْمَةَ الزَّبّاءَ كيفَ أتى هـلاكُهـا مـنْ رجـالٍ فـي الصنـاديـقِ ؟

أَلَمْ تَسْمَعْ قصةَ الذكيَّةِ الزّبّاءِ ، كيف كانَ هلاكُها برجالٍ ، اختبؤوا بالأوعيةِ ؟

٩ ـ ولو رعى الدهرُ ميثاقاً لَخَطَّ على جبــاهِ أيــامِــهِ عَقْــدَ المــواثيــقِ

ولو حَفِظَ الزمانُ عهداً لكتبَ عُهودَهُ على رؤوسِ أيامِهِ التي لم يَخُنْ فيها عهداً .

١٠ ـ محمدُ بنُ أبي الفتحِ الذي تركَتْ أوصــافُــهُ لُكْنَــةً فــي كــلِّ مِنْطيــقِ

وقد تَرَكَ محمدُ بنُ أبي الفتحِ أوصافَهُ في الناسِ كلِّهمْ ، تَحَدَّثَ عنها كلُّ فردٍ بلغتِهِ وبلاغتِهِ التي يُتْقِنُها .

١١ ـ ابْنُ السلاطينِ منْ أبناءِ سلجوقٍ وابْــنُ الغطـاريـفِ منهـمْ والغـرانيـقِ

فهو ابنُ الملوكِ السلاجقةِ وابنُ الأسيادِ الشرفاءِ البيضِ .

١٢ ـ للهِ مـنْ عـادلٍ مـنْ حـقِّ سيـرتـِهِ ونصـرِهِ الحـقَّ أنْ يُـدْعَـى بفـاروقِ

للهِ دَرُّهُ منْ ملكٍ عادلٍ ، أقامَ الحَقَّ ، ونَصَرَهُ ، فكانَ الجديرُ به أنْ يُسَمِّيَهُ الناسُ الفاروقَ .

١٣ ـ مستوجبٍ منْ جموعِ الشركِ مَبْغَضَةً مُحَبَّــبٍ فــي بنــي الإسـلامِ مـرمـوقِ

ورأى أهلُ الشركِ أنَّ واجبَهُمْ بُغْضُهُ وكرهُهُ ، وكانَ في المسلمينَ مُعَزَّزاً مكرَّماً .

١٤ ـ سَبّاقِ غـايـاتِ إنصـافٍ ومَعْـدَلَـةٍ مـا كـانَ فـي غـايـةٍ منهـا بمسبـوقِ

أسرعَ في تحقيقِ غاياتِ العدلِ والإنصافِ ، وقد سَبَقَ الناسَ كلَّهُمْ ، وما استطاعَ أحدٌ أنْ يصِلَ إلى واحدةٍ منها قبلَهُ .

١٥ ـ ومُمْسِكٍ يَدَهُ ، لو شاءَ لاحْتَلَبَتْ أخــلافَ دنيــاهُ أغبــارَ الأفــاويــقِ

وكانَ يَتَحَكَّمُ في ما يريدُ فعلَهُ ، فلو أرادَ أنْ تَحْتَلِبَ يَدُهُ ضروعَ نوقِ دنياهُ وبقايا اللبنِ المجتمعِ في الضروعِ بين الحلبَتَينِ ، ما فَرَّطَتْ في ذلكَ .

١٦ ـ لو خَيلُهُ ، مَنَعَتْ خيراً ، يَهُمُّ به لَقــامَ يمسَــحُ بــالأعنــاقِ والســوقِ

ولوِ امتنعَتْ أفراسُهُ عنِ امتثالِ عملِ خيرٍ ، أمرَ بهِ ، وعَزَمَ عليهِ ، لقامَ ، يقطَعُ رؤوسَها ، ويَعْقِرُ أرجُلَها .

١٧ ـ مذيقِ كأسِ الرَّدى الفُسّاقَ مُتْرَعَةً مـريـقِ مـا فـي البـواطي والأبـاريـقِ

ويُقَدِّمُ كأسَ الموتِ مَلأى بالعذابِ إلى العاصينَ أمورَ اللهِ تعالى ، وَيَطْرَحُ ما في الأواني الكبيرةِ والصغيرةِ منَ الخمرِ على الأرضِ .

١٨ ـ ضَخْمِ السياسةِ، فالعَيّوقُ ليسَ إلى عُلُـوِّ هِمَّتِـهِ فيهـا بِعَيّـوقِ

وهو شديدُ مراقبةِ أفرادِ رعيَّتِهِ ، يأمُرُهُمْ ، وينهاهُمْ ، ويطيعونَهُ ، حتى النجمُ العَيّوقُ الذي يَمْنَعُ الدَّبَرانَ عنْ لقاءِ الثُّرَيّا ، لا يَصِلُ ارتفاعُ عزمِهِ إلى درجةِ عزمِ محمدِ بنِ أبي الفتحِ .

١٩ ـ أقـامَ للحـجِّ أسـواقـاً مُنَفَّقَـةً فعـادَ مـنْ بعـدِ أسـواقٍ بـلا سـوقِ

وأرسلَ مع الحجاجِ بضائعَ رائجةً ، ورجعَ ، ورجعَ الحجاجُ ، وقد بيعَتْ بضائِعَهُمْ ، ولم يبقَ منها شيءٌ ، يَعرضونَه في السوقِ .

٢٠ ـ لو باتَ مَرجانُ غيدِ الحَيِّ مُطَّرَحاً وثَـمَّ بُـرجـانُ أضحـى غيـرَ مسروقِ

لو تُرِكَ لؤلؤُ بناتِ الحيِّ مَرْميًّا طولَ الليلِ ، وكانَ بالحيِّ اللِّصُ بُرجانُ ، لم يَجْتَرِئْ على سَرِقَتِهِ ، ويَحُلَّ الضُّحَى ، وهو غيرُ مسروقٍ .

٢١ ـ كانَتْ بهِ فِرَقُ الكفارِ منْ فَرَقٍ علـى انتظـارٍ لتفـريـقٍ وتمـزيـقِ

وكانتْ جماعاتُ الكفارِ منْ خوفِها منهُ منتظرةً تفريقَ شملِهِمْ وتمزيقَهُ .

٢٢ ـ واسْتُنْزِلوا عنْ صياصيهِمْ، وقد صَعِدوا فيهـا صعـودَ أنـوقٍ فـي ذُرا نيـقِ

وأُنزِلوا منْ حصونِهِمُ المنيعةِ ، وكانوا قد رَقَوا إليها كما ترقى العُقابُ إلى أعلى موقعٍ في الجبلِ .

٢٣ ـ فلم تَصِلْ منهُ إفرَنجٌ إلى فَرَجٍ ولا أضـاءَتْ زنـادٌ للـزنـاديـقِ

ولم يَنَلْ منهُ أجنَبِيٌّ كشفَ كُرْبةٍ ، ولا قَدَحَتْ أعوادُ الكفرةِ الزناديقِ ، فأنارَتْ ما حَوْلَها .

٢٤ ـ لـذاكَ طـارَ لـه ذِكْـرٌ ، تَضَـوُّعُـهُ كـريـحِ أصهـبَ مـنْ داريـنَ مسحـوقِ

لذلكَ كلِّهِ انتشَرَتْ أخبارُ مكارمِهِ كانتشارِ رائحةِ المسكِ الأحْمَرِ المائلِ إلى السوادِ المصنوعِ والمسحوقِ في بلادِ الشامِ .

٢٥ ـ فلَن تَرَى العَينُ سلطاناً ، يقارِنُهُ أو يَنْكُصَ السهمُ مِنْ نصلٍ إلى فوقِ

فلنْ تقعَ العينُ على ملكٍ ، يشابِهُهُ إلاّ أنْ تَرْجِعَ النبلةُ مِنْ نَصْلِها إلى صاحِبِها .

٢٦ ـ والأرضُ ساكنةٌ، ما دامَ، ينظُرُ في سُلْطـانِهـا نـاظِـرٌ مـنْ آلِ سُلْجـوقِ

والأرضُ ساكنةٌ ، وأهلُها مطمئنّونَ ما دامَ ، يقفُ على أمورِها ملكٌ منْ آلِ سُلْجوقَ .

٢٧ ـ فاللهُ يُبْقي مليكَ الشرقِ ثابتةً أوتادُهُ بينَ تأييدٍ وتوفيقِ

وإني لأدعو اللهَ تعالى أنْ يُديمَ مَلِكَ الشرقِ محمدَ بنَ أبي الفتحِ السُّلْجوقيَّ ، ويُثَبِّتَ أركانَ دولتِهِ بالقوةِ والرشادِ .

٢٨ ـ ولا يزالُ ملكُهُ بالعدلِ منتظماً كلؤلؤٍ في نظامِ العقدِ مَنْسوقِ

ويَسْتَمِرَّ ملكُهُ بالعدلِ مستقيماً مُنَظّماً كما تُنَظَّمُ حباتُ الؤلؤِ ، وترتّبُ لِلعِقْدِ .

☆☆ ١٨ ـ وقالَ على بحرِ بحرِ الكاملِ في حبِّ الحياةِ العلميةِ [الفائق في غريب الحديث : مقدمة المحققين ح١/ ٨ و٩]

١ ـ سهري لِتَنْقِيحِ العلومِ ألَذُّ لي مِنْ وصلِ غانيةٍ وطيبِ عِناقِ

إن جلوسي ليلاً في تَفَهُّمي العلومَ وتفسيرِ أمورِها أطيبُ عندي منْ وُدِّ جاريةٍ ، غَنِيَتْ بحسنِها ، وحلاوةِ ضَمِّها .

٢ ـ وتَمايُلي طرباً لحلِّ عويصةٍ أَشْهَىٰ وأَحْلَىٰ مِنْ مُدامةِ ساقِ

واختيالي سروراً لِحَلِّ قولٍ غامضٍ أحبُّ إليَّ وألَذُّ من خمرةٍ منْ يدِ ساقٍ جميلٍ .

٣ ـ وصريرُ أقلامي على أوراقِها أحلَى مِنَ الدَّوكاءِ والعُشّاقِ

وصوتُ أقلامي على أصحابِها الأوراقِ ذو أنغامٍ أطربُ من مَقامِ الدَّوكاءِ ونَغَمِهِ الذي يُرَدِّدُهُ المُحبّونَ بآلاتِهِمُ الموسيقيّةِ .

٤ ـ وألَذُّ مِنْ نَقْرِ الفتاةِ لِدُفِّها نَقْري لأُلْقِي الرَّملَ عَنْ أوراقي

وضربي صفحةَ أوراقي بأناملي لأرمِيَ الرملَ عنها بعدَ جفافِ مدادِها أحْلَى منْ ضَرْبِ الفتاةِ دُفَّها .

٥ ـ أأبيتُ سهرانَ الدُّجى ، وتَبيتُهُ نوماً ، وتبغي بعد ذاكَ لَحاقي ؟

وهل أقضي الليلَ مُصاحباً أوراقي ، وتُمضيهِ ناعماً ، ثم ترومُ إدراكي ؟

☆☆ ١٩ ـ وقالَ على بحرِ البسيطِ في الشوقِ والحنين :

١ ـ كَرِّرْ عليَّ كؤوسَ الراحِ يا ساقي حتى ترى الميلَ في عِطفي وفي ساقي

أعِدْ عليَّ كؤوسَ الخمرِ أيُها الساقي حتى تأْخُذَ الخمرةُ مني كلَّ مأخَذٍ ، وتصيبَ عِطْفَيَّ وساقَيَّ بالخَدَرِ ؛ ويضطرِبَ كلُّ شيءٍ فيَّ .

٢ ـ قمْ فارقِني ، إنَّ صِلَّ الهمِّ ، يَلْسَعُني والرُّقْيَةُ الراحُ ، والراقي هو الساقي

وتعالَ إليَّ ، واقرأْ عليَّ ، أو أعْطِني تعويذةً ، فإنَّ ضربَ الهمِّ ، يَقْرُصُني ، ونجاتي منَ الهمِّ في شُرْبِ الخمرةِ ، وأنتَ أيها الساقي الذي تُداويني .

٣ ـ قالوا المدامةُ تِرياقٌ لشارِبها فهاتِ يا أملَحَ الساقِينَ تِرياقي

وقد قالَ الناسُ : إنَّ الخمرةَ دواءٌ لشارِبِها ، فناوِلْني يا أجملَ الساقِينَ دوائي .

٤ ـ مالي أُبَقِّي منَ اللذاتِ باقيةً وإنَّ شرخَ شبابي ، ليسَ بالباقي ؟

ما الذي حدثَ لي ، فأتركَ شيئاً منَ الطَّيِّباتِ ، وأنا ما زلتُ في أوَّلِ شبابي الذي لنْ يدومَ ؟

٥ ـ هاتِ التي شُبِّهَتْ ظلماً بشمسِ ضُحًى لو عارضَتْها لَغَطَّتْها بإشراقِ

ناوِلْني كأسَ الخمرةِ التي ظلمَها الناسُ ، فشبَّهوها بشمسِ الضُّحَى التي إنْ أرسلَتْ أشِعَّتَها ، كَسَفَتْها الخمرةُ بلألائِها .

٦ ـ ناريَّةُ النَّعْتِ ، إلاّ أنها عدلَتْ نارَ الخليلِ ، فلم تَهْمُمْ بإحراقِ

والخمرةُ ذاتُ حرارةٍ شديدةٍ ، لكنها ساوَتْ نارَ إبراهيمَ الخليلِ ـ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ـ التي لم تُحْرِقْهُ ، بل كانَتْ بَرْداً وسلاماً عليه لقولِهِ تعالى : ﴿يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء/ ٦٩] .

٧ ـ أسْتَغْفِرُ اللهَ أني قد نسبْتُ بها ولم أكُنْ بِحُمَيّاها بِذَوّاقِ

وإني أطلبُ منَ اللهِ تعالى ألاّ يُؤاخِذَني بذكري الخمرةَ وتَغَزُّلي بها ، وهو يعلَمُ أني لم أطْعَمْ نقطةً منها ، ولم أُحِسَّ بِسَورَتِها .

٨ ـ ولم يَذُقْها أبي ، كلاّ ولا أحدٌ منْ أسرتي ، واتِّفاقُ الناسِ مصداقي

ولم يَطْعَمْها والدي ولا أحدٌ منْ أفرادِ أسرتي ، والناسُ شاهدونَ على صِدْقِ قولي .

٩ ـ وفي نَسيبي بها إثْمٌ تُمَحِّصُهُ كفارةٌ ، وهي مدحي لابْنِ إسحاقِ

وإنَّ حديثي عنها حديثَ المُحِبِّ العاشِقِ جُرْمٌ ، لاشَكَّ فيهِ ، يَدْفَعُهُ عني ، ويمحوهُ مدحي وثنائي على ابنِ إسحاقَ .

١٠ ـ ما زالَ ، يسحَقُني عنهُ الزمانُ ، فلا أطاقُ مِنْ بعدِ هذا اليومِ إسحاقي

وكانَ ، وما زالَ الزمانُ ، يُبعِدُني عنهُ ، ولنْ أستطيعَ بعدَ هذا اليومِ تَحَمُّلَ بعدي عنه .

١١ ـ لأُلْقِيَنَّ بِرُغْمٍ مِنْ نوائِبِهِ على رُواقِ علاءِ المُلْكِ أرواقي

وإني لأقسمُ أني سأرمي رحلي في مُقَدَّمِ بيتِ علاءِ المُلْكِ ابنِ إسحاقَ ، وأَقيمُ فيه مطمئناً ، مهما حاولَ الزمانُ أنْ يُبْعِدَني عنهُ .

١٢ ـ لأَلْـزَمَـنَّ لـزومَ الظِّـلِّ سُـدَّتَـهُ   عَقَـدْتُ عهـدي علـى هـذا وميثـاقـي
ولأَلْتَصِقَنَّ ببابِ دارِهِ التصاقَ الظِّلِّ بمظلولِهِ لأني أقَمْتُ على نفسي وعداً بألاّ أفارِقَهُ .

١٣ ـ رزقٌ حُرِمْتُ زماناً أنْ أفوزَ بِهِ   وفـي الفضـاءِ مـواقيـتٌ لأرزاقِ
وهو رزقي الذي عَدِمْتُ الفوزَ به زمناً طويلاً ، وفي حكمِ اللهِ أوقاتٌ للرزقِ .

١٤ ـ كـأننـي وهـوى لُقْيـاهُ يَنْهَكُنـي   أطـوي الضلـوعَ علـى أكبـادِ عُشّـاقِ
وصرتُ ورغبتي في لقائِهِ التي أضْنَتْني كأنني أجمعُ ضلوعي وضلوعَ المحبِّينَ على الأكبادِ ، وأنثني خوفاً عليها منْ أنْ تتَصَدَّعَ .

١٥ ـ أشتاقُ لُقْيا كـريـمٍ مُغْـرَمٍ سَدِكٍ   بـالمَكـرُمـاتِ إلـى العليـاءِ مُشْتـاقِ
وأحِنُّ إلى رؤيةِ رجلٍ كريمٍ مُحِبٍّ مولعٍ بالمَكرُماتِ مشتاقٍ إلى المجدِ والعزِّ .

١٦ ـ لاقيهِ منْ بِشْرِهِ في نُزْهَةٍ عَجَبٍ   كـأنمـا فـي ريـاضِ الجنـةِ الـلاقـي
وكلُّ منْ يصادفُهُ ، يعجَبُ منْ بشاشةِ وجهِهِ ، ويظُنُّ أنهُ في نُزْهةٍ بَديعةٍ في روضةٍ منْ رياضِ الجنةِ .

١٧ ـ ولو أدالَتْ لهُ الأيامُ للأدبِ الـ   ـمَجْفُـوِّ عـادَ لـهُ تنفيـقُ أسـواقِ
ولو دارَتِ الأيامُ ، وأحسنَتْ للأدبِ الذي كانَتْ قد أضْمَرَتْ له العداءَ ، وجعَلَتْ سوقَهُ كاسداً ، لأعادَتْ لهُ منزلتَهُ ، وروَّجَتْ سوقَهُ .

١٨ ـ لكنـهُ الـدهـرُ مـا زالَـتْ حـوادثُـهُ   أعـداءَ كـلِّ كـريـمِ النفـسِ غَيـداقِ
لكن الدهرَ ، هو الدهرُ ، كانَ ، وما زالَتْ أيامُهُ عدوَّةَ كلِّ شريفِ النفسِ واسعِ الخُلُقِ والعطاءِ .

١٩ ـ أهلُ العراقِ ، لهمْ حبِّي ، أقَرَّ بِهِ   لحمـي وعظمـي وأعصـابـي وأعـراقـي
وإني أحملُ لأهلِ العراقِ حبًّا كبيراً ، اعْتَرَفَ بهِ جسمي لحماً وعظماً وأعصاباً وأعراقاً .

٢٠ ـ لأنهمْ ـ لو نَظَرْتَ ـ الناسُ في خِلَقٍ   مقبـولـةٍ مـع مَـرْضِيـاتِ أخـلاقِ
لأنهمْ يجمعونَ صفاتِ الناسِ كلَّها الحسنةَ والباليةَ ، ويقبلُها المرءُ راضياً .

٢١ ـ أرضُ العراقِ وإلحاقي بساكنِها   كـلُّ المُنَـى ، لـو يشـاءُ اللهُ إلحـاقـي
وإنَّ أرضَ العراقَ وطلبَ انتسابي إليها كلُّ أمنياتي ، وأدعو اللهَ تعالى أنْ يشاءَ ، فيُلْحِقَني بها .

☆☆ ٢٠ ـ وقالَ على بحرِ السريعِ في المدحِ :

١ ـ يا لهفَ نفسي ساعةَ الافْتِراقْ   تَفَـرُّقُ الأحبابِ مُرُّ المَذاقْ

يا حسرةَ نفسي وقتَ الفراقِ ، فإنَّ تَفرُّقَ الأحبَّةِ ذو طعمٍ مُرٍّ مذاقُهُ .

٢ ـ وليس ذا أوّلَ عهدي به   لي كلَّ يومٍ منهُ كأسٌ دِهاقْ

ولم تكنْ هذه الشكوى هي الأولى ، فإني كلَّ يومٍ ، أشربُ منَ الزمانِ كأساً ملأى بمرارةِ العذابِ والشقاءِ .

٣ ـ يا ليتَ شعري عنْ سُلَيمى ، وما   يظهرُ منها يومَ سيرِ الرفاقْ

وأتمنى لو أعلمُ خبراً عن سُليمى يومَ سافرَ الأصحابُ وعمّا بَدَرَ منها .

٤ ـ أتسفَحُ العَبْرةَ ؟ أم مثلُها   قاسيةُ القلبِ جَمودُ المآقْ ؟

هل كانَتْ تبكي ، وتسيلُ عبراتُها ؟ أم هي مثلُ غيرِها ذاتُ قلبٍ صُلْبٍ ، لا يتأثّرُ ، ومآقٍ جامدةٍ ، لا تدمَعُ ؟

٥ ـ سُئِلْتُ : هل تصبرُ عنها إذا   فارقْتَها ؟ لا صبرَ قبلَ الفِراقْ

وسألني الناسُ : هل يمكِنُكَ أنْ تصبرَ على فِراقِها ؟ فأجبتُهُمْ : ليس لي صبرٌ على البعدِ عنها قبلَ الفِراقِ ، فكيفَ يكونُ حالي بعدَهُ ؟

٦ ـ لا نظرَتْ عيني إلى وجهِها   إنْ همَّ جَفني بَعدَها بانطباقْ

فإنْ أرادتْ أجفاني أنْ تَغْتَمِضَ لحظةً ، يُخَيَّلْ إليَّ أنهُ ، لنْ يُتاحَ ليَ النظرُ ثانيةً إلى وجهِها .

٧ ـ ولا ترشَّفْتُ رُضاباً لها   يجري على غُرِّ الثنايا رِقاقْ

ولا تقبيلُ شفتيَها ومَصُّ ريقِها الذي يتلألأُ على ثنايا أسنانِها البيضاءِ .

٨ ـ إنْ كنتُ أستعذِبُ منْ بعدِها   ماءَ الحَيا في غُلَّةٍ واحتراقْ

وإنْ كنتُ أظُنُّ أنَّ ماءَ المطرِ ، سيبقَى عَذْباً ، يُرَوِّي ظمئي ، ويشفي اشتدادَ شوقي وحنيني بعدَ رحيلِها عني .

٩ ـ عَذْبٌ، فراتٌ، سائغٌ ماؤهُ   وهو أجاجٌ في لَهاتي زُعاقْ

فهو طَيِّبٌ طَعْمُهُ ، حُلْوٌ مذاقُهُ ، سَهْلٌ اِبْتِلاعُهُ ، وهو مالحٌ ، مُرٌّ ، لا تَحْتَمِلُهُ لَهاتي لِمرارتِهِ بعدَ رحيلِها .

١٠ ـ لا غَروَ أنْ تَنْشَقَّ منا العصا   فهكذا كلُّ عصاً لانْشِقاقْ

ولا سبيلَ إلاّ أنْ تنقَسِمَ عصا المودَّةِ بيننا ، فإنَّ كلَّ شيءٍ مُنْتهٍ ، لا محالةَ ، وكلَّ عصاً ، لابُدَّ منْ تَصَدُّعِها وتَكَسُّرِها .

١١ ـ رُدُّوا ركـابـي ، تـرتَحِـلْ بكـرةً فـي غَلَـسِ الفجـرِ علـى الاتِّفـاقْ

فيا أيها الأصحابُ هَيِّئوا رحالي ، واجعلوا وَقْتَ آخرِ ظلمةِ الليلِ مُتَّفَقاً عليهِ للسفرِ غَدْوَةً .

١٢ ـ وصَيِّـروا عَـزمـي لكـمْ فَـرْقـداً ولِلـدُّجَـى فـوقَ المطـايـا رِواقْ

وتَسَلَّحوا بهمتي ، تكُنْ لكمْ نجماً ، تَهْتَدونَ بها كنجمِ الفرقدِ ، وسَقْفاً ، يحمي المراكبَ في الليلِ والنهارِ .

١٣ ـ عـزمـي أهـدي لكـم ، إنـهُ يَعْلـو سنـى الفـرقـدِ فـي الائْتِـلاقْ

وإني أقدمُ لكمْ هِمَّتي هديَّةً لأنها ، ترتفِعُ على نجمِ الفرقدِ ضياءً وتَلأْلُؤاً .

١٤ ـ كـأنـهُ مُسْتَـرِقٌ لَمْعـةً منْ نورِ شمسِ المُلْكِ بعضَ استِراقْ

وكأنها قد خطفَتْ إيماضَها من بعضِ نورِ السلطانِ شمسِ المُلْكِ خَطْفَ سَرِقَةٍ .

١٥ ـ لـو كـانَ لـلأقمـارِ مـنْ نـورِهِ عُشْـرُ عُشيـرٍ ، لـم يُصِبْهـا مَحـاقْ

ولو كان للكواكبِ منْ ضيائِهِ جُزْءٌ منْ عُشْرِ أعشارِهِ لما حلَّ بها خُسوفٌ .

١٦ ـ ذاكَ بهـاءُ الأمـراءِ الـذي عُـلاهُ فـي الـرِّفْعـةِ سَبْـعٌ طِبـاقْ

هذا هو حُسْنُ الأسيادِ الذي له في ارتفاعِهِ سَبْعُ درجاتٍ ، علا بعضُها بعضاً .

١٧ ـ إنَّ الـذي يطلـبُ كُفْئـاً لـهُ طـالـبُ شـيءٍ ، مـالـهُ لَحـاقْ

وإنَّ مَنْ يريدُ أنْ يكونَ مثيلاً له ، هو مريدٌ أمراً ، لا يستطيعُ أحدٌ إدراكَهُ .

١٨ ـ فـلا يُكَلَّـفُ كُفْئَـهُ طـالـبٌ فـإنَّـهُ تكليـفُ مـا لا يُطـاقْ

وإني لأنصحُ منْ يريدُ أنْ يكونَ كُفْئاً لهُ ألاّ يَجْشَمَ نفسهُ ذلكَ لأنهُ أمْرٌ غيرُ مستطاعٍ .

١٩ ـ إنَّ اشتِقـاقَ الفخـرِ منـهُ كمـا للفعـلِ مـنْ مصـدرِهِ الاِشْتِقـاقْ

وهو أصلُ الفَخْرِ كالمصدرِ ، يُؤخَذُ منه كلُّ معاني الفخرِ والعِزَّةِ كما يؤخذُ مِنَ المصدرِ كلُّ أنواعِ المشتقاتِ .

٢٠ ـ بِشْـرٌ وَجُـودٌ ، فهـو روضٌ ، وذا عـارضُ مُـزْنٍ دائـمُ الاِنْـدِفـاقْ

فهو ذو وجهٍ طَلْقٍ وكرمٍ ، وهو بستانٌ ، وهذهِ سحابةٌ حاملةٌ مطراً ، تُرَوِّيهِ بدوامِ الهطولِ .

٢١ ـ رَقّـاهُ حُسْـنُ الخُلْـقِ فـي مُـرْتَقَـى مـنْ شَـرَفٍ ، يَعْلـو جميـعَ المَـراقْ

ورفعَهُ حُسْنُ طبعِهِ في سُلَّمِ الشرفِ الذي يرتفعُ على جميعِ السلالمِ .

٢٢ ـ منْ لم يكُنْ ، يَشْرُفُ في خُلْقِهِ فمـالـهُ فـي شَـرَفٍ مـنْ خَـلاقْ

ومنْ لم يكُنْ عزيزاً في طبعِهِ ، فليسَ لهُ مِنَ العزِّ حظٌّ أو نصيبٌ .

٢٣ ـ فَصَّلَها غائِصُ فكري ، فَخُذْ نظماً كنظمِ الدُّرِّ في الاتِّساقْ

وقد فَهِمَ كلَّ تلك الأمورِ عقلي ، ثم رتَّبَها في قصيدةٍ ، أقدِّمُها لكَ ، منظومةٍ أبياتُها ، ومُتَّسِقَةٍ ألفاظُها ومعانيها كاتِّساقِ دُرِّ العقدِ الثمينِ .

٢٤ ـ ولا تُعِرْ سَمْعاً ، ولا تُرْعِهِ قوماً ، لهمْ حولَ صهيلي نُهاقْ

فلا تكْتَرِثْ بما تسمَعُهُ مِنَ الناسِ ، ولا تَدَعْ أحداً ، يكونُ لهُ صوتٌ كصوتِ الحميرِ ، يخافُ إذا سَمِعَ صوتَ خَيلي .

٢٥ ـ فالفارسُ العارفُ بالخيلِ لا يَقْبَلُ للمِضمارِ إلاّ العِتاقْ

فإنَّ الخبيرَ بأمورِ الخيلِ ، لا يقبَلُ في يومِ السِّباقِ وغايتِهِ إلاّ الفَرَسَ الأصيلَ .

٢٦ ـ ويحَكَ لا تُعْجِبْكَ أجْسامُهُمْ فَهْيَ رياحٌ نُفِخَتْ في زِقاقْ

ويلَكَ إنْ أعْجَبَتْكَ أجسامُهُمْ ، فهي أكياسٌ ، مُلِئَتْ هواءً ، لا يَنْفَعُ .

٢٧ ـ تَجَمَّعُ الأضدادُ فيهم ، فأحـ ـلامٌ رِقاقٌ ووجوهٌ صِفاقْ

وقد تَجَمَّعَتْ فيهمْ كلُّ الأمورِ المخالفةِ للمكارمِ ؛ فعقولُهُمْ ضعيفةٌ ، لا تأتي برشادٍ ، ووجوهُهُمْ وَقِحَةٌ ، ليسَ فيها ماءُ الحياءِ .

٢٨ ـ قولُهُمْ غَثٌّ ، وأذهانُهُمْ تَغْلظُ عنْ فهمِ المعاني الدِّقاقْ

فإنْ قالوا كلاماً ، فهو فاسدٌ ، وإن فَكَّروا بشيءٍ ، كانَتْ عقولُهُمْ قاسيةً صُلْبةً ، لاتدركُ المعانيَ الدقيقةَ .

٢٩ ـ إنْ سِرتَ عنْ خارِزْمَ قال الأُلَىٰ ودَّعْتَهُمْ ، فامْتَعَضوا لانْطِلاقْ :

وإنْ أردْتَ يوماً أنْ تَرْحلَ عنْ خوارزمَ ، يَقُلِ الذينَ تُحَيِّيْهِمْ تحيةَ الوداعِ ، ويَشُقُّ عليهمُ ابتعادُكَ عنهمْ :

٣٠ ـ قد سارَ عنها رجلٌ مُحْرِزٌ في كلِّ فَضْلٍ قَصَباتِ السِّباقْ

قد رحلَ عنْ خوارزمَ رجلٌ ، قد نال في كلِّ الفضولِ والمكارمِ لواءَ السَّبْقِ .

٣١ ـ فأصبَحَتْ عاطلةً بعدَ ما كانَ لها كالطَّوقِ فوقَ التَّراقْ

وصارتْ ، لا خيرَ فيها بعد أنْ كانَتْ مُقَلَّدَةً بقلادةِ المجدِ محيطةً بالرقبةِ فوقَ التَّرْقُوَتينِ .

* * *

حرف الكاف/ ٢٣٣/ بيتٍ

☆☆ ١ ـ وقالَ على بحرِ الرجزِ في الحنينِ إلى جبلِ الرحمةِ :

١ ـ يا جبلَ الرحمةِ ، هل أراكَ   وهل أرى نَعْمانَ والأراكَ ؟

يا جبلَ الرحمةِ هل قَدَّرَ ليَ اللهُ تعالى أن أصعدَ إليكَ وأنْ أزورَ وادي نَعمانَ كثيرَ شجرِ الأراكِ القريبِ منْ مكةَ .

٢ ـ لا يأسَ من رَوحِ الذي براكَ   أنْ يرزُقَ الوقفةَ في حِراكَ

وإني لا أقنَطُ منْ حكمِ اللهِ الذي خَلَقني ، وخلقَكَ ، وأن يَدَعَني أقفُ في جبلِهِ حِراءَ ، فأصلِّيَ فيه كما صلَّى نبيُّهُ محمدٌ ـ عليه الصلاةُ والسلامُ ـ .

☆☆ ٢ ـ وقالَ على بحرِ البسيطِ في النصحِ : [مقامات الزمخشري : مقامة النهي عنِ الهوى ص١٧٨ و١٧٩]

١ ـ هواكَ أعمَى ، فلا تَجْعَلْهُ مُتَّبَعاً   لا يعتسِفْ بكَ عن بيضاءَ مسلوكَهْ

إنَّ هوى النفسِ ، أيُّها المرءُ ، لا رَشادَ لهُ ، فلا تَوَلِّهِ اهتمامَكَ ، ولا تَتَّبِعْهُ ، يُمِلْكَ عنْ طريقِ الصوابِ السهلِ في أولِهِ وفي آخرِهِ .

٢ ـ اتركْهُ ، وامشِ على آثارِ عقلِكَ في   مَحَجَّةٍ ، مثلُها ، ليستْ بمتروكَهْ

ودَعْهُ ، وسِرْ بصحبةِ حججِ عقلِكَ السليمِ التي لا يَدَعُها عاقلٌ .

٣ ـ فالعقلُ هادٍ بصيرٌ ، لا يزيغُ إلى   بصيرةٍ عنْ سَدادِ الرأي مأفوكَهْ

فإنَّ العقل مُرْشِدٌ مُبْصِرٌ ، لا يميلُ إلى رأيٍ مصروفٍ عنِ الحقِّ .

٤ ـ ومَنْ يَقُدْهُ هواهُ في خِزامتِهِ   فذاكَ بينَ ذوي الألبابِ أضكوكَهْ

ومنْ يجعَلْ هواهُ مربوطاً بِسَيرِ نعلِهِ يكنْ بينَ أصحابِ العقولِ هُزَأَةً .

☆☆ ٣ ـ وقالَ على بحرِ المنسرحِ في الرثاءِ والتعزيةِ :

١ ـ المُلْكُ للهِ أيُّها المَلِكُ   ما دارَ إلاّ بأمرِهِ الفَلَكُ

أيُّها المَلِكُ إنَّ المُلْكَ بيدِ اللهِ ـ عزَّ ، وجَلَّ ـ ولا يكونُ أمرٌ في السماءِ والأرضِ إلاّ بأمرِ اللهِ تعالى .

٢ ـ لم يُعْطَ في أرضِهِ السلامةَ إنـ   ـسانٌ ولا في سمائِهِ مَلَكُ

لم يعطِ اللهُ تعالى السلامةَ ودوامَها لإنسانٍ في الأرضِ ولِمَلَكٍ في السماءِ .

٣ ـ لو قلتَ : أينَ الملوكُ قبلي ؟ لم يَخْتَلِفِ اثنانِ أنهم ، هَلَكوا

ولو سألْتَ أيُّها المرءُ الناسَ : أينَ الملوكُ الذينَ كانوا قبلَ اليومِ ؟ لَرَدَّ عليكَ كلُّهُمْ قولاً واحداً : لقد هَلَكوا ، وبادوا .

٤ ـ انظرْ ، وفي الهالكينَ معتبرٌ هل هَلَكوا بعد طولِ ما مَلَكوا ؟

فَتَفَكَّرْ في أمرِ هلاكِهم ذي العِبْرَةِ ، واسأَلْ : هل بادوا كلُّهُمْ بعدَ ما حَكَموا وقتاً طويلاً ؟

٥ ـ فكلُّ حافٍ وكلُّ مُنْتَعِلٍ في ذاكَ الخيطِ سوفَ يَنْسَلِكُ

فكلُّ إنسانٍ : فقيرٍ أو غنيٍّ ، سوفَ يوضَعُ في حبلِ الموتِ بعدَ الحياةِ .

٦ ـ قد سلكَ الأوَّلونَ مَدْرجَةً سَيَسْلُكُ الآخرونَ ما سَلَكوا

وسارَ الأقدمونَ درجَ الحياةِ والموتِ ، وسيسيرُ الأحياءُ ومَنْ يأتي بعدَهُمْ مثلَ سيرِهِمْ .

٧ ـ كمْ سَفَكوا من دمٍ ، ولو فطِنوا لحالِ دُنياهُمْ لما سَفَكوا

كم منْ دمٍ أراقوا ظُلْماً ، ولو تَفَكَّروا بحالِ الدنيا والآخرةِ لما أراقوا نقطةً واحدةً .

٨ ـ قد تركوها ، ففيمَ حِرْصُهُمُ على المساعي لأجلِ ما تركوا ؟

ورَحَلوا عنْ دنياهُمْ ، وما حَمَلوا شيئاً ممّا تمَسَّكوا بهِ منَ المُمْتَلَكاتِ ، فما كانتْ فائدةُ ما تمسَّكوا به ؟

٩ ـ يا لابسَ الدهرِ ، ليسَ مُنْهَتِكاً ثوبُكَ هذا ، وأنتَ مُنْهَتِكُ

فيا أيُّها المرءُ ، إنكَ تظُنُّ أنكَ سَتَتَمتَّعُ في الدنيا إلى أبدِ الآبدينَ ، وأنَّ ثوبَ الحياةِ لن يَبْلَى ، فاعلَمْ أنَّكَ وحياتَكَ إلى خُلوقةٍ وانتِهاءٍ .

١٠ ـ يا عجباً منكَ إنَّ حقَّكَ أنْ تبكي دماءً ، وشأنُكَ الضَّحِكُ

وإني ، لأُنكِرُ ما يبدرُ منكَ منَ الفرحِ والضَّحِكِ ، والجديرُ بكَ أنْ تبكيَ دماً لا دمعاً على مصيرِكَ يومَ الحسابِ .

١١ ـ يا جبلاً راسياً ، ثباتُكَ في شدائدِ الدهرِ ، ليسَ يُشْتَرَكُ

ويا أيُّها الجبلُ الراسخُ الثابتُ ، إنك لن تستطيعَ أنْ تَصُدَّ مصائبَ الدهرِ ، ولن يُعينَكَ أحدٌ في رَدِّها .

١٢ ـ ما زِلْتَ يومَ الوغى كَلَيثِ شَرًى مُصْطَبِراً ، والرماحُ ، تَشْتَبِكُ

وقد كنتَ ، وما زِلْتَ يومَ الحربِ مثلَ أسدِ أجَمَةِ الفراتِ مُتَسَلِّحاً بالصبرِ ، والرماحُ

مُوَجَّهَةٌ إليكَ مُتلاحمةٌ .

١٣ ـ فاصبِرْ على لبوةٍ ، تَصَيَّدَها دهرةٌ لهُ منْ صُروفِهِ شَرَكُ

فاحتَمِلْ مصيبَتَكَ في زوجتِكَ التي جَعَلَها الزمانُ صَرْفاً منْ صروفِهِ ، فاصابَها حَبْلٌ منْ حبالِ صَيدِهِ .

١٤ ـ واسْلُ بأشبالِها ، فسوفَ ترى ضراغماً ، في الهياجِ تَعْتَرِكُ

واجعَلْ أولادكما سَلْوَةً فإنكَ ، سوفَ تراهُمْ أسوداً ، تقاتِلُ في المعارِكِ .

١٥ ـ إذا السيوفُ البواتِكُ انعصمَتْ فلا تَرُعْكَ الغمودُ ، تَنْبَتِكُ

وإذا امْتَنَعَتْ عنْ ضربكَ السيوفُ البتّارةُ رهبةً منكَ ، فلا تَخَفْ منْ رؤيةِ الأغمادِ ، تتكسَّرُ .

١٦ ـ والحُصُنُ المُقْرَباتُ يومَ وَغًى ويومَ سَبْقٍ ، فداؤُها الرَّمَكُ

وإنِ اشتدَّ الأمرُ في الحربِ والسِّباقِ ، وكانتْ ذُكورُ الخيلِ الكريمةِ قريبةً منْ مرابِطها ومعالِفها ، يَكُنْ فداؤها جماعةَ الأفراسِ التي تُتَّخَذُ للنسلِ .

١٧ ـ بنونَ زُهْرُ الوجوهِ تُبْصِرُهُمْ عَمّا قليلٍ ، وكُلُّهُمْ مَلِكُ

وهاهم أبناؤكما بيضُ الوجوهِ ، ستراهُمْ بعدَ زمنٍ قصيرٍ ذوي قوةٍ عظيمةٍ ومُلْكٍ واسعٍ .

١٨ ـ ناديكَ قد زانَهُ اصطِفافُهُمْ فهو سماءٌ ، تزينُهُ الحُبُكُ

وإنَّ مَجْلسَكَ يُجَمِّلُهُ وجودُهُمْ مصطفِّينَ حولكَ ، وكأنهُ سماءٌ . تُزَيِّنُهُ الكواكبُ والنجومُ .

١٩ ـ عِشْتَ إلى أنْ يُرَوا ، وكلُّهُمُ شيخٌ إذا ما اسْتُشيرَ مُحْتنِكُ

وإني لأدعو اللهَ ـ عَزَّ ، وجَلَّ ـ أنْ تحيا إلى أنْ تراهُمْ ، ويراهمُ الناسُ شيوخاً فقهاءَ حكماءَ بتجاربِ الدهرِ ، تُؤخذُ مشورَتُهُمْ ، ويُعْمَلُ بها .

٢٠ ـ في دولةٍ ، لا تزالُ راسيةً وأمرُ مَنْ عصاكَ مؤتَفَكُ

وتبقى دولتُكَ وسلطتُكَ قائمةً ثابتةً ، ويصيرُ حالُ منْ لم يُطِعْكَ مصروفاً عنكَ .

☆☆ ٤ ـ وقالَ على بحرِ البسيطِ في المدحِ :

١ ـ مُؤَيَّدَ المُلْكِ لَبِّ العِزَّ حينَ دعا والبَسْ بأنعمِ بالٍ خِلْعَةَ المُلْكِ

يا مؤَيَّدَ المُلْكِ دَعاكَ مَجْدُ المُلْكِ ، فأقْبِلْ عليهِ ، وارْتَدِ ثوبَ المُلْكِ ، وأنتَ في أحسنِ حالٍ .

٢ ـ كساكَ ذاتَ حُبيكٍ يا سماءَ عُلاً　　إنَّ السماءَ ، وَشّاها اللهُ بالحُبُكِ

ويا سماءَ أمجادٍ ، لقد ألبَسكَ العِزُّ ثياباً منْ أفضلِ وأحسنِ الطُرقِ ، وإنَّ السماءَ ، قد زيَّنها اللهُ بالنجوم ذاتِ الأفلاكِ المختلفةِ .

٣ ـ فالعُجْبُ، أَضْحَكَها لما ادّرعْتَ بها　　فقابَلَتْ عَبْرَةَ الحُسَّادِ بالضَّحِكِ

وسُرَّتِ السماءُ كثيرا ، وبَلَغَتْ في التيهِ غايتَهُ حين رأتْكَ ، تَتَخِذُ طُرُقَها في الحكمِ ، وضحكَتْ مواجهةً دمعةَ الحُسّادِ .

٤ ـ أصبحتَ كالفلَكِ العُلْويِّ في شرفٍ　　وما سَجاياكَ إلاّ أنجمُ الفلكِ

فصرْتَ في عِزِّكَ ومجدِكَ كمدارِ السماءِ العالي ، وما كانَتْ صفاتُكَ إلاّ نجومَ وكواكبَ هذا المدارِ .

٥ ـ أضحى نوالُكَ بينَ الخَلْقِ مُشْتَرَكاً　　لكنَّ عِزَّكَ عِزٌّ غيرُ مُشْتَرَكِ

وصارَتْ أعطياتُكَ لأفرادِ رعيَّتِكَ مقسومةً قسمةَ حقٍّ وعدلٍ ، وبقيَ عزُّكَ مخصوصاً بكَ ، لم يُشرِكِ اللهُ تعالى معكَ أحداً .

٦ ـ رعاكَ ربُّكَ ، واسترعاكَ أُمَّتَهُ　　فأنتَ أحوطُ مُسْتَرْعًى ومُمْتَلِكِ

حفظكَ اللهُ تعالى ، وطلبَ منكَ أنْ تحفظَ أُمَّةَ الإسلامِ أُمَّتَهُ ، فإنكَ أعلمُ الناسِ بحالِ كلِّ فردٍ منْ أفرادِ رعيَّتِكَ وأحفظُ رجلٍ على أمْنِهِمْ وأملاكِهِمْ .

☆☆ ٥ ـ وقالَ على بحرِ السريعِ في المدحِ :

١ ـ جاريةٌ منْ طنيةِ التُّرْكِ　　تقودُني طَوعاً إلى الهُلْكِ

لقد قادَتْني جاريةٌ تركيّةٌ إلى الهلاكِ ، فأطعْتُها راضياً .

٢ ـ فاتنةٌ فاتكَةٌ عينُها　　والتُّرْكُ موصوفونَ بالفَتْكِ

هي ذاتُ نظرةٍ مُضِلَّةٍ جارحةٍ ، والأتراكُ منعوتونَ بالجَرْحِ والقتلِ .

٣ ـ سيفُ أخيها باتِكٌ حَدُّهُ　　ولَحْظُها أبلغُ في البَتْكِ

وسيفُ أخيها ، حَدُّهُ قاطعٌ ، وطَرْفُها أشَدُّ قطعاً منه .

٤ ـ يَفُكُّ أسْراهُ أخوها ، وما　　يَنْفَكُّ أسراها بلا فَكِّ

ويُطلِقُ أخوها الأَسْرَى الذينَ فازَ بهم في الحربِ ، ويبقى أسْرَى لَحظِها مُقَيَّدِينَ دونَ إطلاقٍ .

٥ ـ يَسْفُكُ بعضَ الدَّمِ ، لكنها　　عَمَّتْ جميعَ الدَّمِ بالسَّفْكِ

ويُريقُ أخوها بعضَ دماءِ العاصينَ والأعداءِ ، وهي مريقَةٌ كلَّ الدماءِ دماءِ مُحِبِّيها دونَ اسْتِثْناءِ أحدٍ منهمْ .

٦ ـ وَيْ لِـذوي الإسـلامِ مـنْ مثلِهـا   ومـــنْ أخيهـــا لـــذوي الشِّـــرْكِ

والويلُ والعذابُ لأهلِ الإسلامِ والمسلمينَ مِنْ شِبْهِها ولأصحابِ الشِّرْكِ والمشركينَ مِنْ أخيها .

٧ ـ أبكـــي مـــنَ الهجـــرِ ، ولكنّهـــا   تَضْحَـــكُ منّـــي كلّمـــا أبكـــي

وتَهْجُرني ، فأبكي منْ شدَّةِ الهجرِ ، وتَضْحَكُ مسرورةً كلّما رأتْني ، أبكي .

٨ ـ تكسِـــرُ عينـــاهـــا فـــؤادي إذا   ضَمَّتْهـــا فـــي ســـاعـــةِ الضِّحْـــكِ

وإذ أغمضَتْ عينَيها وقتَ ضِحْكِها أُحسُّ أنَّ فؤادي ، قد تَحَطَّمَ .

٩ ـ قـــد أصبحَـــتْ غـــايـــةَ أُمنِيَّتِـــي   يـــا ليتَهـــا ، تحصُـــلُ فـــي مِلْكِـــي

وصارَتْ نهايةَ أمنياتي ، وصِرْتُ ، أتمنى ، لو تكونُ يوماً في ما أملِكُ .

١٠ ـ لـــم أهـــوَهـــا ، واللهِ ، إلاّ كمـــا   يَهْـــوَى المعـــالـــي شـــرفُ المَلْـــكِ

ولم أعْشَقْها ، ولم يَغْلِبْني هواها ، إلاّ كما يحبُّ شرفُ المُلْكِ الأمجادَ .

١١ ـ إنْ كـــانَ للمجـــدِ أخٌ فـــي الـــوَرَى   فهـــو أخـــو المجـــدِ بـــلا شَـــكِّ

فإنْ كانَ للعزِّ والمجدِ أخٌ في الخَلْقِ ، فهو أخو المجدِ ، ولا شكَّ في ذلكَ .

١٢ ـ تفـــوحُ ريـــحُ الفضـــلِ مـــنْ نَفْثِـــهِ   أطيـــبَ مـــنْ رائحـــةِ المســـكِ

وتنتشرُ أخبارُ فضلِهِ كانْتِشارِ ريحِ الطِّيبِ ، وتكونُ أحكامُهُ ونفحاتُ فمِهِ أحلى منْ شَذا المِسْكِ .

١٣ ـ تـــواضـــعٌ ، زانَ بـــهِ قَـــدْرَهُ   وقَـــدْرُهُ مـــرتفِـــعُ السَّمْـــكِ

وزادَ في زينةِ مكانتهِ تَذلُّلُهُ للهِ تعالى ، فصارَتْ منزلَتُهُ مرتفعةً مثلَ منزلةِ أحدِ أبراجِ السماءِ .

١٤ ـ تَكَلُّـــفٌ أمعـــنَ فـــي تـــركِـــهِ   وأنـــهُ أخْلَـــقُ بـــالتَّـــرْكِ

وتَجَشَّمَ عناءً كبيراً حينَ فَكَّرَ طويلاً في الانِصرافِ عنِ تواضعِهِ ، ووجدَ أنهُ أجدَرُ بالاِنصِرافِ عنِ التَّصَنُّعِ .

١٥ ـ مـــا حَسَّـــنَ الثـــوبَ لِيُـــزْهَـــى بـــه   وليـــسَ زَهْـــوُ الليـــثِ بـــالمَسْـــكِ

ولم يُجَوِّدْ ثوبَهُ ليكونَ حسناً بِهِ لأنهُ يَعْلَمُ أنَّ فَخْرَ الأسدِ بالمَخْبَرِ ، وليسَ بلونِ جلدِهِ .

١٦ ـ وكـــم حقيـــرٍ ، ثـــوبُـــهُ فـــاخـــرٌ   كـــالـــدُّرِّ مخلـــوعـــاً علـــى السِّلْـــكِ

وكم منْ رجلٍ دنيءٍ ، يرتدي ثوباً غاليَ الثمنِ ، يراهُ الناسُ ضئيلاً ذليلاً كاللآلئِ التي قُصَّ سِلْكُها ، فبدَتْ متفرقَةً ، لا قيمةَ لها .

١٧ ـ جَـرَّبَـهُ رأيُ الأميـرِ الـذي بـهِ استقـامَـتْ رايـةُ المُلْـكِ

واخْتَبَرَهُ الأميرُ بِعِلْمِهِ الذي استقامَ بهِ عَلَمُ المُلْكِ ، وارتفعَ .

١٨ ـ فكـانَ كـالإبـريزِ فـي السَّبْـكِ إذْ لـم يَثْبُـتِ النـاسُ علـى السَّبْـكِ

وصارَ كالذهبِ بعدَ تذويبهِ خالصاً منَ الأخلاطِ إذْ لم يبقَ منَ الناسِ شيءٌ منْ نقاءٍ بعدَ اختِبارِهِمْ .

١٩ ـ ربَّ كـريـمٍ مُعْضِـلٍ أمـرُهُ مُمْتَحَـنٍ بـالمَخْـرَجِ الضَّنْـكِ

وكم من رجلٍ شريفٍ ، اشْتَدَّ عليهِ أمرُهُ وامتحانُ الدهرِ إياهُ بالتَّخَلُّصِ والنجاةِ منْ ضيقِهِ .

٢٠ ـ أنقَـذَهُ بـالسَّعْـيِ عنـهُ كمـا أنقـذَ نـوحَ اللهُ بـالفُلْـكِ

خَلَّصَهُ ، ونجّاهُ ممّا يُقاسي بفضلِ جِدِّهِ واجتهادِهِ كما نَجّى اللهُ تعالى نوحاً ـ عليهِ السلامُ ـ بصنعِ السفينةِ وركوبِها .

٢١ ـ ورُبَّ سِتْـرٍ مُسْبَـلٍ ، صـانَـهُ بصـائـبِ الـرأيِ عـنِ الهَتْـكِ

وكم منْ حجابٍ مسدولٍ ، حَفِظَهُ بسديدِ الرأيِ عنِ التمزيقِ .

٢٢ ـ حَكَيـتُ مـنْ أوصـافِـهِ بَعْضَهـا وعنـدَهُ أضعـافُ مـا أحكـي

نَقَلْتُ إليكُمْ ، وحَدَّثْتُكمْ عنْ بعضِ صفاتِهِ ، ولهُ أضعافُ ما أحَدِّثُ ، وأنقلُ .

☆☆ ٦ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الشكوى [أزهار الرياض ح٣/ ٢٨٦ ، ومجلة المجمع العلمي العراقي المجلد ٢٣ سنة ١٩٧٣ م ص ١٨١ في مقالٍ للدكتورة بهيجة الحسني عنِ استجازةِ الحافظِ السلفيِّ الشيخَ الزمخشريَّ]

١ ـ شكوتُ إلى الأيامِ سوءَ صَنيعِها ومنْ عجبٍ : باكٍ ، تَشَكَّى إلى المُبْكي

تقدَّمتُ منَ الأيامِ ، أذكُرُ لها شَرَّ عَمَلِها ، والأمرُ العجيبُ ، هو شكايةُ الباكي إلى الذي ظلمَهُ ، فأبكاهُ .

٢ ـ فمـا زادتِ الأيـامُ إلاّ نِكـايَـةً وما زالتِ الأيامُ ، تُنْكي ، ولا تُشْكي

فضاعفَتِ الأيامُ عذابَها إيايَ في زيادةِ جراحي وفَقْءِ قروحي ، وما زالَتْ تُعَذِّبُ ، ولا تُزيلُ شكوى أحدٍ .

☆☆ ٧ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الحنينِ إلى مكةَ :

١ ـ ويومَ أثَرْنا العيسَ ، وانشقَّتِ العصا فكم منْ بُكاةٍ خَلْفَنا وبواكي

وإني لأذكُرُ يومَ هَيَّجْنا الإبلَ البيضَ المائلةَ إلى الشقرةِ للسفرِ ، وانقسمتْ عصا المودةِ ؛ وكم منْ باكٍ ، تركْنا ، ومنْ باكيةٍ .

٢ ـ وشاكٍ إلى البينِ ، يَسْرُدُ دمعَهُ ولي منْ لبوسِ الصبرِ بَزّةُ شاكِ

وكم منْ عارضٍ شِكايتَهُ إلى الفراقِ ، يَنْسُجُ منْ دموعِهِ المتتابعةِ أثواباً ، وقد اتَّخَذْتُ منَ الصبرِ رداءً ، جعلْتُهُ سلاحي في تلكَ المحنةِ .

٣ ـ وقائلةٍ يا قاضبَ الحبلِ بغتةً ولم يَحْلُ أصْبانا قضيبَ أراكِ

وكم منْ قائلةٍ : يا قاطعاً حبلَ الوصالِ فجأةً ، ولم تُعْطِ أكثرَنا هوًى غصنَ أراكٍ ، يُحَيِّي بهِ منْ يحبُّهُمْ في يومٍ منَ الأيامِ .

٤ ـ فللهِ قلبٌ بينَ دفَّيكَ مُشْرَبٌ هَوَى فرقةِ الأحبابِ ليسَ بِذاكِ

وإني لأَشكو إلى اللهِ قلباً بين جَنْبَيكَ مُرْوًى حبَّ فِراقِ الأحبةِ ، لا يَتَوَقَّدُ شوقاً .

٥ ـ ولكنْ أبَى لي ذو الجلالِ وهِمَّتي سوى الأبطحِ الأزكى مَجَرَّ شِراكِ

فقلْتُ لها : لقد رفضَ لي اللهُ ، عزَّ وجلَّ ، وعزمي المُقامَ طويلاً ، وأرادَ أنْ أرحلَ إلى مكةَ وما يحيطُ بها إلى أجلِّ مكانٍ ، وأعقدَ حزامَ السفرِ إليها .

٦ ـ فيا كعبةَ الرحمنِ أنهَكْتِني ضَنًى فما بي حَراكٌ أو أحُلَّ حِراكِ

فيا أيتها الكعبةُ التي شَرَّفها الرحمنُ ، جلَّ اسمُهُ ، لقد غلَبَني شوقي إليكِ ، وأتْعَبَني ، فلم تَبْقَ لي قوةٌ على الحركةِ إلى أنْ أضعَ رِحالي في جبلِكِ : جبلِ حِراءٍ .

☆☆ ٨ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في مدحِ الرسولِ ، عليهِ الصلاةُ والسلامُ :

١ ـ أدارَ الأُلىٰ حلّوكِ أينَ أولئكِ ؟ أراكِ مَحَلًّا للظباءِ الأوارِكِ

يا بيتَ الذينَ سكنوا بكِ ، أينَ همُ الآن ؟ إني أراكِ اليومَ قد صرتِ سكناً للغزْلانِ التي تعيشُ في ظلالِ الأراكِ ، وتأكلُ منْ أوراقِها .

٢ ـ وبِئسَ معوضاتٌ : ظباءُ أوارِكٍ مكانَ ظباءِ الإنسِ فوقَ الأرائكِ

ولا حبَّذا ذلكَ التعويضُ : غِزْلانُ شجرِ الأراكِ مكانَ نساءِ البَشَرِ اللواتي يجلِسْنَ فوقَ مجالسِ الديباجِ .

٣ ـ لَسَرعانَ ما صاحَ الغرابُ بينَهُمْ وفوجئتُ منهمْ بالرحيلِ المُواشِكِ

وما كانَ أسرعَ نعيبَ الغُرابِ في أنحاءِ ديارِهِمْ ومُفاجأتي برؤيتِهِمْ ، يتأهبونَ للسفرِ ومغادرةِ جوارِنا .

٤ ـ كأني لم أنظرْ إلى الحيِّ صادعاً عِصِيَّ النَّوَى بينَ اللِّوَى فالدَّكادِكِ

وكأنني لم أتَعَلَّقْ يوماً بذلكَ المكانِ ، ولم أكسرْ قُضُبَ الفراقِ بينَ ما الْتَوَى منَ الرملِ (اللِّوَى) وبينَ ما اسْتَوَى منهُ (الدكدَكِ) .

٥ ـ ولم أرَ أطنابَ المضاربِ بالحِمى نظائرَ هُدْبٍ في الكَرَى متشابِكِ

ولم أشاهدْ حبالَ الخيامِ في الأرضِ شبيهةَ بالأهدابِ المتلاصقةِ أثناءَ النومِ .

٦ ـ ولم أرَ أبوابَ القِباب وَدونَها مَصاماتُ خيلٍ للشكيمِ عَوالِكِ

ولم أَلْحَظْ أبوابَ حظائرِ الخيلِ ومواقفَها والخيلَ ، تمضَغُ لُجُمَها .

٧ ـ ولا طَرَقَتْ أذني أحاديثُ سامرٍ وأصواتُ رُعيانٍ حَوالَي مَبارِكِ

ولا سمعَتْ أذني أحاديثَ راويةٍ بالليلِ وأصواتَ الرجالِ رعاةِ الأنعامِ حولَ مقاعِدِهِمْ .

٨ ـ وعهدي برُدْحٍ مُتْرَعاتٍ ، تَكَلَّلَتْ كَرُدْحِ ابنِ جُدعانَ بأيدي الصعالكِ

وإني لأَذكرُ صحافَ الطعامِ الملأى بأطيبِ الطعامِ المُتَوَّجِ بألذِّ اللحومِ التي تشبهُ صحافَ ابنِ جُدعانَ الشهيرِ بجودِهِ والتي يُدْعى إليها الفقراءُ .

٩ ـ تُقارعُ جيشَ الجوعِ حتى تَشُكَّ في خواصِرِهِ شَكّاً بِزُرْقِ النيازِكِ

والتي تقاتلُ جنودَ الجوعِ في بطونِهِمْ ، ويَغرُزونَ في خواصِرِ اللحومِ رماحَهُمُ المائلةَ إلى الزُّرقةِ القصيرةَ ، ثم يقطِّعونَها ، ويَتَناوَلونَها .

١٠ ـ وبيضٍ كأمثالِ السبائكِ ، حُبُّها يذيبُ رجالَ النُّسْكِ ذوبَ السبائكِ

وأذكرُ النساءَ البيضَ الشبيهةَ بالفضةِ المُذَوَّبةِ الخاليةِ مِنَ الأخلاطِ اللواتي يُصْهِرْنَ قلوبَ الرجالِ العُبّادِ صهرَ قطعِ الفضةِ .

١١ ـ نشأنَ مصوناتٍ كأنَّ خدورَها أداحِيُّ رُبْدٍ وهي مثلُ الترائِكِ

وقد شَبَّتْ هؤلاءِ النِساءُ محفوظاتٍ في خيامٍ ، كأنّها مفارخُ النَعامِ التي تركَتْ فيها بيضَهَا ، ورَحَلَتْ عنهُ .

١٢ ـ منَ القاصراتِ الطرْفَ غيرَ فوارِكٍ ولكنْ لحباتِ القلوبِ فوارِكِ

وكُنَّ ذواتِ طَرْفٍ ، لا يطمحَ ، ولا يطمعُ إلاّ بأزواجهنَّ ، ولكنهُ ينصرفُ عمنْ حُبُّهُنَّ ملكَ القلوبَ .

١٣ ـ تَبَوَّأْنَ حِصْناً مِنْ عفافٍ مُمَنَّعاً فلم تَتَسَوَّرْهُ محالةُ فاتِكِ

وأقمْنَ في قَصْرِ العِزَّةِ عالياً ، لا يستطيعُ أيُّ شجاعٍ أن يعلُوَهُ مهما أُوتِيَ منْ حيلةٍ .

١٤ ـ وحَامَىٰ عليها مِقْنَبٌ مُتَسانِدٌ منْ آلِ أبي أَوْفَى ومنْ آلِ مالِكِ

وحَفِظَها جماعةٌ متعاونةٌ منْ أهلِ ذوي الشرفِ ومنْ أهلِ الفخرِ : أهلِ أبي أوفَىٰ ومالكٍ .

١٥ ـ وآلُ أبي أوفى ، عليهِمْ صلاةُ مَنْ صلاةُ المليكِ فوقَهُ والملائكِ

وأهلُ أبي شَرَفٍ ، صلَّى اللهُ تعالى والملائكةُ عليهِمْ .

١٦ ـ وما أحدٌ ، صلّى عليهِ محمدٌ ، بذي عِصَمٍ عندَ الإلهِ ركائكِ

ولم يكُنْ واحدٌ منَ الذينَ دعا لهُ محمدٌ ، عليه الصلاةُ والسلامُ ، بالصلاةِ إلاّ أيَّدَهُ اللهُ تعالى بقوةٍ ومَنَعَةٍ غيرِ ضعيفةٍ .

١٧ ـ أبو القاسمِ ابنُ الأنبياءِ محمدٌ رسولُ الهُدَى الهادي أسدَّ المسالكِ

فمحمدٌ ، عليه الصلاةُ والسلامُ ، أبو القاسمِ هو رسولُ الرشادِ الدالُّ على السيرِ في أصعبِ الطرقِ .

١٨ ـ فأسعدُ أهلِ الأرضِ تابعُ خَطْوِهِ ومَنْ زاغَ عنهُ هالكٌ في الهوالكِ

ومنْ يَتَّبِعْ طريقَهُ يكُنْ أسعدَ أهلِ الأرضِ ، ومَنْ يَمِلْ عنهُ ، فهو مَيِّتٌ بينَ الأمواتِ .

١٩ ـ إلى الثَّقَلَينِ المصطفى كانَ مُرْسَلاً منَ المُتعالي جَدُّهِ المتبارِكِ

ولقدِ اختارَهُ اللهُ تعالى ، وأرسَلَهُ إلى الإنسِ والجنِّ ، وبارَكَ لهُ في رسالتِهِ وأعمالِهِ .

٢٠ ـ ولمّا أتاهمْ بالحَنيفيَّةِ التي هي الصبحُ جَلَّى جُنْحَ أسودَ حالكِ

ولمّا جاءَ إلى الناسِ بالطريقةِ المائلةِ إلى الحقِّ والتي هي كإشراقةِ الشمسِ كشفَ ظلمةَ الجهلِ الشديدِ السوادِ .

٢١ ـ بِمِلَّةِ إبراهيمَ أثبتِ مِلَّةٍ وأرسخِها قَبلَ الجبالِ الروامِكِ

هي سُنَّةُ أبي الأنبياءِ إبراهيمَ الخليلِ أدومُ سُنَّةٍ وأرسخُ منَ الجبالِ المقيمةِ منَ العصورِ الأولىٰ .

٢٢ ـ أتاهُمُ بآياتِ الكتابِ ، فأصبحَتْ بوازغَ في الآفاقِ غيرَ دوالكِ

جاءَهُمْ بآيِ القرآنِ الكريمِ ، فكانَت إشراقاتٍ وأنواراً ، أضاءَتِ السمواتِ دونَ أنْ تميلَ إلى الغروبِ والزوالِ .

٢٣ ـ بداهُمْ بأشباهِ السيوفِ بواتِكاً فَصَدّوا ، فَثَنَّى بالسيوفِ البواتكِ

وطَلَعَ عليهِمْ بحُجَجٍ ، تشبِهُ السيوفَ البَتّارةَ القاطعةَ ، فأعرضوا عنها ، فجابَهَهُمْ بالسيوفِ القواطعِ .

٢٤ ـ ببيضٍ حَطَمْنَ العِزَّ مِنْ كلِّ حاطمٍ   وسمرٍ هَتَكْنَ السِّتْرَ مِنْ كلِّ هاتكِ

وكَسَّرَتْ سيوفُهُ سيوفَ كلِّ العظماءِ الكبارِ الذينَ كانوا يَفخرونَ بأمجادِهِمْ ، ومَزَّقَتْ رماحُهُ سِتْرَ كلِّ مَنْ كانَ يُمَزِّقُ الأستارَ .

٢٥ ـ وطَوَّحْنَ قَسْراً تاجَ كِسرى وقيصرٍ   وسُمْنَ صَغاراً شوسَ أهلِ الممالكِ

وأخضعَتْ هذه السيوفُ والرماحُ تاجَ الفرسِ والرومِ ذُلاً ، وكَلَّفَتْ أهلَ الملوكِ المُتكَبِّرينَ هواناً .

٢٦ ـ وكَمْ مِنْ دماءٍ حيلَ مِنْ دونِ حقنِها   حُقِنَّ بأيدٍ للدماءِ سوافكِ

وكَمْ مِنْ رجالٍ ، أُنقِذوا مِنْ سفكِ دمائِهِمُ التي حُبِسَتْ بقوةٍ ، فلم تُرَقْ ظُلْماً .

٢٧ ـ وذو العرشِ ألقى في قلوبِ غُواتِهِمْ   مِنَ الرعبِ ما يَثْنيهِمُ بالمآلكِ

وألْقى اللهُ ذو العرشِ العظيمِ في قلوبِ أشرارِهِمْ رُعباً وخوفاً ، يجعلُهُمْ ، يُعْرِضونَ عنِ الكُفْرِ ، ويميلونَ إلى الإسلامِ وكتبِهِ .

٢٨ ـ فكائنْ رأَوا مِنْ ذي ممالِكَ كَبْكَبَتْ   مآلكُ منه جندَها في مهالكِ

وكَمْ مِنْ مَمْلَكةٍ ، زَلْزَلَها ، وأَخْضَعَها رسائلُ رسولِ اللهِ ، عليهِ الصلاةُ والسلامُ ، وهلكَ جنودُها رُعباً .

٢٩ ـ وشَرَّدْنَهُمْ في كلِّ أوبٍ تواركاً   صناديدَهُمْ مثلَ النعامِ الرّواتكِ

وفَرَّقَتْ رجالَهُمُ الشجعانَ في كلِّ أرضٍ تاركينَ أسلحتَهُمْ كما يَتْرُكُ النعامُ بيضَهُ ، ويُسرِعُ مقارباً خطوَهُ خَوْفاً وفَزَعاً .

٣٠ ـ أعزُّ قريشٍ مَنْصِباً ، وأخصُّهُمْ   بفرعِ سنامٍ بينَ عدنانَ تامِكِ

هو الرسولُ أعزُّ بني قريشٍ مكانةً وأَجْدَرُهُمْ بأعلى منزلةٍ مِنْ فروعِ بني عدنانَ .

٣١ ـ أبُوَّتُهُ أعلَتْهُ ، ثم ارتَقَتْ بهِ   نُبُوَّتُهُ في الباذخاتِ السوامكِ

وقد رفَعَهُ آباؤهُ إلى منزلتِهِمُ الشريفةِ ، وحَمَلَتْهُ نُبُوَّتُهُ إلى أعلى مدارجِ الشرفِ في السماءِ .

٣٢ ـ وذلكَ يُجْزيهِ مِنْ أنْ يَعْتَزي إلى   فواطمَ مِنْ جَدّاتِهِ وعواتكِ

وهذه النبوَّةُ تكفيهِ مِنْ أنْ ينتسِبَ إلى جَدّاتِهِ اللواتي حَمَلْنَ اسمَ فاطمةَ مِنَ القُرَشيّاتِ والقيسيّاتِ واليمانِيّاتِ والأزديّاتِ والخُزاعياتِ ، واسمَ عاتكةَ مِنْ بني سُلَيمٍ وبني هلالٍ وبني عبدِ مَنَافٍ .

٣٣ ـ وما كانَ إلاّ البدرَ ، تَحْتَفُّ حولَهُ صحابةُ صدقٍ كالنجوم الشوابكِ

وما كانَ إلاّ البدرَ تلْتَفُّ حولَهُ جماعةٌ منْ ذوي الصدقِ متلاحمةٌ ومتلألئةٌ بنورِ الإيمانِ .

٣٤ ـ همُ كشَفوا عنْ وجهِهِ كُرَبَ العِدا كفاحاً ، وخاضوا دونَهُ في المعاركِ

كشفَتْ عنه غمّاتِ الأعداءِ بقتالِها إياهُمْ واقتِحامِها أشدَّ الحروبِ .

٣٥ ـ وقاموا بِضَرْبٍ للطُّلَى مُتَتابعٍ وذادوا بطعْنٍ في الكُلَى متداركِ

فضربتِ الأعناقَ ضرباً مُتَتالياً ، ودافعَتْ عنهُ بوخزِ الكُلَى المؤدِّي إلى الموتِ .

٣٦ ـ إلى أنْ دجا الإسلامُ ، وامتدَّ ظلُّهُ وعضَّ على إبهامِهِ كلُّ آفكِ

إلى أن انتشَرَ نورُ الإسلامُ ، وامتَدَّ عَدْلُهُ ، وعضَّ كلُّ كاذبٍ إبهامَهُ عضًّا شديداً ندماً وحسرةً .

٣٧ ـ فأرسَلَتِ الأديانُ سَحًّا عيونَها وأوضحَ دينُ الحقِّ أنيابَ ضاحكِ

وأمطرتِ الأديانُ دموعَ عيونِها صبًّا فرحاً وسروراً بانتشارِ خِتامِها ، وبَيَّنَ الإسلامُ دينُ الحقِّ بطلانَ الكفرِ وأنيابَهُ الماكرةَ .

٣٨ ـ إليكَ رسولَ اللهِ جَهَّزْتُ مِدْحتي وإنكَ أسخَىٰ كلِّ باقٍ وهالكِ

وقد نَظَمْتُ في مدحِكَ يا رسولَ اللهِ قصيدةً ، تُشيدُ بأنكَ أكرمُ مَنْ أَسَّسَ ، وأبقى ، ومُهْلِكُ منْ حاربَ الحقَّ .

٣٩ ـ ألا إنَّ أدْنَى رَشحةٍ مِنْ نداكَ لم يُقايَسْ إليها بَحْرُ جودِ البرامكِ

وإنَّ أصغَرَ نقطةٍ منْ كرمِكِ ، لا تُقارَنُ ببحرِ كرمِ البرامكةِ .

٤٠ ـ وإني لَفي أسنى الجوائزِ طامعٌ فلا تكُ في وادي تُخَيِّبَ تاركي

وإني يا رسولَ اللهِ طامعٌ بأرفعِ الجوائزِ والمكافآتِ، فلا تتركْني مَرْمِيًّا في وادي الحرمانِ .

٤١ ـ وجائزتي، فليعطِفْ عليَّ، شفاعةٌ تُنَجِّي إلى رضوانَ منْ يَدِ مالكِ

وارفِقْ بي ، واجعَلْ مكافأتَكَ إيَّايَ طلبَكَ منَ اللهِ تعالى ضَمَّكَ إيايَ ، فأخْلُصَ إلى خازنِ الجنةِ رِضوانَ منْ يدِ مالكٍ خازنِ النارِ .

☆☆ ٩ ـ وقالَ على بحرِ الخفيفِ في المدحِ :

١ ـ يرفلُ الدهرَ مُلْكُ تاجِ الملوكِ في قميصٍ منَ الفتوحِ محوكِ

لقد ارتدى مُلْكُ المَلِكِ : تاجِ الملوكِ رداءً ، نَسَجَتْهُ فتوحاتُهُ ، فمشى بهِ مختالاً إلى أبدِ الآبدينَ .

٢ ـ يـالَـهُ مَلْبَسـاً نفيسـاً ، وإنْ لـم يَـكُ مِـنْ وَشْـي عَبْقَـرَ المحبـوكِ
ما أحلى ذلكَ الرادءَ الغاليَ ثمنُهُ ، وإنْ لم تكنْ سَرْدتُهُ وزينتُه بيدِ جنٍّ عَبْقَرَ .
٣ ـ حاكَ تاجُ الملوكِ شمسُ المعالي تـاجَ أحـوالِ هـؤلاءِ الملـوكِ
فقد نسجَ تاجُ الملوكِ شمسُ المعالي تيجانَ الملوكِ ، وسَيَّرَ أحوالَهُمْ حتى صاروا أهلاً لمُلْكِ رعاياهم .
٤ ـ قـد أضـاءَتْ فتـوحُـهُ كشمـوسٍ طـالعـاتٍ ، ومـا لهـا مِـنْ دُلـوكِ
وأنارَتْ فتوحاتُهُ قلوبَ الناسِ بالإسلامِ ، فكانَتْ كالشموسِ الطالعةِ التي لا تغيبُ .
٥ ـ يَتَلَقَّـى العِـدا بيـومٍ عبـوسٍ لاقيـاً غيـرَهُـمْ بيـومٍ ضحـوكِ
ويقابلُ الأعداءَ بالبأسِ والشِّدَّةِ ، ويُرَحِّبُ بأفرادِ رعيَّتِهِ بوجهٍ طلقٍ ضاحكٍ .
٦ ـ كـم دمٍ فـي وَليِّـهِ محقـونٍ بـدمٍ فـي عـدُوِّهِ مَسْفـوكِ
وكم منْ رجلٍ منْ رعيَّتِهِ ، صانهُ ، وحافظَ عليهِ ، بقتلِ عَدوِّهِ وسفكِ دمِهِ .
٧ ـ كُلُّهُـمْ راحَ مـالكـاً ، ثـم أضْحـى فـي ثيـابِ الأسيـرِ والمملـوكِ
وكلُّ فردٍ منْ أعدائِهِ ، يبدو في أوَّلِ أمرِهِ مالكاً ما حولَهُ منْ مالٍ وجاهٍ ، ثم يصيرُ أمامَ تاجِ الملوكِ أسيراً أو خادماً له .
٨ ـ قـد سَرَى نحـوَهُـمْ أخـو غـزواتٍ آخـذاً فـي طـريقِـهِ المسلـوكِ
قد ذهبَ إليهمْ ليلاً صاحبُ حروبٍ مُتَّخذاً خِطَّةً ، يُدرِكُ فيها النصرَ .
٩ ـ راكـبَ الهـولِ غيـرَ تـارِكِ أمـرٍ لِتَنـاهـي اسْتِـدادِهِ متـروكِ
مُقْتَحِماً المَخَاوِفَ حاسباً لكلِّ حالٍ حسابَهُ مُتَمَسِّكاً بكلِّ أمرٍ ، أهمَلَهُ غيرُهُ ، لِيُحَقِّقَ النصرَ .
١٠ ـ فـي صقـورٍ علـى نعـامٍ بِبيـضٍ كُـلُّ مـاضٍ مـنْ عـزمِـهِ مسبـوكِ
بعسكرٍ ذوي قوةٍ كالصقورِ التي تَنْقَضُّ على طيرِ النَّعامِ بسيوفٍ بيضٍ ، أخذتْ شدةَ قطعِها منْ هِمّتِهِ المفتولةِ جَيِّداً .
١١ ـ ورمـاحٍ رؤوسُهـا كـدرارٍ فـي عَجـاجٍ كـدامـسٍ حُلْكـوكِ
ورماحٍ ذاتِ نصالٍ ، تلتمعُ كاللؤلؤِ في مُثارِ النقعِ الشبيهِ بالليلِ شديدِ السوادِ .
١٢ ـ فحـداهُـمْ إلـى المنيَّـةِ حتـى بَـرَكـوا عنـدَهـا أذَلَّ بُـروكِ
فساقَ الأعداءَ إلى الموتِ حتى ثَبَتُوا في مستَنْقَعِهِ ثبوتَ هوانٍ .

١٣ ـ كـمْ قتيـلٍ مُلَحَّـبٍ مَبْطـوحٍ وأسيـرٍ مُكَلَّـبٍ مَنْهـوكِ
وتركَهُمْ فئاتٍ شتَّى : قَتْلَى وصَرْعَى ومُلْقَينَ وأسْرَى مُقَيَّدِينَ مغلوبِينَ .
١٤ ـ فارقَ العِرْسَ ، وهو غيرُ عزوفٍ وهـي قـد فـارَقَتْـهُ غيـرَ فـروكِ
وكانَ كُلُّ رجلٍ منهم مُفَضِّلاً واجبَهُ على حبِّه إذ تركَ عروسَهُ في أيامِ زواجِهِ الأُولَى غيرَ زاهدٍ فيها ، ورضِيَتْ عروسُهُ بمفارقتِهِ إياها غيرَ كارهةٍ .
١٥ ـ تَضْرِبُ الوجهَ ، والترائبُ ، تدعو ويلَهـا دونَ سِتْـرِهـا المهتـوكِ
فإذا جاءَ خبرُ نَعْيِ أحدِ الأزواجِ ترى الحليلةَ ، تندُبُ زوجَها ضاربةً وجهَها ، وترى صديقاتِها ، تطلُبْنَ منَ اللهِ تعالى أنْ يساعِدَها في محنتِها في قتلِ زوجِها .
١٦ ـ والـذي فـرَّ فهـو فـي صَفَـدٍ مـنْ رَوْعِـهِ ، ليـسَ منـهُ بـالمفكـوكِ
ومَنْ هربَ منَ الأسرِ تَرَهُ في أغْلالِ الخوفِ ، لا يستطيعُ التخلُّصَ منها .
١٧ ـ قطعَ السيفُ كلَّ شَكٍّ ، عراهُمْ وكفـى السيـفُ قـاطعـاً للشكـوكِ
وكانَ سيفُ الحربِ باتراً كلَّ شكٍّ ، أصابَهُمْ ، وكانَ السيفُ خيرَ مُجْزٍ في ردِّ الشكوكِ .

☆☆ ١٠ ـ وقالَ على بحرِ الرجزِ في الحنينِ إلى مكةَ :

١ ـ مَكَّـةُ نفسـي أسفـاً عليـكِ طـائـرُهـا مُحَلِّـقٌ حـولَيـكِ
يا مكَّةُ المُكَرَّمةُ إنَّ نفسي تذوبُ حزناً لبعدي عنكِ وشوقاً إليكِ ، وقلبي ، يتبَعُكَ كالطيرِ أو يحومُ حَوالَيك .
٢ ـ إنـي ، وإنْ طـالَ المَـدَى إليـكِ سـالِكُـهُ بقـدمَـي سُلَيـكِ
وإني ، وإنْ بَعُدَتِ المسافةُ بيني وبينَك ، سأمشيها وحدي إليك دونَ أنْ أستعينَ بأحدٍ مثلِ سُلَيكِ السَّعْدِيِّ الذي ضُرِبَ بهِ المثلُ بشدَّةِ عَدْوِهِ ، فقيلَ : (أَعْدَى منَ السُّلَيكِ) [مجمع الأمثال : ح٢/ ٤٧] .

☆☆ ١١ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ :

١ ـ تعـالَـوا إلـى أطـلالِ ميَّـةَ ، نبكِهـا وسِيـرَةِ غَيـلانَ بـنِ عُقبـةَ ، نَحْكِهـا
يا أيُّها الأصحابُ تعالَوا ، نَذهبْ إلى آثارِ بيوتِ مَيَّةَ ، ونَبْكِها معَ غَيلانَ .
٢ ـ تعـالـوا إليهـا ريثمـا تَنْشَقـونَ فـي مـلاعبِهـا رَيَّـا مسـاقـطِ مِسْكِهـا
تعالوا إلى هذهِ الآثارِ ، نَشُمَّ منْ جوانبِها روائِحَ مسكِها التي ما زالَتْ تَنْتَشِرُ فيها .
٣ ـ عَذيريَ منْ حكمِ الغرابِ بفُرقةٍ مبيتـي علـى شَـوكِ القَتـادِ لِـوشكِهـا

ويا أيُّها الصاحبُ المساعدُ إيايَ في حكمِ الغرابِ الذي يُهَدِّدُني بالنَّوَى ، إني أبيتُ على فراشٍ ، كأنهُ حُشِيَ شوكَ نباتِ القَتادِ خوفَ حدوثِ الفراقِ السريعِ .

٤ ـ إلى اللهِ أشكوهُ إنَّ في الشكوِ راحةً ومهما اشتكَتْ نفسٌ إلى اللهِ يُشْكِها

وإني لأشكو غُرابَ البينِ إلى اللهِ لأنَّ الشكوى إلى اللهِ ، تُريحُ النفسَ ، إذْ يستجيبُ ، عزَّ ، وجلَّ ، دعاءَ العبدِ ، ويزيلُ متاعبَ الشكوى .

٥ ـ هوادجَ تَقْنُو من مهاها سبائكاً يدُ اللهِ أعطَتْها غرابةَ سبكِها

وأذكُرُ النساءَ في هوادجهنَّ ، تختالُ بِحُلِيٍّ منْ أثمنِ المعادنِ المُزَيِّنةِ ، كانَتْ يدُ اللهِ ـ عزَّ ، وجلَّ ـ قد جعلَتِ الصُّياغَ ، يُبْدِعونَ في صُنْعِها .

٦ ـ مِلاحٌ قلوبُ الوامقينَ رهائنٌ لَديهِنَ عَيُّوا باستطاعةِ فكِّها

وجَعَلَتْ هذهِ الحسناواتُ قلوبَ المُحِبّينَ رهائنَ عندَها ؛ عَجِزوا إذ لم يتمكَّنوا منْ حلِّ عُقَدِها .

٧ ـ وخادعةٍ منهنَّ كالآلِ سائقي إلى طمعٍ ، في غيثِها برقُ ضِحْكِها

وربَّ فتاةٍ ماكرةٍ منهنَّ ، تبدو كالسرابِ الذي يظنُّهُ الرائي بحيرةَ ماءٍ ، فيحرِصُ على نوالِها إذ يرَى التِماعَ أسنانِها البيضِ ، وهي تضحكُ .

٨ ـ هي الفاتكُ البَرّاضُ في لَحْظِ عينِها وها أنا كالرَّحّالِ أشقى بفتكِها

وهي بإصابتِها بطَرْفِ عينِها ابنُ قيسٍ الكِنانيُّ الذي قتلَ عروةَ الرَّحّالَ ، فكانَ سببَ حربِ الفُجّارِ ، وأنا مثلُ الرَّحّالِ ، أتعَذَّبُ بنظراتِ عينَيها القاتلةِ .

٩ ـ فَلَهْفي على تَقْوَى، قَصَرْتُ ستورَها عليَّ ، فأهوَتْ مُقْلَتاها لِهَتْكِها

فيا أسفي على مخافةٍ ، جعلْتُ منها أغطيةً ، تحميني ، وذهبَتْ مَساعيَّ في نصبِها سُدًى لأنَّ عينَيها ، انْقَضَّتْ عليها ، ومَزَّقَتْها .

١٠ ـ وعارٌ على نفسي اطِّراحُ رشادِها وإلمامُها بالغَيِّ منْ بعدِ نُسْكِها

وعيبٌ ، تَقْتَرِفُهُ نفسي إذا تركَتْ حِلْمَها ، واقتربَتْ منَ الضلالِ بعدَ أنْ أقبلَتْ على الاِسْتِقامةِ والعبادةِ .

١١ ـ وما يَنْهَكُ النفسَ العزيزةَ ناهكٌ كموقفِ عارٍ ، تلكَ غايةُ نَهْكِها

وما يستطيعُ شيءٌ ، يغلِبُ النفسَ الكريمةَ مثلَ ارتكابِ عملٍ ، فيهِ العيبُ والعصيانُ وطريقُ نهايةِ غَلَبَتِها وقهرِها .

١٢ ـ ولا شيءَ في الدنيا، يُورِّثُ مَفْخراً   سِوَى خِدْمةٍ ، يَرْضَى بها فخرُ مُلْكِها

وليسَ في الدنيا أمرٌ ، يَجْلُبُ للمرءِ عزًّا ومجداً غيرَ عملٍ ، يخدُمُ فيه مَلِكَهُ فخرَ المُلْكِ ، فيكونُ فيهِ راضياً بها .

١٣ ـ به الدولة المُتْفالُ طابَتْ ، كأنما   هي المِسْكَةُ الذَّفراءَ ، دِيفَتْ بِسُكِّها

وبفضل فخرِ المُلْكِ المُنْتَظَرُ بهِ الخيرُ حَسُنَ حالُ الدولةِ ، فانْتَهَى نَتْنُ ريحِها ، وصارتْ ذاتَ شَذاً عَطِرٍ ، آخْتَلَطَتْ به أطايبُ المسكِ .

١٤ ـ وطالَتْ لهُ عنقُ الوزارةِ نخوةً   وصارَ مناطُ المُشْتَري تحتَ سمكِها

وبفضلِهِ أيضاً امْتَدَّتْ رقبةُ الوزارةِ فخراً ، وصارَ مكانُ كوكبِ المُشْتَري تحتَ منزلتِها .

١٥ ـ مقاليدُها ، ألقَتْ إليهِ نفوسَها   فقد أحرَزَتْ يُمْناهُ خالصَ مُلْكِها

ورَمَتْ أرواحُ رعيتِهِ مفاتيحَ أمورِها إليهِ ، فنالَتْ يمينُهُ منها فضلَ مُلْكِها .

١٦ ـ هي الإرثُ منْ آباءِ صدقٍ، تتابعوا   تتابعَ دُرٍّ في مَناظمِ سِلْكِها

وكانتْ مملكَتُهُ هي إرثاً قديماً منْ آباءٍ أمجادٍ أعزّاءَ ، ملكوهُ مُتَتابعاً مثلَ تتابُعِ اللؤلؤِ في حبلِ القلادةِ .

١٧ ـ همُ الوزراءُ الصيدُ، لولا اتِّساعُهُمْ   لِمُلْكِ بني سَلْجوقَ ضاقَتْ بِمُلْكِها

وقد وَزَّعَ وزَراءَهُ المختارينَ على مناطقِ ملكِهِ الواسعةِ التابعةِ للسلاجقةِ ، ولولا تَوْزيعُهُ هذا لَضَعُفَ مُلْكُ بني سَلْجوقَ ، وتَهَدَّمَتْ أركانُهُ .

١٨ ـ بهمْ نامتِ الدنيا ، وماتَتْ شذاتُها   وقَرَّتْ على التأبيدِ دولةُ تُرْكِها

وبفضلِهِم وحسنِ تدبيرِهمْ هدأَتْ أمورُ الرعايا ، واستَقَرَّتْ أحوالُها ، ولم يبقَ شيءٌ ، يعكِّر صفوَها ، ويؤذيها ، ودامَ حكمُ التُّرْكِ بسكونِها .

١٩ ـ وأعطَتْهُمُ الأمصارُ باليدِ عَنْوةً   ولو عَنِدَتْ ذاقَتْ مرارةَ هُلْكِها

وقدَّمَ أهلُ البلادِ التي حكموها ما فرضوا عليهمْ منْ أموالِ جِزْيَةً مقهورينَ ، ولوِ امتنعوا عن ذلكَ لأطعموهمْ أشدَّ مذاقِ الهلاكِ .

٢٠ ـ فلو لم تعطِهِمْ بعلبكُّ بأرضِها   لَما سَلِمَ التركيبُ في بعلبلِّها

ولو لم يُقَدِّمْ إليهمْ سكانُ بعلبكَّ ما يجعَلُهُمْ محتفظينَ بأرضهمْ ، لَمَا ضَمِنوا الحياةَ الهادئةَ في بلادِهِمْ .

٢١ ـ بهمْ ملةُ الإسلامِ آضَتْ سليمةً   ولم ينْجُ منْ أشراكِهِمْ آلُ شِرْكِها

وبآلِ سُلْجوقَ استقامَتْ سُنَّةُ الإسلامِ ، وسَلِمَتْ ، ولم يَخلُصْ أحدٌ منَ المشرِكينَ منْ يدِ المسلمينَ .

٢٢ ـ لقد أنقذَ اللهُ العبادَ بمُلكِهِمْ كما أُنقِذَتْ أصحابُ نوحٍ بفُلْكِها

وقد نجّى اللهُ ، عزَّ ، وجلَّ ، عبادَهُ بِحُسْنِ تدبيرِ مُلْكِ آل سُلْجوقَ كما نَجَّى أصحابَ نوحٍ بصنعِ السفينةِ .

٢٣ ـ وأقلامُهُمْ فوقَ السيوفِ بِكَتْبِها تُنَسِّكَ آثارَ السيوفِ بِبَتْكِها

وما زالَتْ أحكامُهُمْ ، تُنَفَّذُ بما تكتبُهُ أقلامُهُمْ ، حتى لم يَبْقَ بذهنِ الناسِ ونفوسِهِمْ شيءٌ منْ جروحِ السيوفِ بفضلِ أحكامِها القاطعةِ كلَّ الشكوكِ .

٢٤ ـ تروحُ، وتغدو لِلْموالي ولِلْعِدا سَواعِيَ في حَقْنِ الدماءِ وسَفْكِها

وترى هذه الكتبَ ، تذهَبُ إلى الولاةِ والأعداءِ صباحاً ومساءً جاهدةً لحفظِ الدماءِ منَ الإراقةِ .

٢٥ ـ أفاعيلُ أسلافِ المُظَفَّرِ هذهِ وعارٌ عليهِ أنْ يَهُمَّ بتركِها

وتلكَ هي أعمالُ آباءِ فخرِ المُلْكِ والمُظَفَّرِ بأمرِ اللهِ ، ولو لم يقُمْ بتنفيذِها ، وتركَها ، لكانَ ذلكَ عاراً عليهِ .

٢٦ ـ إليكَ نظامَ المُلْكِ شَكْوايَ، فاسْتَمِعْ إلى بَثِّ مجذوذِ المَعايشِ ضَنْكِها

وإني أتقدمُ إليكَ يا نظامَ المُلْكِ بِشِكايتي راجياً أنْ تُصْغِيَ إلى قولِ منْ ضاقَتْ عليهِ سُبُلُ المعيشةِ ، وانقطعَتْ .

٢٧ ـ طريحِ خطوبِ كلِّ يومٍ ، تنوبُهُ ببائقةٍ ، تُنْحي عليهِ بِبَرْكِها

ومنْ رمَتْهُ المصائبُ التي تأتيهِ يوماً بعدَ يومٍ بشرٍّ ، وتقومُ عليهِ بصَدْرِها وكلِّ قِواها .

٢٨ ـ ولو لم يلِ الضَّبِّيُّ عني عِراكَها لغالَتْ يدُ البَلْوَى أديمي بعَرْكِها

ولو لم يَقُمْ فريدُ العصرِ أبو مضرَ الضَّبِّيُّ شيخي بِرَدِّها عني لَعَظُمَتْ يَدُ المِحْنةِ ، وقَسَتْ على جسمي ، فأهلكَتْهُ .

٢٩ ـ بتضعيفِ إدراري طيوريَ خَبَّرَتْ فقلتُ : طيورٌ مُخْبِراتٌ بِإفكِها

وقد كانَتْ تلكَ المصائبُ والمِحَنُ ، تَنْقُلُ عني أخباراً كاذبةً : أني لسْتُ ذا وَفْرٍ ورِزْقٍ كثيرٍ ، فأقولُ : إنَّ أخبارَها ، لا تَمُتُّ إلى الصحةِ بصلةٍ .

٣٠ ـ وشَكَّكَ نفسي فيه إكداءُ حَظِّها فإنْ شئتَ فليذهَبْ نداكَ بِشكِّها

وكثيراً ما كنْتُ لا أتيَقَّنُ منْ جَودةِ حَظِّي ، فأقولُ : إني لذو حظٍّ فقيرٍ ، وإنْ شئتَ يا فخرَ الملكِ ، فأمُرْ كرمَكَ أنْ يَمْحُوَ شَكَّ نفسي .

٣١ ـ رجوتُ سماءً منكَ أرقُبُ وبْلَها   فـإنْ لـم يكُـنْ وَبْـلٌ فَنَضّـاحُ رَكِّهـا

وإني لآمُلُ منْ سَجاياكَ أنْ تجودَ بعطاياها ، فإنْ لم تكُنْ أُعْطِياتُكَ كبيرةً فإني راضٍ بأنْ تكونَ قليلةً ضعيفةً .

☆☆ ١٢ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في المدحِ :

١ ـ قـالـتْ سعـادُ أحطُـطْ رحـالَـكْ   واردُدْ إلـى المـرعـى جمـالَـكْ

لقد طلبَتْ مني سعادُ أنْ أضعَ أمتعتي عنِ المراكبِ ، وأنْ أُرْجِعَ إبِلِي إلى مَرْعاها .

٢ ـ طَنِّـبْ خيـامَـكَ لـلإقـا   مَـةِ عِنْـدَنـا ، وَدَعِ ارْتِحـالَـكْ

وقالتْ : شُدَّ حبالَ خيامِكَ على أوتادِها لِتُقيمَ في كَنَفِنا ، واتْرُكْ أمرَ رحيلِكَ عنْ منازِلنا .

٣ ـ كـانَـتْ مُنـاكَ وِصـالَنـا   حتّـى تَمَنَّينـا وِصـالَـكْ

وكانَتْ آمالُكَ أنْ نَمُدَّ حبالَ وُدِّكَ ، فصارَتْ آمالُنا أنْ تَمُدَّ أنتَ حبالَ وُدِّنا .

٤ ـ مـا لِلْمَفـاوزِ والتَّطَـوْ   وُحِ فـي مهـالِكِهـا ومـالَـكْ

ما الذي جرى للفلَواتِ ، تُوقعنا في ما يصيبُنا منَ المهالِكِ ؟ وما الذي جَرَى لكَ ؟

٥ ـ لا تَنْصِبَـنَّ أديـمَ وَجْـ   ـهِكَ للسَّموم ، وقِـلْ ظـلالَـكْ

فلا تَجْعَلْ وَجْهَكَ قائماً ، تصيبُهُ ريحُ النهارِ الحارَّةُ ، وأقِمْ شيئاً يكونُ لهُ ظلٌّ ، تستريحُ فيه وقتَ الظهيرةِ .

٦ ـ إيـاكَ أنْ تَـرِدَ الأُجـا   جَ ، وأنـتَ ورّادُ زُلالَـكْ

واحذَرْ منْ شربِ الماءِ شديدِ الملوحةِ ، إنْ كنْتَ ظمآنَ ، واشربِ الماءَ العذبَ الصافيَ سريعَ المرورِ في الحَلْقِ .

٧ ـ إنَّ الـذي لـم يَقْـضِ رَبْـ   ـبُـكَ أنْ ينـالَـكَ لـنْ ينـالَـكْ

فإنَّ قضاءَ اللهِ تعالى مَقْضِيٌّ : إنْ حكَمَ بإصابتِكَ أصابَكَ ، وإنْ لم يحكُمْ بها ، فلا يصيبُكَ شيءٌ .

٨ ـ لـو شـاءَ فـي سَفَـرٍ وفـي   حَضَـرٍ ، أعَـزَّكَ ، أو أذالَـكْ

وإنْ كانَتْ مشيئَتُهُ في سفرِكَ وإقامَتِكَ أسعادَكَ وإعزازَكَ ، يَتَحَقَّقْ عِزُّكَ وسَعْدُكَ ، وإنْ لم

يَشأْ لكَ ذلكَ ، فَستُذَلُّ ، وتُهانُ .

٩ ـ مـــــنْ غيــــرِ أنْ تَتَجَشَّـــــمَ الـ أسفـــــارَ مُطَّـــرِحـــــاً عِيــــالَـــــكْ

وإنهُ ، عزَّ ، وجلَّ ، يكفيكَ تَكَلُّفَ مصاعبِ الأسفارِ وتركِ أولادِكَ في مهبِّ ريحِ الذُّلِّ والعذابِ .

١٠ ـ وشفيقـــــةً شمطـــــاءَ قــــد وصَلَــــتْ بـــدعـــوتِهـــا حبـــالَـــكْ

وزوجتَكَ التي تخافُ عليكَ والتي ظَهَرَ الشيبُ في رأسِها والتي تدعو اللهَ تعالى أنْ يَمُدَّ لكَ حبالَ رحمتِهِ .

١١ ـ فـــإذا جفـــونُـــكَ خـــاطَهـــا طيـــبُ الكَـرَى ، ونَعِمْـتَ بـــالَـــكْ

والتي إذا أطبقَ جفونَكَ حُلْوُ النومِ ، ونَعِمَ حالُكَ .

١٢ ـ قـــامـــتْ تنـــاجـــي اللهَ طـــو لَ الليـــلِ ، تَشْكُـــرُ مـــا أنـــالَـــكْ

صَلَّتْ خاشعةً إلى اللهِ تعالى الليلَ بطولِهِ شاكرةً إياهُ على ما أعطاكَ .

١٣ ـ ومتـــــى أحَسَّـــــتْ فتـــــرةً بـــكَ كيـــفَ لـــو رأتِ اعْتِـــلالَـــكْ ؟

وحين تَشعُرُ بسخونةٍ في جسمِكَ ، أو ترى شيئاً فيكَ ، يدلُّ على سقَمِكَ .

١٤ ـ طـــافَـــتْ مُـــرَوَّعـــةً بِتَفْـ ـــدِيـــةٍ وتَعـــويـــذٍ حَـــوَالَـــكْ

تحومُ حولَكَ خائفةً مُرَدِّدَةً رُقًى ومُقَدِّمةً فِدْيةً ، تَرُدُّ عنكَ ما تَجِدُ منْ مرضٍ ، أو تُخَفِّفُهُ .

١٥ ـ رُوحُ المعيشـــــةِ زائـــــلٌ عنهـــــا إذا سمعَـــــتْ زيـــالَـــكْ

وإذا سمعَتْ خبراً عنْ إرادتِكَ البعدَ عنها أحسَّتْ أنَّ رُوحَ الحياةِ قد زالَ عنها .

١٦ ـ وتُـــرِنُّ مثـــلَ القـــوسِ إنْ سَـــدَّدْتَ مِـــنْ عـــزمٍ نِبـــالَـــكْ

وتصيحُ صيحةً عاليةً ، تعقُبُها شهقَةُ بكاءٍ ، تشبهُ صوتَ القوسِ حينَ تُصَوِّبُ سِهامَكَ تصويباً نابعاً عنْ هِمَّةٍ .

١٧ ـ ألْـــقِ العصـــا فـــي بيتِهـــا وارفـــضْ مسيـــرَكَ وانتقـــالَـــكْ

فارمِ عصا الترحالِ في بيتِها مُطَمْئِناً إياها ، ولا تقبَلْ سفراً عنها أوِ ابتعاداً .

١٨ ـ اللهُ حسبُـــــكَ ثـــــم عبـ ـــدُ اللهِ ، فـــاقعُـــدْ ، لا أبـــالَـــكْ

واعلَمْ أنَّ اللهَ مُجْزيكَ بذلكَ الجزاءِ مُسَخِّرٌ عبدَ اللهِ فخرَ المعالي ، وأقِمْ في بلدِكَ ، فإنَّ أباكَ ليسَ مذموماً .

١٩ ـ فخـــرَ المعـــالـــي أسْتَـــديـ ـــمُ اللهَ لِلـــدُّنيـــا جَمـــالَـــكْ

وإني لأدعو اللهَ تعالى يا فخرَ المعالي أنْ يجعلَ جَمالَ أعمالِكَ دائماً دَوامَ الدنيا .

٢٠ ـ أبقـــاكَ فـــي شَـــرَفٍ ، ومـــنْ عيـــنِ الـــزمـــانِ وَقَـــى كَمـــالَـــكْ

وأنْ يُبْقِيَكَ في عزٍّ وأنْ يَحْمِيَكَ منْ عينِ الزمانِ الحاسدةِ وأنْ يَحْفَظَ كمالَ حُكمِكَ .

٢١ ـ فخـــرَ المعـــالـــي أنْـــتَ أنْـ ـــتَ اليـــومَ ، فـــافعَـــلْ مـــا بـــدا لَـــكْ

ويا فخرَ المعالي أنتَ اليومَ فَخْرٌ للمعالي ذو حُرِّيَّةٍ كاملةٍ ، فافْعَلْ ما يَحْلو لكَ .

٢٢ ـ إنْ كـــانَ آلُـــكَ شَـــرَّفـــو كَ فـــإنمـــا شَـــرَّفْـــتَ آلَـــكْ

وإنْ ظنَّ أهلُكَ أنهم رفعوكَ ، وجعلوكَ سيِّداً ، فقد رفَعْتَهُمْ أنتَ ، وجعلْتَهُمْ أسياداً بفضلِكَ .

٢٣ ـ شَهَّـــرْتَ فـــي الأعمـــامِ عَمْـ ـمَـــكَ ثـــم الأخْـــوالِ خـــالَـــكْ

وجعلْتَ عمَّكَ شهيراً بينَ المشهورينَ منَ الأعمامِ وخالَكَ معروفاً بينَ المعروفينَ منَ الأخوالِ .

٢٤ ـ إنَّ الملـــوكَ بِـــأَسْـــرِهِـــمْ تفـــدي عمـــائِمُهُـــمْ فِعـــالَـــكْ

وإنَّ الملوكَ كُلَّهُمْ ، يجعلونَ رؤوسَهُمْ فداءَ أفعالِكَ .

٢٥ ـ أيمـــانُهـــمْ عَجـــزتْ ، فلـــم تَبْلُـــغْ بـــأجمعِهـــا شِمـــالَـــكْ

وقد قَصُرَتْ أيديهُمُ اليُمْنَى ، فلم تستطِعْ مجتمعةً أنْ تَصِلَ إلى ما تقومُ به شِمالُكَ .

٢٦ ـ ليسَـــتْ شمـــوسُهُـــمْ إذا طَلَعَـــتْ بِمُخْفِيَـــةٍ هِـــلالَـــكْ

ولا تَستطيعُ أنوارُ شموسِهِمْ وأعمالِهِمْ إذا أضاءتِ الآفاقَ أنْ تَخْسِفَ قمرَكَ ، وهو هلالٌ .

٢٧ ـ لـــو ساجلـــوكَ ، لأمسكـــوا فـــالبحـــرُ لا يكفـــي سِجـــالَـــكْ

لو أرادوا أنْ يُفاخروكَ ، لانصرفوا عنْ مُفاخرتِكَ لأنهمْ ، يعلمونَ أنكَ مُحيطٌ ، والبحرُ لا يُقارَنُ بِمُحيطِكَ .

٢٨ ـ هـــبْ أنهـــمْ وجَـــدوا مَحَلْـ ـلَـــكَ فـــي الـــوزارةِ أو جَـــلالَـــكْ

واحْسَبْ أنهمْ وجدوا مَنْ هو كُفْءٌ بمنصِبِ الوزارةِ أو بمنزلتِكَ .

٢٩ ـ لا فخـــرَ أنْ يجـــدوا مَحَلْـ ـلَـــكَ حيـــنَ لـــم يَجـــدوا خِصـــالَـــكْ

فإنهمْ لنْ يجدوا فَخْراً لهمْ في مَنْ يَحُلُّ مَحَلَّكَ إذْ لا أحدَ يَتَحَلَّى بصفةٍ منْ صِفاتِكَ .

٣٠ ـ أنـتَ الحسـامُ تَجـارِبُ الـ أيّـامِ قـد وَلِيَـتْ صِقـالَـكْ

وإنكَ لأنتَ السيفُ ، قامَتِ اختباراتُ الأيامِ بجلائِكَ .

٣١ ـ وقـد اعتَـدَلْـتَ ، فقـامَ رُمْـ ـحُ المُلْـكِ ، يَعْتَـدِلُ اعْتِـدالَـكْ

وقد اسْتَقَمْتَ ، فاستقامَ سلاحُ المُلْكِ استقامَتَكَ .

٣٢ ـ لـم تَحْتَمِـلْ أعبـاءَكَ الـ ـهَضَبَـاتُ مِـنْ رَضْـوَى احْتِمـالَـكْ

لم تَسْتَطِعْ رَبَوَاتُ جبلِ رَضْوَى ، جبلِ المدينةِ المنورةِ أنْ تقومَ بِحَمْلِ أثقالِ مُلْكِكَ .

٣٣ ـ صُنْـتَ الـرعـايـا مُـؤْثِـراً مِـنْ أجـلِ صَـونِهِـمُ ابتِـذالَـكْ

حَفِظْتَ حقوقَ أفرادِ رعيتِكَ مفضِّلاً إياها على نفسِكَ حفظاً لكرامتِكَ وخوفاً منْ تَجَرُّئِهِمْ عليها .

٣٤ ـ ليـسَ الطـريـقُ إلـى فَـرا غِ قلـوبِهـمْ إلاّ اشْتِغـالَـكْ

لأنَّ الطريقَ الوحيدَ إلى مَلْءِ قلوبِهِمْ بحبِّكَ واحترامِكَ ، هو اهتمامُكَ بأمورِهِمْ وإرضاؤُكَ إياهُمْ .

٣٥ ـ هَبَّـتْ ريـاحُـكَ لـي فلـم أذمُـمْ صَبـاكَ ولا شِمـالَـكْ

وقدِ اتَّجَهَتْ عطاياكَ نحوي بطيبِ رياحِها ، فأفضْتُ بِمَدْحِ هبوبِها صَباً ودَبوراً .

٣٦ ـ لـم أخـشَ صـولاتِ الـزمـا نِ لأنـهُ ، يَخْشَـى صِيـالَـكْ

ولم أخَفْ يوماً حَملاتِ الزمانِ عليَّ لأني أعلمُ أنَّ الزمانَ يخافُ مِنِ اسْتِطالتِكَ عليه .

٣٧ ـ نـاضَلْتَـهُ دونـي ، فـأدْ بَـرَ إذْ رأى دونـي نِضـالَـكْ

وكنتَ قد حاربْتَ الزمانَ مدافعاً عني ، فتراجعَ القَهْقَرى عنْ عذابي حينَ وَجَدَكَ مقاتلاً شديداً ، لا يستطيعُ قتالَكَ .

٣٨ ـ نَفَـذَتْ نِصـالُـكَ فـي مَقـا تِلِـهِ ، فمـا أمضـى نِصـالَـكْ !

وقد أصابَتْ سِنانُ أسلحتِكَ جسْمَهُ ، واختَرَقَتْ أمكِنَةَ مَقْتَلِهِ ، فما أقْطَعَ سِنانَكَ !

٣٩ ـ رُمْـتُ الـرحيـلَ ، فَقُلْـتَ : لا تـرحَـلْ ، ومَـنْ يعـدُو مَقـالَـكْ ؟

وكنتُ قد أزمَعْتُ على السفرِ ، فَقُلْتَ لي : لا تُسافِرْ فإنَّ ساحَةَ العلمِ والأدبِ ، لا يَشْغَلُها إلاّ قولُكَ .

٤٠ ـ فعَقَلْتَنـي بـالبِـرِّ ، لا أطلقْـتَ عـن رِجْلـي عِقـالَـكْ

فَجَعَلْتِني أُحْجِمُ عنِ الرحيلِ بعطائِكَ وإكرامِكَ إيّايَ ، ولم تَتَّخِذْ عزمي على السفرِ

فرصةً لِلتَّخلُّصِ مِنِ ارتباطي بكَ .

٤١ ـ أدْرَرْتَ لـــي ، للهِ دَرُّ يَـدَيْـكَ ، مـا أسنـى فَعـالَـكْ !

وأرسَلْتَ إليَّ أعطياتِكَ تِباعاً ، أعطاكَ اللهُ تعالى عطاءً ، لا ينقطعُ ، فما أرفعَ وما أعظمَ عَمَلَكَ !

٤٢ ـ فَكَفَيْتَنـي أنْ أســألَ الـقـومَ الأُلَـىٰ عَـدِمـوا خِـلالَـكْ

وجَعَلْتَني موفوراً بعطائِكَ غيرَ مُحْتاجٍ إلى الطلبِ منَ الذينَ حُرِموا طِباعَكَ الكريمةَ .

٤٣ ـ وسـؤالُ كـلِّ النـاسِ شَيـنٌ للفتـى إلاّ سـؤالَـكْ

والطلبُ منْ كلِّ الناسِ عَيبٌ وعارٌ على الفَتىٰ إلاّ الطلبَ منكَ .

٤٤ ـ ومَنَنْـتَ ثـانيـةً ، وَدَأْبُـكَ أنْ تُثَنِّـيَ لـي نَـوالَـكْ

وأنعَمْتَ عليَّ مَرّةً ثانيةً ، وعادَتُكَ أنْ تجعَلَ عطاءَكَ لي مُتكَرِّراً .

٤٥ ـ إذ نُطْـتَ أمـري بـامْـرِئٍ مُتَقَيِّـلٍ فيـه مِثـالَـكْ

حينَ أوصَيْتَ فلاناً بي جَعَلْتَ أمري وشأني مرتبطاً به ، يرفَعُني منْ كَبْوَتي ، ويُساعِدُني مثلَ مساعَدَتِكَ إيّايَ .

٤٦ ـ ليـسَ السحـابُ إذا حَـدَتْـهُ الـريـحُ يَنْهَمِـلُ انْهِمـالَـكْ

ولم تكُنِ السحُبُ الحاملةُ المطرَ إذا ساقَتْها الريحُ ، تَسْكبُ أمطارَها مثلَ سكبِ أُعطياتِكَ .

٤٧ ـ مِـنْ أيـنَ يحكـي جـودُهُ وغـزيـرُ وابِلِـهِ طِـلالَـكْ ؟

مِنْ أيةِ جهةٍ يكونُ السحابُ السَّخِيُّ بأمطارِهِ الغزيرةِ شبيهاً بأُعطياتِكَ المتتابعةِ ؟

☆☆ ١٣ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في المدحِ :

١ ـ شمسَ الأئمةِ لا تكُـنْ مُسْتَعْظِمـاً عيـداً فـأعيـادُ الـوَرَى أيـامُـكْ

يا شمسَ الأئمةِ لا تَستكبِرْ أمرَ عيدٍ ، يأتي عليكَ ، فإنَّ أعيادَ الناسِ ، هي أيّامُكَ التي تقومُ بها بالمكارِمِ .

٢ ـ ومُرِ الزمـانَ بمـا تشـاءُ يَطِـرْ إلـى تنفيـذِ أمـرِكَ ، فـالـزمـانُ غُـلامُـكْ

وافرِضْ على الزمانِ ما تريدُ تَرَهُ ، يسرعُ إلى تحقيقِ ما أردْتَهُ ، فإنَّ الزمانَ عبدٌ منْ عبيدِكَ .

٣ ـ لـم يَـدَّخِـرْ عنـكَ الإلـهُ فضيلـةً إلاّ حبـاكَ بهـا ، فَتَـمَّ تَمـامُـكْ

لم يَمْنَعِ اللهُ تعالى عنكَ مَكْرُمةً إلاّ أعطاكَ إياها ، حتى كَمُلَ لكَ الكمالُ .

☆☆ ١٤ ـ وقالَ على بحرِ السريعِ في المدحِ :

١ ـ ليتَ الصَّبا تَحْمِلُ عني ألوكْ إلى المقيمينَ بخَبْتَي دَلوكْ

كم أتمنّى أنْ تَحْمِلَ ريحُ الصَّبا رسالتي إلى سُكانِ خَبْتَي دَلوكَ (أرضِ حَلَبَ) المقيمينَ بها .

٢ ـ كانوا شموساً طَلَعَتْ بالغَضَى ثم أرادَتْ في دَلوكَ الدُّلوكْ

لأنهمْ كانوا شموساً، نَوَّرَتْ أرضَ الغَضَى، ثم لما أرادوا الرحيلَ غابتْ شمسُ السماءِ عنها .

٣ ـ نَواهُمُ تَنْهَكُ مغْناهُمُ كما بجسمي مِنْ نَواهُمْ نُهوكْ

وإنَّ ابتعادَكَ ، يَجْعَلُ مرابعَ الناسِ قحيطةً كما يجعَلُ جسمي ضعيفَ القِوَى .

٤ ـ دارَ الغضى أذكَيتِ نارَ الغَضَى في كَبدي لمّا مَضَى ساكنوكْ

فيا دارَ أهلِ الغَضَى ، أهلِ نجدٍ : بني كلابٍ لقد ألهَبْتِ نارَ الغَضَى سريعِ الاِشتِعالِ في قلبي حينَ رحلَ أهلوكِ .

٥ ـ أبعدَ سَحْبِ البيضِ أذيالَهَا تسحَبُ فيكِ الذيلَ ريحٌ سَهوكْ ؟

أتَجُرُّ ريحٌ عاصفةٌ شديدةٌ أطرافَها بعدَ أنْ رأتْ فتياتِ الغَضَى البيضَ ، تَجُرُّ أذيالَها ، وهي راحلةٌ ؟

٦ ـ أمِنْ كلِّ رُودٍ أنا أبكي على هِجْرانِها لي ، وهي مني ضَحوكْ ؟

هلْ قُدِّرَ عليَّ أنْ أبكيَ كلما نأتْ عني شابةٌ حسناءُ ضاحكةً ؟

٧ ـ شَميمُها أبلغُ في الطيبِ مِنْ شَمِّ عبيرٍ بسواها يَصوكْ

وإنَّ مَنْ يَتَنَسَّمْ رائحتَها يَجِدْها أحلى منْ كلِّ رائحةٍ كانَ متعلِّقاً بها .

٨ ـ تسوكُ بالإسْحِلِ فاها فكم عودٍ يُنادي : ليتَها بي تَسوكْ

تَحُكُّ أسنانَها بعودِ نباتِ الإسْحِلِ، وكم منْ عودٍ صاحَ : ليتَها تأخذُني، وتفرُكُ أسنانَها بي .

٩ ـ تلكَ التي تُنْسي البرايا سِوَى مُنْتَجَبِ المُلْكِ صَفِيِّ الملوكْ

وهي التي تجعَلُ الناسَ ، يَسْلُونَ ما يعلمونَ إلاّ مُنْتَجَبَ المُلْكِ محمدَ بنَ أَرْسَلانَ أَنْقَى الملوكِ سَجيّةً .

١٠ ـ ما زالَ عِزْهاةً عنِ اللَّهوِ في عِفَّةِ أوَّابٍ وتَقْوى نَسوكِ

كانَ ، وما زالَ عازباً عنِ النساءِ بعيداً عنِ اللهوِ ذا أنفةٍ تائباً إلى اللهِ ومخافةِ عابدٍ .

١١ ـ كأنما اللَّهْوُ وحوباؤُهُ مُفَرَّكٌ تَنْفِرُ عنهُ فَروكْ

حتى صارَ ، وصارَتْ نفسُهُ ، كالرجلِ الذي لا تميلُ إليهِ النساءِ ، ويَبْغُضْنَهُ ، ويبتعِدْنَ عنهُ بسببِ كرهِهِنَّ إياهُ .

١٢ ـ آبـي الخَنـا ، آتٍ بـأضـدادِهِ للخيــرِ والشَّــرِّ فعــولٌ تَــروكْ

تاركُ الفُحْشَ ، فاعلٌ كلَّ ما هو مخالفٌ لهُ ، مُحِبٌّ الخيرَ ، عافٍ عنِ الشَّرِّ .

١٣ ـ إنَّ القطـاةَ ؛ الصـدقُ هَجِّيرُهـا وهــي إذا قيســتْ إليــه أفــوكْ

وهو ذو نفسٍ ، تشبهُ نفسَ القطاةِ ؛ الصدقُ عادتُها ، وإذا قورنَتْ به رأتْ أنهُ الصادقُ ، وهي الكذوبُ .

١٤ ـ حـامَى مـنَ الـدنيا على نفسِهِ وكــلُّ بــرزٍ ، يَتَحــامــى الهلــوكْ

ابتَعَدَ عنِ الدنيا وزينَتِها وعن كلِّ شيءٍ ، يسوقُهُ إلى الهلاكِ خوفاً على نفسِهِ .

١٥ ـ مـا شَـمَّ ريـحَ الـراحِ فـي عُمْـرِهِ واتَّخَــذوا لابْــنِ الـوليـدِ الـدَّلـوكْ

ما شَمَّ رائحةَ الخمرِ في حياتِهِ ، وقد صَنَعَ الناسُ لمسلمِ بنِ الوليدِ أصنافَ الخمرةِ التي كانَ يَمْسَحُ بها جسمَهُ .

١٦ ـ ذو همَّــةٍ مــرتفــعٍ سَمْكُهــا تَحْسُـدُهــا الخضــراءُ ذاتُ السُّمــوكْ

وهو ذو عزيمةٍ ، تعلو نحوَ السماءِ الخضراءِ التي تريدُ أنْ تكونَ مثلَها في حُبِّ العُلُوِّ .

١٧ ـ لِكَفِّــهِ فــي مــالِــهِ غَــزوةٌ تُنْســي التــي كــانَــتْ بِجَنْبَــي تَبـوكْ

وكأنَّ كَفَّهُ ، يرى في تفريقِ مالِهِ ذهاباً إلى قتالِ العدوِّ ، فيُنْسيهِ ما كانَ منْ قتالٍ في سبيلِ اللهِ في طَرَفي تَبوكَ .

١٨ ـ كَـفٌّ سَفـوحٌ فـي مَقـامِ النَّـدَى وفــي رَحَــا الهيجــاءِ سيـفٌ سَفـوكْ

ويَدُهُ مبسوطةٌ في العطاءِ ، كأنها تريقُ الماءَ ، وقابضةٌ جيّداً سيفَهُ المُريقَ دمَ الأعداءِ في ميدانِ الحرب .

١٩ ـ لـم يَتَـوطَّــأْ عَقِبَيــهِ امــرؤٌ إنَّ طـريــقَ المجـدِ صعــبُ السُّلـوكْ

لم يستطعْ أحدُ أنْ يسيرَ مثلَ سيرتِهِ لأنَّ طريقَ العُلَا عسيرٌ مسيرُهُ .

٢٠ ـ في جـودِهِ في حِلْمِـهِ في التُّقَـى فــي العلــمِ أيقَنّــا ، وزالَ الشُّكــوكْ

وقد عَلِمْنا علمَ اليقينِ أنهُ ذُروةٌ في الكرمِ والعقلِ وخوفِ اللهِ ، عَزَّ ، وجَلَّ ، وانمحتِ الظنونُ والشكوكُ منْ أنفسِنا في منزلتهِ .

٢١ ـ للهِ نجــمٌ ؛ فَمْهُــهُ صــائــغٌ ثَقِـفٌ لِعِقْيــانِ القــوافــي سَبــوكْ

وإني لأدعو اللهَ أنْ يحفظَ هذا الرجلَ الذي هو كالنجمِ في السماءِ ؛ ذو عقلٍ مستقيمٍ وفطنةٍ ، تختارُ الألفاظَ المناسبةَ للمعاني والقوافي ، وتنظُمُها في بحورِ الشعرِ كما تُنْسَقُ

اللآلئُ وقطعُ الذهبِ في القلادةِ .

٢٢ ـ وناسجُ أفوافَ وَشْيٍ لهُ سُخْرِيَّةٌ منْ كلِّ وشيٍ مَحوكْ

وذو خبرةٍ في نسجِ أثوابِ اليمنِ وزينتِها ، تَسْتَهْزئُ بكلِّ ما نُسِجَ وحِيكَ وزُيِّنَ .

٢٣ ـ مُسْتَبْضِعُ الشعرِ إلى مثلِهِ لِسِتْرِهِ المُرخَى عليهِ هَتوكْ

وقد اتَّخَذَ الشعرَ بضاعتَهُ ، فكانَ حاذقاً في نظمِهِ ، فإنْ أرادَ امرؤٌ أنْ يصوغَ شعراً ، يشابهُ نظمَهُ ، مَزَّقَ أصولُ الشعرِ أستارَهُ .

٢٤ ـ ها إنَّ إطراءَكَ في طيبِهِ مِسْكٌ سحيقٌ وعبيرٌ مَدوكْ

وإنَّ حُسْنَ ثنائِكَ عليهِ ، هو مِسْكٌ مسحوقٌ بالحجرِ الذي يُسْحَقُ بهِ الطيبُ ، ذو رائحةٍ ، بلغَتْ مُنتهى الجَودةِ .

٢٥ ـ لستُ بذي عقلٍ فَهْمٍ كليلِ الشَّبا ولا بفأفاءٍ لساني ألوكْ

وإني لستُ بذي عقلٍ ضعيفِ التفكيرِ كالسيفِ المثلومِ ، وليسَ لساني ، يُكثِرُ منْ ترديدِ الفاء ، كأنهُ يمضَغُ الكلامَ .

٢٦ ـ بَتْكُ حبالي عنكَ ما اختَرْتُهُ وإنما الدهرُ قطوعٌ بَتوكْ

ولم أقصِدْ يوماً أنْ أقطَعَ حبلَ وِدادي بكَ ، بل هو الدهرُ الذي يقطَعُ كلَّ موصولٍ .

٢٧ ـ ما قرَّ بي منْ حسرةٍ مَضْجَعٌ كأنما تحتي قَتادٌ يَشوكْ

وما هدأَ لي جسمٌ على مرقدٍ لشدةِ حزني ، وكأنَّ سريري شوكٌ صلبٌ ، يَخِزُني بإبَرِهِ .

٢٨ ـ نَصَحْتَني نُصْحَ أبٍ لابنِهِ لأنَّ أهلَ الفضلِ طُرًّا بَنوكْ

وكنْتَ قد أرشَدْتني إرشادَ أبٍ لابنِهِ لأنكَ ترى أنَّ أهلَ الفضلِ كلَّهُمْ أولادُكَ .

٢٩ ـ وكُنتَ ذا حزْمٍ ، تَقَبَّلْتُهُ ولم أشايعْ أهلَ زيغٍ ونُوكْ

وكُنتَ ذا عقلٍ ونَصيحةٍ ، فَقَبِلْتُ نُصْحَكَ ، ولم أوالِ أهلَ هَوًى وحَمْقَى .

٣٠ ـ يا ليتَ شعري ، والمُنى ضِلَّةٌ هل بخراسانَ لِعَنْسي بَروكْ

ليتني أعلمُ ، وقد ضاعتْ مني الآمالُ ، أنَّ لناقتي القويةِ مكاناً ، تقيمُ به في أرضِ خراسانَ .

❊ ❊ ❊

حرف اللام/ ٤٣٠/ بيتٍ

☆☆ ١ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في المدحِ :

١ ـ تركوا اليماني مُغْمَداً ، لن يُنْتَضَى إلاّ إذا قُضِيَ انقضاءُ الأُولَى

لقد أطاعَ الناسُ اليمنيَّ ، فلم يُجْبِروهُ على قتالِهِمْ ، فكانَ كالسيفِ اليمنيِّ في غمدِهِ ، لم يُسَلَّ ، وسيبقَى مستوراً في غمدِهِ إلى أنْ يأتيَ القضاءُ ، وتنتهيَ حياتُهُ .

٢ ـ فعلَ اليماني بالجوانِح مُغْمَداً فعلَ اليماني بالطُّلَى مَسْلولا

أطاعَ الناسُ اليمنيَّ لأنهُ قامَ بأعمالٍ قرَّبَتْهُ منْ قلوبِهِمْ ، وأخضعَتْ رقابَهُمْ ، وأمالَتْها كمَيلِ الرقابِ بضربِ السيوفِ .

٣ ـ عَضْبٌ يمانٍ غيرَ أنَّ فِرِنْدَهُ فضلٌ يُريكَ الفاضلينَ فُضولا

وهو ليِّنُ الجانب يَمَنِيٌّ ، لكنَّ سيفَهُ ذو شِدَّةٍ ، زادَتْ شِدَّةَ السيوفِ حِدَّةً ، يصنِّفُ الناسَ ، ويُمَيِّزُ الكرامَ عنِ السَّفَلَةِ .

٤ ـ لَسْنا بناسينَ ابنَ ناسينَ الذي ما كانَ عَقْدُ ولائِهِ مَحلولا

ولا تستطيعُ أفكارُنا أنْ تترُكَ ذكرَ ابنِ ناسينَ اليمنيِّ لأنه ، يحفظُ عهودَهُ ، ولا يَنْكُرُ ذِمَّةً ، قطعَها على نفسِهِ .

٥ ـ كانَ الأتاويَّ الغريبَ ، ولم يكنْ أدنى الأداني قَبْلَهُ مَقبولا

كانَ في الكرمِ السيلَ الغريبَ الذي لم يُعْهَدْ مثلُهُ ، ولم يكُنْ أقربُ المُقَرَّبينَ الذي مَلَكَ الأمورَ قبلَهُ ، مرضِيَّةً أعمالُهُ .

٦ ـ مُتَفَكِّهاً حلوَ الحديثِ ، ولم يكنْ غَثّاً ثقيلاً ظلُّهُ مَمْلولا

وكانَ ذا منطقٍ عذْبٍ وحديثٍ فَكِهٍ ، ولم يكنْ كَلامُهُ ضعيفاً ركيكاً ، وما كانَ ظِلُّهُ ثقيلاً ، يهربُ الناسُ منْ مجالستِهِ .

٧ ـ في نحوِهِ في شعْرِهِ في خَطِّهِ ما كانَ مُفْتَنٌّ بهِ معدولا

وكانَ أديباً حاذقاً في نثرِهِ وشعرِهِ ورسمِ خَطِّهِ ، وقد أُعجِبَ الناسُ به إعجاباً ، لم يجعلْهُمْ ، يميلونَ عنِ الصوابِ والحقِّ .

☆☆ ٢ ـ وقالَ على بحرِ المُتقاربِ في الفخرِ :

١ ـ بِضَـرْبِ الطُّلَـى وطعـنِ الكُلَـى أصـابَ الأُلَـىٰ نهضـوا للعُـلا

يقولونَ : إنَّ فلاناً أرادَ أنْ يكونَ ذا عِزٍّ ، فقاتلَ الذينَ قاموا للأمجادِ ، فضربَ رقابَهُمْ بالسيوفِ وطعنَ كُلاهمْ بالرماحِ .

٢ ـ فـإنْ كُنْـتَ ، تطلُـبُ أنّـى أنـا ؟ فخـلِّ الهُـوَيْنـىٰ ، وإلاّ فـلا

فإنْ كنتَ أيها الرجلُ ، تسألُ عني ، فاترُكِ التثاقُلَ ، وأسْرِعْ إليَّ ، وإنْ لم تبادِرْ إلى ما أمرتُكَ فَبِهِ ، ونِعْمَ ، وإلاّ فلن تراني أبداً .

☆☆ ٣ ـ وقالَ على بحرِ السريعِ في المدحِ :

١ ـ جَـرَّ ظهيـرُ المُلْـكِ مـنْ تِيهِـهِ علـى الطِّبـاقِ السبـعِ أذيـالَـهُ

لقد بلغَ الفخرُ في نفسِ ظهيرِ الملكِ غايةً ، جعلَتْهُ ، يسحَبُ أطرافَ ثيابِهِ مَزْهُوًّا على السمواتِ السبع .

٢ ـ وكيـفَ لا يعظُـمُ تيـهُ امـرئٍ يكسـو أخـا الـرئبـالِ سِـرْبـالَـهُ ؟

وكيفَ لا يكبُرُ فخرُ فلانٍ ، يُقَدِّمُ لأخي الأسدِ وصاحِبِهِ رداءَهُ ؟

٣ ـ أشبَهَـهُ الفضـلُ خـلا أنـهُ لا فضلَـهُ حـازَ وإفضـالَـهُ

وقد تَشَبَّهَ به المجدُ ، لكنهُ لم يستطِعْ أنْ ينالَ شيئاً منْ سجاياهُ أو منْ أُعطياتِهِ .

٤ ـ أمثـالُهُـمْ قَلَّلَهُـمْ ربُّـهُ سبحـانَ مـنْ قلَّـلَ أمثـالَـهُ

وكان ، وما زالَ ربُّ العالمينَ ، يُقَلِّلُ عددَ من يرتقونَ مناصبَ العلمِ والفقهِ واللغةِ ، ولا يُكَثِّرُهُمْ ؛ فسبحانَهُ ، جلَّ جلالُهُ ، مُقَلِّلاً ومُكَثِّراً أمثالَ كلِّ شيءٍ .

٥ ـ عُـذّالُـهُ فـي الجـودِ إنْ أسـرفـوا فـي عَـذْلِـهِ بَكَّـتَ عُـذّالَـهُ

وإنْ أنحى لُوّامُهُ عليهِ بالملامةِ لكثرةِ جودِهِ وعطائِهِ ، عَنَّفَهُمْ ، وشَدَّدَ توبيخَهُمْ .

٦ ـ وقـامَ فـي أوجُهِهِـمْ منشـداً : كـلُّ امـرئٍ مستـودَعٌ مـالُـهُ

وألقى أمامَهُمْ قصيدةً ، مَفادُها : كلُّ إنسانٍ وعاءُ ما يملِكُ .

☆☆ ٤ ـ وقالَ على بحرِ الوافرِ في المدحِ :

١ ـ تعاطى القوسَ باريها ، ونيطَتْ بعـاتـقِ صيقَـلِ السيـفِ الحِمـالَـهْ

لقد حملَ القوسَ صانِعُها ، وعُلِّقَتْ بكتفِ شَحّاذِ السيوفِ عِلاقةُ السيفِ .

٢ ـ وقـد سـاسَ الـوزارةَ أحْـوَزِيٌّ عـريـقٌ فـي السيـاسـةِ والإيـالَـهْ

ودَبَّر أمورَ الوزارةِ رجلٌ حاذقٌ أصيلٌ في قيادةِ الناسِ ووضعِ الأمورِ في مواضِعِها .

٣ ـ بِثَدْيِ العِزِّ كانَ لهُ ارتضاعٌ وكانَ النَّشْءَ في حِجْرِ الجَلالَهْ

وكانَ قد ارتضَعَ ثَدْيَ المجدِ ، ونما في حضنِ العظمةِ .

٤ ـ فلا العلياءُ ، أدركَها حديثاً ولا وَرِثَ الجلالَةَ عنْ كَلالَهْ

ولم تكُنِ الأمجادُ جديدةَ العهدِ لديهِ ، ولم يأتِهِ إرثُ العظمةِ عنْ قرابةِ مَنْ لا ولدَ لهُ ولا والدٌ ، وإنما كانَ إرثاً عن قرابةٍ لاصقةٍ لَحًّا .

٥ ـ وتركُ تَقَيُّلِ الآباءِ في ما أتوهُ عَثْرَةٌ ، تأبىٰ الإقالَهْ

وتركُ التَّشَبُّهِ بالآباءِ في ما عملوا خطأٌ ، لا يَحْتَمِلُ التصحيحَ والتصويبَ .

☆☆ ٥ ـ وقالَ على بحرِ الخفيفِ في الفخرِ والشكوى والنصح :

١ ـ شَمَّرَتْ بي عزيمةٌ مُشْمَعِلَّهْ ونجاةٌ منَ القِلاصِ شِمِلَّهْ

تَهَيَّأَتْ لي همَّةٌ نشيطةٌ وناقةٌ سريعةٌ ، تحرِصُ على راكبِها .

٢ ـ كهبوبِ الشَّمالِ فيها هَبابٌ فهي من صيغةِ الشَّمالِ فِعِلَّهْ

وإذا أسْرَعَتْ فإنَّ سرعتَها ، تشبهُ سرعةَ ريحِ الشَّمالِ ، وتؤكِّدُ أنها منْ طينةِ الشَّمالِ بِفِعْلها .

٣ ـ وإذا الآلُ خَبَّ في البيدِ خَبَّتْ لا تَمَسُّ الإمَامَ إلاّ تَحِلَّهْ

وإذا أسرعَ السرابُ في الفَلَوَاتِ ، فإنها تَعْدو فيها ، وتصعَدُ التلالَ ، فلا تَلْمَسُها بأخفافِها إلاّ لَمْساً رفيقاً .

٤ ـ مَرَحَتْ في العِنانِ ، وهي لَعوبٌ تَتَلَقَّى السُّرَى بنفسٍ مُدِلَّهْ

وتراها ، تختالُ بلجامِها ، كأنها تلعبُ بهِ ، وتستقبِلُ سيرَ الليلِ بنفسٍ راضيةٍ .

٥ ـ فوقَها كالحسامِ ، ما بِيَدَيْها منْ كَلالٍ ، ولا بِحَدَّيهِ كِلَّهْ

ويركبُها فتىً نشيطٌ مطمئِنٌّ إلى قوَّةِ قَدَمَيها الأماميَّتَينِ وإلى حِدَّةِ سيفِهِ السليمِ منَ الثُّلَمِ .

٦ ـ مستديمُ الأسفارِ ، قد أكَلَتْهُ مثلَ ما تأكُلُ الليالي الأهِلَّهْ

لا ينقَطِعُ عنِ السفرِ والمتاعبِ التي نالَتْ منهُ كما تنالُ الليالي منَ القمرِ في أهلَّتِهِ .

٧ ـ كلَّ يومٍ ركابُهُ مُثْقَلاتٌ كلَّ يومٍ خيامُهُ مُسْتَقِلَّهْ

ففي كلِّ يومٍ يَتَهَيَّأُ للسفرِ ، فَيَحُطُّ أحمالَهُ على ظهورِ إبلِهِ ، وينزِعُ أوتادَ خيامِهِ .

٨ ـ ما تَذَرَّى السَّنامَ مَنْ لم تُثِرْهُ عِزَّةُ النفسِ عنْ مُقامِ المَذَلَّهْ

وما علا ظهرَ الجملِ منْ لم تَهِجْهُ عِزَّةُ نفسِهِ التي تأبى الذُّلَّ والهوانَ .

٩ ـ فَدَى الصلتَ كالحصانِ المجلِّي   فــي لقــاءِ الشــدائــدِ المضمحِلَّــهْ

وقدَّمَ الفتى الشجاعَ لمواجهةِ الصعابِ المختلفةِ كما يُقدِّمُ الحصانَ السابقَ في المضمارِ .

١٠ ـ كلمـا ضـجَّ صحبُـهُ مـنْ فَيـافٍ   لَــوَّحَتْــهُ ومـــنْ مَهـــاوٍ مُضِلَّـــهْ

فكلَّما ضاقَ رفاقُهُ مِنْ سَعَةِ الصحاري التي أهْزَلَتْهُ ، وأهْزَلَتْهُمْ ، ومِنْ شعابٍ تُضَيِّعُهُمْ .

١١ ـ قالَ : لَوحُ الهجيرِ عنديَ رَوحٌ   ومَظَـــلُّ الحِـــرْبـــاءِ مِظَلَّـــهْ

رَدَّدَ قولَهُ : هواءُ نصفِ النهارِ ذو الحرارةِ الشددةِ نسيمٌ ، أَسْتَرْوِحُ بهِ ، وفَيْءُ الحِرْباءِ ، أتَّخِذُهُ مِظَلَّةً .

١٢ ـ بـالـذي عـاشَ مُتْـرَفـاً يَتَمَطَّـى   يَـرْمَـحُ الـذيـلَ كـالفتـاةِ الـرَّفِلَّـهْ

منْ أجلِ حياتِهِ التي نَعِمَ فيها ؛ كانَ يُمَدِّدُ جسمَهُ إذا جَلَسَ ، ويدفَعُ ذيلَ بُرْدِهِ كالفتاةِ التي تَجُرُّ ذيلَ إزارِها مختالَةً ، إذا سارَ .

١٣ ـ ضَـرَبَـتْ دوحـةُ النعيـمِ عليهـا   فَيْئَهـــا ، فهـــي تحتـــهُ مُسْتَظِلَّـــهْ

وقد ألقَتْ شجرةُ السعادةِ على حياتِهِ ظلَّها ، فكانتْ مُسْتَتِرَةً بهِ .

١٤ ـ قُلْ لباغي الصديقِ : رُمْتَ عزيزاً   مـــا أَقَـلَّ الصـديـقَ فـوقَ المُقِلَّـهْ

وقُلْ لمنْ يبحثُ عنِ الصديق : لقد طلبْتَ أمراً عزيزاً غالياً نادراً ، وإنَّ الصديق الوفيَّ شيءٌ قليلٌ وجودُهُ على هذهِ الأرضِ .

١٥ ـ لو علمْتَ الزمانَ والناسَ علْماً   مثــلَ علمـــي لمـــا رضيـــتَ بِخُلَّـــهْ

فلو دَريتَ ما الزمانُ وما الناسُ درايَتي إياهما لما قَبِلْتَ بأيٍّ منهما صديقاً .

١٦ ـ اسْمُهـا السـائمـاتُ لـو عَلِمَتْـهُ   لأبَـــتْ أنْ تـــذوقَ طعمـــاً لِخَلَّـــهْ

وعلامةُ الصداقةِ حاجاتُ المرءِ إلى غيرهِ ؛ ولو خَبَرَتِ الحاجةُ الزمانَ ودواهِيَهُ لرفَضَتْ أنْ تَقْرَبَهُ ، وتذوقَ مرارَتَهُ .

١٧ ـ اتَّبِـعْ مِلَّـةَ الخليـلِ تصـادِفْ   خُلَّـةَ الصِّـدْقِ ، فهـي أصـدقُ مِلَّـهْ

وسِرْ سيرةَ أبي الأنبياءِ الخليلِ ، عليه الصلاةُ والسلامُ ، تَجِدْها خُلاصةَ الصِّدْقِ ، وتعلَمْ أنها أفضَلُ سيرةٍ .

١٨ ـ واتبـاعُ التقليـدِ أعظَـمُ جهـلٍ   فعلـــى العـــاقـــلِ اتِّبـــاعُ الأدلَّـــهْ

فَتُلُوُّ المرءِ ما يَعْمَلُ غيرُهُ أكبرُ حماقةٍ ؛ فَمِنْ واجبِ العاقلِ أنْ يَتْلُوَ الأمورَ التي ثبتَتْ

بالحججِ والبراهينِ الدامغةِ .

١٩ ـ وتَـوَفَّـرْ علـى تُقـاكَ ، وقَصِّـرْ   فـي تَمَنِّيـكَ ، فـالأمـانـيُّ ضِلَّـهْ

وكَثِّرْ منَ الأعمالِ التي فيها طاعةُ اللهِ تعالى ، وقَلِّلْ منْ تفكيرِكَ بالأمنياتِ ، فهي سبيلُ الضياعِ .

☆☆ ٦ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في التهنئةِ :

١ ـ تَمَتَّعْ سراجَ الدينِ بالشرفِ الذي   أجَـلُّ بَنـي الـدنيـا ، يَـوَدُّ أقَلَّـهْ

اسْعَدْ يا سراجَ الدينِ بالمجدِ الذي تَنْعَمُ به فإنما يُريدُ أعظمُ أهلِ الدنيا أقَلَّ قدرٍ منهُ .

٢ ـ تَسَـمَّ بـأسمـاءِ الإمـامِ أبيـكَ إذْ   حَـوَيـتَ معـانيـهِ ، ونِلْـتَ مَحَلَّـهْ

وأطْلِقْ على نفسِكَ أسماءَ أَبيكَ الإمامِ لأنكَ جَمَعْتَ بينَ جنبَيكَ معانيَها ، وفُزْتَ بمكانِهِ .

٣ ـ لئنْ كنتَ في حكمِ البُنُوَّةِ بعضَهُ   لقَـد صِـرْتَ فـي إرثِ النُّبُـوَّةِ كُلَّـهْ

وإنْ كنتَ في أمرِ السلالةِ النَبَويَّةِ جُزْءاً منهُ ، فقد أصبَحْتَ في صفاتِ إرْثِ الأنبياءِ كلَّهُ .

٤ ـ وأرغِـمْ بهـذا العِـزِّ أنـفَ مُعـانـدٍ   متـى يَـرَ هـذا العِـزَّ عـايَـنَ ذُلَّـهْ

واجعَلْ وجهَ كلِّ مخالفِ الحقَّ في الترابِ حتى يَقْنَعَ بجدارتِكَ بمنزلتِكَ العظيمةِ ، ويُدرِكَ هوانَهُ .

٥ ـ وهنَّـأَ نُعمـانـاً ، وهَنَّـأَ فـريقَـهُ   إلهُـكَ أنْ أصبَحْـتَ أنـتَ أجلَّـهْ

وقد أسعَدَ ربُّكَ ذو الجلالِ الإمامَ أبا حنيفةَ النعمانَ بنَ ثابتٍ وصَحْبَهُ الذينَ كُنْتَ أفضَلَهُمْ .

☆☆ ٧ ـ وقالَ على بحرِ البسيطِ في مدحِ الرسولِ ، عليه الصلاةُ والسلامُ :

١ ـ أضاءَ لي باللِّوى ، والقلبُ متبولُ   نَجـديُّ بـرقٍ بنـارِ الحـبِّ مـوصـولُ

لقد أنارَ لي طريقي ، وأنا في مُنْعَطَفٍ منَ الرملِ ، وقلبي قد ذهبَ به حَرُّ الجَوَى ، شعاعُ برقٍ صادرٌ عن منطقةِ نجدٍ وموصولٌ بلطفِ اللهِ تعالى .

٢ ـ كـأنَّ وَمْضَتَـهُ مـنْ نـارِهِ قبـسٌ   فـالخَـدُّ منـه بمـاءِ الشـوقِ مهطـولُ

وكأنَّ لَمعَانَهُ شُعْلَةٌ منْ نارِ الحبِّ ، لألأتْ عبراتِ الشوقِ المنسكبةَ على خدي .

٣ ـ فَمَـرَّ خـافقُـهُ ، يهـوي إلـى طلَـلٍ   عهدي به ، وهو منْ أسماءَ مأهولُ

وعَبَرَ نسيمُ الحبِّ ، يَخُطُّ على أثرٍ ، كنتُ أعلمُ أنه مسكَنُ أسماءَ .

٤ ـ وكادَ نِضوي منْ فرطِ النِّزاعِ بهِ ... يطيرُ تلقاءَ نجدٍ ، وهو معقولُ

وأوشَكَ فرسي الذي أهزلَهُ شدةُ الشَوقِ والحنينِ ، أنْ يُحَلِّقَ ، ويطيرَ إلى أرضِ نجدٍ ، وهو مربوطٌ بلجامٍ قويٍّ .

٥ ـ وقُلْتُ للرَّكْبِ في خافي الصُّوَى قَذَفٍ ... عليهِ سِجْفٌ منَ الظلماءِ مسدولُ

فقلْتُ لأصحابي بصوتٍ خافتٍ ، رُمِيَ عليه سِتْرٌ منَ الظلمةِ لئلا يسمَعَهُ أحدٌ :

٦ ـ أتلكُمْ بَرْقةٌ منْ عارضٍ ، وَمَضَتْ ... أم عارضٌ بالبشامِ اللَّدْنِ مصقولُ ؟

أهذهِ الومضةُ منْ سحابٍ ، جاءَ بالمطرِ ، أم هي صفحةُ وجهٍ ، دُلِكَتْ بالطيبِ ؟

٧ ـ أُريهمُ البرقَ في نجدٍ ، وبارقتي ... نِجادُها خَضِلٌ بالدمعِ مبلولُ

أُشيرُ إلى البرقِ قائلاً لهمْ . إنهُ يلمعُ في بلادِ نجدٍ ، وإنَّ سيفي قد تَبَلَّلَتْ حمائلُهُ بالدمعِ المنسكبِ منْ عينيَّ .

٨ ـ فقامَ كلُّهُمْ يَفْتَنُّ في عذلي ... وكلُّ مُنْهِكٍ في الغَيِّ معذولُ

فقامَ كلُّهُمْ ، يبدعونَ في لومي وكلُّ واحدٍ منهمْ مُنْشَغِلٌ عني في ضلالِهِ .

٩ ـ وشَرُّ ما أوضعَ الإنسانَ فيهِ هوًى ... على خلافِ الهُدَى ، قافيهِ مَدْلولُ

وأسوأُ ما يخسَرُ الإنسانُ في تجارتِهِ رغبةٌ في ربحٍ غيرِ مشروعٍ ، آخرُهُ شاهدٌ عليهِ .

١٠ ـ والفعلُ ، أرضاهُ عندَ اللهِ أعرَفُهُ ... وما تناكَرُهُ الألبابُ مرذولُ

وكلُّ عملٍ برضاهُ اللهُ ، ويقبَلُهُ ، مَعروفٌ واضحٌ ، وما تكْرَهُهُ القلوبُ خسيسٌ رديءٌ .

١١ ـ وإنَّ أحزمَ أمرٍ ، قد نهضْتَ بهِ ... ما أنتَ في غِبِّهِ بالفوزِ مشمولُ

وإنَّ أعظمَ أمرٍ ، قد قمْتَ بهِ ما جَعَلَكَ في نهايةِ المطافِ بالنجاحِ مُشْتَمِلاً .

١٢ ـ ومَنْ يُرِدْ لأساسِ الحقِّ مُنْتَقَلاً ... فَهَضْبُ ثَهْلانَ دونَ الحَقِّ منقولُ

ومنْ يَرُم ابتِعاداً عنْ جادَّةِ الحقِّ فجبلُ ثَهْلانَ يبتعِدُ به عنِ الحقِّ ، ويكونُ مأْوًى لهُ .

١٣ ـ والحقُّ، فالحقُّ ما جاءَ الرسولُ بهِ ... سيفٌ على هامِ أهلِ الشركِ مسلولُ

والحقُّ ، وإنَّ الحقَّ الدينُ الإسلاميُّ الذي جاءَ به الرسولُ ، عليهِ الصلاةُ والسلامُ ، حسامٌ مُصْلَتٌ فوقَ رؤوسِ أهلِ الكفرِ .

١٤ ـ والفضْلُ فضلُ نَبِيٍّ منْ بَني مُضَرٍ ... إليهِ أفضلُ خَلْقِ اللهِ مفضولُ

والعِزُّ عِزُّ نبيٍّ منْ نَسْلِ بَني مضرَ ، نُسِبَ إليهِ خيرُ خَلْقِ اللهِ ذي العِزِّ والكرمِ .

١٥ ـ مُحَمَّدٌ ؛ إنْ تَصِفْ أدنى خصائصِهِ ... فيا لَها قصةً في شرحِها طولُ

إنهُ محمدٌ ، وإنكَ إن أرَدْتَ أنْ تدُلَّ على أقلِّ صفةٍ منْ صفاتِهِ فإنكَ ستجدُ في شرحِها أمَداً بعيداً ، لا تنتهي منهُ .

١٦ ـ أبو العبادِ وعبدُ اللهِ بينَهما لهُ مُصاصٌ منَ الأنسابِ منحولُ

فآدمُ أبو العبادِ وعبدُ اللهِ بنُ عبدِ المطلبِ والدُ رسولِ اللهِ ، عليهِ الصلاةُ والسلامُ ، أصلٌ كريمٌ منَ القرابةِ وعطاءٌ عظيمٌ مِنَ اللهِ ، عزَّ ، وجلَّ .

١٧ ـ تاللهِ ما لاقَهُ صُلْبٌ ولا رَحِمٌ إلاّ على الطُّهْرِ والإنجابِ مجبولُ

وواللهِ ما حَمَلَهُ ظهرٌ ولا رحمٌ إلاّ كانَ على النَّظافةِ والنَّزاهةِ والفضيلةِ مطبوعاً .

١٨ ـ هو الذي إنْ يُخالِجْ في نُبُوَّتِهِ ريبٌ ، فما القولُ بالتوحيدِ مقبولُ

وهو الذي إنْ يُنازِعْ في كونِهِ نبيًّا شَكٌّ فلا محلَّ لقولٍ بتوحيدِ اللهِ ، عزَّ ، وجلَّ ، لأنهُ ، جلَّ ثناؤُهُ ، ربطَ وحدانيَّتَهُ برسلِهِ وبسيدِنا محمدٍ ، عليهِ الصلاةُ والسلامُ .

١٩ ـ هو الذي وعدَ الرحمنُ ناصِرَهُ نصراً عزيزاً ، ووعدُ اللهِ مفعولُ

وهو الذي قالَ اللهُ الرحمنُ غيرَ مرةٍ : إنهُ سينصُرُهُ نصراً عظيماً ، وَوَعدُ اللهِ ، عَزَّ ، وجَلَّ مُحَقَّقٌ .

٢٠ ـ وناصِرُ الحقِّ منصورٌ ، وخاذِلُهُ مُدَفَّعٌ عن جوارِ اللهِ مخذولُ

ومُنجِّي الحَقِّ والصدقِ مُنَجًّى ، وتاركُهُ مطرودٌ منْ رحمةِ اللهِ تعالى منبوذٌ .

٢١ ـ مُلْكُ الأكاسرةِ الممنوعُ غادِرُهُ والتاجُ مُنْعَفِرٌ ، والعرشُ مَثْلولُ

وصارَ مُلْكُ الفرسِ الأكاسرةِ القويُّ المرهوبُ مُهاناً ، وتاجُهُمْ مُمَرَّغاً في الترابِ ، وعرشُهُمْ مُهَدَّماً .

٢٢ ـ لمّا رمى الكفرَ بالإسلامِ لم يَقِهِ بأسٌ على صهواتِ الرايِ محمولُ

لما ضربَ الإسلامُ الكفرَ لم تَقِفْ بوجهِهِ قوةُ الأعلامِ المرفوعةِ على ظهورِ الخيولِ .

٢٣ ـ وهل يَصُفُّ بياضُ الفجرِ عسكرَهُ إلاّ وجيشُ سوادِ الليلِ مفلولُ ؟

ولا يُظهِرُ الفجرُ أنوارَهُ إلاّ وظلماتُ الليلِ منهزمةٌ .

٢٤ ـ حَفَّتْهُ أشياعُ صدقٍ كالليوثِ بهمْ دمُ الذينَ استضاموا الدينَ مَطلولُ

التفَّتْ حولَهُ أنصارُ حقٍّ ، كانوا كالأسودِ ، فأراقوا دمَ كلِّ من أتى بشيءٍ ، يَنْتَقِصُ الإسلامَ به .

٢٥ ـ إذا جَرَى ذِكْرُهُمْ رَفَّ القلوبُ لهُ كما تَرِفُّ الخُزامى ، وهو مطلولُ

إذا أتى ذكرُهُمْ اضطربتْ له القلوبُ كما يَخْفُقُ نباتُ الخُزامى تحت حباتِ المطرِ .

٢٦ ـ يا خاتمَ الرسْلِ إنَّ الطَّوْلَ منكَ على راجـي الشفـاعـةِ يـومَ الحشـرِ مـأمـولُ

فيا محمدُ ، عليكَ صلواتُ اللهِ ، يا آخرَ الأنبياءِ والمرسلينَ ، إنَّ فضلَكَ على آملِ الشفاعةِ منكَ يومَ القيامةِ منتظَرٌ .

٢٧ ـ فهل يصيبُ فتًى ، لا وصْلُ ذِمَّتِهِ واهٍ ، ولا عَقْدُهُ في الصدقِ محلولُ ؟

ألا يكونُ الفتى مُحقِّقاً الصوابَ ، وعهدُهُ متينٌ غيرُ ضَعيفٍ ، وميثاقُهُ صادقٌ غيرُ مَفكوكٍ ؟ .

٢٨ ـ ولا اشْتكَتْ دَخَلاً منهُ مناصَحَةٌ ولا مُنـاصِـحُ إلاّ وهـو مـدخـولُ

ولا يضيقُ صدرُ ناصِحِهِ منهُ إلاّ إذا لمسَ منهُ خداعاً وإعرضاً .

٢٩ ـ ما مَسَّتِ الكأسُ يمناهُ، ولا صَدَمَتْ فـاهُ ، وكلُّهُـمْ بـالـراحِ معلـولُ

ولم تَلْمَسْ يمينُهُ كاسَ الخمرِ ، ولا اقْتَرَبَتْ منْ فمهِ ، والناسُ كلُّهُمْ بالخمرِ مشغولُ .

٣٠ ـ والعِرْضُ رَيطُ يمانٍ في الصِّوانِ، وإنْ تَمْلِـكْ يـداهُ مَصـونـاً ، فهـو مبـذولُ

وشَرَفُهُ محفوظٌ حفظَ أُزْرٍ يمانِيَّةٍ في خُزُنٍ منيعةٍ ، وما مَلَكَتْ يداهُ منْ نفيسٍ ، فهو يَسْخو بهِ ، ولا يحفظُهُ .

٣١ ـ وإنْ يـلِ العمـلَ المسخـوطَ آونـةً فبينَهـا العمـلُ المَـرْضِـيُّ معمـولُ

وإنْ يَكُنْ قريباً منَ الفعلِ المكروهِ حيناً فإنهُ سرعانَ ما يَنْفِرُ منهُ ، ويقومُ بالعملِ الذي يَرضَى عنهُ اللهُ تعالى .

٣٢ ـ وطّاءُ أعقابِ قومٍ ، ما لهمْ عَلَمٌ في نُصرَةِ الدينِ ، والإسلامُ مجهولُ

وكانَ يحاربُ كلَّ قومٍ ، ليسَ لهمْ رايةٌ ، يرفعونَها لنصرةِ الدينِ ، وعِلْمٌ بالإسلامِ ، يدافعونَ عنه .

٣٣ ـ لهـمْ ضمـائـرُ للتفكيـرِ فـارغَـةٌ وألسـنٌ كلُّهـا بـالـذكـرِ مشغـولُ

وكانَ لأصحابِهِ قلوبٌ ، يَمْلَؤها الفِكْرُ والإيمانُ ، وألسنةٌ ، تَعلَّقَتْ بِذِكرِ اللهِ تعالى .

٣٤ ـ يُـوَحِّـدونَ إلهـاً أنـتَ صَفْـوَتُـهُ يُصَـدِّقـونَ ، فـلا غـالَتْهُـمُ غـولُ

يُوحِّدونَ اللهَ تعالى الذي اصطفاكَ ، ويُصَدِّقونَ ما تأتيهم بهِ منَ الآياتِ ، فلا تصيبُهُمْ داهيةٌ .

٣٥ ـ إنْ زالَ عنْ رمْيِ أغراضِ الهُدَى فِرَقٌ لَبَّـوا مُضِلَّلَـةً ، قـالَـتْ لهـم : زولـوا

وإنِ ابتَعَدَتْ جماعةٌ مُنافقةٌ عنْ تحقيقِ سُبُلِ الرشادِ ، قالَتْ لهم أعلامُ الهُدَى : موتوا .

٣٦ ـ فقوسُ قومي بالتَّقْوَى مُوَتَّرَةٌ وسَهْمُهُمْ باتِّباعِ الحقِّ منصولُ

فإنَّ قوسَ عشيرتي مشدودةٌ بحبلِ الإيمانِ ، ونَبْلَهُمْ نَحْوَ الحقِّ مُسَدَّدٌ .

☆☆ ٨ ـ وقالَ على بحرِ الخفيفِ في المدحِ :

١ ـ أزمعوا السيرَ بُكْرةً ، واستَقَلُّوا سَقَطَ الغيثُ حيثُ ساروا ، وحَلُّوا

عَزَمَ مَنْ أُحِبُّ على السفرِ غُدْوَةً ، ووضعوا أحمالَهُمْ على إبلِهِمْ ، وقد كانَ الغيثُ يرويهمْ أينما ساروا ، ونزلوا .

٢ ـ استَقَلُّوا ، فكيفَ لي بحياةٍ ولقد مُتُّ قبلَ أنْ يَسْتَقِلُّوا ؟

وحَمَلوا أرحالَهُمْ ، وكنتُ كالموتى قبلَ أنْ يحملوها بسببِ هجرِهِمْ أيايَ ، فكيفَ آمُلُ بالحياةِ بعدَ رحيلِهِمْ ؟

٣ ـ اسْتَحَلُّوا دمي ، وفِيَّ صلاحٌ ودمُ الصالحينَ ، لا يُسْتَحَلُّ

هَدَروا دمي على الرغمِ منْ حُبِّي لهمْ ورغبتي في سعادتِهِمْ ، ودمُ المُحسنينَ ، لا يُهْدَرُ .

٤ ـ ظعنوا لانتجاعِ غيثٍ ، وخَلَّوا عَبَراتي ، وهنَّ وَبْلٌ وطَلُّ

سافروا لطلبِ الغيثِ ، وتركوني ، ودموعي ، تتتابعُ كثيراً وقليلاً .

٥ ـ ظَلَّ قلبي ، وباتَ في كلِّ غَمٍّ وهُمُ في السرورِ باتوا ، وظَلّوا

وبقيَ قلبي ، وباتَ في الحزنِ كلِّه ، وبَقُوا همْ ، وباتوا في الفرحِ .

٦ ـ نكثوا عهدِيَ القديمَ ، وحَلُّوا عُقَداً ، خِلْتُ أنها لا تُحَلُّ

نَقضوا ميثاقي القديمَ ، وفكُّوا عهوداً ، كنتُ ، أظنُّ أنها ، لا تُفَكُّ .

٧ ـ كيفَ أرجو منَ الصديقِ وفاءً ؟ فَسَدَ الأصدقاءُ إلاّ الأقَلُّ

فكيفَ آمُلُ حفظَ عهدٍ منْ صديقٍ ، وقد زالَ عهدُ الصداقةِ بفسادِ بعضِ الأصدقاءِ .

٨ ـ لم يَصِحَّ الأقلُّ أيضاً ، فقلْ لي : هل لحرٍّ على البسيطةِ خِلُّ ؟

حتى القليلُ منْ هؤلاءِ الأصدقاءِ ، ليست صداقتُهُ خالصةً ، وإني لأَسألُ : هل على وجهِ الأرضِ صديقٌ خالصُ الحبِّ والمودةِ ؟

٩ ـ غَلَبَتْني الدُّمى ، وهنَّ ضِعافٌ ربَّما يغلِبُ الأعزَّ الأذلُّ

وقد قَهَرَتْني النساءُ الشبيهاتُ باللُّعَبِ على ضَعْفِهِنَّ ، وصِرْتُ أقولُ : قد يَقْهَرُ الضعيفُ

الذليلُ ذَا الشِّدَّةِ والقوةِ .

١٠ ـ صَيَّرَتني بدورُهنَّ نحيفاً حَدِباً كالهلالِ إذْ يُسْتَهَلُّ

وجعلتني الفتياتُ الجميلاتُ اللواتي يُشبِهْنَ البدورَ نحيلاً ذا حَدَبٍ مثلَ الهلالِ حينَ يبدو بَعدَ المُحاقِ .

١١ ـ واستَزَلَّتْ سعادُ مني رزيناً ثابتَ الحِلْمِ ، والحليمُ يَزِلُّ

وحَوَّلَتْني سعادُ منْ رجلٍ وقورٍ دائمِ الأناةِ إلى رجلٍ صائبِ الرأيِ مَرَّةً ومُخطِئاً أخرى ، والعاقلُ مخطئٌ ومصيبٌ .

١٢ ـ رجلاً زانَهُ عفافُ وفضلٌ مثلَ ما زانَها حياءٌ ودَلُّ

وقد كنتُ رجلاً ؛ جَمَّلَهُ أنفةٌ وكرمٌ كما جَمَّلَها خجلٌ وغَنْجٌ .

١٣ ـ لا تُرَوِّعْكِ كَسْرَةٌ بجناحي إنما يُمْدَحُ اليماني الأفَلُّ

فلا تخافي منْ كَسْرةٍ بقدمي ، وتَجْعليها منقَصَةً ، فإنَّ السيفَ المصنوعَ باليمنِ المصابَ بالثُّلَمِ ، هو المُثْنَى عليهِ .

١٤ ـ عَجَمَتْ عوديَ النوائبُ قِدْماً تلكَ أثارُها ، عليَّ تَدُلُّ

وقد أصابَتْني منْ صِغَري المصائبُ ، وعَضَّتْني بأنيابِها ، وهاهي آثارُها شاهدةٌ شهادةً واضحةً في جسمي وحالي .

١٥ ـ وأنا اليومَ إنْ عَرَتْني خطوبٌ فلَّ أنيابَها الأميرُ الأجَلُّ

وصرْتُ الآنَ ، إنْ فاجأتْني مصائبُ ، هبَّ لها الأميرُ الأعظمُ يَكْسِرُ شِدَّتَها وصلابتَها .

١٦ ـ إنما حضرةُ الأميرِ لِمَنْ يشكو صروفَ الزمانِ شمسٌ وظِلُّ

وإنَّ مجلسَ الأميرِ قائمٌ نهاراً وقيلولةً وليلاً ، والأميرَ مُسْتَمِعٌ لكلِّ شاكٍ أحداثَ الزمانِ الشديدةَ .

١٧ ـ ظلمةُ الدهرِ ، تَنْجَلي بِسناها وبها منْ سَمومِهِ يُسْتَظَلُّ

وتنكشِفُ عَتْمةُ الزمانِ بضوءِ حضرتِهِ ، ويُلْجَأُ إلى رواحِها حينَ يَشْتَدُّ عذابُها بحرِّها الشديدِ .

١٨ ـ كُنْتُ لِلنّائباتِ فَلّاً طريداً ثم اصبَحْتُ ، وهْيَ عني فُلُّ

وكانتِ المصائبُ ، تهزِمُني ، وتُطارِدُني ، فصِرْتُ غالباً هازماً إياها ومُطارِدَها .

١٩ ـ أنا لولاكَ لارْتَمَى بي سريعاً كلَّ بيداءَ سُنْبُكٌ ، وأظَلُّ

وإنني لولا حمايتُكَ وصونُكَ لرمَتْني سريعاً أرضٌ صلبةٌ وحافرُ فرسٍ عاثرٍ أرضاً في فلاةٍ ، وبقيت بها دونَ مُغيثٍ .

٢٠ ـ لَطَوَيتُ الفضاءَ بالسيرِ طَيًّا   فكأنَّ الفضاءَ تحتي سِجِلُّ

ولجعَلْتُ الأفقَ أرضاً ، أسيرُ بها وأطويها طيًّا ، كأنها صفحاتُ كتابٍ ، أُدَوِّنُ فيها ما أرى ، وأسمعُ .

٢١ ـ ناشداً في البلادِ حظًّا لنفسي   مثلَ ما ينشُدُ البعيرَ المُضِلُّ

طالباً في أرجاءِ البلادِ رزقاً وعظمةً لنفسي كما يطلُبُ المرءُ الذي نَفَرَ عنهُ جَمَلُهُ ما يركبُهُ .

٢٢ ـ إنَّ رِفْدَ الكرامِ في الرجلِ قيدٌ   ويَدُ الأسخياءِ في اليدِ غُلُّ

وإنَّ عطاءَ الكرامِ للمرءِ حَبْسٌ ، يُثْبِتُهُ ، ويَمنَعُهُ منَ الارْتِحالِ ، ونِعمةُ كثيري العطاءِ قيدٌ في يدِ المُنْعَمِ عليهِ وعُنُقِهِ .

٢٣ ـ دولةٌ مثلُهُ المحامي عليها   دولةٌ عرشُ ربِّها ، لا يُثَلُّ

وإنَّ الدولةَ التي يكونُ حاميها مثلَ هذا الأميرِ ذي السعاداتِ ، هي الدولةُ التي لا يضعُفُ عزُّ صاحبِها ولا يزولُ مجدُها .

٢٤ ـ ذو السعاداتِ ، لا يُقاسُ بنفسٍ   فهي بعضٌ وذو السعاداتِ كُلُّ

ونفسُ ذي السعاداتِ، لاتقارَنُ لأنَّها تجمعُ صفاتِ النفوسِ التي هي جزءٌ منها أو بعضُهَا .

٢٥ ـ لستُ أدري إذا انْتَضى عَزَماتٍ   عَزَماتٌ أم السيوفُ تُسَلُّ ؟

وإذا هبَّ لنجدةٍ لا أعلَمُ : هل هو قوةٌ منْ قِوى اللهِ تعالى أم سيفٌ منْ سيوفِ الأبطالِ التي تُجَرَّدُ للحروبِ ؟

٢٦ ـ وإذا شاءَ أنْ يُوَقِّعَ يوماً   خِيلَ في بُرْثُنِ الغَضَنْفَرِ صِلُّ

وإذا أرادَ يوماً أنْ يُنَفِّذَ حكمُهُ ، جعلَ الناسَ ، يرونَ في مِخْلَبِ الأسدِ حيَّةً خبيثَةً .

٢٧ ـ قلمٌ يُخْفِتُ الصليلَ صريراً   وشبا الزُّرْقِ عن شَباهُ تَكِلُّ

ولهُ قلمٌ ، يُضْعِفُ سيرُهُ على الورقِ قَعْقَعَةَ السيوفِ في الحروبِ ، وحَدُّ السيوفِ والرماحِ ، ينبو عن ضربِ أطرافِهِ ، فلا يَجْرَحُها .

٢٨ ـ خمسُ يُمناهُ أبحرٌ خمسةٌ ، منْ   بعضِها يُنْهَلُ الورى ، ويُعَلُّ

أصابعُ يدهِ اليمنى خمسةُ أبحرٍ في الجودِ ؛ في بعضِ حركاتِها أمرٌ في عطاءِ أفرادِ الرعيةِ أوّلاً وثانياً وتِباعاً كشربِ الماءِ أوّلاً وثانياً وتِباعاً .

٢٩ ـ مُسْتَقِلٌّ نداهُ ، وهو كثيرٌ حَبّذا المُكْثِرُ النَّدَى المُسْتَقِلُّ

وأعجبُ ما في أمرِهِ أنهُ يرى عطاءَهُ الناسَ قليلاً على الرغمِ منْ أنهُ وفيرٌ ، فما أعظمَ كثرةَ عطاءِ الكريمِ الذي يجدُ كَرَمَهُ قليلاً .

٣٠ ـ يسألُ الزائرينَ أنْ يسألوهُ لا يَمَلُّ العطاءَ حتى يَمَلُّوا

ويُلِحُّ بسؤالِ مَنْ يزورُهُ عنْ حاجتِهِ ، ولا يسأمُ مِنْ تقديمِ عطائِهِ حتى يَمَلَّ مِنْ سؤالِهِ ذو الحاجةِ .

٣١ ـ إنما يبلُغُ المراتبَ حُرٌّ كُلُّ حرٍّ على أياديه كَلُّ

وإنَّ بلوغَ المنازلِ الرفيعةِ مخصوصٌ بالعظمةِ والعزِّ ، وكُلُّ شريفٍ عزيزٍ ، كانتْ على أُعطياتِهِ سَدُّ حاجاتِ العائلِ .

٣٢ ـ قد أظَلَّ الربيعُ صِنْوَكَ في البهـ ـجةِ ، فَلْيَهْنِكَ الربيعُ المُظِلُّ

وقد جعلَكَ الربيعُ شقيقاً لهُ في السرورِ ، فَلْيَهْنَأْ كُلٌّ بشقيقِهِ : الربيعُ وشقيقُهُ أبو السعاداتِ .

٣٣ ـ ناسَبَتْ خُلْقَكَ الرياضُ ، وضاهى فيضَ كَفَّيكَ عارضٌ ، يسْتَهِلُّ

ووافقَتِ الحدائقُ خُلُقَكَ ، وشابَهَ السحابُ الممطِرُ عطاءَ كَفَّيْكَ .

٣٤ ـ رَفَلَ الدهرُ ساحبَ الذَّيلِ لمّا أُزِرَّتْ وهدةٌ ، وعُمِّمَ تَلُّ

فاختالَ الدهرُ ، وجَرَّ ذيلَهُ حينَ رأى منكَ سَتْرَ حاجةٍ وإنباتَ جبلٍ .

٣٥ ـ فالبَسِ الخِلْعَةَ البَهِيَّةَ ، واسْحَبْـ ـها رِفَلاً كما الزمانُ رِفَلُّ

فارْتَدِ ثوبَ الإمارةِ الجميلَ ، وجُرَّهُ مُخْتالاً كما يختالُ الزمانُ .

٣٦ ـ كلُّ شعرٍ أقولُهُ فيكَ باقٍ كنقوشِ الصخورِ ، لا يَضْمَحِلُّ

وكلُّ ما أنظمُ منْ شعرٍ في مدحِكَ خالدٌ خلودَ حَفْرِ الصخورِ ، لا يزولُ .

٣٧ ـ كثُرَ القائلونَ والقولُ في النا سِ ، ومثلي ومثلُ قولي يَقِلُّ

وقد كَثُرَ الشعراءُ ، وكَثُرَ مدحُ الرجالِ ، لكنَّ شبيهي وشبيهَ شعري في مدحِكَ نادرٌ .

٣٨ ـ جُدْ بما شئتَ غيرَ قولي ، وصُنْهُ إنَّ قولي ، ابتِذالُهُ ، لا يَحِلُّ

فاسْخُ بما تراهُ منْ عطاءٍ على شاعرٍ ، أثني عليكَ بمدحِهِ ، وحافظْ على مدحي إياكَ ، لئلا يكونَ في قياسِهِ بغيرِهِ مَهانةٌ لهُ .

٣٩ ـ زَمْزَمٌ ما حَلَّ منها اغتسالٌ وهيَ للشّاربينَ حِلٌّ وبِلُّ

وماءُ زمزمَ ليسَتْ للاغتسالِ ، وإنما هي حلالٌ ورِواءٌ وشِفاءٌ للشاربينَ .

☆☆ ٩ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في النصحِ :

١ ـ ألا إنَّ إخــوانَ الصفــاءِ قليــلُ   فهــلْ لــي إلــى ذاكَ القليــلِ سبيــلُ ؟

ألا إنَّ الأصدقاءَ الخُلَّصَ قليلونَ ، فهل أرى طريقاً يوصِلُني إليهمْ ؟

٢ ـ قِسِ الناسَ تعرفْ غَثَّهُمْ وسمينَهُمْ   فكــلٌّ عليــهِ شــاهــدٌ ودليــلُ

عاملِ الناسَ ، واخْتَبِرْ أفعالَهُمْ ، تعلَمْ رديئَهُمْ وجيِّدَهُمْ ، وتَضَعْ لكلٍّ منهمْ شاهداً ودليلاً على صفاتِهِ .

☆☆ ١٠ ـ وقالَ على بحرِ الطويل في المدحِ :

١ ـ مَحَلُّـكَ ، عبـدَ اللهِ ، ليـسَ يُنـالُ   أبــى ذاكَ عــزٌّ شــامــخٌ وجَــلالُ

إنَّ منزلَتَكَ ، يا عبد اللهِ ، لا يستطيعُ أحدٌ أنْ يَتَبَوَّأَها ، فهي ، لا تقبلُ ذلكَ ، لأنَّ مجدَكَ ذو علوٍّ ووقارٍ ، لا يدانيهِ شيءٌ .

٢ ـ وكيـف يبـاريـكَ الأنـامُ بـأسـرِهـمْ   وأنــت يميــنٌ ، والأنــامُ شِمــالُ ؟

وكيفَ يفكِّرُ الناسُ كلُّهُمْ أنْ يسابقوكَ ، وأنتَ بعيدٌ عنهم بُعدَ اليمينِ عنِ الشِّمال .

٣ ـ يُزَيِّنُ ملكَ الشرقِ عدلُكَ مثلَ ما   يُــزَيِّــنُ مَتْــنَ المَشْــرِفــيِّ صِقــالُ

ولقد زيَّنَ عدلُكَ ما مَلَكْتَ منْ بلادِ الشرقِ كما يُزَيِّنُ نصْلَ السيفِ المنسوبِ إلى الشامِ أو إلى موضعٍ في اليمنِ بريقُهُ .

٤ ـ وأنــتَ كــريــمٌ ، مــا يــزالُ عطــاؤهُ   سِجــالاً ، علــى آثــارِهــنَّ سِجــالُ

وأنت الرجلُ الكريمُ الذي تتتابعُ عطاياهُ كتتابعِ الدلاءِ الملأى ماءً منَ البئرِ الفيّاضةِ .

٥ ـ جميلُ المحيّا ، في أسِرَّةِ وجهِهِ   لكــلِّ جمــالٍ فــي الــوجــوهِ مَجــالُ

وأنتَ ذو وجهٍ جميلٍ ، في كلِّ قسمٍ منْ أقسامِ وجهِكَ حُسْنٌ ، يراهُ الناسُ في كلِّ الوجوهِ الجميلةِ .

٦ ـ وصدرُكَ مثلُ الأرضِ رُحْباً وبَسْطةً   وفيــه همــومٌ كــالحبــالِ ثِقــالُ

وذو صَدْرٍ واسعٍ مديدٍ ، يسَعُ الناسَ بهمومِهِمْ ، ويَمُدُّهُمْ بِحِلْمِهِ ، ويحمِلُ أعباءً ثِقالاً ، تَنْهَدُّ منها الجبالُ .

٧ ـ وإنكَ كيوانٌ ، طَلَعْتَ على العدا   لهــمْ كــلَّ يــومٍ مِحْنــةٌ ووبَــالُ

وأنتَ كالكوكبِ زُحَلَ ، رآكَ الأعداءُ ، فكُنتَ لهمْ اختباراً لطاعتِكَ وشدةً لمعصيتِكَ .

٨ ـ فكم زُوِيَتْ للعانِدينَ حواجبُ وكم نُتِفَتْ للحاسِدينَ سِبالُ

وكم ظَهَرَ تأثُّرُ الناسِ وضيقُهُمْ بِمخالفةِ الأعداءِ الحقَّ ، فانقبضَتْ حواجبُهُمْ ، وكم نزعوا شعراتِ شواربِ الحاسدينَ .

٩ ـ إلى أنْ أطاعوا ما استطاعوا ، وأُلجموا سكوتاً ، فلا قيلٌ هناكَ وقالُ

إلى أنْ خضعوا للحَقِّ قدرَ استطاعتِهِمْ ، وأُسكتوا عنِ المشاكسةِ ، فلم يصدُرْ منهمْ قولٌ بعدَ ذلكَ أبداً .

١٠ ـ إلى مَنْ يؤولُ الحرُّ في الأرضِ كلِّها سِواكَ وما فيها سِواكَ مآلُ

ولا يَرى المرءُ الكريمُ الشريفُ غيرَكَ مَرجِعاً لأنَّكَ المَرجعُ الوحيدُ .

١١ ـ لقد شُبْتَ بالأفضالِ فُضْلَى تَكَرُّماً كما شِيبَ ماءٌ بالرحيقِ زُلالُ

ولقدِ اختلطَتْ صفاتُكَ العظيمةُ بالمكارمِ والمحاسنِ تَفَضُّلاً كما يُمْزَجُ الخمرُ بالماءِ العذبِ .

١٢ ـ فَرُحْتَ كبدرٍ ، قد تكامَلَ ضوؤُهُ وقد لاحَ صدرُ الشهرِ ، وهو هِلالُ

فَصِرْتَ كالبدرِ في كمالِ اسْتِدارتِهِ وضوئِهِ ، وكانَ القمرُ في أوَّلِ الشهرِ هِلالاً .

☆☆ ١١ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الغزلِ [شذرات الذهب في أخبارِ منْ ذهَب ح٦/ ١٩٨] :

١ ـ أقولُ لِظَبْيٍ ، مَرَّ بي ، وهو راتعٌ : أأنتَ أخو ليلى ؟ فقالَ : يُقالُ

إني لأَسألُ غزالاً ، يمرُّ بي لاعباً : أأنت أخو ليلى ، وشقيقُها ؟ فيُجيبني : هذا ما يقولُ الناسُ .

٢ ـ فقلتُ ، وفي حكمِ الصبابةِ والهوى : يُقالُ : أخو ليلى ، فقالَ : يُقالُ

فقُلْتُ في نفسي التي اشتَدَّ عليها حكمُ الفُتُوَّةِ والحبِّ : يقولُ الناسُ : أنتَ أخو ليلى ، ورَدَّدَ قولَهُ : هذا ما يُقالُ .

٣ ـ فقُلْتُ ، وفي ظِلِّ الأراكةِ والحِمَى : يُقالُ ؟ ويُسْتَسْقَى ؟ فقالَ : يُقالُ

وجَلَسْتُ في فيءِ شجرةِ الأراكِ والأرضِ المنيعةِ ، وسألتُهُ : هل يستطيعُ المرءُ أنْ يقضيَ القيلولةَ في هذا المكانِ ، ويطلبَ الارْتِواءَ ؟ فأجابَ : نعمْ يُباحُ لهُ ذلكَ .

☆☆ ١٢ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ والعتابِ :

١ ـ رَضِيَ الملوكِ ، المجدُ يَشْهَدُ أنَّ في معاليكَ أسراراً ، بها المجدُ جاهلُ

يارضيَ الملوكِ ، إنَّ العِزَّ ، يقولُ شاهداً : إنَّ لِمَنْزِلَتِكَ أموراً عظيمةً ، تَخْفَى عليه ، ولا يدري بها .

٢ ـ تساقَطَتِ الأوصَافُ دونَكَ ظُلَّعاً فما تبلغُ الأوصافُ ما أنتَ فاعلُ

لما أرادَ الناسُ أنْ يُنَسِّقوا الصفاتِ رأوا أنَّها كلَّها ، لا يمكنُها أنْ تَصِلَ إلى غايةِ ما تَعْمَلُ .

٣ ـ أبِالقلمِ الإقليمَ تَضْبِطُ كُلَّهُ ومالُكَ ، لم تَضْبِطْهُ منكَ الأناملُ ؟

أإنّكَ يا رضِيَّ الملكِ ، تُدَوِّنُ كلَّ ما في أرجاءِ مُلْكِكَ بالقلمِ ؟ ولم تكتُبْ بأصابعكَ ما تُنْفِقُهُ مِنْ مالِكَ .

٤ ـ عَمَمْتَ بهِ الدنيا ، فما في عِراصِها سِوايَ كريمٌ أخطأَتْهُ الفواضِلُ

وقد شَمِلْتَ أهلَ الدنيا بمالِكَ ، ولم يبقَ في دورِ الناسِ رجلٌ عزيزٌ غيري ، فاتَتْهُ أُعطياتُكَ .

٥ ـ لقد أُوثِروا دوني بكلِّ صنيعةٍ كأنهمُ دوني الكرامُ الأفاضِلُ

ورأيتُ أنَّ منْ همْ أقلُّ مني ، قد فُضِّلوا عليَّ في كلِّ شيءٍ ، وصاروا أكرمَ وأعظمَ مني بنظرِكَ .

☆☆ ١٣ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في المدحِ :

١ ـ هل يَشْتفي خَلَدي منَ البَلْبالِ برجوعِ أيامٍ لنا وليالي ؟

هل تَصِحُّ نفسي منَ الوسواسِ بعودةِ أيامٍ ، قضيناها ، وليالٍ ؟

٢ ـ هل لي إلى وادي العقيقِ وأهلِهِ عَودٌ وإلمامٌ بذاتِ الضّالِّ ؟

وهل قُدِّرَ لي رجوعٌ إلى وادي العقيقِ فاجتماعٌ فنزولٌ بأرضِ الضّالِّ ذاتِ الشجرِ الكثيفِ ؟

٣ ـ تلكَ الديارُ ، حَمَلْتُ بها حُبْوَتي وأجَبْتُ داعي صَبوتي وضلالي

فإنَّ تلكَ الديارَ ، كانتْ موطنَ أوَّلِ مَشْيِي وأوَّلِ شبابي وغَيِّي اللَّذَينِ ناديانِي ، فردَدْتُ عليهما ، وسايَرْتُهُما .

٤ ـ ولقد ركضْتُ إلى عِماياتِ الصِّبا رَكَضاتِ غِرٍّ ، لا عَلَيَّ ، ولا لي

وجريتُ بينَ الديارِ ، فوصلْتُ إلى مَتاهاتِ الشبابِ جَرَياتِ جاهلٍ ، لا يدري : هل سَتُؤدِّي بهِ إلى الفوزِ أم إلى الإخفاقِ ؟

٥ ـ جرّارَ أذيالِ البطالةِ ، أغتدي وأروحُ بينَ غزالةٍ وغزالِ

سَحّابَ أذيالِ الفسادِ ، أذهبُ صباحاً ، وأعودُ مساءً ، ألاعبُ أترابي البَنينَ والبناتِ .

٦ ـ للهِ عيشٌ باردٌ ، ألْوَى به كَرُّ الغُدُوِّ عليهِ والآصالِ

سقى اللهُ ذلكَ العيشَ ذا البرودةِ العذبةِ الذي ذَهبَ به مجيءُ الغُدُواتِ والأمسياتِ .

٧ ـ أيامَ لا ربعُ الحبايبِ مُقْفِرٌ خالٍ ، ولا طَلَلُ الأحبَّةِ بالي

كانَتْ تلكَ الأيامُ أيامَ سرورٍ ، نَنْعَمُ في خِصْبِ أرضِ الأحبابِ إذ لم تَكُنْ قاحلةً خاليةً مِنْ أهلِها ، ولم تكُنْ مساكنُها أطلالاً وآثاراً .

٨ ـ اللهُ يعلمُ أنَّ قلبي ليسَ عنْ تلكَ المعاهِدِ ما حَيِيتُ بِسالي

واللهُ، وحدَهُ يعرفُ أنَّ قلبي ، لم ينسَ ، ولنْ ينسى تلكَ المرابعَ ما عشْتُ ، وسأعيشُ .

٩ ـ هي كلّما خَطَرَتْ ببالي هَيَّجَتْ حُرُقاتِ وَجْدٍ ، ما خَطَرْنَ ببالي

وإنّها كلما مَرَّتْ بِخَلَدي أثارَتْ لوعاتِ حُزنٍ ، لم تَمُرَّ بخيالي .

١٠ ـ أشكو الزمانَ، ولا أرى لي مُشْكِياً مِمَّنْ يَرَى شَعَثي ورقّةَ حالي

وأطيلُ شكايتي الزمانَ ، ولا أجدُ مَنْ يرى تَخَلْخُلَ أمري وضعفَ شأني ، فَيُخَفِّفُ عنائي ، أو يزيلُهُ .

١١ ـ يا حَسْرَتا مَنْ لي بصفقةِ رابحٍ في مَتْجَرٍ ، والفضلُ رأسُ المالِ

فيا حُزني على نفسي التي لم تَحْظَ بضربةِ بيعٍ بتجارةٍ ، أكسَبُ بها ربحاً قليلاً على رأسِ المالِ الذي بينَ يديَّ .

١٢ ـ يا ويحَ أهلِ العلمِ كيفَ تأخّروا والسبْقُ كلُّ السبْقِ للجُهّالِ ؟

فيا ويلَ أهلِ العلمِ الذينَ لم يَتَقَدَّموا في ميدانِ البيعِ والشراءِ ، وكانَ السبْقُ كلُّ السبْقِ للجاهِلينَ .

١٣ ـ في ذمّةِ الأيامِ لي دَينٌ ، متى أسْتَقْضِهِ لاقَيتُ طولَ مِطالِ

ولي على الأيامِ دَينٌ وحقٌّ ، إنْ طالبْتُها بتأديتِهِ إليَّ سَوَّفَتْهُ ، وأرجأتْهُ قاصدةً عدمَ إعطائي إيّاهُ .

١٤ ـ فإلى الأله المُشتكَى ، وبصنعِهِ دونَ الأنامِ منوطةٌ آمالي

وإني لأتقدَّمُ بالشكوى إلى اللهِ وحدَهُ ، وأعَلِّقُ آمالي به لا بالناسِ .

١٥ ـ وبأحْمدَ بْنِ محمدِ بْنِ عَليِّ بْـ ـنِ الفضلِ تِربِ الفضلِ والأفضالِ

وبأحمدَ بنِ محمد بنِ عليٍّ بنِ الفضلِ رفيقِ عمرِ الكرمِ والمكارمِ .

١٦ ـ لولاكَ يا بْنَ الفضلِ لم أكُ قاطناً   في بلدةٍ ، جارَتْ على أمثالي

ولولا مساعدتُكَ إيايَ يا بنَ الفضلِ ، لم ألبَثْ في هذه البلدةِ التي ظلمَتِ الضعفاءَ أقراني .

١٧ ـ ولطارَ بي عنها نجاءُ ركائبٍ   ذُلَلٍ بِحَرِّ الهاجراتِ صِوالي

ولأَسْرَعَتْ بي ناقةٌ منْ نوقِ الأسفارِ السريعةِ ، واحتَمَلَتْ هوانَ حَثِّي إياها على السيرِ وشدةَ حرارةِ أنصافِ النهارِ .

١٨ ـ منْ كلِّ ضامنةٍ نجاحَ المُمْتَطي   معتادةِ الإخفافِ للإرقالِ

ومنْ كلِّ كافلةٍ فوزَ راكِبِها جاعلةٍ أمرَ الإسراعِ خفيفاً حتى صارَ عادةً لها .

١٩ ـ عوجاءَ مثلَ القوسِ إلاّ أنها   ترمي الفِجاجَ بأربعٍ كَنِبالِ

لَيِّنَةِ الأعطافِ لَيانَ القوسِ ، لكنها حينَ تقطَعُ الطرقَ ترميها بأربعةِ أخفافٍ قويَّةٍ كالسهامِ .

٢٠ ـ أصِلُ السُّرَى بالسيرِ حِلْسَ ظهورِها   حتى أحُطَّ إلى الكرامِ رحالي

أُواصِلُ ركوبَها ليلاً ونهاراً ، لا أفارِقُ كِساءَ ظهورِها حتى أُنزِلَ في بيتِ الأسخياءِ أحمالي .

٢١ ـ العارفينَ الفضلَ ما مقدارُهُ   فالمشترينَ لهُ بسعرٍ غالي

الذين يعلمونَ قَدْرَ الكَرَمِ ، ويَبذُلونَ الثمنَ الغاليَ في شِرائِهِ .

٢٢ ـ لا يضربونَ السِّتْرَ دونَهُمْ ، ولاَ   يَتَعَلَّلونَ بكثرةِ الأشغالِ

ويُبْدونَ اسْتِعدادَهُمْ لِتلبيةِ حاجاتِ الناسِ ، فلا يَتَخَفَّونَ وراءَ الحُجُبِ ، ولا يَتشاغلونَ عنهم بكثرةِ أعمالِهِمْ .

٢٣ ـ وإذا اعْتَراهمْ طارقٌ ، لا تَلْتَوي   أعناقُهُمْ بِتَنَحْنُحٍ وسُعالِ

وإذا أتاهمْ زائرٌ ليلاً يَهُبّونَ ، ويُقدِّمونَ واجبَ الضَّيفِ ، ولا يُعرِضونَ عنِ استقبالِهِ بترديدِ أصواتٍ قبيحةٍ منْ أجوافِهِمْ وسُعالٍ .

٢٤ ـ في أرضِ خارَزْمَ كريمٌ واحدٌ   ودَعِ اللئامَ ، فهم عديدُ رمالِ

ففي أرضِ خوارزمَ رجلٌ عظيمٌ واحدٌ ، هو ابنُ الفضلِ ، اذهبْ إليهِ ، واتركِ الناسَ اللئامَ لأنهُمْ ، لا عَدَدَ لهم كذراتِ الرمالِ .

٢٥ ـ وإذا وجدْتَ الربعَ ، أصبحَ آهلاً   بِسِوى الكرامِ ، فذاكَ ربعٌ خالي

وإذا رأيتَ أرضاً ، يسكنُها قومٌ أذِلاّءُ ، فقلْ : إنها أرضٌ مُقْفِرَةٌ .

٢٦ ـ جارَى الكرامَ ، فَبذَّهمْ مُتَمَهِّلاً بتـواضـعٍ ، يُنميـهِ مجدٌ عـالـي

خالطَ الأشرافَ ، فَغَلَبَهُمْ مُتَرَفِّقاً مُتخاشعاً ، فزادَهُ المجدُ قَدْراً وعُلُوًّا .

٢٧ ـ لم يَثْنِ جِيدَ المُسْتَعِزِّ ، ولا مشى مَـرِحـاً ، يُجَـرِّرُ حُلَّـةَ المختـالِ

لم يَلْوِ عنقَهُ انعطافَ مُتَصَنِّعِ العِزِّ والمجدِ ، ولم يَسِرْ بَطِراً ، يسحَبُ ذيلَ ردائِهِ مُتكبِّراً .

٢٨ ـ وكذا الشريفُ إذا تناهى في العُلا عَـدَّ التَّـرَفُّـعَ أوضـعَ الأفعـالِ

وذا عملُ الشريفِ إذا بلغَ غايةَ المجدِ رأى تَكَلُّفَ الرِّفعةِ أحقرَ الأعمالِ .

٢٩ ـ مَـزَجَ التَّمَلُّـحَ والفُكـاهـةَ طبعُـهُ بتَعَفُّـفٍ وطهـارةِ السِّـرْبـالِ

خَلَطَتْ سَجيَّتُهُ الجدَّ والمَزْحَ بالتَّرَفُّعِ عنِ الباطِلِ ونقاوةِ الثوبِ منَ الدرَنِ .

٣٠ ـ وإذا تَكَلَّـمَ خِلْـتَ نظـمَ كـلامِـهِ فـي لَبَّـةِ الحسنـاءِ عِقْـدَلآلـي

وإذا سمعْتَ كلامَهُ ، رأيتهُ دُرراً منسوقةً مسلوكةً بقلادةٍ ، تُزَيِّنُ المليحةُ عنقَها بها .

٣١ ـ ولوِ اطَّلَعْتَ على غرائبِ شعرِهِ لَعَجِبْـتَ مِـنْ سحـرٍ هنـاكَ حَـلالِ

ولو قرأتَ شيئاً منْ بدائعِ نظمِهِ لأخذَكَ العَجَبُ ، وقُلْتَ : إنْ هو إلاّ السحرُ الحقيقيُّ الخالصُ .

٣٢ ـ شعـرٌ ، يـروعُ متـانَـةً ، لكنّـهُ سَلِـسٌ كمـاءِ المُـزنـةِ السَّلْسـالِ

يُرَوِّي الفؤادَ العَليلَ قُوَّةً ، ويملأُ السمعَ طرباً بليونة ألفاظهِ الشبيهةِ بماءِ السحابةِ العذبِ .

٣٣ ـ ورسائلٌ كالوَشْيِ ، أحكمَ نسْجَها عـارٍ بـلا قُشُـبٍ ولا أسمـالِ

ولهُ نثرٌ في رسائلَ مُنَمَّقَةٍ كنمنمةِ ثوبٍ ذي طِرازٍ جَيِّدٍ ، أبدعَ في سَرْدِها قلمٌ ، ليسَ لهُ ثوبٌ جديدٌ أو بالٍ .

٣٤ ـ يَحْفَى ، فلا يَجري ، وتُقطَعُ رجلُهُ فيُـرَى كثيـرَ الكَـرِّ والتَّجْـوالِ

ويصيرُ كالحافي بلا نعلٍ ، فلا يستطيعُ السيرَ ، وتُكْشَطُ بعضُ أجزاءِ رجلِهِ ، فيعودُ إلى السيرِ السريعِ والتَّطْوافِ .

٣٥ ـ قـد أقبـلَ العيـدُ السعيـدُ مبشِّـراً إقبـالُـهُ بـالسعـدِ والإقبـالِ

وها قد أتى العيدُ المُسْعِدُ المُفَرِّحُ مجيئُهُ بالسعادةِ والسرورِ .

٣٦ ـ فـاسْعَـدْ بـأوَّلِـهِ وآخِـرِه ، ونَـلْ كـلَّ المـآربِ فيـه كـلَّ منـالِ

فاغْنَمْ منَ السرورِ والهناءَةِ منْ أوّلِ يومٍ إلى آخرِ يومٍ ، وخُذْ كلَّ أُمنياتِكَ التي أردْتَها مَأخذاً طيِّباً .

٣٧ ـ وعليكَ بالأنعامِ ، فانْحَرْها ، وما حاوَلْتَ غيرَ عُداتِكَ الضُّلّالِ

وعليكَ فرضُ الأضحيةِ بالغنمِ والبقرِ والإبلِ ، فاذبَحْها ، وقُمْ بما أمَرَكَ اللهُ منَ الأعمالِ الصالحةِ ، واتْرُكْ أعداءَكَ الأشرارَ .

☆☆ ١٤ ـ وقالَ على بحرِ البسيطِ في المدحِ :

١ ـ متى تُبَلِّغُني يا فضلُ آمالي ؟ متى تُوَشِّحُ بالإقبالِ أحوالي ؟

يا فضلُ ، يا شمسَ الملوكِ متى تعطيني أُمنياتي ؟ ومتى تزيِّنُ باهتمامِكَ بي شؤوني ؟

٢ ـ يا فضلُ لا كُنْتُ إنْ لم تعطني شَرَفاً أزهى به بينَ أعمامي وأخوالي

يا فضلُ ، لا عِشْتُ إنْ لم تُولِني قَدْراً ، أختالُ بِهِ أمام أعمامي وأخوالي .

٣ ـ أمِنْكَ أطلبُ إقبالي ، ولستُ أرى سِواكَ مِنْ سببٍ في فقدِ إقبالي

أأرومُ منكَ الحضورَ إلى مجلِسِكَ ، ولا أجدُ سبباً في إعراضِكَ عني إلاّ عدمَ رغبتِكَ أنتَ في ذلكَ ؟

٤ ـ لو أنني منكَ عُرْيانٌ لَسَرْبَلَني مما أريدُ زماني ألفَ سربالِ

لو كنْتَ سببَ تَعْرِيتي وشقائي لتقدَّمَ الدهرُ مني ، وعَوَّضني بألفِ رداءٍ .

٥ ـ يا ليتَ شعري هل أغدو إلى نفرٍ أكارمٍ خلطوا فضلاً بأفضالِ ؟

وليتني أعلمُ : هل سأذهبُ في غُدوةٍ إلى جماعةٍ ، يمزجونَ فضلَهُمْ عليَّ بأعطياتِهِمْ غيري ؟

٦ ـ وهل أرى الأدبَ المَجْفُوَّ ، ينصُرُهُ على الجهالةِ قومٌ غيرُ جُهّالِ ؟

وهل أجدُ الأدبَ الغَثَّ الذي لم يقرأْهُ أحدٌ لضعفِهِ ، يصيرُ ذا قيمةٍ بنظرِ العلماءِ ؟

٧ ـ حَرَّكْتُ في طلبِ العلياءِ منْ هِمَمي وإنما يطلبُ العلياءَ أمثالي

وكنْتُ أثَرْتُ عزيمتي طلباً للمجدِ لأني مِنْ أمثالِ مَنْ يطلبُ المجدَ .

٨ ـ ما زلْتُ أسعى لألقى العِزَّ مجتمعاً والعِزُّ مجتمِعٌ في المجلسِ الغالي

وما زلْتُ أجِدُّ لأنالَ المجدَ قائماً في مجلسِ شمسِ الملوكِ .

٩ ـ إذا تقبَّلَني شمسُ الملوكِ فقد جَرَّرْتُ فوقَ الطباقِ السبعِ أذيالي

وإذا أرادَ الفضلُ شمسُ الملوكِ أنْ أكونَ أحدَ جُلَسائِهِ فإني أسحبُ أطرافَ أثوابي مختالاً فوقَ السمواتِ السبعِ .

١٠ ـ أفديهِ منْ مَلِكٍ ، يقضي مُشاهدُهُ بأنهُ مَلَكٌ في طيبِ أفعالِ

أقدِّمُ نفسي وروحي وما أملِكُ فِداءً لِمنْ يُشاهِدُ ، ويحكُمُ أنَّ شمسَ الملوكِ أحدُ الملائكةِ بطيبِ أفعالِهِ .

١١ ـ أفعالُهُ ، عُدِمَتْ أمثالُها ، وبها فـي كـلِّ قطـرٍ بعيـدٍ ضـربُ أمثـالِ

فأعمالُهُ ليسَ لها شبيهٌ ، وقد ضربَ الناسُ في كلِّ بلدٍ بعيدٍ بها الأشباهَ .

١٢ ـ أيُّ الملوكِ ، لهُ أدنى خصائِصِهِ كـأنهـا وطـنٌ مـن غيـرِهِ خـالِ ؟

وأيُّ ملكٍ منَ الملوكِ ، يَتَحَلَّى بأقلِّ صفةٍ منْ صفاتهِ التي تجعلُ كلَّ وطنٍ منَ الأوطانِ خالياً لِعَدَمِ وجودِها فيه .

١٣ ـ في حِلْمِهِ في تقاهُ في سياستِهِ فـي عـدلِـهِ واحـدٌ مفقـودُ أشكـالِ

فهو واحدٌ فردٌ في أناتِهِ في وَرَعِهِ في تدبيرِهِ أمورَ دولتِهِ في حكمِهِ العادلِ ، ليس لهُ مثيلٌ بينَ الملوكِ .

١٤ ـ تشبيهُ مَنْ بـ : أنو شروانَ شبَّهَهُ كمثـلِ تشبيهِـهِ تـاجـاً بِخَلْخـالِ

فَمَنْ يُشَبِّهْ شمسَ الملوكِ بكسرى أنو شروان أحدِ ملوكِ الفرسِ يكنْ تشبيهُهُ تشبيهَ التاجِ بالخَلْخالِ .

١٥ ـ ولـو أصـابَ أنـو شـروانَ سيـرَتَـهُ لبـاسَ أخْمَصَـهُ مـنْ فـرطِ إجـلالِ

ولَوِ استطاعَ أنو شروانَ أنْ يجعَلَ سياسَتَهُ رعيتَهُ رشيدةً مستقيمةً لَقَبَّلَ باطنَ قدمِ شمسِ الملوكِ إكباراً عظيماً لهُ واعترافاً له بأنهُ معلِّمُهُ .

١٦ ـ عَمَّ الرعايا بإنصافٍ، وخَصَّ ذوي علـومِهِـمْ بعطـايـا الجـاهِ والمـالِ

شَمِلَ أفرادَ رعيَّتِهِ بعدلٍ ، وفَضَّلَ أصحابَ العلمِ منهمْ بأُعطياتٍ ، تناسبُ منزلَةَ كلِّ واحدٍ منهمْ .

١٧ ـ يُصْغي إليهمْ ، ويُصفيهمْ مَوَدَّتَهُ ويَصطفيهِـمْ بـإحسـانٍ وإجمـالِ

يَسْتَمِعُ إلى شكاياتِهِمْ ، ويُقَدِّمُ لهمْ مَحْضَ مَحَبَّتِهِ ، ويختارُ منهمْ منْ يراهُ فاضلاً بإكرامٍ واعتدالٍ .

١٨ ـ كـأنَّ إقليمَـهُ ممّـا يحصِّنُـهُ مِـنْ كَيـدِ كـلِّ عَـدُوٍّ خِيسُ رِئبـالِ

وكأنَّ أرضَهُ بما يحفظُها مِنْ غَدْرِ كلِّ عَدُوٍّ ، صارَتْ عرينَ الأسدِ .

١٩ ـ المسلمـونَ نِيامُ في مراقِدِهِـمْ وأنـتَ يقظـانُ سـارٍ بيـنَ أهـوالِ

وصارَ المسلمونَ راقدين آمنينَ في بيوتهمْ ، وأنتَ صاحٍ ماشٍ بينَ الأمورِ المخيفةِ .

٢٠ ـ فـأيُّ قـومٍ لهـمْ أمـنٌ كـأمنِهـمُ ؟ هيهـاتَ ، زُلْـزِلـتِ الـدنيـا بـأوجـالِ

فقُلْ لي يا صاحبي : أيُّ قومٍ لهمْ طمأنينةٌ وسكينَةٌ مثلُ طُمأنينتِهِمْ وسكينتِهِمْ ؟ إنَّ ذلكَ أمرٌ بعيدٌ حصولُهُ بُعْدَ السماءِ عنِ الأرضِ ، ولو حدثَ ذلكَ لاضطربتِ الدنيا خوفاً وفزعاً .

٢١ ـ دامَتْ لكَ الدولةُ الزهراءُ ساطعةً مـا دامَ للشهـرِ سَلْـخٌ بعـدَ إهـلالِ

وإني لأدعو اللهَ طالباً منهُ أنْ يجعلَ دولَتكَ زاهرةً بوجودِكَ منيرةً الدنيا بعدلِكَ ما دامَ للقمرِ في الشهرِ مُحاقٌ بعدَ إهلالٍ .

☆☆ ١٥ وقالَ على بحرِ البسيطِ في رثاءِ خالِهِ :

١ ـ الدهرُ أنكدُ ، لا يبقى على حالِ مـا زالَ يُلْحِـقُ إدبـاراً بـإقبـالِ

إنَّ الزمنَ أخْدَعُ ، سريعُ التغيُّرِ ، مُلحِقٌ الشَّرَّ بالخيرِ .

٢ ـ أيـامُـهُ وليـاليـهِ مـوكَّلَـةٌ بـالنـاسِ فـي قطـعِ آجـالٍ وآمـالِ

وأيامُهُ ولياليهِ مُكَلَّفَةٌ بقطعِ أعمارِ الناسِ وأمنياتِهِمْ .

٣ ـ يَسُـرُّ مَـرُّ الليـالـي مـنْ تمـرُّ بـهِ وفـي مـرورِ الليـالـي مَـرُّ آجـالِ

ويدخِلُ مرورُ الليالي السرورَ إلى منْ يريدُ اللهُ تعالى أنْ يُدخِلَهُ إلى قلبهِ ، وفي هذا المرورِ والدخولِ مرورُ أعمارِ الناسِ .

٤ ـ النـاسُ فـي هـذه الـدنيـا كـأنهـمُ ظُعْـنٌ بـواكِـرُ تُحْـدَى وهـي كـالآلِ

والناسُ في الحياةِ الدنيا مثلُ النساءِ المسافراتِ مُبَكِّرَةً في هوادجَ ، يسوقها الحادي مسرعاً ، فتُرَى كالسرابِ الذي لا يثبتُ على حالٍ .

٥ ـ ولِلـرَّدى مَشْـرَعٌ ، وُرّادُهُ شَـرَعٌ لا فضـلَ فيـهِ علـى ذئـبٍ لـرئبـالِ

وللموتِ موردٌ واحدٌ ، يذهبُ الناسُ إليهِ مُتساوينَ ؛ لا يميزُ الأسدُ فيه على الذئب بشيءٍ .

٦ ـ في الغيبِ ما يُرجعُ الأوهامَ ناكصةً والمـرءُ مُخْتَـدَعٌ بـالـزَّجـرِ والفـالِ

وللزمنِ عِلْمُ اللهِ في غيبِهِ ، يجعَلُ آمالَ الناسِ أوهاماً مغلوبةً ، يَنْخَدِعُ المرءُ فيها بما يقومُ به منْ توقُّعِ الخيرِ بإرسالِ الطيرِ والتفاؤلِ به .

٧ ـ يخالُ بالفألِ بابَ الغيبِ مُنْفَتِحاً والغيـبُ مُسْتـوثَـقٌ منـهُ بـأقفـالِ

ويظُنُّ المرءُ أنهُ يفْتَحُ بابَ الغيبِ بأعمالٍ ، يَخْتَرِعُها ، ويَسْتَبْشِرُ بها ولا يدري أنَّ الغيبَ مسدودٌ دونَهُ بأقفالٍ منيعةٍ .

٨ ـ ضعوا سرابيلَ أُعجبتُمْ بِلِبْسَتِها   إنَّ التُّقَى ، لو عَلِمْتُمْ ، خيرُ سِرْبالِ

واتركوا أيها الناسُ ملابسَ وَهْمٍ ، قد أحبَبْتُموها ، واعلموا أنَّ طاعةَ اللهِ فُضْلَى الثيابِ ، فَأَلْزَمُوها .

٩ ـ أمامَكمْ أبعدُ الأسفارِ ، فاحتقبوا   زاداً ، ولا زادَ إلاّ حسنُ أعمالِ

فإنَّ أمامَكمْ سفراً طويلاً بعيداً ، فتزوَّدوا لهُ بزادٍ ، ينفعُكمْ ، هو حسنُ الأفعالِ .

١٠ ـ ما للنوائبِ لا يَنْفَكُّ دَيْدَنُها   غَشْمَى ؟ وهَجّيرُها قهري وإذلالي

وإني لأعجبُ منَ الزمانِ ومصائبِهِ التي لا تَنْقطعُ عنْ عادتِهافي ظلمِها الشديدِ ، ودابُها غَلبتي وإهانتي .

١١ ـ أفاتني الحَظُّ في الإخوانِ كَرَّتُها   وأفنَتِ الصِّيدَ والصُّيَّابَ مِنْ آلي ؟

فهل تركني سهمُ الحَظِّ حينَ لم يَتْرُكْ لي مرورُ الزمنِ أحداً منْ أصحابي ، فأهلكَ الكرامَ والخيارَ منْ أهلي ؟

١٢ ـ أودَتْ بجَدّي ، وما أبقَتْ أخي وطوَتْ   عمّي ، وصادَتْ بأسبابِ الرَّدى خالي

فذهبَ بوالدِ أبي ، ولم يترُكْ أخي ، ولَفَّ عمّي ، وأصابَ بسهمِ الموتِ خالي .

١٣ ـ وغَيْرُهُمْ منْ رجالِ الحيِّ طائفةٌ   تَمُّوا لتَتْميمِ أقوالٍ بأفعالِ

ورجالاً منْ أهلِ الحيِّ ، كانوا كُلُّهُمْ يريدونَ أنْ يكونوا كُمَّلاً بتحقيقِ الأقوالِ بالأفعالِ .

١٤ ـ وطُفْتُ في هذهِ الدهماءِ بَعْدَهُمُ   فما أصادفُ إلا زُورَ أقوالِ

وجُلْتُ في أرجاءِ الأرضِ بعدَ موتِهِمْ ، فما وجدْتُ من الناسِ إلاّ الأقوالَ الكاذبةَ والأفعالَ الدنيئةَ .

١٥ ـ مَضَوا جميعاً ، فلا ديّارَ أُبصرُهُ   منهمْ متى ما أدَرْتُ الطَّرْفَ أحوالي

قَضَى منْ أُحِبُّ قبلي ، فلا يَقَعُ نظري على دارٍ ، وأوَجِّهُهُ إلى آخرَ ، وأعودُ إليه ، إلاّ ويقالُ لي : لقد مَضَى صاحبُهُ ، وهلكَ .

١٦ ـ تَقَدَّموني إلى حوضِ الرّدى فُرُطاً   وإنني واطىءٌ أعقابَهُمْ تالي

وسبقوني إلى موردِ الموتِ جميعاً ، وإنني ، سأتبعُ طريقَهُمُ الذي سلكوهُ ، وأسيرُ وراءَ عقِبهم .

١٧ ـ كانتْ رزاياهمْ أضلالَ أوديةٍ   لكنْ رزيَّةُ خالي صِلُّ أصلالِ

وكانتْ مصائبي فيهمْ ، قد غُيِّبَتْ في مناحي أوديةٍ ، لكنَّ مصيبتي في خالي ما تزالُ باقيةً

كالحيةِ ، تلسعُني بسمومِها الشديدةِ .

١٨ ـ تباعدَتْ عن ضياءِ الشمسِ مهجتُهُ   وفـاتَهـا رَوحُ أسحـارٍ وآصـالِ

وصارَتْ نفسُهُ بعيدةً عن نورِ الشمسِ التي ابتعدتْ عنها أطيابُ نفسِهِ في كلِّ يومٍ قُبيلَ طلوعِ الشمسِ وقُبَيلَ غروبِها .

١٩ ـ وحَـلَّ فـي حُفـرةٍ غبـراءَ مظلمـةٍ   فـرداً وحيـداً بـلا أهـلٍ ولا مـالِ

ونزلَ في وَهدةٍ ترباءَ مُعْتَمةٍ، وبقيَ فيها وحدَهُ، لا أهلَ، يؤنسونَهُ، ولا مالَ، ينعَمُ بهِ.

٢٠ ـ إلاّ ثـلاثـةَ أثـوابٍ مُجَـدَّدَةً   ورُبَّ ذي جِـدَّةٍ خيـرٌ مـنَ البـالـي

إلاّ ثلاثةَ أرديةٍ ، لا تَبْلَى لهُ ؛ هي : علمُه الذي يُنْتَفَعُ بهِ ، وصدقاتُهُ الجاريةُ ، وأولادُهُ الذينَ ربّاهُمْ تربيةً صالحةً ، وكم منْ جديدٍ أفضلُ منَ القديمِ المُمَزَّقِ .

٢١ ـ سَقْيـاً لقبـرٍ تـوارَتْ فيـه أعظُمُـهُ   لِكـلِّ ذي هيـدَبٍ بـالـوبـلِ هطّـالِ

وإني لأدعو لهذا القبرِ الذي اسْتَتَرتْ فيه عظامُ خالي اللهَ بالسُّقْيا بكلِّ سحابةٍ قريبةٍ منَ الأرضِ ، ترسلُ غيثَها القليلَ والغزيرَ .

☆☆ ١٦ ـ وقالَ على بحرِ الوافرِ في الرثاءِ والتعزيةِ :

١ ـ علـى تـاجِ النسـاءِ الشمـسُ تبكـي   تـوافـقُ صِنْـوَهـا شمـسَ المعـالـي

إنَّ الشمسَ تنوحُ على سيدةِ النساءِ مشاركةً شقيقَها شمسَ المعالي .

٢ ـ وتَنْـدُبُهـا الليـالـي لابسـاتٍ   حِـداداً ، والنجـومُ مـعَ الليـالـي

وتذكُرُ الليالي مناقبَ تاجِ النساءِ ، وهي مرتديةٌ ثوبَ الحزنِ الأسودِ ، وتشاركُها النجومُ في البكاءِ والنواحِ وارتداءِ ثوبِ الحزنِ .

٣ ـ لئنْ تاجُ النساءِ مضَتْ ، وفاتَتْ   لقـد أبقَـتْ لنـا تـاجَ الـرجَـالِ

فإنْ ماتَتْ تاجُ النساءِ ، وتركتِ الدنيا ، فقد خَلَّتْ لنا تاجَ الرجالِ شمسَ المعالي .

٤ ـ وأربابُ الحِجَى ، إنْ يَسْلَموا لم   أُبـالِ بمـوتِ ربّـاتِ الحجـالِ

وإني لا أكترثُ بموتِ صاحباتِ القبابِ والستورِ إذا بقيَ أصحابُ العقولِ المُفَكِّرةِ أحياءً .

٥ ـ بنـو الأيـامِ لـو مـاتـوا جميعـاً   وعـاشَ لنـا وحيـداً لـم نُبـالِ

ولو ماتَ رجالُ الزمانِ كلُّهُمْ ، وبقيَ شمسُ المعالي وحدَهُ لنا لا نَهْتَمُّ ، ولا نكترثُ .

٦ ـ عـزيـزٌ مثلُـهُ كَـرَمـاً ومجـداً   وخُـذْ أمثـالَهُـمْ عَـدَدَ الـرمـالِ

فمَنْ كانَ ذَا مَجْدٍ وعِزَّةٍ مثلَهُ ، فهو عزيزُ ماجدٌ ، وخذْ ذلكَ مثلاً في رجالٍ عددِ ذراتِ الرمالِ .

☆☆ ١٧ وقالَ على بحرِ المنسرحِ في استقبالِ أميرٍ :

١ ـ أهلاً وسهلاً بموكبٍ عالي   أقبلَ في غبطةٍ وإقبالِ

إني أستَقبلُ موكبَ هذا الرجلِ العظيمِ مُتَمَنِّياً أنْ أكونَ لهُ أهلاً ، ويكونَ بيتي لهُ سهلاً لأنهُ ، أتى إلينا بالسرورِ والبهجةِ .

٢ ـ وحاطَهُ اللهُ منْ جوانِبهِ   في وقتِ حلٍّ ووقتِ تَرْحالِ

وأدعو اللهَ تعالى أن يلُفَّهُ برحمتِهِ في كلِّ حالٍ ووقتٍ لهَ في نزولِهِ أرضاً ورحيلهِ إلى ما يقصِدُ .

٣ ـ حتى نرَى طلعةَ الأميرِ على   أسعدِ طيرٍ بأيمُنِ الفالِ

إلى أنْ نَرَى ظهورَ الأميرِ على خيرِ قُرعةٍ مصحوبةٍ ببركاتِ البشرى .

٤ ـ سَلَّى فؤادي حديثُ مَقْدَمهِ   عنْ كلِّ وَجْدٍ وكلِّ بَلْبالِ

وجعلَ حديثُ مجيئِهِ قلبي ، ينسَى كلَّ حزنٍ وكلَّ وسواسٍ ، يكابدُهُ .

٥ ـ فَرُحْتُ لا أستزيدُ في فرحي   ضاحكَ سِنٍّ مُنَعَّمَ البالِ

وصرْتُ أُقلِّلُ منْ سروري مُجْتَزئاً بضحكٍ ، يظهِرُ أسناني ، ويُصَوِّرُ راحةَ شأني وسعادة حالي .

٦ ـ وقالَ حسّادُهُ ، وقد صدقوا :   دارَتْ علينا الرَّحا بأهوالِ

وقالَ أعداءُ الأميرِ حقًّا : دارَ الزمانُ علينا دورتَهُ ، وأرانا شدائدَ عظيمةً .

٧ ـ وهزَّني الشوقُ والنزاعُ إلى   لقاءِ مَولًى أعزَّ مِفْضالِ

وهَيَّجَني الشوقُ والحنينُ إلى رؤيةِ سَيِّدٍ أكرمَ فَضَّالِ .

٨ ـ لولا انكسارُ الجناحِ والوهنُ في الـ   ـقُوَّةِ ثم القصورُ في الحالِ

ولو لم يكنْ بإحدى رجلَيَّ كسرٌ وفي قوتي وشدتي ضعفٌ وفي شأني عجزٌ .

٩ ـ لكنتُ أستقبلُ الأميرَ على   فراسخٍ عِدَّةٍ وأميالِ

لجعَلْتُ مكانَ استقبالي الأميرَ على بعدِ فراسخَ كثيرةٍ منْ مكاني هذا وأميالٍ عديدةٍ .

١٠ ـ وفي دعائي ومِدْحتي عِوَضٌ   مِنْ كُلَفٍ ، لم تَلِقْ بأمثالي

وإني لأرى في طلبي منَ اللهِ تعالى وصولَهُ سليماً مُعافًى وفي قصيدتي هذه في مدحِهِ

تعويضاً عنْ متاعبَ ، لا تناسبُ أحوالَ أناسٍ مثلَ أحوالي .

☆☆ ١٨ ـ وقالَ على بحرِ الخفيفِ في المدحِ :

١ ـ حَيِّيا أرسُمَ المحلِّ البالي   وقِفا في معارفِ الأطلالِ

يا صاحبيَّ سَلِّما على أطلالِ المكانِ القديمِ الخَلِقِ ، وَقِفا في المكانِ الذي يَذكُرُ الأيامَ الماضيةَ .

٢ ـ وسَلاها عنِ القطينِ عسى أنْ   تَجِدا عندَها جوابَ السؤالِ

وأسألاها عن السكانِ الذينَ رَحَلوا ، لعَلَّها تُفيدُكُما بالجواب الوافي :

٣ ـ أينَ سُعْدى ؟ وأينَ أترابُها الهيـ   ـفُ الخصورِ الرواحجُ الأكفالِ ؟

أينَ سعادُ ؟ وأينَ رفيقاتُ طفولتِها وصِباها نحيلاتُ الخصورِ ثقيلاتُ الأردافِ ؟

٤ ـ اللواتي إذا بَرَزْنَ هَزَزْنَ الـ   ـبانَ ما بينَ أشْمُسٍ ورمالِ

اللواتي إذا مَشَيْنَ هَزَّتْ كلُّ واحدةٍ منهنَّ جِسمَها ، وامتزجَ لألاءُ أجسادِهِنَّ بلونِ الرمالِ الزاهيةِ .

٥ ـ وإذا ما أجَلْنَ أعيُنَ آجا   لٍ رمَيْنَ النفوسَ بالآجالِ

وإذا ما طُفْنَ بأعيُنِهنَّ التي تشبهُ عيونَ بقرِ الوحشِ أصبْنَ النفوسَ والأرواحَ إصابةَ الموتِ .

٦ ـ عاصفُ الشَّدِّ لو تُفَتِّشَ عنهُ   نسبةً كانَ منْ نتاجِ الشَّمالِ

وإذا ما لَعِبْنَ لعبةَ الركضِ ، واشتدَّ هُوِيُّها ، ضاعَتْ جهةُ مَنْ كانَ ركضُها منَ اليمينِ أو منَ الشَّمالِ .

٧ ـ ولقد أمَّلوا أموراً ، أباها   قَدَرُ اللهِ مُبْطِلُ الآمالِ

وكانَ الشُّبَّانُ قد رسموا أمنياتٍ ، لم يرضَ بها أمرُ اللهِ الذي يمحو ، ويزيلُ الأمنياتِ ؟

٨ ـ ينفعُ النصلُ حينَ يصحبُهُ النَّصْـ   ـرُ ، وإلاّ فَقَلَّ نفعُ النِّصالِ

ويفيدُ حدُّ السلاحِ إذا رافقَهُ النصرُ ، وإلاّ فإنَّ فائدةَ الحدِّ قليلةٌ أو معدومةٌ .

٩ ـ قد أتاهُمْ مظفَّرٌ منصورٌ   شِبْلُ ضِرْغامةٍ أبو الأشبالِ

وقد كانَ لهمْ فائزٌ مُنْتَصِرٌ بفضلِ اللهِ ابنُ الأسدِ أبو الأشبالِ .

١٠ ـ حَنَّكَتْهُ تجاربُ الحربِ قِدْماً   ومِراسُ القتالِ بعدَ القتالِ

عَرَكَتْهُ اختِباراتُ الحروبِ منذُ القِدَمِ : تَجربَةَ إثْرَ تجربَةٍ وحرباً إثرَ حربٍ .

١١ ـ ببحارٍ مِنَ الكتابِ ما جَتْ   بالمواضي والقنا العُسّالِ

وكانَتْ جماعاتُ الجيشِ التي قادَها ، تشبهُ البحارَ إذا ثارَ موجُها ، وتَلْتَمِعُ فوقَ رؤوسِها السيوفُ القواطعُ والرماحُ الخفيفةُ .

☆☆ ١٩ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في المدحِ :

١ ـ طَلَعَتْ علينا مِنْ رُواقٍ عالي   في رَبْرَبٍ ، يَعْثُرْنَ في الأذيالِ

ظهرَتْ تلكَ الفتاةُ مع جماعةٍ على سطحٍ عالٍ ، يمشِينَ ، مضطرباتٍ بسببِ أذيالِ أثوابِهنَّ الطويلةِ .

٢ ـ فرمَقْتُها ، فتطأطأَتْ لِحيائها   وتورَّدَ الخدانِ كالجريالِ

فنظرْتُ إليها ، فخفضَتْ رأسَها حياءً ، وعلا خَدَّيها حمرةُ الخمرةِ .

٣ ـ وتَلَفَّتَتْ فَرَقاً إلى لِدَةٍ لها   بيضاءَ مُخْطَفَةِ الحشا مِكسالِ

وانعطفَتْ خوفاً إلى رفيقةٍ لها بيضاءِ اللونِ ضامرةِ البطنِ قليلةِ الحركةِ .

٤ ـ قالَتْ : فتًى ، يرنو إلينا ، فانظري   ماذا يقولُ جماعةُ العُذّالِ ؟

وقالَتْ لها : إنَّ شابًا ، يُطيلُ النظرَ إلينا ، فانظري إليه ، وقولي : ماذا يقولُ جماعةُ الحسادِ عنْ هذا الأمرِ ؟

٥ ـ فأجابتِ اللِّدَةُ : اطْمَئِنّي ، وأْمَني   لا يَخْطُرَنَّ الهمُّ منكِ ببالِ

فردَّتْ صاحبتُها : اهْدَئي ، ولا تخافي ، ولا تجعلي الحزنَ ، يسيطرُ على نفسِكِ .

٦ ـ ماذا عليكِ ؟ وكُلُّ طَرْفٍ طامحٌ   نحوَ الهلالِ ، وأنتِ أيُّ هلالِ ؟

ما ذنبُكِ إنْ كانَ كلُّ نظرٍ ، يرتفعُ ليرى حسنَ الهلالِ ، وأنتِ البدرُ في كمالِهِ ؟

٧ ـ ثم استَقَلَّتْ بعد ذاكَ ، فَسَلَّمَتْ   أهلًا بها وبذاكَ الاستقلالِ

ثم اتَّجَهَتْ نحو مُنْطَلَقِ الرحيلِ ، وحَيَّتْ مَنْ حولَها ، فقلْتُ داعياً اللهَ تعالى أنْ تجدَ برحيلِها مَنْ يكونُ لها أهلًا .

٨ ـ نأتْ بِرِدْفٍ كالكثيبِ وحَرَّكَتْ   قَدًّا كخوطِ البانةِ المَيّالِ

وابتعدَتْ عنْ أنظارِنا بِكِفْلٍ ضخمٍ كالتَّلِّ ، وثَنَتْ قامةً ليِّنةً ، تشبهُ غصنَ شجرةِ بانةٍ كثيرةِ الميلِ .

٩ ـ وتَبَسَّمَتْ ومَضانَ برقٍ لامعٍ   في مَتْنِ أسْحَمَ عارضٍ هطّالِ

وَتَبَسَّمَتْ ، فرأيتُ لمعانَ برقٍ ، يتلألأُ في ظلمةِ ليلٍ شديدِ السوادِ ، خِلالَ سحابةٍ ، تحملُ مطراً غزيراً .

١٠ ـ عـنْ أشْنَبَ كـالأقحوانِ مـرتَّـلٍ   يـــروي الضجيـــعَ ببـــاردٍ سَلْســـالِ

وكان ذلكَ اللمعانُ لألاءَ أسنانِها البيضِ بياضَ زهورِ الأُقحوانِ المنسوقةِ ، يرتوي برُضابِها الراقدُ بفراشِهِ لبرودتِهِ وسوغِهِ .

١١ ـ كـالـزنجبيـلِ مَـزَجْتَـهُ بمُـدامـةٍ   غَنِيَـتْ عصـوراً فـي مَهَـبِّ شَمـالِ

وينتعشُ بأنفاسِها التي تشبهُ رائحتُها رائحةَ خمرةٍ ، خُلِطتْ بزنجبيلٍ ، ثم خُزِنَتْ أزماناً طويلةً في أوعيةٍ ، تَهُبُّ عليها ريحُ الشَّمالِ .

١١ ـ راحٌ ، تُنسيكَ الهمـومَ بِـرَوحِهـا   وتـريـكَ وجـهَ المـاءِ وجْـهَ الآلِ

وإنْ نِلْتَ منْ هذهِ الخمرةِ القليلَ ، تجدْ نفسكَ ناسياً كلَّ الهمومِ والأحزانِ مُنْتَشِياً برائحتِها ، وتَرَ وَجْهَ الأرض كلَّهُ سراباً .

١٣ ـ وإنِ احْتَسَى منهـا ثـلاثـاً شـاربٌ   لـــم يَنْتَبِـــهْ منهـــا ثـــلاثَ ليـــالِ

وإنْ شربَ منها فلانٌ ثلاثَ جَرْعاتٍ ، لم يصحُ من سكرتِهِ إلاّ بعدَ ثلاثِ ليالٍ .

١٤ ـ فـإذا صحـا بعـدَ الثـلاثِ حَسِبْتَـهُ   طلـلاً ، يخـالُـهُ النـاسُ كـالأطـلالِ

وإذا رأيتَهُ بعد ثلاثِ ليالٍ صاحياً قُلْتَ : إنهُ رَسْمٌ بالٍ ، وظَنَّهُ الناسُ مثلَ رسمِ أطلالٍ .

١٥ ـ صهبـاءُ يَفْعَـلُ بـالعقـولِ سُلافُهـا   فعـلَ العـزيـزِ المـرتَجَـى بـالمـالِ

وهي ذاتُ لونٍ أصفرَ مشوبٍ بحمرةٍ ، وأوّلُ تَحَلُّبٍ منَ العنبِ مِن غيرِ عَصْرٍ ، تَفْعَلُ بالعقولَ ما يعمَلُ الابْنُ (المُدَلَّلُ) بالمالِ .

١٦ ـ صاغوا لِنِسْوَتِهِمْ قلائدَ عسجدٍ   فَضَّلْنَهـــا بعقـــائـــقٍ ولآلـــي

صَنَعوا لنسائِهِمْ عقوداً منْ ذهبٍ ، جَعَلْن في أجزائها خرزاً أحمرَ ودُرَراً .

١٧ ـ وأبو المحاسِنِ ، صاغَ منْ نعمائِهِ   لِمُقَلَّـــدِ العليـــاءِ عِقْـــدَ كمـــالِ

ووضعَ أبو المحاسِنِ في صدرِ كلِّ مَنْ أتى بعملٍ عظيمٍ قلادةَ الكمالِ تقديراً لهُ ، وكانَ ذلكَ مِنْ مكارِمِهِ .

١٨ ـ ناطوا جميعاً بالفضولِ همومَهُمْ   وهمـــومُـــهُ بـــالفضـــلِ والإفضـــالِ

وعلَّقَ أفرادُ رعيَّتِهِ آمالَهُمْ وحاجاتِهِمْ بأرباحِهِ منْ ضِياعِهِ وتجارتِهِ ، وعلَّقَ أبو المحاسِنِ همومَهُ بسَدِّ حاجاتِ رعيتِهِ بفواضلِ أموالِهِ وإنعامِهِ عليهم بها .

١٩ ـ يهـوي إليـهِ الـوافـدونَ كـأنـهُ   وِرْدٌ ، ينـادي بـالقَطـا الأرسـالِ

يسرعُ إليه المسافرونَ كأنهُ نبعُ ماءٍ ، يُرسِلُ القطا إليهِمْ جماعاتٍ متتابعةً ، تدعوهمْ إلى

النزولِ بديارِهِ ومائِهِ .

٢٠ ـ مُتَطَلِّقُ الخَدَّيْنِ عندَ لقائِهِ طَلْقُ اليدينِ إذا احتبى لنوالِ

ويستقبلُ النازلينَ به بارقةً أساريرُ وجهِهِ ، ويَشتَمِلُ ثوبَهُ حينَ يَهُمُّ بالإعطاءِ .

٢١ ـ في جودِهِ كالسيلِ إلاّ أنهُ في حِلْمِهِ جبلٌ منَ الأجبالِ

وهو سيلٌ في كرمِهِ ، وجبلٌ عظيمٌ في عَقْلِهِ وأناتِهِ .

٢٢ ـ وإذا دَعَوهُ عارضاً ، فمرادُهُمْ غَيمٌ ، يفيضُ عليهمْ بِسِجالِ

وإذا كانَ مارًّا بهمْ فدعَوهُ إليهمْ ، فكأنهمْ دَعَوا سحاباً حاملاً مطراً غزيراً .

٢٣ ـ زعمَ الأعادي أنَّ فيه تكَبُّراً لا دَرَّ دَرُّ مقالةِ الجُهّالِ

كذبَ الأعداءُ حينَ قالوا : فيه زُهُوٌّ ، فلا زكا قولُ الجُهّالِ الحُسّادِ .

٢٤ ـ ما في العزيزِ تكَبُّرٌ بل عِزَّةٌ في النفسِ ، وهي سَجيّةُ الرِّئْبالِ

وليس في نفسِ الكريمِ الشريفِ كِبْرٌ ، وإنما بها قُوَّةٌ وإباءٌ ، وهما طبيعةُ الأسدِ .

٢٥ ـ وبلى به كِبْرٌ على أعدائِهِ وتواضُعٌ عَجَبٌ لكلِّ مُوالِ

وقد مَنَحَهُ اللهُ ، عَزَّ ، وجَلَّ ، تِيهاً على أعدائِهِ وتَخاشُعاً عظيماً لكلِّ صديقٍ خالصِ الخَلَّةِ .

٢٦ ـ لو أبصرَ الحسادُ خَفْضَ جناحِهِ يومَ القِرى للرُّفقةِ النُّزّالِ

ولو رأى الأعداءُ تَذَلُّلَهُ في إضافتِهِ أصدقاءَهُ الذين نزلوا بديارِهِ .

٢٧ ـ حَسِبوهُ عبدَهُمُ ، وإنَّ الحُرَّ عبـ ـدُ الضيفِ إلاّ ساعةَ التَّرحالِ

لَظَنُّوهُ عبداً لهمْ ، ولم يعلموا أنَّ الكريمَ عبدُ ضيفِهِ إلى ساعةِ رحيلِهِ .

☆☆ ٢٠ ـ وقالَ على بحرِ الوافر في الزهدِ [الورقة الأولى من مخطوطة (المفرد والمؤلف) للزمخشري تحقيق الدكتورة بهيجة الحسني ـ مجلة المجمع العلمي العراقي المجلد ١٥ سنة ١٩٦٧ م ص٩٨] :

١ ـ بلوتُ الناسَ قَرْناً بعد قَرْنٍ فلم أرَ غيرَ ختّالٍ وقالي

لقد خبرْتُ الناسَ زمناً بعدَ زمنٍ ، فما وجدْتُ منهمْ إلاّ مكّاراً كذّاباً في فعلِهِ وقولِهِ .

٢ ـ وذُقْتُ مرارةَ الأشياءِ طَعْماً فما طَعْمٌ أمرَّ منَ السؤالِ

وطَعِمْتُ مرارةَ الأشياءِ ، فرأيتُ أشَدَّها مرارةً ذُلَّ السؤالِ .

٣ ـ ولم أرَ في الخطوبِ أشدَّ هَولاً وأصعبَ منْ مُعاناةِ الرجالِ

ولم أجدْ في المصائبِ أقسى فظاعةً وأصلَبَ وقعاً منْ مُقاساةِ الرجالِ .

☆☆ ٢١ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في التوبةِ [مجموعة برلين في أكثر من موضع] :

١ ـ يا مَنْ يَرى مَدَّ البعوضِ جناحَهُ ... فـي ظلمـةِ الليـلِ البهيـمِ الأليـلِ

يا ربِّ يا منْ تَرى قَدْرَ جناحِ البعوضةِ في ظلامِ الليلِ شديدِ السوادِ .

٢ ـ ويَرى مَناطَ عروقِها في نَحْرِها ... والمُـخَّ فـي تلـكَ العظـامِ النُّحَّـلِ

وترى رباطَ أورِدَتِها وشرايينها في عروقِها في أعلى صَدْرِها ومخَّ العظامِ الرقيقةِ جدًّا فيها .

٣ ـ ويَرى خريرَ الدمِ في أعضائها ... مُتَنَقِّـلاً مـنْ مَفْصَـلٍ فـي مَفْصَـلِ

وترى مسيرَ الدمِ ، وتَسْمَعُهُ في أجزاءِ جسمِها ، متنقِّلاً بينَ مَفاصِلِها .

٤ ـ ويَـرى لتحـريكِ الجنينِ لبطنِهـا ... فـي ظلمـةِ الأحشـا بغيـرِ تَنَقُّـلِ

وترى تحريكَ الجنينِ بِبطنِها في ظلمةِ الأحشاءِ دونَ تعَلُّمٍ منْ أحدٍ .

٥ ـ ويَرى ، ويسمَعُ فوقَ ما هو دونهُ ... فـي بحـرِ غـامـقٍ مُتَجَنـدلِ

وتَرى ، وتَسمَعُ أدَقَّ ما أقلُّ منْ ذلكَ في بحرٍ سحيقٍ منْ حجرٍ صغيرٍ .

٦ ـ لا شيءَ يُشبِهُـهُ ، وليـس يفـوتُـهُ ... فـي مُلْكِـهِ مِثْقـالُ حبَّـةِ خَـرْدَلِ

لا شيءَ يُماثِلُهُ ، ولا يَعْزبُ عنْ معرفتِهِ شيءٌ كَقَدْرِ حبَّةِ خَرْدلٍ .

٧ ـ يـا مَـنْ أحـاطَ بكـلِّ شـيءٍ علمُـهُ ... وعليـهِ فـي كـلِّ الأمـورِ تَـوَكُّلـي

يا ربِّ يا مَنْ أحاطَ علمُكَ بكلِّ شيءٍ ، إني أسَلِّمُ أموري كلَّها إليكَ .

٨ ـ إنـي سـألتُـكَ بـالنبيِّ المصطفـى ... وبمـا تَـلاهُ مـنَ الكتـابِ المُنَـزَّلِ

أطلبُ منكَ بفضلِ رسولِكَ المختارِ وبآيِ القرآنِ الكريمِ .

٩ ـ تَمْنُـنْ علـيَّ بتـوبـةٍ أمحـو بهـا ... مـا كـانَ منـي فـي الـزمـانِ الأوَّلِ

أنْ ترضَى عليَّ ، وتمنَحَني توبةً ؛ أُزيلُ بها ما بَدَرَ مني منْ معاصٍ في شبابي .

١٠ ـ ثـم الصـلاةُ علـى النَّبـيِّ وآلـهِ ... خيرِ الخلائقِ صاحبِ المجدِ العَلِي

وتُصَلِّيَ على خاتمِ أنبيائكَ وآلهِ وشيعتِهِ أفضلِ الخلقِ ذي العزِّ العَلِيِّ .

١١ ـ والآلِ والأصحابِ أيضاً جميعاً ... أزواجِـهِ والتـابعيـنَ ومَـنْ يَلـي

وعلى الأهلِ والأصحابِ كلِّهِمْ : أزواجهِ ومَنْ تَبِعَهمْ ومَنْ جاءَ بعدَهمْ .

☆☆ ٢٢ وقالَ على بحرِ المنسرحِ في المدحِ :

١ ـ يا عاذلي اعْفِني منَ العَذَلِ رُمْتَ فراغي ، فَزِدْتَ في شَغَلي

يا لائمي دَعْ عنكَ لومي ، لقد أردْتَ بِنُصْحِكَ أنْ يَخْلُوَ قلبي منَ الهمومِ ، فَزِدْتَني همًّا على همّي .

٢ ـ بقولِكَ ازدادَ في صبابتِهِ قلبيَ ، فاسكُتْ إذنْ ، ولا تَقُلِ

وزادَ قولُكَ قلبي شوقاً ، فَصَهْ ، ولا تستَمِرَّ في الكلام .

٣ ـ إيّاكَ أنْ تُكْثِرَ النصيحةَ لي فما اتِّباعُ النصيحِ منْ عملي

واحْذَرْ منْ أنْ تردِّدَ نصائحَكَ لي فأني لستُ تابعاً نصيحةَ أحدٍ في يومٍ منَ الأيامِ .

٤ ـ واعذُرْ ، فإنَّ القضاءَ تَيَّمَني لا ذنبَ لي ، ليسَ ذاكَ منْ قِبَلي

وجِدْ لي عذراً فإنَّ القَدَرَ قَصَدَني بالإذلالِ ، ولم يكُنْ لي ذنبٌ في ذلكَ أبداً .

٥ ـ أُحدِّثُ النفسَ بالسُّلُوِّ فما تَقْبَلُ إلاّ الحديثَ بالغَزَلِ

أكلِّمُ نفسي عنِ النسيانِ ، فلا تريدُ أنْ أتكلَّمَ ، ولاتتَكَلَّمُ إلاّ عنِ النساءِ والنسيبِ بهنَّ .

٦ ـ وسائلٍ : كيفَ أنتَ ؟ قلتُ لهُ : انظرْ إلى حالَتي ، ولا تَسَلِ

وكم منْ سائلٍ ، قالَ لي : كيفَ حالك ؟ فأجَبْتُهُ : شاهِدْني ، ولا تسألْني عنْ شيءٍ .

٧ ـ يُخْبِرْكَ إمحالُ وجنتيَّ على واكفِ دمعٍ عليهما هَطِلِ

فإنَّ ضعفَ خَدَّيَّ ، يُعْلِمُكَ عنْ سيلِ الدمعِ عليهما وهطولِهِ .

٨ ـ إنَّ فؤادي فؤادُ مُخْتَبَلِ بالمُقَلِ الساحراتِ مُخْتَتَلِ

وإنَّ قلبي قلبُ مَنْ أنهكَتْهُ نظراتُ الساحراتِ ، وخَدَعَتْهُ .

٩ ـ وموقفٍ للوداعِ نِلْتُ بهِ ما بعضُهُ منذُ كنتُ لم أنلِ

وإنْ أنسَ فلا أنسى يومَ الوداعِ الذي فُزْتُ بهِ ، ما فُزْتُ ببعضِهِ منذُ أنْ أصابَني حبُّها .

١٠ ـ في ساعةٍ قَبَّلَتْ بها شَفَتي لُعْسَ شِفاهٍ لذيذةِ القُبَلِ

ففي لمحةٍ منْ ساعةٍ لثَمَتْ بها شفتايَ لَمَى شفاهٍ ذي قبلاتٍ لذيذةٍ .

١١ ـ وضَمَّ ما بينَنا العناقُ ، فلو أسَلْتَ ماءً في البَينِ لم يَسِلِ

والتصقَ جسدانا بالعناقِ حتى لو صَبَبْتَ الماءَ علينا لم يدخُلْ في ما بيننا .

١٢ ـ لولا الفراقُ الذي يُقارِنُهُ كأنهُ السُّمُّ ، شيبَ بالعسلِ

ولولا البَيْنُ الذي يَتْبَعُ الوداعَ لكانَ ذاكَ العناقُ كالسُّمِّ المخلوطِ بالعسلِ .

١٣ ـ لا حبذا صُبْحَةُ الرحيلِ ، وقد أسْخَنَ عينيَّ سائقُ الإبلِ

بئسَ الصُّبْحةُ صُبْحةُ السفرِ ، فقد جعلَ صوتُ سائقِ الإبلِ عينيَّ ساخنتَينِ بكثرةِ دموعِهما .

١٤ ـ ووقفتي في الديارِ بعدَهمُ أبكي ، وأبكي معارفَ الطللِ

وبئسَتِ الوقفةُ وقفتي في عرصةِ دارهمْ بعدَ رحيلِهمْ ، أبكي فراقَهُمْ ، وأبكي حالي وحالَ ديارِهمُ التي أصبحَتْ خاليةً منهمْ .

١٥ ـ كأنَّ شكلي غداةَ جَدَّ بهمْ رحيلُهمْ شكلُ شاربٍ ثمِلِ

وصارَتْ هيئتي بُكرةَ ، ابتعدوا عني برحيلِهمْ كهيئةِ مَنْ شربَ كثيراً ، وضاعَ رَشادُهُ .

١٦ ـ بالحَدِّ قاضي القضاةِ أنذَرَهُ فقلبُهُ قلبُ خائفٍ وجِلِ

فتَوَعَّدَهُ قاضي القضاةِ بإقامةِ الحَدِّ عقوبةِ شاربِ الخمرِ عليهِ ، فصارَ قلبُهُ ، يخفِقُ خفوقَ الخائفِ الفَزِعِ .

١٧ ـ مَعْدِلَةُ الشارِعيِّ أحمدَ قد صَيَّرَها الناسُ مضربَ المثلِ

وجَعَلَ الشارعيُّ أحمدُ إنصافَهُ مَثَلاً ، يُحْتَذَى ، ويُضربُ به .

١٨ ـ عَدَّلَ مُعْوَجَّ كلِّ واقعةٍ وكانَ يَعْوَجُّ كلُّ معتَدِلِ

وسَوَّى كلَّ ما رآهُ مائلاً منَ الوقائعِ والنفوسِ ، فصارَ كلُّ مائلٍ مستقيماً .

١٩ ـ كانَتْ كمثلِ القِسِيِّ ، فانقلبَتْ في شدةِ الاستواءِ كالأَسَلِ

وكانَتْ أحوالُ أفرادِ رعيتهِ مُعْوَجَّةً غيرَ مستقيمةٍ ، فصارَتْ في صِحَّةِ الاسْتِواءِ كالرماحِ المُثَقَّفَةِ .

٢٠ ـ لو مَرَّ بالخيزُرانِ ناظِرُهُ في يومِ عَصْفِ الرياحِ ، لم يَمِلِ

ولو مرَّ به عودُ الخيزرانِ يوماً ، ونظرَ إليهِ ، وكانتِ الرياحُ آنذاكَ شديدةً عاصفةً لرآهُ واقفاً ثابتاً ، لم تَمِلْهُ قَيْدَ أُنمُلَةٍ .

٢١ ـ ليسَ يَرَى ثانياً لهُ أحدٌ في العدلِ إلاّ المصابُ بالحَوَلِ

ولن يجدَ أحدٌ عَدْلَهُ غيرَ منصفٍ إلاّ إذا أصابَ عينيهِ الحَوَلُ الذي يُري الشيْءَ غيرَ مستقيم .

٢٢ ـ عُذْتُ بِحَقْوَيهِ في الخصامِ ، فما أوطأَ نعلي مَواطِئَ الزَّلَلِ

وقد لجأتُ إليهِ ، وتمسَّكْتُ بإزارِهِ في أمرِ خلافٍ بيني وبين خصومي ، فما جَعَلَ قدمي سائراً في مواطنِ الخطإِ .

٢٣ ـ وانتاشني رأْيُهُ المُوَفَّقُ من   لَجاجِ خَصْمٍ ، ألجَّ مِنْ جُعَلِ

وخَلَّصَني رأْيُهُ الرشيدُ مِنْ شِدَّةِ أقوالِ عَدُوٍّ أقوى منْ دُوَيبَةِ الجُعَلِ التي تلزقُ بالمرءِ ، فلا تفارقُهُ .

٢٤ ـ أنشأَ يَزوي حَقِّي ، ويُبْطِلُهُ   بالهذيانِ الطويلِ والخَطَلِ

وجَعَلَ خصمي يُنَحّي حقِّي ، ويُضَيِّعُهُ بالكلامِ الطويلِ المضطربِ غيرِ المعقولِ الفاسدِ .

٢٥ ـ أضحيتُ مُلْقًى بقاعِ مَضْيَعَةٍ   حولي سرابُ الخِداعِ والحِيَلِ

فصرتُ مرميًّا بقعرِ مَهْلَكةٍ ، يَلُفُّني آلُ النِّفاقِ والكذبِ .

٢٦ ـ يَقْرَعُ حَقِّي بباطلٍ ، فسعَى   أقصى مساعِيهِ في التَّعَصُّبِ لي

وظَلَّ يضربُ حقِّي بِمُنْكَرٍ ، فأسرَعَ الشارِعِيُّ أحمدُ ، وجَدَّ كثيراً في الوقوفِ معي ، يَشُدُّ أزري .

٢٧ ـ مُشَمِّرَ الذيلِ في الإغاثةِ ، لم   يمشِ بذيلٍ هناكَ مُنْسَدِلِ

مُحَقِّقاً أمرَ الإغاثةِ في رفعِ ذيلِهِ ، ولم يترُكْني بينَ يدي خصمي مُهْمِلاً إيّايَ ماشياً بإزارِهِ المُرْخَى .

٢٨ ـ جادَلَ عني خصمي ، فغادَرَهُ   مُنْجدلاً في مواقفِ الجَدَلِ

وناقشَ خصمي عني بحججٍ دامغةٍ ، حطَّمَتْ غُلْواءَهُ ، وتركَهُ واقعاً في مواقفِ المناقشةِ .

٢٩ ـ ناهضَ بالجِدِّ ناصريهِ كما   يجاهدُ الصقرُ واردَ الحَجَلِ

قاوَمَ باذلاً وسعَهُ في سبيلِ مَنْ يطلبُ نُصْرَتَهُ كما يقاومُ الصقرُ طيرَ الحَجَلِ الواردِ لينالَهُ .

٣٠ ـ وَسَّعَ سُبْلي عليهِ بالحكمِ إذْ   ضاقَتْ عليهِ لِزَيغِهِ سُبُلي

وقَدَّرَ الحكمَ لي ببيانٍ وطرقٍ واسعةٍ حتى رأى خصمي أنَّ سُبُلَ غَلَبَتِهِ إيّايَ ، صارَتْ ضَيِّقَةً عليه بسببِ ميلِهِ عن الحقِّ .

٣١ ـ خِفْتُ ، وباليتُ مَنْ تَعَرَّضَ لي   فقالَ لي : لا تَخَفْ ، ولا تُبَلِ

وكنتُ خائفاً مهتمًّا مِمَّنْ يواجِهُني بالخصومةِ ، فقالَ لي : لا تخَفْ ، ولا تَكْتَرِثْ بشيءٍ بعدَ هذا .

٣٢ ـ وقَـرَّ جـأشـي بعـدَ استطـارتـهِ وذادَ عنـــي حَـــوائـــمَ الـــوَهَـــلِ
وهَدَّأَ قلبي بعدَ اضطرابهِ ذعراً ، وأبعدَ عني دوائرَ الخوفِ .
٣٣ ـ طَرَّحني الجَورُ في الحضيضِ، فرَقّا نـــي بـــإنصـــافِـــهِ إلـــى القُلَـــلِ
وكانَ الجَورُ ، قد ألقاني في أعمقِ الأعماقِ ، فرَفَعَني منه الشارعيُّ بعدلِهِ إلى الأعالي .
٣٤ ـ لـو أصبـحَ الحـقُّ فـي ذُرا جَبَـلٍ لاستَنْـــزَلَ الحـــقَّ مـــن ذُرا الجبـــلِ
ولو كانَ حقُّ امرئٍ بعيداً في ذُرْوةِ جَبَلٍ لَصَعِدَ إليهِ ، وأنزلَهُ منها .
٣٥ ـ فخـرَ الفـريقيـنِ ، لـم تَـزَلْ لكـمُ هضبـــةُ عِـــزٍّ قَعْســـاءُ ، لـــم تَـــزُلِ
يا فخرَ الفريقَينِ يا أحمدُ يا شارِعِيُّ ما زالَتْ لكمْ ولِدَولَتِكُمْ مكانةُ مجدٍ ثابتَةٌ ، لم تُمْحَ منَ الوجودِ .
٣٦ ـ مَيْسَـمُ أحكـامِكُـمْ يلـوحُ علـى شـــرائـــعِ المسلميـــنَ والمِلَـــلِ
وإنَّ علمَ أحكامِكمْ ، يخفِقُ على سُنَنِ المسلمينَ ومذاهبِهِمْ .
٣٧ ـ فـإنْ أردْتَ الـدوامَ فـي شـرفٍ فقـــمْ بحـــقٍّ ، يَـــدُمْ ، ويَتَّصِـــلِ
وإنْ أردْتَ يا أحمدُ أنْ يدومَ عزُّكَ ، فاعمَلْ للحقِّ ، فبالحقِّ يدومُ لكَ المجدُ ، ولا يَنقَطِعُ .
٣٨ ـ واقـضِ كمـا قضيـتَ لـي أبـداً تَفُـــزْ بتلـــكَ المـــراتـــبِ الأُوَلِ
واسْتَمِرَّ في حُكْمِ الناسِ كما حكمْتَ لي تَنَلْ بتلكَ الطاريقةِ المنازلَ الأُولَى .
٣٩ ـ حَمَّلْتُ شكري لكَ الرياحَ فقد هبَّـتْ بـه فـي الشعـوبِ والحِلَـلِ
وطلبتُ منَ الرياحِ أنْ تَحمِلَ شكري إليكَ ، فقامَتْ به ، تنشرُهُ في قبائلِ العربِ ومجالِسِهِمْ .
٤٠ ـ بَثَثْـتُ فـي الأرضِ كلِّهـا رُسُـلاً وليـــسَ إلاّ قصـــائـــدي رُسُلـــي
نَشَرْتُ في الأرضِ كلِّها كتباً ، ولم تكُنْ رسائلي إلى الناسِ إلاّ قصائدَ .
٤١ ـ تَنَقَّلَـتْ فـي البـلادِ سـائـرةً وليـــسَ تـــأثيـــرُهـــا بمُنْتَقِـــلِ
وانتقَلَتْ سمعتُها في البلادِ مُسْرِعةً ، ولم تُصَبْ بزوالٍ منَ العقولِ .
٤٢ ـ محـافـلُ الفـاضليـنَ نـاشـرةٌ طَـوْلَـكَ هـذا بـالألسـنِ الطِّـوَلِ
وما زالَتْ مجالسُ الأخيارِ مُرَدِّدَةً فضلكَ بالكَلِمِ والقصائدِ الطويلةِ .
٤٣ ـ أعظَـمُ نعمـاءَ دفـعُ مظلمـةٍ أَنْحَـى بهـا ظـالـمٌ علـى رجـلِ

وإنَّ أعظمَ يدٍ دفعُ ظلمٍ ، مالَ به ظالمٌ على رجلٍ .

٤٤ ـ طَوَّقْتَنـي نعمـةً رفعْـتُ بهـا طَـرْفـي ، وبلَّغْتَنـي مَـدَى أملـي

وقد كانَتْ نعمتُكَ طوقاً ، فخرتُ به ، ورفَعْتُ نظري إلى اللهِ تعالى داعياً لكَ بالفوزِ برضاهُ ، لأني وصلتُ بها إلى غاية أمنيتي .

٤٥ ـ أشكرُهـا مُـدَّتـي ، ويشكُـرهـا عَنِّـي نَسْلـي إذا انقضـى أجلـي

وسأشكرُها مُدَّةَ حياتي ، ويشكرُها وَلَدي بعدَ انقضاءِ حياتي .

☆☆ ٢٣ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الحنينِ :

١ ـ أيا راكبَ الوجناءِ دونك فاحْمِلِ مُغَلْغَلَةً مِنْ نـاصحِ الجيبِ مُشْبِلِ ؟

يا راكب الناقةِ القويةِ ، قفْ ، واحْملْ لي رسالةً ، كتبَهـا قلبٌ صادقُ الحبِّ عاطفٌ على محبوبِهِ .

٢ ـ وفـيٍّ حَفِـيٍّ بـالصـديـقِ إذا جَـرَتْ جيـادُ التصـافـي لـم يكُـنْ غيـرَ أوّلِ

مُؤَدٍّ حقَّ صديقهِ مبالغٌ في إكرامِهِ ؛ إذا ما قامتْ أمورُ الحسابِ كانَ أوَّلَ متقدِّمٍ لبذلِ ما عليهِ .

٣ ـ مُرَوِّقٌ كأسَ الودِّ ، ما في رحيقِها قـذاةٌ مِـنَ الـودِّ المَـذيـقِ بمعـزلِ

ويُرَوِّيهِ خمرةَ الصدقِ صافيةً ، ليس في صفائِها دَنَسٌ ، وهي عنِ النفاقِ بعيدةٌ .

٤ ـ وكلُّ ودادٍ كانَ في اللهِ ، لم يزلْ علـى صفـةِ الإخـلاصِ لـم يَتَبَـدَّلِ

وكلُّ حبٍّ ، كانَ في سبيلِ رضا اللهِ تعالى ، يبقى محافظاً على الصدقِ ، لا يتَغَيَّرُ .

٥ ـ ألا قُلْ لمنْ ضَمَّتْ معاطفُ بردِهِ مِـنَ الـديـنِ رُكْنـاً دونَـهُ ركْـنُ يَـذبُـلِ

فقلْ أيها المرءُ لمنِ اتَّزَرَ بمعطفٍ : ببردةٍ من بُرُدِ الدينِ : إنكَ قد صرْتَ بفضلِ اللهِ قويًّا ، ضَعُفَ أمامَكَ جانبُ جبلِ يَذْبُلَ بنجدٍ .

٦ ـ بنا منْ غليلِ الشوقِ أضعافُ ما بكمْ بنـا حسـرةٌ سَـدَّتْ طـريـقَ التَجَمُّـلِ

وإنا نحملُ أثقالاً منْ حرقةِ الشوقِ والحنينِ أضعافَ ما تحملونَ وأحزاناً ، سَدَّتْ طريقَ التَّصَبُّرِ عنا .

٧ ـ إذا ما ازدَهَتْني طِيرةُ الوجدِ ، قَرَّ بي إلـى اللهِ تفـويضـي وحسـنُ تـوكُّلـي

وإذا ما استَخَفَّ بي طائرُ الشُّؤْمِ والحزنِ أسكنَني ، وهَدَّأني تركُ أمري إلى اللهِ وفضلُ استسلامي إليه .

٨ ـ ومنْ أينَ أنسى مَن إذا ذكَرْتُهُ تَنَسَّمْتُ مِنْ ذكراهُ ذكرَ الإلهِ لي ؟

وكيفَ أنسى فضلَ اللهِ تعالى عليَّ ، وقد جعلَني صديقاً لهذا الرجلِ ، أو أنسى فضلَ هذا الصديقِ الذي كلما ذكرْتُهُ يطمئنُّ قلبي برحمتهِ تعالى ؟

٩ ـ ومنْ أينَ أنسى مَنْ فوائدُ علمِهِ مُداوَلَةٌ ما بينَ سَمْعي ومَقْوَلي ؟

وكيف يغيبُ عنْ خَلَدي منْ يُرَدِّدُ الناسُ أفكارَهُ واقوالَهُ وأعمالَهُ أمامي ؟

١٠ ـ يَشوقني ضوءُ الصباحِ كأنما تباشيرُهُ منْ وجهِكَ المُتَهَلِّلِ

أحنَّ إلى شروقِ الشمسِ ، وأترقَّبُهُ لأنهُ ، يبشِّرُني برؤيةِ وجهِكَ المتلألئِ كرماً وسروراً .

☆☆ ٢٤ ـ وقالَ على بحرِ الخفيفِ في المدحِ :

١ ـ يا أبا الفضلِ خُذْهُ بيتاً بديعاً مثلَ إفضالِكَ البديعِ وفَضْلي

يا صاحبَ الفضلَ استمعْ إلى هذا البيتِ العجيبِ الذي نظمْتُهُ في مدحِكَ والذي ساوَى فَضْلَكَ وإكرامَكَ إيايَ .

٢ ـ دولةَ الفضلِ ، إنَّ مثلَ أبي الفضـ ـلِ تَوَلّى خلافةَ ابنِ الفضْلِ

ويا دولةَ العزِّ لقد كنْتِ صورةً صادقةً للمجدِ حينَ صارَ صاحبُ الفضلِ خليفةَ أبيهِ ذي المكارِمِ .

☆☆ ٢٥ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الشكوى :

١ ـ خليليَّ هل تُجدي عليَّ فضائلي إذا أنا لم أُرفَعْ على كلِّ جاهلِ ؟

يا صاحبيَّ هل تفيدُني مكارمي إذا بقيتُ مَصِيدةَ كلِّ جاهلٍ ؟

٢ ـ منَ الغبنِ ذو نقصٍ يصيبُ منازلاً أخو الفضلِ محقوقٌ بتلكَ الأفاضلِ

فالسفيهُ قليلُ الحِلْمِ ، يُهَدِّمُ منازلَ ، وهو يَدَّعي أنهُ يملِكُها ، ويُنْكِرُ حقَّ الأكارمِ فيها .

٣ ـ كفى حَزَناً أنْ يُرْغِمَ الحِلْمَ والحجا تَصَدُّرُ بادٍ طيشُهُ غيرُ عاقلِ

وحسبُ المرءِ حُزْناً وأسفاً أنْ يرى تَسَلُّطَ فتًى غرٍّ خفيفِ العقلِ على العاقلِ العالمِ وإذلالَهُ .

٤ ـ ومَنْ لي بحقّي بعدَما وَفَّرَتْ على أرذالِها الدنيا حقوقَ الأماثلِ ؟

ومَنْ يستطيعُ أنْ يُؤَدِّيَ لي حقّي بعد ما جعلَتِ الدنيا حقوقَ الكرامِ بيدِ الأخِسّاءِ ؟

٥ ـ كذا الدهرُ كم شوهاءَ في الحَلْيِ جيدُها وكم جيدِ حسناءِ المُقَلَّدِ عاطلِ

هذا هو حكمُ الزمانِ ؛ يضَعُ في رقبةِ القبيحةِ الحَلْيَ ، يُزَيِّنُها به ، ويجرِّدُ رقبةَ الحسناءِ منه .

٦ ـ وممّا شجاني أنَّ غُرَّ مناقبي تغنّى بها الركبانُ بينَ القوافلِ

وممّا أحْزَنَني أنْ يُرَدِّدَ المسافرونَ العائدونَ إلى بلادهمْ محاسِنَ مكارمي .

٧ ـ وطارَتْ إلى أقصى البلاد قصائدي وسارَتْ مسيرَ النَّيِّراتِ رَسائلي

وتطيرَ إلى أبعدِ الأقطارِ قصائدي ، وتسيرَ كتبي سيرَ الكواكبِ .

٨ ـ وكم منْ أمالٍ لي ، وكم منْ مصنَّفٍ أصابَ بهذا ذهني مَحَزَّ المفاصلِ

وكم منْ صفحاتٍ أمليتُها على طَلَبَتي ، وكم مِنْ كتابٍ دوّنْتُ فيه أصنافَ العلمِ ، أدْرَكَ بها عقلي موقعَ الصوابِ .

٩ ـ ولي في دقيقِ النَّحْوِ والنقدِ منطقٌ إذا قُلْتُهُ لم أُبقِ قولاً لقائلِ

ولي في علمِ النَّحْوِ وفَنِّ النقدِ نهجٌ ؛ إذا بَيَّنْتُهُ لا يجدُ أحدٌ ما يرى فيه رأياً أو قولاً .

١٠ ـ غَنِيٌّ منَ الآدابِ ، لكنني إذا نَظَرْتُ فما في الكفِّ غيرُ الأناملِ

وأنا الغنيُّ منَ الآدابِ ، والفقيرُ منَ المالِ ، لا أملكُ بكفَّيَّ سوى رؤوسِ أصابعي .

١١ ـ فياليتني أصبَحْتُ مُسْتَغْنِياً ، ولم أكُنْ فخرَ خارزمٍ رئيسَ الأفاضلِ

وليتني ، صِرْتُ غنيًّا ، لا أحتاجُ إلى أحدٍ ، ولم أكنْ رئيسَ العظماءِ الذي تفخرُ به خوارزمُ .

١٢ ـ ويا ليتني مُرْضٍ صديقي ومُسْخِطٌ عَدوِّي وإني في فهاهةِ باقلِ

وليت صديقي ، يرضى علي ، ويضيقُ بي عدوّي ، وأكونُ عَيِيًّا عَياءَ باقلٍ الذي ضُرِبَ بعجزِهِ المثلُ [المستقصى من أمثالِ العرب ح١/ ٢٥٦] .

١٣ ـ فلستُ بفضلي بالغاً ، ولو أنني كَقُسِّ إيادٍ أو كسحبانِ وائلِ

لأني لنْ أبلغَ منزلةً عاليةً بينَ قومي ، ولو كنتُ كقُسِّ بنِ ساعدةَ الإياديِّ أشهرِ خطباءِ العربِ أو كسحبانِ وائلٍ المشهورِ ببلاغتِهِ [المستقصى من أمثالِ العرب ح١/ ٢٨ و٢٩] .

١٤ ـ وما حقُّ مثلي أنْ يكونَ مُضَيَّعاً وقد عَظُمَتْ عند الوزيرِ رسائلي

وما كانَ أمراً حكيماً أنْ يكونَ حقُّ مثلي مُنْكَراً ، وقد رَفَعَ الوزيرُ قدرَ رسائلي .

١٥ ـ وأعظمُها أني نسيبُ نِصابِهِ إذا عُرِضَتْ أنسابُ هذي القبائلِ

وأعظمُ حقوقي عندَهُ أني قريبُ أصلِهِ ، يعرفُه هوَ ، ويعرفهُ الناسُ حينَ تُعْرَضُ ، وتُنْسَقُ هذه القبائلُ والأُسَرُ .

١٦ ـ وقد كانَ يرعَى حَقِّيَ الناسُ قبلَهُ على عَدَمِ القُرْبى وبُعدُ الوصائلِ

وقد كانَ الناسُ ، يصونونَ حقي قبلَ أنْ يَتَوَلَّى مَنْصِبَ الوزارةِ على الرغمِ منْ أنني لا أمُتُّ لهمْ بصلةٍ منَ القُرْبَى أو منَ الصلاتِ البعيدةِ .

١٧ ـ أَحَظِّيَ منقوصٌ ، ولستُ بناقصٍ وكم كاملٍ حَظًّا ، وليس بكاملِ ؟

فهل أكونُ ذا نصيبٍ قليلٍ ، ولم يكن بي نقصٌ ؟ وكمْ من فَردٍ كانَ ذا نصيبٍ وفيرٍ كاملٍ منَ الحظِّ ، ولا يملك صفةً كاملةً منْ صفاتِ الكمالِ .

١٨ ـ وما الشأنُ في هذا الحقيرِ ووزنِهِ ولكنَّهُ استِخْفافُ وزنِ الفضائلِ

وما الحالُ لهذا الحقيرِ وكُنْهِهِ ، ولكنهُ وضعُ الأمرِ في غيرِ محلِّهِ وتحقيرٌ لمنزلِ الفضائلِ .

١٩ ـ فلا ترضَ يا صَدْرَ الكفاةِ بأنْ تَرَى أعالِيَ قومٍ أُلحقوا بأسافِلِ

فلا تقبَلْ يا صَدْرَ الكفاةِ بأنْ ترى أماجدَ القومِ أُتبِعوا بالأراذلِ .

٢٠ ـ ولا تجعلوني مثلَ همزةِ واصلٍ فيُسقِطَني حَذْفٌ ولا راءِ واصلِ

ولا تجعلوني أيها القومُ همزةَ وصلٍ ، يُسقِطُها درجُ الكلامِ ، ولا راءَ واصلِ بنِ العطاءِ رأسِ المعتزلةِ التي كانَ يلثغُ بها ، فَيَتَجَنَّبُ لفظَ كلِّ كلمةٍ ، فيها حرفُ الراءِ .

٢١ ـ فكلُّ امرئٍ ، أمثالُهُ عَدَدُ الحصى وهاتِ نظيري في جميعِ المحافلِ

ولكلِّ فردٍ أشباهٌ كثيرةٌ قدْرُ عَدَدِ الحصى إلاّ أنا ، فلا ترى مثيلي في كلِّ المجالسِ .

٢٢ ـ لئن كانَ أمري في خَوارزْمَ ما أرى فإنَّ رحالي في ظهورِ الرواحلِ

ولئن كانَ حالي في خوارزمَ ما أجدهُ فإنهُ منَ الجديرِ بي أنْ أُحمِّلَ متاعي على ظهرِ دابتي ، وأرحلَ .

٢٣ ـ وكم قلتُ : ألقَى في وزارتكَ المُنى وأدركُ وحدي ما ارتَجَى كلُّ آملِ

وكم كنتُ أقولُ : إني ، سأنالُ في أيّامِ تولِّيكَ الوزارةَ الآمالَ ، وأحْظى وحدي ما تمنّاهُ كلُّ راجٍ .

٢٤ ـ ولم أدرِ أنَّ الأرذلينَ ، يَرَونَ ما تَمَنَّوا ، وأني لَسْتُ أحْظَى بطائلِ

وفوجِئْتُ بأنَّ الأخِسّاءِ ، نالوا ما أَمَلوا ، وأني الوحيدُ الذي لم يَحْظَ بأُعطيةٍ واحدةٍ .

٢٥ ـ فَوَقِّعْ إلى هذا الزمانِ ، فإنهُ غلامُكَ يجعلْني كبعضِ الأراذِلِ

فاكتبْ إلى هذا العصرِ كتاباً ، تذكرُ في آخرِهِ أمْرَ جعلِ مَنْزلتي كمنزلةِ بعضِ الأنذالِ .

٢٦ ـ فأنتَ وجيهُ الدولةِ الصاحبُ الذي لهُ هِمَّةٌ ، طالَتْ على المتطاولِ

فأنتَ سيدُ الدولةِ صاحبُ المُلْكِ ذو العزيمةِ التي تجاوَزَتْ عزيمةَ كلِّ متعاظمٍ .

٢٧ ـ وإنَّ لكَ الإنعامَ والراحةَ التي إليها بحارُ الأرضِ مثلُ الجداولِ

وأنت الفردُ في هذه الدولةِ الذي يجودُ على الناسِ بالإكرامِ وهدوءِ البالِ ، فيكونُ ملوكُ الأرضِ كالجداولِ أمامَ لُجِّ بحارِكَ .

٢٨ ـ وحسبُكَ أني ما عَمِلْتُ قصيدةً سوى هذه فيها تَمَلُّقُ سائلِ

ويكفيكَ أني ما نظمْتُ قصيدةً ، تَلَطَّفْتُ بها ، وتَوَدَّدْتُ تلطُّفَ وتَوَدُّدَ طالبِ معروفٍ إلاّ هذه القصيدةَ .

٢٩ ـ ولكن إذا ما عَضَّ بالحُرِّ دهرُهُ تَغَيَّرَ عنْ عاداتِهِ والشواكِلِ

وإذا ما اشتَدَّ الزمانُ على الحرِّ اضطُرَّ هذا الأخيرُ إلى الاِبْتِعادِ عمّا تَعَوَّدَ عليه منْ أكثرِ الأعمالِ ولا سِيَّما التي تلتبسُ على الناسِ ، فتعودُ عليهِ بأشدِّ العذابِ .

☆☆ ٢٦ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الشكوى :

١ ـ أرى حُسَّدي مِلْءَ الأباطحِ والذُّرا صُدورُهُمْ في مثلِ غَلْيِ المراجلِ

إني أتَلَفَّتُ ، فأرى أعدائي ، يملؤونَ السهولَ وقممَ الجبالِ ، ويحملونَ في قلوبِهِمُ الحسدَ الذي اشتدَّتْ حرارتُهُ ، وبلغَتِ الغليانَ .

٢ ـ على حَسَبِ الفضلِ العِدا وعِدادُهُمْ وكلُّ عدا مَنْ حازَ كلَّ الفضائلِ

وإنَّ الفضلَ مقرونٌ بالعَدْوِ ، وعددُ الأفاضلِ يساوي عددَ الأعداءِ ، وكلُّ عَدُوٍّ ، يظلِمُ ذا الفضلِ حَسَداً .

☆☆ ٢٧ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في الفخرِ :

١ ـ إنْ قيلَ لي : ما أكثَرَ المِدَحِ التي تُعْنَى بها ، فجوابُ ذاكَ القائلِ :

إنْ قالَ لي أحدُهمْ : ما أكثَرَ ما نظمْتَ في المدحِ ، فإنني ، أجيبُهُ بقولي :

٢ ـ ما الشأْنُ في مِدَحٍ ، أقولُ ، كثيرةٍ كالشأْنِ في مِنَحٍ ، أنالُ ، قلائلِ

إنَّ أمرَ قصائدِ المدحِ الكثيرةِ التي أنشَدْتُها ، لا يُقاسُ بقيمةِ الأُعطياتِ القليلةِ التي قدَّمَتْ لي .

☆☆ ٢٨ ـ وقالَ على بحرِ المتقاربِ في المدحِ :

١ ـ فديتُكَ منْ رجلٍ كاملٍ هو الجدُّ في الزمنِ الهازلِ

إني أفديكَ بكلِّ ما أملِكُ ، إذْ إنكَ الرجلُ الذي كمُلَتْ صفاتُهُ وأعمالُهُ والذي يمثِّلُ

العملَ النافعَ المستمرَّ في الزمنِ الذي يقومُ على اللهوِ واللعبِ .

٢ ـ جسامُ أياديكَ مشكورةٌ لَدَيَّ مَدَى نَفَسِ القائِلِ

وإني لأَشكُرُ نِعَمَكَ الكثيرةَ عليَّ إلى آخرِ نَفَسٍ ، أُرَدِّدُهُ .

٣ ـ أُعيدُ ، وأُبدي في شكرِها بوافرِ شعريَ والكامِلِ

وأكرِّرُ شكري لها ، وأُظهِرُهُ في قصائدِ مدحٍ ، أنظمُها على بحرِ الوافرِ والكاملِ .

٤ ـ ولو أنني بجميعِ البحورِ شكَرْتُ لكُنْتُ على الساحِلِ

ولو نظمْتُ مدائحي إياكَ بكلِّ بحورِ الشعرِ لوجدْتُ أني ، ما زِلْتُ في بَدْئِها غيرَ مُؤَدٍّ حقَّ الشكرِ كاملاً .

٥ ـ وحسبُكَ مَفْخَرَةً أنْ تُرى وشُكْرَكَ مِلْءَ فمِ الفاضِلِ

وبكفيكَ فخراً أنْ تظهَرَ للناسِ مقروناً بشكرِكَ وأنْ تكونَ حديثَ الرجالِ الأكارمِ .

☆☆ ٢٩ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الشكوَى :

١ ـ إليكَ عُبَيدَ اللهِ أُنهي شِكايتي نِكايةَ دهرٍ ، ينتحي بصِيالِهِ

إنني أتقدَّمُ إليكَ يا عُبَيدَ اللهِ . رافعاً شَكاوَتي الدهرَ الذي بالغَ في تجريحي ، ولا يزالُ يترقَّبُ قهري بمواثَبَتِهِ إيّايَ .

٢ ـ بِحَقِّكَ فازْجُرْهُ ، ومُرْهُ لِيَنْتَهي فأمْرُكَ أمضى منْ قواضي نِبالِهِ

وأستحلِفُكَ بقُدْرَتِكَ أنْ تمنَعَهُ عني ، وتأمُرَهُ ألاّ يعودَ إلى إذلالي ، فإنَّ أمرَكَ أقطعُ مِنْ حِدَّةِ سهامِهِ .

٣ ـ وقُلْ : يا زمانَ السُّوءِ مالكَ قاصداً لمنْ عَرَفَ الناسُ اهتمامي بحالِهِ ؟

ورجائي أنْ تقولَ لهُ : يا زمانَ الشرِّ ما شأنُكَ جاهداً في قهرِ منْ يعلَمُ الناسُ اعترافي بأمرِهِ واهتمامي بشأنِهِ ؟

٤ ـ فأنتَ الذي الديوانُ طوعٌ لحكمِهِ وذلكَ طوقٌ في رقابِ رجالِهِ

وأنتَ يا عُبَيدَ اللهِ صاحبُ مكتبِ الدولةِ ، تأمرُ رجالَهُ ، فَيُطيعونَكَ ، وكأنكَ طوقٌ ، تَتَحكَّمُ برقابِ رجالِكَ .

٥ ـ وأنتَ الذي إنْ قالَ شيئاً يريدُهُ فما فيهِمْ مَنْ ينثني عنْ مقالِهِ

وأنتَ الحاكمُ إنْ قُلْتَ شيئاً ، فلا يَجْرُؤُ أحدٌ على ردِّ قولِكَ وحكمِكَ .

٦ ـ ومَنْ رَدَّ تسويفي ، وَوَدَّ زوالَهُ كمَنْ وَدَّ تسويفي وشيكَ زوالِهِ

ومَنْ دفَعَ ، ومنَعَ الحديثَ عنْ أمرٍ ، أُبيِّنُهُ ، وأرادَ نفيَهُ ، مثلُ مَنْ أرادَ إمهالي وإبعادي عن أمنياتي وقربَ موتي .

٧ ـ فقمْ في ضمانِ اللهِ فانتِفْ سِبالَهُ   فـافْحَـشُ غَبْـنٍ تـركُ نَتْـفِ سِبـالِـهِ

فبادرْ إليهِ بحِفْظِ اللهِ ، وانْزَعْ شَعْرَ شارِبِهِ مُعاقباً إياهُ ، فإنَّ أقبَحَ ظُلْمٍ تركُ نزعِ شارِبه لأنهُ غيرُ جديرٍ برجولتِهِ .

٨ ـ ومَنْ كانَ مثلي في حِمَى الليثِ راعياً   فما بالُ ذئبٍ ، طافَ حولَ سِخالِهِ ؟

ومَنْ كانَ يعيشُ مثلي في كنفِ الأسدِ فما حالُ ذئبٍ ، يتربَّصُ بِحِمْلانِهِ لينقَضَّ عليها ؟

٩ ـ ومـا هـي إلاّ كلمـةٌ إنْ نطقْتَهـا   أصبْـتُ مـرامـي عنـدَهـا بكمـالِـهِ

وإنْ هي إلا كلمةُ حقٍّ إنْ لفظْتَها نِلْتُ مطلبي كلَّهُ بها .

☆☆ ٣٠ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في الاِسْتِرحام :

١ ـ أَكْفَى الكُفاةِ مؤيَّدَ المُلْكِ الذي   خَضَـعَ الـزمـانُ لِعِـزِّهِ وجـلالِـهِ

يا أَكْفَى الكُفاةِ يا مؤيَّدَ المُلْكِ الذي ذلَّ الدهرُ ، وخضعَ لمجدِهِ وعظمتِهِ .

٢ ـ ارحَـمْ أبـي لشبـابِـهِ ولفضلِـهِ   وارحَمْـهُ للضعفـاءِ مـنْ أطفـالِـهِ

رِقَّ على أبي ، وأطلِقْ سراحَهُ ليعودَ إلى فتوتِهِ وأعمالِهِ الكريمةِ ، وارحمْ أطفالَهُ الضعفاءَ منْ غدرِ الزمانِ .

٣ ـ ارحَـمْ أسيـراً لـو رآهُ مِـنَ العِـدا   أقسـاهُـمُ قلبـاً لَـرقَّ لحـالِـهِ

رِقَّ قلباً على هذا الأسيرِ الذي لو شاهَدَهُ أقسى العِدا قلباً لَلانَ جانبُهُ ، وأسرعَ لإغاثتِهِ .

٤ ـ ما أطـولَ الليـلَ الـذي يُفْنيـهِ فـي   سَهَـرٍ ، وأطـولُ منـهُ ليـلُ عِيـالِـهِ

ما أشَدَّ عذابَهُ في ليلِهِ الذي يراهُ طويلاً ، ويقضيهِ ساهراً ، ويراه أفرادُ أسرتِهِ أطولَ .

٥ ـ يشكو قيوداً ، قَصَّرَتْ مِنْ خَطْوِهِ   وسـلاسـلاً ، حكَمَتْ بضيقِ مَجالِـهِ

يذكُرُ عذابَهُ مِنَ الكبولِ التي جعلَتْ خطواتِهِ قصيرةً ومِنْ سلاسِلَ ، قضَتْ على حركتِهِ ، فجعلَتْها صغيرةً جدًّا .

٦ ـ ما ضَرَّ مثلَكَ ، لو عفا عنهُ ؟ فمِنْ   دأبِ الكـرامِ العفـوُ عـن أمثـالِـهِ

ما الذي يسوءُ رجلاً يشبِهُك ، فيصْفَحُ عنْ هذا الأسيرِ ؟ وإنَّ منْ عادةِ كرامِ الناسِ الصفحُ عنْ أشباهِ هذا الأسيرِ .

٧ ـ هـبْ أنـهُ مِمَّـنْ أسـاءَ ، فمـالَـهُ   غَلَـبَ الـرزانـةَ منـكَ سـوءُ فعـالِـهِ

واحسبْ أنهُ أساءَ فما كانَ لهُ منْ سوءِ فعلِهِ تجاوُزُ قدرِكَ ووقارِكَ .

☆☆ ٣١ ـ وقالَ على بحرِ السريعِ في المدحِ :

١ ـ قالَتْ سُلَيمى قولَةً ، لا تُقالْ وتلكَ منها هفوةٌ ، لا تُقالْ

قالَتْ سليمى كلاماً ، لم يُسْمَعْ منْ غيرِها قبلُ ، وهو منها زلَّةٌ ثقيلةٌ ، لا تُقْبَلُ ، ولا يمكنُ تجاوُزُها .

٢ ـ قالَتْ : أحقٌّ كلُّ ما تَدَّعي منَ الهوى أمْ باطِلٌ أم مُحالْ ؟

قالَتْ : هل ما تقولُ الحقُّ في ما تصِفُ منَ الحبِّ ، أمِ الذي تذكُرُ هَزْلٌ ، أمْ هو شعورُكَ الذي يَتَغَيَّرُ ، ويتبدَّلُ دائماً ؟

٣ ـ ويحَكِ يا سُلَيمى ألم تنظري فَتَفْرِقي ما بينَ ماءٍ وآلْ ؟

ويلَكِ يا سُلَيمى ألا تَرَينَ بعينَيكِ حالي ، فَتُمَيِّزي بينَ الحقيقةِ والكذبِ وبينَ الماءِ والسرابِ ؟

٤ ـ أليس يكفيكِ دليلاً على صِحَّةِ دعوايَ وصدقِ المَقالْ ؟

ألا ترضَينَ بشاهدٍ ، يذكُرُ صحةَ شعوري وصدقَ قولي ؟

٥ ـ أنَّ جُفوني كلّما لُحْتِ لي تنظمُ في خَدَّيَّ سِمْطَي لآلْ

عَيناي كلّما رأتْكِ تذرُفُ الدمعَ الغزيرَ الذي يتلألأُ على خَدَّيَّ تلألُؤَ درِّ القلادةِ الطويلةِ .

٦ ـ تلكَ لآلٍ لم ، يَنَلْ غِبْطَةً بمثلِها حالٍ على كلِّ حالْ

هي لآلئُ ، لم يَحْظَ بما يشبِهُها مُتَزَيِّنٌ بالحَلْيِ ، ولم يَتَمَنَّها بأيِّ حالٍ من الأحوالِ .

٧ ـ منظومةٌ منْ غيرِ ثَقْبٍ ، ومنْ عادتِها ثَقْبُ خدودِ الرجالْ

منسوقةٌ منْ غيرِ خَرْقٍ نافذٍ ومنْ غيرِ خيطٍ أو سلكٍ ، ومِنْ دَأْبِها خَرْقُ قلوبِ الرجالِ .

٨ ـ صورَتُها ماءٌ ، ومحصولُها نارٌ لها بينَ الضلوعِ اشْتِعالْ

ونَوعُها ماءٌ ، يُبْتَرَدُ بهِ ، وحقيقتُها نارٌ ، تَتَلَهَّبُ بينَ الضلوعِ .

٩ ـ جارَ على روحي غزالٌ ، فمنْ يجيرُني منْ جَورِ هذا الغزالْ ؟

وقد ظلَمَ روحي غزالٌ ، فمَنْ يُنَجِّيني منْ ظلمِ هذا الغزالِ ؟

١٠ ـ يا وارثَ السُّؤدُدِ منْ معشرٍ جبالُ خارِزْمَ همْ لا الجبالْ

يا سليلَ المَجْدِ ووارثَهُ منْ جماعةٍ ، هي جبالُ خوارزمَ الثابتَةُ ، وليسَتْ كجبالِ الأرضِ .

١١ ـ نـاراهـمُ يـومَ الـوغَـى والقِـرَى مـوتٌ وعيـشٌ للعِـدا والمَـوالْ

وكانَ ، وما زالَ لهمْ ناران : نارٌ في يومِ الحربِ وأُخرَى في يومِ الضيافةِ . والنارُ الأولى موتٌ للأعداءِ ، والثانيةُ حياةٌ للأصحاب .

١٢ ـ ما اسْتُمْطِروا في المَحْلِ إلاّ انْـثَنى منهـزمـاً عـن فيضهـمْ بـالنـوالْ

وما حَلَّ القَحْطُ في ربوعِهِمْ إلاّ ارتَدَّ عنها مقهوراً برؤيةِ خيراتِهِ التي زادَتْ عنْ حاجاتِهِمْ .

١٣ ـ مـا فـاضَ بـالمـاء سمـاءٌ كمـا تفيـضُ أيـديهـمْ سخـاءً بمـالْ

ما كثُرَ الماءُ بسحابِ السماءِ كما يَكثُرُ المالُ بأيديهِمْ ، ويَسْخَونَ به .

١٤ ـ مـروءةٌ نـاطـوا بهـا هَمَّهُـمْ لـذاكَ حـازوا قَصَبـاتِ الكمـالْ

وتَحلَّوا بمكارمَ ، علَّقوا بها عَزْمَهُمْ وآمالَهُمْ ، فنالوا بها قَصَباتِ السبْقِ كاملةً .

١٥ ـ قـومٌ أنـافَـتْ بهـم نسبَـةٌ بـالكبـريـاءِ اشْتَمَلَـتْ والجَـلالْ

وهمْ ، قومٌ زادتْهُمُ الكبرياءُ والعِزَّةُ نسباً ، ولَفَّتْهُمْ بالوقارِ .

١٦ ـ وَدَّتْ ملوكُ الأرضِ لو أصبَحَتْ تيجـانُهُـمْ منهـا مكـانَ النِّعـالْ

ورامَ ملوكُ الأرضِ كلُّهُمْ أنْ تصيرَ أكاليلُهُمْ مكانَ نعالِ هؤلاءِ القومِ .

١٧ ـ أبـو علـيٍّ بعـدَ هَـذا لهـمْ وسـاطـةٌ فـي حسنـاتِ الخِصـالْ

وأن يكونَ أبو عليٍّ رأسُ هذا القومِ معلِّماً ووسيطاً بينَهمْ وبينَ الخِصالِ والطباعِ الحَسنةِ .

☆☆ ٣٢ ـ وقالَ على بحرِ الرملِ في تفسيرِ قولِهِ تعالى ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه/ ٥] للإمامِ الغزالي [مجموعة برلين في أكثر من موضع] .

١ ـ قـلْ لمـنْ يفهـمُ عنـي مـا أقـولْ أقصِـرِ القـولَ ، فـذا شـرحٌ يطـولْ

يا صاحبي قلْ لمنْ يُدْرِكُ ما أقولُهُ : أوجِزْ كلامَكَ ، فإنَّ شرحَ قولِهِ تعالى طويلٌ .

٢ ـ ثَـمَّ سِـرٌّ غـامـضٌ مِـنْ دونِـهِ ضُـرِبَـتْ ، واللهِ ، أعنـاقُ الفحـولْ

إنَّ لقولِ اللهِ ، عَزَّ ، وجلَّ ، معنًى عميقاً بعيداً عنكَ ، من أجلِ عزَّتِهِ ووحدانِيَّتِهِ قُطِعَتْ رقابُ كبارِ الرجالِ .

٣ ـ أنـتَ لا تعـرِفُـهُ ، إيّـاكَ ، ولا تدْرِ منْ أنتَ ، ولا كيفَ الوصولْ ؟

فأنتَ لا تَعْلَمُ عنهُ شيئاً ، واحذَرْ أنْ تَتَسَرَّعَ ، وتقولَ حرفاً ، فإنك لا تُدْرِكُ مَنْ أنتَ ، ولا تتمكَّنُ منَ الوصولِ إلى فهمِ كُنْهِهِ .

٤ ـ أنـت لا تـدري صفـاتٍ ، رُكِّبَـتْ فيكَ ، حارَتْ في خفاياها العقولْ

وأنتَ لا تعلَمُ صفاتِكَ التي طُبِعَتْ فيك ، والتي ضاعَتْ في تفسيرِ أسرارِها عقولُ العلماءِ .

٥ ـ أيـنَ منـكَ القَلْـبُ فـي قـالَبِـهِ وهـو بيـتُ اللهِ ؟ حقًّـا مـا أقـولْ

وأينَ مَعْنَى القَلْبِ في موضِعِهِ منكَ ، وهو سِرُّ اللهِ ؟ وما أقولُ هو الحقُّ والصدقُ .

٦ ـ أينَ منكَ الروحُ في جوهرِها ؟ هـل تـراهـا ؟ أم تـرى كيـف تجـولْ

وأينَ أنتَ منْ فهمِ الروحِ وأصلِها؟ هل تشاهدُها؟ أم هل تراها ، وهي تسيرُ ، وتنتَقِلُ؟

٧ ـ أيـنَ منـكَ الفهـمُ والعقـلُ إذا غَلَـبَ النـومُ ؟ فقـلْ لـي يـا جَهـولْ

واينَ أنتَ منَ الإدراكِ والفكرِ حينَ يغلِبُكَ النومُ ؟ أَجِبْني يا جُهَيْلُ .

٨ ـ أنـتَ أكـلُ الخبـزِ لا تعـرِفُـهُ كيفَ يجري منكَ ؟ أم كيفَ تبولْ ؟

إنكَ تأكلُ الخبزَ ، ولا تعلمُ كيفَ يسيرُ في جسمِكَ حتى يَخْرُجَ منك ؟ ولا تعلمُ كيفَ هي عمليةُ بولِكَ ؟

٩ ـ فـإذا كـانَـتْ طـوايـاكَ التـي بيـنَ جَنْبَيـكَ بهـا أنـتَ جَهـولْ

فإذا كانَتْ أحشاؤكَ التي تملأُ جوفَكَ لا تعلَمُ شيئاً عنها .

١٠ ـ كيف تدري منْ ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ لا تَقُلْ : كيفَ اسْتَوى؟ كيفَ النُّزولْ؟

كيف تعلَمُ الذي ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه الآية/ ٥] ؟ فاسْكُتْ ، ولا تُفَسِّرْ كيفَ اسْتَوَى ؟ وكيفَ تَنْزِلُ آياتُهُ .

١١ ـ وهو : لا أينَ ؟ ولا كيفَ لهُ ؟ وبـهِ الأيْـنُ مـعَ الكيـفِ يـزولْ

فاللهُ : ليس لهُ أينَ ؟ ولا لهُ كيفَ ؟ وإنَّ المكانَ والحالَ ، بأمرِهِ يزولُ ، ويَفْنَى .

١٢ ـ وهـو فـوقَ الفَـوْقِ ، لا فَـوْقَ لـهُ وهـو فـي كـلِّ النـواحـي لا يـزولْ

وهو مرتفعٌ وعالٍ على كلِّ عُلُوٍّ ، فلا سَقْفَ لهُ ، وهو في كلِّ الجهاتِ قائمٌ ، لا يَذْهَبُ عنها .

١٣ ـ جـلَّ ذاتـاً وصفـاتٍ وعُـلاً وتعـالـى قـدرُهُ عمّـا أقـولْ

عظُمَتْ ذاتُهُ وصفاتُهُ وأمجادُهُ ، وارتفعَ قدرُهُ عما أتحدَّثُ .

١٤ ـ فأخلِصِ التوحيدَ تدعو صادقاً بطـريـقِ المصطفـى خيـرِ الـرسـولْ

فافهمِ التوحيدَ ، واجعلْ ذكرَ اللهِ خالصاً صادقاً تابعاً سُنَّةَ المصطفى خيرِ الرُّسُلِ .

❊ ❊ ❊

حرف الميم / ٢٩٩/ بيتٍ

☆☆ ١ ـ وقالَ على بحرِ المنسرح في المدحِ :

١ ـ أنتَ أميرُ المِلاحِ لا جَرَما نَصَبْتَ في القلبِ للهوى عَلَما

إنكَ سَيِّدُ الحِسانِ ، وإنكَ ، واللهِ ، قد وضَعْتَ في القلبِ رايةَ الحبِّ .

٢ ـ يخفِقُ ، فالصبرُ يَنْثَني هرباً منهُ ، ويمضي السُّلُوُّ منهزما

فبدأ يضطرِبُ ، وطلبَ منَ الصبرِ أنْ يريحَهُ ، فمالَ عنهُ ، وهربَ ، وتمنَّى لو يزورُهُ النسيانُ ، فذهبَ عنهُ كالجندي المغلوبِ الفارِّ منْ عدُوِّهِ .

٣ ـ منكَ إليكَ الفرارُ ، فاقضِ فما أعرِفُ خصمي سِواكَ والحَكَما

وكنتَ أنتَ الملاذَ والمهرَبَ ، فاحكُمْ بما شئْتَ ، فإني لا أرى لي نِدًّا غيرَكَ أرضى بأمرِهِ .

٤ ـ أميرُكُمْ يا مِلاحُ مُهْتَضِمٌ فلا تُوَلُّوا الأمورَ مُهْتَضِما

ويا أيُّها الحسانُ إنَّ سَيِّدَكُمْ قد غَلَبَني على أمري ، وضاعَ حقّي بينَ يديهِ ، فلا تُسَلِّموا أنفسَكُمْ إلى ظالمٍ .

٥ ـ أميرُكُمْ يظلِمُ الورَى ، ويرى بأنهُ عادلٌ متى ظَلَما

وإنهُ يظلِمُ الناسَ ، ويظُنُّ أنه منصِفٌ في حكمِهِ .

٦ ـ في ناظرَيهِ السيوفُ تَسْفِكُ في كلِّ التفاتٍ يكونُ منهُ دَما

وكأنَّ في عينَيهِ سيوفاً ، تَجْرَحُ القلوبَ في كلِّ لحظةٍ ، وتُريقُ دماءَها .

٧ ـ لا يحملَنَّ السلاحَ عسكَرُهُ فهو بعينَيهِ يَقْتُلُ البُهَما

ولا حاجةَ لأفرادِ جندِهِ بالسلاحِ ، فإنهُ يستطيعُ أنْ يقتُلَ بنظراتِهِ أثبتَ الشُّجْعانِ .

٨ ـ كأنهُ مالكٌ لأنفسِهِمْ يَقْبِضُ أرواحَهُمْ كما احْتكما

وكأنهُ مالكٌ أنفُسَهُمْ ، يقضي بينَهُمْ ، ويحكُمُ عليهِمْ ، ويقبِضُ أرواحَهُمْ .

٩ ـ يُغْنيهِ عنْ هَزِّهِ اللِّواءَ بأنْ يَهُزَّ قَدًّا ، ويَنْفُضُ اللَّمَما

ويكتفي بحركاتٍ منْ جسمِهِ ونفضِ شعرِهِ المجاورِ شحمتَي أُذُنَيهِ عنْ هزِّ علَمِهِ تهديداً ووعيداً .

١٠ ـ يفعلُ هذا ، فكلُّ ذي لَجَبٍ يَبْقى كسيرَ الصفوفِ مُنْهَزما

وإذا ما مالَ بقامتِهِ ، ونفضَ شعرَ رأسِهِ ، صارَ الجيشُ أمامَهُ جنوداً وخيولاً مقهوراً فَلًّا .

١١ ـ سُقْمٌ بِجَفنَيهِ ، مَنْ رآهُ فَدَى بِصحَّةِ الخَلْقِ ذلكَ السَّقَما

ومَنْ يَر ضَعْفَ جفنَيهِ يَرُمْ أنْ يُقَدِّمَ صِحَّةَ الناسِ كلِّهِمْ فِداءً لهذا الضَّعْفِ .

١٢ ـ مَجانَةُ الطبْعِ فيه تُجَمِّلُهُ على هَناتٍ ، تُمَلِّحُ الشِّيَما

وصلابةُ سَجيَّتِهِ ، تُزَيِّنُهُ ؛ فهي ، على غِلْظَتِها تجعَلُ السجايا حسنةً .

١٣ ـ كأنَّ سِمْطاً منَ اللآلئِ في سِمْطِ عقيقٍ إذا هو ابتسما

وكأَنَّ أسنانَهُ البيضَ المتلألئةَ عقدٌ منَ اللؤلؤِ والعقيقِ إذا ابتسمَ .

١٤ ـ إنْ لاحَ ليلاً وميضُ مَبْسَمِهِ كَشَّفَ بيني وبينَهُ الظُّلَما

وإنْ بدا لألاءُ فمِهِ المُتَبَسِّمِ في الليلِ أضاءَ لي عَتَماتِهِ .

١٥ ـ حتى كتَبْتُ الذي مدحْتُ به فخرَ المعالي ، فجاءَ مُنْتَظِما

فَدَوَّنْتُ ما مَدَحْتُ بهِ فخرَ المعالي ، فأتى قصيداً بديعاً .

١٦ ـ كأنني في ضُحَى النهارِ ، فما أخافُ أنْ أُمَجْمِجَ الكَلِما

وكأنني أكتُبُ في ضوءِ النهارِ ، فما أخافُ أنْ أرسُمَ حروفَ الكلامِ مختلطةً .

١٧ ـ هيهاتَ إنَّ الأميرَ ، مِدْحتُهُ تهدي بَناني ، وتُرشِدُ القَلَما

فإني إنْ أَردْتُ أنْ أمدحَ الأميرَ فخرَ المعالي أجدْ بناني قد أصابَتْ في إمساكِ القلَمِ وتحريكِهِ على الورقِ ، وأفكاري وألفاظي ، تنثالُ على القلمِ مبدعةً .

١٨ ـ فلا ضياءٌ يزيدُني بَصَراً ولا ظلامٌ يُصيبني بِعَمَى

فلا حاجةَ لي إلى نورٍ ، يزيدُني رؤيةً ، فأصْبِحَ بغنًى ، لا أخافُ به عَتَمَةً تُعيقُني عنِ الكتابةِ .

١٩ ـ خَوَّلَهُ اللهُ كلَّ مكرمةٍ لكنَّ عطاياهُ تُخْجِلُ الدِّيَما

وقد رعاهُ اللهُ تعالى ، فأعطاهُ كلَّ نعمةٍ ، فكانَ أهلاً لها إذْ كانَتْ أياديهِ تفضُلُ على السُّحُبِ الملأى بالمطرِ حتى تجعلَها تَسْتَحْيي منها .

٢٠ ـ لَسْتُ أعدُّ الكرامَ كلَّهُمُ لا العُرْبَ في جنبِهِ ولا العجما

وإنْ أحببتُ أنْ أُصنِّفَ كرامَ الناسِ عُرْبَهُمْ وعجَمَهُمْ فإني أجعَلُ فخرَ المعالي سَيِّدَهُمْ وأَميرَهُمْ .

٢١ ـ كــأنــهُ مــا لغيــرِهِ كــرمٌ إذْ غَصَـبَ الخَلْـقَ كلَّـهُ الكَـرَمـا

وكأنهُ ملكَ الكرمَ كلَّهُ إذْ سلَبَهُ كلَّهُ منَ الناسِ ، فلم يبقَ لهمْ منهُ شيءٌ .

٢٢ ـ أجودُ مِنْ حاتمٍ ، وأكرمُ مِنْ كعْبٍ ، ولكنْ تَمَثَّلوا بِهِما

فكانَ أَسْخَى مِنْ حاتمٍ الطائيِّ وأكرمَ مِنْ كعبٍ الإياديِّ اللَّذين ضُرِبَ بهما المثلُ ، وتَشَبَّهَ الناسُ بهما .

٢٣ ـ تُوسِعُنا كفُّهُ النوالَ كما توسعُ أعداءَ ملكِهِ النِّقَما

فتملأُ كفُّهُ قلوبَنا وأيدينا رحمةً ومالاً كما تُغَطّي عقوبَتُهُ أعداءَهُ .

٢٤ ـ سخا ، فغيثٌ على الوليِّ هَمَى سطا ، فسيلٌ على العدوِّ طَمَى

وهو إنْ جادَ فهو مطرٌ وابلٌ للصديقِ ، وإنْ بطشَ فهو سيلٌ عارمٌ جارفٌ العَدُوَّ .

٢٥ ـ لم يَرَ أَعلى النجومِ منزلةً أرفعَ منهُ إذا اعتَلَى هِمَما

وإذا أرادَ أنْ يَمْتَطِيَ عزائمَهُ ، ويَعْتَلِيَها فإنهُ يجعلُ غايةَ مكانَتِها أعلى وأرفعَ مِنْ نجومِ السماءِ .

٢٦ ـ لذاكَ وَدَّتْ لوَ أنَّ أَخْمُصَهُ مُنْتَعَلُ هامِهُنَّ والقِمما

لذلكَ كلِّهِ أحبَّتْ هامُ نجومِ السماءِ وقممُ الجبالِ أنْ تكونَ مُنْتَعَلَ رجلَيهِ اعترافاً بفضلِهِ عليها .

٢٧ ـ هو الذي صَيَّرَتْ إمارَتُهُ خارَزْمَ للهاربينَ مُعْتَصما

وهو الذي جعلَتْ أحكامُهُ العادلةُ العظيمةُ خوارزمَ ملجأً للهاربينَ منْ ظلمِ ملوكِهِمْ .

٢٨ ـ يأمَنُ فيها المُرَوَّعونَ كَمَنْ يسكُنْ مِنْ أهلِ مكةَ الحَرَما

يَسْلَمُ في أرضِهِ الخائفونَ كما يهدأُ ، ويهنأُ أهلُ الحرمِ الشريفِ فيهِ .

٢٩ ـ الناسُ في سائرِ البلادِ لِما يَلْقَونَ كاللَّحْمِ يركَبُ الوَضَما

ويرى الناسُ في البلادِ الأُخرى ألوانَ العذابِ منْ ملوكِهِمْ ، وكأنهمْ يوضعونَ على خشبةِ الجَزّارِ ، وتُجْرمُ لحومُهُمْ .

٣٠ ـ وأهلُ خارزمَ مِنْ حياطَتِهِ كقاطناتِ الضراغمِ الأجما

ورعيةُ فخرِ المعالي أهلُ خوارزمَ آمنونَ بحفظِهِ أمانَ إناثِ الأسودِ في الأجماتِ .

٣١ ـ يا نِعماً ما أجلَّ موقعَها لو عرفَ الناسُ هذه النِّعما

يا أيتُها الأيادي ما أعظمَ آثارَكِ ! ليتَ الناسَ ، يعرفونَ قدرَكِ .

٣٢ ـ مُشَمِّـرٌ فـي صـلاحِهـا أبـداً لا وَصَمـاً يشتكـي ولا سَـأَمـا

فالقائم عليها فخرُ المعالي عاملٌ في إنجازِ ما خَطَّطَهُ لإعمارِها دائماً ، لم يشْكُ يوماً تعباً أو مرضاً أو ضجراً .

٣٣ ـ يركُضُ في شأنِها المُطْهَمَّةَ الجُرْ دَ ، ويُـزجـي القـلائـصَ الـرُّسَمـا

يركبُ منْ أجلِها الفرسَ تامةَ الحسنِ والسَّبّاقةَ ، ويضربُها برجلِهِ حاثًّا إياها لِلْعَدْوِ والإسراعِ ، ويسوقُ الإبلَ طويلةَ الأرجلِ التي تتركُ آثارَ مشيِها على الأرضِ .

٣٤ ـ يَسْبَـحُ فـي لُجَّـةِ السـرابِ بهـا والبيـدُ يَـزْهـى سـرابُهـا الأكمـا

ويجري سريعاً كأنهُ ، يسبَحُ في سطحِ الآلِ الذي يُغطي وجوهَ الصحارَى ، ويَعْلو التلالَ .

٣٥ ـ مـا حُمِّلَـتْ خيلُـهُ لِغَيـرِ سُـرًى إلـى المسـاعـي السُّـروجَ واللُّجُمـا

ما وُضِعَتِ الأحلاسُ والبَرْذَعاتُ على ظهورِ خيلِهِ ، وما أُدخِلَتِ اللُّجُمُ في أفواهِها إلاّ لِسَيْرِ الليالي والذهابِ إلى أداءِ واجبِ الغَوْثِ والكَرَمِ .

٣٦ ـ مـنْ طلَـبَ العِـزَّ لـم يَـذُقْ دَعَـةً لابُـدَّ مـنْ أنْ يُـزاوِلَ القُحَمـا

مَنْ رامَ المَجْدَ لم يَجِدْ راحةً ، وكأنهُ خُلِقَ لِيُجَارِيَ عظائمَ الأمورِ .

٣٧ ـ إنَّ الـذي فـي عبـادِهِ قَسَـمَ الـرْ رِزْقَ لقـد صَيَّـرَ العُـلاَ قِسَمـاً

وإنَّ اللهَ ـ عَزَّ ، وجَلَّ ـ جَزّأَ الرزقَ ، وَوَزَّعَهُ على عبادِهِ ، وجَعَلَ العِزَّ رِزْقاً ذا أنصباءَ لهمْ .

٣٨ ـ لا تَحْسَبَـنَّ الطيـورَ واحـدةً فـإنَّ فيهـا الصقـورَ والـرَّخَمـا

فلا تَظُنَّنَّ يا صاحبي الطيورَ سواءً فإنَّ لها أنواعاً عزيزةً كالصقورِ ودنيئةً كالرَّخَمِ .

٣٩ ـ مَـنْ يُعْطِـهِ اللهُ دُولَـةً مَثُلَـتْ لَـهُ الليـالـي بِـرَغمهـا خَـدَمـا

مَنْ يَهَبْهُ اللهُ حُكْمَ دولةٍ تقمْ لهُ الأيامُ والليالي طائعةً .

٤٠ ـ والـدهـرُ طـوعٌ لـهُ يُشـايِعُـهُ مُمْتَثِـلاً أمـرَهُ ومُـرْتَسِمـا

وكانَ لهُ الدهرُ طوعَ أمرِهِ ، يواليهِ راضياً بِهِ داعياً له بطولِ البقاءِ .

٤١ ـ حَـلَّ بـكَ المِهْـرَجـانُ يطمـعُ أنْ يَلْقَـاكَ للخيـرِ منـكَ مُغْتَنِمـا

وكأنَّ العيدَ قد جاءَ وقتُهُ ، فطمعَ كلُّ امرئٍ منْ أفرادِ رعيّتِكَ أنْ يُسَلِّمَ عليكَ ، وأمَلَ أنْ يفوزَ بأُعطيةٍ منكَ .

٤٢ ـ فامْنَحْهُ منْ فَيضِ راحَتيكَ نَدًى وأَشْبِـهِ الغَيْـثَ فيـه مُنْسَجِمـا

فأعطِهِ منْ مَلْءِ كفَّيكَ المُلْتَصِقَتَينِ كرماً ، وكُنْ شبيهَ المطرِ وابلاً .

٤٣ ـ ولـم تَـزَلْ فـارسٌ تُعَظِّمُـهُ   وأنـتَ منهـمْ ، فَلَقِّـهِ العِظَمـا

وكانَ ، وما زالَ أهلُ البلادِ فارسَ ، يُكْبِرون هذا العيدَ ، وأنتَ واحدٌ منهمْ ، فأجْمِلْ لهُ الكِبَرَ .

٤٤ ـ كسوتُـكَ اليـومَ حُلَّـةً غَلَبَـتْ   قيمتُهـا فـي النَّفـاسـةِ القِيَمـا

ونظَمْتُ في مدحِكَ اليومَ قصيدةً ، كانتْ لكَ رداءً ثميناً ، فاقَ في غلاءِ الثمنِ كلَّ الأثمانِ .

٤٥ ـ مُحْكَمَـةَ النسجِ ، ليسَ جِدَّتُها   تَبْلَـى ، وإنْ طـالَ عَهْـدُهـا قِـدَمـا

وكانَتْ ذاتَ ألفاظٍ مختارةٍ ، تناسبُ معانيَ المدحِ العظيمِ ، وتراكيبَ قويَّةٍ وإيقاعٍ حسنٍ وجِدَّةٍ خالدةٍ ، ولو مَرَّ عليها زمانٌ طويلٌ .

٤٦ ـ يقـولُ بعـدَ السنيـنَ نـاشِـدُهـا :   للهِ مَـنْ حـاكَهـا ؛ ومَـنْ رَقَمـا

وسيقولُ بعدَ مُضيِّ الأعوامِ كلُّ مُنْشِدٍ وسامعٍ لها : للهِ دَرُّ مَنْ فَكَّرَ بمعانيها ، ومنِ اختارَ ألفاظَها ، ومَنْ دَوَّنَ نَظْمَها .

٤٧ ـ فَـأَولِنـي حُلَّـةً تكـافئُهـا   فـائقـةً ، لا أريـدُهـا أَمَمـا

فَقَدِّمْ لي حُلَّةً بثوبَينِ ، تُساويها ثمناً ، تفوقُ كلَّ الحُلَلِ قيمةً ، ولا أرضاها رخيصةَ الثمنِ ، يرتديها أفقرُ الناسِ .

٤٨ ـ يرفُلُ كلانا في ثوبِ صاحِبِهِ   ثـوبـانِ ، ثـوبُ الثنـاءِ خيرُهمـا

ونمشي كلانا ، ويَختالُ كلُّ واحدٍ منا بالرداءِ الذي حاكَهُ لهُ صاحبُهُ ؛ وأفضلُ رِداءَينا رِداءُ المدحِ .

٤٩ ـ كُنْتُ زهيراً إذا مَدَحْتُ ، فكُنْ   أنْـتَ إذا مـا مَنَحْتَنـي هَـرِمـا

وقد كُنْتُ في مدحِكَ زهيرَ بنَ أبي سُلْمى الذي خَلَدَتْ مدائِحُهُ ، فكنْ أنتَ هَرِمَ بنَ سِنانٍ في مكافأتِكَ إيايَ .

٥٠ ـ يـا أَمَّـةً قُمْـتُ بيـنَ أظهُـرِهـا   ركيكـةً لا تُشـابِـهُ الأُممـا

يا أيتُها الأُمَّةُ التي نشأتُ بينَ أحزابِها ، إنكِ أُمَّةٌ ضعيفةٌ ، لا تُماثِلُ الأُمَمَ الأُخرى .

٥١ ـ أُكِـرُّ طـرفـي ، فـلا كـريـمَ أَرَى   سـواكَ يـا مَـنْ بـهِ النَّـدى خُتِمـا

وإني ، أقلِّبُ ناظِرَيَّ ، فلا أرى رجلاً عظيماً غيرَكَ يا فَخْرَ المعالي يا مَنِ انتهى مجيءُ الكرمِ بولادتِكَ .

☆☆ ٢ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الرثاءِ :

١ ـ رزيَّـةُ عبـدِ اللهِ أفحـمَ وقعُهـا   لسـانـي ، فمـا أسطيـعُ أنْ أتكلَّمـا

إنَّ مصيبتي بموتِ عبدِ اللهِ ، أسكتَتْ لساني ، ومَنَعَتْهُ منَ الكلام .

٢ ـ نعم هو رقّاني إلى الفضلِ مُفْضِلاً   وعَـرَّفنـي أنْ أُنْعِـمَ القَـولَ مُنْعِمـا

أجلْ إنهُ هو الذي رفعَني إلى مراتِب المجدِ مُكْرِماً ، وعلّمني الكلامَ الحسنَ مُحْسِناً .

٣ ـ فلما مضى مَنْ منهُ كانَتْ بلاغتي   وجَـدْتُ لسـانـي عنـدَ ذلـكَ مُفْحَمـاً

ولما ماتَ مَنْ كنتُ أديباً بليغاً بفضلِهِ وجدْتُ لساني لا يستطيعُ الكلامَ أبداً .

٤ ـ وحاوَلْتُ أنْ أرثِيهِ ، فارتدَّ مِقْوَلي   كهـامـاً ، وقبـلَ اليـومِ كـانَ مُصَمِّمـا

وأردْتُ أنْ أنظمَ قصيدةً في ذكرِ مناقِبِه ، فأحجَمَ مقالي عَيًّا ، وكان قبلَ هذا اليومِ سليماً شديداً قويًّا .

٥ ـ فَقُلْتُ لِعيني : أنتِ قَضِّي ذِمامَهُ   فهـا هـي تبْكـي ، وهـي سـافحـةٌ دمـا

فقلْتُ لعينيَ : قَضِّيا ، وأدِّيا عهودَهُ عني ، فاستجابَتا لي ، وهاهما تبكيانِ ، وتذرِفانِ الدمَ لا الدمعَ حزناً عليهِ .

٦ ـ وقَلَّـتْ لـهُ مني المـراثـي وذكـرُهـا   لَـوَ أنَّ الأسـى أبْقَـى لـيَ الفهـمَ والفمـا

وقَيَّدَني الحزنُ الشديدُ عليه ، وأصابني بفقدِ الفكرِ وعقدِ اللسانِ ، فلم تكنْ مني لهُ قصائدُ كثيرةٌ في ذكرِ مناقِبِهِ .

☆☆ ٣ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في التهنئةِ :

١ ـ لقـد سَـرَّنـي والأوليـاءَ بـأسـرِهـمْ   بنـاؤُكَ هـذا ، بـارَكَ اللهُ فيكمـا

لقد أفرحَني ، وأفرحَ الأصدقاءَ كلَّهُمْ إقامتُكَ هذا البناءَ ، وإني ، لأدعو اللهَ أنْ يجعَلَ لكما البركةَ .

٢ ـ بَنَيْـتَ ، وهَـدَّمْـتَ المبـانـيَ قَبْلَـهُ   فَـدَتْـكَ الأعـادي بـانيـاً ومُهَـدِّمـاً

هَدَّمْتَ قبلَ هذا البناءِ أبنيةً قبلَهُ ، وبَنَيْتَ غيرَها ، فصارَ الأعادي يدعونَ لكَ ، ويقدّمونَ أنفسَهُمْ فداءً لكَ مُهَدِّماً وبانياً .

☆☆ ٤ ـ وقالَ على بحرِ الوافرِ في المدحِ :

١ ـ ألا حَـيِّ الـديـارَ ببطـنِ رامَـهْ   وسَـلْ لِقطينِهـا طـولَ السـلامَـهْ

يا صاحبي سلِّمْ على ديارِ رامةَ ، وادعُ لأهلِها بطولِ البقاءِ والصحةِ .

٢ ـ وقــلْ : مــا دامَ عبــدُ اللهِ حيًّــا علــى مُلْــكٍ ، وذاكَ إلــى القيــامَــهْ

قائلاً : ما بَقيَ عبدُ اللهِ حيًّا قائماً على حُكمِهِ وما بقيَ ملكُ اللهِ إلى يومِ القيامةِ .

٣ ـ فــلا زالَــتْ ربــاعُــكِ عــامــراتٍ ونعمــةُ ســاكنــاتِــكِ مستــدامَــهْ

تبقى أراضيكِ خصبةً وسعادةُ مَنْ يَقْطُنُها دائمةً .

٤ ـ ولا ظَلَمَتْــكِ راعِــدةٌ بسيــلٍ فقــد زالَــتْ بــدولتِــهِ الظُّــلامَــهْ

فلا تَشتَدُّ عليها سحابةٌ ذاتُ رعدٍ شديدٍ ، تحملُ المطرَ الغزيرَ الذي يعقبُهُ سيلٌ جارفٌ ، لأنَّ الظلْمَ ، قد امحَى بتوليتِهِ الحكمَ .

٥ ـ هــو المَلِــكُ الــذي احتملَــتْ يــداهُ جنــايــاتِ الــزمــانِ لهــا غــرامَــهْ

كانَ المَلِكُ الذي تَكَفَّلَ بآثارِ مصائبِ الزمانِ ، فَقَدَّمَتْ يداهُ ما كانَ على الزمانِ أداؤهُ لئلاّ يُقالَ عنهُ : إنهُ شحيحٌ .

٦ ـ وقــد قَتَلَــتْ يــداهُ كــلَّ جَــورٍ ولا دِيَــةٌ عليــهِ ، ولا قَســامَــهْ

مضى ، ولم يظلِمْ أحداً ، فيقتُلَهُ ، ولم يكُنْ عليه دفعُ ديةٍ بقتلِ خطإٍ أو حَلْفُ يمينٍ في ادِّعاءِ قتلٍ .

٧ ـ إلــى الخيــراتِ طُــرًّا مستنيــمٌ ومــا فيــهِ إلــى الشَّــرِّ استِنــامَــهْ

وكان ، وما زالَ ، يبحَثُ عن أفعالِ الخيرِ كلِّها ، وتطمئنُّ نفسُهُ بأدائها ، ولا تهدأُ نفسُهُ بالشرِّ أبداً .

٨ ـ عبــاداتٌ مــدامــاتٌ إذا مــا أدامَ ملــوكُهــا شــربَ المُــدامَــهْ

وإنهُ دائمُ تأديةِ العباداتِ للهِ تعالى ، والملوكُ دائمونَ على شربِ الخمرةِ .

٩ ـ لــه فَــرْطُ الشهــامــةِ ، والمعــالــي مُــرَتَّبَــةٌ علــى فــرطِ الشَّهــامَــهْ

وبنفسِهِ حبٌّ شديدٌ للسَّبْقِ لأنَّ المكارمَ قائمةٌ على الخيرِ والسَّبْقِ إليه .

١٠ ـ مهــابَتُــهُ ، يُصــانُ المُلْــكُ فيهــا كــأنَّ المُلْــكَ مُشْتَمِــلٌ بــلامَــهْ

وكأنَّ وقارَهُ دِرْعٌ ، يَلْتَفُّ بهِ المُلْكُ حفظاً على دوامِهِ له .

١١ ـ جَسيمُ الخَطْبِ ، يَغْلِبُهُ جسوراً إذا غَلَــبَ الجســارةَ بــالجســامَــهْ

وإنْ حَلَّ أمرٌ عظيمٌ ، فإنهُ ، يَقْهَرُهُ بشجاعتِهِ إذ إنَّ الشجاعةَ ، تعلو على الحجمِ الكبيرِ ، وتَغْلِبُهُ .

١٢ ـ فكم منْ مَلِكٍ يقودُ المُلْكَ قَسْراً   ويَخْطِمُـهُ ذلـولاً فـي الخِـزامَـهْ

وكم منْ مَلِكٍ أقامَ حكمَهُ على القهرِ والإذلالِ ، فساقَ رعيتَهُ بالأرسانِ في رقابِ الناسِ وفي أفواهِ وأنوفِ الخيلِ والأنعامِ .

١٣ ـ أرادَ قـراعَـهُ بسنـانِ رمْـحٍ   فـأصبـحَ قـارعـاً سِـنَّ النـدامَـهْ

ودَّ أنْ يُبارِيَ عبدَ اللهِ بنصلِ رمحٍ ، فعادَ منَ المباراةِ ، يمضَغُ الغلبةَ قارعاً أسنانَهُ ندماً .

١٤ ـ وهِمَّتُـهُ إليهـا مُلْـكُ كِسـرى   أقَـلُّ مـنَ القُـلامَـةِ فـي القُمـامَـهْ

وإذا وُضِعَتْ عزيمةُ عبدِ اللهِ تِجاهَ عزيمةِ كسرى ملكِ الفرسِ ، كانتْ عزيمةُ هذا الأخيرِ أقَلَّ مِنَ القَدْرِ المقصوصِ منَ الظُّفرِ والمَرْميِّ في الكُناسَةِ .

١٥ ـ وتكـرمـةٌ أتتْـهُ فخمَـةٌ مـنْ   مـواقـفَ للخـلافـةِ والإمـامَـهْ

وجاءَتْهُ مِنْحةٌ عظيمةٌ منْ حُسْنِ تَصَرُّفِهِ في أمورِ خلافةِ المسلمينَ السياسيةِ والاجتماعيةِ والاقتصاديةِ وأمورِ إمامتِهِمُ الدينيَّةِ .

١٦ ـ مـواقـفُ لـم تَقِـفْ بـالفخـرِ إلاّ   علـى المبعـوثِ مـنْ عُلْيـا تِهـامَـهْ

ولم تُتَحِ المواقفُ التي وُضِعَ فيها والتي نالَ بها تلكَ المفخرةَ إلا للرسولِ ـ صلّى اللهُ تعالى عليه ، وسلَّمَ ـ يومَ الفتحِ منْ أعلى منطقةٍ في مكةَ .

١٧ ـ بنو العباسِ عَمِّ المصطفى هُمْ   لهـذا الـديـنِ والـدنيـا دِعـامَـهْ

وكانَ بنو العباس عمِّ النبيِّ همُ الجديرينَ بحملِ هذه الأمانةِ لأقامةِ أسسِ الدين الحنيفِ وأمورِ الناسِ في دنياهمْ .

١٨ ـ فَمَـنْ قَـوَّوا فـأقـوى مـنْ شَمـامٍ   وإلاّ فهـو أضعـفُ مـنْ ثُمـامَـهْ

فالذينَ تَعَهَّدوهمْ ، اشتدَّ عودُهُمْ حتى أصبحوا أقوى وأثبتَ منْ جبلٍ ، ومنْ لم يُتَحْ لهُ ذلكَ يَبقَ أضعفَ منْ نباتِ الثُّمامةِ الذي يذبلُ سريعاً ، ويذوي .

١٩ ـ بتقـويـةِ الخليفـةِ قـد تَقَـوَّتْ   لـه عُقَـدُ السيـاسـةِ والـزعـامَـهْ

واشتَدَّتْ بجسمِهِ وفكرِهِ عُقَدُ سياسةِ الرعيَّةِ والحكمِ بفضلِ تشجيعِ الخليفةِ لهُ .

٢٠ ـ رأى سلطـانَـهُ غُفْـلاً ، فَسَـوَّى   أميـرُ المـؤمنيـنَ لـهُ عـلامَـهْ

ولما وجدَ أميرُ المؤمنينَ إمارةَ عبدِ اللهِ ، تحتاجُ إلى شيءٍ منِ اهتمامِهِ ، أرسَلَ إليهِ إشارةً ، يُدَبِّرُ بها أحوالَهُ وسياسَتَهُ .

٢١ ـ وألْبَسَـهُ مـنَ العليـاءِ بُـرْداً   تَطَـوَّقَ فَخْـرَهـا طـوقَ الحمـامَـهْ

وكساهُ ثوبَ الإمارةِ منْ أكسيةِ الخواصِّ ذا الطوقِ الذي يشبهُ طوقَ الحمامةِ ، فارتداهُ ، واختالَ بهِ .

٢٢ ـ فَلَهفي للقَلَنْسُوةِ التي قد عَلَتْ عنهُ ، وطوبى للعِمامَهْ

فيا أسفي على القلنسوةِ التي نزلَتْ عنْ رأسهِ ، ويا حُسْنى العِمامَةِ التي زيَّنَتْ رأسَهُ .

٢٣ ـ تَألَّفَتِ النظائرُ إذْ تَلاقَتْ أجَلُّ عِمامَةٍ وأجَلُّ هامَهْ

واجتمعتِ الأمثالُ حينَ وُضِعَتْ أحسنُ عِمامةٍ على أفضلِ رأسٍ .

٢٤ ـ ورُمْحٍ مُسْتَقيمِ المَتْنِ لَدْنٍ كَسيرةِ عَدْلِهِ في الاستِقامَهْ

وأهداهُ رمحاً مُثَقَّفَ المتنِ لَيِّناً ، يشبهُ قامتَهُ المستقيمةَ وطريقتَهُ اللَّيِّنَةَ لإحقاقِ العدلِ والإنصافِ .

٢٥ ـ مَديدٍ مثلِ حبلِ الشمسِ يهفو عليهِ لِواؤُهُ مثلَ الغَمامَهْ

طويلاً ، يشبهُ أشعةَ الشمسِ ، يَتْبَعُهُ ، أو يَسْبِقُهُ علَمُهُ مثلَ السحابةِ .

٢٦ ـ بسيفٍ صارمِ الحَدَّينِ ، يحكي عزيمتَهُ الصحيحةَ بالصرامَهْ

وأتبَعَهُ بسيفٍ قاطعِ الطرفَينِ ، يشبهُ هِمَّتَهُ السليمةَ بِقَومَتِها الشديدةِ .

٢٧ ـ وطِرفٍ منْ عرابِ الخيلِ يرمي بفارسِهِ على ظهرِ النَّعامَهْ

وبفرسٍ منْ أفراسِ الخيلِ الأصيلةِ ، يُلْقي بفضلِ راكِبِهِ مَنْ كانَ على ظهرِ النعامةِ .

٢٨ ـ فكَمْ ملكٍ عظيمٍ قبلَهُ لم ينَلْ هذا التَّشَرُّفَ والكرامَهْ

فكم منْ ملكٍ عظيم ، كانَ قبلَهُ ، لم يَحْظَ بهذا الشرفِ العظيمِ وهذا العطاءِ الكبيرِ .

٢٩ ـ أتَمَّ اللهُ في الدنيا مناهُ لهُ ، وأحلَّهُ دارَ المَقامَهْ

وإني لأدعو اللهَ أنْ يعطيَهُ آمالَهُ كاملةً في الدنيا ، وأنْ يسكِنَهُ الجنةَ في الآخرةِ .

☆☆ ٥ ـ وقالَ على بحرِ البسيطِ في المدح :

١ ـ أيّامُ خارزمشاهَ العادلِ النِّعَمُ فالحمدُ مُفْتَرَضٌ ، والشكرُ مُلْتَزَمُ

إنَّ أيامَ خوارزمشاهَ والي خوارزمَ : منَ الحكامِ السلاجقةِ ، هي أيامُ عدلٍ ونعيمٍ ، يَحْمَدُها كلُّ فردٍ شكراً واجباً عليهِ .

٢ ـ كفى بها نعمةً للشكرِ موجبةً ورحمةً لبني الإسلامِ لو عَلِموا

حَسْبُها العدلُ القائمُ فيها نعمةً ، توجبُ الشكرَ لمنْ أقامَهُ ، ورحمةً لأهلِ الإسلامِ ، إنْ أدركوهُ جيداً .

٣ ـ لولا مساعٍ له في الدينِ صالحةٌ لما جرى في عروقِ المسلمينَ دمُ

لولا أعمالُهُ المتواصلةُ الحَسَنةُ منْ أجلِ إقامةِ الدينِ الحنيفِ لما بقي المسلمونَ أحياءً .

٤ ـ يُطيِّرُ الحُلْمَ عنْ أجفانِ مقلتِهِ لكي يُرنِّقَ في أجفانِهِمْ حُلُمُ

يُبْعِدُ الرؤيا عنْ أجفانِ عينَيهِ لِتَغْشَى عيونَ رَعيتِهِ .

٥ ـ وفي سلامتِهِمْ يعطي سلامتَهُ ولا يبالي ، ولولا ذاكَ ما سَلِموا

ويرى سلامتَهُ في سلامةِ أفرادِ رعيَّتِهِ ، ولا يكترِثُ بأمرِ نفسِهِ إنْ رأى سلامتَهُ مُهَدَّدَةً بالمصائبِ ، ولولا مشاعرُهُ هذهِ ما سَلِموا منَ الأحزانِ أبداً .

٦ ـ بحسنِ سيرتِهِ خارزْمُ آمنَةٌ كأنما أرضُها في أمنِها الحَرَمُ

فبفضلِ سياستِهِ في الحكمِ صارَتْ خوارزمُ آمنةً مطمئنَّةً ، كأنَّها أصبحَتْ جُزْءاً من الحرمِ الشريفِ .

٧ ـ فلا البزاةُ ضِعافُ الطيرِ ترهبُها ولا الذئابُ تحامى عَيْثَها الغَنَمُ

ولم تَعُدْ ضعافُ الطيرِ ، تخافُ انقضاضَ الصقورِ عليها ، وصارتِ الأغنامُ آمنةً لا تَجْتَنِبُ إغارةَ الذئابِ عليها .

٨ ـ وخُطَّةٍ كحريقِ النارِ مُشْعَلَةٍ مِنْ هولِها لَفَظَتْ آسادَها الأَجَمُ

وبفضلِ طريقةٍ كانتْ كلهيبِ النارِ مؤجَّجَةٍ خرجَتِ الأسودُ منْ أجماتِها خوفاً منْ شِدَّتِها .

٩ ـ عَيَّتْ بإطفائِها أيدي الملوكِ ، وقد تَصَرَّفَتْ بهِمُ الآراءُ والهِمَمُ

وعَجِزَتْ أفكارُ الملوكِ وعزائمُهمْ وأيديهِمْ وأيدي عمالِهِمْ عنْ إخمادِها .

١٠ ـ فاستظهَروا منهُ بالرأيِ الذي نَعَشَتْ رُكنَيهِ واقيةُ الرحمنِ والعِصَمِ

فذهبوا إليه ، يطلبونَ منهُ الرأيَ السديدَ الذي نَهَضَتْ بجانِبَيهِ آيُ القرآنِ العظيم ذاتُ الحفظِ والصونِ .

١١ ـ وحاولوا منهُ إطفاءً ، وقد سطعَتْ لها ذوائبُ في الآفاقِ تضطرِمُ

وجرَّبوا أنْ تَخْمَدَ نارُ عزيمتِهِ ، وقد ارتفعَتْ لها ألسنةٌ ، تَلْتَمِعُ في الأجواءِ ، وتلتهبُ .

١٢ ـ فباشَرَتْها لهُ كفٌّ مباركةٌ بيُمْنِ مَسْحَتِها تُسْتَمْطَرُ الدِّيَمُ

فعالَجَتْها كفُّهُ المباركةُ ، ببركةِ مَسْحِها تُطْلَبُ الأمطارُ منَ السحبِ ذاتِ الأمطارِ الدائمةِ .

١٣ ـ حتى انْطَفَتْ، وانْتَفَتْ آثارُ جاحِمِها فلا رمادٌ ، يُرَى منها ، ولا حُمَمُ
حتى هدأَتْ عزيمتُهُ ، وانتهَتْ آثارُ جَمْرِها ، فلم يُرَ منها لونُ رمادِ الشدةِ في وجهِهِ ولا ظاهرةُ اضطرابٍ .

١٤ ـ وآبَ يحمَدُهُ الإسلامُ في كَلِمٍ طابَتْ ، وربٌّ إليهِ يصعَدُ الكَلِمُ
وعادَ ، يُثْني عليه أهلُ الإسلام في قصائدَ حسنةٍ ، وربُّ العالمينَ يحملُ إليه الملائكةُ الأقوالَ الحسنةَ .

١٥ ـ تسري مواكبُهُ ، والنجحُ قائدُها والفوزُ سائقُها والعِزُّ والكرمُ
تمشي جماعاتُهُ وراءَهُ ، وهي تعلمُ أنّ قائدَها النصرُ ، وسائقَها المجدُ والجودُ والظَّفَرُ بالجنةِ .

١٦ ـ قلوبُ أعدائِهِ بالخوفِ خافقةٌ وخافقٌ فوقَهُ بالنُّصْرَةِ العَلَمُ
وكانتْ أفئدةُ أعدائِهِ تضطرِبُ خوفاً ، وأعلامُ جيشِهِ تضطرِبُ فرحاً بالنصرِ .

١٧ ـ خارزمُ، بوركَ فيها يومَ مَقْدَمِهِ بل كلّما وُضِعَتْ لهُ فيها قَدَمُ
وقد جعلَ اللهُ تعالى البركةَ في خوارزمَ يومَ أتى إليها بل في كلِّ خطوةٍ ، وطِئَها فيها .

١٨ ـ والأولياءُ تبارَوا حسبَ طاقتهمْ رسومَ خِدْمتهمْ في ما به خَدَموا
وتسابقَ الأصحابُ قَدْرَ إمكاناتِهمْ في إكرامِ الجنودِ المنتصرينَ مالاً وقصيداً .

١٩ ـ وقد خَدَمْتَ بِشيئَينِ استوى بهما أمرُ الملوكِ ، ودانَ : السيفُ والقلمُ
وقد سَخَوْتَ ، فأعطيتَ شيئَينِ ، كانَ بهما سلطةُ مُلْكِكَ ، هما : قوةُ السيفِ في الحربِ وقوةُ القلمِ في السلمِ .

٢٠ ـ هذا لِكَتْبِ الأيادي واصِلٌ حَدِبٌ وذا لِكتبِ الأعادي صارمٌ خَذِمُ
فهذا القلمُ ناظِمُ قصائدِ مدحي نِعَمَ العَطوفِ عليَّ ، وذلكَ السيفُ لإهلاكِ العدا الباترُ القاطعُ .

٢١ ـ لِلْكُتْبِ هذا ، وهذا للكتائِبِ في يَومَي نَدًى ورَدًى راعٍ ومُنْتَقِمِ
فالقلمُ لكتابةِ الكتبِ ، والسيفُ لتسليحِ فرقِ الجيشِ ، ولكلٍّ منهما يومانِ ؛ للأولِ يومُ الجودِ والحفظِ ، وللثاني يومُ الموتِ والانتِقامِ .

٢٢ ـ صريرُ هذا يباري في مهابتِهِ صليلَ ذاكَ فقدْ هابَتْهُما البُهَمُ
فإنْ حدثَتْ معارضةٌ في الخوفِ منهما ؛ فإنَّ صوتَ حركةِ القلمِ على الورقِ ، يَملأُ

القلوبَ رزانةً ووقاراً ، وصوتَ حركةِ السيفِ ، يَملأُ قلوبَ الرجالِ الشجعانِ خوفاً .

٢٣ ـ يمينُـهُ بكـلا هـذيـنِ إنْ عَمِلَـتْ   سُـرَّ القـراطيسُ ، لكـن سِيئـتِ القِمَـمُ

وإنَّ يمينَ خوارزمشاهَ إنْ تَوَلَّتْ عملَ القلمِ والسيفِ ، نامتْ أوراقُهُ مسرورةً ، وأَرِقَتِ الأُخْرى ، وساءَتْ حالاتُ أهلِها .

٢٤ ـ هـذا إذا وقَعَتْ يـومَ النَّدَى نِعَمٌ   وذا إذا وقَعَـتْ يـومَ الـرَّدى نِقَـمُ

هذا حالُ كلٍّ منهما : ففي يومِ الكرمِ والسخاءِ تَعُمُّ الأيادي والنِّعَمُ ، وفي يومِ الحربِ والموتِ تُغَطِّي دماءُ القتلى الأرضَ عقوبةً .

٢٥ ـ أيُّ الملـوكِ لـهُ أدنـى فضـائِلِه ؟   تعـارفَـتْ منـهُ ذاكَ العُـرْبُ والعجـمُ

فأيُّ ملكٍ على وجهِ الأرضِ له أقلُّ مَكْرُمَةٍ منْ مكارِمِهِ ؟ لقد شَهِدَتْ بذاكَ قبائلُ العربِ والعجمِ .

٢٦ ـ أيُّ الملوكِ تلاقَتْ في مجالسِهِ   غـرائـبُ العلـمِ والآدابُ والحِكَـمُ ؟

وأيُّ ملكٍ اجتمعَتْ في حضرتِهِ مُسْتَجَدّاتُ العلمِ وفنونُ الأدبِ وبدائعُ الحِكَمِ ؟

٢٧ ـ هيهاتَ ؛ إنَّ التُّقَى والعلمَ هَمَّتُهُ   وإنَّ هـمَّ الملـوكِ الكـأسُ والنَّغَـمُ

ما أبعدَ الفرقَ بينَهُ وبينَ الملوكِ ! فإنَّ غايةَ همِّ خارزمشاهَ إرساءُ دعائمِ الإسلامِ وأصولِ العلمِ ، وهمَّ الملوكِ الآخرينَ شُرْبُ المدامةِ وسماعُ الألحانِ والأغاني .

٢٨ ـ يا ربِّ لا يَنْقَلِبْ وِجْدانُهُ عَدَماً   مـا دامَ يَخْتَلِـفُ الـوِجـدانُ والعَـدَمُ

فيا ربِّ لا تُحَوِّلْ قَلْبَهُ عنِ الإيمانِ ، وتَجْعَلْهُ فقيراً إليهِ عندَ تتابُعِ الغنى والفَقرِ واختلافِ حالِهما .

☆☆ ٦ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في الصداقةِ :

١ ـ يـا سـادتـي طـيَّ الفـؤادِ سَكَنْتُـمُ   فلطـالَمـا كنـتُ الصـديـقَ ، وكنتُـمُ

يا أسيادي وأخِلاّئي إنَّ منزلَكُمْ في أعمقِ مكانٍ منْ قلبي ، وكانَ كلٌّ منا الخِلَّ الصافيَ لِخِلِّهِ .

٢ ـ أظَنَنْتُـمُ أنـي أخـونُ ؟ وبئسمـا   بـأخـي الحفيظـةِ والـوفـاءِ ظَنَنْتُـمُ

أتَوَهَّمْتُمْ أني لا أحفظُ العهدَ ؟ ولا حبّذا خيانةُ الميثاقِ إنْ بَدَرَتْ منْ صاحبِ الحَمِيَّةِ والوفاءِ ، وهل صَحَّ توهَّمُكُمْ بصديقِكمْ يوماً ؟

٣ ـ واللهِ لسـتُ بخـائـنٍ عهـداً ، وإنْ   نـاقضْتُـمُ كـلَّ العهـود ، وخُنْتُـمُ

وإني ، لأقسمُ جاهداً أني ، لم أخُنْ لكمْ عهداً أو ميثاقاً ، ولو حَلَلْتُمُ أنتمْ كلَّ عهودي ، وقطعْتُمْ حبلَ الصداقةِ .

٤ ـ فمتى يَمُرُّ بخاطري نسيانُكُمْ ؟ ومتى أخونُ ، وقد وفيتُمْ أنتمُ ؟

فأيَّ وقتٍ يخطرُ على بالي سُلْوانُكُمْ ؟ وكيفَ أخونُ عَهْدَكُمْ ، وأنتمْ تُؤدّونَ حقَّ الوفاءِ .

٥ ـ منْ حُبِّكُمْ أُبدي كما أبديتُمُ وأُجِنُّ منهُ فوقَ ما أجْنَنْتُمُ

وإني أُظهِرُ مثلَ ما أظْهَرْتُمْ مِنَ الحبِّ ، وأَسْتُرُ منهُ أكثرَ ممّا تسترونَ .

٦ ـ ما دمْتُ حيًّا فالوفاءُ سجيَّتِي فيكمْ أقمْتُمْ أنتمُ أم بِنْتُمُ

وإنَّ طبعي الوفاءُ ما حَيِيتُ ، وعهدي سواءٌ أبقيتُمْ قريبينَ أمِ ابتعدْتُمْ .

٧ ـ فإذا دفَنْتُمْ مُهْجَتي في قبرِها فأخاكُمْ ذاكَ الوفيَّ دفَنْتُمُ

وإذا قضى اللهُ ، ومُتُّ ، ولَحَدْتُمْ جُثَّتي ونفسي في القبرِ ، فاعلموا أنكم ، قبرْتُمْ أخاكُمُ الخِلَّ الوفيَّ .

☆☆ ٧ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في كتمانِهِ مذهبَهُ [كنوز الأجداد ص٢٩٣ ، مقدمة محققي كتاب الفائق في غريب الحديث للزمخشري ح١/ ص٩]

١ ـ إذا سألوا عنْ مذهبي ، لم أبُحْ بهِ وأكْتُمُهُ ، كِتْمانُهُ لِيَ أسلَمُ

لا يسألَنِّي أحدٌ عنْ مذهبي فإنني ، لن أبَيِّنَهُ ، وسأسْتُرُهُ ، فإنَّ سَتْرَهُ أفضلُ لي .

٢ ـ فإنْ حَنَفِيًّا قلْتُ ، قالوا بأنني أبيحُ الطِّلا ، وهو الشرابُ المُحَرَّمُ

فإنْ أجبْتُ بأني حَنَفِيُّ المذهبِ يظنُّوا أني أرى شرْبَ الخمرِ حلالاً ، وهو محرَّمٌ في كتابِهِ الكريمِ .

٣ ـ وإنْ مالكيًّا قلْتُ ، قالوا بأنني أُبيحُ لهمْ أكلَ الكلابِ ، وهُمْ هُمُ

وإنْ أجبْتُ بأني مالكيُّ المذهبِ ، يَتَوَهَّموا أني ، أرى أكْلَ لحمِ الكلابِ حلالاً ، وإنَّ آكِلَ لحمِ الكلبِ ، يَتَّصِفُ بصفاتِهِ .

٤ ـ وإنْ شافعيًّا قلْتُ ، قالوا بأنني أُبيحُ نكاحَ البِنْتِ ، والبِنْتُ تَحْرُمُ

وإنْ أجبْتُ بأني شافعيُّ المذهبِ ظَنُّوا بأني ، لا أرى زواجَ البنتِ بعدَ أُمِّها حراماً ، وهو حرامٌ حرامٌ .

٥ ـ وإنْ حنبليًّا قُلْتُ ، قالوا بأنني ثقيلٌ حُلُوليٌّ بغيضٌ مُجَسِّمُ

وإنْ أجبْتُ بأني حنبليُّ المذهبِ راحوا يَفْتَنُونَ بإطلاقِ صفاتِ القبحِ عليَّ ، ويجعلوني

ثقيلاً ذا فكرِ حُلُوليٍّ وتفسيرِ كريهٍ مُجَسِّمٍ .

٦ ـ وإنْ قُلْتُ: من أهلِ الحديثِ وحِزْبِهِ   يقولونَ : تيسٌ ، ليسَ يَدري ، ويَفْهَمُ

وإنْ أَجَبْتُ بأنّي منْ أهلِ الحديثِ وصحبِهِ يقولوا : إني تيسٌ ، لا أدري ، ولا أفقهُ شيئاً .

٧ ـ تعجَّبْتُ مِنْ هذا الزمانِ وأهلِهِ   فما أحدٌ مِنْ ألسُنِ الناسِ يَسْلَمُ

فما أشَدَّ تعجُّبي منْ هذا الزمانِ وأهلِهِ ، فإنَّ كلَّ فردٍ فيه ، لا يَسْلَمُ منْ ألسنِ الناسِ وانتقادِهمْ .

٨ ـ وأخَّرَني دهري ، وقدَّمَ مَعْشراً   على أنهمْ ، لا يعلمونَ ، وأعلمُ

وقد جعلَ الزمانُ مكانتي دونَ منزلةِ جماعةٍ على الرغمِ منْ جهلِهِمُ ما أعلمُ .

٩ ـ وقد أفلحَ الجُهَّالُ ، أيقَنْتُ أنني   أنا الميمُ ، والأيامُ أفلجٌ ، أعلمُ

وفازَ الجُهَّالُ اليومَ ، وكنتُ ، ومازلْتُ مدركاً أني ميمُ كلمةِ العلمِ ، وأنَّ الأيامَ كفيلةٌ بإثباتِ فَضْلي وعلمي وقولي وبيانِ جهلِهِمْ .

☆☆ ٨ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في التوبةِ :

١ ـ يا ربِّ قد نَصَحَتْ لِعَبْدِكَ توبةٌ   فاغْفِرْ لهُ مُتَطَوِّلاً ما تَعْلَمُ

يا ربي قد تُبْتُ إليكَ توبةً خالصةً ، فامْحُ اللهمَّ آثامي ، فإنكَ ، تعرفُ قدرَ تَضَرُّعي وامتناني في قبولِكَ توبتي .

٢ ـ حسبي بلأمِكَ لأمَةً موضونةً   حصداءَ ، يَسْلَمُ مَنْ بها يَسْتَلْئِمُ

ويكفيني منكَ ما أولَيْتَني منْ رحمةٍ ، كانتْ لي درعاً ذا نسجٍ محكَمٍ ضَيِّقِ الحَلَقِ ، إذا نالها أحدٌ ضَمِنَ السلامَةَ إلى أبدِ الآبدينَ .

☆☆ ٩ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في أصولِ العلمِ [معجم الأدباء ح٧/ ص٩٣]

١ ـ العلمُ للرحمنِ ـ جَلَّ جلالُهُ ـ   وسواهُ في جَهَلاتِهِ يَتَغَمْغَمُ

إنَّ العلمَ مخصوصٌ باللهِ تعالى ، وغيرُ اللهِ ـ جَلَّ ثناؤُهُ ـ يتلَجْلَجُ في الكلامِ ، فلا يستطيعُ أنْ يُبيِّنَهُ لجهلِهِ .

٢ ـ ما للترابِ وللعلومِ ، وإنما   يَسْعَى ليعلَمَ أنهُ لا يعْلَمُ

ويبقى المرءُ بعيداً عنْ فهمِهِ الترابَ وأصولَ العلومَ ، وهو يَجْهَدُ كلَّ الجَهْدِ لإدراكِ بعضِ العلمِ ، ثمَّ يخرجُ بفكرةٍ ؛ هي اقتناعُهُ بأنهُ لم يدركْ شيئاً منْ علمِ اللهِ تعالى .

☆☆ ١٠ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في الغزلِ : [إنباه الرواة ج٣/ ص٢٧٠]

١ ـ أشَمالُ ويحَكِ بلِّغي تسليمي   مَنْ ليسَ يبلغُهُ لنا تسليمُ

يا ريحَ الشَّمالِ ، يرحمُكِ اللهُ ، أَوصلي سلامي إلى منْ لم يصلْهُ سلامٌ منا بطريقِ غيرِكِ .

٢ ـ مُرِّي بهِ ، وتَعَلَّقي بردائِهِ   ليكونَ فيكِ منَ الحبيبِ نسيمُ

اذهبي إليهِ ، وتمسّكي بثوبِهِ ، فَيُحِسَّ أنكِ رسالةٌ منْ محبٍّ .

٣ ـ قولي له : ما بالُ قلبِكَ قاسياً   ولقد عَهِدْتُكَ بي وأنتَ رحيمُ

واسأليهِ : ما شأنُ فؤادِكَ قد صارَ صُلْباً ، وقد عرفْتُكَ منْ قبلُ أنكَ رحيمٌ .

٤ ـ إني أُجِلُّكَ أنْ أقولَ : ظلَمْتني   واللهُ يعلمُ أنني مظلومُ

وإني لا أقولُ : لقد ظَلَمْتَني إجلالاً وتعظيماً لكَ . فإنَّ اللهَ تعالى ، يَعْرِفُ أني مقهورُ .

☆☆ ١١ ـ وقالَ على بحرِ البسيطِ في الزهدِ : [مقامات الزمخشري ٣٠ و٣١] :

١ ـ طوبى لعبدٍ بحبلِ اللهِ مُعْتَصَمُهْ   على صراطٍ سَويٍّ ثابتٍ قَدَمُهْ

إني لأدعو اللهَ تعالى أنْ يُطَيِّبَ أيامَ عبدٍ ، تَمَسَّكَ بِحَبْلِهِ ، ويعاملُ الناسَ صادقاً مخلصاً ثابتاً ، وكأنهُ يمشي ، على جسرٍ مستقيماً ، وقدماهُ ثابتتانِ غيرَ مضطربتَينِ .

٢ ـ رثِّ اللباسِ جديدِ القلبِ مُسْتَتِرٍ   في الأرضِ مُشْتَهِرٍ فوقَ السماءِ سِمُهْ

يرتدي الثيابَ الباليةَ ، لكنهُ يحملُ قلباً ، يُجَدِّدُ إيمانَهُ ، وإنْ كانَ قلبُهُ مغموراً في الأرضِ ، فهو في السماءِ معروفٌ باسمِهِ بينَ الملائكةِ .

٣ ـ إذا العيونُ اجْتَلَتْهُ في بذاذَتِهِ   تعلو نواظِرُها عنهُ ، وتَقْتَحِمُهْ

إذا رأتْهُ العيونُ ، وشَهِدَتْ سوءَ حالِهِ ، ارتَفَع طَرْفُها عنه ، واحْتَقَرَتْهُ .

٤ ـ ما زالَ يَسْتَحْقِرُ الدنيا بهمَّتِهِ   حتى تَرَقَّتْ إلى الأُخرى بهِ هِمَمُهْ

كانَ ، وما زالَ يَسْتَخِفُّ بالدنيا ، ولا يُقيمُ عزمُهُ وَزْناً لها ، حتى سَمَتْ بهِ عزائمُهُ ، وعَلَتْ إلى الدارِ الآخرةِ .

٥ ـ فذاكَ أعظمُ منْ ذي التاجِ مُتَّكأً   على النمارقِ مُحْتَفًّا بهِ حَشَمُهْ

وتلكَ منزلةٌ أفضلُ منْ منزلةِ الملكِ صاحبِ التاجِ ، وذلكَ مَسْنَدٌ أحسنُ منْ كلِّ مسندٍ ، يطوفُ حولَهُ أعوانُهُ .

☆☆ ١٢ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ :

١ ـ أيا حَبَّذا سُعْدى وحَبَّ مُقامُها ... ولا حبـذا أنْ تَسْتَظِـلَّ خِيـامُهـا

ما أحبَّ سُعْدَى ، وما أحَبَّ مسكَنُها ، وما أسوءَ رفْعُ أوتادِ وحبالِ خيامِها للرحيلِ .

٢ ـ حياتي وموتي قربُ سُعْدَى وبعدُها ... وعِـزّي وذُلّـي وصلُهـا وانصـرامُهـا

فحياتي وعِزّي قُرْبُ سُعْدى مني ووُدُّها ، وموتي وذُلّي بعدُها وانقطاعُها عني .

٣ ـ سلامٌ عليها أينَ أمسَتْ ، وأصبَحَتْ ... وإنْ كـانَ لا يُقْـرا علـيَّ سـلامُهـا

فإني أبعثُ إليها بسلامي وتحيتي في كلِّ وقتٍ ، وإنْ كانَ مَنْ حَمَّلْتُه رَدَّ سلامِها لا يُبَلِّغُني به .

٤ ـ رعَى الله سَرْحاً قد رعى فيه سَرْحُها ... ورَوَّضَ أرضـاً سـامَ فيـه سَـوامُهـا

حَفِظَ اللهُ تعالى داراً ، نَعِمَ فيها أهلُها ودوابُّها ، وجعلَ أرضَها رياضاً خِصبةً ، تأكلُ دوابُّها ما تشاءُ منها .

٥ ـ إذا سحَبَتْ سُعْدَى بأرضٍ ذيولَها ... فقـد أرغـمَ المِسْـكَ الـذَّكِـيَّ رَغـامُهـا

وإذا مَشَتْ سُعْدَى جرَّتْ وراءَها أطرافَ ثوبِها التي تركَتْ في الترابِ آثارَ مَشيِها المَلأى بالعطرِ المُحَبَّبِ .

٦ ـ وإنْ مـايَسَـتْ قُضْبـانَ بـانٍ رأيتَهـا ... تُنَكِّـسُ ، واسْتَعْلـى عليهـا قـوامُهـا

وإنْ بارَتْ أغصانَ شجرِ البانِ في التمائُلِ في المشيِ ، شَهِدْتَ تلكَ الأغصانَ قد خفضَتْ رؤوسَها خجلاً ، وسما قدُّ سُعْدَى عليها .

٧ ـ يُكَشَّـفُ عـنْ ليـلٍ بهيـمٍ قِنـاعُهـا ... ويُحْـدَرُ عـنْ بـدرٍ منيـرٍ لِثـامُهـا

فإنْ وضَعَتْ خِمارَها عن رأسِها ، فإنها تكشِفُه عنْ شعرٍ أسودَ .

٨ ـ وتُطْمِعُ في غيثٍ منَ الوصلِ كلما ... جـلا عـنْ سنا بـرقِ الثغـورِ ابتسـامُهـا

وتجعَلُ الناسَ ، يرغبونَ في وُدٍّ دائمٍ منها كلما كشفَ تَبَسُّمُها عن تَلألُؤِ أسنانِها البيضِ .

٩ ـ وأيـنَ لنـا مـنْ ذلـكَ الغيـثِ نُغبَـةٌ ... تَبُـلُّ الصَّـدَى ؟ هيهـاتَ عـزَّ مَـرامُهـا

وكيفَ ننالُ قَدْراً قليلاً منَ الودِّ ، يَبُلُّ عطشَنا الشديدَ ؟ ما أبعدَ ذلكَ عنّا !

١٠ ـ خليلـيَّ كـم ضَيْـمٍ أُجَرَّعُ كـأسَـهُ ... وخُطَّـةِ خسْـفٍ مـنْ زمـانـي أُسامُهـا

يا صاحبيَّ كم منْ ظُلْمٍ أُجْبَرُ على ابتلاعِ كأسِهِ ، وكم منْ طريقةٍ قاسيةٍ اتَّخذَتْها أيامي لتحميلي ما أكرَهُ .

١١ ـ على أنَّ نفسي لا تُذامُ بوصمةٍ وأيَّتُمـا حسنـاءَ يُعْـدَمُ ذامُهـا ؟

وكانَتْ نفسي التي جُبِلَتْ على العِزَّةِ ، لم تَتَقَبَّلْ شَيئاً منَ الظُّلْمِ ، فيكونَ ذلكَ عاراً عليها ، وأيةُ فتاةٍ جميلةٍ خَلَتْ ممنْ يَعورُها بِنَقصٍ ؟

١٢ ـ عفافٌ منَ الأشياخِ إرثٌ وهمَّةٌ وفضلٌ ، ثلاثٌ ليسَ يُنْفَى تَمامُها

وأَكْرَمَني اللهُ تعالى بأمورٍ ثلاثةٍ كاملةٍ لا يَدَّعي أحدٌ نَقْصَها ، هي : كفٌّ عنِ العيبِ ورثْتُهُ عنْ أهلي الشيوخِ ، وعزيمةٌ صلبةٌ ، وفضلٌ لا يدانيهِ شيءٌ منَ المكارمِ .

١٣ ـ إلـيَّ دُنيّـاتُ الأمـورِ بغيضـةٌ وقـد نـالَ مني كـلَّ حـبٍّ جِسـامُهـا

فكانتْ صغائرُ الأمورِ كريهةً إليَّ ، وعظائمُ الآمالِ ملكَتْ عزيمتي .

١٤ ـ وأبغي منَ الأشياءِ ما كانَ مُطْلَقاً حلالاً ، وهل يُجدي عليَّ حرامُها ؟

وأطلبُ منْ كلِّ شيءٍ حلالَهُ لأني أعلمُ أنَّ الحرامَ ، لا ينفعُ أحداً .

١٥ ـ وكأسٍ يروحُ البدرُ دونَ بريقِها وفـوقَ شعـاعِ الشمـسِ يغـدو مُـدامُهـا

وكم منْ مَرَّةٍ رأيتُ كأسَ الخمرِ مُتْرَعَةً ، وقد خَسَفَ القمرَ لألاؤُها .

١٦ ـ حماني حُميّاها صدايَ إلى التي يقـولُ لهـا ذو العـرشِ مسكٌ ختـامُهـا

فَمَنَعَني منْ شربها وإسكارِها عطشي إلى كؤوسِ الجنةِ التي جعلَها اللهُ تعالى مسكاً في أوَّلِها وآخِرِها .

١٧ ـ سأدفعُ في نحرِ الزمانِ بعزمةٍ يُقَطِّـعُ أعنـاقَ الخطـوبِ حُسـامُهـا

وسأرُدُّ عني العصيانَ بِهِمَّةٍ ، تضرِبُ عُنُقَ الزمانِ ، ويُقَطِّعُ رِقابَ الشدائدِ سيفُها .

١٨ ـ سأصبحُ عنْ مستوطَنِ اللؤمِ سائراً إلـى بلـدةٍ يـرعـى حقـوقـي كِـرامُهـا

وسأبقى مُتَرَحِّلاً عنِ اللؤمِ وأماكِنِه إلى أنْ أَحُطَّ رِحالي في مكانٍ ، أَرى عظامَ الرجالِ يحفظون حقوقي .

١٩ ـ لأَفصِمَ عنْ عُرْوَةِ الذُّلِّ معصماً بعُـرْوَةِ عـزٍّ ، لا يُخـافُ انفصـامُهـا

وأقطعَ كلَّ رباطٍ للهوانِ ، وأربطَ بحبلِ العزِّ نفسي ، فلا أخشى انقطاعَهُ أبداً .

٢٠ ـ وأبعـثُ نفسـي أنْ تَلِـجَّ لِسُـؤدَدٍ فقـد سـادَ بـالنفسِ اللَّجـوجِ عِصـامُهـا

وأحُثُّ نفسي لِتَجِدَّ ، وتصلَ إلى مجدٍ ، فقد صارَ سَيِّداً ذو النفسِ الجادّةِ الممتنعةِ عنِ المعاصي .

٢١ ـ وما ذاكَ إلاّ أنْ أُيَمِّمَ حَضْرَةً وفودُ رجالِ الفضلِ فيها ازدحامُها

وطريقُ سيادتي التوجُّهُ إلى مجلسٍ ، يتوافَدُ رجالُ المكارمِ إليه مزدحمينَ .

٢٢ ـ هناكَ مجيرُ الدولةِ البحرُ زاخراً يَجيشُ بأمواجٍ ، يَروعُ الْتِطامُها

ويرأسُ ذلكَ المجلسَ مجيرُ الدولةِ الكريمُ الذي يفيضُ عطاؤهُ ، ويزْخَرُ كالبحرِ الذي ارتفعَتْ وتضاربَتْ أمواجُهُ ، فَمَلأتَ قلوبَ وأبصَارَ الناسِ إعجاباً .

٢٣ ـ ويقذِفُ منْ علمٍ وجودٍ جواهراً حُلِيُّ المعالي فَذُّها وتُؤامُها

ويُلقي إلى الحاضرينَ دُرَراً منَ الأقوالِ والأموالِ ، هي زينةُ الأمجادِ أفراداً وجماعاتٍ .

٢٤ ـ وهو فتًى أحنفيُّ الطبعِ حِلْما، كأنما يُضاهيهِ منْ شُمِّ الجبالِ شَمامُها

وهو شابٌّ مستقيمُ السَّجيَّةِ رقَّةً وليناً ، كأنَّهُ يوافقُ الجبالَ العاليةَ في عِزَّتِها وارتفاعِها .

٢٥ ـ إذا خِفَّةٌ حَلَّتْ حُبى القومِ لم تكنْ لِتَزهاهُ مِنْ جُلّى الخطوبِ عِظامُها

وإذا ما شوهدَتْ سرعةُ فكِّ أكياسِ أُعطياتِ الكرامِ ، لم تَكُنْ لتستطيعَ أنْ تُظْهِرَ الإعجابَ بأصحابِها لأنها تُقَصِّرُ عنْ حَلِّ أشدِّ الأمورِ صلابةً .

٢٦ ـ بِصُنْعِ مجيرِ الدولةِ الدولةُ التقَتْ على شرفٍ أركانُها ودِعامُها

وبتدبيرِ مجيرِ الدولةِ أُسِّسَتِ الدولةُ ، وقامَتْ أسُسُها وجوانِبُها على العِزَّةِ والمجدِ .

٢٧ ـ صرائمُ فَهْمٍ ، ما تَكِلُّ شِفَارُها وآراءُ شهْمٍ ما تطيشُ سهامُها

وعلى سيوفِ رجلٍ ذي عقلٍ حاذقٍ ، لا تَثْلِمُ سِنانُها ، وعلى خُطَطِ رجلٍ نافذٍ حكمُهُ لا تُخْطِئُ سهامُها أهدافَها .

٢٨ ـ لو أنَّ سيوفاً ناسبَتْ حدَّ رأيِهِ لأصبحَ في غَرْبِ الحُسامِ كهَامُها

ولو أنَّ بعضَ السيوفِ وافَقَتْ سِنانُها الحادَّةُ صَوبَ رأيِهِ لصارَ السيفُ الملثومُ منها في عِدادِ السيفِ القاطعِ .

٢٩ ـ فإذا حَرَّكَتْهُ عنْ خراسانَ نَهضةٌ بكفِّ القِرانِ السَّعْدِ كانَ زِمامُها

فإذا أثارَتْهُ حركةٌ ، جَرَتْ في أرضِ خرسانَ ، كان رَدُّهُ وقومَتُهُ إليها كشَدِّ لجامِ البعيرَ بيدٍ ماهرةٍ ، تصنَعُ النصرَ والسعدَ .

٣٠ ـ أصابَ عمادَ الدينِ تضعضُعٌ وخانَ عقودَ الملكِ فيها انتظامُها

ورمى الذُّلُّ والضَّعْفُ عمادَ الدينِ حينَ نقضَ عهودَ المُلْكِ ، وقطعَ حبالَها .

٣١ ـ وآبَ إليها ظُلْمةٌ وجُدوبةٌ بأنْ غابَ عنها شمسُها وغَمامُها

وعادَ إلى بلادِهِ الظُّلْمُ بظلامِهِ وقحطِهِ لأنَّ ملكَها قد غابَ عنها ، وكانَ لها شمساً وسحاباً مُمْطِراً .

٣٢ ـ ولمّا سقَى سهلَ العراقِ وحَزْنَهُ بأنواءِ غيثٍ ما يَغِبُّ رِهامها

ولمّا مَلأَ أرضَ العراقِ سهلَها وجبلَها بأعطياتٍ كالمطرِ ، لا ينقطعُ خفيفُ انسكابِهِ .

٣٣ ـ وبَثَّ صفوفَ العدلِ في عَرَصاتِهِ فزايلَها جَورُ العِدا واهتضامُها

ونَشَرَ مجيرُ الدولةِ أنواعَ العدلِ في منازلِهِ وساحاتِهِ ، فذهبَ ظلمُ الأعداءِ وغَصبُهُمْ حقوقَ أهلِها .

٣٤ ـ وأرضعَ أخلافَ العواطفِ أهلَهُ بطيئاً على مرِّ السنينَ فِطامُها

وغَذّى أهلَهُ أنواعَ العواطفِ غذاءً خفيفاً ، لم ينقَطِعْ بمرورِ الأعوامِ .

٣٥ ـ قضى اللهُ أنْ تُرْوَى خراسانُ عُلَّةً بأوبَتِهِ حتى يزولَ هُيامُها

أرادَ اللهُ ـ عزَّ ، وجلَّ ـ أنْ تُسْقَى أرضُ خراسانَ ، ويُرْوى عَشَطُها برجعتِهِ إليها ، ويذهبَ عنها صادُها الشديدُ .

٣٦ ـ فكرَّ إليها راجعاً ، فتَهَلَّلَتْ بهِ أرضُها : غيطانُها وآكامُها

فعادَ إليها مسرعاً ، وقالَتْ أرضُها : سهولُها ومرتفعاتها : لا إلهَ إلاّ اللهُ .

٣٧ ـ أُصيبَتْ بأوصابٍ ، فلما سما لها نَطاسيُّها صَحَّتْ ، وزالَ سَقامُها

وكانَتْ قد رُمِيَتْ بأمراضٍ ، فلما صَعِدَ إليها طبيبُها ، شُفِيَتْ منْ كلِّ عِلَّةٍ ، وذهبَتْ أمراضُها .

٣٨ ـ وعادَ إليها خِصْبُها وضياؤها وفارقَها إمحالُها وظَلامُها

ورجَعَتْ إليها كثرةُ نباتِها وإشراقُهُ ، وتركَتْها جُدوبتُها وعَتْمَتُها .

٣٩ ـ فها هي تحكيها الرياضُ بواكياً على ضَحِكِ النُّوارِ فيها حَمامُها

وإنْ أردْتَ أنْ تزورَها الآنَ فإنكَ تراها تشبهُ البساتينَ التي تضيءُ أزهارُها المختلفةُ ألوانُها ضاحكةً ، ويرفعُ الحَمامُ صوتَهُ مُغَرِّداً بعدَ أن كانَ باكياً .

٤٠ ـ فلا عُدِمَتْ منهُ الممالكُ ضابطاً قويّاً ، بهِ في الخافقَينِ قِوامُها

فلا خَلَتْ منهُ الممالكُ حاكماً قويّاً ، يُدَبِّرُ أمورَ رعيتِهِ ، فيكونُ في كلِّ جانبٍ منها أثرُ نجاحِهِ في الحكمِ والتدبيرِ .

٤١ ـ لئنْ جنَتِ الدنيا على فُضَلائِها وجَرَّحَهُمْ عَضّاً وخَدْشاً لِئامُها

فإنْ ظلمتِ الدنيا الرجالَ الأكارمَ ؛ وكَلَمَتْهُمْ أرذالُها عضًا وتمزيقاً .

٤٢ ـ فعندَ الوزيرِ الماجدِ اليومَ أصبَحَتْ جرائرُها تُنسَى ، وتُنْسى كِلامُها

فقد صارتِ اليومَ عندَ الوزيرِ مجيرِ الدولةِ العظيمِ آثامُها ، تُنْسَى ، وتُنْسَى جروحُها .

☆☆ ١٣ ـ وقالَ على بحرِ المنسرحِ في المدحِ :

١ ـ يا حبذا ليلةٌ ، خَلَوتُ بها تلثُمني تارةً ، وألْثُمها

ما أحلى تلكَ الليلةَ التي لم يكُنْ لنا ثالثٌ بها ؛ تُقَبِّلُني مَرَّةً ، ومَرَّةً أُقَبِّلُها .

٢ ـ ما زلْتَ سكرانَ ، لا إفاقةَ لي منذ سقاني عُقارَهُ فمُها

وما زِلْتُ منها نشوانَ ، لا صحوةَ لي منذُ سقاني فَمُها خَمْرَهُ .

٣ ـ زانَتْه أفعالُهُ التي حَسُنَتْ فهو سماءٌ ، وتلكَ أنجُمُها

وكانَتْ أعمالُهُ الكريمةُ زينةً لهُ ، فكانَ سماءً لها ، وهي أنجُمُها .

٤ ـ إنْ ذُكِرَ الحِلْمُ ، فهو أَحْنَفُهُ أو صِحَّةُ الرأيِ ، فهو أكثَمُها

فإنْ تحدَّثَ الناسُ عنِ الأناةِ ، فهو الأحْنَفُ بنُ قيسٍ في حِلْمِهِ ، وإنْ تحدثوا عن سدادِ الفِكْرِ ، فهو الأكثَمُ بنُ صيفيٍّ في حكمتِهِ .

٥ ـ قد وُلِدَتْ فيهِ كلُّ مكرُمةٍ فهو ، ولا شكَّ فيه آدمُها

وقد خُلِقَتْ فيهِ كلُّ فضيلةٍ ، فكانَ أبا البشرِ في الفضائلِ ، ولا ريبَ في ذلكَ أبداً .

☆☆ ١٤ ـ وقال على بحرِ البسيطِ في المجونِ [مجموعة القصائد (ز) ص١٩٨ والطبقات السنية في تراجم الحنفية ح٤/ ١٣٤]

١ ـ ما أنسَ لا أنْسَهُ إذْ زارَ مُكْتَتِماً والليلُ يخضِبُ شيبَ الأفقِ بالكَتَمِ

إنْ أنسَ الناسَ لا أنْسَ مَنْ أحْبَبْتُ حينَ جاءني مستتراً في الليلِ ، وقد لوَّنَ بياضَ شَعْرِهِ بالحِنَّاءِ .

٢ ـ وأقبلَتْ نحوَنا كالشمسِ ضامنَةً أنْ يهزِمَ الضوءُ منها مُقبِلَ الظُّلَمِ

وتَقَدَّمَتْ طلعَتُهُ نحوَنا ، فكانتْ كنورِ الشمسِ في النهارِ الذي يَعْلَمُ أنهُ لا يُكسَفُ بالظلامِ .

٣ ـ فكدتُ أرتابُ في ما العينُ موقنةٌ منْ حالةٍ مثلُها لم يَجْرِ في الوَهَمِ

وأوشكتُ أنْ أشُكَّ في ما تراهُ عيني ، فما وجدْتُ له شبيهاً ، يخطِرُ في البالِ .

٤ ـ وبِتُّ في ليلةٍ نامَ الزمانُ بها عني ، فأحيَيْتُها باللهوِ لم أنمِ

وقضَيتُ ليلةً ، أغفى الزمانُ بها ، وغفَلَ عني ، وأمضيتُها باللعبِ ، فلم يغتمضْ لي جفنٌ .

٥ ـ ضَمَّ التعانقُ شخصَينا فَصَيَّرَنا أَشَدَّ مُلْتَصَقاً مِنْ سِنَّي القلمِ
ولَفَّنا العناقُ ، فصِرْنا أقوى التحاماً مِنْ سِنِّي القلمِ .
٦ ـ فلم أزلْ لاثماً أو راشفاً فمَهُ ولم يزَلْ راشفاً أو لاثماً لِفمي
ومضى كلُّ واحدٍ منّا ، يقبِّلُ ، أو يَمُصُّ شَفَتَي الآخرِ .
٧ ـ وقد طلبْتُ إليهِ أنْ يُحَكِّمني فقالَ : دونكَ مهما شئْتَ ، فاحتكِمِ
وأردْتُ أنْ يجعلَني حاكماً عليهِ ، فأجابَني : لكَ ما تريدُ منَ الأمْرِ .
٨ ـ وقد تَعَدَّيتُ في حكمي ، ومثليَ في أمثالِ تلكَ القضايا شَرُّ ما حكمي
وقد جُرْتُ في حُكْمي ، وكانَ منهُ ومِنْ أشباهِهِ أمورٌ أسوءُ ما فُرِضَ منْ حُكْمٍ .
٩ ـ حتى تَسَخَّطَ فعلي ، ثم آلَ به إلى الرضا دَمِثُ الأخلاقِ والشِّيَمِ
فكَرِهَ أمري ، ثم رَضِيَ به ، لأنهُ ذو خُلُقٍ سَلِسٍ وسجايا لَيِّنَةٍ .
١٠ ـ فلانَ بعدَ ازوِرارٍ لي عريكَتُهُ وعادَ مُنْبَطِحاً لحماً على وَضَمِ
ورَقَّتْ لي نفسُهُ بعدَ إباءٍ ، وتَمَدَّدَ على وجهِهِ ، فكانَ لحماً على خَشَبٍ أو حصيرٍ .
١١ ـ وقد خطبْتُ على أعوادِ مِنْبَرِهِ سَبْعاً دِقاقَ المعاني جَزْلَةَ الكَلِمِ
وألقيتُ على قائمتيهِ سبعَ قصائدَ ذاتِ ألفاظٍ مختارةٍ ، تناسبُ المعانيَ الدقيقةَ .
١٢ ـ حتى إذا الصبحُ نادَتْني صوادِحُه فقمتُ عنهُ ، ولولا الصبحُ لم أقُمِ
إلى أنْ حانَ الفجرُ ، . وحادثَتْني طيورُهُ ، تَرَكْتُهُ ، ولولا مجيءُ الفجرِ لم أتْرُكْهُ .
١٣ ـ والدهْرُ أنْكَدُ ، مَذْمومٌ عواقبُهُ وأيُّ عاقبةٍ للدهرِ لم تُلَمِ ؟
والدهرُ شديدٌ عيشُهُ ، غيرُ محمودةٍ نهاياتُهُ ، وأيةُ نهايةٍ لهُ ، لم تُذَمَّ ؟

☆☆ ١٥ ـ وقال على بحرِ البسيطِ في المدحِ :

١ ـ يا سائلي عنْ عميدِ الحَضْرتَينِ وما في طيِّ بُرْدَيهِ مِنْ مجدٍ ومِنْ كَرَمِ
يا طالباً مني خبراً عنْ سيِّدِ المجلسَينِ وعمّا في داخلِ ثوبَيهِ من عزٍّ ومنْ فضلٍ .
٢ ـ خُذْ قصتي ، فإنها تكفيكَ شاهدةً بأنهُ في المساعي خافقُ القَدَمِ
فاسمَعْ ما جرى لي فإنه ، يُجْزِئُكَ شهادةً وعلماً أنهُ سريعُ الخطوِ في سبيلِ أعمالِ الخيرِ .
٣ ـ لولا مراسمُهُ ألقى رحاليَ في أقصى خُراسانَ سيرُ الأينُقِ الرُّسُمِ

ولولا تَفَقُّدُهُ أحوالَ رعيتِهِ وسَيْرَ كتبِهِ إلى ولاتِهِ لبقيتُ ورحالي تتقاذفُني الأهوالُ على ظهورِ جمالٍ ذاتِ قوائمَ شديدةٍ في أبعدِ مكانٍ في خراسانَ .

٤ ـ لو كنْتُ إحدى سِباخِ الأرضِ صَيَّرني كروضةِ الحَزْنِ ما يسقي منَ الدِّيَمِ

ولو كنتُ إحدى الأراضي المالحةِ التي لا تصلُحُ للزراعةِ جعلني كبستانِ جبلٍ صغيرٍ ، تَسقيهِ السُّحُبُ غزيرةُ المطرِ .

☆☆ ١٦ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في الفخرِ :

١ ـ خُلِقَ الطباقُ السبعُ عاليةً لكنْ عَلَتْ فوقَها هِمَمي

لقد رَفَعَ اللهُ تعالى السمواتِ سبعاً طبقةً فوق طبقةٍ ، وكانتْ عزائمي أعلى منها .

٢ ـ خَدَمَ الرجالُ المكرماتِ ، وقد غَدَتِ المكارمُ والعُلا خدمي

وكانَ الرجالُ خُدّامَ المعالي ، فأصبحتِ الأمجادُ والمعالي خَدَماً لي .

٣ ـ فالعَفْوُ والإغضاءُ منْ خُلُقي والجودُ والإعطاءُ منْ شِيَمي

فالتسامحُ والمغفرةُ منْ طبعي ، والكَرَمُ والبذلُ منْ سجاياي .

٤ ـ لا شَهْوَةٌ مَلَكَتْ ولا غضبٌ نفسي ، وذلكَ غايةُ الكرمِ

فلا رغبةٌ ، حكمتْ نفسي ولا غضَبٌ ، ذَلَّني ، وذلكَ مُنْتَهى الفضلِ .

☆☆ ١٧ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الرثاءِ :

١ ـ يقولونَ : ما أوفاكَ بالعهدِ ، لانّني تنوحُ على الضَّبِّيِّ نوحَ الحمائمِ

يقولُ لي الناسُ : ما أعظَمَ نفسَكَ ! وما أفضلَكَ ! إنكَ تُؤَدّي الحَقَّ خيرَ أداءٍ ، فلا تزالُ ، تبكي ، وتنوحُ على شيخِكَ أبي مُضَرَ الضَّبِّيِّ بكاءَ الحمامِ .

٢ ـ فقلْتُ لهمْ : إنَّ الوفاءَ أقلُّ ما تَعَلَّمْتُ منهُ منْ خصالِ الأكارمِ

فأجبْتُهُمْ : إني أخذْتُ عنهُ صِفاتِ الرجالِ الأكارمِ ، وأدنى صِفةٍ منها هي الوفاءُ ، والاعترافُ بالجميلِ .

☆☆ ١٨ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في التهنئةِ :

١ ـ هَنّاكَ ربُّكَ بالمُحَرَّمِ إنهُ في دولةِ الإسلامِ وجْهُ العامِ

إني أدعو اللهَ أنْ يهنِّئَكَ بقدومِ شهرِ المُحَرَّمِ ، فإنهُ في مُجْتَمَعِ أهلِ الإسلامِ أولُ العامِ .

٢ ـ شهرٌ إذا قُرِئَ ﴿ ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ ﴾ خُصَّ بغايةِ الإعظامِ

وهو شهرٌ ، قالَ اللهُ تعالى فيه عن المشركينَ الذينَ كانوا ﴿ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا ﴾

ليُبيحوا القتالَ فيهِ ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ [التوبة/ ٣٧] وفَضَّلَهُ بنهايةِ الإكرامِ .

٣ ـ فاسْعَدْ بمقدَمِهِ وبالعامِ الذي ... هو وجْهُهُ وبسائرِ الأعوامِ

وكُنْ سعيداً في أوّلِهِ وبالسَّنةِ التي تدورُ بعدَهُ وبالسنينَ التاليةِ .

☆☆ ١٩ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ :

١ ـ على أيكَتَي نجدٍ وورقِ حَمامِهِ ... وروضَتَي الوادي وَزُرْقِ جِمامِهِ

على مجموعَتَي شجرِ الأيكِ بمنطقةِ نجدٍ وعلى حماماتِهِ الوُرْقِ وعلى بُستانَي الوادي وماءِ آبارِها الضاربِ إلى الزرقةِ .

٢ ـ ومَنْ باللِّوى مِنْ هِندِهِ وسُعادِهِ ... ومَنْ بالنَّقا مِنْ جُمْلِهِ وقطامِهِ

وعلى ساكني اللِّوى كهندٍ وسُعادَ وعلى منْ يَمْلأُ منطقةَ النَّقا منَ الإبلِ والصقورِ .

٣ ـ سلامُ مشوقٍ لم يُطِقْ غيرَ ذكرِها ... وأنْ يسألَ الركبانَ حَمْلَ سلامِهِ

عليهم كُلِّهِمْ سلامُ امرئٍ ، امتلأَ قلبُهُ حنيناً وشوقاً ، وليسَ بوُسْعِهِ إلاّ أنْ يُرَدِّدَ ذكرَهُمْ ، ويطلُبَ منَ السَّفْرِ حملَ تحيَّتِهِ إليهمْ .

٤ ـ إذا ما استطارَ البرقُ في أيمنِ الحِمَى ... تَدَفَّقَ مِنْ عينَيهِ صوبُ غَمامِهِ

فإذا ما الْتَمَعَ البرقُ في الجهةِ اليُمْنَى منْ أرضِ محبوبتِهِ المصونةِ انْصَبَّ منْ عينَيهِ مَطَرُ حُزْنِهِ .

٥ ـ ألا إنَّ نيرانَ البروقِ وغيرِها ... لَمُقْتَبَساتٌ مِنْ ضِرامِ غرامِهِ

وإنَّ لَهيبَ كلِّ نارٍ مأخوذٌ منْ شدةِ نارِ حبِّهِ .

٦ ـ فلا تحسبَا ذاكَ الوميضَ عَقيقةً ... فما هو إلاّ شِقَّةٌ مِنْ ضِرامِهِ

فلا تَظُنَّنَّ ذاكَ الالتِماعَ برقاً ، ظَهَرَ منْ بينِ السحابِ ، فما هو إلاّ شَظِيَّةٌ مِن اتِّقادِ نارِ وِجْدِهِ .

٧ ـ يُذَكِّرُهُ الإيماضُ مُبْتَسَمَ الذي ... كانَ وميضُ البرقِ ضوءَ ابتِسامِهِ

ويُثيرُ التِماعُ البرقِ ذكرياتِهِ : فمَ منْ كان لمعانُ البرقِ نورَ ابتسامِهِ .

٨ ـ وما عِقدُهُ لولا شفاعةُ جيدِهِ ... مقيساً بهِ في حسنِهِ وانتظامِهِ

وليسَتْ قلادتُهُ ذاتَ قيمةٍ ، تُذْكَرُ لو لم تكُنْ في عُنُقِهِ ذي الحسنِ والكمالِ .

٩ ـ وأحسنُ مِنْ هذا وذاكَ كلامُهُ ... عذيريَ مِنْ هذينِ بل مِنْ كلامِهِ

وأحلى من عِقْدِهِ وجيدِهِ مَنْطِقُهُ ، وأنا حِلٌّ مِنْ عدمِ إعطاءِ حقِّ عِقْدِهِ وعنقِهِ مِنَ الوصفِ وحقِّ مَنْطِقِهِ لأنهما فوق الوصفِ .

١٠ ـ يَجِلُّ عنِ التشبيهِ بالشمسِ سافراً ومُلْتَثِماً بالبدرِ وقتَ تمامِهِ

ويَعظُمُ شأنُهُ على التمثيلِ بالشمسِ إذا رفعَ لثامَهُ عن وجهِهِ وبالقمر ، وهو بدرٌ .

١١ ـ ومنْ أَجلِهِ يُطفي النهارُ سراجَهُ غِنًى بالذي يجلوهُ حطُّ لِثامِهِ

ويُخْمِدُ النهارُ ضوءَهُ إجلالاً لهُ لأنه أصبحَ مُسْتَغْنِياً عنْ نورِهِ بضياءِ وجهِهِ حينَ وَضعَ لِثامَهُ .

١٢ ـ يُزَيِّنُ شعري نظْمُ أوصافِ حُسْنِهِ كما زيَّنَ الإسلامَ عدْلُ نظامِهِ

وإنَّ عظمةَ جمالِهِ ونعوتَهُ ، جَعَلَتْ مدحي إياهُ غايةً في الإبداعِ كما جعلَ إنصافُ أحكامِ الإسلامِ الإسلامَ غايةً في الرحمةِ والعظمةِ .

١٣ ـ وما قامَ صدرُ المُلْكِ إلا أنامَ في ظلالِ أمانِ اللهِ كلَّ أنامِهِ

وما اسْتَقَرَّ حالُ صدرِ المُلْكِ إلاّ بعدَ أنِ اطمأنَّ قلبُهُ إلى حالِ رعيَّتِهِ التي صارَ أفرادُها ، يعيشونَ هانئينَ في أمانِ اللهِ وحفْظِهِ ، ولا يعكِّرُ صفْوَهُمْ ظُلْمٌ .

١٤ ـ كأَنَّهُمُ منْ تحتِ غيمٍ مُمَدَّدٍ يَفيضُ بِوَدْقٍ منْ خِلالِ رُكامِهِ

ويرتَوونَ بماءِ مطرٍ ، سحابُهُ ، ينتشرُ فوقَهُمْ ، ويهتِنُ عليهمْ منْ بينِ طبقاتِهِ مطراً خفيفاً ، يَفْتُرُ ساعةً ، ويهطِلُ أُخرى .

١٥ ـ أتى دَهرَهُ ، والدهرُ بادَتْ كِرامُهُ فأغنى وحيداً عن جميعِ كرامِهِ

جاءَتْهُ السيادةُ ، والزمنُ قد عَدِمَ أفاضِلَ الرجالَ ، فاستغنى اللهَ تعالى أنْ يَجْعَلَهُ في غِنًى عنْ جميعِ الكرامِ ، فأجابَ دعوتَهُ ، وتمكَّنَ منْ إقامةِ دولتِهِ دونَ مساعدةِ أحدٍ .

١٦ ـ إذا جَنَّ ليلُ الخطبِ أصبحَ رافعاً براي كمثلِ الصبحِ سِجْفَ ظلامِهِ

وكانَ إذا حلَّ ليلٌ على أمرٍ عظيمٍ تمكَّنَ منْ إزالةِ الحَيفِ قبلَ طلوعِ الشمسِ ، وجاءَهُ الصباحُ ، وهو رافعٌ أعلامَ العدلِ عن سِتْرِ ظلامِ الجَورِ .

١٧ ـ أوِ اعتلَّ شخْصُ المُلْكِ ، واللهُ حافظٌ فأيُّ نِطاسيٍّ لِبُرْءِ سَقامِهِ ؟

أو أُصيبَ المَلِكُ نفسُهُ بِعِلَّةٍ ، واللهُ حامٍ عبادَهُ ، فلا يُرى طبيبٌ ، يتمكنُ منْ إشفائِهِ من مرضِهِ .

١٨ ـ يُطاطئُ دينُ اللهِ رأسَ مُصَدِّقٍ إذا نَحْنُ قِسْنا صدرَهُ بِقوامِهِ

وإن دينَ اللهِ تعالى الإسلام ، يُخفِضُ رأسَ كلِّ مصدِّقٍ ، ولو كانَ قبلَ ذلكَ أصيدَ ، لا يتحرَّكُ لفخرِهِ فوقَ صدرٍ وقدٍّ قائمَين .

١٩ ـ وكـانَ قـوامُ المُلْـكِ أيَّ مُقَـوِّمٍ　　مقَـوٍّ لأركـانِ الهُـدى ودِعـامِـهِ

وكانَ نِظامُ المُلْكِ جَدُّ صَدْرِ المُلْكِ أفضلَ مُسَوٍّ ومُؤيِّدٍ لأُسُسِ الدينِ والرشادِ .

٢٠ ـ تَشَمَّرَ للمُلْكِ العزيزِ المُرامِ ، لم　　تُثَبِّطْـهُ عنـهُ عِـزَّةٌ فـي مـرامِـهِ

تهيَّأ نظامُ الملكِ لأعباءِ المُلْكِ الرفيعِ مطلبُهُ ، لم يُعَوِّقْهُ عنْ بلوغِ أملِهِ زُهُوُّ نفسٍ .

٢١ ـ وقد كان فحلاً رَيِّضاً ، لا تُطيقُهُ　　يـدا كـلِّ رُوّاضٍ لِفَـرْطِ عُـرامِـهِ

وكان المُلْكُ كالرجلِ السيِّدِ الذي لا يَتَقَبَّلُ أمراً منْ أحدٍ ، ولا تتمكَّنُ يدا كلِّ مُدَرِّبٍ منَ الاقترابِ منه لشدةِ سوءِ خُلُقِهِ .

٢٢ ـ فقامَ نظامُ المُلْكِ يَخْطِمُ أنفَهُ　　ويَقْتـادُهُ قسـراً بفضـلِ زمـامِـهِ

وانتصَبَ نظامُ المُلْكِ للمُلْكِ ، فوضَعَ في أنفِهِ خِطاماً إذلالاً لهُ ، وقادَهُ قهراً معتمداً على شدة حزمِهِ .

٢٣ ـ وعَـدَّلَ مـنْ بعـدِ الإبـاءِ عِنـادَهُ　　وذَلَّلَـهُ ، ثـم ارتقَـى فـي سَنـامِـهِ

ولَوَى خِلافَهُ بعد تَمَسُّكِهِ بالمعارضَةِ ، وجعلَهُ سَوِيًّا ذليلاً ، ثم اسْتَوَى على ظهرِهِ .

٢٤ ـ لئنْ جاءَ صَدْرُ المُلْكِ منْ بعدِ جَدِّهِ　　لقـد حـازَ فـي العليـاءِ فـوقَ سِهـامِـهِ

ولئنْ ورثَ صدْرُ المُلْكِ المُلْكَ منْ بعدِ جَدِّهِ نظامِ المُلْكِ فقد فازَ بالمكانةِ الفُضْلَى مِنْ سِهامِ قسمةِ مكارمِ الأخلاقِ .

٢٥ ـ إلى حَرْفَي التعريفِ قِسْتُهما معاً　　فـذا ألـفُ التعـريـفِ ، وهـو كـلامِـهِ

ووضعْتُ الجَدَّ نظامَ المُلْكِ وحفيدَهُ صدْرَ المُلْكِ تجاهَ : الـ التعريفِ ، فكان الجَدُّ الألِفَ والحفيدُ مثلَ اللامِ فيها .

٢٦ ـ لهُ منْ معاني الفخرِ ما لو عَدَدْتُهُ　　لأحصَيـتُ مـوجَ البحـرِ عنـدَ التطـامِـهِ

وقد حازَ صدرُ الدينَ أنواعاً منَ الفخرِ ، فاقَتْ عددَ أمواجِ البحرِ عندَ هياجِهِ .

٢٧ ـ أرادَ عِصاميًّا من الفخرِ ، فاحتَوى　　عليـهِ ، ولـم يُقْنِعْـهُ فَخْـرَ عِظـامِـهِ

وكانَ يرومُ أنْ يكونَ عِصاميًّا ، يَفْخَرُ بنفسِهِ ، فكانَ لهُ ذلكَ لأنهُ لم يَرْضَ بفخرِ آبائِهِ وأجدادِهِ العظامِ وحدَهُ .

٢٨ ـ إذا ما دراريُّ الكواكبِ أبصَرَتْ　　مـواكبَـهُ مـنْ خَلْفِـهِ وأمـامِـهِ

وإذا شاهدتِ النجومُ والكواكبُ المتلألئةُ في السماءِ جماعاتِهِ المحيطةَ بهِ .

٢٩ ـ تَمَنَّتْ ، وما يُغني التَّمَنِّي ، لو أنها   لـهُ خـدمٌ فـي سيـرِهِ ومُقـامِـهِ

خَصَّتْ أُمنياتِها ، وما تَتَحَقَّقُ الأمنياتُ غالباً ، بأنْ تكونَ له خدماً في أسفارِهِ وإقامتِهِ .

٣٠ ـ ولو يستطيعُ النعشُ فضلَ تَقَرُّبٍ   لأصبـحَ تحجيـلاً لِطـرْفِ غـلامِـهِ

ولو يتمكَّنُ البقاءُ زيادةَ قُرْبَةٍ منهُ لصارَ تبييضاً وتكريماً لآباءِ خادمِهِ .

٣١ ـ ولو تَقْدِرُ الجوزاءُ كانَتْ نجومُها   مُـرَكَّبَـةً فـي سَـرْجِـهِ ولجـامِـهِ

ولو كانَ أحدُ أبراجِ السماء المُسَمَّى الجوزاءَ ذا قدرةٍ لجعَلَ نجومَهُ ، تزيِّنُ سرجَ فرسِهِ ولِجامَهُ .

٣٢ ـ ثنائي لِصدْرِ المُلْكِ ما عِشْتُ دائمٌ   وإنَّ دعـائـي مثلُـهُ فـي دوامِـهِ

وإنَّ مدحي صَدْرَ المُلْكِ ما حَييتُ ودعائي اللهَ تعالى في دوامِ ملكِهِ .

٣٣ ـ جعلْتُهما وردي نهاري وليلتي   كفعـلِ الفتـى فـي صـومِـهِ وقيـامِـهِ

جعلْتُهما جُزْءاً من تسبيحاتي التي أردِّدُها في نهاري وليلي مثلَ ترديدِ الفتى أدعيتَهُ أوقاتَ صومِهِ وقيامِهِ بطاعاتِهِ .

٣٤ ـ وكانَ فريدُ العصرِ عبداً مُقَرَّباً   ومـا أنـا إلاّ هضبـةٌ مِـنْ شَمـامِـهِ

وكانَ أبو مضرَ الضَّبِّيُّ فريدُ العصرِ شيخي أحدَ رجالِ صدرِ المُلْكِ المُقَرَّبينَ كالجبلِ الشاهقِ ، وأنا ربوةٌ وجزْءٌ منهُ .

٣٥ ـ وقد أوجَبَ المَولَى له في قبيلِهِ   قضـاءَ ذِمـامِ الحُـرِّ بعـد حِمـامِـهِ

وقد فَرَضَ المَولَى صَدْرُ الملكِ لفريدِ العصرِ في ما وَصَّى بهِ عطاءً أداءً لحقِّ الحُرِّ بعدَ موتِهِ .

٣٦ ـ فإنْ يَرْعَني المَولَى بحسنِ اصطناعِهِ   فقـد تَمَّـمَ المـولـى قضـاءَ ذِمـامِـهِ

فإنْ أرادَ المَولَى صدْرُ المُلْكِ أنْ يجعلَني صنيعةً حسنةً لهُ ، فقد أكمَلَ اللهُ تعالى لهُ أداءَ الواجبِ المُتَرَتِّبِ عليهِ .

☆☆ ٢٠ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في تهنئةِ عُبَيدِ اللهِ بختانِ ابنِهِ :

١ ـ اِفْخَـرْ عُبَيـدَ اللهِ بـالنسـلِ الـذي   يحكـي نظـامَ الـدُّرِّ حُسْـنُ نظـامِـهِ

اِعْتَزَّ يا عُبَيدَ اللهِ بذُرِّيَّتِكَ التي يُشبهُ جمالُ أفرادِها حُسْنَ اللؤلؤِ في انتظامِهِ .

٢ ـ في عصرِنا لِبنيكَ فضْلٌ باهرٌ ما نالَ أيسرَهُ بنو أيامِهِ

فلأبنائكَ في أيامِنا هذهِ كرمٌ عجيبٌ ما حاز أقلَّهُ أبناؤها .

٣ ـ وكفاهُمُ فضلاً أبُوَّتُكَ التي تُزري بساداتِ الورَى وكرامِهِ

وحسبُهُمْ فضلاً أنكَ أبوهُمْ ، تزدهي بأسيادِ الناسِ وأفاضِلِ رجالِهِمْ .

٤ ـ طَهَّرْتَهُمْ فرعاً كما طَهَّرْتَهُمْ أصلاً ، فحازوا طُهْرَهُمْ بتمامِهِ

أدَّبْتَ أفرادَهُمْ كما هَذَّبْتَ منشأَهُمْ ، فَظَفِروا بصفاءِ الخُلُقِ وكمالِهِ .

٥ ـ وأخو الكتابةِ لا يُجَوِّدُ خَطُّهُ حتى ينالَ القَطُّ مِنْ أقلامِهِ

والكاتبُ الفردُ ، لا يَصيرُ أدبُهُ حَسَناً إلاّ بعدَ أنْ يبريَ أقلاماً ، ويُسَوِّدُ صفحاتٍ كثيرةً .

٦ ـ والكرْمُ ليسَ يُخالُ حُسْنُ نُمُوِّهِ إلاّ على التنقيحِ مِنْ كَرَّامِهِ

كشجرِ العنبِ ، لا يَظْهَرُ حُسْنُ نُمُوِّهِ ولا يُنالُ جودُ عنَبِهِ إلاّ بعدَ عناءٍ طويلٍ منَ القائمِ عليه .

٧ ـ والوردُ ليسَ يفوحُ طيِّبُ ريحِهِ إلاّ إذا انْفَصَمَتْ عُرى أكمامِهِ

والوردُ ، لا تَنْتَشِرُ روائحُهُ الطيِّبَةُ إلاّ إذا تَفَتَّحَتْ براعمُ أزهارِهِ .

٨ ـ وكتابُكَ المختومُ ليسَ بواضحٍ معناهُ إلاّ بعدَ فَضِّ خِتامِهِ

ومكتوبُكَ الذي تلصِقُهُ بِخَتْمِكَ ، لا يعرفُ أحدٌ مضمونَهُ إلاّ بعدَ نَزْعِ ختمِهِ ونشرِهِ .

٩ ـ وأخو اللِّطامِ عنِ الذراعِ مُشَمِّرٌ فالكُمُّ يَشْغَلُهُ أوانَ لطامِهِ

ومنْ يقومُ بضربِ الآخرينَ بكفِهِ يرفَعُ كُمَّهُ عن ذراعِهِ لئلاّ يُحِسَّ بشيءٍ منَ الإعاقةِ عندَ قيامِهِ باللطم .

١٠ ـ وابنُ الوغَى ما لم يَسُلَّ حُسامُهُ عنْ غمدِهِ لم يَنْتَفِعْ بِحُسامِهِ

وابنُ الحربِ ، لا يَستفيدُ منْ سلاحِهِ إذا بقيَ محفوظاً في بيتِهِ .

١١ ـ قد جاءَهُ الموسى الكلومُ ، فزادَ في أقصى تَفَرْعُنِهِ وفرطِ عُرامِهِ

وقد أتى ابنَ عبيدِ اللهِ الموسى شديدُ الجُرْحِ ، فزادَ في منتهى سَنِّهِ وحِدَّتِهِ .

١٢ ـ كَلَموهُ ، وهو يريدُ أنْ يَقْتَصَّ منْ شيءٍ بَرِيٍّ مِنْ قِصاصِ كلامِهِ

واجتمعَ الناسُ حولَهُ ، وناقشوهُ ، فأرادَ أنْ يأخذَ ثأرَهُ مِمَّنْ كان بريئاً منْ جراحِهِ .

١٣ ـ أعطاكَ ربُّكَ ما تُؤَمِّلُ فيهمُ وحباهمُ المأمولَ منْ إنعامِهِ

وإني أدعو اللهَ ـ عزَّ ، وجلَّ ـ أنْ يَهَبَكَ ما كنْتَ ترجوهُ في حكمِهِمْ ، ويَمْنَحَ أفرادَ

رعِيَّتِكَ ما كانوا يرجونَهُ منْ إكرامِهِ .

١٤ ـ وأدامَ عُمْـرَكَ للمكـارِمِ والعُـلاَ   فـدوامُهـا مُتَعَلِّـقٌ بـدوامِـهِ

ويطيلَ عمرَكَ في إقامةِ الفضائلِ لتفوزَ بأعلى المراتبِ ، فإنَّ دوامَ الفضائلِ والأمجادِ متعلِّقٌ بطولِ عمرِكَ .

☆☆ ٢١ ـ وقالَ على بحرِ المنسرحِ في المدحِ :

١ ـ أفديـكَ مـنْ كـامـلٍ نشـا أدبـي   فـي حِجْـرِ إعـزازِهِ وإكـرامِـهِ

إنني أقدِّمُ نفسي قُرباناً وفداءً لكَ ، إذ كَمُلَتْ محاسنُ أخلاقِكَ ، وكانَ لكَ الفضلُ في ظهورِ أدبي : شعري ونثري في كنفِ إكرامِكَ إيّايَ .

٢ ـ كـم حَضَنَتْـهُ يـدا نـداهُ ، وكـم   دَرَّتْ عليـهِ ثُـدِيُّ إنعـامِـهِ

فكم منْ مرةٍ ضَمَّتْهُ يدا كرمِهِ ، وأسكَنَتْهُ في حِضْنِهِ ، وكم منْ مرةٍ فاضَتْ عليه ضروعُ أُعطياتِهِ .

٣ ـ فـي غيـرِ أيـامِـهِ سَعِـدْتُ بـه   فكيـفَ أشقـى فـي غُـرِّ أيـامِـهِ ؟

وقد كنتُ سعيداً في كَنَفِهِ في أيامِهِ العاديَّةِ قبلَ توليتِهِ الحكمَ ، فكيفَ أصيرُ شقيًّا حينَ تَوَلَّى الحكمَ ، وصارَ في أبيضِ وأسعدِ أيامِهِ ؟

☆☆ ٢٢ ـ وقالَ على بحرِ البسيطِ في المدحِ :

١ ـ لا يَصْرِمُ الحُرُّ قوماً لا اصطبارَ لهمْ   علـى صَـريمتِـهِ إلاّ اعْتَـدَى ، وظَلَـمْ

لا يجفو الرجلُ الشريفُ قوماً ، لا صَبْرَ لهمْ على قطيعتِهِ إلاّ إذا تجاوَزَ حَدَّهُ ، وظلَمَهُمْ .

٢ ـ إنَّ المظالمَ في الدنيا بلا عَدَدٍ   ولا كظلـمِ الـذي واصَلْتُـهُ فَصَـرَمْ

إنَّ ألوانَ الظلمِ في الدنيا ، لا عَدَدَ لها ، وليسَتْ ، تشبهُ ظُلْمَ مَنْ وادَدْتُهُ ، فقطَعَني .

٣ ـ وما أُسَرُّ بما قد نالَ منْ شرفٍ   كمـا أُسَـرُّ بفضـلٍ عنـدَهُ وكَـرَمْ

وما أُسْعَدُ يوماً بالذي يفوزُ بمنزلةٍ كما أُسْعَدُ برؤيةِ منْ جُبِلَ على الخيرِ والجودِ .

٤ ـ فكم صدورٍ بلا فضلٍ ، لهمْ نِعَمٌ   يرعَونَها مثلَ ما يَرْعى الرياضَ نَعَمْ

فكم منْ قلوبٍ ، لا تملكُ الخيرَ ، ويملِكُ أصحابُها المالَ الكثيرَ ، ويحفظونَهُ كما تحفظُ الأرضُ المعشبةُ أنعامَها : بقَرَها وغَنَمها وإبلَها .

٥ ـ أصبَحْنَ مثلَ الأسارى في أكُفِّهِمُ   فهـنَّ مستصـرخـاتٌ لـو نطَقْـنَ بفَـمْ

وصارَتْ هذه الأنعامُ ، تشبهُ الأسرى في أيديهمْ ، تريدُ الإغاثةَ والخلاصَ منَ القيدِ ، لكنها لا تملِكُ الكلامَ بأفواهِها .

٦ ـ وخيرُ ما فيه منْ فضلٍ محبَّتُهُ   للفضلِ ، فهو على الفضلِ المُبينِ عَلَمْ

وأحسَنُ ما في هذا الرجلِ منْ كمالٍ حبُّهُ للجودِ ، فهو على الكمالِ الظاهرِ رايةٌ .

٧ ـ اللهُ يَسَّرَ أسبابَ الكمالِ لهُ   فهو الوجودُ ، ومَنْ فوقَ الترابِ عَدَمْ

وقد سَهَّلَ اللهُ ـ عَزَّ وجَلَّ ـ سُبُلَ التمامِ لهُ ، فصارَ العيشُ مخصوصاً بهِ ، وكلُّ منْ يَحْيا فوقَ الترابِ ، لا قيمةَ لهُ .

٨ ـ ما لَفَّ ناصيةَ الدنيا بخنصرِهِ   إلاّ تواضُعُ نفسٍ في عُلُوِّ هِمَمْ

ما ضَمَّ وجْهَ الدنيا بإصبعِهِ الصغيرةِ إلاّ بفضلِ تخاشُعِ نفسِهِ في سبيلِ ارتفاعِ عِزَّةٍ وفَوزٍ بالمعالي وبالمجدِ .

٩ ـ تاللهِ ما هَزَّ في الهيجاءِ ذا شُطَبٍ   وذا كعوبٍ يَدٌ ما لم يَهُزَّ قَلَمْ

واللهِ ما حَمَلَتْ في الحربِ يَدٌ سيوفاً ، بها خطوطٌ ، ورماحاً ذاتَ قواعدَ ، وهَزَّتْها في وجوهِ الأعداءِ دونَ أنْ تَهُزَّ القلمَ ، وتكتبَ القصائدَ البديعةَ في الفخرِ .

١٠ ـ لم يبقَ منْ أُممِ الإحسانِ باقيةٌ   سواهُ ، وهو بحمدِ اللهِ فوقَ أمَمْ

ولم يتركِ الزمانُ منْ رجالِ الفضلِ والخيرِ غيرَهُ ، فهو بفضلِ اللهِ وكرمِهِ فوقَ الرجالِ كلِّهِمْ .

☆☆ ٢٣ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في الحكمةِ :

١ ـ وإذا تعاضَدَتِ العواذلُ فَتَّ   في أعضادِهِنَّ قويُّ أعضادِ الهِمَمْ

وإذا تماسَكَ اللُّوَّامُ على أحدٍ أضعفَ قوتَهُمْ شديدُ العزائمِ .

٢ ـ تاللهِ لا يُثْنِي عِنانَ غَضَنْفَرٍ   تكريرُ وَعْوَعةِ الذئابِ إذا عَزَمْ

واللهِ لا يُميلُ ، ولا يُضعِفُ سَيرَ لِجامِ أسدٍ دوامُ تعاوي الذئابِ إذا هَمَّ ، وعَزَمَ على أمرٍ .

☆☆ ٢٤ ـ وقالَ على بحرِ المتقاربِ في الزهدِ . [مجموعة برلين] :

١ ـ قضى اللهُ أمراً ، وجفَّ القلَمْ   وفي ما قضى ربُّنا ما ظَلَمْ

لقد حكَمَ اللهُ بالأمرِ ، فوقفَتْ عقولُ الناسِ عنْ وضعِ أحكامِهِمْ ، وجَفَّتْ أقلامُهُمْ إذْ لم يبقَ لها دَورٌ للكتابةِ لأنَّ حكمَ ربِّنا تعالى عَدْلٌ وإنصافٌ .

٢ ـ وفـي الأمـرِ مـا جـازَ فـي أمـرِهِ وفـي الحكـم مـا جـارَ لمّـا حكَـمْ

وفي أمرِ اللهِ ـ عَزَّ ، وجلَ ـ فضلٌ ، سبقَ كلَّ أمرٍ مُدَبَّرٍ ، وفي قضائِهِ عَدْلٌ وإنصافٌ ، لا ظلمَ فيه حينَ أمرَ بهِ .

٣ ـ إذا تَـمَّ أمـرٌ بـدا نَقْصُـهُ تَـوَقَّـعْ زوالاً إذا قيـلَ : تَـمْ

وإذا كمُلَ شيءٌ بدأَ النُّقصانُ فيه ، فانتظِرْ يا صاحبي زوالَهُ إذا قيلَ لكَ : كمُلَ .

٤ ـ سليمـانُ جـاءتْ لـهُ نملـةٌ تُحَـذِّرُهُ مـنْ عِثـارِ القَـدَمْ

واذكُرِ النبيَّ سليمانَ ، عليه السلامُ ، حينَ أتتْهُ النملةُ ، ونَبَّهَتْهُ منْ زلَّةِ القدمِ .

٥ ـ إذا كنـتَ فـي نعمـةٍ ، فـارْعَهـا فـإنَّ المعـاصـيَ تُـزيـلُ النِّعَـمْ

فإذا كنْتَ يا صاحبي في نعمةٍ ، فاحْفَظْها ، وابتعِدْ عنِ الآثامِ ، فإنها تمحو النِّعَمَ .

٦ ـ وداوِمْ عليهـا بشكـرِ الإلـهِ فـإنَّ الإلـهَ سـريـعُ النِّقَـمْ

واسْتمِرَّ بشكرِ اللهِ تعالى عليها ، فإنَّ اللهَ سريعُ المحاسبةِ والعقابِ .

٧ ـ وفـي كـلِّ حـالٍ فكُـنْ مُنْصِفـاً ومَـنْ يَظْلِـمِ النـاسَ يَلْـقَ النَّـدَمْ

وكُنْ عادلاً في كلِّ أمرٍ ، واعلَمْ أنَّ منْ يعتدِ على الناسِ ، ويظلِمْهُمْ ، يعاقبْهُ اللهُ تعالى ، ويَلْحَقْهُ الندمُ .

٨ ـ فكـم ملـكٍ بـاتَ فـي نعمـةٍ فلـم يَـدْرِ بـالمـوتِ حيـنَ هَجَـمْ

وكم منْ ملكٍ نامَ في نعمةٍ ، ولم يَعْتَرِفْ بالموتِ حينَ باغَتَهُ .

☆☆ ٢٥ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الغزلِ [مجموعة القصائد (ز) وص١٩٨ والطبقات السنية ح٤/ ١٣٤]

١ ـ هوايَ ظباءُ التركِ ، نفسي فداؤهُمْ وهـل يفتِـنُ النسـاكَ إلاّ ظبـاؤهُـمْ ؟

إنني أحبُّ الشُّبّانَ الأتراكَ ، وأُقدِّمُ نفسي فداءً منْ أجلِ سلامتِهِمْ ، وهل يُصْبِي العُبّادَ إلاّ شُبّانُهُمْ ؟

٢ ـ وما أبصرَتْ عيني سوى التركِ مَعْشراً رجـالُهُـمُ معشـوقـةٌ ونسـاؤهُـمْ

ولم تَجِدْ عيني غيرَ الأتراكِ قوماً ؛ رجالُهُمْ ونساؤهُمْ سواءٌ في حبِّ الناسِ وهواهمْ .

٣ ـ فـأيَّـةُ أقمـارٍ يُـريكَ أَمـامُهُـمْ وأيَّـةُ كثبـانٍ يـريـكَ وراؤُهُـمْ ؟

وإنكَ لَترى في مَقْدَمِهِمْ وجوهاً بدوراً غايةً في الضياءِ ، وفي ظَهْرِهِمْ عجيزاتٍ

ضخمةً كالروابي .

٤ ـ وجوهُهُمْ صبحٌ ، مساءٌ شعورُهُمْ بنفسي وأهلي صبحُهُمْ ومساؤهُمْ

فوجوهُهُمْ مضيئةٌ ، وكأنها الصباحُ ، وشعورُهُمْ سوداءُ كسوادِ الليلِ ، وإني لأقدمُ نفسي وأهلي قُرْباناً لسلامتِهِمْ وسعادتِهِمْ صباحاً ومساءً .

٥ ـ سيوفٌ ، ولكنْ للرماحِ انثناؤهُمْ رماحٌ ، ولكنْ للسيوفِ مضاؤهُمْ

وقاماتُهُمْ شديدة ، قويةٌ ، قاطعةٌ كالسيوفِ ، لكنها لينَةٌ ، تنعطِفُ يميناً ويساراً كالرماحِ ، طويلةٌ جارحةً لكنَّ جراحَ السيوفِ أهونُ .

٦ ـ أسودٌ ، ولكنْ للظباءِ انقيادُهُمْ ظباءٌ ، ولكن للأسودِ إباؤهُمْ

وهم أقوياءُ كالأسودِ ، لكنهُمْ ينساقونَ للظباءِ سريعاً ، وهمْ غزلانٌ ، يطيعونَ منْ يحبونَ ، لكنهمْ يمتنعونَ عمَّنْ يكرهونَ امتناعَ الأسودِ عندَ الغضبِ .

٧ ـ همُ أهلُ أصنافِ المحاسنِ كلِّها ولا عيبَ ، لولا غَدْرُهُمْ وجفاؤُهُمْ

وقد اجتمعَتْ فيهمْ أوصافُ الجمالِ كلُّها ، وليس فيهمْ عيبٌ واحدٌ إلاّ الخديعةُ والإهمالُ .

٨ ـ ولا تَأْمُلُوا منهمْ وفاءً ، فإنهمْ أناسُ معَ العنقاءِ طارَ وفاؤهُمْ

ولا ترجُوا منهمْ حفظاً لعهدٍ وأداءً لحقٍّ عليهمْ ، فهمْ جماعةٌ ، طارَ عهدُهُمْ وميثاقُهُمْ معَ العنقاءِ التي لا يُعْرَفُ عنها شيءٌ .

حرف النون / ١٨٩ / بيتٍ

☆☆ ١ ـ وقالَ على بحرِ المنسرحِ في الزهدِ : [مقامات الزمخشري/ ص١٨٨ و١٨٩] :

١ ـ اطلبْ أبا القاسمِ الخمولَ ، ودَعْ غيرَكَ يطلبُ أسامياً وكُنَى

يا أبا القاسمِ ، لا تَجْرِ وراءَ الذِّكْرِ والصِّيتِ ، واتْرُكْ غيرَكَ ، يَهْتَمُّ بالأسماءِ والألقابِ والكُنْياتِ .

٢ ـ شَبِّهْ ببعضِ الأمواتِ شخصَكَ ، لا تُبْرِزهُ ، إنْ كُنْتُ عاقلاً فَطِنا

واجْعَلْ حالكَ شبيهاً ببعضِ الأمواتِ ، لا تُنَبِّهْ أحداً إليه ، إنْ كنتَ عاقلاً حكيماً .

٣ ـ ادْفِنْهُ في البيتِ قبلَ ميتَتِهِ واجعلْ لهُ منْ خُمولِهِ كَفَنا

واسْتُرْ أمرَكَ في دارِكَ قبلَ أنْ تموتَ ، واجْعَلْ سَتْرَهُ كفناً لهُ .

٤ ـ عساكَ تُطْفي ما أنتَ موقِدُهُ إذا أنتَ في الجهلِ تَخْلَعُ الرَّسَنا

لعلَّكَ تُخْمِدُ ما ألهبْتَ منْ نارِ الجهلِ الذي يجعلُ المرءَ ، يرمي حبلَ مكارمِ الأخلاقِ عنهُ ، ولا يقيمُ لها وَزْناً .

☆☆ ٢ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في المدحِ :

١ ـ كم قُلْتُ في خارزمَ قبلَ تَرَحُّلي لركائبي : سيري إلى هَمَدانا

كم منْ مَرَّةٍ طلبْتُ منْ رواحلي قبلَ بدءِ السَّفرِ : توجَّهي نحوَ هَمَدانَ .

٢ ـ لو لم أَقُلْ سيري إلى هَمَدانَ ما هَمَذَتْ بنا في سيرِها هَمَذانا

ولو لم ألفظْ عبارةَ : اذهبي بنا إلى هَمَدانَ ما أسْرَعَتْ في سيرِها إسراعاً شديداً .

٣ ـ وإلى الكرامِ بني زُرَيرٍ ، لم تَزَلْ تجفو بناتُ غُرَيرٍ الأوطانا

وكانَتْ ، وما زالتْ فتياتُ غُرَيرٍ ، تتركُ بلادَها ، وتُسافِرُ إلى بني زُرَيرٍ الكرامِ .

٤ ـ وبنو زُرَيرٍ ما تُزَرُّ ثيابُهُمْ إلاّ على الهضباتِ منْ ثَهْلانا

فإنَّ بني زُرَيرٍ ، قد تَعَوَّدوا أنْ يقفوا على تلالِ ثهلانَ ، فيأتيَ أتباعُهُمْ ، ويشدّوا ثيابَهُمْ بِوضْعِ الأزرارِ في العُرا تهيُّؤاً لتوزيعِ الأُعطياتِ .

☆☆ ٣ ـ وقالَ على بحرِ البسيطِ في رثاءِ الممالكِ :

١ ـ اليومَ خارِزْمُ ليستْ كالتي عُهِدَتْ بالأمسِ ، إنَّ لها في يومِها شانا

لقد تَغَيَّرَ حالُ خوارزمَ ، فلم تَبْقَ على ما عُرِفَتْ بهِ منْ قبلُ إذْ كانَ لها شأنٌ عظيمٌ ، مازالَ الناسُ ، يتحدّثونَ عنهُ .

٢ ـ ما عُذْرُ عُبيدِ اللهِ ، يَقْدُمُها ألاّ يَرَى شأنَها غيرَ الذي كانا ؟

ويسألُ المرءُ نفسَهُ : ما حجَّةُ عُبَيدِ اللهِ في مجيئِهِ إلى خوارزمَ ووقوفِهِ على حالِها الذي تَغَيَّرَ ، وتبدَّلَ ؟

☆☆ ٤ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في مدحِ ابنِ وهّاسٍ :

١ ـ ألا أبلِغا أُمَّ القُرَى وقطينَها تحيَّةَ نفسٍ ، ما تُغِبُّ حنينَها

يا صاحبيَّ أوصِلا سلامَ امْرِئٍ ، لا يَقِلُّ شوقُهُ إلى مكةَ المكرمةِ أُمِّ القُرَى وسُكّانِها .

٢ ـ تَحِنُّ إلى البطحاءِ حنَّةَ والهٍ بناتُ الليالي ، أثْكَلَتْها قرينَها

وإنَّ نفسي ، تشتاقُ إلى أرضِ مكةَ اشتياقَ حزينٍ ، أصابَتْهُ نوائبُ الدهرِ بهلاكِ رفيقِها .

٣ ـ حَكَتْ بعدَ شَحْطِ الدارِ عوجاءَ شوحطٍ تَحَنِّيَها منزوعةً ورنينَها

وصارَتْ بِمصيبَتِها ، تشبهُ غُصْناً أعوجَ منْ أغصانِ الشجرِ ، اتُّخِذَ قوساً ، في التوائِهِ على نفسِهِ وصوتِ وترِهِ الحزينِ .

٤ ـ متى ذكرَتْ ، والذكرُ ، يَبتعِثُ الأسَى بمكةَ عامَيها أطالَتْ أنينَها

وحينَ تَمُرُّ ببالِها ذكرياتُ الأيامِ التي قَضَتْها في سَنَتَيها في مكة ، والذكرياتُ ، تُثيرُ الأحزانَ ، يطولُ صوتُ تَوَجُّعِها ، ويَتَرَدَّدُ .

٥ ـ وجُنَّتْ ، وذكراها الشريفَ هي التي تَهيجُ ، فما إنْ تَستفيقُ ، جنونَها

وتَفْقِدُ سُلْطانَها على أمرِها لأنَّ ذكرى الشريفِ عُلَيِّ بنِ عيسى ، تُثيرُها ، فما تَصْحو منْ ثورتِها ، وتسكُنُ .

٦ ـ ولولا الذي خَطَّتْ أناملُهُ لما تَلَقَّتْ إلى يومِ التلاقي سكونَها

ولولا الكتابُ الذي رسمَتْ أصابعُ الشريفِ حروفَهُ بأمْرٍ بعطائِهِ لبقيتْ نفسُ الزمخشَريِّ ثائرةً إلى يومِ القيامةِ .

٧ ـ مَقاطِرُ أقلامِ الشريفِ رشفْتُها فشافَهْتُ تبريدَ المعاطشِ دونَها

وقَبَّلْتُ كتابَ الشريفِ حروفَهُ ، وحادثْتُ معانيَها رغبةً مني في تبريدِ أسبابِ شوقي

إليهِ .

٨ ـ فَفَــدَّيتُــهُ ذرِّيَّــةً حَسَنيَّــةً فَـدَيـتُ بـأيمـانِ الأنـامِ يمينَهـا

وَبذَلْتُ لهُ ما تركَتِ الأقلامُ منْ كتبٍ عظيمةٍ ، وجَعَلْتُ أيمانَ كاتبيها فداءً لهُ .

٩ ـ ولـو كنْـتُ نظّـاراً بعيـنٍ بصيـرةٍ تـأمَّـلَ ذاتَ الحـقِّ كـي يَسْتَبينَهَـا

ولو وَهَبَني اللهُ تعالى عقلاً مُفكِّراً وفِطنةً نافذةً لأَمْعَنْتُ في أمورِ الحقِّ حتى أدرِكَ أبعادَها .

١٠ ـ إذنْ كنْتُ مختاراً خشونَةَ عيشتي هنـاكَ ، ولـم أَخْتَـرْ خـوارزْمَ لينَهَـا

ولَفَضَّلْتُ العيشةَ الصعبةَ في تلكَ البِلادِ على الحياةِ في خوارزْمَ ذاتِ الطبيعةِ الجميلةِ والخيراتِ الكثيرةِ .

١١ ـ بِـودّي أنْ أغْشَـى تِهـامـةً مُقْلَقـاً إلـى الكعبـةِ البيـتِ الكـريـمِ وضَينَهـا

وإني لأرجو أنْ أذهبَ إلى تهامةَ إلى مكةَ إلى البيتِ العتيقِ الكريمِ ، وأنا مضطرِبُ النفسِ بسببِ مرضي وهُزالِ جسمي .

١٢ ـ لأشفـعَ أعـوامـاً بعـامَـيَّ مُكْمِـلاً سعــادةَ نفســي ، نَفَّـسَ اللهُ حَينَهـا

وأضيفَ إلى السَّنَتَينِ اللَّتينِ عِشْتُهما فيها قبلاً سنينَ أخرى . فأُكمِلَ هناءةَ نفسي داعياً اللهَ تعالى أنْ يُخفِّفَ منْ مِحْنَتِها .

١٣ ـ وخارَ لها في كسبِ ما يعقِبُ الرِّضا ووفَّقَهــا حتــى تُــوَفَّــى دَينَهــا

ويَستجيبَ لها دعاءَها ، ويُكْسِبَهُ حياةً ، فيها توفيقُهُ ورضاهُ ـ عَزَّ ، وجَلَّ ـ عنه إلى أنْ يأتيَ أجلُهُ .

☆☆ ٥ ـ وقالَ على بحرِ المنسرحِ في المدحِ :

١ ـ حَـدِّثْ إلـى أيـنَ مَـرَّتِ الظُّعُـنُ فعنــدَهــنَّ الفــؤادُ مــرتَهــنُ ؟

يا صاحبي خَبِّرْني : إلى أينَ توجَّهَتِ الهوادجُ بنسائِها ، فإنَّ قلبي حبيسُ أنبائِها ؟

٢ ـ خَـلاَ مـنَ القَلْـبِ بَـرْدُهُ بَـدَنـي لمّـا خَـلاَ مـنْ أحِبَّتـي الـوطَـنُ

وقد عَدِمَ القلبُ هدوءَهُ ، فَعدِمَ بدني سكونَهُ ، لمّا فَرَغَ الوطنُ ممَّنْ أُحِبُّ .

٣ ـ فَقْـدُ فـؤادي ، وفَقْـدُهُـمْ جُمِعـا علـيَّ حتـى تَضـاعَـفَ الشَّجَـنُ

وقدِ اجتمعَ حرماني سكونَ قلبي وبقاءَ أحِبَّتي قُربي ، فازدادَ حزني أضعافاً مضاعفةً .

٤ ـ مـا أحسـنَ الحـالَ لـو تـرافَـقَ فـي ذاكَ المسِيـرِ الفـؤادُ والبـدنُ

وأحسنْ بالحالِ إنْ شارَكَ سفرَ الظعائِنِ قلبي وجسمي .

٥ ـ سـافَـرَ عنـي الفـؤادُ إثْـرَهُـمُ لكنـه لـم يُسـافِـرِ الحَـزَنُ

ولحقَ قلبي الظعائنَ ، يَتَتَبَّعُ أثارَها ، وتركني في الحُزْنِ والشقاءِ .

٦ ـ فهـا أنـا الآنَ ، لا حبيـبَ ، ولا قلـبَ ، وحُـزْنٌ بـذاكَ مُقْتَـرِنُ

وها أنذا الآنَ فقيدُ الحبيبِ والفؤادِ شريكُ الحُزْنِ والعذابِ .

٧ ـ فـإنْ تكـنْ فـرحـةٌ بِمُمْتَحَـنٍ عنـدكـمْ ، إننـي لَمُمْتَحَـنُ

وإنْ كانَ يَعْقُبُ الحُزْنَ والأسى فرحٌ وسعادةٌ فإنني راضٍ بحزني إنْ تَبِعَتْهُ السعادةُ والهناءةُ .

٨ ـ ولـم تَـزَلْ تلعبُ النـوائـبُ بـي كـأنَّ دهـري علـيَّ مُضْطَغِـنُ

وكانَتْ ، وما زالَتِ المصائبُ تَلْهو بي ، وكأنَّ حَظّي في الحياةِ ، يَحْمِلُ الحقدَ عليَّ ، فلا يريدُ أنْ يُريحَني منه .

٩ ـ وهكـذا الـدهـرُ حَـرْبُ كـلِّ فتًـى يُقـالُ فيـه : الأريـبُ والفَطِـنُ

وهذا هو حالُ الزمانِ ؛ هو عَدُوُّ كلِّ امرئٍ ، يقولُ عنهُ الناسُ : إنهُ هو العاقلُ الحكيمُ .

١٠ ـ أطلـبُ قَهْـرَ العَـدُوِّ مـنْ زمنـي وإنَّ أعْـدَى عَـدُوِّيَ الـزَّمَـنُ

وأرجو منْ دهري أنْ يَغْلِبَ ، أو أغلِبَ ، عَدُوّي ، فأرى أنَّ أشدَّ الناسِ عداوةً لي ، هو دهري الذي جعلْتُهُ ملاذي .

١١ ـ قد كِدْتُ أدعو عليه ، فاعْتَرَضَتْ سُعْدَى ، وقالَتْ ، وقولُها حَسَنُ :

وأوشَكْتُ أنْ أدعوَ اللهَ تعالى على الزمنِ بمكروهٍ ، يُصيبُهُ ، . فَرَدَّتْني سُعْدى عَنْ ذلك ، وقالَتْ لي قولاً جميلاً :

١٢ ـ لِلْحَسَنِ المُحْسِنُ ، اعْفُ عنهُ ، وقُلْ : أهـلاً بـدهـرٍ ؛ مـنْ أهلِـهِ الحَسَنُ

لقد أثابَ اللهُ ، ـ عزَّ ، وجلَّ ـ المُحْسِنَ بالحُسْنَى ، فسامِحْهُ أنت ، وقُلْ : أهلاً ، ومرحباً بما يأتي بهِ الزمنُ ، ويا حبّذا الثوابُ والفضلُ الذي أنالَهُ منَ اللهِ تعالى .

١٣ ـ ألقَـى إليـهِ ملـوكُـهُ ثقـةً بـهِ مقـاليـدُ كـلِّ مـا اخْتَـزَنـوا

فقد رَمَى إليهِ ملوكُ الأرضِ عهداً ، بهِ أمورُ كلِّ ما ملكوا .

١٤ ـ امْتَحنـوهُ ، فصـادفـوهُ رِضـاً ثـم استشـاروهُ بعـدَ مـا امتحنـوا

واخْتَبروا أحكامَهُ ، فَرَضَوا بها ، وشاوَروهُ في أمورِهِمْ بعدَ ما اختبَروا آراءَهُ .

١٥ ـ فوافقَ الحَقَّ ما بهِ لهمُ يشيرُ ، والمستشارُ مؤتَمَنُ

فوجدُوا أنهُ ، يقولُ الحقَّ في ما يَدُلُّ عليهِ ، ولا يَبْتَعِدُ عنْ سدادِ الرأيِ ، وأنهُ أمينٌ في أفكارِهِ وأقوالِهِ .

١٦ ـ همومُهُ المكرماتُ ، ليسَ لهُ في غيرِها نبهَةٌ ولا وَسَنُ

وأنَّ غايتَهُ تحقيقُ الأمجادِ ، لا يميلُ إلى غيرِها ، ولا تأخذُهُ عنها صَحْوَةٌ بعدَ نومٍ أو نعاسٌ .

١٧ ـ سَكَّنَ أطرافَهُ ، تُوَقِّرُهُ كأنما في قميصِهِ حَضَنُ

وكانَ ذا حِلْمٍ ، يُهَدِّئُ نفسَهُ وأطرافَهُ ، فيبدو ذا رزانةٍ ، وكأنهُ ، يحمِلُ بينَ جنبَيهِ جَبَلَ نَجْدٍ .

١٨ ـ وهو إذا الثناءُ أطربَهُ كأنهُ في اهتزازِهِ غُصُنُ

وإذا ما سَمِعَ مديحاً ، طَرِبَ لهُ ، وهَزَّ عِطْفَيهِ كأنهُ غصنُ شجرةٍ ، حَرَّكَها نسيمٌ رقيقٌ .

١٩ ـ لا يستطيعُ إطلاقَ لهجتِهِ بكذبةٍ ، وهو مِصْقَعٌ لَسِنُ

لم يستطِعْ يوماً أنْ يُخْرِجَ منْ فمِهِ قولاً كَذِباً لأنهُ أديبٌ ذو بلاغةٍ وبيانٍ ، وكلاهما : البلاغةُ والبيانُ سلاحُ الصادقِ لا الكاذبِ .

٢٠ ـ منطِقُهُ حكمَةٌ ، وشيمتُهُ تُقًى ، وأعمالُ بِرِّهِ سُنَنُ

فلا يقولُ إلاّ الحكمةَ ، ولا يقصِدُ إلاّ طاعةَ ربِّهِ ، ولا يعمَلُ إلاّ الإحسانَ الذي يذهبُ في الناسِ إلى الطريقِ الصحيحِ إلى رضا اللهِ تعالى .

٢١ ـ وهؤلاءِ اللئامُ كلُّهُمْ دنياهُ جِدٌّ ، ودينُهُ دَدَنُ

وهؤلاءِ الرجالُ الذينَ ترونَهُمْ أمامَكُمْ ، كلٌّ ، تَرَونَهُمْ ، يعملونَ جادِّينَ مجتهدينَ لكسبِ الأموالِ ، ويتلاعبونَ بأحكامِ دينِهِمْ ، ويلهونَ .

٢٢ ـ منظرُهُ مُعْجِبٌ ، ومَخْبَرُهُ لا خيرَ فيه ، كأنَّهُ وثَنُ

وإنْ وقَعَ نظرُكَ على أحدٍ منهم تظُنُّهُ عَجَباً في الكمالِ ، وإنْ فَتَّشْتَ عنْ دخائلِ نفسِهِ تَجدِ العَجَبَ العُجابَ ، وهو الشَّرُّ في الصَّنَمِ والجسمِ .

٢٣ ـ أدلَّ علياءَهُ ، وآخِرُها في الصيفِ لاذٌ ، وفي الشِّتا رَدَنُ

تفاخَرَ على مَنْ حولَهُ ، وأفرطَ عليهِمْ في اغترارِهِ ؛ فكانَ آخرُ ما ارتدى الحريرَ الأحمرَ في الصيفِ والخزَّ في الشتاءِ .

٢٤ ـ لا يُعْجِبَنَّ الجَهولَ حُلَّتُهُ   فذاكَ مَيْتٌ ، وثوبُهُ كَفَنُ

فلا يَأخُذْكَ يا صاحبي العَجَبُ منْ ثوبِ الجَهولِ المُغْتَرِّ بنفسِه ، واعلَمْ أنهُ ، لا خيرَ فيه ، ولا حياةَ ، وذاكَ الثوبُ ، هو كفنُهُ .

٢٥ ـ يا شَرفَ المُلْكِ ، مَلَّكَتْكَ   فخُذْ رِقَّ رقابِ الأفاضِلِ ، المِنَنُ

فيا شرفَ المُلْكِ لقد وهبَكَ اللهُ أكبرَ الأُعطياتِ ، فتناولْ صحيفةَ مِلْكِ رقابِ الناسِ الكرام بيمينِكَ .

٢٦ ـ طاروا بشكري الذي منحتَهُمْ   فامتلأَ الشامُ منهُ واليَمَنُ

وانتشرَ الناسُ كأنهمْ طيرٌ فرحينَ بمدحي إياكَ بِما أعطيتَهُمْ ، وعلَتْ أصواتُهُمْ بهِ في الشامِ واليمنِ .

٢٧ ـ أغْلَيْتُ شعري فإنْ يكُنْ قَمِناً   بالمدحِ عندي ، فإنكَ القَمِنُ

ونظمتُ قصيدي ، وجعلْتُ مدحي إياكَ غايةً في الإبداعِ ، فإنْ يكُنْ خليقاً بكَ ، فأنتَ الوحيدُ الجديرُ بالمدحِ .

٢٨ ـ وشعرُ مثلي غالٍ لجَودَتِهِ   وجَيِّدُ الشعرِ ، مالهُ ثَمَنُ

وقصيدُ شعرٍ مِثلُ شعري ذو مكانةٍ ومنزلةٍ عاليةٍ لِفَضْلِهِ ، وأفضلُ الشعرِ ، لا يُقَدَّرُ بثمنٍ .

☆☆ ٦ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدح :

١ ـ فؤادٌ منَ الشوقِ المُبَرِّحِ ريّانُ   إلى حرمِ اللهِ المعظَّمِ ظمآنُ

لي قلبٌ ، قد ملأهُ الحنينُ الشديدُ إلى رؤيةِ حرمِ اللهِ الشريفِ .

٢ ـ يروحُ ، ويغدو ما تُغِبُّ سوادَهُ   تباريحُ ، ينهبْنَ العزاءَ وأشجانُ

وعلى الرغمِ منْ أنهُ يَهْفو إليهِ مساءً وصباحاً فإنَّ شدةَ أشواقِهِ إليهِ ، لا تنقطعُ عنهُ ، وتسلُبُهُ الصبرَ والسلوانَ .

٣ ـ إذا جالَ فيه هاجسٌ منْ تذكُّرٍ   لمكةَ عاميَّ التَظَتْ فيه نيرانُ

وإذا ما خَطَرَ في بالي أمرٌ منَ الأمورِ التي جرتْ في مكةَ خلالَ سَنَتَيَ التهبَتْ في صدري نيرانُ الشوقِ والحنينِ .

٤ ـ وأبرحُ ما بي أنني شَيِّقٌ إلى   عُلَيِّ بنِ عيسى لاعجُ الوجدِ حَرّانُ

وأعظمُ ما بي وأعجبُهُ أني ذو شوقٍ شديدٍ إلى عُلَيّ بنِ عيسى ، يُلْهِبُ النارَ في قلبي .

٥ ـ عُلَيُّ بنُ عيسى منْ يُشاهِدْهُ مَرَّةً　　منَ الدهرِ ، لم يرجُحْ بعينيهِ إنسانُ

فمن يَرَ عُلَيَّ بنَ عيسى مَرَّةً واحدةً في عمرِهِ لا يجدْ أحداً يَفْضُلُ عليهِ ، أو يُماثلُهُ .

٦ ـ فتًى أوحديٌّ ، لنْ تُصادِفَ مثلَهُ　　وإنْ مَرَّ أزمانٌ عليكَ وأزمانُ

فهو رجلٌ فريدٌ ، لا ولن تَلْقَى شبيهاً لهُ ، ولو مضَتْ عليك دهورٌ ودهورٌ .

٧ ـ أردِّدُ ظني : هل أرى شبهاً لهُ ؟　　فيرتدَّ طَرْفي ، وهو أَطْرَفُ خَزْيانُ

وأقلِّبُ صفحاتِ خيالي علّي أجدُ مثيلاً لهُ ، فيعود بصري ذليلاً دامعاً ، كأنهُ أُصيبَ بشيءٍ آلَمَهُ ، فأدْمَعَهُ .

٨ ـ كأُنسي به استيحاشُ قلبيَ بعدَهُ　　كأنس مصابٌ بالأعِزَّةِ ثَكلانُ

وصارَ حالي بقربي منه وابتعادِهِ عني سواءً ، كأنَّ قدرَ اللهِ تعالى قد حكمَ عليَّ بابتعادِ الأحبةِ عني أو هلاكِهِمْ .

٩ ـ وما ضَرَّني لو لم أُلِمَّ بموطني　　ولي حيث إخوانُ الصفا ، إخوانُ

وما ساءني أمرٌ لو لم أبقَ بأرضي ، ولي إخوانٌ أصفياءُ حيثما أسافرُ ، وأنزِلُ .

☆☆ ٧ ـ وقالَ على بحرِ السريعِ في المدح : [أزهار الرياض ح٣/ ٢٩٤]

١ ـ أربعةٌ للدينِ أركانُ　　حُبُّهُمْ يُمْنٌ وإيمانُ

إنَّ حُبَّ أربعةِ رجالٍ ، يُعَدُّ بَرَكَةً وأساساً للدينِ الإسلاميِّ .

٢ ـ أربعةٌ أوَّلُ أسمائهمْ　　عينٌ ، وهمْ في الناسِ أعيانُ

وأوَّلُ حرفٍ منْ أسماءِ هؤلاءِ الرجالِ ، هو العينُ ، وهم قِبْلَةُ أنظارِ الناسِ .

٣ ـ عتيقٌ والفاروقُ والمُجْتَبَى　　منهمْ وذو النورَينِ عثمانُ

فأولُهُمْ : عتيقٌ ، وهو عبدُ اللهِ ، وكنيتُهُ أبو بكرٍ ، ولقبُهُ الصِّدِّيقُ ، وثانيهمْ : عمرُ بنُ الخطابِ ، ولقبُهُ الفاروقُ ، وثالثُهُمْ : عليُّ بنُ أبي طالبٍ ، ولقبُهُ المُجْتَبَى ، ورابعُهُمْ : عثمانُ بنُ عَفَّانَ ، ولقبُهُ ذو النورَينِ .

☆☆ ٨ ـ وقالَ على بحرِ الوافرِ في الفخرِ :

١ ـ إذا لم يَحْنُ في الحَدَثانِ جارٌ　　على جارٍ ، فنحنُ عليهِ نَحْنو

إذا لم يَرْأفِ الجارُ بالجارِ في نوائبِ الزمانِ ، فنحنُ نرأفُ به .

٢ ـ ومَنْ يَحْنو على جارٍ إذا ما　　دها الحَدَثانِ ، إنْ لم نَحْنُ نَحْنُ ؟

ومَنْ يُشْفِقُ ، ويرحَمُ الجارَ ، إذا جارَتْ نوائبُ الدهرِ ومصائبُهُ عليهِ ، إنْ لم نُشْفِقْ

عليهِ ، ونرحمُهُ ؟

☆☆ ٩ ـ وقالَ على بحرِ المتقاربِ في الهجاءِ :

١ ـ أفي دولةِ الخارجيِّينَ ترجو فلاحاً ؟ رَجَوْتَ الذي لا يكونُ

إنكَ أيُّها المرءُ تضعُ أمَلَكَ في جماعةِ الخوارجِ طالباً الفوزَ ، ولم تَدْرِ أنك تأمُلُ أمراً في باب التَّمَنِّي الذي لا يتحقَّقُ .

٢ ـ تَرَبَّصْ بهمْ مَصْرَعاً عنْ قريبٍ فللريحِ بعدَ هبوبٍ سكونُ

وتَرَقَّبْ لهم موقعةً ، تُهْلِكُهُمْ ، فإنَّ الرياحَ العاصفةَ ، لابدَّ لها منْ هدوءٍ وانتهاءٍ .

☆☆ ١٠ ـ وقالَ على بحرِ البسيطِ في المدحِ :

١ ـ هذي القوافي تضاهي النَّورَ في الغُصُنِ والوَشْيَ ، يُنْسَجُ في صنعاءَ أو عدنِ

إن هذه القصائدَ ، تشابهُ زهرَ النَّورِ على أغصانِهِ والزخرفَ الذي يبدعُ نُسّاجُ صنعاءَ وعَدَنِ فيه .

٢ ـ حسنٌ في اللفظِ المُعْنَى ، ولا عجبٌ أنْ يأتيَ الحسناباذيُّ بالحسنِ

فهي ذاتُ ألفاظٍ مخْتارةٍ لتناسِبَ المعانيَ المرادةَ ، ولا غرابةَ في أنْ يأتيَ الشاعرُ الحسناباذيُّ بهذه الألفاظِ الحسنةِ .

٣ ـ وزادَ في حُسْنِها أنْ كانَ مُمْتَدَحاً بها أخو الحُسْنِ والحُسْنَى أبو الحسنِ

وزادَ على حُسْنِها وجَودةِ صياغَتِها أنَّ الحسناباذيَّ ، مدحَ بها صاحبَ الفَضْلِ والفُضْلَى أبا الحَسَنِ عُلَيَّ بنَ عيسى ابنِ وهّاسٍ .

☆☆ ١١ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في الحكمة :

١ ـ وإذا كَسَوْتَ فَجُبَّةً وعِمامةً ما واحدُ الثوبَيْنِ بالحسنِ

وإذا أردْتَ أن تَهْدِيَ أحداً كِساءً ، فاجعلْهُ جُبَّةً وعِمامةً ، فإنَّ الاكتفاءَ بأحدِ الرداءَيْنِ ، لا يَحسُنُ .

٢ ـ لم يستَقِمْ في حكمةٍ بدنٌ بلا رأسٍ ولا رأسٌ بلا بَدَنِ

ولا تتمُّ الحكمةُ إلاّ بوضعِ الأمرِ في موضِعِهِ ، وكذا الكساءُ ، لا يكملُ إلاّ بسَتْرِ الرأسِ والبَدَنِ .

☆☆ ١٢ ـ وقالَ على بحرِ المنسرحِ في الشوقِ والحنينِ :

١ ـ أشكو إلى اللهِ جفوةَ الزمنِ ودولةً ، ما تزالُ تَظْلِمُني

إنِّي أتقدَّمُ إلى اللهِ ـ عَزَّ ، وجلَّ ـ ذاكراً لهُ ابتعادَ الزمنِ عني وعدمَ اهتمامِهِ بي وظلمَ أولي الأمرِ المتواترِ إيّايَ .

٢ ـ تؤثرُ جُهّالَها بنعمتِها وتقصِدُ الفاضلينَ بالمِحَنِ

فهمْ يفضِّلونَ جُهّالَ الناسِ ، ويُقَدِّمونَ إليهم أياديَهمْ ، ويَخْتَصّونَ كرامَ الناسِ بإنزالِ الشدائدِ عليهم .

٣ ـ قلبي لا يعرف السرورَ ، وما أعْرَفَ قلبي بشدة الحَزَنِ

وأصبحَ قلبي ، لا يحسُّ بالسرورِ ، وأعْرَفَ الناسِ بقسوةِ الحزنِ .

٤ ـ حسبي منْ كلِّ غُصَّةٍ وأسىً ما حلَّ بي منْ نوى أبي الحسنِ

ويكفيني منْ كلِّ شِدَّةٍ وحزنٍ ما أجدُ في نفسي منْ بعدِ أبي الحسن عُلَيَّ بنِ عيسى ابنِ وَهّاسٍ .

٥ ـ أُحْيِيْ ليالِيَّ ، وهي تقتلُني شوقاً إلى صُبْحِ وجهِهِ الحَسَنِ

وإني أقضي الليالِيَ ، وهي تُعذِّبُني حنيناً إلى رؤيةِ مُحَيّاهُ الجميلِ الشبيهِ بنورِ الصباحِ .

٦ ـ طَوَّلَ عهدي بهِ الزمانُ ، فقد طَوَّلَ عهدَ الجفونِ بالوسَنِ

وقد تَعَلَّقَ قلبي به منذُ زمنٍ طويلٍ كتَعَلُّقِ جفونِ المرءِ بالنومِ العميقِ .

٧ ـ أصبَحْتُ مذْ غابَ كالغريبِ على أني في أسرتي وفي وطني

وصِرْتُ حينَ غابَ عني مثلَ الغريبِ الذي ابتعَدَ عنْ أهلِهِ وبلدِهِ .

٨ ـ أُفْكِرُ في مُسْتطالِ غيبتِهِ فكادَ روحي يَنْسَلُّ عنْ بَدَني

أنظرُ في سببِ طولِ ابتعادِهِ عني ، فتوشكُ روحي أنْ تُنتَزَعَ منْ جسدي .

٩ ـ اجْعَلْهُ يا ربِّ في ضمانِكَ لا تصلْ إليهِ حوادثُ الزمنِ

☆☆ ١٣ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في المدحِ :

١ ـ أتبُزُّ عن عِطفي رداءَ الدينِ أجيادُ غزلانٍ وأَعْيُنُ عينِ ؟

أتَقْهَرُني النساءُ اللواتي يشبهْنَ الغزلانَ في جمالِ أعناقِها وبقرَ الوحشِ في سعةِ أعيُنِها ، وتجعلُني ، أخلَعُ ثوبَ الوَرَعِ والدينِ ؟

٢ ـ أيروعني ظبيُ الكناسِ ، وإنَّ لي قَلْباً ، يضاهي قلبَ ليثِ عرينِ ؟

أيُخيفُني غزالٌ ، يستترُ بالشجرِ ، ولي قلبٌ ، يُشابهُ قلبَ أسدٍ في أجمتِهِ ؟

٣ ـ أنا لا تُبدَّلُ بالهُوَينَى شِدَّتي وخشونتي ، ليسَتْ تُباعُ بِلِينِ

وبي قسوةٌ، لا تتغيَّرُ بالسهولةِ التي يَتَخَيَّلُها أحدٌ، وصعوبةٌ، لا تُشْتَرى بِلَيانٍ ورِقَّةٍ.

٤ ـ فادعي أُمامُ إلى البطالةِ والهَوَى غيري ، وما أنا منهما فَدَعيني

فنادي ، وسوقي يا أُمامةُ غيري إلى الضَّياعِ والعِشْقِ ، فإني ليسَ في طبعي شيءٌ منَ الهزلِ والإفراطِ في الحبِّ وغيرِهِ ، فاتركيني وشأني .

٥ ـ عِفْتُ الهوى ، وعَفَفْتُ عنه واقياً عرضي بِدِرعٍ مِنْ تُقايَ رصينِ

ومَقَتُّ الحُبَّ الجارفَ إلى الخُسْرانِ ، وأنِفْتُ منهُ حافظاً نَفْسي بثوبٍ متينٍ منْ خوفِ اللهِ تعالى .

٦ ـ وزَوَيتُ عنْ بيضِ الدُّمى شَغَفي إلى بيضِ العُلا وتَطَرُّبي وحنيني

ونَحَيتُ نفسي عنِ النساءِ البيضِ شبيهاتِ التماثيلِ لِمَيلي الشديدِ إلى المكارمِ والأمجادِ البيضاءِ ورغبتي في الوصولِ إلى المعالي .

٧ ـ وركضْتُ في حَلَباتِ آبائي الأُلَى عُرِفُوا بِشَأْوٍ في العفافِ بَطينِ

وجُلْتُ في ساحاتِ آبائي الذينَ شَهِدَ الناسُ لهمْ بغايةٍ ومُنْتَهى عِزَّةِ النفسِ .

٨ ـ أبغي حياةَ مُبَطَّنٍ ، في غِبِّها دَرْكُ السعادةِ لا حياةَ بَطينِ

وأُريدُ عيشَ امرئٍ ضامرِ البطنِ قاصداً في عاقبتِها الوصولَ إلى السعادةِ العِزِّ لا عيشَ أكولٍ عظيمِ البطنِ ، همُّهُ الطعامُ والشرابُ .

٩ ـ ما ضَرَّ منْ كانَتْ غَثاثَهُ عيشِهِ سبباً إلى شرفٍ ينالُ سمينِ ؟

ما ساءَ الذي رضيَ بفَقْرِهِ إن كانَ سبيلاً إلى عُلُوِّ المنزلةِ ؟

١٠ ـ وسُلافَةٍ طاشَتْ بِلُبِّ سُقاتِها فَتَنَتْ رزينَ الحِلْمِ غيرَ رزينَ

وربَّ خمرةٍ ذهَبَتْ بعقلِ سقاتِها وشاربيها ، وجعلتِ الوقورَ غيرَ وقورٍ .

١١ ـ كتَبَتْ بنانُ اللَّهوِ في كاساتِها مبتاعُها بالروحِ غيرُ غبينِ

كتَبَتْ رؤوسُ أصابعِ اللعبِ في كؤوسِها اسمَ شاريها الذي دفعَ ثمنها روحَهُ ، وهو راضٍ ، لا يحسُّ بشيءٍ منَ الظلمِ .

١٢ ـ طَلَّقْتُها تأميلَ خَمْرِ لَذَّةٍ للشاربينَ وخيفةَ الغِسْلينِ

وتركْتُها رغبةً في شربِ خمرةٍ أُخرى أطيبَ منها في الجنةِ ، وخوفاً من شرابِ أهلِ النارِ الذي هو ما يسيلُ من جلودِهِمْ بحرقِ أجسادِهِمْ، والذي سماهُ القرآنُ الكريمُ: الغِسْلينَ [الحاقة/ ٣٦].

١٣ ـ ولو أنني في الجاهليةِ لم أكُنْ   إلاّ بِعِلْقِ العقلِ جِدَّ ضنينِ

ولو كنْتُ أحْيَا في الجاهليةِ ، لما قُمْتُ بعملٍ إلاّ بعدَ تفكيرٍ طويلٍ رشيدٍ شديدِ الحرصِ على الوقارِ والرزانةِ .

١٤ ـ إنّ الهجانَ ، هو الضنينُ بعقلِهِ   والضَّنُّ بالأموالِ فعلُ هجينِ

لأنَّ ذا الأصلِ الكريمِ ، هو الحريصُ على عِزَّتِهِ ، والمُسَيِّرُ بعقلِهِ ، والحِرْصُ على المالِ فعلُ منْ كان هجيناً ؛ أصلُهُ مختلطٌ ، أبوهُ عربيٌّ ، وأمُّهُ غيرُ عربيةٍ .

١٥ ـ هي هُجْنَةٌ ، لم يَحْمِ عنها نفسَهُ   إلاّ الوزيرُ السمْحُ شمسُ الدينِ

وشربُ الخمرِ عيبُ وعارٌ ، لا يستطيعُ المرءُ أنْ يصونَ نفسَهُ منهُ . أمّا الوزيرُ شرفُ الدينِ كريمُ النفسِ ، فقد تمكَّنَ منَ الاحتفاظِ بوقارِهِ ورزانتِهِ .

١٦ ـ بالجودِ زَيَّنَ نفسَ حُرٍّ ، فاكتَسَتْ   منهُ الوزارةُ حُلَّتَي تزيينِ

تَجَمّلَ بالكَرَمِ كَرَمِ النفسِ الشريفةِ ، فَكَسِبَتْ وزارَتُهُ رداءَينِ منَ الزينةِ .

١٧ ـ جَذَبَتْ بضبعَيها مكانَةُ ماجدٍ   منْ قَبْلِها ما كان غيرَ مكينِ

وأبْعَدَتْ منزلتُهُ الكريمةُ الشريفةُ بقوةِ ذراعَيها كلَّ ما كانَ قبلَ أنْ يتسَلَّمَ منصِبَ الوزارةِ غيرَ ذي عزَّةٍ ومجدٍ .

١٨ ـ صافي النُّهَى ، وافي اللُّهَى هَطِلِ الحَيَا   طَلْقِ المُحَيَّا ، شامخِ العِرْنينِ

وكانَ ذا عقلٍ سليمِ الفِكْرِ ويدٍ سخيَّةٍ بالعطايا وحياءٍ ، يتلألأُ وجهُهُ بمائِهِ ، وجبينٍ سَمْحٍ وأنفةٍ رفيعةٍ ، تأبى الدّنايا .

١٩ ـ عَذْبِ الشمائلِ ، في المكارمِ راغبٍ   للبخلِ قالٍ ، بالثناءِ قمينِ

سجاياهُ حُلْوَةٌ ، طالبٌ الأمجادَ ، كارهٌ البخلَ ، جديرٌ بالمدحِ .

٢٠ ـ وإذا طَلَى العارُ الوجوهَ بقارِهِ   أوفى بِخَدٍّ واضحٍ وجبينِ

وإذا غطّى العيبُ الوجوهَ بالسوادِ الشبيهِ بالزفتِ ، تَقَدَّمَ ، فَمَحاهُ بوجهِهِ السَّمْحِ وجبينِهِ المشرقِ .

٢١ ـ ومتى أتاهُ الضيفُ حَلَّ بِمُكرِمٍ   للضيفِ للمالِ الكريمِ مُهينِ

وإذا ما جاءهُ ضيفٌ ، يرى أنهُ نزلَ بأرضِ كريمٍ ، يَبْذُلُ المالَ الوفيرَ لإكرامِهِ .

٢٢ ـ لم يَعْتَذِرْ ، فيقالَ : يأبى العذرَ ما   في الوطبِ منْ لبنٍ لديكَ حَقينِ

لم يُقَدِّمْ لضيفٍ يوماً عُذْرَهُ في أنهُ ، لا يملكُ لبناً مُهَيّأً لصيرورتِهِ زُبداً ، ووعاءُ اللبنِ

ملآنُ ، يُكَذِّبُهُ في عُذْرِهِ .

٢٣ ـ لو مَسَّ صخراً في زمانٍ مُجْدِبٍ لَجَرى بسلسالٍ ، يفيضُ ، مَعينِ

ولو لمسَ الصخرَ أيامَ القحطِ لسالَ الماءُ منه ، وملأَ الواديَ بغزارتِهِ .

٢٤ ـ يطوي تواضعَ نفسِهِ كلَّها على خَلَدٍ بإمحاضِ الودادِ رَهينِ

يضمُّ سجايا نفسِهِ كلَّها إلى لِينٍ ورِقَّةٍ ، ويُقَدِّمُ حبَّهُ خالصاً ، ويجعلُهُ باقياً خادماً للمكارمِ .

٢٥ ـ وتواضعُ العظماءِ يَشْفي مثلَ ما يُضْني ، ويُمْرِضُ كِبْرُ كلِّ مَهينِ

وإنَّ لُيونةَ الكرامِ الأمجادِ ورقَّتَهُمْ تُبرِئُ وتزيلُ كلَّ ألمٍ شديدٍ ، وتيهُ كلِّ حقيرٍ ، يوجعُ النفوسَ ، ويُمْرِضُها .

٢٦ ـ وقصائدَ بُنِيَتْ على أسمائِهِ طنانَةٍ أخفينَ كلَّ طنينِ

وكم منْ قصائدَ ، نُظِمَتْ في مدحِهِ ، فكانَ لها صَدًى أخْفَى صوتَ كلِّ صَدًى .

٢٧ ـ ولو أنني أنشأْتُها في غيرِهِ لَزَفَفْتُ أبكارا إلى عِنّينِ

ولو أنني ، نظمْتُها في مدحِ غيرِهِ لكنتُ شبيهاً بمنْ يزوِّجُ بناتٍ أبكاراً إلى مَنْ يعجزُ عن إتيانِ النساءِ ، أو يَعافُ قربَهُنَّ .

٢٨ ـ نُطْقُ الوَرَى خَرَزُ الإماءِ، ومَنْطِقي مكنونُ دُرٍّ ، أصطفيهِ ، ثمينِ

وكلامُ الناسِ ، يشبهُ خَرَزَ الجواري ، وقولي محفظةُ لآلئَ ثمينةٍ ، أختارُها ، وأقدِّمُها لمن هو جديرٌ بها .

٢٩ ـ يا راوياً ، ما شكَّ فيه أولو النُّهَى خذْ منْ روايةِ مجدِهِ بيقينِ

يا أيُّها الحافظُ شعرَ المبدعينَ الذي وثِقَ أهلُ العقولِ بأمانتِكَ تناوَلْ منْ مدائحي مكارِمَهُ ، وأنتَ مطمئنٌّ لما تحفظُهُ منها .

٣٠ ـ قُرِنَتْ به العلياءُ ، وهو بنفسِهِ والأصلُ للعلياءِ خيرُ قرينِ

وجُمِعَتِ الأمجادُ بِهِ لتكونَ مصاحبةً لهُ لأنهُ أصلُها ولأنَّ خيرَ أصلٍ ، يُنتِجُ ، ويصاحبُ العزَّ والمجدَ .

٣١ ـ فاللهُ وَفَّقَهُ لها ، وأعانَهُ واللهُ خيرُ موفِّقٍ ومعينِ

واللهُ ، تعالى ، هَيَّأهُ للأمجادِ ، وساعدَهُ لِنيلِها ، وهو خيرُ مُهَيِّئٍ ومساعدٍ .

☆☆ ١٤ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ :

١ ـ جنابُ عُبَيدِ اللهِ أعذبُ موردٍ وأخصبُ مرعًى منْ زُبالةَ والحَزْنِ

فِناءُ دارِكَ يا عُبَيدَ اللهِ أحلى مكانٍ ، يَجِدُ فيه المرءُ الماءَ العذبَ الغزيرَ .

٢ ـ إذا انتابَهُ المحْزونُ حَرَّانَ سُرِّيَتْ كآبتُهُ حتى يؤوبَ بلا حُزْنِ

وإذا ما ذهبَ إليهِ حاملُ الأسَى المحمومُ بهِ ، ذهبَ حُزْنُهُ عنهُ ، ويعودُ إلى بيتِهِ سعيداً مجرَّداً مِنْ كل حُزْنٍ .

٣ ـ فلا جازَهُ شُؤبوبُ وبلٍ يَسُحُّهُ ويسفَحُهُ داني الربابِ منَ المُزْنِ

فلم يَفُتْهُ عَطاءُ عُبَيدِ اللهِ الغزيرِ الذي يشبهُ المطرَ إذا هَطَلَ ، أوِ انصَبَّ منَ السحابِ الأبيضِ .

☆☆ ١٥ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في الدعوةِ إلى العملِ :

١ ـ لابدّ للحيوانِ منْ أوطانِ حتى لقادرةٍ على الطيرانِ

كلُّ مخلوقٍ يحتاجُ إلى مكانٍ ، يكونُ لهُ بيتاً ، يسكُنُ إليهِ ، حتى الطيورُ المحلِّقَةُ في الجوِّ .

٢ ـ لم يَغْنَ عنها ذو الجناحِ ، فكيفَ لم يَحْتَجْ إليها سائرُ الحيوانِ ؟

فإنْ كانَ الطيرُ صاحبُ الجناحِ ، ليسَ بِغِنًى عَنِ البيتِ ، فكيف لا يحتاجُ الحيوانُ الذي يدبُّ على الأرضِ بالأرجلِ ، أو يزحفُ على بطنِهِ ، إلى بيتٍ ، يأوي إليهِ ؟

٣ ـ والطيرُ يرمي حيثُ شاءَ بنفسِهِ للرزقِ ، لا يَثْنيهِ بعدُ مكانِ

وإننا نرى الطيرَ ، يَسْعى إلى رزقِهِ ، فيطيرُ إلى الأماكنِ البعيدةِ ، لا يَمْنَعُهُ عنْ ذلكَ شيءٌ .

٤ ـ طوراً يُحَلِّقُ في الهواءِ وتارةً يهوي بريشٍ دائمِ الخفقانِ

يَصْعَدُ في الهواءِ مَرَّةً ، ويَحُطُّ أُخرى ، مُسْتَعيناً بريشِهِ الذي لا يَنفَكُّ عنِ الاضطِّرابِ .

٥ ـ ولبيضِهِ وفراخِهِ ومبيتِهِ يبني العِشاشَ ، فكيفَ بالإنسانِ

مُفَتِّشاً باحثاً عنْ مكانٍ ، يناسبُ بيوضَهُ وفراخَهُ وسكونَهُ ، يُقيمُ فيه عشَّهُ ، فيكفَ لا يَسعَى الإنسانُ ، فيبنيَ لأولادِهِ داراً ، يأوونَ إليها ؟

٦ ـ فعليكَ بالبنيانِ ، فارفعْهُ ، فمِنْ هِمَمِ الكبارِ رفعةُ البُنيانِ

فمِنْ واجِبكَ أيها الإنسانُ أنْ تَبْنِيَ داراً ، فبادِرْ إلى إقامتِها ، فإنَّ إقامةَ الديارِ

وعمرانَها منْ سجايا الرجالِ الكرامِ وعزائِمهمْ .

٧ ـ واعمُرْ دِيارَكَ كيفَ شئتَ، ولا تكُنْ دارُ الفنـــاءِ أحـــقَّ بـــالعمـــرانِ

واجعَلْ ديارَكَ عامرةً كما يحلو لكَ ، ولا تُخلِّها طَلَلاً رهينَةَ الفناءِ .

☆☆ ١٦ ـ وقالَ على بحر المتقاربِ في المدحِ :

١ ـ أهنّيــكَ بــالعيــدِ والمِهْــرَجــانِ وأنــتَ أحــقُّ الــوَرَى بــالتَّهــانــي

إني أتقدَّمُ إليك مهنِّئاً إياكَ بالعيدِ ومشاركاً بأفراحِهِ ، فإنَكَ أجدَرُ الناسِ بتقديمِ التهنئةِ إليهِ .

٢ ـ يســوقُ الــزمــانُ بكــرّاتِــهِ إليــكَ الأمــانَ وبيــضَ الأمــانــي

فالدهرُ يأتي إليكَ بدوراتِهِ بالسلامةِ والاطمئنانِ والأمنياتِ البيضِ .

٣ ـ ويمنــاكَ فيهــا نَــواصــي الأمــورِ ويُســراكَ فيهــا زِمــامُ الــزمــانِ

ففي يدِكَ اليُمنى إقامةُ خيرِ الأمورِ، وفي يدِكَ اليسرى قيدُ الزمانِ، تُسَيِّرُهُ كما تشاءُ.

٤ ـ كــأنَّ اقتــرانَهمــا للــوزيــرِ ودولتِــهِ شــاهــدٌ بــاقتــرانِ

وفي اجتماعِ أعمالِ يَدَيْكِ دليلٌ على أنَّ دولةَ هذهِ الأمةِ ، لا تقومُ إلاّ بفضلِها وعزيمتِكَ .

٥ ـ قضــى لهمــا اللهُ أن يَبْقَيــا قَــرْنيــنِ مــا اقتــرَنَ الفــرقــدانِ

وقد حكمَ اللهُ ـ عزَّ ، وجلَّ ـ بدوامِهما صِنْوَينِ ما دامَ فرقدا السماءِ اللّذَين يُهْتَدَى بهما قائمَينِ .

٦ ـ فــلا هــو يُسْخِطُهــا بــالنــوى ولا هــي تــرضــى بغيــرِ التَّــدانــي

فلا يُغْضِبُها بالتفريقِ بينها ، ولا يُسْعِدُها شيءٌ إلاّ التَّقارُبُ .

٧ ـ فــإنَّ الــوزارَةَ تُــزْهــى بــه كَــزَهْــوِ عبــارتِــهِ بــالمعــانــي

فإنَّ الوزارةَ التي يقومُ على تدبيرِ أمورِها ، تتيهُ فخراً بِهِ كما تتيهُ تراكيبُ القولِ فخراً لمناسبتِها المعانِيَ الشريفةَ .

٨ ـ لقــد زانَهــا ملــكٌ عــالــمٌ بعيــدُ مــدى الهَــمِّ ثَبْــتُ الجَنــانِ

فقد جَمَّلَها ملكٌ ، يُحِسُّ بما حولَهُ ، ويعلمُ ما يجبُ عليه فعلُهُ ، ذو عزيمةٍ قويةٍ بعيدةِ الآمالِ وقلبٍ متينٍ ، لا تُزَعْزِعهُ مآسي الدهرِ ومصائبُهُ .

٩ ـ حريصٌ على المجدِ والمَكْرُما تِ ، جَعْــدٌ ، وليــسَ بجَعْــدِ البَنــانِ

مُتَمَسِّكٌ بالعزِّ والمكارمِ ، صُلْبٌ لتحقيقِها ، لكنهُ سبطُ الأصابعِ للعطاءِ .

١٠ ـ يُوازنُ رَضْوَى لِفَرطِ الأناةِ   ويهتَزُّ للجودِ كالخيزرانِ

يُشابهُ جَبَلَ المدينةِ المنورةِ رَضْوَى بعظمةِ حِلْمِهِ ، ويضطربُ كعودِ الخيزرانِ سروراً بأدائِهِ ما عليهِ منْ عملٍ ومالٍ إلى المُعْتَفينَ .

١١ ـ بِصُنْعِ الوزيرِ المُجيرِ ارتَدَتْ   مناكِبُنا بِرداءِ الأمانِ

فبفضلِ الوزيرِ مُجيرِ الدولةِ لَبِسَتْ أكتافُنا ثوبَ الأمانِ عليها .

١٢ ـ وكانَتْ خُراسانُ تَسْفي الرياحُ   على جانِبَيها خلاءَ المغاني

وكانَتْ خُراسانُ خاضعةً لهبوبِ الرياحِ الشديدةِ في أطرافِها راثيةً فراغَ مساكِنها منْ سكانِها .

١٣ ـ فعادَتْ كروضٍ أريضٍ ، به   غناءُ الطيورِ كَشَدْوِ القِيانِ

فصارَتْ كأرضٍ كثيرةِ العشبِ ، يأوي إليها الطيورُ ، وتغني ألحاناً ، تشبهُ أنغامَ المغنياتِ .

١٤ ـ ومَدَّ الجناحَ على أهلِها   فهمْ منْ قوادِمِها في صِوانِ

وبَسَطَ مُجيرُ الدولةِ على أهلِ خراسانَ جناحَ الرحمةِ عليهمْ ، فصاروا بفضلِ مكارِمها في حفظٍ كالمطمئنِّ على الخزانةِ وما فيها .

١٥ ـ رَعَوا كَنَفَ العِزِّ في فضلِهِ   وكائنْ رَعَوا قبلُ مَرْعَى الهوانِ

ورأوا جانبَ المجدِ في أعمالِهِ ، فَعَزُّوا ، وكانوا قبلَ اليومِ ، يَرَونَ ألوانَ الذُّلِّ والشقاءِ .

١٦ ـ وقَيَّدَ عنهمْ صروفَ الزمانِ   وكانَتْ تسيرُ كَسَيرِ السَّواني

ورفَعَ عنهمْ مصائبَ الزمانِ التي كانَتْ ، تُسيرُ بهمْ كسيرِ الناقةِ التي تُسَخَّرُ لريِّ الزرعِ والحيوانِ .

١٧ ـ أفاضِلُها كلُّهُمْ ، مالَهُ   بشكرِ أيادي يديهِ يدانِ

وصارَ أكثرُ أفرادِ الرعيةِ فضلاءَ ، يلهجونَ بمدحِهِ ، لأنهُ ساسَهُمْ سياسةً كريمةً ، فَشكروها ، ولم يَسُسْهُمْ سياسةَ ذلٍّ وهوانٍ .

١٨ ـ وكم منْ ثناءٍ بديعٍ ، به   يروحُ ، ويَغدو ، طليقَ اللسانِ

وكم منْ مدحٍ عظيمٍ ، سارَ به مساءً وصباحاً ، كانَ شاعِرهُ ذا نُطْقٍ سليمٍ وفصاحةٍ ، لا مثيلَ لهما .

١٩ ـ أرى المدحَ يحسُنُ بابنِ الحسينِ   كحُسْنِ الفِرِنْدِ بعَضْبٍ يماني

وإني لأجدُ الثناءَ بجودُ للمجيرِ مجيرِ الدولةِ بنِ الحُسَينِ كجمالِ السيفِ ، تحملُهُ يدُ رجلٍ قويٍّ منْ بلادِ اليمنِ .

☆☆ ١٧ ـ وقالَ على بحرِ المضارعِ في ذمِّ الزمانِ والناسِ .

١ ـ دعـــانـــي عَـــنُّ الـــزمـــانِ   ونــــاسٌ بـــــلا مُعــــانــــي

ناداني حكمُ الزمانِ وجماعةٌ منَ الناسِ ، ليس فيهم منْ يرفُقُ بي ، أو يُدنيني إليه .

٢ ـ طلبْـــتُ الجميـــلَ فيهـــم   فنـــادى بـ : لـــن تـــرانـــي

وتَقَرَّبْتُ منهم طالباً الرفقَ بي ، فأجابني الخيرُ المُتَبَقِّي فيهم : لنْ تجدَني إلى جانبِكَ ملاطفاً .

٣ ـ مكـــانَ الجميـــلِ نـــاسٌ   ســـواهُـــمْ ، لَهُـــمْ مكـــانـــي

وإنَّ لأمرِ العملِ الطَّيِّبِ الحسنِ مَحَلًّا وأُناساً ، أعوذُ بهم ، لكنَّ غيرَهم ، ليسَ لي مكانٌ بينهمْ .

٤ ـ مـــعَ الهُجْـــنِ كيـــفَ أثـــوي ؟   ثـــوائـــي مـــعَ الهِجـــانِ

وقد كَرِهتُ الإقامةَ بصحبةِ اللئامِ ، فهجرْتُهُمْ ، وجعلْتُ إقامتي وصحبتي مع خِيارِ الناسِ .

☆☆ ١٨ ـ وقالَ على بحرِ المتقاربِ في الفخرِ :

١ ـ ألا لا تقيســوا بـــيَ الجـــاهليـــنَ   بعلـــمِ المعـــانـــي وعلـــمِ البيـــانِ

أرجو منكم أيها الأصحابُ ألاّ تجعلوا بيني وبينَ منْ لا يُدْرِكَ شيئاً منْ علومِ البلاغةِ صِلةً أو مُقارنةً .

٢ ـ أنَظْـــمٌ كَنَظْمـــي ، وأنَّـــى يُقـــاسُ   ضِـــرابُ القيـــونِ بضـــربِ القِيـــانِ

وأسألُكُمْ : هل سمعْتُمْ ، أو رأيتُمْ نظماً مثلَ نظمي ؟ وكيفَ يقاسُ ضربُ الحدّادينَ الحديدَ بضربِ المغنياتِ أوتارَ أعوادِهِنَّ ؟

☆☆ ١٩ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في التهديدِ :

١ ـ أتنصبُ لي جهلاً ، كأنكَ آمنٌ   عقـابـي ، ونصلـي مُـرْهَـفٌ وسِنـانـي

أتقابلُني بالعداءِ جاهلاً أمرَ نفسكَ أنكَ ضعيفٌ حينَ أقْتَصُّ منكَ ، وأعاقبُكَ ، وأمري القويَ بحدَّةِ نصلِ سيفي .

٢ ـ ولو كنتَ صخراً أو حديداً ، وسُؤْتَني   لحـاكَ ـ لحـاكَ اللهُ ـ فيـك لسـانـي

ولو كنْتَ قويًّا كالصخرِ أو الحديدِ ، وجَرَّبْتَ أنْ تقومَ بعملٍ يؤذيني ، لوجَدْتَ ، يا قَبَّحَكَ اللهُ ، لساني وقلمي أشدَّ إيذاءً وإيلاماً .

☆☆ ٢٠ ـ وقالَ على بحرِ البسيطِ في المدح :

١ ـ قد نادَتِ الخِلْعَةُ الميمونُ طائرُها بأرفعِ صوتٍ في أقصى خُراسانِ

لقد فَرِحتِ الكسوةُ التي ارتداها صدرُ الملكِ بنفسِها لأنها وجدَتْ نفسَها مَصْدَرَ فألٍ ، استبشَرَتْ به ، فنادتِ الناسَ بأعلى صوتٍ ، يَسمَعُهُ منْ هو في أبعدِ منطقةٍ منْ خراسانَ .

٢ ـ تبادَروا بالتهاني يا ذوي لَسَنٍ إليَّ ، واستَبِقوا في شأوٍ وإحسانِ

أسرعوا إليَّ ، وهَنِّؤوني أيها الخطباءُ والشعراءُ ، يا ذوي البلاغةِ ، وتسابقوا إلى أبعدِ مَدًى وأفضلِ خيرٍ .

٣ ـ فاللهُ رفَّعَ شأني حينَ أسْبَلَني على الوزيرِ الرفيعِ القَدرِ والشانِ

فقد أرادَ اللهُ أنْ يرفَعَ قدري حينَ رماني على كتِفَي الوزيرِ ذي المكانةِ العاليةِ والأمرِ العظيمِ .

٤ ـ سافَرْتُ عنْ تَختِ بَزّازٍ، فَصِرْتُ إلى مناكبٍ ، زَحَمَتْ أعطافَ كَيوانِ

كنْتُ على مِنضَدةِ بائعِ الأكسيةِ ، فانتقلْتُ إلى كَتِفَي رجلٍ ، تَمَنَّتْ جوانبُ الكوكبِ زُحَلَ لو أكونُ لها حاسدةً إيايَ .

٥ ـ ما كُنْتُ غاليةً منْ قبلِ لِبْسَتِهِ وإنما لُبْسُ صدرِ المُلْكِ أغلاني

وكُنْتُ قبلَ أنْ يرتديَني صَدْرُ الملكِ ذا ثمنٍ بخسٍ ، فلما صِرْتُ رداءً له ارتفعَ ثمني كثيراً .

٦ ـ فبادَرَتْها جِيادُ الشعرِ سابحةً منْ كلِّ ذي مَرَحٍ ، بالزَّهْوِ ملآني

فتسابقَ الشعراءُ لوصفي ، وتتالَتْ قصائدُهُمْ ، تَسْبَحُ في محاسني مُعْجَبَةً بما تقولُ راغبةً في إمتاعي وإسعادي بِحُسْني .

٧ ـ وقد جَرَيتُ على آثارِها ، وبها يَنالُ غايتَها سُكَيتُ مَيدانِ

وكافأْتُ كلَّ مَنْ ساهَمَ في ذكري ، وكُنْتُ أَمَلَ المتأخِّرِ في كلِّ سباقٍ .

☆☆ ٢١ ـ وقالَ على بحرِ البسيطِ في المدحِ :

١ ـ الرأسُ أنتَ العظيمُ القدرِ والشانِ اليومَ أنتَ بهاءُ الدولةِ الثاني

أنت الرجلُ الأولُ في هذه الدولةِ والأمةِ ، ذو المكانةِ الكبيرةِ العاليةِ ، وبهاءُ الدولةِ ، هو الرجلُ الثاني فيها .

٢ ـ دنـوتَ منـهُ بـأعـراقٍ مُهَـذَّبَـةٍ   وأنـتَ منـهُ بحسـنِ السيـرةِ الـدانـي

وتَقَرَّبْتَ منه بأساليبَ وطرقٍ خالصةِ الودِّ ، فكنتَ له بفضلِ سيرتِكَ الحسنةِ أدنى إنسانٍ ، يعتمدُ عليهِ .

٣ ـ فَـدُمْ فـإنـكَ بـانٍ كـلَّ مكـرمـةٍ   مـا دامَ يسجَـعُ قُمْـرِيٌّ علـى بـانِ

وإني أدعو اللهَ تعالى أن يُديمَ صحتَك ، ويُطيلَ عمرَكَ ما دامَ الحمامُ القمريُّ ، يُغَرِّدُ على أغصانِ شجرِ البانِ ، فإنكَ أنتَ أقمْتَ أسسَ عِزِّ هذهِ الدولةِ .

☆☆ ٢٢ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الزهدِ : [أزهار الرياض ح٣/ ٢٨٦]

١ ـ إليكَ إلهي المُشتكى ، نفسُ مُشْتَهٍ   إلى الشرِّ تدعوني ، عنِ الخيرِ تنهاني

يا إلهي إني أعوذُ بكَ ، وأشكو لك حالَ نفسي الراغبةِ في الغَيِّ إذْ تسوقني إلى مهاوي الشَّرِّ ، وتُبعِدُني عن طرقِ الخيرِ .

٢ ـ ومـا يَشتهـي الشيطـانَ إلاّ مغفَّـلٌ   ألا إنَّ نفسَ المشتهي ألـفُ شيطـانِ

ولا يَتْبَعُ الشيطانَ إلاّ الجاهلُ ، وفي نفسِ مَنْ يصاحبُ الشيطانَ ، ويحبُّهُ ، ألفُ شيطانٍ لا شيطانٌ واحدٌ .

☆☆ ٢٣ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في الرثاءِ :

١ ـ وقـائلـةٍ: مـا هـذه الـدُّرَرُ التـي   تُسـاقِطُهـا عينـاكَ سمطَيـنِ سمطَيـنِ ؟

وربَّ سائلةٍ إيّايَ : ما سببُ هذه الدموعِ التي تتساقطُ منْ عَينَيكَ ، وتهطلُ ، شبيهةً باللآلئِ التي جُعِلَتْ في عقدَينِ ؟

٢ ـ فقلْتُ: هي الدُّرَرُ اللواتي حشا بها   أبـو مُضَـرٍ أُذْنـي تَسـاقـطُ مـنْ عينـي

فأجبْتُها : هي العلومُ والمعارفُ التي وضَعَها في قلبي وفكري شيخي أبو مضرَ ، فكانَتْ لآلئَ ، زَيَّنَتْ أُذُنَيَّ ، ولما تُوُفِّي تساقطَتْ دموعاً منْ عينيَّ .

☆☆ ٢٤ ـ وقالَ على بحرِ البسيطِ في الرثاءِ :

١ ـ يا خيرَ خالَينِ إني بعدَ فقدِكُما   مـنْ لـوعـةٍ وأسًـى فـي شـرِّ حـالَيـنِ

يا أفضلَ خالَينِ إني بعدَ موتِكما منْ حسرةٍ وحزنٍ في أسوإٍ وأشدِّ حالينِ .

٢ ـ وإنَّ فـرقـةَ خـالٍ واحـدٍ حَطَمَـتْ   ظهري ، فكيفَ إذا فارقْتُ خالَينِ ؟

وكانتْ ميتةُ أخيكَ قبلَكَ ، قد قَصَمَتْ ظهري ، فكيفَ حالي اليومَ ، وقد عَدِمْتُكَ أيضاً ، فصِرْتُ فقيدَ خالَينِ ؟

☆☆ ٢٥ ـ وقالَ على بحرِ السريع في إحدى رحلاتِهِ :

١ ـ انهضْ مُشيحاً في رُكوبِ الفلا   على رُواعِ القلْبِ شيحانِهِ

قمْ يا زمَخْشَرِيُّ ، وجُدَّ في السفرِ البعيدِ وقطعِ الفَيافي مُتَسَلِّحاً بقوةِ قلبكَ وحزمِكَ .

٢ ـ للشيحِ والقَيصومِ في البدوِ عنْ   شقائقِ الريفِ ورَيحانِهِ

واتَّجِهْ إلى الباديةَ التي يَنْبُتُ فيها الشيحُ والقَيصومُ وأهلِها ، وابتعدْ عن أرضِ الخصوبةِ والمياهِ والزرعِ أرضِ شقائقِ النعمانِ وطيبِ روائِحها .

٣ ـ مَلِلْتَ خارزمَ وجَيحونَها   فامضِ إلى الشامِ وجَيحانِهِ

فقد سئمْتَ مدينةَ خوارزمَ وأرضَها التي يَسقيها نهر جَيحونَ ، فاذْهبْ إلى أرضِ الشامِ التي يرويها نهرُ جيحانَ حيثُ مدينةُ المصيصةِ .

٤ ـ وثِقْ بنَيلِ المُتَمَنَّى ، فلا   يأْسَ منَ اللهِ وريحانِهِ

وكُنْ على يقينٍ منْ إدراكِ ما ترجو منَ اللهِ تعالى ، فما يَجْعَلُ أحداً ، يَقْنَطُ منْ رحمتِهِ ورزقِهِ .

☆☆ ٢٦ ـ وقالَ على بحرِ البسيطِ في المدحِ :

١ ـ لا يسكُبُ الدمعَ في ربعٍ ولا دِمَنِهْ   ولا الوقوفُ على الأطلالِ منْ شَجَنِهْ

إنّ هذا الرجلَ ، لا يقفُ على الأطلالِ ، ولا يذكُرُ أحزانَهُ ، ولا يبكي بدمعٍ غزيرٍ حنيناً وشوقاً إلى الإيامِ الخاليةِ التي كانتْ له في تلكَ الربوعِ والديارِ .

٢ ـ ولا يُرَقِّصُ فَودَي رأسِهِ طَرَباً   سجعُ الحمامِ إذا ما ناحَ منْ فَنَنِهْ

ولا يطرَبُ ويُحَرِّكُ رأسَهُ حين يسمَعُ صوتَ الحمامِ إذا بكى على غصنِ شجرِهِ .

٣ ـ ولا يُبَكّي على آثارِ مرتحلٍ   منَ الأحبةِ قتلُ النفْسِ من ظَعَنِهْ

ولا يدفعُهُ إلى البكاءِ شدةُ الحزنِ التي تقضي على الحياةِ بفراقِ الأحبةِ اللواتي سافرْنَ ، وارتحلْنَ .

٤ ـ وليسَ يَفْتِنُهُ ذو ناظرٍ سَقِمٍ   كأنهُ رشأٌ قد هَبَّ منْ وَسَنِهْ

ولا يُغْريهِ ذو طرْفٍ رقيقٍ ، كأنهُ ظبيٌ مريضٌ ، قد صحا منْ نومهِ .

٥ ـ ظبيٌ، يميسُ، فتحكي البانَ قامتُهُ   لَدْناً ، أمالَ نسيمُ الريحِ منْ غُصُنِهْ

غزالٌ ، ذو قدٍّ طَرِيٍّ ، إذا ما اختالَ في مشيِهِ ، يشبهُ شجرَ البانِ الذي يُميلُ أغصانَهُ النسيمُ الرقيقُ .

٦ ـ وإنمــا الأدبُ المــوروثُ فِتْنَتُــهُ   ومدحُ أروعَ ، حُبُّ الفضلِ منْ فِتَنِهْ

وقد أُولِعَ بالأدبِ القديمِ شعرِهِ ونَثرِهِ وقصائدِ المدحِ التي ذكرَتْ صفاتِ الرجلِ العظيمِ الذي ملأ نفسَهُ حبُّ الخيرِ حتى صارَ دِيدَنَهُ .

٧ ـ هو الكريمُ أبو الفضلِ الذي نَعَشَتْ   يمينُــهُ زَمِــنَ الآدابِ فــي زَمَنِــهْ

وهو السَّخِيُّ أبو الفضلِ الذي شَفَتْ أُعطياتُهُ منْ كانَ ذا نفسٍ ، بلغَتْ الصلابةَ غايَتها حتى يَحْسَبَهُ أهلُ زمانِهِ رجلًا ذا آفةٍ مُزْمنةٍ ، لا يتأثَّرُ بالشعرِ .

٨ ـ قلْ للأكابرِ : إنْ حاولْتُمْ شرفاً   فَامْضُوا ، وأنّى لكمْ هذا ، على سُنَنِهْ

فقلْ يا صاحبي للرجالِ الذينَ يريدونَ أنْ يصيروا ذوي مجدٍ وعِزَّةٍ : اتَّبِعُوا طريقتَهُ ، وسيروا بها ، لكنكمْ لن تستطيعوا بلوغَ غايتِهِ .

٩ ـ أعلى تـواضُعُـهُ مقـدارَهُ ، فسمـا   إلـى محـلٍّ ، يبيـضُ العـزُّ في قُنَنِـهْ

فقد رفعَ تواضُعُهُ مكانتَهُ ، فعلا في سماءِ المجدِ حتى وصلَ إلى المكانِ الذي يقيمُ فيه العِزُّ ، فيضَعُ بيوضَهُ في قِمَمِهِ .

١٠ ـ لاكالذينَ ارْتَدَوا بالكِبْرِ، فاتَّضَعوا   إنَّ التَّكَبُّـرَ ذاتُ الصُّغْـرِ فـي قَـرَنِـهْ

ولم يكُنْ مثلَ الذينَ جَعَلُوا الزَّهْوَ لباسَهُمْ ، فتواضَعَ لأنهُ يعلَمُ حقَّ العلمِ أنَّ التيهَ : أولُهُ ومُنْتَهاهُ مربوطٌ بحبلِ الذلِّ والهوانِ .

١١ ـ يَقِي منَ العارِ عِرْضاً طَاهراً أبداً   وهَمُّهُـمْ أنْ ينَقُّـوا الثـوبَ مـنْ دَرَنِـهْ

ويَحْفظُ شأنَهُ الطاهرَ منْ عملٍ ، فيه الذلُّ والهوانُ ، لتكونَ سُمْعَتُهُ عزيزةً إلى أبدِ الآبدينَ ، وظنَّ الآخرونَ أنهمْ إنْ نَظَّفوا أثوابَهُمْ تخلَّصوا منْ وسَخِهِ .

١٢ ـ تَعَوَّدَ الصدقَ حتى ليسَ يمكِنُهُ   أنْ يَنْطِقَ الكِذْبَ في حالٍ على لَسَنِهْ

وجعلَ الصدقَ وقولَهُ عادَتَهُ حتى صارَ منْ خُلُقِهِ ، وصارَ لسانُهُ ، لا يَسْتَطِيعَ لَفْظَ الكذبِ في حالٍ منَ الأحوالِ .

١٣ ـ فلا يبيعُ ، ولا يبتاعُ منْ كَذِبٍ   وكــانَ أزهــدَ خَلْـقِ اللهِ فــي ثَمَنِـهْ

فلم يتعامَلْ مع الناسِ بأمرٍ ، يدخُلُ فيه الغِشُّ والكذبُ ، ولم يكنْ كغيرِهِ مُعْترفاً

بوجوبِ وضعِ ثمنٍ للغشِّ والكذبِ .

١٤ ـ لم يَخْلُ منْ حبِّهِ قلبٌ ولا كبدٌ ولا تعطَّـلَ جيـدٌ قـطُّ مـنْ مِنَنِـهْ

وامتلأَتْ قلوبُ الناسِ وأكبادُهُمْ بحبِّهِ ، فلم تَفْرَغْ منهُ ، وتَزَيَّنَتْ رقابُهُمْ بأُعطياتِهِ ، فلن ترى رقبةً خاليةً منها .

١٥ ـ أحْيَى المكارمَ في خارزمَ مَقْدَمُهُ كـأنما هـو نفـخُ الـروحِ فـي بَـدَنِـهْ

وكانَ مجيئُهُ إلى خوارزمَ بعثاً للأمجادِ بعدَ موتِها ، وكأنهُ نفخَةُ الصورِ في البدنِ وعودةُ الحياةِ إليهِ .

١٦ ـ لمّا تَرَحَّلَ قامَ المجدُ مرتحلاً عنها ، وحَلَّ ، فحلَّ المجدُ في وطنِهْ

ولمّا سافر أبو الفضلِ عن خوارزمَ سافرَ العزُّ عنها ، ولمّا حطّ فيها رحلَهُ رأى العزُّ أنهُ حطَّ في وطنِهِ .

١٧ ـ كُنّـا ذوي حَـزَنٍ أيـامَ غَيبتِـهِ فاليومَ قد خَلَصَ المحزونُ منْ حَزَنِهْ

وقد كُنّا أيامَ غيبتِهِ عن خوارزمَ ، يملؤُنا الحزنُ والأسى ، واليومَ ، وقد عادَ إليها أبو الفضلِ ، نَجَوْنا منهما .

١٨ ـ ما بَينَ عينيَّ ، لم يَنْفَكَّ مُنْزَوياً فاليومَ مَقْدَمُهُ ، قد مَدَّ منْ غَضَنِهْ

وكُنْتُ مُقَطِّبَ الجبينِ مُبْتَعِداً عن الناسِ ، واليومَ ، وقد رجعَ إلينا أبو الفضلِ ، انبسَطَ جبيني ، وتَخَلَّصَ منْ تَجَعُّدَاتِ الحزنِ .

☆☆ ٢٧ ـ وقالَ على بحرِ الرملِ في أملهِ في الفوزِ بالجنةِ :

١ ـ ليتَ لي في جنةِ الفردوسِ بيتاً مثـلَ هـذا البيـتِ أو أصغـرَ منـهُ

وإني لأَتَمَنَّى لو يكونُ لي في أعلى درجاتِ الجنةِ في الفردوسِ بيتٌ ، يشبهُ بيتَ عبدِ اللهِ أو أصغرَ منه .

٢ ـ حسـبُ عبـدِ اللهِ أُفحـوصُ قطـاةٍ بعـدَ أنْ يُـرْزَقَ عفـوَ اللهِ عنـهُ

كفى عبدَ اللهِ الزَّمخشريَّ مكانٌ صغيرٌ في الجنةِ قَدْرُ ما تَحفِرُهُ أُنثى القطا لِتَضَعَ فيهِ بيوضَها ، بعدَ أنْ يفوزَ بعفوِ اللهِ عنهُ .

❊ ❊ ❊

حرف الهاء / ١٥٥ / بيتٍ

☆☆ ١ ـ وقالَ على بحرِ المتقاربِ في المدحِ :

١ ـ ومَـنْ لـي بِسُعْـدَى ، ومِـنْ دونِهـا فيـافٍ ، يَغـولُ المَهـارَىٰ سُـراهـا ؟

كيف الوصولُ إلى سُعْدَى ، وبيني وبينها صحارٍ ، يُهلِكُ الإبلَ القويةَ اليمنيةَ المنسوبةَ إلى مَهْرَةَ بنِ حمدانَ ، إنْ سارَتْ بها ؟

٢ ـ ومِـنْ حـولِهـا رُقبـاءُ لهـا يُـزَوُّونَ أعينَهُـمْ والجبـاهـا

ويحفظُها رجالٌ أشِدّاءُ ، يُضَيِّقونَ أعينَهُمْ وجباهَهُمْ غَضَباً حينَ يَرَوْنَ غريباً ، يقتربُ منْ منزلِها .

٣ ـ عصـابـةُ سـوءٍ ، أطـافـوا بهـا فليـس يطـورُ خيـالٌ حَـراهـا

وهم جماعةٌ ، تمكَّنَ الشرُّ منهمْ ، يلتَفّون حولَ ساحةِ بيتِها ، فلا يستطيعُ أحدٌ أنْ يدنوَ منها .

٤ ـ مُمَنَّعَـةٌ ، مـنْ بنـاتِ الملـو كِ ، يحمي الأسودُ الضواري حِماها

وهي مصونَةٌ ، سليلةُ الملوكِ ، يَحفظُ مكانَها الرجالُ الشجعانُ الذين يشبهونَ الأسودَ التي لا يزولُ أثرُ دماءِ فرائِسها عن جلودِها .

٥ ـ كعصمـاءَ ، تنـزلُ فـي قُلَّـةٍ مُكَلَّلَـةٍ بُغـامٍ ذُراهـا

وقد جَعَلَتْ مُقامَها في قمةِ جبلٍ ، تَحْتَمي بها ، فكانَتْ كظبيةٍ حمراءَ أو سوداءَ ، في أحدِ ذراعيها بياضٌ ، تنادي وليدَها بصوتٍ رخيمٍ .

٦ ـ إذا أرادَ الفكـرُ أنْ يـرتقـي إليهـا تعـاظَمُـهُ مُـرتقـاهـا

حتى إذا رغبَ أحدٌ أن يُفَكِّرَ بطريقةٍ ، يَصْعَدُ عليها للوصولِ إليها ، يجدُها ، صعبةً جداً لا يُمكنُهُ تحقيقُها .

٧ ـ وفـي كـلِّ شـيءٍ علَـتْ هِمّتـي فمـا بلغَـتْ هِمَّـةٌ مُنْتَهـاهـا

وإني لذو عزيمةٍ عاليةٍ ، لا تستطيعُ عزيمةُ أحدٍ غيري أن تصلَ إلى غايتِها .

٨ ـ لـذاكَ سَمَـوتُ إلـى حبِّهـا ولـم أتـواضَـعْ لأنثـى سِـواهـا

وبفضلِ هِمّتي العظيمةِ ارْتَقَيتُ سُلَّمَ حبِّها ، ولم أخْضَعْ لفتاةٍ غيرِها .

٩ ـ ولـم أنـسَ ليلـةً ظلمـاءَ كـادتْ تُغطِّـي وُجُـوهَ الـدراري دُجـاهـا

وإنْ أنسَ لا أنسَ تلكَ الليلةَ المظلمةَ التي غطَّتْ بظلمتِها أنوارَ كواكبِ السماءِ .

١٠ ـ تُشاكِلُ في الوصفِ حالَ امرئٍ يَـؤُمُّ اللئـامَ ، ويـرجـو نَـداهـا

والتي تشابِهُ في نعتِها شأنَ فردٍ ، يَقْصِدُ شِرارَ الناسِ ، ليُحَقِّقَ سعادتَهُ .

١١ ـ قـد اشْتَمَلَـتْ بـالسـوادِ البـلادُ كـأنَّ الـزمـانَ ، بقـارٍ طَـلاهـا

قد الْتَفَّتِ البلادُ بالحزنِ ، كأنَّ الدهرَ ، قد صبغَها بالزِّفْتِ .

١٢ ـ فمـا راعَنـي آخـرَ الليـلِ إلاّ إضـاءةُ نـورٍ ، تُجَلِّـي سَنـاهـا

فما أخافَني آخرَ الليلِ إلاّ شعاعُ نورٍ ، يكشفُ ضوءَهُ .

١٣ ـ فقلْـتُ لأسمـاءَ : مـا هـذهِ ؟ فقـد حـارَ فكـريَ فيهـا ، وتـاهـا

فقلْتُ لأسماءَ : ما هذهِ الأضواءُ ؟ فقد غامَ تفكيري بها ، وضاعَ .

١٤ ـ فقامَتْ ، وقالَتْ ، وفي قولِها مُنَـى النفـسِ ، لا يَفْضِضِ اللهُ فـاهـا

فقامَتْ ، وأجابَتْني بقولٍ ، كانَ فيه موتُ نفسي ، أدعو اللهَ تعالى ألاّ يصيبَها بِفَكٍّ في حَنكِها ، ويَعيقَها عنِ الكلامِ

١٥ ـ هي الشمسُ أو وجهُ تاجِ المعالي يميـنِ الملـوكِ خـوارزمشـاهـا

إنها أشعةُ الشمسِ ، بل هي سَنَى طلعةِ تاجِ المعالي رأسِ الملوكِ خوارزمشاها .

١٦ ـ لتـاجِ المعـالـي مـنَ اللهِ نـورٌ يُهـابُ بـهِ ، ويَهـابُ الإلٰـهـا

فلهذا الملكِ تاجِ المعالي نورٌ ، خَصَّهُ اللهُ به ؛ يخافُهُ الناسُ بوقارِهِ وهيبتِهِ ، ويشكُرُ تاجُ المعالي ربَّهُ على منحِهِ إياهُ .

١٧ ـ إذا ضحـكَ السيـفُ فـي كفِّـهِ بكَـتْ بـدمـاءِ الأعـادي طُـلاهـا

إذا سُرَّ السيفُ ، وضحكَ ، وهو في يدِهِ ، حزنَ الأعداءُ بقطعِ أعناقِ جندِهِمْ وانصبابِ دمائِهِمْ .

١٨ ـ وأفضـلُ مـن سيفِـهِ هيبـةٌ تُفَـرِّقُ قبـلَ التـلاقـي عِـداهـا

وأحسنُ شيءٍ منَ السيفِ وقارٌ ، يَتَفَرَّقُ الأعداءُ بهِ قبلَ تلاقي صفوفِ المحاربينَ .

١٩ ـ لهيبتِـهِ بَطْشَـةٌ بـالعُـدا ةِ فـي كـلِّ أرضٍ بعيـدٍ مَـداهـا

ولِوَقارِهِ ضربةٌ قاضيةٌ على أعدائِهِ ، ولو كانتِ المعركةُ في أرضٍ بعيدةٍ عنْ ملكِهِ .

٢٠ ـ تمـايلَـتِ الأرضُ حتـى اسْتَـوى علـى ركـنِ دولتِـهِ جـانبـاهـا

وتزلزلَتِ الأرضُ حتى استَقَرّتْ قواعدُ دولتِهِ .

٢١ ـ بعدلٍ ، يُثَقِّفُ مُنآدُها كتثقيفِ كفِّ المُصَلِّي قَناها

بعدلِ حكمِهِ وإنصافِهِ الذي قَوَّمَ ما كانَ غيرَ سليمٍ منْ أمورِها كتقويمِ كفِّ الرجلِ الحاذقِ مَيلَ الرمحِ بالنارِ .

٢٢ ـ فلا ابنُ قُباذٍ ولا هرمزُ بفارسَ يبني رسوماً ، بناها

وما كانَ كسرى أنو شروانَ بنُ قباذَ وابنُهُ هرمزُ مَلِكا فارسَ ، قد تمكّنا منْ بناءِ قصورٍ ومنْ وَضْعِ مخططاتٍ لها .

٢٣ ـ إذا الناسُ عَدُّوا معاليَ الملوكِ فأسفلُ شيءٍ لديهِ عُلاها

وإذا أرادَ الناسُ أنْ يُحصوا أمجادَ الملوكِ فإنهمْ يجدونها في نهايةِ إحصائِهِمْ دونَ أمجادِ الملكِ تاجِ المعالي .

٢٤ ـ لهُ اللهُ منْ ملكٍ عادلٍ تَقَيَّلَ آباءَهُ في هُداها

كانَ اللهُ حافظاً لهُ لأنهُ ملكٌ ، أشبهَ آباءَهُ في أمجادِهمْ .

٢٥ ـ فخارزمُ ، ترمَحُ أذيالَها سروراً بوطآتِهِ في ذُراها

وها هي خوارزمُ وأهلُها ، يرقصونَ ، وهم يرفعونَ أذيالَ ثيابِهِمْ فرحينَ بما وصلَ إليه تاجُ المعالي إلى قمةِ العزِّ .

٢٦ ـ سقاها الحيا عندَ إلمامِهِ بها ، فارْتَوَى بعدَ ظِمْءٍ صَداها

باشرَ بإصلاحِ حالِ أهلِها مُذْ تَسَلَّمَ أمورَ المُلْكِ ، فهيّأَ لهمُ الماءَ ، فشربوهُ ، واكْتَفَوا بعدَ طولِ عطشِهِمْ .

٢٧ ـ قد انْشَقَّ عن كلِّ خيرٍ ثراها وأنبَتَ أمناً وعدلاً رُباها

وَسَقَى الأرضَ ، فارتوَتْ ، وأثمرَتْ خبراتٍ كثيرةً ، ثم أقامَ السكينةَ والانصافَ ، وأصبحَ الناسُ في ذروةِ السعادةِ .

٢٨ ـ فعادَتْ بهِ انفسُ المسلميـ ـنَ ، والوحشُ عاشَتْ به في فَلاها

وهدأتْ بفضلِهِ أنفسُ المسلمينَ ، وعادَ الشَّرُّ بوحشِهِ إلى مغاراتِهِ .

٢٩ ـ فأطيِبْ بخارزمَ منْ جَنَّةٍ مديدِ الظِلالِ قريبٍ جَناها

فقلْ يا صاحبي : ما أطيبَ خوارزمَ ، وأطيِبْ بها ، فقد صارَتْ جنَّةً كثيرةَ الأشجارِ واسعةَ الأفياءِ قريبةَ الحصولِ على الثمارِ .

٣٠ ـ ألم تَرَ كيفَ استَوَى أمرُها ؟ ألم تَرَ كيفَ توافَتْ مُناها ؟

ألا ترى كيف استقامَ أمرُها ؟ ألا ترى كيف استأدَتْ آمالَها ؟

٣١ ـ وكيفَ اطمأنّتْ على أمنِها ؟ ولا أمْنَ في كلِّ أرضٍ سِواها

ألا ترى كيف وجَدَتْ راحةَ نفسِها بالأمانِ الذي أصبحَتْ بهِ ، فَنَعِمَتْ ؟ وصارَتْ أفضلَ أرضٍ ، وصارَ أهلُها أسعدَ أهلِ الأرضِ .

٣٢ ـ تُداني البزاةُ قَطاها ، فما تثورُ عنِ البَيضِ خوفاً قطاها

وصارَ القطا ، لا يطيرُ عن بيضِهِ خوفاً عليه إذا ما اقتربتِ الطيورُ الجارحةُ منها .

٣٣ ـ ولو أنَّ لصًّا رأى لُقْطَةً لأعرضَ عنها ، كأنْ لا يراها

ولو عَثَرَ لصٌّ على شيءٍ ، رآهُ مرميًّا على الأرضِ ، لتركَهُ ، وكأنهُ لم يَرَهُ .

٣٤ ـ يُحَصِّنُها بِظُبى الباترا تِ إذْ خيرُ حِصْنٍ حصينٍ ظُباها

وقد جعلَ سنانَ السيوفِ والرماحِ القاطعةِ درعاً وقلعةً لدولتِهِ لأنه وجدَ أفضلَ واقٍ حَدَّ السِّنانِ .

٣٥ ـ وخيرُ القراعِ قراعُ العِدا وإنَّ يمينَ الملوكِ ابتناها

ولأنهُ وجدَ أحسنَ الضربِ ضربَ الأعداءِ ، ووقوفَ الملوكِ بوجهِهِمْ أفضلَ بناءٍ لِدُوَلِهِمْ .

٣٦ ـ بإنعامِ تاجِ المعالي ، وما تُخَوِّلُني يداهُ مِنْ نداها

وبعطاءِ تاجِ المعالي وما تُهَيِّءُ لي يداهُ مِنَ الهباتِ .

٣٧ ـ أغازلُ عيشاً رقيقَ الحواشي كما حالَ روضةَ حزنٍ حياها

أرافقُ حياةً رغدةَ الجوانبِ ، ويصبحُ حالي كحالِ روضةٍ ، أصابَها القحطُ ، ثم عادَ إليها الخِصْبُ بفضلِ المطرِ الغزيرِ .

٣٨ ـ على أنَّ فخري بحمدِ الثناءِ إليهِ كفانَي مالاً وجاها

وإني لأجدُ خيرَ أمرٍ جَنَيْتُهُ ، هو فضلُ اللهِ تعالى عليَّ بإلهامي نظمَ مديحٍ ، يُثني على تاجِ المعالي ، يُجْزِئُني المالَ والسُّمْعَةَ الطيبةَ .

☆☆ ٢ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في الغزلِ :

١ ـ وأبي مُقَبَّلُهُ اللذيذُ جناهُ ما العيشُ إلاّ أنْ أُقَبِّلَ فاهُ

وإني لأُقسمُ بحياةِ والدي ، فأقولُ : إنَّ فَمَهُ طَيِّبٌ تقبيلُهُ ، وإنَّ الحياةَ لا تكونُ إلاّ بتقبيلِ ثَغرِهِ .

٢ ـ يا ليتَ فاهُ على فمي أبداً ، ولا أُسْقَى الشرابَ ، ولا الطعامَ أراهُ
وإنَّ مُنْتَهى أملي أنْ يبقى فمُهُ على فمي إلى أبدِ الآبدينَ ، فلا أظمأُ إلى شرابٍ ، ولا أَحتاجُ إلى طعامٍ .

٣ ـ تاللهِ ما نارُ الغضا مشبوبةً للبردِ إلاّ دونَ نارِ هواهُ
وإني لأقسمُ أنَّ نارَ شجرِ الغضا مُتَقِدَةً لِرَدِّ البردِ الشديدِ، هي أقلُّ حرارةٍ منْ حَرِّ حُبِّي إياهُ.

☆☆ ٣ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ :

١ ـ أبا الفضلِ ، إنَّ الفضلَ ، أنتَ أبوهُ فلا يعدَمِ الإشفاقَ منكَ أخوهُ
يا أبا الفضلِ ، إنكَ أبو الفضلِ ، وإني لأدعو ألاّ أُعْدَمَ إشفاقَكَ عليَّ لأنني أَرَىٰ نفسي أخاكَ .

٢ ـ فما الأبُ للإشفاقِ والبرِّ تاركاً وإنْ عَقَّهُ كلَّ العقوقِ بنوهُ
فإنَّ للأبِ غريزةَ حبِّهِ أبناءَهُ وعطفِهِ عليهمْ ، لا يمكنُهُ تركُها جانباً ، ولو قابلهُ أبناؤُهُ بعقوقِهِمْ إياهُ .

☆☆ ٤ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في المدحِ :

١ ـ لم يَرْعَ في عصرِ الأميرِ محمدٍ حَقَّ الإلهِ ملوكُهُ إلاّ هُو
لم يحفظ أحدٌ منَ الملوكِ حقَّ الإلهِ ـ عَزَّ ، وجلَّ ـ في عصرِ هذا الأميرِ محمدٍ إلاّ محمدٌ نفسُهُ .

٢ ـ للهِ يَفْعَلُ ما أرادَ عبادُهُ فلذاكَ يفعلُ ما أرادَ اللهُ
فإنهُ يقومُ بكلِّ عملٍ راجياً رضا اللهِ عنهُ ، ولذلكَ نراهُ يُنَفِّذُ إرادةَ اللهِ تعالى في أعمالِهِ .

☆☆ ٥ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ :

١ ـ جلا ظُلَمَ الأعداءِ عن سورِ مُلْكِهِ بتدبيرِ شَهْمٍ كالصباحِ جَلِيُّهُ
لقد كَشَفَ هذا الملكُ ظلْمَ الأعداءِ ، وَرَدَّهُ عنْ حدودِ ملكِهِ ، بتفكيرٍ وتدبيرٍ وحُلْمٍ وحكمةِ رجلٍ عزيزِ النفسِ ، يشبهُ صباحَ النهارِ الخالي منَ السحبِ .

٢ ـ وأسمرَ قيدِ الشِّبْرِ ، يهزمُ وحدَهُ ثلاثينَ ألفاً ، والثلاثُ مَطِيُّهُ
وربَّ قلمٍ قصيرٍ ذي سنٍّ أسمرَ ، يساوي طولُهُ الشِّبْرَ ، يستطيعُ أنْ يغلِبَ وحدَهُ ثلاثينَ ألفَ جنديٍّ ، والأصابعُ الثلاثُ : الإبهامُ والشاهدةُ والوسطى ، تركبُهُ ، وتُوَجِّهُهُ .

٣ ـ تَضَمَّنَ ترياقاً ، بهِ الموتُ ناشرٌ وسُمًّا ، يُريكَ الحيَّ ميتاً وَحِيُّهُ

وإنَّ هذا القلمَ ، حَوَى الدواءَ الشافيَ للجسمِ الذي أسرَعَتْ بوادرُ الموتِ ، وانتشَرَتْ بهِ ، والسُّمَّ الذي يُسْرِعُ السيرَ في الجسمِ ، ويُميتُهُ .

٤ ـ ونعمـاءَ يُخْفيهـا ، فتـزدادُ شهـرةً وأشهـرُ معـروفِ الكـرامِ خَفِيُّـهُ

وربَّ أُعطيةٍ يَسْتُرها الكريمُ ، فيكثُر الحديثُ عنها ، وإنَّ أعظمَ عطاءٍ ، يُعَظِّمُهُ الناسُ ، هو عطاءُ الكرامِ بعيداً عنْ أعينِ الناسِ .

٥ ـ رأيتُ الندى كالمسكِ، يضْمَنُ عَرْفَهُ نـداءٌ عليـهِ حيـنَ يَخْفَـى ذكِيُّـهُ

ووجدْتُ الكرَمَ ، يشبهُ المسكَ ، إنِ انْتَشَرَتْ رائحتُهُ ، يسألِ الناسُ عنْ مكانِ وجودِهِ وطريقِ الحصولِ عليه .

٦ ـ لـهُ آنِـفٌ مـنْ سيبِـهِ بعـدَ سـالـفٍ ويَتْبَـعُ وسمِـيَّ الـربيـعِ وليُّـهُ

وعطاؤهُ ، يتوالى ، فما ينتَهي موسمٌ لهُ حتى يتلوهُ عطاءٌ آخرُ ذو طابعٍ جديدٍ كمطرِ أولِ الربيعِ الذي يَتوالى لإنباتِ الزرعِ .

٧ ـ تَعَـرَّضْ لكفيـهِ يُصِبْـكَ نـداهُمـا وهُـزَّ إليـكَ النخـلَ يَسْقُـطْ جَنِيُّـهُ

فإنْ ذهبْتَ إليهِ ، ومدحْتَ كرمَهُ ، تَنَلْ عطاءَهُ كما تنالُ رُطَبَ شجرةِ النخيلِ إنْ هَزَزْتَ جِذعَها .

٨ ـ سقـى اللهُ رِمَّ المكـرمـاتِ بجـودِهِ حيـا عـارضٍ ، يـروي الظِّمـاءَ رَويُّـهُ

وإني لأدعو اللهَ ـ عزَّ ، وجلَّ ـ أنْ يرزقَ صاحبَ هذه الأعطياتِ الذي قَلَّ مالُهُ ، بمطرِ سحابٍ فوقَ أرضِهِ ليرويَ الناسَ المحتاجينَ .

٩ ـ فما أهلُ هذا العصرِ ، لا دَرَّ دَرُّهم سـوى رُضَعـاءَ اللـؤم ، جُـدَّتْ ثُـدِيُّـهُ

وأدعو اللهَ تعالى أيضاً على أهلِ هذا الزمانِ بأنْ يقطعَ أرزاقَهُ عنهمْ لأنهمْ أناسٌ ، رضعوا اللؤمَ والشَّرَّ حتى يَبِسَتْ أثداءُ أمهاتِهِمْ لانقطاعِ اللبنِ عنها .

☆☆ ٦ ـ وقال على بحرِ الطويلِ في الغزلِ [الطبقات السنية ح٤/ ١٣٤]

١ ـ بنفسـي هـلالـيُّ المُحَيّـا وَضِيُّـهُ كـأنَّ الجمـالَ الحُسـنُ ، وهـو نَبِيُّـهُ

إني أقدِّمُ روحي فِدًى لهذا الفتى ذي الوجهِ الشبيهِ بالقمرِ هلالاً وضياءً ؛ فإنَّ الجمالَ ، هو الحُسْنُ ، وهو مثالُهُ .

٢ ـ تَـزَيّـا بـزيِّ الظَّبْـي جيـداً ومُقْلَـةً ولكنَّـهُ مـنْ أيـنَ للظَّبْـي زِيُّـهُ ؟

شابَهَ الغزالَ بعنقِهِ وعينيهِ ، ولكنَّ الغزالَ ، لم يشابِهْهُ بشيءٍ منْ صفاتِهِ .

٣ ـ علـى أُذُنَيـهِ حَلْقتـانِ لَـواهمـا　　فـألْـوى بقلبـي حَلْقتـاهُ وَلَيُّـهُ

وثنى خُصْلَتَينِ منْ شعرهِ على أُذُنيهِ ، فكانتا قِرطينِ ، سَلَبَ عقلي وقلبي خُصْلتاهُ وانثاؤهما .

٤ ـ هَـوَيْـتُ مـنَ العليـاءِ لمّـا هَـوِيتُـهُ　　وكـلُّ مُحِـبٍّ ، فـي هـواهُ هُـوِيُّـهُ

وأحسسْتُ كأني سقطْتُ منْ أرفعِ مكانٍ لما دخَلَ حبُّهُ قلبي ، ورأيتُ لكلِّ عاشقٍ لوناً ، يختلِفُ في عشقِهِ عنْ غيرِه .

٥ ـ وصِرْتُ غَويًّا بعدَما كُنْتُ راشداً　　وبعـدَ رشـادِ المـرءِ ، يَقْبُـحُ غَيُّـهُ

واصْبَحْتُ إنساناً ضالاً بعدَ حالي عاقلاً رزيناً ، وكم يُكْرَهُ ضلالُ المرءِ بعدَ هدايتِهِ واتِّزانِ عقلِهِ ؟

٦ ـ وما هاجَ لي ذاكَ الغزالُ الربيبُ، لم　　يَهِجْـهُ بغيـلانَ بْـنِ عُقْبَـةَ مَيُّـهُ

وما أثارني به هذا الظبيُ الذي لم يزلْ صغيراً لم يُثِرْ غيلانَ بنَ عُقْبَةَ حبيبَ مَيَّةَ .

☆☆ ٧ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في المدحِ :

١ ـ مَـنْ مُنْصِفـي مـنْ شـادنٍ تَيّـأهِ ؟　　شغَفـي بـه لجمـالِـهِ متنـاهـي

منْ يُنْصِفُني ، ويساعدُني في وصالِ ظبيٍ ذي صَلَفٍ وكِبْرٍ ؟ فإنَّ حُبّي إياهُ ، قد بَلَغَ غلافَ قلبي بِحُسْنِهِ .

٢ ـ ألحاظُهُ ، فَتكَتْ بروحي ، آهِ منْ　　ألحـاظِـهِ تلـكَ الفـواتِـكِ آهِ

نظراتُهُ بمؤخّرِ عينَيه ، ملكَتْ روحي ، وأهلَكَتْها ، فآهٍ ثم آهٍ منْ نظراتِهِ القاتلةِ .

٣ ـ يـا حبَّـذا ريَّـا مقبَّلِـهِ التـي　　أشْتَمُّهـا عنـدَ التقـاءِ شفـاهِ

ما أعذبَ سُقْيا فمِهِ الذي أتَنَسَّمُ طيبَ ريحهِ عندما تقتربُ الشفاهُ .

٤ ـ أطيبْ بها ريحاً ، تَضَوَّعَ سُحْرَةً　　مـنْ فيـهِ وقـتَ تَغَيُّـرِ الأفـواهِ

وأعذِبْ بها رائحةً ، تَنْتَشِرُ قبلَ الفجرِ منْ فمِهِ في الوقتِ الذي تكونُ فيه رائحةُ الأفواهِ غيرَ مقبولةٍ .

٥ ـ مـا فـوهُ إلاّ كـأسُ ريحـانيّـةٍ　　صهبـاء فـي رشـفٍ وفـي استِنْكـاهِ

ما فمُهُ إلاّ كأسُ خمرٍ ، فيه طيبُ ريحِ نباتِ الريحانِ ولونُ الحُمْرَةِ والشُّقْرةِ ، وطيبُ ريحِ فمِهِ ، يلذُّ بها شاربُها .

٦ ـ رشأٌ ، أخالُ البدرَ ، فارقَ بُرْجَهُ　　فهَـوَى إلـيَ متـى أراهُ تُجـاهـي

هو ظبيٌ ، أظنُّ القمَرَ ، قد تركَ منزلَهُ في السماءِ ، فوقعَ بينَ يَدَيَّ ، فكانَ عبداً أمامي .

٧ ـ نصفاهُ : نِصفٌ طَيِّعٌ مُتَطوِّعٌ وينوءُ بالثاني على استِكراهِ

وكأنَّ لهُ طبيعةً ذا نصفَينِ ؛ نصفُها الأوَّلُ لَيِّنٌ نشيطٌ ، ينقادُ لِما يُؤْمَرُ بهِ ، والنِّصفُ الآخرُ صُلْبٌ متخاذلٌ ، يقاسي لتنفيذِ ما يُحَمَّلُ .

٨ ـ قد نالَني في حبِّ ذاكَ الظَّبْيِ ما نالَ العدا في مُلْكِ عبدِ اللهِ

قد أصابني في حبِّ ذلكَ الغزالِ ما أصابَ الأعداءَ في محاربةِ عبدِ اللهِ .

٩ ـ ما هزَّ أعطافَ الوزارةِ غيرَهُ أحدٌ ، ولم يَزْهُ الممالكَ زاهي

ما استطاعَ أحدٌ أنْ يُطربَ الوزيرَ عبدَ اللهِ بمدحِهِ ، ويجعلَهُ ، يختالُ به ، غيري .

١٠ ـ لا تَعْدِلِ الوزراءَ كلَّهُمْ بهِ رُطَبُ النخيلِ خلافُ شوكِ عِضاهِ

فلا تَجْعَلْ يا صاحبي الوزراءَ كلَّهُمْ ، يشابهونَهُ ، أو يُساوونَهُ ، فَشَجَرُ النخيلِ ورُطَبُهُ ، يَختَلِفُ كثيرا عنِ الشجرِ الضخمِ وشوكِهِ .

١١ ـ ولئنْ دُعُوا باسمِ الوزيرِ فَكُلُّ ما الـ ـعودُ اسمُهُ للعودِ غيرُ مُضاهي

ولو سُمِّيَ غيرُهُ وزيراً ، لا يُماثِلُهُ ، فليسَ كلُّ غصنٍ ذا رائحةٍ طَيِّبَةٍ .

١٢ ـ جَعْدُ اليدَينِ بِعِرْضِهِ ، لكنهُ طلقُ اليدَينِ بمالِهِ والجاهِ

فهو شديدٌ ، يقبضُ حافظاً عرضَهُ بيديهِ ، وسَمْحٌ سَخِيٌّ ، يبْسُطُهما للعطاءِ والغوثِ .

١٣ ـ نَبِسَتْ بماءِ الوجهِ نفسٌ حُرَّةٌ ماءُ المُحَيّا أَنْفَسُ الأفواهِ

وقد بَخِلَتْ نفسُ الكريم بماءِ وجهِهِ ، وإنَّ ماءَ الوجهِ أغلى المياهِ وأثمنُها وأفضلُها .

١٤ ـ لو قُمْتَ تستسقيهِ في يُبسِ الثَّرَى لَقَعَدْتَ تعجَبُ مِنْ خريرِ مياهِ

لو ذهبْتَ إليهِ طالباً الماءَ وقتَ القَحْطِ لترويَ عطشَكَ ، لوجَدْتَ عجباً منْ صَوتِ مائِهِ الغزيرِ وإروائِكَ منهُ .

١٥ ـ فَطِنٌ لتدبيرِ الممالكِ ، صائبٌ في الرأيِ ، ليس بِمُخْطِئٍ أو ساهي

وهو ذو فكرٍ حاذقٍ في تدبيرِ أمورِ المُلْكِ ، ورأيٍ سديدٍ ، لا يأتي بخطإٍ ، ولا يسهو عنْ شيءٍ .

١٦ ـ ما زادهُ علماً مشاورةٌ ، وهل يحتاجُ يقظانٌ إلى إنباهِ ؟

ولم يُضِفْ أخذُ رأيِ أحدٍ إليهِ علماً ومعرفةً ؛ فإنَّ العاقلَ ، لا يَغْفُلُ ، ولا يحتاجُ إلى منْ يُنَبِّهُهُ .

١٧ ـ مُتَغافلٌ إنْ كانَ وقْتُ تَغافلٍ داهٍ إذا حَمِدوا دهاءَ الداهي

يَتَعَمَّدُ السَّهْوَ إنْ وجَدَ الحالَ ، يحتاجُ إلى التَّغافُلِ ، ويَفْرِضُ رأيَهُ السديدَ ، فيُثْني عليه ذوو العقولِ الرشيدةِ .

١٨ ـ إنْ يأتِ ، أو يأبَ الأمورَ ، فمالهُ إلاّ التَّكَرُّمَ آمرٌ أو ناهي

إنْ أرادَ أنْ يُنَفِّذَ أمرٌ ، أو إنْ لم يَرْضَ بآخَرَ ، فإنهُ يأمُرُ بهِ ، ويباشِرُهُ ، مُتَفَضِّلاً ، أو يَنْهَى عنه نازهاً مُنَزَّهاً .

١٩ ـ جَدُّوا ، فما وجدوا له في فضلِهِ شَبَهاً ، وهل للشمسِ منْ أشباهِ ؟

وأرادَ الناسُ أنْ يجدوا لهُ مثيلاً في قَدْرِهِ ومكارمِهِ ، فلم يَقَعوا عليه ، وما دَرَوا أنْ ليسَ للشمسِ ما يُماثِلُها .

٢٠ ـ أيّامُهُ للأولياءِ عوائدٌ لكنها للحاسدينَ دواهي

وقد صَرفَ ثمراتِ جهودِهِ لأصدقائِهِ ، فكانَتْ لأعدائِهِ وحسّادِهِ قَهْراً وذُلاًّ .

٢١ ـ كم منْ أنوفٍ أرغَمَتْ أَيّامُهُ كم منْ خدودٍ عَفَّرَتْ وجباهِ

كم منْ رجالٍ أعزّاءَ ، جَعَلَتْهُمْ أيامُهُ أذِلاّءَ ، وكم مِنْ وجوهٍ وجبهاتٍ ، قَلَّبَتْها في ترابِ الهوانِ .

٢٢ ـ قالتْ سعادَتُهُ لجمعِ عُداتِهِ موتوا بغيظِكُمْ بَني أستاهِ

وقالَتْ منزلتُهُ الهانئةُ لأعدائِهِ كلِّهِمْ : موتوا بغضبكُمْ وذُلِّكُمْ يا بني الأدبارِ .

٢٣ ـ إنَّ المراتبَ والمكارمَ والعُلا ليسَتْ بِمَخْرَقةٍ ولا بِسَفاهِ

إنَّ المنازلَ والأمجادَ والعظمةَ ، لا تَتَحَقَّقُ بالكذبِ والجهلِ .

٢٤ ـ نَوْرِزْ ، وبالحسناتِ فَالْهُ ، فإنها عندَ الأكارمِ خيرُ لَهْوِ اللاهي

فاحتفلْ بعيدِ النيروزِ ، واقضِ وقتَكَ بفعلِ المكارمِ لاعباً ، فإنَّ ذلكَ أفضلُ لعبٍ عندَ الرجالِ العظماءِ .

٢٥ ـ هاتيكَ أشجارُ الربيعِ كواسباً بِيَدَي ربيعِ اللهِ وَشْيَ اللهِ

وانعَمْ برؤيةِ أشجارِ فصلِ الربيعِ التي كساها اللهُ برحمتِهِ زينةَ الربيعِ .

٢٦ ـ أصبحْنَ بالنَّورِ الضَّحوكِ مآدباً ومَنادباً بِحَمامِها الأوّاهِ

فصارَتْ بأزهارِها التي تُسِرُّ النفوسَ ولائمَ وبِحَمامِها المُرَدِّدِ آهاتِهِ مَحازِنَ الأشقياءِ .

٢٧ ـ فَتَهَنَّ إقبالَ الربيعِ ، ودُمْ على مُلْكٍ رصينِ الأسرِ ليسَ بواهي

وإني لأدعو اللهَ تعالى أنْ يُسْعِدَكَ بمجيءِ الربيعِ ، ويُديمَ مُلْكَكَ ، وأنتَ عظيمُ الخُلُقِ ، لا يَأتيهِ الضعفُ ، ولا يَقْرَبُهُ .

☆☆ ٨ ـ وقالَ على بحرِ الرجزِ في الغزلِ :

١ ـ ومصبحٍ ، خاطَ الكرى عينَيهِ وقَزَّحَ الشيطانُ في أُذُنيهِ

وربَّ فتًى ، صحا منْ نومِهِ في جوفِ الليلِ ، ما زالَ النومُ ، يربطُ أجفانَ عينَيهِ ، وقد أتاهُ الشيطانُ ، فَزَيَّنَ أمورَهُ ، وبَثّها في أُذنَيهِ .

٢ ـ قد أسْحَرَ القُبَّرُ في تسبيحِهِ ومثلُ منْ في القبرِ عَمْرَوَيهِ

وغَرَّدَ طائرُ القُبَّرِ ألحانَهُ قُبَيلَ الصبحِ ، فكانَتْ أدعيةً ، يُرَدِّدُها الحيُّ في رَوْضِهِ مثلُ عَمْرَوَيهِ ، والميتُ في قبرِهِ .

☆☆ ٩ ـ وقالَ على بحرِ السريعِ في العتابِ :

١ ـ أبا الوفاءِ ابنُكَ ما بالُهُ ؟ ليسَ لهُ منكَ التفاتٌ إليهِ

يا أبا الوفاءِ ، انْظُرْ إلى ابنِكَ ، وراقِبْ حالَهُ ، فإنهُ لا يرى منكَ رعايةً ولا التفاتَةَ حنانٍ .

٢ ـ ضَيَّعْتَهُ ، والحُرُّ تَضْييعُهُ للولدِ الصالحِ عارٌ عليهِ

أهمَلْتَهُ ، وإهمالُ الرجلِ الكريمِ ابنَهُ الجَيِّدَ الحسنَ وصْمٌ وعيبٌ عليهِ .

☆☆ ١٠ ـ وقالَ على بحرِ الرجزِ في الوصفِ :

١ ـ خارزْمُ مثلُ الزمهريرِ ، وهْيَ إنْ قيسَتْ ببردِ أهلِها كالهاويْهِ

إنَّ خوارزمَ ذاتُ طبيعةٍ قاسيةٍ وبرودةٍ شديدةٍ ، إنْ قورنَتْ ببرودةِ أهلِها ، كانتْ كجهنمَ ، لا تُطاقُ .

٢ ـ بِبَرْدِها يَجْمُدُ باعاً ماؤُها وبَرْدُهُمْ يُجْمِدُهُ ثمانِيَهْ

ففي موسمِ البردِ الشتاءِ يصيرُ ماؤها جليداً قَدْرَ مَدِّ البَدينِ ، وغباوةُ أهلِها وضعفُ فطنتِهِمْ ، تجعَلُ قَدْرَ جليدِ الماءِ قَدْرَ مدِّ اليدينَ ثمانيَ مَرّاتٍ (ثمانيةَ أبواعٍ) .

☆☆ ١١ ـ وقالَ على بحرِ المتقاربِ في الزهدِ [مقامة المنذرة : مقامات

الزمخشري ص٥٧]

١ ـ أصَحَّـك بـالعِلَّـةِ المُضْنِيـهْ قضـاءٌ ، تُـرَدُّ لـهُ الأقْضِيـهْ ؟

قُلْ لي يا زمخشريُّ : أَشُفيتَ منْ عِلَّتِكَ التي أضعفَتْكَ وجعلَتْكَ على شفا الهلاكِ بأمرِ ربِّكَ الكريمِ الذي ﴿يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس/ ٧٨] والذي إليهِ الأمرُ .

٢ ـ فسبحـانَ مَـنْ جَعَـلَ الـداءَ فـي تمـاديـهِ أشفَـى مـنَ الأدويـهْ

فسبحانَ ربِّ العِزَّةِ والقدرةِ الذي جعلَ الداءَ في شِدَّةِ حالِهِ أبرأَ للمريضِ منْ مرضه منَ الأدويةِ التي يتناولُها .

٣ ـ إلا إنهـا نعمـةٌ ، لـو جَـرَتْ لسـالَـتْ بـأيْسـرِهـا أودِيَـه

وإنّها لَنعمةٌ كُبرى ، لو كانَتْ ماءً قليلًا لملأتِ الأوديةَ ، وجعلَتْه فيضاً ، يسيل إلى المناطقِ المجاورةِ .

☆☆ ١٢ ـ وقالَ على بحرِ الوافرِ في المدحِ :

١ ـ هَلُـمَّ نُحَـيِّ دارَ العـامـرِيَّـهْ وإنْ كـانَـتْ تَقِـلُّ لهـا التَّحيَّـهْ

هيا بنا نسلِّمْ على أهلِ دارِ العامريَّةِ ، ولو كانَ السلامُ ، لا يكفي لعلوِّ منزلتِهِمْ وقدرِهِمْ .

٢ ـ ونستمطِـرُ لهـا الأجفـانَ حتـى تعـودَ بصـوبِ أدمعِنـا رَوِيَّـهْ

ونطلبُ مِنْ عيونِنا دموعَها حتى ننالَ بغزارتِها راحةَ أرواحِنا .

٣ ـ هـي الـدارُ التـي عِشْنـا زمـانـاً حيـاةً فـي مغـانيهـا هنِيَّـهْ

إنها الدارُ التي قَضَينا بِمرابِعها قسماً كبيراً منْ عُمُرِنا مسرورينَ .

٤ ـ وأيّـامـا قصـاراً ، لـم يَعِبْهَـا بشـيءٍ غيـرَ أنْ مَـرَّتْ وحِيَّـهْ

كانتْ تلكَ الأيامُ هنيئةً قصيرةً ، لم يَشُبْها كَدَرٌ إلاّ أنها جَرَتْ بنا سريعةً .

٥ ـ بهـا دَرَّتْ لنـا أخـلافُ لهـوٍ حـوالِبُهـا غِـزارٌ لا بَكِيَّـهْ

أنعَمَتْ علينا ضُروعُ السرورِ واللعبِ بألوانِ الأُعطياتِ الوفيرةِ ، فلم تجعَلْها يوماً قليلةً .

٦ ـ فهـل لـي مـنْ أصائِلِها أصيلٌ ؟ وهـي لـي مِـنْ عشـاياهـا عشِيَّـهْ ؟

وكم مرةٍ تساءَلْتُ ، هل أنالُ حظًّا منْ أُمْسياتِها الجميلةِ ؟ وهل أحظى بجُزْءٍ يسيرٍ مِنْ تلكَ الأمسياتِ بعشيَّةٍ واحدةٍ ؟

٧ ـ ولن أنسى لياليَ بِتُّ أُسْقَى   رحيقاً مِنْ رُضابِ العامريَّهْ

وإنْ أنسَ لا أنسَ اللياليَ التي قَضيتُها ، وأنا أرتشفُ خمرةً مِنْ ريقِ العامريَّةِ .

٨ ـ لياليَ كُنْتُ في صَحْبي صبيًّا   وسُعْدَى في صواحِبِها صبِيَّهْ

كنْتُ وسُعْدَى في أوَّلِ الشباب ، وكانَ رفاقي ورفيقاتُها شُبّاناً وشابّاتٍ .

٩ ـ ويَجْمَعُني وإياها وِصالٌ   على أنَّ الوِصالَ مع البقيَّهْ

وربطَني بها حبْلُ الودادِ كما ربطَ بقيَّةَ الشبابِ والكهولِ .

١٠ ـ فما ثَلَمْتُ أُذْنَ ديني ، وإنْ لم   تَزَلْ كبدي لَمقلتِها رميَّهْ

فما عَقَقْتُ أمراً مِنْ أمورِ ديني على الرغمِ منْ أنَّ قلبي ما زالَتْ عيناها تجرحُهُ ، وتُغوينِي .

١١ ـ قبيحٌ إلى الفضلِ انتسابٌ   وإلمامٌ بأفعالٍ رديَّهْ

ويُكْرَهُ مني ، وأنا سليلُ المجدِ ، أنْ أقومَ بأعمالٍ سَيِّئةٍ .

١٢ ـ لَفَفْتُ مروءتي بالدينِ لفًّا   فديني والمُرُوَّةُ لي سَجِيَّهْ

ضمَمْتُ رجولتي الكاملةَ بالعقلِ والعفةِ إلى تعاليمِ ديني الحنيفِ ضمًّا وافياً ، فصارا طبيعتي .

١٣ ـ نَقِيُّ العِرْضِ منْ طَلَبٍ دنيءٍ   وما للناسِ أعراضٌ نقيَّهْ

وحفِظْتُ عرضي من كلِّ دَرَنٍ حقيرٍ ، فكانَ صافياً ، وكانَتْ أعراضُ الناسِ خبيثةً ذميمةً .

١٤ ـ وإنَّ المَنَّ منْ نفرٍ لئامٍ   أمَرُّ لَدَيَّ من طعْمِ المَنِيَّهْ

وإنَّ عطاءَ الرجالِ الخِباثِ ذو مرارةٍ شديدةٍ أكثرَ منْ مذاقِ مُرِّ الموتِ .

١٥ ـ يَقِلُّ عطاؤهمْ ، والمَنُّ جمٌّ   فلا كانوا ، ولا كانَ العَطِيَّهْ

فمَنْ يَرَ عطاءَهمْ قليلاً ، وهم يملكونَ المالَ الكثيرَ ، يَقُلْ : ليتَهُمْ لم يُخْلَقوا ، وليتَ العطاءَ ما وُجِدَ إذا كان صادراً عنهم .

١٦ ـ إذا ضَعَةٌ عَرَتْني في مكانٍ   وضَعْتُ الرحلَ في ظهرِ المطيَّهْ

وإنْ أحسسْتُ بأمرٍ ، ساءَني ، وأذَلَّني في مجلسٍ ، تركْتُهُ ، ووضعْتُ حاجاتي على ظهرِ راحلتي ، وسافَرْتُ عنه .

١٧ ـ وما دارُ المذلَّةِ لي بدارٍ   أبَتْ لي ذلكَ النفسُ الأبيَّهْ

وليست دارُ الهوانِ ، تناسبُني لأنَّ سَجيّتي ، تَكْرَهُ الذلَّ .

١٨ ـ بِلَعْنِ اللهِ أتركُها ، وأمضي بإذنِ اللهِ عنها المَشِيَّهْ

أنصرفُ عن دار الذلِّ لأنَّ اللهَ تعالى ، طردَهُ من رحمتِهِ ، وأهجُرها مستعيناً بإرادةِ اللهِ ومشيئتِهِ .

١٩ ـ سَقَتْ سُعْدَى نجومُ السَّعْدِ رِيًّا وإنْ كانتْ بها نفسٌ شَقِيَّهْ

ودَعَتْ نجومُ السَّعْدِ في السماءِ اللهَ تعالى أنْ يرويَ أرضَ سُعْدى بمطرٍ غزيرٍ ، ويُدخلَ السرورَ إلى نفسِها الحزينةِ .

٢٠ ـ مُخَدَّرَةٌ لها في كلِّ مَعْنًى على الشمسِ الفضيلةُ والمَزِيَّهْ

فهيَ ، وإنْ كانَتْ في خِدرِها بعيدةً عَن أعينِ الناسِ ، كالشمسِ في الليلِ ، تمتازُ عليها بالمكارِمِ والأمجادِ .

٢١ ـ ينادي وجهُها بالشمسِ : غيبي فَلَسْتِ بذاتِ مرآةٍ وَضِيَّهْ

يقولُ مُحَيّاها للشمسِ : غيبي ، فإنَّ أشِعَّتَكِ ، ليسَتْ مُنيرةً .

٢٢ ـ يُلِمُّ خيالُها في جُنْحِ ليلٍ فَيَفْغَمُني روائحُهُ الذكيَّهْ

ويزورُني خيالُها في ظُلْمةِ الليلِ ، فيملأُ روحي شذاهُ الطَّيِّبُ .

٢٣ ـ كأنْ فُتِقَتْ لَطائمُ ، أو أُديرَتْ على ذكرِ الوزيرِ البابليَّهْ

ومجيءُ ذكرِ الوزيرِ ، يُشْبِهُ أكياسَ المسكِ ، قد فُكَّتْ أحزمتُها ، أو مُزِّقَتْ ، وانتشرَتْ روائحُها ، أو وُزِّعَتْ أقداحُ الخمرِ المُنْتَجَةِ في بابلٍ .

٢٤ ـ إذا دارَتْ بذكراهُ الحُمَيّا فقد تَبَّتْ هناكَ التُّبَّتِيَّهْ

وإذا أمسكَ الحاضرونَ أقداحَهُمْ ، وشربوا خمرةَ ذكرِ أمجادِهِ ، فقد طاحَتْ بلادُ الشرقِ كلُّها ، وهلكَتْ ، ولم يبقَ لها ولأهلِها أثرٌ أو ذكرٌ .

٢٥ ـ كريمٌ ، حاتمٌ ، يفدي يديهِ إذا ما حرّكَتْهُ الأريحيَّهْ

فهو السخيُّ ، حاتمٌ الطائيُّ ، يقدِّمُ ما تملكُهُ يداهُ إذا هاجَ بنفسِهِ حبُّ العطاءِ .

٢٦ ـ قد انقرضَ البرامكُ ، غيرَ أنّا نرى فيهِ الخِصالَ البرمكيَّهْ

وقد هلَكَ البرامكةُ ، لكنَّ صِفاتِهِمُ المُثْلَى ما زالَتْ حيّةً فيه .

٢٧ ـ بعبدِ اللهِ والعدلِ استقامَتْ قناةُ المُلْكِ ، واعتدلَتْ سَوِيَّهْ

وقامَتْ أركانُ المُلكِ ، فكانَتْ مستقيمةً ، لم يُصِبْها ميلٌ عنِ الحقِّ بفضلِ إنصافِهِ

وأعمالِهِ السليمةِ منَ الزَّللِ .

٢٨ ـ تَذِلُّ لهُ الصعابُ ، فما لصعبٍ   إذا عَــرَضَ الــوزيــرُ لــه حَمِيَّــهْ

تَخْضَعُ لهُ الأمورُ الجِسامُ ، فلم تَرْضَ نفسُهُ الأبيّةُ أنْ تَحْيَى الصعابُ في دولتِهِ .

٢٩ ـ متــى آلــى عــزيــزُ القــومِ ألاّ   يَــذِلَّ لَــدَيــهِ يَحْنَــثْ فــي الأَلِيَّــهْ

متى أقسمَ رجلٌ ذو مَنزلةٍ رفيعةٍ في قومِهِ ألاّ يَخْضَعَ للملكِ عبد اللهِ ، فاعلمْ أنهُ سيعودُ عن قسمهِ بعد حينٍ .

٣٠ ـ بــديهَتُــهُ كَفَتْــهُ كــلَّ خَطْــبٍ   فمــا يحتــاجُ فيــه إلــى الــرَّوِيَّــهْ

سرعةُ حسِّهِ وإدراكِهِ ، تَرُدُّ عنهُ كلَّ أمرٍ جَلَلٍ ، فلا يحتاجُ إلى النَّظَرِ والتَّمَهُّلِ .

٣١ ـ وتَسْطــو عنــدَه صُفْــرٌ قصــارٌ   علــى السُّمْــرِ الطِّــوالِ السَّمْهَــرِيَّــهْ

ويَفوقُ بطشُ أقلامِهِ الصُّفْرِ القصيرةِ ، قوةَ الرماحِ الطويلةِ الصلبةِ المنسوبةِ إلى بائِعها سَمْهَرَ .

٣٢ ـ شواها السودُ ، إنْ صَرَّتْ صريراً   أصَــمَّ صليــلَ بيــضٍ مشــرفيَّــهْ

ورؤُوسُ أقلامِهِ سودٌ بلونِ المدادِ ، إنْ مَرَّ واحدٌ منها على الورقِ ، سُمِعَ لهُ صوتٌ ، أسكتَ صوتَ السيوفِ الشاميَّةِ .

٣٣ ـ ومــنْ آثــارِ ســؤدُدِهِ مبــانٍ   بَنــاهــا ، لا تقــاسُ بهــا بَنِيَّــهْ

وكانَ منْ آثارِ حكمهِ العظيمِ أمرُهُ بِتَشْييدِ عِماراتٍ، فكانتْ عاليةً، لا تساويها عِمارةٌ.

٣٤ ـ نَــوَى وجــهَ الإلــهِ بمــا بَنــاهُ   ومــا عمــلُ الفتــى إلاّ بِنِيَّــهْ

وكانَ قَصْدُهُ في تلك العماراتِ رضا اللهِ تعالى ، ولم يكنْ عَمَلُ العظيمِ إلاّ برغبةٍ ، يريدُ بها وجهَ اللهِ .

٣٥ ـ كــأنَّ المسجــدَ الأقصــى أتــانــا   وفيــه منــارةُ الإسكنــدريَّــهْ

كأنَّ المسجدَ الذي أمرَ ببنائِهِ نُسْخَةٌ للمسجدِ الأقصى في القدسِ ، وكأنَّ منارتَهُ ، هي منارةُ الإسكندريَّةِ .

٣٦ ـ فمــا رأتِ البــريّــةُ مثــلَ هــذا   ولا هــذي بــإجمــاعِ البَــرِيَّــهْ

واتَّفَقَ الناسُ كلُّهُمْ على أنهمْ لم يَرَوا مثيلاً لهذا الجامعِ ولا منارةً شبيهةً بِتلكَ المنارةِ .

٣٧ ـ فهــذا مــنْ مُشــابَهَــةٍ بَــرِيٌّ   وهــذي مــن مشــابَهَــةٍ بَــرِيَّــهْ

فهذا الجامعُ خالٍ من المماثَلةِ بغيرِهِ ، وهذه المنارةُ خاليةٌ منَ المماثَلةِ بغيرِها .

٣٨ ـ سليمـانيَّـةُ التـأليـفِ ، شتّـى غـرائِبُهـا ، وجملتُهـا بَهِيَّـهْ

فكانَتْ أقسامُها وتراكيبُها ، تشبهُ منارةَ سليمانَ بنِ داوودَ ، عليهِ السلامُ ، وكانَتْ ذاتَ زخارفَ بديعةٍ كثيرةٍ غريبةٍ ، فجمعَتِ الحسنَ منْ كلِّ أطرافِهِ .

٣٩ ـ تنَـوَّقَ فـي عِمـارتِهـا رجـالٌ مَصـاليـتٌ كجـنٍّ عَبْقَـريَّـهْ

وقد بَلَغَ بانو هذه المنارةِ في إجادةِ عملِهِمْ غايةَ الحذقِ والمهارةِ ، وقال الناسُ : إنهمْ كانوا المثَلَ الأعلى في الشجاعةِ والإقْدامِ والإبداعِ كجنٍّ عبقرٍ .

٤٠ ـ تفـرَّدَ صُنْعُهُـمْ بـالحِـذْقِ فيهـا فلـم أرَ صـانعـاً ، يفـري فَـريَّـهْ

وكانَتْ جَودةُ عملِهِمْ ودقَّةُ فَنِّهِمْ فريدَتَينِ ، لم أعثُرْ على مثيلٍ لهما إذْ أبدعَ الصانعُ في إنجازِهما .

٤١ ـ بَنَـى مخـروطَهـا مَلِـكٌ كـريـمٌ يـرى خـرطَ القَتـادِ مـع الـدَّنِيَّـهْ

أمرَ الملكُ العظيمُ عبدُ اللهِ بجعلِها طويلةً ذاتَ رأسٍ مخروطيٍّ لأنهُ يرى أنَّ انتزاعَ قشرِ الشجرِ الصلبِ ذي الشوكِ القاسي ، لا يَتِمُّ بالسهولةِ بل بالمشقَّةِ الكبيرةِ .

٤٢ ـ بَنـاهـا حَسْـبَ هِمَّتِـهِ بِنـاءً عَلِيًّـا ، هكـذا الهِمَـمُ العَلِيَّـهْ

عَمَّرَها ، بل عَمَّرَتْها عزيمتُهُ العظيمةُ ، فأتى بِناؤها عالياً ليُعْلِمَ الناسَ قدرَ العزيمةِ الشريفةِ .

٤٣ ـ تُناطحُ هامةَ الشِّعْرى ، وتَرْقَى مـراقِ فـوقَ مَطْلَعِهـا قَصِيَّـهْ

وقاربَ رأسُها مُنْتَهى مدارِ كوكبِ الشِّعْرَى ، وصَعِدَ فوقَ مطالعِ الكواكبِ البَعيدةِ .

٤٤ ـ تـريـدُ تجـاوزَ الأفـلاكِ حتـى كـأنَّ وراءهـنَّ لهـا ثنِيَّـهْ

وكانتْ ترومُ سبقَ مداراتِ الكواكبِ ، فتكونُ لها منعطفاتٍ حينَ تدورُ فوقَها .

٤٥ ـ فقد خَجِلَتْ منارُ الأرضِ منها وشُـمُّ الـراسيـاتِ بهـا حَيِيَّـهْ

وقدِ استَحْيَتْ مَناراتُ الأرضِ منها ، وصارَتْ بسببِها الجبالُ الثابتاتُ خَجْلَى .

٤٦ ـ وطَـأطَـأتِ الـروابـي جـانِبَيهـا فعـادَتْ كـلُّ رابيـةٍ رَكِيَّـهْ

خفضتِ الهضابُ جانبَيها ، فصارَتْ كلُّ هضبةٍ منها بئراً .

٤٧ ـ ونَطَّقَهـا ، وطَـوَّقَهـا نطـاقـاً وطـوقـاً مـنْ أسـاميـهِ السنيَّـهْ

وجعلَ المَلِكُ عبدُ اللهِ لهذهِ الأرضِ حزاماً وسوراً ، سمّاهُ بأحدِ أسمائِهِ الرفيعةِ .

٤٨ ـ وتشهيرُ العلا بالوسمِ فرضٌ وأنْ يُتْرَكْنَ إغفالاً خَطِيَّهْ
وإعلانُ الأمجادِ بالصفاتِ واجبٌ ، وتركُهُ سهواً خطيئةٌ .
٤٩ ـ وتَوَّجَها ، فصيَّرها مليكاً مَنارُ الخافقَينِ لها رَعِيَّهْ
وجعلَ البلادَ مملكةً ذاتَ تاجٍ ، فكانَ أهلُ الشرقِ والغربِ رعيَّةً لهُ .
٥٠ ـ بتاجٍ ، قَصَّرَتْ لما تراءى لها التيجانُ عنهُ الكِسْرَوِيَّهْ
ولما رأى الناسُ هذا التاجَ ، قارَنَوهُ بتيجانِ ملوكِ كسرى ، فوجدوا أنها أقلُّ قيمةً منه .
٥١ ـ صقيلِ المَتْنِ لَمَّاعِ النواحي يُضيءُ إضاءةَ الشمسِ المُضِيَّهْ
وقد صاغَ هذا التاجَ ماهرٌ ، ثم جَلاهُ ، حتى التَمَعَتْ أطرافُهُ ، وصارَ ذا نورٍ يُضيءُ ما حولَهُ كما تُضيءُ الشمسُ الطريقَ .
٥٢ ـ إذا أهْدَتْ إليهِ الشمسُ ضوءاً تضاعفَ منهُ لِلشمسِ الهَدِيَّهْ
وإذا قَدَّمَتِ الشمسُ إليهِ هديَّةً كانَتْ لها نوراً ، تزيدُ بهِ إرشادَ الناسِ إلى جهاتِ الطريقِ في الليالي المظلمةِ .
٥٣ ـ مَساعي ذي السعاداتِ المَساعي وأعمالُ الوزيرِ هي الرَّضِيَّهْ
مقاصدُ الملكِ صاحبِ السعاداتِ عبد اللهِ وأفعالُ وزيرِهِ كانَتْ لوجهِ اللهِ ورضاهُ .
٥٤ ـ لئنْ ذهبَ الذينَ سَعَوا بمجدٍ فإنكَ منهمْ نعمَ البَقِيَّهْ
ولئنْ مضى الذين قَصَدوا إلى العزِّ ، فأنتَ سليلُهُمْ ، ونعمَ بقيَّةُ الذُّرِّيَّةِ أنتَ .
٥٥ ـ فَضَحَّ البخلَ ، يا فَخْرَ المعالي بجودِكَ إنهُ خيرُ الضَّحِيَّهْ
فابْتَعِدْ عنِ البُخْلِ ، وشَهِّرْ بقُبْحِهِ يا فخرَ المعالي بعطائكَ فإنهُ أفضلُ مدارجِ العزِّ .
☆☆ ١٣ ـ وقالَ على بحرِ الوافرِ في الزهدِ : [مقامات الزمخشري : مقامة الطيب ص٦٣]
١ ـ محارمُ ، تُبْتَغى منها التَّقِيَّهْ فظاهِرْ بَينَ دينِكَ والحَمِيَّهْ
إنَّ في الحياةِ أموراً سيِّئةً ، تُلْزِمُ المرءَ أنْ يبتَعِدَ عنها ، فَتَبَيَّنْ أيُّها العاقلُ دينَكَ الحنيفَ وسُبُلَ حفظِهِ منَ الأخطاءِ .
٢ ـ هما درعانِ ، مَنْ يَلْبَسْهما لم يكُنْ للنابلِ المُصْمِي رمِيَّهْ

إنهما حصنانِ ، وثوبانِ منيعانِ (الدينُ وسبلُ حفظِه : الحلالُ والحرامُ) لا يفكرُ رامي السهامِ الحاذقُ منْ إصابتِهما بسوءٍ .

٣ ـ وليسَ يَقي ركوبَ الشَّرِّ إلاّ حِذارُ النارِ أو خوفُ الدَّنِيَّهْ

ولا ولنْ يصونَ منْ يخافُ النارَ والأعمالَ السيِّئةَ إلاّ الابتعادُ عنِ الشَّرِّ ومزاولةِ أوامرِهِ .

٤ ـ ولَمّا قَلَّ في الناسِ التَّوَقِّي تهافَتَ في محارِمِها البَرِيَّهْ

ولَمّا شاعَ الجهلُ في الناسِ ، وقلَّ ابتعادُهُمْ عنِ الشرورِ ، تساقطوا متتابِعينَ في مَهاوي الحرامِ .

❊ ❊ ❊

حرف الياء/ ١٠٢/ بيتانِ ومئةُ بيتٍ

☆☆ ١ ـ وقالَ على بحرِ الطويلِ في المدحِ :

١ ـ أيا واديَ الأيكِ الذي طابَ وادياً   متى لاحَ منكَ البرقُ طارَ فؤاديا

يا أيُّها الوادي ذا الشجرِ الكثيرِ ، لقد جَمُلْتَ ؛ ومتى بدا منكَ برقٌ ، قَفزَ قلبي في صدري مسروراً به .

٢ ـ أيا واديَ الأيكِ الذي طابَ ، ثم لم   يَطِبْ بعدُ وادٍ ، سُقيتَ الغواديا

ويا أيُّها الوادي ذا شجرِ السِّدْرِ العظيمِ ، لقد حَسُنْتَ ، فلم يَحْسُنْ بعدَكَ وادٍ ، أدعو اللهَ تعالى أنْ يَسقِيَكَ مطرَ الصباحِ الباكرِ .

٣ ـ أيا منزلاً للعامريَّةِ حاضراً   ويا منزلاً للعامريَّةِ باديا

ويا أيتُها الدارُ التي يَسكُنْها آلُ بني عامرٍ في المدينةِ ، والتي يسكُنُها العامريونَ في الفيافي .

٤ ـ إليكَ بعثْتُ العيسَ ، يحدو وراءَها   عويلي ، ويَكفيها عويلي حاديا

أرسلتُ إليكِ النوقَ ذواتِ اللونِ الأبيضِ الضاربِ إلى الصفرةِ ، يسوقُها صوتُ نحيبي مُجْزئاً عنْ حاديها .

٥ ـ وإنَّ لسَلْمى في فؤاديَ قادحاً   منَ الشوقِ ، لم تصلِدْ عليهِ زناديا

وإنَّ سَلْمى ، تملكُ في قلبي عوداً ، يُكِنُّ حنيني إليها ، فلا يُصْدِرُ آهاتي ، ولا يُلْهِبُ ما حولَهُ .

٦ ـ أظلُّ أناجي ذِكْرَها ، وبِذِكْرِها   إذا جنَّ ليلي أرفعُ الصوتَ شاديا

أنامُ ، وأصحو محدِّثاً قلبي عنها ، وإذا ما أظلمَ الليلُ أغنِّي ذاكراً حالي بحبِّها وشوقي إليها .

٧ ـ ولم أَنْسَها كالبدرِ بينَ أهلَّةٍ   منَ الخَفِراتِ البيضِ تمشي تَهاديا

وإنْ أنسَ لا أنسَهَا بدراً بينَ صُوَيحباتِها الخَجْلَى البيضِ ، تسيرُ مختالةً بجمالِها .

٨ ـ فَزَوَّدْتُ منها ناظرَ العينِ لمحةً   تَثْني على أحواضِ صَدّاءَ صاديا

ولما مالَتْ على عينِ الماءِ العذبِ لتشربَ منهُ ، أردْتُ أنْ يَحْمِلَ طرفي بِنظرةٍ إليها

زاداً ، يُخَفِّفُ منْ حرِّ شوقي إليها .

٩ ـ أيا واديَ الأيكِ ، الحمائمُ خَبَّرَتْ عنِ الحيِّ أنْ زمَّ الركائبَ غاديا

يا أيُّها الوادي واديَ الحمامِ ، إنَّ طيرَ الحمامِ نبَّأتْ أنَّ أهلَ الحيِّ شَدُّوا حبالَ أمتعتِهِمْ على الدوابِّ ، يريدونَ الرحيلَ في الصباحِ .

١٠ ـ فَخُذْ عِبرةً كاللؤلؤِ السَّرْدِ، رَصَّعَتْ بها رَوعةُ التزميلِ متنَ نِجاديا

فهاكَ قصيدةً مَثلاً ، تَلْتَمِعُ ألفاظُها كالدُّرِ المختارِ المسلوكِ في عقدٍ ، يزيدُ منْ حسنِ حاملِ سيفي .

١١ ـ كأنْ لم يكُنْ في تَلْعتَيكَ لعامرٍ إذا سمروا نادٍ ، فديتُكَ ناديا

ويقولُ ناظمُها مُقدِّماً روحَهُ فداءً : كأنْ لم يبقَ في هضبتَيكَ لبني عامرٍ مجلسُ سمرٍ إذا أرادوا أنْ يجتمعوا ليلاً للمسامرةِ .

١٢ ـ مَراجيحُ وزنِ الحِلْمِ أيسارُ شَتْوةٍ مُلَبّونَ بالنصرِ الصريحِ مُناديا

فهم ذوو عقولٍ رزينةٍ ، يُقَطِّعونَ لحمَ النوقِ ، ويُقَدِّمونَهُ إلى ضيفانِهِمْ في أيامِ الشتاءِ ، ويسرعونَ إلى إغاثةِ منْ يناديهمْ ناصرينَ إياهُ .

١٣ ـ أنافوا على أحياءِ بكرٍ تَشَمُّساً وزادوا عليها عِزَّةً وتأدِّيا

أشرفوا على قبائلِ بني بَكرٍ قُوَّةً وبأساً ، وفَضَلوا عليها مجداً وقضاءً للحقِّ .

١٤ ـ تواصَوا بحفظٍ للموالي منَ العِدا وقتلٍ بأسيافِ الموالي الأعاديا

تعاهدوا على صونِ الأصحابِ من الأعداءِ وقتلِ العدا بسيوفِهِمْ .

١٥ ـ إذا ركبوا لَفَّتْ حوافرُ خيلِهِمْ على شارقِ اليومِ البصيرِ دآديا

إذا ركبوا خيولَهم لأداءِ أمرٍ ، ضَمَّتْ حوافرُها الأرضَ واصلةً غدواتِ الأيامِ المنيرةِ بليالي القمرِ ، وهو مُحاقٌ .

١٦ ـ أناسٌ ، يصيبُ الخيرُ والشَّرُّ عندَهُمْ ويوماً هما في ما أرادوا تَماديا

وهم جماعةٌ ، يتناوبُ الخيرُ والشَّرُّ في أعمالِهِمْ يوماً ، ويتجاوزُ أحدُهما حَدَّهُ إذا رغبوا في ذلكَ يوماً .

١٧ ـ همُ العُرْوَةُ الوُثْقَى لحاملِ مَغْرَمٍ ولابْنِ فيافٍ ، يَطرقُ الحيَ حاديا

وهمُ المقبضُ المتينُ والمساعدُ الأمينُ لِرَدِّ الحقِّ لصاحبِهِ ، والملجأُ الكريمُ لنازلِ الحيِّ ليلاً بعدَ سيرِهِ الطويلِ في البوادي .

١٨ ـ إذا حاجةٌ حَلَّتْ بهمْ ، وَكَلوا بها أنــامــلَ سبطــاتٍ ، تُثَنِّــي الأيــاديــا

إذا نزلَتْ بأرضِهِمْ جماعةٌ ، تطلبُ منهم أداءَ حاجةٍ ، بذلوا لها ما يملكونَ بأيديهمُ التي تحملُ بأصابِعِها المبسوطةِ الأُعطياتِ مَرَّةً بعدَ أُخْرَى .

١٩ ـ أيــادٍ جــزيــلاتٌ بــوادٍ عــوائــدٌ عــوائــدُهــا العُظْمــى تُثَنّــي البــواديــا

لهم أفضالٌ عظيمةٌ ، يبدؤونَ بها سابقينَ غيرَهُمْ ، ومكارِمُها العُلْيا ، تُرَدِّدُ مَدْحَها الفيافي .

٢٠ ـ وما سلكَتْ طرقَ المعالي قبيلةٌ فتطلُــبَ إلاّ مــنْ أولئــكَ هــاديــا

وإذا ما سارَتْ قبيلةٌ ، تريدُ الوصولَ إلى الأمجادِ ، فلا تَجدُ غيرَ بني عامرٍ ، يرشدونَها إلى الطريقِ السليمِ .

٢١ ـ فأصبِحْ ـ لحاكَ اللهُ ـ يا نسلَ مُقْرِفٍ لنســلِ هِجــانٍ مــنْ أولئــك فــاديــا

فَقُمْ يا أيُّها الرجلُ صباحاً ـ قَبَّحَكَ اللهُ ـ يا ابنَ الهُجْنةِ يا ابْنَ الأبِ العربيِّ والأمِّ الروميَّةِ ، واسْعَ لتكونَ أباً لنسلٍ كريمٍ ، يُقَدِّمُ نفسَهُ فداءً لأهلِهِ .

☆☆ ٢ ـ وقالَ على بحرِ الرملِ في الوصف :

١ ـ بــردُ خــارِزمَ لَعمــري عَجَــبٌ هَــدَّ مِــنْ شِــدَّتِــهِ أوصــالِيــا

واللهِ إنَّ أمرَ بردِ خوارزمَ غَريبٌ ، فقد هَدَّمَتْ قسوتُهُ مجتمعَ عظامي .

٢ ـ لا نُــوافــي النــاسَ إلاّ رجــلاً داخــلاً حَمّــامَــهُ أو صــالِيــا

فلا نرى أحداً إلاّ قد أوقَدَ النارَ في حَمّامِهِ لِيُسَخِّنَ جسمَهُ بمائِهِ أو بالاقترابِ منه .

٣ ـ رحِــمَ اللهُ أمــراً ، مــاتَ ، وبــالــ ـفَحْــمِ مــنْ ميــراثِــهِ أوصــى لِيــا

وأطلبُ من اللهِ تعالى أنْ يرحمَ رجلاً ، أوصى لي قبلَ موتِهِ بالفحمِ مِنْ إرثِهِ .

☆☆ ٣ ـ وقالَ على بحرِ الوافرِ في المدحِ :

١ ـ أراكــبَ لامــحِ الأمــدِ القَصِــيِّ بعينَــــي أقمــرٍ صَخِــبِ العَشِــيِّ

يا منِ امتطى جملاً أبيضَ اللونِ ، يختلسُ النظرَ إلى الغايةِ البعيدةِ ، ويشتَدُّ صهيلُهُ حينَ يُحِسُّ بمغيبِ الشمسِ .

٢ ـ يغــاولُــهُ ، كــأنَّ الجِــنَّ لَــزَّتْ بِــدَفَّيــهِ جنــاحَــي مَضْــرَجِــيِّ

يحثُّهُ على الإسراعِ حثًّا ، يشبهُ إلصاقَ الجنِّ جَنْبَيهِ بجناحَي نسرٍ طويلَينِ .

٣ ـ أصيــلِ المُنْتَمَــى ، يُــدْلــي بِعَــمٍّ جــديلــيٍّ وخــالٍ شَــدْقَمِــيِّ

يُشيرُ هذا الجملُ بنسبِهِ الكريم إلى عمِّهِ الجديليِّ قويِّ الجسمِ وخالِهِ واسعِ الشِّدْقَين ، وهما مُلْكٌ للملِكِ النعمانِ بنِ المنذرِ .

٤ ـ مَروقٍ كالنَّدِيِّ ، يَدُ المُغالي حَدَتْهُ ، وهو نِضْوٌ كالنَّضِيِّ

وهو جملٌ سريعُ السيرِ بعيدُ الخَطْوِ بِفضلِ راكبِهِ الذي يجتهدُ في سوقِهِ ، وذو جسمٍ هزيلٍ ، يشبهُ السهمَ المجرَّدَ منْ نصلِهِ وريشِهِ .

٥ ـ إذا تحريكةُ الساقِ ، امْتَرَتْهُ تدفَّقَ مثلَ شُؤْبوبِ الحَبِيِّ

إذا لامَسَتْ ساقُ راكبِهِ جسمَهُ اندفَعَ اندفاعَ مطرِ السحابِ القريبِ منَ الأرضِ .

٦ ـ يباري الريحَ ، رَوحُ مَنِ امتطاهُ ومَزهقَةٌ لأرواحِ المطيِّ

يسابقُ الريحَ ، يُريحُ مَنْ يركبُهُ ، ويجعَلُ الإبلَ ، تُجْهِدُ أنفُسَها لِتَلْحَقَهُ ، فلا تُدْرِكُهُ .

٧ ـ يقولُ لهنَّ : هل منْ عبقريٍّ إذا مُلَّ السُّرَى يفري فَرِيِّي ؟

ويقولُ للجمالِ : هل تَرَينَ رجلاً سيِّداً كاملَ الصفاتِ ، إذا سَئِمَ الناسُ سيرَ الليلِ كلِّهِ ، يواظبُ عليهِ وحدَهُ ، ويأتي بأعمالٍ كأعمالي ، هي العَجَبُ العُجابُ ؟

٨ ـ أتى زينُ المطايا مَنكِبَيهِ واصبحَ ، وهو طوعُ الأصبحيِّ

امتطَى شرفُ المراكبِ ظهرَهُ ، فانقادَ لهُ ، وسارَ به سيرَ المطيَّةِ تحتَ سَوطِ ذي أصبحَ مَلِكِ اليمنِ .

٩ ـ يظلُّ نُوَيظِراً تَلْقاءَ مُلْقًى ظليلَ السَّوطِ منْ طَرَفٍ خَفِيِّ

يُداوِمُ النظرَ نحوَ فَيْءِ مَضرِبِ السَّوطِ منْ جانبٍ غيرِ مرئيٍّ .

١٠ ـ تَحَمَّلَها مُغَلْغَلَةً ، تُوافي بها فرعَ النِّصابِ الطالبيِّ

وقد كابَدَ في حَمْلِ تلكَ الرسالةِ لِيوصِلَها إلى مَنْ يجاريهِ ، ويَتِمُّ بهِ الأصلُ والنسبُ إلى أبي طالبٍ .

١١ ـ زكيَّ العِرْقِ ، ناطَتْهُ نفوسٌ زواكٍ بالبَتولِ وبالوصِيِّ

إلى صافي الأصلِ طاهِرِهِ ، تَعَلَّقَتْ به قلوبٌ طاهرةٌ ، حَمَلَتْ نفوساً ، شَرُفَتْ بفاطمةَ الزهراءِ وعليِّ بنِ أبي طالبٍ .

١٢ ـ أبو الحسنِ المُفَدَّى بالنواصي بكلِّ أشَمَّ أبلجَ هاشِمِيِّ

إنه أبو الحسنِ الذي يقدِّمُ أفضلُ الرجالِ ذوي النفوسِ الأبيَّةِ الكريمةِ والنسبِ الهاشميِّ أرواحَهُمْ فداءً لهُ .

١٣ ـ عُلَيُّ بِكْرُ ذي المَجْدَينِ : عيسى عَلِـيٌّ فـي سَـراةِ بنـي عَلِـيِّ

هو عُلَيٌّ ، الابْنُ الأولُ لأبيهِ عيسى ، رفيعُ القَدْرِ سليل عليِّ بنِ أبي طالبٍ .

١٤ ـ علا الأشرافَ كلَّهمُ ، وما منْ سـلاحٍ فيـه فضـلُ المشـرفـيِّ

سَمَا على الأسيادِ كلِّهمْ بِنَسَبِهِ ومهارتهِ باستعمالِ الأسلحةِ المصنوعةِ في الشامِ .

١٥ ـ تقـولُ إذا بـدا : مَلَـكٌ شـريـفٌ كسـاهُ اللهُ هيكـلَ آدمـيِّ

إذا لاحَ يقولُ كلُّ امرئٍ : يا صاحبي ؛ إنهُ منَ الملائكةِ الكرامِ ، ألْبَسَهُ اللهُ ثوبَ الإنسانِ .

١٦ ـ وقـلْ : يـا أمنـعَ الثَّقَلَيـنِ جـاراً جـزاكَ اللهُ عـن شيـخٍ أتـيِّ

فتوجَّهْ إليهِ قائلاً : يا أفضلَ الإنسِ والجنِّ جاراً ، كافأَكَ اللهُ تعالى بإحسانِكَ إلى الزمخشريِّ الشيخِ الغريبِ .

١٧ ـ بعيـدِ المستـلاذِ كليـلِ ظُفْـرٍ عـنِ الأنصـارِ فـي بلـدٍ نَطِـيِّ

الذي تَحَصَّنَ بكَ على بُعدِ المسافةِ عنكَ ، وهو ضعيفُ الجسمِ ، وناءٍ عَنْ أهلِهِ في مكانٍ بعيدٍ .

١٨ ـ غَضِبْتَ لهُ ، وذلكَ نبضُ عرقٍ كـريـمٍ ، غضبـةَ النَّمِـرِ الأبـيِّ

فَثُرْتَ شفقةً عليهِ ثورةَ النَّمِرِ الذي يكْرهُ الظلمَ ، وتلكَ ظاهرةُ أصلِكَ الكريمِ .

١٩ ـ زَأَرْتَ وراءَ ديـنِ العـدلِ زأراً وقـد نَبَحَـتْ كـلابُ المغـربـيِّ

وأطلَقْتَ صيحةَ أسدٍ دفاعاً عنْ مذهبِكَ السَّوِيِّ رادّاً على ادِّعاءِ رجالِ المَغْرِبيِّ .

٢٠ ـ فقـد أشْجَيْتَهُـنَّ بكـلِّ عظـمٍ تَنَشَّـبَ فـي اللَّهـاةِ وفـي المَـرِيِّ

فألقَمْتَهُمْ عظماً اعْتَرَضَ اللَّهاةَ منهمْ والمَرِيَّ ، فكانَ سبباً في قهرِهِمْ وإذْلالِهِمْ .

٢١ ـ وسُمْتَ الوُرْقَ تحتَ الزرقِ صُغْراً ووقعـاً لـلأكُـفِّ علـى القُفِـيِّ

وأذَقْتَ كلَّ رجلٍ ذي لونٍ رماديٍّ بنصالِ سيفِكَ ورمحِكَ الأزرقِ الهوانَ ، وجعلْتَهُ راضياً بصَفْعَةِ كفِّك وراءَ عنقِهِ .

٢٢ ـ وفـاقـرةً مـنَ الجَلَـداتِ ، حَلَّـتْ علـى ظهـرِ الحُلُـولِـيِّ الشَّقِـيِّ

وغلبْتَ جماعةً منْ كبارِ الدهاةِ الصُّلْبَةِ حينَ حاوَرْتَها ، فوجَدْتَها ، تعتقِدُ بمذهبِ المتصوفةِ الجاهلةِ المسكينةِ التي تومِنُ بحلُولِ اللهِ في كلِّ شيءٍ .

٢٣ ـ ومَـنْ يغضَـبْ لـديـنِ اللهِ يجمـعْ مَـراضِيَـهُ إلـى الأجـرِ السَّنـيِّ

ومَنْ يَثُرْ لدينِ اللهِ يكسَبْ رضوانَ اللهِ ومكافأتَهُ الرفيعةَ العظيمةَ .

٢٤ ـ وليسَ الجَبْرُ والتشبيهُ إلا بقيّةَ إرثِ دينٍ جاهليّ

وما كانَ مَذْهبُ الجبريَّةِ والتشبيهِ إلاّ بَقِيَّةَ دينٍ في العصرِ الجاهليِّ ضعيفٍ ، بادَ ، وفَنِيَ .

٢٥ ـ فقُمْ بالعدلِ والتوحيدِ فيهِ تُقِمْ يا ابْنَ النَّبِيِّ هُدَى النَّبِيِّ

فاستَقِمْ لأمورِ دينِكَ وأقِمْها جَيِّداً ، وأْمُرْ رعيَّتَكَ بتوحيدِ اللهِ تعالى والأعمالِ الصالحةِ ، واحكُمْ بينَهُمْ بالعدلِ ، تكُنْ يا سليلَ الرسولِ المثلَ الأعلى لهدايتِهِ .

☆☆ ٤ ـ وقالَ على بحرِ الرملِ في المدحِ :

١ ـ أنصِفوني منْ غزالِ يا فثيِّ جَورُهُ مُشْتَهَرٌ غيرُ خَفِيِّ

يا أيُّها الملأُ احكموا بالعدلِ ، وخَلِّصوني منْ سلطةِ وظلمِ فَتىً تركيٍّ ، يصلُ نسبُهُ إلى يا فثَ بْنِ نوحٍ ، عليهِ السلامُ ، فإنَّ ظلمَهُ ، عرفَهُ الناسُ كلُّهُمْ ، لم يَخْفَ على أحدٍ منهمْ .

٢ ـ سامني قتلُ المراديِّ عليًّا والكِلابيِّ الحسينَ بنَ عليِّ

وقد قَهَرَني أمرانِ : الأولُ قتلُ عبدِ الرحمنِ بنِ ملجمٍ المراديِّ عليَّ بنَ أبي طالبٍ ، والثاني قتلُ شَمْرِ بنِ ذي الجَوشَنِ الكلابيِّ الحسينَ بنَ عليٍّ .

٣ ـ قَدُّهُ كالسَّمْهَرِيِّ المُتَثَنِّي تحتَ طَرْفٍ كسنانِ السَّمْهَرِيِّ

وهو ذو قامةٍ طويلةٍ لَيِّنةٍ ، تُشبهُ الرمحَ المنسوبَ إلى سَمْهَرٍ وزوجِهِ رُدَينَةَ الماهرَينِ بتثقيفِ الرماحِ ، وذو نَظَرٍ حادٍّ مثلِ رأسِ ذلكَ الرمحِ .

٤ ـ مثلُ صَفْحَيْ مَشْرَفيٍّ عارِضاهُ ولَهُ لحظٌ كَحَدِّ المَشْرَفيِّ

وخدّاهُ ، يُشْبِهانِ وجهَي السيفِ الشاميِّ ، ونظرتُهُ الحادةُ كنصلِ السيفِ الشاميِّ .

٥ ـ مالَهُ يمطُلُني ؟ وهو غنيٌّ وأشَدُّ الظلمِ في مَطْلِ الغَنِيِّ

ما الذي يجعلُهُ ، يُسَوِّفُ وعودَهُ على الرَغْمِ منْ غِنى حالِه ومالِهِ ؟ وإنَّ أقسى أنواعِ الظلمِ تسويفُ وعدِ الغنيِّ .

٦ ـ لستُ أقضي عجباً منْ أنْ جفاني كلُّ تركيٍّ كذا غيرُ وفيِّ

وإنْ قُلْتُ : إنَّ جماعةَ التركِ ، لا تُؤَدِّي الصداقةَ حقَّها ؛ إنْ لم يَوَدَّني هذا التركيُّ ، فلا أطلِقُ حكماً غريباً .

٧ ـ أيُّها التشبيبُ إيهاً ، إنَّ قصدي   لامتداحِ المُرْتَضَى صِنْوِ الرَّضِيِّ
ويا أيُّها النسيبُ كُفَّ عن وصفِ النساءِ ، فإن غايتي مدحُ المُرْتَضَى أخي الرَّضِيِّ .
٨ ـ إنَّ أَسْرَى الشعرِ ما كانَ ثناءً   صاغَهُ طبعٌ سَرِيٌّ في سَرِيِّ
وإنَّ أسرعَ الشعرِ سيراً وانتشاراً ما كانَ مدحاً ، نظمَتْهُ سجيّةٌ كريمةٌ في وصفِ امرئٍ شريفٍ .
٩ ـ فاضلٌ ، يحيا به الفضلُ ، وفيه   كرمُ الفضلِ بْنِ يحيى البرمكيِّ
وهو الرجلُ الكريمُ الفاضلُ ، يعيشُ به العزُّ لأنَّ سخاءَ الفضلِ بنِ يحيى البرمكيِّ كامنٌ فيه .
١٠ ـ زانَ بالعلمِ وبالحكمةِ نفساً   طانَها اللهُ على الطبعِ الزَّكِيِّ
حَسُنَ بالعلمِ والحكمةِ نفساً ، جَبَلَها اللهُ على السجيَّةِ الطاهرةِ .
١١ ـ يتركُ السيفَ الحديديَّ جُذاذاً   عندهُ تجريدُ سيفٍ قصبيِّ
وإنْ أرادَ أنْ يجعلَ السيفَ الحديديَّ أجزاءً مُبَعْثَرَةً فإنهُ يُسْرِعُ إلى تشذيبِ قصبةٍ ، تكونُ قلماً .
١٢ ـ قلمٌ يُزْهى على الأقلامِ تيهاً   بالذي أُعطِيَ منْ فضلٍ سنيِّ
ذا كِبْرٍ ؛ يستخِفُّ بالأقلامِ الأُخرى ، ويفاخِرُ بموهبتِهِ الرفيعةِ التي منحَهُ اللهُ إياها .
١٣ ـ كعصا موسى بنِ عُمرانَ التي قد   أُعطِيَتْ فضلاً على كلِّ العِصِيِّ
وكانَ قلمُهُ ، يشبهُ عصا الرسولِ موسى بنِ عُمرانَ ، عليهِ الصلاةُ والسلامُ ، التي وهبَها اللهُ تعالى صفاتٍ ، لم تَكُنْ للعِصِيِّ كلِّها أبداً .
١٤ ـ أيُّها الحاضرُ أمِّلْ ، وتأمَّلْ   إنهُ بحرُ النَّدَى بدرُ النَّدِيِّ
فيا أيها الوافدُ الحاضرُ أُرْجُ ، واطلُبْ ما تريدُ ، وانتظِرْ هباتِهِ ، فإنهُ بحرُ الكرمِ في جودِهِ ، قمرُ المجلِسِ في مكانتِهِ .
١٥ ـ حازمٌ ، يستقبلُ الأمرَ كفاحاً   غيرُ موصوفٍ برأيٍ دَبَرِيِّ
فهو الرجلُ الشديدُ ذو البأسِ ، يُدَبِّرُ أمورَهُ بعدَ تفكيرٍ وعناءٍ طويلٍ ، لم يسمعْ منهُ أحدٌ قولاً بعدَ فواتِ الحاجةِ إليهِ .
١٦ ـ قولُهُ والفعلُ في الصدقِ سواءٌ   إنَّ ذا خُلْقُ نبيٍّ أو وصيِّ
إنه يقولُ ما يَفْعَلُ ، ويفعلُ ما يقولُ صادقاً ، وهذا هو خُلُقِ الرسولِ أو الوصيِّ المؤتَمَنِ .

١٧ ـ تَفِلُ ذكرُ أعاديهِ ، ولكنْ   ذكرُهُ أطيبُ منْ مسكٍ ذكيِّ

أمّا أعداؤهُ ، فإنَّ سمعتَهُمْ كريهةٌ ، وأمّا صيتُهُ فهو أحلى وأروحُ منْ شذا المسكِ الطَّيِّبِ .

١٨ ـ غَرَسَتْني كَفُّهُ ، ثم سَقَتْني   بينَ وسمِيِّ اصطناعٍ وَوَلِيِّ

وقد قامَ بتربيتي وتأديبي ، فكُنْتُ كالغرسةِ التي يزرعُها الفلاحُ ، ويسقيها بمطرِ الربيعِ والفصولِ التاليةِ .

١٩ ـ ويَدٌ غَرّاءُ ، لم يُسبَقْ إليها   ابتداها سابقاً كلُّ سَخِيِّ

وهو ذو يدٍ كريمةٍ ، لم يسبقْهُ أحدٌ في ابتداءِ أمرٍ ، فيه السخاءُ .

٢٠ ـ كلما رُمْتُ لها رمياً بشكرٍ   كَسَّرَتْ كلَّ سهامي وقِسِيِّي

كلما فكَّرْتُ بنظمِ قصيدةٍ في مدحِهِ ، أراها ، تأتي بإبداعٍ جديدٍ ، يفوقُ ما قُلْتُهُ فيه منْ قبلُ .

٢١ ـ أنا واللهِ فصيحٌ غيرَ أنّي   عندَ شكري إليكَ موسومٌ بِعِيِّ

لقد خَلقني اللهُ تعالى فصيحَ اللسانِ بليغَ الأدبِ ، لكنني حينَ أريدُ أنْ أمدحَكَ أراني مُصاباً بالعجزِ والتقصيرِ .

٢٢ ـ أغيَظُ الناسِ مَنِ استطاعَ عقاباً   لِعَدُوٍّ أو ثواباً لِوَلِيِّ

أغضَبُ الناسِ وأكرمُهُمْ مَنْ يَتَمَكَّنُ مِنْ معاقبةِ عدوِّهِ ومكافأةِ صديقِهِ .

٢٣ ـ أهنأُ العيشِ ما سُمِّيَ فيهِ   صاحبُ العيشِ بِحُرٍّ أريَحِيِّ

أسْعَدُ العيشِ والحياةِ رؤيةُ الشريفِ حُرّاً كريماً سعيداً بنشرِ مكارمِهِ .

٢٤ ـ والذي عاشَ، يلهو، ليس عندي   عيشُهُ ذلكَ بالعيشِ الهنيِّ

والذي يحيا لاهياً ، لا أرى حياتَهُ ، تَمُتُّ بصلةٍ إلى الهناءةِ والسعادةِ .

٢٥ ـ إنَّ عيشَ الحرِّ في الفقرِ نعيمٌ   وعذابٌ في الغِنَى عيشُ الدَّنِيِّ

وإنّ حياةَ الكريمِ الشريفِ فقيراً ، هي سعادَةٌ ، لا تساويها سعادةٌ ، وحياةُ الدَّنِيِّ الذليلِ غَنِيًّا ، هي عذابٌ ، لا نهايةَ لهُ .

☆☆ ٥ ـ وقالَ على بحرِ الوافرِ في المدحِ :

١ ـ إلى فخرِ الفريقَينِ السَّرِيِّ   عَطَفْنا اليومَ أعناقَ المَطِيِّ

لقد ثَنَيْنا أرسانَ دوابِّنا رغبةً في الذهابِ إلى سراجِ الدينِ فخرِ الفريقَينِ الشريفِ الكريمِ .

٢ ـ إلـى البحـرِ الـذي إنْ عـارضَتْـهُ   بحـارُ الأرضِ كـانَـتْ كـالـرَّكِـيِّ
إلى السخيِّ الذي إنْ أرادَتْ بحارُ الكرةِ الأرضيةِ أنْ تباريَهُ جوداً كانَتْ أمامَهُ مجموعةَ آبارٍ .

٣ ـ إمـامٌ يلجـأُ الإسـلامُ منـهُ   وعِتْـرَتِـهِ إلـى رُكْـنٍ قـويِّ
فهو قُدْوَةُ الرجالِ الصالحينَ ، يلوذُ بهِ ، ويعوذُ أهلُ الإسلامِ وعشيرتُهُ إليهِ إلى كَنَفِهِ المتينِ .

٤ ـ بتقـواهُ سهـامُ الحـقِّ تَقْـوَى   ويَبْقَـى الـزُّورُ مكسـورَ القِسِـيِّ
بإيمانِهِ واستقامتِهِ تشتَدُّ نبالُ الحقِّ والعدلِ ، وتُصيبُ أهدافَها ، ويبقَى الكذبُ محطَّمةً أقواسُهُ ، فلا تقومُ له قائمةٌ .

٥ ـ ومـا أبْصَـرْتُ مـنْ شـيءٍ جميـلٍ   كَمِثْـلِ العلـمِ فـي الـرجـلِ التَّقِـيِّ
ولم أرَ في الدنيا شيئاً جميلاً ، يشبهُ العالِمَ الحافظَ أمورَ الدين الخائفَ منْ عصيانِ ربِّهِ .

٦ ـ أصـابَ الـرتبـةَ العليـا بـديـنٍ   حنيفِـيٍّ وحِلْـمٍ أحْنَفِـيِّ
فقد نالَ فخرُ الفريقَينِ المكانةَ الرفيعةَ باتِّباعِهِ أحكامَ الدينِ المستقيمِ وخُلُقِهِ العَدْلِ السَّوِيِّ العظيمِ .

٧ ـ ففـي كَنَفَيـهِ عهـدُ اللهِ يُـرْعَـى   وفـي كفَّيـهِ ميـراثُ النَّبِـيِّ
وفي أطرافِ دولتِهِ تقامُ أحكامُ دينِ اللهِ تعالى ، وتصانُ ، وفي كفَّيهِ جودُ الرسولِ ـ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ـ الذي ورِثَهُ عنه .

٨ ـ قـد اسْتَعْلَـتْ بـه قلـمُ الفَتَـاوَى   علـى الأقـلامِ بـالخَطَـرِ السَّنِـيِّ
وهو ذو رأيٍ سديدٍ حكيمٍ ، ارْتَقَتْ أقوالُهُ في الفُتْيَا على أقوالِ الفقهاءِ ، وحَظِيَتْ بالمكانةِ العاليةِ .

٩ ـ كمـا استَعْلَـتْ بـإذنِ اللهِ فضـلاً   عصـا مـوسـى علـى كـلِّ العِصِـيِّ
كما سمَت عصا موسى ـ عليهِ السلامُ ـ بأمر اللهِ ، ونالَتْ مكانةً أعلى منْ جميعِ العِصِيِّ .

١٠ ـ صليلُ شَواهُ في القرطاسِ يَخْفَى   لـديـهِ صليـلُ نَصْـلِ المَشْـرفـيِّ
وإنَّ صوتَ سِنِّ قَلمِهِ على الورقِ ، وهو يَخُطُّ أحكامَهُ ، يَزولُ فيه صوتُ رؤوسِ

السيوفِ الشاميّةِ في المعارِكِ .

١١ ـ وتُمْضي سِنُّهُ ما ليسَ يمضي على حالِ سِنانُ السَّمْهَرِيِّ

وتقطَعُ سِنُّ قلَمِهِ ، وتَغْلِبُ ما لم تَستَطِعْ سنانُ رماحِ سَمْهَرٍ وزوجِهِ رُدينةَ أنْ تقطعَ ، وتَغْلِبَ .

١٢ ـ يُجَلِّلُ مذهبَ النعمانِ زَيناً وجيدُ الخَودِ زينٌ للحُلِيِّ

يُعظِّمُ مذهبَ الإمامِ الأعظمِ النعمانِ بنِ ثابتٍ أبي حنيفةَ الحَنَفِيِّ مدحُهُ كما يزيدُ عنقُ المرأةِ الشابةِ الحَسَنُ الحُلِيَّ ثمناً .

١٣ ـ سراجَ الدينِ نَوِّرْ باحترامٍ جَنابي أَكْتَسِبْ بكَ حُسْنَ زِيِّ

فيا سراجَ الدينِ إني ، أطلبُ منكَ أنْ ترفعَ قدري بإظهارِ توقيرِكَ إيايَ لَعَلّي ، أنالُ بهِ جمالَ هيئةٍ .

١٤ ـ فإنكَ للأفاضلِ خيرُ جارٍ وأيُّ مناضلٍ عنهُمْ كَمِيِّ

وإنكَ للأكارم أفضَلُ مُغيثٍ وأكملُ مدافعٍ عنهمْ بكاملِ سلاحِهِ .

١٥ ـ وما زالَتْ لكَ الحسناتُ فيهمْ كصوبِ الغيثِ عَوداً عنْ بَدِيِّ

وقد كنتَ ، وما زلْتَ ، تُقَدِّمُ لهمْ أعطياتِكَ التي تشبهُ المطرَ المتتابعَ المنقذَ الأرضَ منَ القحطِ والناسَ منَ الهلاكِ .

١٦ ـ وكمْ أزْلَلْتَ منْ نعماءَ قبلي إلى الشيخِ الإمامِ أبي عليِّ

وكمْ منْ مرّةٍ أسدَيْتَ إلى الشيخِ الإمامِ أبي عليٍّ أُعطيةً قبلي .

١٧ ـ مضى ، وحياتُهُ كالروضِ ، يُسْقَى بوسميِّ امتنانِكَ والوَلِيِّ

ماتَ هانئاً بعيشِهِ الذي كانَ يشبهُ الأرضَ الخِصْبَةَ التي سُقِيَتْ ، ورُوِيَتْ بمطرِ الربيعِ المُتَتالي والذي لم تَنْقَطِعْ عنهُ أياديكَ .

١٨ ـ وصُنْعُكَ ذاكَ ، رَوَّحَ منكَ شرقاً وغرباً ، ليسَ بالأمرِ الخَفِيِّ

هذا هو فعلُكَ ، انتشَرَتْ أخبارُهُ في شرقِ الأرضِ وغربِها ، ولم تكُنْ مطويَّةً ، لا أحدَ يعلَمُها .

١٩ ـ تَحَدَّثَتِ الرفاقُ بهِ ، وسارَتْ بهِ الركبانُ في الأُفُقِ القَصِيِّ

وكانَتْ مدارَ أحاديثِ الصحابِ في حَلِّهِمْ وتَرْحالِهِمْ إلى أبعدِ الأمكنةِ .

٢٠ ـ رفاتُ عظامِهِ لكَ في دعاءٍ وشكرٍ بالغَداءِ وبالعَشِيِّ

وما زالَتْ عظامُهُ الباليةُ ، تُرَدِّدُ اعترافَها بجميلِكَ ودعاءها لكَ صباحاً ومساءً .

٢١ ـ ولا تَـريَـنَّ تقليـلَ ازديـادي جفـاءً ، إنَّنـي عيـنُ الـوفـيِّ

فلا تقولَنَّ يا فخر الفريقَينِ ، إنْ وجدْتَ يوماً أني ، قَلَّلْتُ قدرَ مدحِكَ ، ولم أزِدْهُ : إني ابتَعَدْتُ عنكَ قالياً ، فإني ما زلْتُ أحملُ بينَ جنبَيَّ خالصَ الحبِّ والوُدِّ .

٢٢ ـ وكـائـنٍ مـنْ عـدوٍّ كـلَّ يـومٍ تَـراهُ ، ولا تـرى منـهُ وَجْـهَ الـوَلِـيِّ

وكم منْ وجهِ عَدُوٍّ تراهُ كلَّ يومٍ ، ولا تَحْظَى برؤيةِ وجهِ صديقِكَ وحبيبِكَ .

٢٣ ـ وإنَّ جفـاءَ مثلِـكَ لـي شقـاءٌ ولسـتُ بـلابـسٍ ثـوبَ الشَّقِـيِّ

وإنَّ تركَ رجلٍ شبيهِكَ عذابٌ لي ، ولم أكنْ يوماً مرتدياً ثوبَ عذابِ الجفاءِ .

☆☆ ٦ ـ وقالَ على بحرِ الكاملِ في المدحِ :

١ ـ شهدَ العُلا ، وكفى بهنَّ شواهدُ إنَّ العُـلا لِصَفِيِّهِـنَّ عُلَـيِّ

لقد اعترفَتِ الأمجادُ ، وحسبُنا اعترافُها بأنَّ مختارَها عُلَيُّ بنُ عيسى .

٢ ـ لـو لـم يكـن خَتَـمَ النبـوةَ جَـدُّهُ كـان ابـنُ ذي المجـدَيـنِ خيـرَ نبـيِّ

ولو لم يكُنْ جَدُّهُ محمدٌ ﷺ آخرَ الأنبياءِ ، لكانَ عُلَيُّ بنُ عيسى سليلُ ذي المجدَينِ مجدِ النَّسبِ ومجدِ النُّبُوَّةِ أفضلَ نبيٍّ .

☆☆ ٧ ـ وقالَ على بحرِ الخفيفِ في الفخرِ ، [معجم الأدباء ح٧/ ٩٣]

١ ـ كَثُـرَ الشَّـكُّ والخـلافُ ، فكـلٌّ يَـدَّعـي الفـوزَ بـالصِّـراطِ السَّـوِيِّ

لقد كَثُرَ عَدَدُ الذين لم يوقنوا ، ولم يَتَّفِقوا في أمورِ الدينِ ، وكلُّهُمْ ، يقولُ : إني أنا الوحيدُ الفائزُ بالسيرِ على الصِّراطِ المستقيمِ .

٢ ـ فـاعتصـامـي بـ : لا إلـهَ سـواهُ ثـم حبّـي لأحمـدَ وعَلِـيِّ

فَتَمَسُّكي بأمرِ وقولِ : لا إلهَ غيرُ اللهِ تعالى وخالصِ وُدّي للنبيِّ محمَّدٍ ﷺ وابنِ عمِّهِ (خَتَنِهِ : زوجِ ابنتِهِ) ـ عَلِيِّ بنِ أبي طالبٍ ـ رضيَ اللهُ عنه .

٣ ـ فازَ كلبٌ بحبِّ أصحابِ كهفٍ كيـفَ أشقـى بحـبِّ آلِ النبـيِّ ؟

وقد ظَفِرَ كلبٌ بحبِّ أصحابِ أهلِ الكهفِ ، فكيفَ أجدُ الشِّدَّةَ والعذابَ بحبِّ النبيِّ ، عليه الصلاةُ والسلامُ ، وأهلِهِ الطاهرينَ ؟ ـ

❊ ❊ ❊

الفهارس

فهرس القصائد والمقطوعات

حرف الهمزة/ ١٠٠/ بيتٍ

رقم القصيدة أو المقطوعة	أول البيت	آخره	البحر	الغرض	عدد الأبيات	رقم الصفحات
١	لهفي	فُجاءَهْ	الكامل	التأسّي	٥	٥
٢	مَعاليكَ	سماءُ	الطويل	المدح	١٠	٥ ـ ٦
٣	يُمْنُ	نَعماؤها	الكامل	المدح	٣	٦
٤	سيّارةٌ	رُغاؤها	الكامل	الفخر	٣	٦ ـ ٧
٥	أأبا الوفاءِ	الأبناءِ	الكامل	التعزية	١٧	٧ ـ ٨
٦	هيهاتَ	الجوزاءِ	الكامل	الهجاء	١٢	٩ ـ ١٠
٧	قولُ	الصَّمَّاءِ	الكامل	المدح	٥	١٠
٨	أستغيثُ	هؤلاءِ	الرمل	المدح	٣٨	١٠ ـ ١٤
٩	اضطرَّ	بؤبوِ	السريع	الفخر	٤	١٤ ـ ١٥
١٠	رُزْءُ الفتى	أرزائِهِ	الكامل	الحكمة	٣	١٥

حرف الباء/ ٤٢٠/ بيتٍ

رقم القصيدة أو المقطوعة	أول البيت	آخره	البحر	الغرض	عدد الأبيات	رقم الصفحات
١	تصفَّحْتُ	والأبا	الطويل	الزهد	٥	١٦
٢	اتَّقِ	عجبا	الرمل	النصيحة	٤	١٦ ـ ١٧
٣	شتاءٌ	شِيبا	الوافر	الوصف	٢	١٧
٤	تقولُ	نسيبُ	الطويل	الشكوى	١٩	١٧ ـ ١٩
٥	زَجَرْتُ	الذَّنوبُ	الوافر	المدح	١٨	١٩ ـ ٢٠
٦	ليس	ذهبُ	البسيط	الحكمة	٤	٢٠ ـ ٢١
٧	كُتُبُ	الغالبُ	الكامل	المدح	١٧	٢١ ـ ٢٣
٨	يا حَبَّذا	وهضبُها	الكامل	المدح	٦٣	٢٣ ـ ٢٨
٩	سلا	وشِعابُها	الطويل	المدح	٤٧	٢٩ ـ ٣٤
١٠	مُطوَّقتي	يُصْبي	الطويل	الحنين	٤٤	٣٤ ـ ٣٨

رقم القصيدة أو المقطوعة	أول البيت	آخره	البحر	الغرض	عدد الأبيات	رقم الصفحات
١١	أنا الجارُ	أطنابي	الطويل	تعظيم البيت الحرام	٩	٣٨ ـ ٤٠
١٢	وهمٍّ	جَنْبِ	الطويل	الشكوى	٥	٤٠
١٣	فراقُكَ	بِخُطوب	الطويل	الشوق	٣	٤٠
١٤	أبيتَ	نَجيبِ	الطويل	المدح	٧	٤١
١٥	فخرَ الفريقَينِ	مُوجَبِ	الكامل	المدح	٨	٤١
١٦	أتاني	الكروبِ	الوافر	الشكوى	٢	٤٢
١٧	أيا ابنَ	بالغرائبِ	الطويل	المدح	١١	٤٢ ـ ٤٣
١٨	تَمَنَّوا	والمناقبِ	الطويل	الفخر	١١	٤٣ ـ ٤٥
١٩	خليفةُ	والحسبِ	البسيط	المدح	١٠	٤٥ ـ ٤٦
٢٠	إذا التصَقَتْ	دابي	الطويل	الفخر	٤	٤٦
٢١	مَسَرَّةُ	الصابي	الطويل	الوصف	٢	٤٦
٢٢	أشْبَهْتَ	الذَّنَبِ	البسيط	الهجاء	١	٤٦ ـ ٤٧
٢٣	عَرَضَتْ	صواحبِها	المديد	الزهد	٢٣	٤٧ ـ ٤٨
٢٤	تألَّقَ	قرابِهِ	الطويل	المدح	٣٥	٤٩ ـ ٥٢
٢٥	الدهرُ	أنيابِهِ	السريع	الرثاء	١٩	٥٢ ـ ٥٤
٢٦	جبلٌ	المُنْتَخَبْ	الرمل	الرثاء	٢٦	٥٤ ـ ٥٦
٢٧	مربعُ	المُنْتَجَبْ	الرمل	المدح	٤	٥٦ ـ ٥٧
٢٨	ثُـرْ	والغَبَبْ	الرمل	النصح	٤	٥٧
٢٩	أيا ثقَةَ	رَجَبْ	الطويل	المدح	٧	٥٧ ـ ٥٨
٣٠	كساني	مُكْتَسِبْ	الطويل	المدح	٦	٥٨

حرف التاء/ ١٧٨/ بيتٍ

١	قَرِّبْ	متى؟	الكامل	الفخر	٤٠	٥٩ ـ ٦٣
٢	كانَتْ	شَتَّى	البسيط	الرثاء	٢	٦٣
٣	نَكَتُّ	ناكِتا	الطويل	الفخر	٣	٦٣ ـ ٦٤
٤	ألا رُبَّ	أذاتَهُ	الطويل	الحكمة	٣	٦٤
٥	عليكِ	الزكاةِ	المتقارب	المدح	٣٣	٦٤ ـ ٦٨
٦	سَقَتْ	أومضَتِ	الرثاء	البسيط	٢٧	٦٨ ـ ٧٠

٥٨٨

حرف الدال/ ٥٨٩/ بيتٍ

حرف الذال/ ٥/ أبياتٍ

حرف الراء/ ٩٠٨/ بيتٍ

رقم القصيدة أو المقطوعة	أول البيت	آخره	البحر	الغرض	عدد الأبيات	رقم الصفحات
١٠	باتَتْ	أفكارا	الكامل	التأمُّل	٣	٢٢٠
١١	تجارةُ	للآخرهْ	السريع	الرثاء	٢٥	٢٢٠ ـ ٢٢٣
١٢	ألا ما أقَلَّ	أكثرهْ	المتقارب	الشكوى	٢	٢٢٣
١٣	قولا	زاهرهْ	السريع	النصح	٢	٢٢٣
١٤	وتَرْكُ	البَصيرهْ	الرجز	النصح	١	٢٢٣ ـ ٢٢٤
١٥	قامتْ	باترُ	الكامل	الحنين	٥٤	٢٢٤ ـ ٢٢٩
١٦	لا بدَّ	كَدِرُ	المنسرح	الحكمة	٢	٢٢٩ ـ ٢٣٠
١٧	وإذا سفيهٌ	معشرُ	الكامل	الحكمة	٢	٢٣٠
١٨	أفخرَ	والفِطْرُ	الطويل	المدح	١٤	٢٣٠ ـ ٢٣٢
١٩	أبرودُ	معافرُ	الكامل	المدح	١١	٢٣٢ ـ ٢٣٣
٢٠	إنْ زالَ	كبيرُ	الكامل	الرثاء	١٥	٢٣٣ ـ ٢٣٤
٢١	فتاةٌ	واحورارُ	الوافر	الغزل	٢	٢٣٤
٢٢	أتاني	أُوارُ	الوافر	الشكوى	٣	٢٣٤ ـ ٢٣٥
٢٣	حَيِّ الديارَ	دِيارُ	الكامل	الرثاء	٣٦	٢٣٥ ـ ٢٣٨
٢٤	أرى	التباشيرُ	البسيط	المدح	٣	٢٣٨ ـ ٢٣٩
٢٥	لِحُبِّ	يَتَغَيَّرُ	الطويل	المدح	٣٧	٢٣٩ ـ ٢٤٣
٢٦	سُعْدى	ديارُها	الكامل	المدح	٣٤	٢٤٣ ـ ٢٤٦
٢٧	أيُّ غرامٍ	يديرُهُ	الرجز	المدح	٣٦	٢٤٧ ـ ٢٥٠
٢٨	إلى اللهِ	حـرِّ	المتقارب	المدح	٢٥	٢٥٠ ـ ٢٥٣
٢٩	أيا بحرَ علمٍ	جَزْرِ	الطويل	الرثاء	٢	٢٥٣
٣٠	ولي نفسٌ	الجمرِ	الطويل	الحنين	١٠	٢٥٣ ـ ٢٥٤
٣١	يا ربةَ	وتَبَخْتَري	الكامل	المدح	٤١	٢٥٤ ـ ٢٥٨
٣٢	ألا يا أراعيلَ	والفخرِ	الطويل	المدح	١٢	٢٥٨ ـ ٢٦٠
٣٣	جوارُ	دارِ	الطويل	المدح	٥	٢٦٠
٣٤	يُزَيِّنُ	الذَّكَرِ	البسيط	المدح	٣	٢٦٠ ـ ٢٦١
٣٥	عراقيةٌ	السيرِ	الطويل	الفخر	٤	٢٦١
٣٦	قَرُبوا	بِشَرارِ	الكامل	المدح	٥	٢٦١ ـ ٢٦٢
٣٧	ومَروعةٍ	جاري	الكامل	الزهد	٢	٢٦٢

رقم القصيدة أو المقطوعة	أول البيت	آخره	البحر	الغرض	عدد الأبيات	رقم الصفحات
٣٨	يا مُحْدِثاً	بالعارِ	السريع	العتاب	٢	٢٦٢
٣٩	ألا للهِ	صِغارِ	الوافر	الغزل	١٦	٢٦٢ ـ ٢٦٤
٤٠	وإذا رأيتَ	الدينارِ	الكامل	النصح	٢	٢٦٤
٤١	وطاب	النِّجارِ	الوافر	المدح	٢٦	٢٦٤ ـ ٢٦٧
٤٢	مَن عذيري	المستنيرِ	الخفيف	المدح	٢٦	٢٦٧ ـ ٢٦٩
٤٣	وجَدَّ	المَهاري	الوافر	الحنين	٥	٢٦٩ ـ ٢٧٠
٤٤	ما وصفُ	المُتَمَهِّرِ	الكامل	الغزل	١٥	٢٧٠ ـ ٢٧١
٤٥	ذاكَ الحبيبُ	آثارِهِ	الكامل	المدح	٢٩	٢٧١ ـ ٢٧٤
٤٦	أيا عارضاً	دَرِّهِ	الطويل	المدح	٨٠	٢٧٤ ـ ٢٨٣
٤٧	ما جمرةٌ	فخارِها	الكامل	المدح	٦	٢٨٣ ـ ٢٨٤
٤٨	أَثْنِ	الشَّبَرْ	الرجز	النصح	٥	٢٨٤
٤٩	ألا صَلّى	قَنْبَرْ	الوافر	المدح	٢	٢٨٤
٥٠	لم يَتَعَلَّقْ	البشرْ	الرجز	الغزل	١٨	٢٨٤ ـ ٢٨٦
٥١	إذا كنتَ	والبصرْ	الطويل	النصح	٦	٢٨٦ ـ ٢٨٧
٥٢	ألا قُلْ	البقرْ	الطويل	المدح	٥٢	٢٨٧ ـ ٢٩٢
٥٣	تَرامَى	مُدَّكَرْ	الطويل	المدح	٣٢	٢٩٢ ـ ٢٩٥

حرف السين/ ١٦٨/ بيتٍ

رقم القصيدة أو المقطوعة	أول البيت	آخره	البحر	الغرض	عدد الأبيات	رقم الصفحات
١	نفاسٌ	نِفاسا	الطويل	الشكوى	٢	٢٩٦
٢	أيا بنينَ	والكِياسَهْ	البسيط	الفخر	٩	٢٩٦ ـ ٢٩٧
٣	شجاني	المجلسُ	المتقارب	الوداع	١١	٢٩٧ ـ ٢٩٨
٤	أيا عرصاتِ	الكوانسُ	الطويل	الفخر	٤٠	٢٩٨ ـ ٣٠٢
٥	لعليٍّ	نفسِ	الكامل	المدح	٣	٣٠٢ ـ ٣٠٣
٦	الإنسُ	الإنسِ	السريع	التصوف	٤	٣٠٣
٧	بالسعدِ	راسي	الكامل	المدح	٤	٣٠٣ ـ ٣٠٤
٨	قولا	القاسي	البسيط	المدح	٢٢	٣٠٤ ـ ٣٠٦
٩	مساعي	مِقياسِ	الطويل	المدح	٧	٣٠٦ ـ ٣٠٧
١٠	رشأٌ	بِكِناسِ	الكامل	المدح	٣١	٣٠٧ ـ ٣١٠

حرف الشين/ ٤٧/ بيتاً

حرف الصاد/ ٦٢/ بيتاً

حرف الضاد/ ٥٥/ بيتاً

حرف الطاء/ ٢٢/ بيتاً

حرف العين/ ٢٧٩/ بيتٍ

حرف الغين/ ٨/ أبياتٍ

حرف الفاء/ ٢٩٥/ بيتٍ

رقم القصيدة أو المقطوعة	أول البيت	آخره	البحر	الغرض	عدد الأبيات	رقم الصفحات
١٢	هل لي	هَدَفْ	الرجز	المدح	٣٥	٣٩٧ ـ ٤٠٠
١٣	أزكى	يُوصَفْ	الكامل	الرثاء	٤	٤٠٠ ـ ٤٠١
١٤	كذا رأينا	الخَلَفْ	المنسرح	الحكمة	١	٤٠١

حرف القاف/ ٣٨٠/ بيتٍ

١	سلامٌ	بَرقا	الطويل	المدح	٤٦	٤٠٢ ـ ٤٠٧
٢	تَغَنَّتْ	مُشَوَّقَهْ	الطويل	المدح	٣٠	٤٠٧ ـ ٤١٠
٣	عُبَيْدَ اللهِ	الحقيقَهْ	الوافر	المدح	٦	٤١٠ ـ ٤١١
٤	ما في سماءِ	آفاقَها	الكامل	المدح	١١	٤١١ ـ ٤١٢
٥	كذلك	الخلائقُ	الطويل	الرثاء	٢٤	٤١٢ ـ ٤١٥
٦	أمِنْ ذاتِ	مُشَوَّقُ	الطويل	المدح والحنين	٣٦	٤١٥ ـ ٤١٩
٧	أتَخْضَرُّ	تُحَرِّقُ	الطويل	الرثاء	٢٨	٤١٩ ـ ٤٢٢
٨	الآنَ	إشراقُ	الكامل	المدح	٤١	٤٢٢ ـ ٤٢٦
٩	فِراقُ	مُراقُ	المُتقارب	الرثاء	١٧	٤٢٦ ـ ٤٢٨
١٠	أرَقْتَ	يُراقُ	الطويل	الحنين	٢	٤٢٨
١١	زمانُ	يُذاقُ	الوافر	الشكوى	٢	٤٢٨
١٢	حَرَمَ اللهِ	الآماقُ	الخفيف	الحنين	٨	٤٢٨ ـ ٤٢٩
١٣	قالوا	مُحَقِّقِ	الكامل	الوصف	٢	٤٢٩ ـ ٤٣٠
١٤	لاذَتْ	المُتَرَقْرِقِ	الكامل	المدح	٣٧	٤٣٠ ـ ٤٣٣
١٥	فَدَيتُ	الخَلْقِ	الطويل	المدح	٣	٤٣٣ ـ ٤٣٤
١٦	مالي	الصِّدِّيقِ	الكامل	الرثاء	٢	٤٣٤
١٧	قضاءُ	مخلوقِ	البسيط	الرثاء	٢٨	٤٣٤ ـ ٤٣٧
١٨	سهري	عِناقِ	الكامل	حب العلم	٥	٤٣٧
١٩	كَرِّرْ	ساقي	البسيط	الحنين	٢١	٤٣٧ ـ ٤٣٩
٢٠	يا لهفَ	المذاقْ	السريع	المدح	٣١	٤٣٩ ـ ٤٤٢

رقم القصيدة أو المقطوعة	أول البيت	آخره	البحر	الغرض	عدد الأبيات	رقم الصفحات

حرف الكاف/ ٢٣٣/ بيتٍ

١	يا جبلَ	والأراكَ	الرجز	الحنين	٢	٤٤٣
٢	هواكَ	مسلوكَهْ	البسيط	النصح	٤	٤٤٣
٣	الملكُ للهِ	الفلكُ	المنسرح	الرثاء	٢٠	٤٤٣ ـ ٤٤٥
٤	مُؤَيَّدَ	الملكِ	البسيط	المدح	٦	٤٤٥ ـ ٤٤٦
٥	جاريةٌ	الهلكِ	السريع	المدح	٢٢	٤٤٦ ـ ٤٤٨
٦	شكوتُ	المُبكي	الطويل	الشكوى	٢	٤٤٨
٧	ويومَ	وبواكي	الطويل	الحنين	٦	٤٤٩
٨	أدارَ	الأوارِكِ	الطويل	المدح	٤١	٤٤٩ ـ ٤٥٣
٩	يرفُلُ	محوكِ	الخفيف	المدح	١٧	٤٥٣ ـ ٤٥٥
١٠	مكةُ	حولَيكِ	الرجز	الحنين	٢	٤٥٥
١١	تعالوا	نَحْكِها	الطويل	المدح	٣١	٤٥٥ ـ ٤٥٩
١٢	قالَتْ	جِمالَكْ	الكامل	المدح	٤٧	٤٥٩ ـ ٤٦٣
١٣	شمسَ	أيامُكْ	الكامل	المدح	٣	٤٦٣
١٤	ليتَ	دَلوكْ	السريع	المدح	٣٠	٤٦٣ ـ ٤٦٦

حرف اللام/ ٤٣٠/ بيتٍ

١	تركوا	الأُولَى	الكامل	المدح	٧	٤٦٧
٢	بضربٍ	للعلا	المُتقارب	الفخر	٢	٤٦٧ ـ ٤٦٨
٣	جَـرَّ	أذيالَهُ	السريع	المدح	٦	٤٦٨
٤	تعاطى	الجِمالَهْ	الوافر	المدح	٥	٤٦٨ ـ ٤٦٩
٥	شَمَّرَتْ	شِملَهْ	الخفيف	الفخر	١٩	٤٦٩ ـ ٤٧١
٦	تَمَتَّعْ	أقلَّهْ	الطويل	التهنئة	٥	٤٧١
٧	أضاءَ	موصولُ	البسيط	المدح	٣٦	٤٧١ ـ ٤٧٥
٨	أزمعوا	وحَلُّوا	الخفيف	المدح	٣٩	٤٧٥ ـ ٤٧٩
٩	ألا إنَّ	سبيلُ	الطويل	النصح	٢	٤٧٩

رقم القصيدة أو المقطوعة	أول البيت	آخره	البحر	الغرض	عدد الأبيات	رقم الصفحات
١٠	محلُّكَ	وجلالُ	الطويل	المدح	١٢	٤٧٩ _ ٤٨٠
١١	أقولُ	يُقالُ	الطويل	الغزل	٣	٤٨٠
١٢	رَضِيَّ	جاهلُ	الطويل	المدح	٥	٤٨٠ _ ٤٨١
١٣	هل يشتفي	ولياليِ	الكامل	المدح	٣٧	٤٨١ _ ٤٨٥
١٤	متى تُبَلِّغُني	أحوالي	البسيط	المدح	٢١	٤٨٥ _ ٤٨٧
١٥	الدهرُ	بإقبالِ	البسيط	الرثاء	٢١	٤٨٧ _ ٤٨٩
١٦	على تاجِ	المعالي	الوافر	الرثاء	٦	٤٨٩ _ ٤٩٠
١٧	أهلًا	وإقبالِ	المنسرح	المدح	١٠	٤٩٠ _ ٤٩١
١٨	حَيِّيا	الأطلالِ	الخفيف	المدح	١١	٤٩١ _ ٤٩٢
١٩	طلعَتْ	الأذيالِ	الكامل	المدح	٢٧	٤٩٢ _ ٤٩٤
٢٠	بَلَوتُ	وقالِ	الوافر	الزهد	٣	٤٩٤ _ ٤٩٥
٢١	يا مَنْ يَرَى	الأليلِ	الكامل	التوبة	١١	٤٩٥
٢٢	يا عاذلي	شغلي	المنسرح	المدح	٤٥	٤٩٦ _ ٥٠٠
٢٣	أيا راكبَ	مُشْبِلِ	الطويل	الحنين	١٠	٥٠٠ _ ٥٠١
٢٤	يا أبا الفضلِ	وفضلي	الخفيف	المدح	٢	٥٠١
٢٥	خليليَّ	جاهِلِ	الطويل	الشكوى	٢٩	٥٠١ _ ٥٠٤
٢٦	أرى	المراجِلِ	الطويل	الشكوى	٢	٥٠٤
٢٧	إنْ قيلَ	القائِلِ	الكامل	الفخر	٢	٥٠٤
٢٨	فديتُكَ	الهازِلِ	المتقارب	المدح	٥	٥٠٤ _ ٥٠٥
٢٩	إليكَ	بِصِيالِهِ	الطويل	الشكوى	٩	٥٠٥ _ ٥٠٦
٣٠	أكْفَى	وحلالِهِ	الكامل	الاسترحام	٧	٥٠٦ _ ٥٠٧
٣١	قالَتْ	لا تُقالْ	السريع	المدح	١٧	٥٠٧ _ ٥٠٨
٣٢	قلْ لِمَنْ	يطولْ	الرمل	تفسير آية	١٤	٥٠٨ _ ٥٠٩

حرف الميم/ ٢٩٩/ بيتٍ

١	أنت أميرُ	عَلَما	المنسرح	المدح	٥١	٥١٠ _ ٥١٤

رقم القصيدة أو المقطوعة	أول البيت	آخره	البحر	الغرض	عدد الأبيات	رقم الصفحات
٢	رزيةٌ	أتكلما	الطويل	الرثاء	٦	٥١٥
٣	لقد سرني	فيكما	الطويل	التهنئة	٢	٥١٥
٤	ألا حَيِّ	السلامَهْ	الوافر	المدح	٢٩	٥١٥ _ ٥١٨
٥	أيامُ	ملتزَمُ	البسيط	المدح	٢٨	٥١٨ _ ٥٢١
٦	يا سادتي	وكنتمُ	الكامل	الصداقة	٧	٥٢١ _ ٥٢٢
٧	إذا سألوا	أسلمُ	الطويل	كتمان مذهبه	٩	٥٢٢ _ ٥٢٣
٨	يا ربِّ	تعلمُ	الكامل	التوبة	٢	٥٢٣
٩	العلمُ	يتغمغمُ	الكامل	العلم	٢	٥٢٣
١٠	أشمالُ	تسليمُ	الكامل	الغزل	٤	٥٢٤
١١	طوبى	قَدَمُهْ	البسيط	الزهد	٥	٥٢٤
١٢	أيا حبذا	خيامُها	الطويل	المدح	٤٢	٥٢٥ _ ٥٢٩
١٣	يا حبذا	وألثُمها	المنسرح	المدح	٥	٥٢٩
١٤	ما أنسَ	بالكتمِ	البسيط	المجون	١٣	٥٢٩ _ ٥٣٠
١٥	يا سائلي	كَرَمِ	البسيط	المدح	٤	٥٣٠ _ ٥٣١
١٦	خُلِقَ	هِمَمي	الكامل	الفخر	٤	٥٣١
١٧	يقولونَ	الحمائمِ	الطويل	الرثاء	٢	٥٣١
١٨	هَنّاكَ	العامِ	الكامل	التهنئة	٣	٥٣١ _ ٥٣٢
١٩	على أيكَتَي	جِمامِهِ	الطويل	المدح	٣٦	٥٣٢ _ ٥٣٥
٢٠	افخرْ	نِظامِهِ	الكامل	التهنئة	١٤	٥٣٥ _ ٥٣٧
٢١	أفديكَ	وإكرامِهِ	المنسرح	المدح	٣	٥٣٧
٢٢	لا يصرمُ	وظَلَمْ	البسيط	المدح	١٠	٥٣٧ _ ٥٣٨
٢٣	وإذا تعاضدتْ الهممْ		الكامل	الحكمة	٢	٥٣٨
٢٤	قضى اللهُ	ظَلَمْ	المتقارب	الزهد	٨	٥٣٨ _ ٥٣٩
٢٥	هوايَ	ظباؤُهمْ	الطويل	الغزل	٨	٥٣٩ _ ٥٤٠

رقم القصيدة أو المقطوعة	أول البيت	آخره	البحر	الغرض	عدد الأبيات	رقم الصفحات

حرف النون/ ١٨٩/ بيتٍ

رقم القصيدة أو المقطوعة	أول البيت	آخره	البحر	الغرض	عدد الأبيات	رقم الصفحات
١	اطلبْ	وكُنَى	المنسرح	الزهد	٤	٥٤١
٢	كم قلتُ	هَمَدانا	الكامل	المدح	٤	٥٤١
٣	اليوم خارزمُ	شانا	البسيط	الرثاء	٢	٥٤٢
٤	ألا أبلِغا	حنينَها	الطويل	المدح	١٣	٥٤٢ ـ ٥٤٣
٥	حَدِّثْ	مرتَهَنُ	المنسرح	المدح	٢٨	٥٤٣ ـ ٥٤٦
٦	فؤادٌ	ظمآنُ	الطويل	المدح	٩	٥٤٦ ـ ٥٤٧
٧	أربعةٌ	وإيمانُ	السريع	المدح	٣	٥٤٧
٨	إذ لم يَحْنُ	نحنو	الوافر	الفخر	٢	٥٤٧ ـ ٥٤٨
٩	أفي دولةٍ	يكونُ	المتقارب	الهجاء	٢	٥٤٨
١٠	هذي القوافي	عَدَنِ	البسيط	المدح	٣	٥٤٨
١١	وإذا كسوْتَ	بالحَسَنِ	الكامل	الحكمة	٢	٥٤٨
١٢	أشكو	تظلمُني	المنسرح	الحنين	٩	٥٤٨ ـ ٥٤٩
١٣	أتبَزُّ	عِينِ	الكامل	المدح	٣١	٥٤٩ ـ ٥٥٢
١٤	جنابُ	والحَزْنِ	الطويل	المدح	٣	٥٥٢ ـ ٥٥٣
١٥	لا بدَّ	الطيرانِ	الكامل	الدعوة إلى العمل	٧	٥٥٣ ـ ٥٥٤
١٦	أهنِّيكَ	بالتهاني	المتقارب	المدح	١٩	٥٥٤ ـ ٥٥٦
١٧	دعاني	مُعاني	المضارع	ذم الزمان	٤	٥٥٦
١٨	ألا لاتقيسول البيانِ		المتقارب	الفخر	٢	٥٥٦
١٩	أتنصبُ	وسناني	الطويل	التهديد	٢	٥٥٦ ـ ٥٥٧
٢٠	قد نادتِ	خُراسانِ	البسيط	المدح	٧	٥٥٧
٢١	الرأسُ	الثاني	البسيط	المدح	٣	٥٥٧ ـ ٥٥٨
٢٢	إليكَ	تنهاني	الطويل	الزهد	٢	٥٥٨
٢٣	وقائلةٍ	سِمْطَينِ	الطويل	الرثاء	٢	٥٥٨
٢٤	يا خيرَ خالَينِ حالَينِ		البسيط	الرثاء	٢	٥٥٨ ـ ٥٥٩
٢٥	انهضْ	شيحانِهِ	السريع	الوافر	٤	٥٥٩

حرف الهاء/ ١٥٥/ بيتٍ

حرف الياء/ ١٠٢/ بيتٍ

فهرس المراجع

١ ـ أزهار الرياض في أخبار عياض المقري ـ أحمد بن محمد ـ لجنة التأليف والترجمة ١٣٦١هـ ـ ١٩٤٢م

٢ ـ أساس البلاغة ـ محمود بن عمر جار الله الزمخشري ـ دار صادر بيروت ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م

٣ ـ إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين ـ عبد الباقي بن عبد المجيد دياب اليماني ـ مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ط١/ ١٩٨٦م

٤ ـ أعجب العجب في شرح لامية العرب ـ محمود بن عمر جار الله الزمخشري ـ تحقيق محمد إبراهيم حور ـ دمشق . مكتبة سعد الدين ط١/ ١٩٨٧م

٥ ـ إنباه الرواة على أنباه النحاة ـ علي بن يوسف القفطي ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار الفكر العربي ـ بيروت . مؤسسة الكتب الثقافية . ط١/ ١٩٨٦م

٦ ـ الأنساب ـ عبد الكريم بن محمد السمعاني ـ تحقيق عبد الرحمن بن يحيى اليمني بيروت ط٢/ ١٩٨٠م

٧ ـ البخاري في الأدب المفرد ـ تخريج وتعليق محمد ناصر الدين الألباني ـ دار الصديق ـ جبيل ـ السعودية ط٢/ ٢٠٠٠م

٨ ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ـ عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ـ تحقيق علي محمد عمر ـ القاهرة ـ مكتبة الخانجي ـ ط١/ ٢٠٠٥م

٩ ـ البيان والتبيين ـ عمرو بن بحر الجاحظ ـ القاهرة ط٢/ ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م

١٠ ـ تاج التراجم ـ قاسم بن قطلوبغا السودوني ـ تحقيق محمد خير رمضان يوسف ـ دمشق دار القلم ـ ط١/ ١٩٨٦م

١١ ـ جمهرة الأمثال ـ أبو هلال العسكري ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش بيروت ـ دار الجيل ـ ط٢/ ١٩٨٨م

١٢ ـ الجواهر المضية في طبقات الحنفية ـ عبد القادر ابن أبي الوفاء القرشي ـ تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ـ القاهرة ط٢/ ١٩٩٣م

١٣ ـ ديوان أبي تمام ـ تقديم وشرح محيي الدين صبحي بيروت ـ دار صادر ـ ط١/ ١٩٩٧

١٤ ـ ديوان أبي نواس ـ شرحه وضبطه د : عمر فاروق الطباع ـ دار الأرقم بن الأرقم ـ بيروت ـ ط١/ ١٩٩٨م

١٥ ـ ديوان الحطيئة ـ تحقيق نعمان محمد أمين طه ـ مكتبة الخانجي القاهرة ـ ط١/ ١٩٨٧م

١٦ ـ ديوان الزمخشري محمود بن عمر جار الله ـ تحقيق د : عبد الستار ضيف ـ ط١/ ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م

١٧ ـ ديوان امرئ القيس ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعارف ـ مصر ١٩٥٨م

١٨ ـ ديوان النابغة الذبياني ـ صنع ابن السكيت ـ تحقيق د : شكري فيصل ـ دار الفكر ١٩٦٨م

١٩ ـ رؤوس المسائل (المسائل الخلافية بين الحنفية والشافعية) ـ محمود بن عمر جار الله الزمخشري ـ دراسة وتحقيق عبد الله نذير أحمد ـ دار البشائر الإسلامية ـ بيروت ـ ط١/ ١٩٨٧م

٢٠ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ـ عبد الحي بن أحمد الحنبلي الدمشقي ابن العماد ـ تحقيق محمود الأرناؤوط ـ إشراف عبد القادر الأرناؤوط ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط١/ ١٩٩١م

٢١ ـ شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ـ صنعة الإمام أبي العباس أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني ـ ثعلب ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٤٤م

٢٢ ـ شرح مقامات الزمخشري ـ طبعت هذه النسخة على نسخة خطية قديمة وقوبلت على نسخة طبع أوربة ـ مكتبة الثقافة العربية ـ

٢٣ ـ شرح مقامات الزمخشري ـ تحقيق يوسف بقاعي دار الكتاب اللبناني بيروت ـ ط١/ ١٩٨١م

٢٤ ـ الفائق في غريب الحديث ـ محمد بن عمر جار الله الزمخشري ـ تحقيق علي محمد بجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار الفكر ط٣/ ١٩٧٩
٢٥ ـ الفوائد البهية في تراجم الحنفية ـ محمد عبد الحميد اللكنوي الهندي ـ اعتنى به أحمد الزعبي ـ دار الأرقم بن الأرقم بيروت ١٩٩٨م
٢٦ ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ـ محمود ابن جار الله الزمخشري ـ تحقيق وتعليق ودراسة الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض ـ شارك في تحقيقه فتحي عبد الرحمن أحمد حجازي ـ مكتبة العبيكان ـ الرياض ـ ط١/ ١٩٩٨م
٢٧ ـ كنوز الأجداد ـ محمد كرد علي ـ مطبوعات المجمع العلمي العربي ـ مطبعة الترقي دمشق ١٩٥٠م
٢٨ ـ لسان الميزان الإمام الحافظ ـ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ـ اعتنى به الشيخ عبد الفتاح أبو لبدة ، واهتم بطباعته ونشره ابنه سلمان عبد الفتاح أبو لبدة دار البشائر الإسلامية بيروت ـ ط١/ ٢٠٠٢م
٢٩ ـ مجلة المجمع العلمي العراقي المجلد ١٥/ ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م
٣٠ ـ مجلة المجمع العلمي العراقي المجلد ٢٣/ ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م
٣١ ـ مجمع الأمثال أحمد بن محمد الميداني ـ حققه محمد محيي الدين عبد الحميد ـ دار الفكر ط٣/ ١٩٧٢م
٣٢ ـ المستقصى في أمثال العرب ـ محمود بن عمر جار الله الزمخشري ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط٢/ ١٩٨٧م
٣٣ ـ مسند الإمام أحمد ـ عالم الكتب ـ بيروت ط١/ ١٩٩٨م
٣٤ ـ المصنف عبد الله بن أبي شيبة ـ تحقيق كمال يوسف الحوت ـ مكتبة الرشيد ـ الرياض ط١/ ١٤١١هـ
٣٥ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ـ ابن الجوزي ـ دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا ـ راجعه ، وصححه نعيم زرزور ـ دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٢م

